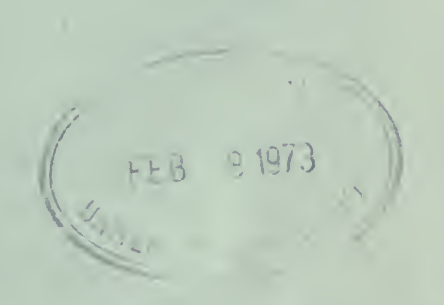





FEB 9 1973

# فهرست كتاب
# تاريخ الدولة العلية العثمانية

﴿ تمت ﴾



خليفة المسلمين وسلطان العثمانيين محمد رشاد خان الخامس

( أنظر صحيفة ٤١٢ )



احمد مدحت باشا

[illegible]

(أنظر صحيفة ٤٠٩)

(٣ / ٦ [illegible])



نيازي بك

(أنظر صحيفة ٤١٠)



أنور بك

( أنظر صحيفة ٤١٠)



# تاريخ الدولة العلية العثمانية

تأليف



الاستاذ محمد فريد بك المحامى

رئيس الحزب الوطنى

وجمعية السلام العام بوادى النيل

﴿ الطبعة الثالثة — على نفقة مطبعة التقدم بمصر ﴾



١٣٣٠ هـ مطبعة التقدم بشارع محمد على بمصر ١٩١٢ م

# كلمة للناشر

---

حققت الحكومة المصرية أملا كبيرا من آمال الأمة اذ قررت جعل تعليم العلوم باللغة العربية

وقد كان من أثر ذلك الصنيع ان اشتدّت حاجة المتعلمين الى كتابٍ عربيّ في تاريخ الدولة العلية منذ قامت الى اليوم

ولما كان هذا الكتاب الذى وضعهُ حضرة المؤرّخ المحقق الاستاذ محمد فريد بك أوفى كتاب عربي في بابه على ندرة الكتب المؤلفة في هذا الموضوع استأذنت حضرة المؤلف أن أطبع هذا الكتاب طبعة ثالثة فأذن لى بذلك

وأني أقدّم هذه الطبعة الى الامة المصرية الكريمة راجيا أن أكون قد أحسنت بذلك صنعا وأديت واجبا و بالله التوفيق

احمد نجيب

مصر في ١٥ ذى القعدة سنة ١٣٣٠ هـ



## خطبة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى عنده الدين الاسلام والصلاة والسلام على من أرسل لجميع الانام وعلى آله وصحبه الكرام ﴿ وبعد ﴾ فالعالم أجيال متعاقبة يخلف اللاحق منها السابق ويرثه معارفه صحيحها وفاسدها وأخلاقه حسنها وقبيحها وأعماله تامها وناقصها ويضيف الى ذلك معلوماته الخصوصية وتجاربه الذاتية فيكوّن بذلك مدنيته العصرية فاذا قام الخلف الشاب بالواجب عليه لعصره واتخذ له من تجارب السلف الشيخ مصباحا استنارت له سبل السعى وانفسح أمامه الامل فيرقى فى درجات المدنية بمقدار ما صرفه من العناء فى العمل وما أحرزه من معارف السالفين لذلك وجب أن تكون الحوادث الماضية وأعمال الاقدمين فى العصور الخالية قدوة للمتاخرين فى سياستهم وعونا لهم على أعمالهم وأنى لهم الاقتداء اذا كانوا لا يعلمون بأخبار آبائهم الاوّلين

يسد هذه الحاجة درس التاريخ العامّ والخاص (فالاوّل) يوقفنا على أخبار كل أمة فى جميع أطوارها كاسباب ظهورها والروابط ومقدارها بين أفرادها والوسائل التى اتخذتها لنموّها وارتقائها وحدود محكوميها وحكامها ووصف وقائعها فى غزواتها وتحديد تخومها فى كل أزمانها وامتداد أملاكها ونوع سياستها فى استعمارها ومقدار نفوذها عند مفضولاتها واحترامها فى أعين رصيفاتها ونواياها وأطماعها وأسباب خذلانها وسقوطها وغلبة

غيرها على أمرها و ( الثانى ) بالنسبة لنامعشر المسلمين تاريخ الامة الاسلامية التفصيلى الذى يرينا كيف أشرق ذلك الدين القويم على قمم تلك الارض المباركة أرض الحجاز فانار معظم القارّتين القديمتين آسيا وافريقية وجزأ ما كان قليلا من أوروبا وكيف كان يسير به رافعو ألويته فى الاقطار بالفتح المبين على سرعة لا تفضلها سرعة حتى امتدّ سلطان الخلافة الاسلامية فى زمن يسير من تخوم الهند شرقا الى مرّاكش غربا وكيف كان تمدين هؤلاء المسلمين الصالحين لمن فتحوا بلادهم اذ أصلحوا أمرهم وقوّموا أودهم وحقنوا دماؤهم وحفظوا لهم ذمتهم وولاءهم وأباحوا لهم حرية أديانهم بعد أن أثقل ظلم ملوك هاتيك الازمان ظهورهم فاسترق أموالهم وأذلهم وأبعد عن طريق الحرية آمالهم وأمثال هذه الفظائع حتى فى هذا الزمن لا تكتف غير نظرة بالعين أو اصاخة بالاذن

تاريخ هـذه الامة الفاتحة الشريفة قد ينحصر على التوسع فى فرعين رئيسين الخلافة العربية والخلافة التركية وقد طرق الفرع الاوّل كل مؤرخى الاسلام وأما الفرع الثانى فكاد القلم العربى أن يكون منه أبعد الاقلام على أن الملك العثمانى قد لمّ من شعث الولايات الاسلامية وقطع من تقاطعها مارد على السيطرة الاسلامية كل السيطرة الشرقية على أثر ذلك قامت قيامة التعصب الدينى فى الممالك الاوروبية واتفقت على اختلافها وتوحدت على تعددها وانسابت على الملك العثمانى فاخذت تحاربه مثنى وثلاث ورباع لتقويض عرشه وردّه الى مهده الاوّل فحال عزمه بينهم وبين ما يشتهون فتربص الاوروبيون والحقد يتأجج ناراً فى صدورهم والتعصب يورى شرراً فى عيونهم حتى الزمن الاخير وقد استخدمت الدولة العلية دخلاء كانوا عيونا للاعداء على أعمالها اعوانا عليها لا لها يرون صدق النصح فى غشها فامل فيها الطامع ورادها الرائد ونصب لها الصائد ونال منها الحاسد حتى لقد سلبها التعصب الاوروبى كثيراً من أملاكها اما بحجة الفتح أو بحجة تأييد السلام العام واما بحجة أن التعصب الدينى من قواعد الاسلام تلك الدعوى التى يدعونها توفيقاً لمصالح المختلفين منهم وجمعاً للمتفرّقين من عصبتهم كانى بهم وما يدعون يحسبون اليهود وقد آواهم المسلمون مسلمين أم يزعمون وهم مبطلون أن مسيحيي الدولة إلا من أفسدوا على عهدها غير مقيمين وكيف يكون ذلك بعد أنهم ومن سواهم لدى قانون الدولة على اختلافهم فى الاعتقاد سواء فلما كانت هذه الدولة قد وقفت نفسها للذب عن حرية الشرق والذود عن حوضه ولما كانت هى الحامية لبيضة الدين الاسلامى زمانا طويلا رأت فيه من التعصب الاوروبى الاحن والمحن وجب علينا أن نعلم تاريخها التفصيلى حق العلم لنقف على ما كان يربطنا بغيرها من الدول من المعاهدات والوفاقات الدولية لذلك

رأيت من الواجب على خدمة للحقيقة ونفعاً لأبناء البلاد أن أدوّن هذا التاريخ متحرياً فيه صدق الاخبار عن صحيح الروايات شارحا أسباب الوقائع وماجرّت اليه من النتائج معتمداً فى ذلك كله على المعاهدات والفرمانات وصحيح المصادر

هذا ولما نفدت الطبعة الاولى من كتابى تاريخ الدولة العلية أعدت طبعه هذه الدفعة بعد ان أصلحت ما وقع به من غلطات الطبع وهفوات التحرير وأضفت اليه مقدّمة تاريخية ضمنتها تاريخ الخلافة الشريفة الاسلامية من أوّل ظهورها الى يوم انتقالها لبنى عثمان فى زمن السلطان سليم الثانى بحيث يحيط المطالع بجميع حلقات سلسلة التاريخ الاسلامى بكل سهولة لكن اقتصرت على ذكر الحوادث التاريخية لغاية الحرب الروسية التركية الاخيرة التى انتهت بمعاهدة برلين الشهيرة عاقدا العزيمة على جمع ما حدث بعدها من الحوادث التى كانت كلها موجهة لاضعاف الدولة العلية وسلخ أجزائها عنها الواحد بعد الآخر مدوّنا كلا منها فى باب مخصوص باحثا عن أسباب ماحصل بداخلية الدولة من الفتن واليد أو الايدى الاجنبية العاملة فيها وما أتاه جلالة السلطان ﴿عبد الحميد الثانى﴾ من ضروب الحكمة فى مقاومة هذه الحركات العدوانية وما أظهره حفظه الله من الحزم والعزم فى اطفاء كل فتنة قبل ان يتعاظم شرها ويتطاير شررها راجيا منه تعالى أن يوفقنى لخدمة الوطن ونفع بنيه وان يديم ويؤكد ما بين مصرنا والدولة العلية من روابط التابعية وأن يحفظ خديوينا المعظم ﴿عباس باشا حلمى الثانى﴾ ملجأ لمصر وأبنائها ومنقذا لها من ورطتها انه السميع المجيب



## خطبة الطبعة الأولى

## بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى شاد هذا الدين على أساس مكين متين وأقامه بالبرهان القوى المبين وقيض له فى كل زمان من الدولة والسلطان ما يحفظ بيضته ويحمى عزته ويؤيد كلمته ثم الصلاة والسلام على خلاصة بنى الدنيا امام الانبياء الذى دانت القبائل لطاعته وانضمت أشتات الافراد تحت رايته فوحد بين هاتيك الجموع المتكاثرة وألف بين تلك القلوب المتنافرة فجعل بذلك للاسلام من السطوة والصولة مالم تنله قبله ملة ولا دولة

﴿ وبعد ﴾ فقد مضى على الشرق أجيال طوال رأى فيها أهلوه من أهوال الاحوال ما تشيب له الاطفال وتندك من وقعه عزائم الرجال بل شوامخ الجبال وما كان ذلك الا بعد أن انفرط عقد بنيه وتناثر نظام أهليه وتشاغل كل بنفسه عن أخيه وذويه فاغار الدهر بخيله ورجله على الشرق ودوله وقلب لابنائه ظهر المجن وقلبهم بين الاحن والمحن فتناسوا ما كان لهم من فخامة الاقتدار وجلالة الحضارة وضخامة العمران واصالة الامارة وانغمسوا فى بحار الكسل والخمول ذاهلين واستكانوا الى المذلة والهوان صاغرين حتى باتوا وأصبحوا وهم على شفا جرف هار وقد أوشكوا أن يقض عليهم بالدمار والاندثار ويكونوا عبرة لاولى البصائر والابصار

لكن العناية الصمدانية تداركتهم بلمّ الشعث ورمّ الرث ورتق الفتق ورقع الخرق فأضاءت الافق الاسلامى بظهور النور العثمانى وأمدّته بالنصر اللدنىّ والعون الربانى فقامت الدولة العلية بحياطة هذا الدين وحماية الشرقيين ودعت الى الخير وامرت بالمعروف ونهت عن المنكر فكانت من المفلحين ثم وقفت فى طريق أوروبا حاجزاً منيعا وسوراً حصينا وحالت دون اطماعها وألزمتها بكف غاراتها بانواعها ثم اهتمت بالاصلاح وسعت فى تأييد النظام فصار لها بين الدول المقام الاوّل والرأى الراجح والقول النافذ فكانت لا يضاهيها دولة من الدول بما أحرزته من الاملاك الواسعة فى قارات أوروبا وآسيا وأفريقية ونالت من العزة والتوفيق مايجدر بكل شرقى أن يتذكره الآن لتستفزه عوامل الغيرة ودواعى النشاط الى بذل نفسه ونفيسه فى سبيل تقويتها وتعزيز رايتها وتاييد كلمتها لما كان ولا يزال لها من الحسنات الحسان على كافة بنى الانسان من غير نظر الى الاجناس والمذاهب والاديان مما لايراه الباحث فى أية دولة غيرها قديماً أو حديثاً بل نرى عكس ذلك ونقيضه فى الدول ذات الدعاوى الطويله العريضة التى تتقوّل بانها عماد المدنية والانسانية وهى مع ذلك تصدر اوامرها الرسمية بارتكاب الفظائع والبشائع التى لايكاد يصدّقها السامع مما نمسك اليراع عن تعداده فى هذا المقام لعدم دخوله فى موضوع الكتاب لاسيما وان التلغرافات والجرائد تتوارد علينا فى كل يوم ببيان هذه الانباء الشنيعة وذلك بخلاف الدولة العلية فان جميع الناس تعيش فيها بغاية الحرّية والسلام وكل المطرودين من الدول الاوروبية يفدون الى أراضيها فيرتعون فى بحبوحة الراحة والهناء آمنين على أنفسهم وأعراضهم وعروضهم وقد أصبحت الان ملجاً وحيداً لكل من تلفظه الدول الاخرى من أبناء الانسان فما ذا يكون حظ هؤلاء المذكورين اذا جارتهنّ فى هذا المضمار وناظرتهن فى هذه الفعال

هذه حسنة من أقل حسناتها يحق للعثمانى مهما كان جنسه ودينه ان يفاخر بها ويذكرها فى كل فرصة وفى كل حين وفى ذلك أكبر داع وأعظم باعث يدفعه الى الوقوف على تفاصيل تاريخها والنظر بعين الاعتبار الى ماجرى لها وعليها من التقدم والتأخر والارتفاع والانحطاط فان الوقوف على هذه الماجريات مما يهذب النفوس ويقوّم الاخلاق ويقوى روابط الوطنية ويعزز الجامعة الملية وبذلك تماسك أجزاء هذه الدولة الجليله فيتقوى مجموعها ويتاكد قوامها بل حياتها وأىّ شرقى مسلماً كان أو غير مسلم لاتهزه النخوة القومية والحمية الملية الى المحافظة على بقائها سعياً فى بقاء نفسه وتأييدها بكل ما فى وسعه لتاييد بنى جنسه ولذلك دفعتنى دواعى الضمير الى العناية بحوادث هذه الدولة

والوقوف على احوالها فلما حطت علماً بما يجب على كل شرقى معرفتـه من تاريخهـا حدّثتنى نفسى بوجوب تدوين هذا التاريخ ونشره بين أبناء الوطن ونصراء الملة فشمرت عن ساعد الجد وبذلت غاية الجهد وأوردت فى هذا التاليف من مواقف التحقيق ماوصلت اليه الطاقة وضبطت الاعلام بقدر الامكان وشرحت فى حواشى الـكتاب اسماء الملوك والاعيان وبعض البلدان معتمدا فى ذلك كله على الامهات المعتبرة والاصول الموثوق بها وقد قصدت بهذه الخدمة ان أقوم بفرض يجب على كل انسان أداؤه لعرش الخلافة العظمى وملجا الاسلام فى هذا الزمان مولانا أمير المؤمنين السلطان الغازى ﴿ عبد الحميد خان الثانى ﴾ أمد الله فى عمره وايده بنصره

انى ابتهل الى الله القدير بان يؤكد العروة الوثقى بين جلالته وولى امرنا صاحب الحزم والتدبير مولانا الجليل النبيل صاحب الرأى الاصيل والجد الاثيل رب الحزم والعزم وخديوينا الافخم ﴿ عباس باشا حلمى الثانى ﴾ حفظه الله وابقاه اعلاء للوطن وابقاء لجامعة الملة آمين

## ﴿ مقدمة تاريخية ﴾

### ﴿ فيمن ولى الخلافة الاسلامية قبل ملوك الدولة العلية العثمانية ﴾

الخلفاء الراشدون

انتقلت الخلافة الى بنى عثمان سنة ٩٢٣ هجرية حين فتح السلطان سليم الاوّل العثمانى مصر كما تجده مفصلا فى هذا الكتاب واول من وليها بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم فى ١٢ ربيع الاول سنة ١١ من هجرته عليه الصلاة والسلام ابو بكر الصديق رضى الله عنه بويع له بالخلافة بعد خلاف طفيف وقع بين الصحابة وتوفى فى مساء ليلة الاثنين ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣ بعد ان عهد بالخلافة بعده لعمر بن الخطاب رضى الله عنه وفى ايامه كان ظهور مسيلمة الكذاب الذى ادعى النبوة فارسل اليه من حاربه وقتله وكذلك ادعت سجاح بنت الحارث النبوة و بقيت على غيها وضلالها الى خلافة معاوية بن ابى سفيان فاسلمت وحسن اسلامها وفى خلافته فتحت مدينة الحيرة بالامان على الجزية

وعمر بن الخطاب اول من سمى بامير المؤمنين وكان ابو بكر يخاطب بخليفة رسول الله وامتدت فتوحات الاسلام فى ايامه امتدادا عظيما حتى وصلت جيوشهم الى بلاد المغرب والى حدود الهند شرقا والى بلاد سبيريا شمالا ففتحت مصر و بلاد الشام والعراق وايران و بخارا ومرو و زالت مملكة الاعجام من الوجود السياسى بعد انهزام يزدجرد آخر ملوك بنى ساسان وفى خلافة سيدنا عمر رضى الله عنه دوّنت الدواوين وانشىء البريد (البوسطة) لنقل المراسلات بكل سرعة و وضع التاريخ الهجرى وفى ٢٤ ذى الحجة سنة ٢٣ طعنه ابو لؤلؤة بسكين وقت الصلاة وتوفى رحمه الله فى يوم السبت آخر ذى الحجة سنة ٢٣ فكانت مدة خلافته عشر سنين وستة اشهر وثمانية ايام ودفن فى الحجرة الشريفة النبوية

وبويع بعده عثمان بن عفان رضى الله عنه واشهر ما حدث فى خلافته فتح افريقا (ويعنى بها تونس والجزائر ومراكش) وغزو بلاد الاندلس وجزيرة قبرص ونسخ القرآن الذى جمع فى خلافة ابى بكر وكان مودوعا عند السيدة حفصة زوجة النبى صلى الله عليه وسلم وارسال نسخ منه الى جميع البلاد وحرق ماسواه من النسخ و بذلك حفظ القران من التغيير والتبديل الى يومنا هذا وسيبقى كذلك الى آخر الدهر ثم عزل عثمان اغلب الولاة وعين بدلهم اقاربه فولى الكوفة الوليد بن عقبة وكان اخاه من امه وعزل عمرو بن العاص عن مصر و ولاها عبد الله بن ابى سرح العامرى وكان اخا عثمان من الرضاعة وعزل ابا موسى الاشعرى عن البصرة و ولاها ابن خاله عبد الله بن عامر فنقم عليه كثير من الناس واتت المدينة وفود من مصر والكوفة والعراق و بعد مسائل يطول شرحها فى هذه المقدمة حصلت فتنة كانت نتيجتها قتل عثمان فى داره ليلة ١٨ ذى الحجة سنة ٣٥ فكانت مدة خلافته اثنى عشر سنة الا اياما قلائل ودفن مع النبى صلى الله عليه وسلم وعمر رضى الله عنه و بعد مدته حصلت البيعة لسيدنا على بن ابى طالب كرم الله وجهه وابتدا الخلف والانقسام

فى الاسلام وطلبت السيدة عائشة بنت ابى بكر زوجة النبى صلى الله عليه وسلم الاخذ بثار عثمان وانضم اليها طلحة والزبير بن العوام وساروا ومن تبعهم الى البصرة للاستيلاء عليها فلحقهم على وحصلت بين الفريقين وقعة الجمل المشهورة فى نصف جمادى الاخرة سنة ٣٦ فانتصر على ومن معه وقتل طلحة وولى الزبير ومن بقى معه الى المدينة وأرسل على السيدة عائشة الى المدينة مع أخيها محمد بن ابى بكر وبذلك انتهت الفتنة فى هذه الجهة وجمع على جيوشه لمحاربة معاوية بن ابى سفيان والى بلاد الشام لامتناعه عن مبايعته ومناداته باخذ ثار عثمان فحصلت بينهما وقعة صفين الشهيرة فى صفر سنة ٣٧ وبعدها اتفق على مع معاوية على ان يعين كل منهما حكما من طرفه ليفصلا الخلاف وتهادنا على ذلك وحررا به عهدا فى ليلة الاربعاء ١٣ صفر سنة ٣٧ بين أبى موسى الاشعرى بالنيابة عن على كرم الله وجهه وعمرو بن العاص بن وائل بالنيابة عن معاوية واجلا القضاء الى شهر رمضان من هذه السنة بمحل يقال له دومة الجندل وان لم يجتمعا فيه اجتمعا فى السنة التالية باذرج فاجتمع ابو موسى وعمرو بن العاص فى الموعد ومع كل منهما أربعة أنفس من اصحابه واتفقا على ان يعزل كل منهم موكله وينتخب المسلمون من يرونه كفؤا لتولى شؤونهم وعلى هذا الاتفاق قام أبو موسى فى الجمع وقال (قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رايتموه لهذا الامر اهلا) ثم قام عمرو وقال (ان هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه وانى اخلع صاحبه كما خلعه واثبت صاحبى فانه ولى عثمان والطالب بدمه واحق الناس بمقامه) فقال ابو موسى مالك لا وفقك الله غدرت وفجرت وانفض الجمع بعد ذلك وعاد عمرو ومن معه الى معاوية وسلموا عليه بالخلافة ومن ذلك الحين اخذ امر على فى الضعف وامر معاوية فى القوة فارسل معاوية عمرو بن العاص فى سنة ٣٨ الى مصر لمحاربة محمد بن ابى بكر المعين عليها من قبل سيدنا على كرم الله وجهه واستخلاصها منه فاتى اليها وقتل محمد بن سيدنا ابى بكر رضى الله عنه وهو اخى السيدة عائشة زوجة النبى صلى الله عليه وسلم وصارت مصر تابعة لمعاوية ثم بث سراياه فى البلاد التابعة لعلى لاكراه سكانها على مبايعة معاوية واستمر الحال على ذلك الى سنة ٤٠ وفيها اتفق ثلاثة من الخوارج وهم عبد الرحمن بن ملجم المرادى وعمرو بن بكر التميمى والبرك بن عبد الله التميمى على قتل معاوية وعلى وعمرو بن العاص وتواعدوا على ليلة سبعة عشر رمضان من هذه السنة ثم سافر كل منهم الى وجهته فسافر ابن ملجم الى الكوفة لقتل على ومعه وردان بن تيم الرباب وشبيب بن اشجع وسافر البرك الى دمشق لقتل معاوية وعمرو بن بكر الى مصر لقتل عمرو بن العاص وفى اليوم المتفق عليه وثب ابن ملجم ومن معه على سيدنا على عند خروجه لصلاة الغداة فى صبيحة ليلة الجمعة ١٧ رمضان سنة ٤٠ وضربه شبيب ضربة لم تصبه ثم ضربه ابن ملجم اصاب جبهته ومات بعد قليل وضبط بن ملجم فقط وفر الآخران

هذا أما عمرو بن بكر فترصد لعمرو بن العاص فلم يخرج للصلاة وامر خارجة ابن ابى

دولة بنى امية

حبيبة صاحب شرطته ليصلى بالناس فوثب عليه عمرو بن بكر وقتله ظانا انه يقتل عمرو
ابن العاص وكذلك لم يقتل البرك بن عبد الله معاوية بل أصابه بجرح غير خطر وقتل هؤلاء
الخوارج الثلاثة واختلف فى المحل الذى دفن فيه علىّ كرم الله وجهه لكن المجمع عليه
والذى ذكره ابن الاثير وأبو الفداء أنه دفن فى نجف ببلاد العراق وهذا هو الاصح
وبعد قتل الامام على رضى الله عنه رابع الخلفاء الراشدين بويع لابنه الحسن فى العراق
والحجاز وباقى البلاد الاسلامية ماعدا الشام ومصر ثم جمع معاوية جيشا لمحاربته واستعد
الحسن كذلك للقتال لكن ثارت الفتنة بين عساكره وتسحب كثير ممن كان حوله فلما
رأى ذلك كتب الى معاوية أنه مستعدّ للتنازل اليه عن حقه فى الخلافة بشرط أن يعطيه
مافى بيت مال الكوفة وخراج دارا بجرد من فارس وان لا يسب عليا فأجابه معاوية على
الشرطين الاوّلين ولم يقبل الثالث فطلب منه الحسن أن لا يسبه وهو يسمع فاجابه ولم يف
بذلك فيما بعد وبعد ذلك تنازل الحسن لمعاوية وكتب الى قيس بن سعد قائد جيوشه بان
يبايع معاوية فبايعه ودخل معاوية الكوفة وصارت له الخلافة على جميع الاقاليم بدون
مشارك أو منازع واستمرت الخلافة فى عائلته لسنة ١٣٢ ثم انتقلت لبنى العباس أما
سيدنا الحسن فعاد الى المدينة وأقام بها الى أن توفى فى ربيع الاوّل سنة ٤٩ وكانت
ولادته فى السنة الثالثة من الهجرة قيل انه مات مسموما وأهمّ ماحصل فى أيام معاوية
حصار مدينة القسطنطينية فى سنة ٤٨ وتاسيس عقبة بن نافع مدينة القيروان بتونس
الخضراء سنة ٥٠ ودخول سعد بن عثمان بن عفان مدينة سمرقند فى سنة ٥٦ وفى هذه السنة
بايع معاوية الناس لابنه يزيد بولاية العهد فامتنع الحسين بن علىّ بن أبى طالب وتبعه بعضهم
ولما بويع ليزيد بعد موت أبيه أصرّ الحسين على امتناعه وسار من المدينة الى الكوفة لمحاربة
اليزيد فالتقى بعسكره فى الموضع المعروف بكربلا وقتل الحسين فى يوم ١٠ محرم سنة ٦١
وبقى عبد الله بن الزبير بمكة ممتنعا عن مبايعة يزيد ثم اتفق أهل المدينة فى سنة ٦٤ على خلع
يزيد فخلعوه وطردوا نائبه فارسل يزيد مسلم بن عقبة فحاربهم ودخل المدينة عنوة وأباحها
لعسكره ثلاثة أيام يفعلون باهلها مايشاؤن من قتل ونهب وهتك وبعد ان أكره سكان
المدينة على البيعة ليزيد قصد مكة لمحاربة عبد الله بن الزبير فمات قبل أن يصلها وأقام على
الجيش مكانه الحصين بن نمير السكونى فحاصرها ورمى البيت الحرام بالمنجنيق وأحرقه بالنار
ثم أتاه خبر موت يزيد فعاد الى الشام وقيل انه عرض على الزبير أن يبايعه فامتنع الزبير
وتوفى يزيد ليلة ١٤ ربيع الاوّل سنة ٦٤ وعمره ثمانى وثلاثين سنة وكانت امه ميسون
بنت بحدل الكلبية وبويع بعده لابنه معاوية بن اليزيد بن معاوية ولم تستمر خلافته
الا بضع أشهر ثم خلع نفسه واعتكف فى منزله حتى مات وسنه واحد وعشرين سنة وجمع
الناس قبل الانعكاف وأوصاهم بان يختاروا للخلافة من أحبوا
هذا ولما مات يزيد بن معاوية حصلت البيعة بمكة لعبد الله بن الزبير وبايعه كذلك أهل

العراق واليمن وذلك فى مدّة خلافة معاوية بن يزيد ولما مات معاوية الثانى بايع أهل الشام مروان بن الحكم ثم بايعه أهل مصر وتزوّج مروان بام خالد زوجة يزيد بن معاوية حتى يامن جانب خالد فاتاه الشرّ من حيث كان يريد النفع وقتلته أم خالد يوم ثلاثة رمضان سنة ٦٥ وعمره ثلاثة وستون سنة

وبويع للخلافة بعده لابنه عبد الملك وفى خلافته خرج المختار بن عبيد الثقفى لاخذ ثار الحسين وقتل شمر بن ذى الجوشن وعمر بن سعد بن أبى وقاص الذى كان قائد الجيش الذى حارب الحسين وقتل ابن عمر المذكور واسمه حفص ثم حارب عبد الله بن زياد الذى كان واليا على البصرة من قبل معاوية بن أبى سفيان وأمر بقتل الحسين فانتقم الله للحسين وفى سنة ٦٧ أرسل عبد الله بن الزبير أخاه مصعبا لمحاربة المختار فحاربه وقتله فى رمضان

وفى سنة ٧١ جهز عبد الملك بن مروان جيشا وقصد العراق لمحاربة مصعب بن الزبير فانتصر عليه وقتله فى جمادى الآخرة فبايعه أهل العراقين ثم ارسل الحجاج بن يوسف الثقفى الى مكة فى جيش جرار لمحاربة عبد الله بن الزبير فحاصره الحجاج بمكة ورمى البيت الحرام بالمنجنيق وابى ابن الزبير ان يسلم نفسه واستمر فى الدفاع عن مكة حتى قتل فى جمادى الآخرة سنة ٧٣ فبايع اهل الحجاز واليمن عبد الملك بن مروان وبذلك استتب الامر لبنى امية وتوحدت الخلافة الاسلامية بعد الانقسام ثم توفى عبد الملك فى منتصف شوّال سنة ٨٦ وعمره ستون سنة

وبويع بعده لابنه الوليد وهو سادس بنى امية ومن اهمّ اعماله انه عين ابن عمه عمر بن عبد العزيز على المدينة وامره بهدم مسجد رسول الله وبيوت ازواجه وادخال البيوت فى المسجد لتوسيعه وشرع فى بناء الجامع الاموى بدمشق وفى ايامه فتحت بلاد الاندلس غربا وما وراء نهر جيحون ( سردار يا ) شرقا ودخل محمد بن قاسم الثقفى بلاد الهند وتوفى الوليد بن عبد الملك فى جمادى الآخرة سنة ٩٦ وعمره اثنين واربعين سنة ونصف

وبويع بعده لاخيه سليمان سابع الامويين فاتخذ عمر بن عبد العزيز وزيرا له وفى ايامه ارسل اخاه مسلمة لمحاصرة القسطنطينية فاقام الجيوش حولها حتى اتاه خبر موت سليمان وفى سنة ٩٨ فتح يزيد بن المهلب والى خراسان بلاد جرجان وطبرستان

وفى صفر سنة ٩٩ توفى سليمان بن عبد الملك وبويع بعده لابن عمه عمر بن عبد العزيز ثامن خلفاء بنى امية ومن اعماله التى تمدح عليها ابطاله لسب سيدنا علىّ بن ابى طالب كرّم الله وجهه على المنابر يوم الجمعة وابدال السب بقراءة قوله تعالى (ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) وتوفى يوم الجمعة ٢٤ رجب سنة ١٠١ وكان حسن السيرة متبعا فى اعماله واوامره خطة الخلفاء الراشدين

وبويع بعده يزيد بن عبد الملك بن مروان بعهد من سليمان بن عبد الملك اليه بعد عمر بن عبد

العزيز هو تاسع الامويين وأهمّ ما حصل فى أيامه اقماعه الثورة التى أهاجها يزيد بن المهلب ليستقل بملك خراسان أرسل اليه أخاه مسلمة فحاربه وقتله هو وجميع من كان معه من آل المهلب

ثم توفى يزيد بن عبد الملك فى ٢٥ شعبان سنة ١٠٥ وحصلت البيعة بعده لاخيه هشام بن عبد الملك عاشر بنى أمية وفى أيامه غزت قوّاد جيوشه بلاد فرغانه وبلاد الترك النازلين فيما وراء خوارزم وفى سنة ١٢٢ بايع بعض أهل الكوفة زيد بن علىّ بن الحسن بن علىّ ابن أبى طالب بالخلافة فحاربه يوسف بن عمر الثقفى والى الكوفة من قبل هشام وقتله فانتهت الفتنة

ثم توفى هشام فى ٩ ربيع الاوّل سنة ١٢٥ وعمره خمسة وخمسين سنة وهو الذى بنى مدينة الرصافة وبويع بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان وهو حادى عشرهم ولم يلتفت لامور المسلمين وشؤنهم بل انكب على اللهو والشرب وسماع الغناء ومنادمة العشاق ولذلك هاج عليه بنوأعمامه وقرابته فقتلوه فى ٢٧ جمادى الآخرة سنة ١٢٦ وكان عمره اثنين وأربعين سنة وبلغت مدّة خلافته سنة واحدة وثلاثة أشهر

ثم بايعوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك ولم تطل مدّته بل توفى فى ٢٠ ذى الحجة من هذه السنة وكانت مدته كلها حروب داخلية وفتن مستمرة وبعده بويع أخوه ابراهيم قاسم فلم يستتب له الامر بل ظهر مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ودعا الناس لمبايعته فبايعه أهل قنسرين وحمص وغيرهما ثم سار فى جيش عظيم الى دمشق لمحاربة ابراهيم ابن الوليد فهزمه ثم اختفى ابراهيم ودخل مروان الى دمشق وبايعه الناس وصار هو الخليفة دون ابراهيم وتم له ذلك فى النصف الاوّل من سنة ١٢٧ ولم تعلم مدة خلافة ابراهيم بن الوليد فقيل أربعة أشهر وقيل أقل من ذلك ثم استأمن ابراهيم فظهر وبايعه ومروان هذا هو رابع عشر خلفاء بنى أمية وآخرهم اذ ظهرت فى ايامه الدعوة للعباسيين فى خراسان بمسعى ابومسلم الخراسانى وذلك انه كان يوجد بالاقطار الاسلامية احزاب قوية ضدّ بنى امية فمنها حزب يقول باحقية اولاد سيدنا على بن ابى طالب بالخلافة وآخر يقول باستحقاق اولاد العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم وظهر حزب العلويين اكثر من مرة فى مدة الامويين فعاد بالخيبة لظهوره فى اوائل خلافتهم وقوة شوكتهم فقتل الحسين سنة ٦١ وقتل زيد بن على بن الحسين سنة ١٢٢ وفى هاتين الواقعتين قتل كثير من اولادهم واقاربهم حتى ضعف حزبهم وتفرق من حولهم اما بنى العباس فاستعملوا التؤدة والصبر ولم يفاجؤا الامويين فى بدء ظهورهم بل بثوا اعوانهم فى جميع الجهات لاستمالة الناس الى بيعتهم ووجهوا همتهم الى جهات الشرق مثل العراق وايران وخراسان وماجاورها لبعدها عن مركز خلافة الامويين وعدم تعلقهم بهم تعلق اهل الشام ومصر وثابروا على هذه الخطة الى ان ضعف حال الامويين وتضعضع شأنهم ووقع الشقاق والانقسام بينهم حتى تولى

ظهور دولة العباسيين

الخلافة ثلاثة فى سنة واحدة وهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك ويزيد بن الوليد بن عبد الملك
وأخوه ابراهيم ولم يقعد العباسيين عن هذا الثبات موت القائم بهذه الدعوة وهو محمد بن على
ابن عبد الله بن عباس بل قام بها بعده ولده ابراهيم الامام ولما شاع خبر مساعيهم قبض مروان
على ابراهيم المذكور وحبسه فى حران حتى مات وكان ذلك فى سنة ١٢٩ فقام بالدعوة أخوه
أبو العباس الذى لقب فيما بعد بالسفاح وفيها أظهر أبو مسلم الخراسانى الدعوة للعباسيين
ببلاد خراسان وحارب نصر بن سيار العامل عليها من قبل الامويين وانتصر عليه ودخل
مدينة مرو وفى صفر سنة ١٣٢ أتى أبو العباس الى الكوفة واختفى بها الى يوم الجمعة ١٢
ربيع الاوّل وفيه خرج الى الجامع وبايعه الناس بالخلافة ثم أتى مروان لمحاربته فهزم
بالزاب وتبعه عساكر العباسيين الى أن قتل فى بوصير بمصر فى أواخر ذى الحجة سنة ١٣٢
وبذلك تم انتقال الخلافة الى بنى العباس ولم يجعلوا مقر ملكهم مدينة دمشق بل أقام
العباس بالكوفة وكذلك أخوه أبو جعفر المنصور الى أن بنى مدينة بغداد وذلك لعدم ثقتهم
بأهل الشام لميلهم الى بنى أمية لكن انتقال مقر الخلافة الى العراق كان سببا فى فصم عرى
الروابط بين الخلافة والولايات البعيدة مثل الاندلس وأفريقا ( تونس والجزائر )
فانفصلت تدريجا كما ترى

ولم يهدأ بال العباس من جهة الامويين الا بعد أن قتل منهم نحو تسعين رجلا قتلوا ضربا
بالعمد ثم بسطت عليهم الانطاع ومدت الموائد وأكل الناس وهم يسمعون أنينهم حتى ماتوا
وأمر بنبش قبورهم واحراق عظامهم ولم يفلت من بنى أمية على ماقيل الا من هرب الى
الاندلس وكان من ضمنهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم
فاستولى على الاندلس وبقيت فى عقبه لسنة ٤٢٠ ولقب العباس بالسفاح لكثرة سفكه
الدماء ومات فى ذى الحجة سنة ١٣٦ ودفن فى الانبار وقد عهد بالخلافة بعده الى أخيه أبى
جعفر المنصور ثم من بعده الى عيسى ابن أخيه موسى وفى سنة ١٣٧ بايع عم المنصور
وهو عبد الله بن على لنفسه فأرسل اليه المنصور ابا مسلم الخراسانى فهزمه وهرب عبد الله
وبقى مختفيا الى سنة ١٣٩ حتى ظفر به المنصور وقتله وفى شعبان سنة ١٣٧ قتل المنصور
ابا مسلم الخراسانى مع انه سبب حصول العباسيين على الخلافة بسعيه واجتهاده قتله لخوفه
من امتداد نفوذه والخروج عليه واختلاس الخلافة لنفسه وفى سنة ١٤١ حصلت فتنة
الراوندية الذين قالوا بالوهية أبى جعفر المنصور فحاربهم حتى قتلهم عن آخرهم وفى سنة
١٤٥ بايع اهل المدينة محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين الملقب بالنفس الزكية بالخلافة
فارسل اليه جعفر عيسى بن موسى فحاربه وقتله مع كثير من اهل بيته فى رمضان من
السنة المذكورة وفى اثناء ذلك كان اخوه ابراهيم قد قصد البصرة وطلب البيعة من
اهلها لاخيه محمد النفس الزكية فبايعوه ثم ارسل من استولى على الاهواز وواسط
ولما اتاه خبر قتل اخيه سار بجموعه قاصدا الكوفة فلاقاه عيسى بن موسى وكان قد عاد

من المدينة بعد موت محمد فحارب به حتى قتله و بذلك انتهت هـذه الفتنة وأمن المنصور جانب العلويين وفى اثناء هذه الفتن توفى ببغداد الامام الاعظم أبى حنيفة النعمان رضى الله عنه ثم تفرغ المنصور لبناء مدينة بغداد وانتقل اليها وتوفى فى ٦ ذى الحجة سنة ١٥٨ وعمره ثلاثة وستين سنة ولم يتبع ماأوصى به العباس بل أوصى بالخلافة لابنه محمد المهدى خلع عيسى بن أخيه موسى من ولاية العهد

ومن اهم اعمال محمد المهدى تنظيمه البريد وتعميمه بين المدائن العظيمة وغزو الروم مرتين بمعرفة ابنه هرون الرشيد وفى ايامه ظهر بعض الزنادقة فى حلب فجمعهم المهدى وقتلهم عن اخرهم ومزق كتبهم واستمرت خلافته عشر سنين وشهرا وتوفى فى ٢٢ محرم سنة ١٦٩ بماسندان وعمره ٤٣ سنة فاخذ ولده هرون البيعة لاخيه موسى الهادى الذى كان يحارب بجرجان وفى خلافة موسى الهادى ابن محمد المهدى ظهر الحسين بن على بن الحسن بن الحسن ابن على بن ابى طالب وادعى الخلافة بالمدينة فاجتمع عليه كثير وبايعوه فحارب به العباسيون وقتلوه مع كثير من رفقائه واهل بيته فى ذى الحجة سنة ١٦٩ وفر من القتل ادريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن ابى طالب الى بلاد المغرب وهو مؤسس عائلة الادريسيين بمراكش وتوفى موسى الهادى فى ١٤ ربيع الاول سنة ١٧٠ وعمره أربعة وعشرين سنة على ماقيل فتولى بعده أخوه شقيقه هرون الرشيد وعمره ٢٢ سنة وكانت ولادته بالرى فى ذى الحجة سنة ١٤٨ وامهما الخيزران وهى ام ولد

وهرون الرشيد هو خامس بنى العباس وفى مدته بلغت دولتهم أعلى درجات الكمال وفى ايامه ظهر يحيى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وبايعه خلق كثير فى سنة ١٧٦ فارسل اليه هرون الرشيد الفضل بن يحيى البرمكى فى جيش عظيم ففضل الفضل المسالمة على الحرب وكاتب يحيى وامنه على نفسه فطلب ان يكتب له الرشيد بالامان بخطه ففعل وعلى ذلك حضر يحيى الى بغداد فاكرمه الرشيد ثم سجنه حتى مات وفى هذه السنة حصلت بدمشق فتنة عظيمة بين المضرية واليمنية قتل فيها كثيرون وفى سنة ١٧٩ توفى الامام مالك رضى الله عنه وهو ثان الائمة الاربعة

وفى سنة ١٨٤ ولى ابراهيم بن الاغلب على أفريقا وبقيت له فى ذريتـه الى ان ظهر الفاطميون واستقلوا بملك افريقا ومصر كما تراه فى آخر هذه المقدمة

وفى سنة ١٨٧ تحول الرشيد عن البرامكة لما رأى امتداد نفوذهم وزيادة اموالهم واملاكهم وميـل النـاس اليهم وكثرة عطاياهم فخشى من ان تطمح أنظارهم الى ما فوق ذلك او يقصدوه وعائلته بسوء طمعا فى تولى الخـلافة فلهـذه الاسباب اصر على الايقاع بهم فقتل جعفر بن بن يحى فى الانبار عند عودة الرشيد من الحج فى اول صفر سنة ١٨٧ وارسل رأسه وجثته الى بغداد فنصبت بها أياما ثم ارسل من أحاط بيحيى البرمكى وولده الفضل وصادرهم فى جميع اموالهم من منقول وثابت وبذلك انقضت وزارة البرامكة بعدان بقيت

فيهم سبعة عشر سنه واما مايذكرونه بعض المؤرخين ويجعلونه سببا للايقاع بالبرامكة فغير صحيح

وفى سنة ١٩٠ توفى يحى بن خالد بن برمك بالحبس وكذلك توفى بالحبس ولده الفضل فى محرم سنة ١٩٣ وفى ٣ جمادى الثانى من هذه السنة توفى الخليفة هرون الرشيد فى مدينة طوس أثناء سفره فصلى عليه ابنه صالح واخذ البيعة لاخيه محمد الامين وأرسل يخبره بذلك وكان الرشيد قد عهد بالخلافة بعده لولده الامين ثم للمأمون ثم لابنه القاسم ولقبه بالمؤتمن لكن جعل أمر استمراره فى ولاية العهد وعزله فى يد المامون ان شاء استخلفه وان شاء عهد بالخلافة لغيره فلم يتبع الامين هذا المامون هذا العهد بل أبطل ذكر أخيه المامون فى الخطبة فى سنة ١٩٥ وامر بان يخطب لابنه موسى ولقبه الناطق بالحق وكان المامون بخراسان فلما بلغه خبر هذا التغيير لم يقبله واجتمع حوله وبايعه كل من تحول عن الامين لانهماكه فى الملاذ واحتجابه عن الناس وصرفه أوقاته فيما لايعود على الخلافة بخير فجهز الامين جيشا لمحاربة أخيه المامون واستمرت هذه الفتنة الى سنة ١٩٧ وفيها تغلبت جيوش المامون على جيوش الامين وحوصر الامين فى بغداد مدة وقتل أخيرا فى ٢٥ محرم سنة ١٩٨ وعمره ثمانية وعشرين سنة وبويع بالخلافة لاخيه المامون قطعيا وهو سابع بنى العباس

وكان من أعماله خلع أخاه القاسم من ولاية العهد بما له من الحق بمقتضى عهد ابيه الرشيد واقام مكانه فى سنة ٢١٠ علىّ الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن على بن الحسين بن على بن ابى طالب وخلع شعار بنى العباس وهو السواد ولبس الخضرة شعار العلويين وامر جنده بذلك فنقم عليه العباسيون باخراجهم عن الخلافة وتآمروا على عزله وكان بمرو فعزله أهل بغداد وبايعوا ابراهيم بن المهدى العباسى فى محرم سنة ٢٠٢ ولما بلغ المامون خبر خروج اهل بغداد عليه سار اليهام من مرو ومعه على الرضا وفى صفر سنة ٢٠٣ توفى على الرضا فجاة بالطريق بمدينة طوس فصلى عليه المامون ودفنه بجوار قبر والده الرشيد ثم أرسل الى أهل بغداد يخبرهم بموته وبعودته الى ماعهد به أبوه فتفرق الناس من حول ابراهيم بن المهدى ودخلها عسكر المامون لكنهم لم يظفروا به بل اختفى وبقى مختفيا الى ان ضبط فى ربيع الاخر سنة ٢١٠ وعفى عنه المامون وتوفى فى رمضان سنة ٢٢٤ وفى أوائل سنة ٢٠٤ عاد المامون وانقطعت الفتن وترك الخضرة وعاد الى لبس السواد شعار بنى العباس وعادت الاحوال الى ما كانت عليه وفى هذه السنة توفى بمصر الامام محمد بن ادريس الملقب بالشافعى ثالث الأئمة الاربعة وفى سنة ٢١٢ قال المامون بخلق القرآن وجبر الناس على القول بذلك واضطهد كل من خالفه وهو الذى أمر محمد بن الموسى بن شاكر وأخويه أحمد والحسين بتحقيق طول خط نصف النهار لمعرفة مقدار محيط الكرة الارضية بالضبط فقاموا بهذه المامورية العلمية خير قيام وقاسوا احد خطوط الطول فى سهل سنجار ثم أعادوا المقاس ثانيا فى وطئة الكوفة

وهذا دليل على سبق العرب للافرنج فى معرفة كروية الارض وفى ايامه ترجمت اغلب كتب اليونان العلمية والفلسفية و بلغ التمدن اعلى الدرجات وفى سنة ٢١٦ زار مصر وتوفى فى ١٩ رجب سنة ٢١٨ بعد ان اوصى لاخيه ابى اسحق محمد المعتصم بالله ودفن بطرسوس وسنه سبعة وار بعين سنة ومدة خلافته عشرون سنة ونصف تقريبا فبايع الناس المعتصم الا بعض الجنود فبايعوا العباس بن المامون فاستدعى المعتصم العباس فبايعه وخرج للجند ونصحهم بمبايعة المعتصم فبايعوه وهى اول مرة تداخل الجند فى امر الخلافة

ومن اعمال المعتصم بناء مدينة سامرا وفتح العمورية التى كان يقدسها الروم وفى اثناء عودته من عمورية بلغه ان العباس بن المامون يكيد له و ينوى قتله فامر بسجنه فسجن ومات بعد قليل قيل ان الموكل بحراسته منع عنه الماء حتى مات وارسل المعتصم احد قواد جيوشه واسمه الافشين خيذر لمحاربة بابك المجوسى الذى استولى على جبال طبرستان مدة عشرين سنه تقريبا فحاربه وقبض عليه واحضره امام المعتصم فقتله وفى سنة ٢٢٦ غضب المعتصم على الافشين فقتله

وفى ١٨ ربيع الاول سنة ٢٢٧ توفى المعتصم وعمره ثمانية وار بعين سنة تقريبا وهو اول من اضيف اسم الله تعالى الى لقبه و بويع بعده ابنه الواثق بالله هرون ولما تولى الواثق حصلت فتنة بدمشق فارسل اليها جيشا اعاد السكينة اليها وكان له وزير تركى اسمه اشناس اعطى اليه الواثق علامات الامارة وهى تاج ووشاحين ومن ثم ابتدأ وفود قبائل الترك الى بلاد العراق ودخولهم فى الوظائف العالية خصوصا الجندية الامر الذى اوجب تداخلهم فى امور الخلافة واستيلائهم على السلطة الفعلية وتوفى اشناس التركى سنة ٢٢٩ ومما اوجب ضعف دولة العباسيين جعلهم بلاد خراسان وراثية تقريبا فى عائلة طاهر بن عبد الله

وتوفى الواثق فى ٢٤ ذى الحجة سنة ٢٣٢ واختلف فيمن يعين بعده فقال فريق بمبايعة ابنه محمد وقال آخر بعدم صلاحيته لصغر سنه واخيرا اتفق على مبايعة المتوكل جعفر بن المعتصم وهو عاشر بنى العباس وفى مدته توفى الامام احمد بن حنبل احد الائمة الاربعة فى سنة ٢٤١ وشرع المتوكل فى نقل مركز حكومته الى دمشق ونقل اليها دواوينه ولم يقم بها الا شهرين فى سنة ٢٤١ ثم عاد الى سامرا وقتل المتوكل سنة ٢٤٧ قتله بعض مماليكه باتفاق مع ابنه المنتصر و بغا الصغير الشرابى وقيل انه قتل فى مجلس شرابه وقتل معه وزيره الفتح بن خاقان فى ليلة الاربع ٣ شوال سنة ٢٤٧ ومدة خلافته خمسة عشر سنة تقريبا وعمره نحو ار بعين سنة ثم حصلت البيعة لابنه المنتصر لكن لم تطل مدته بل توفى فى يوم الاحد ٤ ربيع الاول سنة ٢٤٨ وعمره خمسة وعشرين سنة ونصف ومدة خلافته ستة شهور

و بويع بعده احمد المستعين بالله ابن محمد المعتصم ولم يرغب رجال الدولة خصوصا الاتراك

مبايعة احد اولاد المتوكل و بذلك ازداد تداخلهم فى انتخاب الخلفاء وعزلهم بل وقتلهم حتى صار الامر بيدهم وزادت الفتن بين العرب والاتراك فى خلافة المستعين وتايد نفوذ عائلة طاهر بن عبد الله بخراسان ولما توفى طاهر بن عبد الله بن طاهر بن عبدالله فى رجب سنة ٢٤٨ عين المستعين ولده محمد بن طاهر وكذلك لما توفى بغا التركى ولى ابنه موسى مكانه فصارت الوظائف وراثية تقريبا فى بعض العائلات الاجنبية وفى خلافة المستعين ظهر يعقوب بن الليث الصفار وتحرك من سجستان قاصدا هرات للاستيلاء عليها وكذلك ظهر الحسن بن زيد بن محمد بن اسمعيل بن زيد بن الحسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب بطبرستان واستقل بها الى ان توفى سنة ٢٨٧ وكان يلقب بالداعى الى الحق وحكم بعده الناصر للحق الحسن بن على وكان يعرف بالاطروش وتوفى سنة ٣٠٤ وانقرض بموته ملك العلويين بطبرستان

فكانت الاحوال فى غاية الاضطراب مدة حكم المستكفى وكثر الفساد وسعى كل عامل فى الاستقلال بما ولى عليه وضعفت الحكومة حتى صارت ألعوبة فى يد أصحاب الدسائس وزادت الفتن بين أحزاب الاتراك فى سنة ٢٥١ حتى حاصروا المستعين بقصره بسامرا فهرب منها الى بغداد فبايع العصاة المعتز بالله بن المتوكل وهو أرسل أخاه أبا احمد طلحة فى خمسين الف تركى لمحاربة المستعين ببغداد ثم اتفق كبار الدولة على خلع المستعين حسما للمشاكل وحقنا للدماء فخلعوه وأخبروه بذلك فقبل وبايع المعتز بالله وخطب له فى بغداد يوم الجمعة ٤ محرم سنة ٢٥٢ ثم قتل المستعين بامر المعتز بعد ان منع من السفر الى مكة وحبس وفى مدة المعتز حصلت جملة فتن بين العسكر الاتراك فقتلوا قائدهم وصيف سنة ٥٣ ولم يعاقبهم الخليفة بل أعطى كل ما كان له الى بغا الشرابى ثم أمر بقتله سنة ٢٥٤ وفى هذه السنة ولى احمد بن طولون على مصر فاستقل بها مع حفظ السيادة الاسمية للعباسيين الى ان توفى سنه ٢٧٠ وخلفه ابنه خمارويه الملقب بابى الجيوش وفى سنه ٢٥٥ استولى يعقوب الصفار على كرمان ثم على بلاد فارس ودخل شيراز وكتب للخليفة يعترف له بالسيادة وأرسل اليه هدايا عظيمة فاكتفى الخليفة وفقد بذلك جميع أملاكه الواقعة شرق بغداد تقريبا كما فقد مصر وكما استقل الامويون بالاندلس والادريسيون بالمغرب الاقصى بحيث صارت الاقاليم التابعة للعباسيين لا تزيد عن ربع ما كان قبلهم لدولة بنى أمية

وفى ٢٦ رجب سنة ٢٥٥ ثار عليه الاتراك من الجند لعدم مقدرته على أداء ما يطلبونه من الاموال فاهانوه وأشهدوا على خلعه وبايعوا المهتدى محمد بن الواثق وهو رابع عشر العباسيين وفى ٢ شعبان من السنة المذكوره مات المعتز جوعا بمنع الطعام والشراب عنه وفى مدته ابتدأ ظهور شخص اسمه على بن محمد وادعى الانتساب للعلويين وجمع قبائل الزنوج النازلين بالقرب من البصرة وصار يعسو هو ورجاله فى الارض الى ان قتل سنة ٢٧٠ ولم تطل خلافة المهتدى بل حصلت حروب بينه وبين الاتراك بسبب قتله أحد قوادهم المدعو

بايكيال وظفروا به أخيرا وقتلوه فى ١٨ رجب سنة ٢٥٦ وأخرجوا أبا العباس احمد بن المتوكل من السجن وبايعوه ولقب المعتمد على الله وهو خامس عشرهم وفى مدته توفى الامام البخارى فى ليلة عيد الفطر سنة ٢٥٦ والامام مسلم فى سنة ٢٦١ واستفحل أمر يعقوب الصفار فاستولى على بلخ وكابول والاهواز ثم توفى فى ١٩ شوال سنة ٢٦٥ وخلفه أخوه عمرو وكتب للخليفة بالطاعة فولاه جميع البلاد التى كانت تحت يد أخيه وعظم شأن الحسن ابن زيد العلوى بطبرستان واستولى على جرجان ثم توفى سنة ٢٧٠ وتولى أخوه محمد بن زيد وعتى العرب فى حمص حاكمهم التركى وقتلوه واستولى الزنوج على البصرة وقتلوا كثيرا من أهلها ودخلوا مدينة واسط ووصلت طلائعهم الى بغداد نفسها فازدادت الخلافة ضعفا على ضعف وتخللت الفوضى جميع أجزائها واستبد القواد والحكام لعدم رادع أو مراقب وفى خلافته أشهر كذلك أحمد بن طولون استقلاله ومنع ذكر اسم الخليفة فى الخطبه وسار الى بلاد الشام وفتح أكثر مدائنها وعظمت سطوته ثم مات سنة ٢٧٠ وخلفه ابنه خمارويه وكان أبو احمد طلحة الموفق أخو الخليفة المعتمد هو قائد جنوده وصاحب الكلمة فى البلاد حتى ضيق على الخليفة فى المصرف وتوفى فى ٢٢ صفر سنة ٢٧٨ وحيث كان بويع له بولاية العهد بعد المفوض جعفر بن المعتمد اجتمع القواد وبايعوا أبا العباس المعتضد بولاية العهد مكان ابيه الموفق ثم عزل المعتمد ابنه جعفر قبل وفاته وأوصى بولاية العهد لابى العباس المعتضد

بني طولون بمصر

وفى آخر خلافة المعتمد ظهر أصحاب مذهب القرامطة بالكوفة (١) وتوفى فى ١٩ رجب سنة ٢٧٩ بعد ان حكم ثلاث وعشرين سنة وبويع لابى العباس أحمد المعتضد بالله ابن الموفق بن المتوكل وهو سادس عشرهم وفى مدته زادت شوكة بنى سامان المستقلين ببلاد ما وراء النهر مع اعترافهم بالسيادة للخليفة وسار اسمعيل السامانى الى خراسان لمحاربة عمرو أخى يعقوب الصفار فهزمه وقبض عليه وحبسه حتى مات وانقرض بموته ملك الصفار ثم حارب السامانى محمد بن زيد العلوى صاحب طبرستان فهزمه وجرح العلوى جراحا بليغة مات بسببها سنة ٢٨٧ وخلفه ابنه الناصر للحق وفى أيام المعتضد قتل خمارويه بن طولون صاحب مصر سنة ٢٨٢ وخلفه ابنه جيش

---

(١) ويسمون أيضا الاسماعيلية نسبة لاسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين ابن الحسين بن على بن أبي طالب كرم الله وجهه ويسمون كذلك بالباطنية لاعتقادهم بقاء الامامة فى العلويين وان الارض لاتخلو من امام مطلقا أما ظاهر بذاته أو مستور وان أول الائمة المستورين هو محمد المنتظر ابن حسن العسكرى بن على الزكي بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسي الكاظم بن جعفر الصادق المتقدم ذكره ويعتقد الباطنيون أن محمد المنتظر المذكور اختفي وسنه تسع سنوات وينتظر ظهوره ثانيا وتسمى هذه الطائفة بالاثنى عشرية لاعتقادهم أن الائمة الظاهرية اثنا عشر أولهم الامام على كرم الله وجهه ثم ولديه الحسن والحسين ثم على زين العابدين السالف الذكر وآخرهم محمد المنتظر وهم طائفة من الشيعة امتد نفوذهم الى مشارق الارض ومغاربها وكانت قاعدة أعمالهم قلعة الموت ويقال لهم كذلك الحشاشين لتعاطيهم الحشيشة وقد كان لهم شأن يذكر أيام الحروب الصليبية وقتلوا كثيرا من الامراء والملوك

الملقب بالافضل ثم خلعه الجنـد وعينوا أخاه هرون وضعف أمر بنى طولون وقارب الزوال وفى ٢٢ ربيع الآخر سنة ٢٨٩ توفى المعتضد وكانت خلافته عشر سنوات تقريبا وعمره سبعة واربعين سنة وخلفه ابن المكتفى بالله وهو سابع عشر العباسيين وفى أيامه افتتح العباسيون مصر ثانيا من هرون بن خمارويه وهزمت القرامطة عدة مرات وتوفى اسمعيل السامانى وتولى بعده ابنه أبو النصر احمد فأقره الخليفة ثم توفى فى ١٢ ذى القعدة سنة ٢٩٥ فكانت خلافته ست سنوات ونصف وعمره ثلاثة وثلاثين سنة وبويع بعده أخوه أبو الفضل جعفر المقتدر بالله بن المعتضد وعمره ثلاثة عشر سنة وهو الثامن عشر وامتدت مدة خلافته الى سنة ٣٢٠ اى بلغت خمسة وعشرين سنة الا انه خلع فى خلالها مرتين الاولى فى سنة ٢٩٦ خلعه القضاة والقواد لصغر سنه وبايعوا عبد الله ابن المعتز ولقبوه الراضى بالله لكنه لم يلبث الا ليلة واحدة ثم قتل أثناء الفتن والحروب التى قامت بين أتباع المقتدر وأتباعه وأعيد المقتدر ثانيا والثانية فى سنة ٣١٧ خلعه الجند والقواد بسبب تسليمه أمور الخلافة للنساء والخدام واشتغاله بما لا يفيد الامة فحاصروه فى داره وحملوه وأولاده ووالدته الى دار مؤنس الخادم أحد القواد الذى كانت له اليد الطولى فى هذه الفتن وأكرهوه على ان يخلع نفسه ففعل وبايعوا أخاه محمد بن المعتضد ولقبوه القاهر بالله ثم أعيد بعد ثلاثة أيام من خلعه وأمن اخاه القاهر بالله وبقى حيا الى ان خلفه بعد قتله سنة ٣٢٠ ولم يعد المؤرخون عبد الله ابن المعتز فى عداد الخلفاء لانه لم يحكم الا ليلة واحدة لكن اعتبرته تاسع عشرهم بما أنه حصلت مبايعته وتولى الحكم وفى أيام المقتدر حصلت عدة حروب بين جنوده وبين القرامطة كان النصر فيها غالبا لجنود الخليفة وابتدأت دولة الفاطميين بتونس فى سنة ٢٩٦ وأولهم المهدى أبو محمد عبيد الله وكان القائم بالدعوة له أبو عبد الله الشيعى فاستقل بافريقيا (تونس والجزائر) بعد ان انتزعها من بنى الاغلب الذين حكموا مدة مائة واثنى عشر سنة أولها سنة ١٨٤ التى ولى فيها هرون الرشيد ابراهيم بن الاغلب على افريقيا ثم فتح المهدى سجلماسة وتاهرت وبفتح الاولى أى سجلماسة انقرض ملك بنى مدرار بعد ان استمر مائة وثلاثين سنة كما انتهى ملك بنى رستم بفتح تاهرت بعد ان دام مائة وستين سنه وبنى مدينة جديدة على البحر وسماها المهدية ونقل اليها مركز حكومته بعد ان حصنها ولما استتب له الحال فى افريقيا حول عبد الله أنظاره الى مصر وارسل اليها جملة حملات فى أيام المقتدر عادت بالفشل والخيبة وفى سنة ٣١٧ تعدى القرامطة على الحجاج بالايذاء الشديد ونقلوا الحجر الاسود من مكانه وقتلوا الحجاج فى البيت الحرام وفى سنة ٣٥٠ حصلت وحشة بين الخليفة ومؤنس الخادم فسار مؤنس الى الموصل فصادره الخليفه فى جميع أملاكه ثم جمع مؤنس جيشا جرارا وقصد بغداد وحارب جند الخليفة وانتصر عليه وقتل الخليفة فى المعركه فى ٢٨ شوال سنة ٣٢٠ وبويع بعده أخاه محمد القاهر بالله ابن المعتضد الذى بويع وخلع أول مرة فى سنه ٣١٧ وهو العشرون من بنى

ظهور الدولة الفاطمية بتونس

بنى العباس

دولة بني بويه

وفى أيام القاهر كان ابتداء دولة بنى بويه ببلاد فارس واستيلاء عماد الدولة بن بويه على شيراز ولم تطل مدة القاهر بل تألب عليه الجند بسعى الوزير ابن مقلة بسبب قتله مؤنس الخادم بعض القواد الأتراك فقتلوا الخليفة فى ٥ جمادى الاولى سنة ٣٢٢ وأخرجوا أبا العباس احمد بن المقتدر وبايعوه بالخلافة فى ٦ منه ولقبوه الراضى بالله وهو حادى عشريهم وفى خلافته ولى الاخشيد مصر سنة ٣٣٣ فاستقل بها واستطال الى بعض جهات الشام وكذلك منع ابن رابق عامل واسط والبصرة ارسال الخراج ومنع البريدى ارساله من الاهواز فضاق الحال ببغداد ثم عاد ابن زابق الى طاعة الخليفة فعينه أمير الامراء وهو حارب البريدى وهزمه وبعد ذلك بقليل ثار بجكم القائد وقصد بغداد وهزم ابن رابق الذى خرج لمحاربته واستولى بجكم على بغداد فعينه الخليفة أمير الامراء وصار هو الحاكم فعلا ولما هرب ابن رابق قصد الشام واستولى على دمشق وحمص وقصد مصر فحاربه الاخشيد وصده عنها

الاخشيديون بمصر

ثم توفى الراضى بالله فى منتصف ربيع الاول سنة ٣٢٩ ولم يبايع المتقى بالله ابراهيم ابن المقتدر الا فى ٢٠ منه بعد ان أبلغ بجكم الذى كان بواسط موت الخليفة واستصوب به مبايعة المتقى فكان الحاكم الحقيقى هو امير الامراء يعزل ويولى من يريد من الخلفاء واقتصرت الخلافة مع كونها اسمية فقط على بغداد وبعض البلاد المجاورة لها وفى أوائل حكمه قتل بجكم أثناء الصيد فقصد ابن البريدى بغداد واستولى عليها وقلده الخليفة امارة الامراء فهاجت عليه الاهالى لظلمه وأخرجوه من المدينة فعين الخليفة كورتكين أحد القواد ولما بلغ خبر موت بجكم الى ابن رابق بالشام قصد بغداد وحارب كورتكين فهرب وقلد هو امارة الامراء وفى سنة ٣٣٠ قصد ابن البريدى بغداد ثانيا فهرب الخليفة وابن رابق الى الموصل فاستقبلهم صاحبها ناصر الدولة بن حمدان وأكرمهما ثم قتل ابن رابق فعينه الخليفة أمير للامراء وعاد معه الى بغداد فهرب ابن البريدى وفى سنة ٢٣٣ ثار قائد تركى اسمه تورون فقلده الخليفة الامارة فى رمضان وبعد مدة ضجر من معاملته وخرج من بغداد قاصدا الموصل ليحتمى ببنى حمدان فكاتبه تورون وأغلظ له الايمان وجدد العهود والمواثيق فعاد الخليفة وفى أثناء عودته قبض عليه تورون الخائن وسمل عينيه وحبسه ولما دخل بغداد بايع المستكفى بالله أبا القاسم عبد الله بن المكتفى فى صفر سنة ٣٣٣ وهو الثالث والعشرين من بنى العباس

وفى خلافته استولى سيف الدولة بن حمدان صاحب الموصل على مدينتى حلب وحمص وقصد دمشق فرده عنها الاخشيد صاحب مصر وفى محرم سنة ٣٣٤ توفى تورون أمير الامراء فانتخب الجند أحد القواد المدعو ابن شيرزاد فأقره الخليفة مكانه ولما بلغ خبر موته معز الدولة بن بويه بالاهواز قصد بغداد للاستيلاء على امارة الامراء فهرب ابن شيرزاد

ولم تبلغ مدته الا ثلاثة أشهر وأياما ثم دخل معز الدولة بن بويه الى بغداد فى جمادى الاولى سنة ٣٣٤ وقلده الخليفة الامارة وأمر ان يضرب اسمه على العملة وبعد ذلك بشهر عزل الخليفة بدسيسة ابن بويه فى ٢٢ جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ ثم سملت عيناه وبقى مسجوناً الى ان مات سنة ٣٣٨ وبويع بعده المطيع لله ابن المقتدر وفى مدته توفى الاخشيد سنة ٣٣٤ وولى الامر بعده ابنه الامير محمود ولصغر سنه استولى على الامر كافور السودانى أحد خدم الاخشيد ثم توفى سنة ٣٤٩ فأقام كافور أخاه عليا ابن الاخشيد فتوفى سنة ٣٥٥ واستقل كافور بمصر وملحقاتها من بلاد الشام الى ان توفى فى السنة التالية وبعد وفاته اختلف فيمن يعين وبقى الخلاف مدة ثم اتفق على تنصيب أبو الفوارس احمد بن على بن الاخشيد وخطب له فى جمادى الاولى سنة ٣٥٧

وفى خلافة المطيع توفى عبد الرحمن الناصر الاموى بالاندلس فى رمضان سنة ٣٥٠ وعمره ثلاثة وسبعين سنة بعد ان حكم خمسين سنة ونصفا وهو أول من تلقب بالاندلس بأمير المؤمنين وكانوا قبلا يلقبون بالامراء وأبناء الخلفاء واستمر الحال كذلك الى سنة ٣٢٧ وضعف العباسيون ببغداد وظهر الفاطميون فى تونس وادعوا الخلافة ولقبوا بامراء المؤمنين فامر عبد الرحمن الاموى بان يلقب بالناصر لدين الله ويخطب له بامير المؤمنين وفى سنة ٣٥٦ توفى معز الدولة بن بويه وكانت امارته اثنى وعشرين سنة وقبل وفاته عهد بالامارة الى ابنه بختيار ولقبه عز الدوله فاقره الخليفة أمير للامراء وفى امارة معز الدولة حصلت عدة حروب بينه وبين ابن المقداد وغيره من الامراء خصوصا سيف الدولة بن حمدان صاحب الموصل مما يطول شرحه ويدل على امتداد الفوضى الى جميع أجزاء الخلافة حتى اجترأت الروم وتعدت الحدود مراراوسبت ونهبت وقتلت فى بلاد الاسلام

فاطميون بمصر

وفى سنة ٣٥٨ أرسل المعز لدين الله الفاطمى جوهر القائد الصقلى الاصل بجيش كثيف لفتح مصر لما بلغه خبر الاختلاف الذى وقع بها عقب موت كافور الاخشيدى فوصل اليها جوهر وفتحها وخطب فيها للمعز فى شوال من هذه السنة ثم سافر جوهر الى بلاد الشام ففتح البلاد التى كانت تابعة للاخشيديين وقطعت الخطبة للعباسيين ثم عاد الى مصر وشرع فى بناء مدينة القاهرة وفى شوال سنة ٣٦١ سار المعز من تونس الى مصر فوصل الاسكندرية فى شعبان سنة ٣٦٢ ودخل القاهرة فى ١٥ رمضان سنة ٣٦٢ وجعلها مقر خلافته واستعمل بعض عماله على افريقيا وصقلية

وفى سنة ٣٦٣ سافر بختيار عز الدولة بن بويه الى الاهواز فثار عليه أحد قواد الاتراك واسمه سبكتكين ونهب داره وجبر المطيع لله على أن يخلع نفسه فاستقال فى منتصف ذى القعدة سنة ٣٦٣ ومدة خلافته تسعة وعشرين سنة ونصف وبويع بعده لابنه عبد الكريم أبو بكر ولقب الطائع لله وهو الخامس والعشرين من بنى العباس وفى خلافته حصلت عدة حروب داخلية لا أهمية لذكرها لان الفتن والحروب وتغلب الولاة

على بعض واستقلالهم بولاياتهم صار امرا عاديا حتى يمكننا القول بان جميع الولايات صارت مستقلة تتوارثها بعض العائلات وتنتقل من عائلة الى اخرى بدون علم الخليفة وفى خلافته ملك سبكتكين أحد قواد السامانيين مدينة غزنة ثم سار الى بلاد الهند واستولى على بعض بلادها وسبكتكين هذا هو غير سبكتكين التركى الذى كان ببغداد ومر ذكره هذا ولما ثار سبكتكين على بختيار واستولى على الامارة كاتب بختيار الامير عضد الدولة ابن عمه ركن الدولة المستقل ببلاد فارس يستنجد به ضد الاتراك وقائدهم سبكتكين فاتى عضد الدولة ومعه جيش جرار وحارب الاتراك ففر سبكتكين ودخل عضد الدولة بغداد وعزل عز الدوله بختيار وقبض عليه وصار هو أمير الامراء ولما بلغ خبر القبض على بختيار الى ولده المرزبان بالبصرة كتب الى ركن الدولة فغضب هذا على ولده عضد الدولة والزمه بان يعيد الملك الى بختيار فاذعن الى امر أبيه وأخرجه من سجنه وأعاده الى ما كان عليه وقفل هو راجعا الى بلاد فارس وفى سنة ٣٦٦ توفى ركن الدولة بن بويه واستخلف على ممالكه ولده عضد الدوله وعهد ولده فخر الدولة على همدان واعمالها ولولده مؤيد الدولة على أصفهان واعمالها وجعلهما تحت حكم اخيهما عضد الدولة وفى السنة التالية سار عضد الدولة الى بغداد ثانيا للانتقام من بختيار عز الدولة الذى استعان عليه بابيه فحاربه مدة ثم أسره وقتله وصار هو الحاكم ببغداد وخلع عليه الخليفه وفى سنة ٣٦٩ قصد عضد الدولة بلاد أخيه فخر الدولة فملكها وهرب أخاه والتجا الى شمس المعالى صاحب جرجان وطبرستان فتبعه عضد الدولة وملك بلاده ثم غزا بلاد الاكراد وصارت دولته فى اتساع ونمو الى ان توفى فى ٨ شوال سنه ٣٧٢ وبعد وفاته ولى بغداد ولده كاليجار المرزبان ولقبوه صمصام الدولة وكان له ولد آخر اسمه شرف الدولة كان بكرمان فلما بلغه خبر موت أبيه سار الى فارس وملكها قبل أخيه صمصام الدولة واستقل بها ثم فى سنة ٣٧٦ قصد شرف الدولة بغداد وحارب أخاه وأسره وأرسله مسجونا الى بلاد فارس واستبد هو بالامر الى أن مات فى أول جمادى الآخرة سنة ٣٧٩ فتقلد الامارة بعده أخ له اسمه أبو النصر بهاء الدولة وكثرت فى هذه السنة الفتن بين الاتراك ورجال بنى بويه

وفى سنة ٣٨١ حصلت وحشة بين الامير والخليفة فقبض الامير على الطائع بالله وعزله وولى مكانه القادر بالله أبى العباس أحمد بن الامير اسحق بن المقتدر بالله وهو السادس والعشرين من بنى العباس واستمر فى الخلافة لسنة ٤٢٢ وفى هذه المدة الطويلة انقرضت دولة آل سامان أصحاب ماوراء النهر وملك بلادهم يمين الدوله محمود الغزنوى بن سبكتكين وذلك فى سنه ٣٨٩ وكان ابتداء ملكهم سنة ٢٦١ فتكون مدة دولتهم مائة ثمانية وعشرين سنه وكذلك انقرضت دولة بنى اميه بالاندلس انتهى ملكهم أولا سنة ٤٠٧ بعزل سليمان المستظهر بالله بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر ثم أعيدت لهم الخلافه سنة ٤١٤ وانتخب أهل قرطبة عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر

فى رمضان وقتلوه فى القعدة وبايعوا محمد المستكفى ثم عزلوه وبايعوا هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ثم عزلوه فى سنة ٤٢٢ وبه انتهت دولتهم نهائيا وكان ابتدائها سنة ١٣٩ فتكون مدتهم بالاندلس مائتين ثلاثه وثمانين سنه

ثم امتدت أملاك محمود الغزنوى وفتح وغزا كثيرا من بلاد الهند وتوفى فى ربيع الاخر سنة ٤٢١ وملك بعده ابنه مسعود وكانت السلطة فى اثناء خلافة القادر فى قبضة بهاء الدوله ابن عضد الدوله بن بويه الى ان مات فى جمادى الاخرة سنه ٤٠٣ وعمره ستة وستون سنه ومدة ملكه اربعة وعشرين سنة وولى الامر بعده ابنه سلطان الدوله وفى أواخر سنة ٤١١ ثار الجند على سلطان الدوله فترك بغداد واستخلف أخاه شرف الدوله فاتحد أخاه مع الجند وحارب سلطان الدولة وانتصر عليه وصار صاحب الامر فى العراق وخطب له بعد اخيه فى أوائل محرم سنة ٤١٢ واستمر فى الامارة الى أن توفى فى ربيع الاول سنة ٤١٦ وبموته ضعف أمر آل بويه ببغداد وعظم أمر الاتراك وحصلت فتن كثيرة وعمت الفوضى جميع انحائها واستمر الحال كذلك الى ان حضر جلال الدولة بن بهاء الدولة الى البصرة فى رمضان سنة ٤١٨ فخرج الخليفة لملاقاته وسلمه قياد الامور

وفى ذى الحجة سنة ٤٢٢ توفى القادر بالله وعمره يقرب من سبعة وثمانين سنة وخلافته احدى واربعين سنه وشهر وبويع بعده ابنه أبو جعفر عبدالله بعهد منه ولقب القائم بامر الله وفى خلافته ابتدأت دولة آل سلجوق وجد هذه العائلة يسمى دقاق من رؤساء قبائل الترك التى كانت تأتى من بلاد كشغر الواقعة فى غرب بلاد الصين تباعا وولد له سلجوق ولنجابته قدمه ملك الترك اذ ذاك واسمه بيغو ثم تركه سلجوق وقصد بلاد الاسلام واسلم هو وجميع من تبعه من رجال قبيلته ونزل بجنده بقرب بخارا وأخذ فى غزو الكفار من الترك فعظم امره وكثرت جنوده وخلف من الاولاد أرسلان وميكائيل وموسى قتل منهم ميكائيل فى الحرب وخلف بيغو وطغرل بك وجغرو بك ثم حصلت فتن بينهم وبين بغراخان ملك تركستان فى ذاك العهد أدت الى سفك الدماء ولما عظم أمر السلجوقيين خشى محمود الغزنوى من تعديهم على املاكه فحاربهم وفرق قبائلهم بين خراسان واصفهان ثم اجتمعوا ثانيا وحاربوه وانتصروا عليه وعلى ولده مسعود من بعده واستولوا على خراسان وخطب لهم على منابرها فى سنة ٤٣١ وفى سنة ٤٣٢ انتهز طغرل بك السلجوقى فرض الحروب الداخلية التى وقعت بين مسعود الغزنوى واخيه محمد وابنه مودود فاستولى طغرل بك المذكور على جرجان وطبرستان وفى السنة التالية أى سنة ٤٣٤ ملك خوارزم وماحولها وفى أثناء ظهور ونمو دولة آل سلجوق بهذه الجهات كانت الفوضى عامة فى بغداد لقيام الفتن بين جنود آل بويه من الديلم والجيوش التركية حتى لما توفى جلال الدوله بن بويه فى شعبان سنة ٤٣٥ لم يتفق الجند على تعيين خلف له وبقيت دار السلام بلا حكومة (ان صح تسميتها بهذا الاسم) الى ان قبل أبو كاليجار بن سلطان الدوله بن بهاء الدوله الامارة وأتى الى بغداد

السلجوقيون

فى صفر سنة ٤٣٦ ولم تطل مدة أبى كاليجار بل توفى فى جمادى الاولى سنة ٤٤٠ بكرمان وتولى بعده ولده الملك الرحيم وفى مدته وقعت عدة فتن فى بغداد بين السنية والشيعة أدت الى حرق قبور بعض الخلفاء وأمراء بنى بويه وقتل فيها خلق كثير لعدم امكان الحكومة قمع الفتن وفى هذه الاثناء عظم أمر طغرل بك السلجوقى فاستولى على اصفهان فى محرم سنة ٤٤٣ ودخل تبريز سنة ٤٤٦ ثم قصد حلوان ونزل بها سنة ٤٤٧ فراسله قواد الاتراك واستدعوه الى بغداد باذلين له الطاعة فقبل وقبل الخليفة وخطب لطغرل بك فى ٢٢ رمضان من هذه السنة ثم دخل بغداد بمن أتى معه من جيوشه بعد ان أقسم للخليفة القائم وللملك الرحيم باحترام حقوقهم لكن لم تلبث جيوشه بالمدينة حتى حصلت فتنة بينهم و بين جنود الملك الرحيم كانت نتيجتها القبض على الملك الرحيم وقواد جيوشه و بذلك انقضت دولة آل بويه بعد ان استمرت مدة ملكهم مائة وثلاثة عشر سنة من تاريخ دخول معز بن بويه بغداد فى جمادى الاولى سنة ٣٣٤ وابتدأت دولة آل سلجوق ببغداد لتوطيد أقدامهم بها زوج طغرل بك ابنة أخيه الى الخليفة سنة ٤٤٨ وتزوج هو بنت الخليفة فى شعبان سنة ٤٥٤

هذا وفى سنة ٤٥٠ ثار ابراهيم أخو طغرل بك على أخيه فحاربه وقتله وفى أثناء اشتغاله بمحاربة أخيه ثار بعض الجنود ببغداد تحت قيادة من يدعى البساسيرى فخرج الخليفة منها وخطب فى الجوامع للمستنصر بالله الخليفة الفاطمى لكن لم تدم هذه الحالة بل عاد طغرل بك الى بغداد وأعاد الخليفة اليها وحارب البساسيرى حتى قبض عليه وقتله فى ٨ ذى الحجة سنة ٤٥١ وفى رجب من هذه السنة توفى داود بن ميكائيل بن سلجوق أخو طغرل بك صاحب خراسان وتولى مكانه ابنه الب ارسلان ثم توفى طغرل بك فى ليلة الجمعة ٨ رمضان سنة ٤٥٥ عن غير عقب وأخلفه الب ارسلان السالف الذكر فصار حاكما على خراسان والعراق والموصل واصفهان وتبريز وغيرها من البلاد التى فتحها طغرل بك قبل وفاته ثم أضاف الب ارسلان الى أملاكه بلاد كثيرة وأطاعه صاحب جند و بخارا وكذلك أصحاب ديار بكر وحلب وفتح مدينة الرملة و بيت المقدس وحاصر دمشق ولم يفتحها وحارب قطلومش بن ارسلان بن سلجوق لعصيانه عليه وقتل فى الحرب فخلفه ولده سليمان الذى أسس دولة سلجوقية بقونية استمرت الى ان فتحها العثمانيون واستمر الب ارسلان مالكا لجميع هذه الجهات المتسعة الى ان قتل فى ١١ ربيع الآخر سنة ٤٥٦ وولى بعده ابنه ملكشاه وفى ١٣ شعبان سنة ٤٦٧ توفى الخليفة القائم بالله وكانت مدة خلافته خمسة وأربعين سنة تقريبا و بويع عبد الله بن ولده محمد ذخيرة الدين لوفاة ذخيرة الدين قبل أبيه القائم ولقب عبد الله المقتدى بامر الله وهو الثامن والعشرين من بنى العباس وساس ملكشاه الامور بغاية الحكمة وفتح البلاد شرقا وغربا وأقام ببغداد مرصدا فلكيا وجامعا عظيما سمى جامع السلطان وعظم فى أيامه أمر الاسلام فى الشرق حتى خطب باسمه من بلاد الصين الى الشام

ومن أقاصى بلاد الاسلام فى الشمال الى بلاد اليمن الى الجنوب وتوفى فى نصف شوال سنة ٤٨٥ و بينما كانت هذه الدولة الاسلامية ترتقى فى درجات الكمال كانت الدول الاسلامية فى الغرب آخذة فى الانحطاط فتفرقت بلاد الاندلس طوائف وملك الافرنج مدينة طليطلة وعبر يوسف بن تاشفين من مراكش الى الاندلس وضم الى رايته بعض ولاياته وضعف حال المسلمين بجزيرة صقلية وتفرق أهلها واستحكم الشقاق بينهم حتى استعانوا على بعضهم بملوك الافرنج ولما توفى ملكشاه أخفت زوجته خبر موته الى ان استحلفت القواد لابنها محمود وعمره أربع سنين وشهور فانكر عليها ذلك ابنه الاكبر بركيارق وحارب جنودها فهزمهم واستقر له الامر وخطب له فى بغداد يوم الجمعة ١٤ محرم سنة ٨٧، وفى يوم السبت ١٥ منه توفى الخليفة المقتدى بامر الله وعمره ثمانية وثلاثين سنة ومدته نحو عشرين سنة وبويع بعده ابنه أبو العباس احمد المستظهر بالله وسنه ستة عشر سنة

هذا و بعد موت ملكشاه تفرق ملكه ولم يضم شتاته أحد من خلفائه بل ثارت بينهم الحروب الداخلية التى أدت الى تجزئتها واستحواز كل فرد على جزء منها واستمرار الحروب بين الامراء السلجوقيين الذين استقلوا ببلاد الشام والموصل والكرد وفارس وغيرها فثار تنش أخو ملكشاه على السلطان بركيارق فقتل فى الحرب فى صفر سنة ٤٨٨ و بعد وفاته وقع الخلف بين ولديه رضوان ودقاق ببلاد الشام واستقل أخيرا كل منهما ببعض المدن وفى محرم سنة ٤٩٠ قتل ارسلان ارغول أخو ملكشاه الذى كان استقل بخراسان بعد موت أخيه قتله بعض غلمانه فاستولى بركيارق على بلاده وأقطعها لاخيه سنجر

الحروب الصليبية

و بسبب هذه الحروب المتواصلة وانقسام الحكومات الاسلامية على بعضها طمع فيهم الافرنج وعقدوا النية على محاربتهم محاربة دينية لاستخلاص مدينة القدس منهم فاتوا برا الى القسطنطينية قاعدة مملكة الروم الشرقية واستولوا عليها ثم عدوا البحر وأتوا الى بلاد الشام وانتصروا فى طريقهم على الامير السلجوقى الذى كان مستقلا بقونيه وما جاورها وفتحوا مدينة انطاكية فى جمادى الاولى سنة ٤٩١ ثم دخلوا المعرة وحمص واستولوا أخيرا على مدينة القدس فى ليلة الجمعة ٢٣ شعبان سنة ٤٩٢ ( ١٥ يوليه سنة ١٠٩٩ ) وولوا جودفروا الفرنساوى ملكا عليها وفى أثناء ذلك كان ملوك آل سلجوق لاهين عن مقاومة الافرنج بالحروب الداخلية العائلية اذ ثار على بركيارق أخ له اسمه محمد وحاربه وهزمه فهرب بركيارق الى خراسان فحاربه أخوه سنجر وهزمه أيضاً فارتحل عنها قاصدا جرجان وكان ذلك فى خلال سنتى ٤٩٢ و٤٩٣ ثم فى السنة التالية انتصر بركيارق على أخيه محمد فى ٣ جمادى الآخرة فالتجأ محمد الى أخيه سنجر وحاربا أخاهما بركيارق فهزماه وتبعاه الى بغداد فدخلاها وارتحل هو عنها قاصدا الموصل والخليفة المستظهر لا هم له الا الخطبة لمن ينتصر منهم وقطعها عمن يغلب كان لا ناقة له فيها ولا جمل

مع انه لو اجتهد فى التاليف بين هؤلاء الاخوة الثلاثة والاتحاد معهم على محاربة الافرنج المهاجمين لبلادهم لما تمكنوا من امتلاك قدر ذراع منها و بقى الحال على هذه الحالة بين أولاد ملكشاه تارة يحاربون وأخرى يتصالحون الى أن مات باركيارق فى ٢ ربيع الاوّل سنة ٤٩٨ وقبل وفاته استحلف العسكر لولده ملكشاه الذى كان عمره أربع سنوات وثمانية أشهر فلم يقبل محمد بن ملكشاه أخو باركيارق بذلك واتفق مع بعض القوّاد فعزلوا ملكشاه ابن باركيارق وصارت السلطنة لمحمد بن ملكشاه بن الب ارسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق وفى غضون هذه الحروب الداخلية ملك الافرنج مدينة سروج من أعمال الجزيرة وعكا وقنسرين فى سنة ٤٩٤ وفتحوا فى السنة التالية مدينة طرسوس وفى سنة ٤٩٦ فتحوا جبيل وغيرها من بلاد الشام لعدم وجود القوى الكافية لمقاومتهم ثم دخلوا مدينة طرابلس فى ١١ ذى الحجة سنة ٥٠٣ ومدينة صيدا فى سنة ٥٠٤ وصالحهم أهل حلب وحماه على مقدار معين من المال

هذا وفى ٢٤ ذى الحجة سنة ٥١١ توفى السلطان محمد السلجوقى وعهد بالسلطنة لابنه محمود وفى ١٦ ربيع الآخر سنة ٥١٢ توفى الخليفة المستظهر وبويع بعده ابنه أبو منصور فضل ولقب بالمسترشد بالله وفى خلافته وقعت عدة حروب بين السلطان محمود السلجوقى وأخيه داود وبعض أعمامه سفكت فيها دماء المسلمين وتوطدت فى أثنائها أقدام الافرنج فى جهات الشام وأسسوا بها أربع امارات مسيحية فى أورشليم وحمص وانطاكية وطرابلس ثم وقع الخلف بين الافرنج لتباين مقاصدهم واختلاف أجناسهم بين نورمانديين وفرنساويين وألمانيين وايطاليانيين وانكليز فضعفت سطوتهم رغما عن توارد الجنود اليهم تقودها سلاطينهم وأعاظم قوّادهم ومن جهة أخرى ظهر فى هذه الظروف عماد الدين زنكى صاحب الموصل وأيد شوكته وسطوته فى البلاد المجاورة له واستولى على عدّة امارات اسلامية ثم عزم على اخراج الافرنج من بلاد الشام فقصد أوّلا مدينة حمص وفتحها عنوة سنة ٥٣٢ واستخلص منهم أغلب بلاد الاسلام ثم أرسل الى مصر أحد قوّاده واسمه أسد الدين شيركوه بناء على استنجاد شاور وزير الخليفة العاضد الفاطمى لمساعدته على خصومة الذين كانوا ينازعونه الوزارة فأتى اليها شيركوه وبعد أن هزم خصوم شاور قتله فى ربيع الآخر سنة ٥٦٤ وتولى هو فى الوزارة ثم مات وتولى يوسف صلاح الدين ابن أخيه نجم الدين أيوب

وفى ٥ ربيع الآخر سنة ٥٤١ قتل عماد الدين صاحب الموصل فخلفه سيف الدين غازى الى أن توفى فى أواخر سنة ٥٤٤ فتولى بعده أخوه نور الدين محمود

ولما مات العاضد فى ١٠ محرم سنة ٥٦٧ قطع صلاح الدين خطبة الفاطميين وصار هو سلطانا على مصر وتلقب بالملك الناصر وخطب للخليفة العباسى وبذلك انتهت دولة الفاطميين بعد ان مكثت ٢٧١ سنة تقريبا تولى الخلافة فى اثنائها أربعة عشر خليفة وهم

المهـدى والقائم والمنصور والمعز والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلى والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد وصارت الخلافة للعباسيين بدون منازع ولم تفترق الخلافة الى الآن وستبقى كذلك بفضل الله ولما توفى نور الدين زنكى فى ١١ شوّال سنة ٥٦٩ خلفه صلاح الدين على الشام والجزيرة وجميع البلاد التى كانت تابعة لنور الدين واشتغل بمحاربة الافرنج فانتصر عليهم فى عدّة مواقع وأخذ منهم مدينة القدس ودخلها فى ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ ( ١٢ اكتوبر سنة ١١٨٧ )

هذا ولنرجع الى ذكر آل سلجوق فنقول ان السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه توفى فى شوال سنة ٥٢٥ وعين بعده ابنه محمود فحاربه عمه مسعود واستمرت الحروب بينهما مدة كان الفوز فيها لمسعود فملك بغداد وفى ١٧ ذى القعدة سنة ٥٢٩ قتل جماعة من الباطنية الخليفة المسترشد أثناء محاربة وقعت بينه وبين مسعود الساجوقى المتقدم ذكره وبويع بعده أبوجعفر المنصور ولقب بالراشد بالله ولم يمكث فى الخلافة الانحو سنة ثم عزله السلطان مسعود فى منتصف القعدة سنة ٥٣٠ وبايع مكانه محمد بن المستظهر ولقبوه المقتفى لامر الله وهو الثانى والثلاثين من بنى العباس

وفى ٢٥ رمضان سنة ٥٣٢ قتل الخليفة الراشد بن المستظهر (١) وكثرت الفتن والقلاقل فى خلافة المقتفى وتفرق ملك السلجوقيين واشتغل أمراؤهم بمحاربة بعضهم فاستقل الخليفة نوعا ببغداد والعراق لعدم وجود من يزاحمه من السلجوقيين أو غيرهم وبقى مرتاح البال بالنسبة لمن سبقه من الخلفاء الى أن مات فى فراشه فى ثانى ربيع الاول سنة ٥٥٥ وبويع بعده ابنه يوسف ولقب المستنجد بالله وفى خلافته وخلافة أبيه علا شأن آل زنكى واستخلصوا أغلب البلاد التى ملكها الافرنج وأتى صلاح الدين الايوبى مصر كما مر وحارب الافرنج وردهم عن سواحلها وصار صاحب النفوذ الاوفر فيها

وفى ٩ ربيع الآخر سنة ٥٦٦ توفى المستنجد وبويع ابنه أبومحمد الحسن ولقب المستضىء بأمر الله واشترط عليه عضد الدين أبو الفرج الذى كان أستاذ دار أبيه أن يكون وزيرا له وابنه كمال الدين استاذ داره والامير قطب الدين أميرا للعسكر فقبل المستضىء بذلك ووقع فى حجرهم وفقد ما كان لابيه المستنجد وجده المقتفى من بعض الحرية والاستقلال وفى خلافته انقرضت دولة الفاطميين فى مصر بموت العاضد وخطب للعباسيين بها فى ثانى جمعة من محرم سنة ٥٦٧ أى فى ١٤ منه واستقل بها صلاح الدين بن أيوب ولم يترك للعباسيين سوى الخطبة وفتح شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخ صلاح الدين بلاد اليمن ولما توفى نور الدين

---

(١) قد تولى الخلافة من الاخوة بالتعاقب الهادى والرشيد ولدى المهدى والواثق والمتوكل ولدى المعتصم والامين والمأمون والمعتصم أولاد هرون الرشيد والمكتفى والمقتدر والقادر أولاد المعتضد والراضى والمتقى والمطيع أولاد المقتدر وجميعهم من العباسيين وقد تولى الخلافة أربعة اخوة من الامويين وهم الوليد وسليمان ويزيد وهشام أولاد عبد الملك بن مروان

فى ١١ شوال سنة ٥٦٩ استولى صلاح الدين على أغلب بلاده وأقطعها لاخوته وأولاد عمومته وفتح كثيراً من البلاد التى ملكها الافرنج حتى لم يبق لهم الا مدينة القدس و بعض قرى صغيرة وفى ٢ القعدة سنة ٥٧٥ توفى الخليفة المستضىء و بويع ابنه الناصر لدين الله وفى خلافته استرد صلاح الدين الايوبى أغلب البلاد التى كانت فى يد الافرنج واستخلص منهم القدس الشريف ودخله يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ (١٢ اكتوبر سنة ١١٨٧) واستمر على الفتح والغزو الى أن مات بدمشق يوم الاربع ٢٦ صفر سنة ٥٨٩ (٣ مارث سنة ١١٩٣) و بموته تفرّقت أملاكه وانفرط عقد انتظامها واستقل كل من أولاده وكانوا سبعة عشر بجزء منها فاستقل بمصر الملك العزيز عماد الدين عثمان واستقل الافضل نور الدين على بدمشق فضعف حال الاسلام بعدما بلغه من القوة أيام الناصر صلاح الدين الايوبى ثم وقع الخلف بين أولاده وطمع كل منهم فيما فى يد أخيه ولو بالحرب والقتال فاتحد العزيز صاحب مصر مع عمه العادل صاحب الكرك على محاربة الافضل صاحب دمشق فحاربوه وأخرجوه منها و بقى فيها العادل وعاد العزيز الى مصر مكتفيا بالخطبة والسكة ثم توفى الملك العزيز فى محرم سنة ٥٩٥ وخلفه ابنه الملك المنصور وكان عمره تسع سنين ولصغر سنه ارتأى أمراء الدولة استدعاء أحد أمراء بنى أيوب ليكون وزيرا له فاختاروا الافضل الذى كان صاحب دمشق وكاتبوه فحضر مسرعا ثم قصد دمشق للانتقام من عمه الملك العادل واتحد مع أخيه الظاهر صاحب حلب على محاربة العادل فحاصرا دمشق مدة ثم وقع الخلف بينهما وعاد كل منهما الى بلاده فتبع العادل الافضل وجيوشه الى مصر وهزمه وأكرهه على الخروج منها وصار هو وزيرا للملك المنصور بن العزيز ثم غدر بالمنصور وأخرجه من مصر سنة ٥٩٩ واستقل هو بمصر ودمشق وماحولها وصار له أغلب بلاد أخيه الناصر صلاح الدين و بقى ملكه فى ازدياد وشأنه فى ارتقاء الى أن توفى فى ٧ جمادى الاخرة سنة ٦١٥ وعمره خمسة وسبعين سنة قضاها فى محاربة الافرنج وصد غاراتهم عن بلاد الاسلام وخلفه فى مصر ابنه الملك الكامل وفى دمشق الملك المعظم عيسى وخلف من البنين ستة عشر ولدا غير البنات

وفى ١٠ رمضان سنة ٦١٥ (٣٠ نوفمبر سنة ١٢١٨) ضايق الافرنج الصليبيون ثغر دمياط وفتحوه عنوة وجعلوا الجامع كنيسة فابتنى الملك الكامل قلعة حصينة بالقرب منها سماها المنصورة (وهى مدينة المنصورة مركز مديرية الدقهلية الان) ليراقب حركات الافرنج و يمنع تقدمهم داخل الديار المصرية فلم يجسر الصليبيون على مهاجمتها ولبثوا ينتظرون المدد من بلادهم الى ان ارتفعت مياه النيل فى صيف سنة ٦١٨ فقطع المسلمون جسوره وطغى الماء على معسكر الافرنج وحال بينهم و بين دمياط قاعدة أعمالهم وصاروا فى ضيق شديد فاخذوا يخابرون الملك الكامل على أن يردوا اليه ثغر دمياط بشرط أن لا يفتك بهم فقبل الكامل بذلك وسلمت اليه مدينة دمياط فى ١٩ رجب سنة ٦١٨

( ٨ سبتمبر سنة ١٢٢١ ) وأقيمت شعائر الاسلام فى جوامعها كما كانت عليه قبل
هذا وفى أول شوال سنة ٦٢٢ توفى الخليفة الناصر لدين الله وكانت مدته نحو سبعة وار بعين سنة وكان مستقلا بالعراق صارفا همته للمحافظة عليه ولم يحارب الافرنج أصلا وفى مدته ظهر التتر وخرجوا من بلادهم الواقعة غرب بلاد الصين فى سنة ٦١٧ هجرية تحت قيادة رئيسهم جنكيزخان فقصدوا أولا بلاد خوارزم وفتحوها وملكوا بخارى وسمرقند وغزنه بعد محاربات عنيفة ثم سارت فرقة الى بلاد الروس الشمالية وملكوها و بقيت فى ملكهم الى أواخر القرن الخامس عشر للميلاد و يقال ان الخليفة الناصر هو الذى استدعاهم من بلادهم لمحاربة خوارزمشاه فجرّ بذلك على الاسلام اجمع من المصائب مالم يطرأ عليه أبدا لانهم كانوا يقتلون المسلمين و يسبون نسائهم ويخربون الجوامع ويحرقون الكتب النفيسة و يرتكبون أنواع المنكرات جهارا

و بعد موت الخليفة الناصر لدين الله بو يع ابنه أبو النصر محمد ولقب الظاهر بامر الله ولم تطل مدته فانه توفى فى ١٤ رجب سنة ٦٢٣ و بو يع بعد موته ابنه أبو جعفر المنصور ولقب المستنصر بالله وفى خلافته أخذ أمر الاسلام فى الضعف بعد ان بلغ من القوة مبلغاً عظيما حتى استخلصوا مدينة القدس من الافرنج وسبب هذا الضعف انقسام أولاد صلاح الدين الايو بى واخوته ومحار بتهم بعضا طمعا فى امتلاك مدينة أو قرية غير ناظرين الى الاجانب المحتلين بعض بلاد الشام يتربصون الفرص للانقضاض عليهم واسترجاع مدينة القدس ثانيا فلما توفى الملك المعظم بن الملك العادل بن أيوب فى ذى القعدة سنة ٦٢٤ صاحب دمشق وخلفه ابنه الناصر داود اتحد الملك الكامل صاحب مصر وأخيه الملك الاشرف على انتزاع دمشق من يد الناصر ابن أخيهما المعظم وليتمكن الكامل من التفرغ لمحاربة الناصر و يأمن جانب الافرنج فى أثناء محاربته له كاتب الامبراطور فريدريك امبراطور الالمان وصاحب صقلية على أن يهادنه ست سنوات و يسلمه مدينة القدس و بعض المدن الاخرى بشرط عدم التعرّض للجامع الاقصى ولا لجميع المسلمين واتفق مع الامبراطور على ذلك وسلمه مدينة القدس فى ربيع الاخر سنة ٦٢٦ ( مارث سنة ١٢٢٩ ) بدون حرب مع ان الملك الناصر صلاح الدين بذل النفس والنفيس فى استخلاصها منهم سنة ٥٨٣ وسلمها هو اليهم غنيمة باردة ليحارب ابن أخيه و ينتزع بعض بلاده منه و بعد ان تم تسليم القدس الى الافرنج بهذه الكيفية التى تلحق العار بالملك الكامل مدى الدهر وتسود صحائف تاريخه جمع جيوشه حول مدينة دمشق واستولى عليها فى جمادى الاولى فتمت له أمنيته ونال بغيته بعد ان ضحى البلاد التى صرف صلاح الدين عمره فى استخلاصها من يد الافرنج فانظر أيها القارىء الى نتيجة الانقسام أمام العدو ونبذ الاتحاد والتضافر ظهريا ثم قضى الملك الكامل بقية عمره فى محاربة اخوته وأقاربه ومات فى ٢١ رجب سنة ٦٣٥ فعين الجند والامراء بعده ابنه الملك العادل فاتى الى مصر لكن لم تطل مدته بل قبض عليه فى ٨ ذى القعدة سنة ٦٣٧

بدسيسة أخيه الملك الصالح أيوب ووصل الصالح الى مصر فى ٢٤ منه واستقر بها واستمرّ الملك العادل مسجونا الى أن توفى سنة ٦٤٥ وفى هذه الاثناء تقدم التتر فى بلاد الاسلام وامتلكوا جميع بلاد فارس ووصلت طلائعهم الى العراق وفى ١٠ جمادى الاخرة سنة ٦٤٠ توفى الخليفة المستنصر بالله أبو جعفر المنصور و بويع بعده ابنه أبو احمد عبد الله ولقب المستعصم بالله وهو الثامن والثلاثين من بنى العباس بعد عبد الله بن المعتز والسابع والثلاثين لو أسقط بن المعتز من عدادهم والمستعصم بالله هو آخر من ولى الخلافة الاسلامية من العباسيين ببغداد وفى خلافته انتصر الصالح أيوب على الافرنج بقرب غزة سنة ٦٤٢ هجرية ( سنة ١٢٤٤ م ) واستخلص مدينة القدس التى كان سلمها الملك الكامل اليهم سنة ٦٢٦ فحولوا أنظارهم الى القطر المصرى وأتى اليه لويس التاسع ملك فرنسا ومعه جيش عظيم واحتل ثغر دمياط بدون كثير عناء فى ٢١ صفر سنة ٦٤٧ (٥ مايو سنة ١٢٤٩ ) فتحصن الصالح أيوب فى المنصورة لردهم عن القاهرة وفى أثناء الاستعداد للقتال توفى الصالح فى ليلة الاحد ١٤ شعبان سنة ٦٤٧ فاخفت زوجته شجرة الدر خبر موته الى أن حضر من الشام ولده توران شاه الذى خلفه فى ملك مصر وفى أوائل محرم سنة ٦٤٨ (ابريل سنة ١٢٥٠ ) انتصر المسلمون على الافرنج بقرب المنصورة وأخذوا ملك فرنسا أسيرا مع كثير من أمراء الفرنساويين وحجز الملك فى دار فخر الدين بن لقمان كاتب الانشاء ووكل به طواشى يسمى صبيح

و بعد ذلك بقليل قتل توران شاه بفارسكور فى ٢٨ محرم سنة ٦٤٨ قتله ركن الدين بيبرس احد المماليك الذين جمعهم والده السلطان الصالح لحراسته وسماهم البحرية واتفقوا على تولية أمه شجرة الدر فخطب باسمها ثم فى صفر حصل الاتفاق بين المسلمين وملك فرنسا على اطلاقه من الاسر بشرط رد مدينة دمياط اليهم فدخلها المسلمون فى صفر سنة ٦٤٨ مايو سنة ١٢٥٠ ) ونزل ملك فرنسا الى البحر مع من بقى من رجاله فى اليوم التالى عائدين الى بلادهم و بذلك انتهت الحروب الصليبية و بقى بيت المقدس فى يد المسلمين الى الان

دولة المماليك البحرية بمصر

هذا ثم عزلت شجرة الدر وولى مكانها المعز ايبك التركمانى مملوك زوجها السلطان الصالح وهو أول المماليك البحرية فى ٣٠ جمادى الاخرة سنة ٦٤٨ وتزوج بشجرة الدر و بذلك انتهى ملك الايوبيين بمصر ثم قتل بايعاز شجرة الدر فى ٢٣ ربيع الاول سنة ٦٥٥ فلم يوليها المماليك بل ولوا نور الدين على بن المعز أيبك وحبسوا شجرة الدر ثم قتلوها فى ١٦ ربيع الاخر سنة ٦٥٥ وكانت تركية وقيل أرمنية

وفى أثناء ذلك تقدم التتر نحو بغداد تحت امرة هولا كوخان حفيد جنكيزخان ودخلوها عنوة فى ٣٠ محرم سنة ٦٥٦ وقتلوا الخليفة المستعصم وكل من قبضوا عليه من بنى العباس والامراء والعلماء وكان دخولهم اليها بدسيسة الوزير مؤيد الدين بن العلقمى فانتهت دولة العباسيين ببغداد بعد ان استمرت خمسمائة ار بعة وعشرين سنة وتشتت من

نجا من العباسيين ثم وصل التتر الى بلاد الشام وأخربوها واضمحل الاسلام وتفرقت أجزاؤه الى أن ظهرت دولة العثمانيين بالاناضول فاعادت اليه رونقه السابق وضمت ما تفرق من ممالكه وصارت هى الدولة الوحيدة الاسلامية أمام العالم الاوروبى وسترى فى هذا الكتاب مالاقته فى سبيل تقدمها من الموانع وذللته من العقبات مع بيان أسباب ارتقائها وانحطاطها وما وصلت اليه فى هذه الايام من التأخر والتقهقر

ثم أخذ التتر يتقدمون الى جهات الشام ففتحوا اغلب مدنه ونهبوها وقتلوا أهلها حتى خيف على مصر من وصول أذاهم اليها ولذلك أجمع الامراء على عزل سلطانها نور الدين على لصغر سنه وعدم مقدرته على صد هجمات التتر فعزل فى يوم السبت ١٧ ذى القعدة سنة ٦٥٧ وولى مكانه المظفر سيف الدين قطز المعزى وهو مملوك المعز أيبك التركمانى ثم قتل قطز المذكور بعد سنة قتله ركن الدين بيبرس البندقدارى فى ١٥ ذى القعدة سنة ٦٥٨ وخلفه فى الملك وتلقب بالظاهر وهو من مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب وفى أيامه وفد الى مصر الامام احمد بن الخليفة الظاهر بامر الله فى ١٩ رجب سنة ٦٥٩ وأثبت نسبه بحضور الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيخ الاسلام فبايعه الظاهر بيبرس بالخلافة ولقب المستنصر بالله وبايعه الخليفة بالسلطنة وفوض اليه امور البلاد فعادت بذلك الخلافة الى الاسلام بعد انقطاعها نحو ثلاث سنوات ثم جمع الظاهر جيشا وارسله مع الخليفة المستنصر الى بغداد فحاربه التتر فى الانبار فى اواخر سنة ٦٥٩ وهزموا من كان معه من الجند ولم يوقف للخليفة على أثر بعد ذلك

وبعد انقطاع خبره اتى الى مصر فى سنة ٦٦٠ الامام احمد بن على بن أبى بكر ابن الخليفة المسترشد ابن الخليفة المستظهر وثبت نسبه بحضور العلماء فبايعه الظاهر على أن تبقى الاحكام بيده ولقب بالحاكم بامر الله ثم أمر الظاهر بان ينقش اسم الخليفة مع اسمه على العملة ويذكر اسمه فى الخطبة قبل اسم السلطان وأقام الخليفة بمصر وصارت القاهرة مقراً للخلفاء العباسيين الى أن انتقلت الخلافة الى العثمانيين فى سنة ٩٢٣ كما سيجىء والحاكم بامر الله هو أول العباسيين بمصر لان احمد المستنصر لم يقم بها بل كان يقصد ارجاع الخلافة لبغداد كما كانت فحال التتر دون مشروعه وطالت خلافة الحاكم بأمر الله بمصر مدة اربعين سنة تقريباً وتوفى فى ١٨ جمادى الاولى سنة ٧٠١ هجرية ودفن بمشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها (١)

وبويع بعده ابنه المستكفى بالله أبو الربيع سليمان وهو ثانى العباسيين بمصر وفى أثناء هذه الاربعين سنة ظهرت الدولة العثمانية ببلاد الاناطول سنة ٦٩٩ وتعاقب ستة سلاطين على مصر وملحقاتها فتوفى الظاهر بيبرس فى ١٨ محرم سنة ٦٧٦ بقرب دمشق

---

(١) وهي السيدة نفيسه بنت الامام حسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب أتت من مكه الي مصر مع زوجها اسحق بن جعفر الصادق وأخذ عنها الامام الشافعي الحديث وتوفيت بمصر في رمضان سنة ١٠٨

ودفن بها وتولى بعده ابنه الملك السعيد أبو المعالى محمد ومما يذكره التاريخ للسلطان الظاهر انه استردّ أغلب بلاد الشام التى كانت باقية مع الافرنج وأهمها انطاكيه و يافه وحلب وطرسوس وطبريه وصفد وغيرها وضم لملكه مدائن دمشق و بعلبك و بيت المقدس وكثيرغيرها ثم خلع الملك السعيد فى ربيع أوّل سنة ٦٧٨ وتولى أخوه الملك العادل سيف الدين ابن الظاهر بيبرس وكان القائم بتدبير مملكته الواسعة قلاوون الالفى من مماليك الصالح نجم الدين أيوب فخلع السلطان فى ١٢ رجب سنة ٦٧٨ وتقلد هو الملك اغتصابا وتقلب بالمنصور سيف الدين واستقامت له الاحوال ولم يجسر أحد على خلعه كما خلع أولاد الظاهر بيبرس لاقتنائه عدة آلاف من المماليك واسكانهم فى ابراج القلعة ولذلك أطلق عليهم اسم البرجية وتوفى السلطان قلاوون فى ٦ ذى القعدة سنة ٦٨٩ وولى بعده ابنه صلاح الدين خليل ولقب بالاشرف وهو الذى هدم قبور الخلفاء الفاطميين و بنى مكانها الخان المسمى للآن بالخان الخليلى بقرب المشهد الحسينى وقتل الاشرف فى المحرم سنة ٦٩٣ وتولى بعده أخوه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى ١٨ منه وعمره تسع سنين وكسور ثم خلع الناصر بعد سنة فى ١١ محرم سنة ٦٩٤ وتولى بعده كتبغا أحد مماليك أبيه قلاوون وتلقب بالعادل وهو العاشر من ملوك الاتراك وخلع فى نصف صفر سنة ٦٩٦ وخلفه حسام الدين لاچين وهو أيضاً من مماليك قلاوون وتلقب بالمنصور وقتل فى ١٠ ربيع الآخر سنة ٦٩٨ وأعيد الناصر محمد بن قلاوون واستمر فى الملك هذه الدفعة الى سنة ٧٠٨ وفيها خلع نفسه من المملكة لاستئثار الامراء بالاحكام قهراعنه وترك الديار المصرية وأقام بالكرك و بويع بعده ركن الدين بيبرس وتلقب بالمظفر وذلك فى ٢٣ شوّال سنة ٧٠٨ و فى السنة التالية اتفق باقى الامراء على عزله واعادة الملك الناصر ثالثا وكتبوا له بذلك فعاد الى القاهرة ودخلها فى موكب حافل يوم الخميس ٢ شوّال سنة ٧٠٨ واستمر هذه الدفعة فى الملك الى أن توفى ليلة الخميس ٢٠ ذى الحجة سنة ٧٤١ وهو الذى أمر بحفر الخليج الناصرى الذى يخترق القاهرة للآن وخلف أحد عشر ولدا غير البنات تولى منهم السلطنة ثمانية وهم أبو بكر وأحمد وكجك وشعبان واسمعيل وحاجى وحسن وصالح و فى آخر مدّته غضب على الخليفة المستكفى ونفاه الى مدينة قوص بالصعيد فى سنة ٧٣٨ وأقام بها الى أن توفى فى شعبان سنة ٧٤٠ معهدا بالخلافة بعده لابنه أبى العباس أحمد لكن لم يتبع السلطان الناصر هذا العهد بل بايع أبو اسحق ابراهيم ابن أخ المستكفى ولقبه الواثق بالله ولما توفى الناصر وتولى بعده ابنه الملك المنصور سيف الدين أبو بكر خلع الواثق بالله فى المحرم سنة ٧٤٢ و بايع أبا العباس أحمد بن المستكفى الذى كان عهد اليه أبوه بالخلافة ولقب الحاكم بأمر الله و بقى فى الخلافة الى أن مات سنة ٧٥٤

هـذا ولنذكر ما حصل فى ملك مصر فى هذه الاثناء فنقول ولى مصر وملحقاتها بعد الناصر محمد بن قلاوون ابنه المنصور أبو بكر ثم قتل فى صفر سنة ٧٤٢ وتولى بعده

أخوه الاشرف علاء الدين كجك وخلع فى هذه السنة وتولى بعده أخوه الناصر شهاب الدين أحمد فى شوّال سنة ٧٤٢ وخلع كذلك فى محرم سنة ٧٤٣ وتولى بعده أخوه الملك الصالح علاء الدين أبوالفداء اسمعيل رابع أولاد الناصر ولم يخلع كاخوته بل توفى فى ١١ ربيع الاوّل سنة ٧٤٦ وتولى بعده أخوه الملك الكامل شعبان خامس أولاد الناصر وخلع ثم قتل فى أوائل جمادى الآخرة سنة ٧٤٧ وتولى بعده أخوه المظفر حاجى ثم قتل كغالب اخوته فى رمضان سنة ٧٤٨ و بويع بعده أخوه الملك الناصر أبو المحاسن حسن فى ١٤ رمضان وهو صاحب الجامع العظيم الكائن بالقرب من القلعة وعزل أوّلا فى ١٧ جمادى الآخرة سنة ٧٥٢ و بويع أخوه الملك صلاح الدين صالح ثامن أولاد الناصر محمد ابن قلاوون فى يوم الاثنين ١٨ منه وهو آخر من ولى السلطنة من أولاده و فى مدّته توفى الخليفة الحاكم سنة ٧٥٤ وحصلت البيعة لابنه أبى بكر المعتضد بالله وهو خامس العباسيين فى مصر و بقيت خلافته لسنة ٧٦٣ وفى خلالها عزل الملك صلاح الدين صالح فى يوم الاثنين ثانى شوّال سنة ٧٥٥ وحجز فى دار الحريم الى أن توفى سنة ٧٦٢ وأعيد أخوه الملك الناصر حسن الذى سبق عزله فى جمادى الآخرة سنة ٧٥٢ ثم قتل فى يوم الاربعاء ٩ جمادى الاولى سنة ٧٦٢ وتولى الملك المنصور محمد ابن أخيه الملك المظفر حاجى بن الناصر محمد بن قلاوون وهو الحادى والعشرين من ملوك الترك بمصر

و بعد سنة من توليته توفى الخليفة المعتضد بالله أبو بكر فى ليلة الاربع ١٨ جمادى الآخرة سنة ٧٦٣ وعهد قبل وفاته بالخلافة لولده محمد فبايعه السلطان وتلقب بالمتوكل على الله و فى خلافته عزل السلطان الملك المنصور محمد فى ٤ شعبان سنة ٧٦٤ وولى الملك الاشرف أبى المعالى زين الدين شعبان بن مجد الدين حسين بن الناصر محمد بن قلاوون ثم قتل الملك الاشرف فى ذى القعدة سنة ٧٧٨ وتولى ابنه الملك المنصور علاء الدين علىّ وعمره سبع سنين وأشهر وتوفى فى ٢٣ صفر سنة ٧٨٣ ولم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره وولى بعده أخوه الملك الصالح أمير حاج وهو آخر بنى قلاوون خلعه الاتابكى برقوق باتفاق مع الخليفة المتوكل والقضاة وشيخ الاسلام فى يوم الاربع ١٩ رمضان سنة ٧٨٤ وتولى السلطنة الاتابكى برقوق ولقب بالظاهر سيف الدين أبى سعيد و بتوليته انتهى ملك بنى قلاوون بعد ان لبثت السلطنة فى قلاوون وذرّيته مدّة مائة سنة وثلاثة وابتدأت دولة المماليك الجراكسة وفى سلطنته قبض على الخليفة المتوكل فى سنة ٧٨٥ وخلعه وسجنه و بايع الخليفة الواثق بالله عمر ثم عزله فى سنة ٧٨٨ و بايع أخاه زكريا ابراهيم وعزله فى يوم الاحد ٥ جمادى الاولى سنة ٧٩١ وأعاد الخليفة المتوكل ثانيا بعد ان لبث فى السجن مقيدا بالحديد نحو خمس سنين و بعد ذلك بشهر خلع الامراء الظاهر برقوق فى ٥ جمادى الثانية وأعيد الملك الصالح أمير حاج آخر بنى قلاوون ثانيا وتلقب بالمنصور و بعد بضع شهور عزل ثانيا فى صفر سنة ٧٩٢ و بقى محجوزا فى دار الحريم الى أن مات فى ١٩ شوّال سنة ٨١٤ وعاد الملك الظاهر برقوق

دولة المماليك الجراكسة

ودخل القاهرة فى يوم الاربع ١٤ صفر سنة ٧٩٢ وبقى فى السلطنة الى أن مات فى فراشه فى ١٥ شوال سنة ٨٠١ وتولى بعده ابنه الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج وفى مدته وصل تيمورلنك الى بلاد الشام وفتح حلب ودمشق وارتكب فيهما هو وعسكره مالا يوصف من أنواع المظالم وانتصر على السلطان بايزيد العثمانى ابن مراد كما ستراه مفصلا فى هذا الكتاب ثم حصل خلاف بين السلطان الناصر وبعض أمرائه فاختفى فى سنة ٨٠٨ وولى أخوه الملك المنصور عز الدين أبو العز عبد العزيز وجلس على سرير الملك فى ٢٦ ربيع الاول سنه ٨٠٨ وبعد شهرين ظهر أخوه الناصر واستولى على الامارة ثانيا وقبض على أخيه المنصور عز الدين وسجنه فى الحريم وجلس هو على السرير فى ٤ جمادى الآخرة سنة ٨٠٨

وبعد ذلك توفى الخليفة محمد المتوكل فى ٢٨ رجب سنة ٨٠٨ وبويع بعده بكر أولاده أبو العباس وتلقب المستعين بالله وفى سنة ٨١٥ عصى الامراء على الملك الناصر ببلاد الشام بزعامة الامير نوروز الحافظى والامير شيخ المحمودى فسار الناصر لحاربتهم فانتصروا عليه فى محرم وسجنوه ثم قتلوه بدمشق فى ليلة السبت ٦ صفر ولعدم اتفاقهم على من يعين خلفاً له منهم اتفقوا أخيرا حسماً للنزاع على تعيين الخليفة المستعين بالله سلطاناً فجمع بين السلطة الدينية والدنيوية وبايعوه فى ١٧ محرم سنة ٨١٥ بشرط أن يكون الامير نوروز نائباً على جميع بلاد الشام والامير شيخ المحمودى نائباً بمصر لكن لم يلبث الامير شيخ ان طمع فى الملك فعزل المستعين من السلطنة وأبقاه فى الخلافة فقط كما كان قبلا وتولى الامير شيخ السلطنة فى أول شعبان سنة ٨١٥ وتلقب بالمؤيد أبى النصر وهو من مماليك الظاهر برقوق . ثم عزل المستعين من الخلافة وأرسله الى اسكندرية فاقام بها الى أن توفى فى ٢١ جمادى الآخرة سنة ٨٣٣ ولما عزل بويع بعده أخوه داود ولقب المعتضد بالله

هذا ولما استبد المؤيد بملك مصر عصاه الامير نوروز نائب بلاد الشام فحاربه المؤيد وقبض عليه وقتله وبذلك صار له ملك مصر والشام معا كما كان لسلفائه وتوفى المؤيد فى ٩ محرم سنة ٨٢٤ ( ١٤ يناير سنة ١٤٢١ ) ودفن بجامعه الذى أنشأه داخل باب زويلة أمام حمام السكرية وولى ابنه الملك المظفر أبو السعادات احمد وعمره سنة واحدة وثمانية اشهر وعين الاتابكى ططر نائباً عنه فعزله فى ٢٩ شعبان سنة ٨٢٤ ( ٢٩ اغسطس سنة ١٤٢١ ) وتولى هو مكانه ولقب بالظاهر سيف الدين أبى سعيد ططر وهو من مماليك الظاهر برقوق ثم سجن الملك المظفر بن المؤيد باسكندرية الى أن مات سنة ٨٣٣ وعمره نحو احدى عشرة سنة ولم تطل مدة الظاهر ططر بل توفى فى ٤ ذى الحجة سنة ٨٢٤ ( ٣١ نوفمبر سنة ١٤٢١ ) وتولى بعده ابنه محمد وعمره احدى عشرة سنة وتلقب بالملك الصالح ناصر الدين ثم عزله الامير برسباى الدقماقى أحد مماليك الظاهر برقوق فى ٨ ربيع الآخر سنة ٨٢٥ ( ١ ابريل سنة ١٤٢٢ ) وسجنه الى أن مات سنة ٨٣٣ وتولى هو مكانه وتلقب بالملك

الاشرف أبى النصر وهوالثامن من ملوك الجراكسة والثانى والثلاثين من ملوك الترك وهو الذى استخلص جزيرة قبرص من الافرنج سنة ٨٢٥ وبنى الجامع الكائن باول الغورية وآخر بجبانة المجاورين وهو الذى دفن به وأنشأ جامعاً وخانقاه بسرياقوس وتوفى فى ١٣ ذى الحجة سنة ٨٤١ ( ٧ يونيه سنة ١٤٣٨ ) وتولى بعده ابنه يوسف وعمره اربعة عشر سنة وتلقب بالملك العزيز أبى المحاسن جمال الدين ولصغر سنه تولى ادارة الامور الاتابكى جقمق أحد مماليك الظاهر برقوق فطمع فى الملك وخلع الملك العزيز فى ١٩ ربيع الاول سنة ٨٤٢ (٩ ستمبر سنة ١٤٣٨) وتولى هو مكانه ولقب الملك الظاهر أبى سعيد جمتق وهو عاشر ملك من مماليك الجراكسة

وفى أيامه توفى أمير المؤمنين المعتضد بالله فى ٤ ربيع الاول سنة ٨٤٥ وبويع بعده أخوه سليمان ثالث من تولى الخلافة من أولاد المتوكل وتلقب بالمستكفى بالله وقد بايع أمير المؤمنين المعتضد فى مدة خلافته وهى ثمانية وعشرين سنه وكسور ستة سلاطين المظفر احمد بن المؤيد شيخ والظاهر ططر وابنه والاشرف برسباى وابنه والظاهر جقمق وتوفى المستكفى فى ٢ محرم سنة ٨٥٥ وبويع بعده أخوه حمزة رابع أولاد المتوكل ولقب القائم بأمر الله وفى خلافته مرض الملك الظاهر جقمق فاستقال من السلطنة فى ٢١ محرم سنة ٨٥٧ وولى ابنه عثمان وتلقب بالملك المنصور أبى السعادات فخر الدين ثم توفى الظاهر جقمق فى ٤ صفر سنة ٨٥٧ (١٤ فبراير سنه ١٤٥٣ ) ولم تدم سلطنة المنصور عثمان الا نحو شهر ونصف اذ عزله الاتابك اينال العلائى أحد مماليك الظاهر برقوق فى ٨ ربيع الاول سنة ٨٥٧ ( ١٩ مارث سنة ١٤٥٣ ) بعد حرب استمرت بين مماليك الطرفين مدة اسبوع وتولى اينال مكانه وتلقب بالملك الاشرف أبى النصر سيف الدين

وفى رجب سنة ٨٥٩ خلع السلطان الخليفة المستكفى وبايع أخاه يوسف خامس أولاد المتوكل فى ١٣ من هذا الشهر ولقبه بالمستنجد بالله أبى المحاسن وهو ثالث عشر خلفاء العباسيين بمصر وفى خلافته توفى السلطان الاشرف اينال فى ١٥ جمادى الاولى سنة ٨٦٥ ( ٢٦ فبراير سنة ١٤٦١ )وتولى بعده ابنه احمد وتلقب بالملك المؤيد أبى الفتح شهاب الدين وعزل بعد أربعة أشهر عزله بعض الامراء المماليك فى ١٧ رمضان سنة ٨٦٥ ( ٢٦ يونيه سنة ١٤٦١ )وولوا بعده خوشقدم مملوك المؤيد شيخ وأصله رومى الجنس وتلقب بالملك الظاهر أبى سعيد سيف الدين ثم توفى خوشقدم فى ١٠ ربيع الاول سنة ٨٧٢ ( ١٩ اكتوبر سنة ١٤٦٧ )تاركا ولدين لكن لم يتفق الامراء على تعيين أحدهما بل ولوا الامير بلباى مملوك المؤيد شيخ وتلقب بالملك الظاهر أبى النصر سيف الدين وكان جركسى الاصل ولم يمكث فى السلطنة الا نحو شهرين ثم وقعت فتنة بين مماليك السلطان اينال ومماليك المؤيد شيخ الذين منهم بلباى أدت الى خلع بلباى فى ٧ جمادى الاولى سنة ٨٧٢ ( ٤ دسمبر سنة ١٤٦٧ )وتولية تمربغا الرومى الجنس مملوك الظاهر جقمق فبايعه الخليفة والقضاة والامراء

وتلقب بالملك الظاهر أبى سعيد ثم اختلف طوائف المماليك واقتتلوا ثم اتفقوا على عزل تمربغا فعزلوه فى ٦ رجب سنة ٨٧٢ (٣١ يناير سنة ١٤٦٨) وولوا قايتباى الجركسى الاصل ولقب بالملك الاشرف أبى النصر سيف الدين فهدأت الاحوال فى مدته وانقطعت الفتنة تقريباً وطالت مدته نحو ثلاثين سنة أنشأ فى أثنائها كثيراً من المدارس والتكايا والجوامع ببلاد مصر والشام ومكة والمدينة وتوفى فى يوم الاحد ٢٧ القعدة سنة ٩٠١ (٦ اغسطس سنة ١٤٩٦) ودفن بالجامع الذى أنشأه بالقرافة ولم يزل موجوداً للان شهيراً بحسن هندسته ولطافة نقوشه وفى سلطنته توفى الخليفة المستنجد بالله فى يوم السبت ٢٤ محرم سنة ٨٨٤ فكانت مدة خلافته خمسة وعشرين سنة تولى السلطنة فيها خمسة سلاطين وهم المؤيد احمد بن اينال والظاهر خوشقدم والظاهر بلباى والظاهر تمربغا والاشرف قايتباى

وفى يوم ٢٦ محرم سنة ٨٨٤ بويع عبدالعزيز بن يعقوب بن محمد المتوكل على الله ولقب المتوكل على الله أبو العز وبقى فى الخلافة تسعة عشر سنة وأياما وتوفى فى ٣٠ محرم سنة ٩٠٣ وبويع بعده ابنه يعقوب ولقب المستمسك بالله أبو الصبر وفى خلافة عبدالعزيز بن يعقوب توفى السلطان قايتباى كما مر وتولى ابنه محمد قبل وفاة أبيه بيوم حيث اتفق الامراء والخليفة والقضاة على عزل أبيه بسبب مرضه وعدم مقدرته على ادارة الاحوال وتلقب بالملك الناصر أبى السعادات ناصر الدين وكانت أيامه فتن وحروب بين طوائف المماليك كانت نتيجتها قتله فى ١٥ ربيع الاول سنة ٩٠٤ وتولية أحد مماليك أبيه الجراكسة مكانه واسمه قانصوه وكان يدعى أنه أخ احدى حظيات السلطان قايتباى وأم ولده محمد السلطان السابق والمولى السلطنة بعد قتل ابن سيده وابن أخته حسب دعواه تلقب بالملك الظاهر أبى سعيد واستمرت الفتن فى أيامه مدة سنة وكسور وأخيرا ثار عليه بعض الامراء وحاربوه وانتصروا عليه فى ٢٩ القعده سنة ٩٠٥ فهرب واختفى فاتفقوا على خلعه وتولية الامير جان بلاط الجركسى مملوك قايتباى وبايعوه فى ٢ ذى الحجة سنة ٩٠٥ وتلقب بالملك الاشرف أبى النصر وفى السنة التالية شق الأمير طومان باى عليه عصا الطاعة وذهب الى دمشق واتفق مع بعض الامراء على خلع السلطان جان بلاط فعملوا بذلك محضراً بحضور علماء وأمراء دمشق وتسمى بالملك العادل ثم قصد مصر فوصلها فى جمادى الاولى سنة ٩٠٦ ودخل القاهرة فى ١١ منه فتحصن جان بلاط فى القلعة وحاصره العادل سبعة أيام ثم دخلها عنوة فى ١٨ منه وقبض على جان بلاط وأحضر الخليفة والقضاة فقرروا بعزل جان بلاط وتجديد البيعة الى طومان باى العادل ثم أرسل جان بلاط الى سجن اسكندرية وأقام به الى أن خنق بامر العادل فى ٤ شعبان سنة ٩٠٦ وفى أواخر رمضان سنة ٩٠٦ حصلت فتنة بين طوائف المماليك ففر طومان باى واختفى ثم ضبط فى ذى القعدة وقتل وعقب فراره تولى الامير قنصوه الغورى وتلقب بالملك الاشرف فى مستهل شوال سنة ٩٠٦ وفى سلطنته عزل الخليفة المستمسك بالله يعقوب حوالى سنة ٩٢١ وبويع ابنه محمد وتلقب بالمتوكل على الله

وهو سادس عشر العباسيين وآخرهم بالديار المصريه وفى خلافته قصد السلطان الغازى سليم العثمانى بلاد الشام ومصر ليفتحها بسبب التجاء أخيه كركود الى مصر واحتمائه عند الغورى كما تراه مفصلا فى هذا الكتاب وحصلت موقعة هائلة بين عساكر الغورى والعثمانيين بمرج دابق بجوار حلب فى يوم الاحد ٢٥ رجب سنة ٩٢٢ ( ٢٤ اغسطس سنة ١٥١٦ ) فانتصر العثمانيون وقتل الغورى فى أثناء القتال ودخل السلطان سليم مصر عقب ذلك فى أوائل محرم سنة ٩٢٣ وعقب واقعة مرج دابق أخذ أمير المؤمنين المتوكل ضمن الاسرى فاكرمه السلطان سليم غاية الاكرام وبقى معه الى أن أرسله الاستانة وهناك حصلت المبايعة منه الى السلطان سليم العثمانى فانتقلت الخلافة الاسلامية الى ملوك بنى عثمان من ذلك التاريخ ولما وصل خبر موت الغورى الى مصر اتفق الامراء بعد جدال وشقاق على تولية الامير طومان باى الثانى فبايعوه بالقلعة يوم الخميس ١٤ رمضان سنة ٩٢٢ ( ١٠ اكتوبر سنة ١٤١٦ ) وحضر البيعة أمير المؤمنين يعقوب المستمسك بالله المعزول لوجود ابنه الخليفة الحالى بحلب ضمن أسرى السلطان سليم وكان تولى الخلافة بتوكيل مطلق من ولده المتوكل والقضاة والعلماء وقام طومان باى بمحاربة العثمانيين عدة أشهر ثم هرب والتجأ الى الشيخ حسن بن مرعى أحد مشايخ عربان البحيرة فاظهر له الصداقة ثم سلمه الى السلطان سليم فشنقه على باب زويله فى يوم الاثنين ٢١ ربيع الاول سنة ٩٢٣ ( ١٣ ابريل سنة ١٥١٧ ) وبذلك استتب الملك لدولة بنى عثمان العلية الشان حفظها الله ملحوظة بعنايته الصمدانية الى آخر الزمان

﴿ انتهت المقدمة ﴾

## ١ ( السلطان الغازى عثمان خان الاول )

بعد ان بلغت الدولة العباسية أوج التقدّم والتمدن فى خلافة هرون الرشيد وابنه المأمون الذى ترجمت فى أيامه أغلب كتب اليونان وتقدّمت العلوم تحت وارف ظلها تقدّما لم تبلغه الدول الاسلامية قبل عصره أخذت الدولة فى التقهقر شيئاً فشيئاً تبعا لناموس الحياة الطبيعية القاضى بالهرم بعد الشبيبة سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا واستمر الانحلال ينخر عظامها حتى انها سقطت بسقوط دار السلام (١) فى قبضة قبائل التتار فى ٢٠ محرم سنة ٦٥٦ هجرية وقتلهم الخليفة المستعصم بالله آخر العباسيين ببغداد بعد أن لبثت دولتهم زيادة عن خمسة قرون دعامة التمدّن الاسلامى

ومن ثم لم يكن للاسلام بعدها دولة عظيمة تحمى بيضته وتضم أشتاته بل ضاعت وحدته الملكية واستقل كل حاكم بما وكل اليه أمره من العمالات واستمر الحال على هذا المنوال الى ان قيض الله للاسلام تأسيس الدولة العلية العثمانية فجمعت تحت رايتها أغلب البلاد الاسلامية وفتحت كثيرا من الاقاليم التى لم يسبق تحليها بحلية الدين الحنيفى وأعادت للاسلام قوّته وأعلت بين الانام كلمته

ومؤسس هذه الدولة هو « ارطغرل » بن سليمان شاه التركمانى قائد احدى قبائل الترك النازحين من سهول آسيا الغربية الى بلاد آسيا الصغرى وذلك انه كان راجعا الى بلاد العجم بعد موت أبيه غرقا عند اجتيازه أحد الانهر اذ شاهد جيشين مشتبكين فوقف على مرتفع من الارض ليمتع نظره بهذا المنظر المألوف لدى الرحل من القبائل الحربية ولما آنس الضعف فى أحد الجيشين وتحقق انكساره وخذلانه ان لم يمدّ اليه يد المساعدة دبت فيه النخوة الحربية ونزل هو وفرسانه مسرعين لنجدة أضعف الجيشين وهاجم الجيش الثانى بقوّة وشجاعة عظيمتين حتى وقع الرعب فى قلوب الذين كادوا يفوزون بالنصر لولا هذا المدد الفجائى وأعمل فيهم بالسيف والرمح ضربا ووخذا حتى هزمهم شر هزيمة وكان ذلك فى أواخر القرن السابع للهجرة

وبعد تمام النصر علم أرطغرل بان الله قد قيضه لنجدة الامير علاء الدين سلطان قونية احدى الامارات السلجوقية التى تأسست عقب انحلال دولة آل سلجوق بموت السلطان (ملك شاه) فى ١٥ شوال سنة ٤٨٥ (١٨ نوفمبر سنة ١٠٩٢ م) (٢) فكافأه علاء الدين على مساعدته له

(١) هي مدينة بغداد ولا أزيدك بها علما أسسها الخليفة أبو جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين وشرع في تخطيطها سنة ١٤٥ هجرية وأتم بناءها سنة ١٤٩ ه وهي قائمة على ضفتى نهر الدجلة تبعد عن مصب نهر شط العرب المكون من نهرى الدجلة والفرات في الخليج الفارسي بنحو خمسمائة ميل وقد سمي الجانب الشرقي منها بالرصافة والغربي بالكرخ ثم نمت وارتقت في أيام العباسيين خصوصا هرون الرشيد والمأمون الذى أنشأ فيها مرصدا فلكيا وبلغ عدد سكانها سنة ٢١٦ ه نحو مليونين من النفوس

(٢) لما سقطت دولة السلجوقيين تجزأت أملاكهم في بلاد الاناطول الي عشرة امارات صغيرة وهي قره سي وصار وخان وآيدين وتكه والحميد والقرمان وكرميان وقسطموني ومنتشا وقونيه ثم ضمت

باقطاعه عدة اقاليم ومدن وصار لا يعتمد فى حروبه مع مجاوريه الا عليه وعلى رجاله وكان عقب كل انتصار يقطعه أراض جديدة ويمنحه اموالا جزيلة ثم لقب قبيلته بمقدمة السلطان لوجودها دائماً فى مقدمة الجيوش وتمام النصر على يديه وفى غضون ذلك تزوج عثمان أكبر أولاد طغرل بنت رجل صالح كان رآها مصادفة عند والدها وعلق بها ولكن أبى والدها أن يزوجها له فحزن عثمان لذلك وأظهر الصبر والجلد ولم يرغب الاقتران بغيرها حتى قبل أبوها بعد ان قص عليه عثمان مناماً رآه ذات ليلة فى بيت هذا الصالح وهو أنه رأى القمر صعد من صدر هذا الشيخ وبعد ان صار بدراً نزل فى صدره أى فى صدر عثمان ثم خرجت من صلبه شجرة نمت فى الحال حتى غطت الاكوان بظلها ونظر أكبر الجبال تحتها وخرج النيل والدجلة والفرات والطونة من جذعها ورأى ورق هذه الشجرة كالسيوف يحولها الريح نحو مدينة القسطنطينية

فتفاءل الشيخ من هذا المنام وزوجه ابنته ومع اعتقادنا ان هذا المنام لا بد ان يكون موضوعاً كما يضع المؤرخون مثل هذه الاحلام لتعليل ظهور وتقدم كل دولة سواء كان فى ممالك الشرق أو الغرب قد ذكرناه تتميماً للفائدة وقيل أن يبنى بها كان طلبها أمير اسكى شهر فرفض والدها طلبه فحنق على عثمان لما تزوجها وأراد ان يفتك به فهاجمه فى قصر أحد مجاوريه وطلب من صاحب القصر أن يسلمه اليه فابى ثم خرج عليه عثمان ومن معه ورده على عقبه وأسر كوسه ميخائيل أحد من كان معه من الامراء ولكثرة اعجاب هذا الامير بشجاعة عثمان تعلق به وصار من أخصائه ثم أسلم وبقيت ذريته مشهورة فى تاريخ الدولة باسم عائلة ميخائيل أوغلى

ولما توفى ارطغرل سنة ٦٨٧ ﻫ الموافقة سنة ١٢٨٨ م عين الملك علاء الدين أكبر أولاده مكانه وهو (عثمان) مؤسس دولتنا العلية العثمانية وفى هذه السنة ولدت زوجته مال خاتون ولداً ذكراً وهو اورخان ولم يلبث عثمان ان تحصل على امتيازات جديدة عقب فتحه قلعة (قره حصار) سنة ٦٨٨ هجرية الموافقة سنة ١٢٨٩ ميلادية فمنحه الملك فى السنة المذكورة لقب (بك) واقطعه كافة الاراضى والقلاع التى فتحها واجاز له ضرب العملة وان يذكر اسمه فى خطبة الجمعة وبذلك صار عثمان بك ملكا بالفعل لا ينقصه الا اللقب

وفى سنة ١٣٠٠ م تقريباً الموافقة سنة ٦٩٩ ﻫ اى السنة المتممة للقرن السابع من التاريخ الهجرى (١) اغارت جموع التتار على بلاد آسيا الصغرى وفيها كانت وفاة علاء الدين

---

بالفتح الى مملكة آل عثمان

(١) من الغريب انه في رأس كل قرن من الهجرة ظهر رجل كان له شأن في التاريخ الاسلامي ففي رأس القرن الاول كان ظهور الاسلام وانتشاره بين كفار العرب وفي سنة ٩٩ ﻫ أى في رأس القرن الثاني تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز الاموى المشهور وفي سنة ١٩٧ بويع بالخلافة للمأمون بن هرون الرشيد وفي أوائل القرن الرابع أسس عبد الله المهدى عائلة الفاطميين في افريقيا وكانت الاربعون سنة التي مكنها القادر بالله أبو العباس في الخلافة مشتركة بين القرن الرابع والخامس وفي أوائل القرن السادس ظهر جنكيز خان التترى

آخر السلجوقيين بقونية قيل قتله التتر وقيل قتله ولده غياث الدين طمعا فى الملك ولما قتل التتار غياث الدين أيضا انفتح المجال لعثمان فاستأثر بجميع الاراضى المقطعة له ولقب نفسه (باديشاه آل عثمان) وجعل مقرّ ملكه مدينة (يكى شهر) وأخذ فى تحصينها وتحسينها ثم أخذ فى توسيع دائرة أملاكه فسار الى مدينة ازميد (١) ثم ازنيك (٢) ولما لم يتمكن من فتحهما عاد الى عاصمته واشتغل فى تنظيم البلاد حتى اذا أمن اضطرابها وتجهز للقتال أرسل الى جميع أمراء الروم ببلاد آسيا الصغرى يخيرهم بين ثلاثة أمور الاسلام أو الجزية أو الحرب فأسلم بعضهم وانضم اليه وقبل البعض دفع الخراج واستعان الباقون على السلطان عثمان بالتتار واستدعوهم لنجدتهم لكن لم يعبأ بهم السلطان عثمان بل هيأ لمحاربتهم جيشا جرارا تحت امرة ابنه أورخان فسار اليهم هذا الشبل ومعه عدد ليس بقليل من أمراء الروم ومن ضمنهم كوسه ميخائيل صديق عثمان الذى اختار الاسلام دينا وبعد محاربة عنيفة شتت شمل التتار وعاد مسرعا لمحاصرة مدينة بورصة (٣) فحاصرها سنة ٧١٧ هـ الموافقة سنة ١٣١٧ م وللتمكن من فتحها بسهولة هاجم حصن اردنوس الكائن على قمة جبل أولمب (٤) فدخله عنوة ثم دخل مدينة بورصة بعد ان فتح كافة ماحولها من القلاع والحصون وحاصرها نحو عشر سنوات من غير ما حرب ولا قتال اذ أرسل ملك القسطنطينية أوامره لعامله على هذه المدينة بالانسحاب فأخلاها ودخلها أورخان وعساكره ولم يتعرّض لاهلها بسوء مقابل دفع ثلاثين ألف من عملتهم الذهبية وأسلم حاكمها (افرنوس) وأعطى له لقب بك وصار من مشاهير قوّاد العثمانيين

## ٢ « السلطان الغازى اورخان الاول »

وعقب ذلك بقليل استدعى أورخان الى والده فوجده فى حالة النزع ولم يلبث ان أسلم الروح الى بارىء النسمات ومبدع الكائنات بعد ان أوصى للملك بعده لاورخان ثانى أولاده المولود فى سنة ٦٨٠ لاتصافه بعلوّ الهمة والشجاعة والاقدام ولم يوص بها البكر أولاده علاء الدين لميله الى الورع والعزلة وتوفى رحمه الله فى ٢١ رمضان سنة ٧٢٦ هجرية عن سبعين سنة قضى معظمها فى تأسيس هذه الدولة الفخيمة الملحوظة بعين العناية الربانية وتوسيع

(١) هي مدينة قديمة يونانية بآسيا الصغرى أصل اسمها (نيكوميدس) كانت تختا لمملكة (بوثينيا) واقعة على بحر مرمره ويدخل ميناها أكبر السفن وبها مياه معدنية ومعامل للحرير وأنشئت منها سكة حديدية تصل الى بورصة ويبلغ عدد سكانها أربعين ألف نسمة

(٢) مدينة يونانية قديمة بآسيا الصغرى أصل اسمها (نيقه) واقعة شرق مدينة بورصة بنحو ٨٠ كيلو متر وهي شهيرة بعمل الخزف والسجاجيد المتقنة

(٣) مدينة بآسيا الصغرى شهيرة بجودة هوائها وجمال مناظرها الطبيعية وبها مياه عديدة شافية لكثير من الامراض ويرحل اليها في زمن الصيف كثير من الاغنياء لترويح النفوس واراحة الابدان

(٤) واسمه بالتركية (اناطولى طاغ) أو (كشيش طاغ) وهو غير جبل اولمبوس الذى كان يعتقد اليونان انه مسكن آلهتهم الكائن بتركية أوروبا على حدود بلاد مقدونية

نطاقها ودفن فى مدينة بورصة و بلغت مدّة حكمه ٢٧ سنة ومن حسن حظ هذه الدولة أن علاء الدين لم يعارض فى هذه الوصية التى حرمته من ملك عظيم بل قبلها مقدّما الصالح العام على الصالح الخاص واكتفى بوزارة المملكة وهى الوظيفة المسماة الآن بالصدارة العظمى التى قلده اياها أخوه أورخان فاختص علاء الدين بتدبير الامور الداخلية وتفرّغ أورخان للفتوحات ونشر الراية العثمانية على كل ماوصلت اليه يداه من البلاد المجاورة

ومن أهمّ أعمال علاء الدين أن امر بضرب العملة من الفضة والذهب ووضع نظاما للجيوش المظفرة وجعلها دائمية اذ كانت قبل ذلك لاتجمع الا وقت الحرب وتصرف بعده ثم خشى من تحزب كل فريق من الجند الى القبيلة التابع اليها وانفصام عرى الوحدة العثمانية التى كان كل سعيهم فى ايجادها فأشار عليه أحد فحول ذلك الوقت واسمه ( قره خليل ) وهو الذى صار فيما بعد وزيرا أوّلا باسم خير الدين باشا باخذ الشبان من أسرى الحرب وفصلهم عن كل ما يذكرهم بجنسهم وأصلهم وتربيتهم تربية اسلامية عثمانية بحيث لا يعرفون لهم أبا الا السلطان ولا حرفة الا الجهاد فى سبيل الله ولعدم وجود أقارب لهم بين الاهالى لايخشى من تحزبهم معهم فأعجب السلطان أورخان هذا الرأى وأمر بانفاذه ولما صار عنده منهم عدد ليس بقليل سار بهم الى الحاج بكطاش شيخ طريقة البكطاشية باماسية ليدعو لهم بخير فدعا لهم هذا الشيخ بالنصر على الاعداء وقال فليكن اسمهم (ينى تشارى) و يرسم بالتركية هكذا ( يكيچارى ) أى الجيش الجديد ثم حرف فى العربية فصار انكشارى

ثم ارتقى هذا الجيش فى النظام وزاد عدده حتى صار لا يعوّل الا عليه فى الحروب وكان هو من اكبر وأهمّ عوامل امتداد سلطة الدولة العثمانية كما انهم خرجوا فيما بعد عن حدودهم وتعدّوا واستبدوا بما جعلهم سببا فى تأخر الدولة وتقهقرها وكان ضباطهم يلقبون بألقاب غريبة فى بابها ولكنها تدل على ان أولئك الجنود كانوا عائشين من انعامات السلطان وانهم كاولاده فمن ألقابهم شوربجى باشى وعشى باشى وسقا أغاسى واوده باشى الى غير ذلك وهذه الالقاب كانت عندهم بمثابة العنوانات الخاصة بالرتب العسكرية ثم انهم كانوا يعظمون ويجلون القدور التى كانت تقدمّ اليهم فيها المأكولات فكان الانكشارية لا يفارقون تلك القدور حتى وقت الحرب وكانوا يدافعون عنها دفاع الجنود عن أعلامهم حتى كان يعتبر ضياعها فى القتال أكبر اهانة تلحق باصحابها العار والفضيحة وكانوا اذا أرادوا اظهار عدم الرضا من بعض أوامر رؤسائهم يقلبون القدور أمام منازلهم واستمرت هذه الفئة عونا للدولة على أعدائها حتى تغيرت أحوالها وازداد طغيانها وانقلبت فوائدها مضرات فابطلها السلطان محمود الثانى بعد ان قتل أغلبهم فى يوم ١٦ يونيو سنة ١٨٢٦ الموافق ٩ ذى القعدة سنة ١٢٤١ لمقاومتهم اجراآت السلاطين وعصيانهم عليهم وتعدّيهم على حقوقهم المقدّسة

هذا أما اورخان فاول عمل أجراه هو نقل مقر الحكومة الى مدينة بورصة لحسن

موقعها وأرسل قوّاد جيوشه المظفرة لفتح مابقى من بلاد آسيا الصغرى ففتحوا أهم مدنها وفتح السلطان بنفسه مدينة ازميد ولم يبق من مدن الروم المهمة ببرآسيا الامدينة ازنيك فحاصرها وضيق عليها الحصار حتى دخلها بعد سنتين فسقط بسقوطها نفوذ الروم فى بلاد آسيا ومما جذب اليه قلوب الاهالى ان عاملهم باللين والرفق ولم يعارضهم فى اقامة شعائر دينهم وأذن لمن يريد المهاجرة باخذ كافة منقولاته وبيع عقاراته مع تمام الحرية فى اجراآته وأسس بهذه المدينة عدّة مدارس وتكايا للفقراء والمعوزين وجعل أكبر أولاده المدعو سليمان باشا حاكما عليها ولم يلبث فى هذا المنصب الاقليلا حتى عين صدراً أعظم بعد وفاة عمه علاء الدين واشتهر سليمان باشا بفتح عدّة مدن

وفى سنة ٧٣٦هـ الموافقة سنة ١٣٣٦م ضم السلطان اورخان الى ممالكه امارة قره سَى لوقوع الخلف بين ولدى أميرها بعد موته ولولا عدم اتفاق الاخوين لما تمكن اورخان من ضمها الا بعد معاناة الحرب والكفاح وفى ذلك موعظة لمن ألقى السمع وهو شهيد

و بعد ذلك اشتغل السلطان اورخان بترتيب داخليته وسنّ النظامات اللازمة لاستتباب الامن بالداخل وانتشار العمارية فى البلاد وفتح المدارس و بناء الجوامع والتكايا فمن آثاره انه أسس مدرسة عالية فى مدينة بورصة وأخرى فى مدينة ازنيك واجزل العطايا للشعراء والعلماء فاضاف بذلك خيرات السلم الى فتوحات الحرب

و بينما هو رائع فى بحبوحة الامن اذ أرسل اليه ملك الروم بالقسطنطينية (١) واسمه (جان باليولوج) فى غضون سنة ١٣٥٥ وفداً يطلب منه أن يمدّه بالمساعدة لصدّ اغارات (دوشان) (٢) ملك الصرب الذى بعد ان جمع تحت سلطانه كافة قبائل الصقالبة الغربية وفتح بمساعدتهم بلاد البلغار زحف على مدينة القسطنطينية وعرض ملك الروم على السلطان أورخان أن يزوّجه ابنته فى مقابلة هذه المساعدة فاجاب السلطان طلبه وأرسل اليه عدداً

---

(١) كانت مدينة رومة وما فتحته من الاقاليم المتسعة مشكلة بهيئة جمهورية من ابتداء وجودها الي سنة ٢٩ قبل المسيح فجعلها القائد الشهير (اكتافيوس) حكومة أمبراطورية وأطلق على نفسه لقب (اوغسطس) أى السامي القدر واستمرت هذه المملكة الى سنة ٣٩٥ ميلادية حيث قسمها الامبراطور طيودوس بين ولديه الي مملكة رومانية شرقيـة وجعل مقرها مدينة بيزانطه التي سميت فيما بعـد بالقسطنطينية وأقام عليها ابنه (اركاديوس) ومملكة رومانية غربية جعل عاصمتها مدينة رومة وأقام عليها ابنه الثاني (أنوريوس) ثم انقرضت الدولة الغربية سنة ٤٧٦ ميلادية بسبب اغارة المتبربرين عليها واستمرت الشرقية الى أن فتح العثمانيون مدينة القسطنطينية في سنة ١٤٥٣ ميلادية

(٢) هو اسطفن دوشان الملقب بالقوى ولد بمدينة اشقودره ببلاد الارنؤد سنة ١٣٠٨ وصار أميراً لبلاد الصرب وملحقاتها في سنة ١٣٢٢ وكان بعيد الامال يطمح بنظره الي تكوين مملكة مؤلفة من جميع الصقالبة لفتح القسطنطينية وبقايا مملكة الروم الشرقية فاتحد مع جمهورية البندقيـة وباقى الامارات الصغيرة المجاورة له وكاد يتم له المقصود لولا أن فاجأته المنية في ٢٠ دسمبر سنة ١٣٥٥ في ابتداء حربه مع الروم فنقلت جثته الي (برزرند) بالقرب من اشقودره حيث دفن في احدى الكنائس المعتبرة لدى القوم ومن بعده تشتت شمل هذه المملكة شيئا فشيئا وتناوبتها أيدى الفساد حتى أجهز العثمانيون عليها في واقعة (قوص اوه) سنة ١٣٨٩ كما سيجيء

عظيما من جنوده لنجدته لكن فاجأ الموت الملك دوشان قبل وصوله بجيوشه الى القسطنطينية و بذلك تخلص الروم من شره وعاد العثمانيون الى بلادهم

ولما نزل العثمانيون بساحل أوروبا تحققوا ضعف مملكة الروم وما آلت اليه من الانحلال فأخذ السلطان أورخان فى تجهيز الكتائب سراً لاجتياز البحر واحتلال بعض نقط على الشاطىء الاوروبى تكون مركزاً لاعمال العثمانيين فى أوروبا حتى اذا سنحت الفرص وساعدت المقادير حاصروا مدينة القسطنطينية براً و بحراً ودخلوها فاتحين

وفى سنة ١٣٥٧ اجتاز سليمان باشا أكبر اولاد السلطان اورخان وولى عهده وصدر مملكته الاعظم بوغاز الدردنيل ومعه أربعون من أشجع جنوده تحت أستار الظلام حتى اذا وصلوا الى الضفة الاخرى قبضوا على ما كان بها من القوارب وعادوا بها الى الضفة المعسكرة عليها جيوشهم فانتقل الجيش الى ضفة أوروبا وكان عدده ثلاثين ألفا واحتل مينا ( تزنب ) وساعدتهم المقادير بسقوط جزء من أسوار جاليبولى (١) عقب زلزال شديد فدخلها العثمانيون بدون كبير عناء واحتلوا عدة مدائن أخرى منها ( ابسالا ) و ( رودستو ) وغيرهما

وفى سنة ١٣٥٩ توفى سليمان باشا ولى عهد الدولة بسبب سقوطه من على ظهر جواده وصارت ولاية العهد بعده الى أخيه مراد وتولى منصب الصدارة بعده الوزير خير الدين باشا الذى سبقت الاشارة اليه

## ٣ « السلطان الغازى مراد خان الاول وواقعة قوص اوه »

وفى سنة ٧٦١ ه الموافقة سنة ١٣٦٠ م انتقل الى الدار الآخرة السلطان اورخان الغازى وسنه ٨١ سنة ومدة حكمه ٣٥ سنة بعد ان أيد الدولة بفتوحاته الجديدة وتنظيماته العديدة وترتيباته المفيدة ودفن فى مدينة بورصة حيث دفن ملوك آل عثمان الستة الاول وتولى بعده ابنه ﴿ السلطان مراد الاول ﴾ المولود سنة ٧٢٦ ه وكانت فاتحة أعماله احتلال مدينة (انقره) مقر سلطنة القرمان وذلك ان سلطان هذا الاقليم واسمه علاء الدين أراد انتهاز فرصة انتقال الملك من السلطان اورخان الى ابنه السلطان مراد لاثارة حمية الامراء المستقلين وتحريضهم على قتال العثمانيين ليدكوا صروح مجدهم و يقوضوا أركان ملكهم الآخذ فى الامتداد يوما فيوما فكانت عاقبة دسائسه ان فقد اهم مدائنه و بعد ضياعها أبرم الصلح مع السلطان مراد ليحفظ ما بقى له من الاملاك وزوجه ابنته لتمكين عرى الاتحاد بينهما أما فى أوروبا ففتح البكلربك ( لاله شاهين) مدينة ادرنه (٢)

(١) مما يكسب هذه المدينة أهمية عظمى وقوعها على ضفة بوغاز الدردنيل الذى هو الممر الوحيد بين بحار أوروبا وبحر مرمرة وهي تبعد عن مدينة ادرنة بمائة وأربعين كيلو متر تقريبا

(٢) واسمها بالرومية (ادريانا بوليس) نسبة للامبراطور ادريان الرومي الذي أجرى فيها عدة تحسينات أوجبت اطلاق اسمه عليها وتوفي الامبراطور سنة ١٣٨ م

فى سنة ١٣٦١ سلمها قائدها الرومى بعد قتال قليل لما داخله من اليأس من استخلاصها ولأهمية موقعها الجغرافى ووجودها على ملتقى ثلاثة أنهر نقل اليها السلطان تخت المملكة العثمانية واستمرت عاصمة لها الى ان فتحت مدينة القسطنطينية سنة ١٤٥٣ وفتح أيضا مدينة (فيلبه) (١) عاصمة الروملى الشرقية وفتح القائد (افرينوس بك) مدينتى (وردار) و (كلجمينا) باسم سلطان العثمانيين و بذلك صارت مدينة القسطنطينية محاطة من جهة أوروبا بأملاك آل عثمان وفصلت عن باقى الامارات المسيحية الصغيرة التى كانت شبه جزيرة البلقان مجزأة بينها وصارت الدولة العلية متاخمة لامارات الصرب والبلغار وألبانيا المستقلة

فاضطرب لذلك الملوك المسيحيون المجاورون للدولة العلية وطلبوا من البابا (اور بانوس) الخامس أن يتوسط لدى ملوك أوروبا الغربيين ليساعدوهم على محاربة المسلمين واخراجهم من أوروبا خوفا من امتداد فتوحاتهم الى ماوراء جبال البلقان اذ لو اجتازوها بدون معارضة ومقاومة فى مضايقها لم يقو احد بعد ذلك على ايقاف تيار فتوحاتهم ويخشى بعدها على جميع ممالك أوروبا من العثمانيين فلبى البابا استغاثتهم وكتب لجميع الملوك بالتأهب لمحاربة المسلمين وحرّضهم على محاربتهم محاربة دينية حفظا للدين المسيحى من الفتوحات الاسلامية

لكن لم ينتظر (اوروك) الخامس الذى عين ملكا على الصرب بعد (دوشان) القوى وصول المدد اليه من أوروبا بل استعان بأمراء بوسنه والفلاخ و بعدد عظيم من فرسان الجروسار بهم لمهاجمة مدينة (ادرنه) عاصمة الممالك العثمانية معللين النفس بالانتصار على العثمانيين ومؤملين النصر عليهم لاشتغال الملك مراد بمحاصرة مدينة (بيجا) بالقرب من بورصة بآسيا الصغرى فلما وصل خبر تقدّمهم الى آذان العثمانيين قابلوهم على شاطىء نهر (ماريتزا) وفاجأوهم فى ليلة مظلمة بقوّة عظيمة ألقت الرعب فى قلوبهم وأوقعتهم فى حيص بيص ولم يلبثوا الا قليلا حتى ولوا الادبار تاركين الثرى مخضبا بدمائهم وكان ذلك فى سنة ٨٦٦هـ الموافقة سنة ١٣٦٣م اما السلطان مراد فكان فى هذه الاثناء مشتغلا بالقتال فى بلاد آسيا الصغرى حيث فتح عدّة مدن ثم عاد الى مقرّ سلطنته لتنظيم مافتحه من الاقاليم والبلدان كما هو شأن الفاتح الحكيم الذى لايكتفى بفتح البلاد وضرب الذلة والمسكنة على سكانها بل كان ينسج على منوال أبيه وجدّه أى يستريح بضع سنين من عناء الفتح ليرتب جيوشه ويكمل من نقص منها مستشهداً فى ساحة النصر ولما عظم شان الدولة خشيها مجاوروها خصوصا الضعفاء منهم فارسلت جمهورية (راجوزه) فى سنة ١٣٦٥ الى السلطان مراد رسلا أمضوا معه معاهدة ودّية وتجارية تعهدوا فيها بدفع جزية سنوية قدرها ٥٠٠ دوكا ذهب وهذه أول معاهدة أمضيت بين العثمانيين والدول المسيحية

(١) اسمها بالرومية فيليبو بوليس أى مدينة فيليب نسبة لمؤسسها فيليب والد الاسكندر الاكبر

وفي سنة ١٣٧٩ اتحد ( لازارجر بلينا نوفتش ) الذي تربع على تخت مملكة الصرب بعد قتل ( اوروك ) مع ( سيسمان ) أمير البلغار على مقاتلة العثمانيين ومحاربتهم لكنهما بعد عدّة مناوشات خفيفة تحققا في خلالها عجزهما عن مكافحة العساكر الاسلامية أبرما الصلح مع السلطان على أن يتزوّج السلطان بنت أمير البلغار وعلى أن يدفع له الاميران خراجا سنويا معينا

ولما توفي ( البكلر بك ) لاله شاهين عين محله ديمورطاش باشا و ينسب الى هذا الوزير تنظيم فرق الخيالة العثمانيين المسماة ( سيباه ) على نظام جديد واختار أن تكون أعلامهم باللون الاحمر الذي لا يزال شعار الدولة العثمانية حتى الآن واقطع كل نفر منهم جزأ من الارض يزرعه أصحابه الاصليون مسيحيين كانوا أو مسلمين في مقابلة دفع جعل معين لصاحب الاقطاع وذلك بشرط أن يسكن الجندي في أرضه وقت السلم و يستعد للحرب عند الاقتضاء على نفقته وأن يقدم أيضا جنديا آخر معه وكان كل اقطاع لم يتجاوز ايراده السنوي عشرين ألف غرش يسمى تيمارا وما زاد ايراده على ذلك يسمى ( زعامت ) وكانت هذه الاقطاعات لا يرثها الا الذكور من الاعقاب واذا انقرضت الذرّية الذكور ترجع الى الحكومة وهي تقطعها الى جندي آخر بنفس هذه الشروط

ولاجل أن يكون للسلطان مراد حلفاء بين من بقي مستقلا من أمراء آسيا الصغرى زوّج ولده ( بايزيد ) الملقب بيلدرم أي البرق بنت أمير كرميان وهو قدّم للسلطان مدينة ( كوتاهيه ) الشهيرة بصفة مهر لابنته كما هي عادة الافرنج الآن وفي ابتداء سنة ١٣٨١ ابتدأت الفتوحات ثانيا وأخذت سيرها الاوّل فألزم السلطان أمير اقليم ( الحميد ) بالتنازل له عن بلاده وحارب ديمورطاش باشا الصرب والبلغار لتأخيرهما في دفع الخراج المتفق عليه وفتح مدائن ( موناستر ) و ( برلبه ) و ( استيب ) ووقعت مدينة صوفيا (١) في قبضة العثمانيين بعد محاصرة استمرّت ثلاث سنوات من سنة ١٣٨١ الى سنة ١٣٨٣ وعقب ذلك فتح الصدر الاعظم خير الدين باشا مدينة سلانيك الشهيرة (٢) وفي هذه الاثناء تمرّد صاووجي أحد أولاد السلطان على والده بالاتحاد مع اندرونيكوس ابن أمبراطور الروم حنا باليولوج الذي كان والده حرمه من الملك بعده وأوصى به الى ابنه الاصغر أمانويل وتحزب معهما بعض من أضلهم الطمع والغرور غير ناظرين الى أن هذا الشقاق الداخلي لا يكون وراءه الا ضعف الدولة وتمكن أعدائها من الاستظهار عليها لكن لم يدع السلطان الشفقة الوالدية تتغلب عليه بل أرسل لمحاربة ولده المتمرّد من قهره وحاربه وقتله وجميع من

(١) هي عاصمة امارة البلغار الآن ويبلغ عدد سكانها خمسين ألف نسمة

(٢) مدينة رومية قديمة جدا واقعة في جنوب بلاد مقدونية علي بحر الارخبيل كان اسمها (ترما) ثم لما تولي (كساندر) المتوفي سنة ٢٩٨ قبل المسيح ملكا علي بلاد مقدونية أطلق عليها اسم زوجته أخت اسكندر الكبير المسماة ( تسالونيك ) وحرف هذا الاسم علي ممر الاجيال فصار سالونيك أو سلانيك ويبتدىء منها الان طريق حديدى يصل الي الصرب ومنها الي جميع أوروبا

حاز به من أشراف الروم وطلب من ملك الروم قتل ابنه ففقأ عينيه ونفاه حتى مات (١)
ولما مات القائد خير الدين باشا أشهر قوّاد الدولة ظن متاخموها انه لم يبق لديها من القوّاد من
يزد كيدهم فى نحرهم فاتحد علاء الدين أمير القرمان الذى سبق ذكره مع بعض الامراء
المستقلين واستعدوا للقتال وابتدؤا المناوشات لكن لم يمهلهم السلطان مراد بل أرسل اليهم
ديمورطاش باشا فحاربهم وقهرهم فى سهل قونية وأخذ علاء الدين أسيراً ولولا توسط ابنته
التى كان تزوجها السلطان مراد عقب المحاربة الاولى لجرده من أملاكه ولكن مراعاة
لزوجته لم ياخذ منه شيئا هذه الدفعة بل أقره فى أملاكه بشرط دفع الجزية وكان ذلك سنة
١٣٨٦ أما فى أوروبا فاتخذ الصرب وجود اعظم قواد السلطنة وجيوشها بالاناطول فرصة
لمحاربة العساكر العثمانية ففاز الصرب أولا فى سنة ١٣٨٧ وكان ( سنيسمان ) قرال اى
أمير البلغار يتاهب للانضمام الى ( لازار ) ملك الصرب اذ فاجأ الوزير على باشا جيوش
البلغار واحتل ( ترنوه ) و ( شوملة ) وألجأ سيسمان الى الفرار والاحتماء فى مدينة
نيكوبلى (٢) سنة ١٣٨٨ و بعد ان جمع شمل ما بقى من جيوشه داخل هذه المدينة أراد
محاربة العثمانيين ثانية فخرج من ( نيكوبلى ) وهاجم الجيوش الاسلامية مهاجمة يائس
فانهزم هزيمة لم يقم له بعدها قائمة ووقع أسيراً فضم السلطان مراد نصف بلاده اليه ولم
يامر بقتله بل منحه نعمة الحياة ورتب له ما يقوم بمعاشه مراعيا فى ذلك مقامه السابق
وعينه حاكما شبه مستقل على النصف الباقى ( ١٣٨٩ ) ولما علم لازار ملك الصرب
بانخذال رفيقه قرال البلغار مال بجيوشه قليلا جهة الغرب للانضمام الى أمراء ألبانيا
( الارنؤد ) فلم يمكنه السلطان مراد من ذلك بل جد السير فى طلبه حتى لحقه فى سهل (قوص
اوه ) سنة ١٣٨٩ وانتشب القتال بين الجيشين بحالة يشيب من هولها الولدان دافع فى
خلاله الصربيون دفاع الابطال و بقى الحرب بينهما سجالا مدة من الزمن تناثرت فيها
الرؤوس وزهقت النفوس وأخيراً فر صهر الملك لازار المدعو ( فوك برانكوفتش ) ومعه
عشرة آلاف فارس والتحق بجيش المسلمين فدارت الدائرة على الصربيين وجرح لازار
ووقع أسيراً فى أيدى العثمانيين فقتلوه و بهذه الواقعة المهمة التى بقى ذكرها شهيراً فى أوروبا
باسرها زال استقلال الصرب كما فقدت البلغار والروملى والاناطول استقلالها من قبل
وكما ستفقد اليونان وغيرها الاستقلال فيما بعد و بعد تمام النصر والغلبة للعثمانيين كان

---

(١) لا يظن القارىء أن العثمانيين انفردوا بارتكاب هذا الاثم الجسيم فان من يتصفح التاريخ يعلم ان كثيرا من الملوك حاكموا أولادهم وقتلوهم لما تثبت عليهم خيانة الامة والدولة فقد سجن بطرس الاكبر الروسي ولي عهده الكسيس ولما تأكد جنايته وعدم استعداده للقيام باعباء المملكة بعده جمع مجلسا عاليا مركبا من أهم رجال الدولة وحكم عليه هذا المجلس بالاعدام لكن لم ينفذ عليه الحكم جهارا بل وجد ميتا في سجنه في صبيحة اليوم المحدد لتنفيذ الحكم عليه ولم تعلم كيفية موته بالضبط لكن من المؤكد أن موته كان بايعاز والده كي لا يشنق أمام الامة

(٢) اسمها بالرومية نيكوبوليس ومعناها مدينة النصر أسسها الامبراطور الروماني تراجانوس المتوفي سنة ١١٧ بعد المسيح عقب انتصاره علي أعدائه

السلطان مراد يمرّ من بين القتلى اذ قام من بينهم جندى صربى اسمه ( ميلوك كوبلوفتش ) وطعن السلطان بخنجر طعنة كانت هى القاضية عليه بعد قليل فسقط القاتل قتيلا تحت سيوف الانكشارية لـكن لم يفدهم قتله شيئاً اذ أسلم السلطان الروح بعد ذلك بقليل بعد ان ضم كثيراً من البلاد الى ماتركه له والده السلطان اورخان مما مر بيانه وكانت وفاته فى ١٥ شعبان سنة ٧٩١ هـ الموافق ٨ اكتوبر سنة ١٣٨٨ عن خمس وستين سنة و بلغت مدّة حكمه ثلاثين سنة ونقلت جثته الى مدينة بورصة

## ٤ « السلطان الغازى بايزيد خان الاول »

وتولى بعده السلطان بايزيد خان الاول بكر أولاده وكانت ولادته سنة ٧٦١ هجرية (الموافقة سنة ١٣٦٠ م ) اتفق أركان الدولة على توليته وكان له أخ أصغر منه بقليل يدعى يعقوب متصفا بالشجاعة والاقدام وعلوّ الهمة فخيف على المملـكة منه من أن يدّعى الملك ويرتكن على أن الملك انتقل الى السلطان أورخان بعد وفاة أبيه السلطان عثمان ولم يتولى بعده ابنه البكر علاء الدين ولذلك قتل باتفاق أمراء الدولة وقواد جيوشها وادعى مؤرخو الافرنج أن قتله كان بناء على فتوى شرعية أفتى بها علماء ذلك الزمان منعاً لحصول الفتنة بناء على قوله تعالى والفتنة أشد من القتل

وابتدأ السلطان بايزيد الاول أعماله بان ولى الامير (اسطفن) بن لازار ملك الصرب حاكما عليها وتزوج أخته (أوليفيرا) وأجازه بان يحكم بلاده على حسب قوانينهم بشرط دفع جزية معينة وتقديم عدد معين من الجنود ينضمون الى الجيوش الشاهانية وقت الحرب وفعل ذلك ولم يضم بلاد الصرب الى أملاكه و يجعلها ولاية كباقى الولايات ليسكن بال الصربيين حتى لا يكونوا شغلا شاغلا له نظرا لشهامتهم وحبهم الاستقلال ولما ساد الامن فى أوروبا قصد بلاد آسيا وفتح مدينة ( الاشهر ) المعروفة عند الافرنج باسم ( فيلادلفيا ) سنة ١٣٩١ وهى آخر مدينة بقيت للروم فى آسيا وهابه أمير ( آيدين ) فترك له أملاكه وعاش مطمئن الخاطر فى احدى المدن الخارجة عن النفوذ العثمانى وكذلك ترك أميرا منتشا وصاروخان ولايتهما واحتميا عند أمير ( قسطمونى )

وتنازل الامير علاء الدين حاكم بلاد القرمان للسلطان عن جزء عظيم من أملاكه ليؤمنه على الباقى

و بعد هذه الفتوحات التى تم أغلبها بدون حرب عاد السلطان الى أوروبا وحارب ( امانويل باليولوج ) ملك الروم وحاصره فى القسطنطينية و بعد ان ضيق عليها الحصار ترك حولها جيشا جراراً وسافر لغزو بلاد الفلاخ فقهر أميرها المدعو ( دوك مانيس ) وأكرهه على التوقيع على معاهـدة يعترف فيها بسيادة الدولة العلية العثمانيـة على بلاده و يتعهد لها بدفع جزية سنوية مع بقاء بلاده له يحكمها بمقتضى عوائد وقوانين أهلها وتم ذلك فى

سنة ١٣٩٣
وفى أثناء اشتغال السلطان بمحاربة الفلاخ أراد علاء الدين أمير القرمان أن يستردّ ماتنازل عنه للدولة العلية فجهز جيشا عظيما واستعان ببعض مجاوريه وسار بخيله ورجله قاصدا مهاجمة مدينة انقره بعد ان فاز على دمورطاش باشا فى احدى الوقائع وأخذه أسيرا فلما بلغ خبره الى مسامع السلطان قام بنفسه الى بلاد الاناطول وجدّ فى طلب علاء الدين حتى تقابل الجيشان فى موضع يقال له ( آق جاى ) فهزمه السلطان بايزيد وأسره هو وولديه محمد وعلى وضم مابقى من املاكه اليه وبذلك انمحت سلطنة القرمان وصارت ولاية عثمانية ثم فتحت امارات سيواس وتوقات وكان آخر أمرائها يدعى الغازى برهان الدين وبذا لم يبق من الامارات التى قامت على اطلال دولة آل سلجوق الا امارة قسطمونى خارجة عن أملاك الدولة العثمانية وكان أميرها يسمى بايزيد أيضاً واحتمى ببلاده كثير من أولاد الامراء الذين فتحت بلادهم فكان ذلك سبب غزو بلاده وذلك ان السلطان أرسل اليه من يطلب منه تسليم اولاد صاحب آيدين وصاروخان فامتنع فسار اليه السلطان بايزيد بنفسه وأغار على بلاده وفتح مدائن ساسون وجانك وعثمانجق وبذلك انقرضت جميع الامارات الصغيرة القائمة ببلاد الاناطول وصار العلم العثمانى يخفق منصورا فوق صروحها أما بايزيد صاحب قسطمونى فلجأ الى تيمور لنك سلطان المغول (١)
ومع استمرار الحصار حول القسطنطينية ضم السلطان بلاد البلغار الى الاملاك العثمانية فصارت ولاية عثمانية كباقى الولايات بعد ان قتل أميرها (سيسمان) وأسلم ابنه وعين حاكما لسمسون سنة ١٣٩٤

واقعة نيكوبلي

فلما علم (سجسمون) ملك المجر خبر ماحلّ ببلاد البلغار خشى على مملكته اذ صار متاخما فى عدّة نقط للدولة العلية فاستنجد بأوروبا وساعده البابا وأعلن الحرب الدينية بين أقوام أوروبا الغربية فاجاب الدعوة دوك ( بورغونيا ) (٢) وأرسل ابنه الكونت دى نيفر ومعه

(١) أي تيمور الاعرج ولد سنة ١٣٣٦ ميلادية تقريبا ببلدة بالقرب من سمرقند ويتصل نسبه بكنجيز خان التترى من جهة النساء وخلف عمه سيف الدين في امارة كيش سنة ١٣٦٠ وأخذ في فتح ماحوله من الامارات والقبائل ثم فتح بلاد خوارزم وكشغر وبلاد ايران ومنها سار الي جنوب الروسية وفتح اقليم آزاق ثم قصد بلاد الهند فانتصر علي صاحب ( دهلي ) وفتح معظم الهند الانكليزية ومنها عاد الي الغرب ففتح بلاد الشام ومدينة بغداد التي خربها عن آخرها وقبل ان ينظم هذه الفتوحات العديدة قصد بلاد الصين في جيش يجل عن الحصر بعد ان حارب السلطان بايزيد العثماني وأخذه أسيرا فعاجله المنون قبل ان يصل الصين في أقليم خوقند في ١٧ شعبان سنة ٨٠٧ الموافق ١٩ فبراير سنة ١٤٠٥ ميلادية وبعد موته تفرقت مملكته بين ولده شاه رخ وأحفاده وأولاد أحفاده

(٢) كانت ولاية عظيمة في شرق فرانسا شبه مستقلة لم يكن للملوك فرانسا عليها سوى السيادة وحق طلب الجنود للحرب عند الضرورة وأهم أمرائها شارل الجسور الذى توفي سنة ١٤٧٧ عن غير عقب ذكر وضمت أملاكه الي مملكة فرانسا وصارت كباقي الولايات وفي سنة ١٧٨٩ قسمت الي عدة مديريات بمقتضي الترتيب الذى وضع أثناء الثورة الفرانساوية العظمى ويشتهر هذا الاقليم بالنبيذ الجيد

ستة آلاف محارب أغلبهم من أشراف فرانسا وفيهم كثير من أقارب ملك فرانسا نفسه وانضم اليه حين مسيره الى بلاد المجر أمراء (بافاريا) (١) واستيرياوشواليه القديس حنا الاورشايمى(٢) وكثيرمن الالمانيين ثم اجتازهذا الجيش نهرالدانوب وعسكرحول مدينة نيكوبلى لمحاصرتها فسار اليهم السلطان بايزيد ومعه مائتا ألف مقاتل بهم كثير من اهالى الصرب تحت قيادة اميرهم (اسطفن) بن لازار وغيرهم من الامم المسيحية الخاضعة لسلطان العثمانيين وقاتلهم قتالا عنيفا فى يوم ٢٣ ذى القعدة سنة ٧٩٨ الموافق ٢٧ سبتمبر سنة ١٣٩٦ كانت نتيجتها انتصار العثمانيين على الجيوش المتألبة عليهم واسر كثير من اشراف فرانسا منهم الكونت دى نيفر نفسه وقتل أغلبهم و أطلق سراح الباقى والكونت دى نيفر بعد دفع فداء اتفق على مقداره و يقال ان السلطان بايزيد لما أطلق سراح الكونت دى نيفر وكان قد الزم بالقسم على أن لا يعود لمحاربته قال له انى أجيزلك أن لاتحفظ هذا اليمين فأنت فى حلّ من الرجوع لمحاربتى اذ لا شىء أحب الىّ من محاربة جميع مسيحى أوروبا والانتصار عليهم

هذا وقد شدد الحصار بعد ذلك على مدينة القسطنطينية ولولا اغارة الموغول على بلاد آسيا الصغرى لتمكن من فتحها لكن الامور مرهونة باوقاتها فاكتفى بابرام الصلح مع ملكها هذه المرة بشرط دفع عشرة آلاف ذهب سنويا من عملة وقتها وأن يجيز للمسلمين أن يبنوا بها جامعا لاقامة شعائر الدين الحنيفى وأن تقام لهم محكمة شرعية لنظر قضايا المستوطنين بها منهم

## « اغارة تيمورلنك على آسيا الصغرى »
## ( وواقعة انقره ووقوع السلطان بايزيد أسيرا فى أيدى تيمور )

وسبب اغارة تيمورلنك التترى الموغولى على الدولة العثمانية أن أمير بغداد والعراق المدعو احمد جلاير التجأ الى السلطان بايزيد حينما هاجمه الموغول فى بلاده فارسل تيمورلنك الى السلطان بطلبه فابى تسليمه اليه فاغار تيمور بجيوشه الجرارة على بلاد آسيا الصغرى

---

(١) مملكة مستقلة بألمانيا يبلغ عدد سكانها خمسة ملايين من النفوس وتختها مدينة (مونيخ) أو (مونكن) كما يسميها الالمان وهي داخلة الآن ضمن الامبراطورية الالمانية التي تشكلت سنة ١٨٧١ عقب تغلب الروسيا علي فرانسا مع بقاء استقلالها وحكومتها وملوكها كما كانت

(٢) هم طائفة من الرهبان الذين ذهبوا الي بلاد فلسطين في القرن الحادى عشر للمسيح أثناء الحروب الصليبية التى أثارها المسيحيون على المسلمين لامتلاك القدس الشريف لخدمة حجاج النصارى ولما استولى السلطان صلاح الدين الايوبي علي مدينة اورشليم سنة ١١٨٧ انتقلت هذه الطائفة الي عكا ثم الي جزيرة رودس واتخذتها مركزاً لمحاربة المسلمين وتعطيل تجارتهم ونهب مراكبهم وأسر من بها ولما فتح السلطان سليمان القانونى هذه الجزيرة سنة ١٥٢٢ كما سيجيء رحلت هذه الطغمة الي جزيرة مالطه التى أعطاها لهم الامبراطور شارلكان فحتلوها الي ان فتحها بونابرت سنة ١٧٩٨ أثناء مجيئه الي مصر فمحت هذه الطائفة تقريبا ولم يبق الا اسمها

وافتتح مدينة سيواس بارمينيا وأخـذ ابن السلطان بايزيد المدعو ارطغرل أسيراً وقطع رأسه ولذلك جمع السلطان بايزيد جيوشه وسار لمحاربة تيمور الاعرج فتقابل الجيشان فى سهل انقره واستمر الحرب من قبل شروق الشمس الى بعد غروبها وأظهر السلطان فى خلالها من الشجاعة ما بهر العقول وأدهش الاذهان ولكن ضعف جيشـه بفرار فرق آيدين ومنتشا وصاروخان وكرميان وانضمامها الى جيوش تيمور لوجود أولاد أمرائهم الاصليين فى معسكر التتار ولم يبق مع السلطان الا عشرة آلاف انكشارى وعساكر الصرب تحارب معهم طول النهار حتى سقط أسيراً فى أيدى الموغول هو وابنه موسى وهرب أولاده سليمان ومحمد وعيسى ولم يوقف لابنه الخامس مصطفى على أثر وكان ذلك فى ١٩ ذى الحجة سنة ٨٠٤ الموافق ٢٠ يوليه سنة ١٤٠٢ فعامل تيمورلنك أسيره بايزيد بالحسنى وأكرم مثواه لكنه شدّد فى المراقبة عليه نوعا بعد ان شرع فى الهروب ثلاث مرات وضبط ويقال أنه سجنه فى قفص من الحديد حتى مات فى ١٥ شعبان سنة ٨٠٥ الموافق ٩ مارث سنة ١٤٠٣ وعمره ٤٤ سنة ومدة حكمه ١٣ سنة وهذه رواية نقلها بعض مؤرخى الافرنج بدون تروّ وذلك أن بايزيد رغب أن يسير مع جيش تيمورلنك فى تختروان يحمله حصانان ومقفلة شبابيكه بقضبان من حديد ولكون بعض مؤرخى الترك أطلق على التختروان لفظ قفص ظن بعض المترجمين من الافرنج أنه وضعه فى قفص كما توضع الوحوش الكاسرة ونقل هـذه الرواية على علاتها كثير من المتقدّمين لكن لما تقدّم علم التاريخ وترجمت التواريخ التركية أصلح متاخروا المؤرخين خطأهم وأجمعوا على أنه لم يضعـه فى قفص مطلقاً (راجع الجزء الثانى من مؤلف همرّ المطبوع بباريس سنة ١٨٣٥ صحيفة ٩٦ وما بعدها)

ومما يؤيد حسن معاملة تيمورلنك للسلطان بايزيد أنه صرّح لابنه موسى بنقل جثته بكل احتفال الى مدينة بورصة حيث دفن بجانب السلطان مراد (مع بقاء موسى فى حالة الاسر وفى حراسة أمير كرميان)

الفوضى بعد موت السلطان بايزيد

وبعد موت السلطان بايزيد تجزأت الدولة الى عدّة أمارات صغيرة كما حصل بعد سقوط دولة آل سلجوق لان تيمورلنك أعاد الى أمراء قسطمونى وصاروخان وكرميان وآيدين ومنتشا وقرمان ما فقدوه من البلاد

واستقل فى هذه الفترة كل من البلغار والصرب والفلاخ ولم يبق تابعاً للراية العثمانية الا قليل من البلدان ومما زاد الخطر على هذه الدولة الاسلامية عدم اتفاق أولاد بايزيد على تنصيب أحدهم بل كان كل منهم يدّعى الأحقية لنفسه فاقام سليمان فى مدينة ادرنه حيث ولاه الجنود سلطاناً ولأجل أن يستظهر على اخوته عقد محالفة مع ملك الروم (امانويل الثانى) وتنازل له عن مدينة سلانيك وسواحل البحر الاسود لينجده على اخوته الباقين ولزيادة الوثوق منه تزوج احدى قريباته

وكان محمد بن بايزيد يحارب جنود تيمورلنك فى جبال الاناطول واستخلص منهم مدينتى توقات

واماسيا أما عيسى فلما بلغه خبر وفاة والده جمع ما كان معه من الجند بمدينة بورصة حيث كان مختفياً وأعلن نفسه خليفة آل عثمان بمساعدة القائد ( دمورطاش باشا ) ومما يوجب الاسف والحزن ان استنجد كل من هؤلاء الثلاثة بتيمورلنك سبب هذه الفتن والمفاسد فقبل وفودهم بكل ارتياح وشجعهم على المثابرة والثبات فى الحرب يريد بذلك اضعافهم ببعضهم حتى لا تقوم للدولة العلية بعدهم قائمة

فسار محمد لمحاربة أخيه عيسى وهزمه فى عدة مواقع وقتله فى الاخيرة منها ولم يبق له بعد ذلك منازع من اخوته فى آسيا الصغرى واستخلص أخاه موسى بعد ذلك من أمير كرميان وسلمه قيادة جيش جرار أرسله به الى اوروبا لمحاربة أخيه سليمان فلم يقو عليه بل انهزم أمامه وعاد متهوراً الى آسيا ثم جمع جيشاً آخر وعاد به الى أوروبا وحارب أخاه سليمان وقتله خارج أسوار مدينة أدرنه فى سنة ١٤١٠ وبعدها اغار على بلاد الصرب وعاقب أهلها على خروجهم عن الطاعة وقاتل سجسمون ملك المجر الذى تصدّى له لردّه عن بلاد الصرب لكن داخل الطمع الامير موسى فعصى أخاه محمد الذى أمدّه بالجنود لمحاربة أخيهما سليمان واراد الاستقلال ببلاد الدولة باوروبا وحاصر القسطنطينية ليفتحها لنفسه فاستنجد ملكها بالامير محمد فاتى اليه مسرعاً لمحاربته والزمه بعد محاربة شديدة برفع الحصار عنها ثم حالف الامير محمد ملك القسطنطينية وامير الصرب وبثوا الدسائس فى جيش موسى حتى خانه اغلب قوّاده ووقع اخيراً بين يدى اخيه محمد فامر بقتله سنة ٨١٦ هجرية الموافقة سنة ١٤١٣ ميلادية

---

## ٥ « انفراد السلطان محمد جلبى الغازى بالملك »

وبذلك انفرد محمد المولود سنة ٧٨١ هـ بما بقى من بلاد آل عثمان واشتهر فى التاريخ باسم السلطان محمد جلبى الغازى ويعتبر بعض المؤرخين السلطان محمد الاول خامس سلاطين آل عثمان ولم يعتبروا اخوته لكونهم لم يلبثوا فى الملك مدّة طويلة وذلك لعدم الخلط فى تعداد ملوك هذه الدولة ولم يراع البعض الاخر هذا الترتيب بل اعتبرهم ملوكا ولذلك وجد اختلاف بين كتب المؤرخين فى عدد سلاطين الدولة العثمانية لكن المتفق عليه هو عدم اعتبار من نازع السلطان محمد جلبى فى الملك من اخوته وعدّه هو خامس سلاطين الدولة العلية

هذا وقد كانت مدة حكم السلطان محمد كلها حروبا داخلية لارجاع الامارات التى استقلت فى مدة الفوضى التى اعقبت موت السلطان بايزيد فى الاسر وحافظ على محالفة ملك الروم الذى لولا مساعدته له لخيف على عرى الدولة العلية من الانفصام وردّ له البلاد التى فتحها اخوه موسى واستمر على محافظته لعهده الى آخر عمره

ومما يؤثر عن هذا السلطان انه استعمل الحزم مع الحلم فى معاملة من قهرهم ممن شق عصا

طاعة الدولة فانه لما قهر أمير البلاد القرمان وكان قد استقل عفاعنه بعد أن أقسم له على القرآن الشريف بان لا يخون الدولة فيما بعد وعفا عنه ثانية بعد ان حنث فى يمينه

وكذلك لما حارب ( قره جنيد) الذى كان حاكم أزمير من قبل السلطان بايزيد وقهره عفا عنه وتناسى كل ما وقع منه وعينه حاكما لمدينة نيكوبلى

وظهر فى أيام هذا الملك شخص يسمى بدر الدين من العلماء المشهورين فى ذلك الوقت وكان معيناً بوظيفة قاضى عسكر فى جيش موسى أخى السلطان محمد و بعد انهزام موسى كما سبق ذكره ألزم بالاقامة فى مدينة (ازنيك) ثم هرب منها وابتدأ فى نشر مذهبه المؤسس على المساواة فى الاموال والامتعة وهذا المذهب أشبه شىء بآراء بعض اشتراكى هذا الوقت فتبعه خلق كثير من المسلمين والمسيحيين وغيرهم لانه كان يعتبر جميع الاديان على السواء ولا يفرّق بينها بل كان عنده جميع الناسُ اخوة مهما اختلفت مذاهبهم وأديانهم واستعان فى نشر مذهبه هذا بشخص يدعى ( بيرقليجه مصطفى ) وآخر يقال ان أصله يهودى واسمه ( طورلاق كمال ) واشتهر أمره بسرعة وكثر عدد تابعيه حتى خيف على المملكة العثمانية من امتداد مذهبه فارسل اليه السلطان محمد القائد سيسمان ابن أمير البلغار الذى دخل فى دين الاسلام وعين حاكما لمدينة سمسون مع جيش جرار لمحاربة أتباع بدر الدين فظهر عليه بيرقليجه مصطفى وقتله

ولما علم السلطان بذلك جمع الجيوش وأرسل وزيره الاوّل المدعو بايزيد باشا لمحاربة هذه الفئة فصار اليها وقابل مصطفى فى ضواحى ازمير فحاربه فى موقع يقال له ( قره بورنو ) وقهره وأخذه أسيراً ثم قتله وكثيرا من أتباعه

وفى هذه الاثناء ضبط بدر الدين فى بلاد مقدونية بعد مقاومة شديدة وشنق فى سنة ١٤١٧م و بذلك اطفئت هذه الفتنة ولم يبق لها بعد ذلك من خبر وكان شنق رئيس هذه الفتنة بناء على فتوى أفتى بها مولانا سعيد أحد تلامذة التفتازانى وهذا نصها كما جاء فى تاريخ همر (من أتاكم وأمركم جميعاً على رجل يريد أن يشق عصاكم و يفرق جماعتكم فاقتلوه ) ولم يهدأ بال السلطان محمد بعد انتصاره على بدرالدين وأشياعه حتى ظهر أخوه مصطفى الذى لم يوقف له على أثر بعد واقعة انقره التى أسر فيها والدهم السلطان بايزيد الاول وطالبه بالملك وانضم اليه (قره جنيد) الذى سبق ذكر عفو السلطان عنه وأمدّه بجنود أرسلها اليه أمير الفلاخ سعياً وراء ايجاد الفتن فى داخل الممالك العثمانية فاغار الامير مصطفى على اقليم تساليا ببلاد اليونان لكنه لم يقو على مقاومة جنود أخيه السلطان محمد فدخل فى مدينة سلانيك وكانت عادت الى مملكة الروم بعد موت السلطان بايزيد واحتمى عند حاكمها المعين من قبل ملك الروم فطلب السلطان تسليمه فأبى ملك الروم ذلك ووعده ان يحفظه ولا يطلق سراحه مادام السلطان على قيد الحياة فقبل السلطان محمد هذا الاقتراح ورتب لاخيه راتبا سنويا ولقد ذهب بعض المؤرخين الى أن مصطفى هذا لم يكن ابن السلطان بايزيد بل

شخص انتحل لنفسه هذه الصفة طمعاً في الملك الأ أن المؤرخ العثماني المدعو نشري وكثيراً من مؤرخي الروم قالوا بصحة نسبه ومما يؤيد هذا القول تعيين راتب له من قبل السلطان وبلغ من كرم السلطان وحلمه انه عفا عن قرد جنيد نفسه وعده من محازبيه في سنة ١٤١٩ وكانت هذه الفتنة آخر الحروب الداخلية التي خضبت أراضي الدولة العلية بدماء العثمانيين بسبب اغارة تيمورلنك عليها

وبعد ذلك بذل السلطان محمد جلبي قصارى جهده في محو آثار هذه الفتن باجرائه الترتيبات الداخلية الضامنة لعدم حدوث شغب في المستقبل وبينما كان السلطان مشتغلا بهذه المهام السلمية فاجاه الموت في سنة ٨٢٤ هـ الموافقة سنة ١٤٢١ م في مدينة ادرنه فأسلم الروح وعمره ٤٣ سنة بعد ان أوصى بالملك لابنه مراد الذي كان حينئذ في اماسيا

وخوفا من حصول مالا تحمد عقباه لو علم موت السلطان محمد مع وجود ابنه مراد في بلاد آسيا اتفق وزيراه ابراهيم وبايزيد على اخفاء موته عن الجند حتى يحضر ابنه فاشاعا ان السلطان مريض وأرسلا لابنه فحضر بعد واحد واربعين يوما واستلم مقاليد الدولة

واشتهر السلطان محمد بحبه للعلوم والفنون وهو أول ملك عثماني أرسل الهدية السنوية الى أمير مكة التي يطلق عليها اسم الصرّة حتى الآن وهي عبارة عن قدر معين من النقود يرسل الى الامير لتوزيعه على فقراء مكة والمدينة لكن لم تكن بالقدر الذي بلغته الآن وقد قال بعض المؤرخين ان السلطان سليمان الاول هو أوّل من أرسل الصرة في سنة ٩٢٣ هـ الموافقة سنة ١٥١٧ م بعد فتح مصر ولكن اتفق من يوثق بهم من المؤرخين خصوصاً (صولاق زاده) على ان السلطان محمد جلبي هو أول من أرسلها ودفن في مدينة بورصة

## ٦ «السلطان مراد خان الثاني الغازي»

ولد السلطان مراد الثاني سنة ٨٠٦ هـ الموافقة سنة ١٤٠٣ م وتولى سنة ٨٢٤ هـ الموافقة سنة ١٤٢١ م بعد موت أبيه وعمره ثماني عشرة سنة وافتتح أعماله بابرام الصلح مع أمير القرمان والاتفاق مع ملك المجر على هدنة خمس سنوات حتى يتفرغ لارجاع ماشق عصا الطاعة من ولايات آسيا لكن حدث ما شغله عن هذا العمل وذلك ان ايمانويل طلب منه أن يتعهد له بعدم محاربته مطلقاً وأن يسلمه اثنين من اخوته تاميناً على نفاذ هذا التعهد وتهدده باطلاق سراح عمه مصطفى بن بايزيد ولما لم يجبه مراد الثاني لطلبه أخرج مصطفى من منفاه وأعطاه عشرة مراكب حربية تحت امرة (دمتريوس لاسكاريس) فاتى بها وحاصر مدينة جاليبولي فسلمت الا القلعة فتركها مصطفى بعد ان أقام حولها من الجند ما يكفي لمنع وصول المدد اليها وسار ببقية جيشه قاصدا أدرنه فخرج الوزير بايزيد باشا لمحاربته فتقدم مصطفى وخطب في العساكر باطاعته لانه أحق بالملك من ابن أخيه فاطاعته الجيوش وقتلت بايزيد باشا قائدهم فسار مصطفى بعد ذلك لمقابلة ابن أخيه مراد

الثاني الذي كان متحصنا مع من معه من الجنود خلف نهر صغير وهناك خانه بعض قواده وتركه أغلب جنوده حتى التزم الهروب الى مدينة جاليبولى فسلمه بعض أتباعه الى ابن أخيه مراد الثانى فامر بشنقه

وبعد ذلك أراد السلطان مراد الانتقام من ملك الروم الذى أطلق سراح عمه مصطفى ليشغله عن فتح القسطنطينية فسار اليه بخيله ورجله وحاصر مدينته ثم هاجمها فى يوم ٣ رمضان سنة ٨٢٥ الموافق ٢٤ أغسطس سنة ١٤٢٢ وبعد قتال عنيف رجع العثمانيون بدون أن يتمكنوا من فتحها وبعدها رفع عنها الحصار لعصيان أخ له يقال له مصطفى شق عصاه واستعان على أخيه السلطان مراد ببعض أمراء آسيا الصغرى لكن لم تلبث هذه الفتنة ان أخمدت بالقبض على مصطفى وقتله مع كثير من انحاز بيه فوقع الرعب فى قلوب من ساعده من الامراء وتنازل أمير قسطمونى عن نصف أملاكه للسلطان وزوّجه ابنته سنة ١٤٢٣ اظهاراً لاخلاصه وولائه وفى السنة التالية عصى قره جنيد واستولى على امارة آيدين لكن قهره حمزه بك أخو الوزير بايزيد باشا وقبض عليه وأمر بخنقه فتخلصت الدولة بذلك من هذا الخائن الذى خان عهدها أكثر من مرة

وأعاد مراد الثانى الى أملاك الدولة العلية ولايات آيدين وصاروخان ومنتشا وغيرها من الامارات التى أعاد تيمورلنك استقلالها اليها وكذلك استرد بلاد القرمان بعد ان قتل أميرها محمد بك وعين ابنه ابراهيم واليا عليها مع بعض امتيازات بشرط أن يتنازل عن اقليم الحميد وفى سنة ١٤٢٨ توفى امير كرميان عن غير عقب وأوصى بما كان باقيا له من بلاده الى السلطان مراد وبذلك استرد السلطان مراد الثانى جميع ما فصله تيمورلنك عن الدولة العثمانية من البلاد وصار فى امكانه التفرغ لاعادة فتح ما استقل من البلاد باوروبا بعد موت بايزيد الاول فابتدأ بان ألزم ملك المجر بعد محاربة شديدة كانت نتيجتها افتتاح مدينة (كولباز) الواقعة على شاطىء نهر الدانوب الأيمن بالتوقيع على معاهدة تقضى عليه بالتخلى عما يكون له من البلاد على شاطىء نهر الدانوب الايمن بحيث يكون هذا النهر فاصلا بين أملاك الدولة العلية والمجر

ولما رأى أمير الصرب المدعو (جورج برنكوفيتش) أنه لا يقوى على مقاومة الدولة قبل أن يدفع جزية سنوية قدرها خمسون ألف دوكا ذهبا ويقدم للسلطان فرقة من جنوده للمساعدة وقت الحرب وأن يزوجه ابنته (مارا) وأن يقطع علاقاته مع ملك المجر وأن يتنازل أيضاً للدولة العلية عن بلدة كروشيفاتس (١) الواقعة فى وسط بلاد الصرب لتجعلها حصنا منيعا تأوى اليه جنودها منعا لحصول الفتن وفى سنة ١٤٣٠ أعاد السلطان فتح مدينة سلانيك التى كان تنازل عنها ملك الروم الى أهالى البندقية بعد ان حاصرها خمسة عشر يوما

(١) تسمي هذه المدينة في كتب الترك (الاجه حصار) وتبعد ٥٦ كيلو متر عن مدينة نيش بالقرب من ملتقي نهر (موراوا)

وبعد ذلك أراد السلطان مراد أن يفتح ما بقى من بلاد الصرب وبلاد ألبانيا (الارنؤد) والفلاخ قبل أن يعيد الكرة على القسطنطينية حتى لا يكون لها من هذه الولايات نصير فوجه اهتمامه أولا الى بلاد ألبانيا فأطاعه سكان يانيه وسكان أغلب باقى البلاد بدون كثير عناء مشترطين عدم التعرض لهم فى دينهم ولا عوائدهم وألزم (جان كستريو) أمير الجزء الشمالى من بلاد ألبانيا أن يسلم له أولاده الاربعة رهينة على صدقه وولائه ثم ضم أملاكه اليه بعد وفاته سنة ١٤٣١

وفى سنة ١٤٣٣ اعترف (فلاد) أمير الفلاخ الملقب (دره قول) أى الشيطان بسيادة الباب العالى عليه تخلصا من الحرب التى كان لا يشك فى وخامة عاقبتها عليه لكن لم يكن هذا الخضوع الا ظاهريا فانه ما لبث ان ثار هو وأمير الصرب بناء على تحريض ملك المجر لهما فحاربهما السلطان وقهرهما ثم سار الى بلاد المجر وخرب كثيرا من بلدانها وعاد منها فى سنة ١٤٣٨ بسبعين ألف أسير على مايقال

وفى السنة التالية عصى جورج برنكوفتش أمير الصرب فكانت عاقبة عصيانه ان فتح السلطان مراد مدينة سمندرية (١) بالقرب من مدينة بلغراد (٢) عاصمة بلاد الصرب بعد ان حاصرها ثلاثة أشهر وفر برنكوفتش الى بلاد المجر محتميا عند ملكها (آلبير) الذى خلف سجسمون ثم حاصر السلطان مدينة بلغراد عاصمة الصرب مدة ستة شهور ولم يتمكن من فتحها لشدة دفاع من بها من الجنود

فتركها واغار على بلاد (ترنسلفانيا) (٣) وحاصر مدينة (هرمان ستاد) التابعة لملك المجر وكان حاكم هذا الاقليم هونياد (٤) قائد عموم جيوش المجر فأتى هذا القائد الشهير على جناح السرعة للدفاع عنها وانتصر على العثمانيين وقتل منهم عشرين الف نفس وقتل قائدهم والزم من بقى منهم بالرجوع خلف نهر الدانوب ولما بلغ السلطان خبر انهزام جيوشه ارسل اليهم ثمانين الف مقاتل تحت قيادة شهاب الدين باشا فهزمه ايضاً هو نياد المجرى واخذه

---

(١) ومعناها القديس اندريا مدينة واقعة علي نهر الطونة تبعد ٤٥ كيلو مترعن بلغراد عاصمة الصرب ويبلغ عدد سكانها ١٥ ألفا ولها أهمية عظمى حربية

(٢) ومعناها المدينة البيضاء مدينة حصينة على نهر الطونة بالقرب من مصب نهر (ساف) وهي عاصمة مملكة الصرب الآن بينها وبين الاستانة طريق حديدى طوله ثمانمائة كيلومتر وأهميتها في التاريخ العثماني عظيمة لتنازعها بين العثمانيين والنمساويين وفي سنة ١٧٣٩ أمضيت فيها معاهدة شهيرة كماسترى ويبلغ عدد سكانها مائة ألف نسمة

(٣) ومعناها البلاد الواقعة في ماوراء الغابات أطلق عليها أهالي النمسا هذا الاسم لوجود غابات كثيفة تفصلها عنها وهي من أهم أقاليم مملكة النمسا لوفرة المعادن بها ويزيد عدد سكانها عن ثلاثة ملايين ولمجاورتها لبلاد المجر صارت عرضة لكل من أراد الاغارة على بلاد المجر وتبعت مدة للدولة العثمانية

(٤) ولد هذا القائد في سنة ١٤٠٠ وعينه لادسلاس ملك بولونيا والمجر حاكما على أقليم ترنسلفانيا واشتهر بمحاربة العثمانيين ومات سنة ١٤٥٦ أثر جراح أصابته أثناء دفاعه عن مدينة بلغراد عند محاصرة السلطان محمد الفاتح لها

أسيراً فى موقعة هائلة بالقرب من بلدة يقال لها ( وازاج ) سنة ١٤٤٢ و بعد ذلك سار القائدالمجرى الى بلاد الصرب وتغلب على السلطان مراد نفسه فى مدينة نيش(١)واقتفى أثره الى ماوراء جبال البلقان سنة ١٤٤٣ وظهرعليه فى ثلاث وقائع أخرى وأخيراً أبرم السلطان مراد معهم الصلح على أن يتنازل عن سيادته على بلاد الفلاخ و يردّ الى أمير الصرب مدائن سمندرية وألاجه حصار وأن يهادن المجر مدّة عشر سنوات وأمضيت هـذه المعاهدة فى ٢٦ ربيع الاول سنة ٨٤٨ الموافق ١٢ يوليو سنة ١٤٤٤

تنازل السلطان عن الملك وعوده اليه

وعقب ذلك توفى أكبر أولاد السلطان واسمه علاء الدين فحزن عليه والده حزناشديدا وسئم الحياة فتنازل عن الملك لابنه محمد البالغ من العمر أربع عشرة سنة وسافر هو الى ولاية آيدين للاقامة بعيدا عن هموم الدنيا وغمومها

لـكنه لم يمكث فى خلوته بضع أشهر حتى أتاه خبر غدر المجر واغارتهم على بلاد البلغار غير مراعين شروط الهدنة اعتماداً على تغرير الـكردينال ( سيزارينى ) مندوب البابا وتفهيمه لملك المجران عدم رعاية الذمة والعهود مع المسلمين لاتعدّ حنثا ولا نقضا

ولما ورد عليه خبر هذه الخيانة ونـكث العهد قام بجيشه لمحاربة المجر فوجدهم محاصرين لمدينة وارنة الواقعة على البحر الاسود و بعد قليل اشتبك القتال بين الجيشين فقتل ملك المجر المدعو ( لادسلاس ) وتفرق الجند بعد ذلك ولم تفد شجاعة هونياد شيئاً وفى اليوم التالى هاجم العثمانيون معسكر المجر واحتلوه بعد قتال شديد قتل فيه الـكردينال ( سيزارينى ) سبب هذه الحرب وتم للمسلمين هـذا الفوز المبين فى ٢٨ رجب سنة ٨٤٨ الموافق ١٢ نوفمبر سنة ١٤٤٤

و بعد تمام النصر واستخلاص مدينة وارنه رجع السلطان الى عزلته لـكنه لم يلبث فيهاهذه المرة أيضاً لان عساكر الانـكشارية ازدروا بملـكهم الفتى محمد الثانى وعصوه ونهبوامدينة ادرنه عاصمة الدولة فرجع اليهم السلطان مرادالثانى فى أوائل سنة ١٤٤٥م وأخمدفتنتهم وخوفا من رجوعهم الى اقلاق راحة الدولة أرادأن يشغلهم بالحرب فأغار على بلاداليونان وساعده على ذلك تجزىء ايمانويل ملك الروم بلاده بين أولاده بان أعطى مدينة القسطنطينية وضواحيها الى ابنه حنا و بلاد موره وثيبه وجزأ من تساليا لابنه قسطنطين وهو آخر ملوك الروم ولماعلم قسطنطين بعزم السلطان مراد على فتح بلاده حصن برزخ كورنته و بنى فيه قلاعا جعلت اجتيازه غير ممكن لـكن لم يعق هذا السور المنيع الجيوش العثمانية بل سلط عليه السلطان مدافعه ( ذكر المؤرخون أن هذا أوّل استعمال للمدافع فى جيوش الدولة العلية ) حتى أحدث فيها ثلما دخلت منه الجيوش الى مدينة كورنته ففتحها

(١) ويقال لها نيسا مدينة في جنوب الصرب لا يزيد عدد سكانها عن عشرة الاف نسمة واقعة علي الطريق الموصل الي الاستانه وسلانيك حصلت بها عدة وقائع حربية أهمها انتصار الصربيين علي جيوش الدولة سنة ١٨٧٨ أثناء الحرب الروسية الاخيرة

ولم يتم فتح بلاد موره لازدياد عصيان اسكندر بك واثارته الفتن فى بلاد ألبانيا واكتفى بضرب الجزية على أهلها هذه المرة ولما هدأ باله من جهة اسكندر بك عاود الكرة عليها

فتنة اسكندر بك

واسكندر بك هذا هو أحد أولاد جورج كستريو أمير ألبانيا الشمالية الذين سبق ذكر أخذ السلطان لهم رهينة وضم بلاد أبيهم اليه بعد موته وكان قد أسلم أو بالحرى تظاهر بالاسلام لنوال ما يكنه صدره واظهر الاخلاص للسلطان حتى قربه اليه وفى سنة ١٤٤٣ حينما كان السلطان مشتغلا بمحاربة هونياد وملك الصرب ألزم كاتب أول الملك على أن يمضى له أمراً بتوجيه ادارة مدينة (آق حصار) من أعمال بلاد ألبانيا اليه وأخذ هذا الامر بعد أن قتل ممضيه خوفا من افشاء سره وسار الى هذا البلد ودخله وفى الحال استدعى اليه رؤساء قبائل الارنؤد وأظهر لهم مشروعه وهو استخلاص ألبانيا من يد الاتراك فوافقوه على ماوسوسه لهم وأمدوه بالمال والرجال فسار معهم وطرد العثمانيين من أغلب بلاد أجداده وانتصر على القائد على باشا سنة ١٤٤٣ وساعده على امتداد نفوذه تنازل السلطان مراد واشتغاله بمحاربة المجر لكن لما تم النصر للسلطان فى واقعة وارنه واستتب الامن فى بلاد اليونان أمكنه جمع جيش جرار لقمع هذا الخائن فقصده بمائة ألف مقاتل واسترد منه مدينتين من أهم مدن البانيا سنة ١٤٤٧ ثم تركه حين بلغه خبر اغارة هونياد المجرى على بلاد الصرب ليعيد لنفسه مافقد من الشرف فى واقعة وارنه وكان معه فى هذه الدفعة اربعة وعشرون الف رجل منهم عشرة آلاف من الفلاخ فاصطدم الجيش العثمانى بقيادة السلطان نفسه مع جيش هونياد فى وادى (قوص أوه) فانتصر عليه السلطان نصرا مبينا فى ١٨ شعبان سنة ٨٥٢ الموافق ١٧ اكتوبر سنة ١٤٤٨ كما انتصر السلطان مراد الاول على لازار ملك الصرب سنة ١٣٨٩ فى هذا الموقع ثم عاد السلطان مراد الثانى لمحاربة اسكندر بك بالمانيا وحاصر مدينة (آق حصار) مدة ولما لم يجد سبيلا الى فتحها لضعف جيوشه بسبب هذه الحروب المتواصلة اراد ان يتفق مع اسكندر بك على الصلح بان يقلده السلطان امارة بلاد البانيا فى مقابلة جزية سنوية ولما لم يقبل اسكندر بك هذا الاقتراح رفع السلطان الحصار عن المدينة وعاد الى ادرنه عاصمة ممالكه ليجهز جيوشا جديدة كافية لقمع هذا الثائر لكنه توفى فى يوم ٥ محرم سنة ٨٥٥ الموافق (٩ فبراير سنة ١٤٥١) وتولى بعده ابنه السلطان ابو الفتح محمد الثانى ونقلت جثته الى مدينة بورصة وسنه ٤٩ سنة ومدة حكمه ٣٠ سنة

## ٧ «السلطان الغازى محمد الثانى الفاتح وفتح القسطنطينية»

ولد هذا السلطان فى ٢٦ رجب سنة ٨٣٣ الموافق ٢٠ ابريل سنة ١٤٢٩ وهو سابع سلاطين هذه السلالة الملوكية ولما تولى الملك بعد ابيه لم يكن بآسيا الصغرى خارجا عن سلطانه

الاجزء من بلاد القرمان ومدينة سينوب (١) ومملكة طرابزون الرومية (٢) وصارت مملكة الروم الشرقية قاصرة على مدينة القسطنطينية وضواحيها وكان أقليم (موره) مجزأ بين البنادقة وعدة امارات صغيرة يحكمها بعض أعيان الروم أو الافرنج الذين تخلفوا عن اخوانهم بعد انتهاء الحروب الصليبية و بلاد الارنؤد وابيروس فى حمى اسكندر بك السالف الذكر و بلاد البشناق ( البوسنه ) مستقلة والصرب تابعة للدولة العلية تابعية سيادية وما بقى من بحيث جزيرة البلقان داخلا تحت سلطة الدولة العلية

و بعد ان أمر بنقل جثة والده الى مدينة بورصة لدفنها بها أمر بقتل أخ له رضيع اسمه أحمد و بارجاع الاميرة مارا الصربية الى والدها ثم أخذ يستعد لتتميم فتح ما بقى من بلاد البلقان ومدينة القسطنطينية حتى تكون جميع أملاكه متصلة لا يتخللها عدو مهاجم أو صديق منافق لكنه قبل التعرض لفتح القسطنطينية أراد أن يحصن بوغاز البوسفور حتى لا ياتى لها مدد من مملكة طرابزون وذلك بان يقيم قلعة على شاطىء البوغاز من جهة أوروبا تكون مقابلة للحصن الذى أنشاه السلطان بايزيد يلدرم ببر آسيا ولما بلغ ملك الروم هذا الخبر أرسل الى السلطان سفيرا يعرض عليه دفع الجزية التى يقررها فرفض طلبه وسعى فى ايجاد سبب لفتح باب الحرب ولم يلبث ان وجد هذا السبب بتعدى الجنود العثمانية على بعض قرى الروم ودفاع هؤلاء عن أنفسهم وقتل البعض من الفريقين

فحاصر السلطان المدينة فى أوائل ابريل سنة ١٤٥٣ من جهة البر بجيش يبلغ المائتين وخمسين الف جندى ومن جهة البحر بعمارة مؤلفة من مائة وثمانين سفينة وأقام حول المدينة أربع عشرة بطارية طوبجية وضع بها مدافع جسيمة صنعها صانع مجرى شهير اسمه ( اوربان ) كانت تقذف كرات من الحجر زنة كل واحدة منها اثنا عشر قنطاراً الى مسافة ميل وفى اثناء الحصار اكتشف قبر ابى ايوب الانصارى الذى استشهد حين حصار القسطنطينية فى سنة ٥٢ هـ فى خلافة معاوية بن ابى سفيان الاموى و بعد الفتح بنى له مسجد جامع وجرت العادة بعد ذلك ان كل سلطان يتولى يتقلد سيف عثمان الغازى الاول بهذا المسجد وهذا الاحتفال يعد بمثابة التتويج عند ملوك الافرنج ولم تزل هذه العادة متبعة حتى الآن

---

(١) مدينة حصينة في شمال الاناطول علي البحر الاسود بها مينا متسعة اتخذتها الدولة العلية ملجأ لسفنها الحربية وشهيرة بما ارتكبته الروسيا فيها من تدمير الدونانمة العثمانية سنة ١٨٥٣ قبل اعلان الحرب المعروفة بحرب القرم

(٢) مدينة قديمة بآسيا علي البحر الاسود تبعد ١٤٠ كيلومترا عن مدينة أرضروم ويظن أنها معاصرة لمدينة تروادة الشهيرة واسمها مشتق من لفظة ( ترابيزوس ) اللاتينية ومعناها الشكل المعين ولما انقسمت المملكة الرومانية الى شرقية وغربية ظلت تابعة للمملكة الشرقية الي سنة ١٢٠٤م حيث فتحها الافرنج الذين أتوا أثناء حرب الصليب ثم سكنها أحد أعضاء عائلة ( الكومين ) وأسست بها مملكة طرابزون التي استمرت مستقلة ولو انها تابعة اسما الي مملكة الروم بالقسطنطينية الى أن فتحها العثمانيون سنة ١٤٦١ وقتلوا آخر ملوكها المدعو (داود) وستة من أولاده وكان له ولد سابع في أقليم موره ببلاد اليونان ثم هاجر الي جزيرة ( كورسيكا ) وآخر ذرية هذه العائلة (الدوشيس دي ابرانتيس ) التى توفيت سنة ١٨٣٨

ولما شاهد قسطنطين آخر ملوك الروم هذه الاستعدادات استنجد باوروبا فلبى طلبه أهالى جنوه (١) وأرسلوا له عمارة بحرية تحت امرة جوستنيانى فأتى بمراكبه وأراد الدخول الى ميناء القسطنطينية فعارضته السفن العثمانية وانتشر بينهما حرب هائلة فى يوم ١١ ربيع الثانى سنة ٨٥٧ الموافق ٢١ ابريل سنة ١٤٥٣ انتهت بفوز جوستنيانى ودخوله الميناء بعد ان رفع المحصورون السلاسل الحديدية التى وضعت لمنع المراكب العثمانية من الوصول اليها ثم أعيدت بعد مروره كما كانت وبعدها أخذ السلطان يفكر فى طريقة لدخول مراكبه الى الميناء لاتمام الحصار براً وبحراً فخطر بباله فكر غريب فى بابه وهو أن ينقل المراكب على البر ليجتازوا السلاسل الموضوعة لمنعه وتم هذا الامر المستغرب بان مهد طريقاً على البر اختلف فى طوله والمرجح انه فرسخان أى ستة أميال ورصت فوقه ألواح من الخشب صبت عليها كمية من الزيت والدهن لسهولة زلق المراكب عليها وبهذه الكيفية أمكن نقل نحو السبعين سفينة فى ليلة واحدة حتى اذا أصبح النهار ونظرها المحصورون أيقنوا أن لامناص من نصر العثمانيين عليهم لكن لم تخمد عزائمهم بل ازدادوا اقداما وصمموا على الدفاع عن أوطانهم حتى الممات وفى يوم ١٥ جماد أول سنة ٨٥٧ الموافق ٢٤ مايو سنة ١٤٥٣ أرسل السلطان محمد الى قسطنطين يخبره أنه لو سلم البلد اليه طوعا يتعهد له بعدم مس حرية الاهالى أو أملاكهم وأن يعطيه جزيرة موره فلم يقبل قسطنطين ذلك بل آثر الموت على تسليم المدينة فعند ذلك نبه السلطان على جيوشه بالاستعداد للهجوم فى يوم ٢٠ جماد أول سنة ٨٥٧ الموافق ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ ووعد الجيوش بمكافأتهم عند تمام النصر و باقطاعهم أراضى كثيرة وفى الليلة السابقة لليوم المحدد أشعلت الجنود العثمانية الانوار أمام خيامها للاحتفال بالنصر المحقق لديهم وظلوا طول ليلهم يهللون و يكبرون حتى اذا لاح الفجر صدرت اليهم الاوامر بالهجوم فهجم مائة وخمسون ألف جندى وتسلقوا الاسوار حتى دخلوا المدينة من كل فج وأعملوا السيف فيمن عارضهم ودخلوا كنيسة القديسة صوفيا

(١) جنوه مدينة قديمة جداً يقال أنها انشئت سنة ٧٠٧ قبل الميلاد واستولي عليها الرومانيون سنة ٢٢٢ قبل الميلاد وظلت تابعة لهم لحين سقوط الدولة الرومانية ثم تناوبتها أيدى قبائل البربر المختلفة وأخيرا فتحها شارلمان الفرنساوى المتوفي سنة ٨١٤ م واستقلت في القرن العاشر واتخذت التجارة مهنة ونافست جمهوريتي بيشه المسماة الآن ( بيز ) والبندقية المسماة الآن ( فنسيا ) وفي القرن الثالث عشر حاربت بيشه وتغلبت عليها ولاشت تجارتها وأخذت منها جزيرة ( كورسيكا ) ثم أعطاها ملوك الروم بالاستانة قريتي بيره وغلطه في ضواحى بيزنطه ( القسطنطينية ) ومدينة ( كافا ) ببلاد القرم ومدينة ازمير وغيرها ومن ثم وقعت المنافسة بينها و بين البنادقة بسبب السيادة على البحار وحاربتها وانتصرت عليها مرارا وبقيت سيدة البحار الشرقية الي أواخر القرن الرابع عشر ثم أخذت في التقهقر شيئاً فشيئاً بسبب عدم انتظام أمورها الداخلية وتفرق كلمة أهلها ففقدت استقلالها وصارت تدخل تارة في حمي اسبانيا وأخرى في حمي فرانسا وطورا ترجع الي استقلالها الي أن احتلها الفرانساويون سنة ١٧٩٦ وشكلوها بهيئة جمهورية في السنة التالية و بعد سقوط امبراطورية نابليون الاول في سنة ١٨١٥ ضمت الي لومباردية وهي الآن تابعة لمملكة ايطاليا

حيث كان يصلى فيها البطريق وحوله عدد عظيم من الاهالى و يعتقد الروم حتى الآن أن حائط الـكنيسة انشق ودخل فيه البطرق والصور المقدّسة وفى اعتقادهم أن الحائط تنشق ثانية يوم يخرج الاتراك من القسطنطينية و يخرج البطرق منها و يتم صلاته التى قطعها عند دخول العثمانيين عليه عند الفتح وقد أرخ بعضهم هذا الفتح المبين (بلدة طيبة) سنة ٨٥٧ وسميت المدينة اسلامبول أى تخت الاسلام أو مدينة الاسلام

أما قسطنطين فقاتل حتى مات فى الدفاع عن وطنه و بعد فتحها جعلت عاصمة للدولة ولن تزال كذلك ان شاء الله ولنذكر هنا أن المسلمين حاصروا القسطنطينية احدى عشرة مرة قبل هذه المرة الاخيرة منها سبعة فى القرنين الاوّلين للاسلام فحاصرها معاوية فى خلافة سيدنا علىّ سنة ٣٤ ﻫ (٦٥٤م) وحاصرها يزيد بن معاوية سنة ٤٧ ﻫ (٦٦٧م) فى خلافة سيدنا علىّ أيضاً وحاصرها شفيان بن أوس فى خلافة معاوية سنة ٥٢ ﻫ (٦٧٢م) وفى سنة ٩٧ ﻫ (٧١٥م) حاصرها مسلمة فى زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز الاموى وحوصرت أيضاً فى خلافة هشام سنة ١٢١ ﻫ (٧٣٩م) وفى المرّة السابعة حاصرها أحد قوّاد الخليفة هرون الرشيد سنة ١٨٢ ﻫ (٧٦٨ م)

هذا ثم دخل السلطان المدينة عند الظهر فوجد الجنود مشتغلة بالسلب والنهب وغيره فأصدر أوامره بمنع كل اعتداء فساد الأمن حالا ثم زار كنيسة أياصوفيا وأمر بان يؤذن فيها بالصلاة اعلاناً بجعلها مسجداً جامعاً للمسلمين و بعد تمام الفتح على هذه الصورة أعلن فى كافة الجهات بانه لا يعارض فى اقامة شعائر ديانة المسيحيين بل انه يضمن لهم حرية دينهم وحفظ أملاكهم فرجع من هاجر من المسيحيين وأعطاهم نصف الـكنائس وجعل النصف الآخر جوامع للمسلمين ثم جمع أئمة دينهم لينتخبوا بطريقاً لهم فاختاروا جورج سكولاريوس واعتمد السلطان هذا الانتخاب وجعله رئيسا لطائفة الاروام واحتفل بتثبيته بنفس الابهة والنظام الذى كان يعمل للبطارقة فى أيام ملوك الروم المسيحيين وأعطاه حرساً من عساكر الانكشارية ومنحه حق الحكم فى القضايا المدنية والجنائية بكافة أنواعها المختصة بالاروام وعين معه فى ذلك مجلساً مشكلا من أكبر موظفى الـكنيسة وأعطى هذا الحق فى الولايات للمطارنة والقسوس وفى مقابلة هذه المنح فرض عليهم دفع الخراج مستثنياً من ذلك أئمة الدين فقط

و بعد اتمام هذه الترتيبات واعادة ماهدم من أسوار المدينة وتحصينها سافر بجيوشه لفتح بلاد جديدة فقصد بلاد مورة لـكن لم ينتظر اميراها دمتريوس وتوماس اخوا قسطنطين قدومه بل ارسلا اليه يخبرانه بقبولهما دفع جزية سنوية قدرها اثنا عشر الف دوكا فقبل ذلك السلطان وغير وجهته قاصدا بلاد الصرب فاتى هونياد الشجاع المجرى وردّ عنهم مقدمة الجيوش العثمانية لـكن لم يرغب الصرب فى مساعدة المجر لهم لاختلاف مذهبهم حيث كان المجر كاثوليكيين تابعين لبابا رومة والصرب ارثوذكسيين لا يذعنون

لسلطة البابا بل كانوا يفضلون تسلط المسلمين عليهم لما رأوه من عدم تعرضهم للدين مطلقاً ولذلك أبرم أمير الصرب الصلح مع السلطان محمد الثانى على أن يدفع له سنويا ثمانين ألف دوكا وذلك فى سنة ١٤٥٤ وفى السنة التالية أعاد السلطان عليها الكرة بجيش مؤلف من خمسين ألف مقاتل وثلاثمائة مدفع ومر بجيوشه من جنوب بلاد الصرب الى شمالها بدون أن يلقى أقل معارضة حتى وصل مدينة بلغراد الواقعة على نهر الدانوب وحاصرها من جهة البر والبحر وكان هونياد المجرى دخل المدينة قبل اتمام الحصار عليها ودافع عنها دفاع الابطال حتى يئس السلطان من فتحها ورفع عنها الحصار سنة ١٤٥٥ لكن وان لم يتمكن العثمانيون من فتح عاصمة الصرب الا انهم ربحوا أمراً عظيما وهو اصابة هونياد بجراح بليغة مات بسببها بعد رفع الحصار عن المدينة بنحو عشرين يوما وأراح المسلمين منه ولما علم السلطان بموته أرسل الصدر الاعظم محمود باشا لاتمام فتح بلاد الصرب فاتم فتحها من سنة ١٤٥٨ الى سنة ١٤٦٠ و بذلك فقدت الصرب استقلالها نهائيا بعد ان أعيت الدولة العلية أكثر من مرة

وفى هذه الاثناء تم فتح بلاد موره ففى سنة ١٤٥٨ فتح السلطان مدينة كورنته وما جاورها من بلاد اليونان حتى جرد توماس باليولوج أخا قسطنطين من جميع بلاده ولم يترك اقليم موره لاخيه دمتريوس الا بشرط دفع الجزية

و بمجرد مارجع السلطان بجيوشه ثار توماس وحارب الاتراك وأخاه معا فاستنجد دمتريوس بالسلطان فرجع بجيش عرمرم ولم يرجع حتى تم فتح اقليم موره سنة ١٤٦٠ وهرب توماس الى ايطاليا ونفى دمتريوس فى احدى جزائر الارخبيل

وفى ذلك الوقت فتحت جزائر تاسوس وانبروس وغيرها من جزائر بحر الروم

و بعد عودة السلطان من بلاد اليونان أبرم صلحاً مؤقتاً مع اسكندر بك وترك له اقليمى ألبانيا وابيروس ثم حول أنظاره الى آسيا الصغرى ليفتح ما بقى منها فسار بجيشه بدون أن يعلم أحدا بوجهته فى أوائل سنة ١٤٦١ وهاجم أولا ميناء أماستريس وكانت مركز تجارة أهالى جينوة النازلين بهذه الاصقاع ولكون سكانها تجاراً يحافظون على أموالهم ولا يهمهم دين أو جنسية متبوعهم مادام غير متعرض لاموالهم ولا أرواحهم فتحوا أبواب المدينة ودخلها العثمانيون بغير حرب ثم أرسل الى اسفنديار امير مدينة سينوب يطلب منه تسليم بلده والخضوع له ولاجل تعزيز هذا الطلب أرسل أحد قواده ومعه عدد عظيم من المراكب لحصر المينا فسلمها اليه الامير وأقطعه الملك اراضى واسعة باقليم بيثينيا مكافاة له على خضوعه ثم قصد بنفسه مدينة طرابزون ودخلها بدون مقاومة شديدة وقبض على الملك واولاده وزوجته وأرسلهم الى القسطنطينية

ولما عاد اليها جهز جيشاً لمحاربة امير الفلاخ المدعو فلاددره قول اى الشيطان لمعاقبته على ما ارتكبه من الفظائع مع أهالى بلاده والتعدى على تجار العثمانيين النازلين بها فلما قرب

منها أرسل اليه هذا الامير وفداً يعرض على السلطان دفع جزية سنوية قدرها عشرة آلاف دوكا بشرط أن يصادق على جميع الشروط الواردة بالمعاهدة التى أبرمت فى سنة ١٣٩٣ بين أمير الفلاخ اذذاك والسلطان بايزيد فقبل السلطان محمد الثانى هـذا الاقتراح وعاد بجيوشه ولم يقصد أمير الفلاخ بهذه المعاهدة الا التمكن من الاتحاد مع ملك المجر ومحاربة العثمانيين فلما علم السلطان باتحادهما أرسل اليه مندوبين يسألانه عن الحقيقة فقبض عليهما وقتلهما بوضعهما على عمود محدّد من الخشب (خازوق) وأغار بعدها على بلاد بلغاريا التابعة للدولة العلية وعثى فيها الفساد ورجع بخمس وعشرين ألف أسير فارسل اليه السلطان يدعوه الى الطاعة واخلاء سبيل الاسرى فلما مثل الرسل أمامه أمرهم برفع عمائمهم لتعظيمه وعند ابائهم طلبة لمخالفته لعوائدهم أمر هذا الظالم بان تسمر عمائمهم على رؤسهم بمسامير من حديد

فلما وصلت هذه الاخبار الى السلطان محمد استشاط غضباً وسار على الفور بمائة وخمسين ألف مقاتل لمحاربة هذا الشقى الظلوم فوصل فى أقرب وقت الى مدينة بخارست(١) عاصمة الامير بعدان هزمه وفرّق جيوشه لكنه لم يتمكن من القبض عليه لمجازاته على ما اقترفه من المظالم والمآثم لهروبه والتجائه الى ملك المجر فنادى السلطان بعزله ونصب مكانه أخاه راوول لثقته به بما أنه تربى فى حضانة السلطان منذ نعومة أظفاره وبذا ضمت بلاد الفلاخ الى الدولة العلية ويقال ان عند وصول السلطان محمد الى ضواحى بخارست وجد حول المدينة جثث الاسرى الذين أتى بهم أمير الفلاخ من بلاد بلغاريا وقتلهم عن آخرهم بما فيهم الاطفال والنساء وكان عددهم جميعا عشرين ألفا

وفى سنة ١٤٦٢ حارب السلطان بلاد بوسنه لامتناع أميرها عن دفع الخراج وأسره بعد محاربة عنيفة هو وولده وأمر بقتلهما فدانت له جميع بلاد البشناق (أهالى بوسنه) وفى سنة ١٤٦٤ أراد متياس كرفن (٢) ملك المجر استخلاص بوسنه من العثمانيين فهزم بعد بعد ان قتل معظم جيشه وكانت عاقبة تداخله ان جعلت بوسنه ولاية كباقى ولايات الدولة وسلبت ما كان منح لها من الامتيازات ودخل فى جيش الانكشارية ثلاثون الفا من شبانها واسلم اغلب اشراف اهاليها

هـذا وكانت ابتـدأت حركات العـدوان فى سـنة ١٤٦٣ بين العثمانيين

(١) وتسمي في الكتب التركية (بكرش) بلدة جميلة جداً قديمة العهد ولم تشتهر الا بعد المعاهدة التى أبرمت فيها بين الدولة العلية والروسية سنة ١٨١٢ وهي الآن عاصمة مملكة رومانيا المكونة من أمارتى الافلاق والبغدان

(٢) هو ابن هونياد المجرى ولد سنة ١٤٤٣ وانتخب ملكا علي بلاد المجر سنة ١٤٥٨ وسنه خمس عشرة سنة واشتهر بمحاربة كافة جيرانه دفاعا عن استقلال المجر وأسس مدرسة جامعة بمدينة (بود) ومكتبة عمومية و بني فيها مرصدا فلكيا وتوفي سنة ١٤٩٠

والبنادقة(١) بسبب هروب أحد الرقيق الى كورون التابعة لهم وامتناعهم عن تسليمه بحجة انه اعتنق الدين المسيحى فاتخذ العثمانيون ذلك سبباً للاستيلاء على مدينة ارجوس وغيرها فاستنجد البنادقة بحكومتهم وهى أرسلت اليهم عمارة بحرية أنزلت ما بها من الجيوش الى بلاد موره فثار سكانها وقاتلوا الجنود العثمانية المحافظة على بلادهم وأقاموا ما كان تهدّم من سور برزخ كورنته لمنع وصول المدد من الدولة العلية وحاصروا مدينة كورنته نفسها واستخلصوا مدينة ارجوس من الاتراك لكن لما علموا بقدوم السلطان مع جيش يبلغ عدده ثمانين ألف مقاتل تركوا البرزخ راجعين على أعقابهم فدخل العثمانيون بلاد موره بدون كبير معارضة واسترجعوا كل ما أخذوه وأرجعوا السكينة الى البلاد وفى السنة التالية أعاد البنادقة الكرة على بلاد موره بدون فائدة

وبعد ذلك أخذ البابا بيوس الثانى يسعى فى تحريض الامم المسيحية على محاربة المسلمين حربا دينية لكن عاجله المنون قبل اتمام مشروعه الا أن تحريضاته هاجت اسكندر بك الالبانى فحارب الجنود العثمانية وحصل بينهما عدّة وقائع اهرق فيها كثير من الدماء وكانت الحرب فيها سجالا وفى سنة ١٤٦٧ توفى اسكندر بك بعد ان حارب الدولة العلية خمسا وعشرين سنة بدون ان تقوى على قمعه فكان من أشدّ خصوم الدولة والد اعدائها

ثم بعد هدنة استمرّت سنة واحدة عادت الحروب بين العثمانيين والبنادقة وكانت نتيجتها ان افتتح العثمانيون جزيرة نجربونت وتسمى فى كتب الترك اجريبوس مركز مستعمرات البنادقة فى جزائر الروم وتم فتحها فى سنة ١٤٧٠ وبعد ان ساد الامن فى انحاء اوروبا حوّل السلطان انظاره الى بلاد القرمان بآسيا الصغرى ووجد سبيلا سهلا للتداخل وهو ان اميرها المدعو ابراهيم اوصى بعد موته بالحكم الى احد اولاده واسمه الامير اسحق ولكون امه ام ولد نازعه الحكم اخوته من ابيه الذين من الزوجات فتداخل السلطان محمد الثانى وحارب اسحق وهزمه وولى محله اكبر اخوته وعاد الى اوروبا لمحاربة اسكندر بك كما مر فانتهز الامير اسحق غيابه وعاود الكرّة على قونية لاسترداد ما اوصى به اليه ابوه من

---

(١) هم سكان مدينة البندقية الواقعة على البحر الادرياتيكي وهي أهم الثغور التجارية فيها فزت في مسابقة جمهورية بيشه ولم تقو على مجاراة جينوة الالما استولي عليها الاختلال وصارت سيدة البحار الي ان اكتشف طريق رأس الرجا الصالح بطرف افريقا الجنوبي الموصل الي الهند واكتشفت قرة أمريكا فتحولت التجارة الي هذا الطريق الجديد وضعفت البندقية واستمرت هذه الجمهورية بمحاربة العثمانيين الذين جردوها من جميع أملاكها شيئا فشيئا فأخذ منها السلطان محمد الفاتح جزائر اليونان وما كان لها ببلاد مورة وفي سنه ١٥٧١ استولى السلطان سليم الثاني على جزيرة قبرص وفي سنة ١٦٦٩ فتح السلطان محمد الرابع جزيرة كريد وكانتا تابعتين لها وفي سنه ١٧٩٧ احتلها الفرنساويون ثم ضمت الي النمسا وفي سنة ١٨٠٥ ضمت الي ايطاليا وفي سنة ١٨١٥ عادت الي النمسا وفي سنة ١٨٤٨ ثارت عليها ونشكلت بهيئة جمهورية وفي السنة التالية أخضعتها النمسا ثانية لسلطانها وفي سنة ١٨٥٩ تنازلت عنها النمسا الي نابليون الثالث امبراطور فرانسا وهو تنازل عنها الي فكتور امانويل ملك بيمونتي الذى صار فيما بعد ملك ايطاليا ولم تزل تابعة لايطاليا حتى الآن وقد زرتها في شهر يونيو سنة ١٨٩٥ أثناء سياحتي الاولي بأوروبا

البلاد فرجع اليه السلطان وقهره وليستريح باله من هذه الجهة أيضاً ضم امارة القرمان الى بلاده وغضب على وزيره محمود باشا الذى عارضه فى هذا الامر

وبعد ذلك بقليل زحف (اوزون حسن) أحد خلفاء تيمورلنك الذى كان سلطانه ممتداً على كافة البلاد والاقاليم الواقعة بين نهرى آموداريا والفرات وفتح مدينة توقات عنوة ونهب أهلها فاخذ السلطان فى تجهيز جيش جرار وأرسل لاولاده داود باشا بكلر بك الاناطول ومصطفى باشا حاكم القرمان يأمرهما بالمسير لمحاربة العدو فسارا بجيوشهما اليه وقابلا جيش اوزون حسن على حدود اقليم الحميد وهزماه شرّ هزيمة (١٤٧١)

وبعدها بقليل سار اليه السلطان بنفسه ومعه مائة ألف جندى وأجهز على ما بقى معه من الجنود بالقرب من مدينة اذربيجان التى لاتبعد كثيرا عن نهر الفرات ولم يعد اوزون حسن لمحاربة الدولة بعدذلك وفى هذه الاثناء كانت الحرب متقطعة بين العثمانيين والبنادقة الذين استعانوا بابابا رومه وأمير نابولى ومع كل فكان النصر دائما للعثمانيين ولم يتمكن البنادقة من استرجاع شىء مما أخذ منهم وفى سنة ١٤٧٥ أراد السلطان فتح بلاد البغدان فارسل اليها جيشا بعد ان عرض دفع الجزية على أميرها المسمى اسطفن الرابع ولم يقبل

وبعد محاربة عنيفة قتل فيها كثير من الجيشين المتحاربين عادت الجيوش العثمانية بدون فتح شىء من هذا الاقليم ولما بلغ خبر هذا الانهزام آذان السلطان عزم على فتح بلاد القرم حتى يستعين بفرسانها المشهورين فى القتال على محاربة البغدان وكان لجمهورية جنوا مستعمرة فى بحيث جزيرة القرم فى مدينة كافا فارسل السلطان اليها عمارة بحرية ففتحتها بعد حصار ستة أيام وبعدها سقطت جميع الاماكن التابعة لجمهورية جنوا وبذلك صارت جميع شواطىء القرم تابعة للدولة العثمانية ولم يقاومها التتار النازلون بها ولذلك اكتفى السلطان بضرب الجزية عليها

وبعد ذلك فتحت العمارة العثمانية مينا آق كرمان ومنها أقلعت السفن الحربية الى مصاب نهر الدانوب لاعادة الكرة على بلاد البغدان بينما كان السلطان يجتاز نهر الدانوب من جهة البر بجيش عظيم فتقهقر أمامه جيش البغدان لعدم امكانه المحاربة فى السهول وتبعه الجيش العثمانى حتى اذا أوغل خلفه فى غابة كثيفة يجهل مفاوزها انقض عليه الجيش البغدانى وهزمه (١٤٧٦) وبذلك اشتهر اسطفن الرابع أمير البغدان بمقاومة العثمانيين كما اشتهر هونياد المجرى واسكندر بك الالبانى من قبل وسماه البابا شجاع النصرانية وحامى الديانة المسيحية

وفى سنة ١٤٧٧ أغار السلطان على بلاد البنادقة ووصل الى اقليم الفريول بعدان مر باقليمى كرواسيا ودلماسيا (وهما تابعان الآن لمملكة النمسا والمجر) نخاف البنادقة على مدينتهم الاصلية وأبرموا الصلح معه تاركين له مدينة كرويا التى كانت عاصمة اسكندر

بك الشهير فاحتلها السلطان ثم طلب منهم مدينة اشقودره (١) ولما رفضوا التنازل عنها اليه حاصرها وأطلق عليها مدافعه ستة أسابيع متوالية بدون أن يضعف قوة سكانها وشجاعتهم فتركها لفرصة أخرى وفتح ما كان حولها للبنادقة من البلاد والقلاع حتى صارت مدينة اشقودره منفصلة بالكلية عن باقى بلاد البنادقة وكان لا بد من فتحها بعد قليل لعدم امكان وصول المدد اليها واذا فضل البنادقة أن يبرموا صلحاً جديداً مع السلطان ويتنازلوا عن اشقودره فى مقابلة بعض امتيازات تجارية وتم الصلح بين الفريقين على ذلك وأمضيت به بينهما معاهدة فى يوم ٥ ذى القعدة سنة ٨٨٣ الموافق ٢٦ يناير سنة ١٤٧٩ وكانت هذه أول خطوة خطتها الدولة العلية العثمانية للتداخل فى شؤن أوروبا اذ كانت جمهورية البنادقة حين ذاك أهم دول أوروبا لا سيما فى التجارة البحرية وما كان يعادلها فى ذلك الا جمهورية جنوا

فتح جزائر اليونان ومدينة اوترانت

وبعد أن تم الصلح مع البنادقة وجهت الجيوش الى بلاد المجر لفتح اقليم ترنسلفانيا فقهرها كينيس كونت مدينة تمسوار (٢) بالقرب من مدينة كراسبرج فى ١٣ اكتوبر سنة ١٤٧٦ وقتل فى هذه الموقعة كثير من العثمانيين وارتكب المجر فظائع وحشية بعد الانتصار فقتلوا جميع الاسرى ونصبوا موائدهم على جثثهم وفى سنة ١٤٨٠ فتحت جزائر اليونان الواقعة بين بلاد اليونان وايطاليا وبعدها سار القائد البحرى كدك احمد باشا بمراكبه لفتح مدينة أوترانت (٣) بايطاليا التى كان عزم السلطان على فتحها جميعها ويقال انه أقسم بان يربط حصانه فى كنيسة القديس بطرس بمدينة رومه مقر البابا ففتحت مدينة أوترانت عنوة فى يوم ٤ جمادى الثانية سنة ٨٨٥ الموافق ١١ أغسطس سنة ١٤٨٠

حصار مدينة رودس

وفى هذا الحين كانت أرسلت عمارة بحرية أخرى لفتح جزيرة رودس (٤) التى كانت مركز رهبنة القديس حنا الاورشليمى وكان رئيسها اذ ذاك بييردوبوسون الفرنساوى الاصل وكانت الحرب قائمة بينه وبين سلطان مصر وباى تونس فاجتهد فى ابرام الصلح

(١) مدينة قديمة يقال ان مؤسسها اسكندر المقدونى تبعت بلاد ألبانيا (الارنؤد) في تقلباتها السياسية فملكها الصرب ثم استقلت مدة ثم امتلكها البنادقة مدة ثم العثمانيون ولم تزل تابعة لهم حتى الان ويبلغ عدد سكانها خمسة وعشرين ألفا وهي عاصمة ولاية اشقودره

(٢) مدينة ببلاد المجر شهيرة بحصانتها وقوتها امتلكها العثمانيون من سنة ١٥٥٢ الى سنة ١٧١٦ وفي سنة ١٦٦٢ أبرمت بها معاهدة بين العثمانيين وأمبراطور النمسا سيأتى ذكرها

(٣) مدينة قديمة بجنوب بلاد ايطاليا شهيرة باستخراج زيت الزيتون وسكانها قليلون وامتلكها العرب مدة

(٤) جزيرة بالقرب من شاطيء آسيا الصغرى طيبة الهواء حسنة التربة كثيرة الفواكه والازهار يشتق اسمها من لفظة (رودون) اليونانية ومعناها الورد ولحسن مناخها واعتدال طقسها ينتقل اليها كثير من أمراء الاستانة ومصر للتنعم بمعتدل هوائها خصوصا في فصل الصيف فتحها السلطان سليمان الاول الغازى سنة ١٥٢٢ ولم تزل تابعة للدولة العلية وكان بها تمثال عظيم الجثة يقال ان ارتفاعه كان يبلغ ثلاثة وثلاثين مترا هدمته الزلازل في القرن الثالث قبل المسيح

معهما ليتفرغ لصدّ هجمات الجيوش العثمانية وكانت هذه الجزيرة محصنة تحصينامنيعا وابتدأ العثمانيون فى حصارها فى يوم ١٣ ربيع الاوّل سنة ٨٨٥ الموافق ٢٣ مايو سنة ١٤٨٠ وظلت المدافع تقذف عليها القنابل الحجرية تهدّم أسوارها لكن كان يصلح سكانها فى الليل كل ماتخربه المدافع بالنهار ولذلك استمر حصارها ثلاثة أشهر حاول العثمانيون فى خلالها الاستيلاء على أهمّ قلاعها واسمها قلعة القديس نيقولا بدون نتيجة وفى يوم ٢٠ جمادى الاولى سنة ٨٨٥ الموافق ٢٨ يوليو سنة ١٤٨٠ أمر القائد العام بالهجوم على القلعة ودخولها من الفتحة التى فتحتها المدافع فى أسوارها فهجمت عليها الجيوش وقاومها الاعداء بكل بسالة واقدام وبعد أخذ وردّ تقهقر العثمانيون بعدأن قتل وجرح منهم كثيرون ورفع الباقون عنها الحصار

وفى يوم ٤ ربيع الاوّل سنة ٨٨٦ هـ الموافق ٣ مايو سنة ١٤٨١ م توفى أبو الفتح السلطان محمد الثانى الغازى عن ثلاث وخمسين سنة ومدة حكمه ٣١ سنة تم فى خلالها مقاصد أجداده ففتح القسطنطينية وزاد عليها فتح مملكة طرابزون الرومية والصرب والبوشناق وألبانيا ( الارنؤود ) وجميع أقاليم آسيا الصغرى ولم يبق فى بلاد البلقان الا مدينة بلغراد التابعة للمجر وبعض جزائر تابعة للبنادقة ودفن فى المدفن المخصوص الذى أنشأه فى أحد الجوامع التى أسسها فى الاستانه

ترتيباته الداخلية

وكانت مهارة هذا السلطان فى الاعمال المدنية تعادل خبرته فى الاعمال الحربية فاليه ينسب ترتيب الحكومة على نظامات جديدة فسمى نفس الحكومة العثمانية بالباب العالى وجعل لها أربعة أركان وهى الوزير وقاضى عسكر والدفتردار ( وتعادل اختصاصاته اختصاصات ناظر المالية الآن ) والرابع يسمى نيشانجى ( وهو عبارة عن كاتب سرّ السلطان ) ثم بعد امتداد سلطة الدولة العلية فى جهة أوروبا جعل لها قاضى عسكر مخصوص اسمه قاضى عسكر الروملى وقاضى عسكر آخر للاناطول وكان اختصاصهما التعيين فى وظائف القضاء ماعدا بعض وظائف خصوصية يختص بها الوزير الاكبر ثم رتب وظائف الجند فجعل للانكشارية رئيسا مخصوصا (أغا) وناطه باشغال الضبط والربط بمدينة القسطنطينية ورئيساً آخر للطوبجية وثالثاً لما يختص بذخائر ومؤنة الجيوش وكذلك وضع ترتيباً لداخليته الخصوصية وأهمّ أعماله المدنية ترتيب وظائف القضاء من أكبر وظيفة وهى قضاء الروملى الى أقل وظيفة ووضع أوّل مبادىء القانون المدنى وقانون العقوبات فأبدل العقوبات البدنية أى السنّ بالسنّ والعين بالعين وجعل عوضها الغرامات النقدية بكيفية واضحة أتمها السلطان سليمان القانونى الآتى ذكره

ومن مآثره أيضاً عدة جوامع فى القسطنطينية وغيرها وله اليد البيضاء فى انشاء كثير من المكاتب الابتدائية والمدارس العالية مما يطول شرحه

## ٨ « السلطان الغازى بايزيد خان الثانى وأخوه الامير جم »

توفى السلطان أبوالفتح محمد الثانى عن ولدين أكبرهما بايزيد المولودسنة ٨٥١ هالموافقة سنة ١٤٤٧ م وكان حاكما باماسيا وثانيهما جم المشهور فى كتب الافرنج باسم البرنس (زيزيم) وكان حاكما فى القرمان فأخفى الصدر الاعظم قرمانى محمد باشا موت السلطان محمدحتى يأتى بكر أولاده بايزيد ولكنه لشدّة ارتباطه ومودّته بالاصغر أرسل اليه سراً يخبره بموت أبيه كى يحضر قبل أخيه الاكبر و يستلم مقاليدالدولة ولما أذيع هذا الخبر ثار الانكشارية على هذا الوزير وقتلوه وعثوافى المدينة سلباًونهباً وأقاموا ابن السلطان بايزيد واسمه (كركود) نائباً عاما عن أبيه لحين حضوره وذلك فى يوم ٥ ربيع الاوّل سنة ٨٨٦ الموافق ٤ مايو سنة ١٤٨١ وفى يوم ١٣ ربيع الاوّل وصل الرسول الى بايزيد فسافر فى اليوم التالى باربعة آلاف فارس ووصل القسطنطينية بعد مسير تسعة أيام مع أن المسافة تبلغ ١٦٠ فرسخاً تقطع عادة فى نحو ١٥ يوما فقابله أمراء الدولة وأعيانها عند بوغاز البوسفور وفى أثناء اجتيازه البوغاز أحاطت به عدّة قوارب ملأى بالانكشارية وطلبوا منه عزل أحد الوزراء المدعو مصطفى باشا وتعيين اسحق باشا ضابط القسطنطينية مكانه فاجاب طلبهم وكذلك عند وصوله الى السراى الملوكية وجدهم مصطفين أمامها طالبين العفو عنهم فيما وقع من قتل الوزير ونهب المدينة وأن ينعم عليهم بمبلغ سروراً بتعيينه فاجابهم الى جميع مطالبهم وصارت هذه سنة لكل من تولى بعده الى أن أبطلها السلطان عبدالحميد خان الاوّل سنة ١٧٧٤ أما الرسول الذى كان أرسله الوزير محمد الى الامير جم فقبض عليه سنان باشا حاكم الاناطول وقتله حتى لا يصل خبر موت السلطان محمد اليه

وكان السلطان بايزيد الثانى ميالا للسلم أكثر منه الى الحرب محب للعلوم الادبية مشتغلا بها ولذلك سماه بعض مؤرخى الترك بايزيد الصوفى لكن دعته سياسة الدولة الى ترك أشغاله السلمية المحضة والاشتغال بالحرب وكانت أول حروبه داخلية وذلك أن أخاه جما لما بلغه خبر موت أبيه سار على الفور مع من حاذ به ولاذ به قاصداً مدينة بورصة فدخلها عنوة بعد ان هزم ألفى انكشارى ثم أرسل الى أخيه يعرض عليه الصلح بشرط تقسيم المملكة بينهما فيختص جم بولايات آسيا و بايزيد باوروبا فلم يقبل بايزيد بل أتى اليه وقهره بالقرب من مدينة (يكى شهر) فى يوم ٢٣ جمادى الاولى سنة ٨٨٦ الموافق ٢٠ يوليو سنة ١٤٨١ وتبعه حتى أوصله الى تخوم البلاد التابعة لمصر وفى عودته الى عاصمته طلب منه الانكشارية أن يبيح لهم نهب مدينة بورصة مجازاة لها على قبولها الامير جما فلم يوافقهم على ذلك وخوفا من حصول شغب منهم دفع الى كل نفر منهم قرشين فاقام جم هذه السنة بالقاهرة ضيفاً عند السلطان قايدباى ثم عاد فى السنة الثانية الى حلب ومنها راسل

قاسم بك آخر ذرية أمراء القرمان ووعده انه لو أنجده وساعده للحصول على ملك آل عثمان يردّ له بلاد أجداده فاغترّ قاسم بك بهذه الوعود وجمع أحزابه وسار مع الامير جم لمحاصرة مدينة قونية عاصمة بلاد القرمان سابقا فصدهم عنها القائد العثمانى كدك احمد باشا فاتح مدينتى كافا واوترنت وألزم الامير بهما بالفرار

ثم حاول هذا الامير الصلح مع أخيه بشرط اقطاعه بعض ولايات ولما رفض السلطان هذا الطلب الذى لا يكون وراءه الا انقسام الدولة أرسل الامير جم رسولا من طرفه الى رئيس رهبنة القديس حنا الاورشليمى برودس يطلب منه مساعدته على أغراضه فقبلوه عندهم بالجزيرة ووصل اليها فى ٦ جمادى الثانية سنة ٨٨٧ الموافق ٢٣ يوليو سنة ١٤٨٢ وقابله أهلها بكل تجلة واحترام و بعد قليل وصلت الى الجزيرة وفود من السلطان بايزيد لمخابرة رئيس الرهبنة على ابقاء أخيه جم عندهم تحت الحفظ وفى مقابلة ذلك يتعهد لهم السلطان بعدم التعرّض لاستقلال الجزيرة مدّة حياته وبدفع مبلغا سنويا للرهبنة المذكورة قدره ٤٥ ألف دوكا فقبل رئيسهم ذلك وأوفوا بوعدهم ولم يقبلوا تسليمه الى ملك المجر أو امبراطور ألمانيا الذين طلبا اطلاق سراحه ليستعملاه آلة فى اضعاف الدولة العثمانية بل أرسله رئيس الرهبنة الى فرانسا ووضع تحت الحفظ أولا فى مدينة نيس (١) ثم فى شمبرى و بقى ينتقل من بلدة لاخرى مدة سبع سنوات وفى سنة ١٤٨٩ سلمه رئيس الرهبنة الى البابا انوسان الثامن وهو خابر السلطان بايزيد طالبا أن يحفظه عنده وتدفع اليه الدولة ما كانت تدفعه الى رهبنة رودس فقبلت ثم مات هذا البابا وأخلفه اسكندر بورجا الشهير (٢) ويقال ان هذا البابا عرض على السلطان بايزيد أن يخلصه من أخيه و بعبارة أخرى يقتله لو دفع اليه ثلثمائة ألف دوكا

وفى أثناء هذه المخابرات أغار شارل الثامن ملك فرانسا على بلاد ايطاليا لتنفيذ مشروعه الوهمى وهو فتح مدينة القسطنطينية والوصول اليها عن طريق بلاد البنادقة فألبانيا ولذلك كان أرسل دعاة الفتنة والفساد الى بلاد مقدونيا واليونان لاثارة الافكار ضدّ العثمانيين لكن خشى ملك نابولى وجمهورية البنادقة من تعاظم شأن الدولة الفرانساوية

---

(١) مدينة لطيفة في جنوب فرانسا على البحر الابيض المتوسط معتدلة الهواء وقلة البرد فيها عن الجهات الشمالية يقصدها السياح في زمن الشتاء من جميع جهات الدنيا لترويح النفوس والاجسام من عناء الاشغال كانت تابعة لايطاليا ثم فتحها الفرانساويون سنة ١٧٩٢ وفي سنة ١٨١٤ ردت لايطاليا وهي أعطتها لفرانسا ثانية مع مقاطعة السافوا في سنة ١٨٦٠ مكافأة لها على مساعدتها على محاربة النمسا والحصول على الاستقلال وتكوين الوحدة لايطاليا

(٢) هو اسكندر السادس ولد سنة ١٤٣١ باسبانيا وانتخب لرياسة المذهب الكاثوليكي سنة ١٤٩١ وخلف عدة أولاد أشهرهم في التاريخ ابنه سيزار بورجا وابنته لوكريس التى أنشأ (فكتور هوجو) الشاعر الفرانساوى الذائع الصيت رواية محزنة باسمها شرح فيها ما ارتكبته هي وأبوها من فظائع الامور وينسب لهذا البابا ارتكاب جميع الآثام والمحرمات وتوفي سنة ١٥٠٣ قيل انه سم نفسه غلطا بسم كان جهزه لاعدام أحد أعدائه

فوضعوا العراقيل أمامه وأرسلوا الى السلطان بايزيد يخبرونه بمشروع ملك فرانسا ودسائسه وطلبوا منه أن يرسل جيوشه الى بلاد ايطاليا وأن يأخذ حذره فى داخليته

وفى هذه الاثناء حاصر ملك فرانسا مدينة رومه وطلب من البابا أن يسلمه الامير جما العثمانى فسلمه اليه ويقال انه دس له السم قبل تسليمه اليه وما فتىء هذا الامير مصاحبا لجيوش فرانسا حتى توفى فى يوم ١٨ جماد الاول سنة ٩٠٠ الموافق ١٤ فبراير سنة ١٤٩٥ فى مدينة نابولى ودفن فى بلدة (جايت) بايطاليا ثم نقلت جثته بعد ذلك بمدة الى البلاد العثمانية ودفن فى مدينة بورصة فى قبور أجداده وتوفى رحمه الله عن ٣٦ سنة قضى منها ١٣ فى هذه الحالة الشبيهة بالاسر خارجا عن بلاده

هذا ولنأت على ذكر ما حصل فى مدة سلطنة بايزيد الثانى من الحروب بطريق الايجاز لعدم حصول فتوحات فى أيامه تقريباً فكانت أغلبها على التخوم لصد هجمات المتاخمين ومجازاتهم على ما يرتكبونه من السلب لكن فى سنة ١٤٨٧ كانت الحروب تنتشب بين العثمانيين وملوك مصر لمتاخمة بلادهم عند اطنه وطرسوس فبعد مناوشات خفيفة بين الطرفين على الحدود توسط بينهما باى تونس لعدم حصول الحرب بين أميرين مسلمين فاتفقا على حل مرض للطرفين وساعد على ذلك حب السلطان بايزيد للسلم كما سبق الذكر وكان ذلك فى سنة ١٤٩١ وفى السنين التالية حصلت عدة وقائع ذات شأن لم تحصل منها الدولة على نتائج تذكر اذ لم تفتح مدينة بلغراد التى كانت مطمح أنظار الدولة لبقائها كنقطة سوداء على شاطىء نهر الدانوب الايمن الفاصل بين أملاك الدولة والمجر

ابتداء العلاقات مع دول اوروبا

وفى عهد هذا السلطان ابتدأت علاقات الدولة العلية مع مملكة الروس وذلك أنه بعد تفرق مملكة الروس الاولى عقب اغارة المغول على بلادهم وتسلطهم عليها مدة استخلصها ايوان الثالث وكان يلقب (دوق موسكو) (١) وأعاد لها بعض مجدها السابق فى سنة ١٤٨١م وابتدأت العلاقات بينها وبين الدولة فى سنة ١٤٩٢ حيث وصل الى القسطنطينية أول سفير روسي ومعه جملة هدايا للسلطان وبعد ذلك بأربع سنوات أتى اليها سفير آخر واستحصل من الدولة على بعض امتيازات لتجار الروس

وكذلك ابتدأت فى عهده المواصلات الحبية مع مملكة (بولونيا) (٢) فعقدت معاهدة بين

(١) موسكو مدينة عظيمة في وسط بلاد الروسيا كانت عاصمة لها الي أن نقل بطرس الاكبر تخت الحكومة الي مدينة سان بطرسبورج التي أسسها على خليج فنلاند الخارج من بحر بلطيق سنة ١٧٠٣ وبقربها انتصر نابليون الاول امبراطور فرانسا على الروسيا سنة ١٨١٢ فدخلها بعد ان أحرقوها عن آخرها حتى لا يمكن العدو المكث بها ولذلك اضطر نابليون الي العودة الي بلاده وفي هذا التقهقر هلك أغلب جيشه مما هو مشهور ومسطور

(٢) ويسمي في كتب الترك (لهستان) كانت مملكة قوية يبلغ عدد سكانها خمسة عشر مليونا من النفوس وتختها مدينة وارسوفيا وكانت حكومتها ملوكية مقيدة انتخابية أى ان الملك يعين بالانتخاب ويكون انتخابه من أمراء الاجانب واستمرت محترمة الي سنة ١٧٧٣ حيث اتفقت الروسيا والنمسا والبروسيا على تجزئتها فاقتسموا أغلب بلادها غير تاركين الا جزأ قليلا وفي سنة ١٧٩٣ قسم أغلب ما بقي منها بين النمسا

المملكتين فى سنة ١٤٩٠ وتجددت فى سنة ١٤٩٢ لكن لم يلبث هذا الوفاق ان تكدّر صفاؤه بسبب ادعاء كل من الدولتين حق السيادة على بلاد البغدان واغارة ملك بولونيا عليها فالتزم العثمانيون بطرد المجر منها والاغارة على حدود بولونيا بمساعدة أمير بغدان نفسه الذى قبل حماية الباب العالى عليها

وكذلك ابتدأت المخابرات بين الدولة العلية فى ذلك الحين و بين البابا اسكندر السادس (بورجه) وملك نابولى ودوك ميلانو وجمهورية فلورنسا (١) فكان كل منهم يجتهد فى محالفة الدولة العلية والاستعانة بجنودها البرية ومراكبها البحرية لمحاربة من عاداه و فى قطع علائق الاتحاد بينها و بين من خالفه و بتلك المساعى تمكن الايطاليون من ايجاد النفرة بين الدولة و بين جمهورية البنادقة حتى تسبب عنها حرب عوان بينهما فأرسل السلطان جيوشه من البر والبحر لفتح مدينة ليبنته من بلاد اليونان وكانت تابعة للبنادقة ففتحت بكل سهولة عقب انتصار العمارة العثمانية على مراكب البنادقة التى اعترضتها عند مدخل الخليج المسمى باسم هذه المدينة و فى الوقت نفسه أغار والى بلاد البشناق على اقليم فريول ثم اجتاز نهر ايزونطو ووصلت طلائعه الى أرباض مدينة فيشنسا وأوقف القتال بسبب اشتداد البرد و فى السنة التالية احتل العثمانيون ثغور مودون وكورون وناورين (٢) من بلاد اليونان وكانت من أملاك البنادقة فى هذه البحار

فخافت جمهورية البندقية من تقدم الاتراك الى مركز حكومتها من ضياع استقلالها واستغاثت بممالك أوروبا المسيحية فانجدها البابا وملك فرانسا ببعض مراكب حربية وساعدوها على محاصرة جزيرة ميدللى لاشغال الدولة عن بلادها فلم تنجح بل فتح العثمانيون مدينة (رودتسو) الواقعة على بحر الادرياتيك ولولا عصيان أولاد السلطان عليه ببلاد الاناطول كما سيجيء لفتحت باقى بلاد البنادقة لكن اضطرت أحوال المملكة الداخلية

---

والروسيا وفي سنة ١٧٩٥ قسمت ما بقي منها وأعدمت هذه المملكة من الوجود ثم لما قامت دولة نابوليون الاول جمع منها نحو خمسها وسماها غراندوقية وارسوفيا وفي سنة ١٨١٥ جزئت هذه الغراندوقية بين البروسيا والروسيا لكن حفظت الروسيا لما أخذته استقلاله الاداري وفي سنة ١٨٣٠ ثار البولونيون طلبا للاستقلال السياسي فحاربتهم الروسيا مـدة عشرة أشهر وانتصرت عليهم وسلبت منهم جميع امتيازاتهم ولم يزالوا حتى الآن يسعون وراء الاستقلال بهمة لا تقعدها الصعوبات ولا تضعفها الاضطهادات

(١) مدينة بايطاليا من أجمل مدن الدنيا وبها كثير من العمارات الشائقة والتماثيل المفتخرة والتحف والصور الجميلة والمتنزهات العمومية كانت في القرون الوسطي جمهورية مستقلة ثم امتلكتها عائلة (مديسي) الشهيرة وأخيرا صارت عاصمة لمملكة ايطاليا بعد انتصار الفرانساويين والايطاليين على النمسا سنة ١٨٥٩ الي ان انتقلت الحكومة الى مدينة رومه بعد ان دخلها الايطاليون في ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٧٠ أثناء حرب فرانسا والروسيا

(٢) مينا بحرية في بلاد اليونان شهيرة بتعدى مراكب فرانسا وانكلترا والروسيا معا على الدونانمة التركية المصرية وحرقها عن آخرها في ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧ بدون اعلان حرب مساعدة لليونان على الاستقلال كما ستراه في موضعه

السلطان الى ابرام الصلح مع محاربيه باوروبا وهم المجر والبنادقة فتم الصلح بينه وبين الجمهورية سنة ١٥٠٢ وفى السنة التالية تم الصلح كذلك مع ملك المجر

عصيان اولاد السلطان عليه وتنازله عن الملك لابنه سليم

ولقد تكدّر صفاء حياة الملك فى سنى حكمه الاخيرة بعصيان أولاده عليه واضرامهم نار الحروب الداخلية التى لولا ما وقع فى قلوب أعدائها من الرعب لكانت هذه الحروب العائلية فرصة عظيمة لهم وذلك ان السلطان بايزيد الثانى كان له ثمانية أولاد ذكور توفى منهم خمسة فى صغرهم وبقى ثلاثة وهم كركود وأحمد وسليم وكان أوّلهم مشتغلا بالعلوم والآداب ومجالسة العلماء ولذا كان يمقته الجيش لعدم ميله للحرب والثانى كان محبوبا لدى الاعيان والامراء وكان على باشا أكبر الوزراء مخلصاً له وكان ثالثهم وهو سليم محباً للحرب ومحبوبا لدى الجند عموما والانكشارية خصوصاً

ولاختلافهم فى المشارب والآراء خشى والدهم وقوع الشقاق بينهم ففرق بينهم وعين كركود والياً على احدى الولايات البعيدة وأحمد على اماسيا وسليما على طرابزون وعين أيضاً سليمان بن ابنه سليم والياً على كافا من بلاد القرم فلم يرض سليم بهذا التعيين بل ترك مقر وظيفته وسافر الى كافا بالقرم وأرسل الى أبيه يطلب منه تعيينه فى احدى ولايات أوروبا فلم يقبل السلطان بل أصر على بقائه بطرابزون فعصى سليم والده جهاراً وسار بجيش جمعه من قبائل التتر الى بلاد الروملى وأرسل والده جيشاً لارهابه ولما وجد من ابنه التصميم على المحاربة قبل تعيينه باوروبا حقناً للدماء وعينه والياً على مدينتى سمندرية وودين(١) سنة ١٥١١

ولما وصل الى كركود خبر نجاح أخيه سليم فى مقاومته انتقل الى ولاية صاروخان واستلم ادارتها بدون أمر أبيه ليكون قريباً من القسطنطينية عند الحاجة

ثم سار سليم الى أدرنه وأعلن نفسه سلطانا عليها فارسل والده اليه من هزمه وألجأه الى الفرار ببلاد القرم وأرسل جيشاً آخر لمحاربة كركود بآسيا فهزمه أيضاً لكن التزم السلطان بايزيد بالعفو عن ابنه سليم بناء على الحاح الانكشارية لتعلقهم به واعادته الى ولاية سمندرية وفى أثناء توجه سليم اليها قابله الانكشارية وأتوا به الى القسطنطينية باحتفال زائد وساروا به الى سراى السلطان وطلبوا منه التنازل عن الملك لولده المذكور فقبل واستقال فى يوم ٨ صفر سنة ٩١٨ الموافق ٢٥ ابريل سنة ١٥١٢ وبعد ذلك بعشرين يوما سافر للاقامة ببلدة ديموتيقا فتوفى فى الطريق يوم ١٠ ربيع الاول سنة ٩١٨ الموافق ٢٦ مايو سنة ١٥١٢ عن ٦٧ سنة ومدة حكمه ٣٢ سنة ويدعى بعض المؤرخين أن ولده دس اليه السم خوفا من رجوعه الى منصة الملك كما فعل السلطان مراد الثانى الذى سبق ذكره

---

(١) مدينة حصينة ببلاد البلغار على نهر الدانوب على جانب عظيم من الاهمية الحربية تبعد ٢٢٥ كيلو متر عن بلغراد سكانها خمسون ألفا شهيرة بعصيان حاكمها (بازوان اوغلي) سنة ١٧٩٨ واستقلاله بها وهي الان داخلة ضمن حدود مملكة الصرب بمقتضي معاهدة برلين الاخيرة المبرمة سنة ١٨٧٨

ولم تزد أملاك الدولة العلية فى زمن السلطان بايزيد الثانى الا قليلا لحبه السلم وحقن الدماء فكانت حروبه الخارجية اضطرارية للمدافعة عن الحدود حتى لا يستخف بها أعداؤها وكان سلمى الطباع كارهاً للقتل وكان أشهر وزرائه داود باشا الذى تولى الوزارة بعد كدك أحمد ومكث بها أربع عشرة سنة واستقال منها باختياره سنة ١٤٩٧ وقضى باقى عمره فى عمل الخيرات والمبرّات

## ٩ « السلطان سليم الاول الغازى الملقب بياوزاى القاطع »

لما كان تعيينه بمساعى الانكشارية يقتضى توزيع المكافآت عليهم حسب المعتاد أعطى لكل نفر منهم خمسين دوكا ثم عين ابنه سليمان حاكما للقسطنطينية وسافر بجيوشه الى بلاد آسيا لمحاربة اخوته وأولاد اخوته حتى يهدأ باله بداخليته ولم يبق له منازع فى الملك فاقتفى أثر أخيه أحمد الى انقره ولم يتمكن من القبض عليه لوجود علاقات بينه و بين الوزير مصطفى باشا الذى كان يخبره بمقاصد السلطان لكن علم السلطان بهذه الخيانة فقتل الوزير شرقتلة جزاء له وعبرة لغيره ثم ذهب الى بورصة حيث قبض على خمسة من أولاد اخوته وأمر بقتلهم و بعدها توجه بكل سرعة الى صاروخان مقر أخيه كركود ففر منه الى الجبال و بعد البحث عليه عدّة أسابيع قبض عليه وقتل

أما أحمد فجمع جيشاً من محازبيه وقاتل العساكر العثمانية فانهزم وقتل بالقرب من مدينة يكى شهر فى يوم ١٧ صفر سنة ٩١٩ الموافق ٢٤ ابريل سنة ١٥١٣

ولما اطمأن خاطره من جهة داخليته عاد الى مدينة ادرنه حيث كان بانتظاره سفراء من قبل البندقية والمجر والموسكو وسلطنة مصر فابرم مع جميعهم هدنة لمدد طويلة بما ان مطامعه كانت متجهة الى بلاد الفرس التى كانت أخذت فى النموّ والارتقاء فى عصر ملكها شاه اسمعيل الشيعى(١) فانه فتح ولاية شروان وجعل مركزه مدينة تبريز سنة ١٥٠١ و بعدها فتح العراق العربى و بلاد خراسان وديار بكر سنة ١٥٠٨ وأرسل أحد قوّاده فاحتل مدينة بغداد وفى سنة ١٥١٠ ضم الى أملاكه بلاد فارستان واذربيجان و بذلك امتدّت مملكته من الخليج الفارسى الى بحر الخزر من منابع الفرات الى ماوراء نهر اموداريا

محاربة العجم ودخول العثمانيين مدينة تبريز

ولما عصى السلطان سليم واخوته والدهم السلطان بايزيد الثانى ساعد الشاه اسمعيل الامير أحمد على والده ثم على أخيه من بعده وقبل من فرّ من أولاده عنده وزيادة على ذلك أرسل

(١) هو اسمعيل ابن الشيخ حيدر وينتهي نسبه الي الشيخ صفى الدين ابن جبرائيل العلوى الحسنى واسمعيل هذا هو مؤسس الدولة الصفوية الفارسية وكان أبوه حيدر قد حارب صاحب شروان فانهزم وقتل صاحب شروان أولاده الا اسمعيل وأخاه بار علي فاستمر اسمعيل مختفياً عند الامراء المحازبين لابيه حتى اجتمع لنجدته كثير فظهر وحارب صاحب شروان وقتله واستمر في فتوحاته حتى هزمه السلطان ياوز سليم الغازى وتوفي اسمعيل شاه الصفوى سنة ٩٣٠ هجرية عن ٣٨ سنة وأربعة شهور وملك أربعا وعشرين سنة

وفداً الى سلطان مصر يطلب منه التحالف لايقاف سير الدولة العثمانية مبيناً له انه ان لم يتفقا حاربت الدولة كلا منهما على حدته وقهرته وسلبت أملاكه ولايجاد سبب للحرب أمر السلطان سليم بحصر عدد الشيعة المنتشرين فى الولايات المتاخمة لبلاد العجم بطريقة سرّية ثم أمر بقتلهم جميعاً فقتلوا ويقال ان عددهم كان يبلغ نحو الاربعين ألفا وهذه المذبحة كالمذبحة التى حصلت بباريس فى ٥ جماد أوّل سنة ٩٨٠ الموافق ٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢ المشهورة فى التواريخ بمذبحة سان برتليمى (١)

وبعد ذلك أعلن السلطان سليم الشاه اسمعيل بالحرب وسافر بجيوشه من مدينة ادرنه فى ٢٢ محرّم سنة ٩٢٠ الموافق ١٩ مارس سنة ١٥١٤ وفى أثناء مسيره تبادل مع الشاه اسمعيل رسائل مفعمة بالسباب وسار الجيش العثمانى تحت قيادة السلطان سليم نفسه كما جرت به العادة قاصداً مدينة تبريز عاصمة العجم وكانت الجيوش الفارسية تتقهقر أمامه خدعة منهم لينهك التعب الجيوش العثمانية فينقضوا عليهم واستمروا فى تقهقرهم الى أرباض تبريز فوقع القتال بين الجيشين فى وادى جالدران فى ٢ رجب سنة ٩٢٠ الموافق ٢٤ اغسطس سنة ١٥١٤ فانتصرت الجيوش العثمانية نصراً مبيناً لمساعدة الطوبجية لها وفرّ الشاه بما بقى من جيوشه ووقع كثير من قواده فى الاسر وأسرت أيضاً احدى زوجاته ولم يقبل السلطان أن يردّها لزوجها بل زوجها لاحد كاتبى بده انتقاماً من الشاه وفتحت المدينة أبوابها ودخلها السلطان منصوراً فى يوم ١٤ رجب سنة ٩٢٠ الموافق ٤ سبتمبر سنة ١٥١٤ واستولى على خزائن الشاه وأرسلها الى القسطنطينية وكذلك أرسل اليها أربعين شخصاً من أمهر صناع هذه المدينة الامر الذى يدل على عدم اغفاله تقدّم الصنائع أثناء اشتغاله بالحروب وبعد ان استراح ثمانية أيام قام بجيوشه وأخلى مدينة تبريز لعدم وجود المؤونة الكافية لجيوشه بها مقتفياً أثر الشاه اسمعيل حتى وصل الى شاطئ نهر الرس وعندها امتنع الانكشارية عن التقدم لاشتداد البرد وعدم وجود الملابس والمؤونة اللازمة لهم فقفل راجعاً الى مدينة اماسيا بآسيا الصغرى للاستراحة زمن الشتاء والاستعداد للحرب فى أوائل الربيع ومر فى عودته من بلاد أرمينيا لكنه لم يفتحها لعدم وجود الوقت الكافى لذلك

وعند ما أقبل الربيع بنضارته رجع السلطان الى بلاد العجم ففتح قلعة كوماش الشهيرة وامارة ذى القدر سنة ١٥١٥ ثم رجع الى القسطنطينية تاركا قوّاده لاتمام فتح الولايات الفارسية الشرقية ولما وصل اليها أمر بقتل عدد عظيم من ضباط الانكشارية الذين

(١) هى مذبحة البروتستانت بجميع انحاء فرنسا ذبحهم الكاثوليك بامر ملك فرنسا شارل التاسع بناء على ايعاز والدته كاترين دى مديسي في يوم ٢٤ اغسطس سنة ١٥٧٢ واختلف في عدد من قتل في هذا اليوم فأبلغه بعضهم الي ستين ألفا منهم كثير من الاشراف والاميرال كوليني الشهير وغيره ويقال ان بعض الحكام امتنع عن تنفيذ هذا الامر فاستحقوا السخط والعقوبة من الملك وحفظ التاريخ أسماءهم محفوفة بكل تكريم وتبجيل

كانوا سبب الامتناع عن التقدم فى بلاد فارس كما سبق الذكر خشية من امتداد الفساد وعدم الاطاعة فى الجيوش وأمر بقتل قاضى عسكر هذه الفئة واسمه جعفر جلبي لانه كان من أكبر المحركين لهذا الامتناع وخوفاً من حصول مثل ذلك فى المستقبل جعل لنفسه حق تعيين قائدهم العام ولم يكن من بينهم ليكون له بذلك السيطرة عليهم وكان النظام السابق يقضى بتعيينه من أقدم ضباط الانكشارية

وبعد عودة السلطان الى القسطنطينية فتحت الجيوش العثمانية مدائن ماردين واورفه والرقة والموصل وبذا تم فتح أقليم ديار بكر وأطاعت كافة قبائل الكرد بدون كثير عناء بشرط بقائهم تحت حكم رؤساء قبائلهم

فتح مصر ودخولها ضمن الممالك المحروسة

ولم ينته السلطان سليم من محاربة الشيعة وفتح بلاد ديار بكر والموصل حتى أخذ فى الاستعداد لفتح سلطنة مصر بنا ان سلطانها قانصوه الغورى (١) كان تحالف مع الشاه اسماعيل لمحاربة الدولة العلية ولما علم سلطان مصر بتأهب سلطان آل عثمان لمحاربته أرسل اليه رسولا يعرض عليه ان يتوسط بينه وبين العجم لابرام الصلح فلم يقبل بل طرد السفير بعد ان أهانه وسار بجيشه الى بلاد الشام قاصداً وادى النيل وكان قانصوه الغورى استعد أيضاً لمحاربته فتقابل الجيشان بقرب حلب الشهباء فى واد يقال له مرج دابق وهزم الغورى بسبب وقوع الخلاف بين فرق جيشه المؤلف من المماليك وساعدت المدافع العثمانيين على النصر وقتل الغورى فى أثناء انهزام الجيش وسنه ثمانون سنة وكان ذلك فى يوم الاحد ٢٥ رجب سنة ٩٢٢ الموافق ٢٤ اغسطس سنة ١٥١٦

وبعد هذه الموقعة احتل السلطان سليم بكل سهولة مدائن حماه وحمص ودمشق وعين بها ولاة من طرفه وقابل من بها من العلماء فاحسن وفادتهم وفرق الانعامات على المساجد وأمر بترميم الجامع الاموى بدمشق ولما صلى السلطان الجمعة به أضاف الخطيب عند مادعا له هذه العبارة ( خادم الحرمين الشريفين ) وهى مستعملة فى الخطبة الى الآن

هذا ولما وصل خبر موت السلطان الغورى الى مصر انتخب المماليك طومان باى خلفاً له وأرسل اليه السلطان سليم يعرض عليه الصلح بشرط اعترافه بسيادة الباب العالى على القطر المصرى فلم يقبل بل استعد لملاقاة الجيوش العثمانية عند الحدود فالتقت مقدمتا الجيشين عند حدود بلاد الشام وهزمت مقدمة المماليك واحتل العثمانيون مدينة غزة على طريق مصر وساروا نحو القاهرة حتى وصلوا بالقرب منها وعسكر السلطان بجيشه فى أواخر ذى الحجة سنة ٩٢٢ بالخانقاه المعروفة بالخانكة وفى ٢٩ ذى الحجة سنة ٩٢٢ الموافق ٢٢ يناير سنة ١٥١٧ انتشب القتال بين الطرفين بجهة العادلى (جهة الوايلى) وفى أثناء القتال

(١) هو الملك الاشرف أبو النصر سيف الدين قانصوه الغورى الظاهرى الاشرفي أصله من مماليك الاشرف الظاهر خشقدم ثم انتقل الي الاشرف قائد باى بويع له بالملك سنة ٩٠٦ هجرية ومن آثاره انه بنى سور مدينة جدة ودائر الحجر الاسود وبعض أروقة المسجد الحرام وباب ابراهيم وعدة خانات وآبار في طريق الحج المصرى ومجرى الماء من مصر العتيقة الى قلعة الجبل وعمر بعض أبراج الاسكندرية

قصد طومان باى وبعض الشجعان مركز السلطان سليم وقتلوا من حوله وأسروا وزيره سينان بك وقتله طومان باى بيده ظناً منه انه هو السلطان سليم بنفسه ولم تنفع شجاعتهم شيئاً بل تغلب عليهم بمدافعه ومدافعهم التى استولى عليها وقت الحرب
و بعد ذلك بثمانية أيام أى فى يوم ٨ محرم سنة ٩٢٣ دخل العثمانيون مدينة القاهرة رغماً عن مقاومة المماليك الذين حاربوهم من شارع لآخر ومن منزل لآخر حتى قتل منهم ومن أهالى البلد ما يبلغ خمسين ألف نسمة
أما طومان باى فالتجأ ومن بقى معه الى بر الجيزه وصار يناوش العثمانيين و يقتل كل من يأسره منهم لكنه لم يلبث ان وقع فى أيدى العثمانيين بخيانة بعض من معه وشنق بامر السلطان سليم فى ١٣ ابريل سنة ١٥١٧ الموافق ٢١ ربيع الاول سنة ٩٢٣ بباب زويله ودفن بالقبر الذى كان أعده السلطان الغورى لنفسه و بعد ان مكث السلطان سليم بالقاهرة نحو شهر أقام فى منيل الروضة وأخذ فى زيارة جوامع المدينة وكل مابها من الآثار ووزع على أعيان المدينة العطايا والخلع السنية وحضر الاحتفال الذى يحصل بمصر سنوياً لفتح الخليج الناصرى عند بلوغ النيل الدرجة الكافية لرى الاراضى المصرية ثم حضر احتفال سفر المحمل الشريف وقافلة الحجاج التى ترسل معها الكسوة الشريفة الى الاراضى الحجازية وارسل الصرة المعتاد ارسالها الى الحرمين الشريفين بقصد توزيعها على الفقراء من عهد السلطان محمد جلبى العثمانى وأبلغها الى ثمانية وعشرين ألف دوكا
ومما جعل لفتح وادى النيل أهمية تاريخية عظمى ان محمد المتوكل على الله آخر ذرية الدولة العباسية الذى حضر أجداده لمصر بعد سقوط مدينة بغداد مقر خلافة بنى العباس فى قبضة هولاكوخان التترى سنة ٦٥٦ هـ الموافقة سنة ١٠٩١ وكانت له الخلافة بمصر اسما تنازل عن حقه فى الخلافة الاسلامية الى السلطان سليم العثمانى وسلمه الآثار النبوية الشريفة وهى البيرق والسيف والبردة وسلمه أيضاً مفاتيح الحرمين الشريفين ومن ذلك التاريخ صار كل سلطان عثمانى أميراً للمؤمنين وخليفة لرسول رب العالمين اسما وفعلا
هذا وقد جاء بالجزء السابع من الخطط الجديدة التوفيقية للمرحوم على باشا مبارك بخصوص ما أجراه السلطان سليم الغازى من الترتيبات بمصر ما يأتى
لما أخذ مصر ورأى غالب حكامها من المماليك الذين ورثوها عن ساداتهم رأى ان بعد الولاية عن مركز الدولة ربما أوجب خروج حاكمها عن الطاعة وتطلبه الاستقلال فجعل حكومة مصر منقسمة الى ثلاثة أقسام وجعل فى كل قسم رئيساً وجعلهم جميعاً منقادين لكلمة واحدة هى كلمة وزير الديوان الكبير وجعله مركبا من الباشا الوالى من قبله ومن بيكوات السبع وجاقات وجعل للباشا مزية توصيل أوامر السلطان الى المجلس وحفظ البلاد وتوصيل الخراج الى القسطنطينية ومنع كل من الاعضاء العلوّ على صاحبه وجعل

لاعضاء المجلس مزية نقض أوامر الباشا باسباب تبدولهم وعزله ان رأوا ذلك والتصديق على جميع الاوامر التى تصدر منه فى الامور الداخلية وجعل حكام المديريات الاربع والعشرين من المماليك وخصهم بمزية جمع الخراج من البلاد وقمع العربان وصدهم عنها والمحافظة على مافى داخلها وكل ذلك باوامر تصدرلهم من المجلس وجردهم عن التصرف من أنفسهم ولقب أحدهم المقيم بالقاهرة بشيخ البلد ثم رتب الخراج وقسمه أقساماً ثلاثة وجعل من القسم الاول ماهية عشرين ألف عسكرى بالقطر من المشاة واثنى عشر ألفاً من الخيالة والقسم الثانى يرسل الى المدينة المنورة ومكة المشرفة والقسم الثالث يرسل الى خزينة الباب العالى ولم يلتفت الى راحة الاهالى بل تركها عرضة للمضار كما كانت ومن هذا الترتيب تمكنت الدولة العلية من ابقاء الديار المصرية تحت تصرفها نحو مائتى سنة ثم أهملت بعد ذلك القوانين التى وضعها السلطان سليم من حين استيلائه عليها وكانت هى الاساس ولم تلتفت الدولة لما كان يحصل من المماليك من الامور المخلة بالنظام فضعفت شوكة الدولة وهيبتها التى كانت لها على مصر وأخذت البيكوات تكثر من المماليك وتتقوى بها حتى فاقت بقوتها الدولة العثمانية فى الديار المصرية فآل الامر والنهى لهم فى الحكومة وصارت حكومة الدولة صورية غير حقيقية وسبب ذلك اكثارهم من شراء المماليك ولو كانت الدولة العلية تنبهت لهذا الامر ومنعت بيع الرقيق لكانت الامور باقية على ماوضعها السلطان سليم ولكن غفلت عن هذا الامر كما غفلت عن أمور كثيرة ومن ذلك لحق الاهالى الذل والاهانة وهاجر كثير منهم الى الديار الشامية والحجازية وغيرهما وخربت البلاد وتعطلت الزراعة من قلة المزارعين وعدم الاعتناء بتطهير الجداول والخلجان الذى عليه مدار الخصب ونتج من ذلك ومن خوف الدولة العلية من تمكن الباشا فى الحكومة أن تغلبت البيكوات وصارت كلمتهم هى النافذة وانفردوا بالتصرف اه

وفى أوائل شهر سبتمبر سنة ١٥١٧ سافر السلطان سليم من القاهرة عائداً الى القسطنطينية التى صارت من ذلك الوقت مقر الخلافة الاسلامية العظمى وكان سفره عن طريق بلاد الشام مستصحباً معه آخر بنى العباس وعين خير بك واليا على مصر وهو أحد أمراء المماليك الذين خانوا طومان باى وانضموا اليه وترك بالقاهرة حامية كافية لحفظ الامن تحت قيادة خير الدين أغا الانكشارى وفى أثناء مروره بصحراء العريش التفت لوزيره الاكبر يونس باشا الذى كان فتح مصر على غير رأيه وقال له ما معناه انه قد أتم فتحها خلافا لرأيه فجاوبه يونس باشا بان فتحها لم يعد عليه بشىء الا قتل نحو نصف الجيش بما أنه سلمها الخائن كان غرضه التملك عليها لنفسه فلا يؤمن ولاؤه للدولة فغضب السلطان من هذا الكلام الموجه اليه بصفة لوم وأمر بقتله فى الحال فقتل وكان ذلك فى ٦ رمضان سنة ٩٢٣ وعين مكانه بير محمد باشا الذى كان معيناً قائم مقام السلطان فى القسطنطينية أثناء تغيبه فى فتح مصر اثقته به بناء على ما أظهره من اصالة الرأى فى محاربة الشاه اسمعيل

وفى ٢٠ رمضان سنة ٩٢٣ وصل السلطان الى مدينة دمشق ومكث بها الى ٢٢ صفر سنة ٩٢٤ ثم سافر الى مدينة حلب بعد ان حضر الاحتفال باقامة الصلاة أوّل مرة فى الجامع الذى أقامه بدمشق على قبر محيي الدين بن العربى فى ٢٤ محرم سنة ٩٢٤ و بعد ان أقام بحلب مدّة شهرين سافر قاصداً عاصمة ملكه فوصلها فى ١٧ رجب سنة ٩٢٤ الموافق ٢٥ يوليه سنة ١٥١٨ ثم ارتحل عنها الى مدينة ادرنه بعد عشرة أيام قضاها فى الاستراحة من أتعاب السفر وكان ولده سليمان معيناً حاكما لها مدّة غياب والده و بعد وصول أبيه بتسعة أيام استأذنه الامير سليمان فى السفر الى ولاية صاروخان المعين والياً عليها

وفى أثناء اقامة السلطان بمدينة ادرنه وصل اليه سفير من قبل مملكة اسبانيا ليخابره بشأن حرية زيارة المسيحيين للقدس الشريف الذى كان قبلا تابعا لسلطنة مصر وتبعها فى دخولها تحت ظل الدولة العلية فى مقابلة دفع المبلغ الذى كان يدفع سنوياً للمماليك فاحسن السلطان مقابلته وصرّح بقبوله ذلك اذا أرسل ملكه رسولا آخر مخوّلا له حق ابرام معاهدة مع الباب العالى وكذلك أتى اليه فيها سفير من قبل جمهورية البندقية ليدفع له خراج سنتين متاخر الخراج المقرر عليها نظير بقائها فى جزيرة قبرص

وكان فى هذه المدة مشتغلا بتجهيز عمارة بحرية لمعاودة الكرة على جزيرة رودس بحراً وكان يستعد أيضاً لمحاربة شاه العجم ثانياً فجمع خمسة عشر ألف فارس بمدينة قيصرية وضم اليهم ثلاثين ألف جندى من المشاة تحت قيادة فرحات باشا بيلر بك الاناطول وأرسل اليهم عدداً عظيما من المدافع والذخائر لكن لم يمهله المنون ريثما يتم مشروع فتح جزيرة رودس بل عاجله فى رحلته من القسطنطينية الى ادرنه فتوفى فى يوم ٩ شوال سنة ٩٢٦ الموافق ٢٢ سبتمبر سنة ١٥٢٠ فى السنة التاسعة من حكمه والحادية والخمسين من عمره اذ كانت ولادته فى سنة ٩٧٥

وأخفى طبيبه الخصوصى خبر موته عن الحاشية ولم يبلغه الا للوزراء فاجتمع كل من بير محمد باشا وأحمد باشا ومصطفى باشا وقرروا اخفاء هذا الامر حتى يحضر ولده سليمان من اقليم صاروخان خوفاً من أن تثور الانكشارية كما هى عادتهم

فكانت مدة حكمه كمدة حكم جدّه محمد الفاتح أيام فتوحات خارجية وتنظيمات داخلية الا أنه كان ميالا لسفك الدماء فقتل سبعة من وزرائه لاسباب واهية

وكان كل وزير مهدّد بالقتل لاقل هفوة حتى صار يدعى على من يرام موته بأن يصبح وزيراً له و بنى كثيراً من الجوامع وحوّل أجمل كنائس القسطنطينية الى مساجد مع سبق الوعد من السلطان محمد الثانى الفاتح لبطريرق الروم بعدم مس نصف الكنائس الثانى الذى تركه لهم بعد فتح المدينة كما مر

## ١٠ « السلطان الغازى سليمان خان الاول القانونى »

ولد هذا الملك الذى بلغت الدول العلية فى مدته أعلى درجات الكمال فى غرة شعبان سنة ٩٠٠ هجرية الموافقة ٢٧ ابريل سنة ١٤٩٤ م وهو عاشر ملوك آل عثمان ولو عدّه بعض المؤرخين حادى عشرهم باعتبار سليمان الذى نازع أخاه محمد جلبى الملك سلطانا فلذلك خطأ لانه لم يحكم بصفة قانونية ولذلك أجمع المؤرخون على تسمية السلطان سليمان بالاوّل واعتباره عاشر ملوك هذه الدولة وهو الاصح

و بمجرد وصول خبر موت أبيه اليه قام قاصداً القسطنطينية ودخلها فى يوم ١٦ شوّال سنة ٩٢٦ الموافق ٣٠ سبتمبر سنة ١٥٢٠ وكان فى انتظاره على افريز السراى جنود الانكشارية فقابلوه بالتهليل وطلب الهدايا المعتاد توزيعها عليهم عند تولية كل ملك و بعد ظهر ذلك اليوم حضر بير محمد باشا من ادرنه وأخبر عن وصول جثة المرحوم السلطان سليم فى اليوم التالى

و فى صبيحة ١٧ شوّال جرت رسوم المقابلات السلطانية فوفد الامراء والوزراء والاعيان يعزون السلطان بموت والده و يهنؤنه بالخلافة فى آن واحد وهو يقابلهم بملابس الحداد وعند الظهر وصل اليه خبر قدوم الجثة فخرج لمقابلة النعش خارج المدينة وسار فى الجنازة حتى واروها التراب على أحد مرتفعات المدينة وأمر ببناء جامع شاهق وهو جامع سليمية ومدرسة فى المحل الذى دفن فيه

وكانت باكورة أعماله بعد توزيع النقود على الانكشارية تعيين مربيه قاسم باشا مستشاراً خاصاً وابلاغ توليته على عرش الخلافة العظمى الى كافة الولاة وأشراف مكة والمدينة بخطابات مفعمة بالنصائح والآيات القرآنية المبينة فضل العدل والقسط فى الاحكام ووخامة عاقبة الظلم وكان يستهل خطاباته بالآية الشريفة ( انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم )

ولما وصل خبر توليته الى حاكم الشام واسمه الغزالى وهو من أصحاب قانصوه الغورى الذين خانوه فى واقعة مرج دابق تمرّد وأشهر العصيان واستولى على قلعة دمشق وأرسل أحد اتباعه لاحتلال مدينة بيروت واجتهد فى استمالة خير بك العامل على مصر اليه وأرسل اليه جوابا يحثه فيه على العصيان مبينا له سهولة النجاح بالنظر الى بعدهم عن مقرّ الخلافة وحداثة سنّ السلطان فجاوبه خير بك بانه لا يشترك معه الا اذا استولى على مدينة حلب ولم يكن جوابه هذا الا مداهنة وخداعا فانه أرسل خطابات الغزالى الى السلطان فعين السلطان فرحات باشا أحد وزرائه لقمع هذا المتمرد ومعه جيش كاف لاخماد هذه الثورة قبل امتدادها

فسار فرحات باشا بكل همة فى أواخر ذى الحجة سنة ٩٢٦ ( نوفمبر سنة ١٥٢٠ ) ووصل الى

حلب فى ٢٢ دسمبر وكان الغزالى اذ ذاك محاصراً لها فارتد على عقبيه بدون قتال عائداً الى دمشق وتحصن فيها فتأثره فرحات باشا بجنوده وحاصره فيها وفى يوم ١٧ صفر سنة ٩٢٧ الموافق ٢٨ يناير سنة ١٥٢١ خرج الغزالى من المدينة طلباً للقتال فهزم وقتل أغلب من كان معه وفر هو متنكراً لكن خانه بعض أتباعه وسلمه الى فرحات باشا فقتله فى ٨ صفر وأرسل رأسه الى القسطنطينية

فتح مدينة بلغراد

وعند وصول رأسه الى العاصمة ورد خبر قتل السفير الذى أرسله السلطان الى ملك المجر يطلب منه دفع الجزية أو الحرب فاستشاط السلطان غضباً وأمر بتجهيز الجيوش وجمع كل مايلزمهم من المؤنة والذخائر لمحاربة المجر وسار هو بنفسه فى مقدمة الجيش وأرسل أحد مشاهير قواده واسمه أحمد باشا لمحاصرة مدينة (شابتس) القريبة من بلغراد ففتحها فى ٢ شعبان سنة ٩٢٧ ووصل اليها السلطان فى اليوم التالى ثم سافر بالجيوش التى كانت مشتغلة بحصار هذه المدينة لمساعدة وزيره بيرباشا على تضييق الحصار على مدينة بلغراد ففتحت بعد دفاع شديد وأخلت الجنود المجرية قلعتها فى ٢٥ رمضان سنة ٩٢٧ الموافق ٢٩ أغسطس سنة ١٥٢١ ودخلها السلطان وصلى الجمعة فى احدى كنائسها التى حولت مسجداً وصارت هذه المدينة التى كانت أمنع حصن للمجر يين ضد تقدم الدولة العلية أكبر مساعد لها على فتح ماوراء نهر الدانوب من الاقاليم والبلدان وأعلن السلطان هذا الانتصار الى جميع الولاة وملوك أوروبا ورئيس جمهورية البنادقة ثم عاد الى القسطنطينية مكللا بالنصر والظفر على الاعداء وأرسل اليه قيصر الروس يهنئه بالفوز والظفر وكذلك رؤساء جمهوريتى البندقية وراجوزة (١)

وفى أول محرم سنة ٩٢٨ أمضيت بين الدولة العثمانية وجمهورية البنادقة معاهدة تجارية تؤيد المعاهدات السابقة وزيد عليها أن وكيل الجمهورية فى الاستانة (قنصلها) يجب تغييره كل ثلاث سنوات وان قضايا التركات تنظر بطرفه وأن يكون له الحق فى ارسال ترجمان لحضور المرافعة فى القضايا التى تقام ضد رعايا حكومته أمام المحاكم العثمانية وأن يكون الخراج الذى يدفع منها الى الدولة نظير احتلالها جزيرتى قبرص وزانطه عشرة آلاف دوكا عن الاولى وخمسمائة عن الثانية ولهذه المعاهدة أهمية عظمى لانها أساس الامتيازات القنصلية ببلاد الدولة العلية

فتح جزيرة رودس

وبعد ذلك أخذ السلطان فى الاستعداد براً وبحراً لفتح جزيرة رودس التى لم يتمكن السلطان

(١) مينا تجارى ببلاد دلماسيا على الساحل الشرقي لبحر الادرياتيكي أسست حوالي القرن السابع للمسيح وأقام بها أهلوها حكومة جمهورية مستقلة دفعت الجزية لدولة العثمانية وأبرمت معها عدة معاهدات تجارية مشابهة لما أبرم مع جمهوريتي البندقية وجينوه واستمرت متمتعة بالحرية مستقلة تمام الاستقلال حتي احتلها نابليون الاول سنة ١٨٠٦ وظلت تابعة لفرانسا الي ان سقطت حكومة نابوليون نهائياً سنة ١٨١٥ وأضافها مؤتمر ويانة الذى انعقد بعد سقوطه لتسوية حالة أوروبا الي مملكة النمسا ولم تزل تابعة لها حتي الان ويبلغ عدد سكانها عشرين ألف نسمة

محمد الفاتح من فتحها لتكون حلقة اتصال بين القسطنطينية ومصر من جهة البحر ولكى لا يكون للمسيحيين مركز حصين فى وسط بلاده تلجأ اليه عمارات الدول المعادية للدولة وقت الحرب وأراد الاسراع فى تتميم هذا العمل العظيم الذى عجز أسلافه عنه لوجود ملوك أوروبا مشتغلين فى جهات أخرى لا يمكنهم مساعدة الرهبنة المحتلة لها فكان ملك فرانسا (فرانسوا) (١) الاول وشارل الخامس الشهير بشارلكان (٢) ملك اسبانيا وألمانيا معاً مشتغلين بمحاربة بعضهما والبابا (لاون) العاشر مشتغلا بمجادلة ومقاومة الراهب الالمانى (لوثر) (٣) مؤسس مذهب البروتستانت وبلاد المجر مضطربة فى الداخل بسبب عدم اتفاق أمرائها وأعيانها وصغر سن ملكها لويس الثانى كل هذه الاسباب حملت السلطان على انتهاز هذه الفرصة لفتح هذا الحصن المنيع لكن اقتضت شفقته أن يرسل الى رئيس

---

(١) ولد هذا الملك سنة ١٤٩٤ وتولي الملك سنة ١٥١٥ وكانت كل حروبه بسبب ادعائه أن له حقوقاً على ولاية ميلان بايطاليا من جهة جدته فسار عقب توليه الملك الى هذه الجهة لفتحها وفتحها بعد ان انتصر على السويسريين في واقعة مارينيان ثم لما انتخب شارلكان ملك اسبانيا امبراطوراً لالمانيا وما يتبعها بعد موت مكسمليان جده لابيه في سنة ١٥٢٠ ابتدأت الحروب بينه وبين فرانسوا ملك فرنسا بسبب ادعاء كل منهما الاحقية في ولاية ميلان وكانت الدائرة فيها على فرانسا فانتصر عليها شارلكان عدة كرات وأخيراً في بافيا سنة ١٥٢٥ حيث أخذ فرنسوا أسيرا وسيق الي اسبانيا ولم يفرج عنه الا بعد ان أمضي معاهدة بكل ما طلبه منه شارلكان ولما خرج من السجن لم يعمل بما تعهد به بل رجع الي المحاربة واستمرت الحرب بينهما بدون انقطاع تقريبا الي سنة ١٥٤٤ وفيها تصالحا على أن تكون ولاية ميلان لدوك أورليان ثاني أولاد فرنسوا ملك فرنسا وتوفي بعد ذلك بثلاث سنوات في سنة ١٨٤٧ واشتهر هذا الملك بالتعصب الديني واضطهاد البروتستانت

(٢) ولد هذا الملك الشهير سنة ١٥٠٠ وورث ملك اسبانيا عن والدته جان ابنة فردينان وايزابلا ملوك اسبانيا اللذين أخرج المسلمون في أيامهما من الاندلس وانتخب أميرا لالمانيا بعد موت جده لابيه الامبراطور مكسمليان وقضي أيامه في محاربة فرنسوا الاول كما مر في ترجمة هذا الملك وبعد موت فرنسوا الاول رجع الي محاربة الفرانساويين وحاصر مدينة متس الشهيرة بدون أن يتمكن من فتحها سنة ١٥٥٢ وحارب خير الدين باشا أمير البحر العثماني الشهير ببار بروس وقصد الاستيلاء على مدينة الجزائر فلم يفلح واضطهد البروتستانت الا انه اضطر أخيرا في سنة ١٥٤٧ أن يمنحهم الحرية الدينية بعد ان حاربوه وانتصروا عليه وفي سنة ١٥٥٦ سئم الملك فتنازل عن اسبانيا لابنه فيليب الثاني وعن ألمانيا وما بها لاخيه فردينان واعتزل في أحد الاديرة حتي توفي سنة ١٥٥٨

(٣) هو راهب كاثوليكي المذهب ألماني الجنس أراد اصلاح المذهب الكاثوليكي وقال بعدم مشروعية النظام الكنائسي والرهبنة على الاطلاق والاعتراف وتجسد القربان وغير ذلك من الامور التي أقر عليها أئمة المذهب الكاثوليكي منذ أجيال فحرمه البابا وحكم بمروقه عن الدين بعد أن كلفه بالتوبة والرجوع عن طريقته وحرم مطالعة تآليفه ولكن لم يكترث لوثر بهذه الاجراآت بل استمر ينشر مذهبه ويؤيده بالبراهين حتي انتشر في جميع الاطراف وتبعه كثير من أمراء ألمانيا وتوفي سنة ١٥٤٦ وكانت ولادته سنة ١٤٨٣ بعد أن تزوج راهبة اتبعته وأتت منه بعدة أولاد وهو مؤسس المذهب البروتستاني المشتق من لفظة بروتستو أي اقامة الحجة وهو المذهب السائد الآن في شمال ألمانيا والدانيمرك والسويد والفلمنك وانكلترا وأمريكا الشمالية ومنتشر في غالب الجهات الاخري واتبعه بعض أقباط مصر وانتشبت بسببه عدة حروب في ألمانيا وفرانسا أهمها الحرب المعروفة بحرب الثلاثين سنة التى استمرت من سنة ١٦١٨ الي سنة ١٦٤٨ وانتهت باستحصال البروتستانت على الحرية الدينية

الرهبنة قبل الشروع فى الحرب كتابا يعرض عليه اخلاء الجزيرة والانسحاب منها بكل من معه من المسيحيين الذين يؤثرون المهاجرة على البقاء متعهداً له بعدم التعرض لانفسهم ولأموالهم ولما لم يقبل رئيسهم هذا الاقتراح أمر السلطان العمارة البحرية فأقلعت قاصدة رودس وسافر هو من طريق البر الى خليج (مرمورا) المقابل للجزيرة من جهة آسيا فوصلتها الدونانمة فى ٢٦ يونيه سنة ١٥٢٢ وأرسلت الى البر مدافع الحصار والمؤنة والذخائر ووصل اليها السلطان فى ٢٨ يوليه وبمجرد وصوله ابتدأ الحصار بغاية الشدة ودافع من بها دفاع الابطال خصوصا الرهبان ويقال ان النساء كانت تساعد الرجال فى الدفاع بالقاء الاحجار على المحاصرين وصب الزيوت الحارة على رؤسهم لكن لم يجد كل ذلك شيئاً أمام المدافع العثمانية التى توجد بعض قللها الى الآن فى الجزيرة يستغرب رائيها من ضخامتها ولما أعيت الحيل رئيس هذه الرهبنة واسمه ( فيلية دى ليل ادام) الفرنساوى الاصل ونفدت مؤنته وذخائره أرسل اثنين من رهبانه الى السلطان فى ٢ صفر سنة ٩٢٩ الموافق ٢١ دسمبر سنة ١٥٢٢ يطلب منه السماح لهم باخلاء الجزيرة فى مسافة اثنى عشر يوما بشرط أن تبتعد الجيوش العثمانية عن المدينة المحصورة مسافة ميل من كل جهاتها حتى لايحصل للمحصورين ضرر عند خروجهم فقبل السلطان ذلك لكن فى ٢٥ منه دخل المدينة فريق من الانكشارية رغم أوامر السلطان واحتلوا المدينة وارتكبوا كافة أنواع القبائح حسب عادتهم فغضب السلطان وأمر بمراعاة شروط التسليم وعاقب المفسدين فأعيد الامن وسادت السكينة وفى اليوم التالى قابل السلطان رئيس الرهبنة وأنعم عليه بخلعة سنية وفى يوم ١٣ صفر سنة ٩٢٩ الموافق أوّل يناير سنة ١٥٢٣ سافرت هذه الفئة المحضة نفسها للدفاع عن الدين المسيحى ومحاربة المسلمين قاصدة جزيرة مالطه (١) التى تنازل لها عنها الملك شارلكان واستمرت هذه الرهبنة نازلة بها حتى احتلها بونابرت عند قدومه مصر سنة ١٢١٣ هـ الموافقة سنة ١٧٩٨ م

وبعد ذلك عاد السلطان الى القسطنطينية ووفد اليها سفراء من قبل الروسيا والبندقية لتهنئته بالنصر وأرسل اليه أيضاً ملك العجم سفيراً لهذا الغرض وأرسل معه خمسمائة فارس ولما وصل الى الاستانة أمر السلطان ان لايدخلها معه الاعشرون فقط وفى شهر يونيه سنة ١٥٢٣ عزل الوزير الاوّل أى الصدر الاعظم نير محمد باشا بناء على دسائس الوزير أحمد باشا طمعاً فى وظيفته لكن خاب مسعاه فقد عين السلطان مكانه أحد خواصه ابراهيم باشا وعين أحمد باشا والياً على مصر لوفاة خير بك فى الوقت الذى كان فيه السلطان

---

(١) جزيرة صغيرة في البحر الابيض المتوسط بالقرب من ساحل ايطاليا وأفريقا ولاهميتها الحربية العظمى تنازعتها الملوك والامم المختلفة من فينيقيين ورومانيين وغيرهم واحتلها المسلمون مدة من السنين وأخيراً تبعت شارلكان وهو تنازل عنها لرهبنة رودس كما رأيت وظلت في حوزتهم الى سنة ١٧٩٨ حيث احتلها بونابرت أثناء مجيئه لفتح مصر وفي سنة ١٨٠٠ احتلها الانكليز ليسودوا على البحر الابيض كما احتلوا بوغاز جبل طارق من قبل وفي سنة ١٨١٥ أيد مؤتمر ويانة احتلالهم لها

محاصراً لجزيرة رودس ولما وصل أحمد باشا الى القاهرة أخذ فى استمالة من بقى من أمراء المماليك اليه باقطاعهم الاراضى واغضائه عما يرتكبونه من أنواع الآثام والمظالم ولما تحقق من اخلاصهم أعلن العصيان مرة واحدة واستولى على القلعة بعد قتل حاميتها فارسل اليه السلطان أمراً بعزله من ولاية مصر و بالعود الى الاستانة وتسليم الولاية لخلفه ( قره موسى ) فقتل الرسول وقره موسى الوالى الجديد ثم خانه أحد وزرائه واسمه محمد بك وأراد القبض عليه فهرب واختفى عند عرب البادية فاقتفى أثره حتى ضبطه وقتله وأرسل رأسه الى الاستانة فعين بدله قاسم باشا الوالى الاسبق وكوفىء محمد بك بتقليده وظيفة دفتردار الولاية سنة ١٥٢٤

وفى ٢٤ رجب سنة ٩٣٠ الموافق ٢٨ مايو سنة ١٥٢٤ ولد للسلطان غلام سمى سليما وهو الذى خلفه باسم سليم الثانى وفى ٢ شعبان الموافق ٥ يونيه احتفل بالاستانة بزواج الصدر الاعظم ابراهيم باشا باحدى أخوات السلطان ثم أرسله الى مصر مع عدد عظيم من الانكشارية والسيباه ( السوارى ) لارجاع الامن الى ربوعها وترتيب ماليتها وتنظيم أمورها فسافر ووصل اليها فى ٢٤ مارث سنة ١٥٢٥ وأقام بالقاهرة حتى أتم مأموريته وغادرها فى ٢٢ شعبان سنة ٩٣١ الموافق ١٤ يونيه سنة ١٥٢٥ قاصداً الاستانة عن طريق البرّ ماراً بدمشق وقيصرة ووصل القسطنطينية فى ٧ سبتمبر من السنة نفسها وقوبل بكل اجلال واحترام لعلو منزلته عند السلطان

تداخل الدولة العلية في بلاد القرم والفلاخ وفتنة الانكشارية

وفى هذه الاثناء حصلت بعض فتن داخلية فى بلاد القرم وذلك ان غازى وبابا ولدى محمد كراى خان القرم ثارا على والدهما وعمهما فقتلاهما سنة ٩٢٩ ( سنة ١٥٢٢ ) وتقلد غازى كراى أكبرهما الامارة وجعل أخاه وزيراً له لكن لم يقبل السلطان ذلك بل عين عمهما سعادت كراى خانا بدل أخيه محمد كراى المقتول وأمدّه بجيش من الانكشارية فقبل غازى تعيين عمه وصار هو وزيراً له و بعد ذلك بستة أشهر قتل غازى وأخوه بابا بأمر عمهم سعادت وفى سنة ٩٣٨ ( سنة ١٥٣٠ ) قام أخوهما اسلام كراى واستولى على الامارة وفرّ سعادت الى القسطنطينية ومكث بها حتى توفى سنة ٩٤٤ ( سنة ١٥٣٧ ) ودفن بجامع أبى أيوب بالاستانة وكانت نتيجة هذه الفتن زيادة تداخل الدولة العلية فى أمور بلاد القرم حتى فى تعيين أمرائها وصارت بذلك ولاية عثمانية تقريباً

وفى سنة ١٥٢٤ أراد السلطان أن يجعل اقليم الفلاخ ولاية عثمانية ولم يكن للدولة عليه اذ ذاك الا السيادة والجزية فسير اليها جيشاً استولى على عاصمتها وعلى أميرها وأرسلوه الى الاستانة فثار الاعيان وعينوا خلفاً له وساعدهم على ذلك أمير اقليم ترنسلفانيا المجاور له فقبل السلطان من عينوه فى مقابلة زيادة الجزية عما كانت عليه

هذا وفى ٢٥ مارث سنة ١٥٢٥ تذمر الانكشارية بعد عودة السلطان من مدينة أدرنه التى كان توجه اليها للاقامة بها فى فصل الشتاء ونهبوا سراى ابراهيم باشا الصدر الاعظم

الذى كان اذ ذاك بمصر ومحل الجرك وعدّة أماكن أخرى من منازل الاعيان وحارة اليهود ولولا أن تدارك السلطان الخطب بنفسه لامتدّ العصيان لكنه أسكتهم عن السلب والنهب بتوزيع ألف دوكا عليهم ثم بعد ذلك عزل بعض رؤسائهم الذين كانوا سبب هذا العصيان وقتل بعضهم

﴿ ابتداء المخابرات والمراسلات بين الدولة العلية وملك فرانسا ﴾

وفى ذلك العهد ابتدأت المخابرات بين ملك فرانسا والدولة العلية وذلك ان شارلكان ملك النمسا كان فى آن واحد ملكا لاسبانيا والبلاد المنخفضة (هولاندا) وامبراطوراً لالمانيا وحاكما لجزء عظيم من ايطاليا الجنوبية وكانت جمهوريتا جنوا وفلورنسا تابعتين اليه وجمهورية البنادقة طوع أمره ومدينة وهران باقليم جزائر الغرب تابعة له وكذلك جزيرة مينورقة وجزيرة صقلية فكانت أملاكه محيطة بمملكة فرانسا من جميع الجهات الا من جهة البحر

ولذلك سعى فرنسيس الاوّل ملك فرانسا فى التحالف مع دولة آل عثمان والاتحاد معها على محاربة شارلكان لتحاربه الدولة العلية من جهة المجر والنمسا وتشغله عن جيوش فرانسا من جهة الغرب فيتمكن ملك فرانسا بذلك من الاخذ بثار واقعة (بافيا) بايطاليا التى أخذ فيها فرنسيس الاوّل أسيراً

ويظهر من سعى فرانسا فى استمالة الدولة العلية الاسلامية اليها وبذل الجهد فى محالفتها مع كون فرانسا معتبرة لدى البابا أوّل الدول الكاثوليكية وأهمها محافظة على عدم تقدم الاسلام باوروبا ان الدولة العثمانية بلغت فى ذلك الوقت شأناً عظيما لم تبلغه من قبل وصار وجودها ضرورياً لحفظ التوازن السياسى باوروبا

وأوّل سفير أرسل من قبل فرانسا الى الباب العالى أرسلته الملكة لويز زوجة فرنسيس الاوّل حالة وجوده مأسوراً فى بلاد اسبانيا لكن لم يصل هذا السفير الى الباب العالى بل قبض عليه حاكم بوسنه أثناء مروره قاصداً القسطنطينية وقتله هو وأتباعه وفى أواخر سنة ١٥٢٥ أرسل سفير آخر وهو جان فرنجباني ووصل القسطنطينية ومعه جواب من ملك فرانسا الى جلالة السلطان الاعظم يطلب منه بكل تواضع أن يهاجم ملك المجر أحد حلفاء شارلكان حتى يمنعه من مساعدته ويمكن فرانسا بذلك ان تنتصر على شارلكان وتستردّ ما سلبه منها من الشرف فى واقعة بافيا

وقابل السلطان سليمان السفير الفرانساوى فى ٦ دسمبر سنة ١٥٢٥ باحتفال زائد وأجزل له العطايا وبعد أن عرض عليه السفير مطالب ملكه وعده السلطان بمحاربة المجر لكن لم تمض بينهما معاهدة بل اكتفى السلطان بان كتب لملك فرانسا بتاريخ أوائل ربيع الثانى سنة ٩٣٢ جواباً يظهر له فيه استعداده لمساعدته وهذه صورته نقلا عن ترجمة الجزء الاول من تاريخ جودت باشا

الله العلىّ المعطى المغنى المعين

بعناية حضرة عزة الله جلت قدرته وعلت كلمته و بمعجزات سيد زمرة الانبياء وقدوة فرقة الاصفياء محمد المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم الكثيرة البركات و بموازرة قدس أرواح حماية الاربعة أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وجميع أولياء الله أنا سلطان السلاطين و برهان الخواقين متوّج الملوك ظل الله فى الارضين سلطان البحر الابيض والبحر الاسود والاناضول والروملى وقرمان الروم وولاية ذى القدرية وديار بكر وكردستان واذربيجان والعجم والشام وحلب ومصر ومكة والمدينة والقدس وجميع ديار العرب واليمن وممالك كثيرة أيضاً التى فتحتها آبائى الكرام وأجدادى العظام بقوّتهم القاهرة أنار الله براهينهم و بلاد أخرى كثيرة افتتحتها يد جلالتى بسيف الظفر أنا السلطان سليمان خان بن السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان الى فرنسيس ملك ولاية فرنسا وصل الى أعتاب ملجأ السلاطين المكتوب الذى أرسلتموه مع تابعكم فرانقبان النشيط مع بعض الاخبار التى أوصيتموه بها شفاهياً وأعلمنا أن عدوّكم استولى على بلادكم وانكم الآن محبوسون وتستدعون من هذا الجانب مدد العناية بخصوص خلاصكم وكل ما قلتموه عرض على أعتاب سرير سدّتنا الملوكانية وأحاط به علمى الشريف على وجه التفصيل فصار بتمامه معلوماً فلا عجب من حبس الملوك وضيقهم فكن منشرح الصدر ولا تكن مشغول الخاطر فان آبائى الكرام وأجدادى العظام نور الله مراقدهم لم يكونوا خالين من الحرب لاجل فتح البلاد وردّ العدو ونحن أيضاً سالكون على طريقهم وفى كل وقت نفتح البلاد الصعبة والقلاع الحصينة وخيولنا ليلا ونهاراً مسروجة وسيوفنا مسلولة فالحق سبحانه وتعالى ييسر الخير بارادته ومشيئته وأما باقى الاحوال والاخبار تفهمونها من تابعكم المذكور فليكن معلومكم هذا تحريراً فى أوائل شهر آخر الربيعين سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة

بمقام دار السلطنة العلية

القسطنطينية المحروسة المحمية

فتح بلاد المجر وعاصمتها

وفى ٢٥ ابريل سنة ١٥٢٦ سافر السلطان سليمان من القسطنطينية لمحاربة المجر الذين كانت الحرب غير منقطعة بينهم و بين العثمانيين على التخوم وكان الجيش العثمانى مؤلفاً من نحو مائة ألف جندى و ٣٠٠ مدفع و ٨٠٠ سفينة فى نهر الطونة لنقل الجيوش من بر الى آخر فسار الجيش تحت قيادة السلطان ووزرائه الثلاثة الى بلاد المجر من طريق الصرب مارين بقلعة بلغراد التى جعلت قاعدة لاعمالهم الحربية

و بعد ان افتتح الجيش عدة قلاع ذات أهمية حربية على نهر الطونة وصل باجمعه الى وادى موهاكس فى ٢٠ ذى القعدة سنة ٩٣٢ الموافق ٢٨ أغسطس سنة ١٥٢٦ وفى اليوم الثانى اصطفت الجنود العثمانية على ثلاثة صفوف وكان السلطان ومعه كافة المدافع

وفرقة الانكشارية فى الصف الثالث فهجم فرسان المجر المشهورون بالبسالة والاقدام تحت قيادة السلطان لويس على صفوف العساكر العثمانية الاول فتقهقر أمامهم العثمانيون خلف المدافع ولما وصلت فرسان المجر بالقرب من المدافع أمر السلطان باطلاقها عليهم فاطلقت تباعاً وتوالى اطلاقها بسرعة غريبة أوقعت الرعب فى قلوب المجر فأخذوا فى التقهقر تتبعهم العساكر المظفرة حتى قتل أغلب الفرسان المجرية وقتل ملكهم ولم يعثر على جثته فكانت هذه الواقعة سبب ضياع استقلال بلاد المجر بأسرها لعدم وجود جيش آخر يقاوم العثمانيين فى مسيرهم وحصول الفوضى فى البلاد بسبب موت سلطانهم ولذلك أرسل أهالى مدينة بود(١) عاصمة المجر مفاتيح المدينة الى السلطان فاستلمها وسار يحف به النصر ويحدوه الجلال حتى وصل الى مدينة بود ودخلها فى ٣ ذى الحجة سنة ٩٣٢ الموافق ١٠ سبتمبر سنة ١٥٢٦ مشدّداً الاوامر على الجنود بعدم التعرّض للاهالى والمحافظة على النظام لكن لم تجد تنبيهاته شيئاً بل انتشرت الجنود فى جميع أنحاء المدينة وفى جميع أرجاء بلاد المجر ناهبين قاتلين مرتكبين كل الفظائع التى ترتكبها الجيوش الغير منتظمة عقب الانتصار كما شوهد ذلك فى جميع البلاد حتى فى هذا العصر الموسوم بعصر التمدن

وبعد دخول السلطان الى مدينة بود جمع اعيان القوم وأمراءهم ووعدهم بان يعين جان زابولى أمير ترانسلفانيا ملكا عليهم ثم عاد رحمه الله الى مقر خلافته مستصحباً معه كثيراً من نفائس البلاد وأهمها الكتب التى كانت موجودة فى خزائن متياس كورفن وكذلك فعل نابليون الشهير حينما دخل مصر فى أوائل القرن الثالث عشر من الهجرة فانه أخذ كثيراً من كتب الفقه وأحكام الشريعة الغرّاء وتلك كانت عادته عند دخوله أى مملكة من ممالك أوروبا فانه كان يحمل الى فرانسا كل ما بها من التحف كالصور والتماثيل والكتب والآثار ولولا هذه العادة لما أفعمت متاحفها بالآثار والنفائس

وفى أثناء عودته أقام أسبوعا فى مدينة أدرنه ووصل الى مدينة القسطنطينية المحمية فى ١٧ صفر سنة ٩٣٣ الموافق ٢٣ نوفمبر سنة ١٥٢٦

اغارة ملك النمسا على المجر وفتحه مدينة بود وانتصار العثمانيين عليه واسترجاع المجر

وفى أواخر سنة ١٥٢٧ ادعى فردينان ملك النمسا (وهو أخو شارلكان الشهير) الاحقية فى أن يكون ملكا على بلاد المجر بسبب قرابته مع الملك لويس الذى قتل فى واقعة موهاكس وسار بجنوده لمحاربة جان زابولى أمير ترانسلفانيا الذى عينه السلطان سليمان ملكا على بلاد المجر وهزمه فارسل زابولى الى السلطان سليمان يستنجده على منازعه فى

(١) مدينة قديمة على نهر الطونة في مقابل مدينة بوست وتبعد عن مدينة ويانه نحو مائتي كيلومتر وكان بينها وبين بوست كوبرى أقيم على عدة مراكب ثم أنشيء مكانه كوبرى حديد على الطراز الجديد وهي في غاية الرونق والجمال وبها كثير من المدارس وهي معتبرة تخت مملكة المجر مع انضمامها في العموميات الى امبراطورية النمسا ولذلك يلقب امبراطور النمسا بملك المجر ويسمى بالنمساوية (اوفن) ويبلغ عدد سكانها مائة وخمسين ألف نسمة أو يزيدون

الملك ووصل رسوله الى الباب العالى وقابل السلطان فى ٣فبراير سـنة ١٥٦٨ فوعده السلطان بمساعدته وأمضيت معاهدة بذلك بتاريخ ٢٩ فبراير سنة ١٥٢٨ م وبناءعلى هذا الاتفاق أصدر السلطان الاوامرالى جميع الجهات بالاستعداد للحرب وجمع الجيوش والذخائر وعين وزيره الاوّل ابراهيم باشا السابق ذكره مراراًسر عسكر للجيش أى قائداً عاما له مكافأة له على خدماته الجليلة فى مصر حين أرسل اليها لترتيب أحوالها ولما أظهره من المعلومات العسكرية فى واقعة موهاكس الاخيرة و بعـد ذلك بسنة تقريباً سافر السلطان سليمان من الاستانة قاصداً محاربة المجر فى ١٠ مايو سنة ١٥٢٩ يقود جيشاً مؤلفاً من مائتين وخمسين ألف جندى ونحو ثلاثمائة مدفع ووصل الى مدينة فليبه فى ١٢ شوّال سنة ٩٣٦ الموافق ٩ يونيه سنة ١٥٢٩ ومنها الى مدينة ( موهاكس )حيث أتى ( زابولى ) لمقابلة السلطان فقابله فى ١٦ ذى الحجة سنة ٩٣٦ الموافق ٢٠ يوليه سـنة ١٥٢٩ محاطاً بوزرائه الثلاثة ابراهيم باشاواياس باشاوقاسم باشا و بكافة القوّادو بعدان مكث زابولى ملك المجر بحضرته العلية وقتا قليلا أذن له السلطان بالانصراف بعـد ان أعطاه ثلاثة من الخيول المطهمة وثلاث خلع سنية

ابتـداء الحروب مع النمسا وحصار ويانه عاصـمتها اول دفعة

ثم سارالخليفة الاعظم الى مدينة( بود)عاصمة المجر التى كان فردينان ملك النمسامحتلا لها فوصلها فى ٣سبتمبر وابتدأ الحصار لـكن لم يلبث فردينان ان فرّ هار بامن بود قاصداً مدينة ( ويانه ) عاصمة النمسا(١)وفى٨منه طلب قائد الحامية النمساوية بمدينة بود تسليم المدينة وقلاعها اذا وعدهم السلطان بالسماح لهم بالخروج بدون تعرّض لحياتهـم ولما أجابهم السلطان لذلك أخلوا المدينة وفى حال خروجهم منها انقض عليهم الانـكشارية وقتلوا أغلبهم غير طائعين لاوامر رؤسائهم مهدّدين من رغب فى منعهم من القوّادوالضباط و بعدذلك بسبعة أيام أى فى يوم١٥ منه أرسل السلطان أحد قوّاد الانـكشارية ليرافق ( زابولى ) الى القصر الملوكى و يقلده تاج الملوكيه

و بعد اعادة زابولى الى عرش ملك بلادالمجر بمساعدة الجيوش العثمانية قام السلطان بجيوشه قاصداً مدينة (و يانه ) لغزوها مستصحباً معه الملك زابولى تاركا فى مدينـة بود حامية عثمانية تحت قيادة أحد أغاوات (ضباط ) الانكشارية لحفظ الامن بها وتوطيده فى جميع أنحائها الى أن يعود الملك زابولى اليها وفى ٢٧ سبتمبر من السنة المذكورة وصل السلطان سليمان بجيوشه أمام عاصمة بلادالنمسا ووضع الحصار حولها وسلط مدافعه على أسوارها فهدم

---

(١) هي عاصمة امبراطورية النمسا ومملكة المجرمعا قائمة علي نهر الطونة وكانت عاصمة الامبراطورية الالمانية الي ان سقطت سنة ١٨٠٩ وحاصرها العثمانيون مرتين الاولي سنة ١٥٢٩ والثانية في سنة ١٦٨٣ كاسترى ودخلها نابليون الاول فاتحا مرتين في سنة ١٨٠٥ وسنة ١٨٠٩ وفي هذه المرة تزوج نابليون بابنة الامبراطور فرنسوا المسماة (مارى لويز) وفي سنة ١٨٤٨ حصلت بها ثورة عظيمة أفضت الي اطلاق المدافع عليهـا وتدمير جزء عظيم منها ثم أعيد بناؤها أحسن مما كانت وبها كثير من المتنزهات الجميلة ويعدها البعض أجمل مدينة في العالم بعد باريز الغناء الملقبة بجنة الفردوس الارضية

جزأ منها وفتح بها المحاصر توسيعه بألغام البارود حتى صار يمكن الجيوش الهجوم منه بكل سهولة ثم أمر الجنود بالهجوم فهجمت كالاسود فى أيام ١٠ و ١١ و ١٢ اكتوبر وأخيراً فى يوم ٢٠ صفر سنة ٩٣٧ هـ الموافق ١٤ اكتوبر سنة ١٥٢٩ و بعد ان استمر القتال طول يومه عادت الجنود العثمانية الى معسكرها بدون أن تقوى على الدخول فى المدينة ولما رأى السلطان أن ذخيرة الطوبجية التى عليها المعول فى الحصار قد نفدت والشتاء قد أقبل بشدنه وثلوجه المعهودة فى هذه الجهات الشديدة البرودة أصدر أوامره بالرجوع عن و يانه هذه السنة وأعداد الجيوش لمعاودة الكرة عليها فى أقرب وقت وكانت هذه هى المرة الاولى التى لم يفز السلطان سليمان بالنصر فيها ومر فى عودته على مدينة ( بود ) عاصمة المجر و بعد ان ودّع ملكها ازابولى عاد الى القسطنطينية من طريق بلغراد

وفى ربيع سنة ١٥٣١ أرسل ملك النمسا جيشاً لمحاصرة مدينة ( بود ) واستخلاصها من قبضة ( زابولى ) خليفة العثمانيين وحليفهم فصدوا عنها بقوة الحامية الاسلامية المعسكرة فيها وفى ١٩ رمضان سنة ٩٣٨ الموافق ٢٥ ابريل سنة ١٥٣٢ سار السلطان سليمان قاصداً مدينة و يانه ثانية لفتحها ومحو ما لحقه من الفشل أمامها فى المرة الاولى بعد ان رفض ماعرضه عليه فردينان ارشيدوق النمسا من الصلح ولما وصل الى مدينة نيش ببلاد الصرب وجد فى انتظاره سفراء من قبل ارشيدوق النمسا ووجد بمدينة بلغراد سفيراً جديداً من قبل ملك فرانسا (فرنسوا الاول) وهو المسيو ( رنسون ) فقابله السلطان فى أول ذى الحجة سنة ٩٣٨ الموافق ٥ يوليو سنة ١٥٣٢ باحتفال فائق لم يسبق مثله لاى سفير غيره وذلك أنه صف لاستقباله عدد عظيم من الجنود وأطلقت المدافع تحية لقدومه وقابله السلطان مقابلة خصوصية محاطا بوزرائه وقوّاد جيوشه على ضدّ ماحصل لمرسلى فردينان الذين قوبلوا بكل تحقير وامتهان و بعد المقابلة وتبادل عبارات السلام بين السفير الفرنساوى وجلالة الخليفة الأعظم عاد السفير لملكه حاملا خطاباً لمرسله يؤكد السلطان فيه اتحادهما على محاربة شارلكان و وعده بامداده بالعمارة العثمانية اذا مست الحاجة ثم سار السلطان بجيوشه التى كان يبلغ عددهم مائتى ألف مقاتل وانضم اليهم بعد مزاولتهم مدينة بلغراد خمسة عشر ألف فارس من تتر القرم تحت قيادة صاحب كراى اخى خان القرم وفى أثناء المسير نحو مدينة و يانه فتح الجيش عدة قلاع وحصون بدون مقاومة تذكر الا أن مدينة (جانز ) (١) أبدت من الدفاع أكثر مما كان يتوقع منها لقلة حاميتها لكن لم تجد مدافعتها شيئاً بل سلم قائدها القلعة فى ٢٦ محرم سنة ٩٣٩ الموافق ٢٩ اغسطس سنة ١٥٣٢ بشرط عدم دخول الجنود العثمانية المدينة فقبل السلطان هذا الشرط مكافأة

(١) قرية ببلاد المجر على نهر بهذا الاسم ويسميها المجريون كزج ولم يزد عدد سكانها على سبعة آلاف نسمة ولولا الشهامة التي أبدتها في الدفع عن نفسها عند ما حاصرها العثمانيون في سنة ١٥٣٢ لما ذكر لها اسم في التاريخ

لاهاليها على ما أبدوه من حب الوطن والشهامة والاقدام فى الدفاع عنه
ثم سار الجيش الهوينا الى عاصمة النمسا ولما اقترب منها مال الى جهة اليسار قاصداً اقليم ( استيريا ) ومنها عاد الى بلغراد ثانيا بدون أن يحاصر مدينة ويانه لما بلغه من استعداد شارلكان للدفاع عنها وجمع الجيوش فيها بين نمساويين وألمان واسبانيول وغيرهم وعدم وجود مدافع حصار معه ولاقتراب فصل الشتاء بزمهريره وجليده اللذين لا يمكن معهما استمرار الحصار بكيفية ضامنة لفتحها وادخالها فى حوزة الاسلام كما فتحت بلاد المجر وعاصمتها من قبلها
ولما وصل السلطان فى ايابه الى مدينة فيليبه عين (صاحب كراى) التترى خانا لبلاد القرم بدل أخيه مكافأة له على خدماته أثناء مرور الجيش باراضى النمسا ورتب لاخيه سعادت كراى معاشا سنويا يليق بمقامه وفى ١٩ ربيع آخر سنة ٩٣٩ الموافق ١٨ نوفمبر سنة ١٥٣٢ عاد السلطان الى مدينة القسطنطينية وزينت المدينة وضواحيها عدّة ليال متواليات احتفالا بعودة جلالته
وفى أثناء انتشاب هذه الحروب من جهة البر أتت تحت امرة الاميرال ( اندرى دوريا (١) ) عمارة بحرية مؤلفة من سفن شارلكان الحربية ومعها عدّة من سفن البابا بقصد محاربة العثمانيين من جهة البحر فاحتل ( اندرى دوريا ) المذكور مينتى كورون وباتراس ببلاد موره بعد قتل من كان بها من الجنود الانكشارية وتدمير القلعتين اللتين أقامهما السلطان بايزيد الثانى على ضفتى خليج ليبانت ببلاد اليونان وتهديد جزائر الروم الخاضعة لسلطان الدولة العلية
وفى أوائل سنة ١٥٣٣ أرسل فرديناند ارشيدوق النمسا سفيراً من قبله يدعى جيروم دى زارا الى الاستانة يعرض طلب الصلح على جلالة السلطان فقابل الصدر الاعظم ابراهيم باشا وتباحثا فى شروط الصلح وفى يوم ١٤ يناير سنة ١٥٣٣ قابل السلطان السفير ولم يقبل السلطان الصلح بل قبل المهادنة مؤقتا حتى تسلم اليه مفاتيح مدينة (جران) وبعدها تحوّل الهدنة الى صلح فارسل السفير ابنه فسبازيان دى زارا فى اوّل فبراير الى ويانه يصحبه رسول من قبل السلطان لعرض هذه الشروط على فرديناند فعرضها فرديناند على أكابر الدولة وأعيانها فقبلوها وأرسل الى الاستانة خطابا بذلك على يد الرسول العثمانى فى ٢٩ مايو سنة ١٥٣٣ وبعد ذلك تحررت بين الطرفين معاهدة الصلح فى ٢٢ يونيو سنة ١٥٣٣ الموافق

(١) هو قائد بحرى شهير من عائلة جنوية الاصل عريقة في المجد والشرف كان ضد الفرنساويين في حروب ايطاليا التي أثارها شارلكان وفرانسوا الاول ملك فرانسا ثم انحاز الي فرانسا وحارب سفن شارلكان وانتصر عليها وحصلت بينه وبين مراكب العثمانيين عدة وقائع ثم ترك فرانسا وانحاز الي شارلكان مقابلة ارجاعه مدينة جنوه الى استقلالها الاصلي في سنة ١٥٢٨ وحارب مراكب فرانسا والدولة العثمانية وأخيراً اشتغل بتنظيم جمهورية جنوه حتى استحق أن يلقب بأبي الوطن وأقيم له بها تمثال عظيم كتب عليه ( الي أبي الوطن ) وكانت ولادته سنة ١٤٦٨ ووفاته سنة ١٥٦٠ بعد أن عمر نحو قرن كامل

٢٨ القعدة سنة ٩٣٩ وأهم مافيها أن يردّ النمساويون مدينة كورون للدولة العلية ولا يردّوا شيئاً مما فتحوه من بلاد المجر وأن ماتتفق عليه النمسا مع زابولى صاحب بلاد المجر لا ينفذ مالم يعتمده جلالة السلطان العثمانى وهى أوّل معاهدة صلح بين النمسا والباب العالى

هذا وقد حصل فى أثناء اشتغال السلطان بمحاربة النمسا بعض اضطرابات على حدود بلاد العجم وساعد على ذلك خيانة شريف بك خان مدينة بدليس الواقعة على حدود المملكتين وانحيازه الى مملكة العجم ولذلك أرسل السلطان وزيره الاول ابراهيم باشا لمحاربة هذا العاصى والسير بعد ذلك الى مدينة تبريز عاصمة العجم لفتحها فسافر ابراهيم باشا وقبل وصوله الى قونيه وصل اليه فى ٢ ربيع الآخر سنة ٩٤٠ الموافق ٢١ اكتوبر سنة ١٥٣٣ شمس الدين ابن حاكم اذربيجان الذى كان تابعا لملك العجم وانضم الى السلطنة العثمانية ومعه رأس شريف بك الذى حاربه والده وقتله ولذلك سار ابراهيم باشا الى مدينة حلب لامضاء فصل الشتاء بها وفى أوائل ربيع سنة ١٥٣٤ قام منها بجيوشه قاصداً مدينة تبريز ففتح فى طريقه جميع الحصون والقلاع المجاورة لبحيرة (وان) ووصل بدون كبير معارضة الى تبريز ودخلها بسلام فى غرة شهر محرم الحرام سنة ٩٤١ هـ الموافق ١٣ يوليو سنة ١٥٣٤ م وبنى بها قلعة وجعل فى وسطها حامية عثمانية لمنع السكان عن اتيان كل ما يمكن أن يكدر صفو الراحة العمومية

دخول العثمانيين مدينة تبريز ثاني دفعة

وفى ٢٧ سبتمبر من السنة المذكورة الموافق ١٦ صفر سنة ٩٤١ وصل السلطان سليمان الغازى الى تبريز فقابله الاهالى بكل تجيل وتعظيم وبعد ان عين السلطان ابن الامير شروان قائد الحامية مدينة تبريز وقبل خضوع أمير كيلان المدعو ملك مظفرخان وغيره من أمراء الفرس الذين تركوا لواء شاه طهماسب ملك العجم وانحازوا الى ظل الخليفة الاعظم سار السلطان بجيوشه الى مدينة سلطانية التى تقهقر اليها الشاه بجيوشه لكن لصعوبة الطرق واستحالة مرور المدافع الضخمة وعربات النقل بها لكثرة الامطار والاوحال تركها السلطان وقصد مدينة بغداد لفتحها فلما اقترب منها تقدّم ابراهيم باشا الصدر الاعظم وسرعسكر الجيوش العثمانية لاحتلالها قبل قدوم السلطان فدخلها فى يوم ٢٤ جمادى الآخرة سنة ٩٤١ الموافق ٣١ دسمبر سنة ١٥٣٤ ووجدها خاوية من الجنود اذ تركها حاكمها بكل جنوده هربا من الوقوع فى قبضة الجنود العثمانية فيذيقونه الحمام وبعد ان أقام السلطان فى مدينة بغداد مدة أربعة أشهر رتب الادارة الداخلية فى خلالها وزار قبور الأئمة العظام وقبر الامام علىّ رابع الخلفاء الراشدين كرم الله وجهه فى مدينة نجف وقبر ابنه الحسين فى كربلا وأرسل الخطابات الى البندقية وويانه اعلانا بانتصاره على الشاه طهماسب وافتتاحه مدائن تبريز وبغداد

فتح مدينة بغداد

وفى ٢٨ رمضان سنة ٩٤١ الموافق ٢ ابريل سنة ١٥٣٥ سافر السلطان بجيوشه عائدا الى مدينة تبريز مارا ببلاد الاكراد واقليم المراغه وولى سليمان باشا أحد قوّاد جيوشه

على مدينة بغداد ومعه ألفاجندى لحمايتها وفى أثناء مسيره وصل الى معسكره سفير فرنساوى اسمه مسيو (لافورى) أرسل لتهنئته على فتوحاته الاخيرة ثم وصل الى مدينة تبريز رابع المحرم سنة ٩٤٢ وأقام بها ١٥ يوما قضاها فى تعيين الولاة على المدائن المفتتحة حديثا وترتيب شؤون الداخلية ثم قفل راجعاً الى الاستانة فوصلها فى ١٤ رجب سنة ٩٤٢ الموافق ٨ يناير سنة ١٥٣٦.

الامتيازات القنصلية

وفى أوائل شهر فبراير سنة ١٥٣٦ تم الاتفاق بين المسيو لافورى سفير فرنسا والباب العالى وصدر به خط شريف بمنح بعض امتيازات لرعايا ملك فرنسا النازلين باراضى الممالك المحروسة وهذا نص هذه المعاهدة مترجماً من مجموعة البارون دى تستا الموجودة فى الكتبخانة الخديوية

ليكن معلوماً لدى العموم أنه فى شهر ... سنة ٩٤٢ من الهجرة المحمدية الموافق شهر فبراير سنة ١٥٣٦ من الميلاد قد اتفق بمدينة الاستانة العلية كل من المسيو جان دى لافورى مستشار وسفير صاحب السعادة الامير فرنسوا المتعمق فى المسيحية ملك فرنسا المعين لدى الملك العظيم ذى القوة والنصر السلطان سليمان خاقان الترك الى آخر ألقابه والامير الجليل ذى البطش الشديد سرعسكر السلطان بعد ان تباحثا فى مضار الحرب وما ينشأ عنه من المصائب وما يترتب على السلم من الراحة والطمأنينة على البنود الآتية

﴿البند الاول﴾ قد تعاهد المتعاقدان بالنيابة عن جلالة الخليفة الاعظم وملك فرانسا على السلم الاكيد والوفاق الصادق مدة حياتهما وفى جميع الممالك والولايات والحصون والمدن والمين والثغور والبحار والجزائر وجميع الاماكن المملوكة لهم الآن أو التى تدخل فى حوزتهم فيما بعد بحيث يجوز لرعاياهما وتابعيهما السفر بحراً بمراكب مسلحة أو غير مسلحة والتجول فى بلاد الطرف الآخر والمجىء اليها والاقامة بها أو الرجوع الى الثغور والمدن أو غيرها بقصد الاتجار على حسب رغبتهم بكمال الحرية بدون أن يحصل لهم أدنى تعد عليهم أو على متاجرهم

﴿البند الثانى﴾ يجوز لرعايا وتابعى الطرفين البيع والشراء والمبادلة فى كافة السلع الغير ممنوع الاتجار فيها ولسيرها ونقلها براً وبحراً من مملكة الى أخرى مع دفع العوائد والضرائب المعتادة قديماً بحيث يدفع الفرنساوى فى البلاد العثمانية مايدفعه الاتراك ويدفع الاتراك فى البلاد الفرنساوية مايدفعه الفرنساويون بدون أن يدفع أى الطرفين عوائد أوضرائب أو مكوسا أخرى

﴿البند الثالث﴾ كلما يعين ملك فرنسا قنصلا فى مدينة القسطنطينية أو فى بيرا أو غيرهما من مدائن المملكة العثمانية كالقنصل المعين الآن بمدينة الاسكندرية يصير قبوله ومعاملته بكيفية لائقة ويكون له أن يسمع ويحكم ويقطع بمقتضى قانونه وذمته فى جميع مايقع فى دائرته من القضايا المدنية والجنائية بين رعايا ملك فرنسا بدون أن يمنعه من ذلك حاكم

أو قاضى شرعى أو (صوباشى) أو أىّ موظف آخر ولكن لو امتنع أحد رعايا الملك عن اطاعة أوامر أو أحكام القنصل فله أن يستعين بموظفى جلالة السلطان على تنفيذها وعليهم مساعدته ومعاونته وعلى أى حال ليس للقاضى الشرعى أو أى موظف آخر أن يحكم فى المنازعات التى تقع بين التجار الفرنساويين وباقى رعايا فرنسا حتى لو طلبوا منه الحكم بينهم وان أصدر حكما فى مثل هذه الاحوال يكون حكمه لاغياً لا يعمل به مطلقاً

﴿البند الرابع﴾ لا يجوز سماع الدعاوى المدنية التى يقيمها الاتراك أو جباة الخراج أو غيرهم من رعايا جلالة السلطان ضدّ التجار أو غيرهم من رعايا فرنسا أو الحكم عليهم فيها مالم يكن مع المدّعين سندات بخط المدّعى عليهم أو حجة رسمية صادرة من القاضى الشرعى أو القنصل الفرنساوى وفى حالة وجود سندات أو حجج لا تسمع الدعوى أو شهادة متقدّمها الا بحضور وترجمان القنصل

﴿البند الخامس﴾ ولا يجوز للقضاة الشرعيين أو غيرهم من مأمورى الحكومة العثمانية سماع أى دعوى جنائية أو الحكم ضد تجار ورعايا فرنسا بناء على شكوى الاتراك أو جباة الخراج أو غيرهم من رعايا الدولة العلية بل على القاضى أو المأمور التى ترفع اليه الشكوى أن يدعو المتهمين بالحضور بالباب العالى محل اقامة الصدر الاعظم الرسمى

وفى حالة عدم وجود الباب المشار اليه (أى اذا حصلت الواقعة فى محل غير الاستانة) يدعوهم أمام أكبر مأمورى الحكومة السلطانية وهناك يجوز قبول شهادة جابى الخراج والشخص الفرنساوى ضد بعضهما

﴿البند السادس﴾ لا يجوز محاكمة التجار الفرنساويين ومستخدميهم وخادميهم فيما يختص بالمسائل الدينية امام القاضى أو السنجق بيك أو الصوباشى أو غيرهم من المأمورين بل تكون محاكمتهم أمام الباب العالى ومن جهة أخرى يكون مصرح لهم باتباع شعائر دينهم ولا يمكن جبرهم على الاسلام أو اعتبارهم مسلمين مالم يقروا بذلك غير مكرهين

﴿البند السابع﴾ لو تعاقد واحد أو أكثر من رعايا فرانسا مع أحد العثمانيين أو اشترى منه بضائع أو استدان منه نقوداً ثم خرج من الممالك العثمانية قبل أن يقوم بما تعهد به فلا يسأل القنصل أو اقارب الغائب أو أى شخص فرنساوى آخر عن ذلك مطلقاً وكذلك لا يكون ملك فرانسا ملزماً بشىء بل عليه أن يوفى طلب المدعى من شخص المدعى عليه أو أملاكه لو وجدت باراضى الدولة الفرنساوية أو كان له أملاك بها

﴿البند الثامن﴾ لا يجوز استخدام التجار الفرنساويين أو مستخدميهم أو خدامهم أو سفنهم أو فلائكهم أو ما يوجد بها من اللوازمات أو المدافع والذخائر أو التجارة جبراً عنهم فى خدمة جلالة السلطان الاعظم أو غيره فى البر والبحر مالم يكن ذلك بطوعهم واختيارهم

﴿البند التاسع﴾ يكون لتجار فرانسا ورعاياها الحق فى التصرف فى كافة متعلقاتهم بالوصية بعد موتهم وعند وفاة أحد منهم وفاة طبيعية أو قهرية عن وصية فتوزع أمواله وباقى

ممتلكاته على حسب ماجاء بها ولو توفى ولم يوص فتسلم تركته الى وارثه أو الوكيل عنه بمعرفة القنصل لو كان فى محل وفاته قنصل والا فتحفظ التركة بمعرفة قاضى الجهة بعد ان تعمل بها قائمة جرد على يد شهود أما لو كانت الوفاة فى جهة بها قنصل فلا يكون للقاضى أو مأمور بيت المال أو غيرهما حق فى ضبط التركة مطلقاً ولو سبق ضبطها بمعرفة أحد منهم يصير تسليمها الى القنصل أو من ينوب عنه لو طلبها قبل الوارث أو وكيله وعلى القنصل توصيلها وتسليمها الى صاحب الحق فيها

﴿ البند العاشر ﴾ بمجرد اعتماد جلالة السلطان وملك فرانسا لهذه المعاهدة فجميع رعاياهما الموجودين عندهما أو عند تابعهم أو على مراكبهم أو سفنهم أو فى أى محل أو اقليم تابع لسلطتهما فى حالة الرق سواء كان ذلك بشرائهم أو بأسرهم وقت الحرب يصير اخراجهم فوراً من حالة الاسترقاق الى بحبوحة الحرية بمجرد طلب وتقرير السفير أو القنصل أو أى شخص آخر معين لهذا الخصوص ولو كان أحدهم قد غير دينه ومعتقده فلا يكون ذلك مانعاً لاطلاق سراحه

ومن الآن فصاعـداً لا يجوز لجلالة السلطان أو ملك فرنسا ولا لقبودانات البحر ورجال الحرب أو أى شخص آخر تابع لاحدهما أو لمن يستاجرونهم لذلك سواء فى البر والبحر أخذ أو شراء أو بيع أو حجز أسراء الحرب بصفة أرقاء ولو تجاسر قرصان أو غيره من رعايا احدى الدولتين المتعاقدتين على أخذ أحد رعايا الطرف الآخر أو اغتصاب أملاكه أو أمواله يصير اخبار حاكم الجهة وعليه ضبط الفاعل ومعاقبته على مخالفته شروط الصلح عبرة لغيره ورد ما يوجد عنده من الاشياء المغتصبة الى من أخذت منه واذا لم يضبط الفاعل فيمنع هو وجميع شركائه من الدخول فى البلاد وتضبط ممتلكاته لجانب الحكومة التابع اليها و يصير التعويض على ما حصل له من الضرر مما يصادر من أملاك الجانى وهذا لا يمنع من مجازاته لو صار ضبطه فيما بعد وللمجنى عليه أن يستعين على الحصول على ذلك بضامنى هذا الصلح وهم السرعسكر عن الجناب السلطانى وأكبر القضاة عن ملك فرانسا

﴿ البند الحادى عشر ﴾ لو تقابلت دونانمات احدى الدولتين المتعاقدتين ببعض مراكب رعايا الدولة الاخرى فعلى هذه المراكب تنزيل قلوعها ورفع أعلام دولتها حتى اذا علمت حقيقتها لاتحجزها أو تضايقها السفن الحربية أو أى تابع آخر للدولة صاحبة الدونانمة واذا حصل ضرر لاحدهما فعلى الملك صاحب الدونانمة تعويض هذا الضرر فوراً واذا تقابلت سفن رعايا الدولتين فعليهما رفع العلم وابداء السلام بطلقة مدفع والمجاوبة بالصدق لو سئل ربانها عن الدولة التابع اليها ولما تعلم حقيقتها لا يجوز لاحداها أن تفتش الاخرى بالقوة أو تسبب لها أى عائق كان

﴿ البند الثانى عشر ﴾ اذا وصلت احدى المراكب الفرنساوية سواء بطريق الصدفة أو غيرها الى احدى مين أو شطوط الدولة العلية تعطى ما يلزمها من المأكولات وغيرها من

الاشياء مقابلة دفع الثمن المناسب بدون الزامها تفريغ ما بها من البضائع لدفع الاثمان ثم يباح لها الذهاب أينما تريد واذا وصلت الى الاستانة وأرادت السفر منها بعد الاستحضار على جواز الخروج من أمين الجرك ودفع الرسم اللازم وتفتيشها بمعرفة الامين المشار اليه فلا يجوز ولا يمكن تفتيشها فى أى محل آخر الا عند الحصون المقامة بمدخل بوغاز جاليبولى (الدردنيل) بدون دفع شىء مطلقاً لا عند هذا البوغاز ولا فى أى مكان آخر عند خروجها خلاف ماصار دفعه سواء كان الطلب باسم جلالة السلطان أو أحد مأموريه

﴿ البند الثالث عشر ﴾ لو كسرت أو اغرقت مراكب احدى الدولتين بالصدفة أو غيرها عند البلاد التابعة للطرف الآخر فمن يجو من هذا الخطر يبقى متمتعاً بحريته لا يمانع فى أخذ ما يكون له من الامتعة وغيرها أما لو غرق جميع من بها فما يمكن تخليصه من البضائع يسلم الى القنصل أو نائبه لتسليمها لاربابها بدون أن يأخذ القبودان باشا أو السنجق بيك أو الصوباشى أو القاضى أو غيرهم من مامورى الدولة أو رعاياها شيئاً منها والا فيعاقب من يرتكب ذلك باشدّ العقاب وعلى هؤلاء المامورين أن يساعدوا من يخصص لاستلام الاشياء المذكورة

﴿ البند الرابع عشر ﴾ لو هرب أحد الارقاء المملوكين لاحد العثمانيين واحتمى فى بيت أو مركب احد الفرنساويين فلا يجبر الفرنساوى الا على البحث عنه فى بيته أو مركبه ولو وجد عنده يعاقب الفرنساوى بمعرفة قنصله ويردّ الرقيق لسيده واذا لم يوجد الرقيق بدار أو مركب الفرنساوى فلا يسال عن ذلك مطلقاً

﴿ البند الخامس عشر ﴾ كل تابع لملك فرانسا اذا لم يكن أقام باراضى الدولة العلية مدّة عشر سنوات كاملة بدون انقطاع لا يلزم بدفع الخراج أو أى ضريبة أيا كان اسمها ولا يلزم بحراسة الاراضى المجاورة أو مخازن جلالة السلطان ولا بالشغل فى الترسانة أو أى عمل آخر وكذلك تكون معاملة رعايا الدولة فى بلاد فرانسا

وقد اشترط ملك فرانسا ان يكون للبابا وملك انكلترا أخيه وحليفه الابدى وملك ايقوسيا الحق فى الاشتراك بمنافع هذه المعاهدة لو أرادوا بشرط انهم يبلغون تصديقهم عليها الى جلالة السلطان ويطلب منه اعتماد ذلك فى ظرف ثمانية شهور تمضى من هذا اليوم

﴿ البند السادس عشر ﴾ يرسل كل من جلالة السلطان وملك فرانسا تصديقه للآخر على هذه المعاهدة فى ظرف ستة شهور تمضى من تاريخ امضائها مع الوعد من كليهما بالمحافظة عليها والتنبيه على جميع العمال والقضاة والمامورين وجميع الرعايا بمراعاة كامل نصوصها بكل دقة ولكى لايدعى أحد الجهل بهذه المعاهدة يصير نشر صورتها فى الاستانة واسكندرية ومصر ومرسيليا وناربونة وفى جميع الاماكن الاخرى الشهيرة فى البر والبحر التابعة لكل من الطرفين انتهت المعاهدة

وبذلك صارت فرانسا الدولة الاوروباوية الوحيدة الحائزة امتيازات لرعاياها ولكن كان

هذا الاتفاق سبباً فى تداخل فرانسا و باقى دول أوروبا فى شؤون المملكة الداخلية خصوصاً فى هذا القرن الاخير كما سيجىء وكانت هى آخر أعمال الصدر الاعظم ابراهيم باشا فان السلطان توجس منه خيفة لازدياد نفوذه على الجنود والقوّاد وازداد تحذره منه بعد محاربة العجم الاخيرة التى كان فيها ابراهيم باشا المذكور سرعسكر لجميع الجيوش فانه أمضى بعض الاوامر العسكريه بلقب سرعسكر سلطان وخشى السلطان أن تكون تلك الاعمال مقدّمات لاغتصابه الملك لنفسه فامر بقتله فى ٢٢ رمضان سنة ٩٤٢ الموافق ٥ مارث سنة ١٥٣٦ فقتل وخلفه فى مركز الصدارة اياس باشا بدسيسة روكسلان الروسية احدى حظيات السلطان وسيأتى ذكر ما أتته من الدسائس والمفاسد عند الكلام على قتل السلطان لابنه مصطفى

خير الدين باشا البحرى وفتحه اقليمي الجزائر وتونس

ولنات ههنا على ملخص تاريخ خير الدين باشا البحرى الذى اشتهر فى كتب الافرنج باسم (بارب روس) أى ذى اللحية الصهباء وما فتحه من البلاد فى سواحل بلاد الغرب وجنوب ايطاليا وانا لم نذكر حوادثه حسب ترتيبها لعدم الفصل بها بين أعمال السلطان سليمان الحربية فى جهات النمسا غرباً و بلاد العجم شرقاً خوفاً من تشتيت فكر المطالع فنقول ان أصل خير الدين باشا من أروام جزيرة (مدللى) احدى جزائر الروم وكان هو وأخ له يدعى (اوروج) يشتغلان بحرفة القراصين ببحر الروم ثم أسلما ودخلا فى خدمة السلطان محمد الحفصى صاحب تونس واستمرّا فى حرفتهما وهى أسر مراكب المسيحيين التجارية وأخذ كافة ما بها من البضائع و بيع ركابها وملاحيها بصفة رقيق وفى ذات يوم أرسلا الى السلطان سليم الاوّل احدى المراكب المأسورة اظهاراً لخضوعهم لسلطانه فقبلها منهما وارسل لهما خلعاً سنية وعشر سفن ليستعينوا بها على غزو مراكب الافرنج فقويت شوكتهما واشرأبت أعناقهما لاحتلال بعض سواحل الغرب باسم سلطان آل عثمان فاستولى خير الدين على ثغر (شرشل) باقليم الجزائر ثم عاد الى تونس ومنها أرسل الى السلطان سليم الذى كان اذ ذاك بمصر رسولا يدعى (كرداوغلى) يؤكد لديه اخلاصه وولاءه للسدّة السلطانية العثمانية أما أوروج فبعد ان استولى على مدينة الجزائر نفسها وهزم الجيوش الاسبانية التى أرسلها شارلكان لمساعدة الجزائريين على محاربة اوروج فتح أيضاً مدينة تلمسان وقتل بعدها بقليل فى محاربة الاسبانيين لكن لم يتمكن هؤلاء من استخلاص تلمسان والجزائر بل حفظهما خير الدين وقتل أميرا الجزائر وأرسل من قبله احد أتباعه واسمه الحاج حسين الى السلطان سليم (وقد كان أتم فتح مصر) ليخبره بفتح مدينة الجزائر باسمه الشريف فقابله السلطان وعين خير الدين باشا بكار بك على اقليم الجزائر و بذا صار هذا الاقليم ولاية عثمانية يدعى فيه فى خطبة الجمعة باسم السلطان سليم وتضرب النقود باسمه

و بعد ذلك استمرّ خير الدين باشا فى غزو مراكب الافرنج والنزول على بعض شواطىء ايطاليا وفرنسا واسبانيا واخذ كل ما تصل اليه يده من اموال واهالى وفتح الحصن الذى أقامه

الاسبانيول فى جزيرة صغيرة أمام مدينة الجزائر ثم أرسل اليه السلطان سليمان بعد تحالفه مع فرانسا أن يكف عن مراكب الفرنساويين وشواطئهم فحوّل كل قوّاده على شاطىء اسبانيا وانتقم من أهلها على ما ارتكبوه من الفظائع والمنكرات مع المسلمين بعد سقوط غرناطة فى أيديهم وساعد كثيراً ممن بقى ببلاد الاندلس من المسلمين على الرجوع الى بلاد الغرب والاستيطان بها فراراً من اضطهاد الاسبانيول واجبارهم لهم على الخروج من دين الاسلام واعتناق الدين المسيحى مما لا يدخل فى موضوع هذا الكتاب

وفى أوائل سنة ١٥٣٣ استدعاه السلطان سليمان الى الاستانة ليتفق معه على ما يلزم اتخاذه من الاحتياطات لصدّ هجمات الاميرال (آندرى دوريا) الجنوى أجير شارلكان فسافر ببعض المراكب ووصل القسطنطينية بعد سفر الصدر الاعظم ابراهيم باشا لمحاربة العجم بقليل فقابله الملك وأحسن وفادته وأمره بالاستعداد وانشاء المراكب الكافية لفتح اقليم تونس فاشتغل خير الدين باشا طول الشتاء بانشاء المراكب

وفى أوائل صيف سنة ١٥٣٤ بعد ما سافر السلطان سليمان قاصداً مدينة تبريز كما مر خرج خير الدين بمراكبه من بوغاز الدردنيل غير قاصد تونس مباشرة بل عرج فى طريقه على جزيرة مالطه و بعض موانى جنوب ايطاليا لغزو مراكبها وأهلها بدون احتلالها حتى لا يعلم قصده الاصلى وهو فتح تونس ثم قصد مدينة تونس فى أوائل سنة ١٥٣٥ وأعلن الاهالى انه آت لعزل السلطان مولاى حسن آخر سلالة بنى حفص (١) وكان الاهالى ناقمين عليه لميله لشارلكان ونصيب أخيه حسن الرشيد مكانه وبذلك احتل مدينة تونس وثغرها المسمى حلق الوادى بدون كثير عناء باسم السلطان سليمان العثمانى

ولما وصل الامبراطور شارلكان خبر سقوط تونس اتحد مع رهبنة القديس حنا الاورشليمى التى نزلت بجزيرة مالطه بعد فتح جزيرة رودس على استرجاع تونس واعادة مولاى حسن الى تخت ملكه وجهز عمارة قوية قادها هو بنفسه ونزل مع أشراف اسبانيا من ثغر برشلونه فى ٢٩ مايو سنة ١٥٣٥ ووصل الى حلق الوادى فى ١٦ يونيه وحاصرها هى ومدينة تونس مدّة شهر تقريباً وفتحها فى ١٤ يوليو واستولى على ما بقلعتها وثغرها من المدافع والمراكب وفى يوم ٢١ يوليو دخلت جيوش شارلكان المدينة وصرّح لهم بنهبها فقتلوا ونهبوا وفسقوا وارتكبوا كل أنواع المحرّمات وهدموا المساجد وحرقوا ومزقوا أغلب الكتب النفيسة وفى أول اغسطس دخلها شارلكان ومنع الجيش عن هذه الاعمال فاستتب الامن وسادت السكينة وفى ثانية منه أمضيت معاهدة بين شارلكان ومولاى حسن الذى أعيد الى ملكه تقضى عليه باخلاء سبيل الارقاء المسيحيين والاباحة لجميع المسيحيين

---

(١) أولهم أبو محمد عبد الواحد بن أبى بكر بن الشيخ أبي حفص ولي امارة تونس في ١٠ شوال سنة ٦٠٣ ولما توفي سنة ٦١٨ خلفه ابنه زكريا يحيي وفي سنة ٦٤٧ ملك بعده ابنه أبو عبدالله محمد ولقب بالمستنصر ودعي بامير المؤمنين واستمرت هذه العائلة مالكة علي اقليم تونس الي ان فتحها العثمانيون نهائياً في سنة ٩٨١ فتكون مدة حكمهم ٣٧٨ سنة

بالاستيطان فى اقليم تونس واقامة شعائر دينهم بدون معارضة وأن يتنازل لشارلكان عن مدائن بونه و بنى زرت وحلق الوادى وأن يدفع له مبلغ اثنى عشر ألف دوكا مصاريف الحرب وأن يقدّم له سنوياً اثنى عشر حصاناً وقدرها من المهارة العربية علامة امتنانه بشرط انه لو خالف احدى هذه الشروط يدفع أوّل مرة خمسين ألف دوكا وفى الثانية مائة ألف وفى الثالثة يسقط حقه فى الملك وفى ١٧ اغسطس سافر الامبراطور شارلكان تاركا فى حلق الوادى ألف جندى اسبانيولى وعشرة مراكب حربية أما خير الدين باشا فانه لما رأى تحزب الاهالى وميلهم لسلطانهم المعزول وعدم وجود الجنود الكافية معه و بعده عن مركز السلطنة لامداده فى الوقت اللازم ارتحل بجنوده على مراكبه

اتحاد فرنسا والدولة العلية علي محاربة النمسا وبعض وقائع اخرى

ولنرجع الى ذكر محالفة فرنسا مع الدولة العلية ونتائجها فنقول ان اتفاقهما كان قاضياً بان الدولة العلية تجعل وجهة حروبها بلاد نابولى وجزيرة صقلية واسبانيا عوضاً عن مهاجمة النمسا التى تحد جميع امارات وممالك ألمانيا للمدافعة عنها اذ هى مع استقلالها جزء من التحالف الالمانى وأن جيوش فرنسا تدخل بلاد ايطاليا من جهة (اقليم بيمونتى) بشمال ايطاليا حينما تدخلها الجيوش العثمانية من جهة مملكة نابولى

لكن عدم دخول جمهورية البندقية فى هذا التحالف واظهارها العدوان لهم كان سبباً فى عدم نجاح كل هذه التدبيرات وساعد على ذلك هياج الرأى العام المسيحى ضدّ التحالف الفرنساوى العثمانى واحجام فرنسوا الاوّل أمام النفور العام خشية أن يرمى بالمروق عن دينه المسيحى باتحاده مع دولة اسلامية لمحاربة دولة تدين بدينه

فاراد السلطان سليمان الانتقام من جمهورية البنادقة على عدم انحيازها لتحالفه مع انه راعى جوارها ولم يغز بلادها فارسل خير الدين باشا الذى ترقى الى رتبة قبودان باشا بجميع الدونمات العثمانية ومعه نحو ألف سفينة لمحاصرة جزيرة كورفو فحاصرها فى شهر سبتمبر سنة ١٥٣٧ وأتى السلطان بنفسه لمناظرة الحصار لكنه أمر برفعه عنها لشدّة دفاع أهلها وعدم ضياع وقته النفيس حول هذه الجزيرة الصغيرة وعاد هو الى القسطنطينية فوصلها أول نوفبر من السنة المذكورة وأرسل خير الدين باشا لفتح ما بقى من جزائر الروم ففتح أغلبها وغزى جزيرة كريد (١) وفى عودته قابل دونانمة مؤلفة من مائة وسبعين سفينة تقريباً يقودها اندرى رو بالميرال شارلكان فخار بها وانتصر عليها فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٥٣٨ وفى مايو سنة ١٥٣٨ جمع السلطان سليمان ببلاد الارنؤود جيشاً عظيماً مؤلفاً من مائة

---

(١) جزيرة شهيرة بالبحر الابيض المتوسط ذات موقع حربى من الاهمية علي جانب عظيم لوجودها عند مدخل ارخبيل اليونان بحيث يكون المحتل لها كالقابض على بوغاز الدردنيل احتلها العرب مدة من الزمان ثم استرجعها الروم سنة ٩٦١ ميلادية وفي سنة ١٢٠٤ أخذها البنادقة لما فتح الصليبيون مدينة الاستانة وفتحها العثمانيون ولم تزل تابعة لهم حتى الآن الا أنها لا تخلو دائما من الاضطرابات بسبب الدسائس ولها بعض امتيازات وتبذل مملكة اليونان وسعها لضمها اليها الا أن بعض الدول ذوات الصالح في البحر المتوسط لا تسمح لها بذلك خوفا من ازدياد نفوذ اليونان في هذا البحر

ألف مقاتل لشنّ الغارة على بلاد ايطاليا وكان معه ولداه محمد وسليم وسفير فرانسا المسيو (دولافوري) وفي الوقت نفسه نزل خير الدين باشا بمينا اوترانته بجنوب ايطاليا استعداداً لمهاجمتها من جهة الجنوب بينما يهاجمها السلطان سليمان من جهة الشرق وملك فرانسا من جهة الغرب لكن احجام فرانسا عن التقدّم اطاعة للرأي للعام كما ذكرنا كان السبب في عدم نجاح هذا المشروع الذي لو تم لكانت نتيجته دخول بلاد ايطاليا باسرها تحت ظل الدولة العلية وانتهى الامر بان تهادن ملك فرانسا مع الامبراطور شارلكان وأمضيا مهادنة نيس سنة ١٥٣٨ أما من جهة البندقية فاستمرّت الحرب بينها و بين الدولة العلية سجالا انتهت بالصلح في أواخر سنة ١٥٣٨ بتنازل البندقية عن ملفوازي ونابولي دي رومانيا من بلاد موره

هذا أما من جهة بلاد المجر فابتدأت الحروب ثانية سنة ١٥٣٧ وانتهت بانهزام جيش ألماني مرسل من قبل شارلكان تحت رياسة أشهر قوّاده في ٢ دسمبر سنة ١٥٣٧ وفي سنة ١٥٣٨ عصى أمير البغدان بناء على تحريض فردينان ملك النمسا له فقهر وولي مكانه أخوه اسطفن وعززت الحامية العثمانية منعاً لحصول مثل ذلك

وفي هذه الاثناء اتفق فردينان وزابولي ملك المجر على اقتسام البلاد أولى من تداخل العثمانيين في شؤونهم كما سبق ووجود المجر تحت حمايتهم الامر المشين لكافة الممالك المسيحية وكانت هذه دسيسة من فردينان للايقاع بزابولي الذي قبل حماية العثمانيين له مدّة من الزمن فارسل صورة هذا الاتفاق الى الباب العالي ليعلمه بعدم ولاء زابولي له

موت زابولي ملك المجر وسفر السلطان الي بود لمحاربة النمساويين

ثم مات زابولي سنة ١٨٤٠ قبل أن تقتص الدولة العلية منه على خيانته تاركا طفلا صغيراً ولد قبل موته بخمسة عشر يوما فاغارت على الفور جيوش النمسا على المجر منتهزين هذه الفرصة لنوال مآربهم أي استخلاص بلاد المجر من حماية وتابعية الدولة العلية وحاصروا أرملة زابولي وابنها في مدينة بود واحتلوا مدينة بيست (١) المقابلة لها على نهر الطونة وعدّة قلاع بالقرب منها وبمجرّد وصول هذا الخبر للدولة العلية قام السلطان بنفسه قاصداً بلاد المجر في شهر يوليو سنة ١٥٤١ ووصل في ٢٩ أغسطس الى مدينة بود التي رفع النمساويون عنها الحصار بمجرّد سماعهم خبر قدوم السلطان وجيوشه واشتدّ ياس الجنود المجرية المحصورة داخلها خشية من وقوعهم بين نارين وفي اليوم التالي قدم الى السلطان سليمان ولد زابولي وفي أثناء الاحتفال بقدومه احتل الانكشارية المدينة ثم دخلها السلطان باحتفال زائد وجعل بلاد المجر ولاية عثمانية وحول أكبر كنائسها الى مسجد جامع وتعهد جلالة السلطان كتابة الى أرملة زابولي بانه لا يحتل بلاد ولدها الا مدّة طفوليته ويعيدها له متى بلغ رشده

(١) مدينة شهيرة ببلاد المجر على نهر الطونة أمام مدينة بود كانت بمعزل عنها ثم صارتا مدينة واحدة بعد بناء الكوبري الموصل بينهما وأطلق عليها اسم (بودابست)

وعقب ذلك بقليل وصل الى معسكر السلطان سليمان وفد من قبل ملك النمسا يحمل اليه كثير من الهدايا النفيسة منها ساعة تدل على الايام والشهور وسير الكواكب وعرض عليه هذا الوفد دفع مائة ألف فلورين سنوياً جزية عن جميع بلاد المجر لو تركها له السلطان أو أربعين الفا فقط عن الجزء المحتلة له جيوش النمسا فاجابه السلطان أن لا تخابر معهم بخصوص الصلح الامن بعد أن يخلى فرديناند القلاع المجرية التى بيده ولذا لم يتم الصلح وبقى العدوان مستمراً و بعد ذلك بايام قلائل وصل الى السلطان سفير فرنساوى يخبره باستئناف الحروب بين فرانسا وشارلكان وأنه يسعى فى تجديد التحالف بين الدولة والباب العالى لمحاربة شارلكان ومما يدل على ضعف سياسة فرانسوا الاول وعدم ثباته أنه بعد ان أمضى مع شارلكان هدنة (نيس) ساعده أيضاً لدى الدولة العثمانية للحصول على هدنة بينها و بينه وكتب فى سنة ١٥٣٩ بذلك خطابا للسلطان سليمان فجاوبه السلطان انه لا يهادنه الا اذا ردّ له (لملك فرانسا) جميع القلاع والحصون التى فتحها ولما لم يقبل شارلكان ذلك فترت العلاقات بينهما وصارت الحرب قاب قوسين أو أدنى (سنة ١٥٤١) وأرسل المسيو (رنسون) الى القسطنطينية ليتفق مع السلطان على الترتيبات الحربية اللازمة

وفى أثناء مسير هذا السفير من اقليم ميلان قتله أحد أعوان حاكم هذا الاقليم التابع لشارلكان و بناء على أوامره طمعاً فى العثور على أوراق معه للسلطان يوجد بها مايمس الدين المسيحى فينشرها بين ملوك وأمراء أوروبا ليوغر صدورهم عليه و يتركوه بلا مساعدة فيفوز هو بالغلبة عليه لكن خاب مسعاه حيث لم يجد معه أوراقا من هذا القبيل بل أهرق دم السفير هدراً

سفر الدونانمة العثمانية الي فرانسا وفتح مدينة نيس

ولما بلغ فرانسوا الاوّل خبر قتل سفيره أرسل بدله أحد ضباطه المسيو بولان الى السلطان سليمان يطلب منه مساعدته على محاربة شارلكان بسفنه وقائدها خيرالدين باشا فتردّد السلطان أوّلا لعدم ثبات ملك فرنسا وضعف عزيمته وقبل أخيرا بناء على الحاح السفير وتعضيد خيرالدين باشا له لاسيما وقد وصل اليه خبر مهاجمة شارلكان بجيوشه لمدينة الجزائر وارتداده عنها خائباً فى ٣١ اكتوبر سنة ١٥٤١ وفى ربيع سنة ١٥٤٣ سافر السلطان بجيوشه الى بلاد المجر لاستئناف المحاربات وفى الوقت نفسه أقلع خيرالدين باشا من مياه الاستانة بمراكبه ومعه السفير الفرنساوى بولان قاصداً مرسيليا احدى مين فرانسا الجنوبية فوصلها بعد أن غزى فى طريقه سواحل جزيرة صقلية وقوبل من الفرنساويين بكل تجلة واكبار وانضمت سفنه الى سفنهم ومنها أقلعوا الى مدينة نيس فحاصروها من جهة البحر وفتحوها عنوة فى ٢١ جمادى الاولى سنة ٩٥٠ الموافق ٢٠ أغسطس سنة ١٥٤٣ ولوقوع الشحناء بين العسكرين لم يتم احتلالها

ثم أذن لخيرالدين باشا ومراكبه بتمضية فصل الشتاء فى ميناطولون (١) بفرانسا وأعطى

---

(١) مدينة شهيرة في جنوب فرانسا على البحر الابيض المتوسط بها مرسي سفنها الحربية وفي سنة ١٧٩٣

له ثمانمائة ألف ريال فرانساوى للصرف على جنوده

وفى ربيع من السنة التالية سنة ١٥٤٤ رفض فرانسوا الاوّل مساعدة العمارة العثمانية له لهياج جميع المسيحيين عليه ونسبتهم اياه للمروق عن دينه لاستعانته بالمسلمين وأبرم مع شارلكان فى مارث سنة ١٥٤٤ معاهدة (كريسى) القاضية بالصلح فعاد خير الدين باشا الى القسطنطينية وتوفى سنة ٩٥٣ هـ الموافق سنة ١٥٤٦ م ودفن بجهة بشكطاش على شاطىء البوسفور فى المحل المعدّ لمرسى الدونانمات العثمانية

ابرام الصلح مع النمسا

أما من جهة النمسا فاستمرّ القتال بينها وبين العثمانيين مدة من الزمن كان النصر فيها غالباً فى جانب الجنود المظفرة الاسلامية وأخيراً ابتدىء فى المخابرات بين الطرفين للتوصل الى عقد صلح مرضى لكل منهما واستمرت المخابرات جارية الى سنة ١٥٤٧ لعدم اتفاقهما وسعى سفير فرانسا المسيو جبريل درامون فى عدم الوصول الى الوفاق طمعاً منه فى تجديد علائق الالفة بين دولته والدولة العلية لكن وفاة فرانسوا الاوّل فى شهر مارث سنة ١٥٤٧ ساعدت على اتمام الصلح فتم الامر بينهما فى ١٩ يونيه (أول جمادى الاولى سنة ٩٥٤) على هدنة خمس سنوات بشرط أن يدفع فرديناند ملك النمسا جزية سنوية مقدارها ثلاثون ألف دوكا نظير ما بقى تحت يده من بلاد المجر(١) وأن تبقى بلاد المجر تابعة لابن زابولى أميرها الاخير تحت وصاية أمه (ايزابلا) ورعاية الدولة العلية

هذا ولنذكر ما حصل فى هذه المدّة من الحروب فى جهات آسيا فنقول انه حضر الى دار الخلافة العظمى سنة ١٥٣٧ سفير من قبل صاحب دهلى بالهند يستنجده ضدّ همايون ابن ظاهر الدين محمد الشهير ببابر صاحب دهلى وآخر من قبل صاحب الجوزرات بالهند أيضاً يطلب منه المساعدة ضدّ البرتغاليين الذين أغاروا على بلاده واحتلوا أهم ثغورها

فتح عدن

فارسل السلطان أوامره الى من يدعى سليمان باشا والى مصر اذذاك بتجهيز عمارة بحرية بثغر السويس على البحر الاحمر لمحاربة البرتغاليين وفتح عدن (٢) و بلاد اليمن حتى لا تستولى عليها البرتغال أو أى دولة أوروبية أخرى فتصير حجر عثرة فى سبيل تقدّم الدولة العلية فى جهات الشرق وقاعدة لاعمال الدولة التى تحتلها ضدّ مصر فصدع سليمان باشا بأمره وشيد عمارة بحرية هائلة مؤلفة من سبعين سفينة فى أقرب وقت وسلحها بالمدافع

---

سلمها الحازبون للملوك الى الانكليز ثم استردها الفرنساويون فى دسمبر من السنة المذكورة بهمة واستعداد نابليون بونابرت التى كانت هذه الواقعة فاتحة أعماله ومقدمة انتصاراته

(١) قد استمرت النمسا على دفع الجزية للدولة العلية الى سنة ١٦٩٩ فأبطلت بمقتضى معاهدة كرلوفتس

(٢) بحيث جزيرة بجنوب بلاد اليمن وبها مدينة مهمة بالنسبة لمركزها المتوسط بين مصر والهند ولقربها من بوغاز باب المندب ولذلك تنازعها الفاتحون وأخيرا فتحها العثمانيون كما رأيت ثم خرجت من تحت سلطتهم وتناوبتها أيدى كل من تغلب على اليمن من العرب وغيرهم وفى سنة ١٨٣٩ احتلها الانكليز وأقاموا بها مستودعاً للفحم الحجرى وزادت أهميتها بالنسبة لهم بعد فتح بوغاز السويس واتخاذ مراكبهم هذه الطريق لانها أفضل الطرق الى هندهم التى هى لهم بمثابة الروح من الجسد

الضخمة وسار بها فى يونيه سنة ١٥٣٨ ومعه عشرون ألف جندى وفتح مدائن عدن ومسقط وحاصر جزيرة هرمز عند مدخل العجم ثم قصد سواحل الجوزرات وفتح أغلب الحصون التى أقامها البرتغاليون هناك لكن أخفق أمام ثغر ( ديو ) بعد أن حاصره مدة ثم قفل راجعاً بالغنائم وفتح فى أيامه باقى اقليم اليمن وجعل ولاية عثمانية

وفى سنة ١٥٤٧ قبل اتمام الصلح مع النمسا أتى الى الباب العالى أخ لشاه العجم يدعى ( القاصب مرزا ) وطلب من السلطان انجاده ضدّ أخيه الذى اهتضم له حقوقاً فانتهز السلطان هذه الفرصة لتجديد الاغارة على بلاد العجم وانتظر ريثما يتم الصلح باوروبا ويهدأ باله من جهتها

دخول العثمانيين مدينة تبريز ثالث دفعة

وفى أوائل سنة ١٥٤٨ سار بجيوشه قاصداً مدينة تبريز فدخلها ثالث دفعة وفتح فى طريقه الجزء التابع للعجم من بلاد الكرد وقلعة (وان) الشهيرة وعاد يحف به النصر والظفر الى القسطنطينية فى دسمبر سنة ١٥٤٩ أما القاصب مرزا فأخذ أسيراً فى احدى الوقائع الحربية بعد ان سار مع جيش من الاكراد الى قرب مدينة أصفهان

ولم تدم السكينة فى ربوع بلاد المجر والنمسا بدسيسة راهب يدعى مارتنوزى كانت قرّبته اليها الملكة (ايزابلا) بناء على وصية زوجها لها قبل موته فانه سعى فى التوفيق بين الملكة وفرديننان ملك النمسا حتى انه تحصل بقوة دهائه وسلطته الدينية على أن تنازلت الملكة الى فرديننان عن اقليم ترانسلفانيا ومدينة تمسفار خلافاً لشروط الهدنة وسير فرديننان جيشاً نمساوياً لاحتلالهما وفى أثناء هذه المخابرات كان الراهب يكاتب السلطان سليمان و يظهر له الاخلاص وصدق الولاء لكن لم تخف حقيقة الامر على السلطان بل علم بهذا التنازل المخالف للعهود وأرسل على الفور جيوشه المظفرة للمحافظة على نفاذ شروط الهدنة وارجاع النمساويين الى حدودهم فارسل جيشاً مؤلفاً من ثمانين ألف جندى الى بلاد المجر فى شهر سبتمبر سنة ١٥٥١ ولم يقابل هذا الجيش فى طريقه مقاومة تذكر بل فتح بكل سهولة القلاع والحصون المحتلة لها جيوش النمسا لاخلاء النمساويين لها عند اقتراب الجنود العثمانية اليها ودنوها منها ولما رأى الراهب مارتينوزى أفول نجمه وعدم نجاحه فى الحصول على مرغوبه أراد السعى لدى السلطان سليمان مظهراً له ميله لمساعدته فى اخضاع اقليم ترنسلفانيا الذى قاوم الجيوش العثمانية مقاومة شديدة طمعاً فى أن يعين هو والياً عليها فاحس فرديننان بخيانته ودس عليه من قتله فى دسمبر سنة ١٥٥١

وفى سنة ١٥٥٢ انتصر العثمانيون على النمساويين فى عدة وقائع وفتح الوزير الثانى احمد باشا مدينة ( تمسفار ) وحاصرت الجيوش بعد ذلك مدينة (ارلو) (١) ببلاد النمسا الحصينة مدة

(١) مدينة صغيرة ببلاد المجر واقعة في الشمال الشرقي لمدينة بود على مسافة مائة كيلو متر وثمانين اشتهرت في التاريخ بصد هجمات العثمانيين والزامهم رفع الحصار عنها في سنة ١٥٥٢ لكن فتحها العثمانيون عنوة سنة ١٥٩٦ وبعد صلح سنة ١٦٠٦ صارت تتبع النمسا تارة وامارة ترنسلفانيا تارة أخرى واسمها بلغة المجر ايجر

من الزمن ثم رفع عنها الحصار لمنعتها وعدم وجود الوقت الكافي لتشديد الحصار عليها واجبارها على التسليم بمنع المؤونة عنها لاقتراب فصل الشتاء وشدته في هذه الاقاليم
وفي أثناء ذلك كان القبودان (طرغول) الذي أخلف القبودان الشهير خير الدين باشا في غزو مراكب الافرنج وشواطىء بلادهم حاز شهرة عظيمة في الحروب البحرية وخافت باسه جميع دول الافرنج المعادية للدولة العلية وحفظ اسم البحرية العثمانية من السقوط بموت رئيسها بل ومؤسسها الاكبر خير الدين باشا

معاهدة سنة ١٥٥٣ بين الدولة العلية وفرنسا

وبعد موت السلطان فرانسوا الاول ملك فرانسا حذا ولده هنري الثاني حذوه ونسج على منواله في موالاة الدولة العلية والمحافظة على محبتها وتوثيق عرى الالفة والاتحاد معها للاستعانة بحريتها عند الحاجة فأبقى المسيو جبريل درامون سفيراً له بدار السعادة وامره بمرافقة السلطان في حملته الاخيرة على بلاد العجم فرافقه وفي عودته زار بيت المقدس فقابله الرهبان والقسوس بكل احتفال لتأييد المعاهدات السابقة القاضية بجعل جميع الكاثوليك المستوطنين باراضي الدولة العلية تحت حماية فرانسا ثم عاد الى فرانسا فوجد نيران الحرب قد اشتعلت ثانياً بينها وبين النمسا فعاد الى القسطنطينية واتفق مع الباب العالي على أن تتحد الدونانمة التركية مع العمارة الفرنساوية لفتح جزيرة كورسيكا (١) مجازاة لاهالي جنوه المحتلين لها على مساعدتهم لشارلكان ولتكون مركزاً لاعمال الدونانمتين في غزو سواحل اسبانيا وايطاليا وأبرمت بذلك معاهدة بتاريخ ١٦ صفر سنة ٩٦٠ الموافق أول فبراير سنة ١٥٥٣ وهذا نصها مترجمة عن مجموعة البارون دي تستا السابق ذكرها
ان جلالة السلطان سليمان وهنري دي فالوا الثاني ملك الفرانك قد أبرما اتحاداً مشتملاً على العبارة الآتية بخصوص الحرب البحري (جعله الله حميد العاقبة) الذي سيشرعان فيه ضد الامبراطور شارلكان
﴿ البند ١ ﴾ بما أن جلالة السلطان سليمان سلطان الترك بارساله عمارة بحرية في بحر التوسكان ضد الامبراطور شارل الخامس قد أعان بذلك هنري دي فالوا مدة سنتين بناء على طلبه المتكرر في بادىء الامر وبالخصوص بناء على ترجيانه البالغة أقصى درجات الحض فقد اتفق بان الملك هنري يدفع ثلاثمائة الف قطعة من الذهب بصفة متأخر مرتب الدونانمة وذلك حين ما تصير الملاحة مأمونة لنقل النقود بالعمارة وأن السفن الحربية التابعة للملك هنري لا تتباعد عن العمارة المذكورة وتعتبر كأنها مرهونة نظير المبلغ المذكور حتى يدفع لاميرال عمارة السلطان سليمان

(١) احدى جزائر البحر الابيض الكبيرة وأقربها لفرانسا احتلها المسلمون مدة وصارت أخيراً تابعة لجمهورية جنوة وفي سنة ١٧٦٨ تنازلت عنها هذه الجمهورية للويز الخامس عشر ملك فرنسا وفي سنة ١٧٩٣ احتلها الانجليز ثم استردتها فرانسا سنة ١٧٠٦ ولم تزل تابعة لها حتي الآن وبها ولد نابليون الاول امبراطور فرنسا في سنة ١٧٦٩ أي بعد تنازل جنوه عنها لفرنسا بسنة واحدة

﴿ البند ٢ ﴾ متى توفر هذا الشرط بوجه العدالة فان جلالة سلطان الترك سليمان يقوم بتجهيز ستين مركبا حربياذات ثلاثة صفوف و ٢٥ قرصانا بحريا و يرسلها للملك هنرى فى مدة أربعة شهور متوالية من ابتداء أوّل مايو القابل

﴿ البند ٣ ﴾ أما فى حالة ما اذا أراد هنرى دى فالوا أن يستعمل العمارة المذكورة فى أثناء هذه المدة للاستعانة بها على الجهات الغربية أى الجهات الواقعة من ابتداء كروتون لغاية ( جائت ) فانه يقوم بدفع مائة وخمسين ألف قطعة من الذهب الى جلالة سلطان الترك سليمان بغاية من الضبط

﴿ البند ٤ ﴾ كل سفينة تابعة للامبراطور أو للمتحالفين معه سواء كانت معدة للنقل أوكانت من المراكب الخفيفة وسواء كانت سفنا حربية صغيرة أو كبيرة فبمجرّد وقوعها أسيرة لدى العمارة العثمانية تصير من تلك اللحظة ملكا للسلطان سليمان ملك الترك

﴿ البند ٥ ﴾ المدن والقصبات والقرى والكفور التى تتغلب عليها هذه العمارة تكون مباحة غنيمة للترك وجميع سكانها راشدين أو قاصرين رجالا كانوا أو نساء ولو أنهم معتنقون الديانة المسيحية ويكونون قد سلموا أنفسهم باختيارهم فانه لابد من تركهم أسراء وعبيداً للترك بمقتضى واجبات الاتفاق الصريحة بهذا الصدد التى قرّ عليها الامر بين السلطان سليمان و بين فرانسوا أبى هنرى من منذ سبع عشرة سنة الأن امتلاك هذه المدن والقصبات والقرى والكفور والمؤن والذخائر وكذلك مدافع البرونز صغيرة كانت أو كبيرة مع جميع متعلقاتها من حيوانات وغيرها التى توجد فيها فانها تترك للملك هنرى بموجب هذه المعاهدة

﴿ البند ٦ ﴾ اذا أصدر الملك هنرى أمره الى عمارة جلالة السلطان سليمان بان تحارب شارل ملك النمساغير متجهة نحو الغرب بل نحو الشرق والجنوب و يقصد بذلك مسيرها فى الشواطىء من عند مصب نهر ترونتو لغاية كروتون بحيث ان هذه العمارة تقوم باعباء أوامر هنرى بدون مقابل فقد اتفق على أن المواد الحربية ومؤنات المدن والقصبات التى تقع تحت يد الترك يتنازل عنها للملك هنرى ولكن المدن والقصبات والقرى والكفور فانها تترك غنيمة للترك كما تقرّر ذلك بالبند السابق وأما الوطنيون والمزارعون والقاطنون البالغون والقاصرون الرجال منهم والنساء فانهم يسلمون للاسر بدون معارضة حتى ولو كانوا ممن يعتنقون الديانة المسيحية بل ولو كانوا ممن أسلم نفسه بمحض ارادته

﴿ البند ٧ ﴾ يمكن لاميرال جلالة الملك سليمان أن يستولى و يأسر باسم مليكه الافخم كل مكان تقدم عليه العمارة التركية المظفرة متى رأى ثمة من فائدة وذلك من ابتداء حدود نهر ترونتو لغاية أوترانت وكروتون ومن ثم لغاية صقلية ونابولى وعموما جميع الاقاليم المملوكة للامبراطور شارل الخامس ملك النمسا سواء كان ذلك المكان داخل الاراضى أو سواء كان مدينة أوقصبة أوقرية أو كفراً أو ميناء أوخليجا وله الحق فى الاستيلاء على أىّ

سفينة يصادفها وله أن يغزو بل وأن ينهب و يأسر الرجال والنساء البالغين أوالقاصرين حتى أنه يمكنه متى شاء أن يحافظ و يتملك جميع مايغتنمه سواء كان من بنى الانسان أوالمدن أو البيوت الخلوية وأن يعدها و يستعملها لاحتياجاته ولوضدّ رغبة الفرنك و بالرغم عن مضاداتهم الشديدة فى ذلك

﴿ البند ٨ ﴾ اذا تحصل جلالة السلطان سليمان على تملك احدى الاربعة مدن مع حصنها فى اقليم (البوى) بواسطة مساعى فردينان سنسيفرن برنس دى سالرنيتين بمقتضى تعهد هذا الأمير فجلالة السلطان سليمان يعيد الى هنرى مبلغ الثلاثمائة ألف قطعة من الذهب التى ضمن له كما تقدّم دفعها وذلك فى حالة ما اذا كانت دفعت اليه

﴿ البند ٩ ﴾ جلالة السلطان سليمان يسلم غدا عن ذلك الثلاثين سفينة حربية و بحارتها بدون أدنى فدية وكذا المدافع والمؤن وجميع المواد و يستثنى من ذلك رجال بحريته الخصوصيون وعساكره كما وأنه يدفع فى أقرب وقت لبرنس سالرن الذى بذل نفسه وكل مافى وسعه للحصول عليها وكان نصيبه أن حرم من منصبه وطرد من وطنه و بيته مبلغ الثلاثين ألف قطعة من الذهب التى صرفها بكل ارتياح وكرم

فهذه البنود بالحالة التى هى مكتوبة بها أعلاه قد وضحت بحسب ماجرت به العادة بكلام مضبوط لايقبل التاويل بواسطة أرامونت سفير هنرى لدى جلالة السلطان سليمان الذى أضاف اليها قسما صريحا بحضور برنس سالرنيتين بصفة كونه نائباً أمينا ومن جهة أخرى فقد تصدّق عليهما من رستم باشا بموجب السلطة الممنوحة له من لدن جلالة السلطان سليمان

وقد أبرم جميع ذلك واتفق عليه بالقسطنطينية فى أوّل فبراير سنة ١٥٥٣

فسارت مراكب الدولتين وفتحت جزيرة كورسيكا بعد شنّ الغارة على بلاد كلابريا وجزيرة صقلية (١) من أعمال ايطاليا لكن لوقوع النفرة بين القائدين لم يستمر احتلالها بل افترقت العمارتان ورجع القبودان العثمانى الى الاستانة

وكانت هذه آخر دفعة حارب فيها العثمانيون والفرنساويون كتفا لكتف لتغير الظروف والاحوال حتى أتت حرب القرم الاخيرة التى حصلت فى أواسط هذا القرن وحاربت فيها فرانسا وانكلتره مع الدولة العلية دولة الروس لادفاعا عن الدولة العثمانية بل لاضعاف الروسيا حتى لا تتمكن من الاستيلاء على بوغاز البوسفور كما سيأتى مفصلا

ولنذكر هنا حادثة شنيعة وهى قتل السلطان لولده الاكبر مصطفى بناء على دسيسة احدى زوجاته المسماة فى كتب الافرنج روكسلان أما فى كتب الترك فاسمها (خورّم) أى الباسمة

---

(١) هي أكبر جزائر البحر المتوسط وواقعة في طرف مملكة ايطاليا وعاصمتها مدينة بالرمه واحتلها العرب عدة قرون في أيام دولة بني الاغلب والفاطميين بتونس ثم استقلت وهي الآن تابعة لمملكة ايطاليا وبها ولد المؤرخ الشهير ديودور الصقلي وغيره من فحول الرجال

ذلك حتى يتولى بعده ابنها سليم ولمالها من الثقة بالصدر الاعظم رستم باشا اذ كان تعيينه بمساعيها لدى السلطان بعد موت إياس باشا ومازالت تساعده حتى زوجه السلطان ابنته منها كاشفته بمرغوبها وهو تمهيد الطريق لتولى ابنها سليم فانتهز هذا الوزير فرصة انتشاب الحرب بين الدولة ومملكة العجم فى سنة ١٥٥٣ ووجود مصطفى ضمن قوّاد الجيش وكتب الى أبيه بأن ولده يحرض الانكشارية على عزله وتنصيبه كما فعل السلطان سليم الاول مع أبيه السلطان بايزيد الثانى فلما وصل هذا الخبر الى السلطان وكانت والدة سليم قد تمكنت من تغيير أفكاره نحوه قام فى الحال قاصداً بلاد العجم متظاهراً بأنه يريد أن يتولى قيادة الجيش ولما وصل الى المعسكر استدعى ولده المسكين الى سرادقه فى يوم ١٢ شوال سنة ٩٦٠ ه الموافق ٢١ سبتمبر سنة ١٥٥٣ و بمجرد وصوله الى الداخل خنقه بعض الحجاب المنوطين بتنفيذ مثل هذه الاوامر فقتل رحمه الله شهيد دسائس زوجة والده وعدم تثبت أبيه مما نسب اليه وكانت هذه الشنعة الشنعاء نقطة سوداء فى تاريخ السلطان سليمان الذى اتسعت دائرة السلطنة فى أيامه ولولا دسيسة هذه المرأة الاجنبية التى ربما كانت مؤجرة لهذه الغاية لبقى اسمه لاتشوبه شائبة ثم نقلت جثة هذا الشهيد الى مدينة بورصه ودفنت مع جثث أجداده ولم تكتف هذه المرأة البربرية الطباع بقتل مصطفى سلطان بل أرسلت الى مدينة بورصة من قتل ابنه الرضيع وقال فى ذلك بعض الشعراء

يادهر ويحك ماأبقيت لى جلداً * وأنت والد سوء تأ كل الولدا

وكان رحمه الله محبوباً لدى الانكشارية لشجاعته ولدى العلماء والشعراء لاشتغاله بالادب وميله الى الشعر فرثاه كثير من الشعراء بقصائد رنانة ولم يخشوا سطوة أبيه

أما الانكشارية فثاروا وطلبوا من السلطان قتل الوزير رستم باشا المدبر لهذه المكيدة حبا فى حفظ منصبه فعزله السلطان تسكينا لخاطرهم وولى مكانه الوزير أحمد باشا لكن لم يهدأ بال زوجة السلطان حتى أغرت زوجها على قتل هذا الوزير وارجاع رستم باشا مكافأة له على تنفيذ سيء أغراضها

و بعد قتل هذا البرىء توجهت الجيوش الى بلاد العجم ولم يحصل فى هذه المرة وقائع مهمة بل بعد ان غزت الجيوش العثمانية بلاد شروان بدون فائدة تذكر مال الفريقان للصلح فتم بينهما فى ٨ رجب سنة ٩٦٢ الموافق ٢٩ مايو سنة ١٥٥٥ على أن يباح للاعاجم الحج الى بيت الله الحرام و يزاولوا مذهبهم بدون تعرض وكان للسلطان سليمان ابن آخر اسمه ( جهانكير ) حزن حزنا شديداً على قتل أخيه مصطفى حتى توفى شهيد المحبة الاخوية بعد موت أخيه بقليل واختلف فى موته فقيل انه قتل نفسه أمام والده بعد أن بكته على قتل أخيه وقيل غير ذلك

و بعد ذلك بقليل توفيت هذه المرأة التى سودت بدسائسها آخر سنى حكم السلطان سليمان الذى اشتهر قبل ذلك بكل الكمالات

ولم تكن هذه الحادثة خاتمة الفظائع بل أعقبها بقتل ابنه الثانى بايزيد وأولاده الخمس وذلك ان مربى بايزيد المدعو ( لاله مصطفى ) عين ناظر خاصة سليم سلطان ولكون هذا الامير كان يخشى مزاحمة أخيه بايزيد له فى الملك بعد موت أبيهما كاشف لاله مصطفى بأنه يريد ايغار صدر ابيه على بايزيد ليقتله ويكون هو ( سليم ) الوارث الوحيد لملك آل عثمان فأخذ مصطفى يبحث عن الطريقة الموصلة لهذه الغاية المشؤمة حتى هداه شيطان عقله وابليس سريرته الى أن يكتب لبايزيد يقول له ان سليما منهمك فى الشهوات ولا يليق أن يخلف والده ومع ذلك فوالده مصمم على استخلافه مع عدم أهليته للملك وعدم استعداده للخلافة فتبادلت بينهما المكاتبات بشان ذلك وأخيراً كتب بايزيد الى أخيه سليم خطابا به بعض عبارات تمس كرامة والدهما فارسل سليم الخطاب لابيه ولما اطلع السلطان سليمان على هذا الخطاب غضب غضباً شديداً وكتب لبايزيد يوبخه على ما أتاه ويامره بالانتقال من قونيه التى كان معيناً والياً عليها الى مدينة اماسيه فخشى بايزيد أن يكون قصد أبيه الغدر به وامتنع عن التوجه الى اماسيه وجمع جيشاً يبلغ عدده عشرين ألف نسمة وأظهر التمرد فارسل اليه أبوه الوزير محمد باشا الملقب بصقللى لمحاربته فتقابل الجيشان بقرب قونيه واستمرّ القتال يومى ٣٠ و ٣١ مايو سنة ١٥٦١ وأخيراً هزم بايزيد وتقهقر الى اماسيه ومنها الى بلاد العجم حيث التجأ هو وأولاده الى الشاه طهماسب فقابله وأظهر له الاخلاص والاستعداد لحمايته لكنه كاتب السلطان سليمان وابنه سليما سرّا على تسليم بايزيد وأولاده اليهما مع انهم احتموا بحماه ولم يرع ذمتهم بل خانهم وسلمهم الى رسل السلطان فقتلوهم جميعا وهم بايزيد وأولاده الاربع أورخان ومحمود وعبدالله وعثمان فى مدينة قزوين ببلاد العجم فى ١٥ محرم سنة ٩٦٩ الموافق ٢٥ سبتمبر سنة ١٥٦١ ونقلت جثثهم الى مدينة سيواس حيث واروها الثرى وكان لبايزيد ابن صغير فى مدينة بورصة فخنق أيضا ودفن فى جانب والده واخوته

هذا أما من جهة المجر فلم تنقطع الحروب بينها وبين الدولة العلية وكذلك المخابرات كانت غير منقطعة للوصول الى الصلح ولا حاجة لنا فى تفصيل الوقائع التى حصلت بين الجيشين لعدم وجود فائدة فى ذلك سوى ملال المطالع بل نكتفى بالقول انه فى سنة ١٥٥٥ حصلت هدنة بين الطرفين لستة أشهر ومثلها فى سنة ١٥٥٧ و فى شهر يونيه سنة ١٥٦٢ تم الصلح بينهما لمدة ثمانية سنوات بشرط استمرار النمسا على دفع الجزية السنوية التى قررتها المعاهدات السابقة وساعد على ذلك حب سميز على باشا الذى أخلف رستم باشا بعد موته فى منصب الصدارة العظمى للسلم وعدم ميله لسفك الدماء

ومع ذلك فلم تنقطع المناوشات بالمرة على حدود النمسا والمجر بل استمرت بنوع غير رسمى و بعد هذا الصلح الاوهى من بيت العنكبوت لما بين العنصرين المتجاورين من عوامل البغضاء تمكن السلطان من توجيه اهتمامه الى تعزيز سفنه الحربية لحماية الجزائر وطرابلس الغرب التى افتتحها طرغول فى غضون سنة ١٥٥١ الموافقة سنة ٩٥٨ لبعدها عن مقر الخلافة

العظمى وطموح أنظار اسبانيا الى ارجاعها اذ أن محتلها يكون دائما مهدداً لسواحل اسبانيا ونابولى التى كانت تابعة لاسبانيا فى هذا الحين

حصار جزيرة مالطه

فعززت الدونانمات العثمانية وفى أوائل سنة ١٥٦٥ أرسلت عمارة بحرية مؤلفة من نحو مائتى سفينة لفتح جزيرة مالطه مقر رهبنة القديس حنا الاورشليمى لاهمية هذه الجزيرة الواقعة بين اقاليم تونس وجنوب ايطاليا وضرورة احتلالها لكل دولة تريد أن تكون لها اليد الطولى على البحر الابيض المتوسط فابتدىء حصارها فى شهر مايو من السنة المذكورة واستمر نحو الاربعة شهور بدون أن يكون موت القبودان الشهير طرغول المعروف عند الافرنج باسم دراجوت فى أثناء الحصار سبباً فى عدم استمراره ولماقرب فصل الشتاء الذى تكثر فيه الزوابع البحرية رفع الحصار عنها فى ١١ سبتمبر سنة ١٥٦٥ وعادت السفن بجيوشها الى دار السعادة

فتح مدينة سكدوار

وفى أثناء ذلك قامت الحرب على قدم ببلاد المجر لان مكسمليان (١) الذى خلف والده فرديناند ملك النمسا بعد موته سنة ١٥٦٤ احتل مدينة توكاى (٢) من أعمال المجر مقابلة احتلال اسطفن زابولى ملك المجر لاحدى مدائنه ولان الصدر الاعظم الطويل محمد باشا الذى تولى منصب الصدارة عقب موت سميز على باشا كان محباً للحرب لانه من صقالبة البشناق الميالين للقتال والجلاد

ومع ان السلطان كان يتألم من داء النقرس تقلد بنفسه رياسة الجيش فى تاسع شوال سنة ٩٧٣ الموافق ٢٩ ابريل سنة ١٥٦٦م وسار لصد هجمات النمسا عن بلاد المجر التابعة له سيادة وعندما وصل اليها قابله ملكها الشاب اسطفن فاحسن اليه وأكرم مثواه ووعده انه لن يبرح حتى يعيد له ما اغتيل من بلاده ثم قام بصحبته قاصداً قلعة (ارلو) الشهيرة التى عجز عن فتحها قبل ذلك التاريخ باربع عشرة سنة كما سبق ذكره لكن بلغه فى أثناء الطريق ان أمير سكدوار (٣) تغلب على فرقة من جيوشه فاراد أن يغزو بلاده قبل محاصرة قلعة (ارلو) فسار الى مدينة سكدوار وابتدأ فى حصارها وفى أقل من أسبوعين احتل معاقلها الامامية وبعد ذلك أخلى المحصورون المدينة خفية واحتموا بقلعتها مصرين على الدفاع عنها لآخر رمق

موت السلطان سليمان

وفى أوائل شهر سبتمبر اشتد مرض السلطان وتوفى فى ٢٠ صفر سنة ٩٧٤ الموافق ٥ سبتمبر سنة ١٥٦٦ عن أربع وسبعين سنة قمرية أى بعد حصار المدينة بنحو خمسة شهور وكانت مدة ملكه ثمانية واربعين سنة قضاها فى توسيع نطاق الدولة واعلاء شانها حتى بلغت فى ايامه أعلى درجات الكمال واخفى الوزير خبر موته خوفا من وقوع الفشل فى

(١) هو مكسمليان الثانى ابن فرديناند الاول ولد سنة ١٥٢٧ وأخلف والده سنة ١٥٦٨ وتوفي سنة ١٥٧٦ ولم يحصل في أيامه شيء يذكر سوى محارباته مع الدولة العلية المفصلة في هذا الكتاب

(٢) مدينة صغيرة ببلاد المجر شهيرة بما يعصر فيها من النبيذ الذى يصدر منها الي جميع جهات الدنيا

(٣) مدينة ببلاد المجر تسمي (زيجت) وذكرت في تاريخ القرماني باسم سكدوار

المعسكر وأرسل لولده سليم بمدينة كوتاهيه يخبره بذلك و يطلب منه الحضور على جناح السرعة الى الاستانة منعاً للقلاقل وفي يوم ٨ سبتمبر هجم العثمانيون على القلعة واحتلوها عنوة وفي انتهاء القتال حصلت فرقعة عظيمة انفجرت بسببها أرض القلعة وانهدم بناؤها على من بها من طرفي المتحاربين وذلك أن المحصورين لما رأوا ان لا مناص لهم من الانهزام أو الموت دبروا هذه المكيدة باعمال عدّة ألغام أشعلوها بعد احتلال العثمانيين اياها حتى يموتوا ويهلك كافة من دخلها من جنود العثمانيين وأعلن الوزير هذا الانتصار لكافة الجهات باسم المالك حرصاً على عدم اذاعة موته الذي لم يذعه الا بعد ان أتت اليه أخبار أكيدة من الاستانة بوصول ولده سليم اليها واستلامه مهام الاعمال بها

واشتهر المرحوم السلطان سليمان بالقانوني لما وضعه من النظامات الداخلية في كافة فروع الحكومة فادخل بعض تغييرات في نظام العلماء والمدرّسين الذي وضعه السلطان محمد الفاتح وجعل أكبر الوظائف العلمية وظيفة المفتي وقسم جيش الانكشارية الى ثلاث فرق بحسب سني خدمتهم وجعل مرتب كل نفر من الفرقة الأولى من ثلاثة غروش الى سبعة غروش يومياً والثانية من ثمانية غروش الى تسعة غروش يومياً للنفر الواحد وفي الثالثة المؤلفة ممن أصيبوا بعاهات دائمية جعل مرتب النفر منهم ثلاثين غرشاً الى مائة وعشرين غرشاً شهرياً وكان عدد الجيش عند وفاته ثلاثمائة ألف منها خمسون ألفاً من الجيوش المنتظمة والباقية غير منتظمة وعدد المدافع ثلاثمائة والسفن الحربية ثلاثمائة أيضاً

اسباب الانحطاط

وتقدّمت الفتوحات في أيامه تقدّماً عظيماً لم تصل اليه بعده و بلغت الدولة أوج سعادتها وأخذت بعده في الوقوف تارة والتقهقر اخرى حتى وصلت الى الحالة التي عليها الآن لجملة أسباب منها زيادة الثروة بسبب الفتوحات العديدة والغنائم الكثيرة ولا يخفى ان الثروة تورث غالباً المفاخرة في المصرف والتغالي في الزهو والترف وكل أمة سادت فيها هذه الخصال لا بدّ لها من التأخر ومنها ان الانكشارية كانوا لا يخرجون الى الحرب الا اذا كان السلطان معهم ولذا كانت أتم الحروب والغزوات تحت امرة السلطان وقيادته لانه ان لم يخرج بنفسه لما حاربت الانكشارية التي عليها المدار الاوّل في الحروب فغير السلطان سليمان هذه السنة الحميدة وأجاز للانكشارية القتال تحت أمرة قائدهم الاكبر ولو لم يكن السلطان موجوداً فكان هذا التغيير سبباً في تقاعس أغلب من خلفه من السلاطين عن الخروج من قصورهم الباذخة وتفضيلهم البقاء بين غلمانهم وجواريهم المختلفات الاجناس على الخروج للقتال وتكبد مشاقه ومنها ان كافة أمور الدولة المهمة كانت تنظر في ديوان الوزراء تحت رئاسة السلطان فابطل السلطان سليمان هذه العادة وصار الديوان ينعقد تحت رئاسة أكبر الوزراء وهو الصدر الاعظم والسلطان لاه عن ذلك معرض لدسائس الوزراء ومن يستعينون بهم من جواريه وأزواجه وترتب على ذلك ان صارت الامور بيد الوزراء المغايرين للجنس العثماني أصلاً ونسباً اذ ان أغلبهم ممن أسلم أو تظاهر

بالاسلام من النصارى أو من غلمان وخدم السلاطين ونتيجة ذلك واضحة كما ظهر للقارىء عند مطالعة أسباب قتل مصطفى بن السلطان سليمان بناء على دسائس زوجته والوزير رستم باشا ومنها الاباحة للانكشارية بالتزوّج والاقامة خارج ثكناتهم مع اعطائهم بعض امتيازات وقبول الاخلاط ضمن زمرتهم مما جعلها من أكبر موجبات تاخر الدولة بعد ان كانت من أعظم عوامل تقدمها الى غير ذلك من الاسباب التى سنوردها تباعاً بحسب مقتضيات الاحوال

## « السلطان الغازى سليم خان الثانى »

ولد السلطان سليم الثانى فى ٦ رجب سنة ٩٣٠ هجرية الموافق ١٠ مايو سنة ١٥٣٣م وهو ابن روكسلان الروسية سابقة الذكر وتولى الملك بعد موت أبيه ووصل الى القسطنطينية فى ٩ ربيع أول سنة ٩٧٤ الموافق ٢٤ دسمبر سنة ١٥٦٦ م وبعد ان مكث بها يومين سار على عجل الى مدينة سكدوار للاحتفال بارجاع جثة والده المرحوم الى القسطنطينية فقابله خارج المدينة سفراء فرانسا والبندقية القادمين لتهنئته بالملك ولما وصل مدينة صوفيا فى ١٦ كتوبر أرسل الرسل الى كافة الممالك الخارجية والولايات الداخلية يخبرهم بموت أبيه وتوليته على عرش آل عثمان ومنها قصد مدينة بلغراد ومكث فيها حتى أتى الوزير محمد باشا صقللى بجثة والده المرحوم وذلك ان الوزير محمد باشا لم يعلن بوفاة السلطان سليمان الا فى أثناء عودته من مدينة سكدوار الى بلغراد بل أوهم الجند ان السلطان مريض ولا يمكن لاحد مقابلته ولما أعلن موته الى الجنود بعد موته بنحو خمسين يوماً لبست الجيوش عليه الحداد وساروا الى بلغراد حيث كان سليم الثانى فى انتظارهم فطلبت الجنود منه أن يوزع عليهم العطايا المعتادة فابى ثم أذعن لطلباتهم لاظهارهم العصيان والتمرد وعدم اطاعتهم أوامر ضباطهم وامتهانهم لهم بحضور السلطان

ولم يكن السلطان متصفاً بما يؤهله للقيام بحفظ فتوحات أبيه فضلا عن اضافة شىء اليها ولولا وجود الوزير الطويل محمد باشا صقللى المدرب على الاعمال الحربية والسياسية للحق الدولة الفشل لكن حسن سياسة هذا الوزير وعظم اسم الدولة ومهابتها فى قلوب أعدائها حفظتها من السقوط مرة واحدة فتم الصلح بينها وبين النمسا بمعاهدة تاريخها ١٧ فبراير سنة ١٥٦٨ من شروطها حفظ النمسا أملاكها فى بلاد المجر ودفعها الجزية السنوية المقررة بالعهود السابقة واعترافها بتبعية أمراء ترانسلفانيا والفلاخ والبغدان الى الدولة العلية وتجددت أيضاً الهدنة مع ملك بولونيا باعتراف الباب العالى بالتحالف الذى حصل ما بين ملك بولونيا وأمير البغدان وكذلك جددت مع شارل التاسع (١) ملك فرنسا فى سنة

(١) هو ثاني أولاد هنرى الثاني وكاترين دى مديسي ولد سنة ١٥٥٠ وتولي سنة ١٥٦٠ بعد موت أخيه فرانسوا الثاني ولعدم بلوغه سن الرشد عينت والدته وصية عليه وفي أيامه استمرت الحروب الداخلية بين

١٥٦٩ الاتفاقيات التى تمت بين الدولتين فى عصر السلطان سليمان وأيد السلطان سليم الامتيازات القنصلية وزاد عليها امتيازات أخرى أهمها معافاة كل فرنساوى من دفع الخراج الشخصى وأن يكون للقناصل الحق فى البحث عمن يكون عند العثمانيين من الفرنساويين فى حالة الرق واطلاق سراحهم والبحث عمن أخذهم وباعهم بصفة رقيق لمجازاته وان يردّ السلطان كافة الاشياء التى تأخذها قرصانات البحر من المراكب الفرنساوية ومعاقبة الآخذ لها وأن تكون المراكب العثمانية ملزمة بمساعدة ما يرتطم من السفن الفرنساوية على شواطىء الدولة ويحفظ ما بها من الرجال والمتاع وأن يكون لفرنسا كل الامتيازات الممنوحة لجمهورية البنادقة

ولزيادة توثيق عرى الاتحاد بين الدولة وفرنسا وزيادة نفوذ اتحادهما اتفقت الدولتان على ترشيح ( هنرى دى فالوا ) أخى ملك فرنسا لعرش بولونيا ليكون لهم ظهيراً ضدّ النمسا من جهة والروسيا من أخرى وقدتم ذلك فعلا وصارت بولونيا تحت حماية الدولة العلية حماية فعلية وان لم تكن اسمية وبذلك صارت فرنسا ملكة التجارة فى البحر الابيض المتوسط وجميع البلاد التابعة للدولة وأرسلت تحت ظل هذه المعاهدات عدّة ارساليات دينية كاثوليكية الى كافة بلاد الدولة الموجود بها مسيحيون خصوصاً فى بلاد الشام لتعليم أولادهم وتربيتهم على محبة فرنسا وكانت هذه الامتيازات الموجبة لضعف الدولة بسبب تداخل القناصل فى الاجراآت الداخلية بدعوى رفع المظالم عن المسيحيين واتخاذها لها سبيلا لامتداد نفوذها بين رعايا الدولة المسيحيين واهم نتائج هذا التداخل وأضرّه مآلا وأوخمه عاقبة استعمال هذه الارساليات الدينية فى حفظ جنسية ولغة كل شعب مسيحى حتى اذا ضعفت الدولة أمكن هذه الشعوب الاستقلال بمساعدة الدول المسيحية أو الانضمام الى احدى هاته الدول كما شوهد ذلك فى هذا القرن الاخير مما سيأتى مفصلا بالشرح الكافى والبيان الوافى

ومن أعمال الوزير محمد باشا صقللى أن أرسل جيشاً عظيما الى بلاد اليمن فى سنة ٩٧٦ الموافقة سنة ١٥٦٩ م تحت قيادة عثمان باشا الذى عين عاملا عليها لقمع ثورة أهاليها الذين عصوا الدولة اتباعا لامر سلطانهم الشريف مطهر بن شرف الدين يحيي فانتصر عثمان باشا عليهم بمساعدة سنان باشا والى مصر ودخلت الجيوش المظفرة بمدينة صنعاء بعد ان فتحت جميع القلاع

فتح جزيرة قبرص

وفى أوائل السنة التالية اعترف الشريف مطهر بسيادة الباب العالى على بلاده ومن

---

الكاتوليك والبروتستانت الي ان تم بينهما الصلح سنة ١٥٧٣ واتفق الفريقان على أن يزوج الملك أخته لملك ( نافر ) الذى صار فيما بعد ملكا لفرنسا باسم هنرى الرابع أحد زعماء البروتستانت لكن لم ترتح والدته كاترينه لهذا الزواج بل دبرت مذبحة سان برتلمي وأثرت علي فكر ولدها فأمر بقتل جميع البروتستانت في كافة أنحاء المملكة وفي مدينة باريس أثناء الاحتفال بزواج أخته ونفذ هذا الامر الوخيم في مساء ٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢ وتولى هذا الملك بعد ذلك بسنتين أى سنة ١٥٧٤

أعماله أيضاً فتح جزيرة قبرص (١) التى كانت تابعة للبندقية فأرسلت اليها المراكب الحربية فى سنة ٩٧٨ الموافقة سنة ١٥٧٠ تحت أمرة بيالى باشا تحمل مائة ألف جندى يقودها لاله مصطفى باشا الذى كانت له اليد الطولى فى عصيان وقتل بايزيد أخى السلطان سليم فرست السفن أمام مدينة ليمازون (لفقوسه كذا ذكرها القرمانى) فى أوّل أغسطس وفتحت فى ربيع الآخر سنة ٨٧٨ الموافق ٩ سبتمبر سنة ١٥٧٠ ثم وضع الحصار أمام مدينة فماجوست (ماغوسه كذا ذكرها القرمانى) ولاقتراب فصل الشتاء أمهل فتحها الى أوائل الربيع وابتدئت أعمال الحصار ثانياً فى ابريل سنة ١٥٧١ وفتحت فى ١٠ ربيع الاوّل سنة ٩٧٩ الموافق ٢ أغسطس من السنة المذكورة وبذلك تم فتح جزيرة قبرص وصارت من ذلك العهد تابعة للدولة العثمانية الى ان احتلها الانكليز بكيفية غريبة سنة ١٨٧٨ كما ترى فى أواخر هذا الكتاب

واقعة ليبانت البحرية

وفى هذه الاثناء غزت المراكب العثمانية جزيرة كريد وطنته (٢) وغيرها بدون ان تفتحها واحتلت مدائن دلسنيو وانتيبارى (٣) على البحر الادرياتيكى ولما رأت البندقية تغلب العثمانيين عليها وفتح كثير من بلادها استعانت باسبانيا والبابا وتم بينهم الاتفاق على محاربة الدولة بحراً خوفا من امتداد سلطتها على بلاد ايطاليا فجمعوا مراكبهم وجعلوا دون جوان (٤) ابن شارلكان سفاحا من احدى خليلاته أميراً عليها فسارت سفن المسيحيين الى شواطىء الدولة وكانت تلك الدونانمة المختلطة مؤلفة من ٧٠ سفينة اسبانيولية و ١٤٠ من سفن البنادقة و ١٢ للبابا و ٩ من سفن رهبنة مالطه

وقابلت هذه الدونانمة العمارة العثمانية مؤلفة من ٣٠٠ سفينة فى ١٧ جمادى الاولى سنة ٩٧٩ (٧ اكتوبر سنة ١٥٧١) بالقرب من ليبنته واشتبك بينهم القتال مدّة ثلاث ساعات متوالية انتهى الامر بعدها بانتصار الدونانمة المسيحية فأخذت ١٣٠ سفينة

---

(١) قبرص جزيرة صغيرة مهمة بالنسبة لمركزها الجغرافي بالقرب من سواحل الشام ومصر واحتلالها ضرورى لمن يريد بقاء هاتين الولايتين في حوزته ومع ضرورتها للدولة العلية سلمتها لانكلتره بمقتضي معاهدة بتاريخ ٤ يونيه سنة ١٨٧٨ حينما كان الروس يحتلين ضواحي الاستانة وتعهدت بالخروج منها لو خرجت الروسيا من مدائن قارص وباطوم واردهان التى فتحتها أثناء الحرب الروسية التركية الاخيرة وامتلكتها بمقتضي معاهدة برلين

(٢) احدى جزائر الروم الكائنة غرب اليونان ولا تبعد عن ساحل موره الا بعشرين كيلومترو وهي جيدة الهواء تنتج كافة أنواع الفواكه ويصنع بها الزيت والنبيذ ويبلغ عدد سكانها خمسين ألف نسمة وتكثر بها الزلازل الشديدة

(٣) هما بلدتان باقليم الجبل الاسود ثانيتهما علي البحر الادرياتيكى وأضيفتا الي امارة الجبل بمقتضي معاهدة برلين الرقيمة ١٣ يوليو سنة ١٨٧٨

(٤) ولد هذا الامير من سفاح شارلكان بمدينة راتسبون سنة ١٥٤٥ وبعد موت أبيه أراد فليب الثانى ادخاله ضمن احدى الرهبنات ولما لم يقبل عينه قائدا في جيشه وفي سنة ١٥٧٠ كلفه باذلال من بقي من المسلمين باقليم غرناطة فأذاقهم أنواع الذل والعذاب حتي هاجروا الي أفريقيا ولم يبق منهم أحد وفي سنة ١٥٧٦ كلفه بمحاربة أهالي الفلمنك فقهرهم في سنة ١٥٧٨ وتوفي بعد ذلك ببضع أشهر

عثمانية وأحرقت وأغرقت ٩٤ وغنمت ٣٠٠ مدفعا و ٣٠ ألف أسيراً وهذه أول واقعة حصلت بين الدولة من جهة وأكثر من دولتين مسيحيتين من جهة أخرى واشتراك البابا فيها يدل على ان المحرك لهذه التألبات ضد الدولة الاسلامية الوحيدة هو الدين كما أيدته الحوادث والحروب فيما بعد لا السياسة كما يدعون

وكان لهذا الفوز رنة فرح فى قلوب المسيحيين أجمع حتى ان البابا خطب فى كنيسة مارى بطرس برومه وشكر دون جوان على انتصاره على السفن الاسلامية وذلك مما لا يجعل عند المطالع أقل ريبة أو شك فى ان المسئلة الشرقية مسئلة دينية لا سياسية كما ادعاه ويدعيه الاوروبيون ويغتر به السذج الغير المطلعين

ولما وصل خبر هذه الحادثة الى الاستانة هاج المسلمون على المسيحيين وهموا بقتل المرسلين الكاثوليك لولا تدارك الوزير محمد باشا صقللى الامر بان حجز هؤلاء المرسلين تحت الحفظ حتى تعود السكينة الى ربوعها وقد أخرجهم بناء على الحاح سفير فرنسا ولم تقعد هذه الحادثة المشؤمة همة هذا الوزير بل انتهز فرصة الشتاء وعدم امكان استمرار الحرب لتشييد دونانمة أخرى وبذل النفس والنفيس فى تجهيزها وتسليحها حتى اذا أقبل صيف سنة ١٥٧٢ كان قد تم استعداد ٢٥٠ سفينة جديدة وفى هذه السنة لم تحصل وقائع بحرية مهمة لوقوع الشقاق بين القبودان البندقى والقبودان الاسبانيولى حتى ان جمهورية البندقية سعت فى التقرب الى الدولة العلية فعرضت عليها الصلح واستمرت بينهم المخابرات مدة وفى ٣ ذى القعدة سنة ٩٨٠ الموافق ٧ مارث سنة ١٥٧٣ تم الصلح على أن تتنازل البندقية للدولة عن جزيرة قبرص وأن تدفع لها غرامة حربية قدرها ٣٠٠ ألف دوكا

أما من جهة اسبانيا فقد قصد دون جوان مدينة تونس فى أواخر سنة ١٥٧٢ واحتلها بدون مقاومة لارتحال من كان بها من العثمانيين عند قدوم السفن الاسبانيولية وتحققهم من أن الدفاع لا يجدى نفعاً لقلة عددهم بالنسبة للاسبانيول فاحتلها دون جوان وأعاد اليها سلطانها مولاى حسن الذى التجا اليهم عند احتلال العثمانيين لبلاده لكن لم يلبث الا نحو ٨ أشهر لاسترجاعها ثانية الى أملاك الدولة بمعرفة سنان باشا فى أغسطس سنه ١٥٧٥ وفى جهة بلاد البغدان انتصر العثمانيون بعد موقعة هائلة أهرقت فيها الدماء كالسيول المنهمرة فى ٩ يونيو سنة ١٥٧٤ على الامير ( ايوونيا ) الذى تمرد على الدولة طلباً للاستقلال وصلب جزاء عصيانه وعبرة لغيره

وفى ٢٧ شعبان سنة ٩٨٢ الموافق ١٢ دسمبر سنة ١٥٧٤ توفى السلطان سليم الثانى وعمره أثنين وخمسون سنة قمرية ومدة حكمه ثمانية سنين و ٥ أشهر وتوفى عن ستة أولاد وهم مراد ومحمد وسليمان ومصطفى وجهانكير وعبد الله وثلاثة بنات تولى بعده ابنه السلطان مراد الثالث

ولد هذا السلطان بالقسطنطينية فى ٥ جمادى الاولى سنة ٩٥٣ هـ الموافق ٤ يوليه سنة ١٥٤٦ وكانت فاتحة أعماله أن أصدر أمراً بعدم شرب الخمر الذى شاع استعماله أيام السلطان السابق وأفرط فيه الجنود خصوصا الانكشارية فثار الانكشارية لذلك واضطروه لاباحته لهم بمقدار لا يترتب منه ذهول العقل وتكدير الراحة العمومية وأمر بقتل اخوته وكانوا خمسة ليأمن على الملك من المنازعة اذ صار قتل الاخوة عادة تقريبا

وضع الحماية على بولونيا

وفى أوائل سنة ١٥٧٥ ترك (هنرى دى فالوا) ملك بولونيا مقرّ حكومته عائداً لفرانسا ولما بلغ الباب العالى خبر سفره أوصى أشراف بولونيا بانتخاب (باتورى) أمير ترنسلفانيا التابع للدولة العلية ملكا عليهم فانتخبوه فى أواخر السنة المذكورة وبذلك صارت بولونيا نفسها تحت حمايتها

هذا وحصلت على حدود النمسا عدّة مناوشات سال فيها الدماء بين الطرفين بدون اشهار حرب وفى أواخر سنة ١٥٧٦ أمضيت هدنة سلم بين الباب العالى والامبراطور (رودلف) (١) الذى أخلف (مكسمليان الثانى) لمدّة ثمانى سنوات تبتدىء من أوّل يناير سنة ١٥٧٧ وعند بيان أملاك الدولة العلية بهذه المعاهدة ذكرت بولونيا ضمن الاقاليم التى للدولة حق السيادة عليها ومما يؤيد أن مملكة بولونيا كانت تحت حمايتها استنجاد (باتورى) بها ضدّ اغارات التتار على حدوده الشرقية وتعهد الباب العالى بحمايتها بمعاهدة رسمية تاريخها ٣٠ يوليو سنة ١٥٧٧

وكانت علاقات هذا السلطان مع فرانسا حسنة جداً وكذلك مع جمهورية البندقية فجدد لهما الامتيازات القنصلية والتجارية مع زيادة بعض بنود فى صالحهما أهمها أن يكون سفير فرانسا مقدّما على كافة سفراء الدول الاخرى فى المقابلات والاحتفالات الرسمية حيث كثر توارد السفراء على بابه العالى للسعى فى ابرام معاهدات تجارية تكون ذريعة فى المستقبل للتداخل الفعلى وفى أيامه تحصلت إزابلا ملكة الانكليز على امتياز خصوصى لتجار بلادها وهى ان مراكبها تحمل العلم الانكليزى وكان لايجوز لها ذلك قبلا بل كانت السفن على اختلاف أجناسها ماعدا سفن البندقية لاتدخل الى مين الدولة العلية الا تحت ظل العلم الفرنساوى ليس الا كما قضت بذلك العهود التى أبرمت مع السلطان سليمان وابنه السلطان سليم الثانى وتجدّدت فى أوائل حكم هذا السلطان

وفى سنة ١٥٧٨ حصلت فتنة داخلية فى مملكة مراكش بالمغرب الاقصى ونازع زعيمها

(١) هو ابن مكسمليان ولد في مدينة ويانة سنة ١٥٥٢ وتعين ملكا لبلاد المجر سنة ١٥٧٦ ثم ملكا للنمسا ثم انتخب امبراطورا لالمانيا سنة ١٥٧٦ وكان ضعيفا مشتغلا بالكيميا والفلك قهره الترك أكثر من مرة وفي سنة ١٦١١ عزله أخوه ماتياس الذى أنتخب امبراطورا بعده وتوفي رودلف سنة ١٦١٢

السلطان فى الملك وحصلت بينهما عدّة وقائع مهمة وأخيراً استنجد سلطانها بالعثمانيين واستعان مدّعى الملك بالبرتغاليين فاوعزت الدولة أو بالحرى محمد باشا صقللى لوالى طرابلس بانجاد سلطانها الشرعى فأسرع بمساعدته والتقى الترك والبرتغال بالقرب من محل يقال له القصر الكبير وكان يوماً مشهوداً دارت فيه الدائرة على البرتغال وقتل فيه رئيس الثائرين المستنجد بهم وبعد تمام النصر واعادة الامن والسكينة الى ربوع مراكش عادت الجيوش العثمانية حاملة ما أغدق اليها من الهدايا وبذلك دخلت مملكة مراكش ضمن دائرة نفوذ الدولة وصار شمال أفريقيا باجمعه تابعاً لها تماماً أو خاضعاً لنفوذها ولم يبق لها فى عصرنا هذا الا ولاية طرابلس والسيادة الاسمية على مصر واستولت فرانسا على تونس والجزائر وصارت مراكش ميدان مسابقة لدسائس الاجانب تسعى كل دولة فى ازدياد نفوذها بها وبعبارة أخرى لابتلاعها فلاحول ولا قوّة الا بالله

وفى هذه السنة ابتدأت المخابرات بين الدولة واسبانيا للوصول الى الصلح وبعد ان استمرت نحو خمس سنين تم الصلح بينهما لكن لم يمنع ذلك القراصين من الطرفين على نهب السفن التجارية وسبي واسترقاق من بها من النساء والرجال حتى كان يستعدّ للسفر فى البحر الابيض المتوسط كما يستعدّ لرحلة جربية لعدم وجود الامن وكثرة القراصين بما لم يسبق له مثيل لان كلاً من الطرفين كان يعتبر غزو سفن الطرف الآخر من الواجبات الدينية والقربات المشروعة

محاربة العجم ودخول العثمانيين مدينة تبريز رابع دفعة

هذا وأهمّ ما حصل فى أيام السلطان مراد الثالث محاربة بلاد العجم بناء على ايعاز الصدر الاعظم محمد باشا صقللى وانتهاز فرصة الاضطرابات الداخلية بها وذلك انه لما توفى الشاه طهماسب سنة ٩٨٤ هـ الموافقة سنة ١٥٧٦ م تولى بعده ابنه حيدر وقتل بعد بضع ساعات قبل دفن أبيه ودفنا معاً ثم تولى بعده اسمعيل بن طهماسب وتوفى مسموماً سنة ٩٨٥ وأخلفه أخوه محمد خدابنده وكانت البلاد منقسمة عليه فارسلت الجيوش السلطانية لمحاربته وفتح ماتيسر من بلاده وجعل لاله مصطفى باشا قائداً لها فسار بجيوشه قاصداً اقليم الكرج(١) من بلاد الجركس فى أواخر سنة ١٥٧٧ م وكانت تابعة الى مملكة العجم وفتحها واحتل مدينة تفليس عاصمة الكرج بعد ان انتصر على جنود الشاه وتغلب على قائدهم المسمى دقماق بالقرب من حصن (جالدر) فى ٨ أغسطس سنة ١٥٧٨ وعين أمراء الكرج حكاماً (سناجق) من قبل الدولة وبعد أن قهر ثانياً جيوش العجم فى ٨ سبتمبر من السنة المذكورة عاد مصطفى باشا وجيوشه الى مدينة طرابزون لتمضية فصل الشتاء

(١) الكرج أو بلاد كرجستان اقليم واقع في جنوب جبال القوقاز ويحده غربا البحر الاسود وشرقا اقليم طاغستان وجنوباً بلاد أرمينيا وتغلبت عليها أيدى جميع الفاتحين بآسيا ففتحها العرب في خلافة مروان الثاني ثم قامت بها حكومة مستقلة ثم أغار عليها جنكيزخان وتيمور الاعرج واستولي عليها العثمانيون مدة وأخيرا ألحقت بمملكة الروس ولم تزل تابعة لها حتى الآن

الذى لا يمكن استمرار القتال فى غضونه لشدة البرد وتراكم الثلوج فى هذه الاصقاع وقسمت بلاد الكرج الى أربعة أقسام وهى شروان وتفليس وتكوّن القسمان الباقيان من بلاد الكرج الاصلية وحصنت مدينة قارص بكيفية جعلتها أمنع معاقل الدولة على الحدود وما فتئت كذلك حتى احتلها الروس سنة ١٨٧٧ وعين لكل منهاحا كم عام ( بكلربك ) وفى أواسط الشتاء أتت أربعة جيوش جرارة تحت أمرة الامير حمزة مرزا وهاجمت بلاد شروان من كل فج حتى اضطر حاكمها عثمان باشا الى اخلاء مدينة شروان والاحتماء بمدينة ( دربند ) وكذلك حاصر الاعجام مدينة تفليس نفسها ولم يقووا على استرجاعها لثبات حاميتها العثمانية حتى أتى اليها المدد ورفع عنها الحصار عنوة سنة ١٥٧٩ وفى غضون ذلك قتل الصدر الاعظم محمد باشا صقللى الذى حافظ على نفوذ الدولة بعد موت السلطان سليمان وتمكن بسياسته ودهائه من ابرام الصلح مع دول أوروبا المعادية لها وأنشأ عمارة بحرية بعد واقعة ( ليبانته ) وفتحت جزيرة قبرص بتعليماته وارشاداته وكوفىء على خدماته الجليلة بالقتل لا لذنب جناه أو جناية ارتكبها بل هى دسائس حاشية السلطان قضت عليه بالموت غدراً تبعاً لدسائس الاجانب الذين لا يروق فى أعينهم وجود مثل هذا الوزير يدير دولاب الاعمال على محور الاستقامة فدسوا اليه من قتله تخلصاً من صادق خدمته للدولة فكان موته ضربة شديدة ومحنة عظيمة لاسيما وقد كثر بعده تنصيب وعزل الصدور فعين أوّلا من يدعى أحمد باشا ثم عزل فى أغسطس سنة ١٥٨٠ وعين بعده سنان باشا أحد القوّاد المشهورين وأحد رؤساء الجيش المحارب فى بلاد الكرج وتولى قيادة هذا الجيش بعد موت قائده العام مصطفى الذى قيل أنه انتحر مسموماً لعدم حصوله على منصب الصدارة ولكنه عزل من منصبه بعد قليل ونفى الى خارج البلاد وتولى مكانه ( سياوس باشا ) المجرى الاصل فى الصدارة العظمى وفرهاد ( أوفرحات ) باشا أحد القوّاد العظام قائداً عاما للجيش المحارب فى الكرج ولم يأت هذا القائد باعمال تذكر لعدم انقياد الانكشارية وامتثالهم لاوامر رؤسائهم

أما عثمان باشا حاكم اقليم شروان فسار الى فتح بلاد ( طاغستان ) (١) على شاطىء بحر الخزر وبعد أن أتم فتحها عقب موقعة عظيمة انتصر فيها على الاعجام نصراً مبيناً فى ٩ مايو سنة ١٥٨٣ سار بطريق البر الى بلاد القرم مخترقا جبال ( قاف ) أو القوقاز وسهول روسيا الجنوبية لعزل خانها عقاباً له على امتناعه عن ارسال المدد الى الدولة العلية لمحاربة العجم فوصل اليها بعد أن عانى من المشقات أقصاها ومن الصعوبات منتهاها لوعورة الطريق ومناوشة الروس له الى مدينة ( كافا ) عاصمة الخان محمد كراى فجمع الخان جيشاً عظيماً

---

(١) طاغستان ومعناها البلاد الجبلية اقليم باسيا واقع شرقي بلاد كرجستان ومحصور بين بحر الخزر وجبال القوقاز كان تابع للعجم ثم تنازل عنه لحكومة الروسيا سنة ١٨١٦ أهم مدنه مدينة باكو الواقعة على بحر الخزر والشهيرة بمعادن زيت البترول وقد أنشأت منها حديثا طريق حديدية تصل الي ثغر باطوم على البحر الاسود مارة علي مدينة تفليس لتسهيل نقل البترول وتصديره الي جميع جهات الدنيا

من الفرسان القوزاق المشهود لهم بالبسالة والاقدام وحاصر عثمان باشا وجيوشه التى أضناها التعب وأنهكها السير ولولا عصيان أخيه اسلام كراى عليه لوعده بالامارة من قبل الدولة العلية وتفرّق جيوشه من حوله وقتله غدراً بدسيسة أخيه لانتصر على العثمانيين لكن خانه أخوه ودس اليه من قتله طمعاً فى الامارة سنة ١٥٨٤ وبعد ذلك رجع عثمان باشا الى الاستانة براً وقوبل بكل تكريم واعظام وبعد أيام قلائل عين صدراً أعظم بدل سياوس باشا المجرى وسرعسكر الجيش الكرج وكان تعيينه فى سنة ٩٩٢ ﻫ

فسار فى جيش عرمرم مؤلف من مائتين وستين ألف مقاتل قاصداً بلاد اذربيجان فاخترقها بدون كثير مقاومة ثم قصد مدينة تبريز عاصمة العجم فدخلها بعد ان انتصر على حمزة مرزا وترك فيها حامية قوية وبعد ان استمر الحرب سجالا بين الدولتين نحو ست سنوات توفى فى خلالها الصدر الاعظم عثمان باشا سرعسكر الجيش تم الصلح وأمضى بينهما فى ٢١ مارث سنة ١٥٨٥ على أن تتنازل العجم للدولة العثمانية عن اقليم الكرج وشروان ولورستان وجزء من أذربيجان ومدينة تبريز وتولى بعده خادم مسيح باشا صدراً أعظم سنة ٩٩٣ وفى السنة التالية أعيد سياوس باشا الى هذا المنصب الخطير وبذلك هدأت الاحوال وانقطعت الحروب على سائر حدود المملكة تقريباً

الا أن هذه السكينة لم تكن لترضى الانكشارية الذين كانوا يفضلون استمرار الحروب للنهب والسلب وارتكاب مالا خير فيه فكانت اذا انقطعت الحروب تمرّدوا وارتكبوا هذه القبائح فى بلاد الدولة المعسكرين بها بل وفى نفس الاستانة فلما بلغهم أن المخابرات سائرة بين الدولة والعجم للوصول الى الصلح ثاروا بالقسطنطينية وطلبوا تسليم الدفتردار ( ناظر المالية ) ومحمد باشا بكلر بك الروملى لقتلهما بدعوى أنهما أرادا أن يصرفا اليهم نقوداً ناقصة العيار وحاصروهما فى منزلهما الى أن قتلوهما شر قتلة ولم يقو السلطان على منعهم وتمرّدوا مرة أخرى سنة ١٥٩٣ فى الاستانة وأخرى فى مدينة بود وقتلوا واليها وفى القاهرة وفى تبريز مما يطول شرحه ووصلت بهم القحة الى آخرها ولذلك أشار سنان باشا الذى أعيد الى منصة الوزارة فى سنة ٩٩٧ باشغالهم بمحاربة بلاد المجر وأوعز الى حسن باشا والى بلاد البشناق ( بوسنه ) أن يجتاز حدود بلاد المجر إعلانا للحرب لكن هل يرجى نجاح أو فلاح حقيقى من جيوش بلغ عندها عدم النظام الدرجة القصوى حتى استطالت لقتل الولاة وعزل الحكام كلا ولو كان قائدها الاسكندر المقدونى أو ابراهيم باشا المصرى أو نابوليون الفرنساوى ( ورب معترض يعترض علينا فى تسمية ابراهيم باشا بالمصرى مع أنه لم يولد بها فنجاوبه أن ابراهيم باشا نشر الراية المصرية فى بلاد العرب والشام وجنوب الاناطول والسودان وانتصر بالمصريين لا بغيرهم ولم يكن ذلك منه الا لاعلاء شأن الوطن المصرى واستقلاله فى الداخل ونشر نفوذه فى الخارج ولذلك حق لنا أن نسميه المصرى بل المصرى الوحيد بعد والده محمد على باشا الكبير) ولنرجع الى ذكر حروب الدولة مع المجر فنقول

ان الحرب كانت تارة لاحد الفريقين وطوراً للآخر فقتل حسن باشا والى الهرسك وانهزم والى (بود) وفتحت جيوش النمسا التى انحازت الى المجر عدّة قلاع عثمانية ثم استردها سنان باشا الصدر الاعظم سنة ١٥٩٥ وفى هذا الموقع يجب علينا وعلى كل عثمانى التأسف والتحسر على عدم خروج السلطان بنفسه الى الحرب وتحجبه عن أعين جيوشه وعدم قيادتهم بذاته الشريفة الى ساحات النصر فلولا ذلك لكانت الغلبة دائماً لهم باذنه تعالى فقد عوّدهم عز وجل النصر على الاعداء فى زمن أجداده سليمان وسليم الاول ومن قبلهم لان وجود الخليفة الاعظم فى رأس جيوشه يبث فيهم روحا جديدة فيتحدون معه قلباً وقالباً ويسيرون معه الى النصر المبين والفوز العظيم وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ومما زاد أحوال المملكة ارتباكا اشهار الفلاخ والبغدان وترنسلفانيا العصيان بالاتحاد وتحالفهم مع رودلف الثانى ملك النمسا وامبراطور ألمانيا على محاربة الدولة والحصول على الاستقلال فسار اليهم الصدر الاعظم سنان باشا فى سنة ١٥٩٥ ودخل مدينة بوخارست عاصمة الفلاخ عنوة ثم انتصر عليه ( مخائيل ) أمير الفلاخ الملقب فى كتب الافرنج بالشجاع ودخل مدينة ( ترجوفتس ) وقتل حاميتها ورئيسها فاخذ العثمانيون فى الانسحاب والتقهقر خلف نهر الدانوب وتبعهم مخائيل الفلاخى وانتصر عليهم مرة ثانية بالقرب من مدينة (جورجيوا) عند عبورهم النهر وفتح المدينة وعدة مدائن أخرى أهمها مدينة ( نيكوبلى )

وفى هذه الاثناء ولى فرهاد باشا منصب الصدارة فى سنة ٩٩٩ ثم أعيد سياوس باشا ثالثاً اليها سنة ١٠٠٠ ثم أصيب السلطان بداء عياء وتوفى مساء ٨ جمادى الاولى سنة ١٠٠٣ الموافق ٢٠ يناير سنة ١٥٩٦ وله من العمر خمسون سنة وكانت مدة ملكه احدى وعشرين سنة تقريباً وكان شاعراً مجيداً فطناً لبيباً الا أنه كان كثير الميل لاقتناء الجوارى الحسان عاملا بمشورتهن وكان من ضمن حظياته جارية بندقية الاصل من عائلة شهيرة بها اسمها (بافو) سباها قراصين البحر وبيعت فى السراى السلطانية وسميت صفية اصطفاها السلطان لنفسه وتداخلت كثيراً فى السياسة الخارجية وساعدت بلادها الاصلية كثيراً وهى والدة السلطان محمد الثالث

## « السلطان الغازى محمد خان الثالث »

### ﴿ وفتح حصن ارلو وثورة جنود العلوفه جيه ﴾

ولد هذا السلطان فى ٧ ذى القعدة سنة ٩٧٤ هـ الموافق ١٦ مايو سنة ١٥٦٦ م وتولى بعد موت أبيه مراد الثالث ابن صفية الايطالية الاصل وكان له تسعة عشر أخا غير الاخوات فامر بخنقهم قبل دفن أبيه ودفنوا معاً تجاه أياصوفيا

وفى أوائل حكمه سار على أثر سلفه فى عدم الخروج الى الحرب وترك أمور الداخلية فى

أيدى وزرائه الذين منهم سنان باشا وجغالة زاده ( هو ابن القائد جغالة باشا الجنوى الاصل الذى قتل فى محاربة العجم الاخيرة وصحة اسمه سيكالا ثم حرّف فصار جغالة) وآخر يدعى حسن باشا فقسدوا فى الارض وباعوا المناصب الملكية والعسكرية وقللوا عيار العملة حتى علا الضجيج من جميع الجهات وتعاقب انهزام الجيوش العثمانية أمام مخائيل الفلاخى فضم لسلطانه بمساعدة الجيوش النمساوية اقليم البغدان وجزء عظيم من ترنسلفانيا لعدم وجود القوّاد الاكفاء لصدّهم

ومما يخلد للسلطان الغازى محمد الثالث الذكر ويجعله رصيفاً لاجداده الاوائل أنه لما تحقق أن هذا الانحلال ناشىء من تحجبه عن الاعمال وعدم قيادته الجيوش برز بنفسه وتقلد المركز الذى كان ترك مراد الثالث وسليم الثانى له من دواعى تقهقر الدولة أمام أعدائها ألا وهو مركز قيادة عموم الجيوش فسار الى بلغراد ومنها الى ميدان الحرب والنزال وبعد قليل دبت فى الجيوش الحمية الدينية والغيرة العسكرية ففتح قلعة ( ارلو) الحصينة التى عجز السلطان سليمان عن فتحها فى سنة ١٥٥٦ ودمر جيوش المجر والنمسا تدميراً فى سهل (كرزت) بالقرب من هذه القلعة فى ٢٦ اكتوبر سنة ١٥٩٦ حتى شبهت هذه الموقعة بواقعة ( موهاكز ) التى انتصر فيها السلطان سليمان سنة ١٥٢٦ وبعد هذه الموقعة استمر الحرب سجالا بدون أن تحصل بين الطرفين وقائع حاسمة

وفى ابتداء القرن السابع عشر للميلاد حصلت فى بلاد الاناطول ثورة داخلية كادت تكون وخيمة العاقبة على الدولة خصوصاً ونيران الحروب مستعر لهيبها على حدود المجر والنمسا وذلك ان فرقة من الجيوش المؤجرة ( ويسمونها بالتركية علوفه جى ) التى هى بالنسبه للانكشارية كنسبة الباشبوزق للجيوش المنتظمة لم تثبت فى واقعة (كرزت ) المتقدّم ذكرها بل ولت الادبار وركنت الى الفرار فنفيت الى ولايات آسيا وأطلق عليها اسم (فرارى) تحقيراً لهم وعبرة لغيرهم وهناك ادّعى أحد رؤسائهم واسمه (قره يازيجى) أنّ النبى صلى الله عليه وسلم جاءه مناماً ووعده بالنصر على آل عثمان وفتح ولايات آسيا فتبعه كثير عن هذه الفئة وشق عصا الطاعة وتغلب على والى القرمان ودخل مدينة (عين تاب) عنوة فارسلت اليه الجيوش وحاصرته فيها ولما رأى أن لا مناص له من التسليم أو الموت عرض على الوزير المحاصر له الطاعة للسلطان بشرط تعيينه والياً لاماسيا فقبل شرطه ورفع عنه الحصار لكن بمجرّد ابتعاد الجيوش عنه رفع راية العصيان ثانياً واتحد مع أخيه المسمى (دلى حسن) والى بغداد فاتبع وسوسة أخيه وكفر بنعمة الدولة وجاهر بعصيانها

فارسل صقللى حسن باشا مع جيش جرار لمحاربتهما وانتصر ولا على قره يازيجى والجأه الى الاحتماء بجبال جانق على البحر الاسود حيث توفى من الجراح التى أصابته فى الحرب تاركا أخاه للاخذ بثاره وفعلا فاز الدلى حسن على صقللى حسن باشا وقتله على أسوار مدينة (توقات) ثم هزم ولاة ديار بكر وحلب ودمشق وحاصر مدينة ( كوتاهيه) فى سنة ١٦٠١

واستفحل أمره حتى خيفت العاقبة ولما رأت الدولة تجسم هذه النازلة أخذت فى استعمال طرق السلم والتودّد فاجزلت اليه العطايا وأغدقت عليه الهبات ثم عرضت عليه ولاية بوسنه فقبل بعد تعللات كثيرة ووضع السلاح وأعلن باخلاصه للدولة العلية سنة ١٦٠٣ وسافر بجنوده ومن انضم اليها من أخلاط الاكراد وأوباش القرمان واستعمل قوّته لمحاربة الافرنج على حدود الدولة من جهة أوربا حتى هلكت جيوشه عن آخرها فى المناوشات المستمرة بينها وبين عساكر المجر والنمسا واستراحت الدولة من شرها

وأعقبت هذه الثورة العظيمة ثورة أخرى فى نفس الاستانة العلية كاد شرّها يتعدّى الى نفس الخليفة الاعظم وذلك أن جنود السباه أى الخيالة طلبوا من الدولة أن تعوّض عليهم ما فقدوه من ريع الاقطاعات المعطاة لهم فى بلاد آسيا التى كانوا يسمونها ( تمارا ) بسبب فتنة قره يازيجى ودلى حسن بآسيا الصغرى ولما لم يكن فى وسع الدولة تلبية طلبهم لنقص دخلها هى أيضاً بسبب هذه الفتنة تمرّدوا وثاروا وطلبوا نهب ما فى المساجد من التحف الذهبية والفضية فاستعانت الدولة عليهم بجنود الانكشارية وأدخلتهم فى طاعتها بعد سفك الدماء ولو اتحد الانكشارية معهم وساعدوهم على مطالبهم لخيف على حياة الدولة من الداخل والخارج

ومن ذلك يظهر جلياً اختلال النظام العسكرى وعدم صلاحيته لحفظ اسم الدولة وشرفها بين أعدائها وفى هذه السنة توفى السلطان وكانت وفاته رحمه الله فى ١٢ رجب سنة ١٠١٢ الموافق ١٦ دسمبر سنة ١٦٠٣ وعمره ٣٧ سنة ومدّة حكمه ٩ سنين وخلفه ابنه احمد الاوّل

---

## ١٤ « السلطان الغازى احمد خان الاول »
### ﴿ وانتصار الشاه عباس ﴾

---

ولد هذا السلطان فى ١٢ جمادى الثانية سنة ٩٩٨ الموافق ١٨ ابريل سنة ١٥٩٠ فتولى الملك ولم يتجاوز سنه الرابعة عشر الا بقليل ولم يأمر بقتل أخيه مصطفى بل اكتفى بحجزه بين الخدم والجوارى وكانت أركان الدولة غير ثابتة فى كافة بلاد آسيا ونار الحرب مستعرة على حدود العجم شرقاً والنمسا غرباً وكانت الحرب مع العجم شديدة الوطأة فى هذه المرة لتولى الشاه عباس (١) الشهير قيادتها ومما جعل لها أهمية أعظم من كافة الحروب

---

(١) لقب هذا الشاه بالكبير وأخلف محمد مرزا في الملك سنة ١٥٨٥ ونودى به ملكا في خراسان ثم سار الي مدينة مشهد التى كانت قد احتلتها قبائل الازبك فاستخلصها منهم وانتصر عليهم بقرب مدينة هرات سنة ١٥٩٧ ثم حارب الترك واستخلص منهم الولايات التى سبق أخذها من مملكة العجم واحتل مدائن بغداد والموصل وديار بكر ثم اتحد مع شركة الهند الانكليزية وطرد البرتغاليين من ثغر هرمز وتوفي سنة ١٠٣٧ هـ الموافقة سنة ١٦٢٨ م بعد أن حكم البلاد بغاية الحكمة والسداد مدة ثلاث وأربعين سنة

السابقة اضطراب الاحوال فى الولايات الشرقية عموماً وسعى كل أمة من الامم المختلفة النازلة بها للحصول على الاستقلال وكان أهم رؤساء هذه الحركة رجلا كردياً لقب بجان بولاد (ومعناها بالعربية من نفسه كالبولاد) لشدة بأسه وقوة اقدامه والامير فخر الدين الدرزى وغيرهما لكن قيض الله للدولة فى هذه الشدة الوزير مراد باشا الملقب بقويوجى الذى عين صدراً أعظم وكان قد تجاوز الثمانين ليكون عونا وعضداً للسلطان الفتى فتقدم مع كبر سنه ووهن قواه قيادة الجيوش وحارب الثائرين بهمة ونشاط زائدين فانتصر على فخر الدين وجان بولاد واقتفى أثرهم حتى اختفيا فى بادية الشام واستمال ( قلندر أوغلى ) أحد زعماء الثورة فى الاناطول وعينه والياً على انقره وقبض على آخر يدعى أحمد بك وقتله بعد أن فرق جنده بالقرب من قونيه ولما رأى جان بولاد الكردى عدم نجاح الثورة سافر للاستانة وأظهر الطاعة للسلطان فعفا عنه وعينه والياً لتمسوار

وفى سنة ١٦٠٨ انتصر على من بقى من العصاة بقرب ( وان ) وفى السنة التالية قتل آخر زعمائهم المدعو يوسف باشا الذى كان استقل بأقاليم صاروخان ومنتشا وآيدين وبذلك عادت السكينة وساد الامن بهمة هذا الشجاع الذى لقب بسيف الدولة عن استحقاق

هذا وانتهز الشاه عباس هذه الفرصة لاسترجاع بلاد العراق العجمى واحتل مدائن تبريز ووان وغيرهما ولمناسبة اضمحلال جيوش الدولة فى هذه الحروب التى استمرت عدة سنوات متوالية وموت أهمّ قوّادها خصوصاً الصدر الاعظم قويوجى يوم ٥ أغسطس سنة ١٦١١ تراسلت الدولتان على الصلح وتم الامر بينهما فى سنة ١٦١٢ بمساعى نصوح باشا الذى تولى منصب الصدارة بعد موت قويوجى مراد باشا على أن تترك الدولة العلية لمملكة العجم جميع الاقاليم والبلدان والقلاع والحصون التى فتحها العثمانيون من عهد السلطان الغازى سليمان الأوّل القانونى بما فيها مدينة بغداد وهذه أوّل معاهدة تركت فيها الدولة بعض فتوحاتها ويمكننا القول بكل أسف وحزن أنها كانت فاتحة الانحطاط وأوّل المعاهدات المشؤمة التى ختمت بمعاهدة برلين الشهيرة

أما من جهة المجر والنمسا ففى أثناء اشتغال الدولة بحروبها الداخلية استبد النمساويون ببلاد المجر وأساؤا معاملة أشرافها نظير اخلاصهم للدولة العلية حتى رفضوا نير النمسا المسيحية وطلبوا من الدولة أن ترمقهم بعين حمايتها وتخلصهم من استرقاق النمسا لهم وانتخبوا الامير ( بوسكاى ) ملكا عليهم سنة ١٦٠٥ فانشرحت الدولة لهذه النتيجة التى ما كانت تنتظرها من أمة مسيحية لاسيما وهى فى حالة كرب لكثرة الحروب الداخلية وتقهقر جيوشها أمام الشاه عباس فقبلت هذا الاسترحام واعتمدت انتخاب (بوسكاى) وأمدته بجيوشها ففتحت فى زمن يسير حصون (جران) و(يسجراد) و(سبريم) وغيرها

وفى سنة ١٦٠٦ خشيت النمسا من امتداد الفتوحات العثمانية فسعت فى سلخ بوسكاى عن الدولة فاعترفت بانتخابه ملكا للمجر وأميراً لاقليم ترنسلفانيا وتنازلت عن كافة الاقاليم

المجرية التى كانت للسلطان (باتورى) بشرط رجوع ما يكون منها ألمانيا وخصوصا اقليم ترنسلفانيا الى امبراطور ألمانيا بعد موت بوسكاى ولزيادة اضطراب أحوال الدولة بآسيا وتعسر استمرار الحرب مع النمسا بدون مساعدة جيوش المجر لها أبرمت الصلح مع امبراطور النمسا فى سنة ١٦٠٦ عينها على أن لا تدفع النمسا الجزية السنوية التى قدرها ثلاثون ألف دوكا فى المستقبل مقابل التعويض عنها للدولة بدفع مبلغ مائتى ألف دوكا وأن تضم الدولة العلية لاملاكها حصون (جران) و (ارلو) و (كانيشا) وفى سنة ١٦٠٨ اجتمع نواب النمسا والمجر فى مدينة برسبورج وصدّقوا على هذا الاتفاق وكذلك صدّق عليه لمدة عشرين سنة من تاريخ التصديق مندوبو مملكة ألمانيا مجتمعين بهيئة مؤتمر بمدينة (ويانه) سنة ١٦١٥ أما بلاد المجر فبقيت تابعة للدولة بعضها تبعية فعلية والبعض تبعية حماية وسميت هذه المعاهدة بمعاهدة (ستواتوروك)

وبعد التصديق نهائيا على هذا الاتفاق من جميع أولى الشأن توفى (بوسكاى) وامتنع أهالى اقليم ترنسلفانيا عن الدخول ضمن أملاك الامبراطورية مفضلين البقاء تحت حماية الدولة العثمانية الاسلامية التى لم تتعرّض لهم لا فى دينهم ولا فى عوائدهم اكتفاء بالجزية السنوية فعينت لهم الدولة (سيجسمون راجوتسكى) ثم (جبرائيل باتورى) ثم (بتلن جابور) وهو من أشد خصماء دولة النمسا وألد أعدائها وتعهد هذا الامير بمنع أمراء الفلاخ والبغدان من اقتناء الاراضى والقصور فى امارته حتى لا يلتجؤا اليها لو تمردوا على الدولة و بتسليمهم لها لو فرّوا اليها وبذلك صارت ترنسلفانيا حائلا بين الامارتين و بلاد المجر

هذا ولو أن الحروب انقطعت على كافة حدود الدولة تقريبا الا أنه قد حصلت ما بين سنة ١٦١١ وسنة ١٦١٤ بعض مناوشات بحرية بين مراكب الدولة وسفن رهبان مالطه وملك اسبانيا وولايات ايطاليا كان الفوز فيها غالبا لمراكب الاعداء ولذلك أمر الصدر نصوح باشا بجمع جميع سفن الدولة فى مياه البحر الابيض المتوسط لصدّ تعدّيات مراكب الافرنج وحفظ طريق البحر بين الاستانة وولايات الغرب فانتهز بعض أخلاط القوزاق انسحاب السفن الحربية من البحر الاسود وأغاروا على ثغر سينوب ونهبوا ما به ولما علم السلطان بذلك غضب على الصدر الاعظم وسعى به بعض مبغضيه طمعا فى نوال منصبه وما فتئوا يوغرون صدر سيده عليه حتى أمر بقتله فى ١٤ اكتوبر سنة ١٦١٤ فخنق فى قصره

هذا وازدادت فى أيام السلطان أحمد الاوّل العلاقات السياسية مع دول الافرنج فجدّدت مع فرانسا العقود والعهود القديمة فى سنة ١٦٠٤ مع بعض زيادات طفيفة وفى سنة ١٦٠٩ جدّدت مع مملكة بولونيا الاتفاقات التى أبرمت معها فى زمن السلطان محمد الثالث وأهمّ ما بها تعهد بولونيا بمنع قوزاق الروسية من الاغارة على اقليم البغدان وتعهد الدولة

العلية بمنع تتار القرم من التعدي على حدودها وفي سنة ١٦١٢ تحصلت ولايات الفلمنك(١) على امتيازات تجارية تضارع ما منحته كل من فرانسا وانكلترا وهم أي الفلمنك الذين أدخلوا في البلاد الإسلامية استعمال التبغ أي تدخين الدخان فعارض المفتي في استعماله وأصدر فتوى بمنعه فهاج الجند واشترك معهم بعض مستخدمي السراي السلطانية حتى اضطروه الى اباحته وفي ٢٣ ذي القعدة سنة ١٠٢٦ الموافق ٢٢ نوفمبر سنة ١٦١٧ توفي السلطان أحمد الاول وعمره ٢٨ سنة ومدة حكمه ١٤ سنة تقريبا ولصغر سن ولده عثمان الذي كان لم يجاوز ثلاثة عشر سنة من عمره خالف العادة المتبعة من ابتداء الغازي السلطان عثمان الاول أي تنصيب أكبر الاولاد أو أحدهم مكان والده وأوصى بالملك بعده لاخيه

## ١٥ « السلطان مصطفى خان الاول »

ولد هذا السلطان سنة ١٠٠١ وقضى طول عمره داخل محلات الحرم ولم يتعاطى أشغالا مطلقا بل ولم يعلم من أمور المملكة شيئا كما كانت عادة بعض ملوك بني عثمان وهي أن كل سلطان يتولى يأمر بقتل اخوته أو بحجزهم في السراي كي لا يكون منهم منازع في الملك وهي عادة مستقبحة جدا لما فيها من قتل أقرب الناس بلا ذنب أو جرم الا ما تخيله لهم الوهم من الخوف على الملك والاستئثار به مع أنهم لو استخدموا اخوتهم في المناصب العالية لاسيما قيادة الجيوش كما يفعل ملوك أوروبا الآن لحفظوا ذمار الدولة وأخلصوا في خدمتها أكثر من الذوات الذين أغلبهم (كما رأيت وترى في سياق هذا الكتاب) من غير الجنس التركي بل من المماليك الجركس أو الافرنج الذين ربما اعتنقوا الدين الاسلامي ودخلوا في خدمة الدولة أعداء في لباس أصدقاء لتنفيذ أغراض دولهم وكادت تقوم الحرب بين الدولة وفرانسا عند توليته وذلك أن كاتم أسرار السفارة الفرانساوية ساعد أحد أشراف بولونيا وكان مسجونا بالاستانة على الهروب منها فسجن كاتم السر والمترجم والسفير ولم يلبث هذا السلطان على سرير الملك الا ثلاثة أشهر تقريبا ثم عزله أرباب الغايات وفي مقدمتهم المفتي وقيزلر أغاسي أي أغا السراي وساعدهم الانكشارية على ذلك لتوزيع

(١) بلاد الفلمنك أو البلاد الواطئة المشهورة الان باسم هولانده مكونة من عدة ولايات كانت في الاصل تابعة لمملكة النمسا ثم استقلت سبعة من الولايات الشمالية في أواخر القرن السادس عشر وشكلت بهيئة جمهورية سميت بالولايات المتحدة واستمرت الباقية تابعة لملك اسبانيا لانتقالها اليه بالارث وفي سنة ١٧١٤ أعطيت الى النمسا وبقيت في حيازتها الى سنة ١٧٩٠ تقريبا حيث فتحها فرانسا وفي سنة ١٨١٤ تشكلت جميع البلاد الواطئة بما فيها الولايات التي كانت متحدة والاراضي المكونة لمملكة بلجيكا الان بهيئة حكومة ملوكية مستقلة وفي سنة ١٨٣٠ انقسمت هذه المملكة الى قسمين سمي الجزء الشمالي منها بمملكة هولاندا والجنوبي باسم مملكة البلجيكا وهي مكونة من الولايات التي كانت تابعة لاسبانيا والنمسا أما هولاندا فمكونة من الولايات التي كانت مشكلة بهيئة جمهورية مستقلة

الهبات عليهم عند تولية كل ملك جديد فعزل في أول ربيع الاول سنة ١٠٢٧ الموافق ٢٨ فبراير سنة ١٦١٨ وأقاموا مكانه السلطان عثمان الثاني المولود في غضون سنة ١٠١٣ هـ

## ١٦ « السلطان عثمان خان الثاني ونهايته ثم قتله »
## ( وارتجاع السلطان مصطفى ثم عزله )

هو ابن السلطان أحمد الاوّل وامر باطلاق قنصل فرنسا وكاتبه ومترجمه وأرسل مندوبا لملك فرنسا لويس الثالث عشر يسمى حسين جاووش بجواب اعتذار عما حصل من الاهانة لسفيره وبذلك انحسمت هذه المشكلة

وحدث في هذه الاثناء أن تداخلت بولونيا في شؤون امارة البغدان لمساعدة (جراسياني) الذي عزل بناء على مساعي بتلن جابور أمير ترنسلفانيا وأضيفت امارته الى اسكندر شربان امير الفلاخ وصارت الامارتان تابعتين له فاتخذ السلطان عثمان هذا التداخل سبباً في اشهار الحرب على مملكة بولونيا وتحقيق أمنيته وهي فتح هذه المملكة وجعلها فاصلا بين أملاك الدولة ومملكة الروسيا التي ابتدأت في الظهور وقبل الشروع في الحرب أمر بقتل أخيه محمد تبعاً للعادة المشروعة فقتل في ٢٠ يناير سنة ١٦٢٢ ماسوفا عليه ثم أصدر أمراً بتقليل اختصاصات المفتي ونزع ما كان من السلطة في تعيين وعزل الموظفين وجعل وظيفته قاصرة على الافتاء حتى يأمن شر دسائسه التي ربما تكون سبباً في عزله كما كانت سبب عزل سلفه لكن أتى الامر على الضد مما كان يؤمل كما سيجيء وبعد ان أتم هذه التمهيدات الداخلية سير الجيوش والكتائب لمحاربة مملكة بولونيا فالتقت بجيشهم تحت قيادة أمير (ولنا) وكان متحصناً في محل منيع بالقرب من بلدة يقال لها (شوكزم) فهاجم العثمانيون في حصونهم عدّة دفعات متوالية بدون أن يزحزحوهم عن معاقلهم فطلبت الانكشارية الكف عن الحرب وطلب البولونيون الصلح لفقد قائدهم وتبادلت بينهما المخابرات وتم الصلح وأمضي من الطرفين في ٦ اكتوبر سنة ١٦٢٠ فحنق السلطان على الانكشارية من طلبهم الراحة وخلودهم الى الكسل والزامه على الصلح مع بولونيا بدون تتميم قصده أي ضمها الى أملاكه وعزم على ابطالها وافنائها عن آخرها ولاجل التأهب لتنفيذ هذا الامر الخطير أمر بحشد جيوش جديدة في ولايات آسيا وتنظيمها وتدريبها على القتال حتى اذا كملت عدداً وعدداً استعان بها على ابادة هذه الفئة الباغية وشرع فعلا في نفاذ هذا المشروع لكن أحس الانكشارية بذلك فهاجوا وماجوا وتذمروا واتفقوا على عزل السلطان وتم لهم ذلك في يوم ٩ رجب سنة ١٠٣١ الموافق ٢٠ مايو سنة ١٦٢٢ وأعادوا مكانه السلطان مصطفى الاوّل ولم يكتفوا بعزله بل هجموا عليه في سرايه وانتهكوا حرمتها وقبضوا عليه بين جواريه وزوجاته وقادوه

قهرا الى تكناتهم موسعيه سباً وشتما واهانة مما لم يسبق له مثيل فى تاريخ دولتنا العلية وزيادة على ذلك أنهم نقلوه من هناك الى القلعة المعروفة بذات السبع قلل ( يدى قله ) حيث كان بانتظاره كل ممن يدعى داود باشا وعمر باشا الكيخيا وقلندراوغلى وغيرهم فأعدموا السلطان عثمان الحياة غير مبالين بهذا الجرم العظيم والاثم الذى مابعده اثم الا الكفر المبين فانه ان كانت مخالفة أوامر الخليفة الاعظم تعدّ كفراً بنص الكتاب الشريف فمابالك بقتله وهنا يقف القلم و يكف المداد عن وصف هذه الفعلة الشنعاء والكبيرة الشعواء تاركا وصفها للقارىء اللبيب والمطلع الاديب لعجزى عن هذا المقام العالى وتقصيرى عن هذه المراتب العوالى وقلة بضاعتى وقصور قريحتى مكتفياً بنقل أسماء مرتكبها الى الخالف لتكون هدف سخطتهم ومرمى سهام فضيحتهم وقتل رحمه الله ولم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ومدّة حكمه أربع سنين وأربعة أشهر

و بعد ذلك صارت الحكومة ألعوبة فى أيدى الانكشارية ينصبون الوزراء و يعزلونهم بحسب أهوائهم فعزلوا داود باشا قاتل السلطان بعد بضع أيام وصاروا يمنحون المناصب لمن يجزل اليهم العطايا فكانت الوظائف تباع جهاراً وارتكبوا أنواع المظالم فى القسطنطينية ولما بلغ خبر قتل السلطان الى الولاة وانتشرت بينهم أخبار الفوضى السائدة فى الاستانة وسوس لهم ابليس الطمع فأطاعوه وسرى فى عروقهم شيطان الغواية فاتبعوه فاشهر والى طرابلس الشام استقلاله وطرد الانكشارية من ولايته واقتفى أثره والى أرضروم المدعو أباظه باشا مدّعياً انه يريد الانتقام للمرحوم السلطان عثمان شهيد الانكشارية وسار بمن تبعه الى سيواس وانقره ففتحهما مصادرا التزامات الانكشارية واقطاعاتهم قاتلا كل من وقع فى مخالبه من هذه الفئة التى تلوّثت بدم سلالة سلاطينهم وتبعه والى سيواس وسنجق قره شهر ثم سار الى مدينة بورصه فحاصرها ودخلها بعد ثلاثة أشهر الا قلعتها فلم تسلم

واستمرّت الاضطرابات الداخلية فى نفس كرسى الخلافة العظمى ولا أمن ولا سكينة مدة ثمانية عشر شهراً متوالية حتى اذا شعر العموم بما وراء هذه الفوضى من الدمار والخراب وشبع الانكشارية نهباً وسلباً وقتلا فى نفوس الاهالى وأموالهم عينوا من يدعى (كمانكش على باشا) صدراً أعظم لتوسمهم فيه الخبرة والاستعداد فأشار عليهم بعزل السلطان مصطفى ثانيا لضعف عزيمته ووهن قواه العقلية فعزلوه فى ١٥ ذى القعدة سنة ١٠٣٢ الموافق ١١ سبتمبر سنة ١٦٢٣ وولوا مكانه السلطان مراد الرابع و بقى فى العزل الى أن توفى فى غضون سنة ١٠٤٩ هـ الموافق سنة ١٦٣٩ م

## ١٧ «السلطان الغازى مراد خان الرابع»

هو ابن السلطان أحمد الاوّل ابن السلطان محمد الثالث ولد فى ٢٨ جمادى الاولى سنة

١٠١٨ الموافق ٢٩ أغسطس سنة ١٦٠٩ وولاه الانكشارية بعد عزل عمه السلطان مصطفى الاوّل ابن السلطان محمد الثالث مع حداثة سنه كى لا يكون معارضاً لهم فى أعمالهم الاستبدادية ولا مضعفاً لنفوذهم الذى اكتسبوه بقتل سلطان وعزل غيره واستمر وامدّة العشر سنين الاولى من حكمه على غيهم وطغيانهم

محاربة العجم واستيلائهم على بغداد

وانتهز الشاه عباس ملك العجم هذا الاختلال فرصة لتوسيع أملاكه من جهة حدود الدولة العلية فكان الامر حينئذ بعكس ما كان عليه أيام المرحوم الغازى السلطان سليمان القانونى وذلك أن رئيس الشرطة فى مدينة بغداد واسمه بكير أغا ثار على الوالى وقتله واستبدّ فى الاحكام فأرسلت له الدولة قائداً يدعى حافظ باشا حاربه وحصره فى دار السلام فسولت لبكير أغا نفسه الخبيثة أن يخون الدولة وراسل الشاه عباسا وعرض عليه تسليم المدينة فسار الشاه بجنوده لاحتلالها وفى الوقت نفسه عرض بكير أغا على القائد العثمانى ان يرد المدينة للعثمانيين لو أقرته الدولة على ولايتها فقبل ذلك واحتلتها الجنود المظفرة قبل وصول شاه العجم وهو لما وصلها حاصرها ثلاثة أشهر ثم فتحها بخيانة ابن بكير اغا الذى سلمها له بشرط تعيينه حاكما عليها من قبلهم لكن خاب سعيه فقد قتله الشاه جزاء خيانته كما قتل أباه وفى ذلك عبرة لكل جاهل خائن يظن أن الاجنبى يعتقد فيه الاخلاص ويكافئه لو ساعده على ابتلاع وطنه فهل يرجو من باع وطنه العزيز بيع المتاع خيراً من تلك الدولة كلا فانها تستعمله آلة لنوال غرضها ثم تلفظه لفظ النواة فيرجع يعض بنان الندم على ضياع شرفه وتسويد صفحات تاريخه حيث لا ينفع الندم وينكص على عقبيه مذموماً مدحوراً وبمناسبة سقوط بغداد فى أيدى العجم وعدم إخباره السلطان بذلك سعى المنافقون بالصدر الاعظم كمانكش على باشا لدى السلطان وأفهموه أنها لم تسقط الا لخيانته فحنق عليه وأمر بقتله وولى مكانه جركس محمد باشا ولم يلبث هذا الاخير أن توفى وعين بعده حافظ أحمد باشا سنة ١٠٣٣ هجرية الموافق سنة ١٦٢٤ وهو الذى اشتهر فى مكافحة أباظه باشا والفوز عليه فى واقعة قيصرية ومحاصرته فى أرضروم حتى التزم بالخضوع للدولة واظهار الولاء لها فعفت عنه عفو كريم مقتدر وأقرته فى ولايته سنة ١٦٢٤ فسار حافظ باشا الصدر الجديد الى مدينة بغداد لاستردادها وحاصرها فى أوائل سنة ١٦٢٤ وضيق عليها الحصار ولما استمر الحصار مدة بدون أن تنثنى عزيمة المحصورين تذمر الانكشارية وأظهروا عدم الرغبة فى الحرب بكيفية اضطرته لرفع الحصار عن المدينة والرجوع الى الموصل ومنها الى ديار بكر حيث ثار الجند مرة ثانية فعزل السلطان حافظ باشا سنة ١٠٣٤ هجرية الموافقة سنة ١٦٢٤ وعين بدله من يدعى خليل باشا الذى سبق تقلده هذا المنصب فى عهد السلاطين أحمد الاول ومصطفى الاول وعثمان الثانى شهيد الانكشارية وكانت فاتحة أعماله انه استدعى أباظه باشا الى معسكره فظن انه يريد الغدر به فرفع راية العصيان ثانياً وقتل حامية أرضروم من الانكشارية وانتصر على القائد حسين

باشا وجيشه فسار اليه الصدر خليل باشا بنفسه وحصره ثم رفع عنه الحصار بعد شهر ين (نوفمبر سنة ١٦٢٧) فعزل من الصدارة سنة ١٠٣٥ هجرية وولى مكانه خسرو باشا وهو طلوه السكرة على أرضروم وأدخل أباظه باشا فى طاعة الدولة وعينه واليا على البشناق (بوسنه) سنة ١٠٣٧ ه الموافق سنة ١٦٢٨ م وفى هذه الاثناء كانت ثورات الجنود متتابعة بالاستانة وفى كل مرة يطلبون قتل من يشاؤن من رؤساء الحكومة المخالفين لهم فى الرأى ولا يرى السلطان مندوحة من اجابة طلباتهم اسكاتا لهم وخوفا من أن يصل اليه أذاهم ثم توفى الشاه عباس وتولى ابنه شاه مرزا وكان حديث السن فدخل العجم فى أفئدة القواد العثمانيين وسار خسرو باشا من حينه الى بلاد العجم رغما عن تذمر جنوده ووصل بعد العناء الشديد الى مدينة همذان فدخلها فجأة فى أواخر شوال سنة ١٠٣٩ الموافق ١٨ يونيو سنة ١٦٣٠ ثم قصد مدينة بغداد وانتصر أثناء عودته اليها ثلاث دفعات متواليات على جيوش العجم ووصل اليها وابتدأ فى محاصرتها فى شهر سبتمبر من السنة المذكورة فدافع عنها قائد حاميتها دفاعا شديدا وصد هجوم العثمانيين عنها فى ٧ ربيع الثانى سنة ١٠٤٠ الموافق ١٤ نوفمبر سنة ١٦٣٠ ولهجوم الشتاء رفع خسرو باشا عنها الحصار ورجع الى مدينة الموصل لقضاء فصل الشتاء وفى الربيع التالى أراد معاودة الكرة على مدينة بغداد فلم تمتثل الجنود أوامره ولذلك اضطر الى التقهقر الى مدينة حلب خوفا من وصول العدو اليه بالموصل وهو غير واثق من جنوده

وفى غضون ذلك أصدر السلطان أمره بعزل خسرو باشا واعادة حافظ باشا الى منصب الصدارة فسعى المعزول لدى الجند وأفهمهم انه لم يعزل الا لمساعدته لهم فثاروا وأرسلوا الى الأستانة يطلبون ارجاعه ولما لم يجب السلطان طلبهم ساروا الى القسطنطينية وقاموا بثورة عظيمة خيف منها على حياة الملك فانهم دخلوا السراى السلطانية فى ١٨ رجب سنة ١٠٤١ الموافق ٩ فبراير سنة ١٦٣٢ وقتلوا حافظ باشا رغما عن تداخل السلطان ومنعهم عنه فاغتاظ السلطان وأمر بقتل خسرو باشا محرك هذه الفتنة فقتل ولم ينل بغيته من البقاء فى الصدارة وعين من بعده بيرام محمد باشا صدرا أعظم ومن ذلك الحين أظهر السلطان عزما شديدا وثباتا قويا فى مجازاة رؤس الانكشارية وغيرهم ممن كان يهيج الخواطر ويقلق الراحة العمومية وصار يأمر بقتل كل من ثبت عليه أقل اشتراك فى الحركات الاخيرة وبذلك داخلهم الرعب ووقعت مهابته فى قلوبهم وخشيه الصغير والكبير والأمير والحقير وسار كل فى طريقه مكبا على عمله بدون أن يأتى ما يكدر صفو الراحة العمومية وأمن الناس على أموالهم وأعراضهم من التعدى وسادت السكينة فى القسطنطينية وضواحيها وجميع أنحاء المملكة وكانت آخر ثورة للانكشارية فى آخر شوال سنة ١٠٤١ الموافق ١٨ مايو سنة ١٦٣٢ ثم ان السلطان أمر بقتل رجب باشا لمالته فى السر من قاموا بالعصيان ثم قتله وابقاء خدمه من مماليك السراى حتى يرا بهم المتجمهرون

الثورة الانكشارية وقتلهم الصدر الاعظم حافظ باشا وثورة فخر الدين الدرزى

فسكنت الخواطر ولم يحصل ما يعبث بالامن بعد ذلك فى مدته وبعد كسر شوكة الانكشارية أراد السلطان أن يعيد للدولة ما فقدته من النفوذ بسبب اهمال بعض أسلافه وعدم أطاعة الانكشارية وامتناعهم عن الحرب عند الحاجة القصوى فارسل الى والى دمشق بمحاربة فخر الدين أمير الدروز وادخاله فى طاعة الدولة فقام الوالى بالمأمورية خير قيام وهزم فخر الدين وأسره هو وولديه وأرسلهم الى القسطنطينية حيث عاملهم السلطان بكل احتفاء واكرام ولكن لما بلغ السلطان أن أحد أحفاده ثار ثانيا ونهب بعض مدائن الشام أمر بقتله وولده الاكبر فقتلا فى ذى القعدة سنة ١٠٤٤ (ابريل سنة ١٦٣٥) فاطاع الدروز وبقيت الامارة فى ذرية فخر الدين المذكور نحو مائة سنة ثم انتقلت الى عائلة شهاب التى منها الامير بشير الشهير فى حروب ابراهيم باشا ابن محمد على باشا والدولة فى النصف الاول من هذا القرن المسيحى

فتح اريوان واسترجاع بغداد

ثم سار السلطان بنفسه الشريفة الى بلاد العجم لاسترجاع فتوحات السلطان الغازى سليمان الاول القانونى ففتح مدينة اريوان فى ٢٥ صفر سنة ١٠٤٥ الموافق ١٠ اغسطس سنة ١٦٣٥ وأرسل السلطان رسولين الى الاستانة لتزيين المدينة مدة سبعة أيام وقتل أخويه بايزيد وسليمان لبلوغه عنهما ما كدر خاطره واتباعا للعادة المذمومة وبعد ذلك قصد السلطان مدينة تبريز ففتحها عنوة فى ٢٨ ربيع الاول سنة ١٠٤٥ الموافق ١٠ سبتمبر سنة ١٦٣٥ المذكورة ثم عاد الى الاستانة للاستراحة من عناء السفر ومشقات الحرب ومما يدل على أن وجود السلطان مع جيوشه له أهمية عظمى وبيعث فيهم روحا جديدة أنه بمجرد رجوع السلطان اشتد عزم العجم ووقفوا أمام الجيوش العثمانية بعد أن كانوا يفرون من أمامهم أينما التقوا بهم والسلطان قائدهم ثم تغلبوا عليهم واستردوا مدينة (اريوان) وفازوا بالغلبة فى واقعة منتظمة فى وادى مهربان سنة ١٦٣٦

فلما وصل خبر انتصار العجم على الجنود العثمانية الى مسامع السلطان أراد اذلالهم وكسر شوكتهم فسار بجيش عظيم كامل العدد والعدد الى مدينة دار السلام وابتدأ حصارها بكيفية منتظمة فى ٨ رجب سنة ١٠٤٨ الموافق ١٥ نوفمبر سنة ١٦٣٨ وكان يشتغل بنفسه فى أعمال الحصار الشاقة تنشيطا للجند وسلط على أسوارها المدافع الضخمة التى نقلها اليها ولما فتحت المدافع فيها فتحة كافية للهجوم أصدر السلطان أوامره بذلك فهجمت الجيوش كالليوث الكواسر فى صبيحة ١٨ شعبان سنة ١٠٤٨ الموافق ٢٥ دسمبر سنة ١٦٣٨ ولم يثنها قتل الصدر الاعظم طيار محمد باشا الذى تولى بعد موت بيرام محمد باشا المتوفى فى ٦ ربيع الآخر سنة ١٠٤٨ الموافق ١٧ أغسطس سنة ١٦٣٨ بل استمرت الحروب ٤٨ ساعة متوالية ختمت بانتصار الجنود العثمانية نصرا مبينا ودخولهم المدينة وارجاعها الى المملكة العثمانية ولم تزل تابعة لها حتى الآن

وبعد ذلك رغب شاه العجم عدم استمرار القتال وعرض الصلح على الدولة العلية بان يترك لها

مدينة بغداد بشرط أن تترك هى اليه مدينة (اريوان) ودارت المخابرات بين الدولتين نحو عشرة أشهر كاملة وفى ٢١ جمادى الاولى سنة ١٠٤٩ الموافق ١٩ سبتمبر سنة ١٦٣٩ تم الصلح على ذلك وانقطعت أسباب العدوان من بينهما وكان يؤمل فى السلطان مراد الرابع أن يضارع السلطان الغازى سليمان الاوّل القانونى فى الفتوحات و بعد الصيت لولا أن قصفت المنون عود حياته الرطيب وهو فى مقتبل الشباب فتوفى رحمه الله عن غير عقب فى ١٦ شوّال سنة ١٠٤٩ هجرية الموافق ٩ فبراير سنة ١٦٤٠ وسنه ٣١ سنة ومدّة حكمه ١٦ سنة و١١ شهراً وتولى بعده اخوه ابراهيم

## ١٨ « السلطان الغازى ابراهيم خان الاول »

## ( وفتح جزيرة كريد )

هو ابن السلطان أحمد الاوّل ولد فى ١٢ شوّال سنة ١٠٢٤ الموافق ٤ نوفمبر سنة ١٦١٥ وكان غير ميال لمحاربة النمسا فاطمأن خاطرها وأوعز لاميرترانسلفانيا بكف العدوان عنها لكن كان من جهة أخرى محافظاً على كرامة الدولة غير متراخ فى معاقبة من يمسها بسوء أو يتعدّى حدودها ولذلك افتتح حروبه الخارجية بارسال جيش جرار الى بلاد القرم لمحاربة القوزاق الذين احتلوا مدينة ازاق فحاربهم العثمانيون وأبلوا فيهم بلاء حسنا واستردوا المدينة منهم بعد أن أحرقوها وذلك سنة ١٦٤٢ ومن أعماله أيضاً فتح جزيرة كريد وكانت تابعة لجمهورية البندقية وحصل فتحها بسبب حكاية غريبة تكاد تقرب من الروايات الموضوعة وذلك أن أغات السرارى ( قيزلر اغاسى ) كان عنده جارية حسناء وضعت حديثاً فاعجبت السلطان واختارها لان تكون ظئراً أى مرضعة لابنه الوحيد محمد ولشغف السلطان بالجارية ومحبته لابنها حصلت بعض أمور داخلية مكدرة فاراد أغات السرارى ملافاة لهذه الشقاقات العائلية أن يبتعد عن الاستانة بحجة زيارة بيت الله الحرام و يستصحب الجارية وابنها معه ولما أذن له السلطان بذلك سافر وبينما هو فى الطريق اذ هاجمته مراكب رهبان مالطه وقتلوه وأخذوا الولد ظناً منهم أنه ابن السلطان ولما تحققوا من غلطتهم ربوا الولد على الدين المسيحى وأدخلوه طائفتهم واشتهر عند الافرنج باسم ( بدرى اوتوماتو ) أى الاب العثمانى و بعد ذلك نزل الرهبان الى جزيرة كريد وأحسن البنادقة وفادتهم فاغتاظ السلطان من ذلك غيظاً شديداً وحبس قناصل البندقية وانكلترا وهولاندا ولم يفرج عنهم الا بعد أن أقنعه وزيره الاوّل بان أغلب هؤلاء الرهبان بل كلهم من الفرنساويين ومع ذلك فانهم غير تابعين للحكومة الفرنساوية ولا لغيرها فهدأ باله لكنه أمر بتجهيز عمارة بحرية قوية لفتح جزيرة كريد لاهمية موقعها الجغرافى الحربى عند مدخل بحر ارخبيل اليونان ولتوسطها فى الطريق بين الاستانة وولاية الغرب فجهزت الدونانمة وسارت باحتفال زائد تحت قيادة من يدعى يوسف باشا الى أن ألقت مراسيها أمام مدينة

خانية أهم ثغور الجزيرة فى ٢٩ ربيع الآخر سنة ١٠٥٥ الموافق ٢٤ يونيه سنة ١٦٤٥ وافتتحها بدون حرب تقريباً لعدم وصول الدونانمة البندقية اليها فى الوقت المناسب فانتقم البنادقة بحرق ثغور بتراس وكورون ومودون من بلاد موره ويقال ان السلطان أراد فى مقابلة ذلك قتل المسيحيين أجمع ولولا معارضة المفتى أسعدزاده أبى سعيد أفندى لتم هذا الامر وربما كانت هذه دسيسة فى كتب الافرنج الا انها تشهد على أىّ حال بحسن سياسة هذا المفتى لسعيه فى منع هذا الامر الذى لو تم كان يلحق بالدولة عار عظيم كما لحق بمسيحى اسبانيا لما ارتكبوه من القتل والفتك بالمسلمين بعد فتح مدينة غرناطة (١) وفى سنة ١٦٤٦ فتح أغلب الجزيرة وفى السنة التالية وضع الحصار أمام مدينة (كنديا) عاصمة الجزيرة لكن حال دون اتمامه وفتح المدينة عصيان الجنود فى الاستانة

وتفصيله ان السلطان ابراهيم أراد أن يفتك برؤس الانكشارية فى ليلة زفاف احدى بناته على ابن الصدر الاعظم لتذمرهم وانتقادهم على أعماله ورغبتهم فى التداخل فى شؤن الدولة والخروج عن حدودهم فعلموا بقصد السلطان وتآمروا على عزله واجتمعوا بمسجد يقال له (أورطه جامع) وانضم اليهم بعض العلماء والمفتى عبدالرحيم أفندى وأهاجوا عساكر الانكشارية والسباه وقرّر الجميع بعزله وتولية ابنه محمد الرابع المولود فى ٢٩ رمضان سنة ١٠٥١ الموافق أوّل يناير سنة ١٦٤٢ أى الذى لم يتم السابعة من عمره وتمت هذه الثورة يوم ١٨ رجب سنة ١٠٥٨ الموافق ٨ أغسطس سنة ١٦٤٨ وبعد ذلك بعشرة أيام أظهر السباه عدم ارتياحهم من الملك الفتى وطلبوا اعادة السلطان ابراهيم الى عرش الخلافة فخشى رؤساء العصابة التى عزلته من تغلب السباه وارجاعه رغم أنفهم وصمموا على قتله فساروا الى السراى ومعهم الجلاد (قره على) وقتلوه خنقاً كما قتلوا السلطان عثمان الثانى من قبله فكانت مدّة حكمه ٨ سنين و ٩ شهور وسنه ٣٤ سنة وبذلك ارتاح خاطرهم واطمأن بالهم وانفرد

## ١٩ « السلطان الغازى محمد خان الرابع »

بالملك ولصغر سنه وقعت المملكة فى الفوضى وصارت الجنود لا ترحم صغيراً ولا توقر كبيراً وسعوا فى الارض فساداً ورجعت الحالة الى ما وصلت اليه قبل تولى السلطان مراد الرابع بل الى أتعس منها وسرى عدم النظام الى الجنود المحاصرة لمدينة (كنديا) بكيفية اضطرت قائدهم السرعسكر حسين باشا لرفع الحصار عنها وكذلك كان سريان هذا الداء العضال الى

(١) هي مدينة ببلاد الاندلس كانت مقر المملكة بنى أمية الغربية ودخلها الافرنج سنة ١٤٩٢ في خلافة أبى عبدالله محمد ومن بقى بها من المسلمين أجبر علي الردة أو المهاجرة مع مصادرة أموالهم فهاجر أغلبهم واضطهد من تخلف منهم اضطهاداً شديداً لم يسمع مثله في التاريخ حتى لم يبق بها ولا بجميع بلاد الاندلس مسلم واحد وحولت جميع مساجدهم الي كنائس وبددت كتبهم العلمية ويوجد بها كثير من الابنية الغربية محفوظ حتى الآن وخصوصاً قصر الحمراء الشهير

الجنود البحرية سبب انهزام الدونانمة العثمانية أمام دونانمة العدو أمام مدينة فوقيه (١) سنة ١٦٤٩ ثم ثار بآسيا الصغرى فى هذه السنة أيضاً رجل يدعى (قاطرجى أوغلى) وانضم اليه آخر يدعى (كورجى ينى) وهزما أحمد باشا والى الاناطول وسار الى القسطنطينية ولولا وقوع الشقاق بينهما لخيف على العاصمة من وقوعها فى قبضتهما لكن وقع الخلف بينهما وافترقا فحاربهما الجند وهزم الثانى وقتل وأرسل رأسه الى السلطان وتمكن الآخر وهو قاطرجى أوغلى من الحصول على العفو عنه وتعيينه واليا للقرمان وبذلك انتهت هذه الثورة ولولا اشتغال النمسا بالحرب الهائلة الدينية المعروفة بحرب الثلاثين سنة (٢) لانتهزت هذه الفرصة وفتحت بلاد المجر بدون مقاومة ومن جهة أخرى لولا ولاء المجر وتفضيلهم الحكومة العثمانيــة على حكومة النمسا الثاروا طلباً للاستقلال وبعد ذلك توالت الثورات تارة من الانكشارية وطوراً من السباه وآونة من الاهالى لما يثقل عليهم نير استبداد الجنود وتعاقب عزل وتنصيب الصدور بسرعة غريبة لم تسبق فى الدولة ولا فى أيام حكم السلطان سليم تبعاً للاهواء والغايات واختل النظام أو بعبارة صريحة صار عدم النظام نظاماً للدولة

وفى هذه الاثناء تغلبت مراكب جمهورية البندقية على عمارة الدولة عند مدخل الدردنيل واحتلت (تنيدوس) وجزيرة لمنوس وغيرهما ومنعت بذلك المراكب الحاملة للقمح وأصناف المأكولات عن الوصول الى القسطنطينية من هذا الطريق حتى غلت جميع الاصناف واستمر الحال على هذا المنوال ولا نظام ولا أمن ولا سكينة وبالاختصار لا حكومة ثابتة الى أن قيض لها المولى سبحانه وتعالى الوزير محمد باشا الشهير بكوبريلى الذى تولى منصب الصدارة سنة ١٠٦٧ الموافقة سنة ١٦٥٦ فعامل الانكشارية معاملة من يريد أن يطاع اطاعة عمياء وقتل منهم خلقاً كثيراً عندما ثاروا كعادتهم لما رأوه رجلاً خبيراً بدخائل الامور قادراً على قمعهم والزامهم العود الى السكينة وأمر بعد تعيينه بقليل بشنق بطريرك الاروام لما ثبت له تداخله فى الدسائس والفتن الداخلية

ومما يؤثر عن هذا الوزير الجليل انه استصدر أمراً من السلطان بمنع قتل سلفه وكان قد أمر بقتله وتعيينه والياً على (كانيشه) وفى أواسط يوليه سنة ١٦٥٧ أرسل المراكب لمحاربة سفن البنادقة المحاصرة لمدخل الدردنيل فحاربتها ولم تساعدها الظروف عن نوال النصر ثم بعد موت القائد البحرى البندقى الشهير (موشنجو) (٣) بنحو ستة أسابيع انتصرت

---

(١) مدينة يونانية قديمة اسمها (فوسه) على ساحل البحر المتوسط وتبعد عن مدينة أزمير بنحو ٤٢ كيلومتر وكانت في أيام اليونان القدماء زاهرة متقدمة ويقال ان مؤسسي مدينة مرسيليا بفرنسا من سكانها وهى الآن منحطة وتجارتها لا تذكر بسبب وقوعها بالقرب من أزمير ولا يزيد عدد سكانها عن أربعة آلاف نسمة

(٢) هي الحرب التي تأجج سعيرها بين الكاثوليك والبروتستانت من سنة ١٦١٨ الي سنة ١٦٤٨ وانتهت بمعاهدة وستفاليا التي تعتبر أساس التوازن الدولي في أوربا

(٣) قائد بحرى من عائلة قديمة جداً بالبندقية نبغ منها عدة رؤساء لهذه الجمهورية

العمارة العثمانية على البنادقة واستردّت منهم ما احتلوه من الثغور والجزائر
وفى أثناء ذلك كانت نيران الحروب متأججة بين مملكة بولونيا وشارل جوستاف (١) ملك السويد فأرسل هذا سفراء الى الباب العالى يطلبون منه ابرام معاهدة هجومية ودفاعية لمحاربة بولونيا وتكون هذه المملكة تحت حماية الدولة بالفعل فامتنعت عن قبول هذا الوفاق ولما علمت ان ( راكوكسى ) أمير ترنسلفانيا اتحد مع السويد على قتال بولونيا باتحاده مع قرال الفلاخ والبغدان أمرت بعزله وعزل قرال الفلاخ المدعو قسطنطين الاوّل وتعيين ( ميهن ) الرومى مكانه فقابل راكوكسى الارادة السلطانية بالعصيان وانتصر على العثمانيين بالقرب من ( ليبا ) سنة ١٦٥٨ لحصول عصيانه فجأة وعدم الاستعداد لصدّه ثم سار كوبريلى لقمعه وضم الى جنوده جيوش ميهن أمير الفلاخ الجديد الذى كان يريد مساعدة راكوكسى لكنه لم يربدّاً من مرافقة كوبريلى خوفا من ظهور خيانته فى وقت غير مناسب وباتحاد الجيشين تمكن كوبريلى من قهر هذا العاصى وطرده من البلاد وتعيين من يدعى ( اشاتيوس بركسى ) قرالا على ترنسلفانيا بشرط أن يدفع خراجا سنويا قدره أربعون ألف دوكا وبعد استتباب الأمن عاد الصدر الى الاستانة وبمجرّد عودته أظهر ميهن قرال الفلاخ العصيان واضطهد المسلمين وقتل منهم خلقا كثيرا وصادرهم فى أموالهم وأملاكهم واستدعى راكوكسى المعزول لمساعدته واعداً له بارجاعه الى ولايته بعد النصر على العثمانيين وأرسلوا الى ( غيكا ) قرال البغدان يوسوسون له بالانضمام اليهما فلم يصغ الى وساوسهم ولذلك ساروا اليه وانتصروا عليه بالقرب من مدينة ( ياسى ) (٢) عاصمة امارته ولما وصل خبر تمرّدهم الى الاستانة رجع كوبريلى على جناح السرعة لمحاربتهما قبل اشتداد الخطب واتساع الخرق على الراقع وانتصر عليهما نصراً مبيناً ثم عزل ميهن جزاء خيانته وعيّن ( غيكا ) قرال البغدان قرالا على الفلاخ أيضاً سنة ١٦٥٩ وفى السنة التالية احتلّ والى بود عاصمة المجر مدينة ( جروس واردين ) التابعة للنمسا بعد مناوشات خفيفة فاعتبرت النمسا ذلك اعلانا للحرب وابتدأت الحركات العدوانية بين الطرفين

هذا ولنذكر هنا شيئاً من علاقات الدولة مع فرنسا أثناء هذه الاضطرابات الداخلية التى جرت فيها الدماء وقتل فيها الملكان كما مر فنقول انه لم يحصل تغير فى هذه العلاقات الا فى وقت اشتغال فرنسا فى محاربة النمسا أيام وزارة ( الكاردينال ريشليو ) (٣) الذى كان عاملا على

---

(١) ولد هذا الملك الشهير في سنة ١٦٢٢ وتولى ملك السويد سنة ١٦٥٤ وكان ميالا للحرب لتوسيع نطاق مملكته والسيادة على شمال أوروبا فحارب بولونيا سنة ١٦٥٥ وقهر جيوشها في واقعة وارسوفيا وفتح معظم ولاياتها ثم حارب الدانمرك في شتاء سنة ١٦٥٧ ولشدة البرد وتجمد مياه البحر بين سواحل السويد ومدينة كوبنهاج عاصمة الدانمرك مر بجيوشه على البحر وهاجم المدينة ودخلها وألزم ملكها أن يتنازل له عن عدة مقاطعات مهمة ثم عاود عليها الكرة وفي أثناء حصارها توفي في سنة ١٦٦٠ ونجت الدانمرك منه

(٢) تسمى هذه المدينة ياش عند الترك وهي مدينة رومانية قديمة وعاصمة ولاية البغدان وأطلق اسمها على معاهدة أمضيت فيها بين الروس والدولة العلية في ٩ يناير سنة ١٧٩٢

(٣) اشتهر هذا الكردينال في تاريخ العالم الاوروبي بالسياسة والتدبير ويسميه البعض بنمارك

اذلالها اعلاء لشأن فرنسا فاخذ نفوذ فرنسا لدى الباب العالى فى الضعف شيئاً فشيئاً حتى تقاسمت معها البندقية حق حماية الكنائس المسيحية فى غلطة أيام السلطان مراد الرابع الذي طرد طغمة اليسوعيين من الاستانة سنة ١٦٢٨ بناء على الحاح سفراء انكلترا وهولاندا سعياً وراء اضعاف نفوذ الكاتوليك وتقرير نفوذ البروتستانت بما ان دولتى انكلترا وهولاندا كانتا فى ذلك العصر بروتستانتيين دون باقى الدول الاوروبية ولعدم مدافعة فرانسا عن امتيازاتها اختص اليونانيون بخدمة بيت المقدس مع ان ذلك كان منوطا بارهبان الكاتوليك بمقتضى المعاهدات المبرمة مع سليمان الاوّل وتجدّدت أيام محمد الثالث وأحمد الاوّل كما مر ومما زاد علاقات الدولتين فتوراً وجعل الحق بجانب الدولة العثمانية تداخل فرنسا سرّاً بمساعدة البنادقة على الدفاع عن جزيرة كريد وامدادها لهم بالسلاح وضبط عدّة مراسلات رمزية كانت مرسلة الى المسيو ( دى لاهى ) مع شخص فرنساوى موظف فى بحرية البندقية وهوسلمها بنفسه الى الوزير ( كوبريلى ) سنة ١٦٥٩ طمعاً فى المال وكان اذ ذاك بمدينة أدرنه ولما لم يمكنه حلّ رموزها أرسل الى الاستانة يستدعى السفير الفرنساوى ولتمرّضه أرسل ولده الى أدرنه مكانه فلما مثل بين يدى الصدر الاعظم وسأله عن معنى هذه الرموز لم يراع فى جوابه آداب المخاطبة فامر بسجنه فى الحال ولما بلغ خبر سجنه الى والده سافر الى أدرنه خوفا على حياة ولده ولم يمنعه اشتداد مرضه عن السفر وقابل الوزير كوبريلى محمد باشا ولما لم يرشده السفير عن معنى الجوابات المرموزة لم يقبل اخلاء سبيل ابنه بل سافر الى ولاية ترنسلفانيا ولم يطلق سراحه الا بعد عودته فى سنة ١٦٦٠ ولما علم الكردينال مازرين (١) بحبس ابن السفير أرسل الى الاستانة سفيراً فوق العادة اسمه المسيو دى بلندل ومعه جواب من سلطان فرنسا يطلب فيه الاعتذار عما حصل وعزل الصدر الاعظم لكن لم يسمح لهذا السفير بالوصول الى السلطان بل قابله الصدر الاعظم

---

زمانه وكانت كل مساعيه موجهة نحو أمرين أولهما اذلال أشراف فرنسا لتقوية سلطة الحكومة وثانيهما اضعاف مملكة النمسا حتى لايخشي منها على فرنسا فساعد جوتساف ادولف ملك السويد علي محاربتها ثم حاربتها فرنسا جهاراً وبسبب سياسته هذه أمضيت معاهدة وست فليا الشهيرة سنة ١٦٤٨ بعد موته بست سنوات واضطهد البروتستانت وفتح مدينة لاروشيل التى احتموا بها سنة ١٦٢٨ وكان محبا للانتقام لايتأخر أمام أى أمر لنفاذ أغراضه لكنه أفاد فرنسا في الداخل والخارج ولولاه لسقطت بسبب ضعف ملكها لويز الثالث عشر ووهن عزيمته ولهذا الكردينال الفضل في تأسيس مجلس العلوم الفرنساوى ( اكاديمي ) سنة ١٦٣٥ وتأسيس حديقة النباتات وعدة مدارس أخري وكانت ولادته سنة ١٥٨٥ ووفاته سنة ١٦٤٢

(١) ولد هذا الكردينال باحدى مدن ايطاليا سنة ١٦٠٢ واستدعاه ريشليو الي فرنسا ليرشحه لمنصب الوزارة ولما قرب موته أوصي الملك لويز الثالث عشر بتنصيبه بعده فعينه وزيرا بعد وفاته سنة ١٦٤٣ ثم عضوا في مجلس الوصاية على ولده لويز الرابع عشر وبحسن سياسته أمضيت معاهدة وست فليا ومعاهدة البيريني وتوفي سنة ١٦٦١ بعد ان سهل سبل ارتقاء فرنسا الي أوج عظمتها في عهد لويز الرابع عشر الملقب بالكبير

بكل تعاظم وكبرياء ولذلك ساعدت فرنسا جزيرة كريد جهاراً وأرسلت اليها أربعة آلاف جندى وأجازت الى البندقية جمع عساكر متطوعة من فرنسا وأمدت النمسا بالمال طمعاً فى اشغال الدولة وانتقاماً منها لكن لم تثن هذه الاجراآت عزيمة كوبريلى محمد باشا بل مالبث يقاوم أعداء الدولة فى الداخل والخارج حتى أعاد لها سالف مجدها وجعلها محترمة فى أعين الدول أجمع بعد أن كادت تؤدى بها الفتن الداخلية الى الدمار ولما أحس باقتراب أجله لاشتداد المرض عليه طلب منه السلطان محمد الرابع أن يدله على من يعينه خلفاً له بعد وفاته فأوصاه بتولية ابنه أحمد ثم توفى سنة ١٠٧٢ الموافقة سنة ١٦٦١ وخلفه ابنه كوبريلى زاده أحمد باشا

فتح قلعة نوهزل

وكان خير خلف لخير سلف فانه كان متصفاً بالشجاعة والاقدام وحسن الرأى واصالة التدبير واستمر على خطة أبيه من عدم التساهل مع الجندية ومجازاة من يقع منه أقل أمر مخل بالنظام باشد العقاب ومحاربة أعداء الدولة بدون فتور أو ملال حتى يزيل من أذهانهم ماخامرها من تضعضع أحوال الدولة وقرب زوالها ولذلك لم يقبل مافاتحته به دولة النمسا وجمهورية البندقية من الصلح وقاد الجيوش بنفسه وعبر نهر الطونة لمحاربة النمسا ووضع الحصار أمام قلعة (نوهزل) فى يوم ١٣ محرم سنة ١٠٧٤ الموافق ١٧ أغسطس سنة ١٦٦٣ ومع ان هذه القلعه كانت مشهورة فى جميع أوروبا بالمناعة وعدم امكان أى أحد التغلب عليها وفتحها فقد اضطر كوبريلى أحمد باشا حاميتها الى التسليم بشرط خروج من بها من الجنود بدون أن يمسهم ضرر تاركين مابها من الاسلحة والذخائر وأخلوها فعلا فى ٢٥ صفر سنة ١٠٧٤ الموافق ٢٨ سبتمبر سنة ١٦٦٣ بعد البدء فى حصارها بستة أسابيع ولذلك اضطربت أوروبا باجمعها لهول هذا الخبر الذى دوى فى آذان ملوك أوروبا ووزرائها كالرعد حتى وضعوا أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت وكان هذا الفتح المبين أشد تأثيراً على ليوبولد(١) امبراطور النمسا أكثر من غيره لدخول الجيوش العثمانية فى بلاده وانتشارها فى اقليمى مورافيا وسيليزيا فاتحين غازين حتى خيل له أن السلطان سليمان قد بعث من رمسه لفتح ويانه عاصمة دولته ولذلك وسط البابا اسكندر السابع فى طلبه المساعدة له من لويز الرابع عشر (٢) ملك فرنسا وكان قد عرض عليه فى

---

(١) هو ليوبولد الاول امبراطور ألمانيا ولد سنة ١٦٤٠ وتولي بعد موت أبيه فرديناند الثالث سنة ١٦٥٨ وحارب الترك وقومهم مقاومة شديدة في واقعة سان جوتارحيث كانت جيوشه تحت قيادة الجنرال منت كوكللي في سنة ١٦٦٤ وفي عهده ضمت بلاد الالزاس الي فرنسا وفي سنة ١٦٨٣ قصد العثمانيون مدينة ويانه عاصمة بلاده وحاصروها بالاتحاد مع المجر ولولا مساعدة جميع الممالك المسيحية له تقريبا لسقطت في قبضتهم وفي سنة ١٦٩٩ أمضي مع الباب العالي معاهدة كارلوفتس الشهيرة التي سيأتى ذكرها في صلب هذا الكتاب وفي أواخر حكمه ابتدأت بينه وبين فرنسا الحرب بسبب ملك اسبانيا الذى كان يريد لويز الرابع عشر اقامة حفيده فيليب الخامس ملكا عليها وتوفي سنة ١٧٠٥ قبل انتهاء هذه الحروب

(٢) ولد هذا الملك العظيم الشان سنة ١٦٣٨ وتولي الملك بعد موت أبيه لويز الثالث عشر وسنه خمس سنوات وكانت أيامه أيام حروب مع اسبانيا والنمسا وغيرهما وتالبت عليه أغلب الدول أكثر من مرة وتاريخه

ابتداء الحرب امداده باربعين ألفا من الالمانيين المحالفين له فابى خوفا من اظهار الضعف فسعى البابا جهده لدى ملك فرنسا حتى قبل بارساله ستة آلاف جندى فرنساوى وأربعة وعشرين ألفاً من محالفيه الالمانيين تحت قيادة الكونت دى كولينى

وانضم هذا الجيش الى الجيش النمساوى القائد له الكونت دى ستروتزى وابتدأت المناوشات بين الجيشين المتحاربين فقتل القائد العام النمساوى وخلفه القائد الشهير (مونت كوكوللى) وكان قد انضم الى الجيش الفرنساوى عدد عظيم من شبان الاشراف تحت رئاسة الدوك دى لافوياد وفى الاوائل كان النصر فى جانب العثمانيين فاحتل كوبريلى أحمد باشا مدينة (سرنوار) وعسكر على شاطىء نهر يقال له نهر (راب) والاعداء معسكرون أمامه وبعد ان حاول عبوره وصدّه الجيش النمساوى الفرنساوى جمع كل قواه فى يوم ٨ محرم سنة ١٠٧٥ الموافق أوّل اغسطس سنة ١٦٦٤ وعبر النهر عنوة وبعد قليل انتصر على قلب جيش العدوّ ولولا تداخل الفرنساويين وخصوصاً الاشراف منهم لتم للعثمانيين النصر لكن لم يمكن الانكشارية الثبات أما جنود العدوّ الاكثر منهم عدداً فانهم كلما قتل منهم صف تقدّم الآخر وبذلك انتهى اليوم بدون انتصار تام لاحد الفريقين فان العثمانيين حافظوا على مراكزهم بدون تقدم للامام وسميت هذه الواقعة بواقعة (سان جوتار) نسبة لكنيسة قديمة حصلت الحرب بالقرب منها وبعد ذلك تبادلت المخابرات توصلا للصلح وبعد عشرة أيام أبرمت بين الطرفين معاهدة أهم مابها اخلاء الجيش لاقليم ترنسلفانيا وتعيين (ابافى) حاكما عليها تحت سيادة الدولة العلية وتقسيم بلاد المجر بين الدولتين بان يكون للنمسا ثلاث ولايات وللباب العالى أربعة مع بقاء حصنى (نوفيجراد) (ونوهزل) تابعين للدولة العلية

هذا ولو أن الحرب انتهت على حدود النمسا الا ان فرنسا مازالت مراكبها تطارد سفن المغرب بحجة انها تغزو سفنها ومازالت هذه حجتهم حتى استولوا على اقليمى الجزائر وتونس فى هذا القرن واستمر هذا الحرب مدّة بغير صفة رسمية وفى سنة ١٦٦٦ أرسل الوزير الفرنساوى (كولبر) (١) الذى خلف (مازارين) سفيراً للدولة لاصلاح ذات بينهما لكن لم يصب فى

---

مشحون بالوقائع الشهيرة التي امتاز فيها كثير من القواد البرية والبحرية مما يطول شرحه وفي عصره تقدمت جميع العلوم ونمت التجارة والزراعة لكن تضعضعت الاحوال في آخر حكمه بسبب استمرار الحروب ومما يجعل في تاريخه نقطة سوداء اضطهاد البروتستانت والغاؤه مامنحه لهم هنرى الرابع من الحرية الدينية بمقتضي الامر السامي الصادر في مدينة (نانت) حتى هاجر كثير من الاشراف والمزارعين والصناع الى البلاد الخارجية للتمتع بالحرية الدينية وتوفي في أول سبتمبر سنة ١٧١٥ عن ٧٧ سنة وكانت مدة حكمه ٧٢ سنة وخلفه في الملك لويز الخامس عشر ابن أحد أحفاده

(١) اقتصادى شهير ولد سنة ١٦١٩ فتدرب علي الاعمال في وزارة الكردينال مازرين وفي سنة ١٦٦٠ عين مراقبا عاما للمالية فأجرى بها عدة اصلاحات وسوى كافة ديون الحكومة ونقص الضرائب حتى عمت الرفاهية والثروة واليه يرجع فضل تأسيس المرصد الفلكي وفتح خليج لانج دوك الموصل بين البحر الابيض المتوسط والمحيط الاطلانطيقي لسهولة الملاحة وله عدة مآثر أخرى يضيق المقام عن حصرها وفي سنة

الا تخاب فانه أرسل ابن المسيو دى لاهى الذى حبسه الوزير كوپريلى أحمد باشا فى ادرنه كما سبق ذكره ولذلك لم تفد مأموريته شيئاً بل أبى الصدر تجديد الامتيازات الفرنساوية التجارية وحرمها حق أمرار بضائعها من مصر فالسويس الى الهند وزيادة على ذلك منحت الى جمهورية (جنوا) امتيازات خصوصية شبيهة بامتيازات انكلترا ولذلك جاهرت فرنسا بمساعدة مدينة (كانديا) على محاربة العثمانيين فسار الصدر سنة ١٦٦٧ بنفسه لتتميم فتح هذه المدينة الحصينة التى كادت تعيي الدولة واستمر الحصار والقتال مدّة أكثر من سنتين لامداد فرانسا لها بالمال والرجال والسفن الحربية وأخيراً اضطرت الحامية الى التسليم فسلمها قائدها (موروزينى) فى ٢٩ ربيع الثانى سنة ١٠٨٠ الموافق ٢٦ سبتمبر سنة ١٦٦٩ بعد ان أمضى مع الصدر معاهدة بالنيابة عن جمهورية البندقية تقضى بالتنازل للدولة العلية عن جزيرة كريد ماعدا ثلاث قرى وهى (قره بوزا) و (سودا) و (سبينا لونجا) وصدّقت البندقية عليها فى فبراير سنة ١٦٧٠ وفى هذه الاثناء كان المسيو دى لاهى سفير فرانسا مقيما بالاستانة يسعى جهده فى الحصول على تجديد الامتيازات فلم يفلح

وفى سنة ١٦٧٠ أرسل لويز الرابع عشر سفيراً غيره يدعى الماركى دى نوانتل بعمارة بحرية حربية بقصد ارهاب الصدر وتهديده بالحرب اذا لم يذعن لطلبات فرانسا لكن لم ترهبه هذه التظاهرات بل قابل السفير بكل سكون وقال له ان تلك المعاهدات لم تكن الا منحاً سلطانية لا معاهدات اضطرارية واجبة التنفيذ وانه ان لم يرتح لهذا الجواب فما عليه الا الرحيل ولما وصل هذا الجواب الى ملك فرانسا أراد اعلان الحرب على الدولة ولولا نصائح الوزير (كولبر) لركبت فرانسا هذا المركب الخشن وجلبت لنفسها ضرراً فادحاً بقفل أبواب الشرق أمام مراكبها بل تمكن كولبر بحكمته وسياسته ومعاملة الدولة العلية باللين والخضوع من تجديد المعاهدات القديمة فى سنة ١٦٧٣ وفوّض ثانياً الى فرانسا حق حماية بيت المقدس كما كان لها ذلك من أيام السلطان سليمان وبذلك عادت العلاقات الى سابق صفائها بين الدولتين ومما زاد حدود الدولة اتساعاً ومنعة من جهة الشمال خضوع جميع القوزاق الساكنين بالجزء الجنوبى من بلاد الروسيا الى الخليفة الاعظم محمد الرابع بدون حرب بل حباً فى الدخول فى حمى حامى دولة الاسلام ولذلك أغارت بولونيا على ولاية (أوكرين) فاستنجد حاكمها الاكبر بالعثمانيين فانجده السلطان وسار بنفسه فى جيش جرار ووصل فى قليل من الزمن الى حصن رامنيك فى ٢٣ ربيع آخر سنة ١٠٨٣ الموافق ١٨ أغسطس سنة ١٦٧٢ واحتل هذا الحصن عنوة بعد محاصرة استمرت عشرة أيام وكذلك احتل مدينة لمبرج الشهيرة (١) فطلب سلطانهم (ميشل) الصلح على أن يترك اقليم

---

١٦٦٩ أضاف اليه الملك نظارة البحرية فرتبها أحسن ترتيب وأنشأ عدة سفن وتوفي سنة ١٦٨٣ بعد ان خلد اسمه في تاريخ فرنسا باعماله التي لم يزل كثير منها باقيا الي الان

(١) هي عاصمة ولاية غاليسيا التابعة لمملكة النمسا ويبلغ عدد سكانها ١٢١ ألف نسمة وتبعد عن مدينة

أوكرين للقوزاق وولاية (بودوليا) للدولة العلية ويدفع لها جزية سنوية قدرها مائتان وعشرين ألف بندقى ذهبا فقبل السلطان هذه الشروط وأمضيت بينهما فى ٢٥ جمادى الاولى سنة ١٠٨٣ الموافق ١٨ سبتمبر سنة ١٦٧٢ أى بعد اعلان الحرب بشهر واحد وسميت هذه المعاهدة بمعاهدة بوزاكس

لكن لم تقبل الامة البولونية بهذا الوفاق بل أصرّت على استمرار القتال وأرسلت قائدهم الشهير سوبيسكى بجيوش جرارة لمحاربة العثمانيين فاستردّ مدينة لمبرج واظهاراً لممنونية الامة انتخبته ملكا عليها بعد موت ميشل سنة ١٦٧٣ واستمرّت الحرب بين الدولتين سجالا الى سنة ١٦٧٦ وفيها جدّد الملك سوبيسكى الصلح بعد أن فقد معظم جيوشه فى هذه الحروب المستمرّة وتنازل للدولة العلية عما كان تنازل لها عنه الملك ميشل الى بعض مدن قليلة الاهمية وكانت هذه المعاهدة خاتمة أعمال كوپريلى أحمد باشا الذى توفى بعد اتمامها بقليل فى ٢٤ رمضان سنة ١٠٨٧ الموافق ٣٠ اكتوبر سنة ١٦٧٦ عن واحد وأربعين سنة قضى منها خمسة عشر سنة فى منصب الصدارة العظمى بكل أمانة وصداقة سائراً فى ذلك على خطة والده المرحوم كوپريلى محمد باشا وتقلد منصب الصدارة بعده زوج أخته قره مصطفى ولم يكن كفؤاً للسير فى الطريق الذى رسمه كوپريلى الكبير وولده بل اتبع مصلحته الذاتية وباع المناصب العالية والمعاهدات والامتيازات المجحفة بالدولة حالا واستقبالا بدراهم معدودة وبسوء سياسته كدّر خواطر القوزاق وأبعدهم عن الدولة حتى ان خان اقليم (أوكرين) عصاها جهاراً فى فبراير سنة ١٦٧٧ واستنجد بالروسيا التى كانت آخذة اذ ذاك فى تنظيم داخليتها وتقدّم أمتها وكانت تتوق للدخول ضمن المجتمع الاوروبى فامدّته بالرجال وحاربت عساكر الدولة واستمرّ الحرب بين القوزاق والروس من جهة والعثمانيين من جهة أخرى بين أخذ وردّ حتى سنة ١٦٨١ حيث تم الصلح بينهم على بقاء الحالة على ما كانت عليه قبل ابتداء الحرب وسميت هذه المعاهدة بمعاهدة رادزين

وفى هذه السنة سار قره مصطفى باشا الى بلاد المجر لمحاربة النمسا بناء على استدعاء (تيليكى) أحد أشراف المجر الذى أثار الايالات المجرية التابعة للنمسا للتخلص من استبدادها الدينى فان الامبراطور ليوبولد لكونه كاثوليكيا كان يامر بقتل كل من يلوح عليه أدنى ميل الى مذهب البروتستانت

حصار مدينة ويانه اخر دفعة

وبعد ان انتصر عدّة مرات على النمساويين قصد مدينة ويانه عاصمة النمسا فحاصرها سنة ١٦٨٣ مدّة شهرين واستولى على كافة قلاعها الامامية وهدم أسوارها بالمدافع والغام

---

ويانه بمسافة ٥٨٠ كيلو مترا في الاتجاه الشمالي الشرقي واشتهرت في التاريخ بدخول شارل الثاني ملك السويد بها عنوة سنة ١٧٠٤ وتنصيبه ستانسلاس ملكا على بولونيا ضد رغائب في الدول وهي تابعة للنمسا من عهد تقسيم بولونيا سنة ١٧٧٣

البارود ولما لم يبق عليه الا المهاجمة الاخيرة المتممة للفتح أتى سو بيسكى ملك بولونيا ومنتخبي (ساكس) و (بافيرا) بجيوشهم بناء على الحاح البابا عليهم واستنهاضه هممهم لمحاربة المسلمين حتى أضرم فى قلوبهم نار التعصب الدينى وفى يوم ٢٠ رمضان سنة ١٠٩٤ الموافق ١٢ سبتمبر سنة ١٦٨٣ هاجم سو بيسكى ومن معه العثمانيين فى المرتفعات المتحصنين بها و بعد ان استمر القتال طول النهار فاز المسيحيون بالنصر وانهزم قره مصطفى باشا وجيوشه أمامهم تاركا كافة المدافع والذخائر والمؤن فكان يوماً مشهوداً يجعل الولدان شيباً ثم جمع قره مصطفى باشا مابقى من جنوده ولم شعثهم على نهر (راب) ومن هناك قفل راجعاً الى مدينة بود والملك سو بيسكى سائر خلفه يقتل كل من تخلف فى السير وفتح مدينة جران بكل سهولة ولما وصل خبر هذا الخذلان الذى لم يسبق لجيوش الدولة أمر السلطان محمد الرابع بقتل الصدر قره مصطفى باشا وأرسل أحد رجال حاشيته فقتله وأرسل برأسه الى القسطنطينية وعين مكانه ابراهيم باشا سنة ١٠٩٥

و بعد استخلاص مدينة ويانه تألبت كل من النمسا و بولونيا والبندقية ورهبنة مالطه والبابا ومملكة الروسيا على محاربة الدولة الاسلامية الوحيدة لمحوها من العالم السياسى والذى يدل على أن هذا التحالف كان دينياً محضا تسميته بالتحالف المقدّس ومما زاد احوال هذه الدولة القائمة بمفردها أمام جميع الدول المسيحية ارتباكا قطع العلاقات بينها و بين فرنسا بسبب المناوشات البحرية المستمرة بين مراكبها وقرصانات المغرب فان الاميرال دوكين(١) تبع ثمان مراكب من مينا طرابلس الغرب الى جزيرة ساقز ولما التجأت الى فرضتها واراد الاميرال الدخول الى المينا خلفها ومنعه حاكم الجزيرة اطلق مدافعه على المدينة بدون اعلان حرب وجاوبته قلاعها ولم يمتنع عن القاء القنابل على بيوت السكان حتى دمر المدينة وفى سنه ١٦٤٨ اطلق دوكين ايضا المدافع على مدينة الجزائر بالغرب مدّة ولم يكف عن القاء المقذوفات النارية عليها حتى دفع اليه اهلها مليونين ومائتى الف قرش غرامة حربية واطلقوا سراح من عندهم من اسرى الفرنساويين وفى السنة التالية فعل هذا الأمر الشنيع أيضا فى مينا طرابلس الغرب ولاشتغال الدولة بمحاربة التحالف المقدّس ضربت كشحا عن هذه التعدّيات المخالفة لقوانين الحرب ووجهت اهتمامها الى الجيوش المتعددة التى زحفت على بلادها من كل حدب فان جيوش الملك سو بيسكى كانت تهدد بلاد البغدان وسفن البنادقه تهدد سواحل اليونان و بلاد موره ولعدم وجود المراكب الكافية لصدّ هجمات سفن البنادقة التى كانت تعززها مراكب البابا و رهبنة مالطه احتلت جيوش

---

(١) ولد هذا الاميرال بمدينة (دييب) من أعمال فرنسا سنة ١٦١٠ من عائلة شريفة واتخذ الملاحة مهنة ونبغ فيها بسرعة غريبة حتي صار ربانا لسفينة وسنه سبعة عشر سنة ولما حصلت الاضطرابات في صغر لويس الرابع عشر هاجر الي بلاد السويد وعين بها (فيس أميرال) وانتصر على دونانمة الدانيمارك وفي سنة ١٦٤٧ رجع الي فرنسا واشتهر في عدة وقائع شهيرة وبسبب اتباعه لمذهب البروتستانت لم يعين اميرالا ولم يمنح ما كان يستحقه من القاب الشرف وتوفي سنة ١٦٨٨

البنادقة فى سنة ١٦٨٦ أغلب مدن اليونان حتى كورانته وآتينـه أما النمسا فاغارت جيوشها على بلاد المجر واحتلوا مدينة بست الواقعة امام مدينة بود وحاصروا هذه المدينة أيضا ولولا مدافعة حاكمها وحاميتها دفاع الابطال اسقطت فى ايديهم

وفى سنة ١٦٨٥ احتل النمساويون عدّة حصون وقلاع شهيرة اهمها قلعـة نوهزل وبسبب هذه الانهزامات المتعاقبة عزل الصـدر ابراهيم باشا ونفى فى جزيرة رودس ولم يلبث فى منصب الصدارة الا سنتين وتعين مكانه السرعسكر سليمان باشا وكان مشهوراً بحسن التدبير والشجاعة والاقدام لـكن كانت الدولة قد وصلت الى درجة من التقهقر أمام هذه القوى المتألبة عليها صار معها الخلاص صعبا سيما وقائد الجيوش النمساوية كان الدوك دى لورين الشهير

وكان اوّل اعمال سليمان باشا الاسراع الى انجاد مدينة بود التى كان يحاصرها الدوك دى لورين بتسعين الف جندى لـكن لم تجد مساعدته شيئا فان القائد المذكور دخلها عنوة فى يوم ١٣ شوال سنة ١٠٩٧ الموافق ٢ سبتمبر سنة ١٦٨٦ بعد ان قتل حاكمها عبدى باشا وأربعة آلاف من جنوده فى الدفاع عنها ولم تدخل هذه المدينة ثانيـاً فى حوزة العثمانيين الى الآن

وبعد سقوط هذه المدينة فى قبضة النمساويين ومحالفيهم اراد الصدر سليمان باشا أن يأتى عملا يكفر عنه عند الامة ما أتاه من التهاون فى مساعدة مدينـة بود لـكن اتاه الضرر من حيث كان يريد النفع لنفسه فانه جمع من بقايا كتائبه جيشا مؤلفاً من ستين الف مقاتل يعززهم سبعون مدفعـا وانتظر انقضاء الشتاء والربيع لشدة بردها وكثرة ما يسقط فيهما من الثلوج فى هذه الجهات باذلا جهده فى جمع الذخيرة الـكافية وفى تدريب جنوده خيفة الفشل والتصاق الهوان باسمه ثم هاجم جيوش التحالف المقدّس فى سهل موهاكز الذى سبق انتصار العثمانيين فيه على المجر نصراً عزيزاً قبل هذا التاريخ بمـائة وستين سنـة فالتحم الجيشان فى ٣ شوال سـنة ١٠٩٨ الموافق ١٢ اغسطس سنـة ١٦٨٧ وبعد قتال شديد دارت الدائرة على الجيوش العثمانيه فانهزموا عن آخرهم وأخذ العدوّ فى جمع مامعهم من المدافع والسلاح والمؤن والذخائر واحتلت جيوشه اقليم ترنسلفانيا وعدّة قلاع من (كرواسيه) ولما ذاع خبر هذا الانكسار بين الجيوش الموجودة بالاستانه هاجوا وماجوا وأرسلوا للجيوش الباقية مع الصدر سليمان باشا فاشهروا عليه العصيان ولولا فراره الى بلغراد لاعدموه الحياة ثم ارسل الانكشارية والسباه وفـداً للاستانة يطلب من السلطان الامر بقتل الصدر فلم ير بدّا من ذلك وامر بقتله تسكينا لثورة غضب الجند ولما لم يفد شيئا ولم تعـد السكينة بين الجيوش وخيف على المملكة العثمانيـة من الداخل قرر الوزير الثانى (القائمقام) قره مصطفى باتحاده مع العلماء عزل السلطان محمد الرابع فعزلوه فى ٢ محرم سنة ١٠٩٩ الموافق ٨ نوفمبر سنة ١٦٨٧ بعـد ان حكم

أربعين سنة وخمسة أشهر وبقى فى العزلة الى أن توفى فى ٨ ربيع الآخر سنة ١١٠٤
الموافق ١٧ دسمبر سنة ١٦٩٢ بالغاً من العمر ٥٣ سنة ودفن فى تربة والدته ترخان
سلطان وولوا بعد عزله أخاه

## ٢٠ « السلطان الغازى سليمان خان الثانى »

هو ابن السلطان ابراهيم الاوّل ولد فى ١٥ محرم سنة ١٠٥٢ الموافق ١٥ أبريل سنة ١٦٤٢
فأغدق العطايا على الجنود ولم يعاقبهم على عصيانهم الذى كانت نتيجته عزل خلفه ولذلك
مالبثت ان تمرّدت ثانياً وقتلت قوّادها وحاصرت الصدر الجديد سياوس باشا فى سرايه وقتلوه
وسبوا أزواجه فكانت الاستانة فوضى وانتهز الاعداء هذه الاختلالات والاضطرابات
المستمرّة لفتح الحصون العثمانية فاحتل النمساويون قلاع ( ارلو ) و ( لبا ) وغيرها واحتل
موروزينى البندقى مدينة ليبه من بلاد اليونان وكافة سواحل دلماسيا سنة ١٦٨٧ وفى
السنة التالية أى سنة ١٦٨٨ سقطت مدائن سمندرية وقلومباز وبلغراد فى أيدى
النمساويين ثم فقدت الدولة العثمانية فى سنة ١٦٨٩ مدائن نيش وودين من بلاد الصرب
وذلك لعدم كفاءة الصدر مصطفى باشا الذى أخلف سياوس باشا قتيل الانكشارية ولما
رأى السلطان توالى المصائب عزل هذا الصدر وعين مكانه كوبريلى مصطفى باشا ابن
كوبريلى محمد باشا الكبير ولم يكن أضعف همة من والده بل كان يشبهه فى علوّ المكانة ومضاء
العزيمة فبذل جهده فى بث روح النظام فى الجنود باللين طوراً وبالشدة أخرى ومنعهم عن
اغتيال حقوق الاهالى وصرف لهم متأخراتهم من مال الاوقاف حتى لا يكون لهم حجة فى
اختلاس شئ من الاهالى فانتظم حال الجيش وصار يمكن التعويل عليه فى الحروب ومن
جهة أخرى أباح للمسيحيين بناء ما تهدّم من كنائسهم فى الاستانة وعاقب بأشد
العقاب كل من تعرّض لهم فى اقامة شعائر دينهم حتى استمال جميع مسيحيي الدولة وكانت
نتيجة معاملاته المسيحيين بالقسط أن ثار أهالى موره الاروام على البنادقة فطردوهم من ديارهم
لتعرّضهم لهم فى اقامة شعائر مذهبهم الارثوذكسى واجبارهم على اعتناق المذهب الكاثوليكى
ودخلوا فى حمى الدولة العلية طائعين مختارين لعدم تعرّضها لديانتهم مطلقاً

ولما انتظم الجيش وطهر من الادران التى كادت تؤدى به الى الدمار وساد الامن داخل
البلاد سار بنفسه لمحاربة الاعداء فاسترد فى قليل من الزمن مدائن نيش وودين وسمندرية
وبلغراد فى سنة ١٦٩٠ بينما كان سليم كراى خان القرم يخضع ثائرى الصرب وتيكلى
المجرى يرجع اقليم ترنسلفانيا الى أملاك الدولة وبذلك أعاد كوبريلى مصطفى باشا بعض
مافقدته الدولة من المجد والسؤدد بسبب ضعف الوزراء وعدم اطاعة الانكشارية
وفى ٢٦ رمضان سنة ١١٠٢ الموافق ٢٣ يونيه سنة ١٦٩١ توفى السلطان سليمان الثانى
عن غير عقب وعمره ٥٠ سنة بعد أن حكم ثلاث سنوات وثمانية أشهر ودفن فى تربة جدّه

السلطان سليمان الاوّل وتولى بعده أخوه

## ٢١ « السلطان الغازى احمد خان الثانى »

المولود فى ٦ الحجة سنة ١٠٥٢ الموافق ٢٥ فبراير سنة ١٦٤٣ فابقى الصدر الاعظم اعتماداً عليه فى الحرب والسلم لكن لم تمهل المنية هذا الوزير الشهير بل قصفت عوده الرطيب وهو فى عنفوان شبابه فتوفى فى ٢٤ ذى القعدة سنة ١١٠٢ الموافق ١٨ أغسطس سنة ١٦٩١ فى ساحة القتال عند مهاجمة الجيوش النمساوية القائد لها لويز دى باد فكان موته ضربة على الدولة لعدم كفاءة عربه جى على باشا الذى أخلفه فى منصب الصدارة ولم تحصل أمور ذات بال فى أيام هذا السلطان بل اقتصرت الحرب على بعض مناوشات ليس لها من الاهمية شأن يذكر غير أن البنادقة احتلت فى سنة ١٦٩٤ جزيرة ساقز ثم انتقل الى رحمة مولاه فى ٢٢ جمادى الثانية سنة ١١٠٦ الموافق ٦ فبراير سنة ١٦٩٥ وعمره ٥٤ سنة قمرية تقريباً بعد أن حكم ٤ سنين و ٨ أشهر ودفن فى تربة جدّه سليمان الاوّل مع أخيه سليمان الثانى وتولى بعده

## ٢٢ « السلطان الغازى مصطفى خان الثانى »

ابن السلطان محمد الرابع المولود فى ٨ ذى القعدة سنة ١٠٧٤ الموافق ٢ يونيه سنة ١٦٦٤ وكان متصفاً بالشجاعة وثبات الجاش ولذلك أعلن بعد توليته بثلاثة أيام رغبته فى قيادة الجيوش بنفسه فسار الى بلاد بولونيا مستعيناً بفرسان القوزاق وانتصر على البولونيين عدّة مرات ولولا مالاقاه من الدفاع أمام مدينة لمبرج لتقدّم كثيراً لكن كان هذا الحصن المنيع من أكبر العوائق لاستمرار فتوحاته ومن جهة أخرى حارب الروس واضطرهم لرفع الحصار عن مدينة ازاق ببلاد القرم التى حاصرها بطرس الاكبر (١) لتكون ثغراً لبلاده على البحر الاسود اذ كانت قبائل القوزاق تحول بين هذا البحر و بين بلاده فرفع الحصار عنها رغم أنفه فى اكتوبر سنة ١٦٩٥ معللا نفسه بمعاودة الكرة عليها عند تهيء الاسباب و بعد ذلك أغار السلطان بجيوشه ثانياً على بلاد المجر وفتح حصن (لبا) عنوة وهزم الجنرال (فترانى) فى موقعة لوجوس وقتل من عساكره ستة آلاف

(١) ولد هذا الامبراطور الشهير ممدن الروسيا سنة ١٦٧٢ وتولي الملك سنة ١٦٨٢ فنازعه أخوه الاكبر (ايوان) وأخته صوفيا وفي سنة ١٦٨٩ استقل بالملك بعد استقالة أخيه وحجز أخته في أحد الاديرة ومن ذلك الحين أخذ في اصلاح داخليته ثم سافر الي ممالك أوربا سنة ١٦٩٧ للنظر في نظاماتها وتقليد ماينطبق منها علي عوائد بلاده وعاد الي موسكو بعد سنة وأبطل جيش (الاسترلتز) الذى كان أشبه بعساكر الانكشارية وجماعات المماليك بمصر وأسس مدينة سان بطرسبورج ونقل اليها عاصمة أملاكه وحارب شارل الثاني عشر ملك السويد ومملكة العجم وأخذ منها عدة ولايات مهمة وتوفي في ٨ فبراير سنة ١٧٢٥ وخلفته زوجته كاترينه الاولى

جندى وأخذه أسيراً وقتله فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٦٩٥ الموافق ١٢ صفر سنة ١١٠٧
وفى سنة ١٦٩٦ فاز السلطان فوزاً مبيناً على منتخب ( ساكس ) فى موقعة أولاش وبعد ذلك تقلد البرنس (أوجين دى سافوا) القائد الشهير قيادة الجيش النمساوى فاعمل الفكرة فى عدم ملاقاة الجيش العثمانى فى الاراضى السهلة بل حاوله مدة بدون أن يمكن السلطان من مهاجمته حتى فاجاه هو أثناء عبور الجنود العثمانية لنهر ( تيس ) وعدم استعدادها للدفاع بالقرب من قرية صغيرة اسمها زينتا فقتل منهم عدداً عظيما من ضمنهم الصدر الاعظم الماس محمد باشا وغرق منهم فى النهر أكثر ممن قتل ولولا وجود السلطان على الضفة الاخرى لسقط فى أيديهم أسيراً وكان ذلك فى ٢٥ صفر سنة ١١٠٩ الموافق ١١ سبتمبر سنة ١٦٩٧ ثم تبعهم البرنس أوجين ودخل بلاد البوسنه فاتحاً وعين بعد ذلك عموجه زاده حسين باشا كوبريلى صدراً أعظم

وفى أثناء اشتغال السلطان ببلاد المجر عاد بطرس الاكبر الروسى لفتح مينا ازاق لاهميتها لمملكته فدخلها فى خلال سنة ١٦٩٦ ولم تزل تابعة للروسيا حتى الآن فكانت الدولة فى خطر شديد من جهتى الروسيا والنمسا لكن أوقف الصدر الاعظم كوبريلى حسين باشا البرنس أوجين فى سيره وألزمه التقهقر أمامه حتى أخلى بلاد البوسنه ورجع الى ماوراء نهر ( ساف ) واسترد الاميرال البحرى العثمانى الملقب ( مزومورتو ) جزيرة ساقز بعد أن انتصر دفعتين على مراكب البندقية ثم ابتدأت المخابرات للوصول الى الصلح فتداخل ملك فرنسا لويس الرابع عشر وأراد أن يدخل الدولة فى معاهدة ( ريسويك ) (١) فلم تقبل لعلمها أن جميع الدول يد واحدة عليها ولو أظهرت لها احداها التودد فذلك لم يكن الا لغاية كامنة فى النفس والتاريخ الحالى شاهد عدل

وبعد مخابرة طويلة أمضيت بين الدولة العلية والنمسا والروسيا والبندقية وبولونيا معاهدة كارلوفتس فى ٢٤ رجب سنة ١١١٠ الموافق ٢٦ يناير سنة ١٦٩٩

فتركت الدولة بلاد المجر باجمعها واقليم ترنسلفانيا لدولة النمسا وتنازلت عن مدينة ازاق وفرضتها للروسيا فصار لها بذلك يد على البحر الاسود وزادت أهمية جوارها للدولة العلية أضعاف ما كانت عليه من قبل وردت لمملكة بولونيا مدينة ( كامينك ) واقليمى ( بودوليا ) واوكروين وتنازلت للبندقية عن بحيث جزيرة مورا الى نهر ( هكساميلون ) واقليم دلماسيا على البحر الادرياتيكى باجمعه تقريباً واتفقت مع النمسا على مهادنة خمس وعشرين سنة وأن لاتدفع هى أو غيرها شيئاً للدولة العلية على سبيل الجزية أو مجرد الهدية وبهذه المعاهدة فقدت الدولة جزأ ليس بقليل من أملاكها باوروبا وزادت أطماع الدول فى بلادها كما سيأتى مفصلا

---

(١) قرية ببلاد هولانده أمضيت فيها في ٢٠ سبتمبر سنة ١٦٩٧ معاهدة بين فرنسا من جهة وألمانيا واسبانيا وانكلترا وهولانده من جهة أخرى وبمقتضاها اعترفت الدول بامتلاك فرنسا لمدينة ستراسبورج وبلاد الالزاس

ويمكننا القول بان الاتفاق قد تم من ذلك التاريخ بين جميع الدول ان لم يكن صراحة فضمنا على الوقوف أمام تقدم الدولة العلية أولا ثم تقسيم بلادها بينهم شيئاً فشيئاً وهو مايسمونه فى عرف السياسة بالمسألة الشرقية المبنية على الخوف من انتشار الدين الاسلامى وحلوله محل الدين المسيحى ليس الا أما مايسترون خلفه غاياتهم من الدفاع عن حقوق الامم المسيحية الضعيفة الخاضعة للدولة فمما لم يعد أحد يغتر به

وبعد اتمام هذه المعاهدة التى ربما كانت أوخم عاقبة لولا استظهار كوربريلى حسين باشا على البرنس أوجين قائد الجيوش النمساوية فى بلاد البوسنة وجه هذا الوزير اهتمامه الى الامور الداخلية والشؤون المالية والاحوال العسكرية مما لاقوام لاى دولة الا بانتظامها وتقويم المعوج منها فاتى لكل منها بالدواء الكافى والعلاج الشافى وترك كثيراً من الاموال المتأخرة على الاهالى لاسيما المسيحيين منهم حتى لايجد منهم المفسدون المضلون نصراء الاجانب وسماسرتهم أذنا صاغية لدسائسهم الايهامية ووساوسهم الشيطانية التى يسلمون بها بلادهم للاجانب طمعا فى مال أو جاه لن يكونوا بالغيه ولله فى خلقه آيات ثم استقال هذا الوزير المصلح فى ١٢ ربيع الآخر سنة ١١١٤ الموافق ٥ سبتمبر سنة ١٧٠٢ وعين مكانه فى منصب الصدارة (دال طبان مصطفى باشا) وكان جنديا ميالا للحرب ولذلك لم يسر على خطة سلفه من اصلاح الشؤون الداخلية وتنظيم البلاد وانشاء الطرق العمومية وغيرها من الاعمال والاشغال العمومية وعدم اضاعة النفوس والاموال فى الحروب واضافة البلاد لبعضها بدون اصلاح أو تنظيم اكتفاء بما يؤخذ من الغنائم وقت الحرب بل أراد أن يخرق عهدة كارلوفتس مع حداثتها ويثير الحرب على النمسا ولشعور الاهالى والجنود بمضار هذه السياسة على الدولة لما وراءها من تألب الدول عليها ثانياً وأخذ بعض بلادها تذمروا ضد الوزير واشترك معهم بعض الجنود وطلبوا من السلطان عزله فاقاله فى ٦ رمضان سنة ١١١٤ الموافق ٢٦ نوفمبر سنة ١٧٠٢ وتعين محله (رامى محمد باشا) فسار على أثر كوبريلى حسين باشا وشرع فى ابطال المفاسد ومعاقبة المرتشين ومنع المظالم فاهاج ضده أرباب الغايات وكثير عدادهم وأثاروا عليه الانكشارية لميلهم بالطبع الى الهياج للسلب والنهب وهتك الاعراض فطلبوا عزله من السلطان فامتنع وأرسل لقمعهم فرقة من الجنود فانضمت الى الثائرين وعزلوا السلطان مصطفى الثانى فى ٢ ربيع الآخر سنة ١١١٥ الموافق ١٥ أغسطس سنة ١٧٠٣ بعد أن حكم ٨ سنوات و ٨ شهور وبقى معزولا الى أن توفى فى ٢٢ شعبان من السنة المذكورة الموافق ٣١ دسمبر سنة ١٧٠٣ وعمره أربعون سنة تقريبا وأقاموا مكانه بعد عزله أخاه

## ٢٣ «السلطان الغازى احمد خان الثالث»

ابن السلطان الغازى محمد الرابع المولود فى ٣ رمضان سنة ١٠٨٣ الموافق ٢٣

دسمبر سنة ١٦٧٣ وعند تعيينه وزع أموالا طائلة على الانكشارية وسلمهم فى قتل المفتى فيض الله أفندى لمقاومتـه لهم فى أعمالهم ثم لما قرّت الاحوال وعادت السكينة اقتص من رؤس الانكشارية فقتل منهم عدداً ليس بقليل وعزل فى ٦ رجب سنة ١١١٥ الصدر الاعظم نشانجى أحمد باشا الذى انتخبه الانكشارية وقت ثورتهم وعين فى هذه الوظيفة المهمة زوج أخته داماد حسن باشا لكن لم تحمه مصاهرته للسلطان ولا ما آتاه من الاعمال النافعة كتجديد الترسانة وانشاء كثير من المدارس من أن يكون هدفا لدسائس المفسدين أرباب الغايات الذين لا يروق فى أعينهم وجود أعنة الامور فى قبضة رجل حازم يحول بينهم وبين ما يشتهون فاعملوا افكارهم وبذلوا جهدهم حتى تحصلوا على عزله فى ٢٨ جمادى الاولى ١١١٦ ومن بعده كثر تغيير الصدور تبعاً للاهواء وكانت نتيجة ذلك ان الدولة لم تلتفت لاجراآت بطرس الاكبر ملك الروسيا فى داخلية بلاده ولم تدرك كنه سياسته الخارجية المبنية على أضعاف الاقوياء من مجاوريه أى السويد وبولونيا والدولة العثمانية وانه قد ابتدأ فى تنفيذ مشروعه هذا بان حارب شارل الثانى عشر (١) السويدى وانتصر عليه أخيراً نصراً عظيما فى واقعة (بولتاوا) فى سنة ١٧٠٩ ولو فطنت الدولة ووزراؤها الى ما انطوت عليه هذه السياسة للزمها مساعدة السويد على الروسيا حتى يكونا مع بولونيا حاجزاً ضدّ أطماعها لكنها لم تفقه لهذا السرّ السياسى فقلبت لشارل الثانى عشر ظهر المجن حتى لما التجا بعد واقعة بولتاوا الى مدينة (بندر) وأخذ فى استمالة الدولة لمحاربة الروسيا ولكن لم ينجح فى مسعاه لمعارضة الوزير نعمان باشا كوبريلى للحرب

ثم لما عزل الوزير وتولى بعده (بلطه جى محمد باشا) مال لاثارة الحرب على الروسيا فاشهر عليها الحرب وقاد الجيوش بنفسه وبعد مناورات مهمة حصرت الجيوش العثمانية البالغ قدرها مائتى ألف جندى قيصر الروسيا وخليلته كاترينا (٢) ولو استمر عليهم الحصار قليلا لاخذ أسيراً هو ومن معه وانمحت الدولة الروسية كلية من العالم السياسى أو بالاقل بقيت فى

(١) هو ابن شارل الحادى عشر ولد سنة ١٦٨٢ وتولي الملك سنة ١٦٩٧ ولصغر سنه تألب ضده ملك الدانيمرك وملك بولونيا وقيصر الروسيا فحارب الدانيمرك أولا وانتصر عليها ثم حارب الروسيا فقهرها ثم سار الي بلاد بولونيا وانتصر عليها وعزل ملكها وأقام مكانه أحد محالفيه وفي سنة ١٧٠٩ قصد مدينة موسكو فانتصر عليه بطرس الاكبر في واقعة بولتاوه واحتمى هو بمدينة بندر ببلاد الترك حيث أقام عدة سنين وفي أثناء غيابه عن بلاده عاد ملك بولونيا اليها واستولي الروس على عدة ولايات من أملاكه وأخيراً خرج من بلاد الترك قهرا عنه بعد أن قاوم مقاومة شديدة وقتل سنة ١٧١٨ عند حصاره احدي بلاد النرويج

(٢) هي كاترينا الاول وأصلها من عائلة فقيرة باحدى ولايات ليفونيا تزوجت أولا بعسكرى سويدى ثم أخذت أسيرة سنة ١٧٠٢ عند دخول الروس مدينة مريم بورج ولفرط جمالها اتخذها البرنس منشكوف خليلة له وفي سنة ١٧١١ أعجبت بطرس الاكبر فاتخذها لنفسه ورافقته في أغلب حروبه وبعد ان أتت منه بعدة أولاد أعلن بتزوجها وتوجها امبراطورة في سنة ١٧٢٤ ولما توفي في السنة التالية أخلفته على سرير الامبراطورية واتبعت خطته في الاصلاحات وتوفيت سنة ١٧٢٧

التوحش والهمجية عدة أجيال لكن استمالت كاترينا بلطهجى محمد باشا اليها وأعطته كافة ما كان معها من الجواهر الكريمة والمصوغات الثمينة فخان الدولة ورفع الحصار عن القيصر وجيشه مكتفياً بامضاء القيصر لمعاهدة (فلكزن) المؤرخة ٩ جمادى الاخرة سنة ١١٢٣ الموافق ٢٥ يوليه سنة ١٧١١ الذى أخلى بمقتضاها مدينة ازاق وتعهد فيها بعدم التداخل فى شؤن القوزاق مطلقاً لكن لا يخفى على كل مطلع له ذرة من العقل ان هذه المزية لم تكن شيئاً مذكوراً فى جانب ما كان يمكن الدولة أن تناله من القيصر لو أهلكت جيشه واستولت عليه أسيراً ولذلك احتدم شارل الثانى عشر السويدى نزيل بندر غيظاً وسعى لدى السلطان بمساعدة خان القرم دولت كراى حتى تحصل على عزله وابعاده الى جزيرة لمنوس

وتولى بعده يوسف باشا وكان محباً للسلم فامضى مع الروسيا معاهدة جديدة تقضى بعدم المحاربة بينهما مدة ٢٥ سنة لكن لم تمض على هذه المعاهدة بضعة أشهر حتى قامت الحرب ثانية بين الدولتين بسبب عدم قيام بطرس الاكبر بأحد شروط معاهدة فلكزن القاضى بتخريب فرضة تجانرك الواقعة على بحر ازاق فتداخلت انكلترا وهولانده فى منع الحرب لاضراره بتجارتهما وبعد مخابرات طويلة أمضيت بينهما معاهدة جديدة سميت بمعاهدة أدرنه فى ٢٤ جمادى الاولى سنة ١١٢٥ الموافق ١٨ يوليو سنة ١٧١٣ تنازلت الروسيا بمقتضاها عما لها من الاراضى على البحر الاسود حتى لم يبق لها عليه مين أو ثغور وفى مقابلة ذلك أبطل ما كانت تدفعه سنوياً الى أمراء القوم بصفة جزية كى لا يتعدوا على قوافلها التجارية وعند ذلك يئس شارل السويدى من نوال غرضه وهو مساعدة الدولة العلية على الروسيا فبارح بلاد الدولة فى أول اكتوبر سنة ١٧١٣ بعد ان أقام فيها نحو سنتين

ثم تولى منصب الصدارة على باشا امادبعد يوسف باشا وكان ميالا للحرب غيوراً على صالح الدولة ميالا لاسترجاع ماضاع من أملاكها خصوصاً بلاد موره ولذلك أعلن الحرب على جمهورية البندقية وفى قليل من الزمن استرد البحيث جزيرة باجمعها والمدن التى كانت باقية للبنادقة بجزيرة كريد حتى لم يبق لهم ببلاد اليونان الاجزيرة كورفو فاستعانت البندقية بشارل الثالث امبراطور النمسا أحد الماضين على معاهدة كارلوفتس ولكون الحرب كانت قد انقضت ووضعت أوزارها بين النمسا وفرنسا وتم الصلح بينهما بمعاهدتى أوترك ورستاه أسرع الامبراطور لمد يد المساعدة الى البنادقة بان أرسل الى السلطان بلاغا يطلب منه فيه ارجاع كل ما أخذه من البنادقة وكان أعطى لهم بمقتضى معاهدة كارلوفتس والا فيكون امتناعه بمثابة اعلان للحرب فلم تقبل الدولة هذا الطلب وفضلت الحرب فى هذا الوقت الغير مناسب بعدم تبصر وزيرها فانه كان من الواجب عليه عدم عمل ما يسبب هذه الحروب مع عدم اشتغال النمسا بمحاربة فرنسا وامكانها توجيه كل قواها وأمهر قوادها الى ساحة القتال خصوصاً القائد الذائع الصيت البرنس (أوجين دى سافوا) الذى سبق ذكره أكثر من مرة

فكان من المحقق تقريبا فوزه على العثمانيين لتضاعفه من فنون الحرب التى لاتقوى عليها شجاعة العثمانيين وما اتصفوا به من الثبات

معاهـدة بساروفتس

ومما يؤيد ذلك أن البرنس أوجين انتصر عليهم فى موقعة بتروادين فى يوم ٥ أغسطس سنة ١٧١٦ وفيها قتل الصدر الاعظم على باشا داماد لاقتحامه مواقع الخطر حتى لا يعيش بعد الانهزام وبعد ذلك فتح النمساويون مدينة (تمسوار) بعد ان حاصروها أربعة وأربعين يوماً ووضعوا الحصار أمام مدينة بلغراد ودخلوها فى ١٩ أغسطس سنة ١٧١٧ بعد أن تغلبوا على الصدر الجديد خليل باشا الذى أتى لمساعدة المدينة ثم ابتدأت المخابرات للصلح فتم بينهما فى ٢٢ شعبان سنة ١١٣٠ الموافق ٢١ يوليو سنة ١٧١٨ على أن تأخذ النمسا ولاية تمسوار ومدينة بلغراد مع جزء عظيم من بلاد الصرب وآخر من بلاد الفلاخ وأن تبقى جمهورية البندقية محتلة ثغور شاطىء دلماسيا أما بلاد موره فترجع الى الدولة وسميت هذه المعاهدة معاهدة (بساروفتس) وعقب ذلك طلبت الروسيا من الدولة تحوير المعاهدة السابقة بكيفية تبيح لتجارها المرور من أراضى الدولة وبيع سلعهم فيها ولحجاجها التوجه لبيت المقدس وغيره من الاماكن والاديرة المقدّسة عندهم بدون دفع خراج مدّة اقامتهم أو رسوم على جوزات المرور فقبلت الدولة وأضافت الى هذه المعاهدة الجديدة المؤرخة ٩ نوفمبر سنة ١٧٢٠ شرطاً من الاهمية السياسية بمكان عظيم وهو تعهد كل من الروسيا والباب العالى بمنع زيادة نفوذ الملك المنتخب ببولونيا على نفوذ الاشراف وعدم تمكينه من جعل منصبه وراثياً فى عائلته ومنع حصول هذين الامرين بكل الوسائط الممكنة بما فيها الحرب

ولا تخفى أهمية هذا الشرط الاخير الذى لم يقصد به بطرس الاكبر الا ايجاد النفرة بين ملوك بولونيا والدولة انفاذا لما كان ينويه لها كما سنشرحه فى موضعه فان جل مقاصد هـذا القيصر المؤسس الحقيقى للمملـكة الروسية وواضع دعائمها كان التفريق بين مجاوريه الثلاثة (السويد وبولونيا والدولة العثمانية) واضعافهم الواحـد بعد الآخر فتزيد قوّته بنسبة تأخرهم وتقهقرهم وقد نجح تماماً بما يتعلق بالسويد بجهل بعض وزراء الدولة العلية ضروب السياسة وعدم اطلاعهم على دخائل علاقات الدول ببعضها ثم شرع فى تنفيذ ماينويه ضدّ بولونيا والدولة العلية وكان قد سافر الى باريس سنة ١٧١٧ وقابل ملكها الفتى لويس الخامس عشر (١) ووصيه ليستميلهما لسياسته فاخفق مسعاه ولذلك استعان

---

(١) ولد هذا الملك في سنة ١٧١٠ وتولي سنة ١٧١٥ بعد موت لويس الرابع عشر جد أبيه ولصغر سنه عين فيليب دوك أورليان وصيا عليه ولما بلغ الرشد في سنة ١٧٢٣ أبقي وصيه وزيراً له ولما توفي هذا الوزير عين بعده الدوك دى بوريون وفي وزارته تزوج السلطان بابنة ملك بولونيا ثم خلفه في الوزارة مربي الملك المدعو (فلورى) ولما توفي شارل السادس امبراطور النمسا عن غير وارث ذكر وقبضت ابنته (ماريه تريزه) على أعنة الملك فعارض ملك فرنسا وساعد ملك بافيير على أن ينتخب امبراطوراً وانتخب فعلا فشبت نار الحرب بين فرانسا والامبراطورة شبوبا هائلا انتهى بفوز ماريه تريزه وأمضيت بذلك معاهدة (اكس لاشابيل)

بوزراء الدولة العلية نفسها ووضع أوّل حجر لهذا المشروع باضافة البند المتعلق ببولونيا فى المعاهدة الجديدة

﴿ تقسيم مملكة العجم بين العثمانيين والروس وعزل السلطان الغازى أحمد الثالث ﴾

هـذا ولما تولى من يدعى داماد ابراهيم باشا منصب الصدارة سنة ١١٣٠ هـ أراد ان يستعيض عما فقدته الدولة من ولايات أوروبا بفتح بلاد جديدة فى جهة آسيا ولقد أتاح له الحظ حصول انقلابات ببلاد العجم بسبب تنازل الشاه حسين عن الملك جبراً الى مير محمد أمير أفغانستان فاسرع الصدر ابراهيم باشا باحتلال أرمينيا و بلاد الكرج لكن كان سبقه بطرس الاكبر واجتاز جبال القوقاز التى كانت تحد بلاده من جهة الجنوب واحتل اقاليم طاغستان مع كافة سواحل بحر الخزر الغربية فكادت الحرب تقوم بين الدولة والروس ولعدم امكان الروس مقاومة الجيوش العثمانية وتحقق بطرس الاكبر من عدم اقتداره على محاربتها طلب من سفير فرنسا بالاستانة المسيو (دو بو) أن يتوسط بينهما فقبل هذه المامورية ووفق بين الطرفين بان يمتلك كل منهما ما احتله من البلاد وقبلت الدولتان ذلك وأمضيتا بهذه الشروط معاهدة بتاريخ ٢ شوّال سنة ١١٣٦ الموافق ٢٤ يونيو سنة ١٧٢٤

أما الفرس فلم يقبلوا هذا التقسيم المزرى بشرفهم والقاضى بضياع جزء ليس بقليل من بلادهم بل قاموا كرجل واحـد لمحاربة الاجانب واخراجهم من ديارهم لـكن لم تـكن شجاعتهم كافية لصدّ هجمات العثمانيين الذين فتحوا فى سنة ١٧٢٥ عدّة مدن وقلاع أهمها مدائن همذان واريوان وتبريز وساعد ذلك تسلط الفوضى فى داخلية ايران وتنازع كل من الشاه أشرف الذى قتل مير محمد أمير أفغانستان والشاه طهماسب ملك ساسان وانتهت هذه الحرب بالصلح مع الشاه أشرف فى ٢٥ صفر سنة ١١٤٠ الموافق ١٣ اكتوبر سنة ١٧٢٧ ا ه ولما مات الشاه أشرف وانفرد طهماسب بالملك طلب من الدولة العلية أن تردّ اليه كل ما أخذته من بلاد أجداده فلم تجبه الدولة ولذا أغار على بلادها ولعدم ميل السلطان الى الحرب ورغبته فى الصلح ثار الانكشارية وأهاجوا الاهالى فأطاعوهم طلباً للسلب والنهب فى ١٥ ربيع الاوّل ١١٤٣ الموافق ٢٨ سبتمبر سنة ١٧٣٠ وطلب زعيم هذه الثورة المدعو (بترونا خليل) من السلطان قتل الصدر الاعظم والمفتى وقبودان باشا أى أميرال الاساطيل البحرية بحجة انهم مائلون لمسالمة العجم فامتنع السلطان عن اجابة طلبهم ولما رأى منهم التصميم على قتلهم طوعاً أو كرهاً تخوفا من أن

---

سنة ١٧٤٨ وفي سنة ١٧٥٦ ابتدأت الحرب المعروفة بحرب السبع سنين التي أخذت انكلترا في خلالها اقليم كندا بامريكا وغيرها من المستعمرات الفرنساوية وانتهت بمعاهدة باريس سنة ١٧٦٣ واشتهر هذا الملك بعدم الاهتمام بامور الدولة والاسترسال في الشهوات واتخاذ الخليلات العديدات حتى أثقل كاهل الحكومة بالديون وأضاع المستعمرات وتوفي سنة ١٧٧٤ وكانت ادارته السيئة من أقوى الاسباب التى ادت الي الثورة الفرنساوية العظمى في أواخر الجيل الثامن عشر

يتعدّى اذاهم الى شخصه سلم لهم بقتل الوزير والاميرال دون المفتى فقبلوا وألقوا جثثهم الى البحر لكن لم يمنعهم انصياع السلطان لطلباتهم من التطاول اليه بل جرّأهم تساهله معهم على العصيان عليه جهارا فاعلنوا باسقاطه فى مساء اليوم المذكور عن منصة الاحكام ونادوا بابن أخيه السلطان محمود الاوّل خليفة للمسلمين وأميراً للمؤمنين فاذعن السلطان أحمد الثالث وتنازل عن الملك بدون معارضة وكانت مدّة حكمه ٢٧ سنة و ١١ شهراً

ومما يذكر فى التاريخ لهذا الملك ادخال المطبعة فى بلاده وتأسيس دار طباعة فى الاستانة العلية بعد اقرار المفتى واصداره الفتوى بذلك مشترطا عدم طبع القرآن الشريف خوفا من التحريف واسترجاع أقليم موره وقلعة آزاق وفتح عدّة ولايات من مملكة العجم وبقى معزولا الى ان توفى فى سنة ١١٤٩

## ٢٤ « السلطان الغازى محمود خان الاول وظهور نادر شاه »

هو ابن السلطان مصطفى الثانى ولد فى ٤ محرم سنة ١١٠٨ الموافق ٣ أغسطس سنة ١٦٩٦ ولما تولى لم يكن له الا الاسم فقط وكان النفوذ لبطرونا خليل يولى من يشاء ويعزل من يشاء تبعاً للاهواء والاغراض حتى عيل صبر السلطان من استبداده وتجمهر حوله رؤساء الانكشارية لتعدّى هذا الزعيم على حقوقهم واتفقوا على الغدر به تخلصاً من شرّه فقتلوه ولم يقو محاربوه على الاخذ بثأره بل اطفئت ثورتهم فى دمائهم وبذلك عادت السكينة للمدينة وأمن الناس على أموالهم وأرواحهم

وبعد استتباب الامن استأنفت الدولة الحرب مع مملكة الفرس وتغلبت الجيوش العثمانية على جنود الشاه طهماسب فى عدّة وقائع اهرقت فيها الدماء مدراراً فطلب الشاه الصلح وتم بين الدولتين الامر فى ١٢ رجب سنة ١١٤٤ الموافق ١٠ يناير سنة ١٧٣٢ على ان تترك مملكة العجم للدولة العلية كل مافتحته ماعدا مدائن تبريز وأردهان وهمذان وباقى اقليم لورستان لكن عارض نادرخان (١) أكبر ولاة للدولة فى هذه المعاهدة وسار بجيوشه الى مدينة أصفهان وعزل الشاه طهماسب وولى مكانه ابنه القاصر عباسا الثالث وأقام نفسه وصياً عليه ثم قصد البلاد العثمانية وبعد ان انتصر على جنود الدولة حصر مدينة بغداد

(١) لم يكن هذا القائد من احدى العائلات المعلومة بل غاية مايعلم عنه انه ولد في بلاد خراسان سنة ١٦٨٨ م تقريبا وبعد ان اشتغل في مهن كثيرة مختلفة ألف عصابة متسلحة للسلب والنهب واستولى على خراسان واستبد بها أثناء الاضطرابات التى أعقبت موت الشاه حسين في سنة ١٧٢٢ ثم دخل في خدمة الشاه طهماسب وحارب معه مغتصبي الملك من الافغان ثم لما قبل الشاه المذكور معاهدة ١٢ رجب سنة ١١٤٤ عزله نادرخان وأقام مكانه ابنه الرضيع عباسا الثالث وبعد أربع سنوات توفي عباس هذا واغتصب نادر الملك وحارب الموغول في الهند وفتح مدينة دهلي وأخيرا قتله قواد جيوشه سنة ١٧٤٧ لظلمه واعتسافه

فاسرع الوزير طوبال (أى الاعرج) عثمان باشا الى محاربته وجرت بينهما عدة وقائع قتل فيها عثمان باشا المذكور فطلبت الدولة الصلح وبعد مخابرات طويلة اتفق مندوب الدولة مع نادرخان فى ١٨ جمادى الاولى سنة ١١٤٩ الموافق ٢٤ سبتمبر سنة ١٧٣٦ فى مدينة تفليس حيث نودى بنادرخان ملكا على العجم على أن ترد الدولة الى العجم كل ما أخذته منها وأن تكون حدود الدولتين كما تقرر بمعاهدة سنة ١٦٣٩ المبرمة فى زمن السلطان الغازى مراد الرابع

معاهدة بلغراد

وفى غضون ذلك قامت الحرب بين الدولة والروسيا بسبب مملكة بولونيا وذلك أن كل من الروسيا والنمسا والبروسيا اتفقت فى سنة ١٧٢٢ بمقتضى اتفاق سرى على أن لا يجوز تعيين ملك وطنى على بولونيا خوفا من اتحاده مع الاهالى الامر الذى يكون من ورائه استقامة أحوال هذه المملكة الداخلية مع ان قصد الروسيا وجود الاضطرابات بها دائما حتى تضعف كلية فتستولى عليها باجمعها أو تقسمها مع مجاوريها تبعا لسياسة بطرس الاكبر القاضية بالسعى فى تلاشى دولتى السويد وبولونيا فالدولة العلية فلما توفى اوغست الثانى ملك بولونيا انتخب الاهالى فى سنة ١٧٣٣ ستانسلاس لكزنيسكى ملكا عليهم بسعى فرنسا التى كان من صالح سياستها بقاء بولونيا فى العالم السياسى عزيزة الجانب يحكمها ملك من أهلها

فاعلنت الروسيا والنمسا الحرب على بولونيا ونادوا باغوست الثالث ابن اغوست الثانى ملكا عليها ولو لم ينتخبه الاهالى ومن جهة أخرى أشهرت فرنسا الحرب على النمسا دفاعا عما لبولونيا من الحق الصريح فى انتخاب من تريد وسعت لدى الباب العالى بواسطة المسيو دى بونفال الذى خدم الدولة بعد ان أسلم واشتهر فيها باسم أحمد باشا قائد الطوبجية لاستمالته للدفاع عن استقلال بولونيا الحاجز الحصين بينها وبين الروسيا موضحة لها سياسة هذه الدولة الطامحة أنظارها لامتلاك القسطنطينية كما أوصى لها بذلك بطرس الاكبر فلم يصغ وزراء الدولة لندائها لجهل فى السياسة أو لاسباب أخرى ولذلك تغلبت الروسيا على ستانسلاس واحتلت جنودها مملكة بولونيا بأسرها ووزراء الدولة لاهون عن نتائج هذه السياسة الوخيمة التى ربما كانت السبب فى وصول الدولة الى الدرجة التى هى عليها الآن

ولما أحست النمسا ان فرنسا تسعى وراء التحالف مع الدولة خشيت من حصول هذا الاتفاق الذى يكون نتيجته عدم نجاح مسعاها مع الروسيا فى بولونيا أسرعت فى ارضاء فرنسا فأبرمت معها معاهدة ويانه فى سنة ١٧٣٥ وأخذت فى التأهب والاستعداد للاشتراك مع الروسيا فى محاربة الدولة وأوعزت الى الروسيا بافتتاح القتال فاتخذت هذه الاخيرة مرور بعض قوزاق القرم من أراضيها فى مارث سنة ١٧٣٦ متجهين الى بلاد الكرج لمساعدة الدولة ضد العجم حجة لاعلان الحرب وأغارت بكل قواها على بلاد القرم واحتلت مينا آزاق وغيرها من الثغور البحرية وهو ما حدى بالدولة الى ابرام الصلح مع نادرشاه بالكيفية التى

سبق شرحها لتتفرّغ لصدّ هجمات الروس
ولحسن حظ الدولة كان قد تقلد منصب الصدارة رجل محنك اشتهر بحسن السياسة وسموّ الادراك وهو الحاج محمد باشا فلم يغفل طرفة عين عن جمع الجيوش وتجهيز المعدّات حتى أمكنه فى أقرب وقت ايقاف تقدّم الروس الذين كانوا قد احتلوا اقليم البغدان ودخلوا مدينة ياسى عاصمة هذا الاقليم ومن جهة أخرى انتصرت الجيوش العثمانية على جيوش النمسا التى أغارت على بلاد البوسنه والصرب والفلاخ فانتصر المسلمون فى الصرب وألجأوا النمساويين على الجلاء عنها تاركين فى كل موضع قدم جثث رجالهم وتقهقروا الى ماوراء نهر الدانوب فى سنة ١٧٣٧ واستمرّ الحال على هذا المنوال مما تنوسى عهده فى الدولة من النصر والفوز على الاعداء حتى طلبت النمسا الصلح بواسطة المسيو (فلنوف) سفير فرنسا فقبل التوسط بكل ارتياح وسار الى معسكر الصدر الاعظم وعرض عليه الصلح بالنيابة عن النمسا فاشترط شروطا ما كانت النمسا لتقبلها لولا انتصار المسلمين على قائدها الشهير (وليس) فى يوم ٢٣ يوليو سنة ١٧٣٩ فكان هذا الفوز الاخير أكبر مساعد للوصول الى الصلح الذى تم بينهما و بين الروسيا فى ١٤ جمادى الآخرة سنة ١١٥٢ الموافق ١٨ سبتمبر سنة ١٧٣٩ على أن تتنازل النمسا للدولة العلية عن مدينة بلغراد وما أعطى لها من بلاد الصرب والفلاخ بمقتضى معاهدة بساروفتس أما الروسيا فتعهدت قيصرتها (حنه) (١) بهدم قلاع مينا آزاق وعدم تجديدها فى المستقبل و بعدم انشاء سفن حربية أو تجارية بالبحر الاسود أو بحر آزاق بل تكون تجارتها على مراكب أجنبية و بان تردّ للدولة كل ما فتحته من الاقاليم والبلدان وسميت هذه المعاهدة معاهدة بلغراد و بذلك انتهت هذه الحرب باسترداد جزء عظيم مما فقدته الدولة من ممالكها بمقتضى معاهدة كارلوفتس بضعف وعدم كفاءة أو عدم صداقة واخلاص بعض الوزراء مما جعل الدولة على شفا جرف هار ولو أخلص هؤلاء الوزراء وجعلوا ترقية شأن الدولة نصب أعينهم ونبذوا الغايات الشخصية ظهر يا لما فقدت شبراً من أرضها ولكن يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر الا أولوا الالباب و بعد ذلك بذل المسيو (فلنوف) سفير فرنسا جهده فى اقناع الباب العالى بضرورة الاتحاد مع السويد لمحاربة الروسيا لو تعدّت على أحدها خوفا من أن يلحق بهما تباعا ما أودى ببولونيا وجعلها خاضعة فعلا لاوامر الروسيا فاقتنعت الدولة وأبرمت مع السويد محالفة هجوم ودفاع ضدّ الروسيا فى سنة ١٧٤٠ و فى هذه السنة تحصل سفير فرنسا على تجديد الامتيازات القنصلية وكافة المزايا الممنوحة

(١) حنه ايوانوفنا امبراطورة الروسيا هي بنت (ايوان) أخي بطرس الاكبر ولدت سنة ١٦٩٢ وتوفيت سنة ١٧٤٠ تزوجت بدوك كوسلاند وتولت ملك الروسيا سنة ١٧٣٠ عقب موت بطرس الثاني واتحدت مع النمسا في مسألة وراثة عرش بولونيا ونجحت في انتخاب أوغست الثالث ملكا لها وحاربت الترك من سنة ١٧٣٥ الي سنة ١٧٣٩ بدون فائدة تذكر وكانت سياسة ألمانيا سائدة في بلادها بمساعي ودسائس خليلها الالماني المدعو (جان بيرن)

للتجار الفرنساويين وأمضى الطرفان هذه المعاهدة الجديدة فى ١٧ سبتمبر سنة ١٧٤٠ وهى عبارة عن معاهدة سنة ١٦٧٣ مع بعض تسهيلات جديدة لفرنسا وتجارتها وأرسل السلطان سفيراً من طرفه اسمه محمد سعيد ليقدّم صورة المعاهدة الى ملك فرنسا لويس الخامس عشر مع كثير من الهدايا الثمينة فقابله الملك بالاحتفاء والاكرام اللائق بمقام مرسله السامى وعند عودته شيعه بالتبجيل والاجلال وأرسل معه مركبين حربيتين وجملة من المدفعية الفرنساويين هدية منه للخليفة الاعظم ليكونوا معلمين فى الجيوش العثمانية فيمرّنوا الجنود المظفرة على النظامات الجديدة التى أدخلها ( لوفوا ) الشهير فى الجيوش الفرنساوية

وبعد ذلك بقليل توفى شارل السادس امبراطور النمسا فى ٢٠ من شهر اكتوبر سنة ١٧٤٠ وتولت بعده ابنته ( ماريه تيريزه ) ( ١ ) فاتحدت فرنسا مع بعض الدول على محاربة هذه الملكة واقتسام أملاكها لما بين فرنسا والعائلة الحاكمة فى النمسا من الضغائن القديمة وسعى فرنسا دائماً فى اذلال النمسا وهدم أركان سلطانها وبسبب موت هذا الملك حصلت الحرب الشهيرة بين فرنسا والنمسا المعروفة فى التاريخ بمحاربة ارث ملك النمسا التى استمرّت عدّة سنين وانتهت بفوز ماريه تريزه على فرنسا مما لا يدخل فى موضوع هذا الكتاب ولما ابتدأت هذه الحرب أظهرت فرنسا للدولة العلية بواسطة سفيرها لدى الباب العالى مايعود عليها من الفوائد لو اتحدت معها على محاربة النمسا وعرضت عليها احتلال بلاد المجر واسترجاعها الى أملاكها بحيث ترجع الدولة الى ما كانت عليه من الاتساع أيام سليمان الاوّل القانونى ويمكنها بعد ذلك مقاومة الروسيا والوقوف فى طريق تقدمها وأبانت لها انها ان لم تفعل ذلك تمدّمت الروسيا شيأ فشيأ وقويت شوكتها تدريجاً حتى يخشى منها على وجود الدولة ولا يخفى انها ملاحظات صادقة ولو أنها صادرة من فرنسا طمعاً فى نوال غايتها وهى اذلال النمسا الا أنه كان يجب على رجال الدولة النظر اليها بعين الاعتبار فان هذه فرصة لم تتجدّد بعد لكن قضت التقادير الالهية أن لا تصغى الى هذه النصائح حباً فى السلم وعدم اراقة دماء العباد والاشتغال بالاصلاحات الداخلية وكتبت الى الدول ذات الشأن تدعوهم للتصالح وهذه سياسة صادرة عن احساسات شريفة الا

---

(١) ولدت في سنة ١٧١٧ وتزوجت بالدوك دى لورين سنة ١٧٣٦ ولعدم وجود اخوة لها أوصي لها والدها شارل السادس بالملك لكن لما توفي سنة ١٧٤٠ لم يعترف ملكا روسيا وفرنسا بهذه الوصية بل أغار ملك بروسيا علي اقليم سيليزيا وادعي أمير بافريا الاحقية في الملك وساعدته فرنسا علي ذلك وتوجته امبراطوراً باسم شارل السابع ثم تركت بلاد النمسا والتجأت الي بلاد المجر حيث أقسم لها أشرافها بمساعدتها حتى الممات فجمعت الجيوش وبعد ان استمر الحرب خمس سنين توفي شارل السابع منازعها في الملك وانتخب زوجها امبراطوراً باسم فرنسوا الاول وفي سنة ١٧٤٨ فزت بالنصر بمساعدة انكلترا وأمضت معاهدة ( اكس لاشابيل ) ثم حاربت البروسيا بمساعدة فرنسا لاسترجاع اقليم سيليزيا وهي الحرب المعروفة بحرب السبع سنين فلم تفلح وفي سنة ١٧٧٢ شاركت الروسيا والبروسيا في تقسيم بولونيا وتوفيت سنة ١٧٨٠

أنها تعدّ من الغلطات المهمة التى عادت على الدولة بوخيم العواقب لانها أضاعت فرصة لو انتهزتها لفازت بالقدح المعلى واسترجعت مافصل عنها من الفتوحات بدون كثير عناء
وهناك غلطة أخرى ارتكبها رجال الدولة وهى نزع السلطة فى اقليمى الفلاخ والبغدان من أشراف البلاد خوفاً من تمرّدهم وطلبهم الاستقلال وتعيين بعض أغنياء الروم من تجار الاستانة قرالات ممتازين فيهما فى مقابل جعل سنوى يدفع للخزانة السلطانية وكانت تعطى لمن يدفع خراجاً أكثر من غيره وظاهر أن من يقدم على التعهد بمثل هذه المبالغ الطائلة عازم ولا شك على الحصول على مايدفعه أضعافاً مضاعفة من دماء الاهالى فاستبدّ هؤلاء المعينون بالسكان وساموهم الذل والخسف وفتكوا بالاشراف الاصليين وقتلوا كل من خالفهم منهم وباعوا ألقاب الشرف جهاراً حتى انقرضت أغلب العائلات الاثيلة فى المجد وحلت محلها عائلات جديدة أغلبها من تجار الاروام الذين اشتروا الالقاب بدراهم معدودة وكانت نتيجة هذه السياسة أن سئم الاهالى هذه السلطة ومالوا بكلياتهم الى الروسيا ووجهوا أنظارهم لها معتقدين أنها ستكون منقذتهم من هذه المظالم المستمرة ولو أنصفت الدولة لجعلتهما ولايتين بدون امتيازات تتناوبها الولاة فما كانت تطمح الى الاستقلال الادارى فالسياسى

وفى يوم الجمعة ٢٧ صفر سنة ١١٦٨ الموافق ١٣ دسمبر سنة ١٧٥٤ توفى السلطان محمود الاوّل بالغاً من العمر ستين سنة مأسوفا عليه من جميع العثمانيين لاتصافه بالعدل والحلم وميله للمساواة بين جميع رعاياه بدون نظر لفئة دون أخرى وكانت مدّة حكمه ٢٥ سنة وفى أيامه السعيدة اتسع نطاق الدولة بآسيا وأوروبا ومحت معاهدة بلغراد ما لحق بالدولة من العار بسبب معاهدة كارلوفتس ومن آثاره الحسناء تاسيس أربع كتبخانات ألحقها بجوامع آياصوفيا ومحمد الفاتح والوالدة وغلطه سراى ومن وزرائه الذين تركوا لهم فى التاريخ اسما طوبال عثمان باشا وحكيم زاده على باشا

## ٢٥ « السلطان الغازى عثمان خان الثالث »

ولد هذا السلطان فى سنة ١١١٠ هـ الموافقة سنة ١٦٩٦ م وبعد أن تقلد السيف فى جامع أبى أيوب الانصارى على حسب العادة القديمة وأبقى كبار الموظفين فى وظائفهم عين فى منصب الصدارة العظمى نشانجى على باشا بدل محمد سعيد باشا الذى سبق تعيينه صدراً بعد عودته من مأموريته فى فرانسا فاعتمد على باشا هذا على ميل السلطان اليه وسار فى طريق غير حميد حتى أهاج ضدّه الاهالى أجمع ولكون السلطان كان من عادته المرور ليلا فى الشوارع والازقة متنكراً لتفقد أحوال الرعية والوقوف على حقيقة أحوالهم سمع أثناء تجواله بما يرتكبه وزيره من أنواع المظالم والمغارم وبعد أن تحقق ما نسب اليه بنفسه أمر بقتله جزاءله وبوضع رأسه فى صحن من الفضة على باب السراى عبرة لغيره فقتل فى ١٦

محرم سنة ١١٦٩ الموافق ٢٢ اكتوبر سنة ١٧٥٥ وعين مكانه من يدعى مصطفى باشا ثم عزله فى ٢٠ ربيع الاوّل سنة ١١٧٠ الموافق ١٣ دسمبر سنة ١٧٥٦ وعين مكانه محمد راغب باشا الشهير (١) وكان من فحول الرجال الذين تقلبوا فى المناصب على اختلافها ومما زاده خبرة فى أمور السياسة الاورباوية واطلاعا على دقائقها مباشرته تحرير معاهدة بلغراد بصفة مكتوبجى واطلاعه على كافة المخابرات التى دارت بين الدولة والدول ذات الشأن للوصول الى ابرامها ثم توفى السلطان عثمان الثالث فى ١٦ صفر سنة ١١٧١ الموافق ٣٠ اكتوبر سنة ١٧٥٧ بدون أن يحصل فى أيام حكمه القلائل ما يستحق الذكر وكانت مدّة حكمه ٣ سنين و ١١ شهراً وعمره ستون سنة وخلفه

## ٢٦ « السلطان الغازى مصطفى خان الثالث »

ابن السلطان أحمد الثالث المولود سنة ١١٣٩ وكان ميالا للاصلاح محباً لتقدّم بلاده خصوصاً وزيره الاوّل راغب باشا الذى مرّ ذكره فأخذ هذا الوزير فى اصلاح بعض الشؤن بمساعدة السلطان وتعضيده له فعهد بادارة الاوقاف العمومية الى أحد أغوات السرارى ( قيزلر أغاسى ) وأسس مستشفيات للحجر على الواردات الخارجية اذا كانت الاوبئة منتشرة فى الخارج لعدم تعدّيها الى الممالك المحروسة وأنشأ مكتبة عمومية على مصاريفه الخاصة وفكر فى طريقة غريبة لتسهيل المواصلات داخل المملكة منعاً لحصول الغلاء والمجاعات فى احدى الولايات وذلك أن يصل بين نهر الدجلة و بوغاز الاستانة بخليج عظيم تستعمل الانهار الطبيعية مجرى له على قدر الامكان فيسهل نقل الغلال من أطراف المملكة الى الاستانة فيمتنع عنها الغلاء كلية وهو مشروع جليل يقدره العارفون حق قدره ولو أمهله المنون لأتمه وسبق المسيودى لسبس الى ايصال بحر الروم بخليج فارس فالمحيط الهندى لكنه توفى رحمه الله فى ٢٤ رمضان سنة ١١٧٦ الموافق ٨ أبريل سنة ١٧٦٢ ولم يجد مشروعه منفذاً حتى الآن

و بعد موت هذا الوزير الجليل انتشب الحرب بين الدولة العلية والروسيا وذلك انه لما توفى

(١) محمد راغب باشا صاحب السفينة المشهورة هو ابن رجل من كتاب المالية اجتهد في تحصيل العلوم والمعارف حتي نبغ فيها وعين في عدة وظائف حسابية وكتابية مهمة في الجيوش المحاربة في بلاد العجم ثم عاد الي الاستانة ووظف مأمور الادراة الخراج ثم بعد ان انتقل الى عدة وظائف أخرى تدل علي ثقة الحكومة به واعتمادها علي أمانته عين بوظيفة كاتب بالصدارة العظمي فحضر المخابرات التى دارت مع مندوبى نادر شاه للوصول الي الصلح وكذلك كانت له اليد الطولي في ابرام معاهدة بلغراد وبعدها عين بوظيفة رئيس أفندى التي تعادل وظيفة ناظر الخارجية الان ثم عين واليا علي مصر فولاية آيدين فحلب وأخيراً عين صدراً أعظم سنة ١١٧٠ واستمر في الصدارة ست سنوات حتي توفي في ٢٤ رمضان سنة ١١٧٦ وله عدة تآليف مهمة في السياسة وديوان شهور وكان محبا لتقدم العلوم وأسس بالاستانة مدرسة عالية ألحق بها مكتبة جمعت أنفس الكتب وأندر المؤلفات

أوغست الثالث ملك بولونيا سعت كاترينه الثانية امبراطورة الروسيا (١) التى تولت عقب قتل بطرس الثالث فى تعيين عاشقها ستانسلاس بونياتوسكى ملكا عليها باستعمال نفوذها فى مجلس الامة عند الانتخاب خلافا لما تعهدت به للدولة العلية وما ذلك الا انفاذاً لسياسة بطرس الاكبر القاضية بازالة الحواجز الثلاثة الحائلة بينها و بين أوروبا الغربيـة وهى السويد و بولونيا والدولة العلية وقد أزيل الحاجز الاوّل باستيلاء الروسيا على جميع الولايات السويدية الفاصلة بينها و بين ألمانيا بحيث لم يبق للسويد أملاك خارجة عن بلادها الاصلية بمقتضى معاهدة ( نى ستاد ) المبرمة بينهما سنة ١٦٧٢ وأزيل الثانى تقريباً بتعيين أحد أتباع الامبراطورة كاترينه ملكا على بولونيا

ولذلك تنبهت الدولة الى نتيجة هذه السياسة وعلمت أنها ان لم تضع حدّاً لتقدم نفوذ الروسيا فى بولونيا فلا تلبث هذه المملكة أن تمحى من العالم السياسى بانضمامها للروسيا أو بتجزئتها بينها و بين مجاوريها لكن كان تنبهها هذا بعد فوات الوقت المناسب فانه كان يجب عليها مساعدة السويد و بذل النفس والنفيس فى حفظ ولاياتها الواقعة على بحر بلطيق من الوقوع فى أيدى الروسيا أولى من تركها غنيمة باردة لها مما يطمعها فى الاستمرار فى تنفيذ وصية بطرس الاكبر ويجمل بنا فى هذا الموقع أن نأتى للمطالع بنص الوصية المذكورة وها هى منقولة بحروفها من الجزء الاوّل من تاريخ جودت باشا

وصية بطرس الاكبر

﴿ البند الاوّل ﴾ من اللازم أن تقاد العساكر دائماً الى الحرب و ينبغى للأمة الروسية أن تكون متمادية على حالة الكفاح لتكون أليفة الوغاء وترك وقت لراحة العساكر لاجل اصلاح المالية وتوفيرها وان كان ضروريا يلزم أن يكون تنظيم المعسكرات متعاقباً وتكون مراقبة الوقت الموافق للهجوم متصلة آنا بآن وعلى هذه الصورة ينبغى لروسيا أن تتخذ زمن الصلح والأمان وسيلة قوية للحرب وهكذا زمن الحرب للصلح وذلك لاجل زيادة قوّتها وتوسيع منافعها

﴿ البند الثانى ﴾ فى وقت الحرب ينبغى اتخاذ جميع الوسائل الممكنة لاستجلاب ضباط للجنود من بين الملل والاقوام الذين هم أكثر معلومات فى أوروبا وكذلك فى زمن الصلح يتعين استجلاب أرباب العلم والمعارف منهم أيضاً و يلزم الاعتناء بما يجعل الامة الروسية تستفيد من منافع سائر الممالك ومحسناتها بحيث أنها لا تضيع سعياً أصلا فى تحسين المحسنات المخصوصة بمملكتها

(١) هي بنت البرنس ( انهلت زربست ) الالمانى ولدت سنة ١٧٢٩ وتزوجت بالامير الالماني الذى عينته الامبراطورة اليزبيت وارثالها في الملك ثم لما تولي زوجها الملك باسم بطرس الثالث استمالت كاترينه أهالي الروسيا اليها وعزلته في سنة ١٧٦٢ وبعد موته توجت هي امبراطورة للروسيا واشتهرت بالسير علي خطة بطرس الاكبر فاستولت علي بلاد القرم وقلعة ازاق وغيرها واقتسمت مملكة بولونيا مع النمسا والبروسيا وتوفت سنة ١٧٩٧ وكانت محبة للعلوم مساعدة للعلماء على بث معارفهم في بلادها لكن دنست اسمها باتخاذها الاخلاء العديدين من رجال حكومتها بل ومن خدمها

﴿البند الثالث﴾ عند سنوح الفرصة ينبغى وضع اليد والمداخلة فى جميع الامور والمصالح الجارية فى أوروبا وفى اختلافاتها ومنازعاتها وعلى الخصوص فى وقوعات ممالك ألمانيا الممكن الاستفادة منها بلا واسطة بسبب شدّة قربها

﴿البند الرابع﴾ ينبغى استعمال أصول الرشوة لاجل القاء الفساد والبغضاء والحسد دائماً فى داخلية ممالك (له) أى بولونيا وتفريق كلمتهم واستمالة أعيان الأمة ببذل المال واكتساب النفوذ فى مجلس الحكومة حتى نتمكن من المداخلة فى انتخاب الملك وبعد الحصول على انتخاب من هو من حزب روسيا من تلك الامة ينبغى حينئذ دخول عساكر روسيا الى داخل البلاد لاجل حمايتهم والتعصب لهم باقامة العساكر المذكورة مدّة مديدة هناك الى أن تحصل الفرصة لاتخاذ وسيلة تمكننا من الاقامة وعندما تظهر مخالفة فى ذلك من طرف الدول المجاورة فلاجل اخماد نار الفتنة مؤقتاً ينبغى أن نقاسم المخالفين فى ممالك (له) ثم نترقب الفرص لاسترجاع الحصص التى تكون قد أعطيت لهم

﴿البند الخامس﴾ ينبغى الاستيلاء على بعض الجهات من ممالك اسوج بقدر الامكان ثم نسعى فى اغتنام وسيلة لاستكمال الباقى منها ولا نتوصل الى ذلك الا بوجه تضطر فيه تلك الدولة الى أن تعلن الحرب على دولة الروسيا وتهاجمها والذى يلزم أوّلا هو أن نصرف المساعى والهمة لالقاء الفساد والنفرة دائماً بين اسوج والدانمرك بحيث أن يكون الاختلاف والمراقبة بينهم دائمين باقيين

﴿البند السادس﴾ يجب على الاسرة الامبراطورية الروسية أن يتزوّجوا دائماً من بنات العائلة الملوكية الالمانية وذلك لتكثير روابط الزوجية والاتحاد بينهم واشتراكهم فى المنافع اذ بهذه الصورة يمكن اجراء نفوذهم فى داخل ألمانيا ويربطون أيضاً الممالك المذكورة لجهة منافعنا ومصالحنا

﴿البند السابع﴾ ان دولة انكلتره هى الدولة الاكثر احتياجا الينا فى أمورها البحرية ولهذه الدولة فائدة عظيمة جدّاً أيضاً فى أمر زيادة قوّتنا البحرية فلذلك من الواجب ترجيح الاتفاق معها فى أمر التجارة على سائر الدول وبيع محصولات ممالكنا كالاخشاب وسائر الاشياء الى انكلتره وجلب الذهب من عندهم الى ممالكنا واستكمال أسباب الروابط والمناسبات متماديا بين تجار وملاحى الطرفين فيتوسع بهذه الوسيلة أمر التجارة وسير السفن فى ممالكنا

﴿البند الثامن﴾ على الروسيين أن ينتشروا يوما فيوما شمالا فى سواحل بحر البلطيق وجنوبا فى سواحل البحر الاسود

﴿البند التاسع﴾ ينبغى التقرّب بقدر الامكان من استانبول والهند وحيث أنه من القضايا المسلمة أن من يحكم على استانبول يمكنه حقيقة أن يحكم على الدنيا باسرها فلذلك من اللازم احداث المحاربات المتتابعة تارة مع الدولة العثمانية وتارة مع الدولة الايرانية وينبغى

ضبط البحر الاسود شيئاً فشيئاً وذلك لاجل انشاء دار صناعات بحرية فيه والاستيلاء على بحر البالطيق أيضاً لانه ألزم موقع لحصول المقصود وللتعجيل بضعف بل بزوال دولة ايران لنتمكن من الوصول الى خليج البصرة وربما نتمكن من اعادة تجارة الممالك الشرقية القديمة الى بلاد الشام والوصول منها الى بلاد الهند التى هى بمثابة مخزن للدنيا وبهذه الوسيلة نستغنى عن ذهب انكلترة

﴿ البند العاشر ﴾ ينبغى الاهتمام بالحصول على الاتفاق والاتحاد مع دولة أوستريا والمحافظة على ذلك ومن اللازم التظاهر بترويج أفكار الدولة المشار اليها من جهة ما تبتغى اجراؤه من النفوذ فى المستقبل فى بلاد ألمانيا وأما باطناً فينبغى لنا أن نسعى فى تحريك عروق حسد وعداوة سائر حكام ألمانيا لها وتحريك كل منهم لطلب الاستعانة والاستمداد من دولة روسيا ومن اللازم اجراء نوع حماية للدول المذكورة بصورة يتسنى لها فيها الحكم على تلك الدول فى المستقبل

﴿ البند الحادى عشر ﴾ ينبغى تحريض العائلة المالكة فى أوستريا على طرد الاتراك وتبعيدهم من قطعة الروملى وحينما نستولى على استانبول علينا أن نسلط دول أوروبا القديمة على دولة أوستريا حرباً أو نسكن حسدها ومراقبتها لنا باعطائها حصة صغيرة من الاماكن التى نكون قد أخذناها من قبل وبعده نسعى بنزع هذه الحصة من يدها

﴿ البند الثانى عشر ﴾ ينبغى أن نستميل لجهتنا جميع المسيحيين الذين هم من مذهب الروم المنكرين رياسة البابا الروحية والمنتشرين فى بلاد المجر والممالك العثمانية وفى جنوبى ممالك (له) ونجعلهم أن يتخذوا دولة روسيا مرجعاً ومعيناً لهم ومن اللازم قبل كل شئ احداث رياسة مذهبية حتى نتمكن من اجراء نوع نفوذ وحكومة رهبانية عليهم فنسعى بهذه الواسطة لاكتساب أصدقاء كثيرين ذوى غيرة نستعين بهم فى ولاية كل من أعدائنا

﴿ البند الثالث عشر ﴾ حينما يصبح الاسوجيون متشتتين والايرانيون مغلوبين واللاهيون محكومين والممالك العثمانية مضبوطة أيضاً حينئذ نجمع معسكراتنا فى محل واحد مع المحافظة على البحر الاسود وبحر البالطيق بقوتنا البحرية وعند ذلك نظهر أولاً لدولة فرانسا كيفية مقاسمة حكومات الدنيا بأسرها بيننا ثم لدولة أوستريا ويعرض ذلك على كل من الدولتين المشار اليهما كل منهما على حدة بصورة خفية جداً لقبول ذلك وحيث انه لابد من أن احداهما تقبل بهذه الصورة فعند ذلك ينبغى مداراة واحترام كل منهما ونجعل من كان منهما قابلاً بما عرضناه عليهما واسطة لتنكيل الاخرى واذ تكون دولة روسيا حينئذ قد ضبطت جميع الممالك الشرقية ويكون مثل ذلك أعظم قطع أوروبا حديثة الدخول فى يد تصرفها فعنده يسهل عليها أن تقهر وتنكل فيما بعد أية دولة بقيت فى الميدان من الدولتين المذكورتين

﴿ البند الرابع عشر ﴾ على فرض المحال أن كلا من الدولتين المشار اليهما لم تقبل بما

عرضته عليهما روسيا فينبغي حينئذ لروسيا أن تصرف الافكار لمراقبة مايحدث من النزاع والخلاف بينهما فاذا وقع ذلك فلا بد أن يحصل تعب للطرفين و يشتبك هذا مع الآخر وفى ذلك الوقت يجب على روسيا أن تنتظر الفرصة العظيمة وتسوق حالا معسكراتها المجتمعة أوّل بأوّل على ألمانيا فتهجم فى تلك الجهات ثم تخرج قسمين كايين من السفن أحدهما من بحر ازاق المملوء بالعساكر الوافرة المجتمعة من أقوام الاناضول المتنوّعة والثانى من ثمان ارخانكل الكائنة فى البحر المنجمد الشمالى فتسير هذه السفن وتمرّ فى البحر الابيض والبحر المحيط الشمالى مع الاسطول المرتب فى البحر الاسود و بحر البلطيق وتهجم كالسيل على سواحل فرنسا وامّا ألمانيا فانها تكون اذذاك مشغولة بحالها و بما ذكرناه تصبح المملكتان الواسعتان المذكورتان مغلوبتين على هذه الصورة فالقطعة التى تبقى من أوروبا تدخل بالطبع تحت الانقياد بسهولة وبدون محاربة وتصير جميع قطعة أوروبا قابلة للفتح والتسخير اه

ومع كل فأرادت الدولة استدراك مافات وأوعزت الى (كريم كراى) خان القرم أن يفتح باباً للحرب فصدع بالامر ولكى يجعل الحق من جهة الدولة احتال على بعض القوزاق التابعين للروسيا حتى أوقعهم فى حبالة نصبها لهم وأدّت بهم الى التعدّى على حدود الدولة العلية والاغارة على احدى المدن التابعة اليها وقتل بعض سكانها فأشهرت الدولة الحرب على الروسيا وافتتحها كريم كراى بأن أغار بخيله ورجله على اقليم سربيا الجديدة الذى عمرته الروسيا مع أن المعاهدات التى بينها وبين الدولة كانت تقضى عليها بتركه صحراء بدون استعمار ليكون فاصلا بين أملاك الدولتين وعمرته الروسيا لمنع وصول المساعدة من خان القرم الى بولونيا عند مسيس الحاجة

وكانت نتيجة اغارة كريم كراى على هذه الولاية خراب كثير من المستعمرات الروسية وعودته بكثير من الاسرى وتوفى قبل أن تنتهى الحرب

ثم سار الوزير نشانجى محمد أمين باشا الذى تولى الصدارة فى جمادى الآخرة سنة ١١٨٢ بجيوشه للدفاع عن مدينة (شوكزيم) التى حاصرها البرنس جالتسين الروسى فلم ينجح لعدم اتباعه الاوامر العسكرية الواردة اليه من السلطان المهتم بنفسه بامور الحرب ولو لم يقد الجيوش بذاته الشريفة وكان جزاء القائد المذكور أن قتل بأمر السلطان فى ٩ ربيع الآخر سنة ١١٨٣ وأرسل رأسه الى الاستانة عبرة لغيره من القوّاد وعين مكانه فى الوزارة والسرعسكرية مولدوانى على باشا وكان أشدّ اهتماماً من سلفه بأمور الجند وأكثر اطلاعا على ضروب القتال لكن عاكسته الطبيعة وكانت هى السبب فى تقهقره فانه حين كان يعبر مع جيوشه نهر (دينستر) على جسر من المراكب ليهاجم الجيش الروسى المعسكر على الضفة الاخرى زادت مياه النهر بغتة وفاضت على شواطئه بكيفية مريعة حتى استولى

الجزع على العساكر المارّين فوقه وهموا بالرجوع الى معسكرهم وتبعهم بعض من كان قد وصل الى الشاطىء الآخر فغرقت المراكب واستشهد نحو ستة آلاف جندى وصار من بقى منهم على الشاطىء الروسى هدفا لمدافعهم و بنادقهم التى صوّبت اليهم من كل فج حتى قتلوا عن آخرهم فى ١٧ جمادى الاولى سنة ١١٨٣ الموافق ١٨ سبتمبر ١٧٦٩

و بعد هذا الانهزام الذى لم يكن فيه للروس من فخر التزم مولدوانى على باشا بالتقهقر بعد اخلاء مدينة شوكزيم فدخلها البرنس جالتسين واحتل على الفور ايالتى الفلاخ والبغدان

وفى هذه الاثناء كانت رسل الروس تعمل على اثارة الخواطر فى بلاد موره حتى اذا استعدّ الاهالى للثورة خرجت بعض المراكب الروسية من بحر بلطيق قاصدة بلاد اليونان بعد الطواف حول أوروبا الغربية واستولت على مدينة كورون باليونان لتشجيع الاروام على العصيان لكن لم تلبث هذه الفتنة ان أطفئت وخرجت مراكب الروس من مينا كورون قاصدة جزيرة ساقز فالتقت بالمراكب العثمانية فى المضيق المارّ بين الجزيرة وساحل آسيا و بعد ان استمرّ القتال عدّة ساعات انتصر العثمانيون ورجعوا بعد تمام النصر الى مينا جشمه فتبعهم حراقتان من مراكب الروس ظنّ العثمانيون انهم فارّون من دونائة العدوّ وآتون للانضمام اليهم فلم يعارضوهم فى الدخول الى المينا فبمجرد دخولهم ألقوا النيران على المراكب العثمانية فاشتعلت واحترقت عن آخرها باشتعال ما كان بها من البارود فى يوم ١١ ربيع الاوّل سنة ١١٨٤ الموافق ٦ يوليو سنة ١٧٧٠

و بعد ذلك قصد الاميرال الروسى (الفنستون) الهجوم على مدينة القسطنطينية لعدم وجود ما يمنعه من الاستحكامات من المرور فى بوغاز الدردنيل ولكن لم يوافقه القائد (ارلوف) على ذلك ففضل احتلال جزيرة لمنوس قبل ذلك لتكون قاعدة لاعمالهم الحربية لحاصرها وتمكن فى أثناء ذلك (البارون دى توت) (١) المجرى الذى دخل فى خدمة الدولة العلية من تحصين مضيق الدردنيل و بناء القلاع فيه على ضفتيه وتسليحها بالمدافع الضخمة حتى صار المرور منه من رابع المستحيلات ثم حوّل عدّة مراكب تجارية الى سفن حربية بوضع المدافع فيها وزيادة على ذلك كلفه السلطان مصطفى الثالث بانشاء مسبك لصب المدافع بالاستانة و بترتيب الطوبجية على النظامات الجديدة فقام بالامر خير قيام وأسس مدرسة لتخريج ضباط للطوبجية وأركان حرب متعلمين الفنون العسكرية الحديثة وأخرى لتربية ضباط للبحرية كان مركزها بالترسانة تخرج منها فى قليل من الزمن عدة قباطين قادرين على أخذ الارتفاعات ورسم بعض الشواطىء بالطرق الهندسية المضبوطة

---

(١) ولد بفرنسا سنة ١٨٣٣ وتجنس بالجنسية الفرنساوية واستخدم في سفارة فرنسا بالاستانة وفي سنة ١٧٦٧ عين قنصلا لها في القرم ثم استخدمه السلطان مصطفي الثالث فاخلص في خدمته وأصلح الطوبجية وحصن الدردنيل حتى صار من أحسن المعاقل البحرية ثم عاد الي فرنسا وعين مفتشا عاما لمراكزها القنصلية بالشرق وبلاد المغرب ولما حصلت الثورة الفرنساوية الشهيرة هاجر سنة ١٧٩٠ وأقام في بلاد المجر الي أن توفي سنة ١٧٩٣

وكانت نتيجة هذه الاصلاحات التى تمت بسرعة غريبة ان هاجم القبطان حسن بك مع بعض السفن الحربية سفن الروس المحاصرة لجزيرة لمنوس سنة ١٧٧١ وألزمها رفع الحصار عنها بعد مقاتلة خفيفة وكوفىء حسن بك على هذا الانتصار بتعيينه قبطان باشا الدونانمات العثمانية ورقى الى رتبة باشا ومن جهة أخرى لم يفلح الروس فى طرابزون التى أرادوا الاستيلاء عليها وبالاختصار كان النصر حليف الجنود العثمانية براً وبحراً الا فى بلاد القرم فقد احتلها البرنس (دلجوروكى) الروسى ثم أعلن بانفصالها عن الدولة واستقلالها تحت سيادة وحماية الروسيا وأقام من يدعى جاهين كراى خانا عليها باسم كاترينه الثانية

وفى ٩ ربيع الاول سنة ١١٨٦ الموافق ١٠ يونيو سنة ١٧٧٢ تهادن الفريقان بناء على توسط النمسا والروسيا وأمضيت الهدنة فى مدينة (جورجيو) من مدن البلغار وأرسل كل منهما مندوبيه للمخابرة فى شأن الصلح الى مدينة فوكشان بولاية البغدان فاجتمع المؤتمر أول اجتماع فى ٩ جمادى الاولى سنة ١١٨٦ الموافق ٨ أغسطس سنة ١٧٧٢ و بعد ان اتفق الجميع على امداد أجل المهادنة الى ٢٣ جمادى الثانى سنة ١١٨٦ الموافق ٢١ سبتمبر سنة ١٧٧٢ طلب مندوبو كاترينه الاعتراف باستقلال تتار القرم وحرية الملاحة لسفن الروسيا التجارية فى البحر الاسود وجميع بحار الدوله العليه ولما لم تقبل الدولة هذه الشروط انفض الجمع على غير جدوى ثم مدت المهادنة سبعة أشهر واجتمع المؤتمر ثانياً فى مدينة بخارست فى ١٣ شعبان سنة ١١٨٦ الموافق ١٢ نوفمبر سنة ١٧٧٢ وفيه طلبت كاترينه بلسان مندوبيها طلبات أكثر اجحافاً بحقوق الدولة وأرسلت بها بلاغا نهائياً فى ٢٣ القعده سنة ١١٨٦ الموافق ١٥ فبراير سنة ١٧٧٣ وهى

﴿أولا﴾ أن تتنازل الدولة للروسيا عن حصن (كريش) ويكى قلعه حفظاً لاستقلال التتار

﴿ثانياً﴾ أن تمنح المراكب الروسية تجارية كانت أو حربية حرية الملاحة فى البحر الاسود وبحر جزائر اليونان

﴿ثالثا﴾ تسليم ما بقى من حصون القرم مع الدولة العلية الى التتار

﴿رابعاً﴾ اعطاء جرجوارغيكا والى الفلاخ (وكان أسيراً فى الروسيا) هذه الولاية له ولورثته الشرعيين بشرط دفع جزية معينة كل ثلاث سنوات مرة

﴿خامساً﴾ التنازل عن مدينة (قلبورن) للروسيا وهدم حصون مدينة اوكزاكوف (اوزى)

﴿سادسا﴾ أن يعطى لقب باديشاه الى قيصر أو قيصرة الروسيا فى المعاهدات والمخاطبات السياسية

﴿سابعا﴾ أن يكون للروسيا حق حماية جميع المسيحيين الارثوذكسيين فى بلاد الدولة

فيظهر للمطلع على هذه الشروط أن كاترينه ما كانت تظن قبول الدولة لها بل جعلتها طريقة لاستمرار الحرب ولذلك رفضتها الدولة بكل شمم فى ٢٨ ذى الحجة سنة ١١٨٦ الموافق ٢٢

مارث سنة ١٧٧٣ وأصدرت أوامرها للجيوش باستئناف القتال بكل شدّة خصوصاً فى بلاد الطونه فانهزم الروس أمام مدينة روستجوق وكذلك أمام مدينة سلستيريا التى حاولوا الاستيلاء عليها فى ٣٠ مايو سنة ١٧٧٣ بعدان قتل منهم ثمانية آلاف جندى و بمناسبة هذا الانتصار منح السلطان لقب غازى للقائد عثمان باشا الذى حمى المدينة فتقهقر الروس و فى رجوعهم مروا بمدينة بازارجق ولما لم يجدوا بها حامية قتلوا جميع من فيها من شيوخ ونساء وأطفال و بمجرد ماشعروا بقدوم الجنود المظفرة انسحبوا منها بكل سرعة تاركين أمتعتهم حتى قال المؤرخ ( همر ) ان العثمانيين وجدوا اللحم فى القدور على النار وهذا ممايدل على ماوقع فى قلوب الجنود الروسية من الرعب من الاسود العثمانية التى لولا عدم كفاءة أوقلة صداقة بعض قوّادهم لما علموا للتقهقر أوالهزيمة اسما

عصيان على بك بمصر

و فى ذلك الوقت كان على بيك الملقب بشيخ البلد الذى استقل تقريباً بشؤن مصر تخابر مع قائد الدونانمة الروسـية بالبحر الابيض المتوسط ليمدّه بالذخائر والاسلحة حتى يتم استقلال مصر فساعده القائد الروسى رغبة فى وجود الحروب الداخلية فى الدولة و بذلك أمكن على بيك فتح مدائن غزة ونابلس وأورشليم و يافا ودمشق وكان يستعدّ للسير الى حدود بلاد الاناطول اذ ثار عليه أحد بيكاوات المماليك وهو محمد بيك الشهير بأبى الذهب فعاد على بيك الى مصر لحار بته فانهزم

و بعد ان تحصن فى القلعة التجأ الى الشيخ طاهر الذى كان عاملاً على مدينة عكا من قبل الدولة العلية واستأثر بها واتحد معه على محاربة العثمانيين بالاتحاد مع الروس وتخليص مدينة صيدا التى كانوا يحاصرونها فسارا الى هذه المدينة والتقيا بالعثمانيين خارجها وانتصرا عليهم بمساعدة المراكب الروسية التى كانت ترسل مقذوفاتها على الجيش العثمانى ثم أطلقت السفن الروسية قنابلها على مدينة بيروت فأخربت منها نحو ثلاثمائة بيت و بعد ذلك عاد على بيك الى مصر فى محرم سنة ١١٨٧ الموافق ابريل سنة ١٧٧٣ لمحاربة محمد بيك أبى الذهب وانضم الى جيوشه أربعمائة جندى روسى فقابلهم أبوالذهب عنـد الصالحية بالشرقية وفاز عليهم بالنصر وأسر على بيك وأربعة من ضباط الروس بعـد ان قتل كل من كان معهم ورجعا الى مصر حيث توفى على بيك مما أصابه من الجراح فقطع رأسه وسلم مع الاربعة ضباط الروسيين الى الوالى العثمانى خليل باشا وهو أرسلهم الى القسطنطينية

ثم توفى السلطان مصطفى الثالث فى ٨ ذى القعدة سنة ١١٨٧ الموافق ٢١ يناير سنة ١٧٧٤ و بلغت مدّة حكمه ستة عشرة سنة وثمانية شهور وكان رحمه الله عادلا محباً للخير وله عدّة مآثر خيرية كالمدارس والتكايا

ومن آثاره ان أنشأ فى اسكدار جامعاً على قبر والدته ووقف عليه خيرات كثيرة وأصلح جامع السلطان محمد الفاتح التى زلزلت أركانه زلزلة شديدة وتولى بعده أخوه

## ٢٧ « السلطان الغازى عبد الحميد خان الاول »

ابن السلطان أحمد الثالث ولد سنة ١١٣٧ ﻫ الموافقة سنة ١٧٢٤ م وقضى مدة حكم أخيه مصطفى الثالث محجوزاً فى سرايته كما جرت به العادة و فى اليوم الثالث من توليته توجه فى موكب حافل الى جامع أبى أيوب لتقلد سيف السلطان عثمان مؤسس هذه الدولة ولم يوزع على الجنود الانعامات المعتادة لنضوب خزائن الدولة التى استنزفتها الحرب الاخيرة ثم أقر الصدر الاعظم محسن زاده وأغلب كبار الموظفين والقواد البرية والبحرية فى مناصبهم لعدم وقوع الخلل فى الاعمال أما الروسيا فكانت تستعد استعداداً هائلا لرد ما فقدته من الاسم والشرف فى أواخر أيام المرحوم مصطفى الثالث ولم يأت شهر يونيو سنة ١٧٧٤ الا وقد زحف الفلد مارشال رومانزوف الروسى بعد ان انضم اليه ماجمع من الجيوش تحت قيادة (سواروف) وكرامنسكى و بعد عدة مناورات ومناوشات اجتاز الفلد مارشال نهر الطونة وسار قاصداً مدينة وارنه فالتقى مع الجيش الذى أرسله الصدر الاعظم من معسكره بمدينة (شوملا) تحت قيادة الرئيس أفندى عبد الرزاق وهزمه بالقرب من مدينة يقال لها (قوزليجق) فى ١٤ يوليو سنة ١٧٧٤ وسار قاصداً معسكر محسن زاده الصدر الاعظم فطلب الصدر من رومانزوف المهادنة وتوقيف القتال وأرسل اليه مندوبين للاتفاق على عقد الصلح وقبول الشروط التى رفضتها الدولة عند اجتماع مؤتمر بوخارست فاجتمع المندوبان العثمانيان مع البرنس رابنين سفير الروسيا فى مدينة قينارجه و بعد مخابرات طويلة واخذ ورد بين الطرفين قبل الصدر المعاهدة التى تم الاتفاق عليها فى ٢١ يوليو سنة ١٧٧٤ وهى مكونة من ثمانية وعشرين بنداً أهمها استقلال تتار القرم و بسارابيا وقوبان مع حفظ سيادة الدولة العلية فيما يتعلق بالامور الدينية وتسليم كافة البلاد والاقاليم التى احتلتها الروسيا الى خان القرم ماعدا قلعتى كريش و يكى قلعه ورد ما أخذ من أملاك الدولة بالفلاخ والبغدان و بلاد الكرج ومنكريل وجزائر الروم ماعدا قبرطه الصغيرة وقبرطه الكبيرة وآزاق وقلبورن وأن يعطى الى امبراطور الروسيا لقب پاديشاه فى المعاهدات والمحررات الرسمية وأن يكون للمراكب الروسية حرية الملاحة فى البحر الاسود والبحر المتوسط وأن تبنى الروسيا كنيسة بقسم بيرا بالاستانة و يكون لها حق حماية جميع المسيحيين التابعين للمذهب الارثوذكسى من رعايا الدولة وأن تكون كافة المعاهدات السابقة لاغية وغير ذلك ومن الغريب انه لم يذكر شىء فيها عن مملكة بولونيا (لهستان) سبب هذه الحرب التى عادت على الدولة باوخم العواقب

وأضيف الى هذه المعاهدة بندان سريان جاء فى أحدهما أن الدولة تدفع الى الروسيا مبلغ خمسة عشر ألف كيسة بصفة غرامة حربية على ثلاثة أقساط متساوية فى أول يناير سنة ١٧٧٥ وسنة ١٧٧٦ وسنة ١٧٧٧

وفى الثانى انها تقدّم للروسيا المساعدات المقتضية للجلاء عما احتلته من جزائر الروم وسحب دوناتمها منها وهذا نص معاهدة قينارجه نقلا عن ترجمة الجزء الاوّل من تاريخ جودت باشا

﴿المادة الاولى﴾ كل ماسبق وقوعه بين الدولة العلية ودولة الروسيا من عداوة ومخاصمة قد محى وأزيل من الآن الى الابد وكل الاضرار والتعدّيات التى صار الشروع فى استعمالها واجرائها من الطرفين بالآلات الحربية و بغيرها صارت نسياً منسياً الى الابد ولا يجرى بعد الآن ولا فى وقت ما انتقام بل صار الصلح براً و بحراً عوضاً عن العدوان بوجه لا يعتريه التغير بل يراعى و يصان من طرفى الهمايونى ومن طرف خلفائى الاماجد وكذلك يحفظ و يصان ما جرى تمهيده مع ملكة الروسيا المشار اليها وحلفائها من الاتفاق والموالاة الصافية المؤبدة والسالمة من التغيير وتستمرّ هذه المواد جارية ومعتبرة بكمال الدقة والاهتمام وتكون قضية الموالاة مرعية بهذه الصورة بين الدولتين وفى املاكهما و بين رعايا الطرفين بحيث لا تقع فيما بعد ضدّية بين الفريقين لا سراً ولا جهراً ولا نوع من أنواع البغضاء والاضرار و بحسب الموالاة والمصافاة المتجدّدتين تكون جرائم جميع الرعايا المتهمين لدى الدولتين وكيفما كانت تهمتهم بلا استثناء نسياً منسياً و يعرض عنها بالكلية من الجهتين والذين أخذوا منهم ووضعوا فى السجون يطلق سبيلهم وتعطى الرخصة برجوع الاشخاص الذين نفوا الى الجهات و بعد امضاء المصالحة يردّ اليهم ما كانوا أحرزوه من الرتب والاموال والذين استحقوا منهم عقابا من أىّ نوع كان لا يتعرّض لهم بسبب ما أصلا أو بوسيلة ما أصلا ولا بضرر وتأديب واذا تصدّى أحد لضررهم والتعرّض لهم يصير تأديبه وكل من المذكورين يكون تحت حماية ومحافظة القوانين ومن الواجب معاشرتهم بحسب عادات الولايات قياساً على الولايات المتاخمة

﴿المادة الثانية﴾ بعد تنقيح هذه العهدة المباركة ومبادلة صكوك التصديق اذا ظهر من بعض رعايا الدولتين عدم الطاعة أو خيانة أو اتهموا بتهمة أخرى ووجدوا فى بلاد احدى الدولتين لقصد الاختفاء أو الالتجاء فهؤلاء ماعدا الذين دخلوا منهم فى الدين الاسلامى فى دولتى العلية والذين تنصروا فى دولة الروسيا لا يقبلون أصلا ولا تجرى لهم الحماية بل بالحال يردّون الى بلادهم أو يطردون من بلاد الدولة التى التجأوا اليها وذلك حتى لا يحصل بين الدولتين بسبب اشخاص لا نفع فيهم أمر يفضى الى البرودة بين الطرفين أو يكون باعثاً لبحث لا طائل تحته كذلك اذا حصل من أحد رعايا الطرفين سواء كان من الاسلام أو من زمرة المسيحيين ذنب أو تقصير وعلى أىّ ملاحظة كانت التجأ لاحدى الدولتين فانه ينبغى ردّه عند طلبه بلا تأخير

﴿المادة الثالثة﴾ جميع قبائل القريم وطوائف بوجاق وقوبان و بديسان وجانبويق ويديجكول التاتارية يصير قبولها والاعتراف بحريتها بلا استثناء من طرف الدولتين بشرط

أن لا تكون تلك القبائل تابعة لدولة أجنبية بوجه ما والخانات المنتخبون من نسل آل جنكيز المستقلون فى حكوماتهم باتفاق جميع طوائف التاتار يبقون على ماهم عليه يحكمون فى الطوائف المرقومة بحسب قانونهم وعاداتهم القديمة بشرط أن لا يؤدّوا ضريبة عن مادة ما لدولة من الدول الاخرى ودولتنا العلية ودولة الروسيا لا يتداخلان فى أمر انتخاب الخانات المومى اليهم ونصبهم ولا فيما يحدث من أمورهم المخصوصة ولا فى أمور حكومتهم بوجه ما بل يكون حكمهم نافذاً فى حكومتهم وفى الامور الخارجية كدولة مستقلة مثل سائر الدول المستقلة وطائفة التاتار المرقومة تكون مقبولة ومعترفاً بكونها غير تابعة لاحد سوى الحق سبحانه وتعالى وحيث ان الطائفة المذكورة هى من أهل الاسلام وكون ذاتى السلطانية الموسومة بالعدالة هى أمام المسلمين وخليفة الموحدين فانها توجب على الطائفة المرقومة أن لا تلقى خللا فى الحرية الممنوحة لدولتهم وبلادهم بل يجب أن تنظم أمورها المذهبية من طرفى الهمايونى بمقتضى الشريعة الاسلامية وأراضى كرش وأراضى القلعة المسماة بالقلعة الجديدة التى خصصت لدولة الروسيا والقصبة الواقعة بجانب قريم وقوبان ماعدا ثغورها والقلاع والاماكن والاراضى التى وقع الاستيلاء عليها وجميع الاراضى الواقعة بين مياه نهرى برادونسكى ودى دادزى ومياه نهرى آق صو وطورله حتى حدود مملكة (له) فهذه جميعها تردّ للطوائف المرقومة وقلعة اوزى مع قطعتها القديمة تبقى تحت تصرف دولتى العلية كالسابق وبعد تكميل عهدة المصالحة تتعهد دولة الروسيا باخراج جميع عساكرها من الممالك التاتارية وتتعهد دولتى العلية أيضاً بكف يدها عنها وهو لها كلياً كان اوجزئياً من جميع أنواع القلاع والقصبات والمساكن وسائر الاشياء الواقعة فى جزيرة القريم وجزيرة قوبان وطمان وأن لا ترسل فيما يأتى محافظاً عسكرياً للمحل المرقوم أو عساكر بل ترد الممالك المذكورة لطوائف التاتار المرقومة بالوجه المحرر وكما ان دولة الروسيا جعلت الطوائف المرقومة غير تابعة لاحد ومستقلة حقيقة فى حكومتها على وجه أن تكون الحرية المطلقة معمولا بها فيها كذلك دولتنا العلية تتعهد بان لا ترسل فيما يأتى للقصبات والقلاع والاراضى والمساكن المذكورة محافظاً عسكرياً ولا غيره من زمرة عساكر السكبان أوغيرها كيفما كان اسمهم ونوعهم والحرية الممنوحة للطوائف المرقومة من طرف دولة الروسيا تمنحها لها أيضاً دولتنا العلية مع الاستقلال بحيث لا تكون الطوائف المذكورة تابعة لاحد

﴿المادة الرابعة﴾ لما كان بمقتضى القواعد الاصلية المخصوصة بجميع الدول يجوز لكل دولة أن تجرى فى ممالكها ماتراه مناسباً من النظام فللدولتين المتعاقدتين الرخصة الكاملة المطلقة بدون تقييد ان تبنيا ماتستنسبه من القلاع والمدن والقصبات والابنية وأن يصلح كل منهما ويجدّد ما يكون قديما من قلاعهما وقصباتهما وسائر أملاكهما

﴿المادة الخامسة﴾ وحيث انه قد تيسر تجديد ما للجوار من حقوق الموالاة والمصافاة

بانعقاد هذه المصالحة المباركة فلدولة الروسيا أن تعين من طرفها فى الاستانة (انو بياتو) يعنى سفيراً متوسطاً أو مرخصاً من الدرجة الثانية فيقيم دائماً لدى دولتنا العلية وعلى الدولة العلية أن تجرى للسفير المومى اليه بالنظر لرتبته مراسم الاعتبار والرعاية الجارية منها لسفراء الدول الأوفر اعتباراً واذا وقع احتفال رسمى عمومى وكان سفير امبراطور الالمان فى رتبة رفيعة أو صغيرة فانه يكون بعد سفير ندرلاند (أى هولاندا أو الفلمنك) الكبير واذا لم يكن لدولة ندرلاند سفير كبير فانه يكون بعد سفير ونديك الكبير ( أى البندقية )

﴿ المادة السادسة ﴾ اذا وقعت سرقة أو تهمة عظيمة أو أمر غير لائق يستوجب التعذير من الذين هم بالفعل فى خدمة سفير دولة الروسيا فبعد التقرير يجب استرداد تلك الاشياء المسروقة بالتمام على الوجه الذى يبينه السفير والذين يتصوّرون قبول الدين المحمدى وهم فى حالة السكر فلا يقبلون فى الدين المحمدى بل بعد زوال السكر ورجوعهم الى حالتهم الاصلية بعود عقولهم لرؤوسهم يطلب منهم بيان اقرارهم واعترافهم فى مواجهة من يرسله السفير أيضاً وأمام بعض المسلمين ممن ليس لهم غرض ثم يصير قبولهم على هذا الوجه

﴿ المادة السابعة ﴾ تتعهد دولتنا العلية أن تصون حق الديانة المسيحية وكنائس المسيحيين صيانة قوية وتمنح سفراء دولة الروسيا الرخصة بابراز التفهيمات المتنوّعة عند كل احتياج سواء كان متعلقاً فى الكنيسة المذكورة فى المادة الرابعة عشرة الكائنة فى محروسة القسطنطينية أو فى صيانة خادميها واذا عرض السفير المومى اليه شيئاً ما بواسطة معتمد له يتعلق بدولة مصافية ومجاورة لدولتى العلية فتتعهد دولتنا العلية بقبول المعروض والمعتمد

﴿ المادة الثامنة ﴾ تعطى الرخصة التامة لرهبان دولة الروسيا ولسائر رعاياها بزيارة القدس الشريف وسائر الاماكن التى تستحق الزيارة ولا يتكلف المسافرون ولا السائحون لدفع نوع من أنواع الجزية والخراج والويركو أصلا ولا يطلب ذلك منهم أثناء الطريق لا فى القدس الشريف ولا فى سائر الاماكن وتعطى لهم الفرمانات بالوجه اللائق مع أوامر الطريق التى تعطى الى رعايا سائر الدول والذين يقيمون منهم فى أراضى دولتى العلية لا يمكن أن يحصل لهم تعرض ومداخلة بوجه من الوجوه بل تصير حمايتهم وصيانتهم تماماً بمقتضى قوّة أحكام الشريعة

﴿ المادة التاسعة ﴾ المترجمون الموجودون فى خدمة سفراء الروسيا المقيمين فى محروسة القسطنطينية من أىّ ملة كانوا حيث خدموا أمور الدولة وخدمتهم هذه راجعة للدولتين فانهم يعاملون بكمال المروءة والاعتبار ولا تجوز مؤاخذتهم فى الامور المكلفين بها من طرف من هم بخدمته

﴿ المادة العاشرة ﴾ لحين امضاء هذه المصالحة المباركة وايصال التنبيهات اللازمة من طرف سردارية عساكر الطرفين للمحلات المقتضية اذا حدثت خلال ذلك مخاصمة فى أىّ محل كان لا يعدّ ذلك تعرّضاً وما يحصل بسبب ذلك من الفتوحات والاستيلاء لا يعتبر

ويكون كانه لم يكن ولا أحد من الدولتين يستفيد من مثل هذا شيئاً

﴿المادة الحادية عشرة﴾ قد تقرر لاجل منفعة الدولتين سير سفنهما وسفن تجارهما بلا مانع فى جميع بحارهما وتعطى الرخصة من جانب دولتى العلية الى سفن روسيا وسفن تجارها بان تتمتع بالتجارة فى كل الاساكل وكل محل بالوجه الذى أجازته دولتى العلية فيها لسائر الدول وأن يمكثوا فى المعابر والثغور المتصلة بالبحار المذكورة وفى عموم المرافىء والشطوط الساحلية من البحر الابيض الى البحر الاسود ومن البحر الاسود الى البحر الابيض وكما صار البيان أعلاه بحق هذه المادة قد أعطيت الرخصة من جانب دولتى العلية الى رعايا دولة الروسيا بان يتجروا براً مع أهالى ممالك دولتنا العلية ويكون لهم ما حصلت به المساعدة والمسالمة والمعافيات فى التجارة البحرية الى أحب أصدقائنا فرنسا وانكلتره ويسيرون على هذا المنوال فى نهر الطونة وعند ظهور أى نوع كان من الاحتياج سواء كان فى أمر التجارة أو فيما يتعلق بنفس التجار أو بالجميع تراعى شروط الملتين المذكورتين وتعتبر على الوجه المحرر لفظاً بلفظ فى هذه المادة ولتجار الروسيا أن ينقلوا ويخرجوا كل نوع من الامتعة بعد ان يؤدوا الرسومات التى يعطيها غيرهم من الملل المذكورة ويجوز لهم أن يصلوا الى سواحل ومرافىء البحر الاسود وسائر البحار والى محروسة القسطنطينية وقد رخص لرعايا الطرفين بالتجارة وتسيير السفن فى عموم مياه المواضع المذكورة بلا استثناء وأعطيت لهم الرخصة من جانب الدولتين بالاقامة فى بلادهما المدة اللازمة لادارة مصالحهم وتجارتهم وحصل التعهد بذلك من الطرفين بهذا الباب بان يكون لتجار روسيا أيضاً ما لرعايا سائر الدول المتحابة من الحرية والمسالمة ولكون المحافظة على النظام فى كل المواد هى من ألزم الامور أعطيت الرخصة من جانب دولتنا العلية بتعيين قناصل ووكلاء قناصل من طرف دولة روسيا فى عموم المواقع التى ترى انها لازمة لذلك ويعتبرون فى سائر الامور مثل قناصل سائر الدول المتحابة وقد رخص لهؤلاء القناصل ووكلاء القناصل بان يستخدموا فى معيتهم مترجمين من المسلمين الحائزين برآتى الشاهانية المعبر عنهم ببرأتلى ويكون لهؤلاء المترجمين ما لامثالهم الموجودين فى خدمة انكلتره وفرنسا وسائر الملل من المعافيات وأعطيت الرخصة من جانب دولة الروسيا الى رعايا دولتى العلية بان يتاجروا براً وبحراً فى ممالك روسيا ويكون لهم ما لسائر الملل المتحابة مع روسيا من الامتيازات والمعافيات وذلك بعد أداء الرسوم المعتادة وتجرى المساعدة بكل وجه لسفن الدولتين التى تطرأ عليها الطوارىء فى أثناء سيرها فى البحر يعنى عند وقوع حوادث تلزم لها الاعانة بما يلزم لجانب سائر الدول الاوفر صداقة ويؤخذ لهذه السفن ما يلزمها من الاشياء بالاسعار الجارية

﴿المادة الثانية عشرة﴾ اذا رغبت دولة الروسيا أن تعقد معاهدة تجارية مع الافريقيين أى حكومات طرابلس الغرب وتونس والجزائر فدولتنا العلية تتعهد ببذل اعتبارها

وجهدها لحصول دولة روسيا على مرغوبها وتـكفل حكومات الايالات المذكورة بانها تحافظ على العهود المرسومة

﴿ المادة الثالثة عشرة ﴾ يلزم استعمال هذه العبارة فى اللسان التركى ( تماما روسيه لولرك پادشاهى ) يعنى ( امبراطور جميع بلاد الروسيا ) من طرف دولتنا العلية فى جميع السندات وعامة المكاتيب وفى كل خصوص اقتضى وضع هذا اللقب المعتبر أعنى ( تماما روسيه لولرك امبراطور يجه سى )

﴿ المادة الرابعة عشرة ﴾ يجوز لدولة روسيا أن تبتنى كنيسة على الطريق العام فى محلة بك أوغلى فى جهة غلطه غير الكنيسة المخصوصة قياسا على سائر الدول هذه الكنيسة هى كنيسة العوام وتسمى باسم كنيسة ( دوسوغرنه ) وتكون تحت صيانة سفير دولة روسيا الى الابد وتكون أمينة من كل تعرّض ومداخلة وتصير حراستها

﴿ المادة الخامسة عشرة ﴾ انه بمقتضى النظام الذى به تعينت وتحدّدت حدود الدولتين يبعد عن الملاحظة وجود أمر يستوجب نزاع جسيم يوجب المباحثة لرعايا الطرفين لكن لاجل دفع أسباب المضار والخسائر المحتمل ظهورها من عوارض غير مأمولة قد وقع القرار بالاتفاق بين الدولتين انه عند حدوث أمر كهذا يجب على الحاكم الموجود على طرف الحدود أن يفتش على المادّة التى حدثت أوانه يجرى فحصها بمعرفة مأمورين يتعينون لذلك و بعد تفتيش المادة كما ينبغى يجرون احقاق الحق لصاحبه بلا تأخير وحصل التعهد الصافى بان مادة حسن النظام والموالاة التى تمهدت حديثاً وانعقدت بهذه العهدة المباركة لا تتغير أصلا بحدوث قضايا كهذه

﴿ المادة السادسة عشرة ﴾ تردّ دولة روسيا الدولتى العلية مملكة البوجاق مع قلاع اقكرمان وكلى واسماعيل وسائر القصبات والقرى بما فيها من جميع الاشياء وتردّ لدولتى العلية قلعة بندر أيضاً وكذلك تردّ لدولتى العلية ايالتى الافلاق والبغدان مع كافة قلاعها ومدنها وقصباتها وقراها وما هو داخلها من جميع الاشياء وقد قبلت دولتى العلية الممالك المرقومة على الشروط الآتى بيانها وتعهدت بحفظ الشروط المذكورة تماما ووعدت بذلك وعداً معمولا به ( أوّلا ) يجرى العفو عن أهالى هاته الحكومات الجديدة جميعاً من أىّ قسم كانوا من المراتب والكيفيات والحال والاسم والوجاهة بلا استثناء وأن تغضى عما ظنّ فيهم من الاعمال المغايرة وكل تهمة تتعلق بهم من الحركات التى كانت مخالفة لأمور دولتى العلية تكون نسياً منسياً الى الابد وعلى موجب مضمون المادة الاولى يصير اعادتهم الى مناصبهم ورتبهم وتردّ أملاكهم السابقة ويعودون الى ما كانوا يملكونه من الاملاك قبل الحرب وتجدّد أمورهم ( ثانياً ) الديانة المسيحية تكون من كل الوجوه حرّة كالاوّل ولا يحصل ممانعة لاجرائها قط ولا يمنع احداث كنائس جديدة ولا ترميم الكنائس القديمة ( ثالثاً ) الاراضى والاملاك الموجودة ضمن دائرة ابرائل وخوتين

وفى سائر المواضع المأخوذة بغير حق المتعلقة من القديم بالاديرة و بسائر الاشخاص فهذه جميعاً تردّ للمرسومين المعبر عنهم الآن بالرعايا ( رابعاً ) يكون لجماعة الرهبان الاعتبار بما يناسبهم من الامتياز ( خامساً ) يرخص للاعيان الذين يرغبون التوجه الى محل آخر بترك الوطن أن ينقلوا أشياءهم بالحرّية وأن يمهلوا مدّة سنة للانتقال من وطنهم وذلك ليكون لهم وقت كافى لتنظيم مصالحهم وتعتبر هذه المهلة من تاريخ التصديق على الصك ( سادساً ) لا يصير تحصيل شىء لا نقود ولا خلاف ذلك من المحاسبات القديمة مهما كانت ( سابعاً ) لا يصير تكليفهم ولا مطالبتهم بشىء عن مدّة الحرب بتمامها بل نظراً لما صادفوه بأثناء امتداد الحرب من المضرّات والتخريب قد أعطى بعد ذلك للمذكورين أيضاً مهلة سنتين تعتبر من تاريخ مبادلة صك التصديق الهمايونى ( ثامناً ) بعد انقضاء هذه المهلة تتعهد دولتنا العلية بمعاملتهم بالمروءة الكلية فى أمر تعيين الجزية وتحافظ على سخائها الجليل على قدر الامكان ويصير تأدية جزيتهم بواسطة مبعوثيهم مرة فى كل سنتين و بعد أداء هذه الجزية بتمامها فلا يتعرض لهم أحد أصلا كائناً من كان من باشا أو حاكم ولا يطالبون بشىء ما من اقتراحات الضرائب بأى اسم كانت بل يكونون متمتعين بالامتيازات التى تمتعوا بها فى الزمن السعيد أيام سلطنة جدّى الامجد السلطان محمد خان الرابع ( تاسعاً ) يرخص لامراء هذه الحكومات أن يقيم كل منهم من طرفه وكيلا لدى دولتى العلية باسم مصلحتكدار و يكونوا هؤلاء الوكلاء نصارى من ملة الروم بدلا عن القبوكتخدايات الذين كانوا يتعاطون رؤية أمور الممالك وتجرى فى حقهم من جانب دولتى العلية المعاملة بكمال المروءة وينالون ما يستحقونه بحسب قواعد الملل أى انهم يكونون معتبرين ومن كل تعرّض آمنين ومصانين ( عاشراً ) تعطى الرخصة وتحصل الموافقة من جانب الدولة العلية الى سفراء امبراطورية الروسيا بان يتذاكروا عند الاقتضاء فيما يتعلق بصيانة ومساعدة الحكومتين المذكورتين وتتعهد الدولة العلية برعاية ما يعرضه سفراء الروسيا من المواد بحسب اعتبار الصداقة اللائقة بالدولتين

❊ المادة السابعة عشرة ❊ ( أولا ) يلزم دولة الروسيا أن تردّ الى دولتى العلية جزائر البحر الابيض التى هى الآن تحت حكمها وتتعهد دولتى العلية بان تجرى فى حق أهل الجزائر المذكورة كمال الرعاية والعدل وتعاملهم بالعفو عن جميع أنواع القباحات المصرّح بها فى المادة السالفة وعموم الافعال التى جرت بظنة المخالفة لامور دولتى العلية فهذه جميعها تكون نسياً منسياً ومعفو عنها بالكلية ( ثانياً ) لا يصير أدنى تعرّض وتضييق على ديانة المسيحيين ولا يحصل ممانعة بوجه ما فى أمر تعيين وتجديد الكنائس ولا يصير التعرض والمداخلة أصلا فى حق الاشخاص الذين يخدمون الكنائس المذكورة ( ثالثاً ) بسبب التكديرات والتخريبات التى أورثتها لهم هذه المحاربة من تاريخ وجودهم تحت حكومة دولة الروسيا و بعد مرور سنتين من تاريخ استرداد الجزائر المذكورة لدولتى العلية لا يستحصل من أهالى الجزائر

المذكورين رسم سنوى من أى نوع كان أصلا ( رابعاً ) الذين يرغبون فى ترك الوطن ويريدون التوجه الى بلاد أخرى تعطى لهم الرخصة من جانب دولتى العلية بنقل أموالهم وأشيائهم ولكى يكون لهم وقت كافى لتنظيم مصالحهم يمهلون مدّة سنة كاملة اعتباراً من تاريخ مبادلة التصديق على صك المعاهدة ( خامساً ) يلزم رجوع اسطول روسيا من مياه الدولة العلية فى مدّة ثلاثة أشهر من بعد مبادلة التصديق على هذا الصك واذا احتاج الاسطول لشىء فعلى دولتى العلية أن تعينه على قدر الامكان

﴿ المادة الثامنة عشرة ﴾ قلعة قلبرون الواقعة فى بوغاز اوزى صوى مع مقدار كافى من الاراضى الكائنة فى ساحل الطرف الشمالى من النهر المذكور مع الصحراء الخالية الواقعة بين آق صو واوزى صو تبقى مستقلة على الدوام تحت تصرّف روسيا بلا معارضة

﴿ المادة التاسعة عشرة ﴾ يكى قلعه الواقعة فى جزيرة القريم وجميع ماهو موجود داخل كرش وثغورها مع أراضيها من البحر الاسود الى حدود كرش القديمة طولا لحدّ المحل المسمى بوخارجه وسن بوخارجه على خط مستقيم من الاعلى الى بحر ازاق يبقى تحت تصرف روسيا على الدوام بلا معاضة

﴿ المادة العشرون ﴾ بحسب مفهوم السندات التى عقدت بين الحاكم تولستوى وبين حسن باشا محافظ آجو بتاريخ سنة ١٧٠٠ ميلادية وسنة ١١٠٠ هجرية خصصت قلعة ازاق بحدودها الاولى الى دولة الروسيا للابد

﴿ المادة الحادية والعشرون ﴾ وحيث ان القبارطتين أى القبارطة الكبيرة والقبارطة الصغيرة لهما تعلق مع خانات القريم بسبب وقوعهما فى جوار طائفة التاتار قد أحيلت مادة تخصيصها لدولة الروسيا الى خانات القريم ومشورتهم والى رأى رؤساء التاتار

﴿ المادة الثانية والعشرون ﴾ قد تقرر بالاتفاق بين الدولتين محو وازالة جميع الشروط والعهود السابقة والعهدة الواقعة فى قلعة بلغراد المنعقدة بينهما وما حدث بعدها من كافة الشروط محواً أبدياً وهو ان كلا من الدولتين المتعاقدتين لا يقوم بداعية ما من حيث العهود المذكورة ويستثنى من تلك الشروط الواقعة فى سنة ١٧٠٠ ميلادية بين الحاكم تولستوى وبين حسن باشا محافظ قلعة آجو فيما يتعلق بتعيين وتحديد حدود القلعة المذكورة وحدود قوبان فان الشروط المذكورة تبقى كالاوّل بلا تغيير

﴿ المادة الثالثة والعشرون ﴾ ان قلاع بغدادجق وكوتانسى وشهربان الكائنة فى حوالى كورجى ومكريل المستولية عليها عساكر الروسيا تقبلها دولة الروسيا على أن تكون هذه القلاع لاصحابها الاصليين وذلك انه بعد التحقيق اذا تبين ان دولتى العلية كانت مالكة لها منذ القديم أو منذ مدّة مديدة حينئذ تكون عائدة لدولتى العلية و بعد مبادلة التصديق على هذا الصك المبارك تخلى عساكر الروسيا القلاع المذكورة فى الوقت المعين ودولتى العلية تتعهد أيضاً بحسب مضمون المادّة السابقة بان تشمل بالعفو جميع الذين صدرت منهم

حركات ضدّ دولتى العلية فى أثناء امتداد المحاربة وأن تكف يدها الى الابد عن أخذ الوير كو عن الصبيان والبنات وعن طلب أىّ نوع كان من الجزية وانه ماعدا الذين لهم تعلق بها من التقديم لاتدعى على فرد واحد من الطوائف المذكورة بكونه من رعاياها وانها تترك مرة أخرى جميع الاراضى وسائر الاستحكامات التى ضبطها الكرجيون والمكريون لحكومتهم ولمحافظتهم المطلقة وانها لاتتعرّض ولا تجرى تضييقاً على أديرة وكنائس الديانة بوجه ما ولا تمنع ترميم القديم ولا بناء الجديد منها وبان تمنع باشاجلدر وجميع رؤساء الجيوش والضباط من التعرّض باى داع كان لاموال الاديرة والكنائس المذكورة واضاعتها ولا تتعرّض دولة الروسيا للطوائف المذكورة ولا تتداخل فى أمورهم لانهم من رعايا دولتى العلية

﴿ المادة الرابعة والعشرون ﴾ بعد امضاء المواد والتصديق عليها تنهيأ بالحال جميع عساكر الروسيا الموجودة فى الجهة اليمنى من نهر الطونة للعودة والرجوع بحيث فى ظرف شهر واحد تقطع الضفة اليسرى من نهر الطونة المذكور وبعد مرور العساكر المذكورة تماماً الى الضفة اليسرى المرقومة يصير إخلاء قلعة حرسوه وتسلم لعساكر الاسلام وبعده تحصل المبادرة دفعة وفى آن واحد لتخلية مملكتى الافلاق والبوجاق وقد تعين لهذا الاخلاء مهلة شهرين وبعد انسحاب كافة عسكر روسيا من المملكتين المذكورتين تترك عساكر روسيا من الجهة الواحدة قلعة يركوك وبعده قلعة ابرائل ومن الجهة الاخرى قصبة اسمعيل وقلاع كلى واقكرمان وتسير متوجهة لتلتحق بسائر عساكرها تاركة القلاع المذكورة للعساكر الاسلامية وقد خصص لتخلية المملكتين المذكورتين مهلة ثلاثة أشهر وبعد ذلك تترك عساكر روسيا مملكة بغدان وتمرّ فى الجهة اليسرى من نهر طورله وعلى هذه الصورة تحصل تخلية المواضع والممالك السابق ذكرها يعنى فى مدّة خمسة أشهر بعد امضاء المعاهدة والمصالحة المؤبدة بين الدولتين وعند مرور كافة عساكر روسيا للضفة اليسرى من نهر طورله حينئذ يصير تسليم قلاع خوتين وبندر للعساكر الاسلامية وأما أراضى قلبرون التى سبق التصريح عنها وزاوية الصحراء الواقعة بين آق صو وأوزى صو يصير تسليمها على الوجه الموضح فى المادة الثامنة عشرة بهذه الشروط وفى الوقت المذكور لدولة الروسيا وتكون الى الابد مصونة من التعرّض وعلى عساكر روسيا الموجودة فى جهات جزائر البحر الابيض أن تجرى السرعة الممكنة مايتعلق باسطول الجزائر المذكورة من المصالح والتنظيمات الداخلية وترد الجزائر المذكورة كالاوّل لتضبطها دولتى العلية مصونة من التعرّض لانه نظراً لبعد المسافة لايمكن تعيين وقت لذلك ونظراً لاستعجال عزيمة اسطول روسيا ولكونها دولة مصافية فدولتى العلية تتعهد باعانة الاسطول المذكور فى ايفاء لوازمه وباعطائه كل شىء فى الوسع والامكان وما دامت عساكر روسيا موجودة فى الممالك المستردة لدولتى العلية على الصورة المذكورة فحكومتها وما يتعلق بها من النظامات تستمر جارية فيها كما كانت فى الوقت الذى كانت فيه بيدها والى حين خروج جميع عساكر روسيا من الممالك

المذكورة لا تقع مداخلة من جانب دولتى العلية فى أمورها ويبقى العمل فى كيفية تناول ما يلزم من المأكولات ومداركة سائر لوازم عسا كرروسيا فى الممالك الموجودة فيها على ما هو الآن الى حين خروجها منها تماماً ولا تضع دولتى العلية قدما فى القلاع المستردّة المذكورة مالم يرسل سر عسكر روسيا الاوّل الخبر الى مأمورى دولتى العلية الذين عينوا لهذا الامر بتخلية وفراغ كل محل من الممالك المذكورة و بعدم اجراء حكومتها فيها والذخائر والمهمات التى للروسيا فى هذه القلاع والقصبات يصير اخراجها من طرف عسا كر روسيا بالوجه الذى تريده وتترك مدافع دولتى العلية التى وجدت فى القلاع المستردّة لدولتى العلية والذين استعملوا فى خدمة دولة روسيا من أهالى الولايات المستردّة لدولتى العلية من أىّ جنس وفى أىّ حال وكيفية كانوا اذا رغبوا فى الانسحاب والانتقال بأهلهم وعيالهم وأموالهم مع عسا كرروسيا فى المدّة السنوية المنعقدة لا يمنعون وتتعهد دولتى العلية بعدم ممانعتهم بأىّ وجه كان بموجب الشروط المذكورة سواء خرجوا فى ذلك الزمن أو فى مدّة سنة كاملة

﴿ المادة الخامسة والعشرون ﴾ جميع أسرى الحرب من ذكور واناث من أىّ درجة ورتبة كانوا يسرحون ويردون الى اوطانهم ماعدا المسيحيين الذين دخلوا فى الدين المحمدى بارادتهم فى دولتى العلية والمسلمين الذين تنصروا بارادتهم فى أثناء وجودهم فى أراضى روسيا وهذا كله بعد مبادلة التصديق على صكوك هذه العهدة المباركة حالا بلا عذر أصلا و بلا عوض و بغير فدية وكذلك جميع المسيحيين الذين وقعوا فى الاسترقاق من لهيين و بغدانيين وافلاقيين ومن أهالى المورة والجزائر والكرجيين كافة بلا استثناء يعتقون بلا ثمن و بغير عوض وكذلك الذين استرقوا من رعايا روسيا ووجدوا فى ممالكى المحروسة يصير تسليمهم وردّهم الى مواطنهم وذلك بعد انعقاد هذه المصالحة المباركة وكذلك تجرى هذه الامور ايضاً بهذه الصورة عينها فى حق رعايا دولتى العلية

﴿ المادة السادسة والعشرون ﴾ لاوّل وصول الخبر عن امضاء هذه المواد الى القرم واوزى يخابر سر عسكر روسيا الموجود فى القرم بالواقع محافظ أوزى وفى مدّة شهرين يرسلان مأمورين معتمدين لاجل تسليم وتسلم قلعة قلبرون مع الصحارى المصرحة فى المادة الثامنة عشرة التى مر ذكرها والمعتمدون المذكورون يجرون تمام المادة المذكورة فى مدة شهرين من تاريخ مقابلتهم واجتماعهم يعنى ان المادة المذكورة تجرى بتمامها فى مدة أربعة أشهر من تاريخ يوم امضاء هذه المعاهدة وان أمكن ففى أقل من ذلك بدون تأخير يخبرون الصدر الاعظم والفلد مارشال عن اكمال مأموريتهم

﴿ المادة السابعة والعشرون ﴾ لاجل زيادة تأكيد وتمهيد وتقوية هذه المصالحة المباركة والموالاة والمصافاة بين الدولتين يصير بعث وتسيير سفيرين كبيرين فوق العادة حاملين صكوك التصديق لهذه المصالحة الخيرية ويكون ذلك فى الوقت الذى يتعين برضاء الطرفين

فيتقابل السفيران فى رأس الحدود بمعاملة متماثلة ويراعى بحق السفيرين المومى اليهما الرسم المعتاد المرعى بحق سفراء دول أوروبا الاوفر اعتباراً لدى دولتى العلية وترسل هدايا بواسطة السفيرين المومى اليهما لائقة بشأن دولتيهما ليكون ذلك دليلا على صفاء الجهتين

﴿المادة الثامنة والعشرون﴾ بعد امضاء مواد هذه المصالحة المؤبدة من معتمدى دولتى العلية وهما الموقع الرسمى أحمد ورئيس الكتاب ابراهيم منيب دام مجدهما ومن مرخص دولة الروسيا البرنس ربنين جنرال لفونيا ختمت عواقبه بالخير تصدر التنبيهات من جانب الصدر الاعظم والجنرال فلدمارشال الى جميع عساكر الدولتين الموجودة براً وبحراً فى كل جهة لمنع كل نوع من معاملة خصامية بينهم ويرسل أيضاً فى الحال من جانب الصدر الاعظم والجنرال فلدمارشال معاونان الى أساطيلهم الموجودة فى البحر الابيض والبحر الاسود وتجاه بلاد القرم والى جميع المواقع الحربية لمنع العدوان وأسباب القتال فى كل محل بعد انعقاد المصالحة والمعينان المرسلان من طرف الصدر الاعظم والجنرال فلدمارشال لابد أن يكونا بحسب التنبيهات مصونين ومامونين من كل وجه واذا سبق وصول معاون روسيا الى سرعسكرها فالمومى اليه يبعث الى سرعسكر دولتى العلية أمر الصدر الاعظم الحاوى على التنبيه وان سبق وصول معاون الصدر الاعظم يبعث سرعسكر الدولة العلية الى سرعسكر الروسيا أمر الفلدمارشال الحاوى كذلك على التنبيه وبما ان الصدر الاعظم وفلدمارشال دولة روسيا (بتروقونت رومانجوف) قد فوض اليهما من طرفى الهمايونى ومن طرف امبراطورية روسيا المشار اليها أمر تمهيد عقود وعهود عهدة الصلح المباركة المنعقدة لجميع مواد الصلح المؤبد المسطورة فى العهدة المذكورة يصير امضاؤها من طرف الصدر الاعظم والفلدمارشال وختمها باختامهما للتصديق كما لو كانت جرت بحضورهما والمواد المنعقدة التى تمهدت وصار الوعد بها تراعى مراعاة قوية بدون تغيير ولا تبديل وتجرى بالدقة بحسب منطوقها ولا يفعل شىء يخالف لها قطعياً ويحرر فى المواد المذكورة التى تقررت وجرى التصديق عليها من طرف الصدر الاعظم والفلدمارشال المومى اليهما سندان ممضيان بامضائهما ومختومان بختميهما أحدهما وهو سند الصدر الاعظم يحرر بالتركية والايطاليانية وسند الفلدمارشال يكتب بالروسية والايطاليانية أيضاً وبمقتضى الرخصة المعطاة الى المرخصين من طرف الدولتين ينبغى أن يوصلوا الى الفلدمارشال السند الواحد باعتبار كونه صادراً من جانب دولتى العلية وبعد امضاء المواد بخمسة أيام وان أمكن فى مدة أقل من ذلك تجرى مبادلة السندات وحالما يسلم المرخصون سندات الصدر الاعظم يأخذون سندات الفلدمارشال القونت رومانجوف

﴿الخاتمة﴾ ان ماجرى تحديده وتمهيده بحسب المواد المذكورة من الصلح والصلاح المبطل للحرب والكفاح يكون مقرراً ومعتبراً من بعد الآن وبحسب ما اعتادت عليه سلطنتى من شيم الصداقة الكريمة ومن الوفاء بالعهود فاننا نجرى العهد والميثاق والتصديق

تماما ونراعى حق الرعاية جميع ما وقع من قيود وشروط فى الثمان والعشرين مادة المذكورة ونجرى جميع عهود ومواثيق الصلح والصلاح وكذلك شرط المادّتين المحررتين فى نيشانىّ الهمايونيين اللذين صار اعطاؤهما ويكون ذلك مدّة دوام واستمرار المواد التى صار تأييدها والتصديق عليها من مرخص دولة روسيا ومرخصنا بحيث انه لايحصل فيها خلل ولا مخالفة من طرفها ولا من طرفنا السلطانى الهمايونى ولا من طرف اخلافنا ووكلائنا ذوى المقام المتصفين بالانصاف والميرميرانيين أصحاب الاحتشام والامراء ذوى الاحترام وعموم عساكرنا المنصورة وكافة المتشرّفين بشرف العبودية من صنوف الخدمة ( تمت )

ذكر مادتان فى خاتمة العهدة احداهما تتضمن المصاريف الحربية وذلك لان الدولة العلية كانت تعهدت بتأدية خمسة عشر ألف كيس للروسيا فى مدّة ثلاث سنين يدفع منها فى كل سنة قسط وهو خمسة آلاف كيس والمادة الثانية سرعة تخلية جزائر البحر الابيض تأييداً لما هو مذكور فى المادة السابعة عشرة من العهدة المذكورة وأسطول روسيا الموجود فى البحر الابيض وان كان مشترطاً فى المادة المذكورة انه يخرج فى مدّة ثلاثة أشهر فدولة روسيا قد تعهدت باخراجه قبل المدّة المذكورة اذا أمكن

وبذلك انتهت هذه الحرب ونالت الروسيا أقوى أمانيها بعد اذلال مملكة اسوج ومحوها من العالم السياسى تقريباً بحصرها ضمن حدودها الطبيعية وهي طمس آثار مملكة بولونيا من الوجود كلية تقريباً وتجزئة معظمها بينها و بين النمسا والبروسيا بمقتضى معاهدة بين الروسيا والبروسيا فى ١٧ فبراير سنة ١٧٧٢ وقبلتها النمسا فى ابريل وأعلنت لملك بولونيا فى ١٨ سبتمبر سنة ١٧٧٢ و بذلك سقط الحاجزان الاوّلان من الحواجز الثلاثة الحائلة بين تقدّم الروسيا من جهة أوروبا وأمكنها ان توجه كل قواها لمكافحة الدولة العلية التى عملت بجهل بعض وزرائها ومحاباة البعض الآخر على تقدّم الروسيا بدون تبصر فى نتائج هذه السياسة ولو أصغت الى طلبات شارل الثانى عشر السويدى وساعدته على محاربة بطرس الاكبر فى بدء ظهوره وسعت معه على اطفاء هذه الشرارة التى امتدّ لهيبها وكادت تلتهبها ولو لم يرفع الوزير بلطه جى محمد باشا الحصار عن بطرس الاكبر لما أحاط به وخليلته وجيوشه احاطة السوار بالمعصم على نهر البروت لما وصلت دولتنا العلية الى ما وصلت اليه بمعاهدة قينارجه التى ما لبثت ان ظهرت نتائجها فى العالم

و بعد ذلك أخذت الدولة فى اصلاح بعض الشؤن الداخلية و بذل القبطان باشى حسن باشا جهده فى انشاء المراكب الحربية بدل ما فقد فى محاربة الروسية الاخيرة ومن جهة أخرى استعانت بمحمد بيك أبى الذهب على طاهر عمر فأتى لمحاصرته بمدينة عكا من جهة البر وحاصرها حسن باشا البحرى من جهة البحر وضايق عليه الحصار حتى فرّ هاربا من العقاب على عصيانه قاصداً جبال (صفد) فقتل فى أثناء هروبه وتخلصت الدولة من شرّه وكذلك قتل

استيلاء الروسيا على بلاد القرم

أبو الذهب أثناء محاصرة عكا ثم سقطت المدينة فى أيدى العثمانيين وانتهت الفتنة بسلام
أما الروسيا فاخذت تبث رجالها فى بلاد القرم لايجاد المشاغب الداخلية بها وبالتالى
لابتلاعها وضمها الى أملاكها حيث لم يكن قصدها من استقلالها السياسى وقطع روابط
تبعيتها للدولة الا الوصول لهذه الغاية وما زالت مستمرة فى القاء الدسائس ونشر الفتن بين
الاهالى حتى عزلوا أميرهم دوات كراى الذى انتخبه الاهالى بمقتضى نصوص معاهدة
قينارجه وأقاموا جاهين كراى مكانه فلم يقبل تعيينه فريق عظيم من الاعيان وخيف من
وقوع حروب داخلية ولذا امرت الروسيا الجنرال بوتمكين باحتلالها فدخلها بسبعين
ألف جندى كانوا منتظرين على الحدود لهذه الغاية فتم لها مقصدها الذى كانت تسعى
وراءه من مدة وهو امتلاك كافة سواحل البحر الاسود الشمالية فى غضون سنة ١٧٧٣
فهاجت الدولة وأرادت اشهار الحرب على الروسيا لالزامها باحترام معاهدة قينارجه القاضية
باستقلال بلاد القرم استقلالا سياسياً تاماً لكن حوّلت أنظارها ثانياً عن الحرب بمساعى
فرنسا التى أقنعتها بان هذه الحرب مع استعداد كاترينه وتأهبها لها لا يكون وراءها الا الخراب
والدمار لعلمها أن الروسيا أبرمت مع النمسا وفاقاً سرّياً تم بين كاترينه الثانية وبين الامبراطور
يوسف الثانى عند مقابلتهما بمدينة (كرزن) قاضياً بمحاربة الدولة لانشاء حكومة مستقلة
تكون حاجزاً بينهما و بين الدولة ومكوّنة من الفلاخ والبغدان واقليم بسار بيا يكون اسمها
مملكة (داسى) (١) و يعين لها ملك من المذهب الارثوذكسى و بأن تأخذ الروسيا مينا
(اوتشاكوف) التى تسمى فى كتب الترك بمدينة اوزى و بعض جزائر الروم وتأخذ النمسا
بلاد الصرب و بوسنه وهرسك من أملاك الدولة و بلاد دلماسيا من أملاك البندقية
وتعطيها عوضاً عن ذلك بلاد موره وجزيرتى كريد وقبرص وأن تعطى باقى دول أوروبا
أجزاء أخرى يتفق عليها فيما بعد

أما ان أتيح لهم النصر ودخلوا مدينة الاستانة فيعيدون مملكة بيزانطه الاهلية كما كانت
قبل الفتح العثمانى و يعين الغراندوق الروسى قسطنطين بن بولص ملكا عليها بشرط أن
يتنازل عن حقوقه فى مملكة الروسيا حتى لا يتفق وجود المملكتين الروسية والبيزانطية
(الوهمية) فى قبضة ملك واحد

نخوفا من وقوع الحرب بسبب القرم مع عدم استعداد الدولة وقدرتها فى ذلك الوقت
على مقاومة الروسيا فضلت قبول مشورة فرنسا والاعتراف بضم القرم للروسيا على أن
تتعرض لحرب تكون عاقبتها وخيمة واعترفت بذلك فى سنة ١٧٧٤ لكن لم يكن قصد الروسيا
ومساعديها الا انتشاب القتال ليحظى كل منهم بامنيته عملوا على اثارة خاطر الدولة وايقاعها

(١) اسم كان يطلق قديما في أيام الرومانيين علي اقليم متسع واقع بين الشاطئ الايسر لنهر الطونه ويشمل البلاد المسماة الان رومانيا وترانسلفانيا والجزء الشرقي من بلاد المجر فتحه الامبراطور الروماني تراجان حوالي سنة ١٠٠ ميلادية ثم لما تولي الملك الامبراطور اورليان أطلق هذا الاسم علي الاقليم المكون الان للروملي الشرقية وجزء من بلاد مقدونيه

فى الحرب فأخذوا فى تحصين مينا (سباستوبول) وأقاموا ترسانة عظيمة فى مينا (كرزن) وأنشأوا عمارة بحرية من الطراز الاول فى البحر الاسود وأرسلوا جواسيسهم الى بلاد اليونان وولايتى الفلاخ والبغدان لتهييج المسيحيين على الدولة ثم توصلت كاترينه الى ادخال هرقل ملك الكرج تحت حمايتها مقدمة لفتح بلاده نهائياً

وأخيراً فى سنة ١٧٨٧ ساحت كاترينه فى البلاد الجنوبية و بلاد القرم بابهة واحتفال زائد واقام لها القائد بوتمكين أقواس نصر كتب عليها (طريق بيزانطه) فعلمت الدولة من كل هذه الاحوال أنها تقصد محاربتها ثانياً وتأكد لها هذا العزم لما تقابلت كاترينه فى سياحتها هذه مع ملك بولونيا وامبراطور النمسا ولذلك أرادت هى المبادرة باعلان الحرب قبل تمام استعداد أعدائها ولايجاد سبب له أرسلت بلاغا الى سفير الروسيا بالاستانة المسيو (جولغاكوف) فى صيف سنة ١٧٨٧ تطالب به منه تسليم (موروكورداتو) حاكم الفلاخ الذى كان عصى الدولة والتجأ الى الروسيا والتنازل عن حماية بلاد الكرج بما أنها تحت سيادة الدولة وعزل بعض قناصلها المهيجين للاهالى وقبول قناصل للدولة فى مياني البحر الاسود وأن يكون لها الحق فى تفتيش مراكب الروسيا التجارية التى تمر من بوغاز الاستانة للتحقق من أنها لاتحمل سلاحا أو ذخائر حربية

فرفض السفير هذه الطلبات باذن دولته فأعلن الباب العالى الحرب عليها فوراً وسجن سفيرها فى أغسطس سنة ١٧٨٧

ولما كان الجنرال بوتمكين لم يتم معدات الحرب وقع فى حيص بيص وكتب الى كاترينه يخبرها بعدم صلاحية البقاء فى القرم ناصحاً لها باخلائها فى أقرب وقت لاسيما وأن ملك السويد (جوستاف الثالث) أراد انتهاز هذه الفرصة لاسترجاع مافقدته دولته من المقاطعات والبلاد التى أخذتها منها الروسيا لكن لم تثن هذه الحوادث همة هذه الامبراطورة التى أعانتها الايام بل كتبت للجنرال بوتمكين بعدم انتظار العثمانيين والسير بكل شجاعة واقدام على مدينتى بندر واوزى فصدع بأمرها وسار نحو (اوزى) فحاصرها مدة ثم دخلها عنوة فى ٣٠ ربيع الآخر سنة ١٢٠٣ الموافق ١٩ نوفمبر سنة ١٧٨٨ وفى هذه الاثناء كانت النمسا أعلنت الحرب على الدولة مساعدة للروسيا وحاول امبراطورها يوسف الثانى (١) الاستيلاء على مدينة بلغراد فعاد بالخيبة الى مدينة تمسوار حيث اقتفى أثره

(١) هو ابن الامبراطورة ماريه تريزه من زوجها الدوك دى اورين الذى تسمي فيما بعد فرنسوا الاول ولد سنة ١٧٤١ وتولي سنة ١٧٦٥ لكن لم يصر ملكا حقيقيا الابعد موت أبيه سنة ١٧٨٠ ومن ثم أخذ في تنفيذ أفكاره فالغي استعباد الفلاحين وأبطل التعذيب وأجاز الطلاق والزواج المدنيين ومنح الحرية الدينية لجميع رعاياه رغما عن معارضة الاشراف والقسوس وسفر البابا بيوس السادس الى ويانه للحصول علي ابطال التساهل في أمر الدين وتوفي سنة ١٧٩٠ وهو أخو الملكة مارى انتوانيت زوجة لويس السادس عشر ملك فرنسا التى قتلها الفرنساويون في أكتوبر سنة ١٧٩٣ كما قتلوا زوجها وأخته اليزابيت وغيرهما أثناء الثورة

الجيش العثمانى وانتصر عليه نصراً مبيناً ولذلك ترك الامبراطور قيادة جيوشه الى القائد (لودن) ثم بعد ذلك بقليل توفى السلطان عبد الحميد الاوّل فى ١٢ رجب سنة ١٢٠٣ الموافق ٧ أبريل سنة ١٧٨٩ بالغاً من العمر ٦٦ سنة ومدّة حكمه ١٥ سنة وثمانية شهور وتولى بعده

## ٢٨ « السلطان الغازى سليم خان الثالث »

ابن السلطان مصطفى الثالث المولود سنة ١١٧٥ هـ الموافق سنة ١٧٦٢ م وجوّ السياسة مكفهر ورحى الحرب دائرة بلا انقطاع فبذل جهده فى تقوية الجيوش وارسال المؤن والذخائر لكن كان اليأس قد استولى على الجنود وغادر كثير منهم مراكزهم وفى هذه السنة اتحد القائد الروسى مع قائد الجيوش النمساوية فى الاعمال الحربية وضما جيوشهما لبعضهما فاستظهرا على العثمانيين فى ٣١ يوليه وفى ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٨٩ وكانت عاقبة ذلك أن استولى الروس على مدينة بندر الحصينة واحتلوا معظم بلاد الفلاخ والبغدان وبسارابيا ودخل النمساويون مدينة بلغراد وفتحوا بلاد الصرب

فكانت الدولة فى خطر عظيم ولو استمر اتحاد النمسا والروسيا لفقدت أغلب أملاكها لكن من حسن حظها توفى الامبراطور يوسف الثانى فى ٢٠ فبراير سنة ١٧٩٠ وخلفه ليوبولد الثانى (١) فشغلته الثورة الفرنساوية التى قامت على الملك لويس السادس عشر (٢) خوفا من امتداد لهبها وسعت فى مصالحة الدولة بتوسط بعض الدول المعادية لفرنسا وأمضى معها فى سبتمبر سنة ١٧٩٠ شروط صلح ابتدائية صارت نهائية بمقتضى معاهدة أبرمت بينهما فى ٢٢ ذى الحجة سنة ١٢٠٥ الموافق ٤ أغسطس سنة ١٧٩١ بمدينة (ستووا) التى تسمى فى كتب الترك (زشتوى) ولم تترك الدولة بمقتضاها الا مالا يذكر

(١) ولد هذا الامبراطور سنة ١٧٤٧ وكان أميراً لتسكانا بايطاليا ثم تولي الامبراطورية بعد موت أخيه يوسف الثاني سنة ١٧٩٠ وأهم أعماله اخضاع ولايتى المجر والبلاد الواطئة الى سلطته وكانتا قد اشهرتا العصيان طلبا للاستقلال ثم اتحد مع الروسيا تلي محاربة فرنسا وتوفي سنة ١٧٩٢ قبل اشهار الحرب وخلفه ابنه فرنسوا الثاني

(٢) هو حفيد لويس الخامس عشر تولي سنة ١٧٧٤ بعد موت جده وكان ميالا للحرية الا أن ضعفه أضر به كثيراً وحارب انكلترا وساعد الامريكانيين على الاستقلال اضعافا لشوكتها ثم ابتدأت الثورة الفرنساوية سنة ١٧٨٩ ولعدم ثباته صار يتبع رأى الاعيان تارة ويميل الي رجال الثورة تارة أخرى حتي أغضب الجميع بتردده وعدم ثباته وبعد ان اعترف بالقانون الاساسي الذى سنته جمعية النواب للمملكة أراد الهروب من فرنسا والالتجاء الي الاجانب فضبط في مدينة رافين في ٢٠ يونيو سنه ١٧٩١ ومن ذلك الوقت توالت عليه المصائب وأهين عدة مرات ثم حصلت حادثة عشرة أغسطس سنة ١٧٩٢ التي أفضت الي اسقاط الملوكية ولما اجتمع مجلس الامة المعروف بالكونفانسيون في ٢١ سبتمبر التالي قرر بابطال الملوكية واقامة الجمهورية ومحاكمة الملك على التجائه الي الاجانب وحبسه مدة المحاكمة هو وزوجته وولده وابنته وأخته وكثير من الاعيان وفي ١٩ يناير سنة ١٧٩٢ حكم عليه مجلس الامة بالاعدام ونفذ هذا الحكم في ٢١ منه فقتل الملك مأسوفا عليه لانه لم يكن جانيا فعلا بل أطاع زوجته عن غير ترو

من بلادها وردّت اليها النمسا بلاد الصرب ومدينة بلغراد وجميع فتوحاتها تقريباً وهذا نص معاهدة زشتوى مترجمة عن احدى المجموعات السياسية المحفوظة بالكتبخانة الخديوية

﴿البند الاوّل﴾ سيكون الصلح من الآن بين الدولة العلية وامبراطورية النمسا صلحا أبدياً براً وبحراً بينهما وبين متبوعيهما ومن يكون لهما حق السيادة عليهم ويكون الاتحاد بينهما فى غاية الاحكام ويمنع كل من الطرفين حصول التعدّى والاهانة على الآخر ويعفو عمن اشترك فى الحرب من رعايا أحد الطرفين ضدّ الآخر وعلى الاخص جميع صنوف أهالى الجبل الاسود والبوسنه والصرب والافلاق والبغدان بحيث يكون لهم الحق بمقتضى هذا العفو العمومى فى الرجوع الى أوطانهم والتمتع بجميع أملاكهم وحقوقهم أيا كانت بدون أن يسألوا أو يحاكموا أو يعاقبوا على عصيانهم ضدّ ملكهم صاحب السيادة عليهم (الخليفة الاعظم) أو لاظهار ولائهم للحكومة الامبراطورية الملوكية (النمسا)

﴿البند الثانى﴾ يتخذ كل من الطرفين العاليين المتعاقدين ما كانت عليه الحالة العمومية قبل اشهار الحرب فى ٩ فبراير سنة ١٧٨٨ أساساً للمعاهدة الحالية ولذلك فانهما يجدّدان ويؤيدان بتمامها مع مراعاة معناها ومبناها بغاية الضبط والدقة بدون أدنى تغيير فيها أو عمل أو اتيان أىّ أمر مناقض لماجاء بها معاهدة بلغراد الرقيمة ١٨ سبتمبر سنة ١٧٣٩ واتفاق ٥ نوفمبر من السنة المذكورة واتفاق ٢ مارث سنة ١٧٤١ المفسر لمعاهدة بلغراد واتفاق ٢٥ مايو سنة ١٧٤٧ الذى جعل الصلح المبرم فى بلغراد دائم الوجود واتفاق ٧ مايو سنة ١٧٧٥ الخاص بالتنازل عن اقليم (بوكووين) واتفاق ١٢ مايو سنة ١٧٧٦ المبين لحدود هذا الاقليم بحيث ان جميع المعاهدات والاتفاقات السالف بيانها يكون معمولا بها والاجراء على موجبها واجب الى ماشاء الله كما لو كانت مسطرة حرفياً فى هذه المعاهدة

﴿البند الثالث﴾ ان الباب العالى يجدّد ويؤيد بالصفة المشروعة أعلاه الاتفاق الرقيم ٨ أغسطس سنة ١٧٨٣ الذى تعهدت الدولة العلية بمقتضاه بحماية جميع المراكب الالمانية التجارية المختصة بأحد ثغور ألمانيا من تعدّيات قراصين بلاد المغرب وباقى رعايا الدولة وأن تعوّض على أصحابها كل مايعود عليهم من الضرر وكذا يجدّد الاتفاق الرقيم ٢٤ فبراير سنة ١٧٨٤ الخاص بمنح تجار الحكومة الامبراطورية الملوكية حرية التجارة والملاحة فى جميع بلاد الدولة وبحارها وأنهارها وفرمان ٤ دسمبر سنة ١٧٨٨ الخاص بمرور واقامة وعودة الماشية ورعاتها من اقليم ترنسلفانيا الى ولايتى الافلاق والبغدان وجميع الفرمانات والاتفاقيات واللوائح الوزارية التى كانت معتبرة لدى الطرفين ومعمولا بها قبل ٩ فبراير سنة ١٧٨٨ لوجود الراحة واستتباب الأمن على الحدود والخاصة بصالح وراحة وفائدة رعايا النمسا وتجارتها وملاحتها بحيث ان جميع

هذه الاتفاقات والفرمانات واللوائح تكون معمولا بها كما لو كانت منسوخة حرفياً فى هذه المعاهدة

﴿البند الرابع﴾ ان الحكومة الامبراطورية الملوكية تتعهد بان تردّ الى الباب العالى العثمانى جميع ما احتلته من الاقاليم والاراضى والمدن والقلاع والحصون التى احتلتها جيوش الامبراطور أثناء هذه الحرب بما فيها امارة الافلاق والاجزاء المحتلة من بلاد البغدان حتى تعود الحالة وحدود المملكتين الى ما كانت عليه يوم ٩ فبراير سنة ١٧٨٨ ولمقابلة تساهل الباب العالى واجرا آته المبنية على المحبة والعدالة بمثلها

وتتعهد الحكومة المذكورة برد القلاع والحصون بالحالة التى كانت عليها وقت احتلالها مع المدافع العثمانية التى كانت بها اذ ذاك

﴿البند الخامس﴾ أما قلعة (شوتيم) واقليمها المسمى على لسان العوام باسم (ريا) فيصير اخلاؤها وتسليمها للدولة العثمانية بالشروط السابقة المختصة بباقى القلاع لكن لا يكون تسليمها الا بعد أن يتم الصلح بينها وبين امبراطور جميع الروسية وفى الوقت الذى يعين لاخلاء جنود الروسية لما فتحته فى هذه الحروب والى هذا الوقت تبقى الجيوش الامبراطورية الملوكية محتلة لهذه القلعة واقليمها بصفة وديعة حرّة بدون أن تشترك فى الحرب الحاضرة أو تقدّم أى مساعدة لحكومة الروسيا ضدّ الباب العالى العثمانى بأى كيفية كانت

﴿البند السادس﴾ بعد مبادلة التصديق على هذه المعاهدة يبتدىء الفريقان فى اخلاء وتسليم ما تعاهدا باخلائه وتسليمه الى الفريق الآخر لارجاع الحدود الى ما كانت عليه فى المواعيد المحدودة بعد ثم يعين كل منهما مندوبين كما جاء فى المادة الثالثة عشرة من معاهدة بلغراد يخصص بعضهم بما يتعلق بالافلاخ وأقاليم البغدان الخمسة وعليهم نهوها فى ظرف ثلاثين يوماً تمضى من تاريخ التوقيع على المعاهدة ويخصص الباقون لارجاع حدود البوسنه والصرب وقرية حرصو القديمة وضواحيها الى الحالة التى كانت عليها قبل ٩ فبراير سنة ١٧٨٨ ويعطى للفريق الآخر مدّة شهرين من التاريخ السابق ذكره لضرورة هذا الميعاد لتدمير ما أنشىء من الاستحكامات الجديدة فى القلاع المراد ارجاعها وتسليمها فى الحالة التى كانت عليها وقت فتحها ولنقل ما بها من المدافع والمؤن والذخائر

﴿البند السابع﴾ حيث ان الحكومة الامبراطورية الملوكية قد أخلت سبيل كل من أسر من رعايا الدولة العلية المالكين والعسكريين فى الحرب الاخيرة وسلمتهم الى المندوبين العثمانيين فى روستجق وودين وبوسنه ولم تسلمها الحكومة العثمانية فى مقابل ذلك الا رعايا الحكومة الامبراطورية وعساكرها الذين كانوا موجودين فى السجون العمومية أو فى حوزة بعض أمراء البشناق

وحيث انه يوجد منهم عدد عظيم فى حالة الرق بالممالك المحروسة فيتعهد الباب العالى اتباعا

لقاعدة ارجاع كل شيء الى ما كان عليه قبل الحرب ولمحو كل ما نشأ عنها من المصائب بان يردّ الى الحكومة الامبراطورية الملوكية فى ظرف شهرين من تاريخ التوقيع على المعاهدة كل من يوجد من رعاياها فى حالة الرق أو أخذ أثناء الحرب ذكراً كان أو أنثى أيا كان سنه أو حالته وفى حوزة من كان وفى أى جهة من أملاك الدولة يكون مجاناً بدون دفع فدية أو غيرها بحيث لا يوجد من الآن فصاعداً رعايا لاحد الطرفين تحت حكم الآخر الا الذين يدخلون فى الدين الاسلامى من جهة أو فى الدين المسيحى من جهة أخرى باختياره و بعد الاثبات بالطرق المقررة لمثل هذه الحالة

﴿البند الثامن﴾ ومع ذلك فان الرعايا الذين يكونون قد تركوا الدولة التابعين اليها قبل هذه الحرب أو فى أثنائها وأقاموا باراضى الدولة الاخرى ولا يزالون مقيمين بها باختيارهم لا يجوز لحاكمهم الاصلى طلبهم بل يبقون تابعين لحاكم البلاد التى هاجروا اليها و يعاملون كباقى رعاياه ومن جهة أخرى فان من يكون له عقارات فى كل من الدولتين يكون له الخيار فى الاقامة فى ظل الدولة التى يريدها بشرط أن لا يكون لهم الا حاكم واحد ولذا فيجب عليه بيع عقاراته الكائنة فى الدولة التى لا يروم البقاء تحت لوائها

﴿البند التاسع﴾ قد تعاهد الفريقان المتعاقدان رغبة منهما فى احياء التجارة التى هى ثمرة السلم فى أقرب وقت وفى معاملة التجار الذين لا تخفى منفعتهم على العمران بقاعدة ارجاع كل شيء لاصله المقررة فى البندين الثانى والثالث على أن لا يلحق برعاياهما ضرر بسبب هذه الحرب بل يكون لهم الحق فى العودة الى أعمالهم فى النقطة التى كانت عليها وقت اعلان الحرب والتمسك بما لهم من الحقوق والطلبات السابقة للحرب أيا كانت والمحافظة على ديونهم ومطالبة مديونيهم والمطالبة بالتعويضات التى تستحق لهم بسبب عدم دفع بعض ديونهم أو الضرر الذى لحق بهم عند اعلان الحرب خلافاً لما جاء بالمادة السابعة عشرة من معاهدة بلغراد والثامنة عشرة من معاهدة بساروفتس التجارية وأن يستعينوا فى جميع الاعمال بالمحاكم والحكومات المختصة وعليها أن تنصفهم بالسرعة و بدون محاباة و بدون أن تعتبر مدّة الحرب وجهاً شرعياً لردّ طلباتهم

﴿البند العاشر﴾ تعطى الاوامر المشدّدة الصارمة فى أقرب وقت الى حكام وولاة الدولتين المتعاقدتين العاملين على المقاطعات الواقعة على تخوم الدولتين باعادة السكينة والطمأنينة العمومية ومراعاة حقوق الجوار على جميع الحدود واحترام ما وضعته لجان التحديد من الحدود وعدم تعدّيها وارتكاب السلب والنهب فيما وراءها والتعويض عما ينشأ عنها من الضرر ومجازاة المخالفين لذلك والمذنبين بنسبة ذنوبهم وجرائمهم مع مراعاة القواعد والمبادىء المقرّرة لذلك فى المعاهدات والاتفاقات السابقة بين الطرفين المتعاقدين و بالاختصار ترسل اليهم الاوامر بارجاع الحالة الى ما كانت عليه من النظام والهدوّ قبل الحرب وجعلهم مسؤلين عن جميع ذلك شخصياً

﴿البند الحادى عشر﴾ ويصير التنبيه أيضاً على الولاة المذكورين والتأكيد عليهم بحماية رعايا الطرف الآخر الذين تضطرهم تجارتهم أو أشغالهم الى اجتياز الحدود أو السفر فى داخل الولايات وأن يساعدوهم على السفر فى الانهر ذهابا أو ايابا بكمال الحرية مراعين وملزمين غيرهم بمراعات واجبات الوفادة والضيافة وجميع بنود ومواد المعاهدات والاتفاقات وغيرها المؤيدة فى البندين الثانى والثالث من هذه المعاهدة بدون أن يطلبوا أو يسمحوا لاىّ أحد أن يطلب منهم أىّ مكوس أو ضرائب أخرى على أشخاصهم أو بضائعهم غير المحددة فى المعاهدات المذكورة

﴿البند الثانى عشر﴾ أما بخصوص اجراء أصول الدين الكاثوليكى المسيحى فى الدولة العثمانية وحرية قسوسه والمتمسكين به وحفظ واصلاح كنائسه وحرية التعبد والمتعبدين والتردّد على الاماكن المقدّسة باورشليم وغيرها وحماية هذه الاماكن والحج اليها فان الباب العالى السلطانى يجدّد ويؤيد تبعاً لقاعدة ارجاع كل أمر الى ما كان عليه جميع الامتيازات الممنوحة للدين الكاثوليكى بمقتضى البند التاسع من المعاهدة السابقة وبمقتضى جميع الفرمانات والاوامر الاخرى الصادرة من بادىء أمره

﴿البند الثالث عشر﴾ يرسل كل من الطرفين الى الطرف الآخر سفراء من الدرجة الثالثة لمناسبة هذا الصلح وعند تبليغ تولى جلالة ملوك الدولتين على كرسى أجدادهم ويصير مقابلة هؤلاء السفراء على حسب الرسوم المتبعة وبالابهة والاعتبار والمعاملة التى كانت حاصلة قبل الحرب ويكون لهم حق التمتع بما يخوّله لهم قانون الملل وبالامتيازات المرتبة بوظيفتهم بمقتضى المعاهدات السابقة ويكون الحال كذلك للسفراء المعينين الآن لدى الباب العالى العثمانى ومن يخلفهم مع مراعاة اختلاف درجاتهم ورتبهم وبالنسبة لجميع الموظفين المعينين معهم وتابعيهم وخدامهم ومساكنهم وبما ان كثيراً من السعاة المكلفين بحمل الرسائل والمكاتبات من والى الحكومة الامبراطورية الملوكية صار التعدّى عليهم وسلب ما معهم قبل الحرب فالباب العالى العثمانى لا يترك أى طريقة للتعويض عليهم كما انه سيتخذ الاحتياطات القوية الضامنة لذهاب هؤلاء السعاة وايابهم تحت حمايته بكل طمأنينة

﴿البند الرابع عشر﴾ قد صار تحرير نسختين من هذه المعاهدة مطابقتين لبعضهما احداهما باللغة الفرنساوية التى استعملت لسهولة التفاهم ويصير التوقيع عليها من مندوبى ملك النمسا وامبراطور ألمانيا والثانية باللغة التركية ويصير امضاؤها من مندوبى جلالة السلطان الاعظم ثم يصير مبادلتهما بمعرفة وكلاء الدول المتوسطة وارسالهما الى الطرفين العاليين المتعاقدين وبعد امضائهما بثلاثين يوما أو أقل ان أمكن يصير تبادل براءة اعتمادهما محلاة بامضاء جلالة الملكين الافخمين بواسطة سفراء الدول المتوسطة وتسليمها الى مندوبى المتعاقدين مرفقة بصور المعاهدات والاتفاقات والاوراق التى تجددت وتأيدت

وصارت أبدية الوجود بمقتضى هذه المعاهدة مصدقا عليها بانها طبق الاصل اه

الا أن الروسيا لم تتبع النمسا حليفتها فى طريق الصلح بل استمرت على محاربة الدولة بمفردها وفى ١٦ ربيع آخر سنة ١٢٠٥ الموافق ٢٢ دسمبر سنة ١٧٩٠ استولى القائد سوواروف على مدينة اسماعيل عنوة وارتكبت فيها من الاعمال الوحشية ماتقشعر منه الابدان من قتل وفتك وسبى ولم يرحموا النساء ولا الاطفال ولما وصل خبر سقوط هذه المدينة الى الاستانة هاج الشعب ضد حسن باشا البحرى الذى كان مكلفاً بحمايتها وطلبوا من السلطان قتله فأمر بذلك

ثم توسطت انكلترا والبروسيا وهولاندا بين الدولة والروسية ودارت المخابرات مدة ثم تم الصلح بين الطرفين فى ١٥ جمادى الاولى سنة ١٢٠٦ الموافق ٩ ينايرسنة ١٧٩٢ على أن تمتلك الروسيا بلاد القرم نهائياً وجزء من بلاد القوبان و بسارابيا والاقاليم الواقعة بين نهرى بوج ودينستر بحيث يكون هذا النهر الاخير فاصلا بين المملكتين وتتنازل لها الدولة عن مدينة اوزى (أوتشاكوف) وأمضيت بذلك معاهدة فى مدينة ياش أطلق عليها اسم هذه المدينة نسبة اليها

بعض اصلاحات داخلية

و بعد تمام الصلح مع النمسا والروسيا أخذت الدولة فى اصلاح داخليتها وخصوصاً العسكرية والبحرية فعين أحد المتقربين من الذات السلطانية واسمه كوشك حسين باشا قبودانا عاما وكان من الشبان الاذكياء الذين درسوا أحوال أوروبا ووقفوا على دخائل سياستها حتى وثق به السلطان وثوقاً تاما وزوجه احدى اخواته فبذل جهده فى مطاردة قراصين البحر لتسهيل سبيل التجارة وشمر عن ساعد الجد فى اصلاح الثغور و بناء القلاع الحصينة لحمايتها ثم أنشأ عدة مراكب حربية على شاكلة أحدث المراكب الفرنساوية والانكليزية واستحضر عدداً عظيما من مهرة المهندسين من السويد وفرنسا لصب المدافع فى معامل الطوبخانة العامرة وأصلح مدرسة البحرية ومدرسة الطوبجية التى أسسها البارون دى توت المجرى وترجم لتلامذتها مؤلفات المعلم فوبان الفرنساوى فى فن الاستحكامات وأضاف الى مدرسة الطوبجية مكتبة جمع فيها أهم ما كتب فى الفنون الحربية الحديثة والرياضيات لتكون التلامذة على اطلاع تام فى كل مايختص بترقية شأن الطوبجية ثم وضع نظاماً للجنود المشاة وشرع فى تنسيق فرق جديدة وتدريبها على النظام الاوروبى فانشأ أول فرقة منتظمة فى سنة ١٧٩٦ وجعل عددها ١٦٠٠ جندى تحت قيادة ضابط انكليزى دخل فى الدين الاسلامى وسمى انكليز مصطفى وكان القصد من ترتيب العساكر النظامية الاستغناء بهم عن جنود الانكشارية الذين صاروا عالة على الدولة ومن عوامل تأخرها بعد ان كانوا أهم عوامل تقدمها وقت الفتوحات المستمرة التى كانوا يعودون منها بكثير من الغنائم حتى اعتادوا النهب وصاروا لما لم يجدوا بلاداً مفتتحة حديثاً لسلب أهاليها يتعدون على أهالى الاستانة والعواصم الاخرى بالسلب والنهب وغير ذلك فضلا عن

عصيانهم المرّة بعد الاخرى وعزلهم الصدور والوزراء وتعدّيهم على السلاطين بالعزل أو القتل لما يرون منهم معارضاً لفسادهم أو ضعفاً فى معاقبتهم

هذا وقد كانت الدولة فى أشد الحاجة والافتقار لهذه الاصلاحات الداخلية فان روابط الولاء بين الولاة والعاصمة كانت ضعفت وسعى كل فى الاستقلال أو فى عدم دفع الاموال الاميرية الى الخزينة السلطانية مع نضوبها بسبب الحروب واغتيالها لا نفسهم واستبد المماليك بمصر برئاسة الامراء المصرية وأشهرهم مراد بك وابراهيم بك وعثمان بك البرديسى وغيرهم مما هو مذكور تفصيلا فى تاريخ الجبرتى

دخـــول الفرنساويين مصر

وكذلك ظهرت فى هذه الاثناء فتنة عثمان باشا والى ودين الملقب ببازونداوغلى (١) وانضمام كثير من أهالى الصرب اليه واستظهاره على جنود الدولة التى أرسلت لاقماعه واخيراً سافر اليه كوجك حسين باشا بنفسه وبعد عدة مناوشات كان الحرب فيها سجالا بينهما خشى هذا الوزير من دسائس أرباب الغايات ان تعصى كافة ايالات البلقان فتدارك الامر ومنح بازونداوغلى ولاية ودين طول حياته وبذلك حسمت الفتنة سنة ١٢١٢ الموافقة سنة ١٧٩٧

عصيان بازنداوغلي

وفى سنة ١٢١٣ الموافقة سنة ١٧٩٨ أمرت الجمهورية الفرنساوية بونابرت (٢) القائد الشهير بالمسير الى مصر لفتحها بغير اعلان حرب على الدولة العلية وأوصته بكتمان هذا الامر حتى لا تعلم به انكلترا فتسعى فى احباطه مع ان القصد منه لم يكن الا منع مرور تجارة الانكليز من مصر الى الهند وبالعكس فجهز فى مدينة طولون جيشاً مؤلفاً من ٣٦ ألف مقاتل أغلبهم من العساكر المدربين فى الحروب التى جرت بين فرنسا وايطاليا وانتهت بمعاهدة كامبوفورميو وعشرة آلاف بحرى تحملهم دونانمة مركبة من ٣٠ سفينة حربية و ٧٢ قراويت و ٤٠٠ مركب حمـل وأضاف الى جيشـه ١٢٢ عالماً على اختـلاف العلوم والمعارف لدرس القطر المصرى والبحث عما يلزم لاصلاحه واستغلاله

(١) قال جودت باشا في تاريخه ان هذا الاسم أصله باسبان وحرف في الاستعمال فصار بازوند

(٢) ولد هذا الرجل الشهير في ١٥ أغسطس سنة ١٧٦٩ بمدينة اجاكسيو بجزيرة كورسيكا ثم دخل المدارس الحربية وترقى الى وظيفة ملازم ثانى طوبجي سنة ١٧٨٥ واشتهر في استخلاص مدينة طولون من قبضة الانكليز ثم عين قائداً عاماً للجيش المحارب في ايطاليا سنة ١٧٩٦ وبعد ان قهر الجيوش النمساوية عاد الي باريس حيث كلف بفتح مصر ولما أتم مأموريته عاد الي فرنسا لتتميم نواياه في اغسطس سنة ١٧٩٩ وتولي بها قيادة جميع الجيوش وعين بعد قليل رئيسا لحكومة (قنصل) وفي ١٨ مايو سنة ١٨٠٤ نودى به امبراطوراً على فرنسا باسم نابليون الاول وفي ٢ دسمبر من السنة المذكورة أتي البابا بيوس السابع الي مدينة باريس وتوجه بيده في حفلة عمومية وقهر جيوش أوروبا التي تألبت عليه عدة مرات وانهزم أخيراً في سنة ١٨١٤ واستعفي في ١١ ابريل وسافر الى جزيرة البه التي عينت منفي له بجوار ايطاليا ولم يلبث ان عاد منها ونزل بخليج جوان بجنوب فرنسا في أول مارث سنة ١٨١٥ فتألب عليه الدول أجمع وقهرته في واقعة وترلو ببلاد البلجيك في ١٨ يونيو سنة ١٨١٥ وأرسل أسيرا الي جزيرة سانت هيلانه أحدى جزائر افريقيا التابعة للانكليز وتوفي بها في ٥ مايو سنة ١٨٢١ ودفن فيها ثم نقلت جثته الي باريس في سنة ١٨٤٠ ودفنت بسراى الانفاليد في قبر من الرخام الاحمر وقد زرته في يوليو سنة ١٨٩٥

وفى ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ رحل بونابرت بهذا الجيش بدون أن يعلم أحداً بوجهته فوصل جزيرة مالطه فى ١٠ يونيو واحتلها بعد ان دافع من فيها من رهبان القدّيس حنا الاورشليمى وفى ١٧ محرم سنة ١٢١٣ الموافق ٢ يوليو وصل أمام مدينة الاسكندرية وأنزل عساكره على بعد أربع فراسخ منها وبعد ان دخلها عنوة ترك بها القائد كليبر وسار هو قاصداً مدينة القاهرة عن طريق الصحراء الممتدّة غرب فرع رشيد فقابله مراد بيك بشرذمة من المماليك عند مدينة شبراخيت بالبحيرة فى ٢٩ محرم الموافق ١٣ منه فهزمه بونابرت وواصل السير حتى وصل الى مدينة انبابة مقابل القاهرة وحصلت بينه وبين ابراهيم بيك ومراد بيك أمراء المماليك واقعة الاهرام الشهيرة فى ٧ صفر الموافق ٢١ يوليو التى أظهر فيها المماليك من الشجاعة ما أدهش الفرنساويين وبعد ان بذلوا وسعهم فى الدفاع عن مصر لا أقول بلادهم بل غنيمتهم تقهقروا أمام المدافع الفرنساوية فدخل بونابرت وجيوشه مدينة القاهرة بعد ان أعلن بها انه لم يأت لفتح مصر بل انه حليف الباب العالى أتى لتوطيد سلطته ومحاربة المماليك العاصين أوامره كما قال الانكليز عند دخولهم مصر سنة ١٨٨٢

وأرسل القائد (دسكس) الى الصعيد لاقتفاء أثر مراد بك فتبعه حتى وصل جزيرة فيله (قصر أنس الوجود) فى ٢٥ رمضان سنة ١٢١٣ الموافق ٣ مارث سنة ١٧٩٩ ووجه فرقة أخرى احتلت مدينة القصير على البحر الاحمر فى ٢٤ ذى الحجة من هذه السنة الموافق ٢٩ مايو من السنة المذكورة وبذلك صار القطر المصرى من البحر الابيض المتوسط الى اقاصى الصعيد فى قبضته ثم أسس المجلس العلمى للبحث عما يجعل احتلاله بوادى النيل دائما

لكن لم يلبث ان وصله خبر واقعة أبى قير البحرية التى دمر فيها نلسن (١) أمير البحر الانكليزى الشهير جميع المراكب والسفن الحربية الفرنساوية فى ١٧ صفر سنة ١٢١٣ الموافق أوّل أغسطس سنة ١٧٩٨ وتسلطن الانكليز على البحر المتوسط وقطع المواصلات بينه وبين فرنسا وذلك ان وقت خروج المراكب الفرنساوية من طولون كان نلسن المذكور يحاصر مدينة قادس باسبانيا فترك الحصار وأخذ يبحث عن الدونانمة الفرنساوية فلم يعثر عليها الا بعد أن احتلت جزيرة مالطه ومدينة الاسكندرية كما سبق

ولما علمت الدولة العلية باحتلال الفرنساويين القطر المصرى أخذت فى الاستعداد لحاربتهم لاسيما وانها كانت مطمئنة البال هادئة البلبال من جهة النمسا والروسيا اللتين كانتا

(١) ولد هذا الاميرال سنة ١٧٥٨ ودخل البحرية وسنه ١٢ سنة وامتاز بين أقرانه وتقدم بسرعة حتى عين وكيل أميرال في سنة ١٧٩٧ وفي سنة ١٧٩٨ حاول الاستيلاء علي جزيرة تنريف احدى جزائر كناريا التابعة لاسبانيا فلم ينجح وتبع الدونانمة الفرنساوية حتى أحرقها في أبى قير وفي ٢١ اكتوبر سنة ١٨٠٥ قابل دونانمتي فرنسا واسبانيا بالقرب من رأس الطرف الاغر المشهور بترافلجار فحاربهما وانتصر عليهما وقتل في هذه الواقعة ونقلت جثته الي لوندره ودفنت في كنيسة وستمنستر المعدة لدفن ملوك انكلترا ومشاهير رجالها وزرت قبره في يوليو سنة ١٨٩٥ وأقيم له بلوندرة عدة تماثيل أشهرها ما أقيم في ساحة ترافلجار

مشتغلتين بمحاربة الجمهورية الفرنساوية خوفا من امتداد مبادئها الحرّة الى بلادهما فتتزلزل عرشهما كما حصل للويس السادس عشر ملك فرنسا ومن جهة أخرى عرضت عليها الدولة الانكليزية مساعدتها على اخراج الفرنساويين من مصر لا رغبة فى حفظ أملاك الدولة بل خوفا على طريق الهند من أن تكون فى قبضة دولة قوية يمكنها معاكستها فقبلت الدولة العلية مساعدتها بكل ارتياح وكذلك عرضت عليها الروسيا امدادها بمراكبها الحربية وانضمام دوناتها الى الدونانمتين العثمانية والانكليزية فقبلت أيضاً وأعلنت الحرب رسمياً على فرنسا فى ٢١ ربيع الاوّل سنة ١٢١٣ الموافق ٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨ وأخذت فى جمع الجيوش بمدينة دمشق وبجزيرة رودس لارسالها الى مصر وأتت الدونانمة الروسية من البحر الاسود الى بوغاز الاستانة وخرجت الى البحر الابيض مع الدونانمة العثمانية وذلك بمقتضى معاهدة أبرمت بين هذه الدول الثلاث التى اتفقت لاوّل مرة على عمل حربى مع ما بين الدولة العلية والروسية من العداوة القديمة المستمرّة

ولما شعر بونابرت باجتماع الجيوش لمحاربته تحقق انه ان لم يفاجىء الدولة العليه فى بلاد الشام قبل أن تتم استعداداتها الحربية تكون عواقب الحرب وخيمة عليه وان من يحتل مصر لا يكون آمنا عليها الا اذا احتل القطر السورى فلهذه الدواعى عزم بونابرت على فتح بلاد الشام وقام من مصر ومعه ثلاثة عشر ألف مقاتل قاصداً بلاد الشام من طريق العريش فاحتلها فى أواخر شعبان سنة ١٢١٣ ثم دخل مدينة غزة فى ١٩ رمضان وارتحل عنها فى ٢٣ منه ووصل الرملة فى ٢٥ منه ومنها الى يافة فوصلها فى ستة وعشرين رمضان الموافق ٧ مارث ولما آنس منها المقاومة حاصرها ودخلها عنوة فى يوم أوّل شوّال ثم رحل منها قاصداً مدينة عكا وقبل مزاولته ليافا ارتكب أمراً شنيعا لم يسبق فى التاريخ وهو أمره بقتل جميع الجرحى والمرضى من عساكره حتى لا يعوقوه فى سيره ثم حاصر مدينة عكا من جهة البر وهاجمها مراراً لكن لم يتمكن من فتحها لوصول المدد اليها تباعا من طريق البحر واستيلاء الاميرال الانكليزى (سدنى سميث) (١) على مدافع الحصار التى أرسلها من مصر لاطلاقها على الاسوار ولتيقظ أحمد باشا الجزار قائد حاميتها لافساد الالغام التى ينشئها الفرنساويون لنسفها وفى أوائل أبريل بلغه تحرك جيش دمشق العثمانى لانجاد مدينة عكا فأرسل القائد كليبر مع فرقة من الجيش لمحاربته ومنعه من الوصول اليها فالتقى هذا القائد بالعثمانيين عند جبل طابور وأحاطوا به احاطة السوار بالمعصم وكادوا يفوزون عليه لولا مجىء بونابرت اليه بثلاثة آلاف مقاتل ومهاجمته لهم من الخلف فتفرق الجيش العثمانى فى ١٦ أبريل ثم عاد بونابرت الى عكا فوصله خبر تقدّم الجيش المجتمع

---

(١) أميرال انكليزى ولد سنة ١٧٦٤ وتوفي سنة ١٨٤٠ كلفه الاميرال هودجين عندما كان محتلا لمدينة طولون بحرق الدونانمة الفرنساوية فحرقها في سنة ١٧٩٣ ثم أخذ أسيراً في فرنسا وبقي بها سنتين مسجونا بسجن التامبل بباريس ثم هرب فساعد علي الدفاع عن مدينة عكا وعين أميرالا سنة ١٨٢١ ثم اعتزل الاعمال وقضي باقي عمره في تأسيس ومساعدة الاعمال الخيرية

فى جزيرة رودس فقطع بعدم النجاح وعاد بمن بقى من جيوشه الى القاهرة ودخلها فى ٢١ مايو من السنة المذكورة

وفى يوليو نزل جيش رودس العثمانى بأبى قير وتحصن بها وكان يبلغ عدده ١٨ ألف مقاتل فسار بونابرت من القاهرة لمحاربتهم فتغلب عليهم والتجأ من لم يقتل منهم الى المراكب فى ٢٤ صفر سنة ١٢١٤ الموافق ٢٥ يوليو وأسر قائدهم الاكبر مصطفى باشا وكثيراً من الجنود

وفى ٢٢ أغسطس سافر بونابرت من الاسكندرية قاصداً فرنسا خفية مع بعض قوّاده حتى لا يضبطه الانكليز القاطعون بمراكبهم سبل البحر الابيض على الفرنساويين وذلك ان الاميرال الانكليزى أرسل اليه عدّة نسخ من الجرائد الفرنساوية المذكور بها خبر تغلب النمساويين على فرنسا ووقوع الفوضى فى داخليتها فأراد بونابرت الرجوع اليها لاستمالة الخواطر اليه وتأليف حزب يعضده فى الوصول الى غرضه وهو أن يعين رئيساً للجمهورية أو أكثر من ذلك خصوصاً وقد نال اسما عظيما فى محاربات ايطاليا والنمسا قبل مجيئه لمصر وحاز فخراً أثيلا بسبب فتحه وادى النيل فغادره تاركا القائد (كليبر) وكيلا عنه ويقال انه أذنه باخلاء القطر لو رأى تغلب القوى الخارجية عليه لعدم امكان مساعدته بالمال أو الرجال نظراً لوجود السفن الانكليزية تشق عباب البحر الابيض طولا وعرضاً فبقى الجيش الفرنساوى بمصر بدون مراكب تحميه من نزول الانكليز والعثمانيين الى الثغور أو تأتى اليه بالمدد أو بمجرّد الاخبار من فرنسا ونقص عدده الى خمسة عشر ألفا بعد من مات ببر الشام بالطاعون والحرب وظاهر أن هذا العدد غير كاف لحماية السواحل وحفظ طريق الصالحية والمحافظة على الأمن فى الداخل ولذلك يئس القائد كليبر من حفظ مصر واتفق مع الباب العالى والاميرال سدنى سميث فى ٢٤ ينايرسنة ١٨٠٠ على أن تنسحب العساكر الفرنساوية بسلاحها ومدافعها وترجع الى فرنسا على مراكب انكليزية لكن بعد أن ابتدأ الفرنساويون فى اخلاء القلاع أرسل الاميرال كيث الانكليزى الى كليبر يخبره أن الحكومة الانكليزية لم تقبل هذا الاتفاق الا اذا ألقى الفرنساويون سلاحهم بين أيادى الانكليز فاغتاظ القائد الفرنساوى لذلك وسار لمحاربة الجيش التركى الذى أتى الى مصر تحت قيادة الوزير يوسف باشا لاستلامها من الفرنساويين فتقابل الجيشان عند المطرية فى ٢٣ شوّال سنة ١٢١٤ الموافق ٢٤ مارث سنة ١٨٠٠ وبعد محاربة عنيفة فاز كليبر بالنصر وعاد الى القاهرة فوجدها فى قبضة ابراهيم بيك أحد الامراء المصرية وكان دخلها حال اشتغال الفرنساويين بالمحاربة فأطلق القنابل عليها وخرب منها جزأ عظيما واستمرّ الحرب فى شوارعها نحو العشرة أيام مما هو مذكور فى تاريخ الجبرتى تفصيلا عن ذكر حوادث الشهر المذكور (راجع جزء ثالث صحيفة ٩٠ وما بعدها )

و بعدذلك ساد الامن بالقاهرة وفى١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ الموافق ٢١ محرم سنة ١٢١٥ قتل شخص حلبى اسمه سليمان القائد كليبر فى بستان سراى الالفى بالازبكية ( الموجود محلها الآن فندق شبرد) وهرب فبحثوا عليه حتى وجدوه مختفياً ببستان مجاور للبستان الذى حصل فيه القتل فضبطوه و بعد تحقيق طويل قتلوه هو ورفاق له ثلاثة اتهموا معه فى القتل و بعد دفن القائد كليبر عين مكانه الجنرال (منو) وكان قد اعتنق الدين الاسلامى وتسمى عبد الله منو

خروج الفرنساويين من مصر

ولما علم الانكليز والعثمانيون بموت كليبر وخروج بونابرت ومعه أمهر القوّاد من مصر أيقنوا بالغلبة عليهم وأنزلوا بأبى قير ثلاثين ألف مقاتل تحت قيادة الجنرال (ابركرومبى ) فى أوائل سنة ١٨٠١ فسار القائد منو لمحاربتهم فانهزم أمامهم فى ٢١ مارث ورجع الى مدينة الاسكندرية ليتحصن بها فقطع الانكليز سدّ أبى قير المانع لمياه البحر الابيض من الاغارة على أرض مصر حتى يحصر القائد منو وجيوشه فى الاسكندرية غير مبالين بما ينجم عن قطع هذا السدّ من الخراب والدمار لجزء ليس بقليل من الوجه البحرى

ثم سار الانكليز والاتراك الى القاهرة عن طريق الصالحية وحصروا من بقى منها من الفرنساويين ولتحقق القائد ( بليار ) أنه لا مناص له من التسليم خابر القائدين العثمانى والانكليزى وطلب منهما اخلاء وادى النيل بالشروط السابق تدوينها باتفاق العريش فى ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ فقبلا منه وأمضيا معه اتفاقاً بذلك فى ١٦ صفر سنة ١٢١٦ الموافق ٢٧ يونيه سنة ١٨٠١

فأخلى المدينة فى ٢٨ صفر من السنة المذكورة وخرج منها بجميع أسلحته ومدافعه ومهماته

و بعد ان أقاموا فى برّ الجزيرة أربعة أيام ساروا الى ثغر رشيد تتبعهم فرق من الجنود الاسلامية والانكليزية لمنع تعرض الاهالى لهم وفى أواخر ربيع الاول أبحروا من رشيد على مراكب انكليزية

أما القائد منو فبقى محصوراً فى الاسكندرية ولم يقبل التسليم الافى ٢٢ ربيع الآخر سنة ١٢١٦ الموافق ٢ من شهر سبتمبر سنة ١٨٠١ بعد ان وقعت بينه و بين العثمانيين والانكليز موقعة عظيمة قتل فيها كثير من الطرفين فخرج منها مع من بقى معه وسافر الى بلاده على مراكب الانكليز و بذلك انتهت الحرب ورجعت البلاد الى حاكمها الشرعى ومالكها الاصلى وخليفة رسول رب العالمين بعد أن وطىء هامتها الاجنبى وارتكب فيها من الاعمال مايضيق نطاق هذا الكتاب عن وصفه نسأله تعالى أن يمنّ عليها بالتخلص من الاجانب المحتلين لها الآن عسكرياً ومدنياً كما حررها من رقية الفرنساويين فان (مصر كنانة الله فى أرضه من أرادها بسوء أهلكه الله انه هو السميع المجيب )

و بعد ذلك تخابر بونابرت الذى كان تعين رئيساً للجمهورية الفرنساوية بلقب قنصل مع

سفير الدولة العلية المدعو أسعد افندى وأظهر له ضرر اتحاد الدولة مع الروسيا وانكلتره خصوصاً وأن الروسيا قد احتلت جزائر اليونان الواقعة ما بين جنوب ايطاليا وبحيث جزيرة موره وجنود انكلتره باقية بمصر مماطلة فى اخلائها هى وما احتلته من ثغور الشام وأخيراً أقنعه بوجوب تجديد العلاقات الودية مع فرنسا فكاتب السفير العثمانى دولته بذلك وبعد الحصول منها على الاذن أمضى مع بونابرت مشروع معاهدة بتاريخ أول جمادى الآخرة سنة ١٢١٦ الموافق ٩ اكتوبر سنة ١٨٠١ و ١٧ فانديمير من العام العاشر للجمهورية الفرنساوية أساسها اخلاء مصر وتأييد امتيازات فرنسا السابقة فى الشرق وهذا نصها نقلا عن قاموس فيليب جلاد

﴿البند الاول﴾ ينعقد السلم والولاء فيما بين الجمهورية الفرنساوية والباب العالى فيزول بناء على ذلك ما كان بينهما من العدوان ابتداء من اليوم الذى تبادل فيه التصديقات على هذه البنود الابتدائية وبعد أن تجرى مبادلة التصديق تخلى فى الحال العساكر الفرنساوية عن مملكة مصر وترد المملكة المذكورة الى الباب العالى المحفوظة أراضيه وممالكه له بالتمام والكمال كما كانت قبل الحرب الحالية على أنه من المقرر أن كل ما يسمح به من الامتيازات فى الممالك المصرية لسائر الممالك الاجنبية بعد انجلاء الفرنساويين عنها يكون مسموحا بها للفرنساويين أيضاً

﴿البند الثانى﴾ تعترف جمهورية فرنسا بتشكيل جمهورية السبع جزائر وبلاد البندقية السابقة وتكفل استمراره ويقبل الباب العالى كفالة فرنسا وروميا بذلك

﴿البند الثالث﴾ ستتفق الجمهورية الفرنساوية والباب العالى العثمانى على تعيين طريقة نهائية تختص بأموال رعاياهما وأمتعتهما التى حجزت أو أخذت مصادرة أثناء الحرب ويطلق سراح الوكلاء السياسيين والوكلاء التجاريين والاسرى على اختلاف درجاتهم حال حصول التصديق على هذه البنود الابتدائية

﴿البند الرابع﴾ ان المعاهدات الكائنة فيما بين فرنسا والباب العالى حتى قبل الحرب الحاضرة تجددت بتمامها وبناء على ذلك حق لجمهورية فرنسا أن تتمتع فى كافة أنحاء الممالك العثمانية بجميع الحقوق التجارية وحقوق الملاحة التى كانت متمتعة بها قبلا أو سيتمتع بها غيرها من الدول الاكثر تفضيلا فى مستقبل الايام

وتبادل التصديقات على هذه البنود فى ظرف ثمانين يوما وحرر عن باريس فى ١٧ فنديميار من العام العاشر لجمهورية فرنسا الموافق يوم غرة جمادى الآخرة سنة ١٢١٦

وعقب ذلك أبرم بونابرت مع عامل الجزائر معاهدة بتاريخ ١٧ دسمبر سنة ١٨٠١ وأخرى مع تونس بتاريخ ٢٣ فبراير سنة ١٨٠٢ قاضيتين باحترام سفن فرنسا التجارية كما كان فى زمن السلطان سليمان القانونى

ولما دارت المخابرات بين فرنسا وانكلترا للوصول الى مصالحة اميان (١) أرادت انكلترا ادخال الباب العالى فيها حتى تثبت اشتراكها وتحالفهامعها بصفة دولية فلم تقبل الدولة ولا فرنسا بذلك وأصرّ بونابرت على الاتفاق مع الدولة رأساً وتم الاتفاق بينهما فى ٢٣ صفر سنة ١٢١٧ الموافق ٢٥ يونيه سنة ١٨٠٢ على أن ترجع مصر الى الدولة مع كافة ما كان لها من الحقوق وأن يقام فى جزائر اليونان جمهورية مستقلة تحت حماية الباب العالى (وكان ذلك بالاتفاق مع الروسيا) وتعهدت الدولة العلية بردّ ماصودر من أملاك الفرنساويين ببلادها ومنح فرنسا جميع امتيازاتها السابقة المضمونة لها بمعاهدة سنة ١٧٤٠ وأن يكون لمراكبها التجارية حق الملاحة فى البحر الاسود اسوة بمراكب الروسيا وبعد ذلك أخلت انكلترا جيوشها عن مصر والاسكندرية فى ذى القعدة بسنة ١٢١٧ الموافقة شهر فبراير سنة ١٨٠٣

وفى هذه الاثناء حصلت فى داخلية الدولة بعض اضطرابات بسبب شروع السلطان سليم الثالث فى تنظيم الجيوش على النظام الجديد فان الانكشارية لم ينظروا لهذه الاصلاحات العسكرية بعين الارتياح لخوفهم من أن تكون مقدّمة لالغاء وجاقاتهم فلما مات الجنرال دوبايت الفرنساوى الذى كان استحضر لتدريب النظام فى سنة ١٧٩٧ سعى الانكشارية مع بعض العلماء المغايرين لكل أمر مستحدث بدون نظر الى مايجره من النفع لدى جلالة السلطان وتحصلوا على لغو الفرق المنتظمة فاخذ القبودان كوجك حسين باشا نحو ٦٠٠ منهم وشكلهم على هيئة أورطة منظمة على نفقته الخصوصية وأجزل اليهم الهبات حتى أتى الشبان للانضمام اليها باختيارهم وأخذ الانكشارية يقفون أمام سرايه وقت تعليم العساكر ويهزؤون بهم تارة ويهدّدونهم أخرى وحسين باشا لا يعبأ بهم بل جدّ فى طريقه وسار فى مشروعه ولما سار بونابرت من مصر الى الشام سافر هو الى عكا مع فرقته فكانت العساكر النظامية فى مقدمة المدافعين ومن أشدّهم بأساً على جيوش الفرنساويين ولما عادوا من مدينة عكا تخفق عليهم رايات النصر أمر السلطان أن تكون نفقتهم على الحكومة وأن يزاد عددهم لما تحققه جلالته من فائدة النظام فى الجندية بازاء جيوش أوروبا المنتظمة ثم انتهز فرصة وجود أكبر قوّادالانكشارية بمصر لمحاربة الفرنساويين وأصدر أمراً سامياً (خط شريف) قاضياً بفصل المدفعية عن

---

(١) مدينة شهيرة بشمال فرنسا تبعد عن باريس بمسافة ١٣٣ كيلو متر ويبلغ عدد سكانها ثمانين ألفا من النفوس وبها معامل كثيرة لغزل القطن وحياكته وكثير من المدارس الابتدائية والتجهيزية ومدرسة تجهيزية للطب والصيدليه وبها مكتبة عمومية بلغ عدد مابها من الكتب فى السنة الاخيرة ستين ألف مجلد وبها أيضا محكمة ابتدائية وأخرى استئنافية وفى ٢٥ مارث سنة ١٨٠٢ أمضيت بها معاهدة بين فرنسا وانكلترا وهولاندا واسبانيا ملخصها ان حفظت فرنسا جميع فتوحاتها ماعدا مدينتى رومه ونابولى وجزيرة البه وردت انكلتره ماأخذته من المستعمرات من اسبانيا وهولاندا وفرنسا ماعدا جزيرة سيلان بجنوب الهند وجزيرة ترينيتى بامريكا الوسطى

الانكشارية وتنظيمها على الطراز الاوروبى وكذلك البحرية وبانشاء أورطتين سوارى وألايين مشاة منتظمين ويكون مقرهم فى الاستانة وأن يكون لكل منهم موسيقى عسكرية وامام لتعليم الدين واقامة الصلاة وأن يبنى قشلاقان أحدهما باسكدار والآخر ببيوكدره وأن يخصص للصرف عليهم جميع الاقطاعات العسكرية التى تحل بموت أصحابها وتعود للحكومة ثم أصدر أوامره الى عبدالرحمن باشاوالى بلادالقرمان بتأليف عدة ألايات وتدريبها على النظام الجديد فصدع بالامر بكل اهتمام حتى لم تمض ثلاث سنوات الاوقد تم تنظيم ثمانية ألايات كاملة العدد والعدد

الفتن الداخلية واسبابها

ولنأت هنا على تلخيص ما كان واقعاً ببلاد الصرب والارنؤد من الفتن ليكون القارىء مطلعاً على حالة الدولة الداخلية وما بها من موجبات التقهقر التى أساسها الاصلى عدم السعى وقت الفتح فى محو عصبيات الامم المختلفة بعد الاستيلاء عليها ببذل الجهد فى اضعاف ثم تلاشى لغتهم وعوائدهم حتى يصير الكل أمة واحدة عثمانية فنقول

لما فتحت بلادالصرب نهائياً بعد واقعة ( قوص اوه ) الشهيرة أعطيت كافة أراضيها اقطاعات الى الفرسان العثمانية ( سباه ) أى انها تبقى تحت يد ملاكها الاصليين المسيحيين بشرط دفع جعل أو خراج معين لمن أعطيت له وترك لهم حق انتخاب مشايخ بلادهم فاستبد معهم ملتزمو الاقطاعات وعاملوهم معاملة نفرت قلوبهم وأوجدت فيهم محبة الاستقلال فكثر منهم قطاع الطرق

ولما انتشبت الحرب الاخيرة بين الدولة والنمسا والروسيا هاجر كثير منهم الى بلادالمجر وانخرطوا فى سلك الجندية النمساوية لمحاربة الدولة ولما وضعت الحرب أوزارها عادوا الى بلادهم بعدان تمرنوا على فنون الحرب وضروب القتال وأشربوا حب الاستقلال والحرية وبعد عودتهم اضطهدهم الانكشارية لرفعهم السلاح ضد دولتهم فى صفوف أعدائها ولو أن الباب العالى عفا عنهم عفواً عمومياً الا أن هذه الفئة المفسدة اتخذت ذلك سبباً لنهب قرى الصرب والتعدى عليهم بكافة أنواع الاهانة

ولما اشتكى الاهالى من هذه المظالم أمرت الدولة والى بلغراد بمعاقبة الانكشارية واخراجهم من أراضى الصرب قاطبة فلم يمتثلوا هذه الاوامر ولذا حاربهم الوالى بمساعدة السباه وتغلب عليهم وأخرجهم من ولاية بلغراد بعد ان قتل رئيسهم دلى أحمد فالتجأوا الى بازونداوغلى الذى سبق ذكر تمرده واستقلاله تقريباً بولاية (ودين) وهو توسط لهم لدى الباب العالى واستحصل لهم على الاذن بالعودة الى بلغراد بشرط ملازمة الهدو والسكينة لكنهم لم يرجعوا عن غيهم بل بمجرد عودتهم استأنفوا اضطهادهم للصرب ثم تطاولوا الى محاصرة مدينة بلغراد بمساعدة بازوند اوغلى ودخلوها عنوة وقتلوا واليها وانتشروا فى أطراف البلاد يعثون فى الارض فساداً

ولما ضاق الصربيون ذرعا اجتمعوا للدفاع عن أرواحهم وأموالهم وأعراضهم وانتخبوا

لهم رئيساً من أهلهم وهو جورج بتروفتش(١)وطاردوا الانكشارية حتى أبعدوهم عن الاراضي والقرى وصار لا يمكنهم الخروج من المدن لتربص الاهالى لهم

ثم أرسل الباب العالى الى بكير باشا والى بوسنه يامره بمساعدة الصرب ومحاربة الانكشارية وطردهم ثانية من بلغراد فأتى بجيشه وحاصرها مع بتروفتش حتى دخلاها وأخرجا الانكشارية منها

وبعد ذلك رجع بكير باشا الى ولايته ومن ذلك الحين لم ترجع السكينة الى بلاد الصرب بل تألبوا جماعات تحت رئاسة بتروفتش للدفاع عن أنفسهم ولم يهدأ لهم بال حتى تحصلوا على الاستقلال الادارى ثم السياسى كما سيأتى فى موضعه

وفى هذه الاثناء كانت الاضطرابات سائدة فى بلاد الارنؤود لقيام على باشا والى يانيه على الباب العالى واستئثاره بالسلطة حول ولايته أما على باشا المذكور فهو ابن أحد بيكوات الاروام الذين اعتنقت عائلاتهم الاسلام فى بدء الفتح العثمانى ثم صار رئيساً لاحدى العصابات التى تألفت بايعاز الروسيا ودسائسها لقطع السبل وايقاف حركة التجارة فى جبال اليونان والارنؤود بدعوى الوطنية وماذلك فى الحقيقة الا للسلب والنهب ثم رأى ان موالاة الدولة أنفع لصالحه فعدل عن طريقته الاولى ونبذ وسوسة الاجانب ظهرياً وطلب من الباب العالى تعيينه حاكماً على الجهة التى ولد بها من بلاد ابيروس العليا باليونان فقبل منه الباب العالى هذا الطلب رغبة منه فى اطفاء الفتن الداخلية وكلفه بمحاربة والى اشقودره ووالى (دلوينو) اللذين عصيا الدولة طمعاً فى الاستقلال فحاربهما وتغلب عليهما

ثم بعد محاربة الروسيا عين فى سنة ١٧٨٧ دربندباشى أى محافظاً على السبل والطرق من تعدّى العصب المتسلحة التى تكثر عادة فى البلاد أثناء الحروب وبعدها وفى سنة ١٧٨٨ عين والياً على يانيه وفى سنة ١٧٩٧ لما استولت فرنسا على كافة السواحل والثغور التابعة لجمهورية البندقية راسلهم على باشا مؤكداً لهم حسن ولائه لبونابرت وحكومته ولم يكن ذلك منه الا لحفظ البلاد العثمانية من تعدّى الفرنساويين

ولما أعلنت الدولة الحرب على فرنسا بسبب احتلال مصر احتل صاحب الترجمة ثغر (بوترنتو) وسار لفتح مدينة بروازه فقابله عدد من الفرنساويين فحاربهم وفاز عليهم بالنصر ودخل المدينة عنوة

---

(١) ولد هذا الثائر الصربي بمدينة بلغراد سنة ١٧٧٠ وكان يلقب بقره جورج أي الاسود وهو أول من جمع كلمة الصربيين علي مقاومة الدولة العلية وطلب الاستقلال وفي سنة ١٨٠٦ نال بعض امتيازات استرجعتها الدولة فيما بعد وطردته منها سنة ١٨١٣ فهاجر الي الروسيا حيث أكرمته الحكومة وعينته قائداً في جيوشها وفي سنة ١٨١٧ حاول الرجوع الي الصرب لاثارة الفتن فقبض عليه (ميلوش اورسوفتش) وقتله وأرسل رأسه الي الاستانة علامة على ولائه للدولة وينسب الي جورج المذكور أنه قتل أباه وأخاه بمجرد ما آنس منهم الميل الي الدولة العثمانية

ثم فى سنة ١٨٠٢ كلفه الباب العالى بمحاربة قبيلة (السوليين)(١) التى عصت الدولة واعتصمت بالجبال المنيعة فسار اليها بجيشه المؤلف من الارنؤود ومسلمى الاروام الناشئين بين قلال الجبال ووهادها وحاصرهم من كل صوب حتى اذا لم يروا بدّا من التسليم أو الموت طلبوا الامان فى غضون سنة ١٨٠٣ بشرط أن يؤذن لهم بالمهاجرة الى جزائر اليونان المستقلة فأذن لهم وفى أثناء انسحابهم انقضت عليهم جيوشه الغير منتظمة وقتلت منهم خلقاً كثيراً و بذلك ساد الامن فى كافة بلاد الارنؤود وابيروس وجبالها وضربت السكينة أطنابها فى جميع البلاد ومفاوزها وطرقاتها وكافأه السلطان على ايجاد الامن فى هذه المسالك الوعرة بان قلده رتبة ( روملى واليسى ) أى والى الروملى و بما أن هذه الرتبة تخول للحائز عليها حق قيادة الجيوش حال اشتغال الصدر الاعظم فى مهام الدولة الاخرى سار على باشا فى ثمانين ألف مقاتل لمحاربة أهالى مقدونيا الذين ثاروا طلباً للاستقلال بناء على ايعاز الروسيا وتغلب عليهم بعد محاربات عنيفة وأدخلهم كرهاً فى طاعة الدولة وكانت هذه الخدمة الجليلة من موجبات زيادة نفوذه فداخله الغرور وأوجست منه الدولة خيفة لما ظهر لها من ميله الى الاستقلال ولما أحس هو بذلك خشى أن يناله أذى منها فتحصن فى بلاد ابيروس وأخضع لسلطانه من بها من الامراء وصار كحاكم مستقل بها وسنذكر ما حلّ به من الدمار جزاء نبذه طاعة الدولة فى حينه

ولم تكن بلاد الروملى خالية من الاضطرابات بل وصل البهاشرّ العصابات المتسلحة وانتشرت فيها أزيد من انتشارها فى باقى ولايات الدولة باوروبا حتى لم يتمكن الانكشارية من كبح جماحهم بل فاز المفسدون عليهم فى عدّة وقائع وصارت البلاد فى كرب عظيم و بلاء شديد وهدّد هؤلاء الثائرون مدينة أدرنه نفسها مع مناعتها

فأراد السلطان تجربة الجيوش المنتظمة فى محاربتهم وارسل فى سنة ١٨٠٤ ألايا من الاستانة مع فرقة من المدفعية وأخرى من الخيالة وثلاثة الايات من التى نظمها والى بلاد القرمان فقامت هذه الجنود بما عهد اليها خير قيام ولم تقو العصب على الوقوف أمامها كما هو محقق ومثبوت من أن العسكرى المنتظم يقاوم عشرة أو أكثر من الغير منتظمين و بعد قليل طهرت بلاد الروملى من أدران الفساد وعادت السكينة الى ربوعها ورجعت الجنود المنتظمة الى الاستانة مكللة بالظفر فانشرح السلطان من نجاح مشروع هذا النظام الجديد وأغدق عليهم العطايا والهبات ثم أصدر فى شهر مارث سنة ١٨٠٥ أمراً سامياً ( خط شريف ) الى جميع الولايات بتركية أوروبا بجمع جميع الشبان من الانكشارية والاهالى البالغين سنّ الخمسة والعشرين وادخالهم العسكرية وترتيبهم على النظام الجديد فلم

---

(١) هم سكان بلدة صغيرة في وسط جبال الارنؤود تبعد عن مدينة يانيه بمسافة ٤٥ كيلومترا تدعى سولي اشتهروا بمقاومتهم الدولة العلية وعدم الرضوخ لها واعتصامهم بالجبال فطار صيتهم في جميع انحاء أوروبا

يقبل الانكشارية هذا الامر وأظهروا التمرّد ولذاأرسل السلطان الى عبدالرحمن باشاوالى بلاد القرمان الذى كان من أكبر المعضدين للاصلاح العسكرى أن يأتى الى الاستانة بجيوشه المنتظمة ليوجهوا الى البلاد التى امتنع بها الانكشارية عن تنفيذ الامر السلطانى فاتى الى القسطنطينية فى أوائل سنة ١٨٠٦ و بعد ان مكث نحو شهر استعرض السلطان فى خلاله الجنود النظامية سافر عبد الرحمن باشا وجنوده قاصداً مدينة أدرنه فى أواسط يوليه من السنة المذكورة ولما وصل اليها وجد الانكشارية ثائرين وأبوابها مؤصدة أمامه فعاد الى الاستانة بعد حصول عدّة وقائع حربية بينه و بين الثائرين ولما رأى السلطان امتداد الثورة واتحاد بعض العلماء والطلبة ضد النظام الجديد أذعن لمطالب الانكشارية وأرجع العساكر النظامية الى ولايات آسيا وعزل الوزراء وعين أغاة الانكشارية صدراً أعظم ومع ذلك فلم تنته هذه المسئلة بسلام بل جرت بعد قليل الى عزل السلطان كما سيجىء

وفى غضون ذلك كانت بلاد الصرب قائمة قاعدة فى طلب الاستقلال وحصلت بين أهلها و بين العساكر الشاهانية عدّة محاربات كان النصر فيها تارة لفريق وطورا للفريق الآخر واستمر الحال على هذا المنوال الى أواخر سنة ١٨٠٦ فعرض عليهم والى اشقودره ان الباب العالى يمنحهم ادارة مستقلة لكن بما ان أغلب أراضيهم معطاة الى العساكر السباه فيدفع الصربيون تعويضا قدره ستمائة ألف فلورين لتوزع على أصحاب الالتزامات بصفة تعويض على تركهم التزاماتهم للادارة الصربية فقبل زعيمهم جورج بتروفتش بذلك لكن رفض الباب العالى هذا الاقتراح وأبى الا دخالهم فى طاعته كما كانوا وعند ذلك انتشب الحرب بين الدولة العلية والروسيا التى سيأتى بيان أسبابها

هذا ولنرجع الى ذكر علاقات الباب العالى وفرنسا والروسيا وانكلترا بعد خروج الفرنساويين من مصر فنقول ان بونابرت أرسل الى بلاد الشرق الجنرال سبستيانى لتجديد ربط الاتحاد والوداد مع الدولة العلية فسافر الى الاستانة حاملا خطاباً من بونابرت الى السدة السلطانية وفى أثناء اقامته بالاستانة تمكن بمساعيه من عزل أميرى الافلاق والبغدان الحازبين للروسيا فعزلا فى ٥ جمادى الثانى سنة ١٢٢١ الموافق ٢٠ اغسطس سنة ١٨٠٦ وعين بدلهما من المخلصين للدولة العلية فساء ذلك الروسيا وخشيت من امتداد نفوذ فرنسا فى الشرق فارسلت جيوشها لاحتلال هاتين الولايتين بدون اعلان حرب بدعوى ان تغيير أميريهما مضر بحقوق جوارها فانتشبت نيران القتال بينها و بين الدولة واتحدت انكلترا مع الروسيا فى هذه الحرب لتأييد طلباتها فأرسلت احدى دوننماتها تحت قيادة اللورد (دوق وورث) أمام الدردنيل وأرسل سفيرها السير (ار بوثنوت) بلاغا الى الباب العالى يطلب منه تحالف الدولة العلية وانكلترا وتسليم الاساطيل العثمانية وقلاع الدردنيل الى انكلترا والتنازل عن ولايتى الافلاق والبغدان الى الروسيا وطرد الجنرال (سبستيانى) من الاستانة واعلان الحرب على فرنسا والا تكن انكلترا مضطرة لاجتياز بوغاز الدردنيل

واطلاق مدافعها على الاستانة نفسها فلم تقبل الدولة هذه المطالب بل أخذت فى تحصين البوغاز واقامة القلاع على ضفتيه لكن لم يكن الوقت كافياً لتحصينه بكيفية تجعل المرور منه غير ممكن وفى ١٢ ذى الحجة سنة ١٢٢١ الموافق ٢٠ فبراير سنة ١٨٠٧ قرن الانكليز القول بالفعل واجتاز الاميرال اللورد ( دوك وورث ) بوغاز الدردنيل بدون أن يحصل لمراكبه ضرر يذكر من مقذوفات القلاع ووصل الى فرضة (جاليبولى) ودمر كافة السفن الحربية العثمانيـة الراسية بها ومكث خارج البوسفور ينتظر تنفيذ لائحتـه التى سبق ذكرها

وبورود الخبر الى الدولة بذلك وقع الرعب فى قلوب سكان الاستانة خشية من وصول السفن الانكليزية الى البوسفور وهناك تكون الطامة الكبرى لوجود أغلب السرايات الملوكية ودواوين الحكومة على ضفتيه ووقع الوزراء فى حيص بيص فاقرّوا بعد مداولات طويلة أن يذعنوا لطلب انكلترا وأرسلوا الى الجنرال سبستيانى يدعونه للخروج من الاستانة خوفاً من تفاقم الخطب فقابل الجنرال الفرنساوى الرسول العثمانى محاطاً بجميع مستخدمى السفارة والضباط الفرنساويين المستخدمين بجيوش الدولة وبحريتها وأجابه قائلا انى لا أخرج من الاستانة الا مكرها ثم طلب أن يقابل السلطان مقابلة خصوصية فاجيب طلبه ولما قابله أظهر له استعداد فرنسا لمساعدة الدولة وان الامبراطور نابليون قد أصدر أوامره الى جيوشه المعسكرة بسواحل الادرياتيك للسفر الى الاستانة لمساعدة الدولة على مقاومة انكلترا ورفض طلباتها فاقتنع جلالته بعدم جواز الانصياع لطلبات الانكليز وانها لو رأت من الدولة العلية مقاومة أذعنت هى لسحب مطالبها خوفاً على تجارتها من البوار لو صدرت الاوامر بعدم قبولها فى الممالك المحروسة

فأخذ فى تحصين العاصمة وبناء القلاع حولها وتسليحها بالمدافع الضخمة وشكل الفرنساويون النازلون بالاستانة فرقة من مائتى مقاتل أغلبهـم من المدفعية وكذلك الاسبانيون لمضادّة سفيرهم المركيز دالمنييرا لسياسة انكلترا فى الشرق واهتم كل من فى الاستانة فى هذا العمل الوطنى حتى الشيوخ والاطفال والنساء وبذل الانكشارية من الاهتمام أكثر مما كان يؤمل منهم وكان السلطان بنفسه يناظر الاشغال ويحث المشتغلين بها على مواصلة الليل بالنهار لاتمام القلاع لصدّ هجمات الاعداء فلم يمض بضعة أيام حتى صارت المدينة فى مأمن من كل طارىء ووقفت عدة سفن فى مدخل البوسفور لمنع كل مهاجم هذا مع استمرار الاشغال فى بوغاز الدردنيل فلما رأى الاميرال الانكليزى استحالة دخوله البوسفور وقرب انتهاء تحصينات الدردنيل خشى من حصر مراكبه بين البوغازين وقفل راجعاً الى البحر الابيض فى ٢٠ ذى الحجة سنة ١٢٢١ الموافق أوّل مارث سنة ١٨٠٧ فنجا منه بمراكبه بعد ان قتل من رجاله ستمائه وغرق من سفنه اثنتان من مقذوفات قلاع الدردنيل واجتمع بمراكب الروسيا عند مدخل البوغاز

ثم أراد الاميرال الانكليزى أن يأتى عملا يمحو ما لحقه من العار بسبب فشله فى هذه المأمورية فقصد ثغر الاسكندرية ومعه خمسة آلاف جندى برى تحت قيادة الجنرال فريذر فاحتلها فى ١٠ محرم سنة ١٢٢٢ الموافق ٢٠ مارث سنة ١٨٠٧ ثم سير فرقة الى ثغر رشيد لاحتلاله فانهزمت وعادت بخفى حنين ثم أعاد الكرة عليها فى شهر ابريل وحاصر المدينة فى ٨ صفر الموافق ١٨ أبريل لكن لم يقو على فتحها لارسال محمد على باشا المدد اليها وأخيراً رحلوا عن الديار المصرية ونزلوا فى مراكبهم فى ١٠ رجب سنة ١٢٢٢ الموافق ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧ لعدم امكانهم التفرغ لفتحها مع اشتغالهم بالحروب فى أوروبا ولوجود الحكومة المصرية فى قبضة ممدن مصر وباعثها من رمسها ومعيد مجدها من له عليها الايادى البيضاء طول الدهر الامير الجليل المرحوم (محمد على باشا) مؤسس العائلة الكريمة الخديوية وثالث جد لخديوينا الحالى ﴿ افندينا عباس باشا حلمى الثانى ﴾

محمد علي باشا والي مصر

ولنأت هنا على كيفية حصول محمد على باشا على ولاية مصر بعبارة وجيزة وعلى من يريد معرفة تاريخه بالتطويل أن يرجع لمؤلفنا كتاب البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة الخديوية المطبوع بمطبعة بولاق الاميرية سنة ١٣٠٨ هجرية

ولد هذا الرجل العظيم الشان فى مدينة قوله(١) سنة ١١٨٢ ه الموافقة سنة ١٧٦٩ وتوفى والده وهو صغير فرباه عم له حتى بلغ أشده فزوجه ابنته ثم اشتغل بتجارة الدخان وربح منها كثيراً

ولما دخل الفرنساويون مصر كما سبق شرحه أتى محمد على مع من أرسل من الجنود لحاربتهم وشهد واقعة أبى قير وعينه خسرو باشا الذى عين والياً لمصر بعد خروج الفرنساويين برتبة (سرجشمه) أى قائد فرقة تبلغ أربعة آلاف مقاتل ومن ثم أخذ فى استمالة قلوب الجند اليه للاستعانة بهم عند سنوح الفرصة ثم وقع النفور بينه و بين الوالى لنسبة خسرو باشا اليه الاتحاد مع المماليك فسعى الوالى بالايقاع به لكن لم يتمكن من التنفيذ لقيام جنود الارنؤد عليه (وربما كان ذلك بايماز من محمد على) وطردهم اياه من القاهرة لعدم دفعه مرتباتهم واختار الاهالى بعده طاهر باشا والياً مؤقتاً حتى يعين الباب العالى بديلا لخسرو باشا لكن لم يلبث ان قام الانكشارية عليه وقتلوه لدفعه مرتبات الارنؤود دونهم وأراد الانكشارية تنصيب أحد الذوات العثمانيين واسمه أحمد باشا وكان آتيا لمصر قاصداً التوجه الى الاقطار الحجازية فلم يقبل محمد على بذلك وأراد انتهاز هذه الفرصة للحصول على ما كان يكنه صدره وهو الاستئثار بوادى النيل وكاتب أمراء المماليك فاتى عثمان بيك

(١) بلدة قديمة من بلاد مقدونيه وطن اسكندر الاكبر واسمها عند اليونان نيابوليس أى البلد الجديدة واقعة علي بحر جزائر الروم بها ميناء متسعة وتجارتها ليست بقليلة ويبلغ سكانها ثمانية آلاف نسمة جلهم من المسلمين وتبعد مقدار ١٢٨ كيلو متر عن مدينه سلانيك وهي وطن المرحوم الحاج محمد علي باشا مؤسس العائلة الخديوية ولد بها سنة ١٧٦٩ وتوفي بالقاهرة في ١٣ رمضان سنة ١٢٦٥ الموافق ٣ أغسطس سنة ١٨٤٩ ودفن في الجامع الذى بناه بالقلعة

البرديسى وغيره للقاهرة

ولما وجد محمد على أن عدد من أتى منهم كاف لمحاربة الانكشارية حاصر أحمد باشا فى منزله وألزمه الخروج من مصر ثم سلط الارنؤد على الانكشارية فحاربوهم فى مصر القديمة وقتلوا أغلبهم وفرّ الباقون وبذلك لم يبق بمصر منازع لمحمد على ثم سار هو والبرديسى الى دمياط لمحاربة خسرو باشا الذى كان متحصنا بها فحارباه وأسراه فى ١٤ ربيع الاوّل سنة ١٢١٨ الموافق ٤ يوليه سنة ١٨٠٣ وعادا به الى القاهرة حيث سجناه بالقلعة وبعد ذلك بقليل عاد من انكلتره محمد بيك الالفى أحد زعماء المماليك وكان ذهب اليها ليطلب منها مساعدته على الاستقلال بمصر ويقال انه وعدها بتسليم بعض الثغور لو حصل على مرغوبه فخشى محمد على باشا من اتحاده مع البرديسى وعمد الى ايجاد النفرة بينهما

ولما أحس الالفى بما يدبره له سافر الى الصعيد ثم أهاج محمد على الاهالى بمصر على البرديسى فحاصروه فى منزله وأطلق محمد على المدافع عليه حتى أخرجه من مصر هو وكافة المماليك ثم أخرج خسرو باشا من سجنه وأرسله الى رشيد ومنها الى اسلامبول بناء على طلب الاعيان واقام الجند مكانه من يدعى خورشيد باشا ومحمد على وكيلا له لكن لم يلبث ان انتخب الاهالى محمد على واليا وكتبوا الى الباب العالى فأصدر فرمانا بذلك وصل مصر فى ١٠ ربيع الثانى سنة ١٢٢٠ الموافق ٨ يوليه سنة ١٨٠٥

ثم سعى الانكليز لدى الباب العالى وطلبوا منه عزله او نقله الى ولاية اخرى لتوسمهم فيه المعارضة لمشروعاتهم المجحفة باستقلال مصر فصغى الباب العالى الى وساوسهم وامر بنقله الى ولاية سلانيك فلم يقبل علماء مصر ولا قوّاد الجيوش بذلك وكتبوا الى الدولة يلتمسون منها ابقاءه فى ولاية مصر فقبل السلطان وارسل اليه فرمانا بتثبيته وصل اليه فى ٢٤ شعبان سنة ١٢٢١ الموافق ٧ نوفمبر سنة ١٨٠٦ وفى ٧ رمضان توفى محمد بيك الالفى وفى ٢٠ شوّال توفى عثمان بيك البرديسى وبذلك صفا الجوّ لمحمد على باشا ولم يبق له منازع من الامراء المماليك الا انه كان مضطراً لمراعاة من بقى منهم ومن جنودهم المنتشرين فى اغلب جهات القطر للافساد لا لحفظ الأمن الى ان اجهز عليهم فى واقعة القلعة الشهيرة التى حصلت فى يوم الجمعة ٥ صفر سنة ١٢٢٦ الموافق اوّل مارث سنة ١٨١١ ولنرجع لذكر ما حصل بالاستانة من الحوادث بعد خروج المراكب الانكليزية من الدردنيل فنقول

عزل السلطان سليم الثالث

انه فى هذه الاثناء كانت رحى الحرب دائرة بين العثمانيين والروس فدخل والى بوسنه بجيوشه الى بلاد الصرب لمنع الثائرين من اللحاق بالجيش الروسى وسار الصدر الاعظم وفرقتان من الانكشارية وجيوش آسيا المنتظمة الى مدينة ( شومله ) وكان مصطفى باشا البيرقدار حاكم مدينة ( روسجوق ) يستعدّ للاغارة على بلاد الافلاق بخمسة عشر الف جندى قام هو بتنظيمهم وتدريبهم وخصص نفراً ليس بقليل من النظام الجديد للبقاء فى

قلاع الدردنيل والبوسفور لدفع الطوارىء البحرية وفى غضون ذلك توفى المفتى الذى كان معضدا للسلطان على ادخال الاصلاحات العسكرية وتولى مكانه قاضى عسكر الروملي وكان على الضد من سلفه فاتحد مع مصطفى باشا قائم مقام الصدر الاعظم المتغيب فى محاربة الروس ولفيف من العلماء على السعى فى ابطال النظام العسكرى الجديد قائلين انه بدعة مخالفة للشرع وللوصول الى غايتهم هذه اخذوا يغرون العساكر الغير منتظمة التى كانت اضيفت الى الفرق المنتظمة حتى اذا الفوا النظام ادرجوا ضمن العساكر النظامية وادخلوا فى آذانهم انهم لم يأتوا بهم من بلادهم الا لاجبارهم على الانخراط فى سلك النظام واكراههم على لبس الملابس الافرنكية والتزيى بزى النصارى مع ما فى ذلك من مخالفة القرآن الشريف والشرع المنيف على زعمهم

ولما ملأت هذه الاوهام عقول هؤلاء السذج وأشربت قلوبهم هذه الاضاليل أرسل مصطفى باشا القائم مقام الى احدى القلاع الموجود بها جنود منتظمة وغير منتظمة رسولا أظهر انه آت لالباس الغير منتظمين الملابس النظامية فهاجوا وماجوا وقصدوا قتل الرسول فمنعهم المنتظمون وحصلت بينهم معركة سالت فيها الدماء ثم انتشرت هذه الفتنة وامتد لهيبها الى جميع القلاع وحصلت عدة معارك بين الفريقين كانت نتيجتها قتل رسول السوء والتجا الجنود النظامية الى ثكناتهم ولما بلغ السلطان خبر هذه الحادثة أبهم عليه مصطفى باشا القائم مقام الامر وأفهمه أنها حادثة غير مهمة

وبعد هذا النجاح أخذت الجنود الغير منتظمة تستعد بايعاز مهيجيها لامر آخر ذى بال واجتمعوا فى الجهة المعروفة ببيوكدره وانتخبوا لهم رئيساً منهم اسمه قباقجى اوغلى وهو أخذ فى الاستعداد للدخول الى الاستانة وفى صبيحة يوم ٢٧ مايو سنة ١٨٠٧ دخل هو ومن معه من الجنود الغير منتظمة وانضم اليهم نحو مائتين من البحرية وثمانمائة من الانكشارية حتى اذا وصل هذا الجمع الى المحل المعروف باسم ( آت ميدان ) أتوا بقدور الانكشارية وصفوها علامة على العصيان وقرىء عليهم أسماء جميع المعضدين لمشروع النظام العسكرى من الوزراء والذوات والاعيان فانتشر الثائرون الى منازلهم وقتلوهم وأتوا برؤوسهم ووضعوها أمام القدور ولما بلغ السلطان خبر هذه الثورة أصدر على الفور أمراً بالغاء النظام الجديد وصرف العساكر النظامية لكن لم يكتف الثائرون بذلك بل قرروا عزل السلطان خوفا من ان يعود لتنفيذ مشروعه وساعدهم على ذلك المفتى الذى هو فى الحقيقة المحرك لهذه الثورة فأفتى بأن كل سلطان يدخل نظامات الافرنج وعوائدهم ويجبر الرعية على اتباعها لا يكون صالحاً للملك واستمرت هذه الثورة يومين ثم نودى فى ٢١ ربيع الآخر سنة ١٢٢٢ الموافق ٢٨ يونيه سنة ١٨٠٧ بفصل السلطان سليم الثالث فعزل وكانت مدة حكمه ١٩ سنة وبقى الى ان توفى فى ٤ جمادى الاولى سنة ١٢٢٣ وعمره ٤٨ سنة تقريباً واقيم بعده.

## ٢٩ « السلطان الغازى مصطفى خان الرابع »

ابن السلطان عبد الحميد الاوّل المولود سنة ١١٩٣ ﻫ الموافقة سنة ١٧٧٩ م وكاف المفتى بتبليغ السلطان سليم خبر عزله فذهب اليه و بلغه ذلك مظهراً أسفه من هذه الحادثة الجبرية فقبل السلطان وذهب الى سرايه الخصوصية وتفرّق الجنود النظامية شذر مذر وأهمل هذا المشروع الجليل لعدم موافقته لاغراض الانكشارية ومن حازبهم

ولم يكن السلطان مصطفى الا آلة يديرها مبغضو النظام الجديد كيف شاؤا تبعاً لاهوائهم فثبت الوزراء الذين لم يقتلوا فى الثورة فى وظائفهم واعتمد تعيين قباقجى اوغلى حاكما لجميع قلاع البوسفور فأعاد الانكشارية قدورهم الى ثكناتهم دلالة على ارتياحهم مما حصل وخلودهم الى الراحة والسكينة

ولما وصلت أنباء هذه الثورة الى الجيوش العثمانية المشتغلة بمحاربة الروس عند نهر الطونة شمل الانكشارية السرور لابطال النظام الجديد ولما رأوا من قائدهم العام وهو الصدر الاعظم حلمى ابراهيم باشا عدم الاستحسان لما حصل قتلوه وأقاموا مكانه جلبى مصطفى باشا فوقع الفشل فى الجيوش ولولا وجود أغلب جيوش الروسيا فى ألمانيا لمحاربة الامبراطور نابليون الذى كانت تخرّ عروش الملوك امامه سجداً لكانت نتائج هذه الحروب أوخم مما سبقها ومن حسن الحظ أيضاً أن وصل فى أثناء ذلك خبر انتصار نابليون على الروس ومحالفيهم فى واقعة ( فريدلاند ) (١) فى ٦ ربيع الثانى سنة ١٢٢٢ الموافق ١٤ يونيه سنة ١٨٠٧ فتقهقرت الجنود الروسية المحتلة لولاية البغدان من غير ما حرب ولا قتال

وعقب ذلك حصل الصلح بين فرانسا والروسيا بمقتضى معاهدة ( تلسيت ) (٢) فى أوّل جمادى الاولى سنة ١٢٢٢ الموافق ٧ يوليه سنة ١٨٠٧ التى جاء بالبند الثانى والعشرين وما بعده منها ان الروسيا تكف عن محاربة الدولة حتى يتوسط نابليون بين الطرفين وانه بمجرّد ما أمضيت الهدنة الابتدائية تخلى جيوش الروسيا ولايتى الافلاق والبغدان بدون أن تدخلها الجيوش العثمانية حتى يتم الصلح نهائياً وجاء فى المعاهدة السرّية التى اتفق عليها نابليون واسكندر الاوّل قيصر الروسيا أنه ان لم يقبل الباب العالى توسط فرنسا بسبب الحوادث الاخيرة التى حدثت بالاستانة أو ان لم يتم المقصود بكيفية مرضية بعد قبول هذا التوسط بخمسة و ثلاثين يوما فتتحد فرنسا مع الروسيا على سلخ جميع الولايات العثمانية باوروبا ما عدا

---

(١) مدينة صغيرة ببلاد بروسيا الشرقية لايتجاوز عدد سكانها أربعة الاف نسمة واشتهرت بانتصار نابوليون الاول بها على جيوش الروس

(٢) قرية بشرق بروسيا على نهر ( نيمن ) الفاصل بين الروسيا والبروسيا وبها اجتمع نابوليون الاول بامبراطور الروسيا اسكندر الاول واتفقا علي تقسيم أوروبا بينهما ثم حال دون اتمام مشروعهما عدم الاتفاق علي الاستانة اذ كل منهما كان يود جعلها من نصيبه وينسب لنابوليون أنه قال ان الاستانة مفتاح العالم من استول عليها أمكنه أن يسود علي العالم بأسره

الاستانة وما حولها وتقسيمها فيما بينهما مع ارضاء النمسا بجزء يسير وكيفية ذلك التقسيم أن يكون لفرنسا بلاد بوسنه وألبانيا (الارنؤود) وابيروس و بلاد اليونان ومقدونيا وللنمسا بلاد الصرب وللروسيا الافلاق والبغدان والبلغار واقليم تراس لغاية نهر ماريتسا (راجع مؤلف المسيو لافاليه على تاريخ الدولة العلية)

ولا يخفى مافى هذه المعاهدة من الاضرار بحقوق الدولة العلية والتخلى عنها وتركها بمفردها أمام الروسيا رغماً عن وعود فرنسا السابقة التى كانت سبباً فى اثارة هذه الحرب وناهيك ماجاء فى المعاهدة السرية من تقسيم الاملاك المحروسة فيظهر للمطالع أن كل وعود الاجانب للشرقيين وعود عرقوبية وسراب كاذب يحسبه الظمآن ماء وان اظهارهم لنا الولاء والصداقة لم يكن الا لنوال أمانيهم والفوز بغاياتهم فالعاقل من لم يتمسك بذيل وعودهم ولا يخالج فكره أن دولة أوروبية تودّ خيراً أو تبغى صلاحاً لدولة أو أمة شرقية مطلقاً والحوادث التاريخية التى ذكرت وستذكر فى هذا الكتاب أكبر شاهد فلعلها تكون عبرة لمن تذكر

هذا ثم أرسل نابليون فى ٣ جمادى الاولى الموافق ٩ يوليو الجنرال ( جاليمينو ) أحد اركان حربه الى الجيوش العثمانية والروسية المتحاربة لتبليغهم المعاهدة المذكورة وعرض توسط الدولة الفرنساوية عليهم فقبل الفريقان بذلك وفى ١٩ جمادى الثانية الموافق ٢٤ أغسطس أمضيت بينهما بحضور المندوب الفرنساوى هدنة ابتدائية ومع ذلك فلم تخل الروسيا ولايتى الافلاق والبغدان وهو أوّل اخلال بشروط معاهدة تلسيت ولذا لم يمكن الفريقان ان يتفقا على شروط الصلح النهائى لكن لم يستأنف القتال الا بعد سنتين لاشتغال كل فريق منهما بما هو أهمّ من ذلك

ولنرجع الى ذكر ماحصل فى الاستانة بعد نجاح ثورة قباقجى اوغلى فنقول انه لم يمض قليل حتى وقع الخلاف بين رؤساء الثورة فاتحد أولا قباقجى اوغلى مع المفتى على عزل القائم مقام مصطفى باشا فعزل وأبعد الى خارج البلاد وأقيم مكانه من يدعى طاهر باشا ثم عزل لرغبته المحافظة على حقوق وظيفته وسافر الى روسجق والتجأ الى حاكمها مصطفى باشا البيرقدار وكان هذا الاخير من محازبى السلطان سليم و يودّ ارجاعه لمنصة الاحكام فكاشف بذلك جلبى مصطفى باشا الصدر الأعظم و باقى الوزراء وأقنعهم بوجوب مجازاة المفتى وقباقجى مصطفى على تهييج الجنود الغير منتظمة وعزل السلطان والاستئثار بالسلطة فوافقه على هذا الامر كل من كاشفهم به وأصدر الصدر حكما على قباقجى مصطفى قاضياً باعدامه ووكل على تنفيذه أحد رجال هذه المؤامرة واسمه حاجى على وهو تعهد بالقبض عليه عنوة وسار الى الاستانة فى مائة فارس بينما كان البيرقدار قاصدها فى ستة عشر ألف جندى عن طريق أدرنه ولما وصل حاجى الى ضواحى الاستانة علم أن قباقجى مصطفى مقيم فى قصر له خارج المدينة فهاجمه فيه وقتله ثم أبرز لجنوده حكم الصدر الاعظم وأخبرهم أنه عين قائداً لهم فلم

يقبلوا بذلك بل أحاطوا به وبمن معه من الفرسان وكادوا يأسرونه لولا ما أظهره من الشجاعة التى تمكن بها من التخلص واللحاق بالبيرقدار وكان قد وصل هو والصدر الاعظم الى الاستانة وعسكر خارجها

ولما علم السلطان بهذه الوقائع خشى من تعدّى الثورة عليه ووصول ضررها اليه وأمر بعزل المفتى وصرف جنود قباقجى مصطفى الغير منتظمة التى عضدته على عزل السلطان سليم فأظهر البيرقدار الاكتفاء بما حصل ولم يكاشف أحداً بعزمه على اعادة السلطان سليم الى عرش الخلافة العظمى وأشاع أنه عازم على العودة الى روستجق لكن فى صبيحة ٤ جمادى الاولى سنة ١٢٢٣ الموافق ٢٨ يونيه سنة ١٨٠٨ ألقى القبض على شلبى مصطفى باشا الصدر الاعظم وسار بجيوشه الى السراى السلطانية وطلب ارجاع السلطان سليم الثالث الى الملك فامر السلطان مصطفى بقتله والقاء جثته الى الثائرين كى يكفوا عن الثورة لما يعلمون ان الذى يريدون ارجاعه قد دخل فى خبر كان لكن أتى الامر على عكس ما كان يؤمل فقد زاد الثائرون هياجا ونادوا على الفور بعزل السلطان مصطفى الرابع وحجزه فى نفس السراى التى كان محجوزاً بها السلطان سليم فعزل بعد أن حكم ثلاثة عشر شهراً وقتل فى سرايه بعد ذلك بقليل وأقيم بعده

## ٣٠ « السلطان الغازى محمود خان الثانى »

ابن السلطان عبد الحميد الاوّل ولد فى ١٣ رمضان سنة ١١٩٩ وافتتح أعماله بأن قلد مصطفى باشا البيرقدار منصب الصدارة العظمى ووكل اليه أمر تنظيم الانكشارية واجبارهم على اتباع نظاماتهم القديمة المسنونة من عهد السلطان سليمان القانونى واهملت شيئاً فشيئاً فبعد ان انتقم البيرقدار ممن قاوموه عند ارجاع السلطان سليم وكانوا سبباً فى قتله استدعى جميع ذوات الدولة ووزرائها السابقين وأعيانها لمجلس حافل ولما لبوا دعوته قام فيهم خطيباً واظهر لهم ما كانت عليه حالة الانكشارية وما وصلت اليه وما يجب ان تكون عليه من النظام وضرورة تقليدهم الاسلحة النارية المخترعة حديثا والتى كان استعمالها فى جيوش الروسيا سبب انتصاراتهم الاخيرة على جيوش الدولة ثم ختم كلامه بان عرض عليهم عدّة اقتراحات مهمة منها الزامهم بملازمة ثكناتهم العسكرية خصوصاً غير المتزوّجين منهم وقطع علائف ومرتبات الساكنين خارجا عنها وجعل تمرينهم على التعليمات العسكرية المسنونة فى قانون السلطان سليمان الزامياً وتسليحهم بالاسلحة الجديدة النارية وتمرينهم على الاصول العسكرية الجديدة المستعملة فى جيوش أوروبا والتى اكسبتهم قوّة عظيمة وغير ذلك من الإصلاحات والترتيبات التى لو انبعت لاصبح جيش الانكشارية اقوى جيوش العالم كما كان فى بادىء الامر قبل تسلطن الخلل عليه وتداخله فى الامور الداخلية والخارجية ونصب الوزراء والملوك وعزلهم بلا حق مطلقاً فأقرّ الجميع على

كل ماجاء فى مشروع البيرقدار وحرروا محضراً بذلك ثم لم يكتف هو بذلك بل استحصل على فتوى بضرورة تنفيذ نظامات الانكشارية بكل صرامة وأصدر أوامره بذلك وأدخل أغلب ضباط الجيوش المنتظمة التى أمر بابطالها فى جيش الانكشارية بالوظائف العالية فأخذوا فى تنفيذ رغائبه بكل اعتناء وشدّة فاغتاظ الانكشارية لذلك واتحدوا على مقاومته وتضافروا على الايقاع به ولم يكن للبيرقدار معين فى تنفيذ قرار الجمعية الا ستة عشر ألف مقاتل أتت معه من روستجق وثلاثة آلاف جندى تحت قيادة عبد الرحمن باشا رئيس الجنود المنتظمة سابقاً و بعض سفن حربية تحت امرة أمير البحر رامز باشا

ثم لم يمض قليل حتى ساروا الى فيليبه وأظهروا التمرّد والعصيان فارسل البيرقدار اثنى عشر ألف مقاتل من جيوشه لمحاربتهم ولم يبق الا أربعة آلاف والثلاثة الآلاف القائد لهم عبد الرحمن باشا ولذلك انتهز الانكشارية هذه الفرصة وقاموا كرجل واحد فى ٢٧ رمضان سنة ١٢٢٣ الموافق ١٤ نوفمبر سنة ١٨٠٨ وساروا الى سراى السلطان مصطفى بقصد ارجاعه الى عرش الحكومة فاعترضهم البيرقدار وقاومهم مقاومة عنيفة ولما أحس بان الضعف قد داخل جيوشه وخشى من فوز الثائرين وعزل السلطان محمود أمر بقتل مصطفى الرابع والقاء جثته للثائرين كما فعل مصطفى الرابع مع السلطان سليم الثالث فلما رأى الانكشارية جثة السلطان مصطفى زادوا هياجا واضرموا النار فى السراى الملوكية لكى يلجئوا البيرقدار على الفرار منها لكن فضل الصدر الاعظم الموت على التسليم لهذه الفئة الباغية والانصياع لطلباتها و بقى يدافع هو ومن معه حتى مات حرقا و يقال انه تحصن فى أحد الابراج ثم اشعل ما كان به من البارود ومات هو ومن معه تحت أنقاضه ولو صحت هذه الرواية أو تلك فكلتاهما تشهدان على ما كان متصفاً به من الشهامة والشجاعة وانه يخدم مبدأ لا شخصاً وهذا المبدأ هو اصلاح الجندية وتدريبها على النظامات المستحدثة لتحققه ان الانكشارية مهما كانت قوّتهم ومنعتهم لا يقووا على الثبات امام الجيوش المنتظمة المتقلدة اجود الاسلحة واتقنها

هذا وفى اثناء دفاع البيرقدار كان امير البحر رامز باشا قد احضر ثلاث سفن حربية واوقفها بممرّ البوسفور وسلط مدافعها على ثكنات الانكشارية ثم نزل الى البر مع فريق من البحارة والمدفعية وسار بهم لمساعدة البيرقدار بينما كان عبد الرحمن باشا آتياً مع فرقته المؤلفة من ثلاثة آلاف جندى لموازرة الوزير لكن كان قد سبق السيف العذل وقتل مصطفى باشا البيرقدار الا ان رامز باشا وعبد الرحمن باشا ومن معهما مافتئوا يقاتلون الانكشارية حتى انهزموا امامهم فى جميع الجهات بعد ان استمرّ اطلاق البنادق والمدافع فى الاستانة طول اليوم وفى آخر النهار ارتأى رامز باشا البحرى العفو عن الثائرين جميعا لو القوا سلاحهم وسلموا انفسهم لرحمة السلطان فلم يوافقه عبد الرحمن باشا بل اراد اتخاذ

هـذه الثورة وسيلة لاعدام الانكشارية وابطال طائفتهم كلية ووافقه السلطان محمود على ذلك

وبناء على هذا القرار سارت جيوش السلطان فى صبيحة اليوم التالى تتقدمها المدافع تقذف الصواعق على الانكشارية من كل صوب وحدب ولما رأى الثائرون أن لامناص لهم من الهلاك أضرموا النار فى جميع جوانب المدينة ولما كانت أغلب أماكنها من الخشب علا لهيب النيران وكاد الحريق يلتهمها بأجمعها فاضطر السلطان للاذعان لطلبات الانكشارية حتى يمكنه انقاذ المدينة من الدمار العاجل مؤجلا ابطال هذه الفئة المفسدة الى فرصة أخرى وبذل جهده فى اخماد النيران التى كادت تلتهم المدينة بأسرها ولم يتداركها السلطان محمود بحكمته واستمر الانكشارية فى ثورتهم وهيجانهم

معاهدة بخارست مع الروسيا

وبعد انتهاء هذه الفتنة وجه السلطان اهتمامه لاصلاح الشؤون الداخلية والاستعداد لاهلاك طائفة الانكشارية وللتفرغ لذلك عقد الصلح مع دولة الانكليز فى ٢٤ ربيع الثانى سنة ١٢٢٤ الموافق ٦ يناير سنة ١٨٠٩ وافتتح المخابرات مع الروسيا بدون أن يتوصل الى اتفاق مرض للطرفين فاستؤنفت الحركات العدوانية ودارت رحى الحرب بين الجيشين وكانت نتيجتها ان انهزم الصدر الاعظم ضيا يوسف باشا الذى عين فى هذا المنصب الرفيع بعد موت مصطفى باشا البيرقدار مع أنه هو الذى انتصر الفرنساويون عليه بمصر بالقرب من المطرية سنة ١٧٩٩ وهذا مما يدل على عدم المامه بفنون الحرب واستولى الروس على مدائن اسماعيل وسلستريه وروستجق ونيكوبلى وبازارجق فى سنتى ١٨٠٩ و ١٨١٠ ثم عزل وتولى مكانه من يدعى أحمد باشا وهو سار الى الروس فى ستين ألف مقاتل فى سنة ١٨١١ وانتصر عليهم واضطرهم لاخلاء مدينة روستجق فأخلوها فى ١٣ جمادى الثانية سنة ١٢٢٦ الموافق ٥ يوليه من السنة المذكورة مكرهين بعد ان هدموا قلاعها وأسوارها بالالغام وأضرموا النار فى منازلها وعبروا نهر الطونة راجعين الى شاطئه الايسر فتبعهم أحمد باشا بجيوشه وبعد عدة وقائع لاحاجة لذكرها تفصيلا عاد الروس فاحتلوا روستجق ثانية

وفى هذه الاثناء فترت العلاقات بين الروسيا ونابوليون لعدم تنفيذ شروط معاهدة تلسيت وكانت الحرب بينهما قاب قوسين أو أدنى فسعت الروسيا فى مصالحة الدولة ولعدم وقوف وزراء الدولة على ماجريات الامور السياسية باوروبا قبلوا افتتاح المخابرات وعينت الدولة مندوبين من قبلها اجتمعوا مع مندوبى الروسيا فى مدينة بخارست وبعد مداولات طويلة توصل الفريقان الى امضاء معاهدة عرفت فى التاريخ باسم معاهدة بخارست أمضيت فى ١٦ جمادى الاولى سنة ١٢٢٧ الموافق ٢٨ مايو سنة ١٨١٢ أهم شروطها بقاء ولايتى الافلاق والبغدان تابعتين للدولة ورجوع الصرب الى حوزتها مع بعض امتيازات قليلة الاهمية عديمة الجدوى وحفظت الروسيا لنفسها اقليم بساربيا وأحد

مصبات الدانوب

ولقد اعتبرت فرنسا هذه المعاهدة خيانة من الدولة للروابط القديمة الموجودة بين الدولتين اذ بابرامها تمكنت الروسيا من استعمال الجيوش التى كانت مشتغلة بمحاربة العثمانيين فى صدّ اغارات فرنسا عن بلادها والزام نابليون القهقرى بعد حرق مدينة موسكو واهلاك أغلب جيوشه عند عبورهم نهر ( بيريزينا ) عائدين الى بلادهم مكسورين مدحورين ونسى نابليون أن الدولة لم تأت أمراً جديداً بل اقتدت بما فعله هو فى تلسيت من التخلى عنها والزامها على ايقاف الحرب فضلاً عما جاء بمعاهدة تلسيت من الشروط السرّية القاضية بتجزئة الدولة العلية الامر الذى كاد يخرج من حيز الفكر الى حيز الوجود لولا طلب القيصر اسكندر الاوّل ضم مدينة القسطنطينية اليه ليكون له بوغاز البوسفور والدردنيل و بالتالى مفاتيح أوروبا بل مفاتيح العالم باسره وعدم قبول نابليون بذلك خوفاً على مملكته الشاسعة من تعدّى الروس

ومن الغريب أن جميع دول أوروبا لا تأنف من استعمال أنواع الغش والخديعة فى سياستهم حتى صارت لفظة سياسة عندهم مرادفة للكذب والمين والتظاهر بغير الحقائق ولو عاملنهم احدى الدول الشرقية لا بمثل هذه السياسة التى يتبرأ منها الشرقيون بل بالصداقة مع المحافظة على الحقوق فما دام حقنا منافياً كما هو الغالب لمطامعهم فى بلادنا رمونا بما اتصفوا به ونحن براء منه

هذا ولما بلغ رؤساء ثورة الصرب خبر معاهدة بخارست القاضية بارجاعهم الى سلطة الدولة العلية المطلقة بعد ما بذلوه من الاموال والارواح فى اعطائهم نوعا من الاستقلال الادارى ووعد قيصر الروسيا بمساعدتهم احتدموا غيظاً ولم يقبلوا الرجوع الى حالتهم الاصلية وآثروا الفناء فى الدفاع عن استقلالهم فسيرت الدولة اليهم الجيوش فأخضعتهم الى سلطانها قهراً وعاد الموظفون العثمانيون الى مراكزهم كما كانوا قبل الثورة واسترجع جنود السباه اقطاعاتهم الاصلية فهاجر زعماء الثورة الى النمسا والمجر منتظرين أوّل فرصة لاهاجة الامة ثانية طلباً للاستقلال الا أحدهم المدعو (ميلوش أو برينوفتش)(١) فانه بقى فى بلاده وأظهر الولاء للدولة حتى عينته بوظيفة شيخ بلد لاحدى القرى وظل يهيج أفكار الاهالى على الثورة ويبث فيهم روح الحرية حتى اذا أنس منهم الاستعداد للقيام كرجل واحد انتهز فرصة عيد الزحف فى سنة ١٨١٥ الذى يحتفل به المسيحيون فى يوم الاحد السابق لعيد الفصح حيث كان جميع أهالى قريته والقرى المجاورة مجتمعين ونشر بينهم لواء العصيان ودعاهم الى الثورة فلبوه مسرعين وانضم اليهم و جميع

(١) أحد زعماء الثورة الصربية ولقبه الحقيقي تيودوروفتش وسمي اوبرينوفتش نسبة لابن زوج والدته وكان أبوه من رعاة الخنازير أما هو فثار أولا باتفاق قره جورج الذى سبق ذكره ثم لما هاجر جورج الى الروسيا صار هو رئيسا للحركة الثورية وقتل قره جورج ليتخلص من منافسته وباقي تاريخه يعلم من سياق هذا الكتاب

الاهالى وعاد المهاجرون الى أوطانهم وامتد العصيان فى جميع أنحاء بلاد الصرب
وبعد ان استمرّ القتال سجالا بينهم وبين الجيوش العثمانية نحو السنتين قبل ميلوش أوبرينوفتش بالنيابة عن الامة الصربية الرجوع الى سلطان الدولة بشرط أن لا تتداخل فى شؤونهم الداخلية ولا فى تحصيل الضرائب بل يعين لادارة البلاد وتوزيع الضرائب وتحصيلها مجلس مؤلف من اثنى عشر عضوا ينتخبهم الاهالى من أعيان الامة وهم ينتخبون رئيساً لهم من بينهم يكون كحاكم عمومى وتكتفى الدولة بالمراقبة واحتلال الحصون والقلاع فقبل الباب العالى هذه الشروط وعين من يدعى مرعشلى باشا والياً للصرب وأعطيت اليه تعليمات شديدة تقضى عليه بمعاملة الصربيين بالرفق واللين كى يحافظوا على ولاء الدولة ولا يسعوا فى فصم ما بقى بينهما من عرى التابعية (سنة ١٨١٧) ثم عين ميلوش أوبرينوفتش رئيساً لمجلس الصرب الذى يمكننا أن نسميه من الآن مجلس نوّابهم وأطلقوا عليه اسم (سوبرانيا) وصارت الصرب مستقلة تقريباً واستبدّ ميلوش كملك مطلق التصرّف لا سلطة للوالى العثمانى عليه مطلقاً اكتفاء باحتلال الحصون والقلاع ولم يكن له منافس فى السلطة الا قره جورج أكبر زعماء الثورة الذى هاجر الى بلاد الروسيا فأكرم القيصر مثواه ومنحه رتبة جنرال عسكرى ونشان (سانت آن) ولذلك خشى ميلوش من نفوذه ومساعدة الروسيا له فأصرّ على قتله وتربص له حتى اذا حضر مختفياً الى بلاد الصرب قاصداً بلاد اليونان بناء على طلب زعمائها أرسل اليه ميلوش من قتله ثم أرسل رأسه الى الاستانة علامة على حسن ولائه واخلاصه للدولة العلية صاحبة السيادة الاسمية على بلاده

الوهابيون ومذهبهم

الوهابيون قوم من العرب اتبعوا طريقة عبد الوهاب وهو رجل ولد بالدرعية بأرض العرب من بلاد الحجاز كان من وقت صغره تظهر عليه النجابة وعلوّ الهمة والكرم وشب على ذلك واشتهر بالمكارم عند كل من يلوذ به
وبعد ان درس مذهب أبى حنيفة فى بلاده سافر الى أصفهان ولاذ بعلمائها وأخذ عنهم حتى اتسعت معلوماته فى فروع الشريعة وخصوصاً فى تفسير القرآن ثم عاد الى بلاده فى سنة ١١٧١ هجرية فأخذ يقرّر مذهب أبى حنيفة مدّة ثم أدّته ألمعيته الى الاجتهاد والاستقلال فانشأ مذهباً مستقلا وقرّره لتلامذته فاتبعوه وأكبوا عليه ودخل الناس فيه بكثرة وشاع أمره فى نجد والاحساء والقطيف وكثير من بلاد العرب مثل عمان وبنى عتبة من أرض اليمن ولم يزل أمرهم شائعاً ومذهبهم متزايداً الى أن قيض الله لهم عزيز مصر محمد على باشا فأطفأ سراجهم فى سنة ١٢٣٢ وكسر شوكتهم وأخفى ذكرهم وهاك رسالة من كلامهم تدل على بعض مذهبهم ومعتقداتهم وهى منقولة حرفياً من الجزء الثانى عشر صحيفة ٨٣ من كتاب الخطط الجديدة التوفيقية تأليف العالم العلامة فقيد الوطن المرحوم على مبارك باشا المتوفى ليلة الثلاث ٥ جمادى الاولى سنة ١٣١١ (١٤ نوفمبر سنة ١٨٩٣)
اعلموا رحمكم الله أن الحنيفية ملة ابراهيم أن نعبد الله مخلصا له الدين وبذلك امر الله جميع

الناس وخلقهم له كما قال تعالى وما خلقت الجنّ والانس الا ليعبدون فاذا عرفت أن الله خلق العباد للعبادة فاعلم أن العبادة لا تسمى عبادة الا مع التوحيد كما ان الصلاة لا تسمى صلاة الا مع الطهارة فاذا دخل الشرك فى العبادة فسدت كالحدث اذا دخل فى الطهارة كما قال الله تعالى ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون فمن دعا غير الله طالبا منه ما لا يقدر عليه الا الله من جلب خير أو دفع ضرّ أشرك فى العبادة كما قال تعالى ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين وقال تعالى والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير فاخبر تبارك وتعالى أن دعاء غير الله شرك فمن قال يارسول الله أو ياابن عباس أو ياعبد القادر زاعما انه باب حاجته الى الله وشفيعه عنده ووسيلته اليه فهو المشرك الذى يهدر دمه وماله الا أن يتوب من ذلك وكذلك الذين يحلفون بغير الله أو الذى يتوكل على غير الله أو يرجو غير الله أو يخاف وقوع الشرّ من غير الله أو يلتجىء الى غير الله أو يستعين بغير الله فيما لا يقدر عليه الا الله فهو أيضا مشرك وما ذكرنا من أنواع الشرك هو الذى قال الله فيه ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وهو الذى قاتل رسول الله المشركين عليه وأمرهم باخلاص العبادة كلها لله تعالى ويصح ذلك أى التشنيع عليهم بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالى فى كتابه أوّلها ان تعلم ان الكفار الذين قاتلهم رسول الله يقرّون ان الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لجميع الامور والدليل على ذلك قوله تعالى قل من يرزقكم من السماء والارض أمن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الامر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون وقوله تعالى قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل فانى تسحرون اذا عرفت هذه القاعدة وأشكل عليك الامر فاعلم انهم بهذا اقرّوا ثم توجهوا الى غير الله يدعونه من دون الله فاشركوا القاعدة الثانية انهم يقولون مانرجوهم الا لطلب الشفاعة عند الله نريد من الله لا منهم ولكن بشفاعتهم وهو شرك والدليل على ذلك قول الله تعالى ويعبدون من دون الله مالا يضرّهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل اتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الارض سبحانه وتعالى عما يشركون وقال الله تعالى والذين اتخذوا من دونه اولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ان الله لا يهدى من هو كاذب كفار واذا عرفت هذه القاعدة فاعرف القاعدة الثالثة وهى ان منهم من طلب الشفاعة من الاصنام ومنهم من تبرأ من الاصنام وتعلق بالصالحين مثل عيسى وامه

والملائكة والدليل على ذلك قوله تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا ورسول الله لم يفرّق بين من عبد الاصنام ومن عبد الصالحين بل كفر الكل وقاتلهم حتى يكون الدين كله لله واذا عرفت هذه القاعدة فاعرف القاعدة الرابعة وهى انهم يخلصون لله فى الشدائد وينسون ما يشركون والدليل على ذلك قوله تعالى فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون وأهل زماننا يخلصون الدعاء فى الشدائد لغير الله فاذا عرفت هذا فاعرف القاعدة الخامسة وهى ان المشركين فى زمان النبيّ أخف شركا من عقلاء مشركى زماننا لان أولئك يخلصون لله فى الشدائد وهؤلاء يدعون مشائخهم فى الشدائد والرخاء والله أعلم بالصواب ( انتهى )

محاربة محمد على باشا للوهابيين

ولما رأى السلطان محمود انه من الضرورى قمع هذه الفئة التى يخشى من امتدادها على تفريق كلمة الاسلام الامر الذى جعله الاوروبيون مطمح أنظارهم للتمكن من فصم عرى اتحادهم وامتلاك بلادهم ولبعد ولايات الشام و بغداد عن مركز الفتنة كلف محمد على باشا والى مصر ومؤسس عائلتها الخديوية بمحاربتها واسترجاع مكة المشرّفة والمدينة المنوّرة من أيدى زعمائها وأرسل اليه فرمانا بذلك فى ذى القعدة سنة ١٢٢٢ الموافق دسمبر سنة ١٨٠٧ ولما كان ارسال الجيوش الى بلاد العرب عن طريق البرّ أمراً متعسراً ان لم يكن مستحيلا لانتشار الوهابيين فى جميع الطرق وقطعهم المواصلات عزم محمد على باشا على ارسالهم بطريق البحر الاحمر فأمر بانشاء السفن فى السويس لنقل الجنود الى فرضة ينبع فكانت الاخشاب الصالحة لعمل المراكب تقطع فى جميع جهات القطر ويؤتى بها الى الورش التى اقيمت فى بولاق فتجهز فيها ثم تنقل على ظهور الجمال الى السويس فتركب بكل سهولة

ولما استعدّت المراكب وجمعت الجيوش والكتائب أضمر هذا الشهم على ابادة طائفة المماليك ليخلص البلاد من شرّهم ويمكنه التفرّغ لاصلاحها واخراج مشروعاته المفيدة من حيز الفكر الى حيز العمل

ابادة المماليك

ولتتميم هذا المشروع أعدّ حفلة فى القلعة فى يوم الجمعة ٥ صفر سنة ١٢٢٦ الموافق أوّل مارث سنة ١٨١١ لتسليم ولده طوسن باشا الفرمان المؤذن بتقليده قيادة الجيش المزمع ارساله الى بلاد العرب لمحاربة الوهابيين والسيف المهدى اليه من قبل الحضرة السلطانية وفى اليوم المعهود طلع جميع رؤساء المماليك الى القلعة فى موكب منتظم ولما دخل الجميع من باب العزب وانحشروا فى المضيق الموصل منه الى الباب الاوسط أغلقت الابواب وأطلقت عليهم البنادق من خلف الاسوار ومن أعلاها حتى قتلوا عن آخرهم وفى الوقت نفسه نهبت جنود محمد على باشا منازلهم بالمدينة وقتلت من تخلف منهم عن الحضور ثم أرسل الى عماله فى الاقاليم بقتل جميع المماليك القاطنين خارج العاصمة فقتلوهم وصاروا

يتنافسون فى ارسال رؤوسهم اليه و بذلك طهرت مصر من أدران هذه الفئة ولو لم يكن لمحمد على باشا من الايادى البيضاء على مصر سوى تخليصها من شرّ المماليك لـكفى لتخليد ذكره وتمجيد اسمه

و بعد ذلك سافر طوسن باشا بجيوشه الى بلاد العرب وحارب الوهابيين واستخلص المدينة المنوّرة بعد ان نسف أسوارها بالالغام ودخلها عنوة وكتب لوالده بذلك ثم حصره الوهابيون فى مدينة الطائف فسافر محمد على باشا الى مدينة مكة فى ٢٨ شعبان سنة ١٢٢٨ الموافق أغسطس سنة ١٨١٢ وقبض على الشريف غالب شريف مكة المكرمة وأرسله الى مصر وأقام مكانه الشريف يحيي بن سرور واحتل عدّة مراكز مهمة من مراكز الوهابيين فتضعضع حالهم خصوصاً وقد توفى زعيمهم سعود فى ١٩ ربيع الآخر سنة ١٢٢٩ الموافق ١٧ ابريل سنة ١٨١٤ فساد الامن فى طريق الحج وأتى الناس أفواجا لتأدية فريضة الحج فى الحجة سنة ١٢٢٩ وحج محمد على باشا و جميع من معه ثم عاد الى مصر فوصلها فى ١٥ رجب سنة ١٢٤٠

وقبل عودته كان قد سار طوسن باشا الى بلاد نجد لمهاجمة الوهابيين فى مدينة (الدرعية) عاصمة زعيمهم فاحتل مدينة الرس الواقعة على مقربة من الدرعية ثم راسله عبدالله بن سعود الذى تولى زعامة الوهابيين بعد موت أبيه وأرسل اليه رسولا يدعى الشيخ احمد الحنبلى يطلب منه الـكف عن القتال والخضوع لامير المؤمنين وترك ضلالاتهم فاجابه طوسن باشا بانه لا يمكنه اجابة ملتمسه الا بعد أخذ رأى والده واتفقا على مهادنة عشرين يوماً ريثما يخابر طوسن باشا والده وعند ذلك أتى اليه خبر عودة والده الى مصر فاخذ على نفسه اتمام الصلح واخبار والده بعد اتمامه فاتفق مع عبدالله بن سعود الوهابى على أن يحتل طوسن باشا بجيوشه مدينة الدرعية و يردّ الوهابيون ما أخذوه من الجوهرات والنفائس من الحجرة الشريفة النبوية خصوصاً الـكوكب الدرى الذى زنته مائة وثلاثة وأربعون قيراطاً من الماس وكتب لوالده بذلك فاتى اليه الردّ بتكليف عبد الله بن سعود بالتوجه الى الاستانة وان لم يقبل يرسل اليه جيشاً جديداً لمحاربته

وفى هذه الاثناء جمع طوسن باشا خبر تمرّد الجنود على والده بالعاصمة ونهبهم المدينة فرجع هو أيضا الى العاصمة منيطاً قيادة جيوشه لاحد من كان معه من القوّاد ووصل هو الى القاهرة فى غاية ذى القعدة سنة ١٢٣٠ الموافق ٧ نوفمبر سنة ١٨١٥

و بعد استتباب الامن فى العاصمة أخذ محمد على باشا فى تجهيز حملة جديدة لمحاربة الوهابيين فجهزها وجعل قائدها بكر أولاده ابراهيم باشا فسار هذا الشبل الى بلاد العرب من طريق قنا فالقصير فجدّة وأبحر من فرضة بولاق فى ١٢ شوّال سنة ١٢٣١ فوصل ينبع فى ٩ ذى القعدة من السنة المذكورة ومنها قصد المدينة المنوّرة لزيارة قبر خاتم المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ثم سار بجيوشه الى بلاد نجد بعد ان رتب النقط فى خط رجعته الى فرضى

ينبع وجدّة لعدم انقطاع وصول المدد اليه فاحتل الرس ومدينة عنيزة وغيرها وفى ٢٩ جمادى الاولى سنة ١٢٣٣ الموافق ٦ أبريل سنة ١٨١٨ وصل أمام مدينة الدرعية وكان بها عبدالله بن سعود ومعظم جنوده

ولما كانت هذه المدينة متسعة الارجاء ولا يمكن لابراهيم باشا محاصرتها بكيفية تضطرها الى التسليم أشار عليه أحد أركان حربه من الفرنساويين المدعو المسيو ( فسيير ) بحصار القرى الاربع المحيطة بالمدينة الواحدة بعد الاخرى حتى اذا احتلها أمكنه محاصرة المدينة الاصلية بكل سهولة فاتبع ابراهيم باشا هذا الرأى لما فيه من المطابقة على أصول الحرب ومع ذلك فاستمرّ الحصار عدّة أشهر لكن لما رأى عبدالله بن سعود ان المصريين قد احتلوا ثلاث قرى من ضواحى المدينة مال الى التسليم وطلب من ابراهيم باشا فى ٧ ذى القعدة سنة ١٢٣٣ الموافق ٩ سبتمبر سنة ١٨١٨ ايقاف القتال للمفاوضة فى الصلح فأوقفه وأتى عبدالله بن سعود الى ابراهيم باشا فى معسكره فأكرمه وأحسن وفادته وبعد محادثة طويلة قبل الوهابى تسليم مدينة الدرعية اليه بشرط عدم تعرضه للاهالى بسوء وبالسفر الى الاستانة كرغبة الحضرة السلطانية وبردّ الكوكب الدرّى وما بقى من الجوهرات والتحف التى أخذها الوهابيون حين استيلائهم على المدينة سنة ١٢٢٠ هجرية

ثم سافر عبدالله بن سعود الى الاستانة من طريق مصر فوصل القاهرة فى يوم الاثنين ١٧ محرم سنة ١٢٣٤

وبعد ان قابل محمد على باشا بسراى شبرا سافر قاصدا الاستانة فى ١٩ من الشهر المذكور الموافق ١٨ نوفمبر سنة ١٨١٨ وقتل بالقسطنطينية بمجرد وصوله

ولما هدأت الحال فى بلاد الحجاز ونجد وضرب الامن أطنابه بها واستؤصلت شأفة الوهابيين منها عاد ابراهيم باشا الى مصر فوصل القاهرة فى يوم الخميس ٢١ صفر سنة ١٢٣٥ الموافق ١٠ دسمبر سنة ١٨١٩

وفى يوم الخميس دخلها بموكب حافل مارّا من باب النصر الى القلعة وزينت المدينة سبعة أيام متوالية

وبعد ذلك أمكن عزيز مصر التفرغ لاصلاح البلاد فنظم الجندية على النظامات الاوروبية وعاونه على ذلك الكلونيل سيف الفرنساوى الذى تسمى فيما بعد باسم سليمان باشا ثم شرع فى فتح بلاد السودان ففتحها ولده اسمعيل باشا الذى مات بها حرقا وبطل الحجاز ابراهيم باشا من سنة ١٨٢٠ الى سنة ١٨٢٣

عصيان على باشا والى يانيه

سبق لنا ذكر تحصن على باشا فى اقليم ابيروس وما جاورها واستخفافه بالدولة وأوامرها ونقول ان الدولة لم ترد المسارعة فى مجازاته لاشتغاله بما هو أهم منه من الشؤن الداخلية والخارجية فحمل هذا التغاضى على الخوف وزاد فى عدم احترام الاوامر التى ترد اليه من الاستانة حتى وصلت به الحالة الى الامتناع عن دفع الخراج وعدم ارسال من يطلب منه من

الشبان للعسكرية وأخيراً أرسل أحد أتباعه الى الاستانة لقتل بعض خواص السلطان لعدم مساعدته له فى الديوان السلطانى فقتله رسول السوء فى احدى شوارع الاستانة العلية ولما ظهر ان ذلك بايعاز على باشا أمر السلطان بمحاكمته وكتب بطلبه الى القسطنطينية لمعاقبته أو تبرئته حسب مايظهره التحقيق فامتنع عن الحضور وجاهر بالعصيان غير مبال ببطش الدولة وراسل زعماء اليونان الذين كانوا ابتدأوا فى الهياج والاضطراب طلباً للحرّية لكن تداركت الدولة الامر قبل تفاقم الخطب وأرسلت اليه جيوشاً كافية لقمعه تحت قيادة من يدعى خورشيد باشا فحار به هذا القائد وحصره فى يانيا مدّة وضايق عليه الحصار حتى يئس من وصول المدد اليه من زعماء اليونان

ولما رأى أن لامناص له من التسليم فاتح خورشيد باشا فى ذلك فى يناير سنة ١٨٢٢ ثم اجتمع به فى ١٣ جمادى الاولى سنة ١٢٣٧ الموافق ٥ فبراير التالى للاتفاق على شروط التسليم فابرز له خورشيد باشا الفرمان السلطانى القاضى بقتله جزاء تمرّده وعصيانه على الدولة التى والت عليه نعمائها ورفعته الى أعلى الدرجات وفى الحال أحاط به الجند وقبضوا عليه وأوردوه الحمام ثم جزوا رأسه وأرسلوها الى الاستانة وبذلك انتهت فتنته وعادت السكينة الى ربوع بلاد الارنؤد

ثورة اليونان طلبها الاستقلال

قد علم المطالع من سياق هذا الكتاب ان الدولة العلية كانت كلما فتحت اقليما اكتفت من أهله بالخراج غير متعرّضة لهم فى دينهم أولغتهم أو عوائدهم وأظهرنا مضارّ هذه الطريقة التى تحفظ بها كل أمة لغتها ورابطتها وعصبيتها حتى اذا ساعدتها الظروف نشطت من عقالها وقامت من رقدتها طالبة نصيبها من شمس الاستقلال المنعشة فلما قامت الثورة الفرنساوية على دعائم الحرية والمساواة والاخاء وانتشرت مبادئها فى جميع أنحاء أوروبا التى وطئها نابوليون بجيوشه تعدّت منها الى غيرها ووصلت فصائلها الى بلاد اليونان فوجدت من أفكار وألباب سكانها مغرساً طيباً فنمت وأينعت وامتدّت فروعها الى سهلها وجبلها واجتمع تحت ظلها الوارف زعماء الامة اليونانية لكنهم أيقنوا أنهم لا يقوون على طلب الاستقلال الا اذا كان من أبنائهم شبان متعلمون يبثون المبادىء الجديدة بين جميع طبقات الامة فيعلمون أن لهم حقوقا يطالبون بها وواجبات يطالبهم الغير بها ولذلك عمد أغنياؤهم الى ارسال أولادهم الى مدارس الممالك الاوروبية ليتحلوا بالعلوم والمعارف وليكونوا رؤساء الامة ودعاة حرّيتها فى المستقبل ثم ألفوا عدّة جمعيات لنشر العلم بها بين أفراد الامة وبث روح الوطنية بينهم وشكلوا جمعيات أخرى سياسية محضة وجعلوا مراكزها فى الروسيا والنمسا وأهمّ هذه الجمعيات الجمعية السرّية المسماة ( هيتيرى ) (١)

(١) كلمة يونانية معناها جمعية أخوية أطلقت على جمعيتين أسست احداهما في مدينة ويانه عاصمت النمسا بدعوى تأسيس المدارس ونشر العلوم بين اليونان والثانية لقصد سياسي محض وهوالسعي في استخلاص بلاد اليونان من الحكومة العثمانية وبقيت سرية الي سنة ١٨٢١ حيث ابتدأت الثورة جهاراً وكان

وقيل أن تشكيلها كان بتحريض من اسكندر الاوّل (١) قيصر الروسيا لايجاد المشاكل الداخلية فى الدولة كى يتسنى له تنفيذ وصية بطرس الاكبر القاضية بجعل مدينة القسطنطينية مفتاح الممالك الروسية

وكانت هذه الجمعية أشبه شىء بجمعيات الكر بونارى (٢) التى انتشرت أثناء ذلك فى الممالك اللاتينية أى فرنسا والبرتغال واسبانيا وايطاليا لتحرير هذه الامم بمبادىء الثورة الفرنساوية وانتشرت جمعية الهتيرى بين جميع اليونان المجتمعين فى اقليم موراو المتفرقين فى باقى أملاك الدولة حتى بلغ عدد أعضائها فى أوائل سنة ١٨٢١ نيفاوعشرين ألفاً وجميعهم من الشبان الاقوياء القادرين على حمل السلاح كاملى العدد متأهبين للثورة عند أوّل اشارة تبدو لهم من رؤسائهم ومما ساعد على امتداد جذورها وفروعها بهذه الكيفية الغريبة اشتغال الدولة بمحاربة على باشا والى يانيا الذى سبق ذكره

وانتهزوا فرصة تفرغها لقمعه لنشر لواء العصيان ومقاتلة الجنود العثمانية المحتلة لحصونهم وقلاعهم وبمجرد انتهاء فتنة والى يانيا بقتله فى ٥ فبراير سنة ١٨٢٢ كما مر وجهت الدولة خورشيد باشا الى بلاد اليونان لاخضاعها فتغلبوا عليه فى واقعة الترموبيل (٣) وفرقوا شمل جنوده فى ذى الحجة سنة ١٢٣٧ الموافق أغسطس سنة ١٨٢٢ أما هو فآثر الموت على تحمل عار هذه الموقعة بعد ما ناله من الفخر فى قهر والى يانيا فانتحر ومات مسموما

ومما زاد فى أهمية انهزام خورشيد باشا أن البحارة اليونانيين تمكنوا فى يوم ٢٧ رمضان

---

مركزها أولا بمدينة اودسا ثم انتقلت الي مدينة كيف وكلتاهما ببلاد الروسيا الامر الذى يدل علي أن للروسيا ضلعا مهما في تأسيسها والصرف عليها

(١) هو ابن الامبراطور بولص الاول ولد سنة ١٧٦٧ وتولي بعد قتل أبيه في ٢٣ مارث سنة ١٨٠١ وأدخل في بلاده عدة اصلاحات داخلية منها ابطال المصادرة والتعذيب وتخفيف الضرائب وأسس عدة مدارس جامعة ولطف قانون العقوبات وحارب نابوليون الاول باتحاده مع جميع أوروبا عدة مرات وانهزم أمام فرنسا في وقائع متعددة وأخيراً لما قصد نابوليون بلاده وتقهقر أمام مدينة موسكو التى أحرقها الروس اتحدت أوروبا ضده بناء علي ايعاز المترجم واستظهروا علي فرنسا ودخل اسكندر الاول مدينة باريس في ٣١ مارث سنة ١٨١٤ ثم لما عاد نابليون من منفاه الاول حاربه اسكندر المذكور مع جميع أوروبا وانتصروا عليه في ١٨ يوليه سنة ١٨١٥ في واقعة وترلو

واشتهر الامبراطور المذكور بمضادته لاستقلال الامم ولذلك ألف مع البروسيا والنمسا الاتحاد المقدس لمعارضة كل أمة تود الاستقلال وتوفي عن غير عقب من المذكور في دسمبر سنة ١٨٢٥

(٢) جمعية سرية نشأت بايطاليا في أوائل هذا القرن لطرد الاجانب منها وتوحيدها ثم انتقلت الي فرنسا سنة ١٨١٨ علي ما يظهر وانتشرت فيها بكيفية غريبة وكانت من أكبر أسباب سقوط حكومة شارل العاشر ملك فرنسا الذى أراد ارجاع بعض النظامات القديمة المخالفة لروح الحرية ويقال ان لفييت الشهير كان من أكبر زعمائها

(٣) مضيق شهير ببلاد اليونان دافع فيه ليونيداس ملك اسبارطه دفاع الابطال عن وطنه لما هاجمهم اكزرخس ملك العجم وجموعه سنة ٤٨٠ قبل المسيح وفي هذه الواقعة ثبت ليونيداس ومن معه حتي قتلوا عن آخرهم ثم نقلت عظامه الي مدينة اسبارطه حيث اقيم له أثر عظيم تخليدا لذكره وتمجيدا لاسمه

سنة ١٢٣٧ الموافق ١٨ يونيو سنة ١٨٢٢ من حرق الدونانمة التركية فى مينا جزيرة ساقز واستشهاد ثلاثة آلاف بحرى بسببها بعد ان استخلصت جزائر ساموس وساقز وغيرهما من أيدى ثائرى اليونان ومجازاة سكانها ومساعديهم بقتل الرجال وسبى النساء وارتكاب أنواع السلب والنهب مما كان له دوى فى أوروبا واستمال الرأى العام بها لمساعدة اليونان وبقى الحرب بعد ذلك سجالا الى سنة ١٨٢٤

سفر الجنود العثمانية الى اليونان

ولما رأى السلطان محمود ما ألم بجيوشه فى هذه الحروب المستمرة والمناوشات الغير منقطعة وثبات اليونانيين أمام الجيوش العثمانية واعتصامهم بالجبال وعدم قدرة الجنود على اللحاق بهم فى جبالهم الوعرة أراد أن يحيل مامورية محاربتهم على محمد على باشا والى مصر نظراً لما أبداه هو وولده الشهم الهمام ابراهيم باشا فى محاربة الوهابيين من جهة وليشغله عما كان يظن أنه ينويه من طلب الاستقلال من جهة اخرى اذ توهم الباب العالى انه لولم تكن هذه وجهته الحقيقية لما بذل وسعه فى تنظيم جيش جديد مؤلف من الشبان المصريين الذين جعل اعتماده عليهم بدل اخلاط الترك وتدريبهم على النظام الاوروبى بمساعدة ضباط من الفرنساويين فلهذه المناسبات اصدر السلطان فرمانا بتاريخ ٥ رجب سنة ١٢٣٩ الموافق ٦ مارث سنة ١٨٢٤ بتعيين محمد على باشا والياً على جزيرة كريد واقليم موره وهما بورتا هذه الثورة

فلم يسع محمد على باشا الا الاذعان لاوامر متبوعه الاعلى خوفا من حمل امتناعه على العصيان والاستقلال الامر الذى ما كانت قواه الحربية تساعده على اتمامه وفى الحال اصدر اوامره باستعداد سبعة عشر الف جندى كلهم مصريون من المشاة للسفر وعدد من الفرسان والمدفعية وعين بكر اولاده مخضع الوهابيين وفاتح السودان قائداً عاماً لهذه الحملة وارفقه بسليمان بيك (هو الكولونيل سيف الذى سبق ذكره) الفرنساوى منظم هذه الجيوش ليساعده بمعلوماته العسكرية التى تحصل عليها اثناء وجوده ضمن جيوش نابوليون الشهيرة بحسن الترتيب وكمال النظام

فاستعدت هذه الارسالية للسفر من ثغر الاسكندرية وابحرت منه تحت قيادة بطل مصر ابراهيم باشا فى ١٩ ذى القعدة سنة ١٢٣٩ الموافق ١٦ يوليه سنة ١٨٢٤ على سفن مصرية تكتنفها سفن حربية مصرية ايضاً من سفن الدونانمة التى انشأها محمد على باشا فى البحر الابيض لحماية ثغور مصر من هجمات الاعادى كما حصل من الانكليز سنة ١٨٠٧ فسارت السفن بسم الله مجريها الى جزيرة رودس للاجتماع بالدونانمة العثمانية ثم ترك ابراهيم باشا فيها سليمان بيك الفرنساوى مع حامية كافية لحفظها من تعدى الثائرين عليها وقصد هو جزيرة كريد فاحتلها ومنها قام الى سواحل بلاد موره يحاول انزال جنوده فيها وبعد العناء الشديد تمكن من انزالهم فى ميناموودون ولم يكن باقياً فى ايدى العثمانيين اذ ذاك من جميع سواحل اليونان الا هذه المدينة ومدينة كورون ولو لم تكن مساعدة

أوروبا لليونانيين بالمال والرجال لما أمكنهم مقاومة الجنود العثمانية فانه لما شرعت اليونان فى طلب الاستقلال شكلت فى أوروبا عدّة جمعيات دعيت بجمعيات محبى اليونان وجمعت كثيراً من المال أرسلت به الى الثائرين كميات وافرة من الاسلحة والذخائر وتطوّع كثير من أعضائها فى عداد المحاربين ومن ضمنهم كثير من مشاهير أوروبا وأمريكا مثل وشنطون ابن محرّر أمريكا الشهير واللورد بيرون الشاعر الانكليزى وغيرهما من فحول الرجال الذين وقفوا حياتهم للدفاع عن الحرّية فى أى زمان ومكان انتصاراً لمبادئهم لا لامة معلومة أو رجل معلوم ومما ساعد على دخول بعض الشبان المشهورين فى جيوش اليونان القصائد الحماسية التى نشرها فيما بينهم (فيكتور هوجو) الشاعر المفلق الفرنساوى و (كازيميردلافين) الناظم الشهير

ولم يلبث ابراهيم باشا ان أمد مدينة (كورون) التى كان يحصرها اليونانيون بالرجال والذخائر فى ٣ شعبان سنة ١٢٤٠ الموافق ٢٣ مارث سنة ١٨٢٥ ثم فتح مدينة (ناورين) (١) الشهيرة بعد حصار شديد ودخلها منصوراً فى ٢٨ رمضان سنة ١٢٤٠ الموافق ١٦ مايو سنة ١٨٢٥ وبعد قليل فتح مدينة (كلاماتا) وفى ٢٣ مايو احتل مدينة (تريبولتسا) ثم استدعاه رشيد باشا الذى كان محاصراً مدينة (ميسولونجى) لمساعدته على فتحها وكانت قد أعيته فى ذلك الحيل لوقوعها على البحر ووصول المدد اليها تباعا من جهة البر فقام ابراهيم باشا بجيوشه ملبيا دعوته واتبع فى فتحها الطريق التى أرشده سليمان بيك الفرنساوى اليها فى محاصرة (ناورين) ففتحت المدينة بعد عناء شديد وحصار جهيد ودخلها العثمانيون والمصريون فى ١٤ رمضان سنة ١٢٤١ الموافق ٢٢ أبريل سنة ١٨٢٦ وفى يونيو من السنة التالية فتح العثمانيون مدينة آتينا وقلعتها الشهيرة (اكروبول) رغما عن دفاع اللورد كوشران القائد البحرى الانكليزى الذى عين من قبل اليونانيين قائداً عاماً لجيوشهم البرّية والبحرية لعدم اتفاقهم على تعيين أحدهم

تداخل الدول

وبينما يستعدّ ابراهيم باشا لفتح ما بقى من بلاد اليونان فى أيدى الثائرين اذ تداخلت الدول بين الباب العالى ومتبوعيه بحجة حماية اليونانيين فى الظاهر ولفتح المسألة الشرقية وتقسيم بلاد الدولة بينهم فى الباطن وبيان هذا التداخل ان الدولة لامت الروسيا أكثر من مرة على مساعدتها الثائرين وحماية من يلتجىء منهم الى بلادها وهى لا تصغى لهذا اللوم ولا تنصت للحق بل استمرّت على مساعدتهم طمعا فى نوال بغيتها الاصلية وهى احتلالها الاستانة وجعلها مركزاً للديانة الارثوذكسية كما ان مدينة رومة مركز للديانة الكاثوليكية ثم استمرت المخابرات بين الدولتين مدة بدون فائدة لرغبة الروسيا التداخل بين التابع والمتبوع

---

(١) مدينة ببلاد اليونان على بحر أرخبيل قليلة السكان اشتهرت في التاريخ بتدمير مراكب انكلترا وفرنسا والروسيا للدونانمة المصرية العثمانية في ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧ مساعدة لليونان للحصول على استقلالها السياسي بدون اعلان حرب كما هي عادة الامم المتمدنة

وعدم قبول الباب العالى أى تداخل أجنبى فى شؤونه الداخلية بين رعاياه ولما توفى القيصر اسكندر الاول فى ١٨ ربيع الثانى سنة ١٢٤١ الموافق أول دسمبر سنة ١٨٢٥ وتولى بعده نقولا الاول (١) اهتم بمسالة اليونان متبعاً خطة سلفه السياسية وباتحاده مع انكلترا التى كان قصدها منع الحرب بين الدولتين اضطر الباب العالى الى التصديق على معاهدة (آق كرمان) فى ٢٨ صفر سنة ١٢٤٢ (سبتمبر سنة ١٨٢٦) وملخصها أن يكون للروسيا حق الملاحة فى البحر الاسود والمرور من البوغازين بدون أن يكون للدولة وجه فى تفتيش سفنها وان تنتخب حكام ولايتى الافلاق والبغدان بمعرفة الاعيان لمدة سبع سنوات مع عدم جواز عزلهما أو أحدهما الا باقرار الروسيا وأن تكون ولاية الصرب مستقلة تقريباً وأن لا تحتل العساكر التركية الاقلعة بلغراد وثلاث قلاع أخرى ولم يذكر بهذه المعاهدة شىء عن اليونان لايجاد سبب للاشكال فى المستقبل بل اتفقت الروسيا وانكلترا على استعمال كل نفوذهما لوضع حد للحروب المستمرة بها ولو كره الباب العالى ووافقتهما دول النمسا والبروسيا وفرنسا وهذا نص اتفاق آق كرمان

اتفاق آق كرمان

﴿البند الاول﴾ جميع قيود واشتراطات معاهدة الصلح المبرمة فى بخارست بتاريخ ١٧ جمادى الاولى سنة ١٢٢٧ الموافق ١٦ مايو سنة ١٨١٢ قد تقررت بهذا الاتفاق الحالى من حيث قوتها الجوهرية ومبناها كما لو كانت معاهدة بخارست هذه ذكرت فيه كلمة فكلمة أذ أن الغرض من الايضاحات التى هى موضوع هذا الاتفاق الحالى ليس الا تحديد معنى بنود المعاهدة المذكورة بالضبط وتقوية دعائمها

﴿البند الثانى﴾ حيث أن ماجاء فى البند الرابع من معاهدة بخارست بخصوص تحديد تخوم الدولتين فى الجزيرتين العظيمتين الموجودتين بالدانوب أمام مدينتى اسماعيل وكلى اللتين مع استمرارهما ملكا للباب العالى كان تقرر بقاء جزء منها قاحلا غير آهل بالسكان علم فيما بعد عدم امكان تنفيذه نظراً للموانع الناشئة عن فيضان النهر حيث ثبت بالتجربة ضرورة اقامة حدّ فاصل ثابت ذى امتداد كاف بين سكان الشواطىء المملوكة للطرفين لمنع حصول أى اختلاط بينهم فتنقطع بهذه الواسطة كافة المنازعات والارتباكات المستمرة التى تنتج

---

(١) هو ثالث أولاد بولص الاول وتولى بعد موت أخيه اسكندر الاول في سنة ١٨٢٥ بسبب تنازل أخيه الاكبر قسطنطين عن حقه في الملك وكان أشد ملوك الروسيا عداوة للدولة العلية فحاربها وأمضي معها وفق (اق كرمان) ثم معاهدة أدرنه في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٩ وحارب العجم وأخذ منها عدة ولايات ثم لما حصلت حرب الشام بين مصر والدولة العلية أبرم مع الدولة معاهدة خونكار اسكله سي سنة ١٨٣٣ القاضية بمساعدته للدولة وكان من أكبر مساعدى اليونان علي الاستقلال كما أنه محي ما كان باقيا لبولونيا من الاستقلال الادارى وساعد النمسا على قهر بلاد المجر وألزمها البقاء تحت سلطة النمسا في سنة ١٨٤٩ وأخيراً تسبب بزيادة عدم احترامه لحقوق الدولة العلية في حرب القرم التى اتحدت فيها فرنسا وانكلترا مع الدولة ضده وانتهت بسقوط قلعة سيستابول في أيدى المتحالفين وامضاء معاهدة باريس في ٣٠ مارث سنة ١٨٥٦ المدرجة في هذا الكتاب وتوفي هو أثناء الحرب فى ٢ مارث سنة ١٨٥٥

عنها فتعهد الباب العالى العثمانى مجاملة لحكومة الروسيا الملوكية ورغبة فى اظهار صريح رغبته المخلصة فى توثيق عرى الصلات الحبية بين الدولتين ومراعاة لحسن الجوار بأن يجرى ويحافظ على النظام الذى اتفق عليه بهذا الصدد فى القسطنطينية بين مبعوث الروسيا ووزراء الباب العالى فى المؤتمر المنعقد بتاريخ ٢١ اغسطس سنة ١٨١٧ وفقاً للنصوص المدوّنة بمحضر ذلك المؤتمر وعلى ذلك فالنصوص المذكورة فى هذا المحضر بالنسبة لموضوع بحثنا تعتبر كانها جزء متمم للاتفاق الحالى

﴿البند الثالث﴾ بما أن التعهدات والعقود المختصة بالامتيازات التى تتمتع بها البغدان والافلاق قد تقرّرت بقيد خصوصى فى البند الخامس من معاهدة بخارست فالباب العالى يتعهد تعهداً صريحاً بأن يراعى تلك الامتيازات والتعهدات والعقود فى كل حين بالصداقة التامة ويعد بان يجدّد الخطوط الشريفة المحرّرة فى سنة ١٨٠٢ التى خصصت وضمنت الامتيازات المذكورة وذلك فى مسافة ستة شهور تمضى من تاريخ التصديق على الاتفاق الحالى وزيادة على ذلك فانه بالنظر الى المصائب التى تحملتها هاتان الولايتان بسبب الحوادث الاخيرة وبالنظر الى اختيار بعض أشراف البغدانيين والافلاقيين لاجل أن يكونوا ولاة لهاتين الامارتين ونظراً لان حكومة الروسيا الملوكية قد قبلت هذا الانتخاب فقد حصل الاعتراف من الباب العالى والروسيا بان الخطوط الشريفة المذكورة سابقاً الصادرة فى سنة ١٨٠٢ يجب من كل بدّ تكملتها بواسطة القيود المدونة بالعقد المنفصل المرفق بهذا الذى اتفق عليه بين مندوبى الطرفين السياسيين والذى يعتبر جزأ متمماً للاتفاق الحالى

﴿البند الرابع﴾ اشترط فى البند السادس من معاهدة بخارست أن تحدّد التخوم بين الدولتين المتعاقدتين من جهة آسيا بالكيفية التى كانت عليها سابقاً قبل الحرب وأن تعيد حكومة الروسيا الامبراطورية الى الباب العالى الحصون والقلاع الكائنة ضمن هذه التخوم التى فتحتها جنود الروسيا أثناء الحرب فبناء على هذا الشرط ونظراً لكون حكومة الروسيا الامبراطورية قد أخلت وأعادت بعد الصلح مباشرة الحصون المشار اليها التى كانت أخذت فى أثناء الحرب من جنود الباب العالى فقد اتفق الطرفان بانه من الآن فصاعداً تبقى التخوم الاسيوية بين المملكتين كما هى عليه الآن وأنه قد تحدّد ميعاد سنتين لاتخاذ الوسائل الناجعة من الطرفين فى المحافظة على سكينة وأمن الرعايا التابعة لكل منهما

﴿البند الخامس﴾ بما أن الباب العالى العثمانى يرغب فى أن يبرهن للحكومة الروسية الامبراطورية على ميله الودى وتيقظه التام لاتمام كافة شروط معاهدة بخارست فسيشرع فى اجراء جميع قيود البند الثامن من المعاهدة المذكورة المختصة بالامة الصربية التى لكونها من قديم الزمان تابعة للباب العالى وتدفع له الخراج تستحق أن تنال فى كل حين بواعث رحمته واكرامه فعلى هذا ينظم الباب العالى مع مندوبى الامة الصربية الطرق التى

يحكم بانها أكثر موافقة لتأمين تلك الامة على الامتيازات التى اشترطت لصالحها فان التمتع بهذه الامتيازات يكون فى آن واحد مكافأة عادلة وأعظم باعث لصداقتها التى برهنت عليها هذه الامة نحو المملكة العثمانية وحيث رؤى ان ميعاد ثمانية عشر شهراً ضرورى للشروع فى التحقيقات التى يقتضيها هذا الموضوع بناء على العقد المنفصل المرفق مع هذا المتفق عليه بين مندوبى الطرفين السياسيين فتقرر الطرق السالف ذكرها بالاتفاق مع الوفد الصربى المنتدب الى القسطنطينية ويصدر بها فرمان عالى محلى بالخط الشريف الهمايونى ويجرى مقتضاه بالدقة فى أقصر مدّة ممكنة وغايتها مدّة الثمانية عشر شهراً السالف ذكرها وهذا الفرمان يرسل لحكومة الروسيا الامبراطورية وحينئذ يعتبر كجزء متمم للاتفاق الحالى

﴿البند السادس﴾ حيث أنه بمقتضى الاشتراطات الخصوصية المذكورة فى البند العاشر من معاهدة بخارست جميع قضايا وطلبات رعايا أحد الطرفين التى كانت أخرت بسبب حصول الحرب يجب الشروع فيها وانهاؤها أيضاً وحيث أن الديون التى يمكن أن تكون لرعايا كل طرف على الطرف الآخر وكذا المسائل المختصة بالخراج يجب فحصها والفصل فيها بالمطابقة للعدالة من كل الوجوه وتصفيتها تماماً بالسرعة فقد اتفق على أن جميع قضايا وطلبات الرعايا الروسيين بسبب الخسائر التى تكبدوها باسباب غزو قرصانات المغاربة والمصادرات التى حصلت فى وقت انقطاع العلاقات بين الدولتين فى سنة ١٨٠٦ والاجراآت الاخرى التى من هذا القبيل بما فيها ماوقع منذ سنة ١٨٢١ يعمل عنها تصفية ويعطى عنها التعويضات العادلة وللوصول لهذا الغرض ينتدب الطرفان بدون امهال مأمورين يحققون الخسائر ويعينون مقدار التعويض اللازم عنها ولما تنتهى أعمال هؤلاء المأمورين يرسل المجموع الذى يتكون من التعويضات السابق ذكرها اجمالياً لسفارة الروسيا بالقسطنطينية فى ميعاد ثمانية عشر شهراً من ابتداء تاريخ التصديق على الاتفاق الحالى وبمثل ذلك يكون الحال بالنظر لرعايا الباب العالى

﴿البند السابع﴾ حيث أن القيام بتعويض الخسائر التى حصلت لرعايا وتجار دولة الروسيا الامبراطورية بسبب قرصانات ايالات الجزائر وتونس وطرابلس والعمل بشروط المعاهدة التجارية بكل دقة وصحة وبالبند السابع من معاهدة ياش من أهم واجبات الباب العالى بمقتضى العبارات الصريحة المذكورة فى البند الثانى عشر من معاهدة بخارست الذى بانضمامه الى البند الثالث يقوى ويؤكد جميع الاتفاقات السابقة فالباب العالى يكرر بكل صراحة وعده باتمام جميع تعهداته من الآن فصاعداً بالصداقة التامة للغاية وينبنى على ذلك مايأتى

(أوّلا) يعتنى الباب العالى اعتناء تاماً بمنع قرصانات المغرب من تعطيل التجارة والملاحة الروسية باى حجة كانت فاذا حصل منهم شىء فبمجرد علم الباب العالى بحدوثه يتعهد من الآن

بان يقوم باعادة جميع المأخوذات التى استولى عليها اولئك اللصوص بدون أدنى تأخير وأن يعوّض على الرعايا الروسيين ما لحقهم من الخسائر وأن يحرر بهذا الصدد فرمانا صارماً الى بلاد المغاربة بحيث لا تدعو الضرورة الى تكراره مرّة ثانية وفى حالة ما اذا لم ينفذ مفعول هذا الفرمان فيدفع مقدار التعويض من الخزينة الملوكية فى مسافة الشهرين المنصوص عنهما فى البند السابع من معاهدة ياش ابتداء من تاريخ يوم الطلب الذى يقدم بهذا الشان من وزير الروسيا بناء على التحقيق الذى يكون قد أجراه

( ثانياً ) يعد الباب العالى بان يلاحظ بغاية الدقة جميع شروط المعاهدة التجارية السابق ذكرها وأن يمحى جميع الموانع المضادّة للمبنى الصريح لهذه الاشتراطات وأن لا يتسبب فى احداث العراقيل فى طريق ملاحة السفن التجارية الحاملة للعلم الروسى فى جميع بحار ومياه المملكة العثمانية بدون استثناء مطلقاً و بالاختصار أن يسعى فى تمتع تجار الروسيا وقباطين مراكبها و جميع رعاياها عموماً بالامتيازات والخصوصيات وكذلك بالحرية التامة فى التجارة بما أن هذه الامور نص عنها نصاً صريحاً فى المعاهدات الموجودة بين الطرفين

( ثالثاً ) حيث أنه بمقتضى البند الاوّل من المعاهدة التجارية الذى يضمن لجميع الرعايا الروسيين عموما حرية الملاحة والتجارة فى جميع ممالك الباب العالى سواء كان برا أو بحراً وفى كل مكان يريدون الملاحة والتجارة فيه وحيث انه بالنظر للقيود المذكورة فى بندى (٣١ و٣٥) من المعاهدة المشار اليها التى تضمن حرّية المرور من قنال القسطنطينية للسفن التجارية المشحونة بالمؤنات أو ببضائع أخرى أو بمحصولات الروسيا أو بمحصولات الممالك الاخرى الغير تابعة للدولة العثمانية وكذلك حرية التصرف فى هذه المؤنات والبضائع والمحصولات فالباب العالى يتعهد بأن لا يقيم عقبات ولا موانع فى أن المراكب الروسية المشحونة بالغلال أو بمؤنات أخرى عند وصولها فى قنال القسطنطينية وفى وقت الاقتضاء تتمكن من نقل ما بها الى مراكب أخرى سواء كانت روسية أو تابعة لامم أخرى أجنبية لكى تنقل خارجا عن ممالك الباب العالى

( رابعاً ) يجيز الباب العالى بناء على توسط حكومة الروسيا الامبراطورية قياسا على ماسبق دخول البحر الاسود لمراكب الحكومات المتحابة مع الدولة العثمانية التى لم تحصل لغاية الآن على هذا الامتياز بحيث أن توريد التجارة الى الروسيا بواسطة هذه السفن وتصدير المحصولات الروسية عليها لا يمكن أن يحصل له أدنى تعطيل

﴿البند الثامن﴾ بما أن الغرض من الاتفاق الحالى هو ايضاح وتكملة معاهدة بخارست فيصدق عليه من جلالة امبراطور و بادشاه جميع الروسيا ومن جلالة ملك و بادشاه العثمانيين بواسطة اعتمادات صريحة موشاة على حسب العادة بعلامتهما الخصوصية ويصير تبادل التصديق بين مندوبى الطرفين السياسيين فى ميعاد أربعة أسابيع

أو أقل ان أمكن ابتداء من اليوم الذى يتم فيه هذا الاتفاق تحريراً بآق كرمان فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٢٦

﴿ العقد المنفصل المختص بالافلاق والبغدان ﴾

بما أن ولاة البغدان والافلاق يختارون من بين أشراف الوطنيين فانتخابهم يكون فى كل من هاتين الولايتين من الآن فصاعداً بتصديق وارادة الباب العالى بواسطة جمعيات الديوان العمومية بحسب عادة البلاد القديمة وديوان كل ولاية بصفة أنهم نائبون عن الامة و باتحادهم مع عموم السلطان ينتخبون لوظيفة وال أحد الاشراف العريقين فى الاقدمية والذين يكونون اكثر كفاءة للقيام جيداً باعباء ولايتهم ثم انهم يقدمون الى الباب العالى محضراً بمن وقع عليه الانتخاب فاذا قبل الباب العالى تعيينه فيعين والياً و يستلم براءة تثبيته واذا اتفق أنه لاسباب قوية وجد المنتخب غير موافق لرغبة الباب العالى ففى هذه الحالة بعد تحقيق هذه الاسباب بمعرفة الدولة العلية والروسية يسمح للاشراف المذكورين بان يشرعوا فى انتخاب شخص آخر موافق ومدة تولية الوالى تحدد دائماً كما فى الماضى بسبع سنوات كاملة من تاريخ يوم التعيين ولا يمكن رفعهم قبل هـذا الميعاد واذا ارتكبوا فى مدة حكمهم بعض جنايات فالباب العالى يخبر عنها وزير الروسيا و بعد اجراء التحقيق بواسطة الطرفين وظهور ادانة الوالى يسمح برفعه فى هذه الحالة فقط

الولاة الذين يتمون مدة تعيينهم التى هى سبع سنوات بدون أن يبدو منهم أى أمر يوجب شكوى مهمة وحقيقية سواء كان بالنسبة للدولتين أو بالنسبة لولايتهم يعينون من جديد لسبع سنوات أخرى اذا طلبت دواوين الولاية تعيينهم من الباب العالى واذا اتضح رضاء عموم الاهالى عنهم

اذا اتفق ان احد الولاة استعفى قبل انتهاء ميعاد السبع سنوات بسبب الهرم او المرض أو لاى سبب آخر فالباب العالى يخبر بذلك حكومة الروسيا و يحصل الاستعفاء بموجب اتفاق الدولتين عليه من قبل

عزل أى وال بعد انتهاء مدته أو تنازله يستوجب سقوط عنوانه و يمكنه أن يعود ثانياً الى طبقة الاشراف بشرط أن يبقى ساكتاً ومطمئناً ولكن لا يجوز له ان يصير عضواً فى الديوان ولا ان يؤدى أى وظيفة عمومية ولا أن ينتخب والياً ثانية

أولاد الولاة المعزولين أو المستعفين يحفظون صفة الاشراف و يمكنهم ان يشتغلوا بمصالح البلاد وان ينتخبوا ولاة فى حالة عزل او استعفاء اوموت احد الولاة ولغاية تعيين خلف له يعين ديوان تلك الولاية قائم مقام يكلف بادارة تلك الولاية

من حيث ان الخط الشريف المحرر فى سنة ١٨٠٤ الغى الاموال الاميرية والتعيينات السنوية والمطالب الرسمية التى ادخلت منذ سنة ١٧٨٣ فالولاة بالاشتراك مع اشراف دواوينهم يعينون ويجددون الاموال الاميرية والضرائب السنوية فى ولايتى البغدان

والافلاق مع اعتبار الضرورات التى تدوّنت بموجب الخط الشريف المحرر فى سنة ١٨٠٢ أساساً لذلك ولا يجوز للولاة فى أىّ حالة كانت أن يقصروا فى الاجراء بغاية الدقة بمقتضى هذا النظام وعليهم أن يصغوا لمحوظات وزير جلالة السلطان وقناصل الروسيا على أوامرهم سواء كان فى هذا الموضوع أو فى المحافظة على امتيازات البلاد وخصوصاً فى ملاحظة القيود والبنود المدخلة فى العقد الحالى

يعين الولاة بالاتحاد مع دواوينهم عدد العساكر فى كل ولاية بمقدار ما كان يوجد منهم قبل حوادث سنة ١٨٢١ ومتى تعين هذا العدد فلا يمكن أن يزاد فيه بوجه ما مالم يعترف الطرفان بأهمية الضرورة الملجئة الى ذلك ومن الواضح أن تكوين العساكر وتشكيلهم يستمر بالكيفية التى كانوا عليها قبل تلك الحوادث وأن يستمر انتخاب الاغوات (الضباط) وتعيينهم على حسب الطريقة المتبعة قبل الوقت المذكور وأخيراً فان العساكر وأغواتهم لا يقومون مطلقاً الا بالوظائف التى تحدّدت لهم فى حال الاصل ولا يجوز لهم التداخل فى أمور البلاد ولا فى أى أعمال أخرى

الاغتصابات التى وقعت فى أراضى الافلاق من جهة ابرايل وجيرجيو وفيما بعد نهر الاولتا يصير عادتها لمالكيها ويحدّد ميعاد لهذه الاعادة فى الفرمانات المختصة بها التى تصدر لاصحاب الشأن

الاشراف الذين رأوا انفسهم مجبورين على ترك وطنهم بسبب الفتن الاخيرة يمكنهم أن يعودوا اليها باختيارهم بدون أن يحصل لهم أدنى تشويش من أىّ شخص ويشرعون فى التمتع الكامل المطلق بحقوقهم واختصاصاتهم وأموالهم وأملاكهم كما فى الماضى

ويمنح الباب العالى لولايتى البغدان والافلاق مدّة سنتين يعفيهما فى أثنائهما من الاموال الاميرية والتعيينات السنوية الملزمتين بدفعها اليه وذلك بالنظر الى المصائب التى أثقلت كاهلهما بسبب القلاقل الاخيرة ومتى انتهت مدة الاعفاء السالف ذكرها فالجزية والتعيينات المذكورة يصير تسديدها بحسب المعدّل المعين بالخط الشريف المحرّر فى سنة ١٨٠٢ ولا يمكن زيادتها فى حال من الاحوال

ويمنح الباب العالى ايضاً لسكان الولايتين حرّية الاتجار بجميع محصولات اراضيهم وصناعاتهم فيتصرّفون فى ذلك كيف يشاؤون ماعدا القيود المختصة من جهة بالتعيينات الواجبة سنويا للباب العالى الذى يعتبر هاتين الولايتين كمخازن له ومن جهة اخرى بمؤونة القطر نفسه اما جميع تعليمات الخط الشريف المحرر فى سنة ١٨٠٢ المختصة بهذه التعيينات وبتسديدها بالانتظام وبالاثمان الجارية التى تخصم لهم على حسابها والتى تحديدها فى حالة التنازع يختص بدواوين كل ولاية فيجرى مقتضاها بكل دقة وتعتبر فى المستقبل بضبط تام .

وينبه على الاشراف ان ينفذوا اوامر الولاة وان ينقادوا لهم تمام الانقياد واما من جهة

الولاة فانهم لا يمكنهم ان يعاملوا الاشراف بعنف و بالميل مع أهوائهم وأن لا يعاقبوهم بدون وجه حق وبدون أن يكونوا ارتكبوا جرائم مثبوتة ولا يترتب عليهم عقاب الا بعد أن يحاكموا بحسب قوانين وعوائد البلاد

بما أن الانقلابات التى وقعت فى السنين الاخيرة بولايتى البغدان والافلاق كان لها تأثير سيء جدًّا بالنظام فى فروع الادارة المختلفة الداخلية فعلى الولاة أن يشتغلوا بدون ادنى امهال مع دواوينهم فى اتخاذ التدابير اللازمة لتحسين حالة الولايتين المعهود ادارة شؤنهما الى مهارتهم وهذه التدابير يعمل عنها نظام عمومى لكل ولاية يجرى مقتضاه بدون تأخير اما الحقوق والامتيازات الاخرى لولايتى البغدان والافلاق وجميع الخطوط الشريفة التى تختص بهما فانه يستمر مراعاتها ما دام الاتفاق الحالى لا يغير منها شيئاً

فلهذا نحن الموقعين على هذا المفوّضين السياسيين عن جلالة امبراطور و پادشاه جميع الروسيا المؤيدين بالاوامر الجليلة الملوكية بالاتحاد مع المفوّضين السياسيين عن الباب العالى العثمانى قد قررنا ونظمنا الاصول المذكورة اعلاه بخصوص البغدان والافلاق وتلك الاصول هى نتيجة البند الثالث من الاتفاق المقرر لمعاهدة بخارست الذى ابرم مشتملا على ثمانية بنود فى المؤتمرات المنعقدة بآق كرمان بيننا و بين المفوضين السياسيين العثمانيين فبناء على ذلك الخ

بما ان قصد الباب العالى الوحيد هو ان يجرى مفعول الاشتراطات المذكورة فى البند (٨) من معاهدة بخارست بكل صداقة فقد سمح للمندوبين الصربيين فى القسطنطينية بان يقدموا اليه طلبات امتهم بخصوص المواضيع الاكثر موافقة لتشييد دعائم الاطمئنان ورفاهية البلاد فكان هؤلاء المندوبون عرضوا فى بادىء الامر فى عريضتهم ما تتمناه الامة بالنسبة لبعض هذه المواضيع مثل حرية الاديان وانتخاب رؤسائها واستقلال ادارتها الداخلية وانضمام الاقسام المنفصلة عنها وتوحيد الاموال الاميرية المتنوعة الى نوع واحد وتسليم ادارة واستغلال العقارات المملوكة لبعض المسلمين الى الصربيين بشرط ان يدفعوا عنها جعلا معيناً ضمن الخراج وحرية التجارة والتصريح للتجار الصربيين بالسفر فى الممالك العثمانية ببطاقات الجواز الخصوصية بهم وتشييد الاسبتاليات والمدارس والمطابع وأخيراً منع المسلمين الغير داخلين فى زمرة العسكرية من التوطن بالصرب لكن عند فحص الطلبات المبينة سابقاً وتنظيمها قد حصلت موانع أوجبت تأجيلها وبما أن الباب العالى لا يزال ثابتا للآن بعزم راسخ فى أن يمنح الامة الصربية الفوائد المشترطة فى البند (٨) من معاهدة بخارست فسيقرر بالاتحاد مع المندوبين الصربيين بالقسطنطينية الطلبات المذكورة أعلاه الصادرة عن امة صادقة ومنقادة له وكذا جميع الطلبات الاخرى التى ترفع اليه بواسطة الوفد الصربى ما دامت لا تناقض فى شيء لصفة التابعية للدولة العثمانية

على الباب العالى ان يخبر الدولة الروسية الامبراطورية عن طريقة الاجراء التى يقتضيها

العقد المنفصل الخاص بالصرب

البند (٨) من معاهدة بخارست وأن يرسل لها الفرمان المحلى بالخط الشريف الذى به تمنح الفوائد السابق الكلام عليها

فلهذا نحن الموقعين على هذا المفوضين السياسيين عن جلالة امبراطور وپادشاه جميع الروسيا مؤيدين بالاوامر الجليلة الملوكية باتحادنا مع المفوضين السياسيين عن الباب العالى العثمانى قد قررنا ونظمنا الاصول المذكورة أعلاه التى هى نتيجة البند (٥) من الاتفاق التفسيرى والمقرر لمعاهدة بخارست المبرمة بيننا و بين المفوضين السياسيين العثمانيين فى المؤتمرات المنعقدة بآق كرمان والمشتمل على ثمانية بنود فبناء على ذلك الخ

واقعة ناورين

وفى ٨ رجب سنة ١٢٤٢ الموافق ٥ فبراير سنة ١٨٢٧ عرضت انكلترا رسمياً على الدولة العلية توسط جميع الدول بينها و بين متبوعيها فلم تقبل ذلك بل أجابت سفير الانكليز بتاريخ ١٥ القعدة سنة ١٢٤٢ الموافق ١٠ يونيو سنة ١٨٢٧ بعد التروى والتأمل فى عاقبة هذا التداخل انها لم تسمح ولن تسمح به مطلقاً فاغتاظت الدول من هذا الجواب الحق واتفقت كل من فرنسا وانكلترا والروسيا بمقتضى وفاق تاريخه ١١ الحجة سنة ١٢٤٢ الموافق ٦ يوليو سنة ١٨٢٧ على الزام الباب العالى بالقوّة بمنح بلاد اليونان استقلالها الادارى بشرط أن يدفع اليونانيون جزية معينة يتفق على مقدارها فيما بعد كما يتفق على حدود الفريقين وامهل الباب العالى شهراً لايقاف الحركات العدوانية ضد اليونان والا فتضطر الدول لاتخاذ طرق أخرى لنفاذ مرغوبها ولما بلغت صورة هذه المعاهدة الى الباب العالى لم يحفل بها و بعد انقضاء الشهر أصدرت الدول الثلاث أوامرها الى قوّاد أساطيلها بالتوجه لسواحل اليونان وطلبت بعد ذلك من ابراهيم باشا الكف فوراً عن القتال فاجابهم انه لا يتلقى أوامر الامن سلطانه أوأبيه ومع ذلك فانه قبل ايقاف الحرب مدّة عشرين يوماً ريثما تأتيه تعليمات جديدة وتربص هو وجنوده على أهبة القتال واجتمعت سفن الثلاث دول المتحالفة فى مينا ناورين لمنع الدونانمتين التركية والمصرية من الخروج منها

وفى ٢٨ ربيع أول سنة ١٢٤٣ الموافق ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧ تكامل اجتماع سفن الدول المتحدة وكانت الدونانمة الفرنساوية تحت قيادة الاميرال (رينى) والروسية تحت امرة الاميرال (هيدن) وكان اللورد كودرنجتون أميرالا للاساطيل الانكليزية وقائداً عاماً لمراكب الدول بالنسبة لاقدميته فى الوظيفة عن زميليه الفرنساوى والروسى ولم تلبث السفن مقابلة لبعضها حتى انتشبت نيران الحرب بين الفريقين لسبب واه وسلطت جميع السفن الاوروبية مدافعها على المراكب التركية والمصرية فدمرتها بعد ان استمر القتال عدّة ساعات والسبب فى حدوث هذه الموقعة على ماجاء به المؤرخون ان احدى

الحراقات التركية اقتربت فى أثناء المناورات الابتدائية من احدى البوارج الانكليزية فارسل قبطانها ضابطا فى زورق ليستعلم عن سبب اقترابها فأطلق عليه أحد الجنود التركية رصاصة قتلته وعندذلك اقتتلت السفينتان وامتدّ لهيب الحرب الى باقى السفن حتى انتهت بانتصار الدول المتحدة وما كانت تقصد فرنسا بتظاهرها هذا الا اكتساب الاسم والفخر بعد ما ألم بها عقب حروب نابوليون وارجاعها الى حدودها الاصلية سنة ١٨١٥ وتداخلت انكلترا خوفا من استئثار فرنسا بالنفوذ فى الشرق ولذا فلم تعد فوائد هذه الواقعة الا على الروسيا فقط

ولما وصل خبر هذه الحادثة التى حصلت بدون اعلان حرب كما هى العادة بين الدول المتمدنة الى الباب العالى أرسل بلاغا الى سفراء هذه الدول الثلاثة يتهم فيه الحجة ضدّ هذا العمل المخالف للقوانين الدولية و يطلب به أن تمتنع الدول كلية عن التداخل فى شؤون الممالك المحروسة وأن تدفع له تعويضاً عن الخسائر التى نجمت من تدمير المراكب العثمانية فلم يجاوب السفراء على هذا البلاغ بل قطعوا العلائق مع الباب العالى ونزلوا الى مراكبهم مسرعين فى ٨ دسمبر سنة ١٨٢٧ وفى ١٨ منه نشر السلطان فى جميع الولايات منشوراً عاماً ( خط شريف ) يبين فيه سوء مقاصد الدول عموماً والروسيا خصوصاً نحو الدولة العلية أى الدولة الاسلامية الوحيدة مثبتاً للاهالى على أن الباعث على هذا العدوان الدين لا السياسة وختمه بحض المسلمين على القتال دفاعاً عن الدين والملة والوطن فاغتاظت الروسيا لذلك وأعلنت الحرب على الدولة فى ١١ شوّال سنة ١٢٤٣ الموافق ٢٦ ابريل سنة ١٨٢٨

خروج العساكر المصريه من موره

هذا ولما رأى ابراهيم باشا تألب الدول على الدولة العلية وان فرنسا أمرت بارسال جيش عظيم لمحاربته وتميم استقلال اليونان اتفق فى ٢١ محرم سنة ١٢٤٤ الموافق ٣ أغسطس سنة ١٨٢٨ بناء على أوامر والده مع الدول المتحدة على اخلاء موره والرجوع الى مصر على مابقى من السفن المصرية غير تارك فيها سوى ألف ومائتى جندى للمحافظة على مودون وكورون وناورين ريثما تستلمها العساكر العثمانية وفى ٢٦ صفر الموافق ٧ سبتمبر التالى ابتدأ انسحاب الجنود المصرية وكانت كلما أخلت محلا دخله الفرنساويون الذين نزلوا ببلاد اليونان فى ١٧ صفر الموافق ٢٩ أغسطس تحت قيادة الجنرال (ميزون) و بذلك انتهت مأمورية ابراهيم باشا التى كادت تتم على يديه ومن معه من الجنود المصرية اولا اتفاق الدول على سلخ هذه الولاية المهمة من أملاك الدولة سعياً وراء اضعافها حتى يتمكنوا من تنفيذ مآربهم وفى ٨ جماد أوّل سنة ١٢٤٤ الموافق ١٦ نوفمبر سنة ١٨٢٨ عقدت الدول الثلاث مؤتمراً فى مدينة لندن لتقرير أحوال اليونان ودعت اليه الدولة فأبت عن ارسال مندوب من طرفها حتى لا يعد ذلك اقراراً منها على ما يتفق عليه وما فعلوه من مساعدة اليونان على الاستقلال

فلم تعبأ الدول بهذا الاباء بل اجتمع مندوبوها فى اليوم المعين واتفقوا على استقلال موره وجزائر سكلاده واجتماعها على هيئة حكومة مستقلة يحكمها أمير مسيحى تنتخبه الدول ويكون تحت حمايتها وعلى أن تدفع الحكومة اليونانية للباب العالى جزية سنوية قدرها خمسمائة ألف قرش فلم يقبل الباب العالى هذا القرار الصادر من دول غير مختصة فيما يقع بينه و بين متبوعيه واشتغل بمحاربة الروسيا التى أعلنت الحرب عليه بعدان دمرت دونانمته وقبل أن يتم استعداد الجيش النظامى الجديد الذى أخذ فى انشائه وتدريبه بعد الغاء طائفة الانكشارية كلية ولنقف هنا هنيهة نأتى فيها بذكر ماحصل عند الغائها من الحروب الداخلية وكيفية الوصول الى هذه الغاية الحميدة

الغاء طائفة الانكشارية

لما تحقق السلطان محمود أفضلية النظامات العسكرية المستعملة فى جيوش أوروبا وسمع بما أتته الجنود المصرية المنتظمة من الاعمال الباهرة فى محاربة موره وعلم أن انتصارات ابراهيم باشا على اليونانيين لم تكن الا نتيجة النظام العسكرى زاد تعلقه باصلاح العسكرية وأراد اتمام المشروع الذى لم يمكن السلطان سليم الثالث اتمامه فجمع جميع ذوات وأعيان المملكة وكبار ضباط الانكشارية فى بيت المفتى فى أوائل سنة ١٨٢٦ مسيحية الموافقة سنة ١٢٤١ هجرية

ولما تكامل الحضور خطب فيهم الصدر الاعظم سليم محمد باشا مظهراً ماوصلت اليه حالة الانكشارية من الضعف والانحطاط وعدم الانقياد لرؤسائها حتى صارت من أكبر دواعى تأخر الدولة العلية بازاء تقدّم الدول الاوروبية المستمرّ بعد ان كانت هذه الفئة من أكبر عوامل تقدّم الدولة وامتداد فتوحاتها ثم أبان لهم ضرورة ادخال النظام العسكرى فى أورط الانكشارية اذ لا يمكنها بحالتها الحالية الوقوف أمام الجيوش الاوروبية المنتظمة

فلما اقتنع الحاضرون باصابة فكره وضرورة اصلاح الجندية وأقرّوا على هذا المبدأ الحسن قام كاتب سر (مكتوبجى) الصدر الاعظم وتلا عليهم مشروعا محتويا على ستة وأربعين بنداً ذكر بها بكل ايضاح كيفية التنظيمات المراد ادخالها وبعد اقرار الجمعية عليه حرر بذلك محضر أختمه جميع الحاضرين حتى ضباط الانكشارية وأفتى المفتى بجواز العمل بها شرعاً ومعاقبة من يعارض فى انفاذها ثم تلا المشروع على جميع ضباط الانكشارية فأقرّوا عليه لكن لم تكن موافقتهم الا ظاهرية فقط فانه لما ابتدىء فى تعليم الضباط بمعرفة من تعين من ضباط الافرنج بصفة معلمين تنبه الانكشارية الى عواقب الامر وعلموا أنه لو تم هذا النظام كان سبباً فى ضياع كافة امتيازاتهم من جهة وألزموا بمراعاته مع مافيه من سلب حريتهم من جهة أخرى أخذوا يستعدّون للثورة والعصيان ليوقفوا تنفيذه كما فعلوا قبلا واستمالوا بعض الرعاع الذين اتبعوهم طمعاً فى السلب والنهب

ولما كان يوم ٨ القعدة سنة ١٢٤٠ الموافق ١٥ يونيو سنة ١٨٢٦ تعرّض بعضهم للجند وقت التمرين فاصدر السلطان أمره بمعاقبة كل متعرض لهم بالقتل ولذا تجمع

المتعصبون فى مساء ذلك اليوم وتآمروا على العصيان

وكان السلطان فى سراى بشكطاش فحضر على الفور الى سرايته وجمع العلماء وأخبرهم بما ينويه الانكشارية فاستقبحوا عملهم وشجعوه على المقاومة فاستدعى ألايات الطوبجية التى نظمها نوعاً عقب توليته واستعدّ لقتال الثائرين وعزم على عدم التساهل معهم خوفا من تفاقم شرورهم واسترسالهم فى التمرّد والطغيان

وفى صباح ٩ القعدة الموافق ١٦ يونيو أخرج السلطان العلم النبوى الشريف وسار بجنود الطوبجية يتقدّمه العلم الى ساحة ( آت ميدانى ) حيث كان الثائرون مجتمعين فى هرج ومرج لامزيد عليهما وتبعه كثير من العلماء والطلبة ولم يمض قليل حتى أحاطت الطوبجية بالميدان واحتلت جميع المرتفعات المشرفة عليه وسلطت مدافعها على الانكشارية من كل صوب فخرج جميع الانكشارية وتجمهروا قاصدين الهجوم على المدافع للاستيلاء عليها فقذفت عليهم من صيب قللها ما أوقعهم فى الفشل وأيقنوا معه أن لا طاقة لهم على مقاومتها فعكفوا الى ثكناتهم طالبين النجاة لكن أنى لهم ذلك وقد سلطت أفواه المدافع عليها فهدمتها وأشعلت فيها النيران حتى دمرتها على من التجأ اليها وبذلك انتهت هذه الفتنة المريعة

وفى اليوم التالى صدر فرمان سلطانى بابطال فئتهم كلية وملابسها واصطلاحاتها واسمها من جميع الممالك المحروسة ونودى بذلك فى الشوارع وصدرت الاوامر الى جميع الولايات بالتفتيش على كل من بقى منهم واعدامه أو نفيه الى أطراف البلاد حتى لا تبقى منها باقية ومن ثم أخذ السلطان فى ترتيب وتنظيم الجيوش بهمة لم يمسسها ملال وعين لادخال هذه التنظيمات لجنة من أكابر الوزراء وقلد الوزير حسين باشا الذى كانت له اليد الطولى فى ابادة الانكشارية قائداً عاما لهم ( سرعسكر ) وبذل السلطان ومشيروه اهتمامهم حتى لم تمض السنة الاوقد تم تنظيم عشرين ألفاً وتمت المعدات لابلاغهم فى ختام السنة التالية مائة وعشرين ألفاً

الحرب مع الروسيا ومعاهدة أدرنه

هذا ولنرجع الى ذكر الدولة الروسية وبيان ماتم بالنسبة لليونان واستقلالها فنقول بمجرد ما أعلنت الروسيا الحرب سارت جيوشها التى كانت منتظرة ومتأهبة على الحدود واجتازت نهر ( بروث ) الفاصل بين أملاك الدولتين واحتلت مدينة (ياش) عاصمة البغدان

وفى ٢٨ القعدة سنة ١٢٤٣ الموافق ١٣ مايو سنة ١٨٢٨ دخلت ( بوخارست ) عاصمة الافلاق وقبضت على حاكمى الولايتين وصارت ادارتهما فى أيدى مندوبين من طرفهما وبعد ذلك احتلت الجيوش الروسية البلاد العثمانية الى نهر الطونه وعدة مدن واقعة على ضفتيه واجتازته بدون كثير ممانعة ثم حاصرت مدينة ( وارنه ) براً وبحراً لعدم وجود مراكب عثمانية تحميها من جهة البحر بعد واقعة ناورين وأتى القيصر نقولا بذاته لمراقبة الحصار وبعد قليل سار فى جيش عظيم لمحاصرة السرعسكر حسين باشا فى مدينة (شومله)

واحتل مدينة (اسكى استانبول) للتمكن من كمال محاصرتها لكن لم يلبث ان رفع عنها الحصار لما شاهده من انتظام الجيوش الجديدة وجمع كل قواه حول مدينة وارنه وقد تمكن القبودان باشا عزت محمد من ادخال المدد اليها بحراً رغماً عن مراقبة السفن الروسية ودخل هو أيضاً اليها وتولى الدفاع عنها وأتى من جهة البر السر عسكر حسين باشا لاشغال المحاصرين لها ولذلك كاد القيصر ييأس من دخولها لولا خيانة أحد القوّاد المدعو يوسف باشا فانه سلمها الى الروس فى أوّل ربيع الثانى سنة ١٢٤٤ الموافق ١٠ اكتوبر سنة ١٧٢٨ والتجأ الى بلادهم فراراً من العقاب وليتمتع بثمرة خيانته ومن جهة آسيا احتل الروس عدّة قلاع وحصون أهمها قلعة قارص الشهيرة ثم توقف القتال بسبب اشتداد البرد وتراكم الثلوج وبالاختصار فقد شهد الروس أنفسهم أن نتائج الحرب كانت أقل مما كانوا ينتظرون وما ذلك الا لالغاء طائفة الانكشارية وترتيب الجيوش الجديدة واطاعتها لاوامر رؤسائها اطاعة عمياء

ومما يؤيد ذلك ما كتبه المسيو (بوتزودى بورجو) (١) سفير الحكومة الروسية بباريس فى رسالة مؤرخة فى نوفمبر سنة ١٨٢٨ وملخصها أن الجنود الروسية لاقت من الجيوش العثمانية الجديدة ما لم تعانه قبلا من الانكشارية ولو تاخرت الروسيا فى اشهار الحرب على الباب العالى سنة واحدة لما أمكنها أن تحصل على النتائج التى تحصلت عليها فى هذه السنة اه

وفى ذلك برهان كاف على اصابة رأى السلطان محمود الغازى واصالة فكره فى الغاء طائفة الانكشارية لكن لم تكن الجيوش المنتظمة كافية لاستمرار القتال لقلة عددها بالنسبة لجيوش الروسية الكثيرة العدد ولذلك لما استؤنف القتال فى ربيع سنة ١٨٢٩ كان الفوز غالباً للجيوش الروسية رغماً عما بذله القوّاد العثمانيون من المهارة فى ضروب القتال وما أظهرته الجنود المنتظمة من الثبات والانتظام

ولنقل باختصار بدون تفصيل جميع الوقائع التى حصلت بين الجيشين فى فصلى الربيع والصيف أن الجيوش الروسية اجتازت نهر الطونه ثم اخترقت جبال البلقان بعد أن تغلبت على من عارضها من الجيوش العثمانية وأخيراً وصلت الى مدينة أدرنه واحتلتها عنوة وعند ذلك لم يبق أمامها عائق يوقفها عن التقدم الى مدينة الاستانة المحمية الا عدم رغبة الدول فى سقوطها فى أيدى الروسيا واتفاقها ضمناً على اضعاف الدولة العلية الى حدّ لم يمكنها معه التقدم والارتقاء مع بقائها عقبة فى سبيل الروسيا وحاجزاً بينها وبين البحر الابيض المتوسط

(١) ولد هذا السفير في جزيرة كورسيكا سنة ١٧٦٣ قبل ضمها لفرنسا وكان معاد للحكومة الفرنساوية فاتحد مع من يدعي (باوولي) علي تسليمها للانكليز في سنة ١٧٩٣ ورحل الي انكلترا بعد استرجاعها ثم دخل في خدمة الروسيا في سنة ١٨٠٣ وفي سنة ١٨٠٥ طرده القيصر بناء علي طلب نابليون الاول وأعاده في سنة ١٨١٣ وبعد سقوط نابليون عين سفيرا لالروسيا بباريس من سنة ١٨١٤ الي سنة ١٨٣٠ ثم في لوندرة وأخيرا اعتزل الاعمال واستوطن في باريس حيث توفى في سنة ١٨٤٢

ولذلك لما رأت ان الروس قد اقتربوا منها وصاروا على طريقها وسيصلون اليها لامحالة لولم يتداخلوا بشدّة تخابرت مع الدولتين المتحاربتين فاوقفت الروسيا جيوشها ودارت المخابرات بينهما بتوسط مملكة بروسيا حتى تم الصلح وأمضيت به معاهدة بمدينة أدرنه فى ١٥ ربيع الاوّل سنة ١٢٤٥ الموافق ١٤ سبتمبر سنة ١٧٢٩ هذا نصها

﴿البند١﴾ كل عداوة ومجافاة بقيت لغاية الآن بين الدولتين تنقطع من تاريخ هذا اليوم سواء كانت بريّة أو بحرية ويخلفها الصلح الابدى والمحبة وحسن الموافقة بين جلالة امبراطور وپادشاه جميع الروسيا وبين عظمة امبراطور وپادشاه العثمانيين وكذا بين الوارثين والمتعاقبين على عرش المملكتين ويبذل الطرفان الساميان المتعاقدان ما فى وسعهما من الانتباه الزائد لمنع جميع مامن شانه توليد الشقاق بين رعاياهما ويقومان بتنفيذ جميع شروط معاهدة الصلح الحالية بغاية العناية ويعتنيان أيضاً بأنها لا تنكث باى كيفية سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة

﴿البند٢﴾ حيث ان جلالة امبراطور وپادشاه جميع الروسيا يريد أن يبرهن لعظمة امبراطور وپادشاه العثمانيين على اخلاص أمياله الوديّة فيعيد الى الباب العالى امارة البغدان بحدودها التى كانت عليها قبل ابتداء الحرب التى انتهت بالمعاهدة الحالية وامارة الافلاق ومقاطعة قره جه ادوه بدون أىّ استثناء والبلغار واقليم دوبروجه من الدانوب لغاية البحر مع مدائن سيلستريه وحرصوو وماجين وايزاكنجه وتولتشاو بابلطاغ وبازارجق ووارنه وبرافودى وجميع المدن والضياع والقرى التابعة لها وجميع بلاد البلقان من أمينه بورنو لغاية قزارو والاقليم الممتدّ من بلاد البلقان الى البحر الاسود مع مدائن سليمنا وتشامبولى وايدا وكرنيات وميسيمبرياوا وكهيولى وبورجاس وسيزيبولى وقرق قلدس وأدرنه ولوله بورجاس وأخيراً جميع البلاد والضياع والقرى وعموماً جميع الامكنة التى احتلتها جنود الروسيا من بلاد الروملى

﴿البند ٣﴾ يستمرّ نهر بروث لان يكون الحدّ الفاصل بين الدولتين من النقطة التى يمس فيها تخوم البغدان لغاية التقائه مع الدانوب ومن هذا المكان تتجه التخوم بمحاذاة مجرى الدانوب لغاية مصب مارى جرجس بحيث أن جميع الجزائر المتكوّنة بفروع هذا النهر المختلفة تكون ملكا للروسيا وأما الشاطئ الايمن منه فيبقى تابعاً للباب العثمانى كالسابق ومع ذلك فقد اتفق على أن الشاطئ الايمن المذكور من المكان الذى فيه ينفصل فرع مارى جرجس عن فرع سولينيه يبقى غير مسكون على بعد ساعتين من هذا النهر وأن لا يشيد به مبان من أى نوع كان وكذلك فى الجزائر التى تبقى فى ملك دولة الروسيا ويستثنى من ذلك الكورنتينات التى تعمل فيها ولا يسمح مطلقاً بان يشيد فيها أى بناء آخر ولا استحكامات ومراكب الدولتين التجارية يكون لها الحق فى الملاحة بالدانوب فى جميع طوله والمراكب الحاملة للعلم العثمانى يمكنها أن تدخل بدون ممانعة فى

مصبى قبلى وسولينيه أمامصب مارى جرجس فتمرّ فيه مراكب الدولتين الحربية والتجارية ولكن المراكب الحربية الروسية لا يمكنها عند صعودها فى الدانوب أن تجاوز محل التقائه مع البروث

﴿ البند ٤ ﴾ بما أن مقاطعات الكرج والامريثيا ومنكريل وجوريل وغيرها من مقاطعات القوزاق منضمة من سنين عديدة وعلى الدوام الى المملكة الروسية وبما أن هذه الدولة قد اكتسبت بالمعاهدة المبرمة مع دولة العجم ببلدة تورامان جاى فى ١٠ فبراير سنة ١٨٢٨ خلاف ذلك خانات اريفان وناخيتشيفان فالدولتان العليتان المتعاقدتان قد علمتا ضرورة تحديد ممالكهما فى هذه الجهة بحيث ان هذا التحديد يكون معيناً تعييناً تاماً ضامناً لاجتناب كل اختلاف أو نزاع فى المستقبل وقد شرعتا من جهة أخرى فى اتخاذ الطرق الفعالة لردّ هجمات وصدّ اغارات الامم المجاورة التى كانت تجريها لغاية الوقت الحاضر والتى كانت غالباً السبب الوحيد فى نقض الصلات الودية وحسن المجاورة بين الدولتين وبناء على ذلك فقد اتفق بين حكومتى الدولة الامبراطورية الروسية وبين الباب العالى العثمانى بأن تكون حدود ولايات المملكتين بآسيا من الآن فصاعداً خطاً يتبع الحدود الحالية لاقليم جوريل من ابتداء البحر الاسود ثم يصعد لغاية حدود مقاطعة اميريثيا ومن هناك يعرج نحو الاتجاه الاكثر استقامة لغاية مكان التقاء حدود ولايات اخلتزيك وقارص مع ولايات الكرج بحيث تكون مدينة اخلتزيك وقلعتها فى شمال هذا الخط على مسافة ليست باقل من ساعتين أما جميع البلدان الكائنة فى الجنوب والغرب من خط التحديد المذكور القريبة من ولايتى قارص وطرابزون بما فيها الجزء الاعظم من ولاية اخلتزيك فانها تبقى على الدوام تحت حكم الباب العالى وأما البلاد الكائنة فى الشمال والشرق من الخط المذكور القريبة من الكرج وأميريثيا وجوريل وكذلك جميع شواطىء البحر الاسود من مصب نهر قوبان لغاية مينا مارى نقولا بما فيها هذه المينا فانها تبقى الى الابد تحت حكم المملكة الروسية فبناء على ذلك ترد حكومة الروسيا الامبراطورية الى الباب العالى باقى ولاية اخلتزيك وكذا مدينة وولاية قارص وأيضاً مدينة وولاية بايزيد ومدينة وولاية أرضروم وجميع الاماكن المحتلة لها جيوش الروسيا والتى توجد خارجا عن الخط المذكور أعلاه

﴿ البند ٥ ﴾ حيث ان امارتى البغدان والافلاق قد قبلتا أن تكونا تحت سيادة الباب العالى بمقتضى القوانين الاساسية للامارتين وبما أن دولة الروسيا قد ضمنت نجاحهما فقد صار الاتفاق على أنهما تحفظان جميع الامتيازات والاختصاصات التى ضمنت لهما سواء كانت بمقتضى القوانين الاساسية للبلاد او بحسب نص المعاهدات المبرمة بين الدولتين أو المؤيدة بالخطوط الشريفة الصادرة فى ازمنة مختلفة وبناء على ذلك تتمتع هاتان الدولتان بالحرية الدينية وبالامن العمومى ويكون لهما ادارة اهلية مستقلة

بحرية التجارة وأما القيود اللازم اضافتها الى الاشتراطات المتقدّمة لضمان تمتع هذين الاقليمين بحقوقهما فقد اتفق عليها فى العقد المنفصل المرفق بهذا المعتبر كجزء من المعاهدة الحالية

﴿ البند ٦ ﴾ بما أن الظروف التى حصلت من ابتداء عقد اتفاق آق كرمان لم تسمح للباب العالى بالاهتمام فى تنفيذ ما جاء بالعقد المنفصل المختص بالصرب الملحق بالبند (٥) من الاتفاق المذكور فهو يتعهد بكيفية جلية بان يقوم بتتميمها بدون أدنى امهال و بالضبط الاتم وخصوصاً فى أن يعيد الستة أقسام المنفصلة عن الصرب اليها حتى تتمتع هذه الامة الصادقة الطائعة بالراحة والرفاهية أما الفرمان الموشى بالخط الشريف الذى يصدر بتنفيذ القيود المذكورة فيرسل الى دولة الروسيا الامبراطورية وتعلن به رسميا فى ميعاد شهر من تاريخ التصديق على هذه المعاهدة

﴿ البند ٧ ﴾ يتمتع رعايا الروسيا فى سائر أنحاء المملكة العثمانية براً أو بحراً بحرّية التجارة التامة التى تكفلها لهم المعاهدات المبرمة سابقا بين الدولتين العظيمتين المتعاقدتين ولا يصح مس حرية التجارة بأىّ وجه كان ولا يمكن أن تعطل فى أى حال من الاحوال ولا باى حجة كانت ولا يضيق نطاقها مطلقاً ولا بسبب أى قرار أو تعديل سواء كان من جهة الادارة أو من جهة القضاء فى داخلية البلاد والرعايا والسفن والتجار الروسيون يكونون فى حمى من كل شدّة فى المعاملة و يبقى الرعايا الروسيون تحت السلطة القضائية والبوليس الخاصين بوزير وقناصل الروسية وأما المراكب الروسية فلا يحصل بها مطلقا أىّ تفتيش من جهة الحكومة العثمانية لا فى شاسع البحار ولا فى داخل أى مينا أو موردة مما يدخل تحت حكم الباب العالى وكل أنواع المتجر أو الغلال المملوكة لاحد رعايا الروسيا يمكن بيعها بكل حرية بعد تسديد عوائد الجمارك عنها بمقتضى التعريفات أو ان تنزل الى البر فى مخازن صاحبها أو عميله بل و يصح نقلها على سفن أخرى أيا كانت جنسيتها بدون أن يحتاج التابع الروسى فى هذه الحالة لان يشعر الحكومة المحلية ولا أن يطلب اذنا بذلك مطلقا وقد اتفق اتفاقا صريحا على ان أنواع القمح الاتية من الروسيا تتمتع بنفس هذه الامتيازات وان نقلها من أراضى الدولة لاى جهة لا يحصل فيه أقل صعوبة او ممانعة مطلقا ولا باى حجة وماعدا ذلك فيتعهد الباب العالى بان يتيقظ بكل اعتناء الى عدم حصول أى تعطيل مهما كانت طبيعته للتجارة والملاحة فى البحر الاسود على الخصوص وللوصول الى هذا الغرض يعترف و يعلن بان المرور فى قنال القسطنطينية و بوغاز الدردنيل يكون بحرية تامة وانهما مفتوحان للسفن الروسية الحاملة للعلم التجارى سواء كانت مشحونة او مصبرة وسواء كانت آتية من البحر الاسود بقصد الدخول فى البحر الابيض المتوسط اوعابرة من البحر الابيض المتوسط تريد الدخول فى البحر الاسود وما دامت هذه السفن تجارية فمهما كانت كبيرة ومهما كان قدرها لا تكون معرضة لادنى مانع او لاى تعدّ كما تقرر

ذلك أعلاه وتتفق الدولتان على اتخاذ أنجع الطرق للتوقى من أى تأخير فى تخليص المراسلات الضرورية فبناء على نفس هذه القاعدة يعلن بان المرور من قنال القسطنطينية و بوغاز الدردنيل يكون حراً و مفتوحا لجميع المراكب التجارية التابعة للممالك الموجودة فى حالة الصلح مع الباب العالى سواء كانت متوجهة نحو المين الروسية التى على البحر الاسود أو آتية منه مشحونة أو مصبرة وذلك بمقتضى الشروط عينها التى اشترطت بخصوص السفن الحاملة للعلم الروسى

وأخيراً بما ان الباب العالى يعترف بما لحكومة الروسيا الامبراطورية من الحق فى أن تتأكد من الضمانة التامة لهذه الحرّية التجارية ومن الملاحة فى البحر الاسود بتلك الكيفية فهو يعلن على رؤوس الاشهاد بانه لا يحصل فى ذلك مطلقاً من جهته أدنى عائق مهما كان ولا بأى حجة كانت و يتعهد خصوصاً بانه لا يستبيح لذاته من الآن فصاعداً ايقاف أو القاء القبض على السفن المشحونة أو المصبرة سواء كانت روسية أو تابعة للممالك التى لا تكون الدولة العثمانيه معها فى حالة حرب معلن حينما تكون مارة بقنال القسطنطينية و بوغاز الدردنيل لاجل أن تتوجه من البحر الاسود الى البحر الابيض المتوسط أو بالعكس

واذا حصل لاسمح الله مخالفة لبعض الاشتراطات التى اشتمل عليها البند الحالى بدون أن تنال طلبات وزير الروسيا بهذا الشأن الترضية التامة فى أسرع وقت فالباب العالى يعترف مقدماً لحكومة الروسيا الامبراطورية بان لها الحق فى أن تعتبر هذا الخلف كعمل عدائى وأن لها الحق فى أن تقابل الدولة العثمانية بمثله

﴿البند ٨﴾ بما ان الوفاقات التى اشترطت سابقاً فى البند السادس من اتفاق آق كرمان التى موضوعها تنظيم وتصفية طلبات الرعايا والتجار التابعين للطرفين بخصوص تعويضات الخسائر التى نشأت فى أزمنة مختلفة من حرب سنة ١٨٠٦ لم تنفذ و بما أن التجارة الروسية من منذ عقد اتفاق آق كرمان المتقدّم ذكره قد حصل لها خسائر جسيمة أخرى بسبب الترتيبات التى صدرت بخصوص الملاحة فى البوسفور فقد اتفق وتقرّر بأن الباب العالى العثمانى يدفع لحكومة الروسيا الامبراطورية تعويض هذه الاضرار والخسائر فى مدة ثمانية عشر شهراً وفى مواعيد تعين فيما بعد مبلغ مليون وخمسمائة ألف دوقه هولاندية بحيث أن تسديد هذا المبلغ يمنع كل طلب أو ادعاء صادر من احدى الدولتين المتعاقدتين بخصوص الظروف المذكورة أعلاه ضد الاخرى

﴿البند ٩﴾ بما ان طول مدة الحرب التى انتهت بخير بعقد هذه المعاهدة قد تسبب عنه لحكومة الروسيا الامبراطورية مصاريف جسيمة فالباب العالى يعترف بضرورة تقديم تعويض موافق لتلك الحكومة ولهذا فانه عدا عن تنازله عن قطعة صغيرة من الاراضى فى آسيا المذكورة فى البند (٤) والتى قبلت حكومة الروسيا باستلامها من اصل

التعويض المذكور فان الباب العالى يتعهد بأن يدفع لها مبلغاً من النقود يقدر فيما بعد باتحاد الطرفين

﴿ البند ١٠ ﴾ بما أن الباب العالى قد أعلن تمسكه التام باشتراطات المعاهدة المبرمة فى لوندره بتاريخ ٦ يوليه سنة ١٨٢٧ بين الروسيا و بريطانيا العظمى وفرنسا فهو يقبل أيضاً بالعقد الذى تقرّر فى ٢٢ مارث سنة ١٨٢٩ باتحاد جميع هذه الممالك فيما يتعلق بخصوص أساس المعاهدة المذكورة وهذا العقد يشتمل على التنظيمات القنصلية المختصة بتنفيذها نهائياً ففى حال تبادل التصديق على معاهدة الصلح الحالية و بعد استلام كل طرف نسخته يعين الباب العالى مفوّضين سياسيين لكى يتفقوا مع مفوّضى حكومة الروسيا الامبراطورية وحكومتى انكلتره وفرنسا بقصد اجراء تنفيذ الاشتراطات والتنظيمات التى سبق الكلام عليها

﴿ البند ١١ ﴾ بعد التوقيع على معاهدة الصلح الحالية بين الدولتين مباشرة وتبادل تصديق الملكين عليها يشرع الباب العالى فى أخذ الاحتياطات الضرورية لتنفيذ الاشتراطات التى تحتوى عليها بالسرعة و بوجه الدقة وخصوصاً بندى (٣ و ٤) الخاصين بالحدود المعينة لفصل المملكتين عن بعضهما سواء كان فى أوروبا أو فى آسيا وكذا بندى (٥ و ٦) المختصين بامارات البغدان والافلاق والصرب ومتى جاء الوقت الذى فيه يمكن اعتبار هذه البنود المختلفة كانها تنفذت فحكومة الدولة الروسية الامبراطورية تشرع فى الجلاء عن أراضى الدولة العثمانية بناء على القواعد المقرّرة بعقد منفصل يكون جزءاً متمماً من معاهدة الصلح الحالية أما ادارة ونظام الامور التى تكون قد تقرّرت فى هذه الامارات فى الحال تحت رعاية الدولة الروسية الامبراطورية فانها تبقى ثابتة لغاية انجلائها انجلاء تاماً من الاقاليم المحتلة والباب العالى العثمانى لا يمكنه أن يتداخل فيها بأى كيفية كانت

﴿ البند ١٢ ﴾ بعد التوقيع على معاهدة الصلح الحالية تعطى الاوامر فى الحال الى قوّاد جيوش الطرفين البرّية والبحرية بمنع الحرب أما الوقائع التى تحصل بعد التوقيع على المعاهدة الحالية فتعتبر كانها لم تحصل ولا تستدعى أدنى تغيير فى الشروط التى تشتمل عليها و بمثل ذلك جميع الاماكن التى تأخذها جيوش احدى الدولتين العظيمتين المتعاقدتين فى هذه المدّة فانها تعاد بدون أدنى امهال

﴿ البند ١٣ ﴾ بما ان الطرفين الفخيمين المتعاقدين قد أعادا فيما بينهما روابط المودّة الخالصة فانهما يمنحان عفواً عمومياً لجميع رعاياهما مهما كانت ظروف أحوالهم وجنسيتهم وكانوا قد اشتركوا فى أثناء الحرب التى انتهت بحمد الله فى هذه الايام فى الاعمال العسكرية أو تظاهروا سواء بسلوكهم أو بآرائهم بالميل نحو أحد الطرفين المتعاقدين

و بناء على هذا فأى شخص من أولئك لا يحصل له تكدير ولا يحاكم لا بالنسبة لشخصه ولا فى

أمواله بسبب سلوكه السالف ولكل منهم أن يسترد الاملاك التى كان يمتلكها سابقا وأن يتمتع بها مطمئناً تحت حماية القوانين والا فله الخيار بان يخاص منها فى مدة ثمانية عشر شهراً لكى ينتقل بعائلته وأمواله المنقولة الى أى قطر شاء بدون أن يقاسى ظلماً أو موانع باى وجه كان

وماعدا ذلك فانه يمنح لرعايا الطرفين القاطنين فى البلاد المعادة الى الباب العالى أو المتنازل عنها لدولة الروسيا الملوكية مدة ثمانية عشر شهراً أيضاً ابتداء من تاريخ تبادل التصديق على معاهدة الصلح هذه لكى يتصرفوا فى مملوكاتهم المكتسبة سواء كان قبل الحرب أو فى مدة وقوعه متى رأوا ان ذلك موافق لهم وليخرجوا بنقودهم ومنقولاتهم من ممالك احدى الدولتين المتعاقدتين الى ممالك الاخرى وبالعكس

﴿ البند ١٤ ﴾ جميع أسرى الحرب مهما كانت جنسيتهم وظروف أحوالهم رجالا كانوا أو نساء الذين يوجدون عند الدولتين يجب اخلاء سبيلهم بدون أقل فدية أو دفع شىء عنهم وذلك بعد تبادل التصديق على معاهدة الصلح الحالية مباشرة و يستثنى من ذلك النصارى الذين يعتنقون الديانة المحمدية برضائهم واختيارهم فى ممالك الباب العالى وكذلك المسلمون الذين يعتنقون برضائهم واختيارهم الديانة النصرانية فى ممالك الدولة الروسية -

وهكذا يكون الاجراء أيضاً فى شأن الرعايا الروسيين الذين يقعون باى كيفية كانت فى الاسر بعد التوقيع على هذه المعاهدة ويوجدون فى ممالك الباب العالى وكذا دولة الروسيا الامبراطورية تتعهد من جهتها أيضاً بان تعمل بموجب الطريقة عينها بالنظر لرعايا الباب العالى

ولا يقتضى مطلقاً دفع المبالغ التى تكون أنفقتها احدى الدولتين العظيمتين المتعاقدتين على الاسارى بل كل منهما يزوّدهم بجميع ما يكون ضرورياً لهم لسفرهم لغاية الحدود وهناك يحصل التبادل فيهم بواسطة مأمورين معينين من كلا الطرفين

﴿ البند ١٥ ﴾ جميع المعاهدات والاتفاقات والاشتراطات المقرّرة التى أبرمت فى أعصار مختلفة بين حكومة الروسيا الامبراطورية والباب العالى العثمانى ماعدا البنود التى تخالف المعاهدة الصلحية الحالية فانها تبقى معمولا بها بكل قوّة معانيها ومبانيها ويتعهد الطرفان الفخيمان المتعاقدان بان يعتنيا بملاحظتها الملاحظة التامة وعدم مخالفتها مطلقاً

﴿ البند ١٦ ﴾ المعاهدة الحالية هذه يصدّق عليها الخ

﴿ ملحق مختص بولايتى الافلاق والبغدان تاريخه ١٤ سبتمبر سنه ١٨٢٩ ﴾

زيادة على اتفاق الحكومتين العظيمتين المتعاقدتين على جميع ما اشترط بالعقد المنفصل عن الاتفاق المبرم فى آق كرمان المختص بكيفية انتخاب ولاة البغدان والافلاق فقد

اعترفنا بضرورة اعطاء ادارة هاتين الامارتين أساساً أعظم ثباتا وأكثر موافقة للصالح الحقيقى فى هاتين الولايتين وللوصول لهذا الغرض قد اتفق وتقرر نهائياً بان مدّة حكم الولاة لاتكون أبداً مقصورة على سبع سنوات كما كان حاصلا فى الماضى بل انهم يتقلدون من الآن فصاعداً هذا المنصب مدّة حياتهم ماعدا أحوال الاستعفاء أوالعزل بسبب الارتكابات المنصوص عنها بالعقد المنفصل المذكور

ينظم الولاة الاحوال الداخلية لولاياتهم بكمال الحرية بالاستشار دمع دواوينهم بدون أن يتمكنوا من مس الحقوق المضمونة للقطرين بالخطوط الشريفة بادنى شىء وبدون أن يكونوا مشوّشين فى ادارتهم الداخليه باى أمر مخالف لهذه الحقوق ثم ان الباب العالى يعدو يتعهد بانه يتيقظ تيقظاًتاما الى عدم مس الامتيازات الممنوحة الى البغدان والافلاق باى كيفية كانت بواسطة قوّاده المجاورين لحدودهما وأن لايتحمل أىّ تداخل منهم فى أحوال الامارتين وأن يمنع كل توغل من سكان الشاطىء الايمن من نهر الطونة فى التخوم البغدانية أوالافلاقية و يعتبر كجزء مكمل لهذه التخوم جميع الجزائر المجاورة للشاطىء الايسر من الدانوب ومجرى هذا النهر يعتبر حدّا للامارتين من ابتداء مدخله فى الممالك العثمانية لغاية التقائه مع نهر البروث

ولاجل التثبت جيداً من عدم استباحة تخوم البغدان والافلاق فان الباب العالى يتعهد بان لا يبقى بها أى مكان محصن وأن لا يسمح بتشييد أى بناء لرعاياه المسلمين على الشاطىء الايسر للدانوب و بناء على ذلك فقد تقرّر تقريراً لاتغيير معه بانه فى امتداد جميع هذا الشاطىء وفى الافلاق الكبيرة أو الصغيرة وكذا فى البغدان لا يمكن لاى مسلم أن يتخذ مسكنا ثابتاً فى بقعة منها و إنما يقبل فيها التجار الحاملون لفرمانات فقط ليشتروا على حسابهم الخاص من تينك الولايتين المحصولات الضرورية لمقطوعية القسطنطينية أو أشياء أخرى

أما البلاد التركية الواقعة على الشاطىء الايسر للدانوب فانها تسلم الى الافلاق لتنضم من الآن فصاعداً الى هذه الولاية وكذا الحصون الموجودة من سابق على هذا الشاطىء لا يمكن اعادتها ثانياً ويجبر الذين يتملكون عقارات غير مغتصبة من الغير سواء كانت فى هذه المدن أو فى أى نقطة غيرها على الشاطىء الايسر المذكور على بيعها للوطنيين فى مدّة ثمانية عشر شهرا وحيث ان حكومة الامارتين متمتعة بجميع امتيازات الادارة الداخلية المستقلة فيمكنها بكل حرية أن تقيم كردونات صحية وقورنتينات بمحازاة طول الدانوب وفى أمكنة أخرى على حسب البلاد التى تحتاج لذلك بدون أن يتمكن أحد من الاجانب الآتين اليها سواء كان مسلماً أو نصرانياً من أن يتخلى عن ملاحظة القواعد الصحية بكل دقة أما من جهة مصلحة القورنتينات وكذا من جهة التيقظ للأمن بالحدود واستتباب النظام فى المدن والارياف وتنفيذ القوانين والقرارات فانه يمكن لحكومة كل ولاية أن

تستخدم عدداً من الحرس المسلمين الذين تدعو اليهم الضرورة ليقوموا باعباء هذه الوظائف وعدد هؤلاء الحراس والاعتناء بشأنهم يقرّر بمعرفة الولاة بالاتفاق مع دواوينهم بمقتضى القواعد القديمة

حيث ان الباب العالى مشغوف برغبته الخالصة بان يدخل فى الامارتين جميع أنواع الراحة الممكنة لهما ولوقوفه على أنواع الظلم والتعدّيات التى تحصل فيهما بسبب المؤن المطلوبة للقسطنطينية وللقلاع القائمة على ضفاف الدانوب واحتياجات الترسخانة فهو قد تنازل بالكلية عن حقه فى هذا الخصوص و بناء عليه فالافلاق والبغدان قد عوفيتا أبديا من تقديم الحبوب والمحصولات الاخرى والاغنام وأخشاب البناء التى كانتا ملزمتين بتوريدها سابقاً وبهذه المثابة لا يطالب سكان هاتين الولايتين فى أى حال من الاحوال بعمال للاشتغال بتشييد الحصون ولا لاى سخرة مهما كان نوعها ولكن لكى تعوّض الخزينة الملوكية عن الخسائر التى يمكن أن تتكبدها من ترك كل حقوقها المذكورة فقد تقرّر أن يدفع كل من البغدان والافلاق سنويا للباب العالى نظير ذلك مبلغاً من النقود يتعين مقداره فيما بعد باتفاق الطرفين هذا بخلاف الجزية السنوية التى يجب على الامارتين دفعها الى الباب العالى باسم خراج وغيره بمقتضى عبارة الخطوط الشريفة المحرّرة فى سنة ١٨٠٢ وكذلك فانه عند تجديد الولاة بسبب الموت أوالاستعفاء أو العزل القانونى للمقلد فالولاية التى يحصل فيها ذلك تجبر بان تدفع للباب العالى مبلغاً مكافئا لخراج السنوى للولاية المقرّر بالخطوط الشريفة وماعدا هذه المبالغ فلا يطلب من البلاد ولا من الولاة أى خراج آخر ولا تعيين ولا هدية بوجه من الوجوه

بما أن التوريدات المنوّه عنها أعلاه قد ألغيت فسكان الامارتين يتمتعون بحرية التجارة تمتعاً تاما بمحصولات أرضهم و بصناعتهم (المشترط ذلك بالعقد المنفصل من اتفاق آق كرمان) بدون أدنى تضييق ماخلا التحوطات التى تتخذها الولاة بالاتحاد مع دواوينهم و يرون أنه من الضرورى تقريرها لعدم وقوع القحط فى البلاد و يمكنهم أن يسافروا بحرية على الدانوب بمراكبهم الخصوصية مصحوبين ببطاقة الجواز المحررة من حكومتهم و يتوجهوا للاتجار فى المدن والمين الاخرى التابعة للباب العالى بدون أن يحصل لهم تعب أو نصب من جباة الخراج ولا أن يكونوا معرضين لاى أمر آخر ظلمى

وزيادة على ذلك فان الباب العالى عند ما تامل جميع المصائب التى تحملتها البغدان والافلاق وتحرّكت فيه عواطف الانسانية بكيفية خصوصية قد قبل باعفاء سكان هاتين الامارتين من دفع الخراج السنوى وتوريده للخزينة مدّة سنتين ابتداء من اليوم الذى تجلى فيه الجيوش الروسية تماما عن الامارتين

وأخيرا فان الباب العالى لما له من الرغبة فى تمكين الرفاهية فى المستقبل بالامارتين بجميع الكيفيات فهو يتعهد تعهداً صريحا بان يوافق على اللوائح الادارية التى تقرّرت بناء على

رغبات مجالس أعيان السكان وذلك فى مدّه احتلال جيوش الدولة الامبراطورية للامارتين وبأنه يعتبر اتخاذ تلك القرارات فى المستقبل أساساً لسن الاحكام الداخلية فى الولايتين مادامت هذه القرارات لاتشتمل على أدنى مخالفة لحقوق سيادة الباب العالى كما هو مفهوم

فلهذا نحن الموقعين على هذا المفوّضين السياسيين عن جلالة امبراطور وپادشاه جميع الروسيا بالاتفاق مع المفوّضين السياسيين عن الباب العالى العثمانى قد قررنا بخصوص البغدان والافلاق الشروط المذكورة أعلاه التى هى نتيجة ( البند ٥ ) من معاهدة الصلح المبرمة فى أدرنه بيننا وبين المفوّضين السياسيين العثمانيين وبناء على هذا فالعقد الحالى المنفصل قد تحرر الخ اه

فيظهر للمطالع ان أهمّ ماجاء بهذه المعاهدة ان نهر البروث يبقى حدّا بين المملكتين كما كان قبلا وأن تتنازل الدولة العلية للروسيا عن مصبات نهر الطونه وما حولها من الاراضى وعن وادى الخور والقلعة التى به فى حدود الاناطول لتكون مانعاً للتواصل بين بلاد الدولة وقبائل الجركس المستقلة لتتمكن الروسيا من الاستيلاء على بلادهم فى المستقبل وأن يكون للروسيا حق الملاحة من البحر الاسود الى البحر الابيض أى حق المرور من بوغازى البوسفور والدردنيل بدون أن يفتش عمال الدولة مراكبهم وأن تعطى الدولة الى تجار الروس الذين أصابهم ضرر بسبب الحروب تعويضاً مالياً قدره ستة عشر مليونا فرنكا تقريباً وأن يكون تعيين أمراء ولايتى الافلاق والبغدان لمدّة حياتهم وعدم عزلهم الا لاسباب قوية وباتحاد الروسية والدولة مع حفظ جميع الحقوق والامتيازات المعطاة لهاتين الولايتين بمقتضى العهود السابقة وأن تمنح ولاية الصرب الامتيازات المبينة فى معاهدة ( آق كرمان ) أما بخصوص اليونان فقبل السلطان التصديق على كل ماجاء فى الاتفاق الذى أمضى بين الدول فى لوندره سنة ١٧٢٧ وأن يعين بعد اتمام الصلح مندوبا مرخصاً من طرفه للاتفاق مع مندوبى فرنسا والروسيا وانكلترا على حدود هذه المملكة اليونانية الجديدة التى أوجدتها رغبة الدول فى أضعاف الدولة الاسلامية الوحيدة وتخليص جميع المسيحيين الموجودين ببلادها من سلطها وتحريضهم على طلب الاستقلال مكافأة لها على عدم تعرضها لدينهم وعوائدهم ومجازاة لها على هذه الغلطة السياسية ولا أقول غير ذلك لان عملها هذا منطبق كل الانطباق على قواعد العدل وأصول الانسانية الا أن السياسة فى عرف الدول الاوروبية لاتعترف بهذه المبادىء الجليلة بل تنظر الى الغاية المقصودة بقطع النظر عن طرق الوصول اليها وقد قالوا فى أمثالهم الجارية حتى على ألسنة الاطفال ان الغاية تبرر الواسطة أيا كانت هذه الواسطة ولو ألحقت الخراب والدمار لا ببعض الافراد بل بامة باجمعها أو باكثر من أمة واحدة

هذا ثم أضيف الى هذه المعاهدة ذيل ذكر فيه ان مبلغ التعويض الذى اتفق على دفعه

للتجار الروسيين يدفع على أربع سنوات وأن تدفع الدولة مبلغ خمس مليون جنيه انكليزى تعويضاً حربيا للروسيا على عشرة أقساط سنوية متساوية وأن تبقى الجيوش الروسية فى الممالك العثمانية ثم تنسحب منها تدريجياً فتتخلى عن مدينة أدرنه بعد دفع القسط الاوّل وترجع الى ماوراء جبال البلقان بعد دفع الثانى والى ماوراء نهر الطونه بعد دفع الثالث وتخلى امارة البلغار ولا تخلى تماماً عن ولايتى الافلاق والبغدان الا بعد دفع آخر قسط أى بعد عشر سنوات وأن يرحل جميع السكان المسلمين القاطنين بهاتين الولايتين و يبيعوا مالهم بها من العقار والمنقول فى مسافة ثمانية عشر شهراً

وأخيراً فى ٧ الحجة سنة ١٢٤٥ الموافق ٣٠ مايو سنة ١٨٣٠ أعلن الباب العالى بتصديقه على الشروط المدوّنة فى الاتفاق الذى أمضى بين الدول فى لوندره فى نوفمبر سنة ١٨٢٨ القاضى باستقلال اليونان

يتضح للمطالع من ذلك أن الروسيا وان لم تأخذ شيئاً يذكر من أملاك الدولة بمقتضى هذه المعاهدة الا أن ما وضعته فيها من الشروط كانت تقصد بها اضعاف الدولة بكيفية لا يمكنها معها اتمام النظامات العسكرية ولا تجديد عمارتها البحرية التى دمرت فى واقعة ناورين كما سبق وأنى لها ذلك وهى ملتزمة بدفع هذه الغرامة الحربية الفادحة بالنسبة لماليتها والجيوش الاجنبية محتلة جزأ عظيما من بلادها وفصلت عنها اليونان تماماً والافلاق والبغدان والصرب تقريباً وما بقى لها أثقلت كاهله الضرائب اللازمة للحرب الداخلية والخارجية

هذا ثم سار السلطان فى خطة الاصلاحات الداخلية بهمة لا يعتريها ملال وعزيمة لا يقعدها كلال فابطل طوائف السلاحدارية والعلوفه جية و باقى الطوائف الغير منتظمة وصار الجيش كله مؤلفاً من جنود منتظمة مسلحة باتقن الاسلحة وألغيت جميع الامتيازات السابقة ولم تؤثر على السلطان أى معارضة بل كان يجازى كل من آنس منه أقل انتقاد على الاصلاحات الجديدة باشدّ العقاب وصارم العذاب حتى انه لما رأى ان جماعة البكطاشية محازبة للانكشارية واستعملت نفوذها فى تهييج الاهالى أمر بالغائها وابطال جميع تكاياها فالغيت وشتتت أعضاءها فى أطارف الدولة حتى لا يخشى من تجمعهم بالاستانة وقتل ثلاثة من رؤسائها النافذى الكلمة بناء على فتوى شرعية ومن جهة أخرى أخذ فى تغيير العوائد القديمة واتباع المستحسن من عوائد أوروبا فاستبدل العمامة بالطربوش الرومى وتزيا بالزى الاوروبى وأمر بأن يكون هو الزىّ الرسمى فى العسكرية والملكية وأسس وساما دعاه وسام الافتخار وأخيراً تجوّل بذاته فى ممالكه باوروبا ليستطلع أحوالها و يقف على حقائق الامور وشكاوى الاهالى و بالاختصار فانه سار سير من يريد مجاراة أوروبا فى نظاماتها وعدم الوقوف حال تقدّم الدول الاخرى بسرعة لعلمه أن الوقوف فى مثل هذه الظروف هو عين التأخر ولو لم يكن له من الايادى البيضاء على الممالك المحروسة

الالغاء طائفة الانكشارية لكفى ذلك لتخليد اسمه فى بطون التاريخ مشكوراً ممدوحا الى أبد الآبدين وزيادة على ذلك أحيا ما أقامه السلطان مصطفى الثالث من مدارس الطوبجية بعد ان صارت دوارس وانشاء مدرسة حربية لتخريج الضباط على مثال مدرسة سانسير الفرنساوية (١) التى أسسها نابوليون الاول بفرنسا لتربية أولاد الضباط والاشراف على النظامات العسكرية الحديثة

احتلال فرنسا لجزائر الغرب

وفى أواسط سنة ١٨٣٠ نفذت فرنسا ما كانت تنويه من مدة ضد ولاية الجزائر بدعوى منع تعدى قرصانات البحر المسلمين على مراكبها التجارية والحقيقة ليكون لها مركز حربى بشمال افريقيا حتى لا تكون انكلترا صاحبة السيادة بمفردها على البحر الابيض المتوسط باحتلالها معاقل جبل طارق وجزيرة مالطه واتخذت لذلك سبيلا وقوع الخلاف بينها و بين عامل الدولة العلية عليها المدعو حسين باى بسبب بعض ديون كانت مطلوبة لبعض تجار الجزائريين على الحكومة الفرنساوية وحجزها جزأ منها بدعوى أن هؤلاء التجار مديونون لتجار فرنساويين وخروج المسيو دوفال قنصل فرنسا عن حد الادب مع الامير حسين باى فى حفلة عمومية بحضرة جمهور من الامراء والوزراء حتى اضطر حسين باى حفظاً لناموسه وكرامته بين قومه أن يضرب القنصل بمنشة كانت بيده فبمجرد ما وصل خبر هذه المسئلة الى آذان ولاة الامور باريس عدوها اهانة لشرفهم وأرادوا اتخاذها وسيلة لتنفيذ ما كانوا مضمرين عليه من مدة وقرروا فى مجلس الوزراء المنعقد تحت رئاسة الملك نفسه فى ١٣ شعبان سنة ١٢٤٥ الموافق ٧ فبراير سنة ١٨٣٠ وجوب الاستيلاء على هذا الاقليم ثم أرسل اليها جيشاً مؤلفاً من نحو ثمانية وعشرين ألف مقاتل وعمارة بحرية مؤلفة من مائة سفينة وثلاثة سفن تحمل سبعة وعشرين ألف جندى بحرى ولما علمت انكلترا بذلك خشيت على نفوذها من مشاركة فرنسا واحتجت ضد هذا المشروع ولما لم يفد احتجاجها شيئاً أوعزت الى الباب العالى أن يأمر عامله على الجزائر بالتساهل مع فرنسا وتقديم ما تطلبه من الترضية والتعويضات فأرسل الباب العالى مندوبا من طرفه لتبليغ هذه التعليمات الى عامل الجزائر لكن لم يصل هذا المندوب الى محل مأموريته بل قبضت السفن الفرنساوية على المركب الحاملة له وأوصلتها الى مينا طولون تحت الحفظ ولم تسمح لها بالخروج الا بعد اتمام مقصدهم وفى ٢٠ ذى الحجة سنة ١٢٤٥ الموافق ١٣ يونيو سنة ١٨٣٠ نزلت عساكر فرنسا بالقرب من مدينة الجزائر وانتشب القتال بين الفريقين فى ١٩ يونيو و بعد محاربة شديدة فاز الفرنساويون بالغلبة وفى ١٤ محرم سنة ١٢٤٦ الموافق ٤ يوليو احتلوا القلعة المسماة ( سلطانيه قلعه سى ) الواقعة أمام مدينة الجزائر

---

(١) هي قرية صغيرة بالقرب من قصر فرساى بضواحي باريس أسس بها لويز الرابع عشر في سنة ١٦٨٠ مدرسة مجانية لتربية ٢٥٠ بنتا من بنات الاشراف الفقراء ولما حصلت الثورة الفرنساوية أبطلت هذه المدرسة وفي سنة ١٨٠٨ أنشأ بها نابوليون الاول المدرسة الحربية الشهيرة التى لم تزل قائمة حتى الان

وفى تلوه دخلت الجيوش مدينة الجزائر نفسها بعد خروج حسين باى منها وأعلنت فرنسا امتلاكها لها و بعد ذلك أخذت ترسل الجيوش تباعا الى الجزائر لفتحها وما زال الاهالى يقاومونها تحت امرة الوطنى الشهير السيد عبد القادر الجزائرى الذى دافع عن بلاده مدة سبع عشرة سنة وسلم نفسه فى ٢٤ رجب سنة ١٢٦٣ الموافق ٤ نوفمبر سنة ١٨٤٧ ولم تزل الاهالى غير راضية عن الاحتلال الفرنساوى حتى الآن ولم تدع فرصة للتخلص منه الا اتخذتها لكن لم تقو حتى اليوم على التخلص من ربقة الاجنبي

محمد على باشا وحرب الشام الاولي

لم يكن اهتمام والى مصر ومؤسس العائلة الكريمة الخديوية بشؤون بلاده وادخال النظامات الجديدة فيها بأقل من اهتمام السلطان محمود فى اصلاح داخلية مملكته التى مصر لاتزال ولن تزال ان شاء الله جزأ منها فانشأ عدة ترع عظيمة لاصلاح الرى أهمها ترعة المحمودية الخارجة من النيل وواصلة الى اسكندرية لتسهيل الملاحة وشرب أهل الثغر وأقام جسوراً على النيل لحفظ البلاد من الغرق ونظم وأقام المدارس والورش الصناعية حتى صار لا ياتى بلوازم جيوشه من الخارج بل يصنع جميعه بالورش المصرية من المركوب والطربوش الى البندقية والمدفع وأنشا عدة سفن حربية بدل التى دمرها التمدن الاوروبى فى ناورين لكن لم تكن ماليته تكفى لمصاريف هذه الاعمال فاستعان على اتمامها بالضرائب الفادحة واستعمال الانفار تسخيراً بلا عوض (العونة) ولجهل الاهالى بان فوائد أتعابهم ستعود عليهم آجلا باضعاف أضعاف ما يدفعونه عاجلا تمكن بعض أرباب الغايات من استمالتهم للمهاجرة الى بلاد الشام فهاجر منهم خلق كثير والتجأوا الى عبد الله باشا والى عكا المشهور بالجزار

ولما طلب منه محمد على باشا ارجاعهم خوفا من كثرة عدد من يتبعهم الى الشام امتنع من ذلك بدعوى ان الاقليمين تابعان لسلطان واحد وسواء أقام بعض سكان أحدهما فى الآخر أو بالعكس مادام أحد الاقليمين لم يكن حائزاً على امتيازات مخصوصة كحالة مصر الآن

ولذلك أمر محمد على باشا فى سنة ١٢٤٧ الموافقة سنة ١٨٣١ باعداد الجيوش والتأهب للسفر الى بلاد الشام عن طريق العريش وعن طريق البحر فى آن واحد لمحاصرة عكا من الجهتين قبل أن يأتيها المدد وعين ولده ابراهيم باشا قائداً عاماً للجيوش المزمع سفرها وسليمان بيك الفرنساوى قائمقام له فسار هذا الشبل بحراً فى ٢٦ جماد أوّل سنة ١٢٤٧ الموافق ٣ نوفمبر سنة ١٨٣١ الى مدينة حيفا تحف به الدونانمة المصرية فى أكمل نظام وأتم هندام وكانت الجيوش البرية قد سبقته من طريق العريش وفتحت فى مسيرها مدائن غزة و يافا و بيت المقدس و نابلس وجعل ابراهيم باشا مدينة حيفا مقرّاً لاعماله ومركزاً لاركان حربه ومستودعاً للمؤن والذخائر ثم ارتحل عنها لمحاصرة مدينة عكا فحاصرها براً و بحراً فى ٢٠ جماد آخر سنة ١٢٤٧ الموافق ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٣١ حتى لا يأتيها المدد بحراً فلا يقوى على فتحها كما حصل لبونابرت من قبل حين حاصرها سنة ١٧٩٩

فلما علم الباب العالى بدخول الجيوش المصرية الى بلاد الشام وحصارها لمدينة عكا اعتبر ذلك عصياناً من محمد على باشا وأوعز الى والى حلب المدعو عثمان باشا بالسير لمحاربة المصريين و بالحرى ابراهيم باشا وردّه الى حدود مصر فجمع هذا الوالى نحو عشرين ألف جندى وقصد مدينة عكا لكن لم يمهله ابراهيم باشا ريثما يأتى اليها بل ترك حول عكا عدداً قليلا من الجنود لاستمرار الحصار وسار هو بمعظم الجيش لملاقاة الجيش العثمانى فالتقى الجمعان بالقرب من مدينة حمص وانتصر المصريون على العثمانيين بسبب استعدادهم وكمال نظامهم

ثم عاد ابراهيم باشا الى مدينة عكا وشدّد عليها الحصار ودخلها عنوة فى ٢٧ الحجة سنة ١٢٤٧ الموافق ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ وأخذ عبد الله باشا الجزار سبب هذه الحرب أسيراً وأرسله الى مصر

و بمجرد وصول خبر سقوط مدينة عكا فى أيدى المصريين أمر السلطان محمود بجمع كل ما يمكن جمعه من الجيوش المنتظمة فجمع فى أقرب وقت نحو ستين ألف مقاتل وعين حسين باشا الذى امتاز فى مكافحة الانكشارية قائداً لها فسار الى بلاد الشام بكل تان و بطء حتى أمكن ابراهيم باشا الاستعداد لملاقاته فتغلب أوّلا على مقدمته وانتصر عليها فى ١٠ صفر سنة ١٢٤٩ الموافق ٩ يوليو سنة ١٨٣٢ واقتفى أثرها حتى دخل مدينة حلب الشهباء فى ١٨ صفر الموافق ١٧ يوليو المذكور

ولما علم حسين باشا بانهزام المقدمة تقهقر بمن معه من الجيوش وتحصن فى أهم مضايق جبال طوروس الفاصلة بين الشام والاناطول و يسمى هذا المضيق بمضيق بيلان وهو مشهور فى التاريخ لمرور الاسكندر المقدونى منه حين أتى لفتح بلاد الشام ومصر ومرور الافرنج حين أتوا من طريق القسطنطينية لفتح بيت المقدس واستخلاصه من أيدى المسلمين أثناء الحروب الصليبية فلحقه ابراهيم باشا وفاز عليه فوزاً عظيما وفرق شمل جيوشه فى غرة ربيع أول سنة ١٢٤٨ الموافق ٢٩ يوليه من السنة المذكورة ونبع من بقى منهم الى ان نزلوا بمراكبهم فى مينا اسكندرونه فجمع السلطان جيشاً آخر وقلد رئاسته الى رشيد باشا الذى امتاز مع ابراهيم باشا فى حرب موره خصوصاً فى محاصرة وفتح مدينة (ميسولونجى) وأرسله الى بلاد الاناطول لصدّ هجمات ابراهيم باشا عن القسطنطينية نفسها اذ كان ابراهيم باشا قد اجتاز جبال طوروس واحتل اقليم (اطنه) وماوراءه الى مدينة قونيه فى وسط الاناطول والتقى بالقرب من هذه المدينة برشيد باشا وجيشه فانتصر عليه وأخذه أسيراً فى ٢٧ رجب سنة ١٢٤٨ الموافق ٢١ دسمبر سنة ١٨٣٢ وعند ذلك ساد القلق فى الاستانة وخيف تقدم ابراهيم باشا بجيوشه المصرية اليها أماهو فسافر حتى وصل الى ضواحى مدينة بورصة

ولما تواترت أخبار انتصار المصريين على العثمانيين خشيت الدول أن يكون قصد محمد على باشا احتلال الاستانة واسقاط عائلة بنى عثمان والاستئثار بالخلافة الاسلامية فيحصل

اضطراب عمومى فى التوازن الاوروبى وكانت الروسية أشد قلقاً من غيرها لخوفها من سقوط الاستانة فى قبضة من يمكنه الذب عنها أكثر من الملوك العثمانيين فلا يمكنها تنفيذ وصية بطرس الاكبر ولذلك عرضت على الدولة العلية مساعدتها بالرجال وأنزلت فعلا على شواطىء الاناطول خمسة عشر ألف جندى لحماية الاستانة فاضطربت فرنسا وانكلترا وخشيت سوء عاقبة تداخل الروسيا بصفة عسكرية وألحت على الباب العالى بسرعة الاتفاق مع محمد على باشا قبل تفاقم الخطب واتساع الخرق على الراقع وتوسطت بينهما فقبل الباب الهمايونى بهذا التوسط

معاهدة كوتاهي

وبعد مخابرات ومداولات لا حاجة لتفصيلها اتفق الطرفان على أن يخلى المصريون اقليم الاناطول وترجع جيوشهم الى ماوراء جبال طوروس وتعطى لمحمد على باشا ولاية مصر مدة حياته ويعين هو والياً على ولايات الشام الاربع (عكا وطرابلس وحلب ودمشق) وعلى جزيرة كريد وأن يعين ابنه ابراهيم باشا والياً على اقليم أطنه وصدرت بذلك ارادة سنية فى ٥ مايو سنة ١٨٣٣ ودعيت هذه المعاهدة بمعاهدة كوتاهيه نسبة الى المدينة التى كان بها ابراهيم باشا عند اتمامها وبذلك انتهت هذه المسئلة مؤقتا اذ لم يقبل السلطان بهذه التسوية الا ليتمكن من الاستعداد للحرب وارجاع ما أخذ منه قهراً

معاهدة خونكار اسكله سي

ولقد تمكنت الروسيا أثناء وجود عساكرها بارض الدولة من ابرام معاهدة هجومية ودفاعية مع الباب العالى فى ١٨ محرم سنة ١٢٤٩ الموافق ٨ يونيه سنة ١٨٣٣ دعيت بمعاهدة (خونكار اسكله سى) تعهدت بها الروسيا بالدفاع عن الدولة لو هاجمها المصريون أو غيرهم ليكون لها بذلك سبيل فى شؤون الدولة الداخلية

حرب الشام الثانية

ولم تكن هذه التسوية الا وقتية فان محمد على باشا لم يقبل بها الا خوفاً من اجبار الدولة له على ترك فتوحاته مع كونه عازماً على تتميم مشروعه وهو الاستقلال التام عند سنوح الفرصة وكذلك لم يقبل السلطان محمود بها الا لتفريق جيوشه وعدم امكانه صدّ هجمات ابراهيم باشا عن الاستانة الا بمساعدة الروسيا الامر الذى سعى فى تلافيه بابرام هذه المعاهدة حتى اذا استعد لاسترداد ما فقد كرها اغار على بلاد الشام وجعل مصر ولاية عثمانية بدون أقل امتياز

ولما كانت هذه أفكار كل فريق منهما كان لا بد من اشتعال نار الحرب بينهما ثانية عاجلا او آجلا ولقد كان من أهم دواعى استئناف هذه الحروب عصيان أهل الشام على محمد على باشا ومعاملته اياهم بكل صرامة لاخضاعهم لسلطانه ثم عصيان الدروز وامدادهم بالمال والسلاح من الخارج سرّاً لاضعاف شوكته وفى أثناء ذلك فاتح محمد على باشا بعض وكلاء الدول بمصر بانه يرغب أن تكون مصر والشام وبلاد العرب له ولاولاده من بعده فأبلغ الوكلاء ذلك لدولهم وهى خابرت الدولة العلية بذلك بكيفيات مختلفة فعضدت فرنسا مطالبه وحسنت له الدول الاخرى محاربته بكل شدّة واخضاعه خوفاً من تطلعه الى غير ما فى يده من

الاقاليم ولتغلب نفوذ سفيرفرنسا قبل الباب العالى ارسال مندوب من طرفه الى محمد على باشا للاتفاق على حل مرض للطرفين وأرسل الى مصر من يدعى سارين افندى أحد موظفى الخارجية فأتى هذا المندوب الى مصر فى غضون سنة ١٢٥٣ الموافق سنة ١٨٣٧ وقابله واليها بكل تجلة واكرام

وبعد مداولات طويلة اتفقا على أن تعطى له ولايتى مصر والعرب ارثا لاولاده وبلاد الشام الى جبال طوروس مدّة حياته وعاد سارين افندى الى الاستانة بهذا الوفاق فلم يقبله الباب العالى بل أصر على أن تكون جبال طوروس ومفاوزها فى أيدى العثمانيين لا المصريين وصمم محمد على باشا على عكس ذلك بما ان هذه المفاوز بمثابة أبواب لبلاد الشام بأجمعها فلو احتلتها الدولة العلية أمكنها الاغارة على بر الشام فى أى وقت أرادت

واقعة نصيبين

وبذلك عاد الخلف الى ما كان عليه وصارت الحرب قاب قوسين أو أدنى وأوعز الباب العالى الى حافظ باشا الذى عين سرعسكر الجيوش المجتمعة فى سيواس بأرمينية بعد موت رشيد باشا أسير قونيه الذى مات قبل أن ياخذ بثار هذه الواقعة ويمحو ما لحقه فيها من الفشل الى ان يتقدم الى ولايات الشام بكل سرعة فتقدّم اليها فى أوائل سنة ١٢٥٥ الموافقة سنة ١٨٣٩ وعبر نهر الفرات عند مدينة (بلاجيق) فى ابريل من السنة المذكورة ثم التقى الجيشان بعد عدّة مناورات بالقرب من بلدة تدعى نصيبين وهى المشهورة فى جميع كتب الافرنج باسم (نزيب) فى ١١ ربيع الثانى سنة ١٢٥٥ الموافق ٢٤ يونيو سنة ١٨٣٩ وفاز المصريون بالنصر وتقهقر الجيش العثمانى تاركا فى أيدى المصريين ١٦٦ مدفعاً وعشرين ألف بندقية وغيرها من الذخائر والمؤن وكان هذا اليوم مشهوداً يجعل الولدان شيباً

ومن غريب المصادفة أن المسيو (دى مولتك)(١) القائد البروسيانى الذى طار صيته فى الآفاق وملأ ذكره الاوراق فى الحرب التى حصلت بين فرنسا والبروسيا فى سنة ١٨٧٠ كان من ضمن اركان حرب الجيش العثمانى وولى الادبار مع باقى الضباط بدون أن يتمكن من أخذ ملابسه وأوراقه الخصوصية

ولم يصل خبر هذه الحادثة الى آذان السلطان محمود الثانى فانه توفى الى رحمة الله وانتقل من دار الشقاء الى دار الهناء فى يوم ١٩ ربيع الثانى سنة ١٢٥٥ الموافق أول يوليو سنة ١٨٣٩

---

(١) هو القائد الالماني الشهير ولد سنة ١٨٠٠ وتربي في احدى مدارس (بكوبنهاج) عاصمة الدانمرك ثم التحق بجيش البروسيه وحضر في احدى مدارسها الحربية ولامتيازه في الهندسة وما يلحقها عين في أركان حرب البروسيا ثم ساح في الشرق وتوظف بالجيش العثماني وبعد ان حضر واقعة نصيبين عاد الى بلاده وترقي تدريجيا حتي وصل الي وظيفة رئيس أركان حرب البروسيا ومن ثم أخذ في تنظيم الجيش حتى صار أول جيش في أوروبا فكانت له اليد الطولي في الانتصار علي الدانمرك سنة ١٨٦٤ وعلي النمسا سنة ١٨٦٦ وعلي فرنسا سنة ١٨٧٠ حتى استحق محبة الاهالي له وأقيم له تمثال في حياته وفي سنة ١٨٨٨ اعتزل الاعمال لهرمه وتوفي سنة ١٨٩١

فجاة بدون أن يعلم بها لعدم وجود الاسلاك البرقية فى هذا العهد بالغاً من العمر ٥٥ سنة وتولى بعده ابنه

## ٣١ « السلطان الغازى عبد المجيد خان »

وكانت مدة خلافة السلطان محمود احدى وثلاثين سنة وعشرة شهور ومات عن أربع وخمسين سنة تقريباً وكانت ولادة السلطان عبد المجيد فى ١٤ شعبان سنة ١٢٣٧ وكان اذ ذاك سنه ١٧ سنة فتولى الخلافة ولم يبلغ الثامنة عشرة من عمره وكانت الحكومة فى غاية الاضطراب بسبب انتصار جيوش محمد على باشا بنصيبين كامر واحتلال جيوشه لمدائن عين تاب وقيصرية وملطية

ومما زاد أحوال الدولة ارتباكا وشغل الخواطر باوروبا أن أحمد باشا القبودان العام للدونانمة التركية خرج بجميع مراكبه الحربية وأتى بها الى ثغر الاسكندرية وسلمها الى محمد على باشا فى ٢ جماد أوّل سنة ١٢٥٥ الموافق ١٤ يوليو سنة ١٨٣٩ وكان فعل أحمد باشا القبودان مسبباً عن توجيه منصب الصدارة العظمى الى خسرو باشا الذى كان قد سبق تعيينه والياً على مصر وخرج منها بناء على رغبة الاهالى فى تعيين محمد على باشا والياً عليها وخوفه من الايقاع به بسبب ما كان بينه و بين محمد على باشا من علائق الارتباط والمحبة

لما علم قناصل الدول بالاستانة بتسليم الدونانمة التركية الى محمد على باشا خشوا زحف ابراهيم باشا على القسطنطينية فترسل الروسيا جيوشها لمحاربته بناء على معاهدة (خونكار اسكله سى) لاسيما وقد فقدت الدولة جميع جيوشها البرية وسفنها الحربية فأرسلوا الى الباب العالى لائحة اشتراكية بتاريخ ١٦ جماد أوّل سنة ١٢٥٥ الموافق ٢٨ يوليو سنة ١٨٣٩ ممضاة من سفراء فرنسا وانكلترا والروسيا والنمسا والبروسيا يطلبون منه أن لا يقرر شيئاً فى أمر المسئلة المصرية الا باطلاعهم واتحادهم وانهم مستعدون للتوسط بينه و بين محمد على باشا لحل هذه المسئلة المهمة فقبل الباب العالى هذه اللائحة واجتمع السفراء عند الصدر الاعظم فى ١٨ جماد أوّل الموافق ٣٠ من الشهر المذكور وتداولوا فيما يجب اعطاؤه لمحمد على باشا فأبدى سفيرا انكلترا والنمسا ضرورة ارجاع الشام للدولة العلية وعارضهم فى هذا الرأى سفيرا فرنسا والروسيا وطلبا أن يمنح محمد على باشا ملك مصر وولايات الشام الاربع لكن انحاز سفير البروسيا الى الرأى الاوّل فتقرر بالاغلبية ثم طلب المسيو (دى مترنيخ) (١) أكبر وزراء النمسا أن يعقد مؤتمر دولى فى مدينة (فيينا) أو (لوندره) لاتمام المداولات بشأن المسئلة المصرية فلم يقبل منه ذلك عند الكل سيما فرنسا

(١) سياسي نمساوي شهير ولد سنة ١٧٧٣ وتقدم سريعا وعين سفيرا للنمسا في باريس سنة ١٨٠٦ وانتخب رئيسا لمؤتمر ويانه في سنة ١٨١٤ وسنة ١٨١٥ الذى عقد لتسوية حالة أوروبا بعد سقوط نابوليون واشتهر هذا الوزير بمعارضة انتشار الحرية في أوروبا ولذلك اعتزل الاعمال بعد حركة سنة ١٨٤٨ العمومية وبقي في العزلة الى أن توفي سنة ١٨٥٩

وانكلترا فلم يقبلا ذلك ولم يميلا لهذا الطلب لعدم ثقتهم بالمسيو (دى مترنيخ) وكذلك الروسيا لم تقبل تحويل مؤتمر دولى حق تحديد علاقاتها مع الباب العالى بل أعلنت أنها مصرّة على التمسك بنصوص معاهدة (خونكاراسكله سى) وهى حماية الدولة بعساكرها ومراكبها وبالتالى احتلال معظم أملاكها بدون حرب لو تعدى ابراهيم باشا حدود الشام فعند ذلك طلبت كل من فرنسا وانكلترا من الباب العالى التصريح لمراكبها بالمرور من بوغاز الدردنيل لحمايته عند الضرورة من الروسيا ومن العساكر المصرية وجاء الاميرال (ستوبفورد) بنفسه الى القسطنطينية للحصول على هذا التصريح ولما علم باقى السفراء بهذا الطلب اضطربوا وخشوا حصول شقاق بين الدول المتوسطة وأعلن سفير الروسيا بانه اذا دخلت المراكب الفرنساوية والانكليزية البوغاز يقطع علاقاته السياسية مع الباب العالى ويسافر فى الحال وكانت حكومته أرسلت له مركبا حربياً ليسافر عليها اذا اقتضى الحال ذلك وكتبت النمسا الى وزارتى لوندره وباريس بان طلبهما هذا مخل بسلم أوروبا وانهما لو أصرّا عليه تخرج من التحالف وتحفظ لنفسها حرية العمل فلما علم الباب العالى بذلك خاف من تفاقم الخطب ورفض طلب حكومتى فرنسا وانكلترا وطلب منهما ابعاد مراكبهما عن مدخل البوغاز فلهذه الاسباب وعدم الاتفاق بين وزراء الدول توقفت المخابرات الى أوائل شهر رجب سنة ١٢٥٥ الموافق سبتمبر سنة ١٨٣٩ حتى عرض اللورد (بونسونبى) سفير انكلترا على الباب العالى أن دولته مستعدّة لاكراه محمد على باشا على ردّ الدونانمة التركية بشرط ان يكون لها حق ادخال مراكبها فى خليج اسلامبول لصدّ الروسيا عند الضرورة فلما علمت بذلك حكومة فرنسا أرسلت الى الاميرال (لالاند) قائد اسطولها فى مياه تركيا أمراً بتاريخ ١٨ دسمبر سنة ١٨٣٩ أنه لا يشترك مع مراكب انكلترا فى أىّ حركة عدوانية ضدّ حكومة محمد على باشا فعلم الكل أنه لا بد من حصول خلاف بين فرنسا وانكلترا بخصوص المسئلة المصرية وأخذت الدول حذرها مما عساه يحصل من الامور التى تنشأ بسبب هذا الخلاف فاعلنت النمسا بانها لا ترغب التداخل لعدم نجاح طلبها المختص بانعقاد مؤتمر دولى فى فيينا أو برلين وأعلنت بروسيا والروسيا بانهما يقبلان كل ما تقرره الدول فى هذا الشان بشرط أن يكون موافقاً لرغبة الباب العالى وأن يكون قبوله لهذا القرار صادراً عن كمال الحرية فكأن الدول قبلت ما اتفق عليه فرنسا وانكلترا بالاتحاد مع الباب العالى ولكن لم يتم الاتفاق بين هاتين الدولتين لسعى انكلترا فى ارجاع المصريين الى حدودهم الاصلية وعدم قبول فرنسا ذلك ورغبتها فى مساعدة محمد على باشا

وذلك ان فرنسا كانت تود أن تكون ولاية مصر والشام له ولذريته واقليما اطنه وطرسوس لمدة حياته وأما انكلترا فكانت لا تريد أن يعطى الا ولاية مصر لكن رغبة فى ارضاء فرنسا قبلت أن يعطى مدة حياته نصف بلاد الشام الجنوبى بشرط أن لا تكون مدينة عكا من هذا النصف فرفضت فرنسا هذا الاقتراح وقالت كيف نحرمه من كل فتوحاته خصوصاً

بعد ان قهر الجيوش العثمانية فى واقعة نصيبين واننا لوجردناه منها لتركنا له بابا للحرب مرة أخرى وهو أمر لا تكون عاقبته حسنة لانه يوجب تداخل حكومة الروسيا فى أمر الدولة العلية بمقتضى العهود ولا تكون نتيجة ذلك الاحرب عامة فالاولى منعاً لسفك دماء العباد أن تعطى لمحمد على باشا البلاد التى فتحها لانه أقوم بادارتها وأحق بها لما تكبده فى فتحها من المشاق الصعبة والمصاريف الزائدة و بذل الارواح ولما علمت الدول بوقوع الخلاف بين فرنسا وانكلترا أعلنت النمسا و بروسيا رسمياً انهما يحازان الى احدى الدولتين التى لا تحرم الدولة من أملاكها و بعبارة أخرى الى انكلترا

وأما الروسيا فارادت أن تنتهز فرصة عدم اتحاد الدولتين لتقر بنفوذها فى الشرق وحق حمايتها على الدولة العلية دون غيرها وأرسلت الى لونديره البارون ( دى برونو ) بصفة سفير فوق العادة فوصلها فى أواخر سبتمبر سنة ١٨٣٩ وعرض على حكومتها بالنيابة عن قيصره أن الروسيا مستعدة لان تترك لانكلترا حرية العمل فى مصر وتساعدها على اذلال محمد على باشا بشرط أن تسمح لها بانزال جيش بالقرب من اسلامبول فى مدينة (سينوب) الواقعة على شاطىء البحر الاسود ببر الاناطول لكى يتيسر لها اسعاف الباب العالى لو أراد ابراهيم باشا الزحف على القسطنطينية فصغى اللورد بالمرستولون (١) الى كلام سفير الروسيا ومال الى هذا الرأى ميلا شديداً ولولا استقباح الرأى العام له لقبله كل القبول وسلم به كل التسليم لكنه لما رأى عدم موافقة الرأى العام لهذا المشروع اقترح على الروسيا أن تعلن أولا بتنازلها عما تخوله لها معاهدة ( خونكاراسكله سى ) من حق حماية الدولة العلية فرفضت الروسيا ذلك وأجلت المخابرات بشأن تسوية المسئلة المصرية الى شهر يوليو سنة ١٨٤٠ لعدم اتفاق الدول على حالة مرضية للكل وافية بغرض الجميع لتباينهم فى الغايات والمقاصد وفى خلال هذه المدة أرسلت الروسيا المسيو ( برونو ) ثانية الى لونديره ليطلب تعديل المشروع الاول بان يخول لكل من انكلترا وفرنسا الحق فى ارسال ثلاث سفن حربية فى بحر ( مرمره ) للاشتراك مع الجيش الروسى فى حماية اسلامبول لوهاجمها ابراهيم باشا فلم تفز الروسيا بمرامها فى هذه المرة أيضاً

هذا ولما علم محمد على باشا بهذه المخابرات وتحقق أن الدول الاوروباوية عموماً وانكلترا خصوصاً ساعية فى ارجاع جيوشه الى مصر وجبره على رد كل مافتحه من البلاد وأن فرنسا لا يمكنها مساعدته فضلا عن تعصب باقى أوروبا ومضادتها باجمعها له أخذ فى

(١) سياسي انكليزي شهير ولد سنة ١٧٨٤ وبعد ان أتم دراسته في مدرسة كمبردج العليا انتخب في مجلس العموم سنة ١٨٠٦ وانضم الي حزب المحافظين وفي سنة ١٨٣٧ تحول عنهم وانخرط في سلك الاحرار وصار وزيرا للخارجية من سنة ١٨٣٠ الي سنة ١٨٤١ ومن سنة ١٨٤٦ الي سنة ١٨٥١ ومن ١٨٥٥ الى ١٨٥٨ وأخيرا من سنة ١٨٥٩ الي تاريخ وفاته الواقع في سنة ١٨٦٣ واشتهر بمقاومة محمد علي باشا الكبير حتى يمكن القول أن مساعيه كانت السبب الوحيد في اخفاق مشروع هذا الرجل العظيم وعدم نجاح مقصوده

الاستعداد لصد القوة بالقوة بحيث لا يسلم شبرا من الارض التى صرف ماله ورجاله فى فتحها الامضطراً وكلف سليمان باشا بتفقد سواحل الشام وتحصينها بقدر الامكان سيما مدينتى عكاو بيروت وأمر بتعليم كافة الاهالى جميع الحركات العسكرية وحمل السلاح لكى يسهل له حفظ الامن الداخلى بواسطتهم وصد المهاجمين بواسطة الجيش المتدرب على الحرب ولزيادة جيشه استدعى من الاقطار الحجازية والنجدية الجيوش المصرية المحتلة لها وأخذ أيضاً فى توفير الاموال من بعض وجوه مصاريفها وأطلق سراح محمد بن عون شريف مكة الذى كان قد ألزمه الاقامة بمصر من مدة وبالجملة تخلى عن بلاد العرب وتركها هملا كما كانت لاحتياجه الى المال والرجال لانها كانت تكلفه سنويا مبلغاً قدره سبعمائة ألف جنيه مصرى تقريباً بلا فائدة ثم أرسل الى ولده ابراهيم باشا الاوامر المشددة بان يجتهد فى اطفاء كل ثورة جزئية يبديها سكان الجبل من أى طائفة خوفا من اشتداد الخطب فى الداخل حين الاحتياج للانتباه لما يأتى من الخارج

ثم فى أوائل سنة ١٨٤٠ عاودت النمسا الكرة وطلبت من الدول اجتماع مؤتمر فى مدينة فيينا لتسوية هذه المسئلة التى أقلقت بال الجميع فقبلت الدول عقده فى مدينة لوندره لا فيينا وطلبت فرنسا أن يكون للباب العالى مندوب خصوصى فى هذا المؤتمر مراعاة له لماله من السيادة العظمى على البلاد المتنازع بخصوصها

فلما اجتمع هذا المؤتمر طلبت فرنسا ابقاء الشام كلها تحت يد محمد على باشا فعارضتها الحكومة الانكليزية فى ذلك وأصرت على ماطلبته أولا وهو انه لا يعطى له الا النصف الجنوبى منها لكنها قبلت أخيراً بناء على الحاح فرنسا ادخال عكا ضمن هذا القسم بشرط أن يكون له مدة حياته فقط ولا ينتقل الى ورثته بل يعود الى الدولة العلية وقبلت الروسيا والنمسا والبروسيا ذلك لكن لم تقبله فرنسا بحجة أن حرمان ورثة محمد على باشا من بلاد صرف السنين الطوال فى فتحها ليتركها لهم بعد موته مما يزيد فى حنقه على دول أوروبا وربما لم يقبل هذا القرار المجحف فتلتزم الدول باكراهه وسفك دماء العباد ظلماً الامر الذى لم تجر هذه المخابرات الا لمنعه فشددت انكلترا وخصوصا اللورد بالمرستون وزيرها الاول وأبت الارجوع مايعطى لمحمد على باشا من البلاد الشامية الى الدولة العلية بعد موته فمن عدم الاتفاق وتشتت الآراء وبعد الوفاق لم ينجح هذا المؤتمر وبقيت الحالة على ماهى عليه ثم لما توفى المسيو (تيرس) (١)

(١) هو سياسى شهير ولد فى مرسيليا فى ١٦ ابريل سنة ١٧٩٧ وتعلم الشريعة فى مدارس مرسيليا واكس واشتغل بالمحاماة الى سنة ١٨٦١ ثم سافر الى باريس واشتغل بالتحرير فى الجرائد وكتب تاريخ الثورة الفرنساوية فى ١٠ مجلدات طبعت من سنة ١٨٢٣ الى سنة ١٨٣١ وكان من أكبر الساعين فى قلب حكومة لويس العاشر فى شهر يوليو سنة ١٨٣٠ ولما تولى لويس فيليب أريكة الملك بعد هذه الثورة عينه مأمورا فى الخزينة ثم ولاه وزارة المالية ثم نظارة الداخلية فى وزارة المارشال سولت الاولى فى ١١ اكتوبر سنة ١٨٣٤ ثم صار رئيسا لمجلس النظار أول مرة فى ٢٢ فبراير سنة ١٨٣٦ وعهدت اليه أيضا نظارة الخارجية واستمرت وزارته الى ٦ سبتمبر سنة ١٨٣٦ ثم عاد الى منصة الاحكام فى أول مارث سنة ١٨٤٠

رئاسة الوزارة الفرنساوية فى أوّل مارث سنة ١٨٤٠ لم يتبع خطة أسلافه فى انهاء المسئلة المصرية بالاتحاد مع انكلترا بل أراد أن يضع لها حدّا باتفاقه رأساً مع الباب العالى ومحمد على باشا بان يلزم الباب العالى أن يترك لمحمد على باشاولايات مصر والشام له ولذريته ويهدّده بمساعدة فرنسا لوالى مصر ان لم يذعن الباب العالى لهذه المطالب

فارسل لمحمد على باشا يخبره بان لا يقبل مطالب انكلترا بل يقوّى مركزه فى الشام ويتأهب للكفاح وان فرنسا مستعدة لنجدته لو عارضته انكلترا

معاهدة ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠

فلما علم اللورد بالمرستون بهذه المخابرات حنق على الحكومة الفرنساوية وبذل جهده فى الاتفاق مع الروسيا وبروسيا والنمسا لارجاع محمد على باشا الى حدود مصر والزامه بالقوة ان لم يطع ولقد نجح بالمرستون فى مسعاه وأمضى بتاريخ ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ مع من ذكر من الدول معاهدة صدّق عليها مندوب الدولة العلية مقتضاها

﴿ أولا ﴾ أن يلزم محمد على باشا بارجاع ما فتحه للدولة العلية ويحفظ لنفسه الجزء الجنوبى من الشام مع عدم دخول مدينة عكا فى هذا القسم

﴿ ثانياً ﴾ أن يكون لانكلترا الحق بالاتفاق مع النمسا فى محاصرة فرض الشام ومساعدة كل من أراد من سكان بلاد الشام خلع طاعة المصريين والرجوع الى الدولة العلية وبعبارة أخرى تحريضهم على العصيان لاشغال الجيوش المصرية فى الداخل كى لا تقوى على مقاومة المراكب النمساوية والانكليزية

﴿ ثالثاً ﴾ أن يكون لمراكب الروسيا والنمسا وانكلترا معاً حق الدخول فى البوسفور لوقاية القسطنطينية لو تقدمت الجيوش المصرية نحوها

﴿ رابعاً ﴾ أن لا يكون لاحد الحق فى الدخول فى مياه البوسفور مادامت القسطنطينية غير مهددة

﴿ خامساً ﴾ يجب على الدول الموقع مندوبوها على هذا الاتفاق أن تصدق عليه فى مدة

---

فطلب تحصين مدينة باريس والقيام بتجهيزات عسكرية مهمة خوفاً من الارتباكات الناشئة من تداخل الدول بين محمد علي باشا والسلطان ثم استقال لاختلافه في الرأى مع ملكه بخصوص المسئلة المصرية وحينئذ ابتدأ في تاريخه عن القنصلية والامبراطورية ثم في سنة ١٨٤٨ طعن في سياسة لويس فيليب الخارجية وساعد على عزله وانتخب عضوا في الحكومة المؤقتة وفي سنة ١٨٥١ عارض لويس نابليون في تأسيس امبراطورية ثانية فسجنه لما أعاد الامبراطورية من ٩ دسمبر سنة ١٨٥١ الي ٧ يوليو سنة ١٨٥٢ ثم في سنتى ٦٥ و ٦٦ أخذ يندد على سياسة الامبراطور وصرفه النفقات الباهظة في حرب ايطاليا وحملة المكسيك وفي سنة ١٨٧٠ كان ضد الحرب لتحققه من عدم استعداد حكومة فرنسا ولما حصل ما أنبأ به من تغلب البروسيا ألح بالمدافعة عن باريس وسعى لدى الدول للمساعدة في اقامة هدنه فلما لم يفلح عاد الي فرنسا وانتخب في مجلس نوابها ثم في ١٧ مارث سنة ١٨٧١ تعين رئيس السلطة الاجرائية فتمكن من دفع الغرامة الحربية قبل ميعادها وخلص بذلك وطنه من احتلال الاجنبي وفي ١٦ أغسطس أطال مجلس النواب مدته ثلاث سنين ولقبه بلقب رئيس الجمهورية ثم استقال في ٢٤ مايو سنة ١٨٧٣ لمعاكسة الاحزاب له وخلفه المارشال ما كماهون وله تآليف سياسية شهيرة واشتهر أيضا في الخطابة وتوفي في سنة ١٨٧٩ واحتفلت الامة الفرنساوية بجنازته احتفالا عظيما .

لا تزيد عن شهرين بحيث يكون التصديق فى مدينة لوندره

وشفعت هذه المعاهدة بملحق مصدق عليه من مندوب الدولة العلية مبين فيه الحقوق والامتيازات التى يمكن منحها لمحمد على باشا وقبل امضاء هذه المعاهدة ابتدأت انكلترا فى تحريض سكان لبنان من دروز ومارونية ونصيرية على شق عصا الطاعة وارسل اللورد بونسو نبى سفيرها لدى الباب العالى ترجمانه المستروود الى الشام لهذه الغاية واعلم بذلك اللورد بالمرستون برسالة تاريخها ٣٠ ربيع الثانى سنة ١٢٥٦ الموافق ٢٩ يونيوسنة ١٨٤٠ محفوظة فى سجلات المملكة وبمجرد وصول المستروود الى محل مأموريته اخذ فى نشر ذلك بين الاهالى وافلح فى مأموريته وأشهر الجبليون العصيان وتجمعوا متسلحين وامتنعوا عن تأدية الخراج والمؤن العسكرية لكن لم تتسع هذه الثورة الابتدائية لتداركها فى أولها فارسل المدد من مصر واهتم كل من ابراهيم باشا وسليمان باشا الفرنساوى وعباس باشا الاول (١) فى اخمادها فاطفئت قبل أن يتعاظم أمرها وعادت السكينة فى كافة الانحاء

ومن ثم أخذ سليمان باشا الفرنساوى فى تحصين مدينة بيروت لعلمه انها أول مينا معرضة لمراكب الانكليز وكذلك بنى القلاع لحماية كل الثغور ووضع بها المدافع الضخمة ولكن لسوء الحظ لم تجد هذه الاستحكامات نفعاً امام مراكب الانكليز والنمسا كما سيجىء

ولما علمت الحكومة الانكليزية ان المرحوم محمد على باشا مهتم فى ارسال العساكر والذخائر من طريق البحر الى الشام ارادت ان تعارضه وتعاكسه اما باخذ دونانمته او تشتيتها وتفريقها ليتعذر ارسال المدد براً لوجود الصحراء الرملية الفاصلة بين مصر والشام من طريق العريش فارسلت اوامرها فى اوائل شهر يوليو سنة ١٨٤٠ الى الكومودور نابير بان يتوجه بمراكبه الى مياه الشام ومصر لاستخلاص الدونانمة التركية لو خرجت من مينا الاسكندرية واسر أو احراق الدونانمة المصرية لو قابلها فلما علمت فرنسا بهذا الخبر ارسلت احدى بوارجها البخارية الى بيروت لتبليغ قائد الجيوش المصرية هذا الخبر المشؤوم فرجعت فى الحال المراكب المصرية الى الاسكندرية حتى اذا وصل الكومودور نابير لم يجدها فاغتاظ لذلك ويقال انه قبل ان يبارح مياه بيروت ارسل الى سليمان باشا كتابا بتاريخ ٢٤ يوليو يظهر له فيه تكدره من اجراآت القواد المصريين فى الشام ومعاملاتهم الثائرين بالقسوة وانهم ان لم يكفوا عن اعمالهم البربرية (على زعمه) اضطر للتداخل وانزال عساكره الى بيروت فاجابه سليمان باشا بانه لا يقبل ملحوظاته ويعلمه بانه لا يخاطبه من الآن فصاعدا واذا كان عنده ملحوظات مثل هذه فليبدها لمحمد على باشا

ولم يبتدىء شهر اغسطس سنة ١٨٤٠ الا وقد ورد خبر معاهدة ١٥ يوليو الى مصر

---

(١) هو عباس باشا الاول إبن طوسن باشا ابن محمد علي باشا الكبير ولد في جدة سنة ١٨١٦ حين كان والده ببلاد العرب لمقاتلة الوهابيين وتولى على الاريكة المصرية في ٢٧ الحجة سنة ١٢٦٤ الموافق ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٤٨ بعد موت عمه إبراهيم باشا وتوفي في ١٨ شوال سنة ١٢٧٠ الموافق ١٤ يوليه سنة ١٨٥٤ واختلف في سبب وفاته قيل بالسكتة وقيل مقتولا

والشام ووردت الاوامر الى الدونانمة الانكليزية بمحاصرة سواحل الشام وأسر المراكب المصرية حربية كانت أو تجارية فعاد نابير الى بيروت بعد ان اخذ في طريقه كل ما قابله من المراكب ووصلها في ١٥ جمادى الثانية الموافق ١٤ أغسطس وأعلن العساكر المصرية باخلاء بيروت وعكا في أقرب وقت ونشر في أنحاء الشام منشورات لاعلام الاهالي بما قررته الدول من ابقاء الشام لمصر ماعدا عكا وتحريضهم على العصيان على الحكومة المصرية واظهار ولائهم للدولة العلية العثمانية

وفي اليوم المذكور (١٥ جماد الثاني) بلغت هذه المعاهدة رسميا الى محمد على باشا وأتيت اليه بعد ذلك قناصل الدول الاربع المتحدة وعرضوا عليه باسم دولهم أن تكون ولاية مصر له ولورثته وولاية عكا له مدة حياته (وأمهلوه) عشرة أيام لاعطاء جوابه فطلب منهم كتابة بذلك فلبوا طلبه ثم في اليوم التالي افهموه ان فرنسا لا يمكنها مساعدته قط وان الدول مصممة على تنفيذ ما اتفقت عليه ولو ادى ذلك الى حرب اوروبية لكنه اصر على عدم القبول والدفاع عن حقه الى آخر رمق من حياته وفي يوم ٢٥ جماد الثاني الموافق ٢٤ اغسطس الذي هو غاية الميعاد المعطى له احضر اليه القناصل ومعهم مندوب الدولة واخبروه بانه لاحق له الآن في ولاية عكا وان الدول لا تسمح له الا بولاية مصر فقط له ولذريته فاحتدم عليهم غضباً وطردهم من عنده قائلا لهم كيف يجوز ان اسمح لكم بالمقام في بلادي وانتم وكلاء اعدائي في هذه الديار فانصرفوا واعطوه عشرة ايام أخر لابداء جوابه بحيث انه لم يجاوب تكون الدول غير مسؤولة عما يحصل له من الضرر وبعد انقضاء هذه المدة بدون أن يبدى لهم جوابه كتب القناصل بذلك الى سفراء الدول بالاستانبول فاجتمعوا مع الصدر الاعظم وقرروا باتحادهم أخذ مصر والشام من محمد على باشا

وفي أثناء هذه المدة كانت فرنسا اتباعا لرأي المسيو تيرس تستعد للقتال مساعدة لمحمد على باشا ولكن لسوء حظ الامة المصرية كانت هذه الاستعدادات غير كافية ولا تتم الا بعد ستة أشهر لعدم وجود السلاح والذخائر الكافية للحرب لاسيما وان فرنسا تكون في هذه الحالة مقاومة لاكبر دول أوروبا

ولما تحقق أهالي فرنسا أن حكومتهم لا تقوى على مساعدة محمد على باشا فضلا بعد أن جرأته على المقاومة ووعدته بالمساعدة هاج الرأي العام على المسيو تيرس المعضد لهذه السياسة التي عادت على مصر بالضرر العظيم حتى التزم بالاستعفاء في يوم ٢٣ رمضان سنة ١٢٥٦ الموافق ٢٩ اكتوبر سنة ١٨٤٠ لكن لم يجد استعفاؤه لمصر نفعاً لوقوفها بمفردها أمام أربع دول من أعظم الدول شأناً وأعلاها مكانة وأكثرها قوة اذ أرسلت فرنسا أوامرها لدونانمتها أولا بالانسحاب الى مياه اليونان ثم بالعودة الى فرنسا وترك مصر والشام لمراكب انكلترا يحرق مينها بقذوفاتها الجهنمية

وكان رجوع الدونانمة الفرنساوية في ١٩ اكتوبر سنة ١٨٤٠ أي قبل استعفاء المسيو

تيرس بعشرين يوما

هذا ولم تشترك الدول الاربع فى محاربة محمد على باشا بل قامت انكلترا وحدها بهذا العمل وساعدتها النمسا والدولة ببعض مراكبها وعساكرها البرية للنزول الى البر اذا اقتضى الحال ذلك

وأما دولة البروسيا فلم يكن لها مراكب اذذاك والروسيا لم ترد الابتعاد عن القسطنطينية

ولما وصل الى سليمان باشا بلاغ الكومودور نابير وعلم بمنشوراته للاهالى أعلن فى الحال بجعل البلاد تحت الاحكام العسكرية وذلك خوفاً من قيام الجبليين اتباعاً لمشورة الانكليز وأدخل فى مدينة بيروت العدد الكافى من الجند وأرسل لابراهيم باشا أن يحضر اليه بجيشه الذى كان معسكراً بقرب مدينة (بعلبك) ليشتركا فى المدافعة عن مين الشام فوصل ابراهيم باشا الى بيروت وعسكر فى ضواحيها وفى ١٢ رجب سنة ١٢٥٦ الموافق ٩ سبتمبر سنة ١٨٤٠ وصل الاميرال (ستوبفورد) الذى كان يجول بمراكبه أمام الاسكندرية الى مياه بيروت ليشترك مع الكومودور نابير فى اطلاق المدافع على مين الشام وفى اليوم التالى وصلهما العساكر البرية وكانت مؤلفة من ألف وخمسمائة من البيادة الانكليزية وثمانية آلاف بين أتراك وأرنؤود

وفى يوم ١٤ رجب الموافق ١١ سبتمبر أنزلت هذه العساكر الى البر فى نقطة تبعد نحو ستة أميال فى شمال بيروت ولم يتمكن ابراهيم باشا من منعهم لوجود هذه النقطة تحت حماية المدافع الانكليزية

وفى ظهر ذلك اليوم بعد نزول هذه العساكر الى البر أرسل الى سليمان باشا بلاغ من الاميرالين الانكليزى والنمساوى بان يخلى مدينة بيروت حالا فطلب منهم مسافة أربع وعشرين ساعة كى يتداول مع ابراهيم باشا فى هذا الامر الجلل فلم يقبل طلبه وابتدأ فى اطلاق المدافع على المدينة واستمر اطلاقها حتى المساء وابتدىء أيضاً فى اليوم التالى قبل الفجر ولم تقطع الا بعد هدم أوحرق أغلب المدينة وأحرقت كذلك كل الثغور الشامية قصد استخلاصها من محمد على باشا وارجاعها الى الدولة العلية كما كانت مع ان محمد على باشا لم يأت بامر يدل على رغبته فى الخروج من تحت ظل الراية العثمانية بل لم يزل مؤكداً اخلاصه وولاءه للدولة ولم يطلب الا بقاء هذه الولايات له ولذريته مع تبعيتهم للباب العالى ودفعهم الخراج له اعترافا ببقاء تلك التبعية ولولا تقلب الاحوال بينه وبين السلطان لتم بينهما الاتفاق على أحسن وفاق وحقنت دماء العباد ويدل على رغبة الطرفين فى ذلك ارسال الباب العالى ساريم بيك أولا وعاكف أفندى ثانياً الى محمد على باشا لحل هذه المسالة

ولا يخفى ان محمد على باشا هو الذى خلص مصر من فئة المماليك الباغية ونشر بجميع جوانبها لواء الامن وتسبب فى ازدياد الزراعة ونمو التجارة حتى توفرت لمصر أسباب التمدن وتيسر بهذه الكيفية لقوافل التجارة الاوروباوية المرور بين الاسكندرية والسويس

بدون خوف من تعدّى أحد عليها وله الفضل أيضاً فى استئصال شأفة الوهابيين من بلاد العرب واعادة الامن الى طريق الحجاج واستخلاص مدينتى مكة والمدينة منهم بعد أن استحال اذلالهم على أيدى العساكر الشاهانية فضلاً عن انه هو الذى فتح بلاد الروم ولولا ماحصل لاعادها الى الدولة العلية بعد ما يئست من رجوعها اليها وهو الذى أعاد الامن الى ربوع الشام بعد احتلاله لها ومنع تعدّى البدو على الحضر كما أنه أبطل القتال المستمر الذى كان لا ينقطع دائماً بين الدروز والمارونية الامر الذى لم يحصل مثله قبل احتلاله ولا بعده (١) وقد انحرف الامير الكبير بشير عن موافقة ابراهيم باشا بعد ان حافظ على ولائه مدة رغبة فى أن يعطى له من لدن الباب العالى اسم أمير الجبل وينادى له بذلك على رؤوس الاشهاد فانعكس عليه امره وعاد عليه شؤم خيانته فعزل عن امارة الجبل والزم بمفارقة الشام فانتبه من غفلته وندم على ما كان منه حيث لا ينفعه الندم ثم اوصلته احدى السفن الانكليزية الى بيروت فقابله هناك الاميرال ستوبفورد وبعد ان عنفه على تذبذبه الذى حصل منه ونفاقه الذى ادّاه الى ان يتبع الاقوى شوكة وعدم حفظه للعهود امر بارساله وتابعيه مع قليل من عائلته الى جزيرة مالطه ولم يجبه الى ماطلبه من ارساله الى ايطاليا أو فرنسا فوصل هذه الجزيرة فى ٦ رمضان سنة ١٢٥٦ الموافق أول نوفمبر سنة ١٨٤٠ وكان عمره اذ ذاك خمسا وثمانين سنه ومضى ما بقى من عمره مفكراً فى أسباب زوال النعمة وسوء عاقبة التذبذب وأن الاحوط للانسان والاجدر به أن يحافظ على عهوده لانه لو مات مع المحافظة عليها لمات بالشرف والمجد ولو عاش مع الخيانة والتلوّن لعاش مع الفضيحة والعار وتوفى فى سنة ١٢٦٧ الموافقة سنة ١٨٥٠ فى القسطنطينية ودفن فى غلطه

اخلاء المصريين لبلاد الشام

هذا ولنقل بالاختصار أن المراكب الانكليزية والعساكر المختلطة التى أنزلت الى البر فى عدة مواضع تمكنت من أخذ جميع المدن الواقعة على البحر واخراج المصريين منها حتى لم ير محمد على باشا بدأ من الاذعان الى مطالب أوروبا وأنه من العبث المحض مقاومة الدول المتحدة فأصدر أوامره الى ولده ابراهيم باشا بعدم تعريض عساكره للقتال والموت بلا فائدة وباستدعاء الجنود المعسكرة فى حدود الشام والانجلاء عنها مع اتخاذ أنواع الاحتراس الكلى من العرب وسكان الجبل فبلغ ابراهيم باشا هذه الاوامر الى القوّاد جميعهم وأخذ الجنود فى الرجوع من كل فج وصاروا يتجمعون حول قائدهم الاعظم الذى قادهم غير مرة الى النصر والظفر وبعد ذلك قسم الجيش عدّة فرق كل منها تحت امرة أحد ممن اشتهر من القوّاد بالبسالة والتبصر فى عواقب الامور وسار الكل راجعين الى مصر تاركين البلاد التى سفكوا فيها دماءهم وتركوا فيها قبور اخوانهم

(١) أريد بذلك ماحصل في بلاد الشام من تعدى الدروز على المارونية بل وعلى كافة المسيحيين من الطوائف الاخر سنة ١٨٦٠ وقتلهم اياهم واحراقهم بيوتهم وانتهاكهم حرمة كنائسهم وعرض نسائهم ولولا حماية عبد القادر الجزائرى لنصارى دمشق لقتلوا عن آخرهم الامر الذى أوجب تداخل فرنسا واحتلال عساكرها البلاد الشامية مدة سنتين تقريبا ولولا نزاهة نابليون الثالث لصار هذا الاحتلال أبديا

وكان ابتداء الجيش في الرجوع الى مصر في شوال سنة ١٢٥٦ الموافق أواسط شهر ديسمبر سنة ١٨٤٠ ووصل الكل الى القاهرة بعد ان ذاقوا مرارة النصب وتحملوا أنواع الذل والتعب وقاسوا شديد الوصب مما تكل عن وصفه الاقلام ولا تحيط بنعته الاوهام ويكدر الاذهان فضلا عن موت كثير منهم في الطريق بسبب مناوشات العرب الذين زادت قحتهم وجراءتهم لما تحققوا عدم تمكن المصريين من العودة وراءهم واقتفاء آثارهم ومع ذلك فقد تمكن سليمان باشا من ارجاع مائة وخمسين مدفعا بخيولها الى مصر وكثير من خيول السوارى التي هلك قسم عظيم منها بسبب العطش وشدة التعب

وأما ابراهيم باشا وفرقته فلم يمكنهم العودة الى القاهرة من طريق صحراء العريش لشدة ما لاقوه أثناء مرورهم في فلسطين من معارضة العرب لهم وسدهم الطريق عليهم واحتلالهم جميع القناطر المبنية على الانهر حتى اضطر لمحاربتهم في كل يوم بل وفي كل ساعة

وأخيراً وصل مدينة غزة بعد أن استشهد في الطريق ثلاثة أرباع من معه وكثير من المستخدمين الملكيين الذين أرادوا الرجوع الى وطنهم مع عائلاتهم فلما وصل غزة كتب لوالده اشعاراً بقدومه وطلب منه ارسال ما يلزم له من المراكب لنقل فرقته الى الاسكندرية وما يلزم لمؤونتهم وملبسهم

وفي أثناء هذه المدة عرض الكومودور نابير على محمد على باشا أن الحكومة الانكليزية تسعى لدى الجانب العالي في اعطاء مصر له ولورثته لو تنازل عن الشام ورد الدونانمة التركية الى الدولة العلية فامتثل لهذا الامر وقبل هذه الشروط لحفظ مصر لذريته وتم بينهما الاتفاق في ٢ شوال سنة ١٢٥٦ الموافق ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤٠

ولم يقبل الباب العالي هذا الاتفاق الا بعد تردد واحجام وتداول عدة مخاطبات بينه وبين وكلاء الدول الاربع المتحدة المجتمعين بمدينة لوندره بصفة مؤتمر وصدر بذلك فرمان همايوني في تاريخ ٢١ ذى القعدة سنة ١٢٥٦ الموافق ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ هذه نصه نقلا عن قاموس دلاد

رأينا بسرور ما أعرضتموه من البراهين على خضوعكم وتأكيدات أمانتكم وصدق عبوديتكم لذاتنا الشاهانية ولمصلحة بابنا العالي فطول اختباركم وما لكم من الدراية بأحوال البلاد المسلمة ادارتها اليكم من مدة مديدة لا يتركان لنا ريبا بأنكم قادرون بما تبدونه من الغيرة والحكمة في ادارة شؤون ولايتكم على الحصول من لدنا الشاهاني على حقوق جديدة في تعطفاتنا الملوكية وثقتنا بكم فتمدرون في الوقت نفسه احساناتنا اليكم قدرها وتجتهدون ببث هذه المزايا التي أمرتم بها في أولادكم وبمناسبة ذلك صممنا على تثبيتكم في الحكومة المصرية المبينة حدودها في الخريطة المرسومة لكم من

لدن صدرنا الاعظم ومنحنا كم فضلا على ذلك ولاية مصر بطريق التوارث بالشروط الآتى بيانها .

متى خلا منصب الولاية المصرية تعهد الولاية الى من تنتخبه سدتنا الملوكية من أولادكم الذكور وتجرى هذه الطريقة نفسها بحق أولاده وهلم جرا واذا انقرضت ذريتكم الذكور لا يكون لاولاد نساء عائلتكم الذكور حق أيا كان فى الولاية وارثها ومن وقع عليه من أولادكم الانتخاب لولاية مصر بالارث بعدكم يجب عليه الحضور الى الاستانة لتقليده الولاية المذكورة على أن حق التوارث الممنوح لوالى مصر لا يمنحه رتبة ولا لقباً أعلى من رتبة سائر الوزراء ولقبهم ولا حقاً فى التقدم عليهم بل يعامل بذات معاملة زملائه وجميع أحكام خطنا الشريف الهمايونى الصادر عن كلخانة وكافة القوانين الادارية الجارى العمل بها أو تلك التى سيجرى العمل بموجبها فى ممالكنا العثمانية وجميع العهود المعقودة أوالتى ستعقد فى مستقبل الايام بين بابنا العالى والدول المتحابة يتبع الاجراء على مقتضاها جميعها فى ولاية مصر أيضاً وكلما هو مفروض على المصريين من الاموال والضرائب يجرى تحصيله باسمنا الملوكى .

ولكى لا يكون أهالى مصر وهم من بعض رعايا بابنا العالى معرضين للمضار والاموال والضرائب غير القانونية يجب أن تنظم تلك الاموال والضرائب المذكورة بما يوافق حالة ترتيبها فى سائر الممالك العثمانية وربع الايرادات الناتجة من الرسوم الجمركية ومن باقى الضرائب التى تحصل فى الديار المصرية تحصل بتمامه ولا يخصم منه شىء ويؤدى الى خزينة بابنا العالى العامرة والثلاث أرباع الباقية تبقى لولايتكم لتقوم بمصاريف التحصيل والادارة المدنية والجهادية وبنفقات الوالى وبأثمان الغلال الملزومة مصر بتقديمها سنويا الى البلاد المقدسة ( مكة والمدينة ) ويبقى هذا الخراج مستمراً دفعه من الحكومة المصرية بطريقة تأديته المشروحة مدة خمس سنوات تبتدىء من عام ١٢٥٧ أى من يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٤١ ومن الممكن ترتيب حالة أخرى يشأنهم فى مستقبل الايام تكون أكثر موافقة لحالة مصر المستقبلة ونوع الظروف التى ربما تجد عليها .

ولما كان من واجبات بابنا العالى الوقوف على مقدار الايرادات السنوية والطرق المستعملة فى تحصيل العشور وباقى الضرائب وكان الوقوف على هذه الاحوال يستلزم تعيين لجنة مراقبة وملاحظة فى تلك الولاية فينظر فى ذلك فيما بعد ويجرى ما يوافق لارادتنا السلطانية .

ولما كان من اللزوم أن يعين بابنا العالى ترتيباً لصك النقود لما فى ذلك من الاهمية بحيث لا يعود يحدث فيها خلاف لا من جهة العيار ولا من جهة القيمة اقتضت ارادتى السنية أن تكون النقود الذهبية والفضية الجائز لحكومة مصر ضربها باسمنا الشاهانى معادلة للنقود المضروبة فى ضربخانتنا العامرة بالاستانة سواء كان من قبيل عيارها أو من

قبيل هيئتها وطرزها

ويكفى أن يكون لمصر فى أوقات السلم ثمانية عشر ألف نفر من الجند للمحافظة فى داخلية مصر ولا يجوز أن تتعدى ولا يتكم هذا العدد ولكن حيث أن قوّات مصر العسكرية معدّة لخدمة الباب العالى كاسوة قوّات المملكة العثمانية الباقية فيسوغ أن يزاد هذا العدد فى زمن الحرب بما يرى موافقاً فى ذلك الحين على أنه بحسب القاعدة الجديدة المتبعة فى كافة ممالكنا بشأن الخدمة العسكرية بعد أن تخدم الجند مدّة خمس سنوات يستبدلون بسواهم من العساكر الجديدة فهذه القاعدة يجب اتباعها أيضاً فى مصر بحيث ينتخب من العساكر الجديدة الموجودة فى الخدمة حالا عشرون ألف رجل ليبدؤا الخدمة فيحفظ منها ثمانية عشر ألف رجل فى مصر وترسل الالفان لهنا لاداء مدّة خدمتهم وحيث ان خمس العشرين ألف رجل واجب استبدالهم سنويا فيؤخذ سنويا من مصر أربعة آلاف رجل حسب القاعدة المقررة من نظام العسكرية حين سحب القرعة بشرط أن تستعمل فى ذلك مواجب الانسانية والنزاهة والسرعة اللازمة فيبقى فى مصر ثلاثة آلاف وستمائة جندى من الجنود الجديدة والاربعمائة يرسلون الى هنا ومن أتمّ خدمته من الجنود المرسلة الى هذا الطرف ومن الجنود الباقية فى مصر يرجعون الى مساكنهم ولا يسوغ طلبهم للخدمة مرّة ثانية ومع كون مناخ مصر ربما يستلزم أقمشة خلاف الاقمشة المستعملة لملبوسات العساكر فلا بأس من ذلك فقط يجب أن لا تختلف هيئة الملابس والعلائم التميزية ورايات الجنود المصرية عن مثلها من ملابس ورايات باقى الجنود العثمانية وكذا ملابس الضابطان وعلائم امتيازهم وملابس الملاحين وعساكر البحرية المصرية ورايات سفنها يجب أن تكون مماثلة لملابس ورايات وعلائم رجالنا وسفننا

وللحكومة المصرية أن تعين ضابطان بريّة وبحرية حتى رتبة الملازم أما ما كان أعلى من هذه الرتبة فالتعيين اليها راجع لارادتنا الشاهانية

ولا يسوغ لوالى مصر أن ينشىء من الآن فصاعداً سفنا حربية الا باذننا الخصوصى

وحيث ان الامتياز المعطى بوراثة ولاية مصر خاضع للشروط الموضحة أعلاه فعدم تنفيذ أحد هذه الشروط موجب لابطال هذا الامتياز والغائه للحال و بناء على ذلك قد أصدرنا خطنا هذا الشريف الملوكى كى تقدّروا أنتم وأولادكم قدر احساننا الشاهانى فتعتنوا كل الاعتناء باتمام الشروط المقرّرة فيه وتحموا أهالى مصر من كل فعل اكراهى وتكفلوا أمنيتهم وسعادتهم مع التحذر من مخالفة أوامرنا الملوكية واخبار بابنا العالى عن كل المسائل المهمة المتعلقة بالبلاد المعهودة ولايتها لكم اه

ولقد منحه الباب العالى أيضاً ولايات النوبة ودارفور وكردفان وسنار مدّة حياته بدون أن تنتقل الى ورثته كمصر بمقتضى فرمان شاهانى أصدر فى اليوم الذى أصدر فيه الفرمان

الاول أعنى فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ هذا نصه

ان سدّتنا الملوكية كما توضح فى فرماننا السلطانى السابق قد ثبتتكم على ولاية مصر بطريق التوارث بشروط معلومة وحدود معينة وقد قلدتكم فضلا على ولاية مصر ولاية مقاطعات النوبة ودارفور وكردفان وسنار وجميع توابعها وملحقاتها الخارجة عن حدود مصر ولكن بغير حق التوارث فبقوّة الاختبار والحكمة التى امتزتم بها تقومون بادارة هاته المقاطعات وترتيب شؤونها بما يوافق عدالتنا وتوفير الاسباب الآيلة لسعادة الاهلين وترسلون فى كل سنة قائمة الى بابنا العالى حاوية بيان الايرادات السنوية جميعها

وحيث أنه يحدث من وقت لآخر أن تهجم الجنود على قرى المقاطعات المذكورة فيأسرون الفتيان من ذكور وأناث و يبقونهم فى قبضة يدهم لقاء رواتبهم وحيث ان هذه الامور مما تفضى معها الحال ليس فقط لانقراض أهالى تلك البلاد وخرابها بل انها أمور مخالفة للشريعة الحقة المقدّسة وكلا هاتين الحالتين ليست أقل فظاعة من أمر آخر كثير الوقوع وهو تشويه الرجال ليقوموا بخفر الحريم ذلك مما لا ينطبق على ارادتنا السنية مع مناقضته كل المناقضة لمبادئ العدل والانسانية المنتشرة من يوم جلوسنا المأنوس على عرش السلطنة العلية فعليكم مداركة هذه الامور بما ينبغى من الاعتناء لمنع حدوثها فى المستقبل ولا يبرح عن بالكم ان فيما عدا بعض أشخاص توجهوا الى مصر على أسطولنا الملوكى قد عفوت عن جميع الضابطان والعساكر وقى المامورين الموجودين فى مصر نعم ان بموجب فرماننا السلطانى السابق تسمية الضابطان المصرية لما فوق رتبة المعاون يستلزم العرض عنها لاعتابنا الملوكية الا أنه لا باس من ارسال بيان باسم من رقيتم من ضباط جنودكم الى بابنا العالى كى ترسل لهم الفرمانات المؤذنة بتثبيتهم فى رتبهم هذا ما نطقت به ارادتنا السامية فعليكم الاسراع فى الاجراء على مقتضاها اه

فقبل محمد على باشا كل هذه الشروط ولو عن غير رضاء ثم طلب من الدول أن تساعده فى تخفيف بعضها وتغيير البعض الآخر فقبلت ذلك وأرسلت الى الباب العالى لائحة بتاريخ ١٣ مارث سنة ١٨٤١ طلبت منه بها أن يعادله على حسب ماهو مدوّن بملحق معاهدة ١٥ يوليه سنة ١٨٤٠ و بلائحة ٣٠ ينايرسنة ١٨٤١ فتنازلت الحضرة السلطانية بمقتضى لائحة أرسلت للدول بتاريخ ١٩ أبريل سنة ١٨٤١ بتحوير فرمانها الصادر فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ هذه صورتها

ان الحضرة السلطانية الفخيمة تلقت ما تعطفت عليها به الدول المتحالفة من النصائح هذه الدفعة أيضاً و بمناسبتها قد منحت محمد على باشا احساناً جديداً هو التكرم منها باعطائه الامتيازات الآتية ولكنها قد اشترطت عليه الانقياد التام الى جميع الوثائق والمعاهدات المبرمة حالا والتى ستبرم استقبالا فيما بين الباب العالى والدول المتحالفة وعلى ذلك أصبحت

ولاية مصر تنتقل بالارث لمحمد على باشا وأولاده وأولاد أولاده الذكور بصورة أن يتولى الاكبر فالاكبر فيقلده الباب العالى منصب الولاية كل ماخلا هذا المنصب من وال وقد تنازل الباب العالى عن استيلائه على ربع ايرادات مصر وسيعين فيما بعد قيمة الخراج الواجب على ولاية مصر دفعه وترتيب مقداره وطريقة تحصيله بما يناسب حالة ايرادات الولاية اما عما خص التسميات فى الرتب المختلفة فى العسكرية المصرية فرخص لمحمد على باشا أن يمنحها من نفسه حتى رتبة الاميرالاى فقط أما التسمية لما فاق على هذه الرتبة فيجب عليه أن يعرض بشانه الى الباب العالى

أما ما كان متعلقاً بالادارة الداخلية وكان اتباعه واجباً فى مصر كاتباعه فى سائر الممالك العثمانية فيظهر ان محمد على باشا لا يرغب التكلم بشأنه بما ينبغى من الصراحة مع كونه قد سبق تقرير ذلك فى العقد المفرد التابع لمعاهدة المحالفة ولكن كى لا يدع الباب العالى سبيلا للدول المتحالفة بالتضرر منه بامر من الامور كما لو حدث ان ارتكب محمد على فى المستقبل أعمالا مخالفة لنقطة مهمة مسندة على المعاهدة المحكى عنها قد قرّر وزراء الباب العالى والحالة على ماذكر أمراً شديد الاهمية هو أن تطلب بادىء بدء الايضاحات والتقريرات الصريحة بهذا الصدد ولذلك تحرر هذا لسعادتكم ارجاء اعطاء الايضاحات والتقريرات المذكورة من قبلكم خطا اه

ولما أقرّت الدول على هذا التحوير بمقتضى لائحة تاريخها ١٨ ربيع الاول سنة ١٢٥٧ الموافق ١٠ مايو سنة ١٨٤١ اصدرت الحضرة الشاهانية فرمانا آخر فى ١١ ربيع آخر سنة ١٢٥٧ الموافق أوّل يونيو سنة ١٨٤١ مؤيداً لما فى الفرمان السابق وفى غرّة جمادى الآخر سنة ١٢٥٧ الموافق ٢٠ يوليو سنة ١٨٤١ صدر فرمان آخر بجعل مقدار ماتدفعه الحكومة المصرية الى الدولة العلية سنويا ثمانين ألف كيسة (١)

ثم أخذت فرنسا وانكلترا تسعيان فى ابطال شروط معاهدة (خونكاراسكله سى) القاضية بان يكون لمراكب الروسيا حق المرور من بوغازى البوسفور والدردنيل فى أى

---

(١) واستمر دفع الخراج بهذه الكيفية لغاية سنة ١٢٨٢ ه ثم زيد مقداره الي مائة وخمسين ألف كيسة أعنى ٧٥٠٠٠٠ جنيه عثمانى بمقتضي فرمان صادر بتاريخ ١٢ محرم سنة ١٢٨٣ الموافق ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ عقب تنازل الدولة العلية لمصر عن مدينتى سواكن ومصوع ومديرية التاكة وتغيير ترتيب الوراثة في خديوية مصر في عهد الخديوى الاسبق المرحوم اسمعيل باشا بان حصرت الوراثة في الاكبر من أولاده ثم أولاد الاكبر ثم في أخوته عند عدم وجود ولده ثم أولاد الاخوة على هذا الترتيب وفي أول يوليو سنة ١٨٧٥ الموافق ٢٧ جمادى الاولي سنة ١٢٩٢ صدر فرمان بتحويل ادارة مدينة زيلع الي الخديوى المرحوم اسمعيل باشا بزيادة خمسة عشر جنيها عثمانيا علي الجزية وفي ١٠ شعبان سنة ١٣٠٨ صدر أمر عال من الخديو المرحوم توفيق باشا بالتعهد عن نفسه وعن خلفائه في الحال والاستقبال بان تدفع الحكومة المصرية للخواجات روتشيلد وأولاده بلوندره وروتشيلد اخوان بباريس والبنك الملوكانى العثماني من أصل الويركو الواجب علي الحكومة المصرية للحضرة الشاهانية مبلغ    بنس شلن جنيه انكليزى
سنويا لمدة ستين سنه تبتدىء من ١٠ ابريل سنة ١٨٩١    ٤   ١٨   ٢٨٠٦٢٢

وقت شاءت

وبعد مخابرات طويلة اتفقت الدول أجمع بما فيها الروسيا على أن لا يكون لاحداهن هذا الحق مطلقاً بل تبقى بوغازات الاستانة مقفلة امام جميع الدول وأمضيت بذلك معاهدة بتاريخ ٢٣ جمادى الاولى سنة ١٢٥٧ الموافق ١٣ يوليو سنة ١٨٤١ بين الباب العالى والنمسا وفرنسا وبريطانيا العظمى والروسيا والبروسيا دعيت بمعاهدة البوغازات وبذلك تساوت الروسيا بباقى الدول وفقدت كل ما اكتسبته بمساعيها السابقة وهاك صورة هذه المعاهدة

﴿ البند الاوّل ﴾ ان جلالة السلطان يعلن عزمه وتصميمه على حفظ واتباع القاعدة القديمة فى المستقبل التى بموجبها منعت جميع مراكب الدول الاجنبية الحربية من المرور من بوغازى البوسفور والدردنيل وانه مادام فى حالة السلم لا يسمح لاى مركب حربية أجنبية بالمرور من هذين البوغازين

ويعلن كل من جلالة امبراطور النمسا وملك المجر وبوهميا وملك الفرنساويين وملكة بريطانيا العظمى وارلانده المتحدة وملك البروسيا وامبراطور جميع الروسيا باحترام هذا العزم الصادر من جلالة السلطان واتباع القاعدة المقررة سابقاً

﴿ البند الثانى ﴾ وقد تقرر انه مع الاقرار بعدم جواز مس هذه القاعدة المقررة قديماً فان السلطان يحفظ لنفسه الحق كما كان له ذلك فى السابق فى اصدار فرمانات بجواز مرور بعض السفن الحربية الخفيفة لتكون فى خدمة سفارات الدول المتحابة

﴿ البند الثالث ﴾ وكذلك يحفظ جلالة السلطان لذاته الشريفة الحق فى تبليغ صورة هذا الاتفاق لجميع الدول التى بينها وبين الباب العالى العثمانى صلة مودّة ودعوتهم الى القبول باحكامه

﴿ البند الرابع ﴾ يصير التصديق على هذا الاتفاق فى مدينة لوندره وتتبادل التصديقات عليه بعد شهرين أو قبل ذلك ان أمكن

وبمقتضى ذلك قد أمضاه مندوبو الدول المذكورة وبصموا عليه أختامهم

تحريراً فى مدينة لوندره فى ١٣ يوليو سنة ١٨٤١ ميلاديه        الامضاآت

## ﴿ مسئلة لبنان ومقتلة المارونية ﴾

بمجرد اخلاء الجيوش المصرية لبلاد الشام وجبال لبنان وعدم شعور سكانها بسطوة ابراهيم باشا وبطشه تحركت فيهم العداوة الدينية القديمة الكامنة فى نفوسهم خوفاً من شدة بأس ابراهيم باشا وعدم رأفته فى معاقبتهم وزادت الدسائس الاجنبية لاضرام نار الشقاق وبذر الفتن الداخلية توصلا لغاياتهم الشخصية فكانت فرنسا مساعدة للمارونية الكاثوليك وانكلترا معضدة للدروز ضدّهم لتلجئهم على ترك المذهب الكاثوليكى واعتناق المذهب البروتستانتى فيدخلوا بذلك تحت حمايتها الفعلية ولم يعد لفرنسا حجة لحمايتهم لسبب

مذهبي وظن كل فريق من هؤلاء التعساء أن الدولة التى تغرّره تود صلاح حاله وترقيه فى المدنية ولم تفقه لدخائل هذه السياسة الخبيثة التى لا يتأخر أصحابها أمام اهراق دماء الابرياء توصلا لمآربهم

وبهذه الدسائس ساد الهياج فى جميع أنحاء لبنان وظهر ما تكنه صدور سكانه من الاحقاد الجنسية والدينية حتى تعدّى الدروز على المارونية فى سنة ١٢٥٧ هجرية الموافقة سنه ١٨٤١ ودخلوا دير القمر وارتكبوا فيه ما تقشعر منه الابدان من النهب والسلب وقتل النساء والولدان وسبي الحرائر ولولا تداخل الجيوش بشدّة لامتدّت الثورة

لكن لم يرق ذلك فى أعين أرباب الغايات بل ما انفكوا يوالون دسائسهم ويلقون بذور الفساد ويتعهدونها بالمداومة والمثابرة حتى قام الدروز ثانية فى سنة ١٢٦١ هجرية الموافقة سنة ١٨٤٥ وقتلوا المسيحيين وتعدّوا على قسس الكاثوليك الفرنساويين وقتلوا رئيس أحد الاديرة واسمه (شارل دى لوريت) واثنين من رهبان الدير وحرقوا جثثهم ثم أضرموا النار فى الدير حتى صار قاعاً صفصفاً بعد ان نهبوا كل ما به من المنقولات والامتعة بدون أن يحصل أقل أذى للمرسلين البروتستانت الامريكانيين والانكليز الامر الذى يدل دلالة واضحة على أن هذه المذابح لا تخلو من تأثيرهم حتى يثبتوا المارونية الكاثوليك انهم لو اعتنقوا المذهب البروتستانتى لا يلحقهم ضرر ويصيرون فى مأمن من تعدى الدروز فيستميلونهم للتمذهب بمذهبهم ولا يبقى لفرنسا وجه لحمايتهم وبسبب هذه الاضطرابات المتعاقبة لم ير الباب العالى بداً من التداخل فى ادارة الجبل لمنع هذه الفتن فعزل الامير بشير الشهابى بعد خروج العساكر المصرية من الشام كما مر وعين مكانه والياً عثمانياً وأبطل بذلك جميع امتيازات سكان الجبل الممنوحة لهم قديماً بمقتضى عدة معاهدات وما منح لهم أخيراً باتفاق الدول عقب جلاء العساكر المصرية عنه لتحققه أن وجود الشعوب المختلفة القاطنة به تحت حكم وال واحد أقطع للمفاسد وأمنع لظهور الضغائن الدينية بين الموارنة والدروز فلم تقبل الدول ذلك بل اضطر الباب العالى بناء على مساعيها أن يعيد للجبل بعض امتيازاته واتفق مع سفراء الدول على أن يكون للوالى العثمانى قائماً مقام أحدهما مارونى والآخر درزى يتولى كل منهما النظر فى شؤون أبناء جنسه وذلك فى سنة ١٢٥٨ هجرية الموافقة سنة ١٨٤٢

لكن لم تنجح هذه الطريقة أيضاً لاختلاط سكان بعض القرى من موارنه ودروز فسلخ الباب العالى اقليم الجبائل الآهل بالموارنة من حكومة الجبل وضمه الى ولاية طرابلس بلا امتيازات كباقى أقاليم الجبل فعارض بطرق الموارنه فى ذلك وأرسل الى جميع القناصل يحتج ضدّ هذا العمل المنافى للاتفاق الاخير مدعياً أن الدولة لم ترد بذلك الا اضعاف العنصر المارونى وتقوية العنصر الدرزى فبناء على هذه الشكوى أرسل الباب العالى بصفة وال على الشام رجلا اتصف بالاستقامة واصالة الرأى يدعى أسعد باشا للنظر فى تسوية هذه المسئلة فارتأى ضرورة اعادة الامير بشير الشهابى الى امارة الجبل كما كان فلم يقبل الباب

العالى هذا الحل وانتدب آخر يدعى خليل باشا لتحقيق تشكيات الطرفين وتقديم تقرير عما يراه حاسما للنزاع فاختلف مع أسعد باشا فى الرأى وقال بافضلية اعتبار جبل لبنان كباقى الولايات العثمانية بدون أدنى امتياز

ولعدم قبول القناصل بهذا الرأى اتفقوا أخيراً فى غضون سنة ١٢٥٩ هجرية الموافقة سنة ١٨٤٣ على أن يعين فى القرى المختلطة وكيلان أحدهما درزى والآخر مارونى ويكون كل منهما تابعاً للقائم مقام الذى على مذهبه فلم يقبل الدروز الا أن يكون لهم السيادة على المارونية فى الجهات المختلطة وهؤلاء آثروا التبع لاحدى الولايات العثمانية المحضة على أن يكونوا تحت سيادة الدروز

واستحسن الباب العالى هذا الرأى الاخير لكن لم يرق ذلك فى أعين الدروز ولا فى أعين المغرين لهم فهاجوا ثانياً وقاموا على المارونية وحصلت مذبحة جمادى الاولى سنة ١٢٦١ هجرية الموافق سنة ١٨٤٥ السابق ذكرها فارسلت الدولة جيوشها واحتلت البلاد سهلا وجبلا بصفة عسكرية وأجرت فيها الاحكام العرفية ثم دارت المخابرات بين الدول العظمى والباب العالى لتقرير مايضمن السلام فى الحال والاستقبال فاجتمعت آراؤهم أخيراً بعد مداولات طويلة وأخذ ورد على أن يبقى فى القرى المختلطة وكيلان درزى ومارونى ويعين لكل من القائمى مقام مجلس يشاركه فى الادارة مع بقائه تحت رئاسته ويشكل كل من هذين المجلسين من عشرة أعضاء خمسة قضاة وخمسة مستشارين اثنان منهما من الدروز واثنان من المارونية واثنان من المسلمين واثنان من الملكيين واثنان من المتمذهبين بمذهب الاروام الارثوذكس ويكون من اختصاصها توزيع الضرائب بالسواء بدون نظر الى اختلاف دين أو مذهب أما تحصيلها فيكون بمعرفة القائمى مقام ووكلائهما فى القرى والضياع

ومن اختصاصهما أيضاً النظر فى القضايا الحقوقية والجنائية وان امتنع مندوب أى طائفة عن الاقرار على قائمة توزيع الضرائب بدعوى أنها مجحفة بحقوق أبناء طائفتهم يرفع الامر للوالى العثمانى فيحكم فيها نهائياً وقبل تنفيذ أحكامها يمضى عليها القائم مقام المختص وجعل راتب كل عضو من أعضاء المجلسين ألف وخمسمائة فرنك فى السنة وراتب القائم مقام ٤٨ ألف فرنك سنوياً وكل من وكلائه ألف وثمانمائة فرنك

وبذا انتهت مسئلة لبنان مؤقتاً بما أن الدروز لم يقبلوا هذه التسوية الا مؤملين نوال زيادة عما فيها طبقاً لوساوس مندوبى انكلترا لهم بانها ستمنحهم مع الوقت السيادة على جميع الشعوب الساكنة بلبنان واستمرت الفتن جارية مجراها حتى حصلت مذبحة سنة ١٢٧٧ هـ (سنة ١٨٦٠) وتداخلت فرنسا عسكريا لحماية المارونية وانسحبت ثانياً بعد توطيد الامن وحفظ حقوق الموارنة كما سيجىء

الاصلاحات الداخلية

هذا وسار السلطان عبد المجيد خان على خطة والده المرحوم السلطان الغازى محمود خان فى الاصلاحات الداخلية حتى تجارى الدولة العثمانية باقى الدول فى التمدن والعمران

فاصدر عقب توليته منصب الخلافة العظمى بقليل أمراً سامياً قرىء علناً فى جمهور من الوزراء والاعيان فى يوم ٢٦ شعبان سنة ١٢٥٥ هـ الموافق ٣ نوفمبر سنة ١٨٣٩ وهذا نصه مترجماً من كتاب أحمد مدحت المسمى ( أس انقلاب )

فرمان الكلخانه

لايخفى على عموم الناس ان دولتنا العلية من مبدأ ظهورها وهى جارية رعاية الاحكام القرآنية الجليله والقوانين الشرعية المنيفة بتمامها ولذا كانت قوة ومكانة سلطتنا السنية ورفاهية وعمارية أهاليها وصلت حدّ الغاية وقد انعكس الامر منذ مائة وخمسين سنة بسبب عدم الانقياد والامتثال للشرع الشريف ولا للقوانين المنيفة بناء على طروء الكوارث المتعاقبة والاسباب المتنوعة فتبدّلت قوتها بالضعف وثروتها بالفقر وبما أن الممالك التى لاتكون ادارتها بحسب القوانين الشرعية لايمكن أن تكون ثابتة كانت أفكارنا الخيرية الملوكية منحصرة فى عمار الممالك واتحاد ورفاهية الاهالى والفقراء من يوم جلوسنا السعيد وصار التشبث فى الاسباب اللازمة بالنظر الى مواقع ممالك دولتنا العلية الجغرافية ولاراضيها الخصبة ولاستعداد وقابلية أهاليها لتحصل بمشيئة الله تعالى الفائدة المقصودة فى ظرف خمس أو عشر سنين واعتماداً على المعونة الالهية واستناداً على الامدادات الروحانية النبوية قدرؤى من الآن فصاعداً أهمية لزوم وضع وتأسيس قوانين جديدة تتحسن بها ادارة ممالك دولتنا العلية المحروسة والمواد الاساسية لهذه القوانين هى عبارة عن الامن على الارواح وحفظ العرض والناموس والمال وتعيين الخراج وهيئة طلب العساكر للخدمة ومدّة استخدامهم لانه لايوجد فى الدنيا أعزمن الروح والعرض والناموس والمال فلو رأى انسان ان هؤلاء مهدّدون وكانت خلقته الذاتية وفطرته الاصلية لاتميل الى ارتكاب الخيانة فوقاية لحفظ روحه وناموسه لابدأن يتشبث فى بعض اجراآت للتخلص منها وهذا الامر لايخفى انه مضرّ بالدولة والملة كما انه اذا كان أميناً على ماله وناموسه لايحيد عن طريق الاستقامة وتنحصر أفكاره وأشغاله فى القيام بواجب الخدمة لدولته وملته وكما انه فى حال افقاد الامن على المال لايميل الشخص الى دولته وملته ولاينظر للانتفاع باملاكه بل كما انه لايخلو دائماً من الفكر والاضطراب فلو قدر العكس أعنى لوكان الانسان آمناً على ماله وأملاكه فلاشك أنه يشتغل باموره وتوسيع دائرة تعيشه وتتولد يوماً فيوماً عنده الغيرة على الدولة والمملكة وتزداد محبته للوطن وبهذا يجتهد فى تحسين حاله

وأما مادة تعيين الخراج فكل دولة لابد أن تكون محتاجة الى العساكر وسائر المصاريف المقتضية للمحافظة على ممالكها وهذا لاتتيسر ادارته الا بالنقود والنقود لاتتحصل الا من الخراج فلاغروان النظر الى تحسين هذه المادة من أهم الامور

هذا ولوأن أهالى ممالكنا المحروسة تخلصوا والله الحمد قبل الآن من بلوى اليد الواحدة التى كانت متسلطة على الايرادات الوهمية لكن أصول الالتزامات المضرة المعتبرة من ضمن أسباب الخراب التى لم يظهر منها ثمرة نافعة فى أىّ حال لم تزل جارية للآن وهذا يعد

كتسليم مصالح المملكة السياسية وادارتها المالية ليدرجل وبالاحرى أن نقول بوضعها
تحت قهره وجبره فانه ان لم يكن رجلا أميناً لاشك انه ينظر الى فائدته الشخصية وتكون
كل حركاته وسكناته عبارة عن غدر وظلم فيلزم بعد الآن تعيين خراج مناسب على قدر
اقتدار وأملاك كل فرد من أفراد أهالى المملكة ولا يؤخذ شىء زيادة عن المفرر من أحد
ماو تحديد وبيان سائر مصرف عساكر دولتنا العلية البرية والبحرية وكل لوازماتهم بموجب
قوانين ابحابية والاجراء بمقتضاها

وأمامسألة الجندية فلكونها من المواد المهمة حسب ماذكر ومع كونه مفروضاعلى ذمة
الاهالى تقديم العساكر اللازمة للمحافظة على الوطن لكن الجارى الآن هوعدم النظر
والالتفات الى عدد النفوس الموجودة بالبلدة بل يطلب من بعض البلدان زيادة عن تحملها
ومن البعض الآخر أنقص مما تحمل وهذا فضلا عما فيه من عدم النظام فانه موجب
لاختلال موارد منافع الزراعة والتجارة واستخدام العساكر الى نهاية العمر أمر مستلزم
لقطع التناسل فعلى تقدير طلب أنفار عسكرية من كل بلد يلزم وضع وتأسيس أصول
مستحسنة لاستخدام العساكر أربع أوخمس سنوات بطريق المناوبة والحاصل انه بدون
تدوين هذه القوانين النظامية لا يمكن حصول القوّة والعمار والراحة فان أساس جميع
ذلك هوعبارة عن المواد المشروحة ولايجوز بعد الآن اعدام وتسميم أرباب الجنح جهارا
أو خفية بدون أن تنظر دعاويهم علنا بكل دقة بمقتضى القوانين الشرعية ولايجوز مطلقا
تسلط أحد على عرض وناموس آخر وكل انسان يكون مالكا لماله وملكه ومتصرفا فيهما
بكمال الحرية ولا يمكن أن يتداخل فى أموره شخص آخر واذا فرض ورفعت تهمة على
أحد وكانت ورثته بريئى الساحة منها فبعد مصادرة أمواله لاتحرم ورثته من ميراثهم الشرعى
وتمتاز سائر تبعية دولتنا العلية من المسلمين وسائر الملل الاخرى بمساعداتنا هذه الملوكية
بدون استثناء وقد أعطيت من طرفنا الملوكى الامنية التامة فى الروح والعرض والناموس
والمال بمقتضى الحكم الشرعى لكل أهالى ممالكنا المحروسة وسيعطى القرار اللازم باتفاق
الآراء عن المواضيع الاخرى أيضاً وستزاد أعضاء مجلس الاحكام العدلية على قدر اللزوم
وتجتمع هناك وكلاء ورجال دولتنا العلية فى بعض الايام التى ستعين وجميعهم يبدون
أفكارهم وآراءهم بالحرية التامة بدون تحاش وتتقرر القوانين المقتضية المختصة بالامن
على الروح والمال وتعيين الخراج وستجرى المكالمة اللازمة عنها بدار شورى باب السر
عسكرية وكلما يتقرر قانون يعرض لطرفنا الملوكى لتتويج عاليه بخطنا الملوكى حتى يكون
دستوراً للعمل الى ما شاء الله وبما أن هذه القوانين الشرعية ستوضع لاحياء الدين والدولة
والملك والملة فسيؤخذ العهد والميثاق اللازم من قبلنا الملوكى بعدم وقوع أى حركة مخالفة
لها وسنحلف قسما بالله العظيم فى أودة الخرقة الشريفة بحضور جميع العلماء والوكلاء
وسيصير تحليفهم أيضاً وعلى هذا فكل من خالف هذه القوانين الشرعية من الوكلاء

والعلماء أو أىّ انسان كان مهما كانت صفته سيجرى توقيع الجزاآت اللازمة عليهم بدون رعاية رتبة ولا خاطر وسيصير تدوين قانون جزاء مختص بذلك ولكون كافة المامورين لهم راتب واف الآن فان وجد منهم من يكون راتبه قليلا سيصير ترقية حاله

هذا ولينظر فى مادة الرشوة الكريهة بتدوين قانون شديد لذلك لانها أعظم سبب لخراب الملك وممقوتة شرعا ولكون الاصلاحات المشروحة آنفاً ستزيل طوارئ الفقر والفاقة كلية فكما أنه سيصير اعلان ارادتنا الملوكية هذه للاستانة ولكافة أهالى ممالكنا المحروسة يلزم أن تبلغ أيضاً اسفراء الدول المتحابة الموجودين بالاستانة ليكونوا شهودا على دوام هذه الاصلاحات الى الابد ان شاء الله تعالى ونسأل مالك الممالك أن يلهمنا التوفيق جميعاً وأن يصب على كل من خالف هذه القوانين المؤسسة سوط عذاب النقمة وأن لا ينجح له أعمالا مدى الدهر آمين حرر فى يوم الاحد ٢٦ شعبان سنة ١٢٥٥

لكن أشغلته عن اتمام هذه الاصلاحات حرب الروسيا التى قامت بسبب اختلاف فرنسا والروسيا على حماية الاماكن المقدّسة باورشليم ودعيت بحرب القرم

ولما انتهت هذه الحرب أصدر السلطان فرمانا جديدا ببيان الاصلاحات المقتضى ادخالها فى الممالك المحروسة فى ١١ جمادى الآخرة سنة ١٢٧٢ الموافق ١٨ فبراير سنة ١٨٥٦ وهذا نصه مترجماً من كتاب (أس انقلاب)

الاصلاحات الخيرية

من أهمّ أفكارنا السامية سعادة أحوال كافة صنوف التبعة التى أودعها الله تعالى يدنا الملوكية المؤيدة ولما بذلناه من هممنا الملوكيه فى هذا الشان من يوم جلوسنا المقرون باليمن قد تزايد عمار وثروة ممالكتنا العلية يوماً فيوماً وشوهدت جملة فوائد نافعة ولكون تاييد وتوسيع نطاق النظامات الجديدة التى توفقنا الى الآن لوضعها وتدوينها بالموافقة للموقع العالى الحائزة له دولتنا العلية بين الدول المتمدّنة مطلوبنا ايصالها الى درجة الكمال وقد تايدت بعناية الله تعالى و بمساعى عموم تبعتنا الملوكية الجميلة و بهمة ومعاونة الدول المتحابة حقوق دولتنا العلية الخارجية ولذا فهذا العصر يعدّ بالنسبة لدولتنا العلية مبدأ زمن الخير و بما أن من أهمّ رغائبنا المجبولة على الشفقة تقدّم الاسباب والوسائل الداخلية المستلزمة تزايد قوّة سلطتنا العلية وعمار ممالكنا السنية وحصول تمام سعادة أحوال كافة صنوف تبعة دولتنا العلية الملوكية المرتبطة بعضها ببعض بروابط الوطنية القلبية والمتساوية المباهية فى نظر شفقتنا الملوكية من كل الوجوه قد أصدرنا ارادتنا الملوكية هذه باجراء الامور الآتية الذكر

وهى اتخاذ التدابير المؤثرة نحو تامين كافة التبعة الملوكية من أى دين ومذهب كانوا بدون استثناء على الروح والمال وحفظ الناموس واخراج جميع التامينات التى وعد بها بمقتضى الترتيبات الخيرية وخطنا الملوكى السابق تلاوته فى الكلخانة من حيز القوّة الى حيز الفعل

وتقرير وابقاء كافة الامتيازات والمعافيات الروحانية التى منحت وأحسن بها فى السنين الاخيرة والتى منحت من قبل أجدادنا العظام للطوائف المسيحية وكافة الملل الغير مسلمة الموجودين تحت ظل جناح عاطفتنا السامى بممالكنا المحروسة الملوكية وقد صار الشروع فى رؤية وتسوية الامتيازات والمعافيات الحالية للعيسويين وسائر التبعة الغير مسلمة فى مهلة معينة بحيث يهتمون بعرضها الى جانب بابنا العالى بعد المذاكرة بمعرفة المجالس التى تشكل بالبطريكخانات تحت ملاحظة بابنا العالى بحسب الاصلاحات التى يستدعيها الوقت وآثار المدنية المكتسبة وموافقة ارادتنا الملوكية ويصير توثيق الرخصة التى أعطيت لاساقفة الطائفة المسيحية من قبل ساكن الجنان السلطان أبى الفتح محمد خان الثانى وخلفائه العظام وما صار تأمينهم عليه من قبلنا بحسب الاحوال والظروف الجديدة وبعد اصلاح أصول الانتخابات الجارية الآن للبطاركة يصير اجراء كافة الاصول اللازمة فى نصبهم وتعيينهم بالتطبيق لاحكام براءة البطريكية العالى مدى الحياة ويصير استيفاء أصول تحليف البطاركة والمطارنة والاساقفة والحاخامات بالتطبيق للصورة التى تتقرر بين بابنا العالى وجماعة الرؤساء الروحانية المختلفة ويصير منع كافة الجوائز والعوائد الجارى اعطاؤها للرهبان مهما كانت صورتها وتخصص ايرادات معينة بدلها للبطاركة ورؤساء الطوائف ويصير تعيين معاشات بوجه العدالة بموجب ما يتقرر وبحسب أهمية رتب ومناصب سائر الرهبان ولا يحصل السكوت على أموال الرهبان المسيحيين المنقولة والغير منقولة بل يصير احالة حسن المحافظة عليها على مجلس مركب من أعضاء تنتخبهم رهبان وعوام كل طائفة لادارة مصالح طوائف المسيحيين والتبعة الغير مسلمة والبلاد والقرى والمدن التى تكون جميع أهاليها من مذهب واحد لا يحصل احداث موانع فى بناء سائر المحلات التى تكون مثل مكاتب واسبتاليات ومدافن مختصة باجراء عاداتهم حسب هيأتها الاصلية وعند لزوم انشاء هذه المحلات مجدّدا بحسب استصواب البطاركة ورؤساء الملة يلزم رسمها وبيان صفة انشائها وتقديم ذلك الى بابنا العالى واما أن يجرى المقتضى فيها بموجب ارادتنا السنية الملوكية المتعلقة بقبول الصور السابق عرضها واما أن يصير بيان المعارضات المختصة بذلك فى ظرف مدّة معينة واذا وجدت طائفة من مذهب منفردة بمحل وليست مختلطة مع مذاهب أخرى فلا تصادف صعوبات فى اجراء الخصائص المتعلقة بنفاذ عوائدها فى هذا المحل علناً واذا كانت قرية أو بلدة أو مدينة مركبة أهاليها من أديان مختلفة يمكن كل طائفة منهم ترميم وتعمير كنائسها واسبتالياتها ومقابرها بحسب الاصول الموضحة بالمحلات المخصصة لهم الموجودة بمحلات سكنهم بها وأما الابنية المقتضى انشاؤها مجدّداً يلزم أن تعرض البطاركة والمطارنة لبابنا العالى باسترحام الرخصة اللازمة عنها فان لم يوجد لدى دولتنا العلية موانع فى الامتلاك تصدر بها رخصتنا السنية وكافة المعاملات التى تحصل فيما يماثل كل هذه الاشغال تكون مجاناً من قبل دولتنا العلية فى التامين على اجراء عوائد كل مذهب بكمال

الحرية مهما كان مقدار العدد التابع لهذا المذهب وتمحى وتزال الى الابد من المحررات الرسمية الديوانية كافة التعبيرات والالفاظ المتضمنة تحقير جنس لجنس آخر فى اللسان أو الجنسية أو المذهب من أفراد تبعة سلطنتنا السنية ويمنع قانونا استعمال كل وصف وتعريف يمس الشرف أو يستوجب العار بين أفراد الناس ورجال الحكومة وبما ان عوائد كل دين ومذهب موجود بممالكنا المحروسة جارية بالحرية فلا يمنع أى شخص من تبعتنا الملوكية من اجراء رسوم الدين المتمسك به ولا يؤذى بالنسبة لتمسكه به ولا يجبر على تبديل دينه ومذهبه ولكون انتخاب وتعيين خدمة ومأمورى سلطنتنا السنية منوطا باستنساب ارادتنا الملوكية فيصير قبول تبعة دولتنا العلية من أى ملة كانت فى خداماتها ومامورياتها بحيث يكون استخدامهم فى المامور يات بالتطبيق للنظامات المرعية الاجراء فى حق العموم بحسب استعدادهم وأهليتهم واذا قاموا بايفاء الشروط المقررة بالنظامات الملوكية المختصة بالمكاتب التابعة لسلطنتنا السنية بالنسبة للسن والامتحانات يصير قبولهم فى مدارسنا الملكية والعسكرية بلا فرق ولا تمييز بينهم وبين المسلمين وعدا ذلك فان كل طائفة ماذونة باعداد مكاتب أهلية للمعارف والحرف والصنائع انما طرق التدريس وانتخاب المعلمين يكون تحت ملاحظة مجلس المعارف المختلط المعينة أعضاؤه من طرفنا الملوكى وتحال كافة الدعاوى التجارية أو الجنائية التى تقع بين المسلمين والمسيحيين وسائر الملل الغير مسلمة أو بين التبعة المسيحية وسائر التبعة الغير مسلمة مع بعضهم على الدواوين المختلطة والمجالس التى تعقد من قبل هؤلاء الدواوين واستماع الدعاوى يكون علناً بمواجهة المدعى والمدعى عليه وتصدق شهادة الشهود الذين يقدمانهم بمجرد تحليفهم اليمين حسب قواعدهم ومذاهبهم والدعاوى المختصة بالحقوق العادية يصير رؤيتها بالمجالس المختلطة بالولايات والمديريات بحضور كل من القاضى والوالى ويكون اجراء هذه المحاكمات بهذه المحاكم والمجالس علناً واذا وجدت دعاوى مثل حقوق الميراث التى تقع بين اثنين من المسيحيين أو سائر التبعة الغير مسلمة ورغب أصحاب الدعاوى رؤيتها بمعرفة المجالس أو بطرف البطريك أو الرؤساء الروحانيين بغير احالتها على الجهة التى يرغبونها والمرافعات التى يصير اجراؤها بحسب قانون التجارة والجنايات يصير تمامها بكل سرعة بعد ضبطها وتنقيحها وترجمتها للالسن المختلفة المتداولة فى ممالكنا المحروسة الملوكية ونشرها أولا فاولا ومباشرة اصلاح كافة السجون المخصوصة لحبس مستحقى التاديبات الجزائية ومن تحصر فيهم الشبهة فى مدة قليلة حسب ما تقتضيه الانسانية والعدالة وتلغى كافة المعاملات المشابهة للايذاء والجزاآت البدنية ومن يكون مسجوناً لا يعامل بغير المعاملات الموافقة لنظامات الضبط المدونة من قبل سلطنتنا السنية وفضلا عن منع الحركات التى ستقع مخالفة لها بالكلية فانه سيصير تاديب من يأمر باجراء ما يخالف ذلك من المامورين ومن يجريه من الخدماء بمقتضى الجزاآت وستنظم الضبطيات بصورة تستدعى الامنية الحقيقية والمحافظة على أموال وأرواح كافة التبعة الملوكية سواء كانوا بدار

السلطنة السنية أو بالولايات والمدن والقرى وكما أن مساواة الخراج تستوجب مساواة سائر
التكاليف والمساواة فى الحقوق تستدعى المساواة فى الوظائف فالمسيحيون وسائر التبعة
الغير مسلمة يسحبون ثمرة قرعة مثل المسلمين ويجبرون على الانقياد للقرار الصادر أخيرا
وتجرى عليهم أحكام المعافاة من الخدمة العسكرية بتقديم البدل الشخصى أو النقدى
ويصير تدوين القوانين اللازمة لاستخدام التبعة الغير مسلمة فى أقرب وقت من الزمن
ونشرها واعلانها وتنتخب أعضاء المجالس الموجودة بالولايات والمديريات من التبعة المسلمة
والمسيحية وغيرهما بصورة صحيحة ولاجل التامين على ظهور الآراء الحقيقية سيصير التشبث
فى اصلاح الترتيبات التى تجرى فى حق تشكيل هذه المجالس لاستحصال دولتنا العلية على
الاسباب والوسائل المؤثرة للوقوف على الحقيقة وملاحظة صحة نتيجة الآراء والقرارات
التى تعطى عن ذلك وبما أن مواد القوانين المدوّنة فى حق بيع وتصريف العقارات
والاملاك هى متساوية فى حق كافة تبعتنا الملوكية فيلزم الامتثال لقوانين دولتنا العلية
وترتيبات الدائرة البلدية ولاجل أن تمنح الاجانب الفوائد الجارى منحها للاهالى سيصرّح
لهم بالتصرف بالاملاك بعد الاتفاق الذى سيبرم بين دولتنا العلية والدول الاجنبية ولكون
التكاليف والخراج الموزع على كافة تبعة سلطنتنا السنية لا ينظر فيه الى أجناسهم ومذاهبهم
بل جارى تحصيله بصفة واحدة فيلزم المذاكرة فى التدابير السريعة لاصلاح سوء
الاستعمال الواقع فى أخذ واستيفاء هذه التكاليف وبالاخص العشور ومادام ان أصول
أخذ العشور جارية على التوالى بدون واسطة فبدلا عن الزام دولتنا العلية بالايرادات يصير
اتخاذ هذه الصورة بدلا عنها ومادامت الاصول الحالية جارية فمن يتعرض من مامورى
دولتنا العلية أو من أعضاء مجالسها للدخول فى الالتزامات الجارى اعلان مزادها علناً أو
أخذ حصة منها يمنع ويترتب عليه الجزاء الشديد وتتعين التكاليف المحلية بصفة لا تضر
بالمحصولات ولا بالتجارة الداخلية على حسب الامكان وللحصول على المبالغ المناسبة
التى تتخصص لاجل الاشغال العمومية يصير علاوة عوائد مخصوصة على الولايات
والمديريات التى تنتفع من الطرق والمسالك المنشاة بها براً وبحراً بقدرها وبما أنه وضع أخيراً
ترتيب خصوصى فى حق تنظيم وتقديم دفاتر ايرادات ومصروفات سلطنتنا السنية فى كل
سنة فيصير الاعتناء باجراء كامل أحكام ذلك الترتيب ومباشرة حسن تسوية المعاشات
التى يصير تخصيصها لكل من المامورين وبمعرفة مقام الصدارة الجليل يصير جلب مامور
من المامورين الذين سيعينون من طرفنا الملوكى مع رؤساء كل طائفة لاجل أن يتواجدوا
بالمجلس الاعلى للمذاكرة فى المواد المختصة بعموم تبعة سلطنتنا السنية وهؤلاء المامورين
يعينون لمدة سنة وعند ما يباشرون مامورياتهم يصير تحليفهم اليمين ولهم أن يبدوا آراءهم
وملحوظاتهم بكل حرية فى اجتماعات مجلسنا الاعلى العادية والتى تكون فوق العادة بدون
أن يحصل لهم أدنى ضرر وتجرى أحكام القوانين المختصة بالافساد والارتكاب والظلم فى

حق كافة تبعة سلطنتنا العلية مهما كانت جنسيتهم ومامورياتهم وذلك بالتطبيق للاصول المشروعة ويصير تصحيح أصول العملة وتعمل الطرق المؤدية لاعتبار مالية الدولة مثل فتح البنوك وتعيين الاسباب التي تكون منبعاً لثروة ممالكنا المحروسة المادية وتخصيص رأس المال المقتضى وفتح الجداول والطرق اللازمة لتسهيل نقل محصولات ممالكنا ومنع الاسباب الحائلة دون توسيع نطاق التجارة والزراعة واجراء التسهيلات الحقيقية لذلك ويلزم النظر فى الاسباب المؤدية لاستفادة العلوم والمعارف الاجنبية ووضعها على التعاقب فى موقع الاجراء فياأيها الصدر الاعظم الممدوح الشيم يلزمكم اعلان هذا الفرمان الجليل العنوان الملوكى حسب أصوله بدار السعادة ولكل طرف من ممالكنا المحروسة واجراء مقتضيات الخصائص المشروحة حسب ماتوضح آنفاً و بذل جل الهمة فى استحصال واستكمال الاسباب اللازمة والوسائل القوية للدوام والاستمرار على رعاية أحكامها الجليلة من الآن فصاعدا و يلزمكم معرفة ذلك واعتماد علامتنا الشريفة حرر فى أوائل شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٧٢ اهـ

حركة سنة ١٨٤٨ بجميع أوروبا

فى سنة ١٢٦٥ ( سنة ١٨٤٨ ) حدثت باوروبا حركة أفكار عمومية للحصول على نظامات دستورية ووضع حدّ لاستبداد الملوك فبتدأت باريس فى شهر فبراير من السنة المذكورة وكانت نتيجتها اسقاط حكومة لويس فيليب (١) الملوكية والمناداة بالجمهورية الثانية ثم سرت منها الى جميع الامم والشعوب فقام الاهالى فى برلين وفيينا و براغ (٢) وغيرها من العواصم طلبا للحرية حتى أوجب الحال استعمال الجنود ضدّ الاهالى واطلاق المدافع عليهم فى هذه العواصم وامتدّت أيضاً الى بلاد بولونيا التى سبق تقسيمها بين الروسيا والنمسا والبروسيا والى بلاد المجر التى صارت تابعة لمملكة النمسا بعد انسلاخها عن الدولة العثمانية كما مرّ فى موضعه

لكن لما كانت الروسيا لا تود رجوع مملكة بولونيا الى سابق وحدتها وكذلك لا ترغب انفصال المجر عن النمسا وتشكلها بهيئة حكومة مستقلة خوفا من أن تكون حجر عثرة فى طريق تقدمها نحو الاستانة أرسلت جيوشها الى بولونيا لاطفاء شرر الثورة قبل امتدادها وساعدت النمسا على محاربة المجر لادخالها فى طاعتها كما كانت وطلبت من الدولة العلية بالحاح كاد يفضى الى القتال تسليم من التجا الى بلادها من زعماء المجر فامتنعت الدولة عن تسليمهم

---

(١) ولد سنة ١٧٧٣ ولما قامت الثورة مال اليها طمعا في الحصول علي الملك ثم هاجر حينما ألغيت الملوكية كلية وبقي خارجا عن بلاده الى سنة ١٨١٤ فعاد مع لويس الثامن عشر وفي ٣١ يوليو سنة ١٨٣٠ انتخب ملكا على فرنسا بعد عزل شارل العاشر الذى أخلف أخاه لويس الثامن عشر بعد موته في سنة ١٨٢٤ وبقي ملكا حتى ألجأه البورربون الي الاستعفاء في ٢٣ فبراير سنة ١٨٤٨ وهاجر الي انكلترا حتي توفي سنة ١٨٥٠

(٢) مدينة عظيمة باوروبا الوسطي يبلغ عدد سكانها ٢٥٠٠٠٠ نسمة وهى عاصمة بلاد بوهيميا الداخلة من ضمن مملكة النمسا والمجر مع بعض امتيازات وفي سنة ١٨٦٦ أمضي فيها بين النمسا وألمانيا الصلح الذى أخرج النمسا عن الاتحاد الالماني وجعل للبروسيا السيطرة على كل ألمانيا

طبقاً لقانون الدول القاضي بعدم تسليم المجرمين السياسيين

اتفاق بلطه ليمان

وكان من نتائج حركة سنة ١٨٤٨ العمومية أن طمحت أنظار أهالى الافلاق والبغدان للاستقلال والانضمام الى سكان ترنسلفانيا وبكوفين لتكوين مملكة رومانية جديدة فثارتا على أميريها واضطرتاهما الى الفرار وأقامتا مكانه حكومة مؤقتة فارسلت الدولة العلية جيوشها تحت قيادة عمر باشا أحد قوّادها المشهورين لاعادة الاحوال الى ما كانت عليه فارسلت الروسيا عساكرها الى بلاد البغدان فى ٢٢ رجب سنة ١٢٦٥ (٢٠ يونيو سنة ١٨٤٨) وطردت الحكومة المؤقتة واحتلت امارة الافلاق فعارضت الدولة واحتجت ضدّ هذا الاحتلال وصارت الحرب بينهما أقرب من حبل الوريد ثم دارت بينهما المخابرات للوصول الى ما يمنع الحرب واتفقتا أخيراً فى أوّل مايو من السنة المذكورة على أن يبقى حق تعيين الامراء بهاتين الولايتين للدولة العلية كما كان وأن يحتل البلاد جيش مؤلف من جنود تركية وروسية مدّة سبع سنوات حتى يستتب الامن وسمى هذا الاتفاق باتفاق (بلطه ليمان) (١) نسبة الى المحل الذى أمضى فيه

أسباب حرب القرم

قد علم مما سبق أن المنافسات كانت دائمة بين قسوس الارثوذكس والكاتوليك بشأن التملك أو بالحرى اقامة شعائر دينهم فى الكنائس المعتبرة عندهم فى مدينة أورشليم مهد الديانة المسيحية كما انها منشأ الديانة الموسوية وبسعى فرنسا الحائزة بمقتضى عدّة معاهدات قديمة وخصوصا بمقتضى الامتيازات الممنوحة لها فى سنة ١٧٤٠ لحماية جميع قسوس الكاتوليك بالممالك المحروسة تحصل هؤلاء القسوس على امتياز امتلاك هذه الكنائس وكانت الروسيا تسعى من جهة أخرى لتجريد الكاتوليك من هذا الامتياز واعطائه للارثوذكس لما بينها وبينهم من الوحدة المذهبية لتتمكن بواسطتهم من بث سياستها ونشر نفوذها بين رعايا الدولة العلية المتمسكين بهذا المذهب البالغ عددهم زيادة عن عشرة ملايين من النفوس وبالتالى يكونون لها بمثابة آلة صماء تحرّكها كيف تشاء لترويج مقاصدها ولاشتغال فرنسا بحروب الثورة ثم الحروب النابوليونية مدّة ٢٢ سنة تقريباً من سنة ١٧٩٣ الى سنة ١٨١٥ وضعف الحكومات الملوكية بعد ذلك وحصول ثورة سنة ١٨٤٨ لم يمكنها التمسك بحقوقها هنالك فتعدّى على امتيازات قسوسها كهنة الارثوذكس ثم لما عين نابوليون الثالث (٢) رئيسا للجمهورية الفرنساوية الثانية باسم

---

(١) فرضة صغيرة علي بوغاز البوسفور من تركية أوروبا بالقرب من الاستانة واشتهرت بامضاء هذه المعاهدة بها

(٢) هو ابن لويس بونابرت أخي نابوليون الاول الذى كان عينه أخوه ملكا لهولاندا ولد في مدينة باريس في ٢٠ ابريل سنة ١٨٠٨ وهاجر مع والديه بعد سقوط الامبراطورية الاولي وأقام في بلاد سويسرة ودخل في جيشها بوظيفة ضابط واشترك في ثورات ايطاليا وفي سنة ١٨٣٦ حضر الى مدينة ستراسبورج وأراد احداث ثورة لقلع لويس فيليب وتعيينه مكانه فلم يفلح وقبض عليه وبعد أن سجن مدة أبعد خارج فرنسا وأنزل في الولايات المتحدة وفي سنة ١٨٤٠ أتي الي فرنسا ثانيا ونزل بثغر بولونيا فضبط وحكم عليه مجلس السناتو بالسجن المؤبد وسجن في قلعة هام الي سنة ١٨٤٦ فهرب والتجأ الي بلاد البلجيك ولما حصلت

البرنس لويز نابوليون فاتح الدولة العلية فى هذه المسئلة لارضاء الرأى العام فى فرنسا واستمالته اليه فعين الباب العالى لجنة مشكلة من عدة أعضاء مختلفى المذهب لفصلها بمقتضى المعاهدات القديمة وهذه اللجنة قرّرت بعد عدّة اجتماعات متوالية باولوية الكاثوليك فى امتلاك عدّة كنائس وأديرة فعارضت الروسيا فى نفاذ هذه الاتفاقية المؤرخة ١٤ ربيع الثانى سنة ١٢٦٨ الموافق ٦ فبراير سنة ١٨٥٢ وهدّدت الباب العالى بالحرب لو أمر بنفاذها فتردّدت الدولة فى انفاذها لكن من جهة أخرى شدّدت فرنسا فى التمسك بحقوقها التى قررتها اللجنة الاخيرة وحيث أن الدولة اعتمدت هذا القرار فلابد من تنفيذ ما اعترفت بصحته ولذلك اضطرت الدولة العثمانية لتنفيذ مضمون قرار اللجنة الاخيرة

فاتخذت الروسيا هذا الخلاف ذريعة لتنفيذ وصية بطرس الاكبر وأرسلت البرنس (منشيكوف) من سان بطرسبورج الى الاستانة بصفة سفير غير اعتيادى للمخابرة فى مسئلة الاماكن المقدّسة ظاهراً وفى الحقيقة لم يكن القصد من ارساله الا ايجاد أسباب الشقاق للتوصل الى اعلان الحرب بحجة مقبولة لدى الدول كما سيظهر ذلك فيما بعد فسافر هذا السفير من عاصمة الروسيا فى أوّل جمادى الاولى سنة ١٢٦٩ الموافق ١٠ فبراير سنة ١٨٥٣ ماراً باقاليم الروسيا الجنوبية قاصداً دار الخلافة العظمى وأخذ يراقب تجمع الجيوش بقرب التخوم العثمانية ويستعرضها باحتفال زائد لزيادة الايهام والتاثير على أفكار رجال الدولة وعظمائها

وفى أثناء ذلك عمل القيصر نيقولا على سبر أفكار (السير هاملتن سيمور) سفير انكلترا لدى حكومته مظهراً له ضرورة اتحاد دولتى الروسيا وانكلترا معا على اضعاف نفوذ فرنسا فى الشرق وأخذ الاحتياطات لتجزئة بلاد الدولة العلية حيث صار من المستحيل على زعمهم شفاء هذا المريض (يعنى بذلك دولتنا العثمانية المحفوظة) وخوفا من تشتت تركته بعد وفاته عرض عليه انه يتساهل مع انكلترة لوساعدته على نفاذ مشروعه فى اعطائها القطر المصرى وجزيرة كريد فلم يجبه السفير الانكليزى جوابا شافيا بل بالعكس أجاب القيصر

ثورة فبراير سنة ١٨٤٨ أتي مسرعا الي فرنسا وبذل جهده حتى عين رئيسا لجمهورية وفي ٢ دسمبر سنة ١٨٥١ منع مجلس النواب من الاجتماع وسجن أعضائه وعمل كل الوسائط حتي عين رئيسا لجمهوريه لمدة عشر سنين وزيدت اختصاصاته وفي ٧ نوفمبر سنة ١٨٥١ أبطلت الجمهورية وصار هو امبراطور باسم نابوليون الثالث وفي مدته حصلت عدة حروب لم تعد علي فرنسا بأقل فائدة سوى قتل عساكرها المدربة واثقال كاهلها بالديون فحارب المكسيك بأمريكا وأراد جعلها امبراطورية وتعيين البرنس مكسمليان أخي امبراطور النمسا امبراطوراً عليها فلم يفلح وقتل أهالي المكسيك الامبراطور مكسمليان وانسحبت العساكر الفرنساوية وحارب الروسيا في القرم وحارب الصين وفتح ما بقي من بلاد الجزائر وأخيراً حارب البروسيا وانهزم في واقعة سيدان في ٢ سبتمبر سنة ١٨٧٠ وأخذ أسيرا الي ألمانيا فنادت فرنسا بالجمهورية الثالثة في أربعة منه وهي الجمهورية الباقية الآن وتوفي في ٩ يناير سنة ١٨٧٢ وانتهت الحرب بانهزام فرنسا وسلخ ولايتين من بلادها وضمها الي ألمانيا

أن الاولى معالجة هذا المريض وتعهده بالعناية حتى ينقه من مرضه و يعود لسابق قوّته لانه لو مات حصلت حروب تهدر فيها الدماء أنهاراً عند تقسيم تركته ولم يكن ذلك من الدولة الانكليزية حباً بتقوية الدولة العلية أوشغفاً ببقائها بل خوفاً من امتداد الروسيا فى الشرق واحتلالها الاستانة فتشارك انكلترة فى ملك البحار الذى انفردت هى به

ومن جهة أخرى خابرنابليون الثالث حكومة الملكة فكتوريا(١) بشأن الاتحاد مع الباب العالى لتنفيذ العهود السابقة المختصة بالاماكن المقدّسة حتى لا ينتشر نفوذ الروسيا بين رعايا الدولة العلية الارثوذكس الذين ربما بلغ عددهم أحد عشر مليونا من النفوس لاسيما وأن حماية الروسيا على أورشليم وما جاورها مما يجعل انكلترا فى وجل على أقرب طرقها لمستعمراتها الهندية وهى طريق مصر فاقتنعت انكلترا بضرورة مقاومة نفوذ الروسيا فى هذه الاصقاع خصوصاً وقد اطلعت على مقاصد القيصر التى كاشف بها السير هاملتن سيمور سفيرها لديه

ولما رأى امبراطور الروسيا عدم اصغاء انكلترا لطلباته فاتح سفير فرنسا المسيو (كستلباجاك) فى أمر التساهل معها على تقرير الامور فى بلاد فلسطين طبق مرادها وعرض عليه أن تتساهل الروسيا هى أيضاً مع فرانسا فى مقابلة ذلك، بل وتساعدها على امتلاك القطر التونسى لتقوية نفوذها فى بلاد الغرب ومراقبة اجراآت انكلترا فى جزيرة مالطه لكنه لم يجد من السفير الفرنساوى أذنا صاغية كما كان يؤمل لان مساعى نابليون الثالث كانت موجهة لارجاع مجد فرنسا السابق اليها وجعلها صاحبة الكلمة فى جميع أحوال أوروبا كما كانت فى عهد عمه نابليون الاول

هذا ولما وصل البرنس (منشيكوف) الى الاستانة بعد ان أجرى على الحدود عدّة تظاهرات حربية كان معه عدة ضباط عظام برية وبحرية صاروا يرافقونه أثناء زياراته الرسمية للوزراء لزيادة التاثير على عقولهم وتظاهر بعدم مراعاة الاصول والعوائد المتبعة فى مقابلة جلالة السلطان ولولا توسط سفيرى فرنسا وانكلترا لانتشبت الحرب بسبب هذه الاجراآت المغايرة لآداب السياسة فتحقق للعموم من ذلك أن قصد الروسيا الوحيد هو اعلان الحرب على الدولة العلية وتقسيم ممالكها المحروسة ولذلك أرسلت فرنسا دونانماتها البحرية الى مياه اليونان فالقت مراسيها فى فرضة سلامين (٢) فى ٢٤ ربيع الثانى سنة ١٢٦٩ الموافق ٤ أبريل سنة ١٨٥٣ استعداداً للحوادث التى لم تكن فى الحسبان أما انكلترا فاذنت لمراكبها بالتربص فى مالطه لحين صدور أوامر جديدة لها

(١) ولدت هذه الملكة سنة ١٨١٩ وتولت سنة ١٨٣٧ وتزوجت في سنة ١٨٤٠ بالبرنس البرت أحد أمراء ألمانيا ورزقت منه بثمانية أولاد وتوفي زوجها سنة ١٨٦١ ولم تزل حاكمة الي يومنا هذا ١٨٩٦

(٢) جزيرة صغيرة ببلاد اليونان تبعد عن الساحل بنحو أربعة كيلو مترات وشهيرة بانتصار (تميستوكل) اليوناني علي مراكب الفرس بالقرب منها في سنة ١٤٨٠ قبل المسيح

وفى أثناء ذلك كان البرنس منشيكوف يبذل جهده لدى الباب العالى للحصول على تجديد شروط معاهدة (خونكار اسكله سى) القاضية بان يكون للروسيا حماية جميع المسيحيين الموجودين ببلاد الدولة وكان الباب العالى يماطله فى الاجابة وأخيراً أعاد السلطان رشيد باشا الى منصب الصدارة الذى سبق عزله منه ارضاء للروسيا ومنعا لاسباب الشقاق فظهر من ذلك أن السلطان قدعدل عن سياسة المسالمة وعزم على رفض طلبات الروسيا وايد ذلك رشيد باشا فانه رفض طلبات البرنس منشيكوف قطعياً

ولما رأى البرنس منشيكوف هذا العدول أرسل للباب العالى بلاغا نهائيا بتاريخ ٢٦ رجب سنة ١٢٦٩ الموافق ٥ مايو سنة ١٨٥٣ بطلبات دولته وطلب الاجابة عنها فى مدّة خمسة أيام ولما انقضت بدون أن يجاب طلبه أطالها ثمانية أيام أخرى ولما انقضت هذه المدّة أيضاً بدون أن يحصل على مرغوبه الذى رفضه جلالة السلطان مع الاعلان باحترام حقوق الكنيسة الارثوذكسية قطع السفير الروسى العلاقات مع الباب العالى وبارح الاستانة على احدى مراكب الروسيا فى ١٧ شعبان سنة ١٢٦٩ الموافق ١٨ مايو المذكور مهدّد الدولة باحتلال الجنود الروسية لامارتى الافلاق والبغدان اذا صممت على التوقف

ولما أبلغت الدولة صورة هذا البلاغ الاخير الى اللورد (استراتفورد) سفير انكلترا وهو أبلغها الى حكومته تغيرت أفكار انكلترا من جهة الروسيا وتحققت سوء نيتها نحو الدولة العلية فانضمت الى فرنسا وأرسلت الى دوننماتها بالطه أن تنضم الى الدوننمة الفرنساوية وتتحد معها فى كافة أعمالها ومن ثم ظهر لجميع أوروبا أن فرنسا وانكلترا متحدتان على حماية الممالك العثمانية المحروسة ضدّ أطماع الروسيا ثم أصدرت هاتان الدولتان أوامرهما الى مراكبهما بالاقتراب من بوغاز الدردنيل لمدّ يد المساعدة للدولة العلية اذا اقتضى الحال فقامت المراكب ورست فى فرضة بزيكا (١) فى ٢٢ رمضان سنة ١٢٦٩ الموافق ١٥ يونيه سنة ١٨٥٣

وبعد انسحاب البرنس منشيكوف من الاستانه أرسل المسيو دى نسلرود (٢) وزير خارجية الروسيا بلاغا آخر الى الباب العالى وأبلغ صورته الى جميع الوزارات يقول فيه انه ان لم تقبل الدولة العلية اقتراحاته الاخيرة تحتل الجيوش الروسية ولايتى الافلاق والبغدان حتى تعود الدولة عن اصرارها وترضخ لطلبات دولته ولما أجيب بالرفض فى هذه المرة أيضاً اجتازت عساكر الروسيا نهر البروث الفاصل بين

(١) فرضة متسعة عند مدخل بوغاز الدردنيل علي شاطيء آسيا وتبعد بنحو ٢٧٥ كيلومتر عن مدينة الاستانة وهي ذات أهمية حربية عظمى

(٢) سياسي روسى شهير كان يثق به الامبراطور اسكندر الاول لانه كان مساعدا له علي سياسة الاتحاد المقدس المبنى علي اكراه الامم الساعية في الاستقلال على البقاء تحت الحكومات الملوكية واشترك في كافة المعاهدات المهمة مثل معاهدتي أدرنه وخونكار اسكله سي وتوفي سنة ١٨٦٢

أملاك الدولتين فى ٢٥ رمضان سنة ١٢٦٩ الموافق ٢ يوليو سنة ١٨٥٣ واحتلت الولايتين فعلا اذ لم يخطر ببال الروسيا أن الدول الغربية تتألب مع الدولة العلية على محاربتها لحماية الدولة ومن جهة أخرى كان يظن أن فرنسوا جوزيف (١) امبراطور النمسا والمجر يعضده على الدولة العلية لماله عليه من الايادى البيضاء فى اقماع الثورة المجرية سنة ١٨٤٨

وحقيقة كان مركز فرنسوا جوزيف حرجا لانه كان لايدرى أىّ الطريقين يسلك أيتحد مع الروسيا على الدولة العلية لمجرّد مقابلة الجميل بمثله مع مخالفة هذا التحالف لمصالح بلاده أم يراعى المصلحة السياسية فقط التى لاتلائمها الاحساسات القلبية فى الغالب وأثناء تردّده هذا بذل جهده فى التوفيق بين الروسيا وجارتها منعاً للحرب فيتخلص هو من هذه المسئلة بدون أن يرمى بكفران الجميل وأوعز الى الدول بجمع مؤتمر ينعقد بمدينة ويانه تحت رئاسة ناظر خارجيته لاصلاح ذات البين بين الدولتين المتعاديتين وأن يطلب منهما عدم اعلان الحرب حتى تتم مأمورية هذا المؤتمر بل تتربص جيوشهما على ضفتى نهر الطونه فقبلت الدول ذلك وانعقد المؤتمر فى غضون شهر ذى الحجة سنة ١٢٦٩ الموافق شهر أغسطس سنة ١٨٥٣ بويانه واهتم مندوبو البروسيا والنمسا بالاتحاد مع مندوبى فرنسا وانكلترا فى التوفيق بين الخصمين واصلاح ذات بينهما منعاً لسفك الدماء واشتعال نيران الحرب التى ربما عمت أوروبا بأسرها وعظم خطبها وتحرّكت بسبب اشتغال الدول بهذه الحروب والافكار الثوروية التى هاجت فى سنة ١٨٤٨ وكادت تقلب جميع الحكومات الملوكية وبعد عدّة جلسات أقرّ المؤتمر على صورة وفاق قبلته الروسيا لعدم ظهور عبارته وغموض انشائه لتؤوّله فيما بعد على ماينطبق على غايتها ويوافق أغراضها ورفضها الباب العالى لهذا السبب بعينه ولرغبته فى عدم وجود عراقيل فى المستقبل بسبب تأويل عباراته وبذلك انفض المؤتمر بدون جدوى وتحقق الجميع سوء مقاصد الروسيا وشجعت فرنسا وانكلترا الباب العالى على عدم التسليم بطلبات الروسيا والثبات فى الدفاع عن حقوقه واعدتاه بالمساعدة المادية على الروسيا فارسل الباب العالى الى البرنس جورتشاكوف (٢) قائد الجيوش الروسية المحتلة لولايتى الافلاق والبغدان بلاغا تاريخه أوّل محرم سنة ١٢٧٠ الموافق ٤ اكتوبر سنة ١٨٥٣ باخلاء هاتين الولايتين فى ظرف خمسة عشر يوماً والا فتعتبر بقاء الجيوش فيها اعلانا للحرب وأمرت عمر باشا سرعسكر الجيوش العثمانية (٣)

---

(١) ولد هذا الامبراطور في ١٨ أغسطس سنة ١٨٣٠ وتولى الملك في ٢ دسمبر سنة ١٨٤٨ عقب استقالة عمه الامبراطور فردينان الاول وتنازل والده عن حقه في الملك وتزوج بينت دوك بافيير في ٢٤ ابريل سنة ١٨٦٤ ولم يزل مالكا حتى الان

(٢) قائد روسي ولد سنة ١٧٩٥ وتوفي سنة ١٨٦١ وامتاز في حرب القرم وهو ابن عم البرنس جورتشاكوف السياسي المعروف

(٣) قائد عثماني شهير نمساوى الاصل ولد ببلاد كرواسيا سنة ١٨٠٦ وخدم مدة في الجيش النمساوى ثم

بعبور نهر الطونه وابتداء الحرب بعد هذا الاجل ان لم تكن الجيوش الروسية قد أخلتها تماما

ولما لم تعر الروسيا هذا البلاغ أذنا صاغية اجتاز عمر باشا النهر فى أوّل صفر سنة ١٢٧٠ الموافق ٢ نوفمبر سنة ١٨٥٣ و بعد موقعة عظيمة هائلة انتصرت الجيوش العثمانية على الجيوش الروسية وأخرجتها من معاقلها الكائنة على ضفة النهر اليسرى قهراً وفاز عمر باشا وجيوشه فوزاً مبيناً أدهش جميع العالم لعدم توقع انهزام الروسيا لكن بسبب الشتاء الشديد والبرد الكثير الثلج فى هذه البلاد عاد عمر باشا الى الحصون بدون أن يقتفى أثر الجنود الروسية المنهزمة لعدم امكان ذلك ماديا وكذلك على حدود الروسيا من جهة بلاد قافقاس بآسيا اجتاز العثمانيون التخوم تحت قيادة عبده باشا واحتلت قلعة سان نقولا عقب انتصارها على الروس ثم وقف الحرب بسبب الشتاء بعد انتصار الروس فى واقعة أخرى بدون أن يتمكنوا من استرجاع هذه القلعة وعند ماشاهد الامبراطور نقولا هذا الحال الذى ما كان ليخطر له على بال اجتمع مع فرنسوا جوزيف امبراطور النمسا وفاوضه فى خوفه من نجدة الدول الغربية (فرنسا وانكلترا) للدولة العلية وسأله المساعدة والتحالف عليها معتمداً فى ذلك على مساعدته له سنة ١٨٤٨ ضدّ ثائرى المجر فلم يقبل الامبراطور ذلك وأظهر له شديد أسفه من عدم اجابة طلبه لعدم ملاءمته لمصالح البلاد التى ألقيت مقاليدها اليه

واقعة سينوب البحرية

وفى هذه الاثناء تقدّمت السفن الفرنساوية والانكليزية من فرضة بزيكا الى بوغاز البوسفور برضا الباب العالى لتكون أقرب الى البحر الاسود والى حماية الاستانة لو حاول الروس الهجوم عليها بحراً وأرسلت فرنسا الى دار السعادة سفيراً حربياً فوق العادة وهو القائد ( باراجى ديليه ) للسعى فى الصلح وفى الحقيقة لدرس أحوال الدولة العسكرية استعداداً للقتال التى كانت تستعدّ له فرنسا ضدّ الروسيا وقابله جلالة السلطان المعظم باحتفال زائد فى ١٥ الحجة سنة ١٢٦٩ الموافق ١٩ سبتمبر سنة ١٨٥٣ هو وجميع أركان حربه

وفى ٢٨ صفر سنة ١٢٧٠ الموافق ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٣ فاجأت الدونانمة الروسية تحت امرة الاميرال ناشيموف الدونانمة التركية الموجودة فى ميناسينوب على البحر الاسود ودمرتها عن آخرها تقريباً مع أنها كانت تعهدت لدولتى فرنسا وانكلترا بعدم اتيان أى أمر عدوانى فى البحر الاسود اذا تربصت دونانماتهما فى البوسفور ولم تدخل هذا البحر ولما حصلت هذه الواقعة على حين غفلة أمرت فرنسا وانكلترا مراكبهما بالدخول فى البحر الاسود وأعلنت الروسيا رسمياً انه لو تعدّت احدى المراكب

---

هاجرا الي البوسنه ودخل في دين الاسلام واستخدم في الجيش الشاهاني وترقي تدريجا حتى وصل الي أعلي الرتب العسكرية وخدم الدولة العلية بكل صداقة واخلاص وانتصر الي الروس في واقعة اوباتوريا في حرب القرم وتوفي سنة ١٨٧١

الروسية على مين الدولة أو على احدى مراكبها تكون مراكب الدولتين مضطرة لمنعها بالقوة ودخلت سفنها الحربية فى البحر المذكور فى ٤ ربيع الثانى سنة ١٢٧٠ الموافق ٤ يناير سنة ١٨٥٤ ومن ذلك الحين صار لابد من الحرب قريباً بين هذه الدول والروسيا لحماية الدولة العثمانية من عدوان الروسيا وأطماعها لا حباً فى الدولة بل خوفاً من امتداد نفوذ الروسيا و بسط يدها على الاستانة

و بعد ذلك أرسل نابليون الثالث جواباً بتاريخ ٢٩ يناير سنة ١٨٥٤ الى الامبراطور نقولا بخط يده يشرح له فيه ماهية المسئلة من أصلها وما أتته الروسيا من المماطلة والتلاعب فيها وما اقترفته من الغدر والخيانة و يعرض عليه عقد مؤتمر للنظر فى الصلح بشرط خروج العساكر الروسية من ولايتى الافلاق والبغدان وتعهد له بسحب مراكبه ومراكب انكلترا من البحر الاسود لو أخلت هى هاتين الولايتين كل ذلك بعبارة مقبولة يظهر من خلالها ميل فرنسا الى الصلح مع الاستعداد للحرب فاجابه القيصر بما يشف عن عدم امكانه الرجوع عن خطته اذ اخلاء عساكره للولايتين يعد احجاما امام عساكر الدولة وهذا امر لا يقبله هو قط مادام عنده جندى واحد وختم خطابه بعبارة مؤداها انه لم يأت فى ذلك أمراً مستغرباً فانه لا يظن أن نابليون الثالث كان يفعل غير ذلك لو كان فى هذا المركز الحرج

و بهذا صار لابد من الحرب وترك سفراء الروسيا لدى فرنسا وانكلترا مقر وظائفهما بناء على أمر سيدهما

وخوفاً من اتحاد النمسا والبروسيا مع فرنسا وانكلترا عليه أرسل الامبراطور نقولا المسيو اورلوف بمأمورية خصوصية الى و يانه و برلين ليطلب من امبراطور النمسا وملك البروسيا أن يكونا على الحيادة ان لم يرغبا فى مساعدته فلوقى اورلوف فى و يانه بما لم يجعل لدى القيصر شك فى اتحاد النمسا مع أعدائه وفى برلين ماحمله على الفكر بان فريدريك غليوم ملك البروسيا(١) يكون له أكثر مما يكون عليه ثم فى ١٢ جمادى الثانية سنة ١٢٧٠ الموافق ١٢ مارث سنة ١٨٥٤ أمضى بين فرنسا وانكلترا والدولة العلية فى مدينة الاستانة اتفاق على محاربة الروسيا وحماية الدولة العلية

ومما جاء به أن ترسل فرنسا خمسين ألف جندى وانكلترا خمسة وعشرين ألفا بشرط أن تخلى جميعها عن بلاد الدولة بعد خمسة أسابيع تمضى من يوم عقد الصلح مع الروسيا

وفى ٢٧ جمادى الثانية سنة ١٢٧٠ الموافق ٢٧ مارث سنة ١٨٥٤ أرسل نابوليون الثالث رسالة الى مجلس النوّاب يخبره باعلان الحرب على الروسيا بالاتحاد مع انكلترا

(١) ولد سنة ١٧٩٥ وتولي الملك سنة ١٨٤٠ بعد أخيه فريدريك غليوم الثالث ولم يأت في التاريخ أمرا يذكر وفي سنة ١٨٦٠ ضعفت قواه العقلية فعين غليوم الاول الشهير قيما عليه حتي توفي في السنة التالية فخلفه الي أن توفي هو أيضا سنة ١٨٨٨ بعد ان لم شتات ألمانيا وأسس الامبراطورية الالمانية عقب انتصاره على فرنسا في سنتى ١٨٧٠ و ١٨٧١

وفى ١٢ رجب سنة ١٢٧٠ الموافق ١٠ ابريل من السنة المذكورة اتفقت فرنسا وانكلترا بمقتضى معاهدة مخصوصة أمضيت فى مدينة لونده على انهما يحفظان أملاك الدولة العلية ويمنعان ضم أىّ جزء منها الى بلاد الروسيا وأن يقدّما مايلزم لذلك من المال والرجال لو دعى الحال لارسال جيوش أكثر من المقرّر فى معاهدة الاستانة وأن لا تخابر احداهما مع الروسيا بشان الصلح أو توقيف القتال الا بالاتفاق مع حليفتها

وبعد ذلك أخذت الدولتان المتحالفتان فى جمع الجيوش وما يلزمها من المؤن والذخائر والسفن اللازمة لنقلها وجعلت الجيوش الفرنساوية تحت قيادة المارشال دى سانت ارنو (١) والانكليزية تحت امرة اللورد رجلان (٢) ونزلت الجيوش المتحدة فى غضون ابريل ومايو سنة ١٨٥٤ فى فرضة غاليبولى والاستانة

وقبل وصول الجيوش البرية كان القتال قد ابتدىء فعلا فى البحر الاسود وذلك أن الاميرال الانكليزى دنداس أرسل احدى مراكبه المسماة فوربوس الى مينا أودسا (٣) لحمل القنصل والرعايا الانكليزية فى ٨ رجب سنة ١٢٧٠ الموافق ٦ ابريل فاطلقت القلاع قنابلها عليها مع انها كانت حاملة العلم الابيض علامة على أنها تقصد مخابرة سلمية خلافا لاصول الحرب الدولية فاتفق الاميرال الانكليزى مع زميله الفرنساوى الاميرال هاملين على اطلاق مدافعهما على المدينة ان لم يقدّم لهما حاكمها اعتذاراً كافياً على هذا العمل العدائى فقصد المينا فى ٢٢ رجب الموافق ٢٠ ابريل وأبلغا طلبهما الى الحاكم وأمهلاه ٢٤ ساعة

ولما انقضى يوم واحد وعشرين بدون أن يأتيهما جواب ابتدأ قذف القنابل على المدينة فى صبيحة ٢٤ رجب الموافق ٢٢ منه واستمرّ اطلاقها حتى دمرت قلاع المدينة والتهمت النيران جزأ منها ثم انسحبت الاساطيل من أمامها واصطفت أمام مينا سباستوبول ودعت الدونانمة الروسية للقتال ولما لم تخرج للمحاربة كلف الاميرالان الاميرال ليونس

(١) قائد فرنساوى ولد سنة ١٧٩٨ واشتهر في محاربة العرب في بلاد الجزائر التي اكتسب فيها رتبه تدريجا الي ان وصل الى رتبة فريق ثم رقاه نابليون الثالث الي رتبة مارشال التي تعادل رتبة المشيرية الرفيعة عندنا لمساعدته له على قلب الحكومة الجمهورية في دسمبر سنة ١٨٥٢ وتوفي سنة ١٨٥٤ في حرب القرم بسبب مرض عادى

(٢) قائد انكليزى شهير ولد سنة ١٧٧٨ وكان من أركان حرب الدوك دى ولنجتون الذي انتصر علي نابليون الاول في وترلو وحضر هذه الموقعة الشهيرة ... وقطع بها أحد ذراعيه وتوفي في القرم سنة ١٨٥٥ بالكوليرا

(٣) مدينة بجنوب الروسيا علي البحر الاسود يبلغ عدد سكانها ٢٥٠ ألف نسمة وحركتها التجارية عظيمة جدا وبها كثير من المدارس العالية والجمعيات العلمية وكان اسمها حاجي بيك ولما فطنت كاترينه الثانية الي أهميتها أمرت سنة ١٧٩٥ بتوسيعها وتسميتها أودسا تذكارا لمستعمرة يونانية قديمة كانت بالقرب منها تدعي أودسوس وينسب فضل تحسينها وجعلها بهذه الحالة الي الدوك دى ريشليو الفرنساوى الذي عين حاكما لها في سنتي ١٨٠٣ و ١٨٠٤

بضرب الثغور الروسية الواقعة على البحر الاسود فقام بهذه المامورية وفى أثناء ذلك أعلن الامبراطور نقولا الحرب على الدول المعادية له فى ١٣ رجب سنة ١٢٧٠ (١١ ابريل سنة ١٨٥٤)

وأصدر أوامره الى المارشال برنس (بسكيفتش) قائد الجيوش المعسكرة على ضفة نهر الطونة الايسر بعبور النهر ومحاصرة مدينة (سلستريا) فصدع المارشال بالامر وحاصر المدينة مدّة خمسة وثلاثين يوما من ١٥ مايو الى ٢٠ يونيو سنة ١٨٥٤ (من ١٧ شعبان الى ٢٣ رمضان سنة ١٢٧٠) بدون أن يقوى على اذلالها مع ان الجيش المحاصر كان مكوّنا من ستين ألف مقاتل ولم يكن بداخلها من الجنود العثمانية الا خمسة عشر ألفاً (ضمنهم كثير من المصريين) تحت قيادة موسى باشا من مشاهير قوّاد الدولة الذى استشهد فى الدفاع عنها

ولما علم محالفو الدولة بتلك المقاومة التى أوقعت فى قلوبهم اعتبار الجنود المظفرة وألزمتهم الاعتراف بشجاعتهم وقوّة بأسهم زحفوا بجيوشهم الى مدينة ورنه بقصد مدّ يد المساعدة الى المدينة المحصورة لكن لم ينتظرهم المارشال الروسى بل رفع الحصار عن المدينة وعاد بخفى حنين فاقتفى عمر باشا أثره وعبر نهر الطونة خلفه بعد ان هزم مؤخر جيشه عند مدينة (جورجيو) وكان فى عزمه احتلال ولايتى الافلاق والبغدان عقب جيوش الروسيا التى كانت ابتدأت فى اخلائها لكن كانت الجيوش النمساوية قد احتلتها ومنعت عمر باشا من اتباع عساكر الروسيا حتى اجتازت نهر البروث الفاصل بين الولايتين وأملاك الروسيا بسلام

النمسا وحرب القرم

ولنذكر هنا بطريق الايجاز المخابرات السياسية التى أدّت الى احتلال النمسا للولايتين سبق شرحنا علاقات النمسا والروسيا ومقابلة الامبراطورين فى مدينة أولمتس (١) وأبنا أن النمسا كانت لا تودّ مساعدة الروسيا كما صرّح بذلك امبراطورها ولكنها من جهة أخرى لا ترغب مساعدة الدول الغربية بل غاية أمانيها أن تكون حكماً بينهم وتبذل قصارى جهدها فى عدم امتداد أملاك الروسيا من جهة الطونة وأن تجعل لنفسها نوع سيادة على جميع البلاد الواقعة على ضفافه ولذلك بمجرد ما علمت باتفاقى الاستانة ولوندره أبرمت مع البروسيا اتفاقا بتاريخ ٢٢ رجب سنة ١٢٧٠ الموافق ٢٠ ابريل سنة ١٨٥٤ بان تسيرا باتفاق فى المسئلة الشرقية و بلغت صورته للدول

وفى ١٧ رمضان سنة ١٢٧٠ الموافق ١٤ يونيه من السنة المذكورة اتفقت فرنسا وانكلترا والدولة العلية مع النمسا على ان تحتل الجيوش النمساوية ولايتى الافلاق والبغدان اذا

(١) مدينة ببلاد النمسا يبلغ عدد سكانها عشرين ألفا وبها مدرسة جامعة قديمة العهد جداً أسست سنة ١٢٥٧ ثم نقلت الي مدينة برون سنة ١٧٧٨ وأعيدت الي أولمتس ثانية سنة ١٨٢٧ ولم تزل بها حتى الآن

أخلتها الروسيا وأن تحد معهما فى محاربة الروسيا لو اجتازت جيوشها جبال البلقان
وبمقتضى هذه الاتفاقات دخلت جيوش النمسا فى هاتين الولايتين بمجرد انسحاب جيوش الروسيا منها أولا بأول ولم تعترض الروسيا ضدّ هذا الاحتلال خوفاً من اغضاب النمسا ودخولها فى التحالف المنعقد ضدّها لتفضيلها وجود جيوش النمسا فيهما على وجود الاتراك أو الفرنساويين لعدم ميل النمسا للحرب وبرجوع جيوش الروسيا خلف نهر البروث وحيلولة جيوش النمسا بينها وبين نهر الطونه زال الخوف من هذه الجهة ثم اجتمع قوّاد الجيوش المتحالفة فى مدينة ورنه فى ٢٥ شوّال سنة ١٢٧٠ ( ٢١ يوليو سنة ١٨٥٤ ) بصفة مجلس حربى وقرّروا ضرورة نقل ميدان القتال فى أراضى الروسيا لاسيما وقد تفشت الكوليرا بين عساكرهم وأجمعوا على ارسال العساكر الى بلاد القرم ومحاصرة ثغر سباستوبول الشهير بمناعة حصونه وقلاعه فارسلت الى بحيث جزيرة القرم ستين ألف جندى من الفرنساويين والاتراك والانكايز والمصريين أنزلوا فى فرضة ( ايباتوريا ) فى ٢٠ الحجة سنة ١٢٧٠ الموافق ١٣ سبتمبر سنة ١٨٥٤

وفى ٢٧ الحجة ( ٢٠ سبتمبر ) حصلت أول موقعة بينهم وبين جيوش الروسيا كانت الدائرة فيها على الروسيا واحتل الفرنساويون عقبها المرتفعات المشرفة على نهر (الما) ويقال ان المارشال دى سانت ارنو ضرب خيمته فى نفس المحل الذى كانت فيه خيمة القائد الروسى البرنس منشيكوف

ولم تتبع الجيوش المتحالفة عساكر الروسيا فى انكسارها وتقهقرها نحو مدينة سباستوبول بل تربصت فى مكانها ويقول العارفون انها لو اقتفت أثرها لدخلت المدينة بدون كثير عناء لعدم تكامل استحكاماتها لكن منع المتحالفين عن ذلك اعتقادهم فى قوّة الروسيا ومناعة المكان

وفى ٣ محرم سنة ١٢٧١ (٢٦ سبتمبر) هاجم المتحالفون فرضة (بلكلاوا) ودخلوها عنوة فى يوم ٥ محرم (٢٨ سبتمبر) لاحتياجهم اليها كميناً أميناً لنزول الجنود والمؤن والذخائر الآتية لهم من أوروبا وفى أثناء ذلك أمكن الروس اتمام تحصين مدينة سباستوبول براً وبحراً بكيفية جعلت الاستيلاء عليها من المستحيلات بهمة القائد الشهير تودلين (١)

وفى ٦ محرم (٢٩ سبتمبر سنة ١٨٥٤) توفى المارشال دى سانت ارنو قائد عموم الجيوش الفرنساوية وأخلفه الجنرال كانروبر (٢) وكان موته بسبب الحميات التى تفشت فى

(١) قائد روسي ولد سنة ١٨١٨ وتعلم الفنون الحربية في مدرسة أركان حرب وابتدأت شهرته في بلاد القافقاس سنة ١٨٤٨ وازدادت في اقامة الحصون والاستحكامات حول سباستوبول تحت نيران الاعداء وفي سنة ١٨٧٧ ولي ادارة حصار بلفنه ففتحها كما سترى وتوفي في سنة ١٨٨٤

(٢) ولد هذا القائد الشهير في سنة ١٨٠٩ ودرس الفنون الحربية فى مدرسة سان سير وترقي منها الي رتبة ملازم ثاني وفي يناير سنة ١٨٥٠ ترقي الي رتبة لوا وفي سنة ١٨٥٣ أعطيت اليه رتبة فريق وفي ١٨ مارث سنة ١٨٨٦ ترقي الي رتبة مشير (مارشال) واشترك في حرب ايطاليا سنة ١٨٥٩ وأخذ أسيرا

الجيوش ونقلت جثته على السفينة الحربية التى أقلته عند مجيئه من فرنسا الى الاستانة حيث كانت امرأته بانتظاره فاجريت له التعظيمات العسكرية اللائقة برتبته ومنها الى مرسيليا فباريس ودفن فى سراى الانفاليد (١)

وفى يوم ١٦ اكتوبر من السنة المذكورة قررت الحكومة الفرنساوية اعطاء امرأته بصفة استثنائية مبلغ ٢٠ ألف فرنك سنويا معاشا لها

وفى ١٧ محرم (١٠ اكتوبر) ابتدىء اطلاق النار على سباستوبول

وفى ٢٤ محرم (١٧ اكتوبر) هوجمت بكل شدّة بدون جدوى اذ تقهقرت الجيوش المتحالفة أمام العدوّ وخرج خلفهم الجنرال (لبراندى) قاصداً مدينة بلكلاوا وارتدّ على أعقابه بعد موقعة هائلة حصلت فى ٢ صفر سنة ١٢٧١ (٢٥ اكتوبر)

وفى ١٣ صفر (٥ نوفمبر) خرج الروس من قلاعهم وهاجموا الجيش الانكليزى على مرتفعات (انكرمان) وكان الانكليز لايتجاوز عددهم عشر الروس لكنهم ثبتوا حتى أسعفهم الفرنساويون والعثمانيون بالنجدة فعاد الروس بخفى حنين وهذه الموقعة شهيرة فى التاريخ الحربى لما أتاه خيالة الانكليز ومشاتهم من الثبات وقوّة الجأش

وبعد ذلك أوقف القتال بسبب دخول البرد وانتشار الامراض فى الجيوش المحاصرة واستمرت أعمال الحصار والدفاع حول مدينة سباستوبول وداخلها

وفى هذه السنة أرسلت فرنسا وانكلترا دونانماتهما الى بحر بلطيق والبحر الابيض الشمالى والاوقيانوس الباسيفيكى لضرب الثغور الروسية لكن لم تعد هذه الارساليات البحرية بفوائد تعادل مصاريفها فقط استولى الاميرال (نابير) الانكليزى فى ٢٢ القعدة سنة ١٢٧٠ (١٦ أغسطس سنة ١٨٥٤) على جزيرة (رومرسند) فى بحر بلطيق بمساعدة القائد الفرنساوى براجى ديليه وأسر حاميتها

وفى أواخر هذه السنة دارت المخابرات ثانياً فى مدينة ويانه للوصول الى الصلح وايقاف اضرار الحرب قبل اشتدادها وذلك أن فرنسا وانكلترا عرضتا على النمسا أن تحد معهما ضدّ الروسيا بمعنى انها تتعهد بحماية ولايتى الافلاق والبغدان ضدّ الروسيا وأنه لايجوز لاحدى الدول الثلاث المخابرة مع الروسيا الا باطلاع حليفتيها الاخيرتين وأن فرنسا وانكلترا يساعدان النمسا بالقوة لو أعلنت الحرب بينها وبين الروسيا بسبب هذه المعاهدة فقبلت النمسا هذه الاقتراحات مبدئياً وعرضتها على ملك بروسيا اتباعا لشروط الوفاق الذى عقد بينهما فى برلين وسبق ذكره فى موضعه فلم يقبلها فريدريك غليوم بل ألح على فرنسوا

---

في ألمانيا مع المارشال بازين وبعد انتهاء الحرب اشتغل بالسياسة نوعا مع حزب البونابرتيين وتوفي في ٢٨ يناير سنة ١٨٩٥

(١) تأسست هذه السراى سنة ١٦٧٠ في عهد الملك لويس الرابع عشر لتكون ملجأ لمن يصاب بعاهات دائمية من الجند أثناء الحرب تمنعه من القيام بالخدمة وكان تأسيسها عن طلب الوزير لوفوا ودفنت بها جثة نابوليون الاول حينما نقلت في سنة ١٨٤٠ من جزيرة سانت هيلانه التي توفي بها

جوزيف برفضها لكن لم يصغ هذا الاخير لالحاحه بل صدق عليها نهائياً فى ١١ ربيع أول سنة ١٢٧١ ( ٢ دسمبر سنة ١٨٥٤ ) وأعلن البرنس (غورتشا كوف) الذى خلف المسيو (مياندورف) فى سفارة الروسيا بمدينة ويانه انه ان لم تقبل الروسيا الصلح قبل ختام السنة وتتعهد للدول الاربع بطلباتها وهى

﴿ أولا ﴾ عدم استئثار الروسيا بحماية مسيحيي الدولة العلية وحماية ولايتى الافلاق والبغدان

﴿ ثانياً ﴾ حرية الملاحة لجميع الدول فى نهر الطونه

﴿ ثالثاً ﴾ تعديل المعاهدات المختصة بالمرور فى بوغازات الاستانة وخصوصا معاهدة سنة ١٨٤١

﴿ رابعاً ﴾ وضع قاعدة جديدة لتوازن القوى فى البحر الاسود فتكون هذه المعاهدة الثلاثية الجديدة نافذة المفعول فاظهر البرنس غورتشا كوف ارتياحه لاجابة هذه الطلبات غير أنه اعتذر بعدم وجود تعليمات لديه تبيح له التصديق عليها وطلب مهلة قليلة لتبليغ صورة هذه الطلبات لدولته وطلب تعليمات جديدة منها ثم فى ٢٨ دسمبر اجتمع سفراء انكلترا وفرنسا والروسيا والنمسا عند وزير خارجية ويانه وقرروا اعطاءه المهلة المطلوبة و بذلك انتهت هذه السنة والآمال متجهة نحو الوصول الى صلح عمومى يكون وراءه حقن دماء العباد واستمرت الاستعدادات حول سباستوبول وداخلها مدة الشتاء و فى ٢٩ جمادى الاولى سنة ١٢٧١ الموافق ١٧ فبراير سنة ١٨٥٥ هاجم الروس العثمانيين ومن كان معهم من الجنود المصرية التى أرسلت من مصر للمساعدة وقت الحرب طبقاً للفرمانات فى مدينة أوباتوريا فردهم عمر باشا القائد العثمانى على أعقابهم بعد أن قتل منهم عدداً عظيما وقتل فى هذا اليوم سليم باشا الشهير بابى طربوش قائد الفرقة المصرية وكان لهذه الواقعة تأثيراً شديداً على الامبراطور نقولا لأن الجيوش الاوربية لم تساعد العثمانيين فيها بل كان النصر بمجرد فضل الجيوش الاسلامية التى كثيراً ما فازت على الروس وغيرهم بالغلبة ويقال ان ما أصاب الامبراطور الروسى من الكدر عقب هذه الكسرة كان من أكبر دواعى المرض الذى أصابه فى ١٠ جماد الثانى الموافق ٢٨ فبراير من السنة المذكورة فلم يمهله الا ثلاث ليال وألحقه برمسه فى صبيحة ١٢ جمادى الثانى الموافق ٢ مارث عن تسع وخمسين سنة بعد أن حكم الروسيا وملحقاتها ثلاثين سنة وخلفه على سرير الملك ابنه اسكندر الثانى (١)

---

(١) ولد هذا الامبراطور سنة ١٨١٨ وتولي الملك في ٢ مارث سنة ١٨٥٥ بعد موت أبيه الامبراطور نقولا فتمم حرب القرم وأمضي معاهدة باريس في ٣٠ مارث سنة ١٨٥٦ ثم أخذ في اصلاح الشؤون الداخلية والاستعداد للاخذ بالثار فجعل التعليم والخدمة العسكرية اجبارية وفي سنة ١٨٦١ أصدر أمرا بعدم استرقاق المزارعين وتمليكهم منفعة الاراضي التي يزرعونها مقابل دفع جعل معين لملاكها الاصليين وأجاز لهم شراء العين وباع اقليم الاسكا بامريكا الى حكومة الولايات المتحدة بخمسة وثلاثين مليون فرنك ليتفرغ

هـذا وفى ٧ جماى الاولى سـنة ١٢٧١ الموافق ٢٦ يناير سنة ١٨٥٥ أمضى فـكتور عمانويل(١) ملك البيمونتى بايطاليا بمساعى وزيره الشهير المسيودى كافور (٢) معاهدة هجومية ودفاعية ضدّ الروسيا وأرسلت الى بلاد القرم جيشاً مؤلف من ثمانية عشر ألف مقاتل تحت امرة الجنرال (لامارمورا) للاشتراك فى فتح قلعة سباستوبول واذلال الروسيا واستمرّت المناوشات بدون كثير فائدة لاحد الطرفين ثم حصل خلاف بين اللورد (رجلان) القائد العام الانـكليزى والجنرال (كانروبر) القائد العام الفرنساوى أفضت الى تنازل القائد الفرنساوى فى ٢٢ شعبان سنة ١٢٧١ الموافق ١٠ مايو سنة ١٨٥٥ عن القيادة العامة واكتفائه بقيادة فرقة ونيطت قيادة الجيش الفرنساوى الى الجنرال بليسيه الذى اشتهر فى الجزائر بمعاملة المسلمين بكل شدّة وتوحش وهو بعد قليل اتفق مع اللورد رجلان واحتلوا مدينة (كريش) وبوغاز يريكوب وبحر آذاق ليمنعوا وصول المدد الى سباستوبول ومن ذلك الحين أيقن الجميع بقرب سقوط سباستوبول ففى ٢١ رمضان سـنة ١٢٧١ الموافق ٧ يونيو سقطت القلعة المعروفة بالقمة الخضراء (ماملون فير) وفى ٢ شوّال الموافق ١٨ يونيو هاجم الفرنساويون حصن (ملاكوف) وعادوا بدون أن يتمـكنوا من الاستيلاء عليه بعد أن توفى كثير منهم وكذلك لم يفلح الانـكليز فى هجومهم فى اليوم المذكور على قلعة (جران ريدان) وبعد هذه الخيبة بعشرة أيام توفى اللورد رجلان بالـكوليرا وشيعت جنازته باحتفال زائد وأرسلت جثته لتدفن ببلاده بما يليق لها من التجلة والاكرام وخلفه فى القيادة العامة على الجيوش الانـكليزية الجنرال

---

لبلاده وفتح مدينة سمرقند وأخضع امارات خيوه وبخارا وخوقند وغيرها من بلاد آسيا وفي سنة ١٨٦٣ سلب امتيازات بولونيا وفي سنة ١٨٧٦ ساعد الصرب على محاربة الدولة العلية ثم أعلن الحرب عليها وبعد عدة انتصارات أمضى معها معاهدة برلين في ١٣ يوليه سنة ١٨٧٨ لـكن رغما عن اصلاحاته العديدة امتدت فروع حزب النهلست في أيامه وسعوا في قتله مراراً وقتلوه أخيراً في ١٣ مارث سنة ١٨٨١ وخلفه ابنه اسكندر الثالث الذى توفي في أول نوفمبر سنة ١٨٩٤ وتوفي بعده ابنه نقولا الثاني الموجود الان

(١) هو محرر ايطاليا من ربقة الاجانب وموجد وحدتها ولد سنة ١٨٢٠ وعين ملـكا بعد استقالة والده شارل البرت عقب انهزامه أمام جيوش النمسا في ٢٣ مارث سنة ١٨٤٩ ومن ثم اتحد مع وزيره الاول المسيودى كافور اضم شتات ايطاليا فاتحد مع نابوليون الثالث وحاربا النمسا وأخذا منها اقليم لومبارد ثم انضم اليها أغلب ولايات ايطاليا الوسطي ولم تأت سنة ١٨٦٦ الاوانضمت جميع أجزاء ايطاليا ماعدا مدينة رومه وفي ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٧٠ دخلها الايطاليون وبذلك تمت وحدتها وصارت رومه عاصمة لها وتنازل لفرنسا عن مدينة نيس وولاية سافوا نظير مساعدتها له وتوفي سنة ١٨٧٨

(٢) هو السياسي الشهير الذى له اليد الطولي في توحيد ايطاليا واليه يرجع معظم الفخر في جمع شتاتها ولد سنة ١٨١٠ بمدينة تورينو بايطاليا وخدم أولا في العسكرية ثم تركها واشتغل بالعلوم السياسية والاقتصادية حتى عين وزيرا للتجارة سنة ١٨٤٩ وأضيفت الي عهدته وزارة المالية أيضا في سنة ١٨٥١ وفي السنة التالية صار رئيسا لمجلس الوزراء وتوفي في ٦ يونيو سنة ١٨٦١ قبل ان يرى نتيجة أعماله وقبل وفاته زاره الملك فـكتور عمانويل فاوصاه باحتلال رومه مع عدم مس استقلال البابا فيما يختص بالامور الدينية فاحتلها في ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٧٠ أثناء اشتغال فرنسا بمحاربة ألمانيا

جمس سمبسون وفى ١٢ الحجة سنة ١٢٧١ الموافق ١٦ أغسطس انتصر المتحدون فى واقعة (تراكيتو) وفى يوم ٣ الحجة الموافق ١٧ منه ابتدأ اطلاق المدافع على حصن ملاكوف بدون انقطاع تقريباً الى ظهر ٢٥ الحجة الموافق ٨ سبتمبر وفى اليوم المذكور احتل الجنرال (ماك ماهون) (١) الفرنساوى القلعة المذكورة بعد أن دافع عنها الروس دفاع الابطال واحتل الانكليز قلعة جران ريدان ثم التزموا باخلائها بعد نسفها بالبارود لعدم امكانهم البقاء فيها لانهيال المقذوفات الروسية عليهم انهيال الامطار وفى مساء هذا اليوم المشهود أخلى الروس مدينة سباستوبول بعد أن أحرقوها عن آخرها وفى يوم ٢٦ الحجة الموافق ٩ سبتمبر احتلتها الجيوش المتحدة أو بالحرى احتلوا أطلالها

و بعد ذلك سارت الجيوش المتحدة نحو مدينة (قلبرون) فاحتلتها فى ٢ صفر سنة ١٢٧٢ الموافق ١٤ اكتوبر وفى اليوم التالى هدم الروس قلاع مدينة أوتشاكوف وأخلوها قاصدين داخلية البلاد ولولا ابتداء فصل الشتاء الذى يأتى مبكراً بهذه البلاد لما وجدت الروسيا من الجيوش مايكفى لايقاف أعدائها عن مدينة (كيف) المقدسة لديهم

هذا وفى أثناء سنة ١٨٥٥ أطلقت دونانمات فرنسا وانكلترا قنابلها على عدة ثغور فى بحر بلطيق وعطلت التجارة الروسية بالمرة وكذلك حاصرت مدخل البحر الابيض الشمالى ومنعت المراكب التجارية من الدخول فيه بالكلية

وفى المحيط الباسفيكى احتلت الجيوش المتحدة مينا (بترو باولوسك) الشهيرة التى ستكون فى المستقبل من أهم ثغور العالم بعد امتداد الخط الحديدى المشروع فى مده فى أراضى سيبريا لتوصيلها باوروبا ولم يكن للروسيا سلوان عن جميع هذه المصائب المتوالية الا استيلاؤها على قلعة قارص المعلومة الواقعة على حدود آسيا الصغرى فى ١٨ ربيع الاول سنة ١٢٧٢ الموافق ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٥٥

و بعد ذلك لم تحصل وقائع حربية مهمة بل دخلت المسئلة فى دور سياسى لتحقق اسكندر الثانى عدم الفوز خصوصا وان النمسا قد أظهرت له العداوة جهاراً بعد سقوط سباستوبول وانضمت مملكة السويد الى التحالف الاوروبى ضدها

و بيان ذلك أن البرنس غورتشاكوف السفير الروسى بويانه أتته تعليمات فى أواخر سنة

---

(١) ولد هذا القائد الشهير سنة ١٨٠٨ وتخرج في مدرسة سان سير الحربية وترقى الى رتبة ملازم ثاني سنة ١٨٢٧ ثم ترقي تدريجا الى أن وصل الي رتبة فريق سنة ١٨٥٢ وفي سنة ١٨٥٩ أنعم عليه برتبة مارشالي (مشير) واليه يرجع معظم الفخر الذى حازته فرنسا في موقعة (ماجنتا) بايطاليا في ٤ يونيو سنة ١٨٥٩ ولذلك منحه نابوليون الثالث لقب (دوك دى ماجنتا) وفي ٢٤ مايو سنة ١٨٧٣ انتخب رئيسا للجمهورية الفرنساوية عقب استقالة المسيو (تيرس) وفي ٣٠ ينايرسنة ١٨٧٩ قدم استعفاءه الي مجلس النواب لظروف ومناسبات سياسية وبقي معتزلا الاعمال الي أن توفي في ١٧ اكتوبر سنة ١٨٩٣

١٨٥٤ تجيز له المخابرة وجعل أساسها الطلبات الدولية الاربع التى سبق ذكرها فقبلت الدول مع حفظ الحرية لها فى الاعمال الحربية وانعقد مؤتمر جديد فى ويانه فى شهر فبراير سنة ١٨٥٥ حضره اللورد (رسل) من قبل انكلترا والمسيو دروان دى لويس (١) من قبل فرنسا والبرنس غورتشاكوف عن الروسيا والكونت (دى بوول) عن النمسا والوزير عالى باشا عن الدولة العثمانية وبعد عدّة اجتماعات متوالية انفض المؤتمر على أن لاشىء لان المندوبين الفرنساوى والانكليزى طلبا زيادة على الطلبات الاربعة الاصلية أن يكون البحر الاسود حراً لجميع الدول وأن لا يكون للروسيا فيه سوى ثمان مراكب حربية فقط فلم يمكن البرنس غورتشاكوف التصديق على ذلك تمسكا بالاوامر المرسلة اليه ولمناسبة اشتغال الروسيا بمحاصرة سباستوبول واشتداد الحروب حولها من جهة وحصولها على بعض انتصارات جزئية على أعدائها ابطأت فى ارسال التعليمات الجديدة اليه طمعاً فى تغير الاحوال وتحسنها فترفض طلبات الدول بناب قوى لكن خاب ظنها فسقطت سباستوبول فى ٢٥ الحجة سنة ١٢٧١ الموافق ٩ سبتمبر سنة ١٨٥٥ وبذا تظاهرت باقى الدول ضدّها خصوصاً مملكة السويد التى كانت تستعمل معها الروسيا طرق التهديد والوعيد للحصول على بعض امتيازات تختص بالصيد على شواطىء النرويج فابرمت مع فرنسا وانكلترا معاهدة هجومية ودفاعية ضدّ الروسيا فى ١٠ ربيع الاول سنة ١٢٧٢ الموافق ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٥٢ وأعلنتها رسمياً لجميع الدول وبذلك تحققت الروسيا انه صار من المستحيل عليها الانتصار على جميع هذه القوى المتألبة ضدّها ومالت الى السلم قلباً وقالباً منتظرة أقل مفاتحة من الدول الغربية فتلبيها بالقبول

وفى أواخر سنة ١٨٥٥ عرضت النمسا على جميع الدول المتحدة بلسان أكبر وزرائها الكونت (دى بوول) أن يرسل الى الروسيا بلاغا نهائياً بطلبات الدول الاصلية مع ماسبق عرضه من الاقتراحات أثناء المؤتمر الذى انعقد أخيراً بمدينة ويانه فى مارث وأبريل سنة ١٨٥٥ وان لم تجب الروسيا جميع هذه الاقتراحات يستأنف القتال فى ربيع سنة ١٨٥٦ بكل شدّة وصرامة وتنضم الى الجيوش المحاربة جيوش النمسا ومملكة السويد والنرويج

فاقرّت الدول على ذلك وقبلت الروسيا هذه الاقتراحات الاكثر تأثيراً على نفوذها مما رفضته فى السابق وبعد مخابرات طويلة تم الاتفاق على أن ينعقد مؤتمر سام جديد

---

(١) سياسي فرنساوي ولد بباريس سنة ١٨٠٥ وتربى بمدرسة لويز الكبير ولما أتم دروسه دخل في الوظائف السياسية وفي سنة ١٨٤٩ عين سفيرا بلوندره وفي أثناء حكومة نابليون الثالث عين ناظرا للخارجية مرتين الاولى من سنة ١٨٥٢ الي سنة ١٨٥٥ واستعفي لعدم موافقته علي حرب القرم لتحققه انها في صالح الانكليز ولم يعد منها علي فرنسا أقل فائدة والثانية من سنة ١٨٦٢ الي سنة ١٨٦٦ واستقال أيضا لرغبته تداخل فرنسا عسكريا بين النمسا والبروسيا حتي لا تفوز البروسيا بالسيادة علي جميع امارات ألمانيا واخراج النمسا من التحالف الالماني وعدم موافقة الامبراطور له وتوفي سنة ١٨٨٠

فى مدينة باريس لتقرير السلم نهائيا وأمضى بذلك اتفاق فى مدينة ويانه بتاريخ ٢٣ جمادى الاولى سنة ١٢٧٢ الموافق أول فبراير سنة ١٨٥٦ وانعقد هذا المؤتمر فعلا فى باريس فى يوم ١٨ جمادى الثانية الموافق ٢٥ فبراير المذكور والايام التالية واختار لرئاسته الكونت (ولوسكى)(١) وزير خارجية فرنسا وتوالت اجتماعات هذا المؤتمر الى ٢٣ رجب سنة ١٢٧٢ الموافق ٣٠ مارث سنة ١٨٥٦ وفيه أمضيت جميع بنود معاهدة باريس الشهيرة التى أوصلت نابليون الثالث الى أوج فخاره وأعادت لفرنسا سابق مجدها اذ أنها لم تشترك فى مثل هذه الحرب من عهد نابوليون الاول وحفظت للدولة العلية أملاكها من غوائل الروسيا

واليك نص المعاهدة حرفيا نقلا عن الجزء الخامس من كنز الرغائب فى منتخبات الجوائب

﴿ بسم الله القادر على كل شىء ﴾

ان امبراطور الفرنسيس وملكة المملكة المتحدة من بريطانيا العظمى وارلاندا وامبراطور جميع الروسيا وملك سردينيا وسلطان البلاد العثمانية لرغبتهم فى انهاء غوائل الحرب وتلافى ما نشأ عنها من الصروف والمكاره قرّ رأيهم على أن يتفقوا مع امبراطور أوستريا بمقتضى قواعد مقررة على استتباب الصلح وتوطيده وتعهدوا جميعا باستقلال السلطنة العثمانية وابقائها تامة ولهذا القصد نصب المشار اليهم نواباً عنهم مطلق التصرّف فكان من طرف امبراطور الفرنسيس مسيو الكسندر كونت كولونا ولوسكى ومسيو فرنسوى اودلف بارون دبورغينى ومن طرف امبراطور اوستريا مسيو شارلس فرديناند كونت دبواشونستان ومسيو يوسف الكسندر بارون دهبنر ومن طرف ملكة المملكة المتحدة من بريطانيا الكبرى وارلاندا الاكرم جورج وليام فريدريك كونت كلارندون وبارون هيدد هندون والاكرم هنرى رشارد شارلس بارون كولى ومن طرف امبراطور جميع الروسيا مسيو الكسيس كونت ارلف ومسيو فليب بارون برونو ومن طرف ملك سردينيا مسيو كاملى ينسور كونت كافور ومسيو صلفاطور مركيز فيلا مارينا ومن طرف سلطان الدولة العثمانية محمد أمين عالى باشا الصدر الاعظم فى السلطنة العثمانية ومحمد جميل بك متسما بالنيشان المجيدى السلطانى من ثانى طبقة فاجتمع هؤلاء النوّاب المفوض اليهم ابرام الصلح تفويضاً تاما فى مجلس باريس وبعد أن وقع الاتفاق بينهم على هذا المقصد الحميد رأى امبراطور الفرنسيس وامبراطور اوستريا وملكة المملكة المتحدة من بريطانيا الكبرى وارلاندا وامبراطور جميع الروسيا وملك

---

(١) سياسي فرنساوى ولد سنة ١٨١٠ ودخل الجيش الفرنساوى بعد سنة ١٨٣٠ ثم اشتغل بالسياسة سنة ١٨٤٠ وعين سفيرا بلوندره سنة ١٨٥٤ ثم وزيرا للخارجية في السنة التالية واستمر بها خمس سنين وفي سنة ١٨٦٠ عين وزيرا للمدافعة عن مشروعات الحكومة أمام المجالس النيابية وفي سنة ١٨٦٥ عين رئيسا لمجلس شورى القوانين وتوفي سنة ١٨٦٨

سردينيا وسلطان الدولة العثمانية أن فى المصلحة التى يؤول نفعها الى أوروبا ينبغى أن يدعى ملك بروسيا الذى وقع على معاهدة سنة ١٨٤١ الى الاشتراك معهم فى هذا التنظيم الجديد ولعلمهم بما يحصل من ذلك من زيادة الفائدة لتقوية هذا السعى الخيرى طلبوا منه أن يرسل من قبله نوابا يفوّض اليهم مطلق التصرف فى المجلس المذكور فمن ثم ورد من طرفه مسيو اوثون ثيودور بارون مانتفيل ومسيو مكسمليان فريدريك شارلس فرنسوى كونت هتزفلدت ولدنبرغ شونستان ثم بعد ان أبرزوا ما بأيديهم من المحرّرات المؤذنة بتفويضهم ووجدت صحيحة اتفقوا على هذه المواد الآتية

﴿ المادة ١ ﴾ من يوم تاريخ الامضاء بقبول هذه المعاهدة الحاضرة يكون صلح ومودّة بين كل من امبراطور الفرنسيس وملكة المملكة المتحدة من بريطانيا الكبرى وارلاندا وملك سردينيا وسلطان الدولة العثمانية من جهة ومن امبراطور جميع الروسيا من جهة أخرى وكذا بين ورثتهم وخلفائهم ودولهم ورعاياهم على الدوام

﴿ المادة ٢ ﴾ حيث قد حصل الفوز والمرام باستتباب الصلح بين المشار اليهم ينبغى أن تخلى البلاد التى فتحت فى مدّة الحرب أو التى تبوّأ عساكرهم وذلك من كلا الطرفين ويجرى له ترتيب مخصوص فى أسرع وقت

﴿ المادة ٣ ﴾ قد تعهد امبراطور جميع الروسيا بان يردّ لسلطان الدولة العثمانية مدينة قارص وقلعتها وكذا سائر المواضع التى استولت عليها عساكر الروسيا وهى من ملحقات بلاد الدولة العثمانية

﴿ المادة ٤ ﴾ قد تعهد امبراطور الفرنسيس وملكة بريطانيا العظمى وارلاندا وملك سردينيا وسلطان الدولة العثمانية بان يردّوا الى امبراطور جميع الروسيا مدائن سيفاستبول وبالقلافة وقاميش وبوبانورية وقرطش وينى قلعه وكثيرون مع مراسيها وكذا سائر المواضع التى تبوّأتها عساكر الدول المتفقة

﴿ المادة ٥ ﴾ يصدر عفو تام واف من طرف امبراطور الفرنسيس وملكة بريطانيا العظمى وارلاندا ومن امبراطور جميع الروسيا وسلطان الدولة العثمانية لجميع الذين تصدّوا من رعاياهم للاشتراك فى وقائع الحرب والحزب مع العدوّ ومفهوم ذلك يشمل بالنص الصريح أى حزب كان من رعاياهم ممن حارب واستمر مدّة الحرب فى خدمة المحارب

﴿ المادة ٦ ﴾ يردّ من أخذ أسيراً فى الحرب من كلا الطرفين على الفور

﴿ المادة ٧ ﴾ قد صدر اعلان وتصريح من لدن امبراطور الفرنسيس وامبراطور اوستريا وملكة بريطانيا العظمى وارلاندا وملك بروسيا وامبراطور جميع الروسيا وملك سردينيا بأن للباب العالى اشتراكا فى فوائد الحقوق الاوروباوية العامة وفى منافع اتفاق أوروبا وقد تعهدوا بان يحترموا استقلال السلطنة التركية وابقاها تامة وتكفلوا جميعاً بالمحافظة على هذا التعهد وكل أمر يفضى الى الاخلال بذلك يعتبرونه من المسائل التى ينبنى عليها مصلحة

عامة

﴿ المادة ٨ ﴾ اذا حدث بين الباب العالى واحدى الدول المتعاهدة خلاف خيف منه على اختلال الفتهم وقطع صلتهم فمن قبل أن يعمد الباب العالى وتلك الدول المنازعة له الى اعمال القوة والجبر يمهان الدول الاخرى الداخلة فى المعاهدة وسطاء بينهما منعاً لما يتأتى عن ذلك الخلاف من الضرر

﴿ المادة ٩ ﴾ سلطان الدولة العثمانية لعنايته بخير رعاياه جميعاً قد تفضل باصدار منشور غايته اصلاح ذات بينهم وتحسين أحوالهم بقطع النظر عن اختلافهم فى الاديان والجنس وأخذ فى ذمته مقصده الخيرى نحو النصارى القاطنين فى بلاده وحيث كان من رغبته أن يبدى الآن شهادة جديدة على نيته فى ذلك عزم على أن يطالع الدول المتعاهدة بذلك المنشور الصادر عن طيب نفس منه فتتلقى الدول المشار اليها هذه المطالعة بتاكيد ماهامن النفع والفائدة ولكن المفهوم منها صريحاً انها لا توجب حقاً لهذه الدول فى أى حال كان على أن تتعرض كلا أو بعضاً لما يتعلق بالسلطان ورعاياه أو بادارة سلطنته الداخلية

﴿ المادة ١٠ ﴾ الاتفاق الذى جرى فى الثالث عشر من جولاى (تموز) سنة ١٨٤١ وهو الذى تقرر فيه ما للسلطنة العثمانية من الترتيب القديم بخصوص سدّ البوغاز ومضيق جناق قلعة قد أعيد الآن النظر فيه بمواطأة الجميع وما جرى من الحكم به لهذه الغاية على مقتضى الاصول ما بين أهل المعاهدة يلحق الآن بهذه المعاهدة الحاضرة ويبقى معمولا به كانه من متمماتها

﴿ المادة ١١ ﴾ البحر الاسود يكون على الحيادة (وفى الاصل نوتر) ومباحا لتجارة جميع الامم ويمنع ماؤه ومراسيه منعا دائماً عن السفن الحربية سواء كانت للدول التى لها ملك فى شاطئ البحر أو لغيرها ماعدا ما استثنى ذكره فى المادتين الرابعة عشرة والتاسعة عشرة من هذه المعاهدة

﴿ المادة ١٢ ﴾ التجارة فى مراسى البحر الاسود ومياهه مطلقة عن كل مانع فلا تكون عرضة لشىء سوى التنظيمات المختصة بالصحة ورسوم الكمارك والشرطة أعنى الضبطية ويكون اجراؤه على وجه يفيد التجارة تسهيلا واتساعا ومن أجل تامين المصالح المتجرية والبحرية التى يديرها جميع الناس ترخص الروسيا والباب العالى فى نصب قناصل فى مراسيهم الكائنة على سواحل البحر المذكور على ما تقتضيه الحقوق المتداولة بين الامم

﴿ المادة ١٣ ﴾ حيث قد تقرر فى المادة الحادية عشرة أن البحر الاسود يكون على الحيادة لم يبق لزوم ولا غرض لانشاء مسافن (أى ترسانات) بحرية حربية ولا لابقائها فمن ثم تعهد امبراطور جميع الروسيا وسلطان الدولة العثمانية بان لا ينشأ ولا يبقيا شيئاً من هذه المسافن فى ذلك الساحل

﴿ المادة ١٤ ﴾ قد اتفق امبراطور جميع الروسيا وسلطان الدولة العثمانية على تعيين عدد

السفائن الخفيفة اللازم ابقاؤها فى البحر الاسود لمصالح تلك السواحل فمن ثم ينبغى أن يكون هذا الاتفاق ملحقاً بهذه المعاهدة الحاضرة ويكون معمولا بصحته كانه من مكملاتها فلا يلغى ولا يغير مالم يقع عليه رضا الدول الموقعة على هذه المعاهدة

﴿ المادة ١٥ ﴾ من حيث قد تقرر فى الشروط التى جرت فى مجلس ويانه أصول وقواعد تختص بالسفر فى الانهار الفاصلة بين عدّة ممالك أو المارة فيها اتفقت الآن الدول المتعاهدة على أن تكون هذه الاصول جارية أيضاً فى المستقبل على نهر الدانوب (الطونه) وفوهاته من دون فرق ورسمت بان هذا الشرط يعدّ من الآن فصاعداً من الحقوق العمومية لاهل أوروبا واتخذته تحت كفالتها ولا ينبغى أن يكون السفر فى النهر المذكور عرضة لمانع ما ولا لتأدية ضريبة غير مقررة فى الشروط المقيدة فى المواد الآتية فمن ثم لا يوجب جعل على مجرد السفر فى النهر ولا ضريبة على الامتعة التجارية التى تكون فى السفن أما ترتيب الشرطة والكورنتينة الذى يراد انشاؤه لاجل تأمين البلاد التى يفصلها هذا النهر أو يخترقها فيكون اجراؤه على وجه يفيد المراكب سهولة فى السفر على قدر الامكان وما عدا هذا الترتيب فلا يحدث شىء من الموانع للسفر مطلقاً أيا كان

﴿ المادة ١٦ ﴾ من أجل تحقيق الشروط المذكورة فى المادة المتقدمة تعقد مامورية نواب من طرف فرنسا واوستريا و بريطانيا العظمى و بروسيا والروسيا وسردينيا والبلاد العثمانية من كل واحد ويحال على عهدتهم أن يرسموا ويجروا الاعمال اللازمة لازالة الموانع والعوائق من فوهات الطونه ابتداء من استشا وكذا من أماكن البحر المجاورة التى فيها الرمل وغيره والمقصود بذلك جعل هذه المواضع فى كل من النهر والبحر صالحة للسفر وخالية عن كل ما يعوقه على قدر الطاقة والامكان ومن أجل استيفاء المصاريف التى تقتضيها هذه الاعمال وانشاء ما يلزم انشاؤه لتيسير السفر وتأمينه عند فوهات الطونه يرسم أهل المأمورية بحسب أكثرية أصواتهم نحو ضريبة معلومة وجعل موافق وذلك بشرط أن تعامل جميع مراكب الاجيال بالتسوية وهذا الاصل يجرى فى هذا المقصد كما فى غيره

﴿ المادة ١٧ ﴾ تعقد مأمورية من نوّاب أوستريا و بافاريا والباب العالى وورتمبرغ من كل واحد و ينضم اليها أهل مأمورية أقاليم الطونه الثلاثة التى يكون نصبها باستصواب الباب العالى وهذه المأمورية تكون راهنة دائمة و يختص بها ( أوّلا ) أن تجرى التنظيم اللازم لسفر النهر وللشرطة ( ثانياً ) أن تزيل الدواعى المانعة من اجراء الشروط التى تقررت فى معاهدة ويانه على الطونه ( ثالثاً ) أن ترسم وتجرى الاعمال اللازمة فى جميع مجارى النهر ( رابعاً ) أن تحافظ بعد انقضاء مدة المأمورية الاوروپاوية على وقاية المراكب وتيسير سفرها فى فوهات الطونه و فى غير ذلك من الاماكن المجاورة له من البحر

﴿ المادة ١٨ ﴾ قد صار من المعلوم أن المأمورية الاوروپاوية توفى عملها وان المأمورية الساحلية تتم الاعمال المقررة فى المادة المتقدمة فى القسمين الاوّل والثانى فى مدّة عامين

و بعد اطلاع الدول المتعاهدة على ذلك تجرى فيه مذاكرتهم جميعاً حتى اذادوّنت لديها ماجرى تحكم بالغاء المأمورية الاولى ومن ذلك الوقت فمابعده يكون للمأمورية الساحلية الراهنة ما كان للمأمورية الاوروباوية من القدرة والتفويض

﴿ المادة ١٩ ﴾ من أجل توكيد اجراء التنظيمات التى يرسم بها باتفاق واحد على موجب الاصول المشروحة آنفا يكون لكل من الدول المتعاهدة حق فى أن ترسى دائماً فى فوهات الطونه سفينتين خفيفتين

﴿ المادة ٢٠ ﴾ فى مقايضة المدن والمراسى والاراضى على ماذكر فى المادة الرابعة من هذه المعاهدة الحاضرة رضى امبراطور جميع الروسيا لاجل زيادة التامين على الحرية فى سفر الطونه بتعديل تخم بلاده فى بسارابيا فيكون هذا التخم الجديد من البحر الاسود على كيلومتر واحد من شرقى بحيرة برناسولا و يتصل بطريق اكرمان الى وادى طراجان و يجاوز جنوب بلغراد و يستمر فى طول مسافة نهر الفلبوق الى علوسار تسيكا و يتصل بكاتامورى على بروت وعند الوصول الى هذا الحد لايحدث تغيير على التخم القديم بين السلطنتين وتعيين رسم هذا التخم الجديد يكون بمعرفة نوّاب من طرف الدول المتعاهدة

﴿ المادة ٢١ ﴾ الارض التى تخلت عنها الروسيا تكون ملحقة بولاية ملدافيا (الافلاق) تحت سيادة الباب العالى وللسكان تلك الارض أن يتمتعوا بالحقوق والخصائص الممنوحة للولايات و يرخص لهم فى مدّة ثلاث سنين فى نقل مواطنهم والتصرّف فى أملاكهم بلا مانع

﴿ المادة ٢٢ ﴾ ولايتا ولاخيا وملدافيا أى الافلاق والبغدان تبقيان متمتعين تحت رئاسة الباب العالى وكفالة الدول المتعاقدة بالامتيازات والاعفاآت الحاصلة لهم الآن فلا مقتضى لان تحميهم الدول الكافلة بحماية مخصوصة ولا يكون حق مخصوص للتعرض فى أمورهم الداخلية

﴿ المادة ٢٣ ﴾ الباب العالى متعهد بان يحفظ لهاتين الولايتين ادارة أهلية مستقلة و يبقى لهم الحرية فى التدين والاحكام الشرعية والمتجر وسفر البحر والانهار وما عندهم الآن من القوانين والاحكام معمولا به ينظر فيه ولهذه الغاية تجرد مأمورية مخصوصة يكون تالفها باطلاع الدول المتعاهدة واتفاقهم وتجتمع من غير ابطاء فى بخارست (بكرش) مع مامورية الباب العالى و يكون من هم هذه المامورية البحث عن أحوال الولايتين وعرض القواعد اللازمة للتنظيم فى المستقبل

﴿ المادة ٢٤ ﴾ سلطان الدولة العثمانية وعد بان يعقد فى الحال فى كل من الولايتين المذكورتين ديوانا مخصوصاً و يكون تاليفه مبنيا على توكيد مافيه ايصال النفع والخير لجميع الناس على اختلاف درجاتهم و يطلب من كل من هذين الديوانين أن يبين مقاصد الاهلين واستدعاهم فى شأن ترتيب الولايتين ونسبة تلك المامورية الى هذين الديوانين تقرر فى مجلس باريس

﴿ المادة ٢٥ ﴾ بعد ان تعتبر الآراء التى يبديها الديوانان تنهى المامورية الى مجلس

المذاكرة مباشرته هى من العمل وذلك من دون امهال ولا اهمال ويقرّر المقصد الاخير مع الدولة السائدة ويحصل الاتفاق عليه فى باريس بين الدول المتعاهدة وبموجب خط شريف مطابق لشروط هذه المعاهدة يجرى تنظيم أحوال هاتين الولايتين فتجعل من الآن فصاعداً تحت كفالة جميع الدول الموقعة على هذه الشروط

﴿ المادة ٢٦ ﴾ قد قرّر الرأى على أن يكون فى الولايتين المذكورتين عسكر أهلى مرتب لاجل تأمين داخل البلاد وحفظ تخومها فلا يورد مانع ما لترتيب غير اعتيادى لاجل الذب عن الوطن الا ما يدعى اليه الاهلون بالاتفاق مع الباب العالى دفعاً لعدوان من يتطاول عليهم من الاجانب

﴿ المادة ٢٧ ﴾ اذا وقع ما يوجب الخوف على سلب الراحة والطمأنينة داخل الولايتين يتفق الباب العالى مع الدول المتعاهدة على اتخاذ وسائل لدفع ذلك الخلل واقرار الطمأنينة ولا يكون مسوغ لمداخلة عسكرية من غير أن يقع عليه رضا الدول أولا

﴿ المادة ٢٨ ﴾ أقليم الصرب يبقى متعلقاً بالباب العالى على وفق مضمون الخط الهمايونى الذى نص على حقوقه واعفاآته ويكون من الآن فصاعداً تحت مجموع كفالة الدول المتعاهدة فمن ثم يحق للاقليم المذكور أن يحافظ على استقلاله بحكومة أهلية وبالحرية فى التدين والاحكام والمتجر والابحار ( سفر البحر )

﴿ المادة ٢٩ ﴾ حق الباب العالى فى اقامة الخفراء الحافظين كما تم الشرط عليه الآن فى التنظيمات الداخلية هو مضمون ثابت فلا يكون مسوغ لمداخلة عسكرية فى بلاد الصرب من دون أن يقع عليه رضا الدول المتعاهدة أولا

﴿ المادة ٣٠ ﴾ امبراطور جميع الروسيا وسلطان الدولة العثمانية يبقيان ضابطين لما هو فى ملكهما فى آسيا كما كان من قبل الحرب ومن أجل تدارك ما عسى أن يقع من القال والقيل فى ذلك يحقق رسم التخوم ويعدل من دون ايجاب ضرر على أحد الفريقين ولهذه الغاية ترتب جماعة مؤلفة من مأمورين من طرف الروسيا وآخرين من طرف الدولة العثمانية ومأمور فرنساوى وآخر انكليزى ويكون ارسالهم عقب استرداد السفارة بين ديوان الروسيا والباب العالى ويجب انهاء أشغالهم فى مدة ثمانية أشهر من ابتداء اثبات هذه المعاهدة الحاضرة

﴿ المادة ٣١ ﴾ البلاد التى تبوّأتها فى مدة الحرب جيوش امبراطور الفرنسيس وامبراطور أوستريا ومملكة مملكة بريطانيا العظمى وارلاندا وملك سردينيا الى مدّة المعاهدة التى ختمت فى اسلامبول فى ١٢ مارث سنة ١٨٥٤ بين فرنسا وبريطانيا العظمى والباب العالى

وفى ١٤ جون من السنة المذكورة بين أوستريا والباب العالى

وفى ١٥ مارث سنة ١٨٥٥ بين سردينيا والباب العالى تخلى بعد مبادلة اثبات هذه

المعاهدة الحاضرة فى أسرع وقت فأما تعيين المدّة واتخاذ الوسائل لاجراء ذلك فيرتب باتفاق بين الباب العالى و بين الدول التى تبوأت عساكرها تلك الارضين

﴿ المادة ٣٢ ﴾ المتجر فى جلب البضائع وارسالها الى الخارج يبقى ما بين الدول كما كان من قبل الحرب الى أن تجدد المعاهدة التى كانت بين الدول المتحاربة من قبل الحرب أو تبدل بشروط أخرى وتكون رعاياهم معاملة فى سائر الامور الاخرى أحسن المعاملة

﴿ المادة ٣٣ ﴾ المعاهدة التى تمت هذا اليوم بين امبراطور الفرنسيس ومملكة مملكة بريطانيا العظمى وارلاندا وامبراطور جميع الروسيا من جهة جزائر الالاند تكون ملحقة بالمعاهدة الحاضرة وتبقى كذلك معمولا بصحتها كأنها هى جزء متمم لها

﴿ المادة ٣٤ ﴾ قد قرّ الرأى على اثبات هذه المعاهدة وتجرى مبادلته فى باريس فى مدة اربعة اسابيع او قبل ذلك اذا أمكن و بناء على ذلك علم عليها النواب المرخص لهم ووضعوا عليها أختام دولهم حرر فى باريس فى ٣٠ شهر مارس سنة ١٨٥٦ ( أسماء الذين وقعوا على ما ذكر )

| | | | |
|---|---|---|---|
| ولوسكى | يورغينى | بول شونستان هبنر | كلارندون |
| كولى منتوفل | هتر فلدت | اورلوف | برلوكافور |
| وقيل لامارينا | عالى | محمد جميل | |

﴿ مادّة ملحقة بما تقدم ﴾ شروط المعاهدة المتعلقة بالبواغيز مما وقع عليه اليوم لا تكون جارية على سفائن الحرب التى فى خدمة الدول المتحاربة لاخلاء الارض التى تبوأتها العساكر وانما تكون معمولا بها عقب الاخلاء حرر فى باريس فى ٣٠ شهر مارس سنة ١٨٥٦ أسماء الموقعين كما ذكر آنفا

و بعد امضاء هذه المعاهدة اجتمع المؤتمر فى الخمسة أيام الاولى من شهر ابريل وقرر رفع الحصار البحرى عن موانى الروسيا وأن تسحب فرنسا وانكلترا و بيمونتى (سردينيا) عساكرها من بلاد القرم فى مسافة ستة أشهر وأن يعطى للنمسا قدر هذه المدة لاخلاء ولايتى الافلاق والبغدان وثلاثة أشهر لتسليم مدينة قارص وقلعتها الى الدولة العلية وأن اللجنة التى تعين لفصل الحدود بين الدولة والروسيا فى جهات بسارابيا تجتمع فى أول رمضان سنة ١٢٧٢ الموافق ٦ مايو سنة ١٨٥٦ فى مدينة غلاتس للبدء فى عملها

ولما انتهت أعمال المؤتمر الذى اجتمع لاجلها اقترح عليه المسيو ولوسكى النظر فى بعض الشؤون الاوروبية التى يخشى منها على السلم فقرر عدة أمور لا تدخل فى موضوعنا فاضربنا عنها صفحا لعدم الاطالة

ولا يخطر ببال أحد من حضرات القراء الافاضل أن هذه الحرب حصلت لمحض صالح الدولة العلية بل لم يكن القصد منها سوى اضعاف الروسيا وعدم توغلها فى أراضى الدولة العثمانية ولما انتهت الحروب على حسب رغائب الدول أخذوا فى ايجاد الاسباب الموجبة ضعف

الدولة نفسها حتى لا تقوى على معارضتهم وتبقى كحاجز بين الروسيا والبحر الابيض المتوسط ليس الا ولذلك ساعدت الدول ولايتى الافلاق والبغدان على انضمام كل للاخرى وتكوين حكومة شبه مستقلة تسمى حكومة الامارات المتحدة يكون لها أمير واحد ومجلس نوّاب تحت حماية جميع الدول وتأيد ذلك بوفاق أمضى فى باريس فى ٢٩ محرم سنة ١٢٧٥ الموافق ١٩ أغسطس سنة ١٨٥٨ وانتخبت الولايات البرنس كوزا (١) أميراً لهما واعترف الباب العالى بهذا الانتخاب حسما للنزاع ثم أوجدوا مشاكل كثيرة فى بلاد الصرب والجبل الاسود سعياً وراء منحهما الاستقلال تماماً وفصلهما كلية عن الدولة ولتكون هذه الولايات بمثابة موانع فى طريق الدولة وعقبات بينها وبين ممالك أوروبا و بثوا بذور الفساد فى بلاد البوسنه والهرسك فاضطربت وقامت مطالبة بامتيازات كبلاد الصرب والجبل الاسود

ومما زاد فى أحوال الدولة ارتباكا تداخل الدول فى الشؤون الداخلية ومنعها الدولة العثمانية من محاربة الثائرين بتهديدها بقطع العلائق السياسية ونزول سفرائهم الى مراكبهم بل وارسال بعض السفن الحربية لتقرير مطالب الثائرين كما أرسلت فرنسا والروسيا مراكبهما فى سنة ١٨٥٨ الى سواحل الجبل الاسود لمنع الجيوش العثمانية من الدخول بهذا القطر ومعاقبة أميره على مساعدة ثائرى البوسنه والهرسك ومن ذلك وما سنذكره يتضح جلياً أن الدولة كانت فى أحرج المراكز لعدم وجود مخلص لها أو صديق بين جميع الدول المسيحية المتألبة عليها سياسيا لاضعافها وعرقلة جميع مساعيها الاصلاحية فى داخلية بلادها وتداخلها فى أمورها الداخلية المحضة حتى خيل للمتأمل أن سفراء الدول بالاستانة صاروا شركاء لوزراء الدولة فى جميع الاعمال

وفى أوائل سنة ١٨٥٨ توفى الصدر الاعظم رشيد باشا وخلفه فى هذا المنصب الخطير خصوصاً فى هذه الظروف السياسى الشهير عالى باشا وولى فؤاد باشا وزيراً للاشغال الخارجية وكان كل منهما على جانب عظيم من الحذق فى الاعمال السياسية ومتحققاً من مقاصد أوروبا السيئة نحو الدولة الاسلامية الوحيدة فعملا على تسوية جميع المسائل الداخلية بحكمة وسداد رأى حتى لم يدعا لسفراء الدول حقاً فى التداخل فلم يمض طويل زمن حتى عادت السكينة الى بلاد بوسنه وهرسك لوعدأهاليها باصلاح أحوالهم واستبدال العساكر الغير منتظمة الموجودة بها بجيوش منتظمة وكذلك انهيا بحكمتهما مسئلة الجبل الاسود بتحديد التخوم بمعرفة لجنة مشكلة من أربعة أعضاء فرنساوى وروسى وعثمانى وجبلى وقبلا قرار هذه اللجنة مع اجحافه بحقوق السلطنة لكن لما كان السكون وانتظام الاحوال لم يروقا أصلا فى أعين أعداء الدولة والدين ألقوا شباك مفاسدهم فى جزيرة

(١) هو سياسي روماني ولد سنة ١٨٢٠ وترقي في جيش البغدان الي رتبة ميرالاى (كولونيل) ثم انتخب أميراً علي ولايتي الافلاق والبغدان وأكره على الاستعفاء سنة ١٨٦٦ وانتخب مكانه البرنس شارل الموجود الآن

كريد فاصطادوا بها ضعاف العقول من اليونان بطعم الاستقلال والانضمام الى مملكة اليونان المستقلة فحصلت عدّة وقائع سالت فيها الدماء بين المسلمين والمسيحيين وكادت الثورة تمتدّ بها لولا فضل تساهل وزراء الدول بعزل واليها وتعيين من يدعى سامي باشا مكانه لتمر برالامن وارضاء المسيحيين من سكان الجزيرة فرجعت السكينة الى ربوعها وأمكن فؤاد باشا أن يجاوب سفراء الدول على ملاحظاتهم بخصوص هذه المسئلة أن لاحق لهم بالتداخل حيث لا اضطرابات أو قلاقل توجب هذا التداخل الغير شرعى وبمجرد ما انتهت مسئلة كريد مؤقتاً كما هى عادة المسائل التى توجدها الدول بدسائسها فى شرقنا حدثت فى مدينة جده نازلة أكثر أهمية من تلك وهى قيام المسلمين بها على المسيحيين فى يوليو من السنة المذكورة (١٨٥٨) وقتلهم بعضهم واصابة قنصل فرنسا وكاتبه اصابة شديدة وقتل زوجته مما جعل بابا للاوروبيين لرمينا بالتعصب الدينى فلما علم فؤاد باشا بهذه الحادثة لم يشعها بل أرسل من يدعى اسمعيل باشا ببعض الجند لتحقيقها ومجازاة القاتلين بالاعدام بدون طلب تصريح من الاستانة كما جرت به العادة لكن قبل وصول هذا المندوب علمت الدول بهذه المذبحة وأرسلت فرنسا وانكلترا لائحة للباب العالى بالاشتراك يخبرانه بها أنهما أرسلتا مراكبهما اليها بتعليمات شديدة فأجابهم فؤاد باشا بان الدولة لم تهمل واجبها بل رخصت لاسمعيل باشا باجراء اللازم وان الدولة مستعدّة لتقدير التعويضات الواجب دفعها لمن لحقهم ضرر بالاتحاد مع من تعينهم الدولتان لهذا الغرض

اطلاق الانكليز المدافع على مدينة جدة

وفى هذه الاثناء أتى نامق باشا والى مكة الى جدّة وقبض على المجرمين وحاكمهم فحكم على كثير منهم بالاعدام لكن لم يمكن تنفيذ هذه الاحكام الا بعد استئذان الدولة وفى غضون محاكمتهم وصلت الى ميناجدّة سفينة حربية انكليزية اسمها سيكلوب وطلب ربانها من نامق باشا تنفيذ الحكم فوراً وأمهله أربعة وعشرين ساعة وان لم يعدم المحكوم عليهم يطلق مدافعه على المدينة ولما أجابه نامق باشا بعدم امكانه اجابة طلبه سلط مدافعه على هذه المدينة واستمر اطلاقها عليها نحو عشرين ساعة ولولا وصول السفينة المقلة اسمعيل باشا المندوب العثمانى لدمرت المدينة عن آخرها فانه لما وصل هذا المندوب أوقف ضرب النار ونزل ومعه العساكر العثمانية والانكليزيه وأمر بشنق المحكوم عليهم بالاعدام فشنقوا وانتهت هذه المسئلة ورجعت العساكر الانكليزية الى سفينتهما بدون أن يجدوا علة للبقاء وما الفضل فى حسم كل هذه النوازل الا لفؤاد باشا صاحب الرأى الصائب

وقد ظهر فضله واعترف به العدوّ قبل الصديق وجاهر كل ذى ذمة بأن هذا الرجل من أهمّ سياسى عصره فى مسئلة الشام التى حصلت فى سنة ١٢٧٦ الموافقة سنة ١٨٦٠ وأوجبت تداخل الدول عموماً وفرنسا خصوصاً بحجة حماية المارونية وبيان ذلك أنه لما حسمت جميع المشاكل واستتب الامن نوعاً فى ولايتى الافلاق والبغدان وولايات الصرب والجبل الاسود بتساهل الباب العالى واعترافه بانتخاب كوزا والياً لولايتى الافلاق والبغدان معاً

حادثة الشام واحتلال فرنسا لها

وبتولية ميشيل أميراً على الصرب بعد والده ( ميلوش ) الذى انتخبه نواب الاهالى فى جمعيتهم العمومية المسماة اسكوبشينا حتى لا تدع للدول سبيلا للتداخل وجه أرباب الغايات مساعيهم الى بلاد الشام لاستعدادها لقبول بذور الفساد أكثر من باقى الولايات بسبب تعدد الجنسيات واختلافهم فى الدين والمشرب ووجود العداوة بينهم خصوصاً بين المارونية والدروز ومساعدة فرنسا للمارونية ومساعدة انكلترا للدروز فقامت بينهم أسباب الشقاق ودواعى الخلاف الى ان تعدّى المارونية بالقتل على الدروز فى أواخر سنة ١٨٥٩ وقام الدروز للاخذ بالثار ثم امتدت الفتنة الى جميع أنحاء الشام وكثر القتل والنهب وحصلت عدة مذابح فى طرابلس وصيدا واللاذقيه وزحله ودير القمر ومنها الى مدينة دمشق الشام وامتاز الامير عبد القادر الجزائرى (١) بحماية كثير من المسيحيين فكافأته فرنسا بمنحه وسام اللجيون دونور (٢) من درجة جران كوردون واتهم الاوروبيون عثمان بك قائممقام حصبية بتسهيل المذبحة وكذلك اتهموا أحمد باشا والى دمشق بمساعدة الدروز وقتل كل من التجأ الى دار الحكومة من المسيحيين وأذاعوا هذه المفتريات على رجال الدولة فى جميع الارجاء تمويهاً وتغريراً ليكون لهم سبب مقبول لدى الرأى العام فى بلادهم اذا تداخلوا فعلياً وجرّ تداخلهم الى حرب عظيمة كحرب القرم

فعرضت فرنسا على الدول انها مستعدة لارسال جيوشها الى بلاد الشام لقمع الفتنة ومجازاة مثيريها وحماية المارونية فلم تقبل الدول هذا الاقتراح بادىء الرأى خوفا من عدم خروج فرنسا من الشام لو احتلتها عسكريا وضحت أموالها ورجالها ولما حصلت مذبحة دمشق التى قتل فيها نحو ستة آلاف نسمة على ما يقولون أرسلت جميع الدول الى الباب العالى تهدده بالتداخل ان لم يضع حداً لهذه الفتن لكن بلاغاتهم لم تكن اشتراكية لعدم اتحادهم فجمع فؤاد باشا جميع الوزراء وأظهر لهم ضرورة تعزيز الجيش العثمانى بهذه البلاد واخماد الثورة قبل أن يتفق الدول على التداخل عسكريا فتقرر رأيه بالاجماع وانتدب هو لقيادة الجيوش بها ومجازاة كل من تظهر ادانته

---

(١) هو الامير الجزائرى الذى دافع عن بلاده حين احتلها الفرنساويون سنة ١٨٣٠ دفاعا لم يسمع بمثله في بلاد الشرق التى وطئتها الاجانب واستمر في دفاعه سبعة عشر سنة متوالية انتصر في خلالها عدة مرات واعترفت له فرنسا وجميع الامم بالبسالة والشجاعة ولما استشهدت اغلب عساكره وكثر توارد الجيوش الفرنساوية تباعا الي الجزائر وأيقن ان لامناص له من التسليم سلم نفسه في ٢٣ دسمبر سنة ١٨٤٧ الى القائد ( لاموريسيير ) بعد ان وعده باسم فرنسا ان الحكومة لا تتعرض له مطلقا بل تبيح له التوجه أينما يريد لكن لم يعترف نابليون الثالث بهذا الوعد بل سجنه نحو ستة عشرة سنة وأفرج عنه سنة ١٨٦٣ بشرط أن لا يعود الي الجزائر وعين له مائة ألف فرنك سنويا فهاجر الي مدينة بورصة ثم الي مدينة دمشق وبها أقام الي ان انتقل الي رحمة مولاه في سنة ١٨٨٣ جزاه الله عن الدين الاسلامي وجميع المسلمين خير الجزاء

(٢) هو نيشان أسسه بونابرت في ١٩ مايو سنة ١٨٠٢ حين كان قنصلا أولا قبل ان يصير امبراطورا ويلقب نابليون الاول وقد طرأت علي نظام هذا النشان عدة تغييرات تبعا لتغير هيئة الحكومة لكن لم يزل باقيا لتعلق الاهالي به لانه يذكرهم انتصاراتهم العديدة علي أوروبا

فسافر هذا الشهم على جناح السرعة ووصل الى بيروت فى ٢٨ الحجة سنة ١٢٧٦ الموافق ١٧ يوليو سنة ١٨٦٠ ومنها قصد مدينة دمشق فى خمسة آلاف جندى وشكل مجلساً حربياً وحاكم رؤساء الفتنة بكل صرامة وشنق كثيراً ممن ظهرت لهم يد عاملة فيها سواء كان من الدروز أو المسيحيين أو المسلمين أو من نفس كبار مستخدمى الحكومة وبذل همته فى اعادة الامن الى البلاد

وفى أثناء ذلك اتفقت الدول على أن ترسل فرنسا الى الشام ستة آلاف مقاتل لمساعدة الجيش العثمانى على اعادة السكينة لو عجز عن تأدية هذه المهمة وفى ٢٢ محرم سنة ١٢٧٧ الموافق ١٠ أغسطس سنة ١٨٦٠ نزلت الجنود الفرنساوية الى بيروت تحت قيادة الجنرال (دوبول) فوجدت السكينة ضاربة أطنابها فى ربوع الشام ولم تجد سبيلا لعمل أىّ حركة عسكرية لاظهار شجاعتها ونظامها

ومما يدل على تعنت الدول وتعمدهم مشاركة الدولة فى أمورها الداخلية على اى حال اتفاقها فى باريس بمقتضى اتفاق تاريخه ١٥ محرم الموافق ٣ أغسطس على انه يجوز ابلاغ الجيش المحتل الى اثنى عشر ألفاً مع بقاء هذه الجيوش الى أن يستتب الامن ويجازى الساعون بالفساد على ما جنت أيديهم كان الدولة أهملت فى مجازاتهم وفى ارجاع السكينة الى البلاد مع أنه لم يكن ثمت ضرورة لارسال جيش أوروبى الى الشام مطلقاً لقيام فؤاد باشا بمهمته أحسن قيام ومع ذلك صمم القائد الفرنساوى على ارسال فرقة من ألف وخمسمائة جندى الى جبل لبنان لاعادة المارونية الىّ بلادهم وحمايتهم من تعدّى الدروز واستمر الاحتلال الفرنساوى الى ٢٧ القعدة سنة ١٢٧٧ الموافق ٥ يونيو سنة ١٨٦١ وفيه سحبت الجيوش الفرنساوية آتية الى بلادها بعد ان أوهمت مسيحيي الشام انهم حموهم من تعدّى المسلمين المتعصبين المتوحشين على زعمهم ونسيت فرنسا ما أتته جنودها فى بلاد الجزائر من الاعمال الفظيعة التى يابى القلم تسطيرها خصوصاً ما أتاه الجنرال بيليسيه من اعدام قبيلة بنسائها وأطفالها حرقا داخل الغار الذى التجأوا اليه

ولكن أبت سياسة أوروبا بالمسيحية الا التعامى عن كل ما يأتونه مع الشرقيين وتجسيم أقل حادث يحدث فى الشرق ولو بايعازهم ترويجاً لسياستهم ونسوا أقوال المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى السلام المسطرة فى نسخ الانجيل المتداولة بين ايدى جميع الطوائف المسيحية القاضية بان يعامل الانسان غيره بما يريد أن يعامله الغير به

وفى أثناء ذلك انعقدت بمدينة بيروت لجنة أوروبية مشكلة من مندوبين معينين من قبل الدول الموقعة على معاهدة باريس و بعد مداولات طويلة اتفقوا مع فؤاد باشا على أن يعطوا للمسيحيين الذين حرقت دورهم مبلغ خمسة وسبعين مليون قرش بصفة تعويض وأن يمنح أهالى الجبل حكومة مستقلة تحت سيادة الدولة العلية يكون حاكمها مسيحى المذهب وأن يكون للباب العالى حامية من ثلثمائة جندى تقيم فى حصن على الطريق الموصل من

دمشق الى بيروت
ثم عين بالاجماع من يدعى داود افندى الارمنى الجنس أميراً للجبل لمدّة ثلاث سنوات لايمكن عزله فى خلالها الا باتفاق الدول و بذلك انتهت أيضاً هذه المسئلة بحسن مساعى فؤاد باشا كما انتهت باقى المسائل التى سبقتها ولو بكيفية مجحفة بحقوق الدولة الأ انه بهذا التساهل منع تداخل الدول بصفة شديدة وألزم فرنسا بسحب جيوشها من الشام
و بعد خروج الجيوش الفرنساوية من بيروت بعشرين يوما توفى السلطان عبد المجيد خان وانتقل الى رحمة مولاه فى ١٧ ذى الحجة سنة ١٢٧٧ ه الموافق ٢٥ يونيو سنة ١٨٦١ ودفن رحمه الله فى قبر أعدّ له فى حياته بجوار جامع السلطان سليم وعمره أربعون سنة وكسور ومدّة حكمه ٢٢ سنة ونصف وهو الذى أنشأ النيشان المجيدى العلى الشأن وقدّمه على نيشان الافتخار الذى أسسه السلطان الغازى محمود الثانى وفى يوم موته بويع بالخلافة لاخيه

## ٣٢ « السلطان الغازى عبد العزيز خان »

المولود فى ١٤ شعبان سنة ١٢٤٥ الموافق ٥ فبراير سنة ١٨٣٠ وفى ١٨ ذى الحجة سنة ١٢٧٧ الموافق ٢٦ يونيه سنة ١٨٦١ توجه فى موكب حافل الى ضريح سيدى أبى أيوب الانصارى وهناك تقلد السيف السلطانى على ما جرت به العادة ومنه سار لزيارة قبر السلطان الغازى محمد الثانى فاتح الاستانة ثم قبر والده السلطان محمود الثانى رحمهم الله جميعاً وكانت فاتحة أعماله أنه أقر الوزراء فى مراكزهم ماعدا ناظر الجهادية رضا باشا فانه أبدل بنامق باشا وهاك ترجمة أمر بقاء الوزارة المؤرخ ٢٣ ذى الحجة سنة ١٢٧٧ الموافق ٢ يوليو سنة ١٨٦١ نقلا عن منتخبات الجوائب
وزيرى سمير المعالى محمد أمين عالى باشا
قد صار هذه المرة بالارادة الازلية ارادة جناب مالك الملك جلوسنا على تخت أجدادنا العظام المؤيد بالسعادة والبخت ولكون درايتك وصداقتك من المجرب أبقى خطب الصدارة الجسيم فى عهدة رويتك وكذا سائر الوكلاء والمامورين مقررون على مناصبهم ثم انى باكمال سعادة الحال بمنه تعالى لدولتنا العلية واستحصال رفاهية الحال والراحة لاتباع سلطنتنا السنية اجمالا بلا استثناء وبحصول هذه الامنية الخيرية و بكون القوانين الاساسية العدلية المؤسسة على تأمين النفس والعرض والمال لجميع سكان الممالك المحروسة مؤكدة ومؤيدة من طرفنا أعلن ( ماذكر ) للجميع ومن حيث أن الشريعة الشريفة التى هى عدالة محضة مدار لتأييد السلطنة السنية وأساس لشوكتها حالة كون أحكامها المنيفة لجميعنا دليلا على طريق السلامة كانت الدقة الزائدة فى الامور الشرعية مطلوبا لنا قطعاً ولما كان الباعث لبقاء كل دولة ولتزايد شوكتها وراحتها كون رعيتها مطاوعة للقوانين

الموضوعة وأن لاتجاوز الصغار والكبار منها دائرة وظيفتها وحتمها كان محققا لدينا أن الذين يسلكون فى هذا الطريق يكونون مظهراً للمكافأة كما ان الذين يوجدون فى حركات مخالفة تحيق بهم المجازاة و بناء على هذا كون الداعين والعباد والمامورين جميعاً فى دولتنا العلية ان يستقيموا فى خدمتهم و يوفوا وظائف مأموريتهم بالصداقة هو من جملة أوامرنا المؤكدة السلطانية ومن المسلم كون المصالح العظيمة الدولية قريناً لحسن النتيجة بتوفيق حضرة موفق الامور وباقدام أركان الدولة واتفاقهم وان ايصال الامور لدولتنا العلية ملكية كانت أو مالية الى درجة الانتظام والمضبوطية انما هو بكمال التشبث بهذه القاعدة المسلمة يعنى كونه منوطاً بالاهتمام والغيرة من طرف الجميع على وجه الاستقامة والخلوص ومن طرفنا نحن أيضاً منوط بالهمة والنظارة على أى وجه كان و بالاتباع التام من جانب كل دائرة وادارة لهما المخصوصة السلطانية التى تصرف فى حق اندفاع المشكلات المالية عن قريب بعون الله تعالى وهى التى عرضت منذ مدة ناشئة عن أسباب مختلفة وكذا يعلم بأنه لم يكن لذاتنا فكر وأمل سوى اعادة شأن دولتنا وزيادة اعتبارها المالى ورفاهية أتباعنا الغرض المتعاقب من خصوص المتصرفات الكاملة فى استحصال أموال الدولة وصرفها والاصلاحات الموجبة لوقايتها من التلف والسرف عبثاً والدقة فى محافظة عساكرنا البرية والبحرية التى هى احدى أسباب الشوكة لدولتنا العلية واستكمال رفاهيتهم فى كل حال ومحل وصرف الجهود وقتاً فوقتا فى تأكيد المناسبات والموالاة مع الدول الاجنبية الذين هم محبو سلطنتنا السنية وكذا الرعاية لاحكام المعاهدات المنعقدة مستمرة والحاصل ان علم الجميع بأن وظائف الاستقامة والعفة والصداقه والغيرة هى أساس العمل والباعث للفلاح والسلامة فى ادارة الدولة فى كل جهة وفرع لها كل ذلك من ارادتنا القطعية وانى أعلن أيضا حيث كان مرادى السلطانى لا يقبل الاستثناء كان الذين هم من الاديان والاجيال المختلفة يرون عموماً من طرفنا الهمايونى دقة متساوية فى العدالة والتأمين والهمة وحسن الحال وأكرر ان التوسع التدريجى الذى هو ترقيات صحيحة توجب غبطة حال الجميع فى ظل سلطنتنا لاسباب الثروة واليسار العظيمة التى أنعم الله بها على مملكتنا وكذا قضية الاستقلال المهمة لدولتنا العلية من أعز الافكار عندنا وفقنا جميعاً الفياض المطلق بحرمة حبيبه الأكرم آمين فى ٢٣ ذى الحجة سنة ١٢٧٧ اه

ويؤخذ من نص هذا الامر أن السلطان رحمه الله كان يود السير على خطة أسلافه من اصلاح الأحوال ومعاملة جميع الرعايا على السواء بدون نظر لجنسهم أو دينهم حتى لا يكون لدول أوروبا سبيل للتداخل فى شؤون الدولة بحجة طلب هذه المساواة ثم أنشا نشان شرف جديد لمكافأة من يقوم بخدمة الدولة والملة والدين بكل صداقة وأمانة ودعاه بالعثمانى نسبة الى السلطان الغازى عثمان الاول رأس هذه الدولة المحروسة الملحوظة بالعناية الربانية يحيطها سياج التعطفات الالهية حتى ان تألب جميع الدول المسيحية عليها لم يزدها

الا رسوخا وثباتا وقد أراحها هذا التداخل نوعاً ما بفصل بعض العناصر المغايرة للعنصر الاسلامى فى الجنس والدين عنها فانها كانت أهم الشواغل للدولة مع عدم وصول أى فائدة منها اليها

ولنذكر هنا قبل تفصيل ما حصل بالدولة من الاصلاحات تحت رعاية السلطان عبد العزيز ماجرى من المناقشات ودار من المخابرات بين الباب العالى والدول بشأن امارات الجبل الاسود والصرب والافلاق والبغدان فنقول

﴿ الجبل الاسود ﴾ أنه لما تجزأت مملكة الصرب الاصلية عقب موت الملك دوشان وقتل ولده أوروك استقل أحد أشراف الصرب ببلاد الجبل الاسود واسمها تشيرناجوره وجزء عظيم من بلاد الصرب وجعل مقرّ حكومته مدينة اشقودره ثم لما فتحها العثمانيون وطردوه منها تحصن بالجبل وبه أمكنه صدّ هجمات العثمانيين عنه لوعور المسالك وصعوبة المفاوز وبذلك لم يتيسر للدولة ضم هذا الاقليم بنوع قطعى مطلقاً

وفى سنة ١٤٩٩ انتقلت حكومة الجبل لى أيدى رئيس الاساقفة وانحصرت السلطة الدينية والملكية فى شخص واحد وابتدأت العلاقات بينه وبين الروسيا لاتحاد الدين والمذهب وبحسن سياسة الامبراطور بطرس الاكبر صارت هذه العلاقات الحبية شبيهة بتابعية سياسية اذ صار يتظلم اليه الاهالى لو اعتدى عليهم حاكمهم أو مسهم بسوء ونفس رئيس الاساقفة كان يتوجه عند تنصيبه الى مدينة سان بطرسبورج ليثبته القيصر فى وظيفته الدينية بصفة رئيس دينى لجميع الارثوذكس

ولما تعين البرنس (دانيلو) أو دانيال (١) حاكما لهذا الجبل فصل السلطة الملكية عن الدينية مع بقاء وظيفة رئيس الاساقفة فى العائلة الاميرية ومن بعدها فى أقدم العائلات الشريفة ولتجرّد دانيلو عن الصفة الدينية تقرّب من النمسا جارته لتساعده على حفظ استقلاله بما أن الدولة العلية أرادت اتخاذ هذا التغيير فى حكومة البلاد سبباً للتداخل فيها وتقرير سيادتها عليها وأرسلت القائد الشهير عمر باشا لمحاربة دانيلو سنة ١٨٥٣ قبل أن يشتغل بمحاربة الروسيا ولولا توسط النمسا والروسيا لاحتل عمر باشا جميع بلاده لكن ظروف الاحوال اضطرّت الباب العالى لايقافه قبل تتميم مأموريته اتباعا لمشورة أوروبا

ولما انعقد مؤتمر باريس بعد انتهاء حرب القرم كما مر طلب الامير دانيلو من مندوبى الدول الاعتراف باستقلاله فلم يحز طلبه قبولاً لديهم بل نصحوا له بالانقياد للدولة وهى فى مقابلة ذلك تعطيه جزأ قليلا من بلاد الهرسك لتوسيع حدوده وتمنحه رتبة مشير وترتب له مرتباً مالياً على سبيل المساعدة فحنق لعدم نوال استقلاله لكنه التزم بالانصياع لنصائح أوروبا خوفا من عدم مساعدتها له لو حاربته الدولة

(١) ولد هذا الامير سنة ١٨٢٨ وتربى في مدينة ويانه عاصمة النمسا وتولى بعد بطرس الثاني وتوفي مقتولا سنة ١٨٦٠

وفى سنة ١٨٥٨ حصلت عدّة وقائع حربية بين أهالى الجبل وعساكر الدولة بسبب عدم الاتفاق على الحدود فتداخلت الدول ومنعت الحرب وعينت لجنة من مندوبيها ومندوب من طرف الدولة وآخر من حكومة الجبل لفصل الحدود ففصلتها ثم قتل البرنس دانيلو فى ٢٥ محرم سنة ١٢٧٧ الموافق ١٣ أغسطس سنة ١٨٦٠ عن بنت وأخ فاستلم زمام الاحكام البرنس نيقولا ابن أخيه ميركو ولمناسبة حصول بعض حركات ثورية فى بلاد الهرسك ثار لمساعدتهم كثير من أهالى الجبل بايعاز من البرنس ميركو فسحقهم عمر باشا الذى أرسله الباب العالى لاخماد ثورة الهرسك ثم حاصر امارة الجبل من جميع جهاتها وأمر البرنس نيقولا أن يحل الجيوش التى جمعها على الحدود والا يضطر هو لتفريقها ولما لم يصغ الامير لهذا البلاغ أغار عمر باشا على بلاد الجبل من ثلاث جهات فى آن واحد وجعل الثلاث فرق تحت قيادة عبده باشا ودرويش باشا وحسين عونى باشا

وبهذه المناورة العسكرية المهمة التئمت الجيوش الثلاثة فى قلب الجبل بعد أن هزمت وفرقت كل ماوقف فى طريقها ولم يكن بذلك للبرنس نيقولا بدّ من امضاء الشروط التى عرضت عليه من قبل عمر باشا للتوقيع عليها فامضاها رغم أنفه فى ٤ ربيع الاول سنة ١٢٧٩ الموافق ٣١ أغسطس سنة ١٨٦٢

ومن أهمّ ماجاء بها أن لا يقيم ميركو والد البرنس نيقولا فى بلاد الجبل مطلقاً وأن تبنى الدولة حصوناً وقلاعاً على الطريق الموصلة بين مدينة اشقودره وبلاد الهرسك مارة ببلاد الجبل وبدأت الجنود العثمانية على الفور فى بناء حصن داخل بلاد الجبل على هذا الطريق الامر الذى لم يسبق لها أصلا فى هذه البلاد

لكن تعرضت الدول لنفاذ هذه المعاهدة بحجة انها مجحفة بحقوق أمة مسيحية وطلبت من الباب العالى بكل الحاح خصوصا فرنسا والروسيا عدم ابعاد البرنس ميركو عن بلاده فتساهل شفقة منه لكنه صمم على بناء الحصون بالصفة المشروحة ومع ذلك تخوفا من تداخل الدول بالقوة كما حصل فى بلاد الشام أعلن الباب العالى الامير فى ٢٣ رمضان سنة ١٢٨٠ الموافق ٣ مارث سنة ١٨٦٤ أنه يتنازل عن بناء القلاع بأرضه مؤقتا اذا تعهد الامير بحفظ هذه الطريق والتعويض مالياً عما يسلب من أموال التجار العثمانيين فاجاب الامير نيقولا هذا الطلب منشرحا بما أن وجود الجيوش العثمانية فى وسط بلاده يضعف استقلالها ويميت همتهم وشجاعتهم

ولم يهدم العثمانيون القلعة التى أقيمت فى وسط بلاد الجبل الا فى محرم سنة ١٢٨١ الموافق يونيو سنة ١٨٦٤ بعد ان اقاموا على الحدود قلعة منيعة على قمة عالية تصل مقذوفات مدافعها الى ابعاد شاسعة من بلاد الجبل وبذلك انتهت هذه الحروب وهدأت بلاد الهرسك أيضا

﴿ بلاد الصرب ﴾ أنه بمقتضى المعاهدات السابقة ومعاهدة باريس الاخيرة المؤرخة ٣٠

مارث سنة ١٨٥٦ تكون جميع بلاد الصرب مستقلة تحت سيادة الباب العالى و يكون للدولة حق فى وضع حامية فى ست قلاع بما فيها قلعة مدينة بلغراد عاصمة الصرب واشترط فيما بعد أن لا يسكن المسلمون خارجا عن هذه الحصون ( انظر لهذا التعصب )

لكن لم تتبع هذه النصوص تماماً بل أقام كثير من المسلمين بين منازل المسيحيين ووزع الباشا القائد للحامية عدّة قره قولات فى المدينة لحمايتهم ولما حصلت ثورة الهرسك سنة ١٨٦١ وما بعدها وتبعها حرب الجبل الاسود خشى الباب العالى من مساعدة الصربيين للثائرين فجمع على الحدود عدداً عظيماً من جيوش الباشيبوزوق ولعدم انتظام هؤلاء الجنود حصلت عدّة مشاجرات بينهم و بين أهالى الصرب سالت فيها الدماء ولما وصل خبر هذه المناوشات الى بلغراد تذمر الاهالى وأظهروا العداوة للعثمانيين وحدث فى غضون ذلك أن تعدى أحد الاهالى فى ١٢ الحجة سنة ١٢٧٨ الموافق ١٠ يونيو سنة ١٨٦٢ على جندى عثمانى فقتله الجندى وتعصب كل فريق لاحد الفريقين وحصلت مقتلة كادت تعم البلد فتداخل القائد العثمانى بجنوده و بعد أن احتمى جميع المسلمين الساكنين بين النصارى فى القلعة مع نسائهم وأطفالهم سلط الباشا مدافع القلعة على المدينة وأطلقها عليها مدّة أربع ساعات متواليات ثم تداخل القناصل بين الفريقين فابطلوا اطلاق القنابل وقبل الباشا اخلاء قره قولات المدينة واقتصار المسلمين على السكن داخل حدود القلعة و بعد هذه الحادثة أرسل البرنس ميشيل خطابا بتاريخ ١١ محرم سنة ١٢٧٩ الموافق ٩ يوليو سنة ١٨٦٢ الى اللورد ( رسل ) ناظر خارجية انكلترا يطلب منه التوسط لدى الباب العالى لحسم هذه النازلة فاجابه اللورد بما يؤخذ منه عدم تعضيد الحكومة الانكليزية له فى طلباته وأنها تنصح له بالانصياع لاوامر الدولة صاحبة السيادة

ثم بناء على الحاح فرنسا والروسيا انعقد بالاستانة مؤتمر من مندوبى الدول الموقعة على معاهدة باريس و بعد مناقشات طويلة طلب فى خلالها مندوب فرنسا انجلاء العثمانيين من قلعة بلغراد بدون أن يعضده باقى المندوبين تقرّر بالاغلبية اخلاء قلعتين من الجنود العثمانية و بقائها فى أربع قلاع فقط وهى بلغراد وسمندريه وفتح اسلام وشباتس وأن لا يتداخل القواد العثمانيون فى ادارة البلاد الداخلية مطلقاً وأن يلزم المسلمون القاطنون خارج القلاع الاربع المذكورة ببيع ممتلكاتهم والمهاجرة عن البلاد أو الاقامة فى حدود الحصون وعلى حكومة الصرب أن تدفع لهم تعويضات مالية عن ذلك وأمضى بذلك اتفاق بتاريخ ١١ ربيع أول سنة ١٢٧٩ الموافق ٨ سبتمبر سنة ١٨٦٢ أبلغ الى الصرب فى دسمبر من السنه المذكورة وغنى عن البيان أن تحظير الاقامة فى الصرب على المسلمين من أقبح ضروب التعصب التى يرميننا بها الاوروبيون ولكن سيحفظ التاريخ هذه الحوادث الدالة على براءتنا منه واتصافهم به دون غيرهم

﴿ ولايتى الافلاق والبغدان ﴾ ذكرنا أن هاتين الولايتين انتخبتا البرنس كوزا أميراً عليهما خلافاً لشروط معاهدة باريس وأن الباب العالى تساهل فى الاعتراف بهذا الانتخاب بنوع الاستثناء بشرط انه بعد هذا البرنس تعود الامور الى ما جاء بمعاهدة باريس ونقول الآن كوزا تسمى بعد ذلك بالبرنس ( جان السكندر الاول ) وفى أواخر سنة ١٨٦١ صدر فرمان يجيز له توحيدة ادارة الامارتين أيضاً و بأن يكون لهما مجلس نواب واحد ووزارة واحدة ثم سعى هذا الامير فى اصلاح الشؤون الداخلية وحول أنظاره الى مسئلة الاوقاف المخصصة للاديرة والكنائس و بعض الاديرة الخارجة عن البلاد مثل دير جبل طورسينا وديرانوس ببلاد الترك والاماكن المقدسة بمدينة أورشليم فان هذه الاملاك بلغت نحو جزء من ثمانية من مجموع أطيان البلاد وايرادها يذهب خارجها الى بطريرق الاستانة ليوزع على هذه الاديرة فقال البرنس بضم جميع هذه الاوقاف الى جانب الحكومة وهى تقوم بدفع مبلغ معين لنفقات الكنائس الداخلية والاعمال الخيرية الاهلية فقط ولا تدفع شيئاً للاديرة الخارجية وعضده مجلس النواب وعموم الاهالى فى هذا المشروع لكن عارضه فيه بطريرق الاستانة وجميع الرهبان وتداخلت الدول والباب العالى فعضده فريق وعارضه آخر وأخيراً لما رأى الامير ان الاقدام أضمن لنجاح مشروعه أصدر أمراً سامياً فى سنة ١٨٦٣ بمصادرة أملاك الاوقاف بأجمعها وخوفاً من اعتراض الباب العالى عرض عليه فى ٣٠ ربيع الاول سنة ١٢٨٠ الموافق ١٢ سبتمبر سنة ١٨٦٣ دفع مبلغ أربعة وثمانين مليون قرش الى بطريرق الاستانة تكون فائدته السنوية بمثابة تعويض عما كان يخص الاديرة الخارجية من ايراد الاوقاف بشرط أن هاته الاديرة تقدم حساباً عن الاوجه التى صرفت فيها هذه الفائدة وأن تخصص حكومة رومانيا مبلغ عشرة مليون قرش يبنى بها فى الاستانة مستشفى ومدرسة لجميع المسيحيين أياً كان مذهبهم فلم يقبل البطريق ذلك و بعد مداولات طويلة وتبادل مخاطبات سياسية كثيرة اقترح الباب العالى على حكومة رومانيا أن تبلغ التعويض الى مائة وخمسين مليون قرش فقبلت لكن أصر القسوس على ابائهم ولم يعبأ الامير بهذا الاباء بل جد فى طريق الاصلاح وعرض على مجلس الامة أمر مصادرة الاوقاف فصدق عليه فى ١٢ ربيع الثانى سنة ١٢٨٠ الموافق ٢٤ دسمبر سنة ١٨٦٣ ثم فى ١٧ الحجة سنة ١٢٨٠ الموافق ٢٤ مايو سنة ١٨٦٤ قرر هذا المجلس أن يكون تعيين القسوس على اختلاف درجاتهم بمعرفة حكومة الامارة وشكل لمعاقبتهم لو وقعت منهم أمور مغايرة للقوانين الدينية مجلساً دينياً ( سينود ) وأناط محاكمتهم فى الامور الدنيوية بمجلس التمييز الاعلى

و بذلك استقل الاكليرس فى رومانيا استقلالاً تاماً ولم يبق لبطريرق الاستانة أقل سيطرة عليه وايد الباب العالى هذه التغييرات واعترف ضمناً بأن لحكومة رومانيا الحق فى تغيير نظاماتها وقوانينها الداخلية بدون استشارة الباب قبلاً واعتماداً على ذلك أدخل البرنس عدة

اصلاحات مهمة تباعا فحوّر قانون الانتخابات بكيفية خولت حق الانتخاب لكثير من الاهالى لم يكن هذا الحق ممنوحا لهم من قبل وجعل التعليم اجباريا وفتح عدّة مدارس عالية ملكية وحربية ومستشفيات وأصدر قانونا بجعل قيد المواليد والوفيات وعقود الانكحة مختصا بالمأمورين الملكيين بعد ان كان تابعا للكنائس لكن لعدم توفر الثروة فى البلاد وكثرة الضرائب تذمر عليه الاهالى فاستعمل الشدة فى معاقبة كل من أظهر عدم الرضا من أعماله حتى كثرت الشكوى منه وكتب اليه الصدر الاعظم فؤاد باشا بتداخل الدولة لرفع المظالم عن الاهالى لو استمرّ الحال على هذا المنوال

ولما زاد فى طغيانه وصار يصدر الاوامر العالية واللوائح بدون عرضها على مجلس النوّاب تآمر عليه عدّة من الاعيان تحت رئاسة المسيو روزتى مدير جرنال (رومانول) وحصروه فى سرايه فى مساء يوم ٦ شوّال سنة ١٢٨٢ الموافق ٢٢ فبراير سنة ١٨٦٦ وألزموه الاستقالة فقدم استعفاءه ثم اجتمع بباريس فى ٢٢ شوّال الموافق ١٠ مارث مندوبون من الدول المصادقة على عهدة سنة ١٨٥٦ للنظر فى كيفية انتخاب خلف للامير جان اسكندر الاوّل فاجمعوا الا الروسيا على وجوب توحيد حكومة الولايتين خلافا لما جاء فى المعاهدة المذكورة بشرط أن لا يكون الامير عليها أجنبيا بل من أشرف أبناء البلاد لكن لم يذعن أهالى رومانيا لهذا القرار بل انتخبوا فى ٣ الحجة الموافق ١٩ أبريل البرنس شارل دى هوهنزولرن من عائلة بروسيا الملوكية أميرا لهم وهو ملك هذه البلاد الآن وأعطى له لقب ملك بعد حرب الروسيا الاخيرة كما سيجىء

أما السبب فى تشبث الدول فى تقوية هذه الامارة وسعى الروسيا فى عدم ضم الولايتين المكونتين لها الى بعضهما أن الدول ترى هذا الرأى لتكون امارة رومانيا بمثابة حاجز حصين ضدّ تقدم الروسيا نحو الاستانة خصوصا وان أهالى رومانيا لم يكونوا من العنصر الصقالبى الروسى فيصعب على الروسيا استمالتهم الى سياستها لتمسكهم بجنسيتهم وخوفهم من تغلب الجنس الصقالبى عليهم وهذا السبب عينه كان الباعث لدول أوروبا على تشكيل امارة البلغار لتكون حاجزا ثانيا بعد رومانيا وعلى مساعدة البلغار ضدّ الروسيا فى هذه السنين الاخيرة

فؤاد باشا الصد[illegible] الاعظم واصلاحات[illegible]

قدذكرنا أنه لما تولى السلطان عبد العزيز منصب الخلافة العظمى أبقى محمد أمين عالى باشا فى الصدارة العظمى لكن لم يلبث ان أقاله تبعا للظروف فى جمادى الاولى سنة ١٢٧٨ الموافق نوفمبر سنة ١٨٦١ وعين فؤاد باشا صدرا أعظم ولم تدم صدارته الاولى بل فصل عنها وبعد بعض تقلبات أعيد اليها بعد بضع شهور فبذل جهده فى اصلاح المالية التى كانت على شفى الافلاس بسبب الديون الكثيرة التى اقترضتها الدولة فى أيام السلطان محمود الثانى وعبد المجيد وبسبب انشاء القوائم التى هى عبارة عن أوراق صغيرة ملوّنة بألوان مختلفة كل منها بقيمة معلومة من النقود ولبيان سوء الاحوال المالية

نقول أنه لما انتشبت حرب استقلال اليونان ودمرت الدول دونا نماتها ظلماً وتعصباً التزمت الدولة لتجديد مراكبها وتقوية جيوشها الى اصدار القوائم المالية فاصدرت أولاً فى سنة ١٨٣٠ أوراقاً بمبلغ اثنين وثلاثين ألف كيسة بفائدة ثمانية فى المائة سنويا تستهلك فى ثمانى سنوات ثم بسبب حروب الشام بين مصر والدولة ماتيسر لها استهلاك هذا القدر بل أصدرت أوراقا بلا فائدة وامتنعت عن دفع الفائدة عن الاوراق الاصلية وتوالى بعد ذلك اصدار الاوراق فى كل سنة تقريباً

ولما تربع السلطان عبد المجيد فى دست الخلافة أراد سحب القوائم الا أن حرب القدم وماجره على الدولة من المصاريف الباهظة منعه عن تتميم مشروعه واضطرته الاحوال الى الاستدانة من أوروبا للقيام باعباء الحرب ثم استغرقت المصاريف كل القرض فأصدر قوائم جديدة واستمر الحال على هذا المنوال وكل سنة تزداد الديون الخارجية والقوائم الداخلية حتى ولى فؤاد باشا منصب الصدارة فاقنع جلالة السلطان عبد العزيز بضرورة ابطال القوائم وتسوية جميع الديون بكيفية منتظمة فاصدر السلطان فرمانا عالياً فى ٢٠ رجب سنة ١٢٧٨ الموافق ٢١ يناير سنة ١٨٦٢ لفؤاد باشا باصلاح المالية وأعمال ميزانية سنوية لايرادات ومصروفات الدولة ثم فى ١٩ الحجة سنة ١٢٧٨ الموافق ١٧ يونيو سنة ١٨٦٢ أصدر اليه فرمانا آخر أهم ماجاء به سحب القوائم باجمعها وتصفية جميع الديون السائرة ودفع بدل القوائم نقوداً ذهبية أو فضية بقيمة أربعين فى المائة وسهاما جديدة بقيمة الستين فى المائة الباقية

واقترضت الدولة لاتمام هذه العملية المالية ثمانية ملايين جنيهاً انكليزياً ولما لم تف اقترضت ثمانية أخرى بواسطة البنك العثمانى الذى تأسس فى هذه الغضون ولكثرة المصاريف فى الاصلاحات الداخلية وغيرها كثرت الديون وتراكمت وصار دفع الكوبونات (الفوائد) حملا ثقيلا على عاتق ميزانية الدولة فأمر السلطان بالاقتصاد من جميع فروع الميزانية حتى من المبالغ المخصصة لسرايته الخاصة وبذلك أمكن ناظر المالية مصطفى فاضل باشا (١) القيام بدفع الفوائد وأخيراً لعدم موافقة ناظر المالية لفؤاد باشا على مشروعاته المالية عزل مصطفى باشا فاضل وعين كانى باشا مكانه فقدم هذا الاخير بالاتحاد مع فؤاد باشا تقريراً الى السلطان بتاريخ ٢١ شوال سنة ١٢٨١ الموافق ١٩ مارث سنة ١٨٦٥ قاضياً بانشاء سجل مخصوص لجميع الديون وقيدها به بعد توحيدها فصدرت ارادة سنية باعتماد هذا التقرير وسجل بمقتضاه أربعون مليون جنيهاً عثمانياً لكن لم يأت زمن دفع

(١) هو نجل المرحوم ابراهيم باشا نجل المرحوم محمد علي باشا الكبير والي مصر ولد سنة ١٢٤٥ﻫ وتوجه الي أوروبا مع أخيه المرحوم أحمد باشا والخديوى الاسبق اسماعيل باشا وتوظف بوظائف عالية بالاستانة فأحيلت اليه نظارة المعارف سنة ١٢٧٩ ثم المالية وفي أوائل سنة ١٢٨٧ عين ناظرا للعدلية (الحقانية) وبعد ذلك بقليل أنعم عليه بالنيشان العثماني المرصع وتقلد بعد ذلك عدة مناصب أخرى وتوفي في ٤ ذى القعدة سنة ١٢٩٢ ودفن بالاستانة

الكوبون الاوالخزينة ناضبة لا يوجد بها مايكفى لدفعه فاضطرّت الدولة الى اصدار سهام جديدة بواسطة البنك العثمانى بمدينتى باريس ولوندره فأصدرها البنك فى شعبان سنة ١٢٨٢ الموافق دسمبر سنة ١٨٦٥ بفائدة ١٢ فى المائة ولضعف الثقة بمالية الدولة لم يقدم أصحاب الاموال على الاكتتاب ولم يتحصل من هذه السهام الجديدة الا مايكفى لدفع الكوبون المستحق فقط ولاستمرار هذا الضيق وعدم وجود النقود الكافية للمصروفات الضرورية سعى بهأر باب الغايات لدى جلالة السلطان وأفهموه ان هذا العسرناشىء عن سوء تدابير فؤاد باشا للمالية فعزله واستبدله بمحمد رشدى باشا وأصدرله فرمانا بذلك بتاريخ ٢١ محرم سنة ١٢٨٣ الموافق ٤ يونيو سنة ١٨٦٦ فسعى مرتين فى اصدار قرض لتسوية الديون السائرة ولم يحج وأخيرا اتفق مع البنك العثمانى على أن يدفع البنك فوائد الديون المقيدة فى السجل العمومى كل ثلاثة أشهر وتتنازل له الدولة لوفائها عن بعض ايرادات معينة وبذلك أمكن دفع الكوبونات أوّلا فأوّلا واتقى شرّ تأخير دفعها الذى يعدّ فى عرف المالية افلاساً وصارت الدولة تقترض ما يلزمها من البنوكة بدون اصدار اسهم عمومية

بعد ان استقرّت أحوال الدولة المالية أوكادت تحركت الفتن السياسية أوّلا بسبب عدم قبول حكومة الصرب باتفاق ١١ ربيع الاوّل سنة ١٢٧٩ الموافق ٨ سبتمبر سنة ١٨٦٢ (راجع صحيفة ٢٩١) القاضى ببقاء الجيوش العثمانية محتلة لاربع قلاع بداخل بلاد الصرب كما سبق ذكر ذلك وطلبها من الدول بكل الحاح ابطال هذا الشرط وانجلاء عساكر الدولة عنها قطعياً فلم تقبل الدولة بل هدّدت الصرب بالحرب لومست عساكرها المحتلين بسوء ولكن اشتعال نار الفتن بكريد أشغلها عن اخضاعها وقبلت أخيراً فى القعدة سنة ١٢٨٣ الموافق مارث سنة ١٨٦٧ سحب عساكرها فكمل استقلال الصرب ولم يبق على أميرها الا لقب ملك

ومثل ذلك حصل بخصوص الاعتراف بانتخاب البرنس شارل دى هوهنزولرن البروسى فان الدولة بعدان جمعت جيشاً جراراً على حدود رومانيا لفسخ الانتخاب والزام الاهالى باتباع نصوص المعاهدات اضطرتها ثورة كريد الى العدول عن هذه الخطة والاعتراف بانتخابه ولقد أصابت الدولة فى ذلك لان وجود مثل هذه الامارة فى طريق الروسيا يفيدها وقت الحرب خصوصاً اذا لم يكن أميرها مصافياً للروسيا ولا متحداً معها فى المذهب والجنس

ثورة كريد

اما ثورة جزيرة كريد فنشأت من دسائس اليونان بها وسعيهم فى ضمها اليهم لكن يظهر ان مصلحة الدول البحرية لم تسمح لهم هذه المرّة بتأييد مطالب اليونان بل كانت كلها مضادّة لسلخ هذه الجزيرة عن أملاك الدولة العلية

ولذلك منعت الدول مملكة اليونان من مساعدة الجزيرة الثائره وأرسلت الدولة العثمانيه لقمعها جيشاً عرمرماً وأرسل المرحوم اسمعيل باشا خديو مصر الاسبق فرقة لمساعدتها على

مقتضى الفرمانات وأظهرت الجيوش المصرية بهاشجاعتها المعتادة وفازت بالنصر فى عدّة مواقع مهمة خصوصاً فى واقعة ارقاذى ( اركاديون ) حتى استحقوا ثناء خديويهم عليهم وشكره لهم فارسل لهم بكريد رسالة قرئت على جميع العساكر والضباط المصريين وكان المحرر لها المرحوم عبدالله باشا فكرى الذى كان اذذاك ناظر قلمى التحريرات والعرضحالات وقد أردنا ايرادها حرفياً لرقة مبانيها ودقة معانيها شاهدة بفضل المصريين فى براعة التحرير كما تشهد لهم بالنصر والفوز العظيم وهاهى بحروفها

الى من باشروا واقعة ارقاذى من الضباط الجهادية وأفراد العساكر المصرية سلام من الله وتسليم ورضوان كريم يهدى لاوّلكم وآخركم ويسدى لأموركم وآمركم لازلتم محفوفين من الله بنصره محفوظين بأمره غالبين على عدوّكم بقهره متقلبين فى نعمته وبرّه ولا انفكت عزائمكم فى كروب الحرب عزائم وصوارمكم فى قطوب الخطوب بواسم وأعلامكم للنجح والتمكين علائم وأيامكم للفتح المبين مواسم ورياح القهر والدمار على عدوّكم سمائم ونسمات النصر والفخار فى رواحكم وغدوّكم نواسم ( وبعد ) فمازلت أتشوق من اخبار شجاعتكم مايسر الخواطر وأتشوف من آثار براعتكم مايقر النواظر واثقا بعزمكم وحزمكم فى المضايق مبتهجا بما أبديتموه من حسن السوابق حتى وردفابور الشرقية من طرف حضرة الباشا ناظر الجهادية بيوميات الوقائع العسكرية مشتملة على واقعة ارقاذى وتفصيلاتها وماكان من رسوخ أقدامكم وثباتها وأقدامكم فى جهاتها واقتحامكم مضايق حصونها واستحكاماتها وتسخير مستعصماتها وتدمير أشقياء العصاة وكماتها حتى زلزلت صياصيها وذللت نواصيها ودنالكم قاصيها ودان عاصيها فهكذا تكون رجال الجهاد وأبطال الجدال والجلاد وهكذا تفتح الحصون ويبرز سرّ النصر المصون وفى ذلك فليتنافس المتنافسون فقد أسفر لكم بحمد الله وجه التهانى وأثمر فيكم بعون الله غرس الامانى وأيدتم ماثبت للعساكر المصرية من حسن الامور العسكرية فحصل لى من الانس والسرور بهذه البشاره مالاتقدر الالسن أن تصف مقداره ولايتسع له مجال الاشاره وتأيد فيكم حسن أنظارى وظهرت ثمرات أفكارى وتحققت انكم الآن بعون الله الكريم لاتزلون عن هذا الطريق القويم ولا تزالون فى تأييد مالكم من المجد القديم وقد شاع حديث نصرتكم بين الاهل والديار وسارت الركبان بمحاسن هذه الاخبار كما نقلته صحائف الوقائع الى جميع الاقطار فانشرحت صدور أهلكم واخوانكم وفرحت بكم جميع أهل بلدانكم وابتسمت ثغور أوطانكم وافتخرت باحاديث شجعانكم وارتاحت أرواح الشهداء من أقرانكم والمأمول فى ألطاف الله العلية وبركات السلطنة السنية ثم فى حميتكم الملية وغيرتكم الوطنية أن يزول حال الاختلال عن قرب وينتهى امر القتال والحرب ويطيع الجميع ويسهل كل صعب منيع وتعودوا لوطننا العزيز ظافرين بالنصر والتعزيز وقد قرب حصول الامل ونجاح العمل ومضى الاكثر وبقى

الاقل والحرب للرجل العسكرى والبطل الجرىء سوق عظيم وموسم كريم تشترى فيه غوالى المعالى باعالى الغوالى وتنال فيه منازل الاكارم فى ظلال السيوف الصوارم ويدرك الفخر الصادق بمرامى المدافع والبنادق وقد علمتم ان الشجاعة وان كانت تبلغ الآمال لا تقصر الآجال كما ان الجبن وان كان يورث العار لا يؤخر الاعمار وانما هى آجال محدودة وأنفاس معدودة لا تقبل التغيير ولا التقديم والتأخير والشجاعة صبر ساعة ثم ينكشف الغبار وتسفر الاخبار ويتناقل حديث الشجعان ويخلد فى تواريخ الزمان فدوموا على ابداء الاجتهاد وقوموا باداء حقوق الجهاد واثبتوا على الشجاعة والاقدام وثبات القلوب والاقدام وانجزوا بمعونة الله تمام هذا المرام وكما جود تم براعة المطلع فاحسنوا براعة الختام اه

ولم يكن اهتمام الدولة العلية ورجالها باقل من اهتمام الجنود المصرية المظفرة فبعد ان وجهت اليها الجيوش أرسلت اليها مندوبا أساميا للمفاوضة مع الثائرين اسمه كريدلى محمد باشا لمعرفته أحوال البلاد لكن لم ينجح فى مأموريته لما كان بينه وبين أعيان الجزيرة من الشحناء بسبب ولايته السابقة على تلك الجزيرة

ثم فى ٦ شوال سنة ١٢٨٣ الموافق ١١ فبراير سنة ١٨٦٧ استقال محمد رشدى باشا من منصب الصدارة فعين السلطان مكانه محمد أمين عالى باشا ثانياً وأبقى محمد رشدى باشا المذكور فى وظيفة السرعسكرية وأعاد محمد فؤاد باشا الصدر الاسبق الى نظارة الخارجية وكانت أوّل أعمال هذه النظارة ان استدعت كريدلى محمد باشا من جزيرة كريد وأرسلت عمر باشا بطل القرم اليها بوظيفة قائد عام لجميع الجيوش المحاربة بها فحارب الثائرين بكل شدّة وصرامة وعند ذلك تداخلت بعض الدول وطلبت ارسال لجنة دولية الى الجزيرة لتسوية الاحوال فرفض الباب العالى هذا الطلب لعدم اتفاق الدول عليه واقترح من نفسه ارسال مندوب سام سياسى للنظر فى شؤون الجزيرة وسافر اليها بهذه الصفة الصدر الاعظم عالى باشا فى ١٤ اكتوبر سنة ١٨٦٧ وهناك بذل جهده فى تسكين خاطر الاعيان بمنحهم الرتب والنياشين ثم أقال عمر باشا لعدم اتفاقه مع رجال البحرية المراقبين لشواطىء الجزيرة وأقام حسين عونى باشا مكانه وعينه والياً للجزيرة وبعد ان رتب الاحوال عاد الى الاستانة فى أوائل سنة ١٨٦٨ لاضطراد المخابرات السياسية بشأن تظاهر مملكة اليونان لمساعدة الثائرين وطلبها ضم الجزيرة اليها بأى طريقة ولو أدّت الحال الى الحرب لكن لم تساعدها الدول على ذلك وأظهرت لها الجفاء وتهدّدتها بما لا تحمد عقباه لو أثارت نار الحرب

وأخيراً انعقد بباريس مؤتمر من مندوبى الدول الموقعة على عهدة سنة ١٨٥٦ وبعد مداولات وتبادل عدّة محررات أصدر السلطان ارادة سنية بتاريخ ١٢ جمادالثانى سنة ١٢٨٦ الموافق ١٩ سبتمبر سنة ١٨٦٩ يمنح الجزيرة بعض امتيازات واعفاء أهلها من

دفع أموال سنتين كانت متاخرة عليهم ومن الخدمة العسكرية و بذلك انتهت هذه الثورة مؤقتا اذ اليونان لا تترك أىّ فرصة لتحريضها على الثورة لضمها اليها

سفر السلطان عبد العزيز لمصر

ومما امتاز به السلطان عبد العزيز خان عما عداه من السلاطين العثمانيين تفقده ممالكه المحروسة بنفسه وسياحته خارجا عنها فقد سافر رحمه الله الى الى وادى النيل فى ١٤ شوّال سنة ١٢٧٩ يصحبه فى معيته الشريفة الامراء الاماجد مراد افندى الذى تولى منصب الخلافة بعد المرحوم السلطان عبد العزيز وعبد الحميد افندى خليفتنا الحالى ورشاد افندى و يوسف عز الدين افندى والوزيران فؤاد باشا ومحمد باشا فزار الاسكندرية ومحروسة مصر ثم عاد الى دار السعادة باليمن والاقبال وكان سفره من الاستانة بعد ان افتتح المعرض العثمانى الذى أقيم بها لتنشيط الصنائع الوطنية فى ١٠ رمضان سنة ١٢٧٩ بحضور ضيفه الكريم اسمعيل باشا خديوينا الاسبق

سفر السلطان لباريس

وفى ١٩ صفر سنة ١٢٨٤ الموافق ٢٥ يونيو سنة ١٨٦٧ سافر قاصداً مدينة باريس الزاهية الزاهرة بناء على دعوى الامبراطور نابوليون الثالث لحضور المعرض العام الذى أقيم فيها ودعا اليه الامبراطور أغلب ملوك الدنيا وكان من ضمن المدعوين خديوى مصر اسمعيل باشا فابحر من الاسكندرية فى ٧ من شهر صفر المذكور على سفينة المحروسة ليكون بباريس حين قدوم جلالة السلطان عبد العزيز اليها ثم عاد جلالة السلطان المعظم الى مقرّ خلافته عن طريق وارنه فى ٦ ربيع الثانى سنة ١٢٨٤ بعد ان تغيب عنها ستة أسابيع ألفى فى خلالها من حسن الملاقاة وكرم الوفادة ما طبع عليه الفرنساويون واشتهر عنهم

أما الاصلاحات التى اجريت فى داخلية الممالك المحروسة فى خلافته فيعد منها ولا تعد فمنها القانون القاضى بجواز انتقال الاراضى الميرية (الخراجية) والموقوفة لورثة صاحب المنفعة الصادر فى ١٧ محرم سنة ١٢٨٤ وهو يشبه لائحة الاطيان السعيدية المصرية

وضع مجلة الاحكام العدلية

والقوانين التى أجازت للاجانب امتلاك العقارات وكافة الحقوق العينية والتصرّف فيها بجميع الممالك المحروسة بعد ان كانت ممنوعة عنهم كلية وذلك فى سنة ١٢٨٥ الموافقة سنة ١٨٦٩ ومنها وضع مجلة الاحكام الشرعية ليعمل بها فى المحاكم النظامية التى أنشئت وكان جاريا اصلاحها وكان وضع هذه المجلة بمعرفة لجنة من أشهر متشرعى هذا العصر واليك نص التقرير الذى قدمته الى محمد أمين عالى باشا الصدر الاعظم فى غرة محرم سنة ١٢٨٦ منقولا من منتخبات الجوائب

لا يخفى على حضرة الصدر العالى أن الجهة التى تتعلق بامر الدنيا من علم الفقه كما انها تنقسم الى مناكحات ومعاملات وعقوبة كذلك القوانين السياسية للامم المتمدنة تنقسم الى هذه الاقسام الثلاثة ويسمى قسم المعاملات منها القانون المدنى لكنه لما ازداد اتساع المعاملات

التجارية فى هذه الاعصار مست الحاجة الى استثناء كثير من المعاملات كالسفتجة التى يسمونها حوالة وكاحكام الافلاس وغيرها من القانون الاصلى ووضع لهذه المستثنيات قانون مخصوص يسمى قانون التجارة وصار معمولا به فى الخصوصيات التجارية فقط وأما سائر الجهات فما زالت أحكامها تجرى على القانون المدنى ومع ذلك فالدعاوى التى ترى فى محاكم التجارة اذا ظهر شىء من متفرعاتها ليس له حكم فى قانون التجارة مثل الرهن والكفالة والوكالة يرجع فيه الى القانون الاصلى وكيفما وجد مسطورا فيه يجرى الحكم على مقتضاه وكذا فى دعاوى الحقوق العادية الناشئة عن الجرائم تجرى المعاملة بها على هذا المنوال أيضاً وقد وضعت الدولة العلية قديماً وحديثاً قوانين كثيرة تقابل القانون المدنى وهى وان لم تكن كافية لبيان جميع المعاملات وفصلها الا أن المسائل المتعلقة بقسم المعاملات من علم الفقه هى كافية وافية للاحتياجات الواقعة فى هذا الخصوص وقلما يرى بعض مشكلات فى تحويل الدعاوى السابق الى الشرع والقانون غير أن مجالس تمييز الحقوق لما كانت تحت رئاسة حكام الشرع فكما ان الدعاوى الشرعية تصير رؤيتها وفصلها لديهم كذلك كانت المواد النظامية التى تحال الى تلك المجالس ترى وتفصل بمعرفتهم أيضاً وبذلك يجرى حل تلك المشكلات من حيث أن أصل القوانين والنظامات الملكية ومرجعهما هو علم الفقه وكثير من الخصوصيات المتفرعة والامور التى ينظر فيها بمقتضى النظام يفصل ويحسم على وفق المسائل الفقهية والحال أن أعضاء مجالس تمييز الحقوق لا اطلاع لهم على مسائل علم الفقه فاذا حكمت حكام الشرع الشريف فى تلك الفروع بمقتضى الاحكام الشرعية ظن الاعضاء أنهم يفعلون مايشاؤن خارجا عن النظامات والقوانين الموضوعة وأساؤا بهم الظن فيصير ذلك باعثاً على القيل والقال

ثم ان قانون التجارة الهمايونى هو دستور العمل فى محاكم التجارة الموجودة فى ممالك الدولة العلية وأما الخصوصيات المتفرعة عن الدعاوى التجارية التى لا حكم لها فى قانون التجارة فيحصل بها مشكلات عظيمة لانه اذا صارت المراجعة فى مثل هذه الخصوصيات الى قوانين أوروبا وهى ليست موضوعة بالارادة السنيه فلا تصير مدار الحكم فى محاكم الدولة العلية واذا أحيل فصل تلك المشكلات الى الشريعة الغراء فالمحاكم الشرعية تصير مجبورة على استئناف المرافعة فى تلك الدعوى وحينئذ فالحكم على قضية واحدة فى محكمتين كل منهما تغاير الاخرى فى أصول المحاكمة ينشأ عنه بالطبع تشعب ومباينة ففى مثل هذه الاحوال لا يمكن لمحاكم التجارة مراجعة المحاكم الشرعية واذا قيل لاعضاء محاكم التجارة أن يراجعوا الكتب الفقهية فهذا أيضاً لا يمكن لان هؤلاء الاعضاء على حدّ سواء مع أعضاء مجالس تمييز الحقوق فى الاطلاع على المسائل الفقهية

ولايخفى أن علم الفقه بحر لا ساحل له واستنباط درر المسائل اللازمة منه لحل المشكلات يتوقف على مهارة علمية وملكة كلية وعلى الخصوص مذهب الحنفية لانه قام فيه مجتهدون

كثيرون متفاوتون فى الطبقة ووقع فيه اختلافات كثيرة ومع ذلك فلم يحصل فيه تنقيح كما
حصل فى فقه الشافعية بل لم تزل مسائله أشتاتا متشعبة فتمييز القول الصحيح من بين تلك
المسائل والاقوال المختلفة وتطبيق الحوادث عليها عسير جداً وماعدا ذلك فانه بتبدل
الاعصار تتبدل المسائل التى يلزم بناؤها على العادة والعرف مثلا كان عند المتقدمين من
الفقهاء اذا أراد أحد شراء دار اكتفى برؤية بعض بيوتها وعند المتأخرين لابد من رؤية
كل بيت منها على حدته وهذا الاختلاف ليس مستنداً الى دليل بل هو ناشىء عن اختلاف
العرف والعادة فى أمر الانشاء والبناء وذلك ان العادة قديما فى انشاء الدور و بنائها أن تكون
جميع بيوتها متساوية وعلى طرز واحد فكانت رؤية بعض البيوت على هذا تغنى عن رؤية
سائرها وأما فى هذا العصر فحيث جرت العادة بان الدار الواحدة تكون بيوتها مختلفة فى
الشكل والقدر لزم عند البيع رؤية كل منها على الانفراد وفى الحقيقة فاللازم فى هذه
المسالة وأمثالها حصول علم كاف بالمبيع عند المشترى ومن ثم لم يكن الاختلاف الواقع فى
مثل المسألة المذكورة تغييراً للقاعدة الشرعية وانما تغير الحكم فيها بتغير أحوال الزمان
فقط وتفريق الاختلاف الزمانى والاختلاف البرهانى الواقع هنا وتمييزهما محوج الى
زيادة التدقيق وامعان النظر فلا جرم أن الاحاطة بالمسائل الفقهية وبلوغ النهاية فى
معرفتها أمر صعب جداً ولذا انتدب جمع من فقهاء العصر وفضلائه لتأليف كتب مطولة
مثل كتاب الفتاوى التاتارخانية والعالمكيرية المشهورة الآن بالفتاوى الهندية ومع ذلك
فلم يقدروا على حصر جميع الفروع الفقهية والاختلافات المذهبية وفى الواقع فان كتب
الفتاوى هى عبارة عن مؤلفات حاوية لصور ما حصل تطبيقه من الحوادث على القواعد
الفقهية وأفتيت به الفتاوى فيما مر من الزمان ولا شك أن الاحاطة بجميع الفتاوى التى
أفتى بها علماء السادة الحنفية فى العصور الماضية عسر للغاية ولهذا جمع ابن نجيم رحمه الله
تعالى كثيراً من القواعد الفقهية والمسائل الكلية المندرج تحتها فروع الفقه ففتح بذلك بابا
يسهل التوصل منه الى الاحاطة بالمسائل ولكن لم يسمح الزمان بعده بعالم فقيه يحذو حذوه
حتى يجعل أثره طريقا واسعا وأما الآن فقد ندر وجود المتبحرين فى العلوم الشرعية فى جميع
الجهات وفضلا عن انه لا يمكن تعيين أعضاء فى المحاكم النظامية لهم قدرة على مراجعة
الكتب الفقهية وقت الحاجة لحل الاشكالات فقد صار من الصعب أيضا وجود قضاة
للمحاكم الشرعية الكائنة فى الممالك المحروسة

بناء على ذلك لم يزل الامل معلقاً بتاليف كتاب فى المعاملات الفقهية يكون مضبوطاً سهل
المأخذ عاريا من الاختلافات حاوياً للاقوال المختارة سهل المطالعة على كل أحد لانه اذا
وجد كتاب على هذا الشكل حصل منه فائدة عظيمة عامة لكل من نواب الشرع ومن
أعضاء المحاكم النظامية وللمامورين بالادارة فيحصل لهم بمطالعته انتساب الى الشرع ولدى
الايجاب تصير لهم ملكة بحسب الوسع يقتدرون بها على التوفيق ما بين الدعاوى والشرع

الشريف فيصير هذا الكتاب معتبراً مرعى الاجراء فى المحاكم الشرعية مغنيا عن وضع قانون لدعاوى الحقوق التى ترى فى المحاكم النظامية ومن أجل الحصول على هذا المأمول عقدت سابقا جمعية علمية فى ادارة مجلس التنظيمات وحرر حينئذ كثير من المسائل ولكن لم تبرز الى حيز الفعل فصدق مضمون قولهم ان الامور مرهونة لاوقاتها حتى شاء الله تعالى بروز ما فى هذا العصر الهمايونى الذى صار مغبوطا من جميع الاعصار بظهور مثل هذه الآثار الخيرية المهمة ولاجل حصول هذا الامر مع سائر الآثار الحسنة الكثيرة التى هى من التوفيقات الجليلة السلطانية المشهودة بعين الافتخار للبرية أحيل على عهدتنا مع ضعفنا وعجزنا اتمام هذا المشروع الجميل والاثر الخيرى السديد لتحصل به الكفاية فى تطبيق المعاملات الجارية على القواعد الفقهية على حسب احتياجات العصر و بموجب الارادة العلية اجتمعنا فى دائرة ديوان الاحكام وبادرنا الى ترتيب مجلة مؤلفة من المسائل والامور الكثيرة الوقوع اللازمة جداً من قسم المعاملات الفقهية مجموعة من أقوال السادة الحنفية الموثوق بها وقسمت الى كتب متعددة وسميت بالاحكام العدلية و بعد ختام المقدّمة والكتاب الاوّل منها أعطيت نسخة منها لمقام مشيخة الاسلام ونسخ أخرى لمن له مهارة ومعرفة كافية فى علم الفقه من الذوات الفخام ثم بعد اجراء ما لزم من التهذيب والتعديل فيها بناء على بعض ملاحظات منهم حررت منها نسخة وعرضت على حضرتكم العلية والآن حصلت المبادرة الى ترجمة هذه المقدّمة والكتاب الى اللغة العربية ومازال الاهتمام مصروفا الى تأليف باقى الكتب أيضا فلدى مطالعتكم هذه المجلة يحيط علمكم العالى بأن المقالة الثانية من المقدّمة هى عبارة عن القواعد التى جمعها ابن نجيم ومن سلك مسلكه من الفقهاء رحمهم الله تعالى فحكام الشرع ما لم يقفوا على نقل صريح لا يحكمون بمجرّد الاستناد الى واحدة من هذه القواعد الا أن لها فائدة كلية فى ضبط المسائل فمن اطلع عليها من المطالعين يضبطون المسائل بادلتها وسائر المأمورين يرجعون اليها فى كل خصوص و بهذه القواعد يمكن للانسان تطبيق معاملاته على الشرع الشريف أو فى الاقل التقريب و بناء على ذلك لم تكتب هذه القواعد تحت عنوان كتب أو باب بل أدرجناها فى المقدّمة والاكثر فى الكتب الفقهية أن تذكر المسائل مخلوطة مع المبادىء لكن فى هذه المجلة حرر فى أوّل كل كتاب مقدّمة تشتمل على الاصطلاحات المتعلقة بذلك الكتاب ثم نذكر بعدها المسائل الساذجة على الترتيب ولاجل ايضاح تلك المسائل الاساسية أدرج ضمنها كثير من المسائل المستخرجة من كتب الفتاوى على سبيل التمثيل

ثم ان الاخذ والعطاء الجارى فى زماننا أكثره مربوط بالشروط وفى مذهب الحنفية ان الشروط الواقعة فى صلب العقد أكثرها مفسد للبيع ومن ثم كان أهمّ المباحث فى كتاب البيوع فصل البيع بالشرط وهذا الامر أوجب مباحثات ومناظرات كثيرة فى جمعية هؤلاء العاجزين ولذا رؤى مناسباً ايراد خلاصة المباحثات الجارية فى ذلك

على الوجه الآتى
فنقول ان أقوال أكثر المجتهدين فى حق البيع بالشرط يخالف بعضها بعضا ففى مذهب المالكية اذا كانت المدّة جزئية وفى مذهب الحنابلة على الاطلاق يكون للبائع وحده أن يشرط لنفسه منفعة مخصوصة فى المبيع لكن تخصيص البائع بهذا الامر دون المشترى يرى مخالفاً للرأى والقياس أما ابن أبى ليلى وابن شبرمة ممن عاصروا الامام الاعظم رضى الله عنه وانقرضت أتباعهم فكل منهما رأى فى هذا الشأن رأيا يخالف رأى الآخر فابن أبى ليلى يرى أن البيع اذا دخله أى شرط كان فقد فسد البيع والشرط كلاهما وعند ابن شبرمة ان الشرط والبيع جائزان على الاطلاق فمذهب ابن أبى ليلى يرى مباينا لحديث ( المسلمون عند شروطهم ) ومذهب ابن شبرمة موافق لهذا الحديث موافقة تامة لكن المتبايعين ربما يشرطان أىّ شرط كان جائز أو غير جائز قابل الاجراء أو غير قابل ومن الامور المسلمة عند الفقهاء أن رعاية الشرط انما تكون بقدر الامكان فمسألة الرعاية للشرط قاعدة تقبل التخصيص والاستثناء ولذا اتخذ طريق متوسط عند الحنفية وذلك ان الشرط ينقسم الى ثلاثة أقسام شرط جائز وشرط مفسد وشرط لغو بيان هذا ان الشرط الذى لا يكون من مقتضيات عقد البيع ولا مما يؤيده وفيه نفع لاحد المتعاقدين مفسد والبيع المعلق به يكون فاسداً والشرط الذى لا نفع فيه لاحد العاقدين لغو والبيع المعلق به صحيح لأن المقصود من البيع والشراء التمليك والتملك أى ان يكون البائع مالكا للثمن والمشترى مالكا للمبيع بلا مزاحم ولا ممانع والبيع المعلق به نفع لاحد المتعاقدين يؤدى الى المنازعة لان المشروط له النفع يطلب حصوله والآخر يريد الفرار منه فكان البيع لا يتم لكن بما أن العرف والعادة قاطع للمنازعة جوّز البيع مع الشرط المتعارف على الاطلاق أما المعاملات التجارية فهى من أصلها فى حال مستثنى كما تقدّم وأكثر ذوى الحرف والصنائع قد تعارفوا على معاملة مخصوصة تقررت بينهم والعرف الطارى معتبر فلا يبقى مايوجب البحث الا بعض شروط خارجة عن العرف والعادة تشترط فى المعاملات المتفرقة فى الاخذ والعطاء وليس لهذه المعاملات شأن يوجب الاعتناء بالبحث عنها فما مست الحاجة فى تيسير معاملات العصر الى اختيار قول ابن شبرمة الخارج عن مذهب الحنفية ولهذا حصل الاكتفاء بذكر الشروط التى لا تفسد البيع عند الحنفية فى الفصل الرابع من الباب الاوّل كما وقع فى سائر الفصول قد ذكر فى المادة السابعة والتسعين بعد المائة والمادة الخامسة بعد الثمانين أنه لا يصح بيع المعدوم والحال ان ما كان مثل الورد والخرشوم من الازهار والخضراوات والفواكه التى يتلاحق ظهور محصولاتها يصح فيه البيع اذا كان بعض محصولاتها ظهر و بعضها لم يظهر لانه لما كان ظهور محصولاتها دفعة واحدة غير ممكن وانما تظهر أفرادها وتتناقص شيأ بعد شىء اصطلح الناس فى العامل على بيع جميع محصولاتها الموجودة والمتلاحقة

بصفقة واحدة ولذا جوّز الامام محمد بن حسين الشيبانى رحمه الله تعالى هذا البيع استحسانا وقال اجعل الموجود أصلا والمعدوم تبعا له وأفتى بقوله الامام الفضلى وشمس الأئمة الحلوانى وأبو بكر بن فضل رحمهم الله تعالى وحيث ان ارجاع الناس عن عادتهم المعروفة عندهم غير ممكن كما ان حمل معاملاتهم بحسب الامكان على الصحة أولى من نسبتها الى الفساد وقع الاختيار لترجيح قول محمد رحمه الله فى هذه المسألة كما هو مندرج فى المادة السابعة بعد المائتين

وفى بيع الصبرة كل مدّ بكذا عند الامام الاعظم رضى الله عنه يصح البيع فى مدّ واحد فقط وعند الامامين رحمهما الله تعالى يصح فى جميع الصبرة فمهما بلغت الصبرة يأخذها المشترى ويدفع ثمنها بحساب المدّ بسعر ماجرى عليه العقد وحيث أن كثيرا من الفقهاء مثل صاحب الهداية قد اختاروا قول الامامين فى ذلك تيسيراً لمعاملات الناس حررت هذه المسألة فى المادة العشرين بعد المائتين على مقتضى قولهما وأكثر مدّة خيار الشرط عند الامام رحمه الله تعالى ثلاثة أيام وعند الامامين تكون المدّة على قدر ماشرط المتعاقدان من الايام ولما كان قولهما هنا أيضاً أوفق للحال والمصلحة وقع عليه الاختيار وذكر بدون مدّة الايام الثلاثة فى المادة الثلاثمائة وهذا الخلاف جار أيضاً فى خيار النقد الا أن عدم تقييد المدّة بثلاثة أيام وصحة تقييدها بأكثر من ذلك هو قول محمد رحمه الله تعالى فقط وانما أختير قوله فى هذه المسألة أيضاً مراعاة لمصلحة الناس كما ذكر فى المادة الثالثة عشرة بعد الثلاثمائة

وعند الامام الاعظم ان المستصنع له الرجوع بعد عقد الاستصناع وعند الامام أبى يوسف رحمه الله انه اذا وجد المصنوع موافقاً للصفات التى بينت وقت العقد فليس له الرجوع والحال انه فى هذا الزمان قد اتخذت معامل كثيرة تصنع فيها المدافع والبواخر (القابورات) ونحوها بالمقاولة وبذلك صار الاستصناع من الامور الجارية العظيمة فتخيير المستصنع فى امضاء العقد أو فسخه يترتب عليه الاخلال بمصالح جسيمة وحيث ان الاستصناع مستند الى التعارف ومقيس على السلم المشروع على خلاف القياس بناء على عرف الناس لزم اختيار قول أبى يوسف رحمه الله تعالى فى هذا مراعاة لمصلحة الوقت كما حرر فى المادة الثانية والتسعين بعد الثلاثمائة من هذه المجلة

فاذا أمر امام المسلمين بتخصيص العمل بقول من المسائل المجتهد فيها تعين ووجب العمل بقوله واذا صارت هذه المعروضات المبسوطة لدى خضرتكم العلية قرينة التصويب يجرى توشيح أعلى المجلة الملفوفة بالخط الشريف الهمايونى والامر لولى الامر

| ناظر ديوان الاحكام العدلية | مفتش الاوقاف الهمايونية |
|---|---|
| احمد جودت | السيد خليل |

من أعضاء شورى الدولة — من أعضاء ديوان الاحكام العدلية
سيف الدين — السيد أحمد خلوصى
من أعضاء ديوان الاحكام العدلية — من أعضاء شورى الدولة
السيد أحمد حلمى — محمد أمين الجندى
من أعضاء الجمعية علاء الدين بن ابن عابدين

هـذا ومن جهة الامور المتعلقة بالامارات الممتازة فقد ابتدأت دسائس جمعيات الصقالية فى بلاد البلغار الواقعة بين نهر الطونه وجبال البلقان لسلخها عن الدولة وكذلك فى ولايتى البوسنه والهرسك بدعوى الاشتراك مع الروسيين فى الجنس والدين وكانت رومانيا من أقوى المساعدين لهذه الجمعيات فكانت تأوى اليها العصب المتسلحة وتشنّ الغارة على بلاد البلغار لتحريضهم على العصيان وطلب الاستقلال لكن لم تمتدّ بها الفتن بل كان يطفأ شرارها أوّلا بأوّل قبل أن يصير لهبا بهمة أحمد مدحت باشا الشهير والى هذا الاقليم وكذلك الحال فى بلاد البوسنه والهرسك

أما قطرنا المصرى السعيد فحصل على جملة امتيازات فى عهد السلطان عبد العزيز لما كان بينه و بين اسمعيل باشا من الروابط الخصوصية وما كان له بين حاشية السلطان ووزرائه من المساعـدين جعلت ولاية مصر خديوية بمقتضى فرمان تاريخه ٥ ربيع الاول سنة ١٢٨٤

الفرمان الشامل لجميع امتيازات الخديوية المصرية

وفى سنة ١٢٨٣ غيرت طريقة التوارث فى الخديوية المصرية وحصرت فى ذرية اسمعيل باشا المذكور ثم فى سنة ١٢٨٩ أعطيت له عدة امتيازات جديدة و فى ١٣ ربيع الآخر سنة ١٢٩٠ الموافق ٨ يونيو سـنة ١٨٧٣ أرسل اليه فرمان جديد شامل لجميع امتيازات مصر وكيفية التوارث فى منصب الخديوية ولكونه جامعا لكافة ماسبق آثرنا نشره حرفياً اكتفاء به عن باقى الفرمانات السابقة الداخلة معناها ضمن هذا الفرمان وهاهو

فمن المعلوم لديكم أنكم استدعيتم مناجمع الخطوط الهمايونية والاوامر الشريفة السلطانية التى صدرت من منذ توجيه الخديوية الجليلة بطريق التوارث الى عهدة والى مصر الاسبق محمد على باشا المرحوم الى يومنا هذا سواء كانت بخصوص تعديل توارث الخديوية المصرية أو بخصوص اعطاء بعض امتيازات حسبما استوجبها موقع الخديوية وأمزجة الاهالى وطبائعها الخصوصية وجعلها فرمانا واحـداً مع التعديلات اللازمة فى أحكامها والتفصيلات المقتضية فى عباراتها بشرط أن يكون هذا الفرمان الجديد قائم مقام الفرمانات السابقة وأن تـكون الاحكام المندرجة فيها معمولا بها ومرعيه الاجراء على الدوام والاستمرار فقد قورن استدعاؤكم هذا بمساعدتنا الجليلة الملوكية وها نحن نذكر وبنين

لكم أحكامها على الوجه الآتى

لما تحقق لدينا أن تعديل أصول توارث الخديوية المصرية التى صار تعيينها بالفرمان العالى الصادر فى اليوم الثانى من شهر ربيع الاوّل من شهور سنة ١٢٥٧ الموشح أعلاه بالخط الهمايونى وتبديلها بأصول حصر الوراثة الخديوية فى أكبر أولاد خديوى مصر بطريق سلسلة النسب المستقيم بان يصير تخصيص مسند الخديوية الجليل وتوجيهه الى أكبر أولاد الخديو الذكور وبعده الى أكبر أولاد هذا الاكبر الذكور وهكذا على النسب المستقيم الذكورى على الدوام يكون مستلزماً لحسن ادارة الخديوية المصرية وجالباً لاستكمال سعادة أحوال أهاليها وسكانها هذا مع ماحصل لدينا من استحسان مساعيكم الجميلة المصروفة فى استحصال معمورية الاقطار المصرية المهمة الجسيمة ورفاهية أهاليها وحصول وثوقنا بكم واعتمادنا الكامل عليكم فلاجل أن يكون دليلا باهراً على ذلك قد أجرينا تعديل توارث الخديوية المصرية وتعيين وصايتها على الطريق الآتى بيانها وهى أن خديوية مصر الجليلة وملحقاتها وجهاتها المعلومة الجارية ادارتها بمعرفتها مع ماصار الحاقها بها أخيراً من قائمقاميتى سواكن ومصوّع وملحقاتهما يصير توجيهها بعدكم على الطريق المار ذكرها الى أكبر أولادكم الذكور وبعده الى أكبر أولاد من يكون خديويا على الأقطار المصرية من أولادكم واذا انحلت الخديوية المصرية بان لا يكون للخديو ولد ذكر يصير توجيهها الى أكبر اخوته الذكور واذا لم يوجد له أخ بقيد الحياة فالى أكبر أولاد الاخ وهكذا تتخذ هذه الاصول قانوناً مستمراً وقاعدة مرعية أبدية فى توارث الخديوية المصرية ولايصير انتقال الوراثة الخديوية الى الأولاد الذكور المتولدة من أولادكم الأناث أصلا

ولأجل تأمين أصول توارث الخديوية المصرية سنذكر صورة تشكيل الوصاية المقتضية فى ادارة أمور الخديوية فيما اذا انحلت الخديوية وكان الوارث الذى هو أكبر أولادكم الذكور صغيراً وصبياً وهى ان الخديوية المصرية اذا انحلت وكان أكبر أولادكم الذكور أعنى الوارث صغيراً وصبيا بان يكون عمره أقل من ثمانية عشر سنة ولو انه يصير خديو بالفعل حسب استحقاق الوراثة ففى الحال يصدر فرمان من طرف السلطنة السنية بتوليته على الخديوية لكن اذا كان الخديو السالف عين ونصب وصياً ورتب هيئة وصاية لأجل ادارة أمور الخديوية لحين بلوغ الخديو اللاحق الصبى الى سن الثمانية عشر سنة وكتب سند وصاية بذلك وختم عليه هو وختم أيضاً اثنان من الامراء المصرية المأمورين باحدى المأموريات المصرية على طريق الاشهاد واجراء الوصاية هكذا فالوصى مع هيئة الوصاية المذكورة يأخذ بزمام الادارة فى الحال وبعد ذلك تعرض الكيفية الى الباب العالى ويصير التصديق على ذلك الوصى وهيئة الوصاية من طرف الدولة العلية بفرمان عالى ويبقى الوصى وهيئة الوصاية على ماهم عليه لحين البلوغ وأما اذا انحلت الخديوية ولم يعين الخديو السالف

وصياً ولم يرتب هيئة الوصاية على الوجه المذكور تتشكل هيئة الوصاية من الذوات المأمورين على الداخلية والجهادية والمالية والخارجية ومجلس الأحكام المصرية وسردارية العساكر المصرية وتفتيش الأقاليم ويصير انخاب وصى فى الحال من هؤلاء المأمورين على الوجه الآتى ذكره وهو انه فى تلك الساعة تصير المذاكرة والمداولة ما بين هؤلاء الذوات فى حق انخاب وصى منهم فاذا حصل اتفاقهم أو اتفاق أكثرية آرائهم على تسمية وجعل ذات منهم وصياً يتعين ذلك الذات وصياً على الخديوية واذا اختلفت الآراء بان رغب نصفهم فى تعيين ذات والنصف الآخر فى تعيين ذات آخر يكون اجراء وصاية الذات المأمور على المأمورية المهمة والمتقدمة فى الذكر من تلك المأموريات أعنى المأمور على المأمورية المتقدم ذكرها على الترتيب المحرر آنفاً من الداخلية الى آخره وتتشكل هيئة الوصاية من الذوات الباقية بعده ويباشرون ادارة الامور الخديوية مع الوصى وتعرض الكيفية بمضبطة من طرفهم الى طرف سلطنتنا السنية ويصير التصديق عليها بالفرمان الشريف وكما انه لا يجوز تبديل الوصى وتغيير هيئة الوصاية قبل ختام مدتها فى الصورة الأولى أعنى فيما اذا كان تعيين الوصى وترتيب الوصاية وتركيب أعضائها بمعرفة الخديو السالف فكذلك فى الصورة الثانية أعنى فيما اذا كان انتخاب الوصى بمعرفه المأمورين المذكورين لا يجوز تبديل الوصى ولا تغيير هيئة الوصاية ولا أعضائها فى تلك المدة واذا توفى أحد من أعضاء هيئة الوصاية فى ظرف تلك المدة يصير انتخاب واحد من المأمورين المصرية بمعرفة الباقين وتعيينه بدل المتوفى واذا توفى الوصى فى تلك المدة يصير انتخاب واحد من أعضاء هيئة الوصاية بمعرفتهم على الوجه السابق وجعله وصياً وانتخاب واحد من المأمورين المصرية والحاقه باعضاء هيئة الوصاية بدل الذى نصب وصياً وبمجرد بلوغ الخديو الصبى الى سن الثمانية عشر سنة صار رشيداً وفعلا واختياراً فيباشر هو بنفسه ادارة أمور الخديوية المصرية مثل سلفه وهذا حسبما تقرر لدينا واقتضته ارادتنا الملوكية

ولما كان تزايد عمارية الخديوية المصرية وسعادة حالها وتأمين رفاهية الاهالى والسكان وراحتها من اهم المواد الملتزمة المرغوبة لدينا وادارة المملكة الملكية والمالية ومنافعها المادية وغيرها المتوقف عليها تاسيس واستكمال وسائل الرفاهية وأسبابها عائدة على الحكومة المصرية فنذكر بيان كيفية تعديل الامتيازات وتوضيحها بشرط بقاء كافة الامتيازات المعطاة قديماً وحديثاً من طرف الدولة العلية الى الحكومة المصرية واستمرار جريانها خلفاً عن سلف وتلك الكيفية هى انه لما كانت ادارة المملكة بكل الصور والحالات سواء كانت ادارتها الملكية أو المالية أو كافة منافعها المادية وغيرها هى من المواد العائدة على الحكومة المصرية والمتعلقة بها ومن المعلوم أن أمر ادارة أى مملكة كانت وحسن انتظامها وتزايد معموريتها وثروة أهاليها وسكانها لا يتيسر الا

بتوفيق معاملاتها وتطبيق اجرآتها العمومية بالاحوال والموقع وأمزجة الاهالى وطبائعها فقد أعطينا لكم الرخصة الكاملة فى أعمال قوانين ونظامات داخلية على حسب لزوم المملكة وكذا لأجل تسهيل تمشية وتسوية كافة المعاملات سواء كانت من طرف الحكومة أو من طرف الاهالى مع الاجانب وترقى وتوسع الصنائع والحرف وأمور التجارة وامور الضبطية مع الاجانب قد أعطينا لكم الرخصة الكاملة فى عقد وتحديد المقاولات (المعاهدات) مع مأمورى الدول الأجنبية فى حق الكمرك وأمور التجارة وكافة المعاملات الجارية مع الاجانب فى أمور المملكة الداخلية وغيرها بصورة لا تستلزم اخلال معاهدات الدولة العلية البولتيقية (السياسية) وكذا لكون خديو مصر حائز التصرفات الكاملة فى الأمور المالية قد صار اعطاء المأذونية التامة له فى عقد استقراض من الخارج بلا استئذان من الدولة العلية فى أى وقت يرى فيه لزوم للاستقراض بشرط أن يكون باسم الحكومة المصرية وكذا لكون أمر محافظة وصيانة المملكة الذى هو الأمر المهم والمعتنى به زيادة عن كل شىء من أقدم الوظائف المختصة بخديو مصر فقد أعطيت له الرخصة الكاملة فى تدارك كافة أسباب المحافظة وتاسيسها وتنظيمها بنسبة الجاآت الزمن والموقع وكذا فى تكثير أو تقليل مقدار العساكر المصرية الشاهانية بلا تحديد على حسب الايجاب واللزوم وكذا أبقينا لخديو مصر الأمتياز القديم فى حق اعطاء رتبة اميرالاى من الرتب العسكرية واعطاء رتبة ثانية من الرتب الديوانية بشرط أن المسكوكات الجارى ضربها بمصر تكون باسمنا الملوكى وأن تكون أعلام وصناجق العساكر البرية والبحرية الموجودة فى الخطة المصرية كأعلام وصناجق سائر عساكرنا الشاهانية بلا فرق و بشرط عدم انشاء سفن زرخ أى مدرعة بالحديد فقط بدون استئذان لا غيرها من السفن الحربيه فانها جائز انشاؤها بلا استئذان ولأجل اعلان المواد المشروحة أعلاه وتاييدها أصدرنا لكم أمرنا هذا الجليل القدر من ديواننا الهمايونى بمقتضى ارادتنا الملوكية وصار توشيح أعلاه بخطنا الهمايونى واعطاؤه لكم متمماً ومكملا ومعدلا ومصرحا للخطوط الهمايونية والاوامر الشريفة الصادرة لحد هذا التاريخ سواء كان فى تاسيس وترتيب وراثة الحكومة المصرية أو فى تشكيل هيئة الوصاية او فى ادارة الأمور الملكية والعسكرية والمالية والمنافع المادية والمواد السائرة بشرط ان تكون الاحكام المندرجة بهذا الفرمان الجديدة نافذة و باقية ومرعية الاجراء على ممر الزمان وقائمة مقام احكام الفرمانات السالفة على ما اقتضته ارادتنا الملوكية فيلزم ان تعلموا قدر لطف عنايتنا الملوكية واداء شكرها بصرف جل هممكم فى حسن ادارة امور الخطة المصرية واستكمال اسباب وقاية امنية الاهالى المنوطة بها واستحصال راحتهم على حسب ماجبلتم عليه من الشيم المرغوبة والغيرة والاستقامة وما اكتسبتموه من الوقوف والمعلومات فى احوال تلك الحوالى والاقطار وان تراعوا اجراء الشروط المقررة فى هذا الفرمان الجديد

وأداء المائة وخمسين ألف كيسة التي هى و يركو مصر المقطوع سنويا بأوقاتها وزمانها الى خزينتنا الجليلة الشاهانية على الترتيب والقاعدة المرعية فى ذلك تحريراً فى سنة ١٢٩٠ اه

ثم وهب جلالة السلطان الاعظم الى جناب خديو مصر مدينة زيلع وملحقاتها التابعة للواء الحديده وأصدر له فرمانا بذلك فى ٢٧ جمادى الاولى سنة ١٢٩٢ هجرية وذلك بخلاف قائمقاميتى سواكن ومصوّع المذكورتين فى الفرمان السابق

علاقات تونس مع الدولة العلية

ومما يذكر من أعمال السلطان عبد العزيز المأثورة توثيقه ربط التبعية بين ايالة تونس والخلافة الأسلامية العثمانية ليثبت حقوق الدولة عليها وذلك أنه لما بلغ مسامع جلالته أن بعض الدول تطمح الى الاستيلاء عليها فأراد رحمه الله أن يؤيد حقوق دولته عليها جهاراً ليرتدع من ينظر اليها بسوء اذ تصير جزأ من ممالكه المحروسة التى تعهدت الدول بضيانتها فى معاهدة باريس المبرمة فى سنة ١٨٥٦ فارسل هذا الفرمان مؤرخا ٩ شعبان سنة ١٢٨٨ الموافق ٢٤ اكتوبر سنة ١٨٧١ لكن لم يمنع ذلك الحكومة الفرنساوية من دخولها بخيلها ورجلها واشهار حمايتها عليها فى سنة ١٨٨١ اذ لا قيمة للحقوق فى عضرنا هذا الموسوم بعصر التمدن والحرية وها هو بحروفه نقلا عن الرائد التونسى أردنا درجه فى هذا الكتاب ارغاما لأشياع فرنسا فى هذه الديار الذين يدعون ان فرنسا لم تهتضم للدولة العلية حقوقاً برفع حمايتها على الايالة التونسية بدعوى انها لم تكن تابعة لها مطلقاً

الدستور المكرم المشير المفخم نظام العالم مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهمات الانام بالرأى الصائب ممهد بنيان الدولة والاقبال مشيد أركان السعادة والاجلال المحفوف بصنوف عواطف الملك الأعلى الوالى بتونس الآن الحائز الحامل للنيشان المجيدى الشريف من رتبته الأولى مع النيشان الهمايونى العثمانى المرصع وزيرى محمد الصادق باشا أدام الله تعالى اجلاله آمين

ليكون معلوماً عند ما يصل توقيعى الرفيع الهمايونى أنه منذ وجهت وأودعت من جانب سلطنتنا السنية ادارة الأيالة التونسية التى هى من ممالك دولتنا العلية المحروسة المتوارثة الى عهدتك ذات اللياقة والاهلية كما وجهت سابقاً الى عهدة أسلافك لم تزل تظهر حسن السيرة والخدمة وتنهى الى طرفنا الملوكى الأشرف خلوص النية والاستقامة حتى صار ذلك قريناً لعلمنا المضىء بالعالم فمأمولنا السلطانى على مقتضى الشيم المرضية التى جبلت عليها هو الدوام فى ذلك المسلك المرضى والجدّ والاجتهاد فى كل ما ينمى عمران مملكتنا الشاهانية وسعادة أهاليها تبعة دولتنا العلية ورفاهيتهم وراحتهم حتى تستديم بذلك استحقاق عنايتى الشاهانية واعتمادى السلطانى المبذولين فى حقك آنا فانا وتعرف قدر تلك العناية والاعتماد وتشكرهما ولما كان المقصود الأصلى والمراد القطعى لسلطنتنا السنية هو

ارتقاء طمانينة الايالة المهمة الراجعة لدولتنا العلية ونمو عمرانها وتأسيس أبنية الأمن والراحة لسكانها يوما فيوماوكان من البديهيات أن السلطنةالعزيزة لا يعزها ولا يؤيدها الا صرف الهمة والعناية العائدة الى حقوقها الاصلية لتمام استحصال هاته المطالب وورد الطلب المندرج بكتابك المخصوص الموجه من طرفك أخيراً الى جانب الخلافة العلية قررت وأبقيت ايالة تونس المحدودة بحدودها القديمة المعلومة بعهدتك بضم امتياز الوراثة وبالشرائط الآتية وحيث ان مرغوبنا السلطانى على ما تقدم بيانه انما هو تزايد عمران تلك المملكة الشاهانية وثروة أهاليها وهى الآن فى حالة مضايقة وتأخر فى الواردات لكل من الحكومة والاهالى قد سمحت السلطنة السنية بعدم ارسال ما كان يرسل باسم معلوم من الايالة لطرف دولتنا العلية بموجب التبعية المقررة المشروعة رحمة لأهالى تلك الايالة ولما كانت الايالة المشار اليها من الاجزاء المتممة لممالكنا الملوكية صدرت ارادتنا السنية بان يكون الوالى بتونس مرخصاً له فى تولية المناصب الشرعية والعسكرية والملكية والمالية والسياسية لمن يكون متأهلا لها وفى العزل عنها بمقتضى قوانين العدل وفى اجراء المعاملات المعلومة مع الدول الأجنبية كما كانت سابقاً فيما عدا المواد السياسية العائدة الى حقوقنا المقدسة الملوكية ونعنى بها ما كان كعقد الشروط المتعلقة بأصول السياسة والحرب وتغيير الحدود ونحوها مما يكون اجراؤه راجعاً الى حقوق سلطنتنا السنية وعند حلول القدر المحتوم فى الولاية وتقديم المعروض بطلب الفرمان الشريف من الوارث الاكبر من عائلتك لطرف سلطنتنا السنية يرسل له الفرمان الشريف مع منشور الوزارة والمشيرية الهمايونى كما استمر العمل بذلك الى الآن بشروط أن تستمر الخطبة باسمنا السلطانى وتزين به السكة التى تضرب هناك علامة علنية للارتباط القديم الشرعى لايالة تونس بمقام الخلافة الجليل وأن يبقى السنجق على لونه وشكله ومهما وقع حرب لسلطنتنا السنية مع أجنبي يرسل العسكر من تلك الايالة الشاهانية بقدر الاستطاعة طبق ما جرت به العادة القديمة فى الجميع ومع تلك المواد يكون أمر الولاية بطريق الوراثة مخصوصاً بعائلتك على أن تبقى سائر المعاملات الارتباطية مع دولتنا العلية جارية مرعية كما كانت سابقاً وأن تجرى الادارة الداخلية لتلك الايالة مطابقة للشرع الشريف وموافقة لقوانين العدل التى يقتضيها الوقت والحال الكافلة بتأمين السكان فى النفس والعرض والمال فاعلا لما ذكر أصدر هذا الفرمان الشريف الجليل القدر من ديواننا الهمايونى وأرسل موشحاً أعلاه بخطنا الميمون السلطانى فخلاصة نياتنا الشاهانية انما هى اصلاح حالة تلك المهمة ومالآل بيتكم وتقوية ذلك حالا ومآلا واستكمال أسباب السعادة والرفاهية والأمنية لصنوف تبعتنا المستظلين بظل عدلنا السلطانى ومأمولنا القطعى الملوكى أن يبذل من جهتك الجهد فى حصول ماذكر ثم حيث كان تمام المحافظة على حقوق سلطنتنا السنية المحققة بتونس من قديم الأزمان وعلى أمنية الاهالى القاطنين

بتلك الايالة المودعة بعهدة صداقتك من حيث النفس والعرض والمال وسائر الحقوق العمومية شرائط امتياز الوراثة الأساسية المقررة فيقتضى أن تتأكد محافظتها عن تطرق الخلل دائماً سرمداً ويتباعد عن وقوع الخلل والحركة على خلافها اذا علمت ذلك فلا بد ان تعرف أنت ومن يقام فى أمر الولاية بالتوارث من أعضاء عائلتك قدر هاته النعمه العلية الشاهانية وتشكروها فعلى ذلك تسعى لتحصيل رضاى السلطانى بالغيرة ومزيد الاهتمام باجراء هذه الشروط المؤسسة حرر فى اليوم التاسع من شهر شعبان المعظم سنة ثمان وثمانين ومائتين وألف اه

هـذا ومن أراد الوقوف على عـلاقات الايالة التونسية مع الدولة العلية العثمانية فليراجع الجزء الأوّل والثالث من كتاب صفوة الاعتبار تأليف الشيخ محمد بيرم أما نحن فقد اكتفينا بنقل صورة فرمان ٩ شعبان سنة ١٢٨٨ السالف الذكر نقلا عن منتخبات الجوائب واللائحة المؤرخة ١٠ مايو سنة ١٨٨١ التى أرسلها الباب العالى الى سفرائه لدى الدول الأوربية احتجاجاً على احتلال فرنسا لتونس وذلك نقلا عن كتاب صفوة الاعتبار واليك نص تعريبها

القسطنطينية ١٠ مايو سـنة ١٨٨١ ان اعلاماتى المختلفـة عرفت فطانتكم الوقائع التى صـارت فى المسئلة التونسية وقـد نسبت بهجوم بعض القبائل البدويين جهة الجزائر ولهذا الهجوم فالحكام التونسيون أعلنوا بانهم حاضرون ليضبطوه من غير تراخ فالدولة الفرنساوية حكمت بانه يلزمها ارسال عدد وافر من العساكر الذين قد استولوا على جزء كبير من الولاية ولم يبعدوا عن المركز الا بعض فراسخ فمن غير التفات الى ما كنا أكدنا به على حضرة الباشا ليأخذ التدابير اللازمة لتمهيد الراحة فى المواضع الثائرة فدولة الجمهورية لا تريد أن تنظر للمخالطة الاقترانية بتونس مع السلطنة العثمانية التى هى محسوبة جزأ متمماً للسلطنة المذكورة وأظهرت بانها لا تقبل قولنا للاتفاق الودادى معها لقطع الاختلاف الذى وقع وترتيب حقوق الباب العالى مع منافع فرنسا فى ذلك المحل وترتيب الاشياء الموجودة من زمن قديم ولا نقدر ان نزيد فى ايضاحها كما يلزم وهى سيادة السلطان التى ليس فيها اختلاف على هاته الولاية وهى سيادة لا تنكرها ولا دولة عموماً وهذا الحق بقى الى الآن صحيحاً ولم ينقطع من زمن فتحها وهو اذ ذاك سنة ١٥٣٤ بخير الدين باشا وفى سـنة ١٥٧٤ بقليج على باشا وسـنان باشا وكانت الدولة العلية أرسلت الى تلك المواضع قوّة عظيمة براً وبحراً ومن زمن ذلك الفتح فالتأسيسات التى فعلها الباب العالى هى أن جميع ولاة تونس يتوارثون الولاية من ذرّية الوالى الأوّل المسمى من السلطان ويتقلدون الى الآن المنصب منه وفرمانات الولاية تبقى فى خزنة الديوان وكذلك جميع المكاتيب التى تاتى منهم للباب العالى فانها تارة تكون فى شأن مخالطتهم مع الدول الاوروباوية وتارة تـكون فى شأن أحوالهم الداخلية والتى لهاته المدّة الاخيرة

فان الباب العالى من استحفاظه على حقوقه زيادة على كونه يسمى الوالى العام فانه يرسل من القسطنطينية الى تونس قاضياً وباشكاتب الولاية ولم يكن الامن ترحم الدولة العلية ان منحت الوالى أن يسمى هو بنفسه هذين المتوظفين وأيضاً فاتباعاً للمذهب وخصوصية سيادة السلطان فان الخطب يذكر فيها اسم جلالته ويضرب على السكة أيضاً وفى وقت الحرب ترسل تونس الاعانة الى التخت وعلى حسب العادة القديمة يأتى الى القسطنطينية دائماً أناس رسميون ليقدّموا تعظيمات الوالى وخضوعه لأعتاب السلطنة وليقبلوا أيضاً الاذن اللازم من الباب العالى لأمور عظيمة فى الولاية ثم ان الباشا الموجود الآن والأهالى التونسيين طلبوا زيادة فى التفضل وأعطى ذلك لحضرته السامية بالفرمان المؤرخ فى سنة ١٨٧١ وتعرف به جميع الدول والآن قد استغاث الوالى بجهده سيده الحقيقى ليعينه على الحالة الرديئة التى وقعت فيها تونس الآن وهاته الاشياء التحقيقية لاينكرها أحد فهل تريدون أن تعرفوا الآن تقريرها بالتاريخ وبالمكاتبات الرسمية هو سهل لكن نقتصر على المهمّ منها لئلا يطول الكلام فى هذا التلغراف ففى المعاهدات القديمة التى بين تركيا وفرنسا تعدّد ألقاب الحضرة السلطانية ويكون منها لقب سلطان تونس (فانظر مثلا) معاهدة ١٠ صفر سنة ١٠٨٤ ﻫ ١٦٦٨ م وفى هاته المعاهدات أيضاً يوجد بان كل المعاهدات التى بين الدولتين تجرى أيضاً فى تونس وفى نصف القرن السابع عشر أى فى ١٥ صفر سنة ١١٦٦ أرسل السلطان فرمانا للباى والحاكم الكبير بالولاية فى رضاء الباب العالى بان قنصل فرنسا يجمع خدمات قناصل الدول الذين لم يكن لهم اذ ذاك نوّاب بالقسطنطينية كالبرتقال وكتالونى واسبانيا وفينيسيا وفرينسا وغيرهم والقنصل وكالته هى حماية السفن تحت الراية الفرنساوية فى المراسى المشهورة بالولاية والفرمان يمنع تداخل قناصل الانكليز والهولنديين وغيرهم من التداخل فى خدمة نائب فرنسا وكذلك سند منع التعدّى بين الباب العالى والنمسا المؤرخ فى ٩ رمضان سنة ١١٩٧ هجرية المتقرّر بمعاهدة ستوفا فى ١٢ ربيع الآخر سنة ١٢٠٥ فانه يأذن حكام الجزائر وتونس وطرابلس الغرب بان يجمعوا على اسم السلطان سفن المتجرية لسلطنة الرومان الفخيمة وأيضاً فان الاتفاق الذى تقدّم هذا السند وتم فى ١٥ شوّال سنة ١١٦١ ﻫ بالاذن من السلطان وكان هذا الاتفاق وقع بين الحكام المذكورين والسلطنة فان الوالى العام بتونس وهواذ ذاك فى رتبة بكلربك ونال اسم على باشا يذكر فى مقدّمة كل مكتوب ممضى عليه منه هاته الكلمات بعينها وهى (مولانا السلطان الغازى محمود) وعلى ذكر واقعات ذلك الزمان استطرد لكم الأذن الصادر من الباب العالى فى ١٥ ربيع الاوّل سنة ١٢٤٥ ﻫ ١٨٢٧ م لحكام الجزائر وتونس وطرابلس الغرب فانه يأمرهم أن لا يتداخلوا فى الخلاف الواقع بين سلطنة النمسا ومملكة المغرب وكذلك الأذن الصادر من القسطنطينية لوالى تونس فى ١٤ صفر سنة ١٢٤٧ ﻫ ١٨٣٠ م

فانه يأمر بترتيب العسكر النظامى بالولاية على نمط الترتيب العسكرى النظامى العثمانى وأيضاً قد أتى مكتوب معين بالطاعه من الباشا التونسى لجلالة السلطان فى سنة ١٨٦٠ وذلك الباشا هو الذى سماه السلطان والياً عاماً وقد انتشر هذا المكتوب فى جميع صحف أوروبا من غير أن يعارض ولا من جهة واحدة ونزيدكم شيئاً آخر وهو أنه فى سنة ١٨٦٣ فى واقعة القرض التونسى الذى وقع فى باريس من غير رضاء الباب العالى كان رسيودواروان دولويس وزير خارجية الأمبراطور نابليون الثالث قد أعلن رأيه بناء على شكايات الدولة العثمانية وقال انه يلزم اما الباشا بتونس أو الصراف الذى يريد عقد القرض معه أن يطلب رضاء الباب العالى ليصح هذا القرض وللمدافعة عن حقوق الباب العالى فان الوزير الفرنساوى أرسل يقول هذا الكلام للصرّاف المشار اليه وهانحن نضع بثبات الكلام السابق لدى ميزان العدل والحق الذى للدول الممضين على معاهدة برلين وانا لمتحققون بان فكر الدول محيط بدلائل كثيرة فى الواجبات العمومية التى يقتضيها المؤتمر المحترم وانهم يريدون أن يفصلوا بالعدل قولنا الذى قدّمناه وانهم يتحفظون على حقوق الباب العالى الاخرى المحفوظة بالمعاهدة المذكورة ويصلحون الحال بين الدولتين فرانسا وتركيا فى علائقهما التى لهما فى هاته الولاية المرؤف بها التونسية المتممة للسلطنة العثمانية والمرغوب من جنابكم أن تتكلم مع وزير الخارجية فى مضمون هذا التلغراف وتشرح له ماتراه نافعاً ولكم الأذن بان تعطوا نسخة من هذا لجناب الوزير اذاطلبكم اه

الامضا

( مصطفى عاصم )

ولنذكر هنا أنه بسبب انخذال فرنسا فى حربها مع بروسيا فى سنة ١٨٧٠ وتشكيل الامبراطورية الالمانية ومساعدة الروسيا لالمانيا مساعدة معنوية كانت من أقوى أسباب نجاحها طلبت الروسيا من الدول ابطال الشروط المقيدة لحريتها فى البحر الأسود من معاهدة سنة ١٨٥٦ التى أمضيت بباريس عقب حرب القرم ولضعف فرنسا عن معارضة هذه الطلبات انعقد مؤتمر فى مدينة لونده للنظر فيها وأيد مطالب الروسيا بمقتضى وفاق تم بين مندوبى الدول فى ١٣ مارث سنة ١٨٧١ قبل توقيع فرنسا على معاهدة فرنكفورت (١) بقليل وبذلك انتقمت الروسيا من فرنسا أى انتقام لمساعدتها انكلترا والدولة العلية عليها فى حرب القرم بأن تركتها وحيدة أمام قوى ألمانيا ومنعت الدول

(١) مدينة بالمانيا واقعة على نهر ماين كانت احدي المدائن الاربع الحرة ومقر المجمع الجرماني العمومي وبها كنيسة شهيرة كانت امبراطورة ألمانيا تتوج فيها وبها الآن كثير من المدارس العالية وتجارتها عظيمة جداً وبها نشأت عائلة روتشلد الشهيرة بالثروة واجتمع بها عدة مجامع دينية وفي ١٠ مايو سنة ١٨٧١ أمضيت بها معاهدة صلح بين فرنسا وألمانيا أهم شروطها سلخ اقليم الالزاس وجزء من اقليم اللورين من فرنسا وضمها الي ألمانيا وتعهد فرنسا بدفع غرامة حربية قدرها خمسة مليارات من الفرنكات عبارة عن مائتي مليون جنيها

من مساعدتها ولو سياسياً
وأخيراً بابطال أهم شروط معاهدة باريس المزرية بشرفها فأبطلت نتائج تلك الحرب وجعلت كل ما صرف فيها من أموال وأهرق فيها من دماء هباء منثوراً واليك نص التعديل

مما تقرّر فى معاهدة سنة ١٨٧١ التى أمضيت فى لندره فى ١٣ مارث من السنة المذكورة فيما يتعلق باعادة النظر فى معاهدة سنة ١٨٥٦ المنعقدة فى باريس فيما يتعلق بالسفر فى البحر الاسود والطونه

﴿١﴾ فصل ١١ و ١٣ و ١٤ من معاهدة ٣٠ مارث سنة ١٨٥٩ المنعقدة فى باريس يكون تعديلها بالصورة الآتية

﴿٢﴾ يبقى منع السفن الحربية من المرور فى جناق قلعه والبوغاز كما هو منصوص فى معاهدة ٣٠ مارث سنة ١٨٥٦ الا أنه يسوغ للحضرة السلطانية أن تأذن بمرور السفن الحربية للدول المتحابة اذا رأت لزوم مرورها مع المحافظة على نص معاهدة باريس التى انعقدت فى ٣٠ مارث سنة ١٨٥٦

﴿٣﴾ البحر الأسود يبقى مفتوحاً كما فى السابق لتسير فيه السفن التجارية الاجنبية انتهى

وعقب التوقيع على اتفاق ١٣ مارث السالف الذكر توفى القائد الشهير عمر باشا فى ١٨ ابريل ثم الصدر الاعظم محمد أمين عالى باشا و بعد موته وجه هذا المنصب الخطير الى محمود نديم باشا فى ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٢٨٨ الموافق ٧ سبتمبر سنة ١٨٧١ ولبث فى الوزارة الى ٢٣ مارث سنة ١٨٧٣ ثم عقبه أحمد مدحت باشا ثم محمد رشدى باشا فأحمد أسعد باشا فحسين عونى باشا

وأخيراً عادت الصدارة الى محمود نديم باشا فى ٢٥ رجب سنة ١٢٩٢ الموافق ٣٢ أغسطس سنة ١٨٧٥

ومن أعماله المضرّة عدم ضبط المالية حتى عجزت عن سداد الكوبونات فى أوقاتها واضطر الى الاعلان رسمياً بتوقيف دفع الفوائد فى ٦ أغسطس سنة ١٨٧٥ وهو ما يسمونه فى عرف المالية اشهار الأفلاس كما فعلت مملكة البرتغال فى سنة ١٨٩٢ ولسوء ادارته تألب العلماء والطلبة وطلبوا عزله فعزل فى ١٧ ربيع الثانى سنة ١٢٩٣ الموافق ٢٤ مايو سنة ١٨٧٦ وأسند منصب الصدارة الى محمد رشدى باشا وهو الملقب بالمترجم الذى سبق تعيينه فى هذا المنصب عدة مرات وعينه معه بفرمان واحد حسن خير الله أفندى شيخاً للاسلام وبما أن عزل السلطان عبدالعزيز كان بدسيسة هذين الشخصين وغيرهم فسنرجىء الكلام على كيفية عزله وموته الى بعد ذكر مسئلة برزخ السويس الذى تم فتحه فى سنة ١٨٦٩

مسألة قنال السويس

ان أهمية ايصال البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط لم تخف على أحد بل الكل مسلم بها ولذلك فطن لها قدماء المصريين وأوجدوا اتصالا بين البحرين لكن على غير الصورة التى عليها قنال السويس الآن فقد قال هيرودوت (١) المؤرخ اليونانى الشهير حين زار وادى النيل ان طول الخليج الموصل بين البحرين مسيرة أربعة أيام وعرضه كاف لمرور سفينتين من أكبر السفن فى آن واحد بكل سهولة وهو يتفرع عن فرع النيل الذى يصب عند مدينة بيلوزه ( القائمة مدينة بورسعيد بالقرب من اطلالها ) ويبتدىء عند مدينة بوباستيس ( الموجودة أطلالها بالقرب من الزقازيق ويطلق عليها اسم تل بسطه) ويتجه شرقا حتى يصل الى البحر الأحمر اه

فيظهر من هذا الشرح أن المراكب كانت تاتى من البحر الأبيض فتصعد فرع النيل الشرقى الى قرب الزقازيق ثم تدخل فى الخليج حتى تصل الى البحر الاحمر وظل هذا الاتصال باقياً حتى انهالت رمال الصحراء الشرقية على الخليج فردمته ويقال ان أبا جعفر المنصور العباسى أمر بابطاله عند ما خرج عليه الحجاج وتحصن فى المدينة المنورة حتى لاتاتى اليه المؤن بسهولة عن طريق هذا الخليج

ثم خطر ببال السلطان مصطفى الثالث العثمانى أن يعيد الاتصال كما كان وكلف البارون دى توت بدرس هذا المشروع ولم يتم بسبب موت السلطان وترك من خلفه له ولما أتى بونابرت الفرنساوى الى مصر أرسل لجنة علمية للتحقق من امكان ايصال البحرين بخليج يصل بينهما بدون أن تمر المراكب فى وسط البلاد المصرية فاجابته اللجنة بالايجاب ولداعى خروجه من مصر سريعاً كما سبق شرحه لم يمكنه تنفيذ مشروعه

وكان يظن قبلا أن حفر خليج يصل بين البحرين مباشرة أمر مستحيل بسبب ادعاء بعض العلماء أن سطح مياه البحر الاحمر أعلى بنحو عشرة أمتار عن سطح مياه البحر الابيض كما قررته بعثة علمية فرنساوية فى سنة ١٧٧٩ ولم يخالفها فى هذا الرأى الا الرياضى الشهير لابلاس(٢) لكن أسقط هذا القول البحث الذى أجرى فى أواسط هذا القرن بمعرفة بعض ضباط من الانكليز فى سنة ١٨٤٠ ولجنة من عدّة مهندسين فرنساويين فى سنة ١٨٤٧

(١) هو المؤرخ اليوناني الشهير الملقب بابي التاريخ ولد سنة ٤٨٤ قبل الميلاد وراد بلاد اليونان ومصر وأسيا ليطلع علي عوائد أهلها وأخلاقهم حتى يكتب تاريخهم عن روية وخبرة وتوفي حوالي سنة ٥٠٦ قبل الميلاد

(٢) رياضي شهير ولد سنة ١٧٤٩ بفرنسا ونبغ في الرياضة من صغره حتي عين أستاذاً لها في احدى المدارس الحربية ولم يتجاوز سنه ١٩ سنة واليه يرجع فضل تتميم اكتشاف نيوتن الانكليزى المختص بدوران العوالم حول بعضها وله عدة مؤلفات شهيرة في جميع العلوم الرياضية ومايتعلق بها ورقاه نابليون الاول الي درجة كونت ومنحه لويس الثامن عشر لقب مركيز وانتخب عضواً في جمعية العلوم الفرنساوية ( اكادميه ) وفي مجمع الانستيتوت واشتغل قليلا بالسياسة وانتخب عضوا في السناتو سنة ١٧٩٩ ونيطت به رياسته مدة وتوفي سنة ١٨٢٧

وأخيراً بمعرفة لبنان باشا فى سنة ١٨٥٣ ولما تحقق لدى العموم باجماع العلماء أن مسطح البحرين متساوسعى المسيو فردينان دى ليسبس قنصل فرنسا فى مصر لدى المرحوم سعيد باشا (١) والى مصر اذ ذاك للحصول على فرمان يخوّله امتياز تشكيل شركة عمومية لاتمام هذا العمل

وبعد مساع لامزيد عليها تحصل على هذا الفرمان مؤرخا ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ ومما جاء فيه أن يكون الخليج المزمع انشاؤه ملكا للشركة مدّة ٩٩ سنة تبتدىء من يوم فتحه للملاحة وأن يجوزلها انشاء خليج آخر يصل بين النيل والخليج المالح وأن تتنازل لها الحكومة عن الاراضى الاميرية الغير صالحة للزراعة التى تمر الترعة الحلوة فيها بشرط أن تزرعها الشركة على مصاريفها وأخيرا أن لا يعمل بهذا الفرمان ولا يبتدأ فى العمل الا بعد تصديق الباب العالى عليه

وفى ٢٠ يوليو سنة ١٨٥٦ تعهدت الحكومة للشركة باحضار من يلزم لها من العملة من المصريين قهرا بالطريقة التى كانت متبعة فى الاعمال العمومية وأن تدفع لهم الشركة الأجر من طرفها لمن عمره أقل من اثنتى عشرة سنة قرشا صاغا يوميا ومن زاد سنه عن ذلك تكون أجرته من قرشين ونصف الى ثلاثة قروش وذلك خلاف الجراية التى تعطى لكل واحد منهم وقيمتها قرش صاغ واشترط على الشركة انشاء اسبتاليات وترتيب أطباء لمعالجة المرضى على طرفها ولولا هذه الشروط لما أمكن الشركة اتمام هذا المشروع وعدم وجود شرط مثله كان سببا فى عدم نجاح مشروع فتح برزخ بناما لان الشركة لم تجد عمالا بهذه الصفة يكونون موجودين دائما فى العمل باجرة تافهة كهذه ولما أصدرت سهام الشركة لم يقبل الجمهور على شرائها لمعارضة الجرائد الانكليزية لهذا المشروع فبقى فى أيديها مائة وسبعة وسبعون ألف وستمائة واثنان وأربعون سهما قيمة كل منها خمسمائة فرنك أى ان ثمنها عبارة عن ثلاثة ملايين وخمسمائة وخمسين ألف جنيه مصرى وزيادة فحسن المسيودى ليسبس للمرحوم سعيد باشا أن يشتريها للحكومة المصرية فاشتراها

ولما طلب منه عشرى ثمنها عند الابتداء فى العمل اقترضه وربما كان هذا أوّل ديون مصر التى تربو الآن على مائة مليون وستة ملايين من الجنيهات المصرية ولم ينتظر المسيودى ليسبس تصديق الدولة بل ابتدأ فى العمل

ولما لاحظت الدولة العلية على أن ذلك مخالف لنص الفرمان المعطى للشركة من سعيد باشا

---

(١) هو رابع أولاد محمد علي باشا الكبير تولي على مصر سنة ١٢٧٠ ﻫ الموافقة سنة ١٨٥٤ ميلادية وكانت ولادته سنة ١٨٢٢ ميلادية وتوفي سنة ١٢٧٩ ﻫ الموافقة سنة ١٨٦٣ ميلادية ومن آثاره لائحة الاطيان الخراجية وقانون المعاشات لجميع الموظفين ومنح الاهالي حرية التجارة بعد ان كانت خاصة بالحكومة لكن هذه المنح الجليلة لم تعادل ما لحق مصر من الضرر المالي والسياسي بايجازاته حفر قنال السويس الذى قرب المسافة بين أوروبا والشرق وكان سببا فيما نطلب منه تعالي ان يخلصنا منه وهو الاحتلال الاجنبي

أجابها ان هذه أعمال ابتدائية ضرورية لتخطيط المشروع ولا تعتبر بدأ فى العمل وأخيراً بعد ان دارت المخابرات عدّة سنوات بين الشركة والباب العالى والحكومة الفرنساوية التى تداخلت لحماية هذا المشروع الفرنساوى أرسل الباب العالى الى المسيو دى ليسبس بلاغا فى ٦ ابريل سنة ١٨٦٣ مفاده أن الدولة ترى أن امتلاك الشركة للاراضى الواقعة على ضفتى الترعة الحلوة وزراعتها بمعرفتها مما يضر بحقوق السلطنة فى مصر اذ يجعل لدولة أجنبية حقوقا فى مصر خصوصا اذا أنشئت بها مستعمرات زراعية يؤتى لها بالزراع من الخارج ولذلك لا تصدّق على هذا المشروع الا اذا ضمنت جميع الدول حرية القنال المراد انشاؤه كما ضمنت بوغازى الاستانة وان تترك الشركة حقوقها فى الترعة العذبة وما على ضفافها من الأراضى وأن لا يستعمل المصريون قهرا فى أشغال الشركة اذ كان يستغل بها فى هذه الاثناء نحو ستين ألف مصرى بطريق السخرة وأمهلت الدولة الشركة ستة أشهر لأعطاء الجواب والا يسقط حقها فى جميع الاراضى الممنوحة لها

ولما انقضى هذا الاجل ولم تجب الشركة بشىء أعلنتها الحكومة المصرية بسقوط حقها فى فى ١٢ اكتوبر سنة ١٨٦٣ فارعد المسيو دى ليسبس وأزبد وتداخلت فرنسا وكاد الامر يفضى الى ارتباكات سياسية فقبلت الحكومة المصرية بحكم نابوليون الثالث أمبراطور فرنسا ظناً منها أنه ينصفها ضدّ الشركة وغاب عنها انه لابد أن يميل الى الشركة بعاملى الجنسية والسياسة ولو لم يكن الحق من جانبها وحقيقة أنه اتخذ هذه الفرصة وسيلة للحكم للشركة بمبالغ وافرة كانت سببا فى اتمام المشروع فأصدر حكمه فى ٦ يوليه بعد أن استشار لجنة من أهل الدراية بالأحكام القانونية حضرها نوبار باشا بصفة مندوب عن خديو مصر ولا حاجة لذكر الحكم باسبابه بل يكتفى بالقول أنه حكم بما يأتى

﴿أوّلا﴾ أن تدفع الحكومة المصرية للشركة مبلغ ثمانية وثلاثين مليون فرنكا فى مقابلة ابطال الشرط القاضى عليها باحضار العمال

﴿ثانيا﴾ ثلاثين مليون فرنكا نظير ترك الاراضى التى رخص للشركة باحيائها وزراعتها

﴿ثالثا﴾ ستة عشر مليون فى مقابلة تخلى الشركة عن الترعة الحلوة وفوائدها وتلتزم الحكومة زيادة على ذلك بحفرها من القاهرة الى الوادى وبجعلها صالحة للملاحة فى جميع أوقات السنة وعلى الشركة تطهيرها سنويا بمعرفتها فى مقابلة ثلثمائة ألف فرنك تأخذها من الحكومة ويكون للشركة الحق فى أخذ سبعين ألف متر مكعب من المياه فى كل أربع وعشرين ساعة فيكون مجموع هذه المبالغ أربعة وثمانين مليون فرنكا عبارة عن ثلاثة ملايين جنيه وأربعمائة وثلاثة وستين الف جنيه يدفع على جملة أقساط بالكيفية الآتية من ابتداء سنة ١٨٦٤ لغاية سنة ١٨٦٧ يدفع مبلغ ستة ملايين ونصف من الفرنكات سنويا وفى كل من سنتى ١٨٦٨ و١٨٦٩ مائتان وأربعون ألف جنيه ومن سنة ١٨٧٠ لغاية سنة ١٨٧٩ ثلاثة ملايين وستمائة ألف فرنك سنويا عبارة عن مائة

وأربعين ألف جنيه سنويا

ولما تم الحكم على الوجه المذكور الظاهر اجحافه بحقوق مصر حررت الشروط النهائية بين الحضرة الخديوية الاسماعيلية والمسيو دى ليسبس رئيس الشركه والنائب عنها فى ٢٢ فبراير سنة ١٨٦٦ وتقدمت للباب العالى فصدر عليها الفرمان السلطانى مؤرخاً ١٩ مارث سنة ١٨٦٦ الموافق ٢ ذى القعدة ١٢٨٢ ه

و بعد ذلك عدلت مواعيدالدفع بكيفية أرجح للشركةوزيادة على ذلك جميعه تنازلت الشركةللحكومة عن أرض الوادى التىقدر مساحتها ثلاثة وعشرون ألفا وسبعمائةوثمانون فدانا فى مقابلة عشرة ملايين من الفرنكات وكانت قداشترتها الشركة قبلامن الحكومة بمبلغ مليون واحد وسبعمائة وسبعين ألف فرنك تقريبا فيكون ربحها منهذه المسئلة فقط زيادة عن ثمانية ملايين ولذلك فيمكننا القول بانه لولا نقودمصر وفلاح مصرالذى مازال يجبر على الاشتغال قهراً بأجرة زهيدة رغماً عن الشروط السالفة الذكرلما أمكن دى ليسبس أن يتمهذا المشروع الذى كان سببا فيما نحنفيه من الاحتلالالاجنبيوما سنراه نحن وأولادنا ان لم تساعدنا المقادير

والاغرب مما ذكر أنه لما تم فتح البرزخأرادتالحكومةالاستيلاء على كمرك بورسعيد كما تسمح لها المعاهدات الابتدائية فامتنعت الشركة وتداخلت حكومة فرنسا وقبلت الحكومة المصرية أن تدفع لها ثلاثين مليون فرنك لمنع هذه المعارضة العارية عن الأساس و بذلك يكون ما دفع منالحكومة المصرية بسببعدم تبصررجالهامائةواثنين وعشرين مليون فرنكا منها أربعة وثمانون قيمة ماحكم به نابليون للشركة وثمانية قيمة ربحها من أراضى الوادى وثلاثون فى مقابل تنازلها عن المعارضة فى كمارك بورسعيد

ولما توفر المال لدىالشركة أخذت فى بذل الهمة لانجاز القنالوفى شهرمارثسنة ١٨٦٩ توجه الخديو اسمعيل باشا الى أوروبا لدعوةملوكهالحضور الاحتفال الذى صمم جنابه على اجرائه اظهاراً لسروره مناتمام هذا العمل المضر بمصر مالياً وسياسياًومادعاهم الا ليستميلهم لاغراضه السياسية

الاحتفال بفتح قنال السويس

ولما عاد الى بلاده أخذ فى الاستعداد لاستقبال الزائرين بما يليق بمقامهم ولمالميكن بمصر تياترو وكان وجوده أمراً لابد منه على زعمه لتمام الانتظام أمر المهندس فرنس النمساوى الذى رقى فيما بعد الى رتبة باشا ببناء تياترو الاوبرا والتياترو الصغير الذى كان بالقرب من الاول وهدمعند بناء عمارةالبوسطة الجديدةولضيقالوقتاستمرالعمل ليلا ونهاراً حتىتم بناؤهما وجعل أكثر بناءالتياترو الكبيرمن الخشب ثم أرسل درانت باولينو باشا لمقاولة أحسن جوق من الممثلين والممثلات

وأخذ أيضاًيجهزمايلزم لاقامةالملوك والوزراء من السرايات اللائقة بمقامهم وأنشالهم سراية فى مدينة الاسماعيلية الجديدة أنشاتها الشركة على نفقة الحكومة باثنين مليون

من الفرنكات

وفى ١٧ سبتمبر سنة ١٨٦٩ قدم الوافدون على البرزخ وفى مقدمتهم امبراطورة فرنسا(١) وامبراطور النمساووليا عهد ألمانيا وايطاليا فقضوا الليلة فى مدينة بورت سعيد فى غاية السرور وفى صباح اليوم التالى قام الجميع على الوابورات البحرية التى أعدت لذلك ونزلوا فى مدينة الاسماعيلية حيث قضوا الليلة فيما لا يوصف من الملاهى والمراقص والزينات وفى اليوم الثالث ساروا جميعاً الى السويس ثم أتوا الى القاهرة ومنها رجع كل الى بلاده الا من أراد السياحة الى الجهات القبلية لمشاهدة آثار مصر القديمة وقد وجه الخديو كل همته الى اكرام امبراطورة فرنسا وتوفير أسباب الراحة لها أثناء سياحتها فى صعيد مصر فاصحبها بنجله دولتلو حسين باشاو بأعظم رجال هذا العصر صاحب الدولة والوطنية رياض باشا وعين لخدمتها ستة عشر وابوراً بحريا اختص بعضها لركوبها ومعيتها والبعض الآخر لاحضار كل ما يلزم لها من المأكل والمشرب والفواكه وغير ذلك من القاهرة يومياً واستمرت مشمولة بالتفات الحضرة الخديوية مدة الاثنين وعشرين يوما التى قضتها فى هذا السفر ولم تزل كذلك حتى عادت الى بلادها مسرورة شاكرة وقد قال سعادة المرحوم على باشا مبارك فى الصحيفة الأخيرة من الجزء الثامن عشر من الخطط الجديدة التوفيقية ما ياتى

وقد طار ذكر هذا المهرجان حتى ملأ البقاع وتحدث الناس فى ترتيبه ونظامه ومصرفه لانه فريد فى ذاته لم يجر على مثال سابق عليه والذى تعجب الناس منه غاية العجب هو استعداد موسيو يوسف بنطلينى التليانى المتعهد بما كول جميع من حضر هذا المحفل كل انسان على حسب مقامه فكان هو ورجاله يؤدون الخدمة بغاية النشاط والانتظام مع مراعاة الواجب والأدب وكان الناس يتعاقبون على السفر الإفرنجية والعربية فوجا بعد فوج وفى كل مرة تتغير أدوات السفرة بغيرها وتقدم ألوان الأطعمة على التعاقب فى أسرع زمن مع مراعاة مقتضيات خدمة كل سفرة عربية كانت أو افرنجية واستمرت هذه الحالة فى الخيم والصواوين والوابورات وجميع المحلات المعدة لذلك مدة أربع عشرة ساعة والذى صرفته الحكومة للمتعهد المذكور فى مقابلة المأكول والمشروب ولوازمهما من أدوات ومهمات وخدمة وخدم هو مبلغ مائتين وخمسين ألف بنتو وهذا خلاف أجر نقل مهماته ورجاله ذهاباً

---

(١) ولدت هذه الامبراطورة المسماة (أوجيني) بمدينة غرناطه باسبانيا في ٥ مايو سنة ١٨٢٦ من عائلة أثيلة في الشرف عريقة في المجد اسمها عائلة (مونتيخو) ولشهرتها في الجمال والتربية والكمال تزوجها الامبراطور نابوليون الثالث في ٢٠ ينايرسنة ١٨٥٢ وولدت منه غلاما في ١٦ مارث سنة ١٨٥٦ ولم يمل اليها الفرنساويون لحبها الاستبداد ومساعدتها زوجها على الاستئثار بالسلطة وينسب لها تحريضه على محاربة البروسيا في سنة ١٨٧٠ ولما هزم نابليون الثالث في واقعة (سيدان) واعلنت الجمهورية الثالثة الحالية في ٤ سبتمبرسنة ١٨٧٠ هاجرت الى انكلترا مع ابنها ثم لحقها زوجها وأقام معها الي أن توفي في ٩ ينايرسنة ١٨٧٣ وفي أول يونية سنة ١٨٧٩ قتل ابنها الوحيد في محاربة الزولوس بجنوب أفريقيا حيث كان ضابطا في الجيش الانكليزى وبعد ان احتفلت بدفنه في بلاد الانكليز سافرت الى بلاد الزولوس لزيارة المحل الذى قتل فيه ولم تزل عائشة حتى الان

وايابا فانها كانت على الحكومة أيضاً وقد بلغ ما صرف على هذا المهرجان من أجر سفر أشخاص ومنقولات ومأكولات وغير ذلك مليونا و ١١١٩٣ جنيها انكليزيا فلو أضيف الى ذلك أجر سكة الحديد وماصرف على وابورات البحر فى النيل والخليج المالح مع ماصرفته الحكومة على المبانى فى مدن القنال والقاهرة وثغر الاسكندرية وغيرها وما صرف فى الزينة ومهماتها وشراء عربات ومهمات للسكة الحديدية لأجل المهرجان المذكور لبلغ مصرف هذا المهرجان مايزيد عن مليون ونصف من الجنيهات وذلك قدر السدس من ايراد مصر سنة كاملة اه (١)

عزل السلطان عبد العزيز

هذا ولنأت هنا على ذكر هذه الحادثة المفجعة مع بيان الأسباب التى تنسب لها بقدر ماوصل اليه بحث هذا العاجز فنقول

ان بعد الحوادث التى مر ذكرها اقتنع السلطان رحمه الله ان تحالف الدول مع الدولة فى حرب القرم وما بعدها لم تكن نتيجته الا اضعافها بالتداخل فى شؤونها الداخلية ومساعدة الطوائف المسيحية الخاضعة لها على الانشقاق عنها و بث روح الفتن والفساد فى ممالكها تحت غطاء الحرية ونشر العلوم وأن كل ذلك يعود بالنفع على الروسيا جارتها القوية وعدوّتها القديمة لاسيما وقد عدّل الدول بعد الحرب الفرنساوية الالمانية أهم بنود معاهدة باريس التى أبرمت بعد حرب القرم لحفظ التوازن فى البحر الأسود وعدم مراعاتها عقب ابرامها فى حق ولايتى الافلاق والبغدان فلهذه الاسباب علم جلالة السلطان أن الأولى والأنجح لسياسة الدولة هو التباعد عن الدول الغربية والتحالف مع الروسيا وعضده فى هذا الفكر الصدر الأعظم محمود نديم باشا فاكثر السلطان من الاجتماع مع الجنرال اغناتيف سفير الروسيا بالاستانة والمتواتر وان لم تثبته أوراق رسمية انهما كانا يسعيان لوضع أساس معاهدة هجومية ودفاعية يكون من أهمّ بنودها الاختصاص بجميع بلاد الشرق وتبع الولايات الاسلامية أو التى يغلب فيها العنصر الأسلامى للدولة العلية الأسلامية وضم جميع الأقاليم المسيحية أو التى يسود فيها هذا العنصر للدولة الروسية ولما شاع هذا المشروع لم يرق فى أعين الدول الأوروبية التى لها مصالح فى الشرق وخصوصاً انكلترا فأخذ عمالهم وسفراؤهم الظاهرون والسريون يلقون الوساوس فى عقول السذج من أهل الأستانة وينسبون السلطان للتبذير والاسراف وعدم الاهلية لادارة مهام الملك وربما استعان هؤلاء المغررون بطرق أخرى المطالع بها أدرى ومازالوا يوسوسون ويلقون بذور الفساد حتى أقنعوا الوزراء بوجوب عزله وأن اقالته من الأعمال واجبة لانتظام الدولة وسيرها على

---

(١) ومما يوجب الاستغراب أكثر مما مرأن الخديو الاسبق لم يكتف بما صرفه عند الاحتفال بهذا الخليج بل باع الاسهم التي كان اشتراها المرحوم سعيد باشا الى انكلترا بأربعة ملايين جنيه مع أنها تساوى الان ثمانية عشر مليونا وحيث انه كان قدرهن أرباحها مدة طويلة تنتهي في يوليوسنة ١٨٩٤ فتعهد للحكومة الانكليزية بان يدفع لها سنويا فائدة عن ثمن هذه الاسهم تبلغ قيمتها سنويا نحو مائتي ألف جنيه ولم تزل الحكومة تدفع هذه الفوائد وستستمر علي دفعها الي منتصف السنة القابلة سنة ١٨٩٤

المحور المستقيم وصادفت دسائسهم أذنا صاغية عند بعض العلماء لما خالج صدورهم من عدم الميل للسلطان بسبب عدم اتباعه بعض العوائد المألوفة لديهم مثل خروجه من ممالكه وزيارة معرض باريس وحضوره التشخيصات التياترية والباللوات (المراقص) وكيفية خلعه على أصح الروايات ان المؤامرة التى أوصلت الى هذه النتيجة حصلت بين كل من محمد رشدى باشا الصدر الأعظم وحسين عونى باشا ناظر الحربية وأحمد باشا قيصرلى ناظر البحرية وأحمد مدحت باشا وشيخ الاسلام حسن خير الله أفندى وقبل الشروع فى تنفيذ ماصمموا عليه أصدر شيخ الاسلام فتوى بوجوب ذلك هذا نصها

الفتوى بعزله

اذا كان زيد الذى هو أمير المؤمنين مختل الشعور وليس له المام فى الأمور السياسية وما برح ينفق الأموال الميرية فى مصارفه النفسانية فى درجة لا طاقة للملك والملة على تحملها وقد أخل بالأمور الدينية والدنيوية وشوشها وخرب الملك والملة وكان بقاؤه مضرا بها فهل يصح خلعه الجواب يصح كتبه الفقير حسن خير الله عفى عنه

ثم أناطوا حسين عونى باشا بأمر خلع السلطان عبد العزيز وشيخ الاسلام وباقى الوزراء بمبايعة السلطان مراد وفى يوم الاثنين ٦ جمادى الاولى سنة ١٢٩٣ الموافق ٢٩ مايو سنة ١٨٧٦ أخذ ناظر البحرية فى تجهيز المراكب لحصر السراية السلطانية بحراً فاستغرب السلطان حصول المناورات بالبحر تحت شبابيكه بدون سابقة علمه فأرسل يستعلم عن السبب فأجيب بأن دواعى الحال أوجبت ذلك ثم أخبر أحمد باشا قيصرلى الصدر الاعظم ومدحت باشا بسؤال السلطان فعزموا على تنفيذ مشروعهم فى مساء ذلك اليوم خوفا من أن يكون السلطان قد شعر بسىء قصدهم واتفقوا على تكليف من يدعى رديف باشا بحصر السراية براً وتعهد أحمد باشا قيصرلى بحصرها بحراً وفى الساعة الثانية بعد غروب ذلك اليوم اجتمع المتآمرون فى ديوان السر عسكرية وتوجه رديف باشا مع ألاى من الجند مؤلف من ٢٥٠٠ عسكرى وأمر سليمان باشا رئيس المدرسة الحربية بخفر باب السراى مع مائة من تلامذة هذه المدرسة راكبين خيولهم ومسلحين بالبنادق الجديدة ولما تم حصارها براً وبحراً وأخبر المتآمرون بذلك توجه حسين عونى باشا فى عربة الى مقر السلطان مراد وأركبه معه وعادا معاً الى السر عسكرية حيث كان بانتظارهما شيخ الاسلام والشريف عبد المطلب وجميع أعيان الدولة من عسكريين وملكيين ولما دخلاها أحاطت بالسراية فرقة من الجنود لمنع من فيها من الخروج ثم حصلت المبايعة

٣٣ السلطان مراد خان الخامس

من جميع الحاضرين على الأسلوب المتبع وهو ابن السلطان عبد المجيد وكانت ولادته فى ٢٥ رجب سنة ١٢٥٦

هـذا ولما تم أمر المبايعة ارسل مخصوص الى رديف باشا يخبره بذلك و يسلمه صورة الفتوى القاضية بعزل السلطان عبـد العزيز فقصد رديف باشا باب الحريم واستدعى جوهر أغا رئيس أغاوات السراى وكلفه بأن يبلغ السلطان أن الأمة قد عزلته وأنه مأمور بتوصـيل السلطان المخلوع الى سراى طو بقبو وسلمه صورة الفتوى ليطلعه عليها فلم يصـدّق السلطان الخبر الا بعد أن نظر من الشبابيك ورأى العساكر محيطة بسرايته براً و بحراً احاطة السوار بالمعصم

وعند ذلك أيقن ان التوقف لا يكون وراءه الا الاكراه على الخروج فنزل مستسلما و بمجرّد خروجه أحاطت به العساكر وأنزلوه مع ابنه يوسف عز الدين افندى فى زورق ووالدته فى ثان و باقى أولاده وأمهاتهم فى ثالث ثم خفرتهم الزوارق الحربيـة الى أن أوصلتهم الى سراى طو بقبو حيث كانت العساكر مصطفة على حافتى الطريق من البرّ الى باب السراى

وفى الساعة الحادية عشرة ليلا أطلقت المدافع من البر والبحر ايذانا بخلع السلطان عبد العزيز وتنصيب السلطان مراد الخامس ونادى المنادون بذلك فى الشوارع فهرع الاهالى أفواجا الى سراى السر عسكرية و بايعوا السلطان مراد ولم يحصل أدنى مقاومة من أحد ولم تحتج احدى الدول على هذه الثورة الداخلية وذلك مما يؤيد أن جميع القناصل كان عندهم علم بما حصل قبل وقوعه وأنه ربما كان ذلك باتفاقهم

وفى الساعة الثالثة صباحا ذهب السلطان مراد فى عربة بين صفوف الاهالى الى سراى بشكطاش حيث استمرّت المبايعة ثلاثة أيام متوالية

وفاة السلطان عبد العزيز

ولقد اختلفت الاقوال فى كيفية موت هذا السلطان وكثرت الروايات عن ذلك فمن قائل أنه قتل نفسه لعـدم انتظام قواه العقلية بعد خلعه ومن قائل أن الذين تآمروا على خلعه ارتكبوا هـذا الامر الفظيع فقتلوه خيفة أن يسعى فى الرجوع الى منصة الاحكام أما الحقيقة فغمضة نترك كشف الستار عنها لمن يأتى بعدنا ونكتفى بذكر الرواية التى تناقلتها الالسن والجرائد فى ذلك الحين

وذلك أنه شاع او أشاع أرباب الغايات ان قد أصابته رحمه الله أمراض دماغية يوم خلعه فاضطربت أحواله وكان يتخيل أن البواخر الراسية فى البوغاز تطلق النار على العدوّ فزاده ذلك قلقا ولم يستطع الرقاد فى ليلة الاحد التالية لعزله فلما أصبح الصباح ذهب الى الحمام كعادته ثم الى البستان ثم رجع الى حجرته وصار يأمر بفتح الشبابيـك والابواب ثم يخرج الى البستان ويعود ثم يخرج ثانيا كأن الدنيا ضاقت امامه برحبها ثم حاول الخروج الى شاطىء البحر فرآه الضابط الذى كان يحرس الباب فقال له بلطف لا اذن بالخروج ياسيدى فهدّده بغدّارة كانت فى يده ثم دخل و يقال ان هذه الحادثة كانت سببا فى ازدياد أعراض الخلل واستشهد أصحاب هذا الرأى ببعض خدّامه وحجابه فقالوا أنه رحمه الله كان

يتوهم أن عدوّاً هاجم عليه وأنه يجب على العساكر أن تمانعه وتطارده وعلى البواخر أن توجه نيرانها على هذا العدوّ المفاجيء

وأخيراً طلب من احدى الجوارى مقصاً ومرآة ليقص أطراف لحيته كما كانت عادته فاحضرتهما له من والدته وانصرفت ثم رأى والدته تنظره من وراء الباب فغضب وأمرها بالانصراف و بعد ذلك حضر أحد اعوانه فأخذ يحادثه فى مسألة مهاجمة العدوّ التى كان تخيلها وفى أثناء الحديث اخذ المقص وقطع به عرقا من ذراعه الأيمن فحاول العون منعه ولما لم يتمكن ذهب وأخبر والدته ولما خرج العون قفل السلطان الشبابيك والابواب وقطع عرق ذراعه الايسر واضطجع على متكأ حتى تصفى دمه ولما شاع هذا الخبر وعلا صريخ الجوارى أتى الوزراء و بعد ان شاهدوا الحالة استدعوا لجنة طبية من مشاهير الأطباء ومن ضمنهم أطباء سفراء الدول و بعد الكشف عليه طبع الكشف ووزع على العموم ونشر فى الجرائد ليعلم الناس كيفية موته

وفى الساعة الخامسة عربيا نقلت جثته الى سراى طوبقبو (وكان رحمه الله قد نقل منها الى سراية أخرى فى يوم السبت السابق لوفاته بناء على طلبه ) وهناك غسلت وجهزت

وفى الساعة العاشرة شيعت جنازته ودفن بجوار أبيه السلطان محمود رحمهما الله

ومما يوجد شكا فى أنه قتل نفسه بسبب اختلال قواه العقلية ما كتبه للسلطان مراد قبل وفاته بيوم واحد يطلب منه الانتقال من طوبقبو فانه لا يؤخذ من عبارته أن به أقل اضطراب عقلى واليك صورة هذه الكتابة نقلا عن منتخبات الجوائب

بعد اتكالى على الله تعالى وجهت اتكالى عليك فأهنئك بجلوسك على تخت السلطنة وأبين لك ما بى من الأسف على انى لم أقدر على ان أخدم الامة حسب مرادها فأؤمل أنك أنت تبلغ هذا الأرب وأنك لا تنسى أنى تشبثت بالوسائل الفعالة لصيانة المملكة وحفظ شرفها وأوصيك بان تتذكر أن من صيرنى الى هذه الحالة هم العساكر الذين سلحتهم أنا بيدى وحيث كان من دأبى دائما الرفق بالمظلومين وشملهم بالمعروف الذى تقتضيه الانسانية أرغب اليك أن تنقذنى من هذا المكان الضيق المعنى ( بتشديد النون) الذى صرت اليه وتعين لى محلا أكثر ملاءمة لى وأهنئك بان الملك انتقل الى ذرّية أخى عبد المجيد خان الامضا ( عبد العزيز )

ومن جهة أخرى فان استدعاء الوزراء لاطباء القناصل يدل أيضا انهم كانوا معتقدين أن الامة تصدّق قولهم بانه قتل نفسه فعمدوا الى تقوية قولهم بهذا الكشف الطبى الموقع عليه أطباء السفارات مما يعتبر اقرار من الدول وتصديقا لروايتهم ومع ذلك فلا يمكن الجزم الآن بانه قتل شهيد الدسائس أو انتحر تخلصا من الحياة بعد خلعه لعدم وجود الأدلة الكافية على القطع فى هذه المسئلة حتى اليوم

﴿ قتل حسن بك لكل من حسين عونى باشا ومحمد راشد باشا ﴾

حسن بك المذكور هو ابن اسمعيل بك أحد أعيان الجراكسة المهاجرين من بلادهم بعد دخولها ضمن أملاك الروسيا وكان ياوراً ليوسف عز الدين افندى نجل السلطان عبد العزيز الذى كان مشيراً للاوردى الهمايونى الخاص ولما توفى السلطان عبد العزيز أراد حسين عونى باشا السرعسكر ابعاده عن الاستانة فالحقه بأحد الألايات بمدينة بغداد وأمره بالسفر على عجل فامتنع فحبس بحسب الاصول العسكرية ثم أظهر الرغبة فى السفر وطلب امهاله يومين لاغير للتاهب للسفر فأفرج عنه وفى مساء يوم الخميس ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٢٩٣ الموافق ١٥ يونيه سنة ١٨٧٦ تسلح بأربعة رفولفرات وخنجر ماض وقصد منزل عونى باشا فقيل له أنه بمنزل مدحت باشا فذهب اليه ولما سأل الخدم عن حسين عونى باشا قالوا له أنه مع سائر الوكلاء (النظار) فى مجلس مخصوص فأوهمهم ان معه تلغرافاً مهماً يختص بالحربية يريد توصيله فوراً للسرعسكر ثم انتظر برهة وطلع الى المحل المجتمع فيه الوكلاء فوجد حارساً بالباب منعه عن الدخول فقال له من أنت قال سالم أغا خادم الصدر الاعظم فقال اذهب وناد خادم حسين عونى باشا لانى مستعجل فنزل سالم أغا وعندهما دخل حسن بك الغرفة وأطلق غدّارته على حسين عونى باشا فأصابه برصاصتين فقام للدفاع عن نفسه فاجهز عليه بالخنجر وأصاب محمد راشد باشا ناظر الخارجية برصاصة فى عنقه أفقدته الحياة ثم قام احمد باشا قيصرلى ناظر البحرية وقبض على يد حسن بك فاثخنه جراحاً حتى فر مع باقى الوزراء الى غرفة أخرى تابعة لدائرة الحريم ووضعوا خلف الباب بعض أمتعة ثقيلة ثم جاء أحمد أغا رئيس خدم مدحت باشا وأراد القبض عليه فقتله ثم حاول فتح الباب الذى اختفى باقى الوزراء خلفه ولما لم يمكنه أطلق رصاصتين نفذتا من الخشب بدون أن تصيبا أحداً ثم أخذ كرسياً وصار يكسر فى الثريات لاطفاء النور وأخذ شمعداناً ليحرق به الاستار و يوقد النار فى المنزل ليمكنه الهروب لكن لم يتمكن من ذلك اذ حضرت عدّة من عساكر الضبطية فقبضوا عليه بعد ان قتل شكرى بك ياور الصدر الأعظم وأحد انفار العساكر ثم سيق الى ديوان السرعسكرية وفى صباح الجمعة تشكل مجلس حربى تحت رئاسة رديف باشا فحكم عليه بالتجريد من الرتب والقتل شنقاً وجرد فى الحال من الرتب وعلامات الشرف وفى فجر يوم السبت شنق على شجرة فى ساحة بايزيد و بقى مشنوقاً الى صباح الاثنين وعلى صدره ورقة تبين أسباب شنقه ليكون عبرة لغيره و يقال أنه عند استجوابه أمام المجلس لم يبد أقل تاسف على قتل عونى باشا(١) وراشد

(١) ولد عوني باشا في ولاية قونية سنة ١٢٣٦ هجرية وبعد أن تعلم المبادىء اتي الاستانة ودخل المكتب الحربي سنة ١٢٥٣ وفي سنة ١٢٥٨ صار ملازما ثم أخذ يترقي شيئا فشيئا الى ان وصل لرتبة فريق في أواخر شعبان سنة ١٢٧٨ هجرية وفي سنة ١٢٨٠ وجهت اليه قائمقامية السرعسكر مع مشيرية الاوردى الهمايونى الخاص وفي سنة ١٢٨٥ عين سرعسكر عموم الجيوش الشاهانية وفي سنة ١٢٩٠ عين صدرا أعظما ثم بعد تقلبه في عدة مناصب مهمة رجع الي السرعسكرية في ربيع الاخر سنة ١٢٩٢ وقتل وهو بهذه الوظيفة

باشا (١) بل على من قتلهم من الجند والضباط وعدم تمكنه من قتل ناظر البحرية أحمد باشا قيصرلى

هذا ولا يعقل أن الباعث لحسن بك على قتل الوزراء مجرّد الانتقام لارساله الى بغداد اذ لو كان الامر كذلك لاكتفى بقتل ناظر الحربية مع ان هذا الامر بعيد الاحتمال أيضاً ويغلب على الظن أن ما حمله على هذا الفعل الا تعلقه بالسلطان الشهيد وعائلته ولتواتر الاشاعات أن السلطان عبد العزيز مات مقتولا بدسيسة هؤلاء الوزراء بايعاز من بعض الدول ذوات الصالح الاكبر فى الشرق أراد قتلهم انتقاماً لسلطانه المرحوم الذى ذهب فريسة الدسائس الاجنبية

عزل السلطان مراد

السلطان مراد الخامس هو ابن السلطان عبد المجيد خان ولد فى ٢٥ رجب سنة ١٢٥٦ وارتقى منصب الخلافة فى ٧ جمادى الأولى سنة ١٢٩٣ وكان متعلماً مهذباً ميالا للاصلاح محبا للمساواة بين جميع أصناف رعيته مقتصداً فى مصرفه غير ميال للسرف والترف يشهد بذلك الفرمان الذى أرسله الى الباب العالى بابقاء الوزراء وجميع المامورين فى وظائفهم ومبيناً فيه خطة الاصلاح الذى يريد اجراؤه وها هو بنصه

وزيرى سمير الحمية محمد رشدى باشا

انه لما وقع الآن بارادة جناب مالك الملك الازلية و باجماع الرعية ورغبتها جلوسنا على تخت أجدادنا العظام جدّدنا ابقاء خدمة الصدارة فى عهدتكم اعتماداً على ماجرب من رؤيتكم وحميتكم وأقررنا جميع الوكلاء والمامورين فى ماموريتهم وخدمتهم وقد عرف الناس أجمع ان ماطرأ من مشكلات الاحوال على الدولة فى أمورها الداخلية والخارجية ولد فى أفكار العاملة قلة الامنية فافضى ذلك لمضرّتهم مالا وملكا وتنوعت بناء عليه اشكال عدم استراحتهم فكان من الواجب أن نتخذ على الفور طريقا لاستئصال هذه الحال واصلاحها تاميناً وتنشيطاً للملكة وعموم تبعة الدولة فى صورة تتكفل ماديا ومعنويا بسعادتهما وسلامتهما ولا شك أن هذا يتوقف على تاسيس أصول ادارة الدولة على اساس صحيح ومتين وهو الذى ما برحت أفكارنا محصورة فى النظر اليه ونواياه معطوفة عليه فلذا كان جل مأمورنا الخالص ( أولا ) اجراء الأحكام الشرعية وتقييد ادارة الدولة العمومية بقوانين قوية موافقة لنفس الأمر واقابلية الأهالى فيقتضى والحالة هذه ان يتذاكر الوكلاء فى كيف يلزم أن تكون تلك القاعدة السالمة الثابتة وما هو الاساس الذى تبنى عليه لتكون كافلة لعموم رعيتنا السلطانية التمتع بتمام الحرية بدون

---

(١) هو ابن حسن حيدر باشا من أعيان درامه وكان والده مستخدما بالحكومة المصرية ثم سافر الى الاستانة أيام ولايه المرحوم عباس باشا الاول وأرسله والده الى أوروبا مع الخديو اسمعيل باشا الاسبق وأخويه ولما عاد منها عين بوظيفة مترجم ثم ترقى فى الوظائف الملكية الى أن بلغ رتبة الوزارة وأحسن عليه بالنيشان العثمانى الاول المرصع وتقلد عدة وظائف مهمة وقتل وهو وزيراً للخارجية

استثناء وتؤهلهم لأنواع الترقى وتميل كل فرد منهم للاتحاد بالفكر والنية على المحبة والمحافظة على الوطن والدولة والملة فيبادرون للاستئذان على مايقرّ عليه القرار (ثانياً) ان المهم اللازم نظراً لهذه النية الاساسية انما هو تجديد تنظيم نظامات وادارات شورى الدولة والاحكام العدلية والمعارف العمومية وأمور المالية وسائر المأمور يات فينبغى اذاً النظر فى تنظيم ذلك بالتتابع (ثالثاً) لما كانت المصالح الاميرية هى احدى الأحوال المعظمة التى أوقعت أمور الدولة فى اشكال كان من الواجبات وعلى حساب ماسيشرع به من التنظيمات ادخال المعاملات المالية تحت التأمين أى انها تربط بقاعدة وثيقة وتوضع تحت نظارة قوية تمنح العموم تأميناً على عدم وقوع مصروف خارج عن الميزانية واعانة لهذا التدبير قد نزلنا من تخصيصات خزينتنا الخاصة ستين ألف كيس وتركنا كذلك الى خزينة المالية ادارة معدن الفحم فى اركلى وسائر المعادن وبعض المعامل وحاصلاتها بأجمعها فبناء عليه يلزم الاعتناء كذلك باجراء مثل هذه التعديلات والتصرّفات فى سائر الجهات تسهيلا ولحصول الموازنة فى الامور المالية (رابعاً) فلتدم كافة معاهداتنا مع الدول المتحابة مرعية الاجراء ويصرف الجهود بتأكيد الحب والموالاة وتزييد المصافاة فيما بين دولتنا العلية وجميع الدول فنسأل جناب الحق المعين أن يوفقنا للخير أجمعين فى ١٦ جمادى الاولى سنة ١٢٩٣ اهـ

لكن لم يتح له الدهر اتمام هاتيك المشروعات الجليلة ذات الفوائد الجزيلة بل ظهرت عليه علامات الاضطراب العصبى عقب توليته بنحو أسبوع ثم ازدادت شيئا فشيئاً خصوصاً بعد مابلغه خبر قتل حسين عونى باشا ومحمد راشد باشا بالصفة التى سبق شرحها حتى لم يتمكن من تمييز الوزراء عن بعضهم ومع ذلك فكان الصدر الأعظم يخفى هذا الامر عن العموم لكن ذاع خبره لعدم اجراء الاحتفال بتسليمه السيف السلطانى فى جامع أبى أيوب الأنصارى حسب العادة ولعدم مقابلته قناصل الدول ليقدّموا اليه أوراق تجديد تعيينهم لدى حكومته وأخيراً لما اشتدّ عليه الحال استدعى الوزراء الطبيب ليدزورف النمساوى الشهير بمداواة الامراض العقلية فحضر وبعد أن فحص جلالته ولازمه عدّة أيام متفرساً كل مايبدو منه من الاقوال والاشارات واستعلم عن عاداته وكيفية معيشته قال بتعسر برئه من هذا المرض فتشاور الوزراء فى الامر ثم عرضوا على أخيه عبد الحميد افندى ان تسلم اليه مقاليد الاحكام حيث حكم الاطباء بعدم لياقة اخيه السلطان مراد لادارة مهامها فأجابهم حفظه الله واطال عمره ان الاولى عدم التسرّع فى الامور ربما يمنّ الله عليه بالشفاء ويعود الى ما كان عليه من شدّة الذكاء وتوقد الذهن فامتثل الوزراء لكن لما رأوا ان الحالة فى ازدياد اجتمعوا فى يوم الاربع ١٠ شعبان سنة ١٢٩٣ الموافق ٣٠ أغسطس سنة ١٨٧٦ وقرروا بوجوب المبايعة لمولانا السلطان عبد الحميدخان الثانى ادامه الله وارسلوا رقيما للوالدة السلطان مراد يخبرونها بذلك فأجابت باستحسان ماقرروه ثم فى صباح يوم الخميس اجتمع

الوزراء ثانية واستدعوا شيخ الاسلام خير الله أفندى وجميع الذوات والعلماء والامراء والاعيان واستفتوا مولانا شيخ الاسلام فى الامر فأفتى بوجوب عزله وهاك نص الفتوى

﴿ صورة استفتاء الوزراء في وجوب خلع السلطان مراد خان الخامس ﴾

اذا جنّ امام المسلمين جنوناً مطبقاً ففات المقصود من الامامة فهل يصح حل الامامة من عهدته ( الجواب ) يصح والله أعلم كتبه الفقير حسن خيرالله عفى عنه

و بعدها أرسلوا فى طلب مولانا

## ٣٤ السلطان الغازى عبد الحميد خان الثانى

فحضر الى سراى طوبقبو و بايعه الحاضرون ومنها الى سراى بشكطاش حيث بايعه جميع من حضر من رؤساء روحانيين وغيرهم

اما السلطان مراد فتوجه الى سراى چراغان التى كان بناها المرحوم السلطان عبدالعزيز واستشهد بها ثم أخطرت الولايات وزينت المدينة ثلاثة ايام توالى فيها اطلاق المدافع فى الاوقات الخمس من الطوابى والمراكب الحربية

وفى يوم ١٨ شعبان سنة ١٢٩٣ الموافق ٦ سبتمبر سنة ١٨٧٦ تقلد مولانا السلطان اعزه الله السيف المنيف فى جامع أبى أيوب الانصارى على ماجرت به العادة وكان ذهابه الى هذا الجامع فى موكب حافل لم يسبق له مثيل و زار جلالته اثناء عودته جدث والده المرحوم السلطان الغازى عبدالمجيد المدفون بجامع السلطان سليم ثم زار ضريح السلطان محمد الفاتح رحمه الله فقبر جدّه السلطان محمود مبيد الانكشارية طيب الله ثراه واخيراً قبر عمه شهيد الشهداء السلطان عبد العزيز غفر الله له

و بعد ذلك استلم ادارة الاعمال بهمة ونشاط واظهر للوزراء رغبته فى اصلاح الامور فى خط همايونى ارسله جلالته الى الباب العالى اشعارا بجلوسه مؤرخا ٢١ شعبان سنة ١٢٩٣ الموافق ١٠ سبتمبر سنة ١٢٧٦ واليك نصه

وزيرى سمير المعالى محمد رشدى باشا

انه لما اعتزل اخى الاكرم حضرة السلطان مراد الخامس عن مشاغل السلطنة والخلافة وفرغ منها جلسنا بموجب القانون العثمانى على تخت اجدادنا العظام

وقد وجهنا لعهدتكم مسند الصدارة العظمى ورئاسة مجلس الوكلاء ابقاء وتجديداً بناء على مالذاتكم من الروية المسلم بها والحمية المجربة ومالكم من الوقوف والاطلاع على مهام امور الدولة وكذلك اقررنا جميع الوكلاء فى مناصبهم

وانني شديد الاتكال فى جميع الاحوال على تسهيلات جناب موفق الامور وتوفيقاته

الصمدانية وقصارى آمالى ومقاصدى معطوفة بالحصر لتأييد أساس شوكة دولتنا ومكانتها بحيث تنال صنوف تبعتنا بلا استثناء الحرية ويتنعمون جميعاً بنعمة العدالة والرفاهية فأؤمل فى هذا الأثر ويعاونوننا عليه وقد عرف الناس أجمع بان حال البحران والاغتشاش الملم بدولتنا له جهات وأسباب متنوّعة وصور وأشكال متعدّدة فاذا أمعنا النظر فى ذلك من أىّ جهة كانت تجتمع مباديه وأسبابه فى نقطة واحدة وهى عدم جريان القوانين والنظامات المؤسسة على الاحكام الجليلة والشرعية التى هى المسند الأساسى فى دولتنا على حقها وتمامها واتباع كل فرد أهواء نفسه فى ادارة الامور أما اتساع ميدان عدم الانتظام الطارىء على ادارة دولتنا ملكا ومالا وماحصلت عليه أمور ماليتنا من عدم الأمنية فى الأفكار العمومية وتعذر وصول المحاكم الى الدرجة المتكفلة بتامين حقوق الناس وتاخر استفادة مملكتنا حالة كونها قابلة الانواع وسائل العمران كالحرف والصنائع والتجارة والزراعة كما هو مسلم فهو من عدم الثبات الذى وقع على كل ماشرع به من الاجراآت وكل ما حصل من التشبثات الصادرة عن نية خالصة لمقصد أعمار مملكتنا ورفاهية حال رعايانا وتبعتنا وسعادة حالهم ونوالهم بدون استثناء الحرية الشخصية وكون ذلك باجمعه صار عرضة لتغييرات متنوّعة منعت انتاج المقصد الأصلى فلا ريب فى أنه تولد ونشأ عن عدم الثبات باتباع القانون والنظام واذا كان من أهم ما يلزم ان التدابير الواجب وضعها أوّلا فاوّلا فى مطلب قوانين المملكة المقتضى وضعها وتنظيمها فى صورة تتكفل بامنية العموم وثقتهم ينبغى أن يبتدأ بها من هذه النقطة المهمة وهى أن يترتب مجلس عمومى تكون أفعاله وآثاره مستوجبة لثقة العموم واعتمادهم ويكون موافقا لقابلية مملكتنا وأخلاق أهلها كافلا بالتمام تامين اجراء القوانين حرفاً فحرفا سواء كانت القوانين الموجودة أو التى تتأسس من الآن فصاعداً توفيقاً لأحكام الشرع الشريف المقدّسة ولما هو بالحقيقة ضرورى ومشروع لمملكتنا وملتنا وناظراً فى موازنة واردات الدولة ومصاريفها فليبحث الوكلاء فى هذا المطلب ويتذاكروا فيه بتدقيق وتأمل ويعرضوا قرارهم لدينا ويستاذنوا عنه ثم لما كانت مسئلة توديع المأموريات الى غير أهلها من المامورين وتبدلاتهم المتوالية من غير سبب مشروع هى من جملة الامور الباعثة على ايقاع جريان القوانين والنظامات كما ينبغى فى حيز الاشكال وهذا مما يأتى بكبير المضرّة ملكا ومصلحة فينبغى ان يتعين من الآن فصاعداً مسلك مخصوص لكل نوع من الخدم والماموريات وتتخذ قاعدة ثابتة ليستخدم بمقتضاها فى كل عمل من يكون أهلا له ولا يعزل أحد أو يبدل من مأموريته بلا موجب على وجه ان تكون كافة الوكلاء ومامورى الدولة كباراً وصغاراً مسؤولين عن الوظائف الموكولة لهم كل بحسب درجته وكما هو معلوم لدى الخافقين ان ترقيات ملل اوروبا المادية والمعنوية انما هى حاصلة بقوة الفنون والمعارف ولما كان استعداد كافة صنوف تبعتنا وما فطروا عليه من الذكاء والحمد لله يؤهلهم من كل وجه

للترقيات واهمّ مالدينا من الأمور الاسراع بتعميم المعارف فاخص ما نتمناه والحالةهذه ان يحصل الاجتهاد بابلاغ تخصيصات المعارف الى الدرجة الكافية حسبما يساعد الامكان وان تستحصل الوسائل الموصلة لتعميم نشر أصول المعارف على الفور ويبادر عاجلا لاصلاح الأصول الملكية والمالية والضبط فى الولايات بحيث توضع ضمن دائرة الانتظام فى صورة مناسبة للقاعدة التى تتخذ فى المركز وحيث ان الحادثة التى ظهرت فى العام الماضى فى اطراف هرسك و بوسنه باغراء ارباب الاغراض قد انضم لها ايضاً مسئلة عصيان الصرب والدم المهرق من الطرفين انما هو دم أولاد وطن واحد وكان دوام هذه الحال التى يرثى لها موجبا لكدرنا وتأثرنا الشديد يلزم التشبث بالتدابير المؤثرة المفضية لاستئصالها وفيما نؤيد مجدداً كافة احكام المعاهدات المنعقدة مع الدول المتحابة نؤثر رعايتها على الوجه الحسن فينبغى المثابرة بالاجتهاد على ازدياد روابط الحب والمسالمة المتبادلين بيننا و بين الدول ونسأل حضرة الرب المتعال أن يقرن مساعينا جميعاً بتوفيقاته السبحانية فى كافة الأحوال آمين فى يوم الاحد ٢١ شعبان سنة ١٢٩٣

ثم أصغى لمشورة نبهاء وزرائه الميالين لمنح الدولة العثمانية نظاماً دستورياً شورويا يحفظ لجميع رعايا الدولة حقوقهم ويكون بمثابة رابطة بين جميع الشعوب والملل المكوّنة منها الممالك العثمانية فيكون الجميع سواء فى الحقوق والواجبات وتبطل بذلك المنافسات والضغائن الجنسية والدينية لاشتراك الجميع فى نظر شؤون الدولة ووضع القوانين الملائمة لحالة الاهالى ودرجة ارتقائهم فى سلم المدنية والعمران و يتنبه كل منهم الى الدسائس الاجنبية ولفظ الخائنين من بينهم لفظ النواة

ولهذه الدواعى أصدر حفظه الله ارادة سنية بموجب قرار سائر الوكلاء (النظار) فى ٥ شوّال سنة ١٢٩٣ الموافق ٢ نوفمبر سنة ١٨٧٦ بتنظيم مجلس عمومى ( برلمان ) يكون من مجلسين احدهما ينتخب الاهالى اعضاءه و يسمى مجلس المبعوثان والآخر تعين اعضاؤه من طرف الدولة و يسمى مجلس الاعيان

وقد ازداد تعلق جلالة السلطان الأعظم بتأييد النظامات الجديدة الشوروية ووثق الاهالى ببلوغ امانيهم ولمّ شعث الامم المختلفة وايجاد أمة واحدة عثمانية تكون كرجل واحد أمام العدوّ وحاجزاً حصينا ضدّ تداخل الدول بحجة اصلاح احوال الشعوب المسيحية بما أن كل شعب يسن له بمعرفة النوّاب عن الجميع قوانين تلائم أحواله المذهبية و يعيش الكل فى راحة بال ورغد عيش ثم لما استعفى محمد رشيد باشا من منصب الصدارة بسبب تقدمه فى السن ووهن قواه عن مزاولة الأعمال فى هذه الظروف المهمة وجهت الصدارة الى أحمد مدحت باشا أول القائلين بهذه الاصلاحات فى ٤ ذى الحجة سنة ١٢٩٣ الموافق ١٣ دسمبر سنة ١٨٧٦ و بعد تعيينه باربعة أيام صدر اليه فرمان سلطانى مرفق معه القانون الاساسى للدولة مشتمل على مائة وتسع عشرة مادة يأمره بنشر هذا القانون فى جميع أنحاء الدولة

ومباشرة العمل باحكامه من يوم نشره وأعلن القانون الاساسى بالاستانة وقرىء فى مجمع حافل فى يوم ٢٣ دسمبر سنة ١٨٧٦ وأطلقت المدافع من جميع القلاع والمراكب استبشاراً وهو قانون قد جمع فاوعى أهمّ مابه أنه ضمن لجميع رعايا الدولة الحرية والمساواة أمام القانون وأباح حرية التعليم مع جعله اجبارياً على جميع أفراد العثمانيين وحرية المطبوعات وبين اختصاصات مجلسى المبعوثان والاعيان وكيفية الانتخاب ومن يجوز ان ينتخب أو ينتخب وان جميع الرعايا يطلق عليهم اسم عثمانى ومن هو ذاك العثمانى وان الدين الرسمى هو دين الاسلام واللغة الرسمية اللغة التركية وان الدولة جسم واحد لا يمكن تفريقه او تجزيئه ومما فيه أيضاً ابطال المصادرة فى الاموال على العموم والتعذيب فى التحقيق والسخرة على وجه العموم ووضع ميزانية سنوية تعرض على هيئة المبعوثان ثم الاعيان واذا أقر كلاهما عليها تكون واجبة الاجراء وعدم جواز عزل القضاة الا بسبب شرعى وكيفية نظام الولايات وحدود المأمورين الخ مما يطول ذكره هنا وهاك صورة الخط الشريف الهمايونى الصادر بتنفيذ القانون الاساسى

وزيرى سمير المعالى مدحت باشا

ان التدنيات العارضة منذ أزمان على قوّة دولتنا العلية قد نشأت من الانحراف عن الطريق المستقيمة فى ادارة الامور الداخلية أكثر مما نشأ من الغوائل الخارجية ومن ميل الاسباب الكافلة أمنية التبعة من حكومتهم المتبوعة الى الانحطاط فلذا كان والدى الماجد المرحوم عبد الحميد خان أعلن مقدّمة للاصلاحات خط التنظيمات الذى منح فيه للعموم الامن على نفوسهم وأموالهم وأعراضهم وناموسهم كما يوافق أحكام الشرع الشريف المقدّسة فما عشناه الى الآن ضمن دائرة الامن وماوفقنا به اليوم بوضع واعلان هذا القانون الاساسى الذى هو ثمرة الآراء والافكار المتداولة بالحرية المستندة على تلك الامنية ماهو الا من جملة آثار تلك التنظيمات الخيرية فلذلك أردّد خاصة فى هذا اليوم المسعود اسم المرحوم المشار اليه وموفقيته بعنوان محيي الدولة ولا ريب بأنه لو كان الأوان الذى تأسست فيه التنظيمات المذكورة موافقاً لاستعداد زماننا هذا والجاآته لكان المرحوم المشار اليه أسس اذ ذاك أحكام هذا القانون الاساسى الذى نشرناه الآن وأجراه ولكن جناب الحق علق حصول هذه النتيجة المسعودة الكافلة باتمام سعادة حال ملتنا لعهد سلطنتنا فنقدّم بناء على هذه الدلالة لجناب الرب الكريم الحمد والشكر العظيم على ان التغييرات التى وقعت بالطبع فى أحوال داخلية دولتنا العلية والتوسعات التى حصلت فى مناسباتها الخارجية أوصلت عدم كفاءة شكل ادارة الحكومة لدرجة البداهة ولما كان أقصى مقاصدنا الخيرية ازالة الاسباب المانعة للآن الاستفاده الواجبة من ثروة ملكنا وملتنا الطبيعية ومن قابليتها الفطرية وتقدّم صنوف التبعة فى طرق الترقى بالتعاون والاتحاد اقتضى لاجل الوصول الى هذا المقصدان تخذ الحكومة قاعدة سالمة ومنتظمة وهذا أيضاً يتوقف

على تأمين هـذه الفوائد وتقريرها بمعنى أن قوة الحكومة تحافظ على حقوقها المقبولة والمشروعة وعلى منع الحركات غير المشروعة أعنى بها منع ومحو الخطيئات وسوء الاستعمالات المتولدة من الحكم الاستبدادى الفردى أو الافراد القلائل ليستفيد جميع الاقوام المركبة هيئتنا منهم نعمة الحرية والعدالة والمساواة بلا استثناء وذلك حق ومنفعة جريان بالهيئة الاجتماعية المدنية

ولما كان ربط القوانين والمصالح العمومية بقاعدتى المشورة والمشروطية المشروعتين والثابت خيرهما مما تحتاج اليه هذه الاصول أوعزنا فى خطنا الذى أذعنا به جلوسنا لزوم ترتيب مجلس عمومى وبما أن القانون الاساسى اقتضى بتنظيمه فى هذا المطلب قد ترتب بالمذاكرة فى الجمعية المخصوصة التى تعينت مركبة من متحيزى الوزراء وصدور العلماء ومن سائر رجال ومأمورى دولتنا العلية وجرى عليه التصديق فى مجلس وكلائنا بعد امعان نظر التدقيق وكانت المواد المندرجة فيه انما هى متعلقة بحقوق الخلافة الاسلامية الكبرى والسلطنة العثمانية العظمى وحرّية العثمانيين ومساواتهم وصلاحية الوكلاء والمأمورين ومسؤليتهم وبما للمجلس العمومى من حق الوقوف وباستقلال المحاكم الكامل وبصحة الموازنة المالية وبالمحافظة على مركز الحقوق فى ادارة الولايات واتخاذ أصول توسيع المأذونية وكان جميع ما ذكر مطابقاً لاحكام الشرع الشريف ولاحتياج الملك والملة وقابليتهما فى يومنا هذا وكانت أخص آمالنا فى طلب سعادة العامة وترقياتها مساعدة لهذا الفكر الخيرى وموافقة له فاستناداً على عون الله وامداد روحانية جناب رسول الله قد قبلنا هذا القانون الاساسى وأرسلنا به لطرفكم بعد ان صادقنا عليه فبادروا لاعلانه فى جميع أنحاء الممالك العثمانية وأطرافها ليكون دستوراً للعمل الى ماشاء الله وباشروا باجراء أحكامه منذ اليوم متخذين أسرع التدابير لتنظيم ما تقرّر فيه وتسطر من النظامات والقوانين كما هو مطلوبنا القطعى ونسال جناب الحق المتعال أن يجعل مساعى المجتهدين فى سعادة حال ملكنا وملتنا مظهراً للتوفيق فى كل الاعمال

تحريراً فى ٧ ذى الحجة سنة ١٢٩٣

لكن لم ير أحمد مدحت باشا هذه الهيئة الشورويه التى بذل جهده لمنحها البلاده فانه عزل من منصب الصدارة فى ٢١ محرم سنة ١٢٩٤ أعنى بعد تعيينة باقل من شهرين ونفى خارج الممالك المحروسة بناء على ما ألقى فى حقه من الدسائس لدى جلالة السلطان الأعظم من انه يودّ ارجاع السلطان مراد الى عرش الخلافة العظمى بدعوى ان عزله كان على غير وجه شرعى وانه حافظ لقواه العقلية لا يمنعه مانع عن القيام بمهام الدولة وعزى اليه أيضاً أنه يسعى فى فصل السلطة الدينية عن السلطة الدنيوية اى الخلافة الاسلامية عن السلطنة العثمانية بحيث لا يكون السلطان خليفة جميع المسلمين فى المعمورة بل يكون سلطانا على

الامة العثمانية ليس الا و بنى نفيه بناء على المادة ١١٣ من القانون الاساسى التى جاء فى آخرها بعد التكلم على اعلان الادارة العرفية أى تعطيل القوانين والنظامات الملكية مؤقتاً فى كل جهة ظهرت فيها أمارات الاختلال والعبث بالأمن العام مانصه (ومن ثبت عليهم بتحقيقات ادارة الضابطة الموثوقة أنهم أخلوا بأمنية الحكومة يكون اخراجهم من الممالك المحروسة وتبعيدهم عنها منحصراً بيد اقتدار الحضرة السلطانية) ثم وجهت الصدارة الى محمد أدهم باشا مع تغيير وتبديل فى أغلب الوكلاء وأرباب الوظائف المهمة

البرلمان العثماني الاول

وفى ٤ ربيع الاوّل سنة ١٢٩٤ فتح البرلمان العثمانى الاوّل فى سراى بشكطاش وعند افتتاحه تليت خطبة أنيقة عن لسان جلالة السلطان وبحضوره شرحت فيها جميع الاسباب التى أدّت الى انحطاط الدولة وتأخرها سلمياً وسياسياً و بعد تشخيص الداء بين فيها الدواء وما يلزم للمملكة من الاصلاحات ونشر التعليم والمساواة بين الجميع والعدل فى الاحكام ولأهميتها فى بابها وجمعها كل ما يمكن أن يقال فى مثل هذا الحال أتينا على درجها هنا وقد صدق من قال ان كلام الملوك ملوك الكلام وهاهى

يا أيها الاعيان والمبعوثان

انى أبث الممنونية بافتتاح المجلس العمومى الذى اجتمع المرّة الاولى فى دولتنا العلية وجميعكم تعلمون أن ترقى شوكة واقتدار الدول والملل انما هو قائم بواسطة العدالة حتى ان ما انتشر فى العالم من قوّة دولتنا العلية وقدرتها فى أوائل ظهورها كان من مراعاة العدل فى أمر الحكومة ومراعاة حق ومنفعة كل صنف من صنوف التبعة وقد عرف الناس أجمع تلك المساعدات التى أبداها أحد أجدادنا العظام المرحوم السلطان محمد خان الفاتح فى مطلب حرّية الدين والمذهب وكافة أسلافنا العظام أيضاً قد سلكوا على هذا الأثر فلم يقع فى هذا المطلب خلل بوقت من الاوقات وغير منكر أن المحافظة منذ ستمائة عام على ألسنة صنوف تبعتنا ومليتهم ومذاهبهم كانت النتيجة الطبيعية لهذه القضية العادلة والحاصل بينما كانت ثروة الدولة والملة وسعادتهما صاعدتين فى درجة الترقى فى تلك الاعصار والازمان بظل حماية العدالة ووقاية القوانين أخذنا بالانحطاط تدريجا بسبب قلة الانقياد للشرع الشريف والقوانين الموضوعة وتبدّلت تلك القوّة بالضعف وقصارى الامر أن المرحوم والدى الاكبر السلطان محمود خان أزال عدم الانتظام الذى هو العلة الكبرى للانحطاط الذى طرأ منذ أعصار على دولتنا ورفع من الوجود غائلة الانكشارية المتولدة منه وقلع شوك الفساد والاختلال الذى مزق جسم الدولة والملة وكان هو السابق لفتح باب ادخال مدينة أوروبا الحاضرة الى ملكنا وهكذا والدى الماجد المرحوم عبد المجيد خان قد اقتفى هذا الاثر فأعلن أساس التنظيمات الخيرية المتكفلة بالمحافظة على نفوس أهالينا وأموالهم وأعراضهم وناموسهم ومنذ ذلك اليوم اتسعت تجارة ممالكنا

وزراعتها وزادت وأرادت دولتنا اضعافا فى أمد قليل ومن ثم وضعت القوانين والنظامات
التى هى مدار لما يعوزنا من الاصلاحات وأخذ تحصيل المعارف والفنون بالامتداد وبينما
شب فى دولتنا أمل النجاح بناء على هذه المقدمات الحسنة ولا سيما بناء على الامنية الداخلية
ظهرت حرب القريم فكان ظهورها مانعا لدوام المساعى بتنظيم أحوال الملك والتبعة
ومع أن خزينة دولتنا كانت حتى ذلك الوقت غير مديونة للخارج بقرش واحد اضطررنا
للاستقراض الخارجى دفعاً للاحتياج والضرورة فتعذر والحالة هذه تقابل وارداتنا
مع مصاريف الحرب المبرمة و بهذا السبب فتح باب الدين نعم انه فى هذه المسالمة بواسطة
اتفاق الدول المفخمة التى صادقت على مشروعية حقوقنا وبانضمام معاوناتها الكاملة
الفعلية التى لا تبرح مدى الدهر زينة لصحائف التواريخ قد أنتجت الحرب تلك المصالحة
التى وضعت تمام ملكية دولتنا واستقلالها تحت ضمان دول أوروبا العهدى وغلب
على الظن أن هذه المصالحة قد مهدت لمستقبلنا زمانا مساعداً على وضع أعمالنا الداخلية
فى طريقها وسلوك جادة الترقى الحقيقى انما الاحوال المتعاقبة ساقتنا بكليتنا الى عكس
ذلك الانتظار والامل أن توالى الحوادث الداخلية المتتابعة الظهور بمفاعيل التحريكات
والتسويلات لم تخولنا وقتاً للنظر فى اصلاحات ملكنا وتنظيماته بل أوقعت زراعتنا وتجارتنا
فى وقوف عظيم لاضطرارنا فى كل عام لجمع معسكرات فوق العادة فى أنحاء مختلفة ووضع
الصنف الاكثر نفعاً من أهالينا تحت السلاح وأمر مسلم ومعلوم أنه مع كل ما صادفنا
من المشاكل والموانع قد قطعنا ماديا وأدبياً مسافة كلية فى سبيل النجاح وتزايد وارداتنا
على التوالى منذ عشرين عاماً دليل على ترقى المملكة وازدياد رفاهية حال الاهالى ثم وان
كانت المضايقة الحاضرة قد تولدت من الاحوال التى عددناها فمع هذا كان ممكننا تخفيف
غائلة الضرورة وحفظ الاعتبار المالى لو سلكنا فى الادارة المالية طريقا قويماً بيد أنه كل
ما اتخذ من التدبير المالى فى صورة الاصلاحات لم يصلح الحال وانما زاد العمل اثقالا
وقد طلبت الاستفادة من الحال قبل التفكر ماذا يكون الاستقبال فدوام هذه الغوائل وتعاقبها
من الجهة الواحدة ومداركة وانشاء الادوات والاسلحة الجديدة الحربية التى هى أعظم
أسباب شوكة دولتنا واقتدارها وعدم وضع وارداتنا ومصاريفنا تحت موازنة اقتصادية
من الجهة الأخرى أفضتا الى انتقاض ادارتنا المالية درجة فدرجة فأنتجت ما نحن فيه
الآن من المضايقة الخارقة للعادة وأعقب ذلك ظهور وقوعات هرسك المنبعثة من
أثر الفساد والتحريك التى تجسمت أخيراً ثم افتتحت بغتة محاربات بلاد الصرب والجبل
الاسود وظهرت فى عالم السياسة أيضاً فتن واختلالات كبيرة وفى ذلك الزمان الذى
فيه تهورت دولتنا فى بحران عظيم وقع جلوسنا بارادة جناب الحق الازلية على تخت أجدادنا
العظام ولما كانت درجة المخاطر والمشكلات التى حاقت بأحوالنا العمومية غير قابلة
القياس مع ما تقدمها من الغوائل التى تهورت بها دولتنا حتى الآن قد اضطررت لاجل

المحافظة قبل كل شيء على حقوقنا أن أزيد معسكراتنا فى جميع الجهات حتى وضعت
تحت السلاح نحو سمائة ألف عسكرى لاعتقادى بان ملاشاة هذه الاختباطات
بالكلية واستئصالها بعون الله تعالى والتفتيش على طريقة لاصلاحات مهمة فى دولتنا
نضع بواسطتها مستقبلنا تحت الأمنية المتمادية انما هو فرض علي ذمتي وأمر واضح بانه
اذا نهجنا فى الادارة سبيلا حسناً ستتقدم باقرب وقت تقدماً كبيراً فى النجاح بحسب
القابلية التى احسن بها الحق تعالى على ملكنا وبحسب الاستعداد المتصفة به أهالينا وأمر
محقق ان تاخرنا عن الحوق والترقيات الحاضرة فى عالم المدنية كان لأهمالنا المداومة على
الاصلاحات المحتاج ملكنا اليها ولعدم المثابرة على القوانين والنظامات المتعلقة بها ومنشأ
ذلك ليس هو الا صدور هذه الاشياء من بدالحكومة الاستبدادية بدون استناد على
قاعدة المشورة والحال أن ترقى الدول المتمدنة ونجاحها وأمنية الممالك وعمرانها انما هو
ثمرة تاسيس مصالحها وقوانينها العمومية بالاتفاق واجماع الآراء كما هو مسلم فبناء عليه
رأيت أن تحرى أسباب الترقى فى هذه الطريق واستناد قوانين المملكة على الآراء العمومية
هو ألزم ما لدينا فلذا قد أعلنت القانون الاساسى أما مقصدنا من تاسيسه فليس هو عبارة
عن دعوة الاهالى للحضور فى رؤية المصالح العمومية وانما بالاحرى لاعتقادنا القطعى
بان هذه الاصول هى وسيلة مستقله لاصلاح ادارة ممالكنا ومحو سوء الاستعمالات
واستئصال قاعدة الاستبداد وفضلا عما فى هذا القانون الأساسى من الفوائد الأصلية
فهو كذلك مهد لأساس حصول الاتحاد والاخوة بين الانام وجامع لمقصد تاسيس
أمر الائتلاف والسعادة بين الخاص والعام أما أجدادنا العظام فى الفتوحات التى وفقوا
اليها قد جمعوا تحت حكومتهم فى هذه الدولة الوسيعة الممالك أقواماً عديدة فلم يبق سوى
أمر واحد فقط وهو ربط هذه الاقوام المختلفة اختلافاً كلياً فى الأديان والاجناس
بقانون مفرد وحسن مشترك وحيث قد تيسر الآن هذا الأمر بعون جناب الحق الذى
لانهاية لألطافه ومقدرته الالهية فيقتضى اذاً من الآن فصاعداً ان تكون كافة تبعتنا
أولاد وطن واحد يعيشون باجمعهم تحت جناح حماية قانون واحد وينعتون بالعنوان
المخصوص منذ ما ينيف عن ستمائة سنة لاهل بيت سلطنتنا السنية المسطر كثير من آثار
شوكتهم فى صحف تواريخ البرية مؤملا أن الاسم العثمانى الذى ما برح حتى الآن علم
القوة والاقتدار المشتهر يكون من بعد الآن شاملا لدوام المنافع المختلفة الموجودة بين
جميع تبعتنا وحفظها وحيث اننى بناء على ما ذكر من الأسباب والمقاصد قد عزمت
عزما ثابتا على أن أنهج السبيل الذى سلكته ولا آلو جهداً فى توطيده وتشييده فاترقب
منكم اذاً المعاونة فعلا وعقلا للاستفادة من مشروع القانون الاساسى الذى بنى على
قاعدتى العدل والسلامة والمفروض عليكم اذاً القيام باعباء الوظائف القانونية المحوّلة لعهدتكم
وحميتكم بصداقة واستقامة بدون احتراز من أحد غير ملتفتين الى شيء آخر سوى سلامة

دولتنا ومملكتنا وسعادتهما لان ما يعوزنا اليوم من الاصلاحات ومايترقب الجميع اتخاذه
فى ملكنا من التنظيمات هو فى غاية الاهمية والاعتناء وبما أن وضع ذلك على الفور فى
موقع الاجراء مرهون على اتفاقكم بالافكار والآراء فلذا شورى الدولة مثابر الآن على
تنظيم لوائح القوانين اللازمة لكى تحول فى اجتماعكم فى هذه السنة الى مجلسكم لاجل
المذاكرة وهى لائحة نظامات داخلية مجلسكم ولوائح قانون الانتخاب وقانون الولايات
وادارة النواحى العمومى وقانون الدوائر البلدية وقوانين أصول المحاكمات المدنية
وترتيب المحاكم وصورة ترقى الحكام وتقاعدهم ووظائف عموم المامورين وحق تقاعدهم
وقوانين المطبوعات وديوان المحاسبات ولائحة قانون ميزانية السنة السابقة فمطلوبنا
القطعى والحالة هذه مطالعة هذه القوانين بالتتابع والمذاكرة عليها واعطاء قراراتها
وكما ان النظر عاجلا فى اصلاحات وتنظيمات المحاكم والعساكر الضبطية اللتين هما
الواسطة المستقلة لتأمين حقوق العموم من أهمّ ما يلزم فوضع ذلك فى موقع الاجراء
أيضاً متوقف على توسيع مخصصاتهما المقررة وتزييدها ومن حيث أن ادارتنا المالية
قد أمست عرضة للعسر والمشاكل الكثيرة حسبما يتضح لديكم من الميزانية المعطاة الى
مجلسكم فاوصيكم أن تسعوا مهتمين بالاتفاق لتعيين التدابير التى تهدينا قبل كل شىء الى
التخلص من هذه المشاكل والى وسائل اعادة اعتبار ماليتنا ومن ثم لتعيين تلك التخصيصات
التى تخرج هذه الاصلاحات المستعجلة الى الفعل ولما كان ترقى الزراعة والصناعة اللتين
هما من اعظم الاصلاحات والاحتياجات فى ملكنا وتبعتنا وايصال المدنية والثروة الى
درجة الكمال موقوفاً على قوة المعارف والعلوم فستعطى بمنه تعالى الى مجلسكم فى اجتماع
السنة الآتية لوائح القوانين المتعلقة باصلاح المكاتب وبتنظيم درجات التحصيل وبما
أن حصول تاثيرات أحكام القوانين على الوجه الاتم سواء كانت القوانين المذكورة أعلاه
أو القوانين التى توضع من الآن فصاعداً فى موقع الاجراء يتوقف على وضع أقضية
انتخاب ماموري الادارة تحت أهمية عظيمة فهيئة دولتنا ستمعن نظر التدقيق المخصوص
فى هذا المطلب وفى مطلب صورة مكافاة وحماية المامورين المتصفين بالعفة والاستقامة
اللتين ضمنهما القانون الاساسى وحيث كانت قضية انتخاب المامورين ذات بال وأهمية
لدينا اعتمدنا على تاسيس مكتب مخصوص تكون مصاريفه من خزينتنا الخاصة لمقصد
الحصول على مامورين جديرين بالادارة العمومية على وجه أن تلامذته تقبل فى
ماموريات الادارة والسياسة حتى الدرجة العليا ويدخل اليه من كل صنوف تبعتنا
بدون استثناء مذهبي وترقيهم يكون بحسب درجة أهليتهم كما يتضح من نظامه الاساسى
المعلن قبلا وقد وقع لدينا موقع التقدير والتحسين فى صورة خارقة للعادة ما أبدته عموم تبعتنا
الصادقة من آثار الحمية وما تحملته جنودنا من أنواع المتاعب والمشاق المشفوعة بالغيرة
والبسالة فى أثناء الغوائل الداخلية التى تهوّرنا بها منذ عامين تقريباً ولا سيما فى أثناء الحرب

مع الصرب والجبل الاسود على أن تشبثاتنا المجردة لمحافظة حقوقنا فى هذه الحوادث قد أنتجت استحصال قرار مصلحة الصرب والمذاكرات الجارية مع الجبل الاسود وسيتحوّل لمطالعتكم فى اجتماع مجالسكم المرّة الاولى ماتخذه من المعاملات بناء على تلك المذاكرات فأوصيكم اذاً بتعجيل قراراتها أما السلوك مع الدول المتحابة بالصداقة والرعاية لما كان من أهمّ المعاملات المالوفة والمعتنى بها لدى دولتنا فلم نزل اليوم حريصين على مراعاة هذه القاعدة الودادية ولما طلبت انكلتره منذ بضع شهور عقد مؤتمر فى مقرّ سعادتنا لاجل المسائل الحاضرة وروّجت كافة الدول المعظمة أيضاً أساسات هذا الطلب والاقتراح وافق بابنا العالى على عقده نعم انه لم يأت هذا الاجتماع باتفاق قطعى ولكن ماتاخرنا عن اثبات نوايانا الخالصة واظهارها باجراء ما توراتهم ونصائحهم الموافقة لأحكام معاهدات الدول ولقواعد الملل وحقوقها ولمقتضيات أحوالنا وحقوقنا المبرمة أما أسباب عدم الاتفاق فلم تكن فى الاساس وانما بالأحرى كانت فى صور الاجرآت وأشكالها لاستحسانتا أساسياً لزوم ايصال الترقيات الكلية التى وقعت منذ بداية التنظيمات حتى الآن فى أحوال مملكتنا العمومية وفى ادارة كل شعبة من شعب دولتنا الى حال أكمل ولم تزل مساعينا حتى اليوم مصروفة لهذا المقصد على أن وظيفتى التوقى من الاحوال التى تخل بشأن مملكتنا واستقلالها وقد تركت اثبات صدق نيتى وسلامتها لدى الجميع الى تمادى الايام والزمان أما النتائج التى والدتها هذه الحال فقد أفضت بى الى زيادة التأسف وزوالها سريعاً مما يكفل بكمال ممنونيتى على أن مقصدنا فى جميع الأوقات مقصور على دوام السلوك فى منهج المحافظة على استقلالية حقوقنا وسيكون هذا المسلك مركز النظر فى أتصرّفاتنا الآتية وؤمل ان مآثر الاعتدال وحسن النية التى أظهرتهما دولتنا قبل انعقاد المؤتمر وبعده تتكفل بمضاعفة حسن المعاشرة والمناسبات الودادية الرابطة سلطنتنا السنية بجمعية الدول الاوروباوية ونسأل حضرة الحق المتعال أن يجعل مساعينا جميعاً مظهراً للتوفيق فى كافة الاحوال اه

## ﴿ حرب الروسيا و بيان أسباب لائحة الكونت اندراسى ﴾ (١)

(١) سياسي مجرى شهير ولد سنة ١٨٢٣ وتربي في مدرسة ( بودابست ) الكلية واشتغل بالسياسة وفي سنة ١٨٤٨ كان من أهم دعاة الثورة وساعد المسيو ( كسوث ) علي طلب الحرية والمحاربة للحصول عليها وفي أثناء الثورة سافر الي الاستانة وتحصل من جلالة السلطان عبد المجيد على وعد بالمساعدة ومنها قصد بلاد الانكليز وهناك وصله خبر الحكم عليه بالاعدام غيابيا فلم يجسر بالعودة الي بلاده وبعد أن أقام خارجاعنها نحو عشرة سنوات أذن له بالرجوع اليها فعاد الي وطنه سنة ١٨٥٩ ولما تم الوفاق بين المجر والنمسا علي أن يكون لكل من الامتين حكومة مستقلة ومجلس نواب مخصوص انتخب اندراسي وكيلا لمجلس الامة ثم رئيسا لمجلس وزراء المجر وحضر بهذه الصفة تتويج فرنسوا جوزيف ملكا على المجر ثم عين وزير الخارجية النمسا والمجر سنة ١٨٧١ ولما انتشبت الحرب التركية الروسية سنة ١٨٧٧ لزم الحيادة ولم يساعد الدولة العثمانية حسب رغبة أهالي المجر فنفر أبناء وطنه منه ودعوه بخائن الوطن لاختلاسه ولايتي البوسنه والهرسك منها بدون حق ثم أبرم مع ألمانيا التحالف الذى صار ثلاثيا بانضمام ايتاليا اليه واستقال من الاشغال سنة ١٨٧٨ طلبا للراحة وتوفي سنة ١٨٩٠

وفى أوائل سنة ١٨٧٥ هاجت الخواطر فى بلاد الهرسك بناء على تحريض مجاوريها من الصرب وسكان الجبل الاسود طلباً للاستقلال الادارى مثل الامارتين المذكورتين وربما كان للنمسا يد فى هذه الفتنة اذ كان مطمح أنظارها الاستيلاء على ولايتى البوسنه والهرسك معاً لمجاورتهما لبلادها فقدّم أهالى الهرسك أوّلا عريضة للباب العالى يطلبون تخفيض الضرائب الحالية عموماً وبدلية العسكرية خصوصاً وأن يعدهم السلطان وعداً صريحاً بعدم ترتيب ضرائب جديدة عليهم فى المستقبل وأن يشكل لبلادهم بوليس خصوصى ( جندرمه ) من أهالى البلاد فلم يجبهم الباب العالى لطلباتهم بل عزز الحامية ولما تظاهر الاهالى بالعصيان وأشهروا السلاح ضد عساكر الدولة أصدرت أوامرها بقمعهم فوراً فاخمدت الثورة رغما عن مساعدة الصرب والجبليين لهم سرّاً وعلنا وتعضيد جمعيات الصقالبة اياهم بالمال والسلاح

وفى ١٢ دسمبر سنة ١٨٧٥ قضت المراحم السلطانية بتسكين خاطرهم فأصدر فرمانا بفصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية وتعيين قضاة من الاهالى بطريق الانتخاب وتوحيد الضرائب والمساواة فيها بين المسيحيين والمسلمين لكن أبت الدسائس الخارجية وعصب الصقالبة الا استمرار القتال لاشتغال الدولة فى الداخل واضعاف جيوشها فلم يذعن الثائرون بل تمادوا فى غيهم وطلبوا أول كل شىء انجلاء العساكر التركية عن جميع بلادهم كما انجلت عن بلاد الصرب واستمرّ القتال بينهم وبين الجنود العثمانية التى كان يقودها دولتلو الغازى مختار باشا الى النصر حتى لم يقو الثائرون على الوقوف أمامهم ولما رأت النمسا أن الثورة قد انطفأت أو كادت ولم يعد لها سبيل للتداخل عسكريا تنفيذا لمآربها كما سترى أوعز الكونت اندراسى وزيرها الاول الى ألمانيا والروسيا بالاشتراك معها فى تحرير لائحة سياسية الى الباب العالى بتعضيد طلبات الثائرين

وبعد تبادل المخابرات بين هاته الدول اتفق رأيها على تحرير هذه اللائحة المسماة فى كتب السياسة بلائحة الكونت اندراسى لكن تقرر ان يكون ارسالها للدول الغربية اعنى فرنسا وانكلترا لا للباب العالى وارسلت لهما فعلا مؤرخة ٣٠ دسمبر سنة ١٨٧٥ فطلبت الدولة العلية من انكلترا تبليغها الصورة المرسلة اليها لترى فيها رأيها فبلغتها اليها سفارة انكلترا فى الاستانة بصفة غير رسمية

واهم ما جاء بها ان الدول ترغب تشكيل قومسيون من اهالى الهرسك يكون نصفه من المسيحيين والآخر من المسلمين لمراقبة تنفيذ ما جاء فى الفرمان السلطانى المؤرخ ١٢ دسمبر السابق ذكره وان يتعهد السلطان لجميع الدول باجراء ماذكر فى الفرمان المذكور من الاصلاحات

وبعد اطلاع ارباب السياسة فى الاستانة على هذه اللائحة ارتأى السلطان الموافقة

على ما بها حسما للنزاع وحتى لا يكون للدول سبيل للتداخل بصفة أشد وزيادة على ذلك فقد أصدر الخليفة الاعظم عفواً عاما عن جميع المتهمين والمشتركين فى هذه الثورة ومن الغريب أن أهالى البوسنه والهرسك لم يقبلوا هذا العفو العمومى بل أصرّوا على طلب انجلاء الجنود الشاهانية عن بلادهم أو بالاقل يكون احتلالها قاصراً على بعض قلاع وحصون معينة وأن يملك ثلث الاراضى للمسيحيين وأن يعفوا عن الضرائب مدّة ثلاث سنوات وأن تدفع لهم الحكومة العثمانية تعويضا عما هدم من البيوت والكنائس أثناء الحرب بشرط ان يكون دفع هذه التعويضات للجنة أوروباوية

وعقب ذلك بقليل حدث بمدينة سلانيك حادثة نسبها الاوربيون الى تعصب الاسلام الدينى مع ان منشأها تعصب المسيحيين ضد المسلمين وتعرّضهم للحرية الدينية التى يتظاهرون دائما بالدفاع عنها ايهاما وتغريراً لتكون لهم حجة للتداخل فى بلاد الشرق وتفريق الكلمة بين الشرقيين فيسهل استيلاؤهم على بلادهم

حادثة سلانيك ولائحة برلين

وتفصيل هذه الحادثة أن فتاة بلغارية مسيحية اعتنقت الدين الحنيفى الاسلامى طائعة مختارة وأتت الى سلانيك فى ٥ مايو سنة ١٨٧٦ لاثبات اسلامها شرعا فتعرّض لها بعض أوباش الاروام فى الطريق حين توجهها الى دار الحكومة واختطفوها من أيدى المحافظين عليها بالقوّة وأخفوها أوّلا فى محل قنصلاتو أمريكا ثم فى أحد بيوت كبرائهم ولما اشتهر هذا الخبر بين المسلمين هاجوا وماجوا وتجمعوا فى فسحة دار الحكومة طالبين البحث عن البنت وتخليصها من أيدى المخفين لها فوعدهم الوالى باجراء شؤون وظيفته ثم لما رأى المسلمون عدم نجاح بحث الحكومة تجمعوا ثانيا فى اليوم الثانى فى أحد الجوامع مشدّدين النكير على الحكومة وفى أثناء هذا الهياج حضر قنصلا فرنسا وألمانيا ويقال انهما دخلا الجامع ولتواتر الاشاعة بان البنت فى بيت قنصل ألمانيا ازداد الهياج وفى أقل من القليل بلغت الحدّة منتهاها من المجتمعين وتعدّوا على القنصلين بالقتل

ولما وصل خبر هذه الحادثة الى الدول اضطرب وزراؤها وتبادلوا المخابرات البرقية للاتفاق على اتخاذ سببا للتداخل

وفى ١١ منه اجتمع البرنس غورشاكوف وزير الروسيا والكونت اندراسى وزير النمسا بالبرنس دى بسمارك بمدينة برلين وأخذوا فى المداولة معاً يومى ١١ و ١٢ منه وفى ١٣ منه حرروا لائحة الى الباب العالى معروفة فى كتب السياسة بلائحة برلين وصدّقت عليها دولتا ايتاليا وفرنسا مفادها التشديد على الباب العالى بتنفيذ ما جاء فى الفرمان السلطانى المؤرخ ١٢ دسمبر سنة ١٨٧٥ وتعيين مجلس دولى لمراقبة تنفيذه واجراء كل ما فيه اصلاح حال المسيحيين فى هذه الولايات وأن تبرم الدولة مع الثائرين هدنة قدرها

شهران أو ستة أسابيع على الاقل للوصول الى اتفاق مرض لهم وانه ان لم تتفق مع الثائرين في خلال هذه الهدنة تكون الدول الموقعة عليها مضطرة لاستعمال القوّة لاجبار الباب العالى على تنفيذ هذه اللائحة فيرى من ذلك للمطالع أن الدول كانت متفقة على محاربة الدولة لتقسيم أملاكها فيما بينهم أو بالاقل سلخ جميع الولايات التى بها مسيحيون اذ أن الدول المسيحية لا يمكنها أن تخفى تألمها من وجود بعض المسيحيين تحت سلطة المسلمين فالمسألة اذن كما ذكرنا وكررنا سياسية دينية أو بالحرى دينية أكثر منها سياسية

هذا أما الباب العالى فلم يقبل هذه الطلبات المجحفة بحقوقه على رعاياه ولم يرعه هذا التهديد والوعيد لعلمه أنه يبعد اتفاق الدول على العمل لاختلاف أطماعها ولعدم موافقة انكلترا على هذه اللائحة

﴿ ثورة البلغار وجواب اللورد دربى ﴾

لا يخفى أن كثيراً من أعيان الروس وأعضاء العائلة الملوكية بها شكلوا عدّة جمعيات لنشر النفوذ الروسى بين الطوائف التى تنسب حقيقة أو قولا الى العنصر الصقالبى ومن أكبر رؤسائها الجنرال اغناتيف الشهير وقد بذلت هذه الجمعيات المعضدة من نفس الامبراطور والحكومة مساعيها لاثارة البوسنه والهرسك فنجحت كما رأيت وسترى وكان لها عدّة فروع فى بلاد البلغار لتوزيع المال والسلاح سراً على المسيحيين من سكانها وتحريضهم على عصيان الدولة وطلب الاستقلال ولها أيضا مركز مهم فى مدينة ويانه عاصمة النمسا كانت ترسل منها الاسلحة وغيرها عن طريق رومانيا مما يثبت أن للنمسا ضلعا فى هذه الحركات العصيانية وبهذه المساعى الخبيثة الشيطانية كفر البلغاريون نعمة الدولة عليهم التى لم تتصدّ لهم فى بادىء الامر بتغيير دينهم أو امانة لغتهم بل ساعدتهم بعدم تعرضها لهم على حفظ جنسيتهم وقاموا يطالبون بالاستقلال بناء على ايعاز أرباب الدسائس من الاجانب وحيث كانت الدولة أنزلت ببلاد البلغار بعض عائلات الجركس المهاجرين هربا من حكومة الروسيا والاحتماء تحت ظل جلالة الخليفة الاعظم فقد أفهم المهيجون البلغاريين أن الدولة تبغى اقطاع اراضيهم لهؤلاء الجراكسة واستعباد المسيحيين لهم فحصلت عدّة حركات عصيانية فى سبتمبر واكتوبر سنة ١٨٧٥ اطفئت بسرعة وارسلت الدولة عدّة ألايات من الباشبوزوق منعا لعودة الثائرين للعصيان وفى اوائل شهر ابريل سنة ١٨٧٦ أتى الى البلغار عدد عظيم من دعاة الثورة والفساد وعقدوا اجتماعا فى احدى مدنها حضره مندوبون من اللجان المركزية فى ويانه وبخارست عاصمة رومانيا التى كانت لم تزل تحت سيادة الدولة العلية وقرروا جميعا فى هذا النادى وجوب المبادرة الى اثارة العصيان مغررين البلغاريين بان الروسيا مستعدّة لمدّهم بالجيوش لو تغلبت عليهم جيوش الدولة وتدفع لهم أيضا قيمة ما يتلف من مساكنهم ومزروعاتهم ومقتنياتهم وأن يكون ابتداء الثورة قتل المسلمين وايقاد النار فى مدينة أدرنه فى مائة موضع وفى مدينة فيلبيه فى ستين موضعا ثم يهجم

ثلاثة آلاف نفر على مدينة بازار جق

وفى أوّل مايو سنة ١٨٧٦ نفذ أغلب هذا القرار وحصلت عدّة مذابح فى كثير من القرى قتل فيها كثير من المسلمين لتجردهم عن السلاح وعدم امكانهم ردّ القوة بمثلها ولما وصل هذا الخبر الى الوالى أرسل الى الاستانة يطلب الجيوش لاتساع نطاق الثورة شيئاً فشيئاً وعدم كفاية العساكر الموجودة تحت أمره ثم وزع كثيراً من الاسلحة على المسلمين ونظمهم بهيئة رديف ولما أتى اليه المدد أمكنه قمع الثورة بواسطة الالايات المنتظمة والباشبوزوق والرديف واستعمال الشدّة مع من يضبط من الثائرين ولما كادت تخيب مساعى دعاة الفساد أشاعوا باوروبا ان العساكر العثمانية ارتكبت مالا يرتكبه المتبربرون وأسدلوا غطاء الغرض على ما اقترفه البلغاريون من قتل المسلمين فى بادىء الأمر وهولوا فى المسئلة وجعلوا الحبة قبة ليستميلوا الرأى الاوروبى اليهم وفتح المسئلة الشرقية وتكلم بعض وزراء الدول بما يمس كرامة الدولة العلية فى مجالس نوابهم وشدّدوا عليها النكير خصوصا المستر غلادستون زعيم حزب الأحرار ببلاد الانكليز فانه ألقى الخطب الرنانة وألف الرسائل المطولة طعنا على الدولة ناسباً اليها ما لم يسمع بمثله فى التاريخ ناسيا ما فعلته حكومة بلاده مع الايرلانديين وأهالى اوستراليا الاصليين اللذين أعدمتهم عساكرها والمهاجرون من سكانها رميا بالرصاص وبهذه المساعى الخبيثة هاج الرأى العام خصوصا فى انكلترا ضد الدولة العلية حتى أرسل اللورد دربى ناظر خارجية انكلترا رقيما الى السير هنرى ليوت سفيرها بالاستانة بتاريخ ١٨ سبتمبر سنة ١٨٧٦ ضمنه خلاصة تقرير كان أرسله المستر بارنج سكرتير سفارة انكلترا بالاستانة الذى كلف بتحقيق ما نسب للمسلمين وأمره فى آخر هذا الرقيم بعد لوم الدولة على ماينسبه الاجانب اليها من التقصير أن يطلب مواجهة السلطان عبد الحميد الذى جلس منذ قريب على تخت السلطنة العثمانية و يطلب منه باسم ملكة دولة انكلترا التعويض على الثائرين و بناء ما هدم من الكنائس والبيوت على مصاريف الدولة ومساعدة الاهالى الذين اشتد بهم الفقر على اعادة الاعمال ومجازاة المامورين الذين أمروا باجراء هذه الفظائع واناطة ادارة هذه البلاد لوال عادل ذى همة ونشاط بشرط ان يكون مسيحيا وان كان مسلما فيكون له مستشارون من المسيحيين يمكن النصارى من السكان الاعتماد عليهم والثقة بهم الى آخر ماجاء بهذا الرقيم المسطر فى الكتاب الازرق واليك نصه نقلا عن مجموعة الجوائب

قد وصل الى دولة سعادة الملكة محرراتكم عدد ٩٦٤ فى خامس هذا الشهر من جملتها نسخة من تقرير مستر بارنغ المشتمل على استقصائه عن المنكر الذى جرى منذ قريب على النصارى سكان البلغار وكانت الدولة مترقبة من سابق تقرير الموما اليه الذى بعثتم به أن تسمع بان الجرائر التى اقترفها الباشبوزوق والجراكسة فى تلك البلاد كانت فظيعة

فيسوءها الآن أن تعلم من هذا التقرير التام ان ما كانت تترقبه كان فى محله ثم ان بعض الاخبار التى شاعت بخصوص هذه الجرائم وان كان غير صحيح الا انه لم يبق ريب فى ان تصرّف والى أدرنه بكونه أمر جميع المسلمين بان يتقلدوا السلاح هو الذى سبب حشد قوم من الفتاك واللصوص فارتكبوا الجرائم بدعوى انهم يحاولون اطفاء الفتنة وهذه الجرائم وصفها المستر بارنغ بانها أفظع شيء شائن تواريخ هذا القرن وقد تبين أيضا ان أكثر أصحاب الامر والنهى فى الولاية قد أجازوا هذا المنكر أوغضوا النظر عنه فلم يبالوا باصلاح الحال أو أنهم أصلحوا مالا يعبأ به ومع انه قبض على ١٩٥٦ نفس من البلغار بين لاشتراكهم فى العصيان الذى لم يقارنه خطر فلم تجر عقوبة على قتلة الرجال الذين لم يوجد معهم سلاح وعلى قتلة النساء والاولاد الا عشرين نفسا منهم فالظاهر ان أصحاب الأمر والنهى فى الاستانة لم يطع لهم أمر وانهم لم يطلعوا على حقيقة الحال وما كان لدولة المملكة ان تظن انه من الممكن ان الباب العالى يرقى أولئك المامورين الذين أفعالهم معرّة وضرر على المملكة العثمانية أو انه يمنحهم نياشين وقد روى ان القتل الذى جرى فى باتاق كان فى ٩ مايو الماضى وبقى الى ٢١ من جولاى ( تموز ) مكتوما عن الباب العالى أو غير مبال به فلم يعرف هذا الامر الا من تقرير مستر بارنغ المذكور حيث علم منه ان ثمانين نفساً من النساء والبنات أخذن الى قرى المسلمين وذكر أسماءها ولم يزلن فيها وان جثث المقتولين بقيت غير مدفونة وما أحد بذل الجهد فى الاطلاع على مرتكب هذه الشرور ولا حاجة لى هنا الى ايراد مافصله مستر بارنغ فى تقريره مما يدل على ان أهل هذه الولاية المنحوسة كانوا هدفا للاعمال الصادرة عن غلوّ ونهب وسلب ومابدا حتى الآن سعى بليغ فى تعويض هؤلاء المضيمين عن الضرر الذى لحق بهم ولا فى تأمينهم فى المستقبل اذ لم يرجع اليهم مافقدوه من الماشية والامتعة ولم تزل كنائسهم وبيوتهم خرابا وهم يتضوّرون جوعاً وقدهلك عنهم رزقهم من الحرث والأعمال وما بقى من قراهم سالمًا لا يأمن من أن يأتى عليه ماأتى على القرى الخربة ولم يزل العدوان فاشياً كما اعترف به مدير عورت الآن والباب العالى عاجز أو متقاعس وقد أخبرت جنابكم بما أحدثه شيوع هذه الشنائع فى أهل بريطانيا من الغيظ المحنق وعندى من اليقين ان مثل هذا الاحساس سرى أيضاً الى جميع سكان أوروبا فالآن أقول ان الباب العالى ليس فى وسعه أن يغالب الافكار العمومية فى غير ممالكه ولا أن يظن ان دولة بريطانيا أو غيرها من الدول التى وقعت على معاهدة باريس تظهر عدم المبالاة بما أصاب فلاحى البلغار من الرزء والجور الناشىء عن الانتقام ومهما يكن من الملاحظات السياسية فلا يمكن اباحة هذه الافعال فلابد من التعويض على من أصيبوا بهذا الرزء وكفالة تأمينهم وسلامتهم فى المستقبل وهذا أحد الشروط التى ينبغى عليها حل المسائل المعترضة الآن فمن أجل ابلاغ رأى دولتنا بنوع مؤثر الى حضرة السلطان الذى جلس منذ قريب على تخت سلطنة العثمانية ينبغى أن تطلبوا

مواجهته وتبلغوه على وفق مراد الدولة خلاصة تقرير مستر بارنغ وتذكروا له أسماء شوكت باشا وحافظ باشا وطوسون بك وأحمد أغا وغيرهم من المامورين الذين صرّح بأعمالهم المنكرة وطلبوا باسم الملكة ودولتها التعويض والعدالة وألحوا ببناء ما هدم من الكنائس والبيوت وباسداء المساعدة اللازمة لأعادة الاعمال والاشغال ولاغاثة الذين حاق بهم الفقر واذكروا على الخصوص انه لا بد من البحث عن الثمانين امرأة واعادتهنّ الى أهلهنّ وكذلك ألحوا باجراء عبرة على الذين اشتركوا فى تلك الأفعال الشنيعة أو تساهلوا فيها وينبغى أن يمتحن أولئك الذين أعطوا نياشين ورتباً لأوهام باطلة فى حقيقة سلوكهم وتصرفهم ويجردوا عن منزلتهم ان كان ذلك لم يقع فعلا ويبذل السعى البليغ فى اعادة الثقة والأمن ولهذه الغاية يظهر من الصواب أن تلك الجهات التى جرى فيها الهرج والمرج تجعل تحت مأمور ذى همة واقدام يعين لهذا الخصوص فاذا لم يكن من النصارى يلزم ان يكون معه مشيرون منهم بحيث تركن اليهم النصارى وتثق بهم وهذا الامر يكون مؤقتاً من دون أن يكون مانعاً لما تتفق عليه الدول فى المستقبل واذكروا أيضا بكلام أكيد بليغ تهامل المأمورين فى تلك الجهات وعدم الكفاية من استقصاء أديب أفندى ومن تقريره الذى أبلغ الى الدول ابلاغا رسميا اذ لا يعتمد عليه ومن أجل ان يكون طلبكم مفهوما اتركوا مع الصدر الأعظم عند انتهاء محاورتكم معه تذكرة هذه الملاحظات التى فوّضت اليكم بامر الملكة لتعرضوها على مسامع السلطان

الامضا دربى

فليتأمل القارىء الى نسبة التوحش للدولة التى لم تات غير ما تاتيه غيرها من الدول لو حصلت بها ثورة داخلية مع ان الروسيا ارتكبت وما زالت الى الآن ترتكب مع يهود بلادها ما لم يسمع به أيام تيمورلنك من الطرد والنهب والمصادرة وكذلك مع أهالى بولونيا وليتذكر المطالع ما فعلته فرنسا فى الجزائر والنمسا والروسيا معا فى بلاد المجر سنة ١٨٤٨ وما فعلته انكلترا نفسها فى ايرلاندا ويحكم بعد ذلك بان دعوى دول أوروبا بنشر الحرية والمدافعة عنها حقيقة بالاعتبار أو انها مجرّد شباك لا تقصد بها الا التداخل فى الشرق والتهامه قطعة بعد أخرى وتخليص المسيحيين منهم من سلطان المسلمين الذين ما ارتكبوا معهم اثماً الا عدم التعرّض لدينهم ولغتهم والمحافظة على جنسيتهم فقوبلوا بالكفران

حرب الصرب والجبل الاسود

قد علم القارىء مما سلف أن الروسيا كانت تسعى بالاشتراك مع باقى الدول المسيحية لايجاد الاضطرابات الداخلية فى بلاد الدولة العلية الاسلامية لاضعافها ولما رأت أن مساعيها فى البوسنه والهرسك من جهة وبلاد البلغار من جهة أخرى كادت تعود بالخيبة والفشل أوعزت الى أميرى الصرب والجبل الاسود باعلان الحرب على الدولة حتى اذا حارباها وفازا عليها بالغلبة (الأمر لا يتصوره العقل) دخلت بجيوشها الجرارة فى ميدان القتال وأتمت اذلال الدولة العلية حماها الله من مكايدهم وان نصر الله الجيوش الاسلامية على الصرب

والجبل الاسود تداخلت الروسيا بجيوشها لمساعدتهما ضدّ الدولة صاحبة السيادة عليهما فكان قصد الروس حينئذ اعلان الحرب على الدولة باتفاق الدول ان لم تكن جميعها فالمانيا والنمسا بالتحقيق اذ كانت أنظار الاخيرة تطمح الى توسيع حدودها من جهة بلاد البوسنه والهرسك ويساعدها البرنس دى بسمارك وزير ألمانيا الاوّل على ذلك ليوجد للنمسا مصالح فى الشرق ويجعل لها فائدة فى المدافعة عن الاستانة من أن تحتلها الروسيا ولا يظن القارىء أن عمل بسمارك هذا مبنى على اخلاص للدولة العلية معاذ الله بل انه يريد معاكسة الروسيا فى الشرق وعدم تمكينها من احتلال الاستانة انتقاما منها لمنعه عن محاربة فرنسا ثانيا سنة ١٨٧٥ للاجهاز عليها حينما رأى نشاتها بعد حرب سنة ١٨٧٠ وسنة ١٨٧١ وقيامها بدفع الغرامة الحربية البالغ قدرها مائتى مليون جنيها قبل المواعيد المحدّدة فى معاهدة فرانكفورت

هذا ولما أوعز الى الصرب والجبل الاسود باعلان الحرب على الدولة أخذ أميراهما بالاستعداد وشراء الاسلحة والمدافع وجمع الجيوش وتدريبها وأرسلت الروسيا أحد قوّادها الجنرال (تشرنايف) الذى فتح مدينة (تشقند) (١) فى أواسط بلاد آسيا الى بلاد الصرب ليقود زمام جيوشها فذهب اليها مع كثير من الضباط الروسيين الموظفين فى الجيش العامل وكانوا يقالون مؤقتا من خدمة الجيش الروسى للالتحاق بالجيش الصربى وبذا كانت الروسيا هى التى تحارب الدولة العلية باسم الصرب وكان الحال كذلك فى امارة الجبل ولما رأت الدولة هذه الاستعدادات جمعت جيشا جراراً مؤلفا من أربعين ألف مقاتل بمدينة (نيش) لصدّ الصربيين لو تعدّوا الحدود

وفى ٨ يونيه سنة ١٨٧٦ أرسل الباب العالى الى أميرى الصرب والجبل يطلب منهما الافادة عن سبب جمع هذه الجيوش فاجاباه بان ذلك لمنع تعدّى قبائل الأرنؤود على حدودهم وحفظ الامن فى الداخل من جهة ولجمع الدولة جيوشها على حدود بلادهما من جهة أخرى مع ان الدولة لم تجمع عساكرها الا بعد ان آنست منهما العداء ومع ذلك فاكتفت الدولة بهذا الجواب الركيك المعنى والمبنى

ثم لما كملت استعدادات الامارتين الحربية طلب البرنس ميلان أمير الصرب من الدولة أن تناط جيوشه باخماد الثورة فى البوسنه والهرسك بما أن وجود العساكر العثمانية بهما مهدد لامن بلاده وطلب البرنس نقولا أمير الجبل أن تتنازل له الدولة عن جزء من أراضى الهرسك ولما لم تقبل الدولة هذه الطلبات التى لم يقدم على طلبها الا كل عالم برفضها جاعلها سبباً للحرب المصمم عليها اجتازت الجيوش الصربية الحدود تحت قيادة الجنرال (تشرنايف) الروسى فى أوّل يوليه سنة ١٨٧٦ وكذلك جيوش الجبل الاسود بدون أن

---

(١) مدينة قديمة اسلامية بأواسط آسيا كثيرة العمارة والتجارة يبلغ عدد سكانها ١٢٥ ألف نسمة واحتلها الجنرال تشرنايف الروسي سنة ١٨٦٥ ولم تزل تابعة الروسيا

تتعرض لهم الدول أن تقيم الحجة على هذا العمل العدائى بل تربصت حتى اذا فاز أعداء الدولة عضدت الدول طلباتهم وان باؤا بالخسران حفظت لهم بلادهم ومنعت الدولة من مجازاتهم على تعدّيهم بدون سبب الا دسائس الروسيا والدول المعضدة لها

ولنذكر هنا بكل اختصار ملخص الاعمال الحربية والوقائع العسكرية التى حصلت بين جيوش الدولة المظفرة والعساكر المصرية التى أرسلت للاشتراك معها فى الحرب ومقاسمتها النصر والفخر من جهة وعساكر الثائرين وضباطهم الروسيين من جهة أخرى فنقول

ان الحرب مع الجبل الاسود لم يتسع نطاقها لوعورة جبالها ولعدم امكان حصول وقائع مهمة بها بين جيوش منتظمة بل كان كل ماحصل بها عبارة عن مناوشات يكون فيها كل من الفريقين طوراً غالباوتارة مغلوبا فانه كان يتعذر على الجيوش العثمانية اقتفاء أثر الثائرين فى المفاوز الوعرة ويستحيل على الجبليين اجتياز صفوف الجيوش المحدقة ببلادهم من كل فج ولذلك فلم تعد مساعدة الجبليين بفائدة تذكر على الصرب أما من جهة الصرب فقد أجمع المؤرخون العسكريون أن الجنرال تشرنايف ارتكب خطأ عظيما واثماً كبيراً فى عدم جمع جيوشه فى النقطة الوحيدة التى تصل بلاد البوسنه والهرسك بباقى بلاد الدولة العلية فيتحد مع ثائرى هاتين الولايتين ويمكنه بكل سهولة الانضمام الى عساكر الجبل الاسود الا أنه لم يتبع هذه الخطة التى اشار بها عليه بعض القوّاد بل جزأ قوته الى أربع فرق أغار هو باحداها على الطريق المؤدية الى صوفية عاصمة بلاد البلغار الآن وكان ينسب اليه أنه يريد أن يعين والياً مختاراً عليها لكن ماشهده البلغاريون من بسالة رجال الدولة منعهم عن مساعدته فخاب مسعاه وبسبب تفريق جيوشه لم يأت يوم عاشر يوليه الا وقد انهزمت الفرق الاربع بهمة وشجاعة عثمان باشا الغازى وعبد الكريم باشا السردار الاكرم

وبعد ان ردّت جيوش الثائرين على عقبها فكر عبد الكريم باشا فى توجيه قواه لافتتاح مدينة بلغراد عاصمة الصرب ولذلك صمم أوّلا على احتلال مدينتى الكسنياس ودليجرار الواقعتين على طريق العاصمة وفصل الفرقة القائد لها تشرنايف عن الفرقة التى كانت معسكرة بمدينة زايتسار تحت قيادة (لاشانين) وحيث أن فصل هاتين الفرقتين وقطع كل اتصال بينهما لا يكون الا باحتلال مدينة (نياشيواز) صدر أوامره الى أحمد أيوب باشا وسليمان خيرى باشا بالتوجه نحوها من جهتين مختلفتين وفتحها بعد الانضمام الى بعضهما فصدعوا بأمره وفتحوا المدينة عنوة فى يوم ٣ أغسطس بعد ان انتصروا فى عدّة وقائع مشهورة ثم استراحت الجيوش نحو أسبوعين بدون محاربات مهمة

ومن ٢٠ أغسطس استؤنفت الحرب ثانية بكل شدّة واستمرت أربعة أيام متوالية لم يمكن الجيوش المظفرة فى أثنائها فتح مدينة الكسنياس ولذلك أقر رأيه بعد مشاورة من معه

من القوّاد على عدم اضاعة الوقت أمام هذه المدينة الحصينة ومدينة دليجرادوانتقال الجيوش على ضفة نهر (موراوا) اليسرى بدون أن يشعر بهم العدوّ والسير نحو مدينة بلغراد توا وبعد هذا القرار أمر أحمد أيوب باشا بعبور هذا النهر

وفى أثناء هذه المناورة المهمة التى ربما كان يتوقف عليها النجاح استمرت المناوشات مع الجيش الصربى من ٢٥ الى ٢٩ أغسطس حتى تمت بدون أن يشعر العدوّ مطلقا بذلك الا لما اجتازت جميع الجيوش العثمانية النهر ولم يجد أمامه أحداً فلما علم باتمام هذه الحركة العسكرية المهمة عبر النهر بجيوشه خلف العثمانيين فى أوّل سبتمبر سنة ١٨٧٦ فلاقوه لقاء العدوّ القادر وصوبوا اليه مدافعهم حتى اوقعوا الفشل فى صفوف الصربيين وولى كثير منهم الادبار وركنت ألايات برمتها الى الفرار قبل أن يصاب منها نفر واحد

وفى مساء هذا اليوم الذى لم يقم بعده للصرب قائمة والذى جعل الجيوش على مقربة من بلغراد اذلم يعد يمنعها مانع عن الوصول اليها واحتلالها وردت أوامر سرّية من الاستانة الى عبد الكريم باشا بتوقيف القتال وعدم الزحف على عاصمة الصرب ريثما تأتيه أوامر جديدة لتداخل الدول بين الفريقين وبيان ذلك أن البرنس ميلان أمير الصرب طلب من قناصل الدول لديه فى ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٦ مخابرة دولهم بان تتوسط بينه وبين الدولة العلية منعا لسفك الدماء وخوفا من أن يلحقه عار الغلبة فابلغت القناصل دولهم هذا الطلب وهى فاتحت الباب العالى فى هذا الخصوص فلم يجبها حتى فرق عبد الكريم باشا جميع الجيوش الصربية ولم يبق له معارض فى طريق بلغراد فاوعز اليه سراً بالتوقف مؤقتا وابلغ سفراء الدول فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٧٦ انه لا يقبل الصلح الا بعدّة شروط اهمها أولا أن يأتى أمير الصرب الى مقر الخلافة العظمى ليقدّم واجبات الخضوع والعبودية الى السدة العلية السلطانية ثانيا ان القلاع الاربع التى خوّل حق احتلالها الى الصرب فى سنة ١٨٥٢ م ١٢٨٣ هـ مع بقائها تابعة للدولة تحتلها ثانيا الجيوش العثمانية ثالثا أن يلغى الرديف فى بلاد الصرب وأن لا يزيد عدد الجيش الصربى عن عشرة آلاف مقاتل وبطاريتى مدافع لحفظ الامن الداخلى ليس الا فلما وصل هذا الجواب الى الدول لم تقبل هذه الاقتراحات قولا بانها مجحفة بامتيازات الصرب اجحافا كلياً وزيادة على رفضها زادت على ما اقترحته بخصوص الصرب طلبات اخرى بخصوص البوسنه والهرسك والبلغار التى أطفئت ثورتهم من مدة وبعد ان اتفقت جميع الدول الست الموقعة على معاهدة سنة ١٨٥٦ القاضية بالمحافظة على سلامة الدولة العلية (التى معناها فى عرفهم تقسيمها) ارسل اللورد دربى وزير خارجية انكلترا الى السير هنرى ليوت سفيرها فى الاستانة رسالة بامضائه امره بتوصيلها الى الباب العالى فاوصلها اليه فى ٢٥ سبتمبر المذكور مضمونها ان طلبات الدولة العلية لا يمكن قبولها بالكلية وان الدول ترغب ارجاع حالة الصرب والجبل الاسود الى ما كانت عليه قبل الحرب وان تمضى الدولة مع الدول الست اتفاقا بتاسيس ادارة وطنية

مستقلة فى البوسنه والهرسك حتى يكون للاهالى حق مراقبة أعمال ماموري الحكومة وموظفها وكذلك فى بلادالبلغار وايقاف الحرب فوراًمع الصرب و بعد ان تداول وزراء الدولة فى هذه الطلبات التى لا تقبلها أىّ دولة فازت على عدوها بالنصر فى ميادين القتال واهرقت دماء رجالها حفظاً لكرامتها وشرفهامن تعدّى هذا العدوّ لتخومها بدون ان تبدى الدول حراكا أجاب الباب العالى على هذه المذكرة السياسية بانه لا يرى وجها لاعطاء هذه الولايات امتيازات ادارية بما ان مجلس المبعوثان سيشكل قريباو يكون فيه مندوبون منتخبون من جميع الولايات بدون استثناء وان الدولة لاترى ضرورة لابرام اتفاق جديد مع الدول بهذا الخصوص ولم تذكر شيئا عن الهدنة مطلقا ولما لم تصغ الدول لهذه الطلبات العادلة أوعز الباب العالى الى السر عسكر عبد الكريم باشا باستمرار القتال فاستدعى السر عسكر القائد درويش باشا الذى كان معسكراً بفرقته فى نيش ولما حضرت العساكر أمر بالهجوم على مدينة جونيس التى جعلها الجنرال تشرنايف مقراً لمعسكره فهجمت عليها الليوث الاسلامية فى ٢٩ اكتوبر سنة ١٨٧٦ و بعدقتال عنيف تقهقر الصربيون وأنصارهم واخلواهذه المدينة ومدينة (دليجراد )وزحفت الجيوش العثمانية محفوفة بالنصر على مدينة بلغراد عاصمة بلاد الصرب

ولما وصل خبر هذا الفتح المبين الى آذان ولاة الامور فى الروسيا وهو خلاف ما كانوا يتوقعونه أرسل البرنس ( غورشاكوف )الى الجنرال اغناتيف بالاستانة بعد ان اتفق مع باقى الدول رسالة برقية فى مساء ٣٠ اكتوبر يأمره بأن يطلب من الباب العالى ايقاف الحرب فوراً ومهادنة الصرب والجبل الاسود مدة ستة أسابيع أو شهرين وان لم يجب هذا الطلب فى مسافة ثمانية وأربعين ساعة ينسحب هو وجميع موظفى السفارة من الاستانة فقبلت الدولة هذا الطلب منعاً للعراقيل السياسية ومنحت لمحاربيها هدنة مدة شهرين مدّت فيما بعد الى شهر مارث سنة ١٨٧٧

مؤتمر الاستانة

وفى ٥ اكتوبر سنة ١٨٧٦ عرض وزير خارجية انكلترا على باقى الدول المنتحلة لنفسها حق التداخل فى شؤون الدولة العلية اجتماع مؤتمر فى مدينة الاستانة لتسوية حالة مسيحيي الدولة بكيفية ثابتة منعاً لحصول الحرب بينها و بين الروسيا التى كانت شارعة فى جمع جيوشها والاستعداد للحرب فلم تجاوب الدول على هذا الاقتراح بجواب صريح لخوفهامن عدم امتثال أحدالطرفين لقرارات المؤتمر فتضطر للتألب ضدّه كما حصل فى حرب القرم سنة ١٨٥٦ لكن لما رأت ان الخطر قد ازدادوالحروب قدقربت حتى صارت قاب قوسين أوأدنى خصوصاًوان قيصر الروسيا ألقى فى مدينة موسكو خطاباًفى ١٢ نوفمبر سنة ١٨٧٦ أثنى فى خلاله على شجاعة أهالى الجبل الاسود وثبات الصربيين ولما وصل اليها منشور بتاريخ ١٣ منه من البرنس غورشاكوف مفاده أن الروسيا قدأمرت بجمع جزء من جيوشها على الحدود لحماية المسيحيين ببلاد الدولة باى طريقة كانت بما أنها لم تر نتيجة من

المخابرات السياسية الا تمكن الدولة من جمع جيوشها من جميع ولاياتها بآسيا وأفريقيا أذعنت جميع الدول لطلب انكلترا وأرسلت كل منها مندوبا أو مندوبين وأرسلت انكلترا اللورد سالسبورى وكلفته بان يمر على باريس وبرلين وويانه ورومه عند ذهابه للاستانة ليستطلع أفكار وزرائها قبل انعقاد المؤتمر ويجرى الجميع على أتم وفاق ولما وصل المندوبون الى الاستانة عقدوا جملة اجتماعات ابتدائية من ١١ دسمبر الى ١٧ منه لتقرير طلباتهم قبل عرضها بصفة رسمية فى المؤتمر ولم يقبلوا مندوبى الدولة العلية فى هذه المداولات الأمر الذى يشف عن تحيزهم الى الروسيا التى كانت هذه الاجتماعات فى سفارتها فتقرر المندوبون أن تقسم بلاد البلغار الى ولايتين يكون ولاتها من المسيحيين الاجانب أو التابعين للدولة وأن الجنود العثمانية لا تحتل الا القلاع وبعض المدن الكبيرة وأن تشكل قوة (جندرمه) من المسيحيين يكون ضباطها بين مسيحيين ومسلمين تعينهم الدولة وأن تشكل لجنة دولية لمدة سنة لمراقبة تنفيذ الاصلاحات المبينة فى لائحة الكونت اندراسى وأن تعطى هذه الامتيازات الى ولايتى البوسنه والهرسك وأن يشترط فى الصلح الذى يعقد مع الصرب والجبل الاسود أن تتنازل لهما الدولة عن بعض الأراضى وأخيراً اذا لم تقبل الدولة هذه الاقتراحات (المستحيل قبولها) ينسحب جميع أعضاء المؤتمر من الاستانة علامة على قطع العلائق السياسية مع الدولة العلية والشروع فى اتخاذ الطرق الاجبارية لاكراهها على قبول اقتراحاتها

وفى يوم ٢٣ دسمبر سنة ١٨٧٦ اجتمع المؤتمر بصفة رسمية فى سراى البحرية تحت رئاسة صفوت باشا ناظر خارجية الدولة وانتخب هو رئيساً له لانعقاد المؤتمر فى الاستانة وعضوية كل من أدهم باشا سفير الدوله العلية ببرلين والكونت ( فرنسوا دى بورجوان ) والكونت ( دى شودوردى ) عن فرنسا والبارون (وزر) عن ألمانيا والكونت (كورتى) عن ايطاليا والكونت (زيكى) من أشراف المجر والبارون ( كاليس) النمساوى عن النمسا والجنرال (اغناتيف) عن الروسيا واللورد (سالسبورى) والسير (هنرى ليوت) عن انكلترا وفى يوم انعقاده أطلقت المدافع من جميع القلاع والمراكب ايذاناً باعلان القانون الاساسى الذى ساوى بين جميع رعايا الدولة كما سبق ذكره فى بابه وبعد ان اجتمع عدة دفعات جمعت الدولة مجلساً عاماً من ذوات الدولة وأعيانها ورؤساء الديانات فى ١٨ يناير سنة ١٨٧٧ وعرضت عليهم اقتراحات المؤتمر فقال الكل بوجوب رفضها ومن الغريب أن وكيل بطريرق الارمن وحاخام الهود كانا من أشد المعارضين فى قبولها وقالا بما مؤداه أن جميع أبناء طوائفهم مستعدون للدفاع عن شرف الدولة العلية واستقلالها استعداد المسلمين لذلك اذ الكل صاروا عثمانيين متساويين أمام القانون طبقاً للقانون الاساسى ثم ارفض الجمع وبلغ عدد الحاضرين نحو مائتين أجمعوا على وجوب الحرب حفظاً لشرف الدولة وفى يوم ٢٠ من الشهر المذكور اجتمع المؤتمر الدولى فتلا صفوت باشا على الحضور ما قررته

الجمعية العمومية فى يوم ١٨ منه ثم قال لهم ان الدولة مستعدّة لقبول تشكيل مجالس انتخابية فى البوسنه والهرسك والبلغار يكون انتخابهم لمدّة سنة فقط ونصف أعضائها من المسلمين والنصف الآخر من المسيحيين وانها مصرّة على رفض اللجان المختلطة كل الرفض لان ذلك يدل على عدم ثقة الدول بوعود جلالة السلطان ومصرة أيضاً على عدم اعطاء الصرب والجبل الاسود شيئاً من أراضيها

وبعد ان تكلم بعض الاعضاء مهدداً الدولة العلية انفض المؤتمر ثم اجتمع فى مساء يوم ٢١ بدون حضور مندوبى الدولة العلية وأمضوا مضبطة أعمال المؤتمر

وفى ٢٣ منه سافر المندوبون والسفراء علامة على قطع العلائق بدون أن يقابلوا جلالة السلطان وتأخر الجنرال اغناتيف قليلا عن اخوانه بسبب الزوابع فى البحر الاسود وأخذ كل من الطرفين يستعد للقتال والحرب والنزال

اخلاص المجر للدولة العلية

ومما يحسن ذكره فى هذا المقام أن أهالى المجر مع بقائهم أجيالا تابعين للسلطنة العثمانية كانوا أشد الامم اخلاصاً للدولة العلية بل كان المجريون الأمة المسيحية الوحيدة التى خالج فؤادها الاخلاص والولاء للامة العثمانية فى هذا الوقت الحرج الذى كانت فيه جميع الدول المسيحية متالبة عليها وما ذلك الا لكون الدولة حمت من التجأ اليها من رؤساء الثورة المجرية سنة ١٨٤٨ وامتنعت عن تسليمهم الى النمسا والروسيا رغما عن تهديداتهم ولولا ذلك لأعدم جميع زعماء المجر وخصوصاً الوطنى الشهير (كسوت) بخلاف الروسيا فانها ساعدت النمسا بخيلها ورجلها على اقماع الثورة واذلال الأمة المجرية بعد ان كادت تفوز بالنجاح وتتمتع بالحرية وتنفصل عن النمسا تمام الانفصال كما كانت أمنيتها

فلما ظهر عداء الروسيا للدولة العلية جهاراً أثناء انعقاد مؤتمر الاستانة تجمهر تلامذة المدارس العليا فى بودابست عاصمة المجر وتباحثوا فى الكيفية التى يعربون بها عن ولائهم للدولة العلية فاقروا على ارسال وفد من اثنى عشر تلميذاً منهم ليقدم سيفا ثميناً لعبد الكريم باشا قائد عموم الجيوش التركية

فاتى الوفد الى الاستانة فى أوائل يناير سنة ١٨٧٧ وطلب مقابلة السردار الاكرم فاذن لهم ولما مثلوا أمامه فاه أحدهم بخطبة مناسبة للمقام ذكر فيها ما للدولة من الايادى البيضاء على بلادهم بحمايتها زعماء حريتها وتمنى له ولدولته العلية الفوز والنجاح على الروس أعداء الحرية ومبيديها فى بلاد لهستان (بولونيا) والمجر ثم قدم له السيف فقتبل عبد الكريم باشا السيف بكل ارتياح وارتجل صفوت باشا ناظر الخارجية الذى كان حاضراً هذه المقابلة خطاباً بليغاً أتى فيه على سابقة ارتباط الامتين العثمانية والمجرية وتاسف على اصغاء المجر للدسائس الاجنبية وانفصالها عن الدولة العلية وقال فى الختام ان انفصال الايالات المسيحية عنها واحدة بعد الاخرى لم يكن الا نتيجة حسن معاملاتها للسكان المسيحيين وعدم اجبارهم على اعتناق الدين الاسلامى وترك دين وعوائد أجدادهم الاولين

لائحة لندره

لما انفض مؤتمر الاستانة بعد رفض الدولة والامة لطلباته المجحفة وانسحاب أعضائه مع جميع القناصل من الاستانة ماعدا الجنرال اغناتيف الروسى كتب البرنس غورشاكوف الى سفراء الروسيا لدى فرنسا وانكلترا والنمسا وألمانيا وايتاليا نشرة بتاريخ ٣١ يناير سنة ١٨٧٧ يشرح فيها رفض الدولة العلية لقرار المؤتمر ويطلب منهم الاستفسار من الدول عما يرغبون اجراءه مع الدولة بعد ذلك حتى يكون عملهم باتفاق قبل أن يجزم سيده الامبراطور بما يجب عليه اتباعه لتحسين حال المسيحيين ويصمم على تنفيذ رغائبه بالقوة وكذلك أرسل صفوت باشا الى سفراء الدولة لدى الدول منشوراً بتاريخ ٢٥ منه أبان فيه ما أتاه أعضاء المؤتمر من عقد عدة جلسات ابتدائية بدون حضور مندوبى الدولة واتفاقهم على مايجب عرضه على الباب العالى قبل انعقاد المؤتمر بصفة رسمية حتى كأن المجلس لم يعقد الا لعرض طلبات متفق عليها من قبل وطلب التصديق عليها ليس الا ثم قال فى ختامه ان الدولة لا يمكنها ولن يمكنها التصديق على شىء من هذه الاقتراحات المزرية بشرفها ومحطة بقدرها أمام أمتها وطلب منهم تسليم صور منه الى الدول المعينين لديها فاحتار وزراء الدول فى كيفية حسم هذه النازلة أمام اصرار الدولة على عدم الرضوخ لطلباتهم وبينما هم يضربون أخماسا لاسداس أبرمت الدولة الصلح مع امارة الصرب على شروط أهمها أن تخلى العساكر العثمانية بلاد الصرب فتعود الى ما كانت عليه قبل الحرب بشرط أن لاتبنى الامارة قلاعا جديدة ببلادها وان يرفع عليها العلم العثمانى بجوار العلم الصربى علامة على بقاء السيادة

اما الجبل الاسود فلم يتم معه الصلح لطلبه تنازل الدولة له عن بعض الاراضى بحيث يصير له ميناء على البحر الادرياتيكى بل اكتفت الدولة بتجديد اجل الهدنة معه

وفى مارث سنة ١٨٧٧ لما رأت الروسيا عدم ورود جواب اليها من الدول عما تنوى اجراءه مع الدولة وانها ان لم تبادر باشعال نيران الحرب تضيع منها الفرصة بعد ان تجشمت المصاريف الطائلة فى الاستعداد اليه اذ قد تم الصلح مع الصرب وربما تصالح الباب العالى قريباً مع الجبل الاسود فتسود السكينة ولا يعود لها وجه المداخلة لاسيما وان مسيحى الدولة يصبحون عما قليل راضين عنها بسبب مساواتهم مع المسلمين بمقتضى القانون الاساسى ارسل البرنس غورشاكوف الى سفيره فى لوندره فى ١١ مارث صورة لائحة لاطلاع الحكومة الانكليزية عليها حتى اذا صادقت عليها عرضها على باقى سفراء الدول بلندره واذا حازت لديهم قبولا يصير التوقيع عليها منهم وارسالها للباب العالى للعمل بها والا فتصير الدول حرة فى اجراء مايلزم لراحة رعايا الدولة المسيحيين فصدقت عليها انكلترا ابتداء ثم اجتمع جميع السفراء فى ٣١ منه بنظارة الخارجية ماعدا سفير الدولة العلية ذات الشأن ( تامل ) وأمضوا هذه اللائحة بعد تعديلها قليلا وارسلوها الى الباب العالى وهذا نصها نقلا عن منتخبات الجوائب

ان الدول التى اتفقت على اجراء الصلح فى الشرق واشتركت فى مؤتمر الاستانة تعترف ان آكد الوسائل للحصول على هذه الغاية التى وطنت أنفسها عليها هو دوام الاتفاق الذى حصل بينها ومن لوازم هذا الاتفاق تحقيق المنفعة التى قصدوها لتحسين أحوال النصارى سكان الممالك العثمانية ( وفى الاصل تركية ) ولاجراء الاصلاح فى بوسنه وهرسك والبلغار الذى قبله الباب العالى بشرط انه هو الذى يجريه فعلا وكذلك عندها علم باجراء الصلح مع الصرب أما من جهة الجبل الاسود فان الدول ترى أن تعيين الحدود/وحرّية السفر فى البوجانا أمر مرغوب لاحكام الاتفاق وادامته كما انها ترى ان هذا الاتفاق الذى تم أو سيتم بين الباب العالى وهاتين الولايتين هو وسيلة الصلح الذى هو غاية مرامها ولهذا تدعو الباب العالى لاحكامه وتوكيده بان يجعل عساكره فى حالة السلم ماعدا العساكر التى لابد منها لابقاء الأمن والطمأنينة وأن يسرع من دون تاخير فى اجراء الاصلاح لتطمين سكان الولايتين وغيرها مما جرت المذاكرة على شروطه فى المؤتمر وكذلك تعترف أن الباب العالى صرّح بانه يجرى من هذه الاصلاحات ماهو الاهم وعندها علم أيضا باللائحة التى نشرها الباب العالى فى ١٣ من فبراير ( شباط ) سنة ١٨٧٦ وبالاعلان الذى أصدره مدّة انعقاد المؤتمر بواسطة سفرائه وبناء على هذه المقاصد الحسنة التى أبداها ومنفعته الظاهرة فى اجراء الاصلاحات حالا قام بخاطر الدول أن لها أسبابا تحملها على أن ترجو أن الباب العالى يستفيد من هذه الفترة الحاضرة فيبذل همته فى اتخاذ الوسائل التى يحصل بها تحسين أحوال النصارى التى اتفقت الدول على وجوبها لاجل بقاء السلامة والطمأنينة باوروبا فاذا أخذ فى هذا المشروع يكون معلوما عنده أن شرفه ونفعه أيضا يوجبان المحافظة عليه بالوفاء والاخلاص والانجاز فمن رأى الدول والحالة هذه أن تكون مراقبة بواسطة سفرائها بالاستانة وأعمالها فى الولايات للمنوال الذى يجز به مواعيد الدولة العثمانية فاذا خابت آمالها مرة أخرى ولم تحسن حال رعية السلطان على وجه يمنع من اعادة الارتباكات التى تتعاقب فى الشرق وتكدر موارد السلم فيه ترى من الصواب أن تعلن أن مثل هذه الامور لا تناسب مصلحتها ومصلحة اوروبا عموما ففى مثل هذه الحال تستبقى لنفسها أن تنظر بالاتفاق فى اتخاذ الوسائل التى تراها الاصلح لتأمين خير النصارى ولابقاء السلم عموما حرر فى لوندره فى ٣١ مارث سنة ١٨٧٧

| مونستر | دربى |
|---|---|
| بوست | ل . ف . مينارايا |
| ل . داركور | شوفالوف |

وقد أتينا على ذكر هذه اللائحة ليرى القارىء تعصب الدول لحماية المسيحيين بالدولة مع انه لو

تداخلت الدولة فى شؤون احداها وطلبت من فرنسا مثلا عدم التعرض لما يمس الامة الاسلامية بالجزائر أو مساواة المسلمين بها بالمسيحيين واليهود لشددوا النكير عليها ورموها بالتعصب الدينى المتصفين هم به دون غيرهم ولكن هى القوة قضى التمدن الغربى الحديث أن تسود على كل حق تحت راية الانسانية والمساواة وما هى الألفاظ لامعانى لها الا فيما يلائم مصالحهم وما نحن بمغرورين

ولما وصلت هذه اللائحة الى الباب العالى وانتشر خبرها بين العموم أيقن الكل ان لابد من الحرب اذ من المستحيل أن توافق عليها أىّ دولة تغار على شرفها ووجودها بين العالم السياسى وأصدرت الدولة منشوراً الى سفرائها لدى الدول الست بقصد تبليغه لها يشف بعبارة صريحة عن عدم تصديقها على هذه اللائحة وقد أتى فيه محرروه من العبارات المؤثرة الدالة على تعصب الدول ما رأينا معه ضرورة نشره برمته وها هو نقلا عن مجموعة الجوائب

قد وصل الى الباب العالى البروتوكول الذى وقع عليه فى لندره فى ٣١ مارث سنة ١٨٧٧. ناظر الخارجية بلندره وسفراء ألمانيا وأوستريا وفرنسا وايطاليا والروسيا مع الاعلام الذى ألحق به من ناظر الخارجية الموما اليه ومن سفيرى ايطاليا والروسيا و بعد اطلاع الباب العالى على ذلك تاسف جداً على انه راى ان الدول العظام لم تر من الواجب أن تشرك الدولة العلية فى المذكرات التى تثار فيها المسائل المهمة المتعلقة بالدولة مع ان المراعاة التى أبدتها الدولة فى جميع الاحوال لنصائح الدول والتكفل الذى قرن مصالحها بمصالحهم وأصول الانصاف التى لانزاع فيها والتعهد الخطير الشان تحمل الدولة على أن تظنّ أنه كان من اللازم أن الدول تدعوها الى هذا العمل المراد به ان اجراء الصلح فى الشرق والاتفاق العام يبنيان على أساس راسخ عادل وحيث جرى الامر على خلاف المامول رأى الباب العالى أنه من الواجب عليه أن يعارض فيه وأن يبين ما عسى أن يحدث منه فى المستقبل من المحذور ولو أن الدول أمعنت النظر فيما اعترض من الخطر ومن تغيير الحال بعد انعقاد المؤتمر فى استانبول لأمكن الوصول الى هذا الاتفاق المروم أما فى اثناء انعقاد المؤتمر فان الباب العالى كان معتمداً على القانون الاساسى ( وفى الاصل كونستيتوسيون ) الذى تفضل به سلطاننا المعظم متكفلا بتحقيق اصلاح عام لم يعهد له نظير منذ ابتداء الدولة السلطانية فرأى انه من الواجب عليه أن ينكر الطلب المشطط فى تمييز بعض الولايات بالاصلاح دون غيرها و ينبذ أيضا كل ما من شانه ان يجحف باستقلال الدولة العلية و بسلامة ممالكها وهذا عين ما أعلنته دولة انكلترا وقبلته سائر الدول فان هذا الاعلان بنى على استقلال الدولة وعلى ان يكون فى بعض الولايات تنظيمات تتكفل بمنع سوء الادارة من قبل المامورين وقصرهم عن التصرّف المطلق فهذه التنظيمات المطلوبة محققة فعلا فى المنهاج السياسى الجديد الذى أنشىء فى الممالك من دون

فرق فى لغات أهلها ولا فى مذاهبهم ثم عقد مجلس المشورة العثمانى فى الاستانة فاجتمعت فيه أعضاؤه بانتخاب جرى على وجه الاختيار والحرية فان كان أحد يعارض فى طريقة هذا الاصلاح الذى لغرب عهده يظنّ تأخير الثمرة المطلوبة منه يقال له ان هذه المعارضة هى ضدّ مارامته الدول من الاصلاح أما التأمين فى داخل المملكة فان الصلح استمرّ بين الباب العالى والصرب ومازالت المفاوضة جارية مع وفد الجبل الاسود وفيها أظهر لهم الباب العالى مساهلة عظيمة وفى خلال ذلك طرأ من سوء البخت أمر جديد وهو مبالغة دولة الروسيا فى تجهيز عساكرها فاوجب ذلك على الباب العالى أن يستعدّ لدفع الخطر عنه مع أن أقصى مرامه أن يتشبث بالوسائل المؤدية الى السلم والسلامة وأن يوافق الدول على قدر مايمكنه وأن يزيل من خواطر الناس الريب فى اخلاص مانواه من الاصلاح وأن يستريح من الفتن التى توجب عليه بذل المال لغير طائل فاضطراره الى الاستعداد للدفاع والحالة هذه أوجب عليه أن يستعين بسكان الممالك على غير مراده وأن يقدم على حرب ربما تكون سبباً فى تكدير سلم جميع الاقطار والامصار وكان من الضرورى أن الدول العظام تهتم بهذه الحال وكان مما استصوبه الباب العالى لبعض أسباب أن لا يطلب منها طلباً رسمياً أن تعتنى بهذه المسالة المهمة ولكن بعد ان بين اللورد دربى والكونت شوفالوف ما بيناه عند توقيعهما على البروتوكول رأى الباب العالى لزوم مطالعة الدول فى انهاء هذه الارتباكات التى تفضى الى الخطر مما ليس فى طاقته انهاؤه فاوّل ذلك أن يبين لها جواباً عما قاله الكونت شوفالوف فى البروتوكول هذه الملاحظات الآتية (١) ان الباب العالى فى نهجه طريقة المصالحة مع أمير الجبل الاسود على نحو مانهجه مع حكومة الصرب افاد عن طيب نفس منذ نحو شهرين ان الدولة العلية تبذل جهدها فى الاتفاق معه ولو كان فى ذلك بعض خسارة عليها وحيث ان الباب العالى يرى ان الجبل جزء من الممالك العثمانية خيره فى تعديل التخوم بما فيه نفع لحكومة الجبل وطمع فى ان ذلك ينهى الخلاف فى المستقبل فصار الحصول على المامول متعلقاً بالجبل (٢) ان الدولة العلية شرعت فعلا فى اجراء الاصلاحات التى وعدت بها لكن هذا الاجراء لا يكون على وجه التخصيص والترجيح وفاقا لما تقرر فى القانون الاساسى فهو فى حرية الدولة ان تنهجه على الوجه المذكور (٣) ان الدولة مستعدة لأن تجعل عساكرها على قدم السلم عند ماترى ان دولة الروسيا فعلت مثل ذلك وان المراد من حشد عساكرها مجرد الدفاع وانها ترجو من علاقة المودة والمراعاة الحاصلة بينهما ان دولة الروسيا لا تصر وحدها على ان تظن ان رعية الدولة العلية من النصارى معرضون من طرف حكومتهم لخطر يوجب غزو بلادها وما يعقبه من الغوائل (٤) اما من جهة مايحتمل حدوثه من الاختلال مما يمنع صرف عساكر الروسيا فان الدولة العلية تجيب عن هذا الشرط الاليم الذى نشا عن هذا الظن بان تقول انه قد ثبت عند دول أوروبا ان الاختلال الذى حدث

فى بعض الولايات وكدّر أحوالها انما نشأ من اغواء المغوين من الخارج فالدولة العلية غير مسئولة عنه ولا مطالبة به فلا حق لدولة الروسيا فى أن تعلق صرف عساكرها على حدوث الاختلال (٥) أما ارسال مامور مخصوص من الدولة العلية الى سان بطرسبورج للمفاوضة فى صرف العساكر فان الدولة لا ترى سبباً لرفض فعل يدل على المجاملة والملاطفة مما توجبه طريقة المعاملات السفارية من كلا الطرفين لكنها لا ترى تناسباً بين هذا الفعل وبين وضع السلاح الذى لا يجب تاخيره لاىّ سبب كان اذ يمكن انجازه بمجرّد خبر بالتلغراف فالدولة العلية تطلب من الدول أن تتبصر فيما أوجب رقم البروتوكول وفى خطر هذه الحال الحاضرة التى لامسئولية منها عليها ومن الغريب أن الدول رأت من اللزوم أن تذكر فى البروتوكول أن من مصلحتها المشتركة اجراء الاصلاح فى بوسنه وهرسك والبلغار وانه بالنظر الى حسن مقاصد الباب العالى والى ظهور الفائدة له من الاصلاح تؤمل أن يبادر الى اجرائه فعلا فى تلك الولايات من دون امهال كما جرت عليه المذاكرة فى المؤتمر وانه متى شرع فيه أوّل مرة يكون معلوماً عنده ان شرفه ومصلحته يقضيان بالاستمرار فيه فالباب العالى لا يقبل الاصلاح المخصوص بالولايات الثلاث المذكورة وليس عنده شك أيضاً ان مصلحته ومن الواجب عليه أن يقضى حقوق رعيته من النصارى قضاء كافياً ولكن لا يسلم أن الاصلاح يكون مقصوراً على النصارى فقط بل يجب أن يكون شاملا لجميع سكان الممالك المحروسة رعية الدولة العلية المتصفين بالولاء والطاعة حتى يكونوا بمنزلة جسم واحد وعلى هذا فالباب العالى محقوق بان يدفع الاوهام التى تثيرها عبارة البروتوكول من جهة اخلاص قصده ونيته نحو رعيته المسيحيين وأن يعترض على عدم المبالاة المفهومة من فحوى هذه العبارة بباقى رعيته من المسلمين وغيرهم فمن المنكر ان الاصلاح الذى من شانه ان يشمل المسلمين بالراحة والمنفعة يكون فى عيون أهل أوروبا البصيرة المنصفة مما لا يبالى به ولا يلتفت اليه ولذا كان من قصد الدولة ( وفى الاصل تركية ) اليوم احداث تنظيمات مخصوصة يحصل بها لجميع رعاياها التأمين على حقوقهم ومنافعهم المعنوية والمادية على التساوى من دون فرق وتحسب من موجبات شرفها أن تحافظ على القانون الاساسى وذلك آكد ضمان وعهد ولكن اذا رأت نفسها مضطرة الى دفع المقاصد المراد بها ابقاء العداوة بين رعاياها وحملهم على عدم الثقة بها لم تكن محقوقة بايجاب مابنى عليه البروتوكول من قصد الاصلاح كيف وقد قال ان قصد الدول أن تراقب بواسطة سفرائها بالاستانة وعمالها فى الولايات المنوال الذى تنجز به مواعيد الدولة العثمانية وقال ايضاً اذا كان هذا الامل يخيب مرة اخرى فانها ( اى الدول ) تستبقى لنفسها أن تتخذ بالاتفاق الوسائل التى تراها أولى وأحرى لتامين منافع النصارى واستتباب السلم عموماً فهذا يوجب على الدولة العلية أن تقيم الحجة عليه وتنكره أشد الانكار فان الدولة من حيث كونها دولة مستقلة لا تذعن بان تكون تحت مراقبة الدول

مفردة كانت أو مجموعة لأنها لما كانت علاقتها مع الدول المتحابة مبنية على الحقوق المتعارفة بين الامم وعلى المعاهدات لم يكن لها أن تعترف أن سفراء الدول وعمالها الذين وظيفتهم المحاماة عن مصالح رعاياهم يكون لهم حق المراقبة على وجه رسمى فهذا أمر مهين لها ولم يعهد له نظير لدى سائر الدول وهو أيضا مناقض لما تقرر فى معاهدة باريس التى اتفقت عليها الدولة العلية مع سائر الدول فانها تصرّح بعدم المداخلة وتخذه أصلا من أصول السياسة فلا يصح اذاً الغاء شىء منها من دون موافقة الباب العالى فاذا كانت الدول تحتج بتلك المعاهدة فليس لكونها تخولها حقوقاً ليست فى حيازتها من دونها ولكن لتذكر الدول بالاسباب الخطيرة التى حملتها منذ عشرين سنة حباً لبقاء السلم العام فى أوروبا على أن تتعهد بحفظ حقوق سلطنة الدولة العلية عن الانتهاك أما ماتقرر فى البروتوكول من أن الدول اذا رأت الاصلاح غير منجز يكون لها أن تتشبث بالوسائط الفعالة لانجازه فان الدولة ترى فى ذلك اجحافا بشرفها وحقوقها وتخويفا من شأنه أن يجرّد أفعالها التى تأتيها عن رضاء ومبادرة عمالها من الاستحقاق وسببا يزيد فى ارتباكاتها فى الحال والاستقبال فعلى كل حال لا يعوق الدولة العلية شىء عن أن تجزم باقامة الحجة على البروتوكول المذكور وأن تعتبره بالنظر الى ما يتعلق بها خاليا من الانصاف ومجرداً عن الاوصاف التى تجعله موجباً وحيث ظهر لها أن موضوعه اثارة الظنون والاتهام ونقض حقوق الدولة الذى هو نقض أيضاً لحقوق الناس عموماً وطنت نفسها على الدفاع صونا لوجودها فهى تعلن الآن اتكالا على البارى تعالى واعتماداً على العدل أنها تنكر كل مايحكم به عليها أحد من دون مواطأتها وجازمة بان تحافظ على المقام الذى أقامها فيه القادر عز وجل وقدّره لها فلاتزال تدفع كل مامن شأنه أن يجحف بالاصول العمومية وبصحة ذلك العهد الذى أوجبته الدول على أنفسها ولاعتقادها بان البروتوكول من قبيل المعدوم تراجع ضمائر الدول الذين تعتقد فيهم بقاء الصداقة والمودّة كما كان فى سالف الزمن وفى الجملة فان الوسيلة الوحيدة لازالة الخطر الذى يخاف منه على السلم هى المبادرة الى وضع السلاح والجواب الذى صرّحت به الدولة آنفا عن كلام سفير الروسيا يسهل للدول الحصول على هذه النتيجة ولاشك أن الدول لاتريد أن تكلف الدولة بما يخل بحقوقها ويوجب عليها الاضرار والخسائر فانت مكلف بقراءة اللائحة على ناظر الخارجية وترك نسخة منها عنده اه

اعلان الحرب

لم يسع الروسيا بعد رفض الباب العالى للائحة لوندره وتصميمه على الدفاع عن شرف الدولة وعدم الانصياع لطلبات أوروبا المسيحية الغير حقة الا اعلان الحرب ولكن قبل اعلانه أمضت مع امارة رومانيا (الافلاق والبغدان) معاهدة سرّية بتاريخ ١٦ أبريل سنة ١٨٧٧ وضعت رومانيا بمقتضاها جميع مخازنها ومؤنها وذخائرها تحت تصرّف الروسيا ثم فى ٢٤ منه كتب البرنس غورشاكوف الى توفيق بك المكلف بمصالح الباب العالى

فى سان بطرسبورج كتابا يقول فيه ان سيده الامبراطور رأى نفسه مضطراً بكل أسف
أن يعتمد على قوّة السلاح لتنفيذ مطالبه وكلفه بان يخبر دولته بان الروسيا تعتبر نفسها
من هذا اليوم فى حالة الحرب مع الدولة وأن يخبره عن عدد مستخدمى السفارة ليعطى لهم
جواز السفر علامة على قطع العلاقات بسبب الحرب فابلغ توفيق بك هذا الخطاب الى
الباب العالى وكان المسيو نيليدوف الذى نيطت به أعمال السفارة الروسية بعد سفر الجنرال
اغناتيف قد ترك الاستانة فى اليوم الذى قبله قطعاً للعلاقات السياسية فكتب الباب
العالى نشرة تلغرافية الى سفرائه لدى الدول الموقعة على معاهدة باريس فى سنة ١٨٥٦
بتاريخ ٢٥ ابريل يكلفهم باخبار الدول المعينين لديها باعلان الروسيا محاربتها للدولة بدون
توسط الدول طبقا للمادة الثامنة من معاهدة باريس المذكورة آتى نصها (اذا احدث بين الباب
العالى واحدى الدول المتعاهدة خلاف خيف منه على اختلال ألفتهم وقطع سلطتهم فمن
قبل أن يعتمد الباب العالى وتلك الدولة المنازعة له على أعمال القوّة والجبر يقيمان الدول
الاخرى الداخلة فى المعاهدة وسطا بينهما منعاً لما ينشأ عن ذلك الخلاف من الضرر)
و بعد ذلك أصدرت الدولة أوامرها الى جميع رؤساء الجيوش بملاقاة العدوّ بما جبلت
عليه العساكر الشاهانية من البسالة والثبات وأصدر سيدنا شيخ الاسلام فتوتين بتاريخ ٨
جمادى الاولى سنة ١٢٩٤ الموافق ٢١ مايو سنة ١٨٧٧ احداهما بوجوب القتال على
كل مسلم والثانية باضافة لفظة (غازى) على اسم جلالة السلطان فى الاوامر وعلى المنابر
بناء على ماجاء فى الحديث الشريف (من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا)
أما دول أوروبا فاظهروا جميعاً عدم المساعدة للدولة ولو أدبياً وقلبوا لها ظهر المجن بعد
ما أوصلوا المسئلة الى الحرب بتداخلهم الغير شرعى واقتراحهم على الباب العالى مالا يمكنه
قبوله وان قال معترض مخاتل أن انكلترا اعترضت على هذه الحرب بجواب أرسله اللورد
دربى الى اللورد اوغسطوس ليفتوس سفير انكلترا فى عاصمة الروسيا بتاريخ أول مايو سنة
١٨٧٧ فنقول ان ذلك لم يكن حبا للدفاع عن الدولة العلية فانها لم تحرّك مركبا ولا جنديا
لمؤازرتها انما كان احتجاجها خوفا على مصالحها التجارية وعلى حرية الملاحة فى بوغاز
السويس من أن تعبث بها أيدى الروسيا بحجة أن مصر جزء من الدولة العلية وعساكرها
متحدة مع جيوش الدولة فى محاربتها لكنها كفت عن المعارضة والتزمت الحيادة كباقى
الدول بمجرد ما أجابها البرنس غورشاكوف بتاريخ ٧ مايو أن الروسيا ليس من قصدها
أن تحصر خليج السويس ولا أن تتعرض لمنع سير السفن فيه فانها تعتبره بمنزلة مصلحة
عمومية تشترك فيها تجارة جميع الأمم فيجب أن يبقى دائما سالما من التعرض أما مصر
فانها جزء من الممالك العثمانية وعساكرها مختلطة بالعساكر التركية ومن ثم يسوغ للروسيا
ان تعتبرها محاربة لها ومع ذلك فان الروسيا لا تتخذها هدفا لأعمالها الحربية لما فيها
لاوروبا عموما وانكلترا خصوصا من المصالح

ان ما حصل بين الجيوش العثمانية وعساكر الروسيا من الوقائع الحربية لم يزل مسطوراً فى ذهن القرّاء لقرب عهده فان جميعنا يعلم ما أتاه الغازى عثمان باشا عند ماحصرته جنود الروسيا فى مدينة ( بلفنه ) من الاعمال التى شهد له بها العدوّ قبل الصديق وما أتاه الغازى أحمد مختار باشا فى جهات قارص وأرضروم ولذلك كان يمكننا أن نضرب صفحا عن تفصيل هذه الوقائع بدون اخلال بموضوع هذا الكتاب لكن آثرنا تتميما للفائدة أن نأتى على تلخيصها بغاية الايجاز فنقول

انه قبل اعلان الحرب رسمياً باربع وعشرين ساعة اجتازت عساكر الروسيا خلافا لاصول الحرب تخوم رومانيا قاصدة بلاد الدولة العلية التى يفصلها عن رومانيا نهر الدانوب فاحتجت الدولة ضدّ تحالف رومانيا مع الروسيا مع انها لم تزل صاحبة السيادة عليها ولكن أين المجيب والكل يد واحدة ولما لم تجد الدولة من أوروبا أذنا مصغية أرادت معاقبة رومانيا على هذه الخيانة فأرسلت بعض سفنها الحربية فى الطونه لاطلاق قنابلها على سواحلها فكان هذا الجزاء حاملا لها على التظاهر بالعدوان والمناداة بالاستقلال فى ١٤ مايو سنة ١٨٧٧ والاشتراك فعلا مع الروسيا فى الحرب وانضمام جيشها البالغ ستين ألف جندى تقريباً الى الجيش الروسى

هذا ومن تأمل فى خريطة الدولة العلية يرى أنه يفصلها عن الروسيا ورومانيا حاجزان طبيعيان أهمّ من الحواجز والمعاقل الصناعية وهما نهر الدانوب وجبال البلقان فلو اجتيز الاوّل أمكن جيوش الدولة التحصن فى الثانى ولذلك كانت الحرب أوّلا على شاطىء الدانوب وبعد عدّة وقائع حربية ومناورات عسكرية اجتاز الجنرال (زمرمان) الطونه فى ٢٢ يونيه

وفى ٢٧ منه عبر الجيش الروسى بأجمعه النهر وقصد مدينة ( ترنوه ) فاحتلها

وفى أواسط يوليو احتل البارون ( دى كرودر ) مدينة نيكوبلى واحتل الجنرال (جوركو) مضايق البلقان الموصلة لمضيق شيبكا الشهير وعند وصول هذه الاخبار الى الاستانة استولى الرعب والقلق على سكانها اذ لو اجتاز الروس مضيق شيبكا لخيف على دار السعادة نفسها من الوقوع فى قبضة العدوّ لاقدّر الله ولولا وضع الاستانة فى ١١ جمادى الاولى سنة ١٢٩٤ الموافق ٢٤ مايو سنة ١٨٧٧ تحت الاحكام العرفية وتوقيف سير القوانين النظامية لحصل بها من الفتن والقلاقل ما يكون عونا ومعينا للعدوّ على التقدم للامام لكن انتباه القوة الضابطة منع كل أمر مخل بالراحة وقد نسب هذا التقهقر المستمر أمام جيوش الروسيا الى عدم كفاءة السردار الاكرم عبد الكريم باشا وناظر الحربية رديف باشا فعزلا فى ٢٢ يوليه وتعين محمد على باشا (١) قائداً عاماً للجيوش العثمانية

(١) هو روسي الاصل ومسيحي الدين ثم اعتنق الدين الاسلامي وفي سنة ١٢٦١ دخل في سلك العسكرية وفي سنة ١٢٨٧ وصل الي رتبة فريق ولما ابتدأت الحرب الروسية أحسن اليه برتبة المشيرية وأرسل الي جهات الروملي

واستدعى سليمان باشا الذى كان يحارب سكان الجبل الاسود وانتصر عليهم فى عدة مواقع لحضوره مع جيوشه المدربة للمساعدة على صد الروس وعين محمود باشا دامادصهر الحضرة السلطانية ناظراً للحربية مؤقتا ثم أحيل عبد الكريم باشا ورديف باشاوغيرهم من الضباط العظام الذين نسب اليهم اهمال أو تقصير وغير ذلك مما سهل على الروس اجتياز الدانوب فجبال البلقان وحكم على أغلبهم بالنفى الى جهات مختلفة

وفى أثناء ذلك أتى الغازى عثمان باشا من معسكره بمدينة ( ودين ) لمساعدة مدينة نيكوبلى ولما وصله خبر سقوطها فى أيدى الروس قصد مدينة ( بلفنه ) لاهمية موقعها الحربى ووجودها على ملتقى الطرق العمومية الموصلة بين مضايق جبال البلقان و بلغاريا الغربية وإطرنه وأقام حولها المعاقل والحصون المنيعة التى جعلت الاستيلاء عليها من رابع المستحيلات لكن لاستخفاف الروس بهذه الاستحكامات هاجموها فى ٢٠ يوليه فارتدوا على أعقابهم خاسرين ثم أعادوا الكرة عليها فى ٣٠ منه بقوة عظيمة مؤلفة من ثلاثين أورطة من المشاة وقدرها من الخيالة ومائة وستة وثمانين مدفعاً فعادوا بخفى حنين بعد ان خضبوا الارض بدمائهم وأفعموا الوديان بجثثهم وحينما وصل خبر هذا الفوز المبين تلغرافياً الى مسامع السلطان الشريفة أصدر فى الحال فرمانا عالياً باظهار الممنونية له ولجميع الجيوش المؤتمرة به تاريخه ٢٠ رجب سنة ١٢٩٤ الموافق أول أغسطس سنة ١٨٧٧ وهاك ترجمته

مشيرى سمير الصداقة عثمان باشا

لقد أعليت الشأن العثمانى وصيت عساكرنا وناموسهم بغزوك الجديد المضاف الى خدماتك السالفة الموسومة بشعار البسالة فالحق تعالى ومفخر الانبياء يعضدانك فى الدارين وسلم على كافة الامراء والقواد وعلى جنودى المنصورة بالافراد أولئك الجنود قرة باصرة افتخارى والمقدمون على أولادى فلاجرم أنهم بغزواتهم الغضنفرية يستفزون سلطانهم للسرور والممنونية والله المسئول أن ينيلهم النجاح والسعادة الابدية ويوفقهم فى سبيل المحافظة على اللواء العثمانى لمثل هذه الغزوات ويوصلهم صور ياومعنو بالمراتب المكافآت العاليات وقد منحتكم النيشان العثمانى مكافأة لخدمتكم وأمرت بتوجيه الرتب واجراء التلطيفات للامراء والضباط كما عرضتم وأنتم مأذونون بأن تعدوافيما بعد الامراء والقواد وتبشروهم فوراً بالمكافآت التى يستحقونها متى امتازوا بأثر فداء خارق للعادة وأن تعرضوا ذلك لدار السعادة على أنه تقرر لدى أن يرسل لطرف حميتكم مأمور مخصوص ليبين لكم جميعاً ممنونيتى وتشكرى اه

واقعة بلفنه

وبعد تقهقر الروس أمام بلفنه ووصول المدد من جميع الجهات أمكن العثمانيين الهجوم بعد الاقتصار على الدفاع وانقسم الجيش الى ثلاث فرق الاولى انضمت الى عثمان باشا فى بلفنه

للدفاع عنها والثانية تحت امرة محمد على باشا السردار الاكرم جعلت وجهتها محاربة الجيش العائد له البرنس اسكندر ولى عهد القيصر والثالثة تحت امرة سليمان باشا الذى اشتهر أولا فى محاربة ثائرى البوسنه والهرسك وأخيراً فى محاربة الجبل الاسود ووجه اهتمامه لاسترداد مضايق شيبكا من أيدى الروس وكادت الفرقتان الاخيرتان تتم مامور يتهما فتتحد الجيوش العثمانيـة وتسير معاً لارجاع الروس الى التخوم وقهرهم على اجتياز نهر الطونه خائبين لولا خيانة شارل دى هوهنزولرن أمير رومانيا ومجيئـه الى ميدان القتال بنحو مائة ألف مقاتل ملئت قلوبها غلا للدولة العلية صاحبة السيادة ومجىء قيصر الروس بنفسه لتشجيع العساكر على الحرب و بث روح الثبات والاقدام فيهم فانقلبت الحال ولم تجد العثمانيون انتصاراتهم المتعددة على الروس حوالى بلفنه وأمام مضيق شيبكا لتوارد المدد يوميا من الروسيا ثم صمم الروس على محاصرة بلفنه محاصرة أصولية لتيقنهـم من استحالة أخذها هجوما نظراً لمناعة المعاقل والحصون التى أقامها عثمان باشا حولها واناطوا هذه المامورية بالجنرال ( تودلبن ) الذى اشتهر بالدفاع عن مدينة سباستوبول فى الحرب السابقة فجمعوا حولها العدد الكافى من العساكر والمدافع لاتمام حصارها والاحاطة بها احاطة السوار بالمعصم و بعد عدّة وقائع تم حصارها فى ٢٤ اكتوبر سنة ١٨٧٧ وصار وصول المدد اليها مستحيلا وابتدأت الاعمال للاستيلاء على الحصون الامامية واستمر القتال حولها ولا شىء يثنى عثمان باشا وجيوشه عن الدفاع حتى نفد ما كان عنده من الذخائر والمؤن فعزم على الخروج بجيوشه والمرور من وسط الاعداء فيسلموا و يسلم معهم أو يموتوا شهداء الدفاع عن بيضة الاسلام ولما عقد النية على هذا العزم استعد لانفاذه حتى اذا كان يوم ١٠ دسمبر سنة ١٨٧٧ أخلت العساكر العثمانية جميع القلاع المحيطة بالمدينـة وخرجوا جميعا من جهة واحدة مهللين ومكبرين فقابلهم العدو بقذوفاته الجهنمية أما الليوث العثمانية فلم تعبأ بهم بل استمرت فى سيرها عدواً نحو الاستحكامات التى كان أقامها الروس حول المدينة على ثلاثة خطوط متعاقبة ونفذوا كالسيل المنهمر من أعالى الجبال الذى لا يعوقه شىء فى اندفاعه على مدافع الخط الاوّل والثانى وكادت تستولى على الخط الثالث وتخلص من هذا الحصار وتفوز بالنصر المبين لولا ان أصيب قائدهم عثمان باشا الغازى برصاصة نفذت من ساقه الايسر وقتلت حصانه فسقط هذا الشجاع على الارض وظنت عساكره انه استشهد و بمجرد ما شاع خبر موته الغير حقيقى استولى الفشل على جميع الجنود وأرادت الرجوع الى المدينة وحيث كان قد احتلها الروس عقب خروجهم منها قابلهم العدوّ بالنيران من الخلف فصار العثمانيون بين نارين و بعد ان دافعوا عن أنفسهم دفاعا شهد الاعداء بانه من خوارق الامور التزموا برفع الراية البيضاء علامة على التسلم فاوقف الروس اطلاق النيران وتقدم اللوا توفيق باشا رئيس أركان حرب الجيش العثمانى القائد له عثمان باشا وطلب مقابلة القائد العام الروسى ولما قابله ساله عما اذا كان معه اذن بالكتابة من عثمان باشا

يجيزله الاتفاق على التسليم فاجابه ان عثمان باشا جريح ويود لو أتى اليه أحد قوّاد الروس للاتفاق معه فقبل القائد (جانتسكى) ذلك وأرسل الجنرال (استروكوف) فتوجه هذا الجنرال الى عثمان باشا فى البيت الذى كان دخل فيه للاستراحة وقال له بعد التحية ان القائد الذى أرسله لا يمكنه أن يمنحه أىّ شرط ولا ان يقبل التسليم الا اذا ألقى العثمانيون أسلحتهم لعدم وجود أوامر عنده من القائد العام الغراندوك نيقولا أخى القيصر ولما أجابه عثمان باشا بالايجاب عاد الجنرال استروكوف الى مرسله وأخبره بذلك فاتى الى مقر عثمان باشا وبعد ان هنأه على ما أتاه من الاعمال التى تشهد له بعلوّ المكانة وتخلد له اسما فى التاريخ طلب اصدار أوامره الى جيوشه بالقاء السلاح فامر بذلك ثم سلم سيفه

وبعد ذلك أتى اليه بعربة فركبها قاصداً مدينة بلفنه وفى اثناء سيره قابله الغراندوك نيقولا ومعه البرنس شارل أمير رومانيا فاوقف العربة وسلما عليه مصافحة وفى صبيحة اليوم الثانى توجه عثمان باشا الغازى متكئا على طبيبه الخاص الى المحل الذى نزل به القيصر اسكندر الثانى بعد دخوله مدينة بلفنه لمقابلته وعندما دخل على الامبراطور قام اجلالا له وسلم عليه واظهر له اعجابه من دفاعه ومحاولته الخروج من بين صفوف المدافع المحيطة به ثم قال له انى اردّ اليك سيفك علامة على احترامى لك واكبارى لشجاعتك وأجيز لك أن تحمله فى بلادى وعند انصرافه سلم اليه الجنرال ماجوراستين سيفه ثم عاد الى منزله وفى ١٦ دسمبر أنزل فى قطار مخصوص الى مدينة كركوف حيث أمر بالاقامة الى انتهاء الحرب ولنذكر هنا اظهاراً لفضل عثمان باشا وجيوشه ان عدد من كان معه لا يزيد عن خمسين ألفاً ولم يكن معهم من المدافع سوى ٧٧ مدفعا مع ان الجيش الروسى الذى خصص لحصار بلفنه بلغ ١٥٠٠٠٠ جندى و ٦٠٠ مدفعا ومن ذلك يظهر للقارىء شجاعة العثمانيين وثباتهم أمام العدو ومما يؤثر عنهم ايضاً انهم لم يسلموا اعلامهم مطلقاً بل حرقوا بعضها ووضعوا البعض الآخر فى صناديق من حديد ودفنوها فى باطن الأرض ومن قارن هذه الحادثة بحادثة مدينة (متس) التى سلمها المارشال الفرنساوى بازين (١) للعدو مع ان جيوشه ومدافعه كانت تعادل أو تزيد عن جيوش ومدافع العدو وسلمها مع ما فيها من الجيوش والمدافع بدون أن يسعى فى الخروج كما فعل عثمان باشا تحقق له انه لولا محاربة الدولة العلية البوسنه والهرسك والبلغار ثم الجبل الاسود والصرب قبل محاربتها الروسيا لفازت بلا شك ولا مرية فى هذه

---

(١) مارشال فرنساوى ولد سنة ١٨١١ ولما بلغ العشرين من عمره دخل العسكرية بدرجة عسكري وسافر الي بلاد الجزائر فترقي فيها تدريجا حتى وصل الي رتبة لواء سنة ١٨٥٤ وأعطيت اليه رتبة فريق فى حرب القرم ثم رتبة مشير (مارشال) في محاربة المكسيك وفي حرب سنة ١٨٧٠ جعل قائداً عاما للجيش المحافظ علي مدينة متس وضواحيها فسلم جيوشه ومهماته للبروسيا في ٢٨ اكتوبر سنة ١٨٧٠ ثم حوكم أمام مجلس عسكرى في سنة ١٨٧٣ وحكم عليه بالاعدام بعد التجريد من جميع رتبه ونياشينه وعفت عنه الحكومة مستبدلة الاعدام بالسجن المؤبد فجرد وسجن ثم هرب وأقام بمدينة مدريد (المسماة في كتب العرب بمجريط) حتي توفي سنة ١٨٨٨

الحرب الاخيرة ولكن النصر بيد الله يؤتيه من يشاء

الاعمال الحربية في الاناطول

أما فى جهة آسيا فكان النصر أوّلا فى جانب العثمانيين حتى ردّوا اغارة الروس عن بلادهم وتبعوهم الى داخل بلاد الروسيا وذلك ان الجنرال ( لوريس مليكوف ) حاصر مدينة قارص والجنرال ( درهوجاسوف ) وجه اهتمامه لفتح مدينة بايزيد بينما كان باقى الجيش الروسى يجرى عدة مناورات عسكرية لاسقاط مدينتى اردهان وباطوم ثم قام الجنرال لوريس مليكوف ببعض جيوشه لمساعدة الجنرال دوفيل على أخذاردهان

وفى ١٧ مايوفتحاها عنوة وعادا لتشديد الحصار على قلعة قارص وقد احتل الجنرال درهوجاسوف مدينة بايزيد فى ٢٠ مايو وانتصر على العثمانيين فى ١٠ يونيه وفى ٢١ منه وفى أثناء ذلك تمكن أحمد مختار باشا من ترتيب الجيوش التى أتت اليه من كل فج وأغلبها غير منتظم واحتل مرتفعات ( زوين ) وتسمى بالتركية ( كروم دوزى ) بقوّة عظيمة وأرسل اسمعيل حقى باشا مع جيش الاكراد لمهاجمة الجنرال درهوجاسوف فاراد الجنرال لوريس مليكوف اسعافه فانتصر عليه مختار باشا انتصاراً عظيما فى ٢٥ أغسطس سنة ١٨٧٧ لم يسع الروس بعده الاالتقهقر بغاية الفشل ورفع الحصار عن مدينة قارص قاصدين مدينة الكسندروبول الروسية وتقهقر كذلك الجنرال درهوجاسوف الى تخوم الروسيا يتبعه اسمعيل حقى باشا بقوّة عظيمة

وبعد ذلك انتصر العثمانيون على الروس فى ستة وقائع مشهورة منها واقعة كدكلر التى لما بلغ السلطان خبرها أرسل الى احمد مختار باشا فرمانا باظهار ممنونيته تاريخه ١٨ شعبان سنة ١٢٩٤ وهاك ترجمته

مشيرى سمير الحمية أحمد مختار باشا

لقد زينتم مهمّ صحائف تاريخنا العسكرى بغالبيتكم التى أحرزتموها فى محاربة كدكلر أما جنودنا الذين مابرحوا نصب أعيننا فقد أثبتوا على الوجه الاتم فى هذه الحرب التى أظهروا بها الثبات والاقدام فى صورة خارقة للعادة امتلاكهم للخصلة العثمانية على أن مقابلاتهم فى جميع الوجوه للتدابير الماهرة التى أجراها العدوّ فى ميدان الحرب بحيث أسفرت نتيجتها عن اكتسابهم حربا ذات شأن وظفر كانت برهانا جليا على كمال انتظامهم العسكرى فأضحت لدينا هذه المظفريات باعثة لكمال التقدير والتحسين فأتشكر أنا وهيئة الدولة والملة معأمنكم جميعاً وقد أمرت بترفيع رتب الامراء الذين شهدتم باستحقاقهم حسبما أنهيتم وسأتوفق ان شاء الله لان أعلق بيدى نياشين الظفر فى صدور سائر أفراد الامراء والضباط وقصارى المسئول من جناب الناصر الحقيقى حضرة العادل المطلق الشاهد على صدق دعوانا الحقة فى هذه الحرب الحاضرة أن يتعاهد بعد الآن أيضاً بعناية وبمدد روحانية سيدنا الرسول الأمين الذى هو العروة الوثقى فى الحاجات عسكرنا بالنصر المبين فى حروبهم وغزواتهم وأن يجعلهم مسرورين بحماية العلم الاسلامى هذا وأسلم على رفقائكم فى السلاح فرداً فرداً

والحق تعالى لا يعزب عنكم نصرته البالغة الصمدانية اهـ

وبسبب ما ذكر اضطرب الغراندوك ميخائيل حكمدار عموم بلاد القوقاز وأرسل يطلب المدد والذخائر وظلت الجيوش الروسية تدافع حتى أتت اليها عدّة لواآت من المشاة وعدد عظيم من المدافع

سقوط قارص

وفى أواخر شهر سبتمبر سنة ١٨٧٧ اتخذ الجنرال لوريس مليكوف خطة الهجوم ثانياً ولعدم ارسال جيوش جديدة الى مختار باشا واستشهاد عدد كثير من جنوده فى هذه الوقائع المستمرّة لم يمكنه مقاومة الجيوش الروسية الجديدة التى لم يضنها التعب بل رجع القهقرى قاصداً مدينة أرضروم فتبعه القائد الروسى وهزمه فى موقع يقال له (الاجه طاغ) ثم حاصر مدينة قارص ثانياً وفتحها عنوة فى ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٧ بعد ان حاول من بها الخروج من وسط المدافع الروسية وغنم منها ثلاثمائة مدفع تقريباً

أما مختار باشا فبعد ان حاول مساعدة قارص وانتصر عليه الاعداء فى موقعة (دوميون) فى ٤ نوفمبر عاد الى أرضروم حيث حصره العدوّ ومنع وصول المدد اليه

وبمجرد وصول خبر سقوط قارص فى نوفمبر و بلفنه فى ١٠ دسمبر أيقن الصربيون أن الفوز والنجاح سيكونان فى جانب الروسيا ولم يتأخروا فى اعلان الحرب على الدولة صاحبة السيادة عليهم التى لم ترتكب نحوهم اثما الا احترام دينهم ولغتهم وأوصل هذا الاعلان الى الباب العالى المسيو كريستين سفير الصرب فى الاستانة فى ١٤ دسمبر سنة ١٨٧٧ أعنى بعد سقوط بلفنه باربعة أيام وسارت عساكرهم على الفور للانضمام الى جيوش الروسيا التى بعثتهم الى هذه الحرب اذ أن البرنس ميلان لم يعلنها الا بعد أن تقابل مع امبراطور الروسيا واتفق معه على ما يعطى له بعد الحرب جزاء خيانته

وقابل الباب العالى هذا العدوّ الجديد مقابلة عدوّ منتظر من يوم لآخر

وفى ٢٠ دسمبر سنة ١٨٧٧ أرسل الباب العالى لاهالى الصرب منشوراً يظهر لهم فيه غدر حكومتهم وخياناتها وانها تسوقهم الى الدمار والبوار بدون سبب مطلقاً ويخبرهم بان جلالة السلطان متبوعه الاعظم قد أمر بعزله من منصب الامارة جزاء عدم محافظته على العهود بعد ان عفت عنه الدولة أكثر من مرة فلم يعبأ البرنس بهذا العزل بل استمر على محاربة متبوعه الى أن انتهت الحرب وثبت فى وظيفته وزيدت امتيازاته بمساعدة الدول ومنح لقب ملك كما سترى ومن جهة أخرى فان امارة الجبل الاسود لم تتفق مع الباب العالى على الصلح قبل اعلان الروسيا الحرب كما ذكرنا ولذلك اشترك جيشها فى القتال بكيفية كانت نتيجتها تعطيل جزء ليس بقليل من عساكر الدولة فى محاربته وعدم امكان هذا الجزء محاربة الروسيا فى جهات البلقان ومن ذلك يتضح للمطالع ما كان بين الجيشين المتحاربين من التفاوت هذا تساعده رومانيا والصرب والجبل الاسود جهاراً وجميع المسيحيين التابعين للدولة العلية باوروبا سراً والدول تتمنى له النجاح والفلاح وذلك بمفرده لا مساعد

ولا صديق وجيوشه أضناها التعب والنصب فى محاربة الامارات والولايات المسيحية التى ثارت قبل الحرب اطاعة للدسائس الخارجية ومع هذه المميزات فقد فازت الجيوش العثمانية أكثر من مرة ودافعت دفاعا اضطر العدو قبل الصديق الى الاقرار بشجاعتها والاعتراف بثباتها وفى واقعة بلفنه وغيرها مما يعد منها ولا تعد ما يكفى لقطع لسان كل مكابر خوّان

ولما توالت الحوادث المذكورة طلب الباب العالى من الدول التوسط بينه وبين الروسيا لابرام الصلح وحقن دماء العباد وأرسل بذلك منشوراً الى الدول الست العظام فلم يرد له جواب شاف بل كانت كل منها تودّ انكسار الدولة تماماً قبل التداخل فى الصلح حتى يمكنها التهام قطعة من أملاكها نظير توسطها

وبعد ذلك استمر القتال فى قلب الشتاء بدون انقطاع رغماً عن تكاثر الثلج وصعوبة مرور المدافع وبسبب سقوط مدينة بلفنه وخلوّ الجيوش الروسية التى كانت محاصرة لها من الاشغال وجهت الروسيا جميع جيوشها الى ماوراء جبال البلقان للاغارة على بلاد البلغار والروملى الشرقية واحتلال مدائنها الحصينة بمساعدة الجيش الصربى فاجتاز الجنرال (جوركو) جبال البلقان ودخل مدينة صوفيا عاصمة البلقان فى ٤ يناير سنة ١٨٧٨ ثم احتل مدينة فليبه فى مساء ١٥ من هذا الشهر وأخيراً دخلت مقدمة فرقة الجنرال سكوبلف (١) مدينة ادرنه فى ٢٠ منه ومنها سار الروس نحو الاستانة وتقدموا بدون أن يجدوا معارضة تذكر الى مسافة خمسين كيلو متر فقط من عاصمة الخلافة العظمى

وفى هذه الاثناء كان أهالى الجبل الاسود قد احتلوا مدينة انتيبارى ووصلوا الى ضواحى اشقودره ودخل الصربيون مدينة نيش ولذلك لم تر الدولة العلية بدأ من طلب الصلح وقبول ما يطلبه العدو لعدم قدرتها على استمرار القتال وتبديد جيوشها ووصول العدوّ الى ضواحى الاستانة

وحيث قد انتهينا من ذكر الوقائع الحربية بغاية الايجاز فلنشرح الآن ما جرى بين الطرفين المتحاربين والدول من المخابرات السياسية تاركين شرح تفصيلات هذه الحرب بحذافيرها الى حضرات الضباط المصريين الافاضل الذين رافقوا المرحوم حسن باشا وحضروا أغلب وقائعها وعلموا أسباب انتصار الروس العسكرية وغيرها واننا نرجو أنهم لا يعدموننا ذلك وكلهم من الفضلاء النبلاء الذين يمكنهم بيان مالا يمكننا ذكره لعدم خبرتنا فى الامور العسكرية ويكونون بذلك قد قاموا بخدمة عظيمة نحو الملة الاسلامية عموماً

أما ماتحمله المسلمون من أنواع الايذاء والتعدّى من قبل البلغار بين بمجرد سماعهم باقتراب الجيوش الروسية فمما يعجز القلم عن وصفه ولذا هاجر أغلب المسلمين الى الاستانة هرباً مما

---

(١) قائد روسي ولد سنة ١٧٤٣ واشتهر في محاربة وفتح عدة أقاليم بأواسط آسيا وفي سنة ١٨٧٣ احتل مدينة خيوه عنوة وامتاز في هذه الحرب الروسية الاخيرة وبعد انقضائها عاد الي بلاد تركستان وحارب بعض قبائلها وتوفي بغتة في مدينة موسكو سنة ١٨٨٢ غير بالغ الاربعين من عمره

كانوا ينتظرونه ووقع فيه فريق منهم من النهب والقتل وتركوا أملاكهم وأمتعتهم قاصدين ملجأ الخلافة الاسلامية أفواجا حتى غصت شوارع الاستانة بهم وأعيت الحكومة الحيلة فى تقديم ما يلزم لها من الملبس والمأكل والوقود فى هذا الشتاء القارص ولذلك تشكلت عدّة جمعيات لمساعدتهم فجمعت أموالا طائلة من جميع الاهالى مع اختلاف أديانهم ومذاهبهم ولم يلبس هؤلاء المساكين ان أصيبوا بداء التيفوس فمات كثير منهم ولولا اسراع الدولة فى ابرام الصلح وتوزيعهم على ولايات الاناطول لهلكوا عن آخرهم اذا أنهم كانوا يؤثرون الموت على العودة الى بلادهم التى احتلها الروس وسادفها المسيحيون وكان ذلك منتهى أمل الروسيا التى كانت تودّ مهاجرة المسلمين عن جميع الولايات المصممة على منحها الاستقلال

المخابرات الابتدائية والهدنة

هذا أما ماحصل فى بلاد مقدونية وتساليا وغيرها وفى جزيرة كريد من الفتن بدسائس مملكة اليونان فلا يعتد به لقلة أهميته ووعد قناصل الدول الثائرين بالنظر فى طلباتهم عند اتمام الصلح مع الروسيا

وفى أوائل شهر ينايرسنة ١٨٧٨ عين الباب العالى كلا من نامق باشا وسرور باشا مرخصين من طرفه لمخابرة الغراندوق نيقولا فى أمر توقيف القتال وأرفقهما بمامورين عسكريين وهما نجيب باشا وعثمان باشا ( خلاف بطل بلفنه ) لما يختص بالامور العسكرية

وفى ١٤ ينايرسافر هؤلاء المندوبون الى قزانلق لمقابلة البرنس الروسى فوصلوا اليها فى ١٩ منه لتعطيل السكك الحديدية وبعد ان عرضوا ملخص ماموريتهم أجابهم أنه سيطلب الاستعلامات اللازمة من جلالة القيصر ويعطيهم الجواب النهائى فى مدينة أدرنه التى دخلها الروس فى ٢٠ منه كما ذكرنا ولما وصلوا اليها فى معية البرنس ابتدأت المخابرات وفى ٢٠ منه صار التوقيع على اتفاقين أحدهما بين الغراندوق نيقولا وسرور باشا ونامق باشا مفاده منح الاستقلال الادارى للبلغار والاستقلال السياسى للمملكتين (رومانيا) وللجبل الاسود مع تعديل فى حدودهم واعطائهم بعض أراض من أملاك الدولة وتقرير غرامة حربية للروسيا تدفع نقداً أو يستعاض عنها ببعض القلاع والحصون والآخر بين نجيب باشا وعثمان باشا ومندوبين عسكريين من قبل الغراندوق يختص ببيان شروط المهادنة

وأوقفت الحركات العدوانية من الساعة السابعة من يوم ٣١ يناير سنة ١٨٧٨ ثم أعلن الباب العالى فى ٥ فبراير برفع الحصار عن سواحل الروسيا الواقعة على البحر الاسود ثم عاد الغراندوق نيقولا الى سان بطرسبورج عاصمة الروسيا حيث قوبل بكل احترام واجلال

ولما علمت الدولة بالهدنة والاتفاق على مبادىء الصلح طلبت النمسا من انكلترا عقد مؤتمر من مندوبى الدول الموقعة على معاهدة باريس المبرمة فى سنة ١٨٥٦ ينظر فى شروط

الصلح خوفا من أن يكون بها ما يجحف بحقوق الدول الاخرى فقبلت انكلترا هذا الطلب واقترحت ان يكون اجتماع هذا المؤتمر فى مدينة باد (١) ثم توقفت هذه المخابرات بسبب محاولة الروسيا ورغبتها فى انهاء الصلح بدون توسط باقى الدول فانها لم تبلغ صورة هذه الاتفاقيات الى الدولة العلية ولا باقى الدول الا بعد امضائها بثمانية أيام ولم تنشر فى الجريدة الرسمية الروسية الا فى ١٥ فبراير سنة ١٨٧٨

وفى هذه الفترة اضطربت الافكار فى أوروبا وأشيع أن العساكر الروسية قد احتلت الاستانة ومع تكذيب هذه الاشاعة رسميا فقد أمرت انكلترا دونانمتها الراسية فى خليج (بزيكا) بالتوجه الى الاستانة لحماية رعاياها وفى الحقيقة لمراقبة حركات الروسيا ومنعها بالقوّة لو أرادت احتلال الاستانة

ولما كان الباب العالى قد أباح للدونانمة الانكليزية المرور من بوغاز الدردنيل أثناء مخابرات أدرنه أراد الاميرال الانكليزى المرور بمقتضى التصريح القديم فمنعه حكمدار القلعة (سلطانيه)

ولذا أرسل الاميرال الى نظارة البحرية يخبرها بذلك فامرته بالمرور بالقوّة وكتب وزير الخارجية الى الباب العالى يعلمه بعزمها خوفا من الطولة وضياع الوقت فى المخابرات للحصول على هذا الجواز فجمع وزير الخارجية سرور باشا الذى اخلف صفوت باشا الوزراء الحاليين والاقدمين وبعد مباحثة طويلة اكتفى الباب العالى باقامة الحجة ضدّ انكلترا ودخلت المراكب الانكليزية أمام الاستانة فى مياه البوسفور.

ولنذكر قبل شرح المخابرات السياسية التى كانت نتيجتها ابرام معاهدة سان استفانوس ثم تعديلها بمقتضى معاهدة برلين بعض ماحصل فى الاستانة من الامور الخطيرة فنقول ان مجلسى المبعوثان والاعيان دعيا للاجتماع للنظر فى شؤون الدولة فاجتمعا معا بهيئة برلمنت فى ٧ ذى الحجة سنة ١٢٩٤ وألقى عليهما خطاب عن لسان جلالة مولانا السلطان الاعظم شارح حالة الدولة وما وصلت اليه من العسر بسبب الحرب القائمة بينها وبين الروسيا واليك ترجمته نقلا عن مجموعة الجوائب

يا أيها الاعيان والمبعوثان

انى أكتسب الممنونية بفتح المجلس العمومى وبمشاهدة مبعوثى الملة وكما هو معلوم لديكم أنه لما أعلنت دولة الروسيا الحرب على دولتنا فى العام الماضى اضطررنا للمقابلة والمدافعة وما زالت الحرب قائمة على ان الوقوعات العظيمة الغير مسبوقة قد أثقلت جداً مشكلات الحرب لان الاختلال الذى شب فى هرسك منذ عامين ونصف قد ظهر أيضاً فى غيرها من بعض المواقع وقسم من أهاليها المتمتعين بالمساعدات المخصوصة كالتساوى فى الحقوق

(١) مدينة جميلة بامارة باد وتسمى بادن أو بادن بادن بالتكرار وبها حمامات معدنية حارة يقصدها كثير من الناس للاستحمام بها ولا يزيد عدد سكانها الاصليين عن ثلاث عشر ألف نسمة

الشاملة كامل تبعتنا والمحافظة على ملتهم ولغتهم على الوجه الاتم سلكوا كيفما كان الحال طريقا غير مشروعة فاضرّوا أنفسهم والوطن واخوتهم الوطنيين وأهالى المملكتين كذلك أعلنوا الخصومة لدولتنا بدون سبب مشروع حالة كونهم فى غبطة ببقاء استقلالية ادارتهم الداخلية ومع هذا جميعه فالبلاد غير متاخرة عن صرف أسباب المقاومة التى اضطرّت اليها على حسب مقدرتها وكما ان العثمانيين كافة أثبتوا بواسطة آثار الحمية التى أظهروها فى هذه الحرب امتلاكهم الاحساسات الوطنية فى صورة خارقة للعادة كذلك أضحى ثبات عساكرنا و بسالتهم مستوجبين تحسين العموم وتقديرهم ولم أزل أطلب معاونة تبعتنا وحميتهم لاجل المحافظة على حقنا المشروع

على ان حصول استعداد الوصول لاكمال ترتيبات العساكر الملكية وابراز العثمانيين غير المسلمين الشوق القلبى والاشتراك الفعلى فى المحافظة على الوطن هو معدود من وقوعات دولتنا السارّة و بما أن المساعدات التى نالتها التبعة غير المسلمة قد تقوت بكليتها بالقانون الاساسى وأضحت متساوية أمام القانون وفى حقوق البلاد ووظائفها فاشتراكها اذاً فى الخدمة العسكرية التى هى أعظم الوظائف والمدخل الموصل الى حق المساواة صار أمراً طبيعيا فاذا كانت آثار معرفة الوظيفة المبرزة فى هذا المطلب حرية بالتحسين وأضحى ادخال الاهالى غير المسلمة كذلك فى سائر الصنوف العسكرية أمراً مقرراً و بما أن اجراء فعل القانون الاساسى ونفوذه على الوجه الاتم انما هو الواسطة الوحيدة لسلامة دولتنا كانت أكبر آمالى معطوفة أوّلا لاستفادة صنوف تبعتنا بالتمام من سعادة المساواة الكاملة ومن ترقيات بلادنا المدنية والعصرية ثانياً للاصلاحات المالية ولا سيما لايفاء تعهداتنا ولتقسيم كل نوع من أنواع التكاليف والمال الاميرى (ويركو) وتحصيله فى صورة موافقة لقواعد الثروة منزهة عن اضرار الاهالى ثم لتوفيق بعض مسائل الحقوق الأساسية لاحتياجات العصر لتمهد جريان العدل الكامل فى المحاكم ولاصلاح الاوقاف ولتسهيل مطلب التصرف فى الاراضى ولترتيب النواحى الذى هو أساس الادارة الملكية وتقرير وظائفها ولتكميل تنظيمات الضابطة لكن واأسفا ان الحرب الحاضرة قد عوقت اتمام مفاعيل مقاصدنا هذه الخالصة على ان مصائب هذه الحرب قد تجاوزت حدودها الطبيعية فكم من الاهالى غير المدافعين الذين بمقتضى القانون الحربى ليسوا بمسؤلين عن شىء وكم من النساء والصبيان أمسوا عرضة للمظالم الغادرة والدموية التى لا تحمل سماعها المرحمة البشرية فاؤمل والحالة ما ذكر ان الزمان المستقبل لا يمانع رؤية الحقانية

أما قوانين اللوائح المتعلقة بترتيبات الدوائر البلدية ووظائفها فى دار السعادة والولايات تلك التى تحوّلت فى العام الماضى الى مجلسكم فقد تقرر أمرها وصادق مجلس الاعيان والمبعوثان على نظاماتها الداخلية ووضعت فى موقع الاجراء وقد يوجد فيما بين لوائح القوانين التى هيأتها شورى الدولة لوائح مهمة متعلقة بقوانين أصول حقوق المحاكمة والانتخابات

العمومية ووظائف وكلاء الدولة ومجلسهم وقانون الديوان العالى وديوان المحاسبات فقصارى ما أدعوكم لامالة نظر اهتمامكم اليه انما هوالمذاكرة على هذه اللوائح بافرادها وحل بعض المسائل المختلفة المتعلقة بقوانين الولايات والمطبوعات والاموال الاميرية والادارة العرفية اللواتى جرى عليها البحث فى الاجتماع السابق والمذاكرة كذلك على قانون ميزانية واردات ومصاريف السنة الآتية

أما عدم تناسى دولتنا الاصلاحات الداخلية فى مثل هذا الزمان المشغولة فيه بحرب عظيمة أقيمه كدليل فعلى على نوايانا بالترقى

﴿ يا أيها المبعوثان ﴾

ان ايجاد الحقائق فى المسائل القانونية والسياسية وتأمين منافع البلاد يتوقفان على تعاطى أرباب المشورة أفكارهم بالحرية التامة و بما أن القانون الاساسى يامركم بذلك فلا أرى احتياجا لامر أو لترغيب آخر

أما مناسباتنا مع الدول المتحابة فهى جارية على صورة اخلاص هذا ونسال الحق جل وعلا أن يجعل مساعينا مقرونة بتوفيقاته اه

وفى ١٧ ذى الحجة من السنة المذكورة قدّم نوّاب الامة عريضة شكر على الخطاب السلطانى المذكور ولبلاغته وأهمية ماجاء به من الافكار العالية والآراء الصائبة الدالة على المحبة والاخلاص الوطنى بين جميع الطوائف على اختلاف أجناسهم وأديانهم أتينا على ترجمته نقلا عن مجموعة الجوائب

نسأل المولى خير الناصرين أن يثبت الحضرة الملوكية على سرير العدل مع التوفيق وعلو الشان وطول العمر وكمال الصحة والعافية فنطق تلك الحضرة فى أثناء رسم افتتاح المجلس العمومى اللازم اجتماعه فى هذه السنة على حسب حكم القانون الاساسى الذى هو فرمان حرية العثمانيين و برهان صلاحهم وسلامتهم المتلو يوم الخميس ابتداء كانون الاوّل الموافق ٧ ذى الحجة سنة ١٢٩٤ فى حضور الحضرة الملوكية صار سماعه من هيئة المبعوثان بغاية الدقة والتامل ولما كان من النعم الكبرى تمثل المبعوثان فى حضور الحضرة السامية وصدور الاوامر من جنابه العالى بالمحظوظية من رؤياه المبعوثان حصل لعموم تبعة العثمانيين مزيد السرور مع الفخر والشرف ومن الوجوب المثابرة على محافظة الحقوق العثمانية المشروعة بمناسبة المحاربة التى فتحها الروس فى هذه الاحوال الحاضرة فانها واجبة بالطبع لكل دولة وملة ولا سيما قد اشتدت مشاكل الحرب باعلان البغى والخصام من قسم من التبعة العثمانيين الغير المسلمين الذين هم فى غاية الراحة وسعادة الحال من كل الوجوه منذ أعصار مضت فانهم حافظون حقوقهم ومذاهبهم وألسنتهم ونائلون المساعدات والمساوات عموماً على الدوام خصوصاً أهالى المملكتين فانهم فى أعلى الدرجات

متميزون بامتيازات واسعة مخصوصة وما فعلته الروسيا وأرباب البغى التابعون لها فى أثناء ذلك من أنواع الغدر والمظالم المحسرة للقلوب فى حق كثير من أولاد الوطن هو من الشقاوة المخالفة للحرية والحقوق الملية والقواعد الانسانية والمدنية وحيث ان محافظة الدولة وحماية حقوق الملة وتمامية استقلال المملكة على ضد الحالة الحاضرة موكول لعهدة الحضرة السلطانية ولازم لها على كل حال وكانت المسئلة محتاجة للدقة فوق العادة والمسارعة فى التدابير العاجلة من كل نوع بلا اضياع وقت نقول ان جميع العثمانيين متحدو الافكار فى معرفة ان المبادرة فى اجراء مقتضى الارادة الملوكية التى تصدر فى هذا الباب بغاية السرعة هى من الوجوب وقد تجاسروا على بذل أرواحهم فى سبيل المدافعة عن الوطن والملة فى هذه الحرب زيادة عن الطاقة فما أبرزوه بمقتضى وظائفهم المرتبة عليهم من آثار الخدمة والغيرة قد استحسن لدى الدولة السنية وكان ذلك موجباً لزيادة اشتياقهم واهتمامهم أضعافاً مضاعفة لان ما بدا منهم من البسالة ضد الروسيا حير أفكار الجميع وان ما علوا الهمم التى يقر بها جميع العالم من كل وجه مقرون باليمن وهو لا يكون لو دارت على حقها التدابير السياسية والعسكرية والوسائط الاجرائية على حسب ما أبرزه مولانا المعظم وتبعته الشاهانية من كل وجه وحيث ان تشكيل العساكر الملكية من المواد المهمة الواجبة أساساً قد تشكر عموم تبعة الدولة العثمانية لما صدرت به الارادة السنية فى هذا الباب وستصير المبادرة فى المذاكرة فى هـذا الأمر الى أن يرد قانون اللوائح المختص بكيفية استخدام صنوف سائر العسكرية من الأهالى غير المسلمين على مقتضى أحكام القانون الأساسى فعدم كمال اجراء نفوذ أحكام هذا القانون والتوفيق لابقاء الاصلاحات المهمة كاصلاح أحوال أمور المالية وحصول سعادتها وتقسيم الويركو وتحصيله وتنظيم المحاكم واصلاح الأوقاف وتسهيل تصرفات الأراضى وتشكيلات النواحى وانتخاب المأمورين وتنظيمات الضبطية والوظائف التى حالت بينها الغوائل الحاضرة من الحالات التى توجب الأسف ومن المسلم أن حضرة مولانا المعظم لم يؤخر آثار نظر ما فى الاصلاحات الداخلية مع هـذه الغوائل العظمى كما هو مشاهد من نياته الحسنة وأفكاره الخالصة ونلتمس من الالطاف الألهية دفع هذه الغوائل الحاضرة بعناية التوجهات الملوكية واتحاد عموم العثمانيين وأقدامهم وغيرتهم على حسب وظائفهم ومما هو غنى عن البيان انه سيصير الاجتهاد فى التدقيق والمذاكرات فى القوانين واللوائح الموعود باحالتها على هيئة المبعوثان الموجبة لعمار الملك ورفاهية أهله والتدقيق فى حل المسائل المختلفة فى بعض القوانين واللوائح التى بقيت من الاجتماع السابق وعموم الملة ناظرون الى حضرة مولانا المعظم بنظر الاعتبار حيث رخص فى ارادته السنية بهيئة المبعوثان الترخيص التام فيما هم مأمورون به فى القانون الاساسى من اتخاذ أفكارهم بالحرية التامة فى المسائل القانونية والسياسية مع تجديد المساعدة فى ذلك وهم سيشرعون فى اتخاذ الافكار بغاية الدقة والحرية

التامة فى الخصوصيات المتعلقة بحالنا واستقبالنا ومن المعلوم أن جريان المناسبات مع الدول المتحابة بصورة خالصة مما يوجب التشكر وقد بادرت هيئة المبعوثان باداء ماوجب عليها من ايفاء مراسم الشكر ليكون فى احاطة الحضرة المعظمة الملوكية والامر فى كل حال لحضرة سيدنا ومولانا المعظم اه

حل مجلس النواب

واستمر اجتماع مجلس النوّاب العثمانى الى أن قرر السلطان بالاتحاد مع جميع أعيان الدولة وجوب ارجاء اجتماعه لأجل غير محدّد لعدم ملاءمة الظروف لوجوده وأعلن ذلك رسمياً اليه فى يوم ١٤ فبراير سنة ١٨٧٨ وعقب فضه ضبط كثير من أعضائه ونفوا خارج البلاد بسبب تنديدهم باعمال الحكومة واعتراضهم على اجرا آتها ولم يجتمع بعد ذلك الى الآن

أما الوزارات فتعاقبت بسرعة غريبة مع ان الحكمة كانت تقضى بعدم تغييرها وبقاء الوزراء فى مناصبهم فى مثل هذه الظروف الخطيرة ففى ٧ محرم سنة ١٢٩٥ عزل أدهم باشا وعين مكانه أحمد حمدى باشا واستبدل أغلب النظار ( الوكلاء ) بغيرهم وفى غرة صفر من السنة المذكورة أى بعد ذلك بثلاثة وعشرين يوماً ألغى لقب الصدر الأعظم واستبدل بلقب رئيس الوكلاء ووجه هذا المنصب الى أحمد رفيق باشا الذى كان ناظراً للمعارف فى الوزارة السابقة

وفى ١٥ ربيع الثانى سنة ١٢٩٥ الموافق ١٨ ابريل سنة ١٨٧٨ ولى الصادق محمد باشا مسند رئاسة الوكلاء

وفى ٢٧ جمادى الأولى الموافق ٣٠ مايو ألغى لقب رئيس الوكلاء وأعيد لقب الصدر الأعظم وأسند الى محمد رشدى الملقب بالمترجم الذى تقلد هذا المنصب أكثر من مرة ولم يلبث فى هذا المنصب الا ستة أيام وعزل فى ٤ جمادى الأخيرة الموافق ٥ يونيه وعين مكانه صفوت باشا الذى كان وزيراً للخارجية أثناء انعقاد مؤتمر الاستانة قبل اعلان الحرب من الروسيا واستمر هذا الوزير متقلداً منصب الصدارة العظمى الى دسمبر سنة ١٨٧٨ حيث أحيل هذا المنصب الى عهدة خير الدين باشا

حادثة جراغان

وفى يوم ١٧ جمادى الاولى الموافق ٢٩ مايو حصلت بالاستانة حادثة كادت تكون سبباً لدخول عساكر الروس اليها واحتلالها عسكريا وذلك أن شخصاً يدعى على سعاوى أفندى بخارى الأصل أتى الى الاستانة لطلب العلم وتحصل على نصيب وافر من العلوم العربية حتى صار على جانب عظيم من الفصاحة فى الانشاد والخطابة لكنه كان ميالا الى اثارة الفتن والقاء الدسائس فنفى أوّلا سنة ١٢٨٧ (١٨٦٧ ) ومكث خارجاً عن البلاد تسع سنوات ثم عاد الى الاستانة بسعى مدحت باشا وعين ناظراً على المكتب السلطانى الذى يتعلم فيه أولاد جلالة مولانا السلطان عبد الحميد ثم عزل لعدم تحسن أحواله وتداخله فى الامور السياسية وبعد عزله أخذ يدبر فى طريقة لاثارة فتنة فى الاستانة لعزل السلطان عبد الحميد واعادة السلطان مراد الى عرش الخلافة وانتهز لذلك فرصة اشتغال الدولة بالمخابرات

السياسية واضطراب الافكار بسبب احتلال الروس لضواحى الاستانة ووجود نحو ١٥٠٠٠٠ ألف نفس من المسلمين المهاجرين من البلاد التى وطئها عساكر الروسيا بخيولها ومنهم من هو غير راض عن الحالة الحاضرة واتفق مع نحو مائتين منهم على تنفيذ ما يكنه صدره من الفتن واجتمعوا فى اليوم المذكور قبل الظهر وانقسموا الى قسمين القسم الأول منهم قصد سراية جراغان من جهة البحر تحت رئاسة زعيم يقال له صالح بك والثانى تحت رئاسة على سعاوى أفندى من جهة البروكانوا جميعهم متزيين بزى المهاجرين ثم اجتمع القسمان عند باب السراية وحاولوا الدخول فيها فمنعهم الحارس فقتلوه ودخلوا السراية وصاروا يفتشون على السلطان مراد حتى عثروا عليه فى حجرته وسلمه سعاوى افندى طبنجة

وفى أثناء ذلك أتت فرقة من الجنود من سراى يلدز المقيم بها السلطان عبد الحميد وحاصرت الثائرين من جهة البركما حاصرتها قوارب المراكب البحرية من جهة البحر ولم يمض الاقليل حتى قتل الجند جميع من دخل السراية من الثائرين وفى مقدمتهم رئيس العصابة على سعاوى وبعد اطفاء هذه الفتنة والقبض على من بقى حياً منهم نقل السلطان مراد وعائلته الى قصر داخل ضمن سراى يلدز العامرة وبذلك هدأت الافكار وعادت الناس الى فتح دكاكينهم بعد ان أغلقوها وأمنت الدولة امتداد الفتنة ودخول عساكر الروسيا الى الاستانة بدعوى حماية من بها من المسيحيين

حريق الباب العالى

وبعد ذلك بثلاثة أيام أى فى يوم ٢٠ جمادى الاولى الموافق ٢٣ مايو التهمت النيران جزأ عظيما من الباب العالى نفسه وأحرقت دائرة شورى الدولة وتوابعها ودائرة الاحكام العدلية والتشريفات والداخلية وغيرها مع جميع ما فيها من الامتعة والفروشات والاوراق الرسمية

ومن المظنون ان هذا الحريق لم يكن الا بفعل أرباب الثورة انتقاما مما أصابهم من الخذلان فى حادثة جراغان

هذا ولنرجع الى مخابرات الصلح فنقول ان بعد امضاء الهدنة ومقدمات الصلح فى أدرنه ووصول المراكب الانكليزية الى مياه الاستانة خوفا من احتلال الروس لها طلب القائد الروسى من الدولة ادخال بعض أورط من المشاة بالاستانة وكتب البرنس غورشاكوف بذلك الى جميع سفراء دولته لدى الدول العظمى فى ١٠ فبراير قائلا انه من حيث ان انكلترا أدخلت بعض مراكبها فى البوسفور لحماية رعاياها وحذت هذا الحذو بعض الدول الاخرى وطلبت من الباب العالى التصريح لمراكبها بالدخول فالروسيا لا ترى بداً من ارسال جزء من جيوشها المعسكرة حول الاستانة الى داخل المدينة لحماية جميع المسيحيين فاضطربت انكلترا لهذ البلاغ وكتبت الى سفيرها بسان بطرسبورج تحتج ضد هذا الطلب مبينة ان لا تشابه بين ارسال السفن الانكليزية الى البوسفور واحتلال الاستانة عسكريا بواسطة الجيش الروسى وكلفته أن يخبر حكومة الروسيا بانها لا تسمح مطلقاً باحتلال الاستانة وانه

لودخلت العساكر الروسية اليها تكون مسؤولة عما ينجم عن ذلك من الاخطار ولما وصلت هذه الرسالة الى مسامع البرنس غورشاكوف أحجم عن مشروعه و بعد مخابرات طويلة قال انه لا يدخل عساكره الى الاستانة الا لو أنزلت انكلترا بعض عساكرها الى البر وما دامت دولة المملكة لا ترغب ذلك فلا خوف على الاستانة من احتلال الروس وبذلك انتهى هذا الاشكال و بقيت الجنود الروسية معسكرة خارج المدينة لا تتعدى الحدود التي رسمت لها بمقتضى اتفاقية ٣١ يناير الماضى

وفى أثناء ذلك ابتدأت المخابرات بين الباب العالى والغراندوك نيقولا الذى عاد من سان بطرسبورج بمدينة أدرنه للوصول الى الصلح النهائى وعينت الدولة كلا من صفوت باشا الذى أعيد فى غضون ذلك الى نظارة الخارجية وسعد الله بك سفيرها الذى امبراطور ألمانيا ببرلين لكن قبل وصولهما الى أدرنه كان توجه اليها نامق باشا ليطلب من الغراندوك عدم دخول الجيوش الروسية الى الاستانة خوفا من حصول اضطراب بها يفضى الى الحرب بداخلها وتدميرها بما أن المسلمين لا يمكنهم رؤية الاستانة فى أيديهم بدون أن يتركوا السكون و يعولوا على الدفاع عنها الى آخر رمق من حياتهم فاظهر له الغراندوك بعض الصعوبات مع علمه بالمخابرات المتداولة بين الروسيا وانكلترا بهذا الشأن وأخيراً قبل عدم احتلال الاستانة بشرط أن تحتل مقدمة الجيش الروسى خط بيوك جكمجه وكوجك جكمجه من ضواحى الاستانة وأن تنسحب العساكر العثمانية الى ما وراء هذا الخط وأن ينقل مركز المخابرات من مدينة أدرنه الى قرية سان اسطفانوس الواقعة على بحر مرمره فقبلت الدولة هذين الشرطين منعاً لاحتلال الاستانة وفى ٢٤ فبراير سافر الغراندوك الى هذه القرية التى علم اسمها فى جميع العالم ولم تكن قبل ذلك شيئاً مذكوراً وصحبه اليها نحو ألف جندى بصفة حرس ولم يلبث هذا القدر ان أخذ فى الازدياد بتوارد عدة ألايات حتى بلغ من بها نحو عشرين ألف مقاتل بدون أن يكون للدولة سبيل لمنعهم

ثم ان المندوبين العثمانيين أتيا الى سان اسطفانوس وابتدأت المداولات بينهم و بين الجنرال اغناتيف الذى انتدبته الروسيا لهذه الغاية و بعد عدة اجتماعات أخبرهما المندوب الروسى بوجوب التصديق على الشروط المتقدمة منه قبل يوم ٣ مارث سنة ١٨٧٨ الموافق عيد جلالة القيصر كما هى رغبة الغراندوك والا فتبطل الهدنة وتتقدم العساكر الروسية الى الاستانة ولذلك لم يتيسر للمندوبين العثمانيين أن يفحصا ماجاء فى هذه الشروط فحصاً مدققاً لضيق الوقت ولتهديد الجنرال اغناتيف لهم وقطع العلاقات وسوق العساكر عند أدنى معارضة تبدو منهما وفى يوم ٣ مارث جمع الغراندوك عساكره الموجودة بسان اسطفانوس للاستعراض احتفالا بعيد الامبراطور ولما أتت الساعة العاشرة صباحا ولم يأت اليه خبر امضاء المعاهدة توجه الى قاعة اجتماع المندوبين وطلب منهم التصديق عليها فى هذا اليوم والا فتسير العساكر المنتظمة للاستعراض نحو

الاستانة فى مساء اليوم المذكور فاضطرّ المندوبان العثمانيان الى التوقيع عليها بدون حصول مداولة فى كثير من بنودها وفى الساعة الخامسة مساء خرج الجنرال اغناتيف ومعه صورة المعاهدة ممضاة من مندوبى الدولة الى الغراندوك وكان واقفاً أمام الجيوش تحف به أركان حربه وسلمه الصورة فصاح الجند صيحة الاستبشار وأقام لهم أحد القسوس صلاة حافلة فى ميدان الاستعراض نزل فى أثنائها جميع القوّاد والضباط عن ظهور خيولهم وجثوا على الارض هم وجميع الجنود شكراً لله على هذا الفوز الغير منتظر

ومن غريب ما يحكى عن الجنرال اغناتيف أنه طلب فى ٣ مارث المذكور أن يضاف الى الشروط بند يقضى بان الدولة العلية تكون ملزمة بالدفاع عن صالح الروسيا لو تشبثت الدول فى عقد مؤتمر لتحوير هذا الصلح فرفض المندوبان العثمانيان هذا الطلب بعد أن كتبا بذلك تلغرافياً الى الباب العالى واتاهما الجواب بالرفض و بذلك تم الصلح وفى مساء ذلك اليوم كتب جلالة السلطان تلغرافا الى القيصر يهنئه بعيده وورد اليه الردّ من القيصر بالشكر والثناء والدعاء باستمرار المحبة والاتحاد بين الدولتين وهاك نص معاهدة سان اسطفانوس نقلا عن منتخبات الجوائب

ان حضرة قيصر الروسيا وحضرة سلطان المملكة العثمانية قد عين كل منهما مرخصين لاجل تقرير وعقد مقدّمات الصلح رغبة فى تامين بلادهما ورعاياهما من وقوع مايخل بالراحة والامنية فيما بعد وطلباً لحصول وفوائد المسالمة والراحة العمومية حالا فالمرخصان اللذان نصبهما القيصر أحدهما الكونت نقولا اغناتيف وهو حائز رتبة أمير اللواء وياور القيصر ومن أعضاء المجلس الخصوصى وعنده نيشان روسى مرصع وهو نيشان (صان علكساندرنويسكى ) ونياشين أجنبية متعـدّدة والمرخص الآخر مسيو نليدوف من قرناء الدائرة الامبراطورية ومن أعضاء شورى الدولة وعنده نيشان ( صانت ان ) من الطبقة الاولى مع السيوف المختصة به وعدّة من النياشين الروسية والاجنبية المرخصان اللذان عينهما حضرة السلطان أحدهما صفوت باشا ناظر الامور الخارجية الحامل النيشان العثمانى المرصع والنيشان المجيدى كلاهما من الطبقة الاولى والنياشين الاجنبية المتنوّعة والثانى سعد الله بك سفير الدولة العلية فى مركز امبراطورية ألمانيا وهو حامل النيشان المجيدى من الطبقة الاولى والنيشان العثمانى من الطبقة الثانية فهؤلاء المرخصون من بعد أن اطلعوا على المحرّرات الرسمية المتعلقة بكيفية ترخيصهم ووجـدوها مطابقة للاصول والعادة قرروا المواد الآتى ذكرها فيما بينهم

﴿المادة الاولى﴾ انه بموجب الخريطة المربوطة بهذه المعاهدة و بمقتضى الشروط والوجوه الآتى ذكرها تقرر تصحيح حدود ممالك الدولة العلية والجبل الاسود وذلك لاجل انهاء المنازعات والمصادمات المتتابعة الوقوع فيما بينهما فالحدود تمتد من جبل (دوبر وزيجه) على الوجه الذى عينه المؤتمر الذى كان عقد فى الاستانة الى (غوريتو) ( و بيلـكه )والحد

الجديد يستطيل الى (غاجقه) وعلى هذا (متوتركيا غاجقو) تبقى فى تصرّف الجبل الاسود وتمتدّ الحدود أيضاً من مجمع أنهر (بيوه) و (تاره) وتمر من نهر (درين) الى جهة الشمال وتنتهى الى مجمع هذا النهر مع النهر المسمى (فيم) وأما حدود الجبل المذكور الشرقية فتبتدىء من نهر (فيم) الى (بريرة بواره) ومن (روستراق) الى (سوق بلانينا) و بهورور وستراق تبقيان داخل الجبل فعلى ذلك يكون تخطيط الحدود هكذا أعنى من الجبال المتسلسلة الجامعة لروغوه و (بلاوا) و (كوزنرة) الى شلب (پاقلنى) ومن رؤوس جبال (قوبريونيق) و (باباور) و (بورور) حذاء حدود بلاد الارناؤوط الى أعلى ذروة جبل (پروقلتى) ومن هذه النقطة الى كثيب (بيسقاشيق) وينتهى الحدّ على الخط المستقيم الى عين الماء فى (جيسنى هوتى) و يفصل فيما بين جيسنى هوتى و (جيسنى قاسترانى) و يتجاوز ماء (اشقودره) الى أن ينتهى لنهر (بويانه) وهكذا مع النهر الى مصبه فى البحر و بموجب ذلك تبقى نكسيك وغاجقه واشبوزى و يودغوريجه وزابلياق و بار ضمن الجبل المذكور وقد يصير تعيين حدود امارة الجبل قطعياً بمعرفة لجنة مركبة من بعض مامورى دول أوروبا بشرط أن تكون وكلاء الباب العالى والجبل معهم أيضاً فهذه اللجنة تلاحظ منافع الطرفين وأمنية البلاد الكائنة فى الجهتين ثم تشير فى الخريطة الى التعديلات التى ترى لها لزوماً وتعلم أنها هى الحق وتوضح فى ذلك مارأته من صالح الجهتين ثم لا يخفى ان أمر سير السفن فى نهر بويانه لم يزل يجلب النزاع فيما بين الباب العالى والجبل الاسود فلاجل قطع هذا النزاع سيصير تحرير نظام ذلك بمعرفة اللجنة المذكورة

﴿المادة الثانية﴾ ان الباب العالى يثبت استقلال امارة الجبل الاسود على الوجه القطعى ثم فيما ياتى تتقرر فيما بين دولة الروسيا والدولة العلية والامارة المذكورة كيفية المناسبات التى ستكون بين الباب العالى والجبل الاسود وقضية تعيين وكلاء من طرف الامارة فى الاستانة والبلاد العثمانية المقتضية و يتقرر أيضا أمر اعادة أرباب الجنايات الذين يفرّون من بلاد الدولة العلية الى الجبل ومن الجبل الى بلاد الدولة وأمر اطاعة أهل الجبل المقيمين أو المارّين فى بلاد الدولة العلية وانقيادهم الى نظامات ومامورى الدولة طبق الحقوق الجارية بين الدول والعادات والمعاملات القديمة التى كانت تجرى بحقهم فى بلاد الدولة وستنعقد أيضا مقاولة فيما بين الباب العالى والجبل الاسود لاجل توضيح وتنظيم المسائل المتعلقة بالانشاآت العسكرية فى قرب الحدود وأحوال ومناسبات الاهالى المتجاورة هناك واذا اختلف الباب العالى مع الجبل الاسود فى بعض مسائل ولم يمكن فصلها باتفاقهما فتحكم بينهما دولتا الروسيا وأوستريا ومن بعد هذه المعاهدات اذا وقعت مباحثة أو مصادمة فيما بين الباب العالى والجبل ماعدا المطاليب الملكية الجديدة ينبغى أن يفوّضا أمرها الى دولتى الروسيا وأوستريا وهما باتفاقهما يفصلانها بينهما وقد تقرر انه من بعد امضاء مقدّمات الصلح الى عشرة أيام

يجب على عساكر الجبل الاسود أن تخرج من البلاد الغير داخلة فى ضمن الحدود المذكورة أعلاه

﴿المادّة الثالثة﴾ ان امارة الصرب تكون مستقلة ويكون حدها بموجب الخريطة المربوطة لهذه المعاهدة مجرى نهر (درين) وتبقى (كوجك ازورنيق) و (سقار) فى ادارة الصرب ويمتدّ هذا الحدّ الى منبع نهر (رازوه) الكائن جوار (استايلاق) على حسب الحدود القديمة وتبتدىء الحدود الجديدة من هنا أعنى مع مجرى نهر (رازوه) الى نهر (راسقه) ومنه الى يكى (بازار) ومن يكى بازار يصعد الخط الفاصل ويمرّ من جوار قريتى (مهنتره) و (ارغوبج) الى أعلى النهر المذكور حتى ينتهى الى منبعه ويمتدّ الى (بوسور بلاتينا) الكائنة فى واد (ايبار) وينزل مع الماء الجارى الذى يصب فى النهر المذكور ومنه يسير مع أنهر (ايبار) و (سيديج) و (لاب) الى منبع نهر (ياتنسه) الكائن فى جبل (غراپاشينجه بلاتينا) وبعدها يمر من التلال الفاصلة بين نهرى (قربوه) و (تريجه) ومن أقصر الطرق الموجودة على مصب نهر (ميو واجقه) حتى ينتهى أيضاً الى نهر (ويرنجه) ويسير مع هذا النهر ويقطع ميو واجقه و بلاتينا ويصل الى جهة موراوه فى قرب قرية (قاليمانس) ومن هنا يسير الى قرب قرية (استابقوجى) ويجتمع هناك مع نهر (بلوسينه) وهكذا مع النهر الى موراوه ويمتدّ من النهر الى جهة فوق حتى يصل الى (قوتقاويجه) ويقطع سوق بلاتينا ويجتمع بنهر (نيساوه) ويتصل بقرية (قرونراج) ومنها يمر من أقصر الطرق ويمتدّ على حدود الصرب القديمة الى جنوب شرق (قرهول بور) وعلى هذا الخط يتصل بنهر الطونه وتقرر اخلاء (اطه قلعه) وهدمها وترتيب لجنة مركبة من مامورى الدولة العلية والصرب لاجل تعيين خط الحدود على الوجه القطعى فى برهة ثلاثة أشهر ويكون ذلك بمعاونة مامورين من طرف دولة الروسيا وهذه اللجنة تفصل أيضا المسائل المتعلقة بجزائر نهر (درين) وتقطعها وحينما تبتدىء هذه اللجنة بتعيين الحدود الفاصلة بين بلاد الصرب والصقالبة ينبغى أن يكون وكيل واحد من طرف الصقالبة يشترك معهم فى هذا الامر

﴿المادة الرابعة﴾ ان المسلمين الذين لهم أملاك فى البلاد التى صار الحاقها بالصرب اذا لم يريدوا الاقامة هناك فلهم الخيار ان أحبوا أجروا أملاكهم وان أحبوا أقاموا وكلاء من طرفهم لاجل حفظها واستغلالها والمسائل المتعلقة بأموالهم الغير منقولة تفصلها لجنة مركبة من مامورى الدولة العلية والصرب باعانة مامورين من طرف دولة الروسيا فى ظرف سنتين وهذه اللجنة تفصل أيضاً فى برهة ثلاث سنين أمر فراغ الاملاك الميرية والموقوفة والمسائل المتعلقة ببعض الاشخاص الذين لهم علاقة ونفع فى الاملاك المذكورة وذلك يكون غب انعقاد المعاهدة فيما بين الدولة العلية والصرب والاناس المقيمون أو الذين يجولون فى بلاد الدولة العلية من تبعة الصرب تكون المعاملة معهم على القواعد الكلية بمقتضى الحقوق الكائنة بين الدول وقد تقرّر انه من بعد امضاء مقدّمات

الصلح الى خمسة عشر يوماً يجب على عساكر الصرب أن تخرج من البلاد التى ليست داخلة فى ضمن الحدود المذكورة أعلاه

﴿ المادة الخامسة ﴾ ان الباب العالى قد أثبت استقلال رومانيا أعنى المملكتين ولها أن تطلب من الدولة العلية تضمينات الحرب وتجرى المذاكرة بهذا الشأن فيما بينهما وعند ما تنعقد المعاهدة بين الدولة العلية ورومانيا رأساً تنال تبعة رومانيا الأمن والامتياز طبق تبعة دول أوروبا

﴿ المادة السادسة ﴾ تقرّر أن تكون البلغارستان أعنى بلاد الصقالبة امارة مختارة فى ادارتها تدفع مبلغاً معلوماً الى الدولة العلية ويكون مامورو الحكومة والعساكر الملية من المسيحيين ويصير تعيين حدودها على الوجه القطعى بمعرفة لجنة مركبة من مأمورى الدولة العلية والروسيا وذلك قبل خروج عساكر الروسيا من الروملى وهذه اللجنة تبين هناك فى الجريطة التعديلات التى ينبغى اجراؤها وتلاحظ ملية أكثر الاهالى وتوضح المنافع المحلية تطبيقاً لفنّ تخصيص الاراضى وتقرّر تعيين وتبيين مقدار اتساع ملك الصقالبة فى خريطة وجعلها أساساً فى قطع الحدود وخط الحدود يبتدىء من حدود الصرب الجديدة ومن غرب (ورانتره) الى سلسلة الجبل الاسود ومن جهة الغرب يمرّ من غرب ( قومانوه ) و ( قوجانى ) و ( قلقان دلن ) الى جبل ( قوارب ) ومن هناك يمر من نهر (و بوجيجه) الى درينه و يلتفت الى جهة الجنوب الى حدود غرب قضاء ( أخرى ) حتى ينتهى الى جبل (ليناس) ومنه يمر من غربى كوريجه واستاوره و يتصل بجبل (غراموس) وكذلك يمرّ من ماء ( قاستريا ) و يلتصق بنهر ( موغلينجه ) و يسير مع النهر الى ( يكيجه ) و يمر عن نهر ( واراد يكيجه )ومن مصب نهر ( واردار ) وقرية ( غاليقو ) الى قراء (بارغه) و ( صارى كوى ) وهناك يمرّ من وسط عين الماء المعبر عنه ( بشيك كل ) الى مصب نهرى ( استروما ) و ( قره صو ) ومن السواحل الى ( بوروكل ) و يمتد الى الشمال الغربى و يمرّ من سلسلة جبل ( رودوب ) الى جبلى (جالتبه ) و ( اوشوه ) و يمرّ من جبال (اشك قولاج) و ( جيبليون ) و ( قره قولاس ) ( وجيقلر ) الى نهر ( ارده ) و يلتفت لجهة الجنوب و يمر من قراء سوكوتلى وقره حمزه وارنادكوى واقارجى وايجه الى ( تكه دره سى ) فى قرب ( أدرنه ) ومن (تكه دره سى) و ( جورلى دره سى ) الى ( لوله برغوسى ) ومن هنا وعن نهر ( صوجق دره ) الى قرية ( سوركن ) ومنها من التلال و يقطع ( حكيم طابيه سى ) حتى يتصل فى ساحل البحر الاسود و يبتدىء أيضاً من (منقاليه) و يترك السواحل و يمر من شمال حدود لواء طوجى ومن فرق راسوه الى نهر الطونه

﴿ المادة السابعة ﴾ ان أمير الصقالبة يصير انتخابه من طرف الاهالى بالحرية التامة والباب العالى يثبته بانضمام آراء الدول ولا يجوز انتخاب أحد من أقارب دول أوروبا الجالسين على سرير الملك للامارة المذكورة وحينما تحل الامارة كذلك يكون انتخاب

الامير الجديد على هذا المنوال وهاته الشروط وقد تقرر انه ينبغى من قبل انتخاب الامير أن يجتمع مجلس معتبرى الصقالبة امافى (فلبه) واما فى (طرنوى) تحت نظارة مامورين من طرف الروسيا وفى حضور مامورين من طرف الدولة العلية وتؤسس نظامات هذه الادارة المستقلة توفيقاً لامثالها أعنى لنظامات المملكتين التى تنظمت فى سنة ١٨٣٠ غب انعقاد مصالحة (أدرنه) وعند تاسيس تلك النظامات ستصير وقاية حقوق ومنافع الاهالى من المسلمين والروم والاولاخ وغيرهم الموجودين والمختلطين مع الصقالبة وتقرر أيضاً احالة تأسيس هذه الادارة الجديدة فى البلغارستان مع ما يلزم من النظر فى صور اجرائها لعهدة مامورين موظفين من طرف دولة الروسيا من هنا الى سنتين وفى انقضاء السنة الاولى من تاسيس الادارة الجديدة اذا لم يحصل اتفاق فى هذا الشان فيما بين الروسيا والباب العالى ودول أوروبا يكون للدول المشار اليهم حق أن يوظفوا مامورين برفق مامورين الروسيا

﴿ المادة الثامنة ﴾ ليس لعساكر الدولة العثمانية حق بعد هذا للاقامة فى البلغارستان وسيصير هدم القلاع القديمة الكائنة هناك بمعرفة الحكومة المحلية وان الباب العالى له حق أن يتصرّف بالادوات الحربية الموجودة فى قلاع الطونه التى صار اخلاؤها من العساكر بموجب سند المتاركة الذى تحرر فى ٣١ كانون الثانى والآلات الحربية الكائنة فى مدينتى شمنى ووارنه وجميع الاملاك المتعلقة بالحكومة العثمانية كيفما شاءت وتبقى عساكر الروسيا فى البلغارستان مقيمة الى أن ينتهى ترتيب العساكر الملية المحلية الكافية لحفظ الراحة وتوطيد الامنية واذا اقتضت الحال يقومون فعلا باعانة المامورين وسيصير تعيين عدد العساكر الملية بالاتفاق فيما بين الدولة العلية ودولة الروسيا وان مدّة اقامة عساكر الروسيا فى البلغارستان تكون سنتين والعساكر التى تبقى هناك بعد خروج جميع عساكر الروسيا من بلاد الدولة العلية تكون عبارة عن ست فرق مشاة وفرقتين خيالة وجميعها خمسون ألفاً ومصروف هؤلاء العساكر يكون على بلاد الصقالبة ويكون لها طرق مراسلات فى المملكتين فى شطوط البحر الاسود من جهة وارنه وبرغوس وفى مدّة اقامتها هناك يكون لها المخازن المقتضية على الشطوط المذكورة

﴿ المادة التاسعة ﴾ ان المرتب السنوى الذى يلزم على البلغارستان ايفاؤه الى الدولة العلية يتسلم الى البنك الذى يعينه الباب العالى وهذا البنك يصير تعيينه بمعرفة دولة الروسيا والدولة العلية وسائر الدول وذلك فى انتهاء السنة الاولى من ابتداء اجراء أصول الادارة الجديدة ومقدار ذلك المرتب بتاسيس بالنظر لايراد البلاد والاراضى التى تكون فى ادارة الامارة على الحساب المتوسط والبلغارستان تتعهد بالقيام بالتعهد الذى على الدولة العلية الى شركة سكة الحديد فى طريق وارنه وروسجق غب المذاكرة مع الباب العالى وادارة

الشركة المذكورة ومسألة سكة الحديد الاخرى الموجودة ضمن الامارة يصير فصلها بمعرفة الدولة العلية وحكومة الصقالبة وادارة الشركة

﴿ المادة العاشرة ﴾ ان الباب العالى له حق أن ينقل ويجلب عساكر ومهمات وذخائر من الطريق المعينة فى داخل البلغارستان الى الايالات العثمانية التى وراء البلغارستان ولاجل عدم وقوع مشاكل فى هذا الخصوص وتامين الايجابات العسكرية العثمانية سيوضع نظام بالاتفاق مع الباب العالى والامارة من ابتداء تعاطى هذه المعاهدة الى ثلاثة أشهر فى ذلك وهذا الحق المتعلق بالمرور والعبور يختص بالعساكر النظامية فقط دون الباشبوزوق والجراكس والعساكر المعاونة والباب العالى كذلك له أن يتعاطى البوسطة عن طريق الامارة ويستعمل مسالك التلغراف فى مخابراته فهذان الامران كذلك يصير تعيينهما وتنظيمها فى المدّة والشروط المحررة أعلاه

﴿ المادة الحادية عشرة ﴾ ان المسلمين وغيرهم من أصحاب الاملاك اذا أرادوا الاقامة فى خارج الامارة لهم أن يحفظوا أملاكهم ويؤجروها أو يفوّضوا أمر ادارتها الى من يريدونه ثم ان مامور الدولة العلية ومامور الصقالبة يجتمعان تحت نظارة مامور الروسيا ويفصلون المسائل المتعلقة بتصرّف الاملاك وفى منافع مسلمى الصقالبة وذلك يكون فى ظرف سنتين والاملاك الميرية والموقوفة يصير تعيين أمرها أما بالبيع وأما باستعمالها على الوجه الذى يكون فيه النفع الزائد لجهة الباب العالى ويصير تعيين ذلك بمعرفة لجان مخصوصة محدودة فى السنتين المذكورتين والاراضى التى تبقى بدون صاحب عند انقضاء السنتين يصير طرحها فى المزاد وتباع ويؤخذ ثمنها ويدفع الى أيتام وأرامل المصابين فى الاحوال الاخيرة من المسلمين والمسيحيين

﴿ المادة الثانية عشرة ﴾ ان القلاع الكائنة على نهر الطونة يصير هدمها جميعاً ولا يبقى من بعد هذا على سواحل الطونة قلعة ما مطلقاً ولا يجوز وجود سفن حربية فى مياه رومانيا والصرب والصقالبة سوى السفن الصغيرة والفلوكات المختصة والمستعملة فى الامور الانضباطية فقط وحقوق ووظائف وامتيازات لجنة الطونه المختلطة تبقى بتمامها على أصلها

﴿ المادة الثالثة عشرة ﴾ ان الباب العالى يتعهد بتنظيف البحر فى مضيق (سنه) وارجاعه الى حاله السابق ليصلح لمرور السفن منه ويتعهد أن يضمن العطل والضرر الذى حصل للتجار بسبب منع مرور السفائن من نهر الطونه مدّة الحرب وسيصير خصم ٥٠٠٠٠٠ فرنك من أصل دين لجنة الطونه الى الباب العالى لاجل هذا الامر

﴿ المادة الرابعة عشرة ﴾ ان الاصلاحات التى تبلغت الى مرخصى الباب العالى فى أوّل

جلسة مؤتمر الاستانة ينبغى حالا وضعها فى موقع الاجراء فى بوسنه وهرسك مع التعديلات التى ستتقرر فيما بين دولة الروسيا وأوستريا ويجب أن لا يطلب من هاتين الايالتين بقايا الاموال الميرية وأن لا يؤخذ شىء من الواردات الى ابتداء شهر مارث سنة ١٨٨٠ بل تصرف كلها فى الاحتياجات المحلية ويسدّ بها عوز الاهالى والعيال الذين أصيبوا فى الاحوال الاخيرة ومن بعد انقضاء المدّة المذكورة يتعين المبلغ الذى يلزم على الاهالى دفعه فى كل سنة الى الحكومة المركزية بالاتفاق فيما بين الدولة العلية ودولتى الروسيا وأوستريا

﴿ المادة الخامسة عشرة ﴾ يتعهد الباب العالى باجراء أحكام النظام الاساسى الذى وضع فى سنة ١٨٦٨ المختص بجزيرة كريد طبق مطلوب الاهالى الذى بينوه مقدّما ويلزم اجراء الاصلاحاتَ المماثلة لنظامات كريد فى (ترحالة) و(يانيه) وفى سائر جهات الروم ايلى التى ليس لها نظامات مخصوصة ويصير تشكيل لجنة مركبة من الاهالى المحلية فى كل ايالة لاجل ترتيب وتأليف النظامات الجديدة ثم يصير تقديمها الى الباب العالى والباب العالى يتذاكر مع دولة الروسيا فى ذلك

﴿ الماده السادسة عشرة ﴾ ان خروج عساكر الروسيا من الارمنستان وارجاع تلك البلاد الى الدولة العلية يمكن أن يفضى الى المناقشة والاختلاف فيما بينهما فلهذا يتعهد الباب العالى حالا باجراء الاصلاحات على حسب الاحتياجات المحلية فى الولايات التى سكانها أرمن وتأمين المسيحيين من تعدّى الاكراد والجراكسة

﴿ المادة السابعة عشرة ﴾ ان الباب العالى سيعلن العفو العمومى عن المتهمين فى الاحوال الاخيرة ويطلق سبيل المحبوسين والمنفيين بسبب ذلك

﴿ المادة الثامنة عشرة ﴾ ان الباب العالى يتعهد بالتبصر بعين الدقة الى ما بينه وكلاء الدول المتوسطة فى خصوص قضاء قوتور وتعيين الحدود الايرانية على الوجه القطعى

﴿ المادة التاسعة عشرة ﴾ ان مبالغ التضمينات الحربية التى طلبها حضرة قيصر الروسيا هى فى مقابلة الاضرار والخسائر التى تكبدتها دولة الروسيا بسبب هذه الحرب والباب العالى قد تعهد بدفعها فمن هاته المبالغ اولا ٩٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ روبل فى مقابلة مصروف العساكر والادوات الحربية والاشياء التى بليت وثانيا ٤٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ روبل لاجل الاضرار الحاصلة فى سواحل بلاد الروسيا الجنوبية وفى اخراجات البضائع التجارية وفى طرق الحديد وثالثا ١٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ روبل فى مقابلة الضرر الحاصل من الهجوم على قوقاس ورابعا ١٠ر٠٠٠ر٠٠٠ روبل لاجل الخسائر التى حصلت لتبعة الروسيا المقيمين فى الممالك العثمانية ولتأسيساتها فعلى ذلك تكون هذه المبالغ من حيث المجموع عبارة عن ١ر٤١٠ر٠٠٠ر٠٠٠ روبل (يعنى ٣٩١ر٢١٧ر٢٤٥ ليرة عثمانية وريال مجيدى أبيض ونصف) هذا وان القيصر المشار اليه قد لاحظ ضيق حال الدولة العلية

من جهة المال وتامل فى مقاصدها التى نوّهت عنها فى هذا الشأن ووافق بالقبول على أن تترك الدولة العلية الاراضى المحررة أسماؤها أدناه عوضاً عن القسم الاكثر من المبالغ المذكورة

أوّلا لواء طولجى يعنى قضاء كيلياوسنه ومحموديه وايساقجى وطولجى وماجين وباباطاغى وخرسوه وكوستنجه ومجيديه والجزائر الكائنة فى نهر طونه قد تركتها الدولة العلية جميعاً الا ان الدولة الروسية ليس لها فكر بالحاق هاته البلاد الى ملكها بل انها تحفظ حق مبادلة هذه البلاد بقطعة بساربيا التى أخذت منها بموجب معاهدة سنة ١٨٥٦ فحدود قطعة بسارابيا من جهة الجنوب طرف من أراضى كيليا ومصب نهر الطونه والجهات التى يصطادون بها السمك فى النهر يصير تفريقها بمعرفة مامورين من طرف الروسيا ومن حكومة المملكتين فى برهة سنة واحدة اعتباراً من تاريخ تعاطى هذه المعاهدة

ثانياً اردهان وقارص وباطوم وبايزيد مع الاراضى الحاوية عليها الى جبل صوغانلى سيصير تسليمها الى دولة الروسيا وحينئذ الحدود الفاصلة تكون هكذا أعنى يبتدىء الخط الفاصل من الجبال التى فيما بين المياه الجارية والمنصبة فى نهرى (هوبا) و (جورق) ويمر من الجبال المتسلسلة الواقعة فى جنوب قضاء وارتوين ومن جوار قريتى (والات) و (بشاكت) ومن فوق (دورنيك) و (كقى) و (هوجه زار) و (بجقين طاغ) ومن الجبال الفاصلة للمياه التى تختلط بنهرى (تورقم) و (جورف) ومن فوق قراء (يالى) و (هين) و (لم كليسا) الى أن ينتهى لنهر تورتم ومن هنا يمر من سيورى طاغ ويتصل بقرية نريمان ويلتفت الى وجهة الجنوب حتى يصل الى (زوين) ومن زوين يمر من غربى طريق اردوست خراسان الى جنوب جبل صوغانلى ويتصل بقرية (كيلاجمان) ومنها يمر من جبل (ثريا) ومن قرية خمير ومن اون رست مسافه ومن تلال (طاندور) ومن جنوب وادى بايزيد وينتهى فى الجهة الجنوبية من (قازلى كول) وهذا المحل هو الحدّ الفاصل قديماً فيما بين حدود أراضى الدولة العلية وأراضى دولة ايران وان الاراضى التى صار الحاقها بممالك الروسيا ومذكورة فى الخريطة المربوطة لهذه المعاهدة يصير تعيين حدودها قطعياً بمعرفة مامور من طرف الروسيا ومامور من طرف الدولة العلية وهما يلاحظان قواعد تخطيط الاراضى وقضية تامين حسن ادارة القضوات

ثالثاً ان الاراضى التى صار تركها لدولة الروسيا كما هو محرر أعلاه قد اعتبرت بمبلغ ١٫١١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ روبل وأما الباقى من التضمينات وهو ٣٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ روبل ماعدا ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ روبل التى هى فى مقابلة خسائر تبعة الروسيا وناسيساتها ستتفق دولة الروسيا مع الدولة العلية على قضية دفعها وتأمين ايفائها

رابعاً ان العشرة ملايين روبل التى تخصصت لتبعة الروسيا ومؤسساتها يصير تسويتها هكذا أعنى ان سفارة الروسيا فى الاستانة تجرى التدقيقات اللازمة بهذا الشأن على

مستدعيات أرباب العلاقة وتعرض الكيفية الى الباب العالى والباب العالى يجرى التسوية على مقتضى عرض السفارة

﴿ المادة العشرون ﴾ ان الباب العالى يتعهد بأن يستعمل التدابير المؤثرة سريعاً فى خصم الدعاوى المنازع فيها منذ سنين عديدة المتعلقة بتبعة الروسيا وانه اذا اقتضى الامر يدفع تضمينات وينفذ احكام الاعلامات

﴿ المادة الحادية والعشرون ﴾ ان أهالى البلاد التى تسلمت الى الروسيا ان أرادوا الهجرة منها لهم أن يبيعوا أملاكهم وأراضيهم ويهاجروا وقد أعطى لهم مهلة فى ذلك ثلاث سنين من تاريخ تعاطى هاته المعاهدة فالذين لا يبيعون أملاكهم فى هذه المدة ولا يهاجرون يدخلون فى حكم الروسيا عند انقضاء تلك المدة والاملاك الميرية والموقوفة يصير بيعها على حسب الاصول التى يعينها مامور الروسيا ومامور الدولة العلية فى بحر السنين المذكورة وهما يتمان أيضاً كيفية نقل الادوات الحربية الموجودة فى المحلات التى هى الآن فى يد الروس سواء كانت من البلاد التى تسلمت الى دولة الروسيا أو غيرها

﴿ المادة الثانية والعشرون ﴾ ان القسيسين والزوّار الذين يسكنون أو يسيحون فى الممالك العثمانية فى الروم ايلى والاناطول من تبعة الروسيا سينالون الحقوق والامتيازات التى ينالها القسيسون والزوّار من تبعة سائر الدول سوية وسفارة الروسيا الكائنة فى الاستانة وقناصلها يحمون حقوق الاشخاص المذكورة وذواتهم ومؤسساتهم والرهبان وغيرهم الموجودين فى الاماكن المقدسة وبالخصوص فى (اينوروز) فهم حائزون حقوقهم التى كانوا حائزين عليها فى السابق ويحفظون الديورة الثلاثة الكائنة فى (اينوروز) مع مشتملاتها المتعلقة بهم كسائر الديورة والمؤسسات المذهبية الكائنة لغيرهم هناك سوية

﴿ المادة الثالثة والعشرون ﴾ ان المعاهدات والمقاولات التى كانت موجودة فيما بين الدولة العلية والروسيا المتعلقة بالتجارة والمحاكمة وبتبعة الروسيا المقيمين فى بلاد الدولة العليه وتعطلت أحكامها بسبب هذه الحرب ينبغى أن تجرى أحكامها كما فى السابق وان دولتى الروسيا والعثمانية قد أعادوا المناسبات التى كانت قبل هذه الحرب فى الامور التجارية وغيرها بمقتضى أحكام المعاهدات والمقاولات المذكورة ماعدا المواد التى نسختها هاته المعاهدة

﴿ المادة الرابعة والعشرون ﴾ ان خليج الاستانة وخليج جناق قلعه سواء كان فى زمن الحرب أو زمن الصلح يكون مفتوحا للسفن التجارية التى تريد المرور منه الى بلاد الروسيا من الدول التى تكون على الحيادة والباب العالى ليس له من بعد هذا أن يضع الحصر الغير المؤثر على الشطوط الموجودة فيما بين البحر الاسود وبحر الازاق والمخالف لمضمون معاهدة باريس التى صار امضاؤها فى ٤ ابريل سنة ١٨٥٦

﴿ المادة الخامسة والعشرون ﴾ ان عساكر الروس يخرجون من بلاد الدولة العلية

الكائنة فى أوروبا (الروم ايلى) ماعدا البلغارستان وذلك من تاريخ انعقاد الصلح القطعى الى ثلاثة أشهر هذا وان العساكر المذكورة لهم ان يأتوا الاساكل الموجودة فى البحر الاسود وبحر مرمره عند السفر للركوب فى السفائن التى تحضرها أو تستاجرها دولة الروسيا حتى لا يكونوا مجبورين على تمديد مدة الاقامه فى الممالك العثمانية وفى رومانيا وأما خروج عساكر الروسيا من الاناطول فيكون بعد انعقاد الصلح القطعى بستة أشهر ولهم أن ياتوا الى طرابزون لاجل الركوب فى السفن ومن هناك يسافرون الى القريم أو القوقاس

﴿ المادة السادسة والعشرون ﴾ ان أصول الادارة والاوامر التى وضعتها دولة الروسيا فى البلاد التى دخلتها عساكرها والتى ينبغى تسليمها الى الدولة العلية بموجب هاته المعاهدة تكون باقية وجارية الى حين توجه العساكر منها وليس للباب العالى المشاركة فى الاحكام ولا للعساكر العثمانية الدخول اليها قبل ذلك بناء على هذا فان أمير عساكر الروسيا يخبر الضابط الذى يعينه الباب العالى عن سفر عساكر الروسيا وليس للباب العالى ان يجرى الاحكام من قبل ان تتسلم له القلاع والايالات

﴿ المادة السابعة والعشرون ﴾ ان الباب العالى لا يجازى أحداً بسوء من تبعته الذين دخلوا فى المناسبات مع دولة الروسية فى زمن الحرب وليس لمامورى الدولة العلية ان تمنع أو توقف أحداً من الاهالى الذين يرغبون ان يسافروا مع العساكر

﴿ المادة الثامنة والعشرون ﴾ ان أسرى الحرب يصير ارجاعهم تحت نظارة مامورين مرتبين من طرف الدولتين وذلك عقب تعاطى مقدمات الصلح وهؤلاء المامورون يسافرون الى اودسه وسيواستابول وأما مصروف أسراء العساكر العثمانية فتدفعه الدولة العلية فى ظرف ستة سنوات على ثمانية عشر قسطاً بموجب الدفتر الذى يحرره المامورون المذكورون وأما قضية مبادلة الاسرى فيما بين حكومتى رومانيا والصرب وامارة الجبل الاسود فيصير اجراؤها على هذا الاساس الا انه يصير تنزيل العدد الذى تسلمه الدولة العلية من العدد الذى تستلمه من الاسرى

﴿ المادة التاسعة والعشرون ﴾ ان حضرة امبراطور الروسيا والحضرة السلطانية سيثبتون هذه المعاهدة ووثائق التثبيت تكون معاطاتها فى سان بطرسبورج بظرف خمسة عشر يوماً أو بوجه أسرع من ذلك ان أمكن وكذلك يجرى التصديق رسما على الشروط المذكورة فى هذه المعاهدة على حسب الاصول الجارية فى المعاهدات الصلحية ان الدولتين المتعاهدتين من تاريخ تعاطى المعاهدة يعدّون أنفسهم رسما بانهم متعهدون بان مرخصين الطرفين قد أمضوا هذه المعاهدة كما يأتى تصديقاً لمضمونها

حرر فى اياستفانوس فى ١٩ شباط الرومى و ٣ ادار (مارس) الافرنجى سنة ١٨٧٨

( محل الامضا )

كونت اغناتيف　　صفوت　　نليدوف　　سعدالله

ان معاهدة مقدّمة الصلح التى صار امضاؤها فى هذا اليوم أعنى ١٩ شباط و٣ ادار سنة ١٨٧٨ قد حصل سهو بها فى الجملة الاخيرة من المادة الحادية عشرة فلذلك زيدت العبارة الآتية واعتبرت جزأ متمماً للمعاهدة المذكورة وهى ( ان الذين يقيمون أو يسيحون فى الممالك العثمانية من أهالى البلغارستان يكونون تابعين للقوانين العثمانية )

اياستيفانوس فى ١٩ شباط و ٣ ادار سنة ١٨٧٨

صفوت　　اغناتيف　　سعد الله　　نليدوف

ومن تامل الى خريطة الدولة العلية يتضح له ان الروسية قد محت تركية أوروبا بأجمعها تقريباً من العالم السياسى ولم يبق للدولة بها الا أربع قطع صغيرة لا اتصال بين ثلاثة منها الا بطريق البحر ولا بين الثالثة والرابعة الا بطريق ضيقة تمر بين أراضى الصرب والجبل الاسود ولا يزيد اتساعها فى بعض المواضع عن خمسة كيلو مترات بحيث يتيسر لاحدى الامارتين منع الجيوش العثمانية من المرور وقطع الطريق عليها كلية والقطعة الاولى هى مدينة الاستانة وضواحيها والثانية مدينة سلانيك والبحيث جزيرة القريبة منها والثالثة مكونة من بلاد ابيروس وجزء من بلاد الارنؤود والرابعة من اقليمى البوسنه والهرسك وما بقى من أملاكها أعطى منه جزء للصرب وآخر للجبل الاسود وشكل الباقى بصفة امارة مستقلة اداريا تسمى امارة بلغاريا تمتدّ من الطونه الى البحر الاسود شرقا وبحر الارخبيل جنوبا وتحيط بمدينة الاستانة من جميع جهاتها البرية وزد على ذلك ما اشترط من احتلال الجنود الروسية لبلاد بلغاريا مدّة سنتين لاستتباب الامن بها

أما فى آسيا فاخذت قلاع قارص وباطوم وبايزيد الى حدود أرضروم تقريباً

واعترف الباب العالى ضمن هذه المعاهدة باستقلال كل من الصرب والجبل الاسود ورومانيا استقلالا سياسياً تاما وبالتنازل لمملكة رومانيا عن اقليم الدبروجه مقابل سلخ اقليم بساربيا من رومانيا وضمها الى الروسيا لتنظيم حدودها حتى يكون كل من نهرى البروث والطونه من ابتداء اتحاد البروث معه الى البحر الاسود فاصلا بين رومانيا والروسيا ولم يراع فى هذه التقسيمات صالح الامم المراد سلخها عن الدولة ولا حدودها بل أضافوا الى امارة البلغار بلاداً كثيرة أغلب سكانها من الاروام والصرب والى الصرب والجبل الاسود بلاداً بها كثير من الارنؤود المسيحيين والمسلمين ولذلك كان كل من هذه الامم غير راض عن هذه المعاهدة التى لم يراع فيها الا صالح سياسة الروسيا وحرروا عدّة مكاتبات موقع عليها من كثير من أعيانهم وارسلوها الى سفراء الدول طالبين النظر فى هذه المعاهدة وصون حقوقهم وكذلك كان الرأى العام الاوروبى ناقما على الروسيا لوجود امارة البلغار المراد انشاؤها محيطة بالاستانة من كل جهة مع انها عبارة عن ولاية روسية خصوصا وان

جيوشها ستحتلها مدّة سنتين وهيهات ان أخلتها بعد هذا الميعاد
أما انكلترا فكانت أكثر الدول تخوّفا من نتائج هذه المعاهدة لوجود عساكر الروسيا على مقربة من بوغاز البوسفور وخوفا من ازدياد نفوذ الروسيا فى الهند بعد ظهورها على الدولة العلية
ولذا كانت أشد معارضة من غيرها فى معاهدة سان اسطفانوس وتودّ تعديلها رغماً عن الروسيا لتظهر أمام الهنود بمظهر القوّة والباس ونفوذ الكلمة فى أوروبا اذ أن سلطتها على بلاد الهند مبنية على الوهم أكثر من قوّة السلاح ومعارضة النمسا كان سببها رغبتها فى مشاركة الروسيا فى بقايا دولة الاسلام باوروبا باحتلالها اقليمى البوسنه والهرسك ليكون لها بذلك سبيل فى المستقبل الى الاستيلاء على ميناسلانيك الضرورية لها لعدم وجود مين بحرية لمملكتها سوى مدينة ( تريسته ) التى تدعى ايطاليا أحقيتها فيها وتطمح أنظارها الى احتلالها يوماً ما
أما ألمانيا فكانت مساعدة أدبيا للروسيا ويقال انها عرضت على النمسا احتلال البوسنه والهرسك برضا الروسيا لكنها رفضت هذا الاحتلال مالم يكن بقبول جميع الدول اذ أنها كانت ترى احتلالها لهما بدون رضا الباب العالى وباقى الدول يسبب لها عراقيل كثيرة فى المستقبل وكانت فرنسا على الحيادة المطلقة لقرب انخذالها فى حرب البروسيا وميلها الى السكون لتعويض مافقدته من المال والرجال فى هذه الحرب المشؤمة
وكذلك ايطاليا لم يكن لها صالح فى هذه المسئلة ولا تودّ الاشتباك فى حرب أوروبية لقرب عهد تمام استقلالها وسعيها فى تقوية وحدتها السياسية فيتضح من ذلك ان المعارضة كانت منحصرة أوّلا فى انكلترا لاحباً فى الدولة العلية الاسلامية بل خوفا على نفوذها فى الهند وثانياً فى النمسا لعدم اشتراكها فى منافع هذه المعاهدة
ولهذه الاسباب كانت انكلترا أوّل منبه للروسيا على ان كل شرط يتفق عليه بينها وبين الدولة ويكون مخالفاً لنصوص معاهدة سنة ١٨٥٦ المبرمة فى باريس أو يختص بمنفعة عمومية أوروبية لا يعمل به الا بعد تصديق الدول الضامنة لمعاهدة باريس المذكورة وكتبت بهذا المعنى الى الحكومة الروسية بتاريخ ١٤ و ٢٩ يناير سنة ١٨٧٨ أى قبل التوقيع على الاتفاقيات التى أمضيت فى مدينة أدرنه فى ٣١ من الشهر المذكور بين الدولة والروسيا وقبلت بكل انشراح اقتراح النمسا فى ٥ فبراير القاضى باجتماع مؤتمر دولى فى مدينة بادن للنظر فى اتفاقيات ادرنه كما سبق فى موضعه
ثم فى ٧ مارث دعت النمسا جميع الدول ثانية لعقد مؤتمر فى مدينة برلين للغاية نفسها واختارت برلين ليكون المؤتمر تحت رئاسة البرنس بسمارك المعضد لها على احتلال البوسنه والهرسك فقبلت الدول هذه الدعوة الا انكلترا فانها علقت قبولها على أن يكون من اختصاص المؤتمر المزمع انعقاده النظر فى جميع بنود معاهدة سان اسطفانوس سواء كانت

مختصة بمنفعة عمومية أوروبية اولا وعارضت الروسيا فى هذا الاشتراط ودارت المخابرات بينهما والنمسا للتوفيق بين الطرفين واشتدّت العلاقات بين الروسيا وانكلترا وأخذت هذه تستعد للحرب وعينت اللورد نابيراوف مجدلا قائداً عاماً للجيوش البرية واللورد ولسلى (١) رئيساً لاركان حربه وأمرت بجمع الرديف واستعداد المراكب الحربية واشترت أربع مدرعات كانت أوصت عليها بعض الدول فى معاملها وجمعت أغلب سفنها الحربية فى جزيرة مالطه لتكون على مقربة من الاستانة وكذلك أمرت باحضار عدد ليس بقليل من جيوشها الهندية الى هذه الجزيرة للغاية نفسها ذلك مادعا اللورد دربى وزير الخارجية الى تقديم استعفائه بما انه كان ميالا لسياسة الملاينة معارضاً لكل مامن شأنه ازدياد النفور بين دولته والروسيا خلافا للورد بيكونسفيلد (٢) كبير الوزراء وباقى زملائه ولما قبل استعفاؤه عين اللورد سالسبورى وزيراً للخارجية وكان أشدّ الناس ميلا لاكراه الروسيا على تعديل معاهدة سان اسطفانوس ولو بالقوّة لاضرارها بالمصالح الانكليزية

وفى صبيحة تعيينه أى فى اليوم الاوّل من شهر ابريل سنة ١٨٧٨ أرسل الى جميع سفراء انكلترا لدى الدول العظام منشوراً بين فيه مضارّ المعاهدة المذكورة وأوجه خللها وضرورة نظرها برمتها فى مؤتمر دولى وكانت هذه النشرة سبباً لعدم نجاح مأمورية الجنرال اغناتيف فى ويانه وكان أرسل اليها للسعى فى الاتفاق مع النمسا على عدم اشتراكها مع انكلترا لو انتشبت الحرب بينها وبين الروسيا بسبب معاهدة سان اسطفانوس وهى أى الروسيا تتعهد لها باعطائها اقليمى البوسنه والهرسك فلما رأت النمسا من انكلترا هذا الثبات والاستعداد للحرب براً وبحراً لم تجب مندوب الروسيا بجواب شاف حتى ترى ماتقتضى السياسة الانكليزية بعرضه عليها فتنحاز الى الفريق الذى تكون سياسته أكثر ملاءمة لصالحها الخصوصى

وحينما وصل منشور اللورد سالسبورى الى سان بطرسبورج وعرض السفير الانكليزى صورته على البرنس غورشاكوف أخذ يفكر فى طريقة للتخلص من هذه المشكلة بدون وصول الى الحرب والقتال مع استمرار الاستعداد له اذا دعت الحاجة واكتتب كثير من البلديات وأغنياء الروس بل وعموم الاهالى بمبالغ وافرة لانشاء عمارة بحرية وتسليح المراكب التجارية بالمدافع للقبض على سفن انكلترا التجارية والاضرار بمصالحها ثم فى ٩

---

(١) اللورد نابير هو الذى حارب طيودوس ملك الحبش وفتح حصن مجدلا الشهير فأضيف الي اسمه تذكاراً لانتصاره وأما اللورد ولسلي فهو الذى حارب العرابيين في التل الكبير وانتصر عليهم في سبتمبر سنة ١٨٨٢

(٢) سياسي انكليزى شهير ولد سنة ١٨٠٥ واشتغل أولا بتأليف الروايات ثم بالكتابة في الجرائد وأخيراً ترشح للانتخاب فدخل مجلس العموم وامتاز فيه بالبراعة في الخطابة وكان من حزب المحافظين ثم دخل في الوزارة وعين وزيرا للمالية في سنى ١٨٥٢ و١٨٥٩ و١٨٦٦ وصار رئيسا لحزب المحافظين بعد موت اللورد دربي وعين رئيسا للوزارة في سنة ١٨٦٨ ثم خلفه غلادستون وعاد الى رئاسته ثانيا سنة ١٨٧٤ وبقى الي سنة ١٨٨٠ وحضر مؤتمر برلين في سنة ١٨٧٨ وتوفي سنة ١٨٨١ وصار بعده اللورد سالسبورى رئيسا لحزب المحافظين ولم يزل كذلك حتى الان

ابريل أجاب البرنس غورشاكوف على لائحة سالسبورى بمنشور أرسله الى جميع سفراء دولته لدى الدول العظام وكلفهم بتبليغه اليها فى أقرب وقت وأرفق هذا المنشور بلائحة دحض فيها جميع اعتراضات اللورد سالسبورى على معاهدة سان اسطفانوس مراعياً فى ذلك صالح الروسيا تاركا باقى المصالح ظهريا

وبعد ذلك انقطعت المخابرات وأخذ كل من الفريقين يستعد للحرب وأحضرت انكلترا الى مالطه عدة ألايات من الجنود وكانوا لم يسبق لهم الحضور لاوروبا قبل هذه الدفعة واشتغلت الروسيا باخماد هيجان مسلمى البلغار الذين أخذوا يؤذون كل من يعثروا به من جنود الروسيا ويدافعون عن أنفسهم ضد تعدّيات مسيحيي البلغار وبما بلونهم بمثل ما يرتكبه البلغاريون معهم من أنواع التعدّى والظلم اعتماداً على مساعدة الروس لهم ولاحتماء هؤلاء الوطنيين فى الجبال صعب على الروسيا قمعهم فامتدت هذه الحركات الثورية الى جميع جهات البلغار وضواحى صوفيا الى حدود الصرب واستمر الحال على هذا المنوال الى أواخر شهر مايو والجنود الروسية محتلة جميع ضواحى الاستانة والمراكب الانكليزية أمامها من جهة البحر ولما أقبل فصل الصيف فشت الامراض بين عساكر العدوّ ومات منهم عدد كثير فلهذه الاسباب ولنضوب خزينة الروسيا وعدم امكانها احتمال هذه الحالة التى وان لم تكن حالة حرب بالمرة فلم تكن أيضاً حالة سلمية ولمناسبة اشتداد المرض على البرنس غورشاكوف وزير الروسيا الاوّل استقل الامبراطور بسياسة بلاده وكتب الى خاله غليوم الاوّل(١) امبراطور ألمانيا بالمثابرة على التوسط بينه و بين انكلترا للوصول الى وضع حد لهذه الحالة الغير مرضية التى لو استمرت لجعلت الروسيا على شفا الافلاس وأوعز الى المسيو شوفالوف سفيره بلوندره بأن يفاتح اللورد سالسبورى بأنه مستعد للتساهل مع انكلترا مبدئياً فى نظر جميع بنود معاهدة سان اسطفانوس الا أنه يود أن يعلم قبلا ما تريد انكلترا ادخاله عليها من التعديلات حتى تكون على بينة من الامر قبل ارسال مندوبها الى المؤتمر

فجدّدت المخابرات وانقشعت الغيوم المتراكمة فى جو أوروبا السياسى و بعد أن توجه المسيو شوفالوف الى سان بطرسبورج للمفاوضة مع أرباب السياسة هناك وعرض طلبات انكلترا عليهم شفاها اذ أن المكاتبات ربما تكون نتيجتها تأخير هذه الحالة السيئة عاد الى لوندره وفى ٣٠ مايو سنة ١٨٧٨ تم الاتفاق بين هذا السفير

(١) ولد هذا الامبراطور سنة ١٧٩٧ وعين وصيا على أخيه فريدريك غليوم الرابع حين أصيب بضعف قواه العقلية سنة ١٨٥٧ ثم عين ملكا على بروسيا بعد موت أخيه المذكور في سنة ١٨٦١ وحارب الدانمارك سنة ١٨٦٢ والنمسا سنة ١٨٦٦ وانتصر عليها في واقعة (سادوا) وفي سنة ١٨٧٠ حارب فرنسا الحرب المشهورة وفاز على نابليون الثالث في سيدان في أول سبتمبر سنة ١٨٧٠ وفي ١٨ يناير سنة ١٨٧١ توج امبراطورا على ألمانيا بسراى فرساى بضواحي باريس أثناء حصار هذه المدينة وفي اكتوبر من السنة المذكورة أمضي معاهدة فرانكفورت التي أخذ بمقتضاها اقليمي الالزاس واللورين وكان من أكبر مساعديه في هذه الامور البرنس دى بسمارك والدوك دى مولتك وتوفي سنة ١٨٨٨

واللورد سالسبورى على ما تريد انكلترا ادخاله على معاهدة سان اسطفانوس من التعديلات وحررت بذلك لائحة أمضى عليها الفريقان وأضيف عليها ذيل بناء على طلب النمسا التى سبق عرض هذا الاتفاق عليها قبل التوقيع عليه ويظهر من الاطلاع على هاتين الورقتين الرسميتين أن انكلترا صادقت على أهمّ شروط معاهدة سان اسطفانوس وقبلت تشكيل امارة البلغار الجديدة بعد تقليل مساحتها وتشكيل الجزء الجنوبى منها بهيئة ولاية مستقلة تقريبا لا تلبث أن تنضم الى امارة البلغار وأبقت سواحل بحر الروم تابعين للدولة العلية بما فيها مدينة قوله خوفا من أن تتخذها الروسيا مع الزمن مرسى لمراكبها وهو الامر الذى تسعى انكلترا جهدها فى منعه حفظا لسيادتها على البحار

احتلال انجلترا لجزيرة قبرص

لكنها مع ذلك لم تكن مطمئنة البال مرتاحة البلبال من قوّة الروسيا بل لم تزل تخشى تقدّمها نحو الاستانة مرة أخرى أو نحو بلاد الاناطول فتمتلك منابع نهرى الفرات والدجلة ثم تسير شيئا فشيئا الى الجنوب متبعة مجرى هذين النهرين العظيمين فتصل الى بغداد فالبصرة فخليج فارس الموصل لبحر الهند ولذلك ظهرت للدولة العلية فى مظهر الصديق المخلص وكتبت الى المسيو (ليارد) سفيرها بالاستانة فى أعمال الفكرة للوصول الى اقناع الباب العالى بوجوب ابرام معاهدة دفاعية مع حكومة انكلترا لصدّ الروسيا لو تقدّمت نحو بلاد الاناطول ويتعهد الباب العالى لحكومة جلالة الملكة باجراء الاصلاحات اللازمة لتحسين حال المسيحيين بهذه الجهات حتى لا يميلوا للروسيا ولا يقبلوا عساكرها بصفة منقذين كما حصل فى بلاد البلغار وأن تسمح الدولة العلية لانكلترا باحتلال جزيرة قبرص وادارة شؤونها لتكون على مقربة من حدود الروسيا ويتسنى لها صدّ هجماتها لو مست الحاجة وتعدّت الجيوش الروسية الحدود التى ستحدّد لها فى مؤتمر برلين المزمع انعقاده قريبا فقام المستر لايارد بهذه المأمورية وربما كانت ابتدأت المخابرات بهذا الشأن قبل ذلك حتى لم يأت يوم ٤ يونيو سنة ١٨٧٨ الذى تولى فيه صفوت باشا منصب الصدارة العظمى كما مر فى موضعه الا وتم الاتفاق على هذه المعاهدة الدفاعية وقبل الباب العالى تسليم انكلترا جزيرة قبرص غنيمة باردة اعتماداً على وعد هيهات أن تقوم به انكلترا لو دعت الضرورة الا ان وجود الاضطراب بالاستانة والخوف من احتلال الروس وظروف الحال هوّنت على الدولة قبول هذا الاقتراح وتضحية هذه الجزيرة رغبة فى حفظ باقى أملاكها وتعديل معاهدة سان اسطفانوس بكيفية أرجح لصالحها أما صالح انكلترا فى احتلال هذه الجزيرة فظاهر لمن له أقل اطلاع على الماجريات السياسية وسياسة انكلترا الاستعمارية وعلى موقع الجزيرة المذكورة فلا يخفى أن الهند بالنسبة لانكلترا بمنزلة الروح من الجسد وسياستها دائرة على حفظ هذه المستعمرة من التعدّى وحفظ الطرق المؤدية لها فباحتلالها اقليم رأس الرجاء الصالح فى طرف أفريقيا الجنوبى صارت آمنة على هذا الطريق وان

كانت بعيدة لكن لما كانت طريق مصر والسويس أخصر الطرق الموصلة لهندها العزيزة احتلت بوغاز جبل طارق فسادت على الجزء الغربى من البحر الابيض المتوسط ثم باحتلالها جزيرة مالطه سادت على الجزء الاوسط منه وكان اذاً من المحتم عليها احتلال احدى النقط المهمة فى شرق هذا البحر لتسود عليه من جميع أطرافه وتجعله بحيرة انكليزية ولما رأت ارتباك الدولة العلية بعد هذه الحرب التى كان يمكن لدول أوروبا منعها لو اتبعوا نصوص معاهدة باريس وكانوا لها مخلصين أرادت انتهاز هذه الفرصة العديمة المثال لاخذ هذه الجزيرة لتكون على مقربة من بوغاز السويس واسكندرية مصر من جهة ولمينا اسكندرونة التى فى عزمها انشاء خط حديدى منها الى خليج فارس لتنقيص المسافة بينها و بين مستعمراتها الهندية من جهة أخرى وقد تم لها ذلك بحسن سياستها وحذق رجالها واحتياج الدولة لمساعدتها فى هذه الظروف الخطيرة ولم تحدّد انكلترا فى هذا الاتفاق ميعاداً لجلائها عنها ثم فى أوّل يوليو أثناء انعقاد مؤتمر برلين اتفقت انكلترا مع الباب العالى على اضافة ذيل الى اتفاق ٤ يونيو يبين فيه كيفية ادارة الجزيرة والخراج الذى يدفع عنها وحدّدت أجل خروجها منها تحديداً جعلت به احتلالها أبديا اذ انها علقت خروجها منها على خروج الروسيا من مدينتى باطوم وقارص اللتين أضيفتا الى أملاك الروسيا اضافة قطعية فصار احتلال قبرص بذلك احتلالا قطعياً ومع ذلك أىّ ضمان لدى الدولة العلية على خروج الانكليز من قبرص لو أخلت الروسيا هاتين المدينتين أو احداها مع استحالة ذلك تقريباً واليك نص معاهدة ٤ يونيو سنة ١٨٧٨ نقلا عن مجموعة الجوائب

لما كان كل من ملكة مملكة بريطانيا وارلانده المتحدة وامبراطورة الهند وجناب السلطان المعظم متصفين بينهما بالمقاصد الودادية لاحكام وتوسيع العلاقة الحبية الكائنة الآن بين السلطنتين جزما بعقد معاهدة دفاعية لتأمين الاراضى فى آسيا (الاناطول) فيما بعد التى تخص الحضرة العلية السلطانية و بناء على هذه الغاية انتخبا وعينا المرخصين الآتى بيانهما

عينت ملكة مملكة بريطانيا وارلانده المتحدة وامبراطورة الهند حضرة الانورابل وستين هنرى ليارد سفيرها الاعلى لدى الباب العالى

وعينت الحضرة العلية السلطانية حضرة دولتلو صفوت باشا ناظر الخارجية للدولة العلية

و بعد ان أظهر كل منهما المحررات المرخصة لهما فى اجراء هذه المصلحة ووجدت مطابقة للاصول اتفقا على المواد الآتية

﴿ المادة الاولى ﴾ اذا كانت الروسيا تستولى على باطوم أو أردهان أو قارص أو احداها وأرادت بعد ذلك أن تستولى على بعض الاراضى الكائنة فى آسيا التابعة للحضرة السلطانية

كما تقرر أمرها فى المعاهدة الصلحية الباتة فان انكلترا تتعهد بان تتحد مع الحضرة العلية السلطانية لحماية تلك الاراضى بقوّة السلاح وفى مقابلة ذلك تعدالحضرة السلطانية انكلترا بان تجرى فى ممالكها الاصلاحات اللازمة التى سيحصل الاتفاق بعدهذا بينهما على كيفية اجرائها وان تحمى المسيحيين وغيرهم من رعيتها القاطنين فى بلادها ولغاية تمكين انكلترا من اتخاذ الوسائط والتدابير اللازمة لاجراء ما تعهد به رضى السلطان المعظم بان انكلترا تستولى على جزيرة قبرص وتدير أمورها

﴿ المادة الثانية ﴾ تجديد امضاء هذه المعاهدة من طرف الدولتين المذكورتين يكون بعد تاريخ امضاء هذا بشهر واحد أو أقل اذا أمكن وقد صار امضاء هذه المعاهدة وختمها فى قسطنطينية فى الرابع من شهر جون الافرنكى من سنة ١٨٧٨

الامضا ا . ه . ليارد

صفوت

قد حصل الاتفاق بين كل من الانورابل سراوستن هنرى ليارد وحضرة نخامتلو دولتلو صفوت باشا الصدر الاعظم للحضرة العلية السلطانية حالة كونهما مرخصين من دولتهما على تذييل المعاهدة المذكورة التى أمضيت فى ٤ جون سنة ١٨٧٨

صار من المعلوم بين الدولتين المذكورتين بان دولة انكلترا رضيت بالشروط الآتية فيما يتعلق بالاستيلاء على قبرص وادارتها

﴿ أوّلا ﴾ يبقى فى الجزيرة محكمة شرعية يناط لعهدتها النظر فى متعلقات المصالح الدينية التى تخص مسلمى الجزيرة لاغير

﴿ ثانياً ﴾ ان نظارة الاوقاف بالاستانة تعين أحد المأمورين المسلمين ليقيم فى الجزيرة لينظر باتفاقه مع مأمور تعينه دولة انكلترا على ادارة الاملاك والعقارات والجوامع والمساجد والمقابر والمدارس والمكاتب وغيرها من الادارة الدينية فى الجزيرة

﴿ ثالثاً ﴾ ان دولة انكلترا تدفع الى الباب العالى الزائد من ايراد الجزيرة بعد أداء مصاريفها وهذه الزيادة تعتبر بمناسبة الزيادة التى تحصلت فى الجزيرة فى السنين الخمس الماضية وقدرها سنوى ٢٢٫٩٣٦ كيساً (١١٤٫٦٨٠ ليرة عثمانية) وبعد هذا يبالغ فى تحقيقها ويستثنى من ذلك ايراد الاملاك الميرية التى تباع أو تؤجر فى المدّة المذكورة

﴿ رابعاً ﴾ يسوغ للباب العالى أن يبيع أو يؤجر بدون مانع الاملاك أو الاراضى وغيرها من العقارات التى هى أملاك ميرية أو أملاك همايونية التى ايرادها غير داخل ضمن ايراد الجزيره

﴿ خامساً ﴾ يسوغ لمأمورى دولة انكلترا فى الجزيرة أن يشتروا جبراً بأسعار مناسبة الاراضى أو الاملاك التى يرون شراءها لازما لاجراء أشغال نافعة

﴿ سادساً ﴾ اذا كانت الروسيا تعيد الى تركيا قارص أو بقية الجهات التى انتصرت عليها ودخلت فى حوزتها فى ارمينيا فى الحرب الاخيرة تخلى انكلترا جزيرة قبرص فتكون المعاهدة المذكورة الممضاة فى ٤ جون منسوخة وملغاة الاجراء
تحريراً فى قسطنطينية فى ١ جولاى ( تموز ) سنة ١٨٧٨
الامضا ا . ه . ليارد
صفوت

ومن الغريب ان خبر هذه المعاهدة لم يشع الا فى ٧ يوليو لما أشرفت أعمال مؤتمر برلين على النهاية وكتمت انكلترا خبرها بكل اجتهاد ولم تعرضها على البرلمان الا بعد ان تحققت ان العلم بها أصبح لا يضرّ بسير مداولات المؤتمر ولا يتيسر لمندوبى الدول الاعتراض عليها خوفا من انفصام عرى المؤتمر ورجوع الامور الى ما كانت عليه من الشدّة واقتراب الحرب وكذلك أخفت الاتفاق الذى أمضى بينها و بين الروسيا فى ٣٠ مايو الى ان اجتمع المؤتمر كما سيأتى

هذا ولما أبلغت انكلترا البرنس بسمارك انها قد اتفقت مع الروسيا ولو لم تطلعه رسمياً على صورة الاتفاق دعا بسمارك كافة الدول العظام تلغرافياً فى ٣ يونيو سنة ١٨٧٨ لارسال مندوبيهم للاجتماع فى برلين فى يوم ١٣ يونيو وأجابت الدول بالقبول فى اليوم نفسه أو فى صبيحة اليوم التالى واشترطت فرنسا فى قبولها عدم تعرّض المؤتمر للمسائل التى لم ينص عنها فى معاهدة سان اسطفانوس وخصت بالذكر القطر المصرى و بلاد الشام وفى يوم ١٣ يونيو انعقد المؤتمر تحت رئاسة البرنس دى بسمارك وعضوية كل من السياسيين المذكورة أسماؤهم فى أوّل المعاهدة وأرسلت بعض الامم ذوات الشأن مندوبين من طرفها لتقديم طلباتها و رغباتها الى المؤتمر ولو لم يكن مصرّح لهم بحضور الجلسات الا اذا طلبوا للاستفهام منهم عن بعض أمور تخص من أرسلهم فأرسلت حكومة رومانيا المسيو براسيانو والمسيو كوجولنيسيانو وأرسلت الصرب المسيو رستيش وأناب أمير الجبل الاسود البرنس بيتروفتش والمسيو رادوفتش وحكومة اليونان المسيو دليانى والمسيو رنجابى وكذلك طائفتا الارمن واليهود وشاه العجم الذى أرسل الى برلين أحد سفراء دولته ليدافع عما قرر اعطاؤه اليه فى معاهدة سان اسطفانوس

وفى أوّل جلسة قدّم مندوبو الدول العظام الاوراق المؤذنة بتعيينهم وقرر المؤتمر بعض الاجراآت الابتدائية مثل تعيين الكتبة وكاتب السرّ وحافظ الاوراق الى غير ذلك ثم توالت جلساته الى يوم ١٣ يوليو سنة ١٨٧٨ أى مدّة شهر كامل انعقد المؤتمر فى خلاله عشرين مرة وليكون المطالع على بينة مما حصل فى هذه الجلسات نذكر له ماحصلت فيه المداولة فى كل جلسة من الامور المطروحة أمامه بكل اختصار

ففى الجلسة الاولى عين الرئيس و باقى موظفى المؤتمر وتليت بعض خطب شكر وثناء وطلب

فى آخرها اللورد بيكونسفيلد أن تسحب الروسيا عساكرها من ضواحى الاستانة فعارضه البرنس غورشاكوف وطلب انسحاب الدونانمة الانكليزية أولا من مياه البوسفور واشتدّ الخلاف بينهما اشتداداً كاد يفضى الى عدم نجاح المؤتمر لولا تداخل البرنس بسمارك بحكمته وتقريره ان هذه مسئلة يجب الاتفاق عليها بين الروسيا وانكلترا خارجا عن المؤتمر فانتهى الاشكال ويظهر انه لم تحصل مكالمة بهذا الشأن فيما بعد لبقاء الجيوش والدونانمة فى مركزيهما وفى الجلسة الثانية المنعقدة فى ١٧ يونيو عرض المركيز دى سالسبورى على المؤتمر قبول مندوبى اليونان وتنوقش فى حدود امارة البلغار

وفى الجلسة الثالثة المنعقدة فى ١٩ منه تنوقش فى مسئلة قبول مندوبى اليونان فى المؤتمر

وفى الرابعة والخامسة والسادسة المنعقدة فى ٢٢ و ٢٤ و ٢٥ منه استمرت المناقشة فى مسئلة البلغار

وفى السابعة المنعقدة فى ٢٦ منه تمت المناقشة فى مسئلة البلغار وتنوقش فى حدود الصرب

وفى الثامنة المنعقدة فى ٢٨ منه تداول المؤتمر فى احتلال دولة اوستريا والمجر لولايتى البوسنه والهرسك وتوسيع حدود الصرب والجبل الاسود

وفى التاسعة المنعقدة فى ٢٩ منه حصلت المداولة فيما يختص بمملكة اليونان والولايات اليونانية الباقية للدولة العلية وولاية الروملى الشرقية

وفى العاشرة المنعقدة فى أوّل يوليو استمرت المناقشة فى الروملى الشرقية

وفى الحادية عشرة المنعقدة فى ٢ منه تداول المؤتمر فى حرية الملاحة فى نهر الطونة وفيما يختص بالحصون والمعاقل القائمة على ضفتيه وفى الغرامة الحربية

وفى الثانية عشرة المنعقدة فى ٤ منه اعترض مندوبو الدولة العلية على احتلال دولة اوستريا والمجر لاقليمى البوسنه والهرسك وتحدّدت امارة الجبل الاسود واستمرت المداولة بمسئلة نهر الطونه وابتدأت المناقشة فى مسائل الطوائف الدينية الغير اسلامية عموما ومسئلة الارمن خصوصاً

وفى الجلسة الثالثة عشرة المنعقدة فى ٥ منه تداول المجلس فى توسيع حدود مملكة اليونان و بقاء امتيازات قبائل المرديت

وفى الرابعة عشرة المنعقدة فى ٦ منه تنوقش فى وجوب قبول مندوب العجم وسماع أقواله وفى حدود الروسيا من جهة آسيا وفى مسئلة الارمن والبوغازات ( البوسفور والدردنيل ) وجلاء العساكر الروسية عن الولايات المحتلة لها باوروبا وآسيا وفى البند الخامس عشر فى معاهدة سان اسطفانوس المختص بالاصلاحات المراد اجراؤها لتحسين حالة المسيحيين الباقين تحت حكم سلطان العثمانيين

وفى الجلسة الخامسة عشرة المنعقدة فى ٨ منه تداول المؤتمر فى وجوب تنازل الدولة العلية عن وادى قوتور لبلاد العجم وتم اتفاق أعضائه على مسئلة الارمن وتحددت تخوم رومانيا والصرب والبلغار والروملى الشرقية واستمرت المناقشة فى مسئلة الطوائف الغير اسلامية الاخرى وتبودلت الآراء فى الطرق الواجب اتخاذها لتنفيذ قرارات هذا المؤتمر

وفى الجلسة السادسة عشرة المنعقدة فى ٩ منه استمرت المداولة فى اعطاء قوتور للعجم وفى طرق تنفيذ قرارات المؤتمر وتنوقش فى تحديد سنجق صوفيا وفى كيفية تحرير المعاهدة النهائية

وفى الجلسة السابعة عشرة المنعقدة فى يوم ١٠ منه تحددت تخوم الروسيا فى جنوب باطوم وحصلت المكالمة فى اخلاء الاراضى الباقية للدولة من الجيوش الاجنبية وغرض مشروع قاض يجعل مضيق شيبكا المشهور حراً غير تابع لدولة أو امارة ليقام فيه بناء لدفن كل من قتل فيه من الجنود وجددت المداولة فى الطرق الضامنة نفاذ هذه القرارات وتلى جزء من مشروع المعاهدة المراد التوقيع عليها

وفى الجلسة الثامنة عشرة المنعقدة فى يوم ١١ منه استمرت المداولات فى طرق تنفيذ المعاهدة وتلى جزء من مشروعها وتحددت تخوم الروسيا من جهة آسيا وسمعت اقتراحات انكلترا بالنسبة لبوغازى البوسفور والدردنيل وتبودلت الآراء فيما كانت تدفعه الصرب ورومانيا من الجزية النقدية وفى توزيع دين الدولة العلية العمومى وفى ارسال لجنة أوروبية لتسكين الثورة فى البلغار

وفى الجلسة التاسعة عشرة المنعقدة فى يوم ١٢ منه تلى جواب الروسيا على اقتراحات انكلترا المختصة بالبوغازين وتمت تلاوة المعاهدة

وفى الجلسة المتممة للعشرين المنعقدة فى يوم ١٣ يوليو سنة ١٨٧٨ الموافق ١٠ رجب سنة ١٢٩٥ وقع جميع المندوبين على صورة المعاهدة النهائية وكان توقيعهم باعتبار ترتيب حروف المعجم الافرنكى من أوّل اسم كل دولة من الدول العظام بان وقع أوّلا مندوبو ألمانيا ثم النمسا والمجر ثم فرانسا ثم بريطانيا العظمى ثم ايطاليا ثم الروسيا ثم الدولة العثمانية وقد جمعت محاضر هذه الجلسات بأجمعها ونشرت فى الكتاب الازرق الانكليزى فى مجلد لا ينقص عدد صفحاته عن ٢٥٠ فعلى من أراد الوقوف على ماحصل فيها تفصيلا من المناقشات والمداولات الاطلاع عليها حيث يجد بها ما يشفى غليله ويقف على آراء الدول أجمع فيما يختص بالمسألة الشرقية واليك نص معاهدة برلين نقلا عن مجموعة الجوائب

﴿ بسم الله القادر على كل شىء ﴾

لما كان حضرة سلطان العثمانيين وحضرة ملك مملكة بريطانيا المعظمة وارلانده وامبراطورة الهند وحضرة أمبراطور جرمانيا وملك بروسيا وحضرة امبراطور اوستريا

وملك بوهيميا وملك هنكاريا وحضرة رئيس جمهورية فرنسا وحضرة ملك ايطاليا وحضرة امبراطور جميع الروسيا يريدون لاجل اقرار الراحة العامة فى اوروبا انهاء المسائل التى ظهرت فى الشرق بسبب تقلبات الاحوال فيها فى هذه السنين الثلاث وبسبب الحرب التى أعقبتها معاهدة اياسطفانوس استقر رأيهم جميعاً على عقد مؤتمر يكون أحسن الوسائل لاجل الاتفاق بحسب ما تقرّر فى معاهدة اياسطفانوس وبناء على ذلك عينت الذوات الملوكية المشار اليهم وحضرة رئيس جمهورية فرنسا مرخصين وهم

حضرة ملكة مملكة بريطانيا العظمى وارلانده وامبراطورة الهند عينت الاونورابل بنيامين دزرائيلى الذى هو كبير وزراء انكلترا والانورابل روبرت ارثر تالبت عاسكون سيسل مركيز سالسبورى الذى هو ناظر خارجية انكلترا والاونورابل لورد اودوليم ليو بولد روسل الذى هو سفير من الطبقة الاولى لانكلترا لدى حضرة امبراطور جرمانيا وملك بروسيا

وعين حضرة امبراطور جرمانيا وملك بروسيا البرنس بسمارك كبير الوزراء فى بروسيا وبرنارد ارنست دو بولوى مستشار الخارجية والبرنس هوهنلوه شلنغفورست سفير ألمانيا لدى رئيس جمهورية فرنسا

وعين حضرة امبراطور أوستريا وملك بوهيميا وملك هنكاريا الكونت اندراسى وزيره الخاص ووزيره فى الامور الخارجية والكونت لويس كاروليى سفيره لدى امبراطور جرمانيا وملك بروسيا والبارون هنرى دوهايمول سفيره لدى ملك ايطاليا

وعين حضرة رئيس جمهورية فرنسا موسيو وليم هنرى وادنجتون أحد أعضاء مجلس الاعيان ووزيره فى الامور الخارجية وشارلس رايموند كونت دوصان فاليه من أعضاء مجلس الاعيان وسفير فرنسا لدى امبراطور جرمانيا وملك بروسيا وفيلكس دسيرز المكلف بادارة الامور السياسية فى دائرة الخارجية

وعين حضرة ملك ايطاليا الكونت لويس كورتى أحد أعضاء مجلس الاعيان ووزيره فى الامور الخارجية وادورد كونت دولونى سفيره لدى امبراطور جرمانيا وملك بروسيا وعين امبراطور جميع الروسيا البرنس الكسندر غورجيتوف وزيره فى الامور الخارجية والكونت دوشوفالوف من قرناء الحضرة الامبراطورية ومن أعضاء المجلس الخاص وسفيره لدى دولة بريطانيا وبول دوبريل سفيره لدى امبراطور جرمانيا وملك بروسيا

وعين حضرة سلطان العثمانيين الكسندر قره تيودورى باشا وزيره فى الامور النافعة ومحمد على باشا المشير فى عساكره وسعدالله بك سفيره لدى امبراطور جرمانيا وملك بروسيا فاجتمعوا فى برلين بحسب اشارة دولة أوستريا وهنكاريا وبموجب استدعاء دولة جرمانيا ومعهم سائر المحررات المؤذنة بالترخيص فبعد ان وجدت مطابقة للاصول وقع بينهم الاتفاق على المواد الآتية

﴿ المادة ١ ﴾ صارت الآن البلغار امارة مستقلة فى أمورها الداخلية (ادارة مختارة) تدفع خراجا فى كل سنة الى الباب العالى وتكون تحت تابعية الحضرة السلطانية ويكون لها حكومة مسيحية وعساكر وطنية

﴿ المادة ٢ ﴾ تكون امارة البلغار عبارة عن الاراضى الآتى ذكرها وهى ان حدود تلك الاراضى من جهة الشمال تبتدىء من حدود الصرب القديمة وتمر عن يمين ساحل نهر الطونه وتنتهى الى محل فى شرق سيلستريا وهذا المحل سيصير تعيينه من طرف المؤتمر الذى يشكل من مأمورى دول أوروبا ومن هنا أيضاً يتصل الحد فى البحر الاسود ويمر من جنوب منقاليا التى صار الحاقها برومانيا أما من جهة الجنوب فانه يبتدىء من مصب النهر ويمر من جوار القرى المسماة ( هوجه كوى ) و (سلامكوى ) و ( ايواجق ) و (قولبه) و (صوجيلق) على شاطىء النهر الى جهة فوق المحاذية لوادى (قاجق) ومن جنوب (بلبيه) و (كمجالق) على بعد من (جنكه) مقدار مترين ونصف ويتجاوز ( دلى قامجى ) ويمر من شمال (حاجى محله) ويصعد الى ذروة المحل الكائن فيما بين (تيكنلك) و ( ايدوس بره سا) ومنه الى بلقان قرين اباد (و بلقان) (ويره زويقه) ومن بلقان (قرغان) الواقع فى شمال المحل المسمى (قوتل) الى أن يتصل بمحل (تيمورقبو) وعلى هذا يكون مروره من سلسلة البلقان الكبير الاصلية ويمتد على جميع مساحته الى أن ينتهى الى ذروة (قوز يقه) ومن هنا يترك ذروة البلقان ويلتفت الى جهة الجنوب ويسير من بين قريتى (بيرتوب) و (دوزنجى) ويغادر قرية (بيرتوب) المذكورة الى البلغار وقرية دوزنجى الى شرق الروم ايلى ويتصل بنهر (طوزلى دره) ويسير مع مجرى النهر الى مصبه فى نهر (طو بولينجه) ثم الى نهر (اسموسكيو) الذى يصب فى نهر طو بولينجه المذكور بجوار قرية (بتريجوه) ويترك من الاراضى الكائنة فى نهر اسموسكيو المذكور مقدار كيلو متر و ٢ الى شرقى الروم ايلى ويمر من مقسم المياه فيما بين اسموسكيو ونهر (قامنيفه) و يلتفت الى الجنوب الغربى من التل المسمى (وونجاق) وينتهى رأساً الى النقطة المذكورة فى خريطة أركان حرب دولة اوستريا عدد ٨٧٥ ومن هنا يقطع بخط مستقيم الجهة العليا من وادى اهتمان ويمر من بين بوغدينه و (قره ولى) ويتصل بالخط فى مقسم أنهر المريج فيما بين اسقر وقمرلى وحاجيلر ويسير مع الخط المذكور من تلال و (لنيا) و (موغيلا) الى الممر الواقع فى نقطة عدد ٥٣١ والى المحلات المسماة (ازمايليقا) و ( رەوسومنا تيقه) ويدخل من بين (سيورى طاش) و (قادرتبه ) ويتصل بحدود لواء صوفيه ومن هنا يبتدىء من (قادرتبه) الى جهة الجنوب الغربى ويمر من بين نهر قره صو ونهر ( استروماقره صو) ويسير مع خط مقسم المياه ومن تلال الجبال المسماة (تيمورقبو) و ( اسقوفنيه) و ( قاضيمسار بلقان) و (حاجى كدك) تجاه بلقان قابتنبيق ويتصل بحدود لواء صوفيه القديمة وكذلك يمر من بلقان قابتنبيق المذكور ومن بين وادى (ريلسقارقا) ووادى ( بسقرارقا) و يسير مع خط

مقسم المياه ويدورتل (ودنجه بلانينا) وينزل الى وادى (استروما) فى المحل الذى يختلط به نهر استروما مع نهر ريلسقارقا ويدع قرية (براقلى) للدولة العلية ويصعد من جنوب قرية (بلشينقه) الى فوق ويمر من أقصر خط الى سلسلة (غوللا بلانيانا) وتل (غينقه) ويتصل بحدود لواء صوفيه ويترك كامل منشأ صوهارقا للدولة العلية ويلتفت الى جهة الغرب من جبل (رجينقا) ويدور جبال قاروناپابوقا وحدود لواء صوفيه القديمة من جبل (قرنى وره) ويمر من فوق مياه (اكريصو) و (لبنيقه) ويطلع الى تلال (باينا بولانا) حتى ينتهى أيضاً الى جبل قرنى وره المذكور ومن هذا الجبل يمر من تلال (استرزر) و (ويله غوصو) و (مسيد بلانينا) ومن بين (اوستروما) و (موراوه) مع خط مقسم المياه الى غاسيناوقرنه طراوه ودار قوسـقه ودرانيقه بلان وبعدها من فوق دوشاقلادانق ومن مقسم أنهر صوقوه وموراوه ويذهب رأساً الى المحل المدعو (استول) ومن هنا ينزل الى الطريق الموصلة الى صوفيه وبيروته ويقطع فى هذه الطريق ألف متر ومنه عن طريق ويديليا بلانينا ويصعد على خط مستقيم الى جبل (رادوجينا) الكائن فى سلسلة البلقان الكبير ويترك قرية دويقنجى الى صربستان وقرية (سناقوس) الى البلغار ثم يلتفت الى جهة الغرب ويدور تلال البلقان المسمى (سبروق) من صوب استاره بلانينا ويتصل بشرقى حدود امارة الصرب القديمة بجوار (تولا اسميلوه قوفه) ويسير على هاته الحدود حتى ينتهى الى نهر الطونه عند (راقويجه) ثم ان هذه الحدود جميعها سيصير تعيينها بمعرفة لجنة مركبة من وكلاء الدول الممضية على المعاهدة وحصل الاتفاق أولاً على ان هاته اللجنة تنظر بالاعتناء فى خصوص محافظة حدود بلقان شرقى الروم ايلى الكائن تحت سلطة الدولة العلية وثانياً أن لا يصير انشاء استحكام فى أطراف (صماقو) بمسافة ١٠ كيلو متر

﴿ المادة ٣ ﴾ يكون انتخاب أمير البلغار من أهلها بحرية تامة واقرار الباب العالى برضى دول أوروبا العظام ولا يصح انتخاب أمير عليها من بيوت الدول المذكورة فاذا توفى عن غير ولد يكون انتخاب أمير بعده على الشروط والاصول المقررة

﴿ المادة ٤ ﴾ بعد انتخاب الامير تجتمع أعيان البلغاريين فى طرنوى لترتيب أحكام ونظامات تخص الامارة وفى الجهات التى يكون سكانها من الترك وأهل رومانيا والروم وغيرهم يلزم مراعاة حقوقهم ومصالحهـم فيما يتعلق بقضية الانتخاب وترتيب الاحكام الاساسية

﴿ المادة ٥ ﴾ المواد الآتية تكون أساساً للحقوق العمومية فى البلغار وهى ان الاختلاف فى المذاهب والاعتقادات لا يخرج أحداً من الاهلية والجدارة من تمتعه بالحقوق المدنية والسياسية أو بدخوله فى الوظائف الميرية أو العمومية ونواله الشرف أو استعماله الصنائع والحرف المختلفـة كيفما كان مقرّه فان الحرية أو مباشرة جميع الاعمال الدينية ينبغى تأمينها لجميع الناس القاطنين فى البلغار من أهلها ومن الاجانب

أيضاً ولا يسوغ اتخاذ مانع ما لترتيب درجات أرباب المذاهب المختلفة أو لعلاقتهم مع رؤسائهم الروحانيين

﴿ المادة ٦ ﴾ تكون ادارة ( البلغار المؤقتة ) تحت ادارة مأمورين من دولة الروسيا الامبراطورية الى أن تنتظم فيها القوانين الاساسية و يستدعى مأمور من طرف السلطنة العثمانية والقناصل الذين تنتخبهم الدول الذين وقعوا على هذه المعاهدة بقصد مراقبة أعمال ( الادارة المؤقتة ) المذكورة فاذا حصل خلاف بين القناصل المذكورين فابرام العمل يكون على حسب أكثرية الآراء كما أنه اذا حصل خلاف بين أكثرية آراء المذكورين والمأمورين من طرف امبراطورية الروسيا أو المأمورين من طرف الحضرة السلطانية تجتمع سفراء الدول بالاستانة الذين وقعوا على هذه المعاهده فى مؤتمر ( كنفرانس ) ليقرّ رأيهم على انهاء الخلاف المذكور

﴿ المادة ٧ ﴾ تشكيل (الادارة المؤقتة) المذكورة لا يبقى أكثر من تسعة أشهر اعتبارا من يوم التوقيع على هذه المعاهدة و بمجرد انتخاب الامير تصير مباشرة اجراء الاحكام الجديدة فتصير تلك الاحكام دستوراً للعمل وتكون الامارة قد حازت استقلاليتها الادارية ( ادارتها المختارة ) حوزاً تاماً

﴿ المادة ٨ ﴾ جميع المعاهدات التجارية والسفرية والاتفاقات التى جرت بين الدول الاجنبية و بين الباب العالى والتى لم يزل عملها جاريا تبقى مرعية الاجراء مع امارة البلغار فلا يصح تبديل شيء منها مع احدى الدول المذكورة بدون رخصة منها ولا يسوغ وضع شيء من الضرائب على البضائع التى ترسل الى احدى الجهات فى مرورها على البلغار وتكون معاملة جميع الاهالى ورعايا الدول وتجارتهم فى الامارة على قدم مساواة تامة وتبقى امتيازات وخصائص الاجانب المقرّرة فى المعاهدات ( التى أمضيت بين الدول والباب العالى ) مرعية الاجراء فى الامارة مادام لم يحصل تعديلها برضى الدول

﴿ المادة ٩ ﴾ الويركو السنوى الذى يجب على امارة البلغار ان تدفعه فى كل سنة الى متبوعها الحضرة السلطانية يكون دفعه الى البنك الذى يعينه الباب العالى و يكون تعيين المبلغ عند ختام السنة الاولى من جريان نظاماتها الجديدة باتفاق بين الدول الموقعة على هذه المعاهدة وهذا الويركو يحسب بمناسبة ايراد الامارة وحيث أنها ستحمل جانبا من ديون السلطنة العمومية يلزم للدول أيضاً أن يتذاكروا على مقدار الدين الذى يعين على الامارة وذلك عند مذاكرتهم فى أمر الويركو

﴿ المادة ١٠ ﴾ جميع التعهدات والاتفاقات التى وعدت السلطنة العثمانية باجرائها مع شركة سكة الحديد بين وارنه وروسجق تدخل فى عهدة امارة البلغار اعتباراً من مبادلة التوقيع على هذه المعاهدة أما تسوية الحسابات السابقة التى كانت بين الشركة المذكورة

و بين الباب العالى فأمرها يكون بين الباب العالى وحكومة البلغار والشركة المذكورة وكذلك دخل فى عهدة البلغار وسائر تعهدات الباب العالى مع دولة أوستريا وهنكاريا ومع الشركة المنوط بعهدتها تشغيل سكك الحديد فى الروم ايلى فيما يتعلق باتمام السكك المذكورة واتصالها فى الاراضى التى دخلت الآن فى حوزة البلغار ويكون عقد شروط الاتفاقات اللازمة لتسوية هذه المسائل بين دولة أوستريا وهنكاريا والباب العالى والصرب وامارة البلغار عند اقرار الصلح

﴿المادة ١١﴾ بعد هذا لا تبقى العساكر العثمانية فى البلغار وهدم سائر القلاع والحصون يكون على مصروف حكومة الامارة فى ظرف سنة واحدة او أقل من ذلك ان أمكن وينبغى لتلك الحكومة ان تتخذ وسائط معجلة لذلك ولا يسوغ لها أن تبنى بدلها حصونا جديدة ويكون للباب العالى حق فى ان يتصرف فى المهمات الحربية وغيرها من الاشياء التى هى ملك له الباقية فى حصون الطونه التى أخلتها العساكر العثمانية بموجب المدنة التى حصلت فى ٣١ يناير (كانون الثانى) وكذلك التى فى شمله (شمنى) ووارنه

﴿المادة ١٢﴾ المسلمون وغيرهم الذين لهم أملاك فى البلغار ويريدون السكنى خارجا عنها يبقون متمتعين باملاكهم فيمكنهم والحالة هذه ايجارها الى غيرهم وادارتها بمعرفة من ينتخبونه وتشكل لجنة مؤلفة من الترك والبلغاريين لتسوية جميع المسائل المتعلقة بكيفية نقل وتشغيل أملاك الوقف لحساب الباب العالى والمسائل المتعلقة بالذين لهم مصالح فيها وهذه التسوية تكون فى ظرف سنتين ثم ان البلغاريين الذين يسافرون أو يسكنون فى باقى أطراف الممالك العثمانية يكونون تحت الاحكام والقوانين العثمانية

﴿المادة ١٣﴾ تشكل على جنوب البلقان ولاية تحت اسم (ولاية الروم ايلى الشرقية) وتكون تحت تابعية الحضرة السلطانية تابعية سياسية وعسكرية بشرط أن تكون مشمولة باستقلالية ادارتها ويكون واليها نصرانيا

﴿المادة ١٤﴾ حدود (ولاية الروم ايلى الشرقية) تكون متصلة بحدود البلغار من جهتى الشمال والشمال الغربى والولاية المذكورة تكون عبارة عن الاراضى الكائنة ضمن الدائرة الآتى ذكرها فحد هذه الولاية يبتدىء من البحر الاسود ويسير على النهر الواقع فى جوار القرى المسماة (هوجه كوى وسلام كوى وابواجق وقوليه وصوجياق) الى جهة فوق محاذيا لوادى (دلى قامجق) ويمر من فوق (جكنه) مقدار مسافة ٢ كيلو متر ونصف تقريبا ويتصل بجنوب قراه (بلبيه) و (كمجالق) ثم يصعد الى التل الكائن فيما بين (تبكنلك) و (ابدوس) و (برؤسا) ويمر من بلقان (قربن اباد) و بره زويجه و (قزغان) حتى يصل الى (تيمورقبو) بالجهة الشمالية من (قوتل) و بعدها يدور جميع سلسلة البلقان الكبير وينتهى الى تل (قوزيقه) وفى هذه النقطة أعنى من ذروة البلقان الكائن على غربى حدود الروم ايلى ينزل الى جهة الجنوب مارا من بين قرية بيتروب التى تركت البلغار و بين قرية دوزانس

الباقية فى الروم ايلى و يصل الى نهر (طوزلى دره) و يسير مع النهر الى مجمعه مع نهر طو بولينقا وكذلك يمر مع هذا النهر الى مجمعه مع نهر (سموو ستيور) فى جوار قرية (پتريسووا) وعلى هذا يترك للروم ايلى الشرقية فى شطوط مجارى هاته الانهر محلا مقدار ٢ كيلومتر ثم يتبع الخطوط الفاصلة للمياه المذكورة و يسير الى جهة فوق على طول أنهر (سمو وسقبور) و (قامنيقا) و يلتفت الى الجنوب الغربى فى تل (ووانجاق) و يصل الى المحل المبين فى خريطة أركان حرب دولة أوستريا عدد ٨٧٥ ثم يقطع على خط عمودى مجرى نهر (ايجمان دره) من الاعلى و يمر من بين (بوغدينا) و (قارولا) حتى يصل الى الخط الفاصل الكائن فيما بين نهرى (اسقر) و (ماريقا) و يسير على طول الموضح فى الخريطة المذكورة تحت رقم ٥٣٠ من تلال (وولينا موجيلا) و (جمابليقا) و (روه سومناتيقا) و يجتمع بحدود لواء صوفيه فيما بين (سبورى طاش) و (قادرتبه) فعلى هذا تفرق حدود الروم ايلى والبلغار من جبل (قادرتبه) ثم الخط الفاصل المذكور يمر الى قدام من بين أنهر ماريقا وتوابعه و بين أنهر (مستاقره صو) واتباعه تابعاً استقامة الخطوط الفاصلة لهذه المياه و يتوجه الى جهتى الجنوب الشرقى والجنوب ماراً من تلال جبل (دسبوط) الى صوب جبل (كروشوا) وهذا الجبل كان مبدأ الحدود التى عينتها معاهـدة ايا سطفانوس ثم الخط المذكور يتبع الخط المعين فى المعاهدة المذكورة أعنى انه يبتدىء من هذا الجبل و يمر على سلسلة (قره بلقان) من تلال (قولاقلى طاغ واشك جبلى وقره وقولاس وايشيقلر) و يسير جهة الجنوب الشرقى حتى ينتهى الى نهر (واردا) و يسير مع هذا النهر على طوله حتى يصل الى قرية (اطه قلعه) وتبقى هذه القرية فى سلطة الدولة العلية ومن هنا يصعد ذروة جبل (بش تبه) ثم ينزل و يمر من جسر (مصطفى باشا) و يتجاوز نهر المريج من جهة فوق بمسافة خمسة كيلومتر ثم يتوجه الى جهة الشمال مع بين الانهر الصغار التى تصب فى نهرى (خانلى دره) و (مريج) و يسير على خط مقسم المياه الى المحل المسمى (كودلر بايرى) ومن هنا يلتفت الى جهة الشرق و يمتد الى (صقار بايرى) ومنه الى وادى (طونجه) والى (بيوك دربند) و يترك (بيوك دربند) و (صوجاق) الى جهة الشمال ثم يسير من بين الانهر التى تصب فى نهر طونجه من جهة الشمال وفى نهر المريج من جهة الجنوب على خط مقسم المياه و يصعد الى تل (قيبلر) وتبقى قيبلر فى الروم ايلى الشرقية ثم يلتفت الى جهة الجنوب و يمر من بين المياه الكائنة فيما بين نهر المريج من جهة الجنوب و بين قريتى (بلورن) و (التلى) التى تصب فى البحر الاسود و يصل الى جنوب قرية (المالى) و يدور تلال (ووسنه) و (زواق) من شمال المحل المسمى (كراكلق) و يسير مع الخط الفاصل فيما بين نهرى (دوكه) و (قره اغاج) حتى يتصل بالبحر الاسود

﴿ المادة ١٥ ﴾ يكون للحضرة السلطانية حق فى أن تباشر محافظة الحدود البرية والبحرية وذلك بأن تبنى فى تلك الحدود استحكامات وتقيم فيها عساكر ولتأمين الراحة

العمومية فى ولاية ( الروم ايلى الشرقية ) بشكل فيها ضبطية أهلية وعساكر داخلية ومذاهب الاهالى الذين تؤلف منهم هذه العساكر والضبطية تكون مرعية ويكون تعيين ضباطهم من طرف الحضرة السلطانية وقد تعهدت الحضرة السلطانية بان لا توظف فى حصون الحدود عساكر غير نظامية كالباشى بوزق والجراكسة وفى جميع الاحوال لا يسوغ للعساكر النظامية المذكورة أن تتعدى على الاهالى وعند مرورهم فى الولاية ( لاستقرارهم فى الاستحكامات ) لا يسوغ لهم الاقامة فيها

﴿ المادة ١٦ ﴾ يكون للوالى حق فى أن يستدعى العساكر العثمانية اذا حصل ما يخل بالراحة الداخلية والخارجية فاذا وقع ما يوجب ذلك يخبر الباب العالى نوّاب الدول بالاستانة عن قراره وعن السبب الذى أحوجه اليه

﴿ المادة ١٧ ﴾ يكون تعيين والى ( ولاية الروم ايلى الشرقية ) مدّة خمس سنين من طرف الباب العالى باتفاق الدول

﴿ المادة ١٨ ﴾ بمجرد مبادلة التوقيع على هذه المعاهدة تشكل لجنة أوروباوية للنظر فى تراتيب ادارة ( ولاية الروم ايلى الشرقية ) بالاتفاق مع الباب العالى ومن خصائصها ان تبين فى ظرف ثلاثة أشهر وظيفة مأمورية الوالى وماله من الاستطاعة وترتيب الولاية الادارية والنظامية والمالية ويكون ابتداء أشغالها تنظيم اختلاف أحكام الولايات وما حصل عليه المذاكرة فى الجلسة الثامنة من المؤتمر الذى عقد فى الاستانة وبعد ان يحصل القرار على جميع المصالح المتعلقة بالولاية المذكورة يصدر فرمان من طرف الحضرة السلطانية فيبلغه الباب العالى الى الدول

﴿ المادة ١٩ ﴾ يناط بعهدة اللجنة الاوروباوية المذكورة بالاتفاق مع الباب العالى ادارة المالية فى الولاية الى ان تجز القوانين الجديدة المراد وضعها

﴿ المادة ٢٠ ﴾ جميع المعاهدات والاتفاقات والمعاملات التى جرى تداولها بين الباب العالى والدول الاجنبية أو التى ستعقد فيما بعد يكون معمولا بها فى ( ولاية الروم ايلى الشرقية ) كما هو جار فى سائر السلطنة العثمانية وجميع الامتيازات والخصائص التى حازتها الاجانب على اختلاف وظيفتهم ومصلحتهم تبقى محترمة فى الولاية المذكورة وقد تعهد الباب العالى بان جميع أحكام السلطنة هناك فيما يخص المذاهب المختلفة يكون معمولا بها ومرعية الاجراء

﴿ المادة ٢١ ﴾ تبقى حقوق الباب العالى وتعهداته فيما يتعلق بسكك الحديد فى الروم ايلى الشرقية معمولا بها ومرعية الاجراء

﴿ المادة ٢٢ ﴾ تكون قوّة الروسيا فى البلغار وفى ( ولاية الروم ايلى الشرقية ) مؤلفة من ست فرق من المشاة وفرقتين من الخيالة وجميع ذلك لا يزيد على ٥٠٠٠٠ نفر وتكون مصاريفهم على الولايات التى يتبوّؤنها وتبقى علاقتهم ومواصلتهم مع الروسيا بواسطة رومانيا بحسب الاتفاق الذى يحصل بين الحكومتين المذكورتين وفضلا عن ذلك تكون

بواسطة مراسى البحر الاسود مثل وارنه و بورغاس حتى يمكن لهم أن يتخذوا هناك مخازن للوازمهم مدّة اقامتهم وتقرّر أيضاً ان اقامة العساكر الامبراطورية فى (ولاية الروم ايلى الشرقية) والبلغار تكون مدّة تسعة أشهر اعتباراً من يوم مبادلة التوقيع على هذه المعاهدة وقد تعهدت دولة الروسيا الامبراطورية انه قبل انقضاء هذه المدّة تمنع مرور عساكرها من رومانيا فتخلو منهم امارة البلغار

﴿المادة ٢٣﴾ قد تعهد الباب العالى بان يجرى فى جزيرة كريد النظامات التى تقرّرت فيها فى سنة ١٨٦٨ والتعديلات التى يرى من العدل اجراءها وكذلك يجرى فى بقية الولايات نظامات وقوانين على ماتقتضيه المصالح الداخلية كما فى كريد مما لم ينص عليه فى هذه المعاهدة نصاً خصوصياً الا فيمايتعلق بالغاء الضرائب كما هو جار الآن فى كريد ويشكل من طرف الباب العالى لجنات مخصوصة يكون أكثر أعضائها من الاهالى للنظر فى متعلقات النظامات اللازم اجراؤها فى كل ولاية ثم تعرضها على الباب العالى للتروّى فيها وقبل أن يعمل بها وتجعل دستوراً للعمل يلزم الباب العالى أن يستشير اللجنة الاوروباوية المنعقدة للنظر فى أحوال الروم ايلى الشرقية

﴿المادة ٢٤﴾ اذا فرض انه لم يقع اتفاق بين الباب العالى ودولة اليونان فيمايتعلق بتعديل الحدود كما تقرر فى المادة ١٣ من مضبطة مؤتمر برلين فدول جرمانيا وأوستريا وهنكاريا وفرنسا وبريطانيا العظمى وايطاليا والروسيا تحفظ لنفسها عرض التوسط بين الفريقين تسهيلا للمذاكرات

﴿المادة ٢٥﴾ تتبوّأ عساكر أوستريا وهنكاريا ولايتى بوسنه وهرسك و يناط بها أيضاً أمر ادارتهما وحيث انها لاتريد أن تتولى ادارة سنجقية يكى بازار الممتدة بين الصرب والجبل الاسود على الخط الجنوبى الشرقى ماوراء ميتر ووتسه فالادارة العثمانية تبقى معمولا بها هناك وحيث ان المراد اقرار الاحوال السياسية الجديدة وحرية المواصلات وتامينها فدولة أوستريا وهنكاريا تحفظ لنفسها الحق بان يكون لها قشل وطرق تجارية وعسكرية فى جميع الجهات المذكورة ولهذه الغاية تحفظ لنفسها هى والدولة العثمانية ان تتفقا على المواد المتعلقة بهذه المسألة

﴿المادة ٢٦﴾ قد اعترف الباب العالى باستقلال الجبل الاسود وكذلك اعترفت به بقية الدول الموقعين على هذه المعاهدة الذين لم يعترفوا به سابقا

﴿المادة ٢٧﴾ اتفق الموقعون على هذه المعاهدة على ان استقلال الجبل الاسود يكون مربوطا بالمواد الآتية وهى لايسوغ التمييز فى الاعتقادات الدينية فى الجبل فلا يخرج أحداً من الاهلية والجدارة لجميع مايتعلق بتمتعه بالحقوق المدنية والسياسية أو بدخوله فى الوظائف الميرية أو العمومية أو نواله الشرف أو استعماله الصنائع والحرف المختلفة كيفما كان مقرّه فلجميع الاهالى التابعين للجبل الاسود وللاجانب ايضاً الحرية التامة

فى جميع المتعلقات المذهبية ولا يسوغ اتخاذ مانع مافى ترتيب درجات أرباب المذاهب المختلفة او فى علاقتهم مع رؤسائهم الروحانيين

﴿ المادة ٢٨ ﴾ قد صار تعيين حدود الجبل الاسود كما سيأتى وهى انها تبتدىء من ( ايلينو برودو ) وتسير الى شمال ( قلو بوق ) وتمر من فوق ( تره بنيجه ) وتصل بمحل ( غرانقارو ) وتبقى غرانقارو ضمن لواء هرسك ومنها يصعد الخط الفاصل الى جهة فوق من نهر غرانقارو و يصل الى محل يبعد عن النهر الذى يصب فى ( سيبلقه ) مقدار كيلومتر فقط ومن هنا يسير على أقصر طريق و يصعد الى التلال التى فى جوار ( تره بنيجه ) ثم يذهب الى ( بيلاتوه ) و يترك هذه القرية للجبل ثم يسير من التلال الى جهة الشمال وعلى قدر الامكان يمر بعيداً عن طريق ( بيلكه ) و ( قور يتو ) و ( غاجقه ) مقدار ٦ كيلومتر و يصل الى الطريق الكائنة فيما بين ( سو يتا بلانينا ) وجبل قور يله ومنها عن جهة الشرق يمتد الى جبل اورلين و يترك قرية ( وارتقو يجى ) لهرسك ثم يمتد من الشمال الشرقى و يدع ( روانه ) داخل الجبل و يمرّ من تلال ( لبرسليك ) و ( ولجاق ) و يسير من أقصر طريق و ينزل الى نهر ( بيوه ) و يتجاوز هذا النهر و يصل الى ( تاره ) الكائنة بين ( قرقو يقه ) و بين ( وندو ينه ) ومن ( تاره ) يصعد الى ( موجقواق ) و يتصل بمحل ( سقوج زرو ) ومن هنا الى قرية ( صوقولار ) و يجتمع بالحدود القديمة ثم يمر الى تلال مقرابلانينا وتبقى قرية مقرا داخل الجبل و يمر أيضاً من السلسلة الاصلية الى الطريق المذكورة فى خريطة أركان حرب أوستريا تحت رقم ٢١٦٦ ومن فوق مقسم المياه الواقع بين ( ليم ) و ( درين ) و بين ( سيونه زم ) ثم يتصل بالحدود الجديدة بعد مروره فيما بين قبيلة ( قاجى دره قالو يجى ) و بين ( قوسنقارجنه ) و ( قلامنتى ) و ( غردوى ) و بعد ذلك ينزل الى صحراء بودغوريجه و يترك قبائل قوسقارجنه وقلامنتى وغرودى وهوتى لبلاد الارناؤوط و يتصل ( ببلاو نيقه ) ومن هنا يمرّ من جوار جزيرة ( غور يقه طو بال ) و يتجاوز ماء اشقودره و يسير رأساً من ( غور يقه ) طو بول الى التلال و يمرّ من مقسم المياه الكائن فيما بين ( مغورد ) و ( قاليمد ) مع خط المقسم المذكور و يترك ( ميرقو يق ) داخل الجبل و ينتهى الى بحر ونديك ( فينيسيا ) عند قرية ( فروجى ) ثم يلتفت الى الشمال الغربى و يمر فى الساحل من بين قرى ( سوسانه ) و ( زو يمى ) و يتصل بمنتهى الحدود الجديدة فى جهة الجنوب الشرقى فوق ( ورسوته بلانينا )

﴿ المادة ٢٩ ﴾ انضمام انتوارى ( بارى ) وخطوط البحر التى تخصها الى الجبل الاسود مشروط على الصورة الآتية وهى ان يعاد على الدولة العثمانية الاراضى الكائنة على جنوب تلك الجهة الى بو يانا من ضمنها دولسنجو و يضم الى دلماتيا مرسى سبزا والاراضى المتعلقة بها الى غاية حدودها الجنوبية كما هى مبينة بالتفصيل فى الخريطة و يكون للجبل الحرية المطلقة التامة للسفر فى نهر بو يانه ولكن لا يسوغ له أن يبنى على النهر حصونا أو استحكامات الا مالزم للمحافظة على اشقودره خاصة فتكون تلك الحصون والحالة هذه غير

خارجة عن دائرة مسافتها حول المدينة المذكورة بستة كيلو متر ( ٦٠٠٠ متر أونحو عشرة أميال ) ولا يكون له بواخر حربية ولا راية ولا يسوغ لاى دولة كانت أن تدخل بواخرها الحربية الى مرسى التوارى أما الحصون الكائنة فى أرض الجبل بين النهر وشط البحر فتهدم بالكلية ولا يسوغ اعادة بنائها ويفوّض لعهدة أوستريا وهنكاريا ادارة البحرية والصحية فى التوارى وفى شطوط الجبل وعلى الجبل أن يستعمل القوانين والاصطلاحات البحرية على موجب القوانين والاصطلاحات الجارية فى دلماسيا ( باوستريا ) وقد تعهدت أوستريا وهنكاريا بان تحمى بواخر الجبل الاسود التجارية ويلزم للجبل أن يتفق مع أوستريا وهنكاريا على مدسكة الحديد وانشاء طرق عادية فى الاراضى التى دخلت حديثاً فى حوزته وعلى تامين حرية المواصلة عليها

﴿ المادة ٣٠ ﴾ المسلمون وغيرهم الذين يملكون عقارات فى الاراضى التى انضمت الى الجبل الاسود ويريدون أن يستوطنوا خارجاً عن الامارة لهم حق بان يبقوا مالكين عقاراتهم بايجارها أو تشغيلها بواسطة من يختارونه وتشكل لجنة مؤلفة من مامورين من العثمانيين وأهل الجبل الاسود لتسوية المسائل التى تتعلق بكيفية نقل الاملاك أو حرثها أو ادارتها سواء هى من أملاك الوقف أو الاملاك الميرية التى للباب العالى فتجرى تسوية جميع متعلقات الذين لهم مصلحة فيها وهذه التسوية تكون فى ظرف ثلاث سنين

﴿ المادة ٣١ ﴾ على امارة الجبل الاسود أن تتفق مع الباب العالى على ما يتعلق بتعيين وكلاء من طرفها فى الاستانة أو فى جهات أخرى من السلطنة العثمانية مما يرى لازما أما أهل الجبل المقيمون فى السلطنة العثمانية أو المسافرون فيها فيكونون تحت أحكام الدولة العثمانية على حسب الاصول المقررة بين الدول وعلى حسب العوائد المقررة مع الجبل

﴿ المادة ٣٢ ﴾ يلزم ان عساكر الجبل الاسود تخلى الاراضى التى هم الآن مستولون عليها مما لم يدخل فى حدود امارة الجبل الجديدة وذلك فى ظرف عشرين يوماً اعتباراً من يوم التوقيع على هذه المعاهدة أو أقل من هذه المدّة اذا أمكن كذلك يلزم للعساكر السلطانية ان تخلى فى المدّة المذكورة الاراضى التى دخلت الآن فى حوزة الجبل

﴿ المادة ٣٣ ﴾ حيث انه يلزم الجبل الاسود أن يتحمل جانباً من الديون العثمانية العمومية فى مقابلة الاراضى الجديدة التى دخلت فى حوزته بموجب شروط الصلح فتعين نوّاب الدول الاجنبية فى الاستانة هذا المبلغ بالاتفاق مع الباب العالى على أصول عادلة

﴿ المادة ٣٤ ﴾ لما كان الموقعون على هذه المعاهدة معترفين باستقلالية امارة الصرب فقد ربطنها بالشروط المحررة فى المادة الآتية

﴿ المادة ٣٥ ﴾ لا يسوغ التمييز فى الاعتقادات الدينية فى الصرب ضد أحد حتى يخرجه من الاهلية والجدارة لجميع ما يتعلق بتمتعه بالحقوق المدنية والسياسية أو بدخوله فى الوظائف الميرية أو العمومية أو نواله الشرف أو استعماله الصنائع والحرف المختلفة كيفما كان مقرّه

فلجميع الاهالى التابعين للصرب والاجانب أيضاً الحرية التامة فى جميع المتعلقات المذهبية ولا يسوغ اتخاذ مانع ما فى ترتيب درجات أرباب المذاهب المختلفة أو فى علاقتهم مع رؤسائهم الروحانيين

﴿ المادة ٣٦ ﴾ امارة الصرب تكون مالكة للاراضى الموجودة فى ضمن الحدود الآتى ذكرها وهى ان الخط الفاصل يمر على طول الخط الحالى ومن مصب نهر (درينا) فى نهر صاوا و يذهب مع المجرى و يترك (ازرونبق وزخار) للامارة ولا يترك الخط المذكور أعنى الحدود القديمة الى (قابونيق) ثم يفترق فى ذروة جبل قابونيق عن الخط المذكور و يسير من جنوب الجبل على طول حدود نيش الشرقية و يمر من تلال (ماريقا وماردار بلانينا) وهذه التلال هى الخط الفاصل بين أنهر (ايلبار وسينيقاوطو بليقا) وعلى هذا تبقى پره بولاد للدولة العلية و بعده يسلك خط مقسم المياه الى جهة الجنوب من بين (برونيقا) ومدودجا و يترك وادى مدودجا كله للصرب و يصعد الى تل (قوجاق بلانينا) و يكون هو الخط الفاصل فيما بين الانهر المسماة (بولجينا وترنيقا وموروا) و يصل الى تل (بولجنيقا) ثم يذهب من تجاه (قاينا بلانينا) الى مجمع أنهر (قوانسقاوموراوه) و يتجاوزه و يسير على الخط الفاصل فيما بين مياه النهر الذى يختلط بنهر موراوه فى جوار (قوانسقا) و (تره دوس) و يتصل (ببلانينا ايليجه) فوق (رغو بست) ومن هنا أعنى من ذروة جبل ايليجه يمتد الى ذروة جبل (قلتروق) و يمر من المحلات المدروجة فى الخريطة تحت عدد ١٥١٦ و١٥٤٧ ومن (بابيناغورا) و ينتهى الى جبل (قرنى وره) ثم يبتدىء من هذا الجبل و يجتمع بحدود البلغار يعنى يمر من تلال (استره سروو يلو غلوومسيد بلانينا) و يسير على خط مقسم المياه الواقع فيما بين استروماو (موراوه) و ينتهى الى المحلات المدعوة (غاسينا وقرنه براوه ودار قوسقوه ودراينيقه بلان) و بعدها يمر من فوق (دشانى قلادنق) ومن أعلى مقسم مياه (صوقوه وموراوه) و يذهب رأساً الى (استول) ومن هنا ينزل الى قرية (سغوزه) من جهة شمالها الغربى و يقطع طريق (بيروت) بمسافة مقدار ألف كيلومترو عن صوفيه و يصعد على خط مستقيم الى (و يدليق بلانينا) و يمر من جبل (رادوجينا) الواقع فى سلسلة البلقان الكبيرة و يترك قرية (دوقنجى) لامارة الصرب وقرية (سناقوس) الى البلغارستان ثم يسير من ذروة هذا الجبل الى جهة الشمال الغربى و يمر من بلقان (سبروق) ومن استارا (بلانينا) و يصعد الى تلال البلقان وفى جوار (قولااسه ياجوه قوقه) يتصل بحدود الصرب الشرقية القديمة و يسير على هذه الحدود الى نهر الطونه و ينتهى عند النهر فى (راقو يجه)

﴿ المادة ٣٧ ﴾ لا يغير شىء فى الصرب من الشروط الحالية فيما يخص العلاقات التجارية الكائنة بين الممالك الاجنبية و بين امارة الصرب الى أن يجرى بدلها اتفاقات جديدة ولا يسوغ أن يؤخذ على البضائع التى تمر فى الصرب مرسلة الى جهة أخرى شىء من العوائد أو الرسومات أما المزايا والامتيازات الشاملة الآن رعايا الدول الاجنبية فى الصرب وحقوق

الاحكام وحماية القناصل لرعاياهم على الاصول المعمول بها الآن فتبقى مرعية الاجراء الى أن يحصل اتفاق بين امارة الصرب والدول الاجنبية على تعديلها

﴿ المادة ٣٨ ﴾ التعهدات التى تعهد بها الباب العالى مع دولة اوستريا وهنكاريا اومع شركة سكة الحديد فى الروم ايلى أو فيما يتعلق باتمام السكك الحديدية وتشغيلها فى الاراضى التى دخلت فى حوزة الصرب تبقى مرعية الاجراء عندامارة الصرب وعند التوقيع على هذه المعاهدة يجرى اتفاق بين دولة اوستريا وهنكاريا والباب العالى والصرب وامارة البلغار على قدرما يخصها لتسوية هذه المسائل

﴿ المادة ٣٩ ﴾ المسلمون الذين يملكون عقارات فى الاراضى التى انضمت الى الصرب ويريدون أن يستوطنوا خارجاً عن الامارة لهم الحرية بأن يبقوا مالكين عقاراتهم بمؤاجرتها أو تشغيلها بواسطة من يختارونه وستشكل لجنة مؤلفة من مامورين من العثمانيين والصربيين لأجل تسوية جميع المسائل التى تتعلق بكيفية نقل وادارة الاملاك المتعلقة بالوقف أوالاملاك الميرية التى للباب العالى وكذلك تسوية جميع متعلقات الناس الذين لهم مصلحة فيها وهذه التسوية تكون فى ظرف ثلاث سنين

﴿ المادة ٤٠ ﴾ تكون معاملة رعية الصرب القاطنين فى السلطنة العثمانية أو المسافرين فيها بحسب أصول الاحكام والقوانين المتداولة بين الدول الى أن تحصل معاهدة بين الدولة العثمانية والصرب

﴿ المادة ٤١ ﴾ يلزم لعساكر الصرب اخلاء جميع الاماكن التى لم تدخل فى حوزة امارتهم فى ظرف خمسة عشر يوماً اعتباراً من يوم التوقيع على هذه المعاهدة كذلك يلزم للعساكر السلطانية أن تخلى فى المذكورة الاماكن التى دخلت فى حوزة الامارة

﴿ المادة ٤٢ ﴾ حيث انه يتعين على الصرب حمل جانب من الديون العثمانية العمومية فى مقابلة الاراضى الجديدة التى حازتها بموجب هذه المعاهدة فسفراء الدول الاجنبية فى الاستانة يعينون مبلغ قيمة الاراضى المذكورة على صورة عادلة بالاتفاق مع الباب العالى

﴿ المادة ٤٣ ﴾ لما كان الموقعون على هذه المعاهدة معترفين باستقلالية رومانيا فربطتها بالشرطين الآتيين

﴿ المادة ٤٤ ﴾ لايسوغ التميز فى الاعتقادات الدينية فى رومانيا ضد أحد حتى يخرجه عن الاهلية والجدارة لجميع مايتعلق بتمتعه بالحقوق المدنية والسياسية أو بدخوله فى الوظائف الميرية أو العمومية أو نواله الشرف أو استعماله الصنائع والحرف المختلفة كيفما كان مقره فلجميع الاهالى التابعين لرومانيا والاجانب أيضا الحرية التامة فى جميع المتعلقات المذهبية ولا يسوغ اتخاذ مانع ما فى ترتيب درجات أرباب المذاهب المختلفة أو فى علاقتهم مع رؤسائهم الروحانيين فتكون معاملة رعايا جميع الدول سواء كانوا من

التجار أوغيرهم فى رومانيا بدون تميز فى المذهب على قدم مساواة تامة

﴿ المادة ٤٥ ﴾ امارة رومانيا تعيد على حضرة امبراطور الروسيا أراضى بيسارابيا التى كانت انفصلت من الروسيا بموجب معاهدة باريس التى أمضيت فى سنة ١٨٥٦ وحدودها فى الجهات الغربية من مجرى نهر البروث وفى الجنوب من نهر ( كيليا ) وفم (ستارى استانبول )

﴿ المادة ٤٦ ﴾ يضم الى رومانيا الجزر الثلاثة التى على الطونه وجزر ( يلان طاغ ) وسنجقية طولجى وهى تشمل قضا آت كيليا وسولينا ومحموديه وزانجه وطولجى وماجين وباباطاغ وهرسوا وكوستنجه ومجيديه وماعدا ذلك يعطى لها أيضاً الاراضى الكائنة على جنوب الدبروجه الى أن تصل الى خط يبتدىء من شرقى سيلاستريا ويمتد الى البحر الاسود على جنوب منغاليه ويكون تعيين تخوم تلك الحدود فى تلك المواقع بمعرفة اللجنة الاوروباوية المنوط بعهدتها تعيين حدود البلغار

﴿ المادة ٤٧ ﴾ مسألة تقسيم المياه والصيادة تعرض على لجنة الطونه الاوروباوية فتكون حكما عليها

﴿ المادة ٤٨ ﴾ لا يجوز وضع رسومات أو عوائد فى رومانيا على السلع التى تردالها بقصد ارسالها الى جهة أخرى

﴿ المادة ٤٩ ﴾ يسوغ لرومانيا أن تعقد مع الدول الاجنبية اتفاقا لتسوية مسئلة امتيازات وظائف قناصلهم فيما يتعلق بحماية رعاياهم فى الامارة الا أن الحقوق الحالية تبقى مرعية الاجراء مادام لم يحصل اتفاق عمومى بين الامارة والدول

﴿ المادة ٥٠ ﴾ تبقى رعية رومانيا القاطنون فى الممالك العثمانية أو المسافرون فيها أو رعايا العثمانيين المسافرون فى رومانيا أو القاطنون فيها متمتعين بالحقوق التى تشمل رعايا بقية الدول الاوروباوية الى أن تعقد معاهدة لتسوية امتيازات القناصل ووظائفهم بين الدولة العثمانية ورومانيا

﴿ المادة ٥١ ﴾ تعهدات الباب العالى ووظائفه فيما يتعلق باتمام الاشغال النافعة وما أشبهها فى الاراضى التى دخلت فى حوزة رومانيا تعود الى عهدة رومانيا

﴿ المادة ٥٢ ﴾ لاجل زيادة تأمين حرية السفر فى نهر الطونه التى اعترف انها من المصالح الاوروباوية قرّ رأى الموقعين على هذه المعاهدة بان جميع الحصون والاستحكامات الموجودة الآن على النهر من عند المحل الذى يقال له ( أبواب الحديد ) الى فم النهر تهدم بالكلية فلا يسوغ بعد هذا بناء غيرها ولا يجوز سفر احدى البواخر الحربية على الطونه الى ( أبواب الحديد ) الا البواخر الصغيرة المعينة لخدمة الضبطية فى النهر وخدمة الكمارك ولكن يسوغ لبواخر الدول الموجودة فى فم نهر الطونه لاجل الحراسة أن تسافر فى النهر الى غاية ( غلاتس )

﴿ المادة ٥٣ ﴾ تبقى لجنة الطونه الاوروباوية مقررة فى وظائفها ولرومانيا فيها نائب وتجرى عمال وظائفها الى (غلاتس) بحرية تامة مستقلة عن مداخلة مأمورى تلك الاراضى وتبقى أيضاً سائر معاهداتها واتفاقاتها وأشغالها وأعمالها وقراراتها فيما يتعلق امتيازاتها وخصائصها ووظائفها ثابتة الاجراء

﴿ المادة ٥٤ ﴾ قبل نهاية الاجل المقرر لبقاء لجنة الطونه الاوروباوية بسنة واحدة يلزم للدول أن يتفقوا على تطويل سلطتهم أو على التعديلات التى يرون اجراءها من اللازم

﴿ المادة ٥٥ ﴾ جميع النظامات المتعلقة بالسفر فى النهر وبوظائف الضبطية فيه من (أبواب الحديد) الى (غلاتس) يكون ترتيبها وتنسيقها من طرف اللجنة الاوروباوية بمساعدة نواب من طرف الممالك الكائنة بسواحل النهر ويصير تأليفها بالنظامات الموجودة أوالتى ستحدث فى أمور النهر أسفل من (غلاتس)

﴿ المادة ٥٦ ﴾ يلزم للجنة الطونه الاوروباوية أن تتفق مع الدول فيما يتعلق بتنوير الفنارات الكائنة على جزر (يلان طاغ)

﴿ المادة ٥٧ ﴾ قد فوض لاوستريا وهنكاريا الاشغال اللازم اجراؤها لازالة موانع السفر التى تحدث من (أبواب الحديد) والشلالات ويلزم على الممالك المجاورة النهر من الجهة المذكورة أن تجرى جميع التسهيلات اللازمة لمصلحة تلك الاشغال أما المواد المقررة فى المادة الرابعة من معاهدة لندره التى أمضيت فى ١٣ مارث سنة ١٨٧١ فيما يتعلق باخذ ضرائب مؤقتة لسد مصاريف تلك الاعمال والاشغال فتبقى منوطة بدولة أوستريا وهنكاريا

﴿ المادة ٥٨ ﴾ الباب العالى يسلم الى امبراطورية الروسيا فى آسيا (الاناطول) أراضى أردهان وقارص وباطوم مع مرسى باطوم وجميع الاراضى الكائنة بين تخوم الروسيا والتركية القديمة والتخوم الآتى بيانها وهذه الحدود الجديدة تبتدىء من البحر الاسود على حسب الخط المقرر فى معاهدة اياسطفانوس الى نقطة فى الجهة الشمالية الغربية من (خورده) وعلى جنوب (ارتوين) وتمتد على خط مستقيم الى نهر (جورك) وبعد عبوره هذا النهر يسير شرقى (اشمشين) ويستمر على خط مستقيم فى الجنوب وهناك يلاقى حدود الروسيا المشروحة فى المعاهدة المذكورة وذلك فى نقطة على جنوب (ناريمان) مع بقاء مدينة (اولتى) فى حوزة الروسيا ثم يبتدىء الخط بالقرب من (ناريمان) الى جهة الشرقية ويكون مروره من (ترينيق) وبعد دخول مدينة (ترينيق) فى حوزة الروس يسير الى (بنك شاى) مجاريا نهره الى أن يصل الى (باردوز) وبعد دخول مدينة باردوز ويكى كوى فى عهدة الروسيا يؤخذ نقطة من غرب قرية (قره اونجان) تجعل الحدود عليها على خط الى أن يصل الى (محنجرت) ومنها على خط مستقيم الى أن يصل الى تلال (قباداغ) فيستمر

على خط مصب نهر ( الاركس ) فى الشمال ومصب نهر ( مرادصوى ) فى الجنوب الى أن يصل الى حدود الروسيا القديمة

﴿ المادة ٥٩ ﴾ أمبراطور الروسيا يصرح هنا بان غاية مقصده أن يجعل باطوم مرسى حراً ( معنى حراً أن تكون البضائع معفاة من جميع رسومات الدخول أو الخروج )

﴿ المادة ٦٠ ﴾ تعيد الروسيا على تركيا أودية الشغراد ومدينة ( بايزيد ) التى سلمت للروسيا بموجب المادة ١٩ من معاهدة اياسطفانوس وقد سلم الباب العالى الى مملكة ايران مدينة ( قطور ) وأراضيها كما قرّ عليه رأى اللجنة الانكليزية والروسية التى نيط بعهدتها تعيين تخوم تركيا وايران

﴿ المادة ٦١ ﴾ الباب العالى يتعهد بان يجرى بدون تأخير فى الولايات التى سكانها من الارمن سائر الاصلاحات والتحسينات التى تحتاج اليها أمورها الداخلية وأن يتعهد بتأمينهم من تعدّى الجراكسة والاكراد عليهم و يفيد الدول الاجنبية المرّة بعد المرة بالتشبثات التى اتخذها لهذه الغاية وهى تراقب كيفية اجرائها

﴿ المادة ٦٢ ﴾ حيث ان الباب العالى أظهر رغبته فى ابقاء أصول حرية الديانة وتوسيع مداها توسيعاً مطلقاً فان الموقعين على هذه المعاهدة ينزلون هذه الرغبة منزلة الفعل فلا يسوغ التمييز فى الاعتقادات الدينية فى جميع اطراف السلطنة العثمانية حتى يخرج أحد من الاهلية والجدارة بجميع ما يتعلق بتمتعه بالحقوق المدنية والسياسية أو بدخوله فى الوظائف الميرية أو العمومية أو نواله الشرف أو استعماله الصنائع والحرف المختلفة كيفما كان مقرّه و يؤذن لجميع الناس بان يؤدّوا الشهادة فى جميع المحاكم بدون تمييز أحد فى الدين واستعمال سائر الامور الدينية يكون بحرية فلا يكون مانع مالترتيب درجات أرباب المذاهب المختلفة أو لعلاقتهم مع رؤسائهم ويكون الاكليروس ( أصحاب الرتب الكنائسية ) والزوّار والرهبان من جميع الامم الذين يسافرون فى الممالك العثمانية فى الروم ايلى والاناطول حائزين حقوقا واحدة وامتيازات وخصائص واحدة وفوّض الى القناصل ونوّاب الدول الاجنبية فى تلك الممالك حق فى حماية أولئك المذكورين وحماية محلاتهم الدينية والخيرية حماية رسمية فى الاماكن المقدّسة أو غيرها أما الحقوق المسلمة لفرنسا فلم تزل مرعية الاجراء وصار من المعلوم المقرّر هنا انه لا يسوغ تبديل حال من الاحوال الحاضرة فى الاماكن المقدّسة أما زوّار جبل اثوس من أىّ جنس كانوا فيبقون حافظين لاملاكهم وامتيازاتهم ومنحهم السابقة و يبقون متمتعين بمساواة تامة فى الحقوق والمزايا

﴿ المادة ٦٣ ﴾ تبقى معاهدة باريس التى أمضيت فى ٣٠ مارث سنة ١٨٥٦ ومعاهدة لندره التى أمضيت فى ١٣ مارث سنة ١٨٧١ مرعية الاجراء وذلك فيما يتعلق بالمواد التى لم تنسخها ولم تعدلها هذه المعاهدة

﴿ المادة ٦٤ ﴾ يقع التصديق على هذه المعاهدة بعد ثلاثة أسابيع او أقل ان أمكن

وللشهادة بذلك أثبت الموقعون أسماءهم على هذه المعاهدة بعد ان وضعوا عليها أختامهم تحريراً فى برلين فى الثالث عشر يوم من شهر جوليه ( تموز ) من سنة ١٨٧٨

﴿ الامضـــــــــــــــــــاء ﴾

| | |
|---|---|
| فون بسمارك | سالسبورى |
| فون بولوى | اودروسل |
| هو هنلوه | كورتى |
| اندراسى | لاونى |
| كاروليى | غور جيقوف |
| هايمرل | شوفالوف |
| وادنطون | دوبريل |
| صان فاليه | قره تيودورى |
| ديبريس | محمد على |
| بيكنسفيلد | سعدالله |

ومن تأمل نصوص هذه المعاهدة يرى ان الدولة العلية لم تربح منها شيأ يذكر فأهم ماجاء فيها ان صارت حدود امارة البلغار لا تتجاوز جبال البلقان لكن فصلت ولاية الروم ايلى الشرقية بأجمعها عن الدولة وحظر عليها اقامة جيوشها بها وصار تعيين واليها باتفاق الدول وردّت سواحل الارخبيل بما فيها مينا قوله الى الباب العالى فصار ماسمحت اوروبا بابقائه له من البلاد بتركية أوروبا متصلا ببعضه لكن سلمت ولايتى البوسنه والهرسك الى مملكة النمسا والمجر لاحتلالها وادارتها لاجل غير محدود أو بعبارة أخرى ملكتاها تمليكا تاما باتفاق جميع الدول ومن جهة أخرى أضيف الى مملكة اليونان جزء ليس بقليل من الاراضى لتوسيع حدودها من جهة الشمال مع انها لم تشترك فى الحرب، ولم يكن لها أدنى حق فى طلب أقل تعويض سواء كان نقديا أو مستبدلا بأراض وكذلك وسعت حدود الصرب والجبل الاسود وأعطيت لامير الجبل مينا مهما على بحر الادرياتيك وهى مينا انتيفارى ( بارى ) وزيادة على ذلك تعرض المؤتمر للاصلاحات الداخلية المراد اجراؤها لتحسين حال المسيحيين وخصوصا الارمن ( انظر بند ٦١ )

ومن الغريب انها ألزمت الدولة العلية ان تفيد الدول الاجنبية المرّة بعد المرّة عن الاجراآت التى اتخذتها للوصول الى هذه الغاية وعلى الدول مراقبة ذلك أى ان الدول جعلت لنفسها حق المراقبة على أمور دولتنا العلية الداخلية بحجة حماية المسيحيين عموما وحماية الارمن من تعدى الاكراد والجراكسة ثم أتت فى البند الثانى والستين على بيان مايجب مراعاته فى حق باقى الطوائف الغير اسلامية فمن يتأمل فى معاهدة برلين يرى انها لم تقل اجحافا بحقوق الدولة العلية عن معاهدة سان اسطفانوس بل انها أشدّ وطأة وتأثيراً على نفوذ

العثمانيـين اذ أعطت كثيرا من أراضيها الى دول لم تشترك قط فى الحرب مثل اليونان والعجم ودولة النمسا والمجر واشتركت وانتصرت عليها العساكر العثمانية مرارا فى بادىء الامر ولولا مساعدة الروسيا لهاوسوقها جيوشها الجرّارة لنجدتها لاجهزت الدولة العلية عليها كالصرب والجبل الاسود وناهيك مافيها من التداخل فى أمورها الداخلية المحضة ولهنا نكبح جماح القلم عن الدخول فى موضوع ما ألمّ بالدولة العلية المحروسة من المصائب بسبب هذه المعاهدة ولانتعرّض لذكر اخلال بلغاريا بها بطردها أميرها اسكندر دى باتمبرج وانتخاب الامير فردينان بدون قبول الدول ولا الى ضم الروم ايلى الشرقية اليها ولا الى عدم احترام الروسيا لبنودها بتحصينها مينا باطوم ولا الى احتلال فرنسا للقطر التونسى ولا الى دخول عساكر انكلترا الى ديارنا المصرية لاخماد الثورة العرابية وبقائها بها الى الآن بدعوى الاصلاح فان جميع هـذه الامور حديثة العهـد منطبعة باسبابها فى عقول القرّاء لاسيما وان الخوض فيها يستدعى الخروج عن موضوع هـذا الكتاب التاريخى والدخول فى المسائل السياسية المحضة مما ليس من شاننا التوسع فيـه الآن

## الدستور العثماني

### « النهضة الوطنية والاصلاحات فى الدولة العلية »

توفى السلطان سليمان القانونى سنة ١٥٦٦م والدولة العلية فى ابان مجدها وأوج عظمتها وكانت ممالـكها تحد شرقا بالحدود الهنـدية وغربا بالمحيط الاطلانطى وكانت أوروبا ترهب سطوته وتخشى قوته .

نخلفه من بعده ملوك لم يتعقبوا خطواته ولم ينهجوا منهجه لاسيما وقد تألبت عليها الدول الاوروبية واختلفت عليها الفتن الداخلية فبـدأت فى الانحطاط وانسلخت منها أجزاء كثيرة وكانت أحيانا ترتقى وأحيانا تنحط الى أن تولى الخلافة السلطان سليم الثالث سنة ١٧٨٩ والبـلاد فى اختـلال والاحكام فى ضعف والانـكشارية قابضون على زمام الامور يولون من شاؤا من السـلاطين ويخلعون من شاؤا ويقتـلون من لم يسر وفاق أهوائهـم وأغراضهم والبـلاد فى فوضى كادت تمزق شملها . فهاجـه حب الاصلاح وصرح بميله الى تنظيم الجند على النمط الحديث وتسليحهم بالاسلحة الحديثة الاختراع . فلم يوافق ذلك الانـكشارية فبطشوا به فمات والاصلاح فى مهده .

على ان الفـكرة رسـخت فى أذهان العثمانيـين فتلقاها السلطان محمود وعمـد الى الاصلاح من الوجهة الادارية والعسكرية . فبدد جند الانـكشارية وأحـل محلهم

جيشاً منظماً . وأخـذ يبعث بمنشورات الاصـلاح الى الولاةوالحكام . ولـكنه توفى ولم يتمم من فروع الاصلاح الا تنظيم الجند تنظيما غير تام .

وكانت فكرة الاصـلاح قد سرت بين فئة من رجال الدولة فاقاموا يبثونها على عهد السلطان عبد المجيـد والسلطان عبد العزيز وأعظمهم شأناً وأعلاهم يداً مصطفى رشيد باشا وعالى باشا وفؤاد باشا

فلما توفى السلطان محمود وخلفه السلطان عبـد المجيد نشر خط الـكلخانه المشهور سنة ١٨٣٩ ميلاديه أى فى ٢٦ شعبان سنة ١٢٥٥ هجرية فكانت له ضجة اهتزت لها أوروبا .

وأخذ رجال الدولة منذ اصدار ذلك الخط الهمايونى ينظمون القوانين الخاصة لكل فرع من فروع القضاء .

ثم تألفت لجنة جمعت أعاظم الاساتذة العثمانيين فألفوا المجلة الشرعية التى صدرت الارادة الشاهانية من السلطان عبد العزيز عام ١٢٨٩ هجريه بالسير حسب نصوصها وسن قانون الاراضى سنة ١٢٧٤ هجرية وقانون الطابو سنة ١٢٧٥ ه وقانون الجزاء سنة ١٢٧٤ ه . وكل هذه القوانين مقتبسة من القوانين الفرنسـية مع مراعاة نصوص الشريعة الاسلامية

ثم وضع قانون التابعيـة العثمانية وتنظيم المحاكم الشرعيـة والمحاكم النظامية والمحاكم التجارية ونظامات الادارة الملـكية ونظام ادارة الولايات ونظام شورى الدولة ووضعوا نظاما للمعارف ونظاما للمطبوعات ونظامات أخرى للمطابع والطبع وحقوق التأليف والترجمة ونظاما للرسومات وآخر للمعادن وغيره للطرق والمعابر وغـير ذلك مما يقتضيه سـير الحضارة ويلائم حالة الامة وبالجملة فانهم لم يتركوا شيئاً من لوازم ادارة الدولة حتى دونوا له قانونا .

فمجموع هذه القوانين والنظامات كان معروفا فى بلاد الدولة العلية بالدستور

ومع ذلك فكان الحـكم مطلقا وارادة السلطان فوق كل قانون وفى المـدة الوجيزة التى جلس فيها السلطان مراد على سرير الملك كان مدحت باشا وحزبه الحر قد انتهى من اعداد القانون الاساسى وترتيب نظام مجلس المبعوثين .

## ﴿ القانون الاساسي والسلطان عبد الحميد ﴾

خلع السلطان مراد سنة ١٢٩٣ هجرية الموافق ١٨٧٦م وجلس السلطان عبدالحميد على عرش الخلافة وكان قد وعد رئيس الاحرار مدحت باشا قبل جلوسه على العرش بمنح القانون الاساسى وامتاع الامة العثمانيه بالحرية

الا ان عبد الحميد أظهر حين جلوسه علامات دلت على اخلافه وعده فمن ذلك انه جمع أعداء الاحرار واضداد القانون الاساسى وعينهم فى السراى لتقوية مركزه مع انه وعد مدحت باشا بتعيين الشاعر العثمانى الكبير نامق كمال بك زعيم الانقلاب باشكاتبا وضياءباشاالاديب السياسى الشهيرمشيرا للمابين فاخلف وعده كما انه كان يسعى جهده لاستمالة الرأى العام اليه فكان يخدع الاهالى . الا ان الاحرار لم يخدعوا واستعدوا للمناضلة فى سبيل القانون الاساسى .

وكانت الدولة فى ذلك الوقت تحارب الصرب فهزمتها واستولى العثمانيون على قلعة ( الكسناج ) فطلب أمير الصرب توسط الدول فراجعت الباب العالى بعد ان قررت وقف الحرب لمدة بموافقة الباب العالى وقد اشترط الباب العالى شروطا لعقد الصلح مجملها أن يحضر أمير الصرب الى الاستانة ويعرض طاعته على السلطان والا تجند الصرب أكثر من ١٠٠٠٠ جنديا وأن تحتل الجنود العثمانية القلاع الصربية كلها وان تهدم جميع الاستحكامات المقامة فى ميدان القتال وأن تدفع الصرب التعويضات الحربية وان يقوم بانشاء الخطوط الحديدية فى الصرب شركات عثمانية بموافقة الباب العالى

ولكن الدول رفضت هذه الشروط وطلبت من الباب العالى ابقاء الصرب على ما كانت عليه قبل الحرب ومنح البوسنه والهرسك التى كانت ثائرة أيضا ادارة مستقلة مع منح البلغار مثلها .

فكان ذلك سببا لطمع الصربيين فقرروا محاربة الدولة ونظم جيوشهم المهندسون الروسيون ولكن كان الانهزام نصيبهم فاستولى العثمانيون على الكسناج ودلغراد وساروا نحو العاصمة بلغراد . فاستنجد أمير الصرب بالروسيا فامر قيصرها سفيره فى الاستانة بتقديم بلاغ شديد اللهجة الى الباب العالى . وقررت بعد ذلك عقد مؤتمر فى الاستانة للنظر فى أمر البلقان .

وبالجملة فقد كان مركز الدولة العلية حرجا للغاية لان أوروبا كلها تألبت عليها وكان يشتم من بلاغ سفير الروسيا رائحة الحرب فقرر الوكلاء اذ ذاك منح القانون الاساسى للتخلص من هذه الغوائل واقتنع السلطان عبد الحميد بوجوب تنفيذه لانه كان من المستحيل قبول طلبات أوروبا ولاتقاء الاخطار التى تنجم من رفض تلك الطلبات كان الواجب اجراء بعض الاصلاحات . والاصلاح التى لاتتمكن أوروبا من انتقاده هو تنفيذ القانون الاساسى

وفى ذلك الوقت تعين مدحت باشا صدرا أعظم وذلك لان الدول الاوروبية كلها تثق به لعلمها أنه رئيس الاحرار وواضع القانون الاساسى .

وقرر السلطان عبد الحميد تعيين مدحت باشا كى ينظر فى مسالة المؤتمر الاوروبى الذى قررت الدول عقده فى الاستانة .

فكان أول ماقام به مدحت باشا هو انهاء المنازعات بين الدولة وبين الصرب والجبل الاسود وبلغاريا فتمكن من انهائها فى زمن قصير وبدأ يسعى جهده لاعلان القانون الاساسى فى الساعة التى سيجتمع فيها المؤتمر الدولى فى الاستانة .

وفى اليوم السابع من شهر ذى الحجة سنة ١٨٧٧ اجتمع الوكلاء والعلماء والامراء وغيرهم فى الباب العالى ثم أقبل مدحت باشا وقرأ الارادة الشاهانية التى منحت الامة العثمانية الدستور والحرية . فهتفوا له جميعاً وحياه العثمانيون من صميم قلوبهم واذ ذاك أطلقت القنابل تحية للقانون الاساسى وكان أعضاء المؤتمر الدولى مجتمعين فى الطوبخانه و بينما كانوا يتباحثون فى النقط التى سيتناقشون فيها سمعوا القنابل وهى تدوى فقام صفوت باشا ناظر الخارجية وقال للاعضاء «ان الامة العثمانية قد نالت مطالبها الشرعية وهى تتمتع بحريتها فلا لزوم لهذا الاجتماع بعد هذا الانقلاب » فوجم الجميع وظلوا ساكتين فطلب سفير الروسيا المناقشة فى الموضوع ولكن المندوبين العثمانيين انسحبا وخرجا وقد قام العثمانيون بمظاهرة ضد اجتماع المؤتمر الدولى وطلبوا الحرب

## ﴿ اجتماع مجلس المبعوثين الاول ﴾

اجتمع مجلس المبعوثين لاول مرة سنة ١٨٧٧ م فى سراى طولمه باغجه وافتتحه السلطان عبد الحميد بخطابة مطولة بحث فيها بعد مقدمة تاريخيه عن الامتيازات التى منحت للعناصر غير المسلمة ثم القروض التى عقدت بعد حرب القرم ثم الاختلالات المالية التى حدثت أثناء حكم السلطان عبد العزيز ثم فى عصيان البوسنه والهرسك ثم وجوب منح القانون الاساسى لتخليص الدولة من الاضمحلال والانقراض ثم قال

« عليكم أيها الاعضاء هذه السنة ان تضعوا النظامات الداخلية للمجلس وقانون الانتخاب وقوانين ادارة الولايات والنواحى وقانون البلدية وأصول المحاكمات المدنية . وقانون ترقية الموظفين وقانون المطبوعات وديوان المحاسبات والتدقيق فى الميزانية»

على انه لم يكد ينتظم مجلس المبعوثين وينظر فى شؤون الدولة حتى صدرت الارادة الشاهانية بفضه فتقوضت كل اركان ذلك البناء وابتليت الامة بطور استبداد جديد لم تعهد نظيره حتى فى عصور الظلمات .

هدم السلطان عبد الحميد مابناه الاحرار ولكن رغما من ذلك لم تمت الفكرة فى رؤوس العثمانيين فان هذا الجسم على قوته الكامنة بل على ضعفه الظاهر لم يقوعلى تحمل اذى الحكومة الحميدية بما انتابته من ضروب الظلم لاسيما والوية الحكومات الدستورية قد انتشرت من أقصى المغرب الى أقصى المشرق وكواكب الحرية قدسطعت فى كل مكان فبدأ الاحرار يعملون ليل نهار حتى انتصروا ذلك الانتصار الباهر عام ١٩٠٨ فنالت الامة العثمانية الدستور بجهاد جيشها الباسل

انتشرت الفكرة الوطنية من عهد مدحت باشا وساعد على انتشارها قصائد

الشاعر العظيم نامق كمال بك الذى أدركه الموت فى سجن ماغوسه .
ألف نيازى بك اول عصابة فى رسنة وسار على أثره أنور بك ورائف بك وحسن بك وصلاح الدين بك
أما ادارة الحركة فكانت فى سلانيك والجمعية العمومية للاتحاد والترقى فى باريس
وكان الجميع يجتهدون لنشر الافكار الحرة والمبادىء الدستورية
ومما ساعدهم على نشر افكارهم انه لم يكن بينهم خائن فقويت حركتهم واتسعت حتى أصبح لا يمكن بقاؤها تحت طى الخفاء.
وكانت لجنة الاتحاد والترقى وقفت متقدما على القوى التى يمكنها ان ترتكن عليها فوجدتها كافية وهذه القوى مؤلفة من الفيلقين الثانى والثالث المعسكرين فى مناستر واسكوب وادرنه وازمير ومن الفيلق الرابع المعسكر فى أرض روم .
فكان من المستحيل على الحكومة الحميدية ارسال الفيلق الاول المعسكر فى الاستانة لمحاربة الدستوريين لانه لا يمكن تجريد العاصمة من الجند ومع ذلك فكان أغلب الضباط منضمين الى الدستوريين
وكان جنود الفيلق الثانى والثالث اكثر من غيرهما . فبدأ الدستوريون يؤلفون عصابات وطنية لمقاومة الحكومة اذا حاولت عرقلة مساعيهم
فقامت عصابة نيازى بك ثم ظهرت عصابة انور بك ورائف بك وحسن بك وغيرهم.
وانتهى الدستوريون من وضع الخطة فى أواخر شهر يونيو سنة ١٩٠٨ فارسلت الحكومة الحميدية شمسى باشا لاقتفاء أثر عصابة نيازى بك ولكنه قتل قبل ان يبدأ فى مهمته . وارسلت أيضا من ازمير ثلاثون فرقة من فرق الرديف فانضمت الى الدستوريين وقوت صفوفهم .
وفى يوم ٢١ و٢٢ و ٢٣ يوليه ارسل الدستوريون التلغرافات الى الصدر الاعظم من سالونيك ومناستر واسكوب وسيريس هددوا فيها الاستانة بالزحف عليها اذا لم يعلن الدستور . فلما وصلت هـذه التلغرافات الى السلطان عبد الحميد اصدر الارادة الشاهانية بمنح الدستور والقانون الاساسى .

## ﴿ الحادثه الارتجاعية وخلع عبد الحميد ﴾

تفرق شمل المستبدين منذ اعلان الدستور وازداد النفور بينهم وبين لجنة الاتحاد والترقى فاخـذوا يفكرون فى اجتثاث أصول الفساد الذى يزعمونه فشجعوا أولا الجرائد على الكتابة ضد الجمعية
ثم قامت حامية الاستانة بايعاز من اركان السراى . ولخصوا مطالبهم فى شكل دينى كى ينضم اليهم أهالى الاستانة وهاهى مطالبهم
(١) احياء الشريعة

(٢) عزل الصدر الاعظم وناظرى الحربية والبحرية
(٣) طرد احمد رضا بك وحسين جاهد بك وجاويد بك ورحمى بك وطلعت بك واسماعيل حقى بك الخ من المجلس .
(٤) عزل محمود مختار باشا لانه لم يشترك معهم
(٥) العفو عنهم .

فعقد مجلس المبعوثين اجتماعا فوق العادة ومع ان عدد الاعضاء يتجاوز الخمسين فانهم قرروا اجابة مطالب الثوار وانتخبوا وفداً منهم ليبلغ السلطان قرارهم. فتعين اذ ذاك توفيق باشا صدراً اعظم وأدهم باشا ناظراً للحربيـة . وقرر العفو عن الجنود فبـدأ أولئك يطلقون البنادق احتفالا وكان يبلغ عدد أولئك ثلاثين ألفاً .

واجتمع المجلس مرة أخرى بعدها فقرر قبول استقالة الرئيس احمد رضا بك .

وانقلبت لهجة الجرائد انقلابا اجباريا فباتت تتكلم عن السلطان عبـد الحميد كما كانت تتكلم عنه ايام الاستبداد .

وكانت الحالة كذلك فى الاستانة فوردت الانباء بمجىء الجنود من الروم ايلى لحماية الدستور ومجلس المبعوثين .

ثم حاصر جيش الحرية الاستانة . فاوفد المبعوثون وفدا لمقابلته .

ودخل الجيش تحت قيادة محمود شوكت باشا الاستانة وحاصر يلديز وحدثت هناك موقعة كبيرة انتهت بتسليم حامية يلديز .

ولـكن السلطان عبد الحميد استمر على المقاومة فقرر جيش الحرية ان يحمل الحملة الاخيرة . فاطلقت القنابل على حامية الباب العالى والنادى العسكرى واستولت عليهما ثم قبضت على الـكثيرين من انصار الحكم القديم الذين اثاروا الفتن ومن بينهم مراد بك الداغستانى واعدم الجواسيس رميا بالرصاص ويقدر عدد القتلى بـ ١٢٠٠ قتيل وحاصرت الجنود الدستورية بعدها قشلاقات أسكودار. فاستولت عليها. ولم يبق اذ ذاك أى خطر على القانون الاساسى فعاد اعضاء البرلمان الى الاستانة واجتمعت الجمعية العمومية لتتداول فى أمر السلطان عبد الحميد .

وكانت النتيجة عزل السلطان عبد الحميد وتولية السلطان رشاد مكانه

وتم يوم ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٩ تتويج السلطان رشاد باسم السلطان محمد الخامس. وبالجملة فان انصار الاستبداد اثاروا فتنتهم الاخيرة فوقع الدستور فى أزمة شديدة وتشتت شمل عشاقه وحماته وترقب الملأ ان يعيد السلطان عبد الحميد مافعله مع الدستور الاول . ولـكن كانت الروح الدستورية قد قويت فى قلوب العثمانيين وارتكزت على قوة الجند فاحتمل انصار الدستور تلك الضربة بالصبر والثبات وتجدد النزاع الطبيعى بين الاستبداد والحرية وانتهى بخلع السلطان عبد الحميد .



٣٥ « خليفة المسلمين وسلطان العثمانيين محمد رشاد خان الخامس »

ولد جلالته سنة ١٨٤٤ م وقد قضى أغلب عمره فى قصر زنجيرلى كوى محوطا بالجواسيس الذين يرصدون حركاته و يقدمون التقارير المشوهة عنه. فظل كذلك الى حين حدوث الانقلاب العثمانى وتخلص مع الشعب العثمانى من الاستبداد والمراقبة اذ دالت دولة الجواسيس وثل عرش الاستبداد

الا أن عبد الحميد الذى طبع على الاستبداد لم يرقه ان يرى أمته متمتعة بالحرية راقية اوج الكمالات منظمة أمورها بنفسها مقيمة العدل. فسولت له نفسه احداث تلك الفتنة الارتجاعية لتقويض صروح الادارة الدستورية . ولولا ان أدرك الاستانة فى ذلك الوقت بطل الحرية وقائد جيش الفدائيين محمود شوكت باشا و بطلا الحرية نيازى بك وأنور بك لتم له ما اراده ولذهبت أتعاب حزب الاتحاد والترقى الذى جاهد فى سبيل الحرية ثلاثين عاما ادراج الرياح .

اجتمع المجلس العمومى اجتماعا سرياً وخلع عبد الحميد بموجب فتوى من شيخ الاسلام هذا نصها .

« اذا اعتاد زيد الذى هو أمام المسلمين ان يرفع من الكتب الشرعية بعض المسائل »
« المهمة الشرعية وان يمنع بعض هذه الكتب و يمزق بعضها و يحرق بعضها وأن »
« يبذر و يسرف فى بيت المال و يتصرف فيه بغير مسوغ شرعى وان يقتل الرعية »
« و يحبسهم و ينفيهم و يغربهم بغير سبب شرعى وسائر انواع المظالم ثم ادعى انه تاب »
« وعاهد الله وحلف انه يصلح حاله ثم حنث واحدث فتنة عظيمة جعلت أمور المسلمين »
« كلها مختلة وأصر على المقاتلة وتمكن منعة المسلمين من ازالة تغلب زيد المذكور »
« ووردت أخبار متوالية من جوانب بلاد المسلمين انهم يعتبرونه مخلوعا وأصبح بقاؤه »
« محقق الضرر وزواله محتمل الصلاح . فهل يجب أحد الامرين خلعه أو تكليفه »
« بالتنازل عن الامامة والسلطنة على حسب ما يختاره أهل الحل والعقد وأولى الامر »
« من هذين الوجهين » ?

الجواب : يجب

كتبه الفقير
السيد محمد ضياء الدين
عفى عنه

فلما قرئت هذه الفتوى الجليلة على الاعيان والمبعوثين سالهم سعيد باشا رئيس الاعيان الذى كان برأس الجلسة اتختارون خلعه أم تكليفه بالتنازل فأجابوا بصوت واحد : الخلع الخلع

وهذه ترجمة قرار هذا المجلس العمومى ( المؤلف من الاعيان والمبعوثين ) :

« يوم الثلاثاء سابع ربيع الآخر سنة ١٣٢٧ و١٤ نيسان سنة ١٣٢٥ ( ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٩ ) م الساعة السادسة ونصف ( ١ بعد الظهر ) قرئت الفتوى الشرعية الموقع عليها بتوقيع شيخ الاسلام محمد ضياء الدين افندى فى المجلس العمومى المؤلف من المبعوثين والاعيان ورجح بالاتفاق وجه الخلع الذى هو أحد الوجهين المخير بينهما فاسقط السلطان عبد الحميد خان من الخلافة الاسلامية والسلطنة العثمانية واصعد ولى العهد محمد رشاد افندى باسم السلطان محمد خان الخامس الى مقام الخلافة والسلطنة »

خلع عبد الحميد عام سنة ١٩٠٩ فبويع بالخلافة الاسلامية الخليفة الشورى العادل أمير المؤمنين محمد رشاد الخامس .

فلما ولى الخلافة اعاد اليها عهد عمر بن عبد العزيز اذ سار فى المؤمنين سيرته فكان من كل قلب قاب قوسين او أدنى . وعمل على خدمة الامة فاعزته واخذ بيدها فاحبته وأجلها فأجلته وكانت الكلمة التى امتاز بها عهده السعيد تلك التى قالها على مسمع من وزرائه « اننا جميعا خدام الشعب » .

ولم يمض على توليته الخلافة الا قليل حتى ألف بين قلوب الامة فى ظل الدستور فكان لعناصر هذه الامة ابا رحيما وراعياً حكيما . ولقد رأى العثمانيون جميعا من حكيم تدبيره وسياسته ماملأ قلوبهم ثقة وتعلقا به وحبا واقداراً له فكان عهده فاتحة لرقى الممالك العثمانية واصلاحها .

ومنذ ارتقاء جلالته على العرش تسلم حزب الاتحاد والترقى ادارة الحكومة العثمانية وانا لنذكر الاصلاحات التى تمت منذ الثلاث السنين الماضية والاتحاديون يديرون الحكومة العثمانية :

## ﴿ الاصلاحات الداخلية ﴾

تسلم حزب الاتحاد والترقى ادارة الحكومة واعداؤه من رجال العهد الماضى يعدون بالمئات أولئك المنافقون الذين ارتكبوا من الاعمال المضرة فى العهد البائد ماتقشعر منه الابدان . وكانت الحكومة فى اختلال تام والامة قد فقدت أسباب الامن والموظفون لايتقاضون مرتباتهم والديون الخارجية لاتدفع اقساطها فى أوقاتها واشتعلت فى الولايات نيران الفتن والمشاغبات

تلك هى حال الحكومة عند ما تسلمها حزب الاتحاد والترقى . اما حال العناصر العثمانية المختلفة فكان على اسوأ ما يكون وكل عنصر كان يتأهب للفتك باخيه . وكان بين المبعوثين لاول مرة من لم يفهم معنى الحرية ولا يعرف واجباته نحو الامة ولا الفائدة من الاجتماع بمجلس المبعوثين .

تسلم حزب الاتحاد والترقى الحكومة فى ذلك الوقت و بدأ فى اعماله واصلاحاته بهمة لاتعرف الكلل ولا الملل .

كان أول ماابتدأ فى تنفيذه من الوسائل النافعة تعميم المساواة بين أفراد الامة بوضعهم جميعا فى مستوى واحد امام قانون واحد .

ومن المعلوم ان هناك بعض بقاع فى الدولة العلية لايمكن الانسان فيها أن يخرج من منزله الا بعد أن يرخى الظلام سدوله وهناك بلاد لا يستطيع الانسان أن يسير فيها نهاراً الا وهو مدجج بالسلاح . وغيرها حيث لايمكن الانسان أن يتجول الا اذا اصطحب معه أربعين أو خمسين رفيقا . كما كان هناك بلاد يحارب أهلها بعضهم بعضا . فبدأ حزب الاتحاد والترقى يسعى سعياً متواصلا لازالة تلك العوائق وتذليل هذه المصاعب باخضاع الجميع لسطوة القانون حيث تتوطد بذلك أركان الجامعة العثمانية .

ولقد وفقت الحكومة لجمع الاسلحة من الاشقياء الذين يلجأون الى الجبال فى الروم ايلى . فاثار أولئك من أجل ذلك ثورات شديدة قاومتها الحكومة وأخمدتها فعادت السكينة فى انحاء الدولة العلية وعم الامن وانتشرت الطمأنينة

## ﴿ الاصلاحات المالية ﴾

قبض حزب الاتحاد والترقى على ادارة الحكومة العثمانية والخزانة خاوية على عروشها فبدأ فى اصلاحها وتمكن من وضع ميزانية لمالية الحكومة العثمانية فكانت عبارة عن خمسة وعشرين مليونا واردات وثلاثين مليونا مصروفات. وكانت قد تراكمت الديون من جهة ولم تحصل الضرائب منذ سنين من جهة اخرى . فلما وضعت الميزانية المذكورة لم يكن احد يعتقد امكان تحصيل ٢٥ مليونا من بلاد الدولة ولكن كان المتحصل عقب اعلان الدستور لاول مرة ٢٦ مليونا ونصفا سنة ١٩١٠

وفى سنة ١٩١١ بلغ المتحصل ثلاثين مليونا .

ولقد زادت واردات جميع مصالح الحكومة وبالجملة فان المواد الاساسية لايرادات الحكومة نمت وازدادت الى درجة كبيرة .

وكانت ايرادات الكمارك سنة ١٩١٠ ثلاثة ملايين ونصفا فوصلت الى خمسة ملايين سنة ١٩١١ وكانت واردات العشور سنة ١٩١٠ ستة ملايين فاصبحت سبعة ملايين ونصفا .

## ﴿ الاصلاحات الحربية ﴾

لولم يهتم حزب الاتحاد بتنظيم الجيوش العثمانية الى تلك الدرجة التى أصبح يفوق فيها أعظم جيوش دول أوروبا نظاما وتدريبا لفاجأ الاعداء الدولة العثمانية من كل ناحية . ولولم يقف الجيش العثمانى على حدود الروم ايلى صادا الاعداء عن التقدم لقام الاعداء وسخروا من الدولة العلية .

*
* *

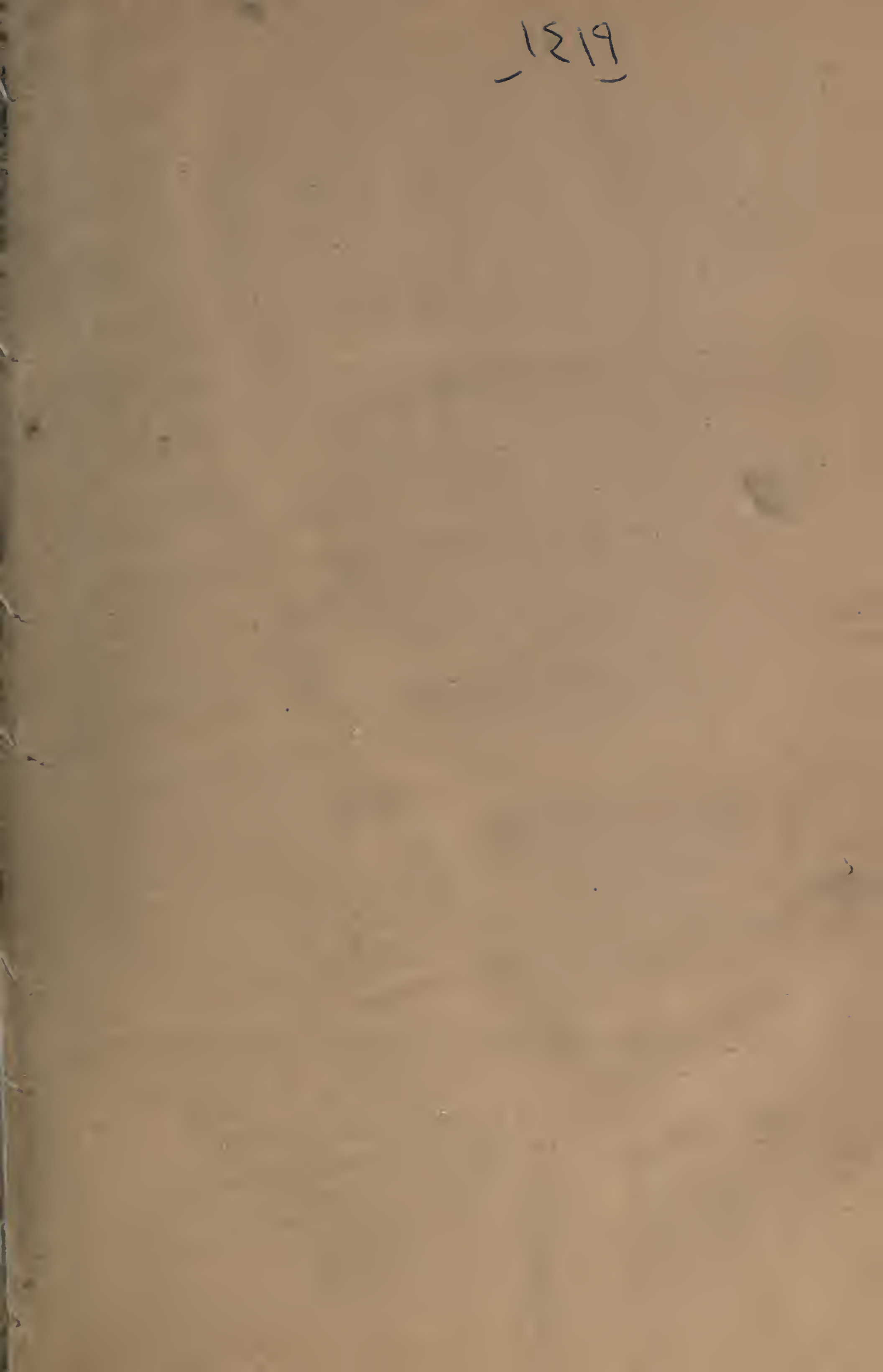
وبالجملة فان حزب الاتحاد قد عرف أدواء الامة وعلاجها فنجح فى تقليل الهجرة وعدد المهاجرين فى الروم اللى وقلل من العشور فى الاناضول وقصارى القول ان الحزب قد نجح فى مداواة هذه الامراض نجاحا باهراً .

ولقد وزع حزب الاتحاد المبالغ الجسيمة على سكان الجزيرة والموصل والاناضول لاحياء أراضيهم وتعميم الزراعة بينهم بعد الموات .

فلا عجب اذا ابتهج المسلمون فى شرق الارض وغربها بارتقاء جلالة مولانا السلطان الاعظم محمد الخامس عرش الخلافة العثمانية .

نسأل الله أن يمد فى عمر جلالته ويزيده توفيقا ويجعل عهده المحبوب عهد اسعاد للدولة والملة آمين

(تم)

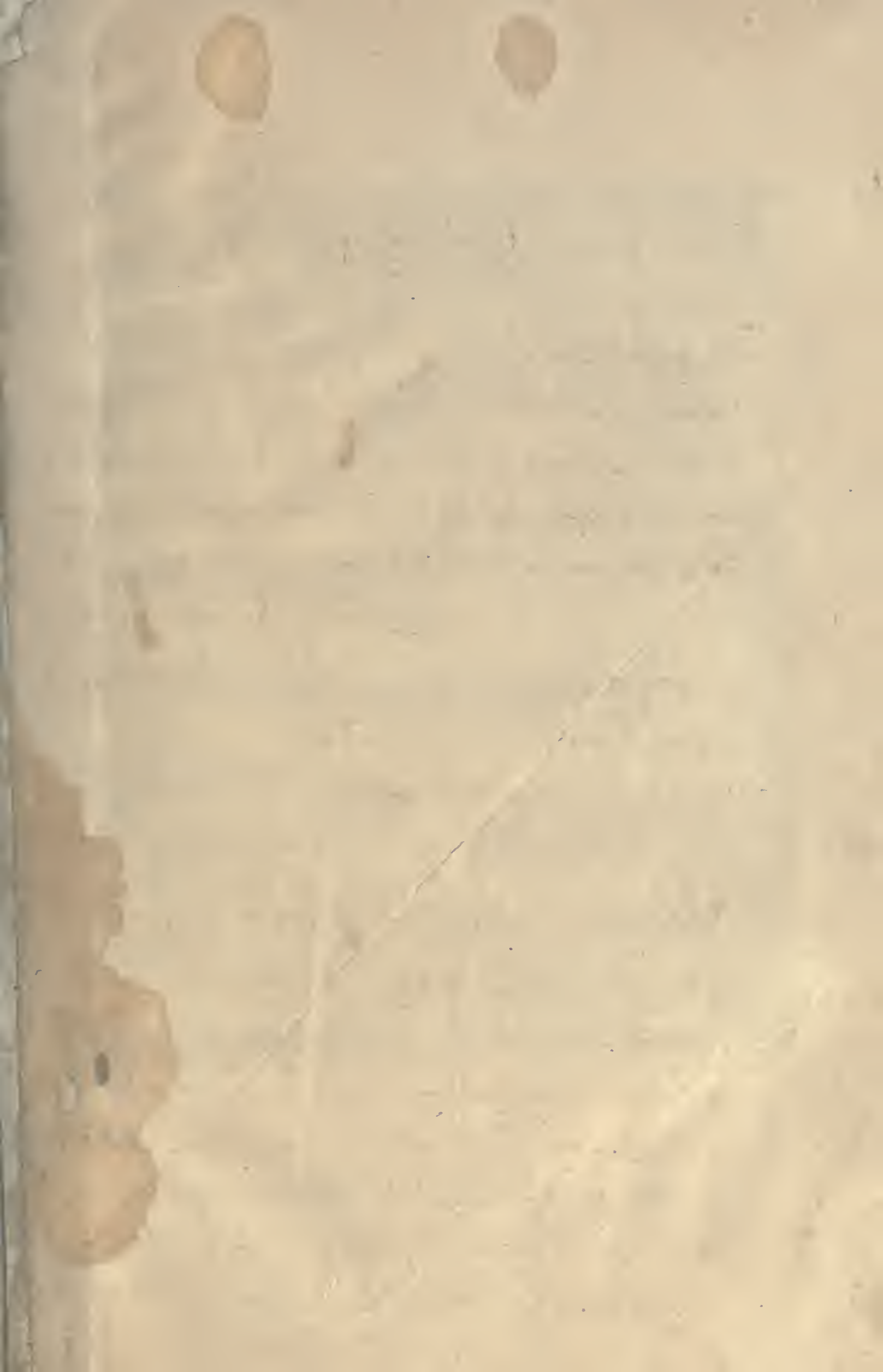




محمد على باشا

رأس الاسرة المحمدية العلوية

عن صورة بدار الكتب السلطانية



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى يَقصُّ الحق من أنباء ما قد سبق ، والصلاة والسلام على مُحمد أفضل من صدق فيما نطق ، وعلى آله ضياء الغَسَق ، ونظام النَسَق . وبعـد فهذا الكتاب يُعتَبر كجزء ثان لأول - هو « تاريخ مصر الى الفتح العثمانى » - غير أن السابق ، لتطاول عصوره وتعدد أجياله ، كان مجمل العبارة ، لطيف الإشارة ، وهذا اللاحق ، لتقارب العهد بحوادثه ، وتعاظم العبرة بوقائعه ، صار مسهب القول فى جملة أغراضهِ عامة ، وفى حوادث مصر الهامة خاصة

وهو باتّباعه هـذه الخطة يطابق منهاج دراسة التاريخ لتلاميذ السنة الثانية من المدارس الثانوية المصرية ، مُلماً بوقائع يحتِّمها المقام ويوجب سردها المنهاج اجمالاً وإن لم يُصرِّح بهـا تفصيلاً ، كما أنهُ بمزاياه المعهودة النظير فى صِنْوِه يُفسح الرجاء لأن يقبل عليهِ غير التلاميذ من القراء

وقد استقى هذا الكتاب من أوثق كتب التاريخ المعتبرة ، عربية وفرنجية أهمها :

تاريخ ابن اياس ، تاريخ القرمانى ، تاريخ الاسحاقى ، دولة المماليك للاستاذ السير وليم ميور ، تاريخ تركيا للأُستاذ استانلى لينبول ، تاريخ أوربا (مجموعة - رِڤِنْجتُون) ، الترك العثمانيون تأليف كريسى ، اضمحلال الدولة الإغريقيـة واستيلاء الترك على القسطنطينية تأليف إدْوِن پيرْز ، دائرة المعارف البرطانية ، القاهرة وبيت المقدس ودمشق للأُستاذ مَرْجوليوث ، دليل دار الآثار العربية ، تحفة الناظرين للشيخ الشرقاوى حقائق الأخبار عن دول البحار لصاحب السعادة اسماعيل باشا سِرْهَنْك ، قصة القاهرة للاستاذ استانلى لينبول ، مصر فى القرن التاسع عشر تأليف كَمرون ، بابا

فى مصر تأليف الحاج براون ، الانقلاب المصرى تأليف پيتُن ، تاريخ الجبرتى ، البحر الزاخر لمحمود باشا فهمى ، صفحة من تاريخ محمد على تأليف مَرِى ، محمد على ومصر تأليف سنت چون ، خطط على باشا مبارك ، بعض كتابات ألسُن فِلِب ، « الخديوية » تأليف دَيسى ، « مصر » تأليف البارون دى مَلُرتى ، مصر والخديوى تأليف إدْوِن ديليون ، تكوين التاريخ الأوربى تأليف هُلَنْدرُوز ، دليل دار الآثار المصرية ، مصر الحديثة للُورد كرومر ، الاقتصاد السياسى للطلبة المصريين تأليف الاستاذ طُد ، تاريخ القناطر الخيرية تأليف الميچر براوُن ، تكوين مصر الحديثة للسير أوكلَنْد كُلْفِن ، انجلترة فى مصر تأليف مِلْنَر ، تقارير معتمدى برطانيا العظمى فى مصر .

هذا وان عظيم الشكران وجزيل الثناء لمن كان لهم آثار مساعدة فى تجميل رونق هذا الكتاب بالصور البديعة ، وأجدرهم بالذكر حضرة البارع الدقيق على افندى يوسف الموظف بتنظيم القاهرة

وحرر بالقاهرة فى ٨ ذى القعدة سنة ١٣٣٤ الموافق ٦ سبتمبر سنة ١٩١٦

# الباب الأول
# عهد الدولة العثمانية

---

## الفصل الأول

### الفتح العثمانى لمصر

العلاقات القديمة بين مصر وتركيا

كانت الدولة العثمانية منذ استتبّ سلطانها بآسيا الصغرى على تصادُق ومصافاة لدولة المماليك الجراكسة المصرية ، تدور بين سلاطينهما رسائلُ الوداد وعقودُ المهادنة. وابتدأ ذلك من عصر السلطان الظاهر برقوق المصرى ومُعاصره السلطانِ يلْدِرِمَ « بايزيدَ » العثمانى

الحرب بين بايزيد الثانى وقايتباى

وبقيت هذه الحالُ مَرْعيّة الى زمن السلطان « بايزيد الثانى » ابن محمد الفاتح إذ نازعه أخوه الأميرُ « جَمّ » فى الملك ، فقاتله بايزيد وهزم جيوشه ، وفرّ جم الى الأشرف قايتباى سلطان مصر ملتجئًا فأجاره ، وطلب بايزيد تسليمه اليهِ فلم يجبه قايتباى ، فحقد عليه . وانضم ذلك الى النزاع القائم بينهما على إمارة أبناء ذى الغادر* ( التى كانت فى حماية مصر ثم تدخّلت الدولةُ العثمانيةُ فى شؤونها وادعت حمايتها ) ؛

---

* وهى احدى الدول التركمانية التى أسست على انقاض دول التتار ورأسها قراجا بن ذى الغادر وقد استولت على اكثر أرمينية وكردستان وديار بكر وخضعت أخيراً للمصريين فكان لا يتولى أمير منها الا باذن صاحب مصر

ثم ان أحد أمرائها التجأ الى العثمانيين مستنصرا فنصروه وولوه الامارة افتياتا على المصريين ، بل أمدوه بما انتصر به على ولاة مصر فكان ذلك سببا للنزاع بين الدولتين المصرية والعثمانية

والى ما بلغ بايزيد من أن قايتباى أخذ من رسول ملك الهند هدايا كان أرسلها الى السلطان بايزيد . فاتخذ بايزيد من كل ذلك ذريعة الى اعلان الحرب على الدولة المصرية ، فجهز جيشاً عظيماً توغّل فى البلاد الشامية الى قرب حَلَب حيث التقى بهِ جيشُ المصريين ، فكانت الهزيمةُ على العثمانيين . فأتبعه بجيش آخر كانت عاقبته كسابقه . وزحف الجيش المصرى على البلاد العثمانية فالتقى بجيش جرّار عثمانى ، فكانت الحرب بينهما سِجالاً مدة انتهت بالصلح والمصافاة ، إلاّ أنها صارت سبباً لتجسيم التنافس والتزاحم بين الدولتين على الاستئثار بالعظمة و بسط النفوذ والزعامة على الممالك الاسلامية

صلح غير دائم

اسباب جديدة للعداوة

من أجل ذلك لم يدم هذا الصلح طويلاً ، إذ أخذ العثمانيون من جهة يحرضون القبائل والامارات التابعة لمصر على التخلص من سيادتها ، ويضعون العراقيل فى سبيل تجارتها مع غربى آسيا وأواسطها ، مما جعل ورود الصوف ومنسوجاته وأنواع الفِرَاء الفاخرة والمماليك الجراكسة الى البلاد المصرية نادراً جدًّا بل ممتنعا فى أواخر أيام الغورى . وكان أشدَّها على المصريين امتناعُ ورودِ الرقيق من المماليك ، إذ هم مادَّة الجيش ورجالُ الحكومة . ومن جهة أُخرى أخذ سلاطينُ مصر يُجيرون كلَّ من التجأ اليهم من أبناء السلاطين العثمانيين والأمراء الفارّين من وجه الدولة العثمانية ، ثم استرسلوا فى الأمر وهبُّوا يُوادّون مَن عادى العثمانيين من سلاطين الدول المجاورة لهم ، مثل « أُوزون حَسَن » سلطان العراق ثم بعده الشاه اسماعيل الصَّفَوِيّ ( المؤسس الثانى لدولة ايران الحالية ) وغيرهما . ولم تزد هذه المُوادَّة على اكثرَ من تبادُل المراسلات ، مع أن الشاه حاول جعلَها محالفة دِفاعٍ وهجومٍ فلم يفلح لبُعد مابين الأُمتين فى المذهب ، وذلك من اغلاط الغورى . واستطار شرر هذه الإحن والأحقاد بسماح الغورى بأن يمرّ بطريق الشام الوفدُ الذى أرسله الشاهُ اسماعيل الى مملكة البُنْدُقية ليعرِضَ عليها أن يتحدا معاً على محاربة العثمانيين ، وبإجارة السلطان الغورى للأمير قاسم ابن أخى السلطان سليم الأول العثمانى ، واجارة الشاه اسماعيل للأمير

حقد سليم على فارس ومصر

مراد أخى قاسم، وكان السلطان سليم أراد قتلهما ، فطلبهما منهما فلم يجيباه . فكان ذلك ( الى خوفه من استفحال دولة الفرس الجديدة أو تحول المودة القليلة بين مصر وفارس الى حِلْفٍ سياسى وتناصُرٍ حربىٍّ ) سبباً لاعلان سليمٍ الحرب على الفرس اولاً ثم على مصر ثانياً

محاربة فارس

ولما زحف السلطان سليم على بلاد الشاه اسماعيل وهزمه هزيمة منكرة أراد أن يكتسح جميعَ بلاده ويقضى على البقيةِ من دولته . فوجد الشاهَ أتلف كلَّ ما خلفه فى مدنه وقلاعه من المؤونة والذخائر ، وانتظر سليم ورود غيرها من بلاده ، فعلم أن قبائل التركمان وامارة الغادرية التابعة لمصر قد أغارت على قوافله ومنعت وصولها اليهِ ، فقلّت الأقوات فى معسكره واضطرب الجيش ، فحرمه ذلك ثمرة انتصاره

مساعدة مصر لفارس

هذه كل المساعدة التى قامت بها مصر للشاه ، مع انها لو سيّرت جيشاً يقطَع خط الرّجْعة على العثمانيين لكان التاريخُ على غير ما هو عليه . فاضْطُرَّ سليمٌ الى الرجوع الى بلاده منتقِماً فى طريقه من امارة الغادرية،فقَتَل أميرَها علاء الدين وضمَّ بلاده الى ملكه ، ووَلى غيرَه من أبناء اسرته الغادرية . واحتجّ الغورى على ذلك ، فقابل سليم احتجاجهُ بارسال رأس علاء الدين اليهِ . وحينئذٍ علم الغورى أن الحرب واقعة لا محالة ، فاستعد لملاقاته بتجهيز جيش عزم على أن يقوده بنفسه ، ولكن بعد فوات الفرصة : فان الشاه اسماعيل لم يعد فى القوة التى كانت له قبل : فقد هلكت أبطاله ، و تشتّت شملُ رجاله ، وخربت بلادُه، فأمن السلطان سليم غائلته وتفرغ لحرب مصر. ومع كل هذا كان من الممكن انتفاع الغورى بما بقى للشاه من القوة، ولكنه لم يفعل أو لم يقُنع الشاه بضرورة ذلك

استعداد الغورى للقتال

أراد الغورى أن يستجمع كل ما عنده من قوة العدَد والعُدّة . وكانت موارد الثروة قد نضبت بمصر، لقطع البرتقالِ طريقَ التجارة الهندية عليها، فلم يكَدْ يَهُمُّ بجمع المماليك حتى تخاذلوا وتعللوا عليه بقلة النفقة المصروفة لهم وماهم فيه من العُسْر. وكان الفسادُ قد دب فى أخلاقهم، وقلّت وطنيّتُهم، وجرّأهم على ذلك مَيْلُ الغورى

الى مماليكه الخاصة الذين جلبهم لنفسه واتخذهم عُدَّةً له يتقوى بهم على المماليك القدماء اذا هموا بهِ. وبعد تساهلٍ من الطرفين أمكن الغوريَّ اثناء شتاء سنة ١٥١٥-١٥١٦م (٩٢٢هـ) إعدادُ جيش يخرج بهِ الى حدود آسيا الصغرى، فجمع فى هذا الجيش على قلته اكثر مَن فى مصر من رجال القوة الحربية والأدبية: فخرج فيه الخليفة العباسى، وقضاة المذاهب الأربعة، ورؤساء مشايخ الطرق الصوفية وكبار العلماء والأعيان، ورؤساء المغنين والموسيقيين والمضحكين وارباب الصناعات وغيرهم. وترك بمصر حامية من المماليك تقدر بنحو ألفين، وأناب عنهُ الدَّوَادارَ الكبيرَ « طومان باى » ابن أخيه. وبلغهُ أن الأسطول العثمانى يقصِدُ الاسكندرية، فعزَّز حاميتها، وحصَّن قلاعها بنحو مائتى مدفع. وخرج من القاهرة بموكب عظيم تتقدَّمهُ الطبولُ والزُّمور وتُدَق أمامَهَ الكؤوس. خرج بهذا الجيش فى شدَّة حمارَّة الصيف على غير عادة الملوك فى خروجهم،

خروج الجيش المصرى الى الشام



السلطان الغورى فى حاشيته – [ وهو الجالس عن يمين المدخل ]

( رسم على افندى يوسف - عن صورة بدار الاثار العربية )

فقاسى الجنودُ الأهوالَ والشدائدَ فى اجتياز صحراءِ طور سيناء وأوْدِية فلَسْطين، ودخل كلَّ مدينة فى الشام بموكب عظيم وخاصَّة مدينة دِمَشْقَ وحَلب وحَماة

خروج الجيش العثمانى

وخرج السلطانُ سليم من القسطنطينية بجيش عظيم مُدرَّبٍ على الحرب ذكر بعضُهم أنهُ يبلغ ١٥٠ ألف مقاتل مسلّحين بكثير من المَكاحِل والمدافع والبُندُقيات . فلما صار على حدود الشام أراد أن يَكيد للمصريين بمكيدتين ، نجح فى احداهما وأخفق فى الأخرى :

خدع سليم للغورى

فنى الأولى تمكن من أن يستميل اليهِ « خيْر بك » نائب حلب من قِبَل مصر و «جان بَرْدِى الغزالى» نائب حماة، ووعد الأول بولاية مصر والاخر بولاية الشام . ومع أن نائب الشام وغيرَه أخبروا السلطان الغورى بخيانة خير بك لم يعبأ بكلامهم لِما يرى من شدة تواضعه واخلاصه

رسل سليم للغورى

وفى الثانية أراد أن يخدع الغورى بصَرفه عن القتال وأخْذِه على غِرة ، فأرسل اليهِ أولاً أثناء برُوزه من القاهرة بتوسُّط الخائن نائب حلب رسالةً يعتذر فيها عما فرط منه فى شأن البلاد التابعة لمصر ويعِدُه بأن يُعيدها اليه ويفتح طريق تجارة الرقيق والصوف والفراء ، وبالجملة يفعل كل ما يطلبه الغورى . وكاد الغورى وأمراء عسكره يُخدعون بذلك لولا مراعاتهم جانب الحيطة بالخروج الى الشام . وأرسل اليه ثانية وهو بحلب رسلاً عليهم أحد قواده وقاضى « عسكر الروم ايلى » يصرفون الغورى عن قصده ، ويؤكدون إخلاص سلطانهم له وشدة رغبته فى المهادنة والصلح بشرط أن لا يتدخّل الغورى بينهُ وبين الشاه اسماعيل الذى لم يقصد سليم بخروجه غيرَه والذى أفتى علماء القسطنطينية بجواز حربه وقتله لرَفْضه وخروجه عن شعائر أهل الملّة . فأكرمهم الغورى وسيَّرهم معزَّزين الى معسكر سليم ، وأرسل اليه رسله صحبة أمير كبير من المصريين يعرض عليه توسُّطه فى الصلح بينهُ وبين الشاه . فغضب سليم وهمَّ بقتل الرسول ، فشُفِع فيه فأطلقه مُهانًا مُشعَّثًا وقال له : قل لأستاذك ان اسماعيل الصفوى خارجىٌّ وأنت مثله ، وسأبدأ بك قبله ، وموعدنا «مَرْجُ دابق» (على بعد يوم شمالى حلب) . فخرج الغورى فى نحو ثلاثين ألف مقاتل، وخلّف أمواله وذخائره فى قلعة حلب الحصينة فى حامية لها. فلما كان صبيحة يوم الأحد ٢٥ رجب سنة ٩٢٢هـ (١٥١٦م)

واقعة مرج دابق

( وهو اليوم الذى سقطت فيه الدولة المصرية من عالم الدول المستقلة العظيمة ) دهمه العثمانيون بجيش يربو على الجيش المصرى بأضعاف ، فعبأ الغورى كتائبه . وكان من غلطاته الكبرى فى خَرْجتـه هذه أنه آثر مماليكه الخواصَّ ( الذين اشتراهم بماله ) بكل كرامة ورعاية وإنعام ، وقصَّر فى استجلاب مودة المماليك القدماء من عتقى السلاطين والأمراء ، حتى شاع بينهم أن السلطان يريد أن يجعلهم أمام مماليكه الخواص ليكونوا دَرِيئةً لهم من مدافع العثمانيين التى تفوق مدافع المصريين عظماً وسرعـة قَذْفٍ وبُعْدَ مرمًى . ففسدت نياتُ بعضهم ، وانضمَّ ذلك الى خيانة « خير بك » و « جان بَردى الغزالى »

فلما التقى الجمعان حملت الميمنةُ والقلبُ حملة أزالوا بها العثمانيين من مواقفهم ، وقتلوا منهم بضعة آلاف ، واستولوا على كثير من أعلامهم ومدافعهم ، وكادت الغلبةُ تكون للمصريين. وهمَّ السلطان سليم بالهرب ، لولا أن خير بك انهزم بكتيبته (وكان على الميسرة ) ، وتبعـهُ جان بردى الغزالى ، فاختل نظام الجيش المصرى . واتفق أن وصل للعثمانيين فى ذلك الوقت مدد من المدفعية ، وظهر كمين لهم أحاط بالجيش المصرى . ورأى المماليكُ القدماء من المصريين أن المماليكَ الخواصَّ لا يقاتلون ، ففترت هممُهم وَوَهَنَتْ عزائمهم ، وتخاذلوا ، ولم يصبروا على نيران المدافع العثمانية ، فركنوا الى الفرار ، وبقىَ السلطان الغورى فى جماعة قليلة يناديهم ليعودوا فلم يلتفتوا اليه ، ففُلج لساعته ، وسقط عن جواده . ولما شاع موته فى العسكر تفرَّقوا ، واستولى العثمانيون على مُعسكرهم ، وغنِموا منه مالا يُحصى ، ولم يوقف للغورى على أثر ، واستمرت الواقعة من طلوع الشمس الى ما بعد الظهر . ولما رجع المنهزمون الى حلب انقلب عليهم أهلها ، واستولوا على ودائعهم عندهم ، وفتكوا بهم ، فلاقوا منهم شرًّا مما لاقوا من العثمانيين . وانتظر أهل حلب قدوم السلطان سليم فسلّموه المدينة ، واستولى على قلعتها بدون قتال ، وغنم منها ألوف الألوف من الأموال والذخائر . وخُطب باسمه فى مسجدها ، وانضم اليه خير بك وغيره من المماليك الخوَنة ، وحلقوا لحاهم أو قصروها ، وتزيوا بزى

موت الغورى

العثمانيين . ثم ذهب السلطان سليم الى دمشق ، فاستولى عليها ، ودانت له جميع مدن الشام بلا مُنازع . ومكث بها مدةَ ثلاثة أشهر يرتّبُ نظامها ، ويُحكِمُ أمورها

عودة الجيش الى مصر

أما بقية المنهزمين من المصريين فرجعوا الى مصر فى حالة يرثى لها ، ورجع معهم جان بردى الغزالى ، وكأنهُ قصد برجوعه الى مصر أن يَفُتَّ فى عَضُدِ المصريين ، ويكون عونًا وجاسوسًا للعثمانيين ، وكانت أفعاله كلها فى مصر ترمى الى ذلك ، لأنهُ خرج عقِبَ دخولهِ مصر بحملة الى الشام ليُنقِذ غزةَ من العثمانيين ، ففرق عساكره فى البلاد ، ولم يلاق العثمانيين الاَّ بفئة قليلة لم تلبث ان انهزمت ، وكانت هزيمتهم سببًا فى فشل طومان باى ( الذى خلّفه الغورى سلطانًا على مصر ) فى تأليف جيش عظيم آخر يدافع عن القاهرة . فقد كابد فى جمعه مشقات عظيمة ، وتخاذل المماليك واشترطوا عليه شروطًا أشدّ مما اشترطوا على الغورى وبَقُوا فى خلاف : هل يحاربون العثمانيين على حدود جزيرة الطور وهم منهوكو القوى من قطع الصحراء أو فى شمالى القاهرة. حتى دهمتهم جيوش العثمانيين وصارت على مقربة من القاهرة . فخرج طومان باى فى جيش مختلط من جميع أجناس المحاربين ، وأسرع فى حفر الخنادق ونصب المدافع فى ظاهر الرَّيْدانيّة ( صحراء العباسية وعين شمس الى بركة الحج ) . وكان يظن أن الجيش العثمانى يقابله وجهًا لوجه فيها ، فكان غيرُ ما ظنّ ، إذ لم يكَدْ الجيشان يتلاقيان يوم ٢٩ ذى الحجة سنة ٩٢٢ هـ حتى افترق الجيش العثمانى لكثرته الى ثلاث فرَق : فرقة كانت وِجهتها المصريين بالريدانية ، وفرقة سارت تحت الجبل الأحمر والمقطم وأحاطت بهم من اليمين الى الخلف ، وفرقة سارت الى جهة بولاق وأحاطت بهم من الشمال . وصبر المماليك ساعةً قُتل فيها عدد عظيم من العثمانيين وقوادهم منهم سِنان باشا اكبر القواد والوزراء للسلطان سليم ، ولم يدم ذلك إلاَّ رَيْثما تمت حركة الالتفاف ، وعندها وُجهت المدافع والبنادق على المصريين من كل صَوب ، ولم يكن لهم نظيرها ، فلم يسعهم إلاّ الفرارُ . وصبرَ طومان وجماعته صبرَ الأبطال ، ولكنهم اضطروا أخيراً الى الفرار الى الجيزة . وسار العثمانيونِ الى القاهرة فدخلوها فِرَقًا ،

طومان باى يحاول المقاومة

واقعة الريدانية

دخول العثمانيين القاهرة

ونزل السلطان سليم بمعسكره الخاص على ساحل بولاق والجزيرة الوسطى * ولم يدخل المدينـة . وبقى كذلك الى يوم الثلاثاء رابع المحرم سنة ٩٢٣ هـ . فلما كانت ليلةُ الأربعاء خامس الشهر لم يشعر السلطان سليم بعد صلاة العشاء إلاَّ وقد هجم عليه فى معسكره السلطان طومان باى بمن التف حوله من المماليك . فاختل نظام المعسكر واختلط الحابلُ بالنابل ، وساعد المماليك كثيرٌ من العامة والغوغاء ونواتىُّ بولاق . فما بزغ الفجر حتى قُتل من العثمانيين خلق كثير . ثم جاءت فرقة أخرى مدداً للمماليك بقيادة الدوادار الأمير عَلاَّن من جهة الناصرية ، وحَمِى وَطيسُ القتال بين الفريقين من بولاق الى الناصرية ، وملَكَ المماليك اكثر المدينـة بعد أن قتلوا الألوف فى شوارعها وحاراتها من العثمانيين المتفرقين . ثم جمع العثمانيون شملهم وطردوا المماليك من حى بولاق الى قناطر السباع ( السيدة زينب ) حتى تحصنوا ( المماليك ) بحى الصليبة وحفروا الخنادق حوله من جميع الجهات. وخُطب يوم الجمعة للسلطان طومان باى على منبر جامع شَيخون وغيره ، واستمر القتال كذلك أربعة أيام بلياليها من ليلة الأربعاء الى صبيحة يوم السبت ٨ المحرم . فحاصر العثمانيون حى الصليبة من كل جهاته ، واشتد الامر على المماليك فتخاذلوا وتسللوا عن السلطان طومان باى . فبقى يقاتل فى نفر من المقدَّمين الأمراء وبعض العبيد ، حتى اذا لم يبقَ للدفاع فائدة فرّ الى بركة الحبش (بين الساحل القبلى بمصر القديمة وبين معادى الخبيرى ) وعَبَر من ساحل طرة الى ضفة النيل الغربية بالجيزة . واستولى العثمانيون على المدينة مرة أخرى . وطلع السلطان سليم الى القلعة بعد ذلك بعشرة أيام ، واستحوذ على ما فيها من الأموال والذخائر . وبقى بالقلعة نحو شهر شاع فى خلاله ان طومان باى سار فى عسكر عظيم ممن تراجع اليه من المماليك والتف حوله من عرب الصعيد ، وانهُ قادم الى القاهرة

مجهودات طومان باى الاخيرة

القتال فى شوارع القاهرة

عرض الصلح

وبعد أيام جاءت رسل من عند طومان باى الى السلطان يعرضون عليه الصلح بأن تكون مصر تحت سيادة العثمانيين فى الخطبة والسكة والخراج ، وأن يكون

* هى الجزيرة التى أمام قصر النيل

طومان باى نائبًا عن سلطان العثمانيين فى مصر. فقبل ذلك السلطان سليم وأرسل اليه وفداً من قضاة مصر وأعيانها و بعض المقدمين . فلما وصلوا الى السلطان طومان باى بجهة البهنسا ثار المماليك بطومان باى، ولم يرضوا بالصلح وقتلوا بعض رجال الوفد، فلم يسع طومان باى الآن مجاراتُهم مكرَهًا. وتقدم الى بلاد الجيزة لينازل العثمانيين فى موقعة فاصلة، فاجتاز السلطان سليم اليه النيل بجيوشه . والتقى الجيشان بقرب « ورْدان » يوم الخميس ١٠ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ ( ١٥١٧ م ) فدارت الدائرة أولاً على العثمانيين وقتل منهم مقتلة عظيمة . إلاَّ أن نيران المدافع والبندقيات العثمانية مزّقت جيش المصريين المختلط ( الخالى يومئذٍ من اكثر المعدات الحربية ) كل مُمزَّق ، فكانت هذه الموقعةُ الخامسة هى ختامَ الوقائع الحربية التى دافع بها المماليكُ المصريون عن بلادهم ، ولم يقم لهم بعدها قائمة إلاّ ما كان من استبداد بعض سلائلهم بشأن مصر كما سيأتى

واقعة وردان

أما السلطان طومان باى فإنه لما فرَّ من وجه السلطان سليم ذهب الى أحد رؤساء الأعراب بالبحيرة المدعو « حسن بن مرْعى » وكان له عليه أيادٍ عظيمة ، فاختفى عنده واستحلفه أن لا يخونه ، ولكنه نقض الحَلِف وكاشف السلطانَ سليماً بأمره ، فأرسل اليه عسكراً قبضوا عليه متنكراً فى زِى الأعراب ، وجاءوا به الى السلطان سليم . فحين رآه قام له وعاتبه ببعض الكلام ، وبقى معه فى معسكره عدة أيام يحضر مجلسهُ ويسائلهُ السلطان سليم عن شؤون مصر وادارتها وسياسة أهلها وكيفية ريّها وجباية خراجها و بقية أمورها ، مما جعلِ طومان باى يطمئن اليهِ ويظن من إقباله عليهِ أنه سيكون نائبًا عنه فى ملْك مصر

القبض على طومان باى

غير أن ذلك كان استدراجًا من السلطان سليم ، إذ بعد ما وقف منه على كل ما أراد أمر فى يوم الاثنين ٢١ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ ( ١٥١٧ م ) بأن يعود بطومان باى الى القاهرة . فدخلوا به وهو بزى الأَعراب من جهة شارع أمير الجيوش الى البرقوقية ، حتى اذا صار تحت باب زَوِيله أنزلوه عن فرسه . وكان لايدرى ماذا

قتل طومان باى

يُصنع به ، فلما رأى الحبال مدلاَّة من حَلْقة الباب علم أنه مشنوق ، فتشهد وقرأ الفاتحة وسأل الناس أن يقرءوا له الفاتحة ، وشُنق بين ضجيج الناس عليه بالبكاء . وبقى مصلوباً ثلاثة أيام ، ثم أُنزل ودُفن خلف مدرسة الغورى (جامع الغورى) ،وكان له من العمر نحو ٤٤ سنة . ولم يُشنق ممن حكم مصر من الخلفاء والسلاطين سلطان غيره

السلطان سليم في مصر بعد الفتح

أما السلطان سليم فانهُ أقام بمصر نحو ثمانية أشهر . فكان معسكره أول الفتح ببولاق والجزيرة الوسطى، ثم أقام بالقلعة نحو شهر ثم بمدينة الجيزة وامبابة قريباً من شهر ثم أقام بجزيرة الروضة والمقياس مدة ثم توجه بجنده الى مدينة الاسكندرية ، فكانت



السلطان سليم – فاتح مصر

( رسم على افندى يوسف )

مدة غيابه وايابه ١٥ يوماً. ثم رجع وأقام بجزيرة الروضة وبُنِىَ له بها بجانب المقياس فى طرف الجزيرة الجنوبى جَوْسَق من الخشب أقام به بقية المدة إلاّ زمناً يسيراً أقامهُ ببيت الأشرف قايتباى المطل على بركة الفيل

وفى أثناء اقامته بمصر سنَّ لها بعض أنظمة ادارية ، ونقل الى القسطنطينية اكثرَ ما فى القلعة ومنازل الأمراء والسلاطين والمساجد والزوايا والأربطة من النفائس والذخائر والكتب حتى أعمدة الرخام ومُرَكَّباته

ونفى من مصر الى القسطنطينية كل أبناء السلاطين واكثر المقدمين والأمراء والخليفة العباسى بعد ما نزل له عن الخلافة واكثر العلماء والقضاة وكل من له نفوذ وإمرة بمصر

ثم أمر بجمع رؤساء الصناعات المشهورين بإجادة العمل فيها من كل الطوائف ، فجمعوا منهم نحو الف صانع ونقلوهم الى الاستانة ليذيعوا الصناعات الدقيقة فيها ، فرجع بعضهم الى مصر بعد عهده وبقى آخرون . قيل انه بطل فى مصر بذلك نحو ٥٠ صناعة فكان كل ذلك سبباً فى تأخر مصر فى الصناعات

أما ولاية مصر فاختار لها السلطان سليم أثناء اقامته اكبر وزرائه « يونس باشا » والياً عليها، ثم رجع عن ذلك قبيل سفره من مصر وولى عليها ملك الأمراء « خير بك » وولى على الشام « جان بردى الغزالى »

وباستيلاء السلطان سليم على مصر صارت البلاد جزءاً من الدولة العثمانية

ويجدر بنا قبل الكلام على حكم العثمانيين فى مصر أن نذكر شيئاً عن منشئهم ونهوضهم، وأهم الحوادث فى تاريخهم أيام حكمهم فى مصر، حتى نكون على علم بأهم الأحوال التى أحاطت بمصر فى ذلك العهد

# الفصل الثانى

## نبذة فى تاريخ الدولة العثمانية

### ١ — ﴿ منشأ العثمانيين ونهوضهم ﴾

الجنس التركى

العثمانيون جيل من الأجيال التركية المتشعبة من الجنس المغولى المعتبر من أعظم الأجناس البشرية عدداً. وأصل منشئه « بلاد منغولية » ، ومنها انتشر غرباً وشمالاً وتشعّبت منه فى آسيا أمم وقبائل استقلت بنفسها وصار لبعضها ملك كبير : مثل أمة « الهُون » المفتتحة شرقى أوربا يقودها زعيمها « أتيلاّ » ، ومثل دولة الأتراك السلاجِقَة[1] المستَبِدَّة بملك العباسيين، ومنهم الدولة المعروفة بسلطنة الروم السلجوقية، وقد سبق ذكرها فى الكلام على الحروب الصليبية[2]

وفى أوائل القرن السابع الهجرى ( الثالث عشر المسيحى ) قامت للمغول دولة وثنية قوية بقيادة زعيمهم العظيم « جنكيز خان » ثم حفيده « هولاكو » ، فاكتسحت ممالك آسيا الوسطى والغربية ، وقوّضت عرش الخلافة العباسية، وأتت من فظائع التقتيل والتخريب ما لا ينساه التاريخ . وكانت القبائل التركية الاسلامية تفرّ من وجوههم مؤثرين الهجرة على الخضوع لجَورهم . ومن هذه القبائل قبيلة صغيرة تدعى «الأغوز» ، خرجت من ديارها فى أواسط آسيا وغرّبت حتى وصلت الى آسيا الصغرى التى بقى جزء منها وقتئذٍ فى حوزة السلاجقة : تلك هى القبيلة التى نشأت منها الدولة العثمانية

ارطغرل

وبينما تتجول هذه القبيلة فى آسيا الصغرى برأسها كبيرها «أرْطُغْرُلْ» إذ وجدت

---

(١) سموا السلاجقة نسبة الى « سلجوق » رئيس القبيلة التى نشئوا منها
(٢) كتاب تاريخ مصر الى الفتح العثمانى

جيشين يقتتلان : أحدهما من المغول، والآخر من السلجوقيين. فانضمت الى الجيش الذى كاد ينهزم ، وهو السلجوقى ، فانتصر بها على المغول وطردهم من بلاده ، فرأى السلطان السلجوقى « عَلاء الدين » وجوب مكافأة « أرطغرل » على معونته له ، فأقطعه قطعة من الأرض قرب مدينة « بُرُوسة » على تخوم أملاك الدولة الرومانية الشرقية تسمى « إسكى شهِر » ( سُلطانونى ) . فكانت مهد الدولة العثمانية، وفيها وُلد « عثمان » بن « أرطغرل » الذى تُنسب الدولة اليه

عثمان

وُلد عثمان سنة ٦٥٦ هـ ( ١٢٥٨ م ) فنشأ مولعاً بالحرب مُظفَّراً فيها ، فانتزع فى صباه من دولة الروم الشرقية مدينة «قره حِصار » وغيرها. فمنحه سلطان «قونية» لقبَ « بك » ورقَّاه الى مرتبة الأُمراء

وفى سنة ٦٩٩ هـ (١٣٠٠م) قضى المغول على البقية الباقية من الدولة السلجوقية ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحكموا تلك البلاد بأنفسهم ، فاستقلت فيها عشرُ إمارات تركية ، إحداها إمارة «عثمان» الذى اعتُبر من ذلك الحين المؤسس للدولة العثمانية وأول حاكم مستقلٍّ فيها ، أما باقى الإمارات التركية فاندمجت فى هذه الإمارة على توالى الأيام ، وسمّوا أنفسهم عثمانيين أيضاً

وأخذ عثمان ينظّم أملاكه ويوسع نطاقها فى الجهة الغربية ، فاستولى على كثير من أملاك الدولة الرومانية الشرقية. وقبل وفاته فتح ابنُهُ«أُرخان » مدينة « بروسة » بعد حصار طويل ، فصارت بعدُ حاضرةً للدولة

فتح بروسة

أرخان

وفى سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦م ) خلف عثمان ابنُهُ « أُرخان » ( ٧٢٦ - ٧٦١ هـ : ١٣٢٦ - ١٣٥٩ م ) ، فواصل الحرب على الدولة الرومانية الشرقية ، فافتتح منها « نيقوميديَة »و« نيقيَة » ( أزنيق ) وكثيراً من البلاد الأسيوية التى كانت لم تزل فى حوزتها. ثم جنح «أرخان» الى السلْم ، فقضى نحو عشرين عاماً بلا طَعْن ولا نِزال ، عُنى فيها بتثبيت دعائم ملكه فى البلاد التى فتحها ، وإصلاح الحكومة وتنظيم الجيش، وقد كان لعمله الأخير اكبر أثر فى اتساع رُقعة المملكة وتأييد مجدها ، وذلك بفضل

إنشاء طائفة « الإنكشاريّة » ( العسكر الجديد ) ، التى كوّنها وعُنى بتدريبها حتى صارت أهم فرقة فى الجيش

الانكشارية

ومنشأ هذه الطائفة ان الدولة كانت تأخذ كل عام نحو ألف صبى من ابناء النصارى الذين قُتل آباؤهم فى الحرب وتُلقّنهم الدين الإسلامى وتُربّيهم تربية عسكرية منظمة ، منطبقة على أدق القواعد الحربيـة التى امتاز بها الترك فى ذلك الزمان، حتى صارت هذه الطائفة لامثيل لها فى القوة والإقدام والمرانة على الحرب . وكان يُفتح أمامهم طريق الرقىّ الى اكبر المناصب فى الدولة ، فعُدّ ذلك اكبر مشجع لهم على الطاعة وخوض غمار الحروب ، وبقى هذا النظام متبعاً نحو ثلاثة قرون ، غير أنهُ تسوهل فيهِ أُخرَيات هذه المدة ، فكانت الجنود الجدد تُجمع من الاسرات التركية ، ومن أبناء الانكشارية أنفسهم . ولما طال عليهم الأمد استأثروا بالسلطة، وأساءوا استعمالها ، وأصبحوا منبع الشغب والقلاقل فى الدولة ، فقضى عليهم السلطان محمود الثانى أوائل القرن التاسع عشر سنة ١٨٢٦ م ( ١٢٤١ هـ )



بعض ضباط الانكشارية

( رسم على افندى يوسف )

مبدأ الفتوح العثمانية باوربا

ولما أتمَّ « أرخان » تنظيم الجيش وإصلاح الشؤون الداخلية عاد الى العمل على توسيع نطاق أملاكه ، فأغار على الشاطئ الأوربى ، واستولى فيه على مدينة « غليبولى » وغيرها من المدن شمالى مضيق الدردنيل ( ٧٥٨ هـ : ١٣٥٧ م ) ، فكان ذلك مبدأ الفتوح العثمانية فى أوربا ، التى أخذت من وقتئذٍ تزداد وتعظم ويقفو بعضها بعضاً

مراد الاول

ولما تولى الملك « مراد الأول » ابن أرخان ( ٧٦١ - ٧٩٢هـ : ١٣٥٩ - ١٣٨٩م ) همَّ بمواصلة تلك الفتوح ، فأخضع معظم بلاد « الرُّومَلى » ( الروم ايلى ) واستولى فيها على « أدِرْنَة » ( التى أصبحت عاصمة جديدة للدولة ) و « فِلِبُّوبُوليس » ( فِلِبَة ) وغيرهما من المدن العظيمة ، فضاق بذلك نطاق أملاك الدولة الرومانية الشرقية

اخضاع الروملى

وهال هذا الفوزُ الكبير أمراء أوربا . فعزموا على ردّ الترك الى بلادهم فى آسيا ، فخرج لذلك الوجه ملوك « البوسنة » ( البُشْناق ) و « المَجَر » والصِّرْب » بجيش عظيم ساروا به الى « أدِرْنة » . فهزمهم الترك شر هزيمة سنة ٧٦٥ هـ ، ( ١٣٦٣ م ) . ثم قفوا على أثر ذلك بإخضاع « بُلْغاريا » وضمها الى أملاكهم سنة ٧٩١ هـ ( ١٣٨٨ م ) فعاوَد الفزَعُ إماراتِ أوربا الشرقية ، وتحالفوا على قهر مراد . فسار الى الصرب ليردّهم ، فالتقى بهم فى واقعة « قُوصوَة » الشهيرة سنة ٧٩٢ هـ ( ١٣٨٩ م ) ، فاصطلم جيوشهم اصطلاماً . الاَّ أنه قُتِلَ على إثر الموقعة : طعنه صِربى ثار به من بين القتلى . وكانت نتيجة تلك الواقعة أن دخلت « الصربِ » أيضاً فى حوزة الدولة العثمانية

اخضاع بلغاريا

والصرب

ولم تكن غزاوت مراد قاصرة على أوربا ، بل كان سيل جيوشه يتدفق على آسيا فاستولى فى أوائل حكمه على مدينة « أنقِرَة » ، وواصل بعدُ فتوحَه فيها ، فاندرجت أربع من الإمارات العشر التى قامت على أنقاض دولة السلاجقة فى سلك الأملاك العثمانية

بايزيد الاول

ثم خلفه ابنه « بايَزِيد الأول » ( ٧٩٢ - ٨٠٥ هـ : ١٣٨٩ - ١٤٠٢ م ) ، فلم يقلّ عن أبيه مهارةً وإقداماً . فأخضع باقى الإمارات التركية فى آسيا ، ووطّد

أركان دولته فى أوربا ، وزاد عليها كثيراً من مدن الرومَلّى ، التى كانت لم تزل بعد فى يد المسيحيين

حروب صليبية اخرى تثار على العثمانيين

من أجل ذلك عمَّ الهول والفزع معظمَ الأوربيين ، من كثرة فتوح العثمانيين وسرعة تقدمهم فى أوربا ، وقامت ضجة دينية للحضّ على غزاتهم . فقام البابا يدعو الناس باسم الدين الى مقابلتهم ، وخرج لذلك جيش أوربى عظيم بقيادة « سِجِسْمُنْد » ملك المجر ، ضم بين كتائبه كثيراً من فرسان فرنسا وألمانيا . وكان بايزيد إذ ذاك غائباً فى آسيا ، ففاز الأوربيون فى بادئ الأمر ، واستردوا من الترك كثيراً من المدن ثم شرعوا فى حصار مدينة « نيقوبوليس » ، وهى من أمنع المدن على نهر « الطونة »

واقعة نيقوبوليس

فلما علم بايزيد بذلك أسرع للقائهم ، فهزمهم هزيمة تُعدّ من أنكر الهزائم التى دوّنها التاريخ ، بحيث لم ينج من جيوشهم الأ النزر اليسير ، سنة ٧٩٩ ﻫ ( ١٣٩٦ م )

وشرع بايزيد بعد واقعة نيقوبوليس هذه فى غزو بلاد اليونان ، فأخضع منها « تِساليا » و « أبيروس » ، وكان على وشك التأهب لفتح القسطنطينية ، التى طالما تاقت نفسه ونفسُ الفاتحين من المسلمين لغزوها ، لولا أن داهمته غارة التتار على أملاكه الأسيوية بقيادة الجبار الشهير « تَيْمُورْلَنك » . فخرج بايزيد لِصدّه ، وتقابل الجيشان فى « أنقِرَة » سنة ٨٠٥ ﻫ ( ١٤٠٢ م ) . فكانت الهزيمة على العثمانيين ، وأُخذ بايزيد أسيراً* ، فبقى فى أسره حتى مات كمداً بعد ذلك بثمانية أشهر

واقعة انقرة

وقد كادت هذه الهزيمة تكون قاضيةً على العثمانيين ، لولا أن هلك « تيمورلنك » وتشتت شمل دولته إثر وفاته . وكان لبايزيد أربعة أولاد ، بقوا عشر سنين يقتتلون من أجل العرش

محمد الاول

ثم انتهى الأمر بتغلب أحدهم « محمد الأول » ( ٨١٦-٨٢٤ﻫ : ١٤١٣-١٤٢١م ) فكان من خيرة سلاطين آل عثمان : لمَّ شعث الدولة بعد أن مزّقها « تيمورلنك » وكبح جماح الإمارات التى كانت أخذت تتمرد على الدولة لِما رأته من انهزامها الشنيع ،

* من الاقاصيص المتداولة انه وضع فى قفص من حديد

وأصلح ما أفسدته الفتن التى حدثت بينهُ وبين إخوته قبل خلوص الملْك له . ولم يمض عليه ثمانية أعوام حتى استرجع للدولة كل ما كان لها قبل واقعة أنقرة . فكان ذلك من أمجد ما وعاه التاريخ للدولة العثمانية

مراد الثانى

ومات السلطان « محمد الأول » سنة ٨٢٤ هـ ( ١٤٢١ م ) فى الثالثة والثلاثين من عمره ، فخلفه « مراد الثانى » ( ٨٢٤ - ٨٥٥ هـ : ١٤٢١ - ١٤٥١ م ) ، فعمل على مواصلة الفتوح التى وقفتها غارة تيمورلنك . وكان إمبراطور دولة الروم الشرقية قد مالأ أحد المطالبين بالملْك من أبناء مراد ، فقابل ذلك مراد بمحاصرة القسطنطينية ، وقد كاد يفتحها لولا أنه اضطر الى فض الحصار عنها لإخماد ثورة أثارها عليه فى آسيا أحد اخوته

غارة هونياد

ثم قامت بأوربا نهضة جديدة لإخراج العثمانيين من هذه القارة . فخرج لذلك جيش جرار : جُمعت كتائبه من ممالك أوربية عديدة ، يقوده « هُونْياد » القائد المجرى العظيم ، الذى لم يرَ الترك قبل ذلك أحداً من المسيحيين فى بأسه وبطشه . فاكتسح الجيش كل شىء أمامه حتى اجتاز جبال البلقان ، فاضطر السلطان مراد الى عقد مهادنة مع المسيحيين لمدة عشر سنوات ، على أن ينزل عن الصرب ويعطى بلاد « الأفلاق » للمجر ( معاهدة إزِّجِدِن سنة ٨٤٨ هـ : ١٤٤٤ م )



هونياد المجرى

( عدو الترك العنيد )

ثم رأى مراد أن يستريح من عناء الملْك ، فنزل عن العرش لابنه « محمد الثانى »

واقعة ورنة

( وكان حديث السن ) ، وأقام بآسيا يطلب الراحة . فلما رأى المسيحيون ذلك طمعوا فى الدولة ، فنقضوا عهدهم ، وزحفت جيوشهم بقيادة «هونياد» على الأراضى العثمانية ، واستولت على كثير من حصون بلغاريا . فلما علم مراد بذلك رجع الى الملك وسار بجيش اليهم . وكانوا قد استولوا على « وَرْنَة » ، فالتقى بهم خارج المدينة فى معركة فاصلة ، انتهت بانهزام المسيحيين هزيمة شنيعة ، وقُتل فيهـا بعض ملوكهم وأمرائهم سنة ٨٤٨ هـ ( نوفمبر سنة ١٤٤٤ م ). وكان العثمانيون أثناء الموقعة يحملون فى جملة أعلامهم لواءً معلقاً عليه صورة من المعاهدة تذكرةً للأعداء بغدرهم ونقضهم للعهود والمواثيق. ثم أتم مراد إخضاع البوسنة والصرب، ومات عام ٨٥٥ هـ (١٤٥١م) فترك لابنه محمد الثانى ملكاً واسعاً ثابت الأركان

تولى «محمد الثانى» الشهير بمحمد الفاتح ( ٨٥٥ - ٨٨٦ هـ : ١٤٥١ - ١٤٨١ م ) وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، فبادر بالتأهب لفتح القسطنطينية، وأعدّ لذلك المعدّات العظيمة ، وفى سنة ٨٥٧ هـ ( ١٤٥٣ م ) تمّ له فتحها بعد أن أعيا كثيراً من ملوك المسلمين قبله ، فقضى بذلك على دولة الروم الشرقية القضاء الأخير . ويُعدّ فتح القسطنطينية من أهم الحوادث التاريخية، كما يعتبر عام فتحها (٨٥٧هـ : ١٤٥٣م ) مبدأ التاريخ الحديث

## ٢ — اضمحلال الدولة البوزنطية*

### وسقوط القسطنطينية فى يد العثمانيين

ذكرنا فى كتاب « تاريخ مصر الى الفتح العثمانى » أن قسطنطين الأكبر نقل عاصمة الدولة الرومانية الى مدينة « بوزنطة » على شواطئ البوسفور سنة ٣٣٠ م ،

* اى الدولة الرومانية الشرقية . سميت البوزنطية نسبة الى بوزنطة الاسم القديم لمدينة القسطنطينية . وتعرف أيضا بالدولة « الاغريقية » لانطباع المسحة الاغريقية فيها قبل نقل العاصمة اليها بمدة طويلة

وأنها سُميّت من ذلك الحين بالقسطنطينية منسوبة اليه . وفى سنة ٣٩٥ م تم تقسيم الدولة الى قسمين : الدولة الغربية وعاصمتها رومية ؛ والدولة الشرقية ، وعاصمتها القسطنطينية

فلم تعمّر الدولة الغربية طويلاً لكثرة غارات الأمم المتبربرة عليها ، اذ استولى عليها القوط سنة ٤٧٦ م

أما الدولة الشرقية فلبثت نحو ١٠٠٠ سنة تمكنت فيها بفضل مناعة موقعها من رد غارات الأمم المتبربرة الأوربية من القوط والسّلاف وغيرهم ، كما صدت غارات الفرس والعرب عن حاضرتها نفسها وعن معظم أوربا . ولكنها لم تستطع الدفاع عن اكثر أملاكها خارج أوربا: فقد رأينا كيف نزع العرب من يدها شرقى آسيا الصغرى وسورية وفلسطين ومصر وبرقة وافريقية وجزائر البحر الأبيض الشرقية

أسباب الاضمحلال الاخير

أنهكت كل هذه المكافحات قوى الدولة وفتت فى عضدها ، الى أن دخلت عليها عوامل فناء أخرى شديدة كان فيها القضاء على البقية الباقية منها . وهذه العوامل الجديدة ترجع الى ثلاثة حوادث عظيمة وهى : —

( ١ ) غارة الصليبيين على القسطنطينية فى احدى حروبهم الصليبية التى شنوها على المسلمين ، وتأسيسهم دولة لاتينية بها استمرت نحو ٦٠ عامًا ( ٦٠٠-٦٦٠ هـ : ١٢٠٤ - ١٢٦١ م )

( ٢ ) مهاجمة الترك لأملاكها من كل جانب

( ٣ ) انتشار الوباء العظيم المعروف بالموت الأسود

١. غارة اللاتين

أما غارة الصليبيين على القسطنطينية فبيانها أن حملة صليبية كبيرة خرجت من غربى أوربا سنة ٦٠٠ هـ ( ١٢٠٤م ) للاغارة على مصر ( قلب الدولة الاسلامية فى ذلك الحين) ومرت الحملة فى طريقها على القسطنطينية ، فطمعت فى ثروتها العظيمة وأملاكها الشاسعة ، ورأى رجالها من ضعف الدولة الرومانية ما شجّعهم على ذلك . فنسوا غرضهم الأصلي ، واستولوا على القسطنطينية ، وأسسوا بها دولة تُعرف بالدولة

اللاتينية نسبةً الى لغتهم . وبقُوا بها نحو ستين عاماً خرَّبوا فيها كثيراً من البلاد ، ونهبوا معظم نفائسها القديمة ونقلوها الى بلادهم . ولم يُحدثوا فى البلاد أى اصلاح أثناء اقامتهم بها ، لجهلهم نظام الملك وادارة شؤون حكومة منتظمة مشيَّدة على أساس مكين مثل حكومة الدولة الرومانية . وكانت البلاد فى أيامهم ( لاختلافهم فى الرأى وتنافسهم فيما بينهم ) ميداناً للفتن والقلاقل الدائمة . أما إمبراطور الروم فانهُ انحازالى آسيا الصغرى ، وجعل مقر ملكه فى « نيقية » التى ما زالت حاضرة للروم حتى انتهزوا فرصة ضعف الصليبيين فى سنة ٦٦٠ هـ ( ١٢٦١ م ) واستردوا القسطنطينية وأعادوا اليها مقر ملكهم

( أ ) نقص ينابيع الثروة

على أن الدولة لم تتخلص من كل ما لحقها من أذى هذه الحادثة ، فإن تشتُّت شملها أثناء حكم اللاتين كان قد ذهب برجالها الملمّين بالقوانين وانظمة الحكومة ، فلاقت صعوبة كبيرة فى تشييد ما هدمه الصليبيون من جديد . وان انتشار الفتن فى البلاد هذه المدة حمل الكثيرين على المهاجرة من الأرض فباتت خراباً بلاقع بعد أن كانت من أخصب بقاع الدنيا ، واضطر ايضاً أصحاب المتاجر التى كانت تمر بين الشرق والغرب عن طريق البسفور الى تحويل متاجرهم الى جهات أخرى اكثر مأمناً وأقلّ اضطراباً

( ب ) الفتن الدينية

ثم لما رجع مقر الدولة الى القسطنطينية ، وحاول قياصرتها اصلاح ما فسد منها وجدوا من المنازعات الدينية والاضطرابات الداخلية بين أهل الدولة اكبر عقبة فى تحقيق أمنيتهم . فانهم لما علموا أن الصليبيين عازمون على اعادة الكرّة عليهم لجئوا الى التودد الى « البابا » ليدفعهم عنهم ، فوعدهم هذا بمد يد المساعدة فى ذلك ، وفى رد غارات الترك عن دولتهم ، اذا عملوا همْ على توحيد الكنيستين : الشرقية بالقسطنطينية، والغربية برومية ، واعتراف الأولى للبابا بالسيادة . فجدَّ القياصرة فى ذلك ما استطاعوا وعزلوا من خالفهم فيه من البطارقة ، فكان ذلك سبباً فى ظهور أحزاب متضادة : بعضها يؤيد البطريق وبعضها يعاضد الامبراطور . وما زال الأمر كذلك

حتى تم توحيد الكنيستين فى سنة ٨٤٣ هـ ( ١٤٣٩ م ) عقب انعقاد مجلس ملى بايطاليا دعا البابا اليه القيصر وممثلى بطريقية الاستانة . فثار غضب أهل القسطنطينية لذلك ، ولِمَا رآه بعضهم بنفسه عند انعقاد المجلس من قلة نفوذ البابا بين دول أوربا الغربية وعدم مقدرته على مساعدة دولتهم بشىء ، وازداد حنقهم عند اعلان توحيد الكنيستين . ومن ذلك العهد استفحل خطب الفتن الدينية

( ج ) التنازع على الملك

على أن الفتن الداخلية فى الدولة لم تكن مقصورة على الأمور الدينية ، بل كان عرش الملك نفسه منشأ فتن مستمرة منذ عاد مقر الدولة الى القسطنطينية . فانَّ أول أمبراطور انتزع هذه العاصمة من اللاتين ( وهو ميخائيل الثامن ) كان نفسه مغتصباً الملك : اغتصبه من طفل كان وصياً عليه ، فأشعل الشرارة الأولى من نار المنازعة فى شأن العرش ، وبقيت هذه النار مستعرة حتى آخر أيام الدولة

( د ) غارات شعوب البلقان

وقد كان لغارة اللاتين على القسطنطينية ضرر آخر لا يقل عن جميع ما تقدم ، وذلك أن الشعوب القاطنة فى البلقان بعد أن كانت خاضعة للدولة الرومانية ، وملتئماً بعضها ببعض ، لعظم سلطانها وشدة بأسها ، وجدتْ من ضعف الدولة اللاتينية باعثاً على استقلال كل منها بنفسها دون مراعاةٍ لِما يعود عليها من النفع من اتحادِها . ثم استطار الشرّ بينها وصار بعضها يستعين بالاتراك وغيرهم على اقتناص ما تصل اليه يده من أملاك الدولة . وبذلك كثرت غارات البلغار والصرب والمجر والتتار على أملاكها ، حتى صارت من اكبر العوامل على فنائها

٢ . هجوم الترك

وأما ثانى الأمور الأساسية التى أدَّت الى سقوط الدولة الرومانيـــة الشرقية فهو مهاجمة الترك لها من كل جانب بلا انقطاع : مقتّلين الكثير من سكان تلك الجهات ، ومشرّدين الباقين أمامهم الى الفلوات والأطراف القاصية : مما خرب البلاد وذهب بغالب أهليها

وزاد هذا النقص وباء عظيم انتشر فى أوربا نحو قرن من الزمان حتى أفنى ألوف الألوف من أهلها : ذلك هو الوباء الهائل المعروف فى التاريخ « بالموت الأسود » .

٣ . الموت الاسود

ظهر في شرقي أوربا عام ٧٤٧ هـ ( ١٣٤٧ م ) ، ثم اطَّرد الى باقى أنحاء القارة ، فكان أنّى انتقل يفتك بالناس فتكاً ذريعاً ، حتى زادت نسبة من ماتوا به فى بعض الممالك على النصف [1] . وقد وجد هذا الوباء منبتاً خصباً له فى مدن الدولة الرومانية الغاصة بالسكان ، والتى لم تلقَ من حكومتها المشتغلة بالفتن الدينية والقلاقل السياسية العنايةَ اللازمة لاتخاذ التدابير الصحية التى تكفى لمقاومته أو لنقص فتكه ، حتى أصبح عدد سكان البلاد لا يكفى لجمع الجيوش التى تقوم بالدفاع عن الدولة [2]

## ٣ — ﴿ الدولة العثمانية فى أوج عظمتها ﴾

( ٨٥٧ - ٩٧٤ هـ : ١٤٥٣ - ١٥٦٦ م )

الاستعداد لفتح القسطنطينية

هكذا كانت حال الدولة الرومانية عند ما جلس محمد الثانى على عرش آل عثمان ، فعمل فى الحال على تحقيق أمنيّة بيته ، وهى فتح القسطنطينية وجعلها مقراً له . فأعد لذلك جيشاً عظيماً سار به لفتح المدينة فى ربيع عام ٨٥٧ هـ ( ١٤٥٣ م )

شكل المدينة

أما شكل المدينة فسهل التصوُّر : إذ هى أشبه بمثلث متساوى الساقين محاط بالأسوار من كل جانب ، رأسه بارز شرقاً فى مياه البسفور ، والضلع الشمالية يحدها الميناء المسمى « القرن الذهبى » ، والضلع الجنوبية يحدها بحر مرمرة . أما قاعدة هذا المثلث فهى الأسوار الغربية التى تفصل المدينة عن باقى القارة الأوربية

مهاجمة المدينة

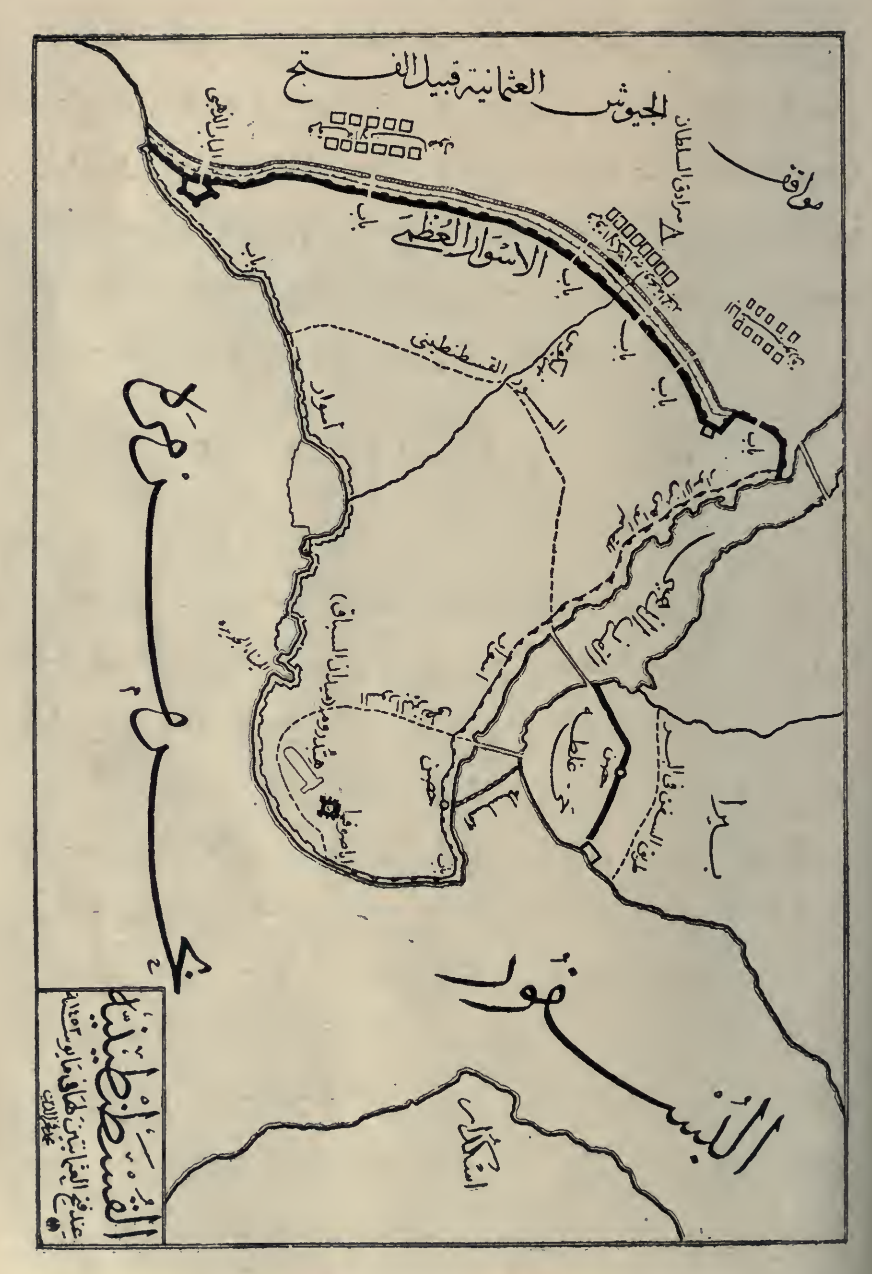
فبدأ السلطان بمهاجمة الأسوار الغربية ، وكانت تمتد من القرن الذهبى الى بحر مرمرة . ثم رأى على ضخامة مدافعه [3] أنه لا يستطيع التغلّب عليها لمناعتها وعظم سَمكها . فعوّل على مهاجمة المدينة من أضعف جهاتها وهى الجهة المشرفة على القرن

---

(١) كان عدد سكان انجلترة فى ذلك الحين بين ٣,٠٠٠,٠٠٠ و ٤,٠٠٠,٠٠٠ ، فمات به اكثر من نصفهم

(٢) لم يفتك الوباء بالترك فتكا ذريعا ، ولعل السبب الاول فى ذلك راجع الى اقامتهم فى الخلوات

(٣) قيل انها كانت أضخم مدافع عرفت الى ذلك العهد ، وكانت تقذف نحو ١٢ قنطاراً من الحجر على مسافة ميل




الذهبي . وكان الروم قد احتاطوا لذلك ومدُّوا سلسلة عظيمـة على مدخل القرن الذهبي، حتى لا تدخله سفن الأعداء لتهاجم الأسوار من تلك الجهة. فلم يثن ذلك من عزم العثمانيين، واحتالوا على نقل سفنهم الى القرن الذهبي بطريقة صعبة لا تزال

من أعجب ما حدث فى التاريخ : وذلك أنهم مهّدوا طريقاً برية بين البسفور والقرن الذهبى يبلغ طولها نحو الفرسخين ، ووضعوا عليها عوارض ضخمة من الخشب تتدحرج عليها اسطوانات طويلة من الخشب أيضاً ( بكَر ) ، وسيَّروا فوقها ٨٠ سفينة صغيرة من أسطولهم الذى كان بالبسفور . فجرت عليها السفن والريح تدفع فى شراعها كأنها تجرى على الماء ، حتى بلغت القرن الذهبى ، فنزلت فيه بلاعناء . وكان السلطان محمد أثناء نقل هذا الأسطول يضآل حامية المدينة بالإلحاح على ضربها بالمدافع من باقى الجهات الأخرى . وعندئذٍ اشتركت السفن والجيش البرّى فى ضرب الأسوار ، فلم تقوَ على احتمال هذه النيران . وحمل العثمانيون على المدينة حملةً صادقة ، فدخلوها بعد قتال عنيف قُتل فيه امبراطور الروم « قسطنطين باليُولوغُوس » . وكان ذلك فى أواخر عام ٨٥٧ هـ ( ١٤٥٣ م ) ، وبه سقطت دولة الروم الشرقية

فتح المدينة

ودخل السلطان محمد عاصمته الجديدة فى موكب حافل ، وسار توًّا الى كنيسة «أيا صوفيا» ، فصلّى فيها ظهر ذلك اليوم ، وبقيت مسجداً إسلامياً الى الآن . وهذا البناء من أجمل آثار دولة الروم الشرقية ، ومن احسن النماذج لفن المبانى البوزنطية

فتوح محمد الثانى الاخرى

استولى السلطان محمد الفاتح على عاصمة الروم وهو لايتجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، فلم تقف فتوحه عند ذلك ، ولم يلبث أن تمَّ له إخضاع معظم « المورَة » و« الصرب » و« البوسنة » . واراد الإغارة على ايطاليا وألمانيا ، فحال دونها وقوف « اسكندر بك الألبانى » و « هُونْياد المجرى » فى طريقه اليهما

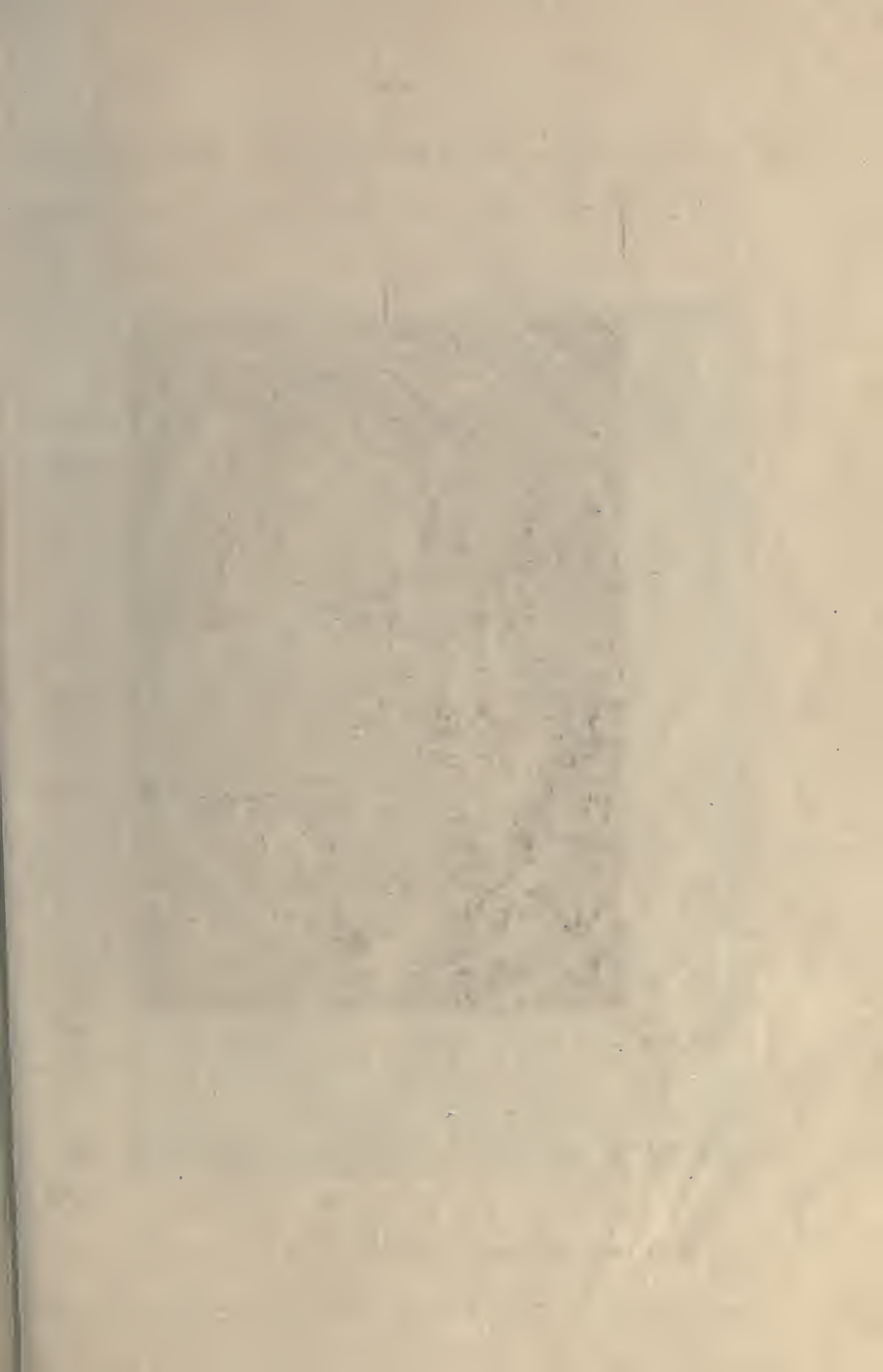
اسكندر بك

وذلك أن أولهما كان أول أمره فى خدمة مراد الثانى ، ثم نصبّه والياً على ألبانيا (موطنه الأصلى) ، فخرج على الدولة وأراد أن يستقل بألبانيا . وساعدته طبيعة تلك البلاد الجبلية على صد الجند العثمانية سنة بعد أُخرى ، فلم يقم للسلطان إخضاع ألبانيا الآ بعد عشرين عاماً ، أى بعد وفاة اسكندر بك فى عام ٨٧١ هـ (١٤٦٧م) . ولم يعش محمد الثانى لتحقيق أُمنيته فى ايطاليا

أما « هونياد » فانه وقف للسلطان فى « بِلْغراد » عام ٨٦٠ هـ ( ١٤٥٦ م )



جامع أيا صوفيا



عند ما أراد الإغارة على المجر وألمانيا ، وهزمه هزيمة كبيرة اضطرته الى الرجوع عن تلك المدينة بعد أن خسر من جيوشه نحو ٢٥٫٠٠٠ مقاتل ، فانصرف عن تلك البلاد الشمالية

هونياد



محمد الفاتح

( رسم على افندى يوسف )

على أن صدّ جيوشه فى هذين الموضعين لم يمنعه من مواصلة فتوحه فى الجهات الأخرى . فاستولى فى آسيا على «طَرَبِزُون» ( أطْرابَزُنْدَة ) من بقية أملاك الروم ، وأخضع إمارة « القَرَمان » التركية إخضاعاً نهائياً . وفى سنة ٨٧٩ هـ ( ١٤٧٥ م ) دانت له بلاد « القرِم » فبقيت خاضعة للدولة نحو ثلاثة قرون من الزمان . ثم كان

عاقبة تغلبه على ألبانيا أن أزال أكبر عقبة فى سبيل توسيع أملاكه من الغرب .
فتوغل فى أملاك البندقية توغلاً فزع منه البنادقة ، ولم يسعهم الاّ أن عقدوا معه
محالفة لتسلّم لهم مدينتهم ، سنة ٨٨٢ هـ ( ١٤٧٧ م )

محاولة فتح ايطاليا

أما ايطاليا فلم يبرح أمرها قط من ذهن محمد الثانى ، وكان جل أمانيه فتحها ورفع
لواء الاسلام على رومية فى الغرب ، كما رفعه على القسطنطينية فى الشرق

فرسان القديس يوحنا

ورأى أن يمهد الطريق لذلك بانتزاع جزيرة « رودس » من أيدى « فرسان
القديس يوحنا » . فسيّر عليهم أسطولاً عظيماً ، وضيق الحصار على جزيرتهم ثلاثة
أشهر ، ولكنه لم يقو عليهم ، وفترت همة جنود الانكشارية لمّا علموا أن السلطان
منع استيلاءهم على شىء من غنائم الجزيرة . فاضطر محمد الى فض الحصار ، وأبرم
مع الفرسان صلحاً عام ٨٨٥ هـ ( ١٤٨٠ م )

ثم عاد فوجّه همه لفتح إيطاليا ، فأرسل جيشاً استولى على مدينة « أُترَنْتُو »
سنة ٨٨٥ هـ ( ١٤٨٠ م )

وكان فى العام التالى يشتغل بإعداد حملة عظيمة لإتمام فتح تلك البلاد ، فمات
فُجاءة عام ٨٨٦ هـ (١٤٨١م) ، وبموته انصرف العثمانيون عن هذه الجهة . وفى أيام
خلفه أخلى العثمانيون «أترنتو» ذاتها ، ولم يحتلوا بعدها شيئاً من الأراضى الإيطالية

بايزيد الثانى

ثم خلفه ابنه « بايزيد الثانى » ( ٨٨٦ - ٩١٨ هـ : ١٤٨١ - ١٥١٢ م ) ،
فكان أضعف سلاطين آل عثمان الى ذلك الوقت . ولم يكد يجلس على العرش حتى
خرج عليه أخوه الأصغر «جَمّ» مُطالباً بالمُلْك ، وكان قوى البأس ، فلاقى بايزيد
صعوبة كبيرة فى مكافحته ، الى أن اضطره الى الفرار الى مصر . وكان بايزيد محباً
للسلم ، لا يدخل الحروب إلاّ مدافعاً ، ولم يزد فى أملاك الدولة إلاّ بضعَ مدن فى
مورة . وقد علمنا ما كان من أمره مع مماليك مصر وانتصارهم على جيوشه فى الشام.
على أن قوة الأسطول عظمت فى عهده ، وصارت من ذلك الحين موضع خطر
على الممالك الأوربية ، فلم يلبث أن اشتبك مع أسطول البنادقة فى موقعة هائلة

هى فاتحة الانتصارات البحرية العثمانيـة على ممالك البحر الأبيض . وكانت جنود الانكشارية لايعجبهم انكماش بايزيد وضعفه ، فالتفوا حول أصغر أولاده « سليم » ، وأرغموا بايزيد على النزول عن العرش سنة ٩١٨ هـ ( ١٥١٢ م )

سليم الاول

فتولى السلطان « سليم الأول » (٩١٨ – ٩٢٦ هـ : ١٥١٢ – ١٥٢٠ م) فكان من أعظم سلاطين العثمانيين وأكثرهم انتصاراً وفتحاً . وكان مجيداً لقيادة الجيوش والسياسة ، كثير الاطلاع ، ولوعاً بالأدب ، إلاَّ أن شيئاً يخالطه من القسوة والميل الى سفك الدماء ، وقد قيل إنهُ قتل من اقاربه وعمَّاله ما لم يقتلهُ أحدٌ قبلَه ولا بعدَه من ملوك آل عثمان . ورأى السلطان سليم أن يَقف فتوحَ الدولة فى أوربا فترة ، وأن يستعيض بذلك الاستيلاء على شئ من ممالك الشرق النفيسة

غزو فارس

فبدأ بدولة فارس . وكان على عرشها حينئذ الشاه اسماعيل الصفَوى ، وكان قد ذاع صيته بفتوحه العظيمة فى المشرق ، وأصبح لايبالى بنشر مذهب الشيعة ( الذى يمقتهُ العثمانيون ) فى آسيا الصغرى ، ويحرّض أمراء تلك الجهة على الخروج على العثمانيين . فعزم السلطان سليم على غزو فارس ، وعجّلَ ذلك إيواء الشاه اسماعيل لابن اخى سليم ، الفارّ من وجهه

ففى سنة ٩٢٠ هـ ( ١٥١٤ م ) خرج السلطان سليم بجيش عظيم يريد غزو الفرس ماراً فى طريقه على « ديار بكْر » و « كردِستَان » ، فتراجع الفرس الى داخل بلادهم وخرّبوا كل ما فى طريق الترك من المرافق ، كى تضمحل جيوشُهم جُوعاً وتعباً . ولما التقى الفريقان فى وادى « جَلْدِيران » قرب « تِبْرِيز » كانت الجنود العثمانية فى شدة التعب ، إلاَّ أن الفرس لم يقوَوا على مقاومة قوة الانكشارية والمدافع العثمانية ، فانهزموا شر هزيمة . فدخل السلطان سليم « تبريز » ( حاضرة الفرس فى ذلك الوقت ) وأمر بإرسال ألفٍ من أمهر صناعها الى القسطنطينية . ثم اضطر بعد أيام الى الانصراف الى بلاده ، لتمرد جنود الانكشارية عليه . وكانت نتيجة تلك الحروب استيلاء العثمانيين على « ديار بكر » و « كردستان »

فتح مصر وتأثيره فى الدولة

وبعد عامين (٩٢٢ هـ : ١٥١٦ م) خرج السلطان سليم لفتح مصر، ففتحها كما أوضحنا فى غير هذا المكان . وجنى بيت آل عثمان من فتح مصر فائدة لم يجنها من فتح غيرها من البلدان ، إذ أنهُ بنزول الخليفة العباسي بمصر عن الخلافة للسلطان سليم الأول سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧م ) صار له ولسلاطين آل عثمان من بعده زعامة على العالم الإسلامى لم تكن لهم من قبل . وكان السلطان سليم يتأهب بعد ذلك لفتح « رودس » ، فمات قبل أن يتمّ عمله ، بعد ثمانية أعوام من حكمه

سليمان القانونى

فتولى ابنه السلطان «سُليمان القانونى » (٩٢٦-٩٧٤ هـ :١٥٢٠-١٥٦٦م) ، وهو أعظم سلاطين آل عثمان ، وعصرهُ أزهرُ عصر فى تاريخهم ، إذ كانت للدولة فى أيامهِ مكانةٌ لم تحزها قبله أو بعده . صادفت أيامه تلك النهضة العلمية العظيمة التى انتشرت فى انحاء أوربا فى القرن السادس عشر من الميلاد المسيحى وحَدتْ بالغربيين الى تلك الاستكشافات العلمية والجغرافية ( التى أُسستْ عليها المدنية الحديثة والتى كانت سائرة حينئذٍ بسرعة لم يسبق لها مثيل ) ، فلم يقتصر العثمانيون على السير بجانبهم فى ذلك المضمار ، بل فاقوهم فيه فى عدة أمور ولاسيما الفنون الحربية . ولم يكن بين ملوك أوربا فى عصر سليمان من يفوقهُ غَزْواً أو سياسةً أو إدارة

زهاء عصره

أما فتوح سليمان فلم تكن بأقل من فتوح سليم أو محمد الفاتح ، إذ تمَّ له فى العامين الأولين من حكمه ما استعصى عليهما قبله : ففى سنة ٩٢٧ هـ ( ١٥٢١ م ) استولى على « بلغراد » ، وفى قابل فتحَ « رَودس » انتزعها من فرسان القديس يوحنا بعد حصار أظهر فيه من الكفاءة والدراية بالعلوم الحربية ما عظم به شأن الدولة فى أعين الأوربيين

فتح بلغراد

على أن معظم غزوات سليمان كانت موجّهة الى الغرب للتغلب على النمساوالمجر، ولاسيما الأخيرة التى طالما وقفت فى وجه العثمانيين ومنعتهم من الزحف فى أوربا الى ما وراء الصرب والبوسنة . ففى سنة ٩٣٢ هـ ( ١٥٢٦ م ) غزا بلاد المجر . فلما التقى بجيوشهم فى موقعة « مُوهَكز » الفاصلة لم يثبت جيش المجر اكثر من ساعة واحدة

قُتل فيها ملكهم « لويس الثانى » وكثير من الأمراء ، وفتح السلطان معظم المدن والقلاع التى بالأقاليم الجنوبية . ثم ولّى على البلاد ملكاً من أهلها وهو « جان زابولى » ، وغادرها ومعهُ أكثر من مائة ألف أسير

وبعد خروجهِ من البلاد أغار عليها « فِرْدِنَنْد » ملك النمسا ، واستولى على مدينة « بُودا » ، وخلع الأمير الذى نصبه سليمان . فاستغاث الأمير بالسلطان ، فخرج فى جيش عظيم مؤلف من ٢٥٠،٠٠٠ مقاتل و ٣٠٠ مدفع ، فاسترد « بودا » وأعاد « زابولى » الى عرشه . ثم اتخذ عمل « فردنند » ذريعة للإغارة على النمسا ، فسار نحو « وِيانة » ( فينّا ) . وكان فصل الشتاء قد أقبل وكثر المطرُ ، فاضطر العثمانيون لترك مدافعهم الضخمة بالمجر . فلما وصل سليمان الى « ويانة » ألقى عليها الحصار عشرين يوماً سنة ٩٣٥ هـ ( ١٥٢٩م ) ، ثم وجد أن الجوّ وقلة المدافع يحولان دون الاستيلاء على المدينة ، فرجع عنها . وكان هذا أول نزال فَشِل فيه ، فلم ينسهُ طول حياته

غزو النمسا

وبقى الحرب الى سنة ٩٤٠ هـ ( ١٥٣٣ م ) ، فتمّ الصلح على تقسيم بلاد المجر بين زابولى وفردنند . ولما مات الأول عام ٩٤٦ هـ ( ١٥٣٩ م ) أغار فردنند على البلاد جميعها ، فغزا السلطان سليمان بلاد المجر كرَّة أخرى ، وكان هذه المرة يترك حاميةً فى كل مدينة يفتتحها ، لجعلها من الأملاك العثمانية . ثم تمَّ الصلح بين الفريقين فاعترف فردنند للسلطان بسيادته على المجر وترَنسِلْوانيا ، وتعهد أن يدفع له جزية سنوية . وربما كان خذلانه اكبر لو لم يُشغل سليمان عن تلك الجهات بحروبه مع فارس وغيرها من بلاد المشرق . ومما فتحه السلطان فى المشرق جزء كبير من أرمينية وأرض الجزيرة والعراق وفيهِ مدينة بغداد العظيمة

فتح بغداد

وفى عصر هذا السلطان تقدمت البحرية العثمانية تقدماً عظيماً حتى صارت تهابها الأُمم فى جميع البحار ، من البحر الأبيض فالبحر الأحمر ، الى المحيط الهندى . وظهر فى الدولة إذ ذاك من مهرة الملاَّحين وأمراء البحر مَنْ تفتخر بهم أعظمُ دولةٍ بحرية . وفى مقدمتهم « أسرة بَرْبَرُوس » الشهيرة ، ورأسها « خير الدين بربروس »

القوة البحرية

أكبر قُوَّاد أوربا البحرية فى عصره . وُلد فى جزيرة « لِسْبُوس » ، ثم اتخذ هو

قطع الطريق فى البحر الابيض

وأخوه قَطْعَ طريق البحر مهنةً لهما ، وكانت منتشرة وقتئذٍ فى البحر الأبيض المتوسط ثم عظم شأنه فى هذه المهنة وصارت له سطوةٌ عظيمة ، واستولى على كثير من ثغور شمالى افريقية ، الى أن صار صاحب الكلمة العليا فى بلاد الجزائر . وعند ذلك

خير الدين بربروس

قدَّم ولاءه للباب العالى ، فنصَّبه السلطان سليم الأول حاكماً عاماً للجزائر سنة ٩٢٦ هـ (١٥١٩م) ، وأجزل له العطاء ، وأمدَّه بألفى جندى من الانكشارية . وفى سنة ٩٤١هـ (١٥٣٣م) اختاره السلطان سليمان قائداً للأسطول العثمانى الذى سيَّره لمحاربة أساطيل « شارل الخامس » ( شَرْلَكان ) ملك اسبانيا ، وكانت بقيادة « أندرِيادُوريا »

الحرب فى تونس

الجنْوِى ، فقهره « بربروس » ، وانقضّ على سواحل إيطاليا ، فسلب ونهب منها شيئاً كثيراً . ثم ولى وجهته شطر تونس يريد الاستيلاء عليها . وكان يحكمها وقتئذٍ أحد ملوك الدولة الحَفْصِيّة من بقايا الموحدين ، فلجأ الى شارل الخامس المذكور ، فذهب شارل بنفسه الى إفريقية فى جيش عظيم ، فلم يقدر بربروس على مقاومته ،

الحرب بين الدولة والبندقية

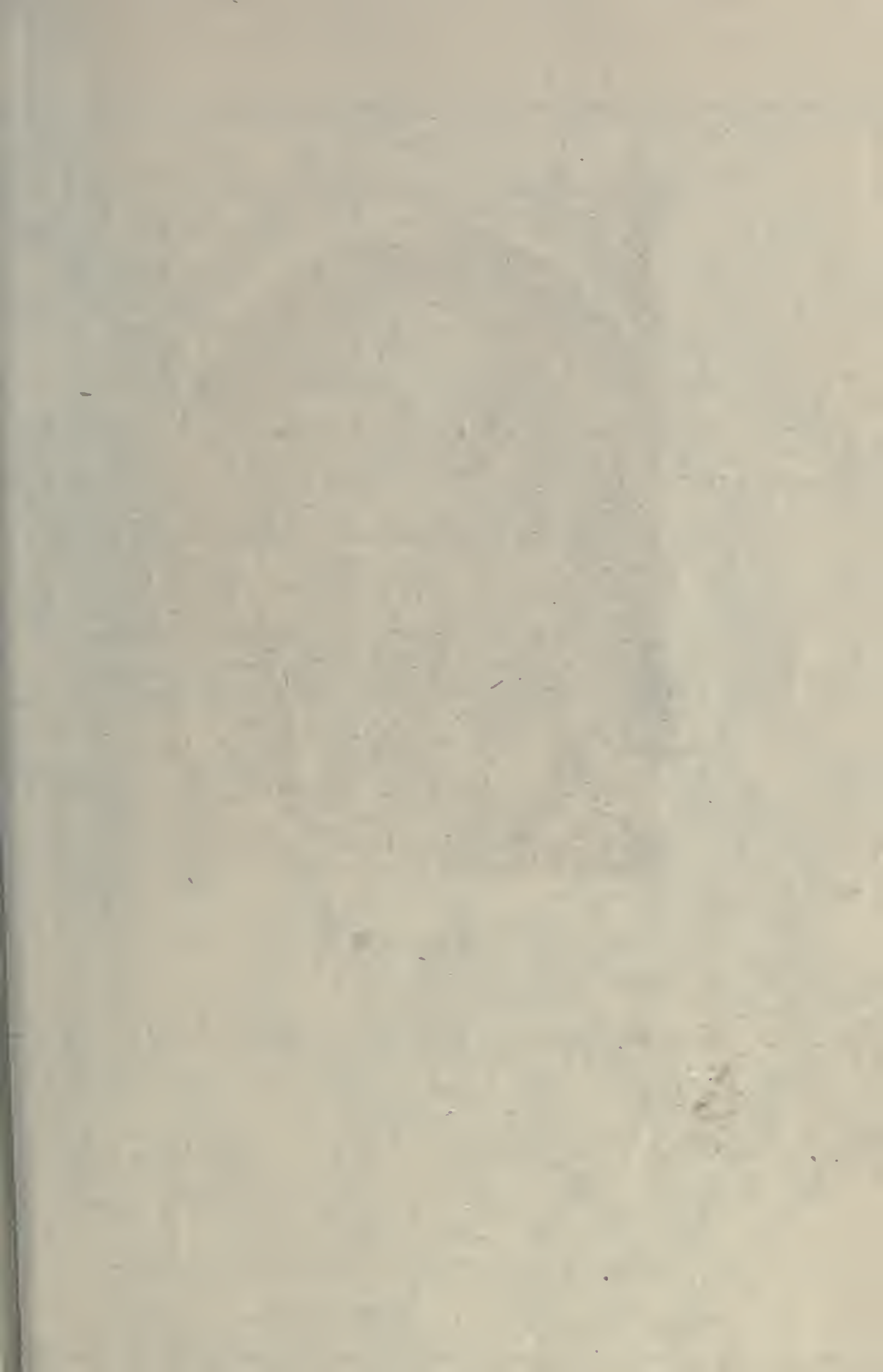
وانجلى عن المدينة . ثم وقع خصام بين الدولة والبندقية لاعتداء بعض لصوص البحر من البنادقة على سفير الدولة فى وقت السلْم ، فخرج «بربروس» الى البحر الأدرياتى للانتقام من البندقية ، فاستغاثت بالبابا وشارل الخامس . فساعداها بأسطوليهما ، ولكن بربروس هزم الأساطيل الثلاثة فى موقعة « برِويزة » سنة ٩٤٥ هـ (١٥٣٨م) وقد حط ذلك كثيراً من شأن البنادقة

الحرب فى الجزائر

وفى عام ٩٤٨ هـ ( ١٥٤١ م ) أغار « شارلكان » على بلاد الجزائر ، فصدَّه بربروس ، وساعده الحظ بأن عصفت الرياح على سفن شارلكان فحطّمتها . وبقى بربروس مصدرَ الرعب والفزع فى البحر الأبيض ، الى أن أرسله سليمان القانونى عام ٩٥٠ هـ (١٥٤٣م) لمساعدة حليفه ملك فرنسا فى الإغارة على الأملاك الاسبانية فاستولى بربروس على «نيس» وبقى بفرنسا الى أن خشى بأسه الفرنسيون أنفسهم، وأجزلوا له العطايا والهدايا ، حتى جلا عن بلادهم وذهب الى الاستانة حيث قضى بقية أيامه فى هدو متقلداً منصب قبودان باشا



الدولة العثمانية
في اوسع اطرافها
البحر الاسود
بحر سفيد او البحر الابيض المتوسط
بحر اليونان
البحر الادرياتي
بلاد الفرس
بلاد العرب
نجد
الحجاز
اليمن
البحر الاحمر
بحر العرب
حضرموت
عمان
مسقط
صنعاء
مكة المكرمه
المدينة المنوره
الرياض
العقبه
عدن
الخليج الفارسي
الكويت
البصره
بغداد
كربلاء
النجف
الموصل
اربل
العراق العجمي
كرمانشاه
طهران
جيلان
مازندران
رشت
خوزستان
اذربيجان
تبريز
ارمينيا
قفقاسيا
تفليس
باطوم
ارضروم
سيواس
اماسيه
سامسون
سينوب
قسطمونى
انقره
ولاية القرمان
قونيه
قيصاريه
جبال الطوروس
اطنه (اذنه)
مرعش
حلب
الاسكندرونه
اللاذقيه
حماه
حمص
طرابلس
بيروت
دمشق
عكا
يافا
تدمر
قبرس
رودس
جزيرة كريد (اقريطش)
ازمير
كوتاهيه
بروسه
الروم ايلى
ادرنه
صوفيه
جبال البلقان
بلغاريا
الافلاق
بخارست
البغدان
بسارابيا
خانات القرم
دنيبر
دون
ازاق
بحر ازاق
كوبان
بادوليا
اوكرين
مملكة بولونيا
موراڤيا
النمسا
المجر
بودا
بلغراد
البوسنه
الاربناؤد
مالطه
صقليه
ايطاليا
مصر
مصر القاهره
الاسكندريه
السويس
طور سينا
طرابلس
بنغازي
الجزائر
وهران
تونس
القيروان
البحر الابيض المتوسط





سليمان القانونى

( رسم على افندى يوسف )

بيرى ريس
وسيدى على

ومن أعظم أفراد هذا العصر أيضاً « بِيرِى ريّس »و«وسيّدى على» ، وكانت لهما اليد الطولى فى بسط نفوذ الدولة على شواطىء بلاد العرب وفارس والهند .

بيالة باشا

ومنهم « بِيالة باشا» ، فإنه حارب القائد الجنوى «دوريا» وانتصرعلى أساطيله انتصاراً مُبيناً عند جزيرة « جِربَة » من أعمال تونس عام ٩٦٧ ﻫ ( ١٥٦٠ م )

طرغود

ومن أشد رجال هذا العصر بأساً «دِراغوت» (طرْغود) : كان مثل بر بروس فى أول أمره مشتغلاً بقطع الطريق فى البحر ، ولما علم بر بروس بما لَهُ من الصيت

الهائل فى ذلك ضمّهُ اليه ونصَّبهُ وكيلاً لهُ . ومن ذلك العهد أخذ يبدى من المهارة البحرية ما جعله اكبر قواد عصره ، وانتصر على «دوريا» فى عدة مواقع . ومن أهم أعماله أنهُ فتح مدينة « المهدية » عاصمة بلاد تونس فى ذلك الوقت

فرسان القديس يوحنا وحصار مالطة

على أن الأساطيل العثمانية على قوتها وشدة بأسها لم تقدر على التغلب على «فرسان القديس يوحنا» أصحاب جزيرة مالطة . وكانت هذه الجزيرة قد أعطاها لهم الامبراطور شارل الخامس عند ما طردهم العثمانيون من جزيرة « رودس » سنة ٩٢٨ هـ (١٥٢٢م) ، فبقوا محافظين على مالطة من ذلك العهد ، وصدّوا عنها العثمانيين مراراً . وفى أواخر أيام سليمان أرسلت الدولة اليها أسطولاً عظيماً سنة ٩٧٣ هـ (١٥٦٥ م) بقيادة مصطفى باشا بيالة ودراغوت ، فحاصروها أربعة أشهر ثم اضطروا للجلاء عنها بعد قتال عنيف ، وذلك لما أبداه فرسان القديس يوحنا من الشجاعة والصبر . ولم يبق من حاميتها بعد هذا الحصار إلاّ ستمائة فارس ، بعد ان كان بها تسعة آلاف

ومات السلطان سليمان عام ٩٧٤ هـ ( ١٥٦٦ م ) أثناء غارته الأخيرة على المجر وكانت سنهُ إذ ذاك ستاً وسبعين سنة

## ٤ — ﴿ ابتداء اضمحلال الدولة العثمانية ﴾

( ٩٧٤ - ١٠٤٩ هـ : ١٥٦٦ - ١٦٤٠ م )

أقصى أطراف الدولة

أجمع المؤرخون على ان عصر سليمان الاكبر هو العصر الذى بلغت فيه الدولة العثمانية أقصى مجدها وعظمتها : ففى مدة ثلاثة قرون تسنّى لقبيلة آل عثمان الصغيرة أن تبسط سلطانها ونفوذها على البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود والبحر الأحمر، وتمدّ فتوحها من مكة المكرّمة الى بودا من جهة ، ومن بغداد الى الجزائر من جهة أخرى . فكان كل من الشاطئين الشمالى والجنوبى للبحر الأسود فى قبضة يدهم ، وجزء عظيم من مملكة النمسا والمجر الحالية يعترف بسلطانهم . وقد دان لسلطانهم أيضاً

شمالى إفريقية ، من أطراف بلاد الشام إلى حدود بلاد مَرَّاكُش

أسباب انحطاط الدولة

وبعد موت سليمان ابتدأت الدولة فى الانحطاط المستمر ، اللهم الآ فتراتٍ كانت تنتعش فيها وتظهر بعض مجدهـا العسكرى القديم . وترجع أسباب الانحطاط الى عوامل خارجية وأخرى داخلية :

الاسباب الخارجية

فانّ نموّ الأمة الروسيـة وظهور طائفة من أكابر القوّاد فى المجر وبولندة والنمسا لمن أهم الأسباب الخارجية التى افضت الى اضمحلال الدولة التركية ، وأدت الى انتقاصها الى مساحتها الحالية

الاسباب الداخلية

ثم كانت ثَمَّةَ جراثيم داخلية تفتّ فى عظام الدولة ، وتثلّ عرش مجدها وعظَمَتِها الأثيلَين . اذ أن حكم ولايات الدولة العثمانية المختلفة الأديان والمذاهب والأجناس ،

( ا ) اختلاف الاديان والاجناس

وحفظَ نفوذها فيها ، يحتاجان الى نشاط وحكمة يفوقان مثلهما فى إدارة شؤون الدول الأخرى المؤلفة غالباً من عنصر واحد ودين واحد ، لأن نفوذ الأتراك المستمد من القوة العسكرية ، والذين يتحكمون به فى رقاب كثير من الشعوب الأجنبية المختلفة فى كل شىء لم يكن ليدوم طويلاً الاّ بعنايةٍ خاصة : بإعداد الجيش لكل طارئ فجائى من جهة ، وبإرضاء تلك الشعوب المختلفة والتوفيق بينها واكتساب احترامها للدولة ، من جهة أخرى

( ب ) ضعف السلاطين

وذلك ما لم يتهيأ للحكومة العثمانية بعد سليمان ، لأنها لم تُعِرْ كل هذه الأمور شيئاً من الالتفات ، اذ بعد أن نهض الملوك السالفون من آل عثمان بالدولة الى ذروة مجدها بما أُوتوه من الذكاء والحذق ، خَلَفَ من بعدهم خَلفٌ اضاع تلك الأملاك الشاسعة التى نالها أجداده بحدّ السيف وحافظوا على كيانها بحسن ادارتهم . ولم يكن لهؤلاء السلاطين الضعفاء همّ الاّ الانغماس فى اللذات ، غير مكترثين بتضعضع ملكهم

( ج ) فساد الجيش

فلما أصبح الجنود بِلا سلطان شجاع يقودهم الى ساحة الوغى ، وسقطت هيبة السلاطين من أعينهم ، أخذوا يشعرون بما لهم من الحول والقوة ، وابتدءوا يعزلون ويُوَلّون مِنَ السلاطين من يشاءون ، مُبتَزّين الأموال الكثيرة والأعْطِيَة الجزيلة من كل سلطان يقيمونهُ على العرش . فأدَّى استئثارهم بالسلطة الواسعة التى كانوا يستعملونها

على حسب أهوائهم الى الانغماس فى الترف والفساد ، ففقد جنود الانكشارية منهم بالتدريج ما كان لهم من الصفات الحربية القديمة ، وأصبحوا لا يوثق بهم فى ساحة القتال . فكان مايُبذل لهم من العطايا عند تولى كل سلطان ، تفوق قيمته فى اعينهم أعظم انتصار لهم فى ساحة القتال

( د ) عدم ادخال الاصلاحات الحديثة

هذا الى أن الجيش لم يدخل فيه من الاصلاحات ما يجارى به جيوش الممالك الأوربية الأخرى من استخدام آلات القتال الجديدة والتفنن فى الطرق الحربية التى كانت آخذة فى التحسن عندهم

( هـ ) الرشوة

على أن أعظم نقص ظهر فى الجيش كان فى قواده وضباطه : فلم تكن ترقية القواد بحسب الكفاءة الشخصية ، بل بحسب ما يبذلونه من الرّشوة لولاة الأمور وبطانة السلطان

وليس غرضنا هنا أن نذكر بالتفصيل حوادث انحطاط الدولة وتدهورها التى هى فى الجملة عبارة عن سلسلة هزائم يتخللها بعض انتصارات وعدّة معاهدات صلح تخسر الدولة فى كل منها شيئاً من أملاكها ، ثم سِيَر ملوكٍ وحكامٍ ضعفاء منهمكين فى الشهوات ، عُمْى البصيرة ، إلاّ نفراً قليلاً نهضوا بالدولة فترات يسيرة . وانما غاية ما نستطيعه هنا هو أن نذكر بالإيجاز أهم الحوادث التى من أجلها تضاءلت الدولة التركية وأصبحت فى حجمها الحالى :

سليم الثانى

بعد سليمان الاكبر تولى الملك ابنه « سليم الثانى » (٩٧٤ - ٩٨٢ هـ : ١٥٦٦-١٥٧٤ م ) وكان ضعيفاً لاهياً سِكّيراً ، ولذلك لُقّب بالمجنون

الانحطاط تدريجى

ولكن النظام الباهر الذى وضع أساسه سليمان ورجال دولته لم يتلاش دَفعةً واحدةً على يد خلفه ، إذ كان كثير من عمّال سليمان لايزالون بعدُ أحياء : يَدِبّ فى نفوسهم ذلك الروح العظيم الذى بثهُ فيها مولاهم . ونخصّ بالذكر منهم وزيرَه « صُقُلِّى محمود » الذى لم يأل جهداً فى حكم البلاد على طريقة سيده ، فكان من أعماله أنه أمر « سِنَان باشا » فأخضع بلاد العرب عام ٩٧٨ هـ ( ١٥٧٠ م )

انتزاع قبرس من البنادقة

وبعد ذلك ابتدأ فتح جزيرة « قبرُس » وانتزاعها من يد البنادقة ، وقام بأمر هذه الحملة « لالا مصطفى » أحد نظراء « صقلى » . وقد كلف فتح هذه الجزيرة الدولة خمسين ألف مقاتل ، أحْفَظَتْ مصارعهم قائدَهم مصطفى . فلم يشتف لهم فى ساعة النصر الآ بالانتقام من قائد حامية الجزيرة شر انتقام ، إذ سلخ جلده حيًا

الاتحاد على الدولة

وبهذا الفتح قويت شوكة العثمانيين فى البحر، إلاَّ أن ذلك لم يدم طويلاً، حتى اتحدت عليهم اسبانيا والبابا والبندقية وغيرها ( واشترك معهم فرسان القديس يوحنا ) فى مايو سنة ٩٧٩ هـ ( ١٥٧١ م ) . وكان غرض البندقية من هذا الاتحاد استرداد جزيرة قبرس فقط ، غير أن « فليب » ملك اسبانيا أبى إلاَّ أن يجعله تحالفًا عامًا ، فتم الاتفاق على أن تكون اسبانيا والبابا والبندقية متحدة جميعًا على مهاجمة تونس وطرابلس والجزائر والترك ، وأن تحمى كل منها أملاك الأخرى ، وألاّ تعقد احداهن صلحًا على انفراد ، وأن تعين كل من دول التحالف قائداً لأسطولها ، وأن توكل القيادة العامة الى « دون جون » النمسوى

واقعة ليبنتو

ظهر أسطول الحلفاء فى ١٦ سبتمبر سنة ١٥٧١ فى مياه « مِسّينى » ، ولما وصل الى « كُرْفو » بلغه أن الأسطول العثمانى فى خليج « ليبَنْتُو » . وفى سابع اكتوبر كان الأسطولان على مقربة بعضهما من بعض فى هذا الخليج . وكان أسطول الحلفاء يشمل ٢٦٤ سفينة ذات حجوم مختلفة بعضها مسلح بأضخم المدافع ، تحمل ٢٦,٠٠٠ جندى و ٥٠,٠٠٠ مُجَذِّف وبحرى ، أما الأسطول التركى فكان يحتوى على ٣٠٠ سفينة ، وما لا يقل عن ١٢٠,٠٠٠ جندى ومجذف . وكان غرض أمير البحر التركى ( بيالة باشا ) فى الموقعة التى نشبت أن يشتّت جناحى أسطول خصمه ، غير أن هذه الحركة لم تُفلح ، لأن « بَرْبَرِيجو » قائد سفن البندقية فى الجناح الأيسر و«أندريا دوريا» فى الجناح الأيمن احتميا بالشاطئ ، وبعد ذلك نشبت معركة عنيفة خسر فيها الحلفاء خسارة عظيمة . غير أن البنادقة تمكنوا أخيراً من صد عدوهم بعد جرح قائدهم « بربريجو » جرحًا مميتًا ، وقتل القائد التركى محمود « سيركو » (شلوك)

الذى كان يهاجمهُ . وفى غضون ذلك كان قلب الأسطول بقيادة « دون جون » منتصراً بعد كفاح شديد أشبه بالحرب البرية منه بالحرب البحرية . قُتل فيه القائد التركى « بيالة باشا » وسلَّم معظم المراكب التركية أو حُطّم. أما « على الألوج » ( داى الجزائر ) الذى كان متغلباً على ما أمامه من سفن «جنوة» فانه لما رأى ما حلَّ بالترك ولّى هارباً ، فتم بذلك النصر للمسيحيين

تأثير الموقعة

ويمكن معرفة ما لهذه الموقعة التى لم تستغرق اكثر من أربع ساعات من الأهمية اذا علمنا أن الترك لم تكن هُزمت فى البحار الى ذلك اليوم . أما الخسائر فلا يمكن تقديرها بالتحقيق ، غير أنهُ من المؤكد ان خسائر الترك كانت ضعفى خسائر الحلفاء، وان ما نجا من سفنهم لم يتجاوز الخمسين

وكان المنتظر بعد هذه الهزيمة المنكرة أن تفقد الدولة سيادتها على البحار . الاّ أن ذلك لم يكن ، وغاية ما أثرت أنها برهنت لدول أوربا أنهُ يمكن التغلّبُ على الترك . أما تأثيرها فى سيادة الترك فى البحر الأبيض خاصة فكان ضئيلاً جداً ، اذ أنهم بعد الهزيمة بمدة وجيزة أنشئوا لهم أسطولاً بلغ عدد سفنه ٢٥٠. ومما يبرهن على قلة تأثيرها أيضاً ان البندقية نقضت عهودها مع حليفتيها ، وطلبت الى الباب العالى أن يعقد معها صلحاً على انفراد ، وقبلت أن تبقى قبرس فى قبضة الباب العالى، وأن تدفع له المبلغ الذى بذله فى فتحها

مسالمة البندقية

بقيت بعد ذلك الدولة ربع قرن فى مسالمة مع البندقية ، وذلك لا يرجع الى تأثير المعاهدة فقط ، بل الى تأثير نفوذ بعض أزواج السلطان . اذ لما تولى مراد الثالث ( ٩٨٢ - ١٠٠٣ : ١٥٧٤ - ١٥٩٥ م ) المُلك بعد موت أبيه سليم الثانى ( وكان ضعيفاً ) ترك مناصب الدولة تُباع لمن يدفع فيها اكبر قيمة . وكان طوع ارادة نسائه وخاصةً حظيّته « صفية » ، وأصلها من سَبى البندقية ، فتسلطت عليه فى مصلحة وطنها

ولما مات هذا السلطان خلفه ابنها محمد الثالث (١٠٠٣ - ١٠١٢هـ : ١٥٩٥ - ١٦٠٣م) ،

وهو واحد من أبناء مراد الثالث البالغ عددهم ١٠٢ . وقد قتل منهم محمد هذا ثمانية عشر عند توليته عرش الخلافة . ولم تضعف فى أيامه سلطة « صفية »، وبقيت هى صاحبة النفوذ والسلطان

سيكالا

وكان اكبر مساعد لها فى هذه المدة « سيكالا » ، وهو من عنصر جنوى: تزوج باحدى حفيدات سليمان الأكبر ، وارتقى فى الجيش العثمانى بما كان له من الذكاء والحظوة . ولقد أدى خدمة عظيمة للترك فى عام ١٠٠٤ هـ ( ١٥٩٦ م ) ، وذلك أنه بعد أن حارب الترك جنود النمسا وترنسلوانيا واستولوا على « إرلو » : قضوا فى مكافحتهم فى سهل « كِرِزْت » ثلاثة أيام بانت الهزيمة بعدها فى الترك ، وفكر السلطان مرتين فى الهرب ، فحمل سيكالا على جيوش الأعداء ، وشتت شملها وأفنى من رجالها خمسين ألفاً

ابتداء ظهور النمسا على الدولة

على أن هذا النصر لم يخلّص الدولة من الثورات العسكرية والحروب الخارجية ، وما كانت تشعر بهِ البلاد من الاستياء العام . وأوضح دليل على وهن نفوذها أن النمسا حينما عقدت معها صلحاً فى عهد السلطان احمد الأول ( ١٠١٢ - ١٠٢٦ هـ : ١٦٠٣ - ١٦١٧م ) وكان يناهز الرابعة عشرة من عمره ، لم تعاملها الاّ معاملة النظير للنظير ، لا الضعيف للقوى ، ومنعت ما كان مفروضاً عليها من الجزية السنوية

ثم سادت السكينة فى الأصقاع التركية الشمالية ؛ لأن يدى امبراطور النمسا كانتا مغلولتين فى حرب الثلاثين سنة* ، وكان من مصلحته أن يكون على وفاق تام مع الترك ، على حين أن الدولة نفسها لم ترَ فائدة من مهاجمته لأنها كانت اذ ذاك قد استرجعت كل فتوحها

مراد الرابع

وفى سنة ١٠٣٢ هـ تولى السلطان « مراد الرابع » أريكة الملك ( ١٠٣٢ - ١٠٤٩ هـ : ١٦٢٣ - ١٦٤٠ م ) ، وكان شديد البأس ، ولوعاً بالحرب . إلاّ أنه رأى أن يُبرم عقد صلح من جديد مع امبراطور النمسا ليضمن بهِ بقاء السكينة والهدو

---

* حرب دارت بين كثير من دول أوربا من سنة ١٦١٨ الى ١٦٤٨ م . وأصلها أسباب دينية

فى أجزاء الدولة الشمالية مدة النصف الأول من القرن السابع عشر ، حتى يتمكن من توجيه كل قواه الى الفرس

الحرب مع الفرس

كان مراد الرابع آخر ملوك آل عثمان الحربيين . وأول حرب أثارها كانت على مملكة فارس ، وسببها أنه فى مدة مراد الثالث قامت حرب مع الشاه كان النصر فيها حليف الترك ، وعُقد الصلح فى عام ٩٩٨ هـ (١٥٩٠م) ، فضمّت الترك الى أملاكها بلادَ « جُرْجيا » و « تبريز » وبعض الأقاليم المتاخمة لجنوبى بحر قزوين . إلاَّ أن الفرس ما زالت تنازع الترك هذه الأقاليم حتى استرجعتها فى عام ١٠٢٨ هـ ( ١٦١٩ م ) ، وأرجعت حدود الدولة من هذه الناحية الى ما كانت عليه فى عهد « سليم الأول » . فعزم مراد على فتح هذه الأصقاع ثانية ، فلاقى فى سبيل ذلك أهوالاً عظيمة

اخماد الفتن الداخلية

فانه لما تولى عرش الخلافة وهو فى الحادية عشرة من عمره كانت البلاد فى حاجة الى رجل يقبض على زمامها بيد من حديد ، لتوالى المصائب عليها وهبوب عواصف الفتن والثورات فيها : فكانت الفرس منتصرة ، وآسيا الصغرى فى ثورة ، وولاة الأقاليم متمردين ، وأصبحت بلاد المغرب مستقلة ، والخزينة خالية ، والجيش ثائراً

إلاّ أنه رغم كل هذه الصعوبات العظيمة تمكّن بمساعدة أمّه من حفظ كيان الدولة بعد انهزامات مؤلمة ، ففى التاسعة من حكمه ثارت الانكشارية وطلبوا رأس وزيره الأول « حافظ باشا » ، فسلم هذا نفسه اليهم فداء لمليكه . إلاَّ أن السلطان انتقم له بعدُ من هذه الفئة الضالة شر انتقام ، اذ تمكن من قتل الثوّار فى كل اقليم وخصوصاً الانكشارية حتى تكدست رءوسهم على ضفاف البسفور . وقد قيل ان من قُتلوا فى هذا الحادث يبلغون مائة ألف أو يزيدون

ومن ذلك العهد قبض السلطان مراد الرابع على زمام الأمور بكل يقظة ، فانتشر العدل وساد النظام فى كل مكان بحالة لم يُرَ مثلها منذ أيام سليمان الاكبر

ولما استتب الأمن فى نصابه سار مراد الرابع قاصداً حدود الدولة الأسيوية ينشر

فيها السكينة . ففي عام ١٠٤٥ هـ (١٦٣٥م) أعاد فتح « اريوان » وعاقب ولاة آسيا الصغرى على تمردهم . وفي عام ١٠٤٨ هـ (١٦٣٨ م) قصد « بغداد » ليسترجعها من يد الفرس . فأخذها عنوة بعد أن أظهر في فتحها ضروب الشجاعة وبعد أن فنيت



مراد الرابع

( رسم على افندى يوسف )

كل حاميتها إلاَّ ثلاثة آلاف . وتمّ بعدها عقـد الصلح مع الشاه ، وكانت نتيجته أن استردّت الفرس بلاد « اريوان » ، أما بغداد فبقيت من هذا الوقت في يد الأتراك ودخل « مراد » القسطنطينية دخول المنتصر الظافر

وفى العام التالى وافتهُ منيته وهو فى الثامنة والعشرين من عمره . وبموته مات آخر سلطان حربى من ملوك آل عثمان

## ٥ — ﴿ عهد سلطة الوزراء — أسرة كُبْريلى ﴾

( ١٠٤٩ - ١١٠٣ هـ : ١٦٤٠ - ١٦٩١ م )

تولى شؤون الملك بعد مراد الرابع السلطان « ابراهيم الأول » ( ١٠٤٩ - ١٠٥٨ هـ : ١٦٤٠-١٦٤٨م ) ، فلم يكن قوى العزيمة كسابقه . فدبّ فى أيامه روح الفساد وسوء الإدارة فى داخلية البلاد ، ولذلك لم يفلح فى فتح جزيرة «إقريطش» ( كريت ) بعد أن جهز لها أسطولاً فى عام ١٠٥٥ هـ ( ١٦٤٥ م ) . ولم يمكث طويلاً حتى عُزل وقُتل

اضطراب الدولة

وتولى بعده « محمد الرابع » ( ١٠٥٨ - ١٠٩٩ هـ : ١٦٤٨ - ١٦٨٨ م ) . ففى العام الثانى من حكمه هُزم الأسطول التركى فى بحر الأرخبيل ، وقامت الثورات الداخلية فى آسيا الصغرى ، وأصبحت الحال فى العاصمة أسوأ حال . إذ كان الوزراء يُوَلَّون ويُعزلون تباعاً حسب إرادة نساء القصر ، وطبقاً لرغبات الجنود ، واحتل الدردنيل عام ١٠٦٦هـ ( ١٦٥٦م ) اسطولٌ للبنادقة هدد القسطنطينية نفسها . وقصارى القول ان الدولة فى هذه الآونة كادت تتمزق شذر مذر ، لعدم وجود رجل قوى الشكيمة يدير شؤونها ، حتى قيَّضت لها المقادير رجلاً شديد البأس حفظ كيانها هو وأفراد أسرته من بعده : ذلك الرجل هو « محمد كُبْريلى » رئيس أسرة كبريلى الشهيرة

محمد كبريلى

وهى من عنصر ألبانى استوطن القسطنطينية من زمن . وكان محمد هذا وقت ظهوره قد ناهز السبعين من عمره ، وكان محترماً من الصغير والكبير ، لقوة عقله وحسن أخلاقه . ولهذه الصفات اختارته أم السلطان «محمد الرابع» ( الذى كان لا يزال فتى ) صدراً أعظم ، فقبل ذلك بشرط أن يُطلق له العنان فى ادارة شؤون البلاد ، فكانت نتيجة ذلك انهُ أظهر شدة بأس ، مقرونة بعدل ، فأعاد النظام فى كل أصقاع الدولة

وقضى في ذلك خمسة أعوام على أشد مايكون وزيرٌ يقظةً لكيد الكائدين ، وضرباً على أيدى المفسدين ، فلم تر الدولة فى كل عصورها رجلاً مطاعاً مثله . ذلك على شدة فيه ، وقد قُتل فى أيام وزارته بأمره ٣٦،٠٠٠ شخص فى سبيل توطيد السكينة

وكان هو ومن خلَفه من أفراد أسرته هم القابضون على زمام الأمور فى البلاد العثمانية ، ولهم يرجع كل الفضل فى انتعاش الدولة فى النصف الأخير من القرن السابع عشر؛ فكان همهم الأكبر أن يعيدوا للدولة مجدها القديم وأن يحيوا فى سبيل حكمها السنّة التى سار عليها محمد الفاتح ومن قبله من السلاطين . وقد ظهرت ثمرة حكم محمد كبر يلى فى مدة وجيزة جدًّا ، إذ انمحت آثار الفوضى وعاد النظام الى نصابه . وفى العام الثانى من توليته طَرد أسطول البندقية عن الدردنيل بعد قتل قائده «موسنيجو» ، واسترجعت الدولة جزيرة «لِمنُوس» و«تَنْدُوس» ، . ثم ضيق الحصار على جزيرة «اقريطش» ، وأعد المعدات لتجديد الفتوح العثمانيــة فى أوربا . ولما مات «محمد كبريلى» فى عام ١٠٧٢ هـ ( ١٦٦١ م ) كانت كل أجزاء الدولة متحدة الكلمة منبثاً فيها روح النشاط ، متوجهة بكل قواها لمنازلة عدوها العنيد امبراطور النمسا

احمد كبريلى

لبس احمد كبر يلى حلة أبيهِ وقبض على زمام الأمور بعده ، فكان مثله فى الحزم، وحذا حذوه فى سياسة البلاد . وكان مبدأ توليته شؤون الدولة هو أجَل انفراط عقد المحالفة مع النمسا ، فسار على رأس جيش يبلغ ٢٠٠،٠٠٠ جندى. وانقض به على بلاد النمسا والمجر عام ١٠٧٤هـ (١٦٦٣ م) ، فعبر نهر الطونة عند «جران» واستولى على قلعة «نيوهوَزِل» وخرّب من «مرافيا» حتى أسوار مدينة «أُولْمتز» . إلاّ أن

الحرب مع النمسا

«لويس الرابع عشر» ملك فرنسا مدّ الى الامبراطور يد المساعدة نكاية بالترك الذين أهانوا سفيره فى بلادهم . فأعد جيشاً يبلغ ٣٠،٠٠٠ مقاتل ، ولما وصل هذا الجيش الى «مُنْتِكُوكيُولى» قائد الجيوش النمساوية أحسّ أنهُ يمكنه تهديد جناح الجيش التركى اذا زحف عليــه من جهة «فينا» . إلاّ أن احمد تقهقر الى الجنوب نحو «بودا» فتقابل الجيشان عند «سَنْغوتار» على نهر الراب سنة ١٠٧٥ هـ (١٦٦٤م) ، فلم يقو

احمد على عدوه وانهزم أمامه . ورأى الامبراطور أن يعقد صلحاً حتى يتلخص من

معاهدة فزفار

تدخُّل فرنسا فى شؤونه ، فتم ذلك بمعاهدة «فزْفار» فى أغسطس سنة ١٦٦٤م ، وقد اعترف فيها بسيادة السلطان على « ترنسلوانيا » . وبعدئذٍ وجه الصدر عنايته الى

فتح اقريطش

محاربة البنادقة ، واشترك هو بنفسه فى حصار « اقريطش » ( كريت ) ، وهى من خيرة أملاكهم ، فسقطت فى يد الأتراك بعد حرب عوان فى ١٧ سبتمبر سنة ١٦٦٩ ( ١٠٨٠ هـ )

الحرب مع بولندة

وعقب فراغه من حرب البنادقة دخل مع بولَندة فى حرب طاحنة . وسبب ذلك يرجع الى عسف البولنديين وظلمهم لقبائل «القوزاق» القاطنين مقاطعة «اوكْرين» وكان البولنديون يعتبرونهم من رعاياهم، ثم زاد غضب القوزاق وسخطهم على البولنديين حينما تولى «ميخائيل» مُلك بولندة، إذ كانوا يرون فى توليته ابتداء عصر لاضطهادهم لأنه هو ابن اكبر ملك أجحف بحقوقهم وسامهم الخسف وسوء العذاب . فثاروا فى عام ١٠٨١ هـ ( ١٦٧٠م ) وآذنوا بالحرب ذلك الملك الطاغى . إلاَّ أنهم هُزموا على يد قائده الشهير « جون سُوبيِسْكى »

فلما ضاقت بهم الحال ، وأيقنوا ان لا مناص من الخسف والظلم ، طلبوا الى الباب العالى أن يكونوا تحت سيادته ليحميهم من هـذا الملك الغشوم ، فاغتنم «احمد كبر يلى» هذه الفرصة وأعلن الحرب على بولندة بحجة حماية رعاياها المظلومين

سقوط كامنيك

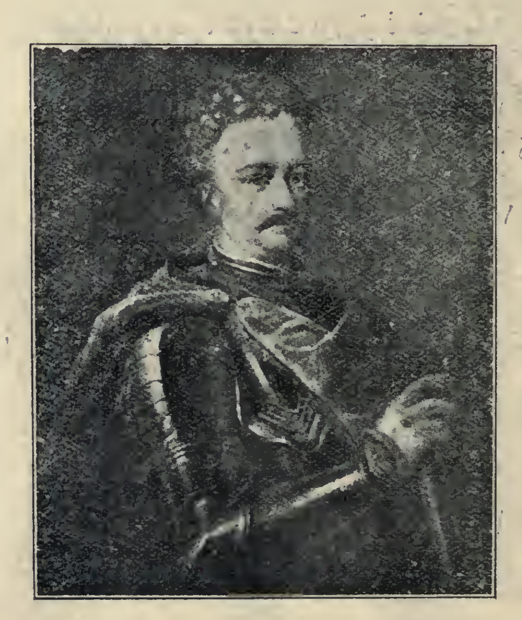
ففى عام ١٠٨٣ هـ ( ١٦٧٢ م ) ظهر السلطان بنفسه ومعه « احمد كبر يلى » امام حصن «كامِنيك» المنيع وهو مفتاح مقاطعة « بادوليا » ( فى بولندة ) ، فسقط الحصن فى يد الترك فى أقل من شهر . فجبُن عند ذلك ميخائيل ملك بولندة ، وعقد صلحاً مع الترك كان أهم شروطه ان ينزل لهم عن « بادوليا » و «أوكرين» ويدفع جزية سنوية للباب العالى

جون سوبيسكى

إلاَّ أن مجلس الأعيان البولندى رأى من العار قبول هذه المعاهدة ، وجمع كل من يستطاع تجنيدهم من الجند بقيادة « جون سوبيسكى » ليقاوم بهم عدوهم حتى

النهاية . وبالرغم من عدم مساعدة الدول الأخرى له ، والدسائس التى كانت تُدبّر له فى بلاده ، وتمرد الجنود عليه ، تمكن بحذقه ومهارته الحربية وقوة شكيمته من استدامة الحرب بينه وبين الترك أربعة أعوام ، فوقف تقدمهم فى « بادوليا » و « غليسيا » وانتصر على أعظم قوادهم انتصارات باهرة فى موقعتى « شُكْزِم » سنة ١٠٨٤ هـ (١٦٧٣ م) و « لِمبُرغ » سنة ١٠٨٦ هـ (١٦٧٥ م) ، وشتت شمل الجيوش التركية الى أن اجتاز نهر « الطونة »

وفى عام ١٠٨٥ هـ (١٦٧٤ م) (وحينما كانت الحرب فى منتهاها من الشدة) مات الملك ميخائيل فانتخب البولنديون بطلهم « جون سو بيِسكى » مليكاً عليهم ولكنهم خذلوه مع حبهم له ، فبعد توليته بيومين وجد نفسه وجيشه محاطين بالترك عند « زُرَانو » على نهر الدِنيستَر ، ولم ينجده البولنديون . ومع ذلك كانت هيبته وشهرة اسمه سبباً فى خلاصه من هذه الورطة ، إذ فضّل القائد



جون سو بيسكى
(عدو الترك اللدود)

التركى ابراهيم أن يعقد معهُ صلحاً رابحاً على أن ينازل الأسد فى عرينه . وفعلاً تم عقد صلح « زرانو » سنة ١٠٨٧ هـ (اكتوبر سنة ١٦٧٦ م) ، وأهم شروطه أن تنزل بولندة عن « كامنيك » و « بادوليا » وجزء من « أوكرين » . وبعد مضى سبعة أيام من تاريخ معاهدة « زُرانو » مات احمد كبر يلى ، إلاَّ أن سياسته لم تُقبَر معهُ

قره مصطفى

خلف احمد كبر يلى فى منصب الصدارة العظمى صهره « قَرَه مصطفى » ، وكانت

أمانيه واطماعه لا تقل عن سلفه، ولكنهُ لم يُعطَ نصيباً وافراً من المقدرة وحسن التدبير، فهدم ما بناه محمد واحمد كبر يلى بجدهما ونشاطهما بكبريائه وانغماسه فى الشهوات وافتخاره الكاذب. وكان فى بادئ أمره يشعر بحسن المستقبل، فعزم عزماً أكيداً على أن يخترق قلب البلاد الأوربية ويقضى عليها القضاء المبرم بفتح « ويانة »

نجاحه فى أول أمره

فابتدأ يتأهب سراً بما لم يُسمع بمثله من قبل، وجدد علائقه الودية مع فرنسا، وعقد صلحاً مع «الروسيا»، ووثق صلته ببولندة. وكان غرضه من ذلك أن يترك الامبراطور وحيداً، وأوشك أن يتم له فعلاً ما أراد، اذ كان المجر أيضاً ناقمين منذ سنتين على الامبراطور « ليبولد » لتضييقه عليهم فى معتقداتهم الدينية والسياسية، فثاروا عليه سنة ١٠٨٥ هـ (١٦٧٤م) بقيادة « توكولى »، ثم انضم اليهم بعدُ أمير « ترنسلوانيا »، فتمكنوا فى عام ١٠٩٢هـ (١٦٨١م) من إجبار الامبراطور أن يعيد اليهم ما سلبهم من الحقوق السياسية، ويمنحهم الحرية الدينية

الحرب مع النمسا

إلاَّ أن «توكولى» لم يكتف بذلك، بل رغب فى أن يكون هو والياً على المجر، ولذلك صفا الى «قره مصطفى» الذى مناهُ بولاية المجر اذا انضم اليه على الامبراطور وبذلك تم كل شىء « لقره مصطفى » بعد أن وثق من عدم مساعدة « لويس الرابع عشر » للامبراطور ومن منعه ألمانيا أيضاً من مؤازرة النمسا

أماط « قرة مصطفى » اللثام عن أغراضه سنة ١٠٩٣ هـ (١٦٨٢م) وأعلن فى ربيع ١٠٩٤ هـ (١٦٨٣ م) ان المجر ولاية عثمانية، وعبر نهر الطونة على رأس جيش يبلغ ١٥٠،٠٠٠ جندى. فلما رأى الامبراطور حرج موقفه وأن فرنسا تقف سداً أمامه فى كل باب يطلب منه المساعدة يئس من مقاومة الترك

مساعدة سوبيسكى لامبراطور النمسا

الاَّ أن «جون سوبيسكى» نكث العهد وأقنع أمته بضرورة مساعدة الامبراطور، وفى ٣١ مارس أُبرمت محالفة بين الدولتين تعهدت فيها بولندة بتجريد ٤٠،٠٠٠ مقاتل للدفاع عن النمسا

وكانت الجيوش التركية فى هذه الأثناء متابعة الزحف نحو « فينا » حتى اضطر

الامبراطور « ليبولد » الى الانتقال بحاشيته الى « بسَّاو » . وفى ٩ يوليه خفقت الأعلام التركية على مقربة من أسوار فينا ، وفى ١٤ منه حوصرت المدينة وحُفرت خنادق الحصار

حصار فينا

وكانت حالة المدينة سيئة جداً غير متأهبة للحصار ، وكان عدد حاميتها ١٤,٠٠٠ مقاتل فقط ، وهى غاصة بالقرويين اللاجئين اليها من الأرياف . وكانت أسوارها قديمة متداعية الى السقوط . على حين أن المهندسين من الترك ورجال مدفعيتهم كانوا من أمهر رجال أوربا فى ذاك العصر

ومع كل هذا لم ينتفع قره مصطفى بهذه الفرصة ، وأضاعها بتلكُّئه وتوانيه ، فانه بعد أن شتّت شمل رجال الامبراطور وأنزلهم من معاقلهم ، وأصبحت المدينة ممكنة الفتح مُعوِرة من كل جهاتها ، لم يُقْدم على مهاجمتها ، بل تردد ، وكان غرضه أن تسلّم المدينة بلا حرب ويأخذ ما فيها من الخيرات لقمةً سائغة لنفسه

فشل الترك

وكان جون سوبيسكى فى هذه الأثناء يجمع جموعه بكل سرعة عند«كِراكاو» لإنقاذ المدينة . وكان « دوق لورين » قائد قوات الامبراطور قد بعُد عن المجر وعسكرَ شرقى «فينا» على مسافة منها ، ووكل أمر الدفاع عنها الى الكونت استهْرِمبرُج قائد الحامية ، ولم يجرؤ على الزحف لتخليص المدينة حتى أتاه « جون سوبيسكى » فى ٢ سبتمبر سنة ١٦٨٣ م وتسلم قيادة جميع الجيش . ثم زحف نحو المدينة وصار على مقربة من معسكر الجيش التركى ، حين كانت الحاجة ماسة اليه جداً، اذ كانت الأتراك قد نقبوا أسوار المدينة ، وتفشى المرض فى أهليها . فلما رأت الحامية طلائع النجدات دبّ فى نفوسهم روح الأمل ، وأيقنوا أن النصر أصبح منهم قاب قوسين أو أدنى . وتمت لهم أمانيهم بهجوم «جون سوبيسكى» على مقدمة الجيش التركي ، ثم باشتباكه معه فى معركة عنيفة شتّت فيهـا شمل الأتراك وأنقذ المدينة . وقد نجا « قره مصطفى » بحياته بعد أن يئس من الخلاص . وجمع شتات جيشه المنهزم عند « بلغراد »

ومن هذا الحين ابتدأ نجم الأتراك يأفل فى أوربا . أما « قره مصطفى » فان الترك باعوه ذلك النصر المضيّع بضرب عنقه . على أن خلفه ابراهيم كان نصيبه القتل والهزيمة أيضاً ، اذ اندحرت الترك فى نفس العام فى شهر اكتوبر عند « برْكانى » على يد « جون سوبيسكى » ، فأجلاهم عن كل بلاد المجر*

واقعة بركانى

الحلف المقدس

وفى العام التالى ( ١٠٩٥ هـ : ١٦٨٤ م ) انضمت جيوش البندقية الى جيوش « جون سوبيسكى » لاقتفاء جيوش الترك المنهزمة . وفى هذا العام عقد « الحلف المقدس » بين الامبراطور وبولندة والبندقية على الترك ، ولم تمض الاّ فترة يسيرة حتى ظهرت ثمرته ، لأنه بالرغم من اعتزال « جون سوبيسكى » قيادة الجيش فى ١٠٩٧ هـ (١٦٨٥م ) لاعتلال صحته وشيخوخته ، بقيت فتوح الحلف المقدس تمتد على نهر الطونة برّاً ، وفى البحر الأبيض المتوسط بحراً

خسائر الترك

ولم تمضِ هذه السنة حتى استرد « دوق لورين » جميع المجر التركية عدا « بودا » ، واستولى الأسطول البندقى على عدة بلاد على ساحل « ألبانيا » . وفى العام المقبل سقطت « بوذا » فى يد « لورين » وأخضع لورين جميع المجر . وفى عام ١٠٩٩ هـ (١٦٨٧ م ) دُحر الصدر الأعظم عند مدينة « موهكز » التاريخية ، واسترجع القائد لورين « كرُوَاتيا » و « سلافونيا » وأخضع « ترنسلوانيا » ، ثم عبر نهر « الطونة » وأخذ « بلغراد » عنوة ، واستمر فى الزحف حتى وصل الى « نيش » عام ١١٠٠ هـ ( ١٦٨٨ م )

وكان مرُوسينى أمير البحر البندقى فى الوقت نفسه يظهر نشاطاً عظيماً فى البحر الأبيض المتوسط ، إذ أخضع فى عام ١٠٩٨ هـ (١٦٨٦ م) أهم بلاد المورة ولم يأت عام ١١٠٦ هـ ( ١٦٩٤ م ) حتى خسرت الترك كل أملاكها فى بلاد « اليونان » وعلى الساحل « الأدرياتى »

وكانت قد قامت ثورة فى عام ١٦٨٨م فى القصر السلطانى كانت نتيجتها عزل محمد

---

* من غريب الصدف ان الترك كانوا قد فازوا على عدوهم فى هذا المكان عينه قبل تلك الواقعة ببضعة أيام

الرابع وتولية ابنه سليمان الثانى ( ١٠٩٨ - ١١٠٢ هـ : ١٦٨٧ - ١٦٩١م ) ، فعهد هذا أمر الصدارة العظمى الى «مصطفى كبر يلى» أخى احمد كبر يلى ، فأظهر ما هو مشهور عن رجال هذه الاسرة من شدَّة البأس وسعة الخلق . فاتبع سياسة التسامح الدينى فى كل انحاء الدولة ، وأعاد النظام فى الجيش ، فلم يمض عامان من توليته زمام الأمور حتى أصبح النصر حليف الترك . ففى عام ١١٠٢ هـ ( ١٦٩٠ م ) استرجع مصطفى كبر يلى « نيش » « وبلغراد » وغزا « المجر » ؛ ولكنهُ هُزم وقُتل فى سنة ١١٠٣ هـ ( ١٦٩١ م ) فى واقعة ( سِلانـكَمن ) على يد حاكم « بادِن » .

مصطفى كبريلى

موته فى موقعة سلانكمن

وبموت هذا الرجل قُضى على آمال الترك المرجوَّة . واستمرت الحرب بعدُ مدة ثمانية أعوام كان النصر فيها سجالاً ، إلاَّ أن جيوش الامبراطور وجيوش البندقية بقيت محافظة على «المجر »و«ترنسلوانيا» وبلاد «المورة»، وفى عام ١١٠٨ هـ (١٦٩٦ م) انتصرت الجيوش النمسوية بقيادة الأمير « يوجين » نصراً مبيناً على السلطان « مصطفى الثانى » ( ١١٠٦ - ١١١٥ هـ : ١٦٩٥ - ١٧٠٣ م ) الذى كان يقود الجيش بنفسه عند « زَنْتا » .

واقعة زنتا

وابتدأ يظهر شأن بطرس الأكبر ، قيصر الروس العظيم ، فدخل فى هذه الآونة الحرب ، وأخذ من العثمانيين بلدة « آزاق » . فلما رأى السلطان حرج موقفه ، وأن لا فائدة من امتداد أمد الحرب ( إذ أيقن أنهُ بانقراض اسرة كبر يلى قد انقضى عصر الفتوح ) عقـد صلح « كَرْلُوِتز » سنة ١١١٠ هـ ( ١٦٩٩ م ) . وكان أهم شروطه أن يسترجع الامبراطور كل بلاد «المجر» (ما عدا تَمَسْوَار) والجزء الأعظم من كُرْوَاتيا و « سلافونيا »، وأن تكون له السيادة على« ترنسلوانيا » . أما بولندة فانها استرجعت « بادوليا » وفيها « كامينك ». ونزلت الدولة أيضاً عن آزاق « للروسيا » . وأما البندقية فانها بقيت فى بلاد المورة . ومنذ هذه المعاهدة سقطت هيبة الدولة من أعين دول أوربا

معاهدة كرلوتز

## ٦ — ﴿ الدولة العثمانية وحروبها مع الروسيا والنمسا ﴾
## فى القرن الثامن عشر

مقدمة

أخذت الدولة العلية تضعف شيئاً فشيئاً خلال القرن الثامن عشر، وذلك يرجع الى سببين عظيمين : الأول نهوض الأمة الروسية وتحالفها مع النمسا على الأتراك لبسط سلطانها وطرد الأتراك من أوربا . والثانى اختلال النظام وسوء الإدارة فى البلاد العثمانية وثوران من فيها من الشعوب المختلفة فى وجه الدولة

المسألة الشرقية

ولما ظهرت علامات الضعف والاضمحلال فى الدولة أخذت دول أوربا تنظر فيما سيؤول اليه أمرها ، ومن يكون الوارث لأملاكها . وتُعرف هذه المسألة عندهم «بالمسألة الشرقية» . ويرجع تاريخها الى عام ١١٠٨ هـ ( ١٦٩٦ م ) عند ما استولى الروس على مدينة «آزاق» التى نزلت عنها الدولة للروسيا رسمياً فى معاهدة «كرلوتز» كما نزلت أيضاً عن بعض ممتلكاتها الى النمسا ، وبذلك دخلت سياسة الشرق الأدنى فى طور جديد

وبعد هذه المعاهدة وقف تيار تقدم الروس فى الجنوب فترة ، وذلك لِمَا نزلوا للترك عنهُ فى معاهدة «بروث» الآتى ذكرها سنة ١١٢٣ هـ ( ١٧١١ م ) بعد أن انهزمت الروسيا هزيمة منكرة . ولكن مالبثت هذه الفترة أن انقضت وعادت الروسيا الى مناوأة الترك طول القرن الثامن عشر بلا انقطاع

وكان ضعف الدولة المستمر فى خلال هذا القرن سبباً لمشا كل جديدة وارتباكات شديدة بين دول أوربا . فبينما كانت الروسيا تبذل جهدها لبسط سلطانها على البحر الاسود كانت النمسا من جهة أخرى تعمل طاقتها لمد أملاكها على نهر الطونة . إلاَّ أن عمل كل من الروسيا والنمسا كان داعياً لقلق فرنسا وتدخُّلها. وفى سنة ١١٨٨ هـ ( ١٧٧٤ م ) ابتدأت مقاصد الروسيا تظهر جلياً بعد معاهدة « كجوك قينارجَة » ( كُتْشُك كينارجي ) التى سيأتى ذكرها . ففطنت انجلترة للأمر ، وأخذت تخاف

انحلال عرا الدولة العثمانية ، كما أخذت أوربا من ذلك الحين تهتم أيضاً بالمسألة الشرقية وتنظر إن كان بقاء الدولة وحفظ كيانها فى أوربا خيراً من ضمها الى الروسيا أم لا

نهضة الروسيا وبطرس الاكبر

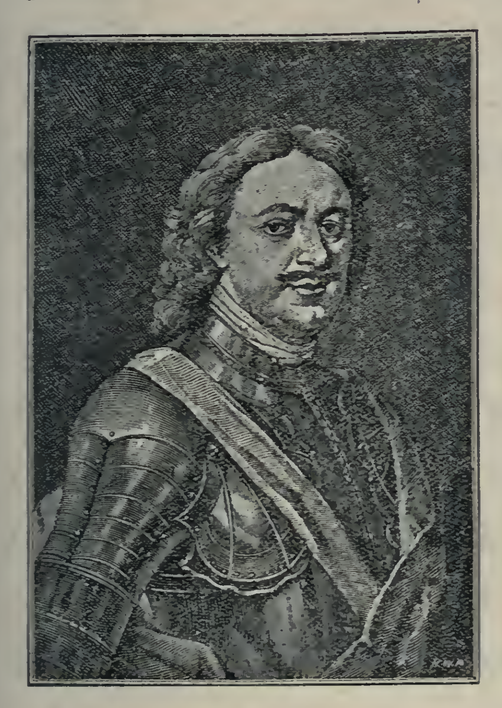
وأول من عمل على توسيع نطاق الدولة الروسية وجعلها فى مصاف دول أوربا العظمى هو قيصرها بطرس الأكبر ( ١١٠٠ - ١١٣٧ هـ : ١٦٨٩ - ١٧٢٥ م ) ، وكانت قبل عهده بعيدة عن الحضارة الأوربية ، منزوية عن العالم المتمدين . فلما تولى هذا القيصر الملك عام ١١٠٠ هـ (١٦٨٩م) خطا بها خطوات واسعة فى سبيل العمران ؛ إذ غيّر أنظمتها وسياستها الداخلية دفعة واحدة ، فاتخذ « بطرسبُرج » مقراً لملكه بعد ان كان مدينة ( مُسكو ) ، وأدخل العادات ووسائل المعيشة الغربية فى بلاده ، وضرب بيد من حديد على سلطة الأشراف ، ووضع الكنيسة والجيش ( الذى دربه على الأنظمة الأوربية ) تحت مراقبته نفسه . أما سياسته الخارجية فلم تقل حزماً وبعد نظر عن سياسته الداخلية ؛ إذ رأى أنه لا يتسنى للروسيا ان تكون مملكة تجارية الاّ اذا أرسخ قدمها على البحرين البلطى والأسود ، وكأن الأول فى قبضة السويد والثانى فى يد الترك . فجعل همه ابتداء مناوأة السويد ، وبعد حروب طويلة تم له مقصده فى معاهدة « نيستاد » سنة ١٧٢١م ، إذ نزلت السويد للروسيا عن ليفونيا ، وايثونيا ، وإنجيريا ، وكريليا ، وغيرها

أما الترك فأخذ منها آزاق فى معاهدة « كرلوتز » كما سبق . الاّ أن العثمانيين استردوها ثانيةً فى عهد احمد الثالث (١١١٥ - ١١٤٣ هـ : - ١٧٠٣ - ١٧٣٠م)

واقعة بروث

وذلك ان الروس لما هزموا « شارل الثانى عشر » ملك السويد فى موقعة « بلْطاوا » لجأ شارل الى الترك وطلب منهم المساعدة . فلبت الترك دعوته إذ وجدت فى ذلك فرصة لاسترداد ما خسرته ، فشنّت الحرب على الروسيا ، وبعد مواقع عنيفة تمكن القائد التركى ( بَلْطَجى باشا ) من حصر الجيش الروسى ووشك القبض على قيصر الروس عند نهر « بروث » ، ولكنه نجا من الأسر بما قدمته زوجته « كتربن » من الرِشوة الى الخائن « بلطجي باشا » . فأفلتَ بطرس وجيشه ( بل روسيا الجديدة

كلها ) من براثن الفناء ، واضطرت الدولة بعد هذه الغلطة الشنيعة الى عقد صلح « بروث » عام ١٧١١ م الذى استرجعت به من الروسيا ميناء « آزاق » . ويعتبر عقد الروس لهذه المعاهدة على ما نالهم فيها من الخسائر الطفيفة من اكبر سعودهم، إذ لو لم تتقيد بها الترك وواصلت عليهم الحرب لقضت لامحالة على دولتهم وهى فى إبَّان نهضتها



بطرس الأكبر

وبعد مضى خمسة عشر عاماً على معاهدة « كرلوتز » أراد « قومُورجى على» الصدر الأعظم أن يمحو العار الذى لحق الدولة فى هذه المعاهدة باسترداد بلاد المجر والمورة . وكانت الفرصة سانحة له ، إذ كانت الدولة قد انتصرت على بطرس الأكبر ( كما أسلفنا ) ، وكانت « الامبراطورية » ( النمسا ) قد أنهكتها الحروب الأوربية ، ولم يكن للبنادقة من القواد مثل «مروسينى» وأمثاله حتى يقودها الى الظفر ، فضلاً عن أن بلاد المورة نفسها عند ماغُزيت لم تُظهر أى مقاومة جدّية ، فكانت النتيجة أن تمكن قومرجى بزحف واحد من استرجاع بلاد المورة سنة ١١٢٧هـ (١٧١٥ م)

على أنه لم يتم له فى المجر ما أراد ، فانه هُزم عند « بيتَرْوَردِن » هزيمة منكرة على يد الأمير «يوجين» فى أغسطس سنة ١١٢٨ هـ (١٧١٦ م ) وقُتل الصدر الأعظم فى هذه الموقعة ، فاضطر الباب العالى الى عقد صلح «بَسَّارُوِتز» عام١١٣٠هـ (١٧١٨ م) ، وكان أهم شروط هذا الصلح ان ابقت الدولة للنمسا مقاطعة تمسوار وبلغراد ، وبقى معها المورة

معاهدة بساروتز

الحرب مع الفرس

وبعد معاهدة « بسَّارُوِتْز » لم تفكر الترك فى منازلة الروس ، بل وجهوا هممهم نحو « فارس » اذ كانت نار الثورة متأججة فيها . ففى عام ١١٣٥ هـ (١٧٢٢-١٧٢٣م) لجأ « الشاه طهْماسب » الى الروسيا والدولة ليساعداه على منازع له فى المُلك ، فانتهز الباب العالى هذه الفرصة واستولى على بعض جهات فارس ، وساعده على ذلك خروج الأرمن على الفرس

وفى عام ١١٣٦ هـ ( ١٧٢٤ م ) عُقدت معاهدة بين الترك والروس على أن تستولى الروسيا على الأقاليم المحيطة ببحر قزوين وتستولى الترك على إقليمى «جورجيا» و « أذِرْبيجان » ، الاَّ أن هذا الأمر لم يدم طويلاً ، اذ ظهر فى فارس عام ١١٤١ هـ ( ١٧٢٩ م ) زعيمٌ قوى يدعى « نادرشاه » عمل على تخليص بلاده من نير الأجانب ، وما زال بالترك حتى أجلاهم عن البلاد الفارسية عام ١١٤٨ هـ ( ١٧٣٥ م ) بعد حروب طويلة

وكانت الروسيا تريد امتداد الحرب بين الترك والفرس حتى تحقق غرضها فى مسألة الوراثة البولندية ( وهى تنصيب أمير من قبلها على هذه البلاد ) . لذلك نزلت للفرس عما أخذته فى عام ١١٣٦ هـ ( ١٧٢٤ م ) وأمدتهم بالذخائر ، وبهذه الحروب الفارسية ضيّعت الدولة فرصة عظيمة بعدم مهاجمتها للروسيا أثناء حرب الوراثة البولندية . والسبب فى ضياعها يرجع الى السلطان « احمد الثالث » ووزيره «ابراهيم» اذ كانا لا يميلان الى مناوأة الروسيا والنمسا ، على حين كانت الروسيا تسعى جهدها دائمًا فى مناوأة الدولة

اتفاق الروسيا والنمسا على الدولة

وفى عام ١١٣٨ هـ (١٧٢٦م) عقدت روسيا محالفة مع النمسا نعلم منها سر سياسة كلتا الدولتين فى القرن الثامن عشر . وأهم شروطها أن تتعهد كل للأخرى أن تمدها بنحو ٣٠,٠٠٠ مقاتل اذا هاجمها غير الترك ، أما اذا كانت الدولة العثمانية هى المهاجمة فيجب على كلتا الدولتين أن تحارباها معًا بكل ما لديهما من القوة

وبعد أن نجحت النمسا والروسيا فى تنصيب أمير على « بولندة » من قبلهما لم

يكن أمامهما عائق من مهاجمة الدولة والسعى فى تقسيمها بينهما . وقد كانت الفرصة سانحة للروسيا فى هذه الآونة لمحو أثر معاهدة « بروث » ، إذ أن بولندة التى كان يطمح بطرس الأكبر أن يجعلها الطريق الموصل الى بلاد الترك قد خضعت لنفوذ الروسيا ، والترك مغلولو الأيدى فى حربهم مع نادرشاه ، والنمسا أيضاً كانت تطمح الى الزحف على نهر الطونة لتعويض ما فقدته من الممتلكات فى جهات أخرى من أوربا . هذا الى أن نادرشاه كان أكّد للروسيا قبل صلحه مع الدولة أن لا يمسها بمكروه اذا دارت رحى الحرب بينها وبين الترك ، والى أن الروسيا فوق ذلك كان لها أعوان وجراثيم فتن فى قلب المملكة العثمانية من الشعوب المسيحية التى كانت شديدة الميل الى الروسيا ، حتى أنه لما أشيع خبر نشوب الحرب فى عام ١١٤٨ هـ ( ١٧٣٥ م ) ثارت كل الرعايا المسيحيين العثمانيين آملين الخلاص من حكم الدولة . ومن هذا الوقت أخذت الروسيا تستعمل اطماع هؤلاء الرعايا الدينية والوطنية فى تمزيق أحشاء الدولة العثمانية وتبديدها

تأهب الروسيا للحرب

كل هذه الأمور تدل على أن الروسيا كانت تتأهب لمحاربة الدولة وتنتظر حدوث أى شىء تتمسك به لشهر الحرب عليها . وفى عام ١١٤٨ هـ ( ١٧٣٥ م ) وجدت لذلك فرصة مناسبة وهى زحف جيوش من التتار على بلاد «القوقاس» (القبجاق) وأرمينية . وكان هؤلاء التتار خاضعين للدولة العثمانيـة ، فخرجت الجيوش الروسية لصدهم وغزوهم فى ديارهم ، ثم أخذت تتأهب لملاقاة الترك ، فعهدت بالقيادة العامة الى « ميونِخ » ، وضم هذا اليه غيره من الضباط الأجانب المستأجرين

نشوب الحرب

وكان « ميونخ » هذا من اكبر قوّاد القرن الثامن عشر . وُلد فى ألمانيا وحارب فى الجيوش النمسوية والبولندية والروسية ، وبهر بطرس الأكبر بما له من الصفات الحربية العظيمة ، فسعى فى استخدامه

القائد ميونخ

وأول ما عزم عليهِ فى هذه الحرب استرجاع « آزاق » ، فأخذ يستعد فى شتاء ١٧٣٥ - ١٧٣٦ م . وفى ربيع ١١٤٨ هـ ( ١٧٣٦ م ) انقض على « القرِم »

الحرب فى القرم

وناط حصار « آزاق » بالقائد « لاسى » الأرلندى . وفى شهر مايو وصلت أخبار الحملة الروسية الى القسطنطينية ، فأعلنت الدولة الحرب على الروسيا فى ٢٨ منه. وكان ميونخ وقواده قد توغلوا فى شبه جزيرة القرم واحتلوا كثيراً منها، الاّ أنهم تكبدوا فى ذلك خسائر فادحة واضطروا للجلاء عنها والتراجع الى «أوكرين» فى ٢٥ أغسطس سنة ١٧٣٦ بعد أن ارتكبوا فى القرم من الفظائع والمنكرات ما لا يوصف

دخول النمسا فى الحرب

ثم دخلت الحرب فى طور جديد لتجديد تحالف الروسيا مع النمسا فى سنة ١١٤٩هـ (١٧٣٧م) تأكيداً لمعاهدة ١٧٢٦م ، فأثارت النمسا الحرب أيضاً على الدولة العثمانية التى قابلتهما بمقاومة أدهشت أوربا بأسرها: فاضطرت ميونخ الى التقهقر عن أوكرين ، وردّت النمسويين مقهورين حتى اقليم «بنات» ، فأحجموا عن الحرب وأخذوا يفاوضون الدولة سرًّا فى عقد الصلح معهم على انفراد. فغاظ ذلك ميونخ غيظاً شديداً . وكانت له آمال كبيرة فى القضاء على الترك : من ذلك أنهُ عرض على قيصرة الروسيا فى ذلك العهد أساس ذلك المشروع الخطير الذى يسمى «المشروع الشرقى» وفحواه ان الروسيا ترى ان لها الحق الطبيعى فى الزعامة على المسيحيين من رعايا الدولة، فيجب عليها أن تعمل على نشر الدولة « البوزنطية » بالقسطنطينية . ولذلك كان جل أمانى « ميونخ » مواصلة الحرب ، وبالفعل أغار على « ملدافيا » ( البَغْدَان ) وهزم جيوش الدولة فى «شُكُزِم» سنة ١١٥٢ هـ (١٨ أغسطس سنة ١٧٣٩ م) . إلاّ ان توالى هزائم النمسويين وعقدهم وحدهم الصلح مع الدولة قضى على أمانيه، وخاصة بعد أن علم بعزم السويد على محاربة الروسيا وبقيام بعض الفتن فى داخلية بلاده ، ولذلك رضيت الروسيا بعقد الصلح وأبرمت مع الدولة «معاهدة بلغراد» الشهيرة فى سبتمبر سنة ١٧٣٩ م : ففى المعاهدة التى عقدت مع النمسا على انفراد أخذت الدولة العلية بلغراد و « أُرسوفا » وجميع بلاد الصرب والبوسنة و بلاد الأفلاق والبغدان

مهادنتها للدولة على انفراد

المشروع الشرقى

معاهدة بلغراد

أما الروسيا فانها لم تأخذ مما فتحتهُ سوى آزاق بعد هدم قلاعها ، واشترطت عليها الدولة ألاّ تدخل أساطيلها فى البحر الأسود ، بأن يكون بحيرة عثمانية بحتة

وهذه هى آخر معاهدة رابحة عقدتها الترك مع الدول الأوربية . ولقد لقيت الدولة فى ابرامها مساعدة عظمى من فرنسا ، لأنها كانت تخشى اتساع سطوة الدولتين : الروسية والنمسوية

بعد ذلك ساد السلام بين الروسيا والدولة مدة طويلة مات فى أثنائها السلطان « محمود الأول » ( ١١٤٣ - ١١٦٨ هـ : ١٧٣٠ - ١٧٥٤ م ) ، وخلفه السلطان « عثمان الثالث » ( ١١٦٨ - ١١٧١ هـ : ١٧٥٤ - ١٧٥٧ م ) ، ولم يحصل فى عصره شىء جدير بالذكر . ثم تولى بعده السلطان « مصطفى الثالث » ( ١١٧١ - ١١٨٧ هـ : ١٧٥٧ - ١٧٧٣ م ) ، وكان ولوعاً بالحروب ، فلما رأى ان ازدياد نفوذ الروس فى بولندة يتعاظم بهمة قيصرتهم العظيمة « كترين الثانية » التى تولت الملك سنة ١١٧٦ هـ ( ١٧٦٣ م ) خشى على بلاده . ورأت ذلك أيضاً الحكومة الفرنسية بالنسبة لبلادها فوافقته على رأيه ، ولذلك عزم الباب العالى على منازلة الروس . وقوّى عنده هذا العزم ان الروس كانوا منذ ١١٧٩ هـ ( ١٧٦٥ م ) يحرضون اليونان و «الجبليين» و «البوسنيين» على الخروج على الدولة . وفى سنة ١١٨٢هـ (١٧٦٨م) اشتد حنق الباب العالى إذ دخلت الجنود الروسية أملاك الدولة أثناء مطاردتهم لبعض البولندية الفارّين من وجوههم وأحرقوا «بلطة» التابعة لخان القرم أحد ولاة الدولة فأعلن الباب العالى الحرب على الروسيا فى ٦ اكتوبر سنه ١٧٦٨ لذلك وبحجة الدفاع عن حرية البولنديين

تجدد الحرب

ابتدأت الحرب بين الدولتين ، فلازم سوء الطالع الدولة من أول نشوبها ، فلم تلبث ان انهزمت أمام الروس على نهر دنيستر واحتلت الروسيا «ملدافيا» (البغدان) وبلاد « الأفلاق » و « بسَّارَبْيا » و « القرم » . وفى خلال هذه المدة كان الأسطول الروسى ظافراً فى البحر ، فانتصر على أسطول الدولة عند ثغر «جَشْمَة» ( شِزْمى ) فى يوليه سنة ١٧٧٠ ، ولولا ما أبداه القبودان حسن باشا الجزائرلى من الشجاعة لأحدق الخطر بالقسطنطينية . وما زالت الجيوش الروسية تجدّ فى فتح بلاد

خسائر الدولة

الدولة بقيادة القائدين العظيمين « رومانوف » و « سوفاروف » وغيرهما حتى خشيت الدولة العلية العاقبة وطلبت الصلح فى سنة ١٧٧٤ م . وكانت « كترين » مشغولة أيضاً بحرب بولندة وبثورة داخلية أثارها قوزاق نهر الدون . وكانت انجلترة أيضاً قد استرجعت قوّادها من الجيوش الروسية لما رأته من توالى هزائم الترك ، فلم تر « كترين » بدًّا من وقف الحرب مع الدولة مع كثرة انتصاراتها فيها ، وابرمت معها معاهدة «كجوق قينارجة» ( كتشك كينارجى ) سنة ١١٨٨ هـ ( ١٧٧٤م ) . وهى أهم معاهدة عقدت بين الدولة والروسيا



كترين الثانية

معاهدة كجوق قينارجة

وأول طور جدى فى المسألة الشرقية . على أن الروسيا لم تنل بهذه المعاهدة أملاكاً شاسعة ، إذ كان ما أخذته قاصراً على « كِنبُورن » و « كِرْتش » و « آزاق » والأقاليم المجاورة لها مما ثبّت قدمها على شمالى البحر الأسود . ولكنها نالت بها حقوقاً سياسية كبيرة كان لها شأن عظيم فى المستقبل ، لأن الدولة قبلت فى هذه المعاهدة أن تضمن للروسيا حكومة عادلة وحرية دينية للرعايا المسيحيين ، وجعلت للروسيا الحق فى المطالبة بحقوقهم كلما رأت حاجة الى ذلك . وهذا حق كبير لا يستهان به ، إذ أخذته الروسيا بعدُ ذريعة للتدخل فى شؤون الدولة كلما رأت ذلك من مصلحتها . وقد كان ذلك أكبر مكدر لصفو الدول الأوربية على الدوام

نبذ الروسيا العهد

سادت السكينة بعد ذلك فترة بين الدولة والروسيا ، ولكن « كترين » كانت لا تزال متشبثة ( بالمشروع الشرقى ) وتمنّى نفسها بإنفاذه متى سنحت الفرصة . وفى عام ١١٩٧ هـ ( ١٧٨٣ م ) نقضت العهد وضمت القرم اليها بالرغم من تهادنها مع

معاهدة القسطنطينية

الدولة ، فخشيت فرنسا وانجلترة توغل كترين فى الأملاك العثمانية ونصحتا للباب العالى بالنزول عن « القرم » و « كوبان » ، فتم ذلك بمقتضى معاهدة القسطنطينية سنة ١١٩٨ هـ ( يناير سنة ١٧٨٤ م )

على أن الروسيا لم تقف عند هذا الحد ، ودأبت على انفاذ مشروعها الشرقى وتوسيع نطاق أملاكها من الأملاك العثمانيـة ، فأخذت تعمل منذ عام ١٢٠٠ هـ ( ١٧٨٦ م ) على دس الدسائس فى كل ولايات الدولة ، ونجحت دسائسها فعلاً فى مصر وفى اليونان والبغدان . فشرعت الدولة تستعد للحرب الى أن أرغمتها روسيا على خوض غمارها بتعدّد إهاناتها

تجدد الحرب

وآخر ما حدث من ذلك ان « كترين » خرجت الى القرم فى موكب حافل ، ولما وصلت فى طريقها الى « خِرسون » كتبت على أحد أبوابها : « الطريق الى بوزنطة » ، إشارة الى أنها عما قريب ستفتح القسطنطينية . عند ذلك ثارت خواطر مسلمى الدولة ، واضطر الباب العالى الى اعلان الحرب على الروسيا سنة ١٢٠١ هـ ( ١٧٨٧ م ) فأسرع القائد حسن باشا الى مهاجمة « كِنبورن » ، ولكنه ردّ عنها بعد أن تكبد خسائر فادحة لوقوف القائد العظيم « سوفاروف » فى وجهه . وكانت الروسيا قد عقدت معاهدة جديدة مع النمسا على الدولة العثمانية ، ولكن النمسا لم تقدر على القيام بمساعدة تذكر فى هذه الحرب لاشتغالها بالاضطرابات القائمة فى الأراضى المنخفضة ( وكانت من أملاكها ) ثم اضطرت الى ابرام معاهدة « سِستوفا» مع الدولة سنة ١٢٠٦ هـ ( أغسطس سنة ١٧٩١ م ) وبذا انسحبت من الحرب . أما الروسيا فانها بقيت قادرة على مواصلة الحرب بفضل مهارة « سوفاروف » ، فاستولى على جهتى « أوخاكوف » و « اسماعيل » سنة ١٢٠٥ هـ ( ١٧٩٠ م ) ، وانضم الى ذلك انتصارات الجيوش الروسية فى « القوقاس » و « كوبان » . وأخيراً انتبهت أوربا الى اطماع « كترين » ، ورأت أن لا بدّ من وقوفها عند حد ، فتدخلت انجلترا وبروسيا وهولندة فى الأمر ، ولم تبدِ الروسيا معارضة لأنها أخذت توجّه أنظارها نحو

معاهدة ياسى

فرنسا التى كانت نار الثورة تتأجج فيها ويُنتظر اشتباك النمسا و بروسيا معها فى حرب وبذلك يخلو الجو للروسيا فى بولندة. لذلك رضيت كترين بمهادنة الدولة وأبرمت معها معاهدة « ياسى » سنة ١٢٠٦ ﻫ ( يناير سنة ١٧٩٢ م ). وأهم شروطها أن اعترف الباب العالى بكل مواد معاهدة « كينارجى » وترك للروسيا أيضاً القرم وباقى الأراضى العثمانية الى نهر الدنيستر. وبذا صارت الروسيا صاحبة السيادة المطلقة على شمالى البحر الأسود

هذا ما وصلت اليه الدولة فى أواخر القرن الثامن عشر من جراء السياسة الروسية. وقد خسرت أملاكاً أخرى فى القرن التاسع عشر، ولكن دول أوربا العظمى لم تسمح للروسيا الى الآن بتنفيذ ما يرمى اليه المشروع الشرقى الذى كان تحقيقه جل أمانيها، وإن تكن سمحت لغيرها بالتصرف فى كثير من أملاكها

# الفصل الثالث

## حكم العثمانيين فى مصر

( ٩٢٣ - ١٢١٣ ﻫ : ١٥١٧ - ١٧٩٨ م )

طور جديد فى تاريخ مصر

باستيلاء السلطان سليم على مصر فى سنة ٩٢٣ﻫ (١٥١٧م) أصبحت مصر جزءاً من أملاك الدولة العثمانية، ودخلت فى طور طويل دام نحو ثلاثة قرون (٩٢٣-١٢١٣ ﻫ : ١٥١٧ - ١٧٩٨م) لم يكن لها فيهِ شأن سياسى يذكر فى التاريخ. وقد كانت مصر فى معظم ذلك العصر مشهداً للفتن والمُشاحّات: إمّا بين سلائل المماليك أنفسهم، واما بينهم وبين الولاة العثمانيين، واما بين هؤلاء وجنود الحامية العثمانية. وكل هذه الحوادث متشابهة، ولم يكن لها أثر دائم فى تاريخ مصر. لذلك نعدِل عن تتبع أخبار فتن ذلك العصر، ونكتفى بالكلام على حالة البلاد فيهِ بوجه عام، فنقول:

## ١ — ✵ نظام الحكومة ✵

الحكومة فى ثلاث سلطات

بعد أن تمَّ للسلطان سُليم فتح مصر وضع لإدارتها نظاماً يكفُل بقاء خضوعها وعدم استقلال أحد فيها بأمرها ، فأودع مقاليدَ حكمها ثلاثَ سُلطات ، له من تنافس رجالها أكبرُ كفيل ببغيته :

١ . الوالى

السلطة الأولى — الوالى ، وأهم أعماله إبلاغُ الأوامر التى ترد عليه من السلطان الى عُمال الحكومة ومراقبةُ تنفيذها

٢ . الجيش

والسلطة الثانية — جيش الحامية ، وقد كوَّنهُ السلطان سليم من ست فرَق (وجاقات) ، ونصَّب عليهم قائداً يقيم بالقلعة ، وجعل على كل فرقة ستة من الضباط ، وشكّل من هؤلاء الضباط مجلساً ( ديوانًا ) يساعد الوالى فى إدارة شؤون البلاد ، وجعل لهذا الديوان الحقَّ فى رفض مشروعات الوالى اذا لم يرَ فيها مصلحة

٣ . المماليك

والسلطة الثالثة — المماليك : نصَّب كل واحد منهم على سنجق ( مديرية ) من الأربع والعشرين مديرية التى تتكوَّن منها البلاد . وكان هؤلاء الرؤساء من المماليك يُعرفون « بالبيكوات » وتسمى مديرياتهم « سناجق »

تعديل سليمان

ولما انقضى حكم السلطان سليم فى سنة ٩٢٦ هـ ( ١٥٢٠ م ) وخلفه السلطان سليمان القانونى أنشأ مجلسين آخرين يُعرفان بالديوان « الأكبر » و « الأصغر » ، يجتمع أولها عند التحدث فى الشؤون الخطيرة ، ويجتمع الثانى كل يوم ، وأعضاء الأول من رجال الجيش والعلماء معاً ، وليس بالثانى احد من العلماء ونحوهم . وأضاف سليمان أيضاً فرقة سابعة الى الجيش ضم اليها عتقى المماليك . فبلغ بذلك جيش الحامية نحو ٢٠٠٠٠ ✵

---

✵ وقد أدخل الترك كثيراً من الالقاب فى مصر لا يزال كثير منها مستعملاً الى الآن منها : لقب « باشا » الذى كان يطلق على الولاة المرسلين من القسطنطينية ، ولقب « أغا » وكان يطلق على قائد الجيش أو الفرقة الواحدة ، ولقب « كتخدا » أو « كخية » وهو وكيل الباشا وكان يطلق أيضا على موظف خاص في كل فرقة بالجيش . أما لقب « البك » و « الافندى » فكان لكل منهما معنى خاص فى مبدأ الامر فقد بالتدريج حتى صارا يستعملان فى معنييهما الحاليين

ذلك هو النظام الذى وضعهُ العثمانيون لإدارة مصر ، ولا غاية لهم منهُ سوى المحافظة على بقاء البلاد خاضعة للدولة، سواء أكان ذلك فى صالحها أم لم يكن . وقد بقيت هذه السياسة ناجحة نحو قرنين من الزمان ، الى أن أخذت الدولة فى أسباب التقهقر ، وزحفت النمسا والروسيا على حدودها الشماليـة ، فضعف نفوذها فى مصر ، وانتقلت السلطة الحقيقية الى أيدى المماليك

## ٢ — ﴿ الضرائب ﴾

المال الاميرى وميزات الملتزمين

لما فتح العثمانيون مصر فى سنة ٩٢٣ هـ ( ١٥١٧م ) فرضوا عليها خراجاً سنوياً يرسل للسلطان ، يجمع من ضرائب الأملاك وخاصة الأراضى . وكانت هذه الضرائب تسمى « الميرى » أى ( الأموال الأميرية ) ، وكان لكل جهة ملتزِم يتعهد بتوريد مايخصها من الخراج ، ومن أجل ذلك تُعفى أرضه من الضريبة ، ويكلف الفلاحون زرعها له بالمجان ، علاوة على ضريبة أخرى يجبيها لنفسه منهم . وكانت حقوق هؤلاء الملتزمين ومناصبهم وراثية

الاوقاف

وكان جانب عظيم من الأرض موقوفاً على المساجد والمدارس والرباطات وغيرها من الأمور الخيرية ، وهو معفى أيضاً من الضريبة ويُزرع بعضه ( إن لم يكن كله ) بالتسخير *

قلم الافندية

وانشأ السلطان سليم بالقاهرة قلماً يعرف بقلم «الأفندية» لتقرير الضرائب ومراقبة جمعها وتسلُّمها من الملتزمين ، وجعل فيهِ دفاتر لحصر حساب الحكومة وأخرى لتدوين انتقال الملكية

كثرة الضرائب

فيُعلم مما تقدم ان كاهل الفلاح كان مُثْقَلاً بالضرائب وأعمال السخرة . وليت مصابهُ وقف عند ذلك الحدّ ، فإنّ ما كان يبتزُّه منهُ بيكوات المماليك أنفسهم كان

* روى ان السلطان سليم لما هم بمغادرة الديار المصرية شاوره « خير بك » فى ابقاء أوقاف المماليك أو حلها (وكانت نحو عشرة قراريط من أرض مصر ، جميعها معفى من الضرائب) ، فأمر السلطان سليم بابقائها . فاعترض عليه وزيره ، فضرب عنقه

أدهى وأمرّ ، فان كل بيك من حكام المديريات كان يفرض على محصول الأراضى ضريبة لإدارة المديرية تسمى « كشوفية » ، وكثيراً ما يفرض على السكان ضرائب أخرى اضافية كلما احتاج الى المال لمحاربة نظرائه من المماليك أو مكافحة الباشا أو السلطان

بهذه الضرائب المضاعفة ، التى لم يكن لها حد معلوم ، تسرّب الفقر الى أهل البلاد حتى وصلوا فى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى الى درجة من الفاقة لم يسبق لها مثيل

## ٣ — ✶ المبـــــانى ✶

فقر البلاد

لم تعُدْ مصر بعد أن فتحها العثمانيون دولة ذات أملاك عظيمة كما كانت من قبل ، بل صارت ولاية لا ثروة لها إلاّ من داخلها ، وهذه الثروة ذاتها أخذت فى الاضمحلال بتسرب الإهمال فى مرافق الزراعة والصناعة ، ثم إن اهتداء البرتقال الى طريق للهند حول جنوبى افريقية حوّل التجارة المارة بينَ أوربا والهند من طريق مصر الى المحيط الاتلنتى (كما سيأتى ذكره) . كل ذلك أضعف كثيراً من ثروة البلاد فصارت لا تقوى على انشاء الآثار العظيمة التى كانت تقام من قبل

عدم اهمال المبانى

على انه لم ينشأ عن هذه الحالة اهمال المبانى جملةً . فالقاهرة مملوءة بالجوامع التركية ، وبها من السبُل والرباطات (التكايا) والوكائل والربوع التى شيدت فى هذا العصر شىء كثير ، وانما نشأ عنها توخى الاقتصاد فى اقامة المبانى وزخرفتها ، فلم تعد الجوامع تبنى بتلك السعة العظيمة التى نشاهدهـا فى أبنية القرون السالفة ، ولم يُصرف على زخرفتها من المال شىء يذكر بجانب ما كان يُنفق على مثلها فى تلك الأزمان . ومن نتائج الاقتصاد فى مبانى هذا العصر أيضاً ان صارت السُّبل والمكاتب تبنى لها أبنية قائمة بذاتها بعد ان كانت من ملحقات الجوامع

توخى الاقتصاد

قلة الدقة فى البناء والزخرفة

كذلك قلّت الدقة فى البناء ، لقلة الثروة من جهة ، ولتقهقر الصناعات من أخرى ، وليس من آثار هذا العصر ما يلاحظ عليهِ آثار الدقة إلاَّ القليل ، ومثل ذلك شبيد فى أوائل عهد العثمانيين فى مصر . ومن أهم هذا النوع سبيل « خسرو باشا » بالنحاسين

المشيّد سنة ٩٤٥ هـ ( ١٥٣٨ م ) وهو المجاور لقبة الصالح أيوب بالنحاسين

وقصارى القول ان آثار العصر التركى فى مصر ، وان كانت جميلة فى بابها ، هى أقل رونقاً ودقة من آثار المماليك . وسواء فى ذلك المبانى أو الترميمات ، فانّ هذه الترميمات لم تتناسب فى أى أثر رُمم فى هذا العصر مع جمال البناء الأصلى ، وكثيراً ما تكون أشبه بالرقع الخلقة فى الثوب الجميل

مستحدثات العثمانيين فى المبانى المصرية

واستحدث العثمانيون فى بناء الجوامع بمصر الشكل التركى ،وهو متخذ من شكل كنائس « بوزنطية » القديمة . وأهم شىء فى أوضاعه اتخاذ القباب بدلاً من السُقُف المستوية ، فصارت القبة فى كل جامع هى المركز الذى يدور عليه البناء بعد ان كانت إشارة الى الأضرحة والترَب فى الزمن السابق . ومن مميزات هذه المبانى أيضاً اتخاذ «القاشانى» * المحلى بالأشكال الفرنجية دون العربية . وبناء المنائر الاسطوانية الشكل أو المنشورية الكثيرة الأضلاع جداً حتى تقرب من الأسطوانية، وتنتهى غالباً بمخروط أو هرم كثير الأضلاع يتخذ من الخشب

فأول جامع بُنى فى مصر على هذه الأشكال البوزنطية هو جامع سليمان باشا الشهير الآن بسارية الجبل الذى شيد داخل القلعة سنة ٩٣٥ هـ ( ١٥٢٨ م ) . ويليه جامع سنان باشا ببولاق المشيّد سنة ٩٧٩ هـ ( ١٥٧١ م ) ، ثم جامع الملكة صفية بالداودية المبنى سنة ١٠١٩ هـ ( ١٦١٠ م )

سبيل عبد الرحمن كتخدا

وقد حوكيت الأوضاع العربية فى بعض مبانى هذا العصر ، إلاَّ أن هذه المحاكاة قلما كانت تامة ، حتى فى أقرب المبانى الى الوضع العربى مثل سبيل عبد الرحمن كَتْخُدَا المبنى سنة ١١٥٧هـ ( ١٧٤٤م ) ، وهو فى ملتقى شارعى النحاسين والجمالية ويكفى للدلالة على أنه ليس عربى الشكل من كل وجه شكل شبابيكه ومصبَّعاتها النحاسية . ( قارن هذه بشبابيك سبيل خسرو باشا العربية الشكل )

ولم يكن الولاة وحدهم هم المشيدين لهذه الآثار ، بل ان معظمها كان من عمل أمراء

---

* القاشانى قطع من الخزف المطلى بالميناء عليها أشكال هندسية أو نباتية ملونة

المماليك أنفسهم . وشيخُ المشيدين والمرممين فى ذلك العصر هو « عبد الرحمن كتخُدا » من كبار المماليك الذين استحوذوا على جانب عظيم من السلطة فى أواسط القرن الثامن عشر بعد الميلاد، فان بالقاهرة من آثاره ١٨ جامعاً ما بين مُنشأ ومجدَّد وذلك عدا الكثير من الزوايا والأضرحة الصغيرة التى رممها ، وعدا السبل الكثيرة التى أنشأها ، وله أيضاً قناطر ( كبارى ) وأعمال أخرى هندسية . ومن أجمل آثاره سبيله الصغير ، السالف الذكر ، وان كان فى الحقيقة أصغر أعماله . ومن مبانيه جامع خارج باب الفتوح وآخر بالقرب من باب الغُريّب ماحقٌ بهِ صهريج وسبيل ومدرسة وبنى صهريجاً آخر للسقائين بالقرب من جبانة الأزبكية ، وجدد ضريح السيدة زينب وضريح السيدة سكينة ، وشيد غيرهما بالقرب من باب القرافة وبجهة عابدين وغيرها ومن أهم آثاره تجديداته بالأزهر ، فإن معظم ما جُدّد أو زيد فى هذا الجامع حتى جعله فى شكله الحالى : من عمل عبد الرحمن كتخدا . ذلك الى ما أنشأه فيه من دور الكتب والمطابخ وغيرها تشجيعاً لطاب العلم

كتخدا
شيخ المشيدين

وآخر ما أقيم بمصر من الآثار التركية الجميلة المكتب والسبيل اللذان بناهما السلطان مصطفى الثالث ( ١١٧٣ هـ : ١٧٥٩ م ) تجاه مسجد السيدة زينب عند مدخل شارع الكومى الموصل للمدرسة السنية ، والمدرسة والسبيل والمكتب التى بناها السلطان محمود الأول ( ١١٦٤ هـ : ١٧٥٠ م ) فى شارع درب الجماميز فى مدخل حارة الحبانية أمام قنطرة سنقر . والبناءان فى قِمّة ما وصل اليه فن العمارة التركية البحتة من الاتقان

يُعلم مما تقدَّم أن الآثار العربية لم تهمل اثناء العصر العثمانى فى مصر ، بل عُنى بصيانتها وزِيد عليها بقدر ما تسمح به ثروة البلاد فى ذلك الحين . وإن ما أصاب الآثار العربية من الإهمال ( بل الإبادة ) لم يبتدئ إلاَّ منذ أوائل القرن الثالث عشر الهجرى ( التاسع عشر م ) عند ما استولت الحكومة على ريع الأوقاف التى كان يصرف منها على صيانتها ، وزاد الطين بلة ما ابتدأ بهِ ذلك العهدُ من اصلاح البلاد

متى اهملت
المبانى العربية

سبيل ومكتب خسرو باشا　( رسم على افندى يوسف )　سبيل ومكتب عبد الرحمن كتخدا

على النمط الأوربى ، إذ اقتضى ذلك انشاء شوارع مستقيمة بالقاهرة ، وغالى القائمون بهذا الإصلاح ، فهدّموا كثيراً من الآثار النفيسة لإيجاد فضاء للشوارع أو الميادين المراد انشاؤها . وأوضحُ مثال لذلك « شارع محمدعلى » فانهُ لم يتم انشاؤه إلاَّ بعد أن هُدّم لأجله الكثير من المبانى الأثرية الفاخرة : من ذلك جامع بديع كان بميدان «باب الخَرْق» تلهج كتب التاريخ بفخامته * وجامع «قوصون» (قَيْسون) ، وجامع أزبك موضع العتبة الخضراء ، وكان الأخيران من الجوامع الفخمة العظيمة

لجنة حفظ الآثار العربية

وربما كان الخطب أعظم لو لم تؤلف «لجنة حفظ الآثار العربية» ، ألّفها الخديوى توفيق باشا سنة ١٨٨١ م لمنع العبث بهذه الآثار والمحافظة عليها ، فكان لأعمالها اعظم ثمرة فى ذلك

## ٤ — ﴿ المماليك وأهل البلاد ﴾

عزلة المماليك عن المصريين

مماليك هذ االعصر ( كمن سبقهم من المماليك) لم يمتزجوا بالسكان الأصليين بل عاشوا مُتَرَفّعين فى مَعْزِل عنهم . وقليل منهم من تزوّج وكوّن له أُسرة ، إذ كان دَيْدَنهم الحروب والفروسية ، فلا يرضون بشىء يشغلهم عنها . ومعظمهم كان يموت فى ساحة الوغى وسنّه لا تتجاوز الخامسة والثلاثين . ومن عاش منهم عيشة هادئة ورضى بالزواج ( وهو النزر اليسير ) كان نسله يندمج على مدى الأيام فى المصريين

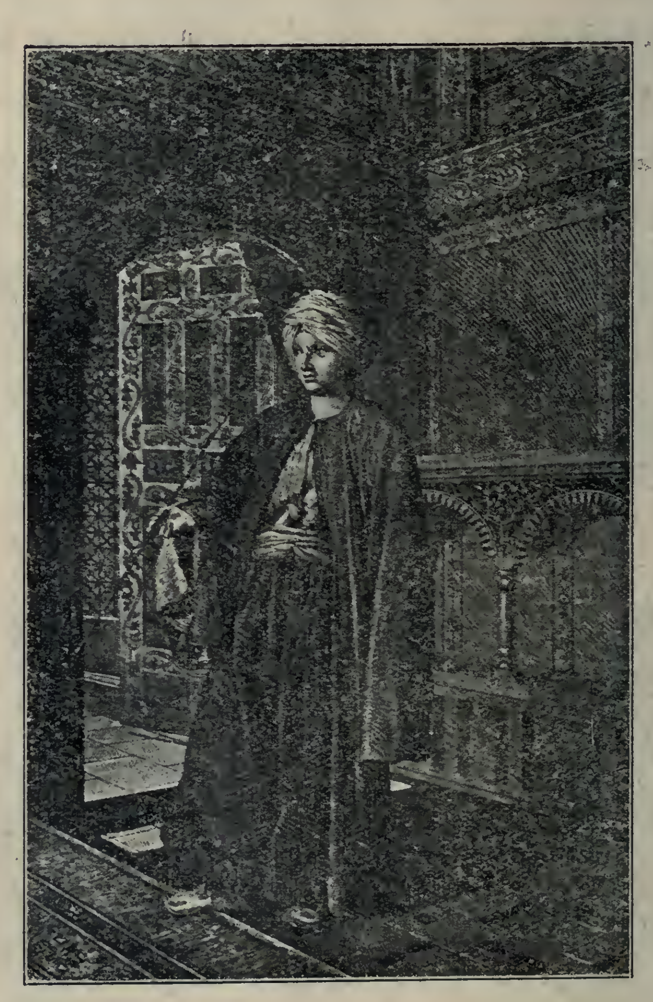
ترف المماليك

وقد غالى المماليك فى أواخر العصر العثمانى فى ابتزاز الأموال من الأهلين ، وانغمسوا فى الترف فى مسكنهم وملبسهم ومعيشتهم ، على غير عادتهم الأولى المبنية على الخشونة والسذاجة فى كل شىء ، وصارت حُلّة البيك منهم لا يقل ثمنها عمّا يعادل ٦٠٠ جنيه الآن ( مع عظم قيمة النقود فى تلك الأيام ) ، ولا يمتطون إلاَّ خيول « نجد » العربية الأصيلة التى يبلغ ثمن أحدها نحو ٣٠٠ جنيه

ولم يكن ذلك قاصراً على البيكوات أنفسهم ، بل ان مماليكهم الذين لم يرتقوا بعد

* هو جامع اسكندر باشا المتولى على مصر سنة ٩٦٣ هـ ، وهو غير اسكندر باشا الفقيه الجركسى الذى اتابه سنان باشا عند خروجه الى اليمن ، وسيأتى ذكره بعد

الى مراتب الرياسة كانت ركائبهم مزيّنــة بأفخر الحرائر، ومُرَقّشة من كل جانب بالذهب والفضة، على حين أن المصريين الأصليين لم يسمح لهم إلاّ بركوب البغال والحمير



شكل مملوك

( عن كتاب وصف مصر )

فقر الاهلين

وصار أهل البلاد هم العبيد الحقيقيين، و « المماليك » هم السادة . اذ استولى المماليك على جميع الأملاك الاَّ ما كان منها موقوفاً على الأعمال الخيرية فى وصاية

العلماء . وتشعثت حال الفلاح حتى صار رثًّا فى ملبسه ومسكنه ومأكله : لا يكاد يفيق من دفع ضريبة شرعية أو غير شرعية حتى يطالَب بدفع أخرى ، واذا امتنع عن الدفع ( فقراً أو ادّعاء ) ضُرب وعُذّب حتى يدفع ، وربما قُتل من أجل ذلك

اهمال الزراعة والصناعة

واختل الأمن فى تلك الأيام، وكثرت مناسر اللصوص وقطّاع الطرق، فتأخرت التجارة ، وأُهملت مرافق الزراعة ، وانقرض معظم الصناعات ، وكانت قد دخلت فى طور تقهقر بعد أن نقل السلطان سليم أمهر الصنّاع الى القسطنطينية ، فقضى الفقرُ واختلال الأمن على البقية الباقية منها

وفى أواخر القرن الثانى عشر هـ ( الثامن عشر م ) كان تكرير السكر لا يزال جاريًا فى بعض أنحاء البلاد ، وكذلك بقى أثر من صناعة الحرير والكَتان التى كانت لمصر فيها شهرة فائقة من قبل ، كما بقيت نماذج من صناعة الزجاج

كرم المماليك

على أن الذى لطّف هذه الحالة أنّ ما كان يُجبَى من البلاد كان يصرف فى نفس البلاد : فالثروة التى كانت ترِد متجزئة الى خزائن الأمراء وتتجمع فيها ، تُنفق بعدُ متجزئةً الى التجار من الأهلين بعد دفع الخراج ، الذى لم يكن كبيراً . ولم يكن ظلم المماليك وعسفهم ليمنعهم من الكرم وبذل الصدقات ، فكان كبار القوم يعيشون فى رخاء وسعة ، وكانت بيوتهم مفتّحة للقادمين فى الغداء والعشاء . وكانوا فى الأعياد يوزّعون كثيراً من الأرز والعسل واللبن على الفقراء والمساكين ، كما يوزعون عليهم الحلوى أيضاً فى أيام الجمعة والمواسم

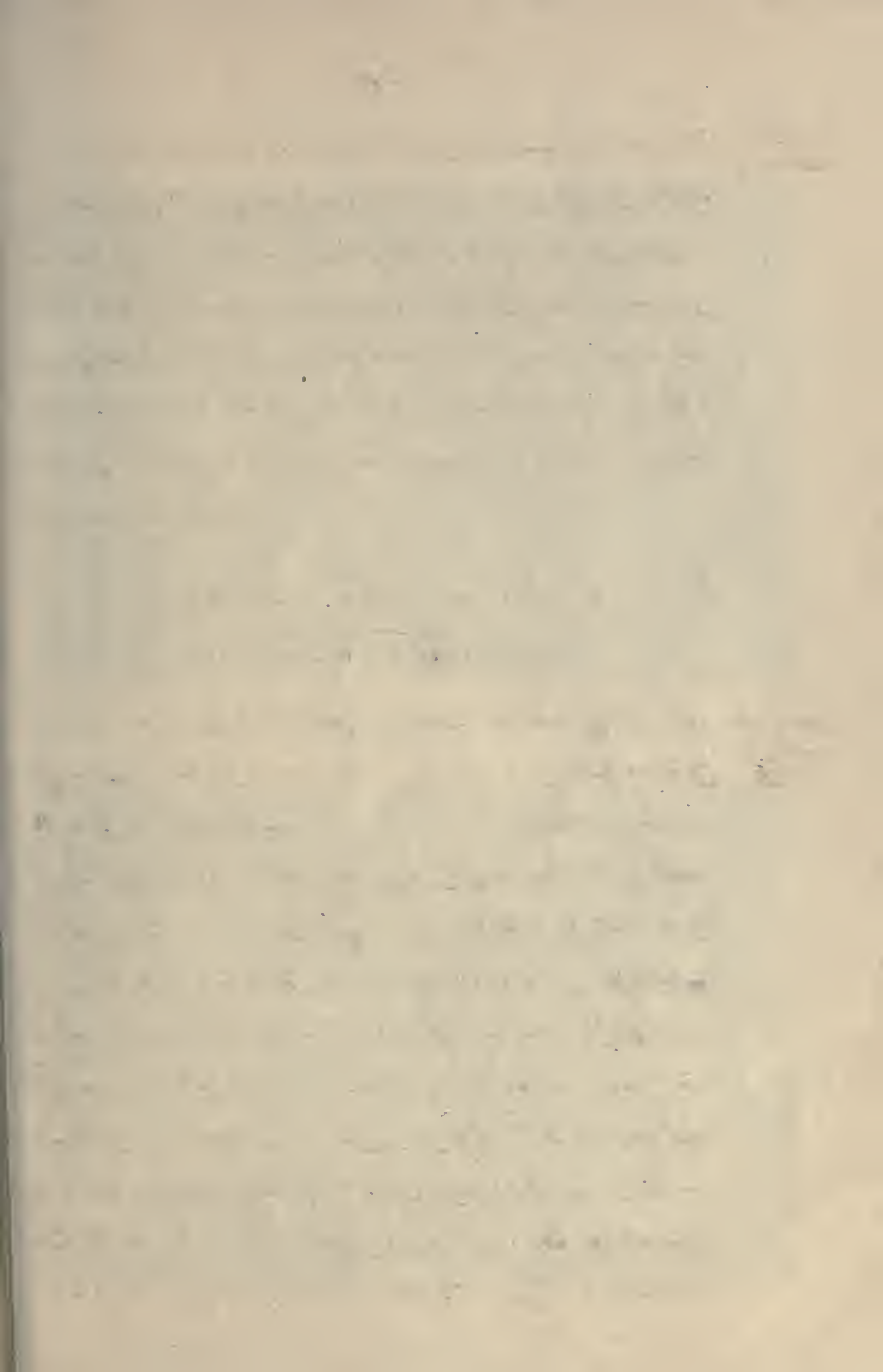
بعض الثراة من الاهلين

ولم يكن أُمراء المماليك وحدهم هم أصحاب القصور الفاخرة ، بل شاركهم فى ذلك كثير من التجار ، وكان من بين المنازل الكبيرة المطلة على بِركة الأزبكية ( حديقة الأزبكية الآن ) منزل لتاجر شهير يدعى «احمد الشرايبى» غاية فى الحسن . وكانت لهذه الاسرة ثروة طائلة ، وبيتهم يؤمه العلماء من كل جانب لاشتماله على كل ما يرغبه الطالب من الكتب ، التى كانوا يُعنَوْن بجمعها من كل سوق ، ولا يضنون على أحد باعارتها

# بقايا الصناعات المصرية (عن كتاب وصف مصر)

مصنع نسيج

مصنع زجاج



درجة تقدم العلم في ذلك العهد

وان اهتمام هذه الأسرة وأمثالها بجمع الكتب وتسهيل اعارتها يدلنا بعض الدلالة على مقدار إقبال الناس على العلم فى هذه الأيام . ويؤيد لنا ميل الناس الى الانقطاع الى طلب العلم ذكرُ ذلك العدد الكبير من أهل العلم والتأليف الذين عُنى «الجبرَتى» بكتابة تراجمهم : من مشايخ الأساتذة والعلماء ، والمؤرخين والشعراء ، وغيرهم ممن ليس لهم نظير فى زماننا . غير ان اشتغالهم كان قاصراً على مدارسة قواعد العلوم اللسانية والشرعية والرياضة النظرية . فلا هم تأثروا بالنهضة العلمية بأوربا ، ولا هم رجعوا الى النهضة العربية القديمة التى جعلت عصر الرشيد والأمين والمأمون من أزهر عصور العلوم العملية

## ٥ — ﴿ تجارة مصر وشواطئ البحر الأبيض ﴾
### وتأثرها بالاستكشافات البرتقالية فى افريقية

التجارة مصدر ثروة عظيمة للمماليك

كان سلاطين دولتى المماليك البحرية والبرجية فى سعة عظيمة من المال ، تدل عليها مبانيهم الشاهقة وآثارهم النفيسة . لأن موارد ثروتهم لم تكن بالطبع قاصرة على الزراعة التى هى أساس ثروة مصر الآن ، بل ان كثيراً منها كان من الضرائب المفروضة على التجارة الهندية العظيمة عند مرورها الى أوربا . وذلك انهُ قبل الاهتداء الى الطريق المؤدية من أوربا الى الهند حولَ جنوبى إفريقية لم يكن للتجارة الهندية مع أوربا الأَ طريق البحر الأبيض المتوسط : تُنقل البضائع براً من الخليج الفارسى أو البحر الأحمر الى اسكندرونة أو الاسكندرية على شاطئ البحر الأبيض ، ومنهما تنقل بطريق هذا البحر الى مدينة «البندقية» حيث توزّع فى أوربا . وسواء أنقلت البضائع بطريق الخليج الفارسى أم بطريق البحر الأحمر ( وهو الأغلب لموافقته ) تمرّ لا محالة من أراضى المماليك ، إذ هم المالكون فى ذلك الوقت لمصر والشام معاً . فانتفع المماليك بهـذه المزية أيّما انتفاع ، وضربوا مكوساً كبيرة على التجارة عند دخولها فى أملاكهم وعند خروجها منها ، فكان ذلك يأتيهم بدَخل لا يُستهان بهِ

جنوة والبندقية

وقد كان لمرور التجارة الهندية من هاتين الطريقين أكبر أثر فى ترويج تجارة البحر الأبيض المتوسط ، وعظمت بسببها ثروة الدولتين اللتين اشتهرتا بالملاحة فيه : وهما « جِنْوَة » و « البندقية » ، ولاسيما الأخيرة ، فان تجارها نالوا لدى المماليك حُظوة كبيرة وصلت بهم فى آخر الأمر الى احتكار نقل هذه التجارة العظيمة

مقدار المكوس

ولم يتفق المؤرخون على تفاصيل مقدار المكوس التى كان يجبيها المماليك من هذه التجارة ، ولكن المفهوم من تقدير معظمهم أنها لم تقلّ عن سدس ما تساويه البضاعة وقت وصولها الى حدود الأملاك المصرية ، وسدس ما تساويه أيضاً عند خروجها من موانيها. فاذا فرضنا أن أحد تجار العرب اشترى من الهند بضاعة بما يعادل ١٠٫٠٠٠ جنيه مثلاً ، وسلك طريق البحر الأحمر حتى رسا بها فى السويس ، أصبحت قيمتها بالطبع أعظم كثيراً مما اشتريت به من الموانى الهندية ، ولنفرض أنها صارت تساوى ١٨٫٠٠٠ جنيه مثلاً . فيكون ما يدفع عنها من المكوس حينئذٍ يعادل ١٨٫٠٠٠ × $\frac{1}{6}$ = ٣٫٠٠٠ جنيه . ثم يشتريها تاجر آخر فينقلها الى الاسكندرية ليبيعها الى أحد تجار البندقية ، فتزيد قيمتها بالطبع بقدر مادُفع عليها من المكس وأجر النقل وبقدر الربح الذى يريده التاجر الثانى ، ولنفرض أنها صارت تساوى ٣٠٫٠٠٠ جنيه . فتكون مكوسها بالاسكندرية تعادل ٣٠٫٠٠٠ × $\frac{1}{6}$ = ٥٫٠٠٠ جنيه . أى أن مجموع مادُفع عليها من المكوس يبلغ ٣٫٠٠٠ + ٥٫٠٠٠ = ٨٫٠٠٠ جنيه ؛ وذلك عدا ما يكون قد دُفع عنها لعمال الحكومة على سبيل الهدايا أو الرشوة : مما يقدّر بألف جنيه أو ألفين ، أى أن مجموع مادخل الأراضى المصرية من المال بسبب مرور هذه البضاعة فيها ( ١٠٫٠٠٠ جنيه تقريباً ) يقرب من الثمن الأصلى الذى دُفع عنها فى الهند. زِد على ذلك أن تجار العرب كانوا تحت رحمة المماليك ، يصادرونهم أحياناً ، ويقترضون منهم قهراً كلما احتاجوا الى المال . ومن ذلك تعلم السر فى بقاء دولتى المماليك البحرية والجراكسة على تلك الدرجة العظيمة من الثروة التى مكّنتهم من حفظ أبّهة المُلك وتشييد القصور الشاهقة والمبانى الفاخرة جيلاً بعد جيل

غيرة أوربا من البنادقة والمصريين

ولا يخفى أن البضاعة التى اشتراها تاجر البندقية من مصر بمقدار ٣٥،٠٠٠ جنيه كانت تباع فى أوربا بأبهظ الأسعار ، وربما بلغ ثمنها هنالك ٧٠،٠٠٠ جنيه. فاشتعل الحسد فى الممالك الأوربية الأخرى من هذه الأرباح العظيمة التى لا ينقطع تدفقها فى جيوب البنادقة والمصريين بسبب احتكار التجارة الهندية ، فدفعهم ذلك الى التفكير فى الاهتداء الى طريق أخرى توصل الى الهند ، حتى ينالهم شطرٌ من أرباح تلك التجارة العظيمة . وساعد على اثارة هذه الهمة قيامُ النهضة العلمية العامة التى ابتدأت فى أوربا بعد فتح القسطنطينية وولّدت فى تلك البلاد روح الاستطلاع والاستكشاف

النهضة العلمية باوربا

البرتقال ونهضتهم فى الاستكشاف

وأول من فكّر من الأوربيين فى البحث عن طريق أخرى الى الهند هم «البرتقال» وهم أمة تسكن الجزء الغربى من شبه جزيرة الأندلس : كانوا احدى الإمارات التى استولت عليهــا العرب فى الأندلس ، وانسلخوا عن حكمهم قبل إجلاء العرب من تلك البلاد ( فى سنة ٨٩٧ هـ : ١٤٩٢م ) بقرنين تقريباً . ومن ذلك الحين أخذوا يدافعون عن استقلالهم من غارات مملكة « قَشْتالة » ( كستيل ) المجاورة لهم ، حتى أمِنوا شرها بانتصارهم عليها فى واقعة « الجبَرُوتا » سنة ٧٨٧ هـ ( ١٣٨٥ م )

هنرى الملاح ومعاضدته للملاحة

وأول من فتح للأوربيين باب الاستكشاف المطّرد الأمير « هنرى » البرتقالى أحد ابناء الملك يوحنا الأول الذى أجلى العرب عن البرتقال واكمل استقلال تلك المملكة . وقد سُمّى « هنرى الملّاح » لأنه عميد المشجعين على الملاحة بين الأوربيين وأوّل حاضٍّ على التجويل فى البحار الذى أدّى الى كشف الطريق الى الهند حول إفريقية بل الى كشف العالم الجديد . ومع ما كان لأعماله من النتائج كان جُلّ مأربه العمل على إضعاف المسلمين وانتزاع تجارة بلاد غانة من يد العرب . ولمّا كان بلوغ ذلك لا يتأتى من طريق البر لوجود أواسط افريقية بأسرها فى حوزة العرب عوّل هنرى على انجازه بطريقِ البحر . ومن ثمّ ابتدأت بعوثهُ البحرية التى أخذ يرسلها سنة بعد أخرى لكشف الشاطئ الافريقى والوصول أخيراً الى بلاد غانة

شرع هنرى فى إرسال بعوثه عام ٨٢١ هـ ( ١٤١٨ م ) فكان تقدم ملّاحيه بطيئاً

جداً فى أول الأمر لاستيلاء الرعب عليهم مما علق بأذهانهم من أهوال بحر الظلمات (المحيط الأطلنطى) وجِنّته ووحوشه ، وأخيراً وصلوا الى ما وراء رأس « بوجادور » عام ١٤٣٤م ، فأخذت تلك الخرافات تتلاشى من ذلك الحين وصارت الكشفات على الشاطئ الافريقى يتلو بعضها بعضاً . فكُشف « الرأس الأبيض » (رأس بانْكو) سنة ١٤٤١م ، ومصب نهر السنغال عام ١٤٤٦م ، والرأس الأخضر عام ١٤٤٧ ؛ فتم لهنرى بذلك الاهتداء الى بلاد غانة

بلوغ الرأس الاخضر

ولم يحدث فى عهد هنرى بعـد ذلك كشوف هامة جديدة الا كشف جزائر الرأس الأخضر عام ١٤٦٠ م

ولم تقف حركة الاستكشاف بعد موت هنرى الملاّح ، فان تجارة غانة كانت قد أصبحت من أكبر موارد الحكومة البرتقالية ، فسهرت الحكومة على تنشيطها وعلى الاستمرار فى كشف الشاطئ الافريقى جنوباً . والظاهر أن فكرة البحث عن طريق الى الهند حول افريقية كانت قد تولّدت ، فبقيت الاستكشافات يتبع بعضها بعضاً حتى بلغ « بَرْتلُوميُودِياز » الملاّح البرتقالى الشهير الى طرف إفريقية الجنوبى ، وسار حوله حتى وصل الى خليج « ألْجوَا » سنة ٨٩١ هـ (١٤٨٦ م) . وسمّى هذا الطرف « رأس الزوابع » (لهول ما لاقاه فى السير حوله) ، ولكن ملك البرتقال أدرك قيمة هذا الكشف العظيم ، ورأى أنه فاتحـة خير لتحقيق أمنية دولته وهى الاهتداء الى طريق الهند ، وعمل على مواصلة هذه الاستكشافات

بلوغ دياز جنوبى افريقية

وفى هذه الأثناء كان المستكشف العظيم « خِرِسْتوف كُلُمب » قد خرج فى بعث بحرى أمدّه بهِ ملك الاسبان ، وسار به غرباً يأمل الوصول الى الهند من هذه الطريق الغربية اعتقاداً منهُ بكروية الأرض ، فوصل الى احدى جزائر الهند الغربية سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢ م) . فظن الناس أن هـذه جزء من بلاد الهند ، وأن « كلمب » قد كشف للاسبان طريقاً الى تلك البلاد أقصر وأسهل من الطريق الطويل الذى يعانى البرتقال كشفه . فوقفت الاستكشافات البرتقالية فترة من الزمن ، الى أن اتضح أن كلمب لم يهتد الى طريق الهند ذاتها ، وأن طريقه إن أدى اليها يكون أطول

كشف الدنيا الجديدة

استئناف الاستكشاف بقيادة فاسكو دى جاما

من الطريق حول افريقية . فرجع البرتقال الى مواصلة استكشافاتهم ، وفى سنة ٩٠١ هـ ( ١٤٩٦ م ) أرسل ملكهم « إمانويل » بعثاً لهذا الغرض برياسة الملاّح العظيم «فاسكودى جاما» ، فوصل الى رأس الزوابع الذى سماه تفاؤلاً «رأس الرجاء الصالح» وبعد ان كابد مصاعب جمة فى المسير حوله ، لشدة الرياح الجنوبية الشرقية ، سار ازاء شاطئ افريقية الشرقى

ومن ثَمّ شرع يسأل من الثغور التى يمر عليها عن الطريق المؤدية الى الهند ، فكان كلما حلّ بثغر وجده مسكوناً بالعرب . فكانوا يمتنعون عن ارشاده ، مخافة أن يجرّ عليهم ذلك منافسة تجارية لاطاقة لهم بها . و بعد أن أخفق سعيه فى «مُزَنبيق» و« كِلْوة »و« مَنْبَسة فاز فى« ملِنْدة» ، حيث أخذ ما يلزمه من الزاد ، واصطحب معهُ أحدَ الهنود العالمين حق العلم بالطريق الى «قاليقوط» ( على الشاطئ الغربى للهند ) . فبلغها « جاما » بهداية هذا الدليل فى ثلاثة وعشرين يوماً

وصوله الى قاليقوط



فاسكودى جاما فى حضرة الزامرين

ولم يرحّب بهِ فى بادئ الأمر ملكها الملقب «زامُرين»او « سامرى»(سيّد البحار ) ، بل زاد فى تنفيره منهُ تجار العرب فى تلك الجهات ، إذ أفهموه أن البرتقال ليسوا إلاّ

جاما والزامرين

لصوص بحر لا عمل لهم إلا النهب والسلب فى البحار . ولكن «جاما» ( أول مستعمر أوربى فى الشرق ) استعمل الملق والثبات ، وما زال بالزامرين يتملقـه ويشرح له غرضه حتى استماله ورغبه فى تبادل التجارة مع البرتقاليين ، وعقد معه معاهدة تجارية كانت بعد ذلك سبباً فى زوال ملكه

تأثير كشف الطريق الجديدة

بذلك تمّ للبرتقال كشف طريق جديدة للهند ، فكانت فاتحة لانقلاب عظيم فى تجارة العالم بأسره ، اذ أن نقل البضائع صار يُنفق عليه بهذه الطريق ثلث ما كان ينفق بالطريقة القديمة ، فوق متاعبها ومضايقها . فكانت النتيجة أن تحوّل مجرى هذه التجارة العظيمة من مصر والشام والبحر الأبيض المتوسط الى المحيط الاطلنطى حول شواطئ افريقية

اتحاد الغورى والبنادقة والزامرين على البرتقال

وقد وقع خبر كشف الطريق الجديدة وقوع الصواعق على مصر والأمم التجارية بالبحر الأبيض ، ولاسيما البنادقة ، لعلمهم ان فيه الضربة القاضية على أهم منابع ثروتهم. وكان البرتقال قد أخذوا فى توسيع نفوذهم فى بلاد الهند ، غير مكتفين بالعلائق التجارية بل استولوا بالسيف والمدافع على إمارة « قاليقوط » وجعلوها فى عداد مستعمراتهم

وذلك أن السلطان الغورى اتحد سراً مع البنادقة ومع ملك « قاليقوط » (الذى اتضح له سوء نية البرتقال ) على أن يعملوا معاً على نزع سيادة البرتقال من الشرق. فأنشأ الغورى أسطولاً عظيماً ، وساعده البنادقة بجلب الأخشاب اللازمة لبنائه ، فظهر الأسطول فى البحار الهندية والتقى بسفن البرتقال بالقرب من شواطئ بمباى ، فكانت الغلبة للمصريين ، وقتل ولد الوالى البرتقالى (ألميدا) بالهند فى تلك الموقعة . ولكن لم يلبث البرتقال أن جمعوا أسطولاً آخر ، وحاربوا المصريين فى موقعة

واقعة ديو

بحرية عظيمة بالقرب من جزيرة « ديُو » أمام بمباى سنة ٩١٥ هـ (١٥٠٩ م) انتصروا فيها على المصريين فى موقعة كانت هى الفاصلة فى أمر التجارة الهندية

فإنه لما خضعت مصر بعدُ للدولة العثمانية لم يصبح لها من الأمر شىء فى مكافحة البرتقال . ولما اشتدّ عبث البرتقال بسفن غيرهم ممن حاولوا الاتجار فى تلك البحار ،

بعث السلطان سليمان القانونى أحدَ ولاة مصر بأسطول لردعهم، فلم يفلح . والحق ان العثمانيين لم ينتهزوا الفرص المناسبة لمنازلة البرتقال والاستيلاء على الثروة الهائلة التى كان يجنيها المماليك من مرور تجارة الهند من مصر والشام . فكان الواجب عليهم أن يتحدوا مع البنادقة ( شركائهم فى هذه الخسارة ) ، ويستعينوا بهم فى القضاء على أساطيل البرتقال ، ولكنهم غفلوا عن ذلك ، بل كانوا هم القاضين على قوة البنادقة بحروبهم التى شنوها عليهم واستيلائهم على كثير من أملاكهم

تهاون العثمانيين

ومن ذلك الحين كثر التلصص فى البحر الأبيض ، فقضى على البقية الباقية من التجارة التى كانت تمر من هذا البحر

## ٦ — * أشهر الولاة وأهم الحوادث *

أول من ولّى العثمانيون على مصر من الولاة «خير بك» : ولاّه السلطان سليم مكافأة له على مساعدته فى فتح مصر والشام . وبقى فى منصب الولاية اكثر من خمس سنوات كان فيها مكروهًا من جميع الرعايا المسلمين . فقرّب منه اليهود والنصارى وأخذ بناصرهم ، فلم يغنِ ذلك عنه شيئًا . ولما ازداد كَرْبُهُ من الحياة أفرج عن كثير من مسجونى القاهرة ، ووزّع كثيراً من المال والخيرات على المساكين وخدم المعاهد الدينية . وقد أبدى أسفه الشديد وهو فى سياق الموت على ما فرط منه . ودُفن بمسجده الذى بناه بالتبانة بالقرب من باب الوزير بجهة الخير بكية المسماة بهذا الاسم نسبة اليه

خير بك

وخلفه « مصطفى باشا » زوج أخت السلطان سليمان القانونى . وهو أول من لقب بلقب باشا من ولاة مصر . وكان لايعرف العربية ، ولا يُظهر شيئًا من الحفاوة للوافدين عليه والمهنئين له من أهل البلاد

مصطفى باشا

ولم يمضِ عهد طويل بعد الفتح حتى ظهر فضل احتياط السلطان سليم لتقييد سلطة الوالى ، فان الوالى الثالث « احمد باشا » همّ بعمل ما كان يخشى منه ، إذ

احمد باشا ومحاولته الاستقلال بمصر

أراد الاستقلال بملك مصر ، فأمر بضرب السكة باسمه ، والدعاء له فى الخطبة . ولكنه لم يلبث أن قُبض عليه وأرسل رأسه الى القسطنطينية بعد أن عُلّق على باب زويلة

على أن تاريخ مصر فى القرنين الأولين من الفتح العثمانى ليس به شئ من الأخبار الممتعة ، ولا يشتمل غالباً على غير سلسلة من الولاة لا يكاد الواحد منهم يعيّن حتى يُعزَل ، منهم نفر قاموا بتشييد بعض المساجد والمدارس ، ومنهم من لم يشتغل بشئ سوى التزوّد من المال قبل أن تنقضى مدة ولايته . ومع ذلك كان ولاة القرن الأول وأكثر الثانى فى العدل وضبط الأمور خيراً ممن أتى بعدهم

سليمان باشا واصلاحاته

ومن أعظم الولاة العاملين فى ذلك العصر « سليمان باشا » : نُصّب على مصر سنة ٩٣١ هـ ( ١٥٢٥ م ) . فاهتم بالنظر فى أحوال البلاد وإصلاح ما فسد منها ، فعيّن مأموراً لمسح الأراضى ، ورتب الضرائب على أحسن نظام ، واستحدث دفاتر جديدة لأعمال الحكومة ، وشيّد كثيراً من المبانى النافعة . وفى مدة ولايته كثر تعدّى سفن البرتقال على بلاد البحر الأحمر وسواحل الهند حتى قُطعت المواصلات التجارية بين مصر وتلك الجهات . فاستغاث « درشاه » حاكم « كجرات » بالسلطان سليمان القانونى . فأصدر السلطان أمراً الى سليمان باشا بانشاء أسطول بالديار المصرية والخروج به الى البحر الأحمر لكسر شوكة البرتقال ، فجهز سليمان باشا الأسطول وشحنه بالجيوش

خروجه لمحاربة البرتقال

وأقلع به من السويس سنة ٩٤٤ هـ ( ١٥٣٨م ) . فاستولى على « عدن » ، ثم توجه الى بلاد الهند ، فالتحم مع البرتقال فى المياه الهندية فى موقعة عظيمة كان النصر فيها للبرتقال بالرغم مما بذله سليمان باشا من الجهد العظيم

انابة خسرو باشا

وكانت ولاية مصر قد أُسندت أثناء اشتغال سليمان باشا بأمر حملة الهند الى « خُسْرُو باشا » سنة ٩٤١ هـ ( ١٥٣٥م ) ، فأتمّ الإصلاحات التى بدأها سليمان باشا ثم زاد فى مقدار الجزية التى تُرسل للدولة ، فاستُدعى الى الاستانة مخافة أن يكون قد أحدث ضرائب جديدة تضر بالبلاد . ولما عاد سليمان باشا الى مصر تسلم مقاليد الأمور ثانية وبقى والياً عليها الى أن استدعى الى الاستانة وأُسند اليه مسند الصدارة العظمى بها

سنان باشا

ثم تتالت الولاة على مصر حتى وليها « سنان باشا » سنة ٩٧٥ هـ ( ١٥٦٧ م ) ، فأخذ يتصرف فى شؤون البلاد بحكمة وتدبر ، و بعد تسعة أشهر وردت عليه الأوامر السلطانية بأن يستعد لفتح بلاد اليمن واستخلاصها من « الزيديين [1] » فجهز جيشاً ، وخرج به من مصر سنة ٩٧٦ هـ ( ١٥٦٨ م ) بعد أن أناب عنه فى الولاية « اسكندر باشا [2] » . ولما عاد من فتح اليمن سنة ٩٧٩ هـ ( ١٥٧١ م ) تسلم ولاية مصر ثانية وأخذ يشيّد المبانى ، فأنشأ فى بولاق ( سنة ٩٧٩ هـ : ١٥٧١ م ) رباطاً ( تكية ) ومسجداً كبيراً لا يزال الى الآن من أعظم الآثار العثمانية بمصر ، وهو ثانى مسجد بُنى بها على الأشكال البوزنطية . وبقى سنان باشا بمصر سنتين كان أثناءهما موضع محبة الأهلين ، لكثرة اصلاحاته وعظم مبرّاته

خروجه لفتح اليمن

مسيح باشا

ومن أفضل الولاة الذين وُلّوا مصر بعده « مسيح باشا » ( ٩٨٢ - ٩٨٨ هـ : ١٥٧٤ - ١٥٨٠ م ) ، وكان من اكثر الحكام عفة واستقامة ، وأشدهم حرصاً على نشر الأمن وإقامة العدل . الاّ أنه تشدد فى معاقبة المفسدين ، فقتل منهم نحو عشرة آلاف . وشيَّد مدرسة وتربة له خارج القرافة بشارع نور الدين بعرب اليسار ، ووقف عليهما أوقافاً باسم الشيخ نور الدين القرافى

اضمحلال نفوذ الولاة

ثم أخذ نفوذ الولاة فى الاضمحلال ، لعجز الكثير منهم ، وقوة شوكة الجنود بالبلاد وتدخُّلهم فى كل شؤونها ، حتى صاروا هم الآمرين الناهين للولاة . فلما ولى « أُويس باشا » على مصر ( ٩٩٥ - ٩٩٩ هـ : ١٥٨٧ - ١٥٩١ م ) ، وأراد أن ينظم أولاد العرب من المصريين فى سلك الجيش ، اشتعل لهيب الفتنة بين الجنود ، ولم يقبلوا أن يتشبَّه بهم غيرُهم فى لباسهم ، وهجموا على أويس باشا وأهانوه ( ٩٩٧ هـ : ١٥٨٩ م ) ، فاضطر الى الإذعان لمطالبهم . ومما يجدر ذكره بمناسبة ولاية أويس باشا

ازدياد نفوذ الجند

---

(١) وهم قوم من شيعة زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على كرم الله وجهه . وهم جلة فرق جمهرتهم الآن باليمن ولهم فيها امام لا يزال خارجاً على الخلفاء من العرب أو الترك

(٢) اسمه اسكندر باشا الفقيه الجركسى ، وهو مسلم طبعاً

زلزال — أنهُ حدث فى عهده زِلزال عظيم سقط بهِ عدة منارات وبيوت ، وتفلّق جبل المقطم قرب اطفيح الى ثلاث فِلَق تفجر منها الماء

قره مصطفى يوطد السكينة — وما زال روح الفتنة ينتشر فى الجنود عاماً بعد عام ، ويشتد تطاولهم على الولاة ، حتى وُلّى « قره مصطفى باشا » سنة ١٠٣٢ هـ ( ١٦٢٢ م ) : وكان قوى البأس ساهراً على توطيد السكينة ، فأخذ يتجول بنفسه فى الأسواق ، وينظر فى الشكاوى والأسعار ، ويحكم فى الجنايات بنفسه ، فهابه الجند . وكان لأعماله وقع حسن فى القلوب، وعظُم فى أعين الناس . ولما جلس السلطان مراد الرابع على عرش آل عثمان سنة ١٠٣٢ هـ ( ١٦٢٣ م ) عزل هذا الوالى من مصر ونصّب مكانه « على باشا الجِشْنَجى » . فطلبت منهُ الأجناد الأعطية المعتاد توزيعها عند تولية الوالى الجديد ،

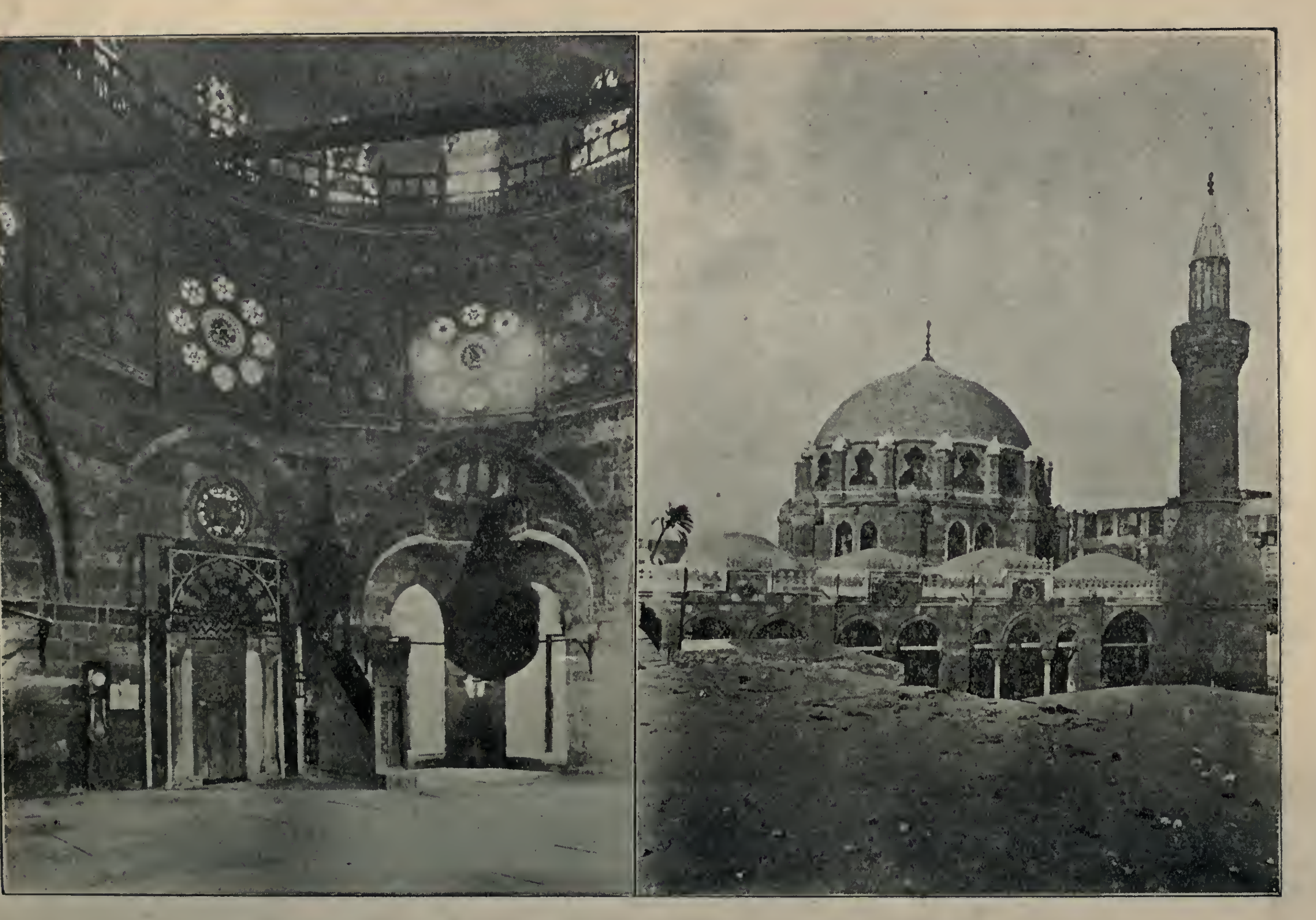
رفض الجند بديله — فلما لم يجب طِلبتهم لم يعترفوا بعزل قره مصطفى باشا ، واضطروا على باشا الى العودة من حيث أتى . وعند ماركب البحر أطلقوا على سفينته بعض القذائف من قلعة منار الاسكندرية *، فلم ينج إلا بصعوبة . ثم أرسل الجنود مندوباً منهم الى الاستانة ، فنال لهم أمراً سلطانياً ببقاء قره مصطفى باشا فى الولاية ، فعاد الباشا الى مصر سنة

وباء — ١٠٣٥ هـ ( ١٦٢٥ م ) . وفى عهده ظهر بالبلاد وباء شديد ، فصار يغتصب أموال المتوفَّينَ لنفسه كأنهُ الوارث للناس . فرُفعت فى حقه الظلامات لدار الخلافة ، فعزله السلطان ثم قُتل بعدُ بالقسطنطينية . ولقره مصطفى باشا من العمارات والمدارس التى شيّدها بمصر شيء كثير

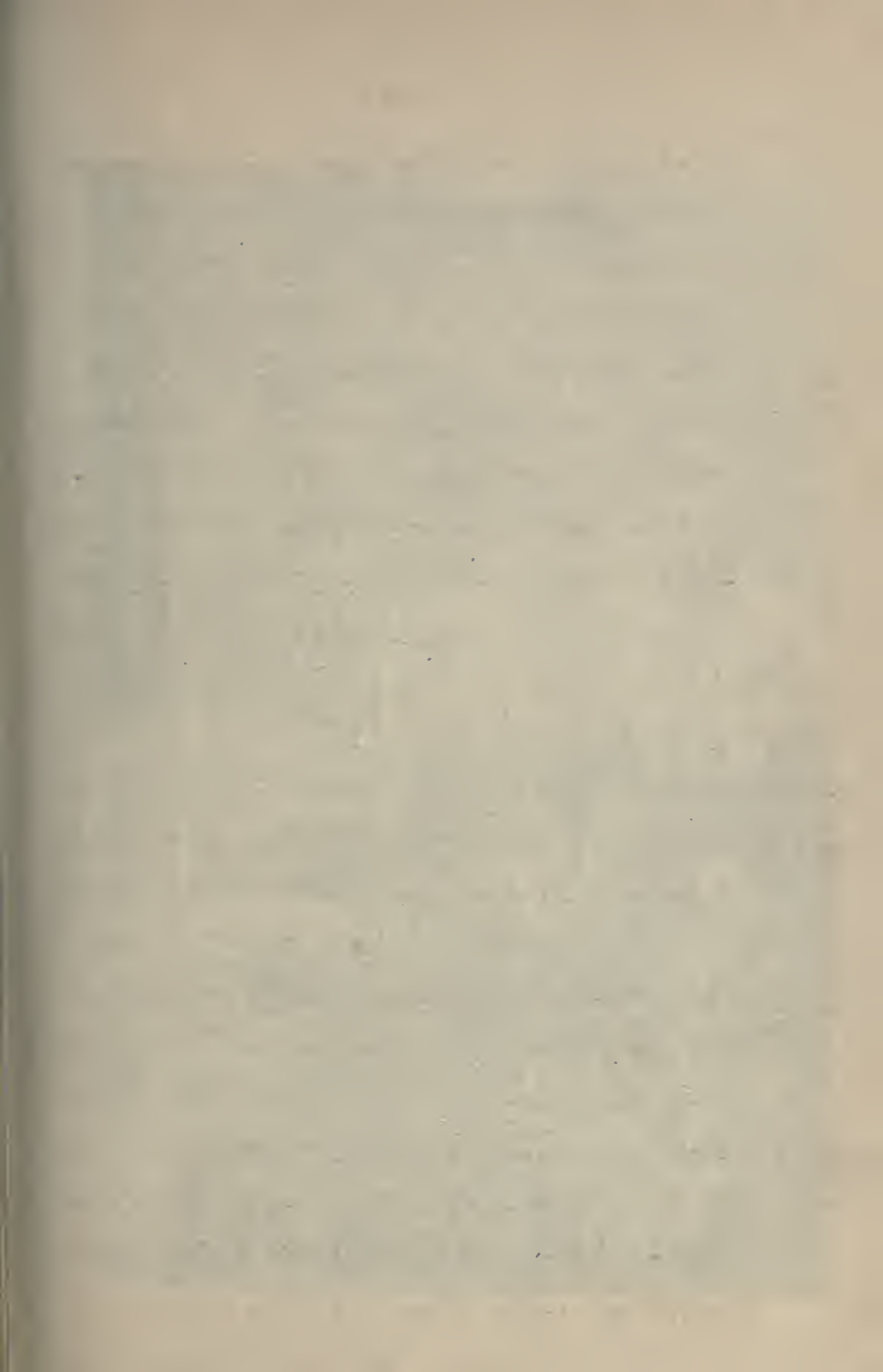
بعض أوبئة هذا العصر — ولم يكن الوباء الآنف الذكر الوحيدَ من نوعه فى هذا العصر ، بل حدث غيره طواعين كثيرة ، وكانت تصحبها غالباً المجاعات ( وتلك سُنّة معتادة فى التاريخ ) . ومن أوبئة هذه المدة طاعون حدث سنه ١٠١٢هـ ( ١٦٠٣ م ) فتك بكثير من القرى والأمصار ، وآخر تفشى بالبلاد سنة ١٠٢٨ هـ ( ١٦١٩ م ) فاشتد بطشه حتى أُقفلت الأسواق وتعطلت الأعمال . وفى سنة ١٠٣٠ هـ ( ١٦٢١ م ) حدث غلاء

---

* المسمى الان حصن قايتباى



(١) من الخارج (٢) من الداخل



عظيم أعقبه وباء آخر بقى يفتك بالبلاد نحو ثلاثة أشهر . ولم يكد يُنسى هذا حتى حدث سنة ١٠٣٥ هـ ( ١٦٢٥ م ) وباء أنكى من السالف . وأعظم من هذا كله وباء حدث سنة ١٠٥٢هـ ( ١٦٤٢ م ) لم يسمع بمثله من قبل ، كثرت فيه المُوتان حتى صارت الموتى تدفن بلا صلاة ، وخربت به ٢٣٠ قرية . وأعقبه قحط وغلاء

تضاعف نفوذ الجند

وفى هذه الأثناء كانت الجنود العثمانية بمصر دائبة على جمع السلطة فى قبضتهم ، حتى جعلوا الولاة أُلعُوبة فى أيديهم ، فعجزوا عن ردعهم وتأمين الرعايا شرَّ مفاسدهم . وصارت كل طائفة من الجند تأخذ فى حمايتها جملة من التجار أو المزارعين او الملاّحين فيقتسمون معهم الأرباح ، وفى نظير ذلك يحمونهم من أداء حقوق الحكومة . وما زالوا فى شغب على الولاة ، وهم معهم فى مكافحات ، حتى عظمت قوة البيكوات المماليك ، فقضوا على نفوذ الطائفتين

## ﴿ عودة النفوذ الى المماليك البيكوات ﴾

اسباب عودة النفوذ الى المماليك

أدّت كثرة تنقل ولاة العثمانيين الى عدم تأييد نفوذهم فى مصر ، والى استرجاع المماليك ( الراسخة قدمهم بالبلاد ) لكثير من قوتهم الأولى ، وساعد على نمو هذه القوة طول أمد النزاع بين الولاة والجند ، حتى اشتغل الطائفتان بمشاحّاتهم عن كل ما سواها

شيخ البلد

ومما ساعد المماليك على القبض عل السلطة تمهيدهم الطريق لاتحادهم ، باختيارهم زعيماً من بينهم وهو حاكم القاهرة ، المسمى إذ ذاك « شيخ البلد » . وكان المماليك قد تعودوا من قديم الزمان جلب مماليك أحداثٍ وتدريبهم ليكونوا لهم حاشية وانصاراً . فسمحت لهم الدولة بالسير على هذا النظام ، فأصبح لزعمائهم من ذلك قوة لم يعُد للوُلاة قِبلٌ بدفعها . وذلك ان المماليك الأحداث الذين يُشتَرَوْن بالمال كانوا يُحرَّرون عادة بعد بضعة أعوام ، فيبقون الحرمة لأسيادهم ، حتى اذا ولجوا أبواب الرق ، وصاروا أنفسهم بيكوات ، لا يألون جهداً في تلبية دعوة مواليهم الأولين متي

استمدوا منهم المعونة. فكان يكون لشيخ البلد دائمًا عصبيّة من مواليه وعتقاه البيكوات يعظم بها شأنه، وصار للماليك قوة لم يكتفوا باستخدامها فى عزل من أرادوا عزله من الولاة، بل أخذوا يطمحون الى التخلص من السيادة العثمانية جملة، وبخاصة عندما دخلت الدولة فى طور التقهقر وشُغلت بحروبها مع النمسا والروسيا، كما ذكرنا آنفًا

الولاة يدسون الدسائس بين المماليك القاسمية والفقارية

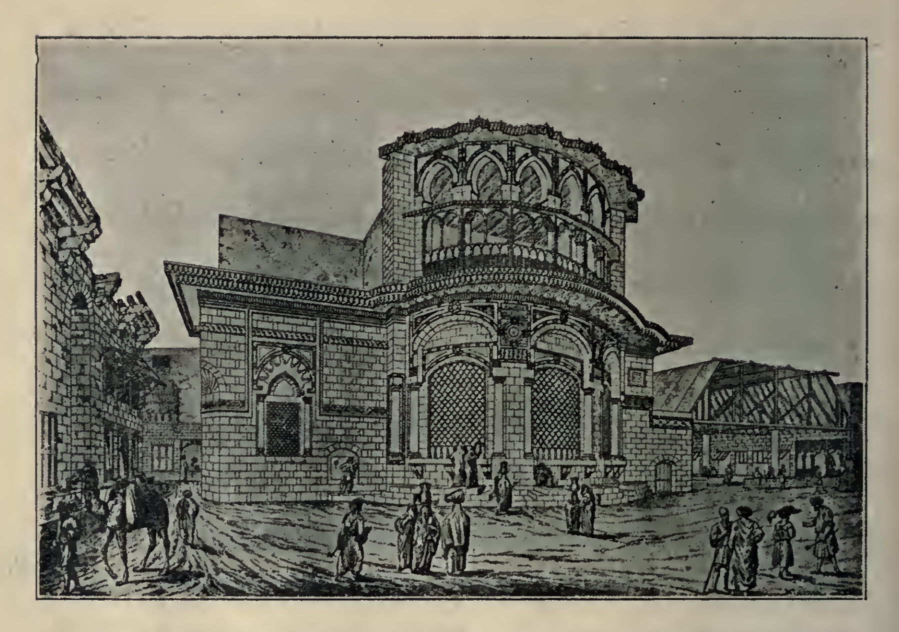
وتنبه بعض الولاة الى ما يرمى اليهِ المماليك، فعملوا على دسّ الدسائس بينهم، وتفريق كلمتهم. وكان المماليك منقسمين الى أحزاب (أعظمها «القاسمية»، و«الفقارية»*) ولم تَسلم الطائفتان من عداوة بينهما. فلما عُهد بولاية مصر الى «حسين باشا كتخدا» سعى فى تفريقهما، وتفاقمت العداوة بينهما حتى وصلت سنة ١١١٩ هـ (١٧٠٧م) الى حد أثار بين الفريقين حربًا استعرت نيرانها ثمانين يومًا. وقيل ان المتخاصمين كانوا أثناء هذه المدة يخرجون من القاهرة نهارًا للمحاربة. ثم يعودون اليها بالليل فيبيتون فيها كغيرهم من السكان

اسماعيل بك الكبير

وأسفرت هذه الفتنة الطويلة عن قتل شيخ البلد «قاسم بك ايواظ» زعيم القاسمية. فخلفهُ ابنه «اسماعيل بك»، فأصلح ما بين المماليك ووحّد كلمتهم، وصارت لشيخ البلد الكلمة العليا على الوالى. فعمل الوالى سرًّا على تحريض الفقاريين عليهِ الى أن قتله أحدهم «ذو الفقار»، فوهب له الوالى ثروة اسماعيل بك وأسند منصب شيخ البلد الى «جركس بك» بعد أن فتك بأتباع اسماعيل بك. ويعرف اسماعيل بك هذا باسماعيل بك الكبير، ومن آثاره بمصر سبيل ومكتب بجهة سوق العصر القديم بمدخل الداودية وحوش الشرقاوى كانا من أجمل مبانى ذلك العصر، وبقى منهما الآن جزء خَرِب

ثم استعان ذو الفقار بما آل اليهِ من الثروة فى شراء المماليك وتدريبهم حتى صارت له قوة كبيرة، فانتزع السلطة من جركس بك ووضع نفسه فى منصب شيخ البلد. ولكنهُ لم يلبث ان ثار عليه المماليك وقتلوه. فقبض أحد قواده «عثمان بك»

* نسبة الى زعيمين لهما، قاسم وذى الفقار



سبيل ومكتب اسماعيل بك الكبير ( أيام رونقهما )

على السلطة ، فصار شيخاً للبلد بعد أن انتقم لسيده شر انتقام

عثمان بك

وكان عثمان بك ذا مقدرة وبأس ، فعمل على توطيد السكينة وسهر على حفظ الأمن واقامة العدل ، فحسنت سيرته وأحبه الأهاون ، وبقى ذكره بعده زمناً طويلاً حتى أنهُ لما ثار عليه أعداؤه واضطروه الى الهروب من مصر صارت الناس تؤرخ حوادثهم بسنة خروجه، فكانوا يقولون : « هذا الأمر حدث بعد خروج عثمان بك بكذا من السنين ، ووُلد فلان فى سنة كذا من خروج عثمان بك »

ابراهيم بك ورضوان بك

وسبب فراره من مصر أن قوى فى عهده شأن حزبين من المماليك وهما : «الكردغلية» و «الجلفية» ، فاتفق «ابراهيم بك» زعيم الحزب الأول و «رضوان بك» زعيم الثانى على توحيد كلمة حزبيهما ، ونزع السلطة من عثمان بك ، وجعلها فى أيديهما معاً . وبعد نزاع طويل بينهما وبين عثمان بك ، تغلبا عليه ، ففرّ خوفاً منهما الى الشام

ثم اقتسما السلطة بينهما ، واتفقا على أن يشغلا منصبى شيخ البلد وأمير الحج بالتناوب سنة بعد أخرى . ولما رأى الولاة أن السلطة قد سُلبت من أيديهم ، عملوا

على النكاية بابرهيم بك ورضوان بك ، ودبروا لقتلهما مكايد لم يفلحوا فيها، إلاّ أن البلاد لم تهدأ من الفتن بعدُ ، وبقى أمراء المماليك فى هيج على أنفسهم

هكذا كانت حالة البلاد فى هذا العصر الأخير ، لايكاد يفارقها الخلل والفوضى تارة بثوران الجند ومكافحتهم للولاة ، وطوراً بتنازع المماليك مع الولاة مرة ومع أنفسهم أخرى . وما زالت الحال كذلك حتى قبض على أزِمّة الأمور أحد المماليك الأقوياء وهو «على بك الكبير» ، فكان ذلك ابتداء حوادث جديدة ذات شأن آخر

## ﴿ زوال ما كان للسلطان من القوّة والنفوذ فى مصر ﴾
## على يد على بك الكبير

نشأة على بك

كان « على بك الكبير * » فى أول نشأته مملوكاً لابراهيم بك السالف الذكر، فما زال يتقدم عندَهُ لذكائه ومقدرته ، حتى رقّاه الى رتبة «بك». ومن ذلك الحين أخذ « على بك » يعقد الآمال على أن يتقوى شيئاً فشيئاً حتى يصير يوماً ما شيخاً للبلد ، فقضى ثمانية أعوام فى شراء المماليك وتدريبهم ، ولم يدخر فى اثنائها وسعاً فى استجلاب مودة البيكوات الآخرين . وأخيراً تنبّه شيخ البلد « خليل بك » الى أفعاله ، ورأى أن يقضى عليه قبل أن يستفحل أمره ، فهجم عليه بجيوشه ، فلم يقوَ عليه على بك فاضطر الى الفرار الى الصعيد . وهنالك التقى بكثير من الساخطين على خليل بك ، فانضموا اليه وزحف الجميع على القاهرة ، فدخلوها بعد أن انتصروا على خليل بك وأتباعه فى عدة مواقع أظهر فيها على بك مقدرة كبيرة . وبذلك تمّ له أمر شياخة البلد سنة ١١٧٧ هـ (١٧٦٣ م)

توليه شياخة البلد

تألب المماليك عليه

وكان سيده ابراهيم بك قد مات قتلاً ، فلما تولى على بك شياخة البلد أمر بإعدام قاتله ، فلم يرق ذلك فى أعين بيكوات المماليك ، وتألبوا عليه وألجئوه الى الفرار الى بيت المقدس . ثم وشوا به الى السلطان ، فأمر بطلبه الى الاستانة . فاحتمى بأمير عكاء ، فسعى هذا له لدى البـاب العالى وأظهر براءته . فثبته السلطان فى منصب

السلطان يثبته فى منصبه

* سمي « الكبير » لكثرة انتصاراته

شيخ البلد ، فرجع الى القاهرة وتسلّم زمام الأمور بها مرة أخرى

أعماله

ولما استتب له الأمن سهر على اصلاح البلاد وتوطيد السكينة بها . ورأى أن يُكثر من أتباعه كى يأمن غوائل المستقبل . فرقى ثمانية عشر من المماليك الى رتبة البيكوية ، ليكونوا هم وحاشيتهم أنصاراً له اذا احتاج الى مساعدتهم

طمعه فى الاستقلال

ثم طمحت نفسه الى الاستقلال بمصر ، فشرع يعمل على ذلك سراً وينتهز له كل فرصة . ولما نشبت الحرب بين الدولة والروسيا فى سنة ١١٨٢ هـ ( ١٧٦٨ م )

محاولة الباب العالى قتله

طلب الباب العالى من مصر أن تمدّه باثنى عشر ألف مقاتل ، فاذعن على بك لمطالب الدولة ، وشرع فى جمع الجيش . ولكن الدولة شكّت فى إخلاصه ، واعتقدت أنه يجمع هذا الجيش لمساعدة الروسيا عليها لتساعده على الاستقلال بمصر ، فأرسلت بكتاب الى الوالى بمصر تأمره فيه بقتل على بك

تنفيره المماليك من الدولة

وكان لعلى بك عيون بالاستانة ، فبادروا بتبليغه الخبر قبل وصول الكتاب الى مصر ، فتربص لحامل الكتاب وقتله قبل أن يصل الى الوالى . ثم أعلن للمماليك أن الدولة أرسلت فى هذا الكتاب أمراً الى الوالى بذبح جميع المماليك . وكان «على بك» خطيباً مؤثراً ، فأثار حميّة المماليك ، ونفّرهم من الباب العالى وذكّرهم بمجد سلاطين المماليك الأقدمين ، وأن الدولة تريد القضاء على هذا المجد ، وعليهم أنفسهم . فأوقد النار فى قلوبهم ، وقرّ قرارهم على خلع الباشا وإخراجه من مصر فى الحال ، والدفاع عن استقلال البلاد . ثم أعلن استقلال مصر وامتنع عن دفع الجزية للباب العالى سنة ١١٨٣ هـ ( ١٧٦٩ م )

اعلانه الاستقلال

فتحه بلاد العرب

ولاشتغال الدولة بمحاربة الروسيا لم تقدر على الالتفات اليه ، فانتهز على بك هذه الفرصة لتوطيد ملكه بمصر . ثم أرسل جيشاً لفتح بلاد العرب . فاستولى على « جُدَّة » لتكون له مركزاً للتجارة الهندية وموضعاً يراقب منه ملاحة البحر الأحمر ولم يلبث أن أخضع باقى جزيرة العرب . وفى ذلك الحرمان الشريفان

غارته على الشام

ثم وجّه همتهُ لفتح الشام ، فأنفذ لذلك جيشاً بهِ ٣٠,٠٠٠ مقاتل بقيادة

« محمد بك أبى الذهب » ، فكان النصر حليفه واستولى على كثير من مدن الشام

ابو الذهب واتفاقه مع الدولة عليه

وعند ذلك اكبرَ « أبو الذهب » على سيّده هذا الملك العظيم ، فحسده . ورأى أيضاً ان الدولة ربما التفتت لمصر وأرجعتها الى سلطانها فيصبح على بك وأتباعه فى خطر، فخطب ودَّ الباب العالى واتفق معه على أن ينزع الملك من على بك ، ويقبض هو على زمام الأمور بمصر ، مع الخضوع للدولة . فقصد مصر بالجيش الذى كان معهُ

فتحه مصر

بالشام ، ولم يلبث ان استولى على البلاد ، وفرَّ على بك الى عكاء واحتمى بها كما

استنجاد على بك الروسيا

مرة أخرى . وهنالك وجد أسطولاً للروسيا ، ففاوضه بشأن تحالفه معها ، فأمدَّه الأسطول بالذخيرة والرجال ، وبذلك استرجع المدن السورية التى كان قد فتحها له أبو الذهب وعادت الى الدولة بعد رجوع أبى الذهب عن الشام

فشله فى حملته على مصر

ثم جاءتهُ الأخبار من مصر ان الناس فى استياء من حكم أبى الذهب ، وأنهم يودون قدومهُ لإنقاذهم منهُ . فخرج الى مصر بقوة صغيرة ، فانتصر أولاً على جيوش أبى الذهب بجهة الصالحية ، ثم دسّ هذا على رجال على بك من أوقع فى قلوبهم الفتنة ، فانقلبوا على « على بك » وخذلوه . فانهزمت جيوشه وأُخذ هو أسيراً الى القاهرة ، فمات بها بعد بضعة أيام بسبب الجراح التى أصابته وهو يدافع فى الواقعة الأخيرة دفاعاً شديداً . ومن أعماله تجديد قبة الامام الشافعىّ وإنشاء سوق ببولاق

ولاية أبى الذهب

وكافأ الباب العالى «أبا الذهب» على ذلك ، فمنحهُ لقب « باشا » وولّاه حكم مصر سنة ١١٨٦هـ ( ١٧٧٢م ) . فلم يتمتع بذلك ، اذ مات بعدها بعامين ، ودُفن بجامعه الذى شيده أمام الأزهر . وهو آخر جامع كبير أنشىء بمصر فى عهد العثمانيين

ابراهيم بك ومراد بك

عند ذلك قبض على أزمة الأمور اثنان من المماليك وهما : « ابراهيم بك » و« مراد بك » ، واتفقا على أن يتوليا شياخة البلد وإمارة الحج بالتناوب كما حدث بين رضوان بك وابراهيم بك من قبل . فوقع بينهما شىء من الاختلاف فى أول الأمر، ثم صلُح مابينهما وبقيا قابضين على مقاليد الأمور من ذلك الحين الى أن أغار الفرنسيون على البلاد سنة ١٢١٣ هـ ( ١٧٩٨ م ) ، ما عدا فترة ( من ١٧٨٦ الى ١٧٩٠ م ) عاد النفوذ فيها الى العثمانيين

عودة النفوذ للدولة

وذلك ان الدولة أرسلت حملة لتوطيد السكينة وإطفاء الفتن التى انتشرت فى البلاد فى أوائل حكم ابراهيم بك ومراد بك . فوصلت الحملة فى شهر يونية سنة ١٧٨٦م واستولت على القاهرة بعد قتال لم يقوَ فيه المماليك على مقاومة المدافع التركية ، ففر ابراهيم ومراد الى الصعيد

عودته لابرهيم ومراد

وعهد العثمانيون بشياخة البلد لأحد بيكوات المماليك المدعو « اسماعيل بك » وفى سنة ١٢٠٥ ﻫ (١٧٩٠ م) حدث بالبلاد وباء شديد اكتسح اسرة اسماعيل بك ، فعاد ابراهيم بك ومراد بك من الصعيد واستردا منصبهما ، وأخذا يحكمان البلاد بحزم لابأس به. الاّ أنهما اشتطّا فى ابتزاز أمول الناس، وخصوصاً التجار ، حتى الفرنج منهم . فكثرت شكاوى



مراد بك

( عن كتاب وصف مصر )

الغارة الفرنسية

هؤلاء الى دولهم ، مما لفت نظر اوربا الى مصر وجعله الفرنسيس ذريعة لإغارتهم عليها عام ١٢١٣ ﻫ ( ١٧٩٨ م )

## ملخص بأهم الحوادث التاريخية الواردة فى الباب الأول

| | هـ | م |
|---|---|---|
| ﴿ منشأ الدولة العثمانية ﴾ | ٦٢٧ — ٨٥٧ | ١٢٣٠ — ١٤٥٣ |
| أرطغرل | ٦٢٧ — ٦٨٠ | ١٢٣٠ — ١٢٨٨ |
| + حكم اللاتين بالقسطنطينية | ٦٠٠ — ٦٦٠ | ١٢٠٤ — ١٢٦١ |
| علاء الدين السلجوقى يمنح أرطغرل « اسكى شهر » | | |
| مولد عثمان فى اسكى شهر | ٦٥٦ | ١٢٥٨ |
| عثمان ( تحت امرة علاء الدين ) | ٦٨٠ — ٦٩٩ | ١٢٨٨ — ١٣٠٠ |
| يفتتح قره حصار وغيرها ـ يمنحه علاء الدين لقب بك | | |
| قضاء المغول على الدولة السلجوقية | ٦٩٩ | ١٣٠٠ |
| عثمان ( مستقلاً ) | ٦٩٩ — ٧٢٦ | ١٣٠٠ — ١٣٢٦ |
| فتح بروسة على يد ابنه ارخان | | |
| ارخان | ٧٢٦ — ٧٦١ | ١٣٢٦ — ١٣٥٩ |
| افتتاح نيقوميدية وازنيق | | |
| ٢٠ عاماً فى السلم وتثبيت دعائم الملك | | |
| انشاء طائفة الانكشارية | | |
| ظهور الموت الأسود | ٧٤٧ | ١٣٤٧ |
| مبدأ الفتوح العثمانية باوربا ( غاليبولى ) | ٧٥٨ | ١٣٥٧ |
| مراد الأول | ٧٦١ — ٧٩٢ | ١٣٥٩ — ١٣٨٩ |
| اخضاع معظم الروملى ( أدرنة — فلبة ) | | |
| تحالف ملوك البوسنة والصرب والمجر عليه وقهره اياهم عند « أدرنة » | ٧٦٥ | ١٣٦٣ |

+ اشارة تدل على ان الحوادث خاصة بالدول المسيحية المعاصرة للدولة

✿ اشارة تدل على أنها خاصة بمصر

| | هـ | م |
|---|---|---|
| اخضاع بلغاريا | ٧٩١ | ١٣٨٨ |
| انتصاره على امراء أوربا الشرقية فى واقعة قوصوة واخضاع الصرب | ٧٩٢ | ١٣٨٩ |
| (عدا فتوحه فى آسيا واندراج ٤ امارات تركية فى سلك الدولة العثمانية) | | |
| بايزيد الأول | ٧٩٢ — ٨٠٥ | ١٣٨٩ — ١٤٠٢ |
| اخضاع باقى الامارات التركية فى آسيا وكثير من مدن الروملى — توطيد أركان الدولة فى أوربا | | |
| تحالف المسيحيين على العثمانيين ثانية بقيادة سجسمند ملك المجر | | |
| قهر المسيحيين فى واقعة نيقوبوليس | ٧٩٩ | ١٣٩٦ |
| غزو جزء من اليونان (تساليا وابيروس) | | |
| قهر تيمورلنك لبايزيد وأخذه أسيراً فى أنقرة | ٨٠٥ | ١٤٠٢ |
| أربعة أولاد لبايزيد يتنازعون الملك | ٨٠٥ — ٨١٦ | ١٤٠٢ — ١٤١٣ |
| محمد الاول (المتغلب عليهم) | ٨١٦ — ٨٢٤ | ١٤١٣ — ١٤٢١ |
| لمّ شعث الدولة بعد تمزيقها فى واقعة انقرة | | |
| مراد الثانى | ٨٢٤ — ٨٥٥ | ١٤٢١ — ١٤٥١ |
| يعمل على مواصلة الفتوح العثمانية ـ يحاصر القسطنطينية | | |
| + توحيد الكنيستين (برومية والقسطنطينية) | ٨٤٣ | ١٤٣٩ |
| نهضة جديدة لاخراج الاتراك من أوربا | | |
| انتصار المسيحيين بقيادة هونياد ومعاهدة ازجدن | ٨٤٨ | ١٤٤٤ |
| يتنازل عن العرش | | |
| محمد الثانى ـ الاوربيون ينقضون العهد | | |

| | هـ | م |
|---|---|---|
| ويغيرون على أملاك الدولة بقيادة هونياد | | |
| مراد يرجع الى الملك ويهزمهم فى وارنة | ٨٤٨ | ١٤٤٤ |
| يتم اخضاع البوسنة والصرب | | |
| محمد الثانى | ٨٥٥ — ٨٨٦ | ١٤٥١ — ١٤٨١ |
| يتأهب لفتح القسطنطينية | | |
| ﴿ الدولة العثمانية فى أوج عظمتها ﴾ | ٨٥٧ — ٩٧٤ | ١٤٥٣ — ١٥٦٦ |
| محمد الثانى يفتح القسطنطينية ـ سقوط الدولة البوزنطية — ابتداء التاريخ الحديث | ٨٥٧ | ١٤٥٣ |
| اخضاع معظم المورة والصرب والبوسنة | | |
| وقوف اسكندر بك وهونياد فى سبيل فتح ايطاليا والمجر | | |
| هونياد يهزم السلطان عند بلغراد | ٨٦٠ | ١٤٥٦ |
| اخضاع البانيا | ٨٧١ | ١٤٦٧ |
| فتح طربزون واخضاع القرمان | | |
| اخضاع القرم | ٨٧٩ | ١٤٧٥ |
| قهر البنادقة وعقد محالفة معهم | ٨٨٢ | ١٤٧٧ |
| حصار رودس ( لم يفلح لحسن دفاع فرسان القديس يوحنا ) | ٨٨٥ | ١٤٨٠ |
| فتح اترنتو | ٨٨٥ | ١٤٨٠ |
| + وصول برتلوميوددياز الى طرف افريقية الجنوبى | ٨٩١ | ١٤٨٦ |
| + وصول خرستوف كلمب الى احدى جزائر الهند الغربية | ٨٩٧ | ١٤٩٢ |
| + وصول فاسكودى جاما الى قاليقوط | ٩٠١ | ١٤٩٦ |

| | هـ | م |
|---|---|---|
| بايزيد الثانى | ٩١٨ — ٨٨٦ | ١٥١٢—١٤٨١ |
| أضعف سلطان الى ذلك العهد ـ مكافحات مع أخيه جم | | |
| * انتصار المماليك على جيوشه فى الشام | | |
| زيادة قوة الاسطول العثمانى — انتصاره على البنادقة | | |
| * موقعة ديو | ٩١٥ | ١٥٠٩ |
| الانكشارية ترغمه على التنازل لاصغر أولاده سليم | ٩١٨ | ١٥١٢ |
| سليم الاول | ٩٢٦ — ٩١٨ | ١٥٢٠—١٥١٢ |
| تحويل تيار الفتوح الى آسيا | | |
| غزو فارس (الاستيلاء على ديار بكر وكردستان) | ٩٢٠ | ١٥١٤ |
| * فتح مصر (مواقع مرج دابق والريدانية ووردان) | ٩٢٣ — ٩٢٢ | ١٥١٧—١٥١٦ |
| تنازل الخليفة العباسى بمصر عن الخلافة للسلطان سليم | ٩٢٣ | ١٥١٧ |
| سليمان القانونى | ٩٧٤ — ٩٢٦ | ١٥٦٦—١٥٢٠ |
| ازهر عصر فى تاريخ آل عثمان — تقدم عظيم فى العلوم واتساع كبير فى أملاك الدولة | | |
| فتح بلغراد | ٩٢٧ | ١٥٢١ |
| فتح رودس (من فرسان القديس يوحنا) | ٩٢٨ | ١٥٢٢ |
| * تنصيب « سليمان باشا » والياً على مصر | ٩٣١ | ١٥٢٥ |
| غزو المجر — موقعة موهكز — قتل ملكهم وتولية سليمان « جان زابولى » عليها | ٩٣٢ | ١٥٢٦ |
| غزو المجر ثانية لاغارة ملك النمسا عليها — | | |

| | ه | م |
|---|---|---|
| الاغارة على النمسا وحصار ويانة | ٩٣٥ | ١٥٢٩ |
| عقد صلح مع النمسا على اقتسام المجر بين ملك النمسا وزابولى | ٩٤٠ | ١٥٣٣ |
| * انابة خسرو باشا عن سليمان باشا لاشتغال هذا بحملة بحرية على البرتقال | ٩٤١ | ١٥٣٥ |
| * خروج سليمان باشا بأسطول من مصر لصد البرتقال فى الشرق واستيلائه على عدن | ٩٤٤ | ١٥٣٨ |
| اغارة ملك النمسا ثانية على المجر وعودة السلطان الى غزوها | ٩٤٦ | ١٥٣٩ |
| اعتراف النمسا بسيادة السلطان على المجر وترنسلوانيا وتعهدها بدفع جزية سنوية له | | |
| فتح بغداد | | |
| تقدم القوة البحرية | | |
| استيلاء «خير الدين بربروس» على الجزائر وتنصيبه والياً عليها من قبل الباب العالى | ٩٢٦ | ١٥١٩ |
| قهره أساطيل شرلكان | ٩٤١ | ١٥٣٣ |
| قهره أساطيل شرلكان والبابا والبندقية فى موقعة بروزة | ٩٤٥ | ١٥٣٨ |
| صده شرلكان عن بلاد الجزائر | ٩٤٨ | ١٥٤١ |
| انتصار «بيالة باشا» على «دوريا» عند جزيرة جربة (تونس) | ٩٦٧ | ١٥٦٠ |
| «طرغود» يفتح المهدية عاصمة تونس | | |
| حصار مالطة وعدم مقدرة البحرية العثمانية على التغلب على فرسان القديس يوحنا | ٩٧٣ | ١٥٦٥ |

| | هـ | م |
|---|---|---|
| ( ابتداء اضمحلال الدولة العثمانية ) | ٩٧٤ — ١٠٤٩ | ١٥٦٦ — ١٦٤٠ |
| سليم الثانى (كان ضعيفاً لاهياً سكيراً ) | ٩٧٤ — ٩٨٢ | ١٥٦٦ — ١٥٧٤ |
| * تنصيب سنان باشا على مصر | ٩٧٥ | ١٥٦٧ |
| * فتحه بلاد اليمن | ٩٧٦ — ٩٧٩ | ١٥٦٨ — ١٥٧١ |
| انتزاع الترك جزيرة قبرس من البنادقة | ٩٧٩ | ١٥٧١ |
| اتحاد أوربا على الدولة وقهرها فى موقعة « ليبنتو » البحرية | ٩٧٩ | ١٥٧١ |
| مراد الثالث | ٩٨٢ — ١٠٠٣ | ١٥٧٤ — ١٥٩٥ |
| مسالمة البندقية | ٩٨٢ | ١٥٧٤ |
| * ولاية مسيح باشا على مصر | ٩٨٢ — ٩٨٨ | ١٥٧٤ — ١٥٨٠ |
| * خروج الجنود العثمانية على أويس باشا لتجنيده المصريين | ٩٩٧ | ١٥٨٩ |
| محمد الثالث | ١٠٠٣ — ١٠١٢ | ١٥٩٥ — ١٦٠٣ |
| انتصار العثمانيين بقيادة سيكالا على النمسا وترنسلوانيا فى سهل كرزت | ١٠٠٤ | ١٥٩٦ |
| * وباء فى مصر | ١٠١٢ | ١٦٠٣ |
| احمد الاول | ١٠١٢ — ١٠٢٦ | ١٦٠٣ — ١٦١٧ |
| استمرار الثورات العسكرية وابتداء ظهور النمسا على الدولة | | |
| * وباء آخر فى مصر | ١٠٢٨ | ١٦١٩ |
| * وباء آخر | ١٠٣٠ | ١٦٢١ |
| مراد الرابع (من أعظم سلاطين العثمانيين ) | ١٠٣٢ — ١٠٤٩ | ١٦٢٣ — ١٦٤٠ |
| يوطد العلائق مع النمسا ليوجه قواه الى الفرس | | |
| * تنصيب قره مصطفى على مصر | ١٠٣٢ | ١٦٢٣ |
| * صرفه بعلى باشا الجشنجى — تمرد الجند لذلك | | |

| | هـ | م |
|---|---|---|
| * اعادة قره مصطفى | ١٠٣٥ | ١٦٢٥ |
| * وباء شديد فى مصر | ١٠٣٥ | ١٦٢٦ |
| أعاد السلطان فتح أريوان | ١٠٤٥ | ١٦٣٥ |
| استرجع بغداد من الفرس | ١٠٤٨ | ١٦٣٨ |
| ﴿ عهد سلطة الوزراء — أُسرة كبريلى ﴾ | ١٠٤٩ — ١١٠٣ | ١٦٤٠ — ١٦٩١ |
| ابراهيم الاول | ١٠٤٩ — ١٠٥٨ | ١٦٤٠ — ١٦٤٨ |
| * وباء بمصر وغلاء | ١٠٥٢ | ١٦٤٢ |
| لم يفلح فى فتح جزيرة اقريطش | ١٠٥٥ | ١٦٤٥ |
| عزله وقتله | ١٠٥٨ | ١٦٤٨ |
| محمد الرابع ( ازدياد اضطراب الدولة ) | ١٠٥٨ — ١٠٩٩ | ١٦٤٨ — ١٦٨٨ |
| انهزام الاسطول التركى فى بحر الارخبيل | ١٠٥٩ | ١٦٤٩ |
| اسطول البنادقة يهدد القسطنطينية | ١٠٦٦ | ١٦٥٦ |
| نهوض الدولة على يد محمد كبريلى | ١٠٦٧ — ١٠٧٢ | ١٦٥٧ — ١٦٦١ |
| وزارة احمد كبريلى | ١٠٧٢ — ١٠٨٧ | ١٦٦١ — ١٦٧٦ |
| الاغارة على النمسا والمجر | ١٠٧٤ | ١٦٦٣ |
| انهزام الترك عند سنغوتار وعقد معاهدة فزفار | ١٠٧٥ | ١٦٦٤ |
| استيلاء الترك على اقريطش من البنادقة | ١٠٨٠ | ١٦٦٩ |
| + خروج القوزاق على بولندة وانهزامهم على يد جون سوبيسكى | ١٠٨١ | ١٦٧٠ |
| غزو الترك لبولندة وفتحهم كامنيك وتنازل بولندة لهم عن بادوليا واوكرين | ١٠٨٣ | ١٦٧٢ |
| رفض الشعب البولندى للمعاهدة وقهرهم الترك بقيادة جون سوبيسكى فى شكزم ولمبرغ | ١٠٨٤ — ١٠٨٦ | ١٦٧٣ — ١٦٧٥ |
| صلح زرانو بين الترك و بولندة | ١٠٨٧ | ١٦٧٦ |

| | هـ | م |
|---|---|---|
| وزارة قره مصطفى | ١٠٨٧—١٠٩٤ | ١٦٧٦—١٦٨٣ |
| تأهبه سراً للاغارة على النمسا بتوثيق صلاته بفرنسا والروسيا و بولندة منذ أول عهده | | |
| + خروج المجر على النمسا | ١٠٨٥—١٠٩٢ | ١٦٧٤—١٦٨١ |
| اغارة قره مصطفى على المجر | ١٠٩٤ | ١٦٨٣ |
| حصاره لمدينة فينا | ١٠٩٤ | ١٦٨٣ |
| فشل الحصار لنقض جون سوبيسكى العهد ومؤازرته لامبراطور النمسا | | |
| قتل قره مصطفى لفشله | | |
| عقد الحلف المقدس بين النمسا و بولندة والبندقية على الترك | ١٠٩٥ | ١٦٨٤ |
| خسائر متوالية للترك براً و بحراً | ١٠٩٧—١١٠٠ | ١٦٨٥—١٦٨٨ |
| سليمان الثانى | ١٠٩٨—١١٠٢ | ١٦٨٧—١٦٩١ |
| نهضة قصيرة على يد مصطفى كبريلى | ١٠٩٨—١١٠٣ | ١٦٨٧—١٦٩١ |
| موته فى موقعة سلانكمن | ١١٠٣ | ١٦٩١ |
| مصطفى الثانى | ١١٠٦—١١١٥ | ١٦٩٥—١٧٠٣ |
| انتصار الجيوش النمساوية على الترك فى واقعة زنتا | ١١٠٨ | ١٦٩٦ |
| معاهدة كارلوتز ( بين الترك والنمسا والروسيا وبولندة ) | ١١١٠ | ١٦٩٩ |
| **﴿ الدولة العثمانية فى القرن الثامن عشر م ﴾** | | |
| + نهضة الروسيا على يد بطرس الاكبر | ١١٠٠—١١٣٧ | ١٦٨٩—١٧٢٥ |
| استيلاء بطرس على أزاق | ١١٠٨ | ١٦٩٦ |
| احمد الثالث | ١١١٥—١١٤٣ | ١٧٠٣—١٧٣٠ |
| * تفاقم العداوة بين القاسمية والفقارية فى مصر | ١١١٩ | ١٧٠٧ |

| | هـ | م |
|---|---|---|
| انتصار الترك على الروس على نهر بروث وعقد معاهدة بروث | ١١٢٣ | ١٧١١ |
| استرجاع قومرجى على بلاد المورة من البنادقة | ١١٢٧ | ١٧١٥ |
| انهزامه فى المجر على يد الامير يوجين عند بيتروردن | ١١٢٨ | ١٧١٦ |
| معاهدة بساروتز | ١١٣٠ | ١٧١٨ |
| حرب الترك مع الفرس ( انتهت بجلاء الترك عن فارس ) | ١١٣٥ — ١١٤٨ | ١٧٢٢ — ١٧٣٥ |
| * قتل اسماعيل بك شيخ البلد وتولى جركس بك شياخة مصر | ١١٣٦ | ١٧٢٣ |
| انتهاز الروسيا فرصة اشتغال الترك بمحاربة الفرس وعقدها محالفة مع النمسا على الدولة | ١١٣٨ | ١٧٢٦ |
| * تولى عثمان بك شياخة البلد بمصر | ١١٤٢ | ١٧٣٠ |
| محمود الاول | ١١٤٣ — ١١٦٨ | ١٧٣٠ — ١٧٥٤ |
| اشهار الروس الحرب على الترك | ١١٤٨ | ١٧٣٥ |
| دخول النمسا فى الحرب وهزم الترك لها وللروسيا ومهادنة النمسا للترك على انفراد | ١١٤٩ | ١٧٣٧ |
| غيظ ميونخ ( قائد الروس ) وعمله على تحقيق المشروع الشرقى | | |
| هزمه جيوش الترك فى شكزم وعقد معاهدة بلغراد بين الترك والروسيا | ١١٥٢ | ١٧٣٩ |
| * اتفاق ابراهيم بك ورضوان بك على عثمان بك بمصر وطردهما اياه الى الشام واقتسام السلطة بينهما | ١١٥٦ | ١٧٤٣ |
| عثمان الثالث | ١١٦٨ - ١١٧١ | ١٧٥٤ - ١٧٥٧ |
| مصطفى الثالث | ١١٧١ - ١١٨٧ | ١٧٥٧ - ١٧٧٣ |
| + تولى كترين الثانية عرش الروسيا | ١١٧٦ | ١٧٦٣ |

| | هـ | م |
|---|---|---|
| * تولى على بك الكبير شياخة البلد بمصر | ١١٧٧ | ١٧٦٣ |
| اعلان الترك الحرب على الروس لتعديهم على خان القرم | ١١٨٢ | ١٧٦٨ |
| * الباب العالى يستنجد على بك فى حربه مع الروسيا | ١١٨٢ | ١٧٦٨ |
| * اعلان على بك الكبير استقلاله بمصر | ١١٨٣ | ١٧٦٩ |
| انتصار الروس على الترك بحراً عند جشمة | ١١٨٤ | ١٧٧٠ |
| * ارسال على بك الكبير محمداً «أبا الذهب» للاستيلاء على الشام | ١١٨٥ | ١٧٧١ |
| * اتفاق أبى الذهب مع الدولة وتوليته والياً على مصر من قبلها | ١١٨٦ | ١٧٧٢ |
| * وفاة على بك | ١١٨٧ | ١٧٧٣ |
| عبد الحميد الاول | ١١٨٧ — ١٢٠٣ | ١٧٧٣ — ١٧٨٩ |
| معاهدة كجوك قينارجة بين الروسيا والترك | ١١٨٨ | ١٧٧٤ |
| * وفاة أبى الذهب | ١١٨٩ | ١٧٧٥ |
| * اقتسام السلطة بين مراد بك وابراهيم بك | ١١٨٩ — ١٢٠١ | ١٧٧٥ — ١٧٨٦ |
| نقض كترين العهد وضم القرم اليها | ١١٩٧ | ١٧٨٣ |
| معاهدة القسطنطينية بين الروسيا والترك | ١١٩٨ | ١٧٨٤ |
| اعلان الترك الحرب على الروسيا لتعدد اهاناتها لهم | ١٢٠١ | ١٧٨٧ |
| * رجوع السلطة الى الباب العالى فى مصر | ١٢٠٠ — ١٢٠٥ | ١٧٨٦ — ١٧٩٠ |
| سليم الثالث | ١٢٠٣ — ١٢٢٢ | ١٧٨٩ — ١٨٠٧ |
| استيلاء الروس بقيادة سوفاروف على اوخاكوف واسماعيل | ١٢٠٥ | ١٧٩٠ |
| توسط انجلترة وغيرها فى ابرام معاهدة ياسى بين الروسيا والترك | ١٢٠٦ | ١٧٩٢ |
| * رجوع السلطة فى مصر الى مراد بك وابراهيم بك | ١٢٠٥ — ١٢١٣ | ١٧٩٠ — ١٧٩٨ |
| غارة الفرنسيس على مصر | ١٢١٣ | ١٧٩٨ |

# الباب الثانى

## تاريخ مصر
## من الحملة الفرنسية الى انتهاء عهد محمد على

---

# الفصل الأول

## الحملة الفرنسية على مصر

( ١٢١٢ - ١٢١٦ هـ : ١٧٩٨ - ١٨٠١ م )

حالة مصر قبيل الحملة

قضت مصر تحت حكم ولاة العثمانيين وأجنادهم والمماليك نحو ثلاثة قرون عانت فيها من أنواع الظلم وسوء الإدارة ما أضعف تجارتها وجعلها فى معزل عن بقية العالم، فأصبحت لاتدرى شيئاً عن قوى الدول الأوربية وأطماعها، أو علاقة بعضها ببعض. وقد كان يقيم بمصر فى ذلك الحين كثير من جالية الفرنسيين والانجليز ، ولكن المصريين لم ينتفعوا بإقامتهم بينهم ، بل اكتفوا بالنظر اليهم بعين الازدراء والمقت، ظناً منهم أن دولهم ما زالت على الضعف الذى سمعوه عنهم أيام الحروب الصليبية، وفاتهم أن الزمن قد تغيّر ، وأن أوربا أصبحت على مبلغ من القوة وسعة العلم وعظم الدراية بالفنون الحربية بحيث لايمكن مصادمته الآ بمثله

قوة فرنسا

وكانت دولة فرنسا قد قويت شوكتها بين دول أوربا ، وظهر فيها فى أواخر القرن الثامن عشر ( من التاريخ الميلادى ) قائد حربى عظيم أخذ يتغلب على ممالك

أوربا ، وبات كثير من دولها فى خوف منه : ذلك هوالبطل الشهير «نابليون بونا بَرْت»

وفى أواخر سنة ١٢١٢ هـ ( ١٧٩٨ م ) جرَّد « نابليون » هذا حملة على مصر فامتلكها، ودخلت البلاد من ذلك الحين فى طور يُعتبر ابتداؤه مبدأ تاريخها الحديث . نعم لم يلبث الفرنسيون بمصر اكثر من ثلاث سنوات ، ولكن فتحهم لها كان الحلقة الأولى من سلسلة حوادث ، لعبت أوربا أهم أدوارها ، وأفضت عاقبتها الى المركز الاجتماعى والسياسى الذى تشغله مصر الآن

متى فكر فى الحملة

ولم تكن الحملة الفرنسية على مصر فجائية أو من خواطر اللحظات ، بل ان «ليبنتز» أحد نصحاء لويس الرابع عشر ألحَّ عليه سنة ١٦٧٢ بوجوب غزو مصر ، و بيَّن له أن امتلاكها يجعل فرنسا سيدة العالم . وقد رأى ذلك غيره من وزراء فرنسا بعده ، ولكن فرنسا لم تخط خطوة فى هذا السبيل الاَّ فى عهد « نابليون »

على أن نابليون نفسه لم يقدم على هذه الحملة الاَّ بعد تفكير طويل : فاستشار فيها العلماء ، وقرأ لأجلها الكتب ، وبعدئذ عرض اقتراحه على هيئة الحكومة الفرنسية مع ايضاح طويل

اسباب الحملة

أما أهم الأسباب التى حدت بنابليون الى الاقدام على هذه الحملة واقتنعت بها الحكومة الفرنسية فهى : أولاً – رغبته فى زيادة نفوذ فرنسا فى البحر الأبيض المتوسط وضم وادى النيل اليها ، لما فيه من الخيرات الكثيرة التى تغنى فرنسا عن كثير من المستعمرات البعيدة ، ولما له من المكانة التجارية العظمى . وثانيا – تمهيد الطريق لقهر الانجليز بطردهم من الهند واستيلاء الفرنسيين عليها ، لأن مصر هى مفتاح الطريق الى تلك البلاد . وفى الحقيقة كانت لنابليون أطماع كبيرة فى الشرق بأسره ، وكانت نفسه تتوق الى أن يأتى فيه بمثل ما أتاه الاسكندر من قبل*

كل هذه الاعتبارات ، الى ما عسى أن يكون قد نال الفرنسيين المقيمين بمصر

* ووافقت الحكومة الفرنسية أخيراً على تجريد الحملة لانها أخذت تخشى سطوته بعد انتصاراته فى اوربا



نابليون بونابرت

من عسف المماليك وظلمهم ، جعلت فرنسا تُقدم على تجريد تلك الحملة مع ما فيها من

تدبير الحملة

المبادأة بالعدوان لسلطان آل عثمان الذى كان صديقها فى ذلك الحين

ورأت الحكومة الفرنسية أن يكون إعداد هذه الحملة بغاية التستّر والتكتم ، كى لا يعلم بمسيرها أحد وخاصة انجلترة أشد أعداء فرنسا فى ذلك الحين . فسهر « نابليون » على إعداد ما يلزم لها من الجند والسفن الحربية والمراكب النقالة ، فجهز

لها نحو ٤٠ الف مقاتل ، عليهم ضباط من نخبة قواد فرنسا : مثل « كليبَر » و « ديزيه » و « مينو » و « مورات » . وأعدّ لهـا أسطولاً كبيراً جعل على رأسه القائد العظيم « برُوِى » ، وسلّحه بالكثير من المدافع والذخيرة . واصطحب معهُ كذلك مَن لايقلون عن مائة رجل من أعظم علماء فرنسا : جمعهم من أكبر اساتذة كل علم وفن ، وجهزهم بكثير الكتب والآلات العلمية ، مما رأى أن يكون له فائدة فى الاستكشاف عن حال مصر خاصةً والشرق عامة ، ومن أهم ماعنى باحضاره معهم مطبعة عربية كان للحملة منها فوائد كبرى

خروج الحملة من فرنسا

وفى اليوم الثانى من ذى الحجة سنة ١٢١٢ هـ ( ٩ مايو سنة ١٧٩٨ م ) أقلع نابليون بهذه القوة من ميناء طولون ، وانضمت اليهـا بعض المراكب من الجهات الأخرى ، وقصد جزيرة مالطة ، فاستولى عليها بلا عناء ، وكانت اذ ذاك فى يد « فرسان القديس يوحنا » وترك أحد قواده حاكماً عليها ، ثم غادرها

وكان إعداد هذه الحملة قد تمّ وعلمه بعض الدول ، غير أنه لم يعلم بمقصدها أحد

بحث نلسن عن الاسطول الفرنسى

وأوجست انجلترة منها خيفة ، وظنت انها ربما تقصد شواطى « إرلندة » رجاء الإغارة على الجزائر البرطانية ، فعهدت البحرية الانجليزية الى « نِلسُن » أمير البحر الانجليزى العظيم بأن يقتفى أثر هذا الأسطول الفرنسى ، وأن يلحق بهِ كل ما أمكنهُ من الضرر ، فتلقى « نلسن » هذه التعليمات ، ولكنهُ لم يبحث عن نابليون غربى البحر الأبيض حيث يُنتظر وجوده لو كانت وجهته الحقيقية ارلندة ، بل أدّاه ذكاؤه الفطرى أن يقصد « مالطة » . فلما وصلها وجد أن نابليون قد غادرها بجيشه منذ خمسة أيام ، وأنه سار شرقاً . فأدرك أن وجهة نابليون لابد أن تكون مصر ، ورأى أن يتبعه اليها . وبالفعل وصل بأسطوله الانجليزى الى الاسكندرية يوم ٨ المحرم سنة ١٢١٣ هـ ( ٢١ يونية سنة ١٧٩٨م ) ، فلم يعثر للفرنسيين فيها على أثر . فبعث وفداً الى حاكم المدينة « السيد محمد كريم » ( وكان مصرى الجنس ) يستفسر منه عن قدوم أسطول فرنسى الى البلاد المصرية . فراع أهل المدينة رؤية الأسطول



نلسن

الانجليزى ، وأوجسوا منهُ خيفة ، اذ لم يكن لهم علم بعزم الفرنسيين على غزو بلادهم .
وحاروا أيضاً فى أمر استعلام الانجليز عن مجئ الأسطول الفرنسى ، فلم يعرفوا لاهتمامهم
هذا علة . وذلك يدلك على الدرجة التى وصلت اليها مصر فى تلك الأيام من قِصَر
النظر وقلة الدراية بأخبار العالم والتنافس الحاصل بين ممالكه . فأكّد رجال « نلسن »
للحاكم أن الأسطول الانجليزى ما أتى الى هذه البلاد الاَّ ليدفع عنها الأسطول
الفرنسى ، وأن غاية مايبغيه الانجليز أن يسمح لهم بانتظار الأسطول الفرنسى خارج
الميناء ، وأن يشتروا من المدينة بالمال ما يحتاجون اليـه من الزاد . فلم يقتنع السيد

نلسن بالاسكندرية

محمد كريم بحسن نيّة الانجليز ، وامتنع عن اجابة ملتمسهم ، وأجابهم بصراحة (ما كانت لتغنى عنه شيئاً لو قصد الانجليز بالبلاد سوءاً) إذ قال : «ان مصر بلاد السلطان . وليس للفرنسيين أو سواهم شيء فيها ، فاذهبوا أنتم عنا »

ولما كان هم نلسن منصرفاً الى مطاردة الأسطول الفرنسى ، لم يرَ داعياً الى استعمال القوة فى الاسكندرية وأقلع عنها مؤقتاً ليتجوّل قليلاً فى البحر الأبيض المتوسط ويأخذ من بعض جزائره ما يحتاج اليه من الزاد

وصول الحملة الى مصر

ومضى اسبوع بعد اقلاع العمارة الانجليزية ولم يظهر فى المياه المصرية أحد من الأعداء ، فهدأ روع الناس بالاسكندرية والقاهرة . وبينا هم كذلك اذا بالعمارة الفرنسية العظيمة قد لاحت أمام الثغر الاسكندرى ، فعاد الفزع وزاد على ما كان ، وبعث حاكم المدينة بالرسل الى القاهرة على جناح السرعة ، يستنجد مراد بك وابراهيم بك ، ويصف لهما حرج الحالة وهول العمارة الفرنسية ، وقال عنها انها « لا يُعرف أولها من آخرها » .

تدابير المماليك

فلما وصل الخبر الى مراد بك أسرع الى مقابلة ابراهيم بك بمنزله ( مستشفى قصر العينى الآن ) ، فبادر الى عقد جمعية عمومية من كبراء البلاد ، ليتداولوا فيما يجب عمله لصد الأعداء . فاجتمعت الجمعية تواً من كبار المماليك والعلماء ، وحضرها « بكر باشا » والى السلطان بمصر * . وبعد أن تباحثوا فى الأمر قرّ قرارهم على أن يسير مراد بك الى الاسكندرية لصد الأعداء ، وأن يبقى ابراهيم بك بالقاهرة للدفاع عنها لو اقتضى الأمر ذلك

---

* كانت السطوة الحقيقية فى هذه الايام للمماليك . ولكن لما كان هؤلاء يعلمون انهم أجانب عن البلاد ، بعيدون عن أهلها فى الشعور والعادات ، خشوا ازدياد الجفاء بينهم ، وعملوا على اكتساب مودة العلماء ليحببوا فيهم الاهليين ، فكانوا يشاورونهم فى الامر ، ويصغون لرغباتهم ، حتى صار للعلماء قول مستمع فى ادارة شؤون الحكومة

أما الوالى فلم يكد يكون له من الامر شيء سوى تسلم الجزية وارسالها الى السلطان . وكان المماليك دائما يرتابون فى اخلاصه لهم ويخشون دسائسه لدى الباب العالى ، حتى ان « مراد بك » قال لبكر باشا فى هذا الاجتماع الذى نحن بصدده : « ان الفرنسيس ما قدموا الى هذه البلاد الا برضاء الباب العالى ، ان لم يكن بايعاز منه »

نزول الفرنسيس بالاسكندرية

هذا ما كان من أمر المماليك . أما العمارة الفرنسية فانها وصلت أمام الاسكندرية في اليوم الثامن عشر من المحرم ( أول يوليه ) . وعند ذلك أرسلت زورقاً الى الميناء يطلب القنصل الفرنسى ، فتردد « السيد محمد كريم » أولاً فى تسليمه ، ثم أذن له بالذهاب . فعلم منه نابليون ما كان من أمر العمارة الانجليزية وما يعدّه المماليك للدفاع عن البلاد . فأقرّ على انزال جيشه الى البرّ فى الحال ، واختار لذلك نقطةً غربى الاسكندرية بنحو ثلاثة أميال (العجمى الآن) ، فسار بأسطوله اليها وشرع فى انزال رجاله وعدده ليلاً بكل سرعة ، فتم له ذلك من غير أن يعترضه أحد . وبعد أن استراح برهة على الرمال جرد قسماً من جيشه وسار على الأقدام قاصداً الاسكندرية. فقابلتهم قُبيل الفجر بعض فصائل من عرب « أولاد على » ، تبادلوا معهم بعض الطلقات ، ثم فروا مَذعورين ، فاستمر الجيش فى المسير نحو الاسكندرية ، حتى صار على مقربة من أسوارها

مهاجمة اسوار الاسكندرية

فقابلتهم حامية المدينة بما لديها من وسائل الدفاع . فقسم نابليون رجاله الى ثلاثة أقسام وهاجم بهم الأسوار هجوماً عاماً من اليمين واليسار والقلب ، فدخلوا المدينة عنوة ، وانسحب الحاكم ورجاله الى قلعة « فاروس » فى طرف الميناء الشرقية ( قايتباى الآن ) . ولما دخل الفرنسيون المدينة مخترقين شوارعها الضيقة ، أمطرهم الأهلون من نوافذ المنازل وابلاًمن المقذوفات ، فقابلهم الفاتحون بأشد منها ، وكادوا يفتكون بالعباد فتكاً ذريعاً ، لولا ان أرسل نابليون رسولاً الى الاسكندريين ، يؤمّنهم على أموالهم وأرواحهم ودينهم وتقاليدهم ، وأخبرهم بأن فرنسا لاتقصد سوءاً إلاّ بالمماليك ، وانها تحرص على مودّة الأهلين وودّ سلطانهم الأعظم . فهدأ الناس حقناً للدماء ، واستسلم اليهِ السيد محمد كريم ، لقلة ما بقى معه من الذخيرة . فأكرم نابليون مثواه ، وقال له : « قد أخضعتك بالقوة ولى أن أعاملك معاملة الأسير ، ولكن نظراً لما أبديتَه من الشجاعة ، ولأن الشجاعة حليفة الشرف ، أردّ اليك سيفك ، أملاً ان تُخلص للجمهورية الفرنسية بقدر ما أخلصت لتلك الحكومة العثمانية » .

فأعرب السيد محمد كريم عن رغبته فى خدمة الجمهورية ، وأبقاه نابليون فى منصبه تحت اشراف « الجنرال كليبر » ( وكان هـذا قد اضطرّ الى البقاء بالاسكندرية لجرح أصابه وقت مهاجمة الأسوار ) .

ملل الجند من المدينة

ولم تكد الجنود الفرنسية تنزل الى المدينة وتتجول فى أنحائها حتى لحقهم المَلَل واستولت عليهم الكآبة ، فإنهم (فضلاً عن تألمهم من الحر الشديد الذى لم يعتادوه فى بلادهم ، والذى كان بالطبع على أقصى درجاته فى هذا الفصل من السنة) لم ترق المدينة فى أعينهم ، ولم يجدوا فيها شيئاً من العظمة والبهاء ؛ مما سمعوا به قبل مجيئهم وكان من مميزات الاسكندرية فى القرون الأولى ثم ذهب باضمحلال شأن المدينة على مدى الأيام . وكل ما وقع عليه نظرهم من شوارع ملتوية ، وأزقّة ضيقة قذرة ، وآثار مهملة ، وملابس وأزياء لا تنطبق على ذوقهم الفرنسى ، لم يزدهم إلاَّ قنوطاً واعتقاداً بأنهم مسخرون فى غزوة لا فائدة فيها

نشاط نابليون

على أن نابليون ذاته لم يظهر عليه شىء من ذلك ، بل بقى ثابت الجأش ، كله حركة ونشاط ، ولم يكد يتمّ له الاستيلاء على الاسكندرية حتى أمر بانزال كل المعدات الحربية الى البر ، كى لا يفاجئه « نلسن » على غير أهبة . ثم التفت الى تنظيم حكومة الاسكندرية ، فعهد بادارة شؤونها الى ديوان ، فشُكّل من سبعة أشخاص مختارين . وأُمر بانزال جماعة العلماء الذين معـهُ ، وكلّفهم مباشرة البحث والتنقيب بالاسكندرية ، ريثما يتم له فتح العاصمة فيستدعيهم اليها ، فشرعوا فى عملهم بكل همة ونشاط . ومن أنفع ما بدءوا به أنهم رسموا مصوراً وافياً للاسكندرية وضواحيها

منشور نابليون الى المصريين

وقبل أن يزحف نابليون بجيشه الى القاهرة أمر بكتابة منشور بالعربية ليلقى به السكينة فى قلوب الأهلين ، وعهد بكتابته الى المستشرقين من علمائه ، وطُبع بالمطبعة العربية التى معهم . وقد رأى نابليون فى هذا المنشور أن يُخضع المصريين من باب الدين واحترامه لعقائدهم وخليفة نبيهم ، فغالى فى مصانعتهم حتى شك معظم الأهلين

فى صدق نيته ، وأخذوا يهرعون الى القرى والبلاد التى بمعزل عن طريق الفرنسيين حتى لايقعوا فى حبال مكايدهم . ومما قلل من ثقة الأهلين بهذا المنشور ان نابليون كان وعدهم عند استيلائه على الاسكندرية بعدم التعرُّض لحريتهم وتقاليدهم ، ولكن ما لبث أن جرَّدهم من السلاح وأمرهم أن يحملوا على صدورهم شارة الجمهورية الفرنسية ( وهى قطعة مستديرة من القماش مؤلفة من ثلاثة الألوان : الأزرق والأبيض والأحمر ) وها هى بعض عبارات هذا المنشور العجيب ، نقلاً عن كتاب المؤرخ الشهير الشيخ عبد الرحمن الجَبَرتى الذى كان معاصراً لهذه الحملة :

بسم الله الرحمن الرحيم . لا اله الا الله ، لا ولد له ولا شريك له فى ملكه . من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية . السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابارته يعرف أهالى مصر جميعهم ان من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية ، ويظلمون تجارها بأنواع الايذاء والتعدى . فحضر الان ساعة عقوبتهم . واحسرتاه ، من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الابازة والجراكسة يفسدون فى الاقليم الحسن الاحسن الذى لا يوجد فى كرة الارض كلها . فأما رب العالمين القادر على كل شىء فانه قد حكم على انقضاء دولتهم . يا أيها المصريون ، قد قيل لكم انى ما نزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم ، فذلك كذب صريح ، فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين انى ما قدمت اليكم الا لاخلص حقكم من يد الظالمين ، وانى اكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم . وقولوا ايضا لهم : ان جميع الناس متساوون عند الله ، وان الشىء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط ، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب ، فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا ان يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شىء أحسن فيها : من الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة . فان كانت الارض المصرية التزاما للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم . ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم . ولكن بعونه تعالى من الان فصاعداً لا ييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية . فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الامور ، وبذلك يصلح حال الأمة كلها . وسابقا كان فى الاراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر ، وما ازال ذلك كله الا الظلم والطمع من المماليك . ايها المشايخ والقضاة والائمة والجربجية واعيان البلد ، قولوا لامتكم : ان الفرنساوية هم ايضا مسلمون مخلصون ، واثبات ذلك انهم قد نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا ، الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكوالرية الذين كانوا

يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين . ومع ذلك الفرنساوية فى كل وقت من الاوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى واعداء اعدائه ، ادام الله ملكه . ومع ذلك ان المماليك امتنعوا من طاعة السلطان غير ممتثلين لأمره . فما اطاعوا اصلا الا لطمع انفسهم . طوبى ثم طوبى لاهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير ، فيصلح حالهم وتعلو مراتبهم . طوبى ايضا للذين يقعدون فى مساكنهم ، غير مائلين لاحد من الفريقين المتحاربين . فاذا عرفونا بالاكثر تسارعوا الينا بكل قلب . لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقا الى الخلاص ، ولا يبقى منهم اثر

الزحف على القاهرة

ترك نابليون « كليبر » بالاسكندرية وشرع فى الزحف على القاهرة فى ٢٣ المحرم ( ٧ يولية ) . واختار لذلك طريق الصحراء الغربية مُخترقاً مدينة « دمنهور » . وكان قد أرسل قسماً من جيشه بطريق الساحل الشرقى للاستيلاء على « رشيد »[1] وعزّزه بأسطول من المراكب الصغيرة . حتى اذا تم لهما فتح المدينة سار الأسطول فى النيل وبجانبه الجيش لينضما الى جيش نابليون عند « الرحمانية » . وجدّ « نابليون » فى البر حتى وصل الى دمنهور ، بعد ان لاقت جيوشه من التعب والحر والظمأ ماذهب بقواهم[2] وزاد من سخطهم ، فاستراحوا بها يوماً ثم واصلوا المسير نحو الرحمانية فجر يوم ٢٦ المحرم ، وقبل وصولها التقوا بشرذمة من المماليك لم تكد تشتبك معهم حتى فرّت أمام نيرانهم الحامية

الوصول الى الرحمانية

ولما وصلوا الى الرحمانية رأت جنود نابليون النيل لأول مرة ، فهرولوا اليه يطفئون ظمأهم ، ويمتّعون به أبصارهم التى ملّت الصحراء ورمالها ، وأبدوا رغبة عظيمة فى البقاء طويلاً بالرحمانية . فرأى نابليون أن يبقى بها بضعة أيام ريثما يلحق به الجيش والأسطول اللذان ذهبا لفتح رشيد

الاستيلاء على رشيد

وكان هذان قد نجحا فى مهمتهما . وسار الأسطول فى النيل ، وانضم الجيش الى نابليون . ثم سار الجيش ازاء الأسطول على ضفة النيل الغربية . الاّ أن الريح كانت شديدة ، فساقت الأسطول أمام الجيش حتى وصل منفرداً الى « شَبراخيت »

---

(١) وكانت اذ ذاك مدينة تجارية عظيمة وتمتاز عن الاسكندرية بكثرة حدائقها وجمال منظرها
(٢) لان اكثر الترع كان نيليا

واقعة شبراخيت

( بعد الرحمانية ) ، فالتقى هنالك قبل وصول نابليون بأسطول المماليك وجيشهم المؤلف من ٤٠٠٠ فارس على رأسهم «مراد بك» . فوقع الأسطول الفرنسى بين نارين ، وكاد المماليك يفتكون به ، لولا أن اشتعلت النار بذخيرة أحدى سفن المماليك ، فعاقهم ذلك حتى وصل نابليون . فقسم جيشه الى خمس مربعات ، وأمسك عن اطلاق النار ، حتى أقدم عليه فرسان المماليك بشجاعتهم المعتادة ، ولما صاروا على مرمى مدافعه أطلقها عليهم ، فكانت تحصدهم حصداً ، فاضطر مراد بك الى الانحياز الى القاهرة بمن بقى من رجاله ( ٢٩ المحرم : ١٤ يوليه )

استعداد المماليك

وكان أهل القاهرة قد استولى عليهم الجزع منذ نزول الفرنسيس الى أرض الاسكندرية ، فلما جاءهم نبأ انهزام مراد بك بشبراخيت وتقهقره الى القاهرة هاجوا وماجوا . وأخذ الكثير منهم يفرون من المدينة . ولما سمع « ابراهيم بك» بتقهقر زميله شرع فى تحصين « بولاق » ( فرضة القاهرة فى ذلك الحين ) ، وعمل على نصب المدافع على النيل بين بولاق وشبرا . وأقبل عليه الاهلون يساعدونه بكل ما لديهم من الوسائل ، فاكتظت بهم بولاق حتى كان يخيل للناظر أن سكان القاهرة انتقلوا اليها . وكان الجميع يزدادون فزعاً كلما سمعوا باقتراب الفرنسيس ، فامتلأ الجو بصياحهم وعويلهم وتضرعاتهم ، والعقلاء منهم ينصحون لهم بالتزام السكينة ، ويذكرونهم بأن ذلك لا يجدى نفعاً ، وأن النبى وأصحابه كانوا يقاتلون بالسيوف والرماح ، لا بالعويل والصياح

واقعة انبابة او الاهرام

أما مراد بك فانه استعد للقاء الفرنسيس ببلدة «انبابة» من أعمال الجيزة وخندق بها ، ونصب المدافع أمام عسكره مخافة أن يحصل له ما حصل بشبراخيت يوم هاجم الأعداء بفرسانه من غير المدافع

وقد كانت تجزئة المماليك لقواهم على الوجه المتقدم من اكبر غلطاتهم ، إذ كان خير طريقة لهم أن يجمعوا كل قواهم على الشاطئ الشرقى وينتظروا قدوم العدو ، فيضطرونه الى عبور نهر النيل العظيم ، فيهاجمونه مجتمعين أثناء عبوره . ولكنهم غفلوا



نابليون أمام الأهرام

( رسم علي افندي يوسف — عن صورة بدار الكتب السلطانية )

عن ذلك كما غفلوا عن غيره من الحيل الحربية ، واعتمدوا على شجاعتهم وانتصاراتهم القديمة ، ونسوا أنهم انما يحاربون دولة فى مقدمة دول أوربا : لها من الدراية بالفنون الحربية الحديثة ما تذوب أمامه كل شجاعة ، ويفنى به كل استبسال . وصل نابليون الى « انبابة » فى اليوم السابع من شهر صفر (٢١ يولية ) ، فرأى المماليك أمامها فى انتظاره ، وقد ملئوا الجو بصياحهم وحماستهم . وبريقُ دروعهم وملابسهم المطرزة بالقصب يتلألأ فى الشمس فيزيد منظرهم روعة ومهابة ، ورأى وراءهم الأهرام تتجلّى فى الصحراء ، وتُذكّر القادم بأنه فى أرض الفراعنة الأقدمين ، فأشار اليها وقال محرضاً جنوده على القتال : « أيها الجند ، إن أربعين قرناً تنظر اليكم من قمة هذه الأهرام » فكانت هذه الكلمة من أشهر كلماته المأثورة

ورأى نابليون ان المماليك يتأهبون لمهاجمته من الأمام كعادتهم ، فقسّم جيوشه فرَقاً كل منها على شكل مربع مجوَّف ، وساقها على المماليك ، على هيئة هلال : يستعد وسطُه للقاء قلب المماليك ، ويحيط طرفاه بجناحيهم

فأدرك مراد بك قصده ، فأمر أبسل قوّاده « أيوب بك الدفتردار » أن يهاجم الفرقة التى أرادت الالتفاف حولهم من الغرب . فانطلق أيوب بك على الفرنسيس برجاله انطلاق السهام ، فأفسح لهم هؤلاء الطريق حتى صاروا فى وسط المربع ثم أصلوهم ناراً حامية من ثلاث جهات ، ففتكوا بهم فتكاً ذريعاً

ثم هجم قلب الجيوش الفرنسية على خنادق المماليك واستولوا عليها برؤوس الحراب وساقوا فرقة أخرى للاحاطة بالمماليك من الشرق . فلما رأى مراد بك أن الفرنسيس كادوا يحيطون به ، وأن طرفى هلال جيوشهم آخذان فى الاقتراب ، بادر بالتقهقر ، واضطر الى ترك مئات من رجاله فى الميدان ، فحصرهم الفرنسيس بينهم وبين النهر وما زالوا بهم حتى أفنوهم قتلاً وغرقاً

ولم يستطع مراد بك بعدُ استئناف القتال ، فأسرع الى منزله وأخذ ما قدر على حمله من المال والنفائس ، وقصد الى الصعيد

هذه هى الموقعة التى تعرف عند المصريين بواقعة « أُنبابة » وعند الفرنسيس بواقعة «الاهرام» . استمرت أقل من ساعة من الزمان ، فكانت كما رأيت القاضية على المماليك ولم يخسر فيها الفرنسيس غير عشرة قتلى وثلاثين جريحًا ، فكانت اكبر برهان على فضل الأنظمة الحربية الحديثة وفوقها على شجاعة القرون الوسطى وإقدامها

بعد الواقعة

ولم يكد ابراهيم بك يسمع بهذه الكارثة حتى أسرع بالتأهب للفرار من القاهرة وحذا حذوه بقية المماليك . ثم ازداد الفزع فتبعهم معظم الأهلين ، وظل الناس طول الليل يخرجون بنسائهم وأطفالهم من المدينة ، بعضهم قاصد الى الصعيد ، وبعضهم الى جهة بُلبَيْس والسُّوَيس ، وفى هذه الطريق سار ابراهيم بك

تسليم القاهرة

وفى الصباح ( ٨ صفر ) اجتمع علماء المدينة بالجامع الأزهر ليتداولوا فى الأمر ، فقرّ قرارهم على التسليم ، وذهب وفد منهم ومن الأعيان الى نابليون بونابرت بالجيزة يخبره بالأمر . فأحسن مقابلتهم ، وأمنهم على حياتهم ومالهم ودينهم بعبارات تشبه عبارات المنشور، مؤكداً أنه صديق المصريين والسلطان، وأنهُ ما أتى إلَّا لتخليصهم من نير المماليك الظلمة

ولما سمع أهل المدينة بذلك هدأ روعهم ، وأرسلت الزوارق الى الجيزة ، فجاءت بمعظم الجيش ، فنزل قسم منهُ بالقلعة . ثم دخل نابليون نفسه القاهرة بعد أن ترك « ديزيه » لحماية الشاطئ الغربى ، ونزل بقصر محمد بك الألفى على شاطئ بركة الأزبكية ( حديقة الأزبكية الآن )

استئصال شأفة المماليك

ورأى نابليون أن يبدأ باستئصال شأفة المماليك : فأرسل « ديزيه » فى فرقة من الجيش لمطاردة مراد بك بالصعيد ، وأرسل أخرى فى طلب ابراهيم بالشرقية ، فلم تقوَ عليهِ لقلة عددها ، واضطر نابليون أن يذهب اليهِ فى جيش بنفسه . فقابله ابراهيم بك بالصالحية ، فانهزم واضطر الى الفرار جهة الشام ، بعد أن كبّد الجيوش الفرنسية خسارة كبيرة

ثم عاد نابليون الى القاهرة، واستولت رجاله على أملاك البكوات وأموالهم وتشددوا

مع نسائهم حتى اضطروهنَّ الى أن يفدين أنفسهنَّ بالمال: من ذلك أن زوجة مراد بك فدت نفسها بمبلغ ١٢٥،٠٠٠ ريال ، وحاول بعضُ الغوغاء الاشتراك مع الجند فى نهب بيوت المماليك ، فقابلهم نابليون بالشدة ، فساعد ذلك على رجوع السكينة بعض الشيء

اصلاحات نابليون

ولما رأى نابليون أن قد هدأت الأمور عمل على تنظيم الحكومة ، وأن يدخل فى البلاد كل ما يستطيع من الإصلاحات التى تقتضيها الحضارة الفرنسية، فنصّب أحد رجاله حاكمًا على القاهرة ، وجعل آخر مديرًا للشؤون المالية . وأمر بتشكيل مجلس نيابى (ديوان) من الأهلين ليسترشد بهم فى ادارة البلاد . وتكوّن الديوان بادئ الأمر من عشرة من المشايخ . منهم الشيخ عبد الله الشرقاوى ( مؤلف كتاب «تحفة الناظرين» فى تاريخ مصر) والسيد خليل البكرى (نقيب الأشراف وشيخ سجّادة البكرية فى ذلك الوقت) وغيرهما من أفاضل العلماء . ثم وسّع من نطاق المجلس، فانضم اليه أعضاء يمثّلون جميع الطوائف المقيمة بمصر ، ومن جملتهم أعضاء من الفرنسيين

استياء المصريين

واندفع نابليون فى ادخال كثير من الاصلاحات الأخرى الخاصة بالصحة العامة أو الأمن وغير ذلك ، غير ناظر لاستياء الناس أو رضاهم ، ومكتفيًا باعتقاده أنهُ انما يريد الاصلاح على النمط الأوربى . فمن ذلك أنهُ أمر الأهلين بكنس شوارعهم ورشّها فى أوقات معيّنة ، وبوضع مصباح على كل منزل ، مع تهديد كل من يخالف ذلك بالعقوبات الشديدة ، ووضع أنظمة لقيد عُقود الزواج والوفيَات والمواليد ، مع تأدية مغارم لكل ذلك : مما جعل المصريين يحسّون تدخّله فى حريتهم الشخصية (وكانوا لم يعهدوا شيئًا من ذلك فى عهد أظلم المماليك) . فقلّت ثقتهم بوعود نابليون ومواثيقه ، وأخذوا ينظرون شزرًا الى كل قانون جديد يسنّه ، خصوصًا عند ما أمر بهدم ابواب الحارات والدروب

وكان نابليون قد أخذ يحصن القاهرة ، فهدّم لذلك كثيرًا من الآثار والمساجد، فزاد استياء الأهلين ، ولما جمع العلماء وكلفهم تعليق شارات الحكومة الفرنسية ذات




**بعض أعضاء المجلس النيابى**

(١) السيد خليل البكرى (٢) الشيخ عبد الله الشرقاوى

(٣) الشيخ المهدى الكبير (٤) الشيخ سليمان الفيومى

( رسم على افندى يوسف — عن مجموعة بدار الكتب السلطانية )

الألوان الثلاثة ، ونهرهم عند ما رفضوا ذلك ، أمسكوا عن مساعدته فى تحسين العلائق بينه وبين العامة ، وأخذ سخطهم فى الاستفحال

وبينما نابليون مشتغل باصلاحاته هذه اذ جاءه نبأ تدمير الانجليز لاسطوله فى خليج « بوقير »

واقعة بوقير البحرية

وذلك ان « نِلْسُن » أمير البحر الانجليزى لم يفتر عن البحث عن الأسطول الفرنسى حتى عثر عليه فى خليج « بوقير » فى ١٧ ربيع الأول ( أول أغسطس ) ، فوقعت بين الأسطولين موقعة بحرية عظيمة انتهت بتدمير الأسطول الفرنسى ، فكانت من أهم الوقائع التى كوَّنت مجد برطانيا البحرى . والفضل فى ذلك للبطل العظيم « نلسن » قائد الأسطول الانجليزى ، فانهُ مع فَوْق الفرنسيس عليهِ فى عدد مراكبهم ، ونصبهم القلاع والاستحكامات على الشواطئ لمعاونة الأسطول ، تمكن من شطر الأسطول الفرنسى شطرين ، أحاط بأحدهما من الجانبين وفتك به ، وشتّتت السفن الانجليزية شمل المراكب الباقية ، فلم ينج منها من الغرق أو الحريق إلاّ القليل

وكان الفرنسيس فى أول الواقعة قد أرسلوا بعض مراكبهم الصغيرة لتغرى الأسطول الانجليزى على الاقتراب من شواطئهم المحصنة ، حتى يقع بين نارين ، فلم يعبأ بهم نلسن ، وكان من مهارته مارأيت . وفى هذه الواقعة جُرح نلسن فى رأسه جرحاً خفيفاً ومات « برويس » قائد الأسطول الفرنسى بعد أن أظهر من البسالة والثبات ما يجعله فى مقدمة أعاظم الرجال

ثورة القاهرة

بلغ نابليون ذلك فحزن حزناً شديداً لانقطاع كل اتصال بينه وبين فرنسا ، ولكنه أظهر الجلد واستمر فى تقوية مركزه فى الديار المصرية . وبقيت مشروعاته تلى بعضها بعضاً من غير أن يعبأ باستياء الأهلين ، حتى بلغ السيلُ الزُّبى ، وخرج سكان القاهرة على الفرنسيس خروجاً عاماً فى ١٠ جمادى الأولى ( ٢٢ اكتوبر ) أى بعد نزولهم مصر بشهرين تقريباً

## بيان واقعة بوقير البحرية




وتُلَخَّص أهم أسباب هذه الثورة فيما يأتى :

أسباب الثورة

(١) قتل الفرنسيس للسيد محمد كريم (حاكم الاسكندرية) لاتهامه بمخابرة المماليك

(٢) غلو الفرنسيس فى ضرب الضرائب وكثرة الحاحهم ولجاجهم فى الاستفسار عن الأملاك الشخصية (٣) هدم بعض المساجد لتحصين القاهرة (٤) خوف الأهلين من بعض اصلاحات نابليون وحملها على محمل سيئ، مثل هدم أبواب الحارات وكانت هذه الأبواب تغلق فى الليل فتصير كل حارة كأنها حصن فى ذاتها

(٥) انهزام الفرنسيين فى موقعة بوقير البحرية، وسماع المصريين بأن الباب العالى أرسل جيشاً لفتح مصر

استفحال الثورة

وقد استفحل أمر الثورة وأظهر فيها عوام القاهرة إقداماً كبيراً لم يُعهد فيهم من قبل ، فذبحوا كثيراً من رجال الفرنسيين ، ثم تحصنوا فى الأحياء الوطنية ( داخل حدود مدينة الفواطم ) ، ونصبوا المتاريس على مداخلها ، ووقفوا يدافعون عنها بما لديهم من الأسلحة والذخيرة . ولكن ماذا تجدى الشجاعة والحماسة أمام القوة والعلم ؟ فان نابليون لم يكد يسمع بالخبر حتى طار برجاله الى مواضع المتاريس ، فصوَّب عليها المدافع . ثم رأى أن الثائرين لجهلهم لم يحصّنوا التلول المشرفة على القاهرة من الشرق * فأسرع بإرسال المدافع لتُنْصَب عليها ، وطاول زعماء الثورة : يطلب منهم الصلح خديعة منه ليتم له نقل المدافع الى المَواقع المذكورة ، فلما أصبح الصباح ورأى الثائرون المدافع مصوَّبة عليهم استولى عليهم الفزع ، وعلموا انهم وقعوا فى شرك أعمالهم . ولما انهالت المقذوفات طول المساء على حيّ الأزهر (مقر المشايخ ومنبعث الفتنة فى نظره) هاج الأهلون وماجوا ، واضطر المشايخ الى الذهاب الى بونابرت واظهار خضوعهم له فأشبعهم تأنيباً وتعنيفاً على ما سبَّبوه من سفك الدماء ، ثم أمر بالكف عن اطلاق النيران ، وأمسك الأهلون أيضاً عنه ، إلاّ سكان حيّ الحسينية ( ومعظمهم من طائفة الجزارين ) فانهم لِما فُطروا عليه من الشدة والعنف استمروا فى القتال حتى نفدت جميع مقذوفاتهم ، والفرنسيس يصلونهم طول الوقت ناراً حامية حتى ألحقوا كثيراً من الضرر بحيّهم . وما زالت آثار هذا التخريب باقية الى الآن

اخماد الثورة

ثم دخل الفرنسيس المدينة وتجوّلوا فى أسواقها لاعادة النظام والسكينة . ثم دخلت طائفة منهم الجامع الأزهر بخيولهم ، وحطموا قناديله ، وأزالو بعض الآيات القرآنية المنقوشة على جدرانه . ثم غالوا فاتخذوا الجامع اصطبلاً لخيولهم . فعظم استياء الناس ، وأرسل المشايخ وفداً الى نابليون يلتمسون اصدار الأمر باخلاء الأزهر من الجند . فأجاب ملتمسهم بعد التحذير والتهديد

فهدأت المدينة ، ورجعت المياه الى مجاريها ، وان كان نابليون قلل بعد ذلك

* اى من جهة باب الوزير وباب البرقية ( جبانة المجاورين )

من اعتبار المشايخ فى الديوان وغيره ، وأصبح عملهم قاصراً على نشر المنشورات التى يحثّون العامة فيها على التزام السكينة والخضوع للفرنسيس والاعتراف بما أبداه اليهم نابليون من الجميل

الترك يحاولون فتح مصر

وبعد أن أخمد نابليون الثورة تفرغ لتحصين مصر لصد غارات العثمانيين . وكان هؤلاء قد أخذوا يسعون فى استرجاعها ، وعقدوا لذلك معاهدة مع انجلترة وروسيا . وعوّلوا فى فتحها على تسيير جيشين اليها : الأول يزحف على « العريش » من جهة الشام ، والثانى يجتمع فى جزيرة « رودس » ومنها ينقله الأسطول الانجليزى الى سواحل مصر . الاّ أنهم أساءوا التدبير فى انفاذ هذه الخطة ، اذ وصل الجيش الأول الى العريش قبل أن يستعد الثانى للقيام . فتسنى لنابليون مقابلة كل منهما على حدة بجموع جيوشه ، مع أنهُ كان يضطر الى تجزئتها لو وصل الجيشان فى وقت واحد

حملة نابليون على الشام

فلما علم نابليون بذلك أسرع بمعظم جيشه للقاء جيش الشام ، فبلغ العريش بعد أحدَ عشر يوماً واستولى عليها عنوة ، وسقطت « غزَّة » فى يده بعد ذلك بقليل . وفى اليوم الخامس والعشرين من رمضان سنة ١٢١٣ ( ٣ مارس سنة ١٧٩٩ ) بلغ « يافا » وحاصرها ، ولما رأت حاميتها أن لاقِبَل لهم به استأمنوا اليهِ فأمّنهم ، ولكنه غدر بهم واستعرضهم جميعًا رميًا بالرصاص . وتلك وصمة كبرى فى تاريخ حياته لا يغفرها له التاريخ مهما انتُحل له من الأعذار ، وأنهُ انما قتلهم جميعًا ليخلص من عبء ثقيل هو إطعامهم وحراستهم

وبعد أن حصّن يافا أسرع الى حصار « عكاء » فلم يقدر عليها لحسن دفاع حاكمها « أحمد باشا الجزَّار » ومساعدتهِ بحراً بأسطول انجليزى بقيادة « السير سِدنى سمِث » ، فرجع عنها بعد أن حاصرها ٥٠ يوماً

واقعة بوقير البرية

ولم يكد يصل الى مصر حتى جاءه خبر وصول البوارج العثمانية الى الاسكندرية وانزال ١٠٠٠٠ من الأتراك بجهة « بوقير » يوم ٩ المحرم سنة ١٢١٤ ( ١٣ يونيه سنة ١٧٩٩ ) . فسار اليهم وهزمهم شرّ هزيمة

عودة نابليون الى فرنسا

على أن ذلك لم يطيّب من خاطر نابليون ، فانّ انقطاع المواصلات عنهُ بمصر بعد تدمير أسطوله بموقعة « بوقير البحرية » ، وعجزه عن الاستيلاء على عكاء التى هى فى نظره مفتاح الشرق ، وضياع أمله فى فتح الهند ، كل ذلك ملأه يأساً ، وذهب أدراج الرياح ما كان له من الآمال فى تكوين دولة عظيمة بالمشرق . ثم ان « السير سدنى سمث » كان قد أرسل اليه طائفة من الصحف الأوربية ، فقرأ فيها أن الحرب تجددت بين فرنسا والنمسا ، وأن الأخيرة استردت شمالى ايطاليا الذى كان قد استولى عليه هو قبل مجيئه الى مصر ، فعوّل فى الحال على أن يعود الى فرنسا سراً ، فغادر مصر يوم ١٩ ربيع الأول سنة ١٢١٤ ( ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩ ) بعد أن عهد بقيادة الجيش للقائد « كليبر »

الحالة بعد خروج نابليون

خرج نابليون من مصر وترك الجيش الفرنسى تهدده الأخطار من كل جانب . اذ كان عدده قد نقص كثيراً فى معارك الشام وغيرها ، ودبّ السخط فى نفوس الجند وقلّت أموال الخزينة ، وأصبح الجيش فى حاجة الى الذخيرة والملابس . وأرسلت الدولة العثمانية جيشاً آخر الى العريش يقوده الصدر الأعظم ، وأسطولاً الى دمياط : تريد اعادة الكرة على مصر ، هذا الى أن المماليك عادوا الى مكافحة الفرنسيس . نعم انهم فى جمادى سنة ١٢١٤ هادنوا المماليك الذين كانوا قد تغلبوا على معظم الصعيد بزعامة رئيسهم مراد بك بأن ولوا مراداً حكم بلاد الصعيد ، بشرط أن يكون خاضعاً لسلطتهم مستعداً لمعونتهم ، ولكنه كان متربصاً بهم النوازل حتى يستبد فى قومه بملك مصر

كليبر وسياسته

وكان « كليبر » من أكبر قوّاد الفرنسيس وأعظمهم مهارة ، إلّا انه أدرك صعوبة التغلب على هذه الأمور ، ورأى من المصلحة أن لا يبقى بمصر ، وعرض الصلح على الصدر الأعظم والسير سدنى سمث ، واتفق معهما على أن يخرج من مصر بجنوده

معاهدة العريش

وجميع مهماته ، ويسافر الى فرنسا على نفقة الدولة العثمانية . ويُعرف ذلك « بمعاهدة العريش » ( شعبان ١٢١٤ : يناير ١٨٠٠ ) . فلما علمت بذلك الحكومة الانجليزية استنكرت تصرف السير سدنى سمث ، وأرسلت اليه الأوامر بأن لا يعقد صلحاً مع



القائد كليبر

( رسم على افندى يوسف - عن صورة بدار الكتب السلطانية )

الفرنسيس الآ اذا سلّموا جميع جيشهم بمصر . وكان ذلك من الغلطات التى دوّنها التاريخ للحكومة الانجليزية ، إذ أن غرضهم الأصلى لم يكن الاَّ اخراج الفرنسيس من مصر، وها هو ذا قد عُرض عليهم بلا ضرب ولا طعن . فأبلغ السير سدنى سمث أوامر حكومته الى كليبر ، فانقطعت بذلك المفاوضات بين الطرفين

الترك فى مصر

وكان كليبر بعد معاهدة العريش قد سمح لجيش الصدر الأعظم بدخول مصر ، فسار وعسكر بجهة بلبيس . ثم انتشر عسكره فى ضواحى القاهرة والأقاليم المحيطة بها يجمعون المعونات والضرائب ، ودخل كثير منهم المدينة ، وغفلوا عن احتلال القلاع والحصون التى أخلاها الفرنسيون . فلما تحقق الفرنسيون تغيُّر نية الانجليز انتهزوا فرصة

تشتت الجيش العثمانى وأوقعوا بكل قسم منهُ على انفراده بغتة ، وكانت الواقعة الفاصلة بعين شمس ، فانهزم الترك وتبعهم الفرنسيس الى « الصالحية » ، فتقهقروا الى الشام

ثوران القاهرة

ولما عاد كليبر الى مصر وجد أن رؤساء العثمانيين الذين بقوا بالقاهرة هم وبعض المشايخ والتجار أثاروا أهلها وعامتها على الفرنسيس، فهاجوا وملكوا البلد وحصّنوا مداخل الدروب ومنعوا الفرنسيس من دخول المدينة . فحصلت بين الطرفين مناوشات عظيمة انتهت بعد نحو ثلاثين يوماً بإبرام الصلح بينهما على أن يخرج العثمانيون الى بلادهم ، وأن يغرم العلماء والأهلون نحو عشرة آلاف ألف فرنك

أما شأن مراد بك ومن معه من المماليك في هذه الثورة فانهم جاءوا الى « دير الطين » ( الساحل القبلى ) ينتظرون لمن يكون الغلب فيكونون معهُ ، فلما حدث ما حدث رجعوا الى الصعيد

عودة النفوذ الى الفرنسيس

وبذلك رجع للفرنسيس نفوذهم في مصر ، الا أنهُ لم يمضِ قليل حتى قُتل « القائد كليبر » غيلة : قتله « سليمان الحلبى » أحد طلبة العلم من نزلاء السوريين ،

مقتل كليبر

بإيعاز من أحد زعماء المماليك ( على ما قيل ) ، وذلك فى ٢٠ المحرم سنة ١٢١٥ هـ ( ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ م )

مينو وسياسته

فعُهد بقيادة الجيش الفرنسى الى القائد «مينو»، وكان أقل كفاءة من كليبر ، غير محبوب من الجيش مثله ، وكان شديد الميل الى البقاء بمصر . فتظاهر باعتناق الاسلام وتسمى « عبد الله مينو » ، وتزوج ببنت أحد كبار المصريين من أهل رشيد

حملة ابركرومبى

ولم يفتر الانجليز عن العمل على اخراج الفرنسيس من مصر . ففى شهر شوال سنة ١٢١٥ هـ ( فبراير سنة ١٨٠١م ) أرسلوا جيشاً بقيادة «السير رَلْف أبِرْكرومبى » فوصلت السفن الانجليزية الى الاسكندرية ، وأنزلت الجنود بجهة « بوقير » ، ثم وصل جيش عثمانى وانضم اليهم . فعهد مينو بقيادة مدينة القاهرة الى القائد « بِلْيار » وجاء بمعظم الجيش الفرنسي الى الاسكندرية . فالتحم الفريقان فى موقعة فاصلة عند « كانوب » قرب بوقير انهزم فيها الفرنسيس وتراجعوا الى الاسكندرية ،

فحوصروا بها ، ومات « ابركرومبى » فى هذه الواقعة، فعهد بالقيادة الى « هَتْشِنْسُن »
وفى أثناء ذلك تقدم الجيش التركى الذى كان بالعريش . فسار هتشنسن للانضمام
اليهِ بعد أن عهد بفتح الاسكندرية الى أحد قوّاده

فالتقى الجيشان بجهة « الرحمانية » وسارا نحو القاهرة . فلَم يأنس بليار من نفسه
مقدرة على صدهم ، وعرض عليهم الصلح على أن تخرج الجيوش الفرنسية من مصر
وتسافر مخفورة الى فرنسا على نفقــة الحكومة الانجليزية . فقبل الانجليز ذلك ،
وأُنزلت الجنود الفرنسية بقوارب فى النيل الى رشيد وبوقير ونزلوا هنالك فى السفن
التى أُعدت لهم

جلاء الفرنسيس

فدخلت الجنود العثمانية وبعض رجال الجيش الانجليزى الى مصر ومعهم من
أمراء مصر ابراهيم بك الكبير والبرْديسى والألفى والسيد عمر مَكْرَم وغيرهم، فامتلأت
قلوب الأمة المصرية فرحًا لتخلصهم من أذى الفرنسيس وجورهم

أما عبد الله « مينو » فكان قد أصر على الدفاع عن الاسكندرية ، فشدَّد
الانجليز والعثمانيون عليهِ الحصار. وانتهى الأمر بقبوله التسليم والخروج من مصر بنفس
الشروط التى سلَّم بها « بليار » ، فسافر بجنوده الى فرنسا فى اليوم العاشر من جمادى
الأولى سنة ١٢١٦ هـ ( ١٨ سبتمبر سنة ١٨٠١ م ) ، وبذلك تم جلاء الفرنسيس
عن مصر بعد أن قضوا فيها نحو ثلاثة أعوام

أعمال البعث العلمى الفرنسى

ذكرنا فيما تقدم أن نابليون أحضر معه الى مصر نحو مائة رجل من اكبر علماء
فرنسا الملمّين بكل فن وعلم . وكان أهم غرض من احضارهم الانتفاع بآرائهم فى كل
ما يلزم للجيش والجالية التى كان يرمى نابليون الى توطينها بالبلاد . فلم يكد رجال
البعث يبلغون الديار المصرية حتى انكبوا على دراسة جميع ما فيها من آثار ونبات
وحيوان ومعادن ورسموا كل شيء ووصفوه وصفًا مسهبًا . وقد نجحوا فى أعمالهم نجاحًا
تامًا حتى أنهُ قيل فى وصف الحملة الفرنسية : « انها كانت علمية اكثر منها حربية »

اقسامه

وبعد خروج نابليون من مصر عُنى « كليبر » بتنظيم أعمال هذه الهيئة العلمية ، فقسم

أعضاءها الى تسعة أقسام : قسم لدرس الشؤون الزراعية ، وآخر للصناعة والتجارة ، وقسم للجغرافيا، وآخر للآثار ، وآخر للادارة، وآخر لدرس الأخلاق والعادات، وهكذا

مشروع قناة السويس

ومن أهم أعمالهم بمصر أنهم فحصوا أمر برزخ السويس وامكان شق ترعة فيه بين البحرين الأبيض والأحمر . فدرسوا المشروع درساً دقيقاً برياسة مهندسهم العظيم « لابير » ، وكتبوا فيه تقريراً وافياً كانت له اكبر فائدة للمسيو « ديلسبس » الذى حفر هذه الترعة فيما بعد فى عهد الخديوى اسماعيل . ولم ينجز الفرنسيس هذا المشروع إذ ذاك لوقوعهم فى خطأ حسابى توهموا به أن سطح البحر الأحمر أعلى من سطح البحر الأبيض بتسعة أمتار

ومن أعمالهم أنهم درسوا الأمراض الخاصة بالبلاد وطرق علاجها ، ولا سيما الرمد وفحصوا نظام الرى وطرق اصلاحه ، ومسحوا أرض القطر ، ورسموا له خريطة عظيمة نُشرت عند عودتهم الى فرنسا .

الاثار المصرية

أما بحوثهم فى الآثار المصرية القديمة فيكفاهم فخراً أنهم أول من لفت نظر أوربا الى درس هذه الآثار، وأن ما دوّنوه فيها كان الأساس الأول لبحوث العلماء الأوربيين بعد . وقد كشفوا كثيراً من المدن والآثار المصرية القديمة ، ورسموا لها صوراً جميلة* ، وأشكالاً تبين دواخل أهم المعابد وما على جدرانها من النقوش . وكان كل ذلك طبعاً بالقلم والقرطاس، إذ لم يكن التصوير الشمسى وقتئذ معروفاً. ولا يفوتنا أن رجال الحملة هم الذين عثروا على حجر رشيد الذى كان له الفضل الأكبر فى انجلاء تاريخ مصر القديم

كتاب وصف مصر

وفى سنة ١٢١٧ هـ ( ١٨٠٢ م ) أمرت الحكومه الفرنسية بجمع أعمال علماء الحملة ونشرها فى مؤلف واحد ، فظهرت فى ذلك الكتاب العظيم المسمى « وصف مصر » ( Description de l' Egypte ) ، فكان اكبر وأوفى مؤلف ظهر الى الآن فى وصف الديار المصرية

* هذه الصور بعضها مطابق تماما لحالة الآثار وقت رسمها وبعضها يمثل شكلها فى أيام رونقها واستعانوا فى رسمها بالنظر الى الاجزاء التى لم تتهدم فى الاثر واستنتاج شكل التى تهدمت بطريق المحافظة على التماثل فى البناء

# الفصل الثانى

## محمد على باشا

### ١ — ﴿ نشأته ونهوضه ﴾

نشأته

وُلد محمد على باشا ابن ابراهيم أغا من سلالة ألبانية ببلدة « قَوَلَة » أحد الموانى الصغيرة التى على الحدود بين تراقية ومقدونية عام ١١٨٣ هـ ( ١٧٦٩ م ) ، وهو العام الذى وُلد فيه « وِلِنجتون » القائد الانجليزى العظيم « ونابليون » الفاتح الكبير ، ولكل منهما أثر عظيم فى تاريخ حياة المترجَم . وانهُ لمن العبث أن نسرد هنا الأقاصيص التى تعزى اليه فى حداثة سنه ، إذ لم نعثر عليها فى أصل يُعتمد عليه

توفى والده ابراهيم أغا وهو فى سن الطفولة ، فتولى أمره عمه « طوسون » . غير أن هذا وافته منيته بعد مدة وجيزة ، فقام بأمر تربيته أحد أصدقاء والده ، وقد تبنّاه وعُني به حتى بلغ الثامنة عشرة من عمره ، فتعلم طرفًا من الفروسية واللعب بالسيف . ثم زوّجه احدى قريباته ، وكانت من ذوات اليسار . . وخدم حاكم قولة واكتسب رضاه بما كان يأتيه من ضروب المهارة والحذق فى جباية الأموال من القرى المجاورة التى كانت لا تؤدى ما عليها الاَّ بالشدة واستعمال القوة الجبرية . واعانته ثروة زوجته على الاتجار فى الدخان ، فاصطحب المسيو «ليون» أحد صغار التجار ( ويغلب أنهُ كان وكيلاً لأحد المحال التجارية بمرسيليا مسقط رأسه ) ، وشاركه فى الاتجار فى هذا الصنف . فلم تعد عليه هذه التجارة بالأرباح الطائلة ، الاّ أنه استفاد فائدة جمة من مرافقته للمسيو «ليون» : فاكتسب منه كثيراً من العادات والآداب الفرنسية التى تركت فى نفسه أثراً عظيماً ، وساعدته مساعدة كبيرة فى بقية أطوار حياته

هذا جل ما رواه لنا التاريخ من سيرته الأولى ، وهو يحملنا على أن نترك الثلاثين

سنة الأولى من تاريخ حياته صحيفة بيضاء . وذلك أمر لا بد منهُ لمن نشأ فى بلدة صغيرة لم تكن ذات شأن كبير من قبل

وقبل أن نشرح طريقة استيلاء محمد على على الديار المصرية وابادته للمماليك يجب علينا أن نصف حالة الدولة العثمانية فى إبان شبابه ، حتى يتمكن القارىء من الوقوف على سر نجاحه :

حالة الدولة العثمانية فى أول عهد محمد على

كانت الدولة العثمانية إذ ذاك مكونة من عدة شعوب مختلفة ، ذوى أديان متباينة ونِحَل متضادة : مما طرّق اليها الضعف ، وأدخل عليها الوَهَنَ والاختلال الذى كاد يبلغ أقصاه فى عصر محمد على ، إذ قد بدأ فى عهد صغره أمر « على باشا والى يانينة » ، وهو أيضاً من الألبانيين : أُولئك القوم الذين فتحوا الشرق بقيادة الاسكندر ، واستوطنوا مصر فى عهد البطالسة ، وهدّدوا رومية فى زمن بيروس . خرج ذلك الرجل على دولته ، فنكث فَتْلها ، وأقاق بالها ، واستقل بأمر البانيا مدة خمسين عاماً انتهت بقتله غيلةً سنة ١٢٣٧ هـ ( ١٨٢٢ م )

وكانت كذلك جميع أجزاء الدولة مفككة العُرى ثائرة على الباب العالى : فمصر والأناضول وسورية كلها كانت فى فتن وقلاقل ، وبلاد العرب مع الدولة فى حرب عوان . وكانت الولاة فى يانينة وبغداد كأمراء مستقلين ، واستقل بالفعل فى عكاء احمد باشا الجزّار ، وشرع يحذو حذوه معظم ولاة الدولة . ووقف دولاب أعمال الحكومة الداخلية جملةً ، وكان الجيش مؤلفاً من رعاع الناس وسِفلَتِهم ، وكان السلطان أشبه بسجين أو ألعوبة فى يد وزرائه وعساكره الانكشارية ، وكان الباب العالى مكوّناً من فئة الوزراء الذين يتهددهم الخطر فى كل لحظة ، فقد كان كل منهم يتحيّن الفرص لاغتيال زميله ، أو للسعى فى عزل السلطان وتولية غيره : ليكون هو الصدر الأعظم الجديد

تلك كانت حالة الدولة بالاختصار فى شبيبة محمد على ، ومنها يسهل تفهُّم أطوار حياته وعلاقته مع الدولة . وبالرغم من كل هذا كان عامة مسلمى الدولة مطيعين خاضعين

للسلطان من آل عثمان : لأنهُ خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم والإمام الواجب تنصيبه دينًا ولو لم يكن له من الأمر شئ . بخلاف الوزير أو الوالى اللذين لم يكن كل منهما فى نظرهم إلاّ فرداً من رجال الحاشية توصّل الى مركزه السامى بالحظوة أو الرشوة . لذلك نرى أن كل الفتن والقلاقل فى ذلك العهد كانت نتيجة المنافسة القائمة بين حكام الأقاليم ورجال الباب العالى ، وأن فوز أحدهم بأمنيته كان متوقفاً على حسن الحظ والإقدام والخداع ، لا على الكفاءة الشخصية والمواهب الطبيعية

أول قدومه الى مصر

بلغ محمد على الثلاثين من عمره عام ١٢١٢ هـ ( ١٧٩٨ م ) ، وكان لا يزال فى مسقط رأسه بين أولاده الثلاثة : ابراهيم وطوسون واسماعيل . وقد ذكرنا أن تجارة الدخان لم تعد عليه بربح طائل ، لذلك كان ميالاً للاحتراف بمهنة أُخرى . فلم يلبث إلاّ قليلاً حتى دخل فى طور جديد من أطوار حياته . والسبب فى ذلك يرجع الى الحملة الفرنسية على مصر

أولا فى واقعة بوقير

وذلك أنهُ فى سنه ١٢١٣ هـ ( ١٧٩٩ م ) أعلن الخليفة الحرب على الفرنسيين لغزوهم مصر ، فأصدر الأوامر بجمع الجيوش من انحاء الدولة ، فجمع حاكم قولة ( الشربجى ) فرقة عددها ٣٠٠ من الجنود المتطوعين ( الباش بُزُق ) بقيادة ابنه « على أغا » ، ورافق محمد على هذه الفرقة وكيلاً له عليها . فتوجهت بطريق البحر الى الدردنيل ، ومن ثمة انضمت الى عامة الجيش فى جزيرة رودس

ولما وصل الجيش الى ميناء بوقير من الديار المصرية التحم بالجيش الفرنسى ، فكانت الدائرة على الترك ، واضطرهم الفرنسيون الى الالتجاء لسفنهم وسفن الانجليز المرافقة لها بعد مذبحة شنيعة . وكان محمد على قد أشرف على الغرق ، لولا أن قيَّض الله له « السير سدنى سمث » ، فانتشله من الماء بيده وأنزله فى سفينته

ثانيا فى حملة ابركرومبى

وبعد ذلك رجع محمد على الى بلدته ، ثم عاد سنة ١٢١٥ هـ ( ١٨٠١ م ) مع جيش « القبطان حسين باشا » الذى جاء ليساعد القائد الانجليزى « أبرِ كرومبى » على اجلاء الفرنسيس . ومن هذا الوقت بقى فى مصر حتى صار واليًا عليها

وقد نال إعجاب قائده والقوّاد الانجليز بما كان يأتيه من ضروب الشجاعة وشدة البأس عند هجومه على حصن الرحمانية ، إذ دخله عنوة بعد أن اضطر القائد الفرنسى الى اخلائه ، وكان هذا سبباً فى ترقيته الى رتبة قائد فى الجيش

## ﴿ نهوض محمد على ﴾

النزاع بين الباب العالى والمماليك

بعد اخلاء الحملة الفرنسية البلاد ورجوعها الى فرنسا ابتدأت جماعة المماليك تَشْرَئِبّ أعناقها لأن تقبض على زمام الأمور فى البلاد كما كانت من قبل . فى حين أن الباب العالى كان يطمح الى طرد المماليك من الديار المصرية، واسترجاعها بعد أن اغتُصبت منهُ مدة من الزمان . لكن المقادير جاءت بعكس ما أمل الفريقان : إذ أراد الله أن تكون نصيباً لمحمد على

محاولة الترك الفتك بالمماليك

بدأ النزاع بين الباب العالى والمماليك عند ما أراد الأول أن يستقل بالسيادة فى مصر ، فاستخدم للتغلب عليهم طريقة غير مقبولة : وذلك أن القبطان حسين باشا دعا البكوات العظام من حزب مراد بك الى معسكر بوقير ، بعلّة التفاوض معهم فى صيرورة حكومة مصر ، فكان معظمهم غير مرتاح البال الى هذه الدعوة ، إلاّ أن خوفهم من نزع السلطة كلها من أيديهم حملهم على تلبيتها ، وطمأن خاطرهم قربُ معسكر القائد « هتشنسن » الانجليزى

حماية الانجليز للمماليك

قابلهم الباشا القبطان بتهلل واستبشار واكرم مثواهم ، ثم دعاهم الى ركوب زورق له لزيارة القائد الانجليزى ، بحجة أنهُ يريد أن يتفاوض معه أيضا . ولما بعدوا عن الشاطئ قليلاً لحقه زورق يحمل بعض الأوراق ، فاستأذنهم ليقرأها على انفراد وترك الزورق بمن فيه من البكوات . فظهر لهم عند ذلك أنه يريد بهم سوءًا ، فأمروا النواتى بالرجوع فامتنعوا وأطلقوا عليهم النار ، فقتلوا ثلاثة وجُرح عثمان بك البرديسى واثنان آخران . فلما علم القائد الانجليزى بذلك استشاط غضباً ، فاعتذر له الباشا القبطان بأسباب واهية . وفى الوقت الذى حدثت فيه تلك الحادثة عند ساحل البحر كانت

تمثل الرواية نفسها فى القاهرة ، وقد احتمى معظم من بها من البكوات بالمعسكر الانجليزى فيها ، فأسعفهم القائد « رَمْزى » رغم إلحاح الصدر الأعظم فى تسليمهم اليه ، فكانت هذه الحادثة مدعاة الى اشتعال نيران الحقد فى صدور المماليك . وقد زادها لهيبًا جعل « محمد خُسْرُو » مملوك الباشا القبطان واليًا على مصر فى ربيع الأول سنه ١٢١٦ ﻫ ( يوليه سنة ١٨٠١ م ) : حصَّل له القبطان ذلك المنصب بتوسط الصدر الأعظم يوسف باشا لدى الباب العالى

خسرو باشا

ويُعتبر خسرو باشا الوالى الجديد على الديار المصرية من أشهر رجال الترك فى القرن الثالث عشر . وكان ذا حُظْوَة عظيمة لدى السلطان . وقد خاصم محمد على مدة نصف قرن كان فى أثنائها عدوَّه المبين لأسباب سنذكرها فى موضعها . وكان من الذين يعتدُّ برأيهم فى جسام الأمور ومعضلات السياسة كما سيجئ . ولا يُعْزَى فشلُه فى مصر الى قلة الذكاء والشجاعة ، بل لأنهُ ابتدأ حروبًا داخلية فى وقت كانت فيه خزانته خلوا وجيشه غير مدرب ، على قوة عظيمة من فرسان المماليك الذين كان فى قبضتهم خيرات البلاد وفيضُها

خسرو باشا والمماليك

ومن العبث أن نتجاهل ما كان للمماليك من المزايا العظيمة التى يمتازون بها على الأتراك فى حروبهم لهم ، وذلك لأنهم التحموا بالجيوش الفرنسية اكثر من الأتراك ، فاقتبسوا من طرقهم الحربيـــة مازادهم فَوْقًا على الأتراك ، ذلك الى أنهم يعرفون البلاد اكثر من جنود الترك الذين وصلوا اليها حديثًا ، وأنهم كانوا لايزالون أصحاب النفوذ والسلطان فى البلاد

فلما أراد « خسرو » مطاردتهم ونزع البلاد من أيديهم ، ظهرت كل هذه العقبات أمامه . واذ كانوا هم القابضين على أزمَّة الأحكام فى المديريات ، أصبح القصد اذًا من حربه لهم انتزاع البلاد من قبضتهم . فأرسل لذلك « طاهر باشا » قائد الألبانيين بجيش كان نصيبه الخيبة والفشل ، وطارده عثمان بك البرديسى قائد المماليك من الوجه القبلى الى الوجه البحرى حتى ساحل البحر . ولما وصلت أخبار هذه

الهزيمة الى خسرو أعدّ مدداً أرسله بقيادة محمد على، وكان ممن نال ثقة خسرو فى هذا الحين . إلاَّ أن عثمان بك بادر الى مناجزة الجيش التركى قبـل أن يصل اليه المدد الذى كان يقوده محمد على ، وبدد شمله

خسرو ومحمد على

فلما علم خسرو بالهزيمة الثانية وجّه لومه الى الألبانيين وخاصة الى محمـد على ، وأراد أن يحاكمه على تقصيره أمام مجلس عسكرى ، وكان غرضه بذلك اغتياله ، فامتنع محمد على عن الحضور ، ومن هذا العهد ابتدأت بذور العداوة تنبت بين هذين الرجلين : تلك العداوة التى فتّت فى عضد الدولة ومزقت أحشاءها كل ممزق

خسرو وجنود الحامية العثمانية

وبعد هذه الهزيمة الأخيرة أبت عساكر الترك الحرب كل الإباء لتأخر رواتبهم ، وثاروا وحاصروا الخزانة ونهبوا وسلبوا القاهرة ، ودخلوا القلعة ، فاعتصم خسرو بمنزله وأراد طاهر باشا قائد فرقة الألبانيين ( وعددهم ٥٠٠٠ ) أن يتوسط بين خسرو والعصاة ، فأبى خسرو وساطته ، فانضم الى العصاة عليـه . ولما لم يجد خسرو لديه حينئذ جنداً تحميه ولى هارباً الى دمياط ، وبقى بها ينتظر فرصة يسترد بها ما فقده

فشل خسرو

ولما علم طاهر بذلك جمع رءوس العلماء وأشراف العاصمة وشاورهم فى الأمر ، فرضُوا أن يكون نائباً عن الوالى عليهم ، فأعلن أنهُ هو الحاكم على مصر حتى يولى الباب العالى خلفاً لخسرو باشا ، وذلك فى صفر ١٢١٨ ( مايو ١٨٠٣ ) . وكان من سوء طالع طاهر باشا أنهُ وقع فى نفس الحيرة التى وقع فيها خسرو إذ لم يمكنه دفع مؤخر رواتب الجند : وبعد ٢٢ يوماً من قبضه على زمام الأحكام تألّب عليه الجند ، واغتاله ضابطان ( موسى أغا واسماعيل أغا ) بعد أن تظلّما له من تأخير رواتب الجنود

طاهر باشا ومقتله

فأصبح محمد على ، بعد هرب خسرو وقتل طاهر رئيس الأجناد غير المماليك من الأرناءوط وغيرهم ، لأن رتبته فى الجيش كانت تلى رتبة طاهر باشا ، ولأنه كان محبوباً لدى العلماء والأهالى لما كان يبديه من العطف والحنان عليهم ، فحاز رضاهم بدفاعه ، وكاد يعلن نيابته عن الوالى لولا أن رأى مركزه لايقل خطراً على مركز طاهر :

ابتداء ظهور محمد على

لعدم قدرته على دفع مؤخر رواتب الجند، وعلى مقاومة خسرو باشا والمماليك معاً بمن كان تحت إمرته من الألبانيين . فرأى أنه من الحكمة والكياسة أن ينضم الى عثمان بك البرديسى هو ومن معه ، فتحالفا ونصَّبا ابراهيم بك الكبير نائباً عن الوالى العثمانى لكبر سنه ومكان احترامه عند المماليك ، وطردوا الانكشارية من مصر

اتحاده مع البرديسى على خسرو

تدخل والى ينبع

وكان بمصر وقتئذ « أحمد باشا » والى المدينة و ينبع ، ماراً بها : يستمدّ واليها ويتأهب للخروج الى منصبه ، ويؤلف حملة يكافح بها الوهابيين . فاشترك فى هذه الحوادث وفى مقتل طاهر باشا ، وجعل نفسه والياً على مصر ، أو على الأقل نائباً عن خسرو ريثما يحضر من دمياط . وكاد يتم له مراده ، لولا مناصبة محمد على وابراهيم بك له وعدم اعترافهما له بأى حق فى التدخل فى شئون البلاد . ولم يشعر بسلطته أحد لأنها لم تدم أكثر من يوم وليلة . ثم جاء التقليد من الاستانة بنيابتهِ عن الوالى حتى يحضر ، ولكن بعد فوات الفرصة: فانهم طردوه و باقى الانكشارية من مصر ، فخرج الى الحجاز

ثم أن البرديسى ومحمد على تعاونا على اخضاع المماليك الثائرين الذين كانوا يهددون العاصمة . وبعد أن تم لهما ذلك عملا على بت الأمر فى قضية خسرو ، فأعدّ لذلك عثمان بك البرديسى جيشاً برياً ، أما محمد على فانهُ جهز أسطولاً صغيراً ونزل به الى دمياط . وكان قد أخذ لذلك عدته ، وبعد مناوشات خفيفة أخذ خسرو سجيناً الى القاهرة

اخذ خسرو سجينا

على باشا الجزائرى

ولما علم الباب العالى بسير الأحوال فى مصر استولى عليه الخوف والقلق ، واتضح له جلياً أن خسرو أصبح غير لائق لولاية مصر ، فأصدر عهداً بتولية « على باشا الجزائرى » . ونزل هذا الوالى الجديد بالاسكندرية فى ربيع الأول سنة ١٢١٨ هـ ( ٨ يولية سنة ١٨٠٣ م ) ، فرأى أنهُ لا يمكنهُ مقاومة البرديسى ومحمد على بحد السيف ، فاتفق معهما ظاهراً ، على حين أنه كان يعمل فى الخفاء على هدم قوتهما وتكوين حزب وطنى مصرى يناهض المماليك . ولكن من سوء حظه أن بعض مراسلاته مع السيد

« السادات » وقعت فى يد البرديسى ( وكان هذا ضيفاً عنده ) ، فاحتال البرديسى فى قتله ، وتمّ له ذلك فى شوال سنة ١٢١٨ هـ ( يناير سنة ١٨٠٤ م )

محمد الالفى

وفى الشهر التالى لمقتل على باشا الجزائرى ظهر رجل ذو سطوة وبأس وأعوان كثيرين وهو «محمد بك الألفى» الذى يُعدُّ من اكبر المماليك فى الديار المصرية. وذلك أنه رجع من انجلترة بعد أن مكث بها سنتين، وكان قد سافر اليها عام ١٨٠٢م مع الحملة الانجليزية . وسبب سفره أن الانجليز كانوا عاهدوا المماليك فى واقعة سنة ١٨٠١ م أن يأخذوا بناصرهم ، ليتخذوهم صنائع وأعواناً لهم بمصر اذا اقتضى الحال تدخلهم فى شئونها مرة أُخرى . فلما رجعت الحملة صار يتغنى قوادها بفروسية المماليك وشجاعتهم وخدماتهم ، فسهل على الأمة الانجليزية تعزيز هذا الاتفاق ، وعزموا على مساعدة الألفى وحماية المماليك . فلما وصل الى السواحل المصرية علم أنه لا يمكنه الوصول الى ضالته إلاَّ بتوحيد قوى المماليك وجعلهم تحت حماية الانجليز ، وكان ذلك لا يتم له الاَّ بالاتحاد مع البرديسى عدوه العنيد ، وابرهيم بك الكبير . فلما نزل عند بوقير قابله أعوانه بكل حفاوة واكرام . وإذ كان فى ريبة من أمر البرديسى اتخذ مسكنه فى دمياط ، وأصدر الأوامر الى أتباعه بالاجتماع فى ضيعته بالجيزة ، ومعهم كل ما يمكن جمعه من العدة والعدد ، على أن يلحق بهم بعد

اتحاد محمد على والبرديسى على الالفى

إلاّ أن وصوله الى الديار المصرية لم يرُق فى نظر كل من البرديسى ومحمد على : لأن الأول رأى أن من الخطل أن تكون نتيجة خلعه والبين وقتله ثالثاً أن يشاركه فى السلطة مناظر كان بعيداً عن الديار أثناء حربه معهم ، وفاته أنه لو اتحد مع الألفى كما اتحد مع ابرهيم بك لاستعادوا سلطة المماليك فى مصر ، لأن محمد على غريب عن البلاد وهو وحده لا يقوى على مقاومتهم . ولكن تدبير محمد على ودهاءه وسعوده كلها حالت دون اتفاقهم ، خصوصاً أنه رأى البرديسى فى قبضته ولا داعى قط لإشراك مملوك آخر فى حكم البلاد . فاتفق الاثنان على أن يتخلصا من محمد الألفى ، وفعلاً حاصر محمد على ومن كان معه من الألبانيين قصره فى الجيزة وأخذ أتباعه

فرار الالفى الى سورية

على غرة ، وقتل منهم خلقاً كثيراً ، وفر الباقون . أما البرديسى فسار بجيشه ليفتك بالألفى فى طريقه الى القاهرة ، فقابله بالمنوفية هو وحاشيته . فأفلت الألفى من يده وهرب الى سورية ، أما من كان معه فقتل معظمهم وسلب كل ما معهم من المتاع والمال

تظاهر محمد على بالخضوع للدولة

اتّبع محمد على اثناء كل هذه المكافحات التى ناصب بها السلطان ومحمد الألفى خطة أظهرت ما كان عليه من الدهاء والحكمة ، إذ أنه اختفى وراء الستار ، وأظهر البرديسى بمظهر العاصى فى وجه السلطان والمهاجم للألفى بك ، مع أن محمد على كان يساعده فى جباية الأموال اللازمة للجيش الذى كانا يستظهران به على من ينازعهما السلطة

تأليبه الاهالى على البرديسى

ولما هرب الألفى من الديار المصرية طلب محمد على من البرديسى رواتب الجند وأنذره أنه اذا تأخر اضطر الى تركه وحيداً وساعد الترك عليه وانضم اليهم . فلم يسع البرديسى إلاّ تلبية طلبه ، وبذل كل جهده فى جباية ما يلزم من المال بالقوة من التجار ، فأثار غضب الأهالى وهيّجهم ، ولا سيما أن ذلك أعقب ضرائب فادحة جمعتها الحكومة واستعمل الجباة فى استخراجها العنف والشدة معهم ، اذ كانوا يضربون من يمتنع منهم ، وقد يقتلونه

استمالة قلوبهم

فانتهز محمد على هذه الفرصة وانسلخ من البرديسى ، وأظهر استياءه لجمع هذه الضرائب الفادحة ، ووعد الأهالى بالأخذ بناصر الذين يعارضون فى جمعها ، فمال اليه الناس ، وأصبح محبوباً عند عامة أهل القاهرة وأشرافها . ولما وثق من أن الرأى العام

مهاجمة البرديسى

يؤيّده ، وأن هذه أحسن فرصة للقضاء على سلطة البرديسى والتخلص منه ومن أتباعه قام فى فجر يوم ٣٠ ذى القعدة سنة ١٢١٨ ﻫ ( ١٢ مارس سنة ١٨٠٤ م ) هو وجميع من التف حوله من الجند وحاصروا قصر البرديسى ( الذى كان محصناً بالمدافع ) فتمكن محمد على من رشو رجال مدفعية البرديسى فحوّلوا مدافعهم على سيّدهم . إلاّ

فرار البرديسى وابراهيم بك

أن البرديسى وابراهيم بك الكبير اقتحما الطريق وفرّا هاربين الى بلاد سورية

فصفا الجو عندئذ لمحمد على، وأصبح صاحب الكلمة النافذة فى القاهرة . إلاّ أنه رأى الفرصة لم تحن بعد للقبض على زمام الأمور فى الديار المصرية للأسباب الآتية:

العقبات الباقية

(١) أنه رأى لابد من أن عثمان بك البرديسى ومحمد بك الألفى سيتفقان على مناوأته ، وهو لا يقوى على مكافحتهما متحدين

(٢) أن أتباعه من الجند لم تكن إلاّ عصابة صغيرة من الألبانيين لا تقوى على منازعة جميع المماليك

(٣) انه كان يُعتبر فى هذه الفترى خارجاً على الدولة لاشتراكه فى خلع خسرو ، وأن الدولة ربما أرسلت جيشاً لقهره والضرب على يده

فأراد أن يتخلص من هذا المأزق الحرج باذاعته أنه يريد تحرير القطر المصرى من جور المماليك وعسفهم ، حتى يكون قد خدم الدولة خدمة جليلة تمحو ما مضى من سيئاته وعصيانه . ومهّد السبيل لذلك أنهُ لما علم أن الباب العالى عيَّن والياً جديداً بدلاً من الجزائرى* قام فى الحال وأطلق خسرو باشا ( وكان سجيناً ) ليتولى الأمور حتى يصل الوالى الجديد . ولكن الجند لم يرضوا بأى حال إعادةَ تنصيبه والياً ، فاضطر محمد على بعد اطلاقه بثلاثة أيام أن يسفره الى رشيد ، ومن ثم أبحر الى القسطنطينية بعد أن أظهر له عجزه عن حمايته

خورشيد باشا

وبعد هذا الحادث بزمن وجيز وصل « أحمد خورشيد باشا » الوالى الجديد ، واعترف بتوليته كلُّ الجيش : من ترك وألبان ، وأذعنوا له بالطاعة . ولكنه أظهر بعد فترة من الزمن انهُ والٍ ضعيف الارادة غير كفء لهذا المنصب ، وعجز كسابقيهِ عن دفع مرتب الجند الأتراك ، فرجعوا الى السلب والنهب . أما محمد على فاتبع الطريق الأقصد ، ومنع اتباعه مَن الألبانيين من مصادرة الأهالى ، بل كان بالعكس يجتهد فى حمايتهم من ظلم الأتراك وعسفهم . ولما رأى الأهالى ما ارتكبه الجنود ثاروا على الوالى والتجئوا الى محمد على ليوقف هذه المظالم ، فأمنّهم على حياتهم وأموالهم بشرط

ضعفه وتمرد الجند

التجاء الاهالى الى محمد على

* ويسمى على باشا الطرابلسى أيضا نسبة الى طرابلس الغرب

أن يدفعوا له من المال ما يقوم بحاجة أتباعه من الألبانيين . وفى هذه الأثناء جاء الى خورشيد باشا الوالى أمر سلطانى باستدعاء الألبانيين وقائدهم محمد على ، فتأهب هو وجنده للرحيل من الديار المصرية . فرجاه كبار الأمة وعلماؤها فى البقاء بمصر خوفاً من تسلط الأتراك وبطشهم ، فقبل ذلك منهم وأبى الرجوع . وفى هذه الأثناء جمعت المماليك جموعها على مقربة من المنية ، للإغارة على القاهرة ، فولى خورشيد محمد على قائداً على الجيش الذى أعده لمحاربة المماليك ، فحاربهم فى عدة وقائع لم تكن فاصلة . وفى خلال هذه الحروب وصل جيش من الدلاة من قِبل الباب العالى اكثر همجية وأبشع حالاً من الجيش الذى فى داخل البلاد ليحل محل الألبانيين فلما علم محمد على بذلك ظن أنهُ وقع بين نارين ، فقفل راجعاً الى القاهرة وواجه الجيش الجديد جهة « البساتين » و« دير الطين » وأخبرهم أنهُ لم يحضر لخلاف ولاعصيان ، ولكن لطلب النفقة والمؤونة ، وأنهُ يرمى معهم الى غرض واحد وهو تأييد الوالى والسلطان وابادة المماليك . فانخدعوا بقوله ، وأفسحوا له الطريق ، فدخل القاهرة دخول المنتصر بعد أن اتفق مع الدلاة وأجزل لهم العطاء والهدايا فأصبحوا معهُ على الوالى . وسمح لهم بالذهاب فى طول البلاد وعرضها ، يجمعون الضرائب ويأكلونها

بقاؤه بمصر رغم ارادة الدولة

اتفاقه مع الدلاة

ولما عاثت جنود الاكراد ( الدلاة ) فى الأرض فساداً قام الأهالى فى وجه خورشيد ، وطلبوا من محمد على أن يحميهم ويكون الوالى عليهم ، فقبل ذلك وشنَّ الغارة على الوالى . فاعتصم هذا بالقلعة ، ولما لم يجد له وسيلة يتخلص بها من محمد على اجتهد فى الحصول على عهد من الباب العالى بتنصيب محمد على والياً على جدة . فلم يلتفت محمد على لهذا التنصيب ، وحاصر خورشيد باشا فى القلعة ، وأطلق عليها المدافع اطلاقاً ذريعاً ، وذلك فى صفر سنة ١٢٢٠ هـ ( مايو سنة ١٨٠٥ م )

محاصرته خورشيد باشا

وحينئذ اجتمع علماء البلد ووجهاؤها وأقاموا محمد على والياً على مصر ، فقام اليه الشيخ الشرقاوى و« السيد عُمَر مكرَم » نقيب الأَشراف وألبساه «الكرك» ايذاناً

الاهالى يختارون محمد على واليا

بالولاية . وكان فى يد السيد عمر أمر العامة فى جميع أنحاء مصر : لا يعصون له أمراً . فأيد أمر محمد على بنفوذه وجاهه اكثر من أربع سنين تأييداً لم يقم به أحد مثله . وأرسل العلماء رسولاً الى الباب العالى ليلتمس العفو عما فرط منهم فى حق الوالى ويرجو اعتماد تنصيب محمد على خلفاً له . فعلم السلطان من ذلك مقدار ميل الأهلين لمحمد على، وأيقن أنهُ أصبح صاحب الكلمة العليا فى مصر ، فوافق على تنصيبه والياً عليها فى ربيع الثانى سنة ١٢٢٠ هـ ( يولية سنة ١٨٠٥ م ) . ولما علم خورشيد باشا بهذا النبأ سلّم له القلعة وتخلى عنها

قبول الباب العالى ذلك

## ﴿ توطيد سلطة محمد على فى مصر ﴾

الصعوبات الباقية

كانت لا تزال سلطة محمد على بعد يوليه سنة ١٨٠٥ مزعزعة الأركان : لأن اختياره والياً كان بالرغم من الباب العالى ، فكان أولياء الأمور فى القسطنطينية يتحيّنون أول فرصة للتخلص منهُ ، فانهُ وإن كان أدار الشؤون المصرية بالضبط والمهارة ، وقام بها خير قيام ، لا يبعد أن يجاهر يوماً ما بالعصيان فى وجه الباب العالى كما فعل من قَبل . هذا الى أن ما حاق بالمماليك من المصائب والنكبات المتتابعة جعلهم يتحدون معاً على محمد على عدوّهم العنيد . ثم دهمه أمر لم يكن فى الحسبان وهو ورود حملة انجليزية لغزو مصر . والسبب فيها يرجع الى تحالف فرنسا مع الترك بعد توليته بعام ونصف ، وكانت فرنسا إذ ذاك فى حرب عوان مع انجلترة ، فأرسلت الأخيرة حملة لتغزو البلاد المصرية باتفاق مع حليفتها الروسيا مؤملة أن ترجع البلاد المصرية الى حكم المماليك على الأقل ونقضى على آمال الترك فيها ( وأرسلت أيضاً أسطولها ليقتحم الدردنيل ) . فساعد الحظ محمد على باشا وتخلص من كل هذه الأخطار التى كانت تحدق به ، الواحد بعد الآخر : فأرضى الباب العالى ، وقضى على المماليك وسلطتهم ، وتغلب بمعونة الأهالى وحامية رشيد على الحملة الانجليزية

ابتداء التغلب على المماليك

ذكرنا سابقاً أن المماليك كانوا يهددون القاهرة فى أول ولاية محمد على ، وكان هذا

أول خطر يحدق به ، لأن جميع ما لديه من الجند كانوا مشاة لايقوَون على مكافحة فرسان المماليك ، خصوصاً فى الخلوات حيث يمكنهم الكرّ والفرّ بكل نظام وبدون أدنى خطر ، فدبر لهم مكيدة أنفذها بعض الموالين له : وذلك أنهم اتفقوا سراً مع رؤساء المماليك على أن يفتحوا لهم أبواب القاهرة فى يوم الاحتفال بفتح الخليج : أى فى الوقت الذى يكون فيه محمد على وجميع ضباطه مشغولين لاهين فى الاحتفال خارج المدينة على شرط أن يدفعوا لهم مالاً فى مقابل هذه الخدمة . فاغتر المماليك ووقعوا فى هذه الاحبولة . فلما حل اليوم المعهود دخلوا المدينة من باب الفتوح ، فلم يجدوا فى حراسته الاَّ ثلة ضئيلة من الفلاحين تغلبوا عليها بدون عناء . ثم ساروا قاصدين باب زَوِيلة ، فلما صاروا فى قلب المدينة انصبت عليهم النيران من جانبى الشارع من النوافذ وكان قد استعد لذلك محمد على ، فلما تنبهوا لغلطتهم التجأ اكثرهم الى جامع برقوق ، وسلَّم معظمهم عند ما أمَّنهم الوالى على حياتهم . الاّ أنه رغم ذلك ذبح معظمهم فى جمادى الثانية سنة ١٢٢٠ هـ ( أغسطس سنة ١٨٠٥ م )

الصعوبة المالية

ثم أراد محمد على أن يجمع مالاً لإعطاء الجند مرتبهم مخافة أن يُعزل كسابقيه ، وأراد أيضاً ان يجزل العطايا الى أمير البحر التركى ( وكان راسياً بأسطوله فى مياه الاسكندرية ، يحمل الأوامر بمساعدة المماليك على محمد على ) . ولما رأى أنه من المحال أن يضرب الضرائب على الفلاحين ، ولا سيما أن جميع الأراضى كانت لاتزال فى قبضة المماليك ، جمع بعض المال من أقباط مدينة القاهرة ، ووجـد بفحص دفاتر الحساب أن الجُباة منهم اختلسوا مالايقل عن ٤٨٠٠ كيس ، فأجبرهم على دفعها ، وبذلك أجزل العطايا الى أمير البحر التركى وأرجعه من حيث أتى ، وكان ذلك فى اكتوبر سنة ١٨٠٥ م . ولم يمر على هذا الحادث الاَّ زمن يسير حتى عاد أمير البحر التركى نفسه يصحبه « موسى باشا » والى سلونيك ليكون والياً على مصر ، ولينتقل محمد على معـه ليتولى منصب موسى باشا . فتظاهر محمد على باظهار الطاعة لأوامر الباب العالى ، ثم ادَّعى أنه يتعذر عليه أن يغادر مصر توًّا ، لأن الجنود أبوا عليه النقلة ،

صدور عهد بنقـله الى سلونيك

ولا حيلة له فى دفعهم ، فإن فئة كبيرة من الضباط عاهدوا أنفسهم وأغلظو الايمان والمواثيق ألاّ يخضعوا لأحد غيره ، وأن يعاضدوه ويأخذوا بناصره ولو على السلطان

تظلم العلماء والاشراف

وقد تظلّم العلماء والأشراف لدى الباب العالى والتمسوا ابقاء محمد على . ومن حسن حظه أن نشبت فى هذه الفترة نار حرب بين الروس والترك ، فاضطر الترك بطبيعة الحال الى استدعاء أسطولهم الى المياه التركية ، فأبحر الأسطول بعد أن أجزل محمد على العطاء لأمير البحر وموسى باشا معاً . وأخيراً وصل الى مصر فى ٢٤ شعبان سنة ١٢٢١ هـ ( نوفمبر سنة ١٨٠٦ م ) عهد بتأييد محمد على فى منصب والى مصر

تأييده فى الولاية

اتحاد البرديسى والالفى عليه

وفى أثناء هذه الحوادث جمع الألفى بك والبرديسى شعث جيشهما ، وأوثقا عرى التحالف بينهما وبين البدو ، وشنا الغارة على محمد على فى بلاد الوجه البحرى . وشجعهم على ذلك الأسطول التركى الذى كان راسياً فى المياه المصرية . فاشتبك الألفى مع فرقة أرسلها عليه محمد على ، فانهزمت عند «النجيلة» ، ثم انضم الألفى بعد انتصاره الى البرديسى وحاصرا دمنهور ، فدافع الأهالى عنها دفاعاً صادقاً ، وأظهروا شدة وبسالة لم تكن فى الحسبان ، على حين أن الألفى والبرديسى كانا يتنازعان السيادة والأفضلية . وكان محمد على يستعد للواقعة الفاصلة بينه وبين المماليك بعد ماتخلص من الأسطول التركى كما تقدم ، فساعدته السعادة وحسن الجد بموت عدويه العظيمين : فمات البرديسى بالحمى فى سنة ١٢٢١ هـ (اكتوبر سنة ١٨٠٦ م) ، ومات الألفى فى ذى القعدة سنة ١٢٢١ هـ ( يناير سنة ١٨٠٧ م) وبموتهما تفرّق اتباعهما أيدى سبأ ، وفرّ معظمهم الى الوجه القبلى

موت البرديسى والالفى

الحملة الانجليزية

ثم وصلت الحملة الانجليزية التى اسلفنا الذكر عن سبب مجيئها الى الديار المصرية باختصار . وكان الغرض من هذه الحملة تأييد سلطة المماليك ونزع البلاد من يد الباب العالى ، ولكن كانت نتيجتها الفشل التام . والسبب فى ذلك يرجع الى غلو الانجليز فى تقدير ما كان لدى المماليك من الجند

وصلت هذه الحملة فى أول المحرم سنة ١٢٢٢ هـ ( مارس سنة ١٨٠٧ م ) واستولت

على الاسكندرية . ثم سيّر قائدها « فريزر » قوة لتحتل رشيد ، فتغلبت عليها أولاً لضعف حاميتها ، إلاّ أن الحامية عادت وأخذتهم على غِرَّة وبددت شملهم . ولما علم محمد على بما جرى فى الاسكندرية رجع من مطاردة المماليك فى الصعيد الى القاهرة وجهز جيشاً سيّره الى رشيد ، فالتقى هو وأهالى البلاد من رشيد ودمنهور و بعض أهل البحيرة مع الانجليز عند قرية « الحماد » ( جنوبى رشيد ) ، وهزموهم شرَّ هزيمة . ثم ذهب محمد على الى جهة الاسكندرية وأراد أن يحاصرها ، ولكن ولاة الأمور الانجليز كانوا أرسلوا الى قائد الحملة بالرجوع ، فأخلى الاسكندرية بعد أن عقد شروط الصلح مع الوالى فى دمنهور ، وتركت الحملة البلاد المصرية فى رجب سنة ١٢٢٢ هـ ( سبتمبر سنة ١٨٠٧م ) . أما العمارة البحرية التى أرسلتها الأمة الانجليزية لاختراق الدردنيل فانها حُطمت ولم ينج منها الاّ بضع سفن

انهزامها عند الحماد

وكان من نتائج هذه الحملة رضاء الباب العالى عن محمد على . فمنحه السلطان خلعة وسيف شرف ، وأمر بإرجاع ابنه ابراهيم اليه ( وكان معتقلاً فى القسطنطينية ) وقد صار لهذه الإنعامات السلطانية أثر عظيم فى توطيد سلطته إذ كان فى هذا الوقت فى وجل شديد من جنده ، حتى أنه استعد للاعتصام بالقلعة اذا تألبوا عليه

رضاء الباب العالى عن محمد على

## القضاء على المماليك

لما وثق الباب العالى من محمد على أراد أن يستخدمه فى اصلاح شؤون الدولة ، فأول أمر كلفه إياه اخضاع طائفة الوهابيين الذين كانوا يتدخلون فى أمر الحج واحتلوا الحرمين الشريفين وسلبوهما . ولهذه الطائفة مذهب خاص سنتناول الكلام عليه فيما بعد . فجاءت الأوامر الى محمد على باخضاع هؤلاء القوم ، فاضطرَّ أن يُعِدَّ جيشاً أعظم عدداً وأكثر تدرباً من الجيش الذى عنده . وأن يكون له أسطول لنقل الجنود فى البحر الأحمر ، فوجد أن لامندوحة من زيادة الضرائب الى درجة أقصت عنه كل من كان ملتفاً حوله . ولقد كان مركزه إذ ذاك غاية فى الخطر ، فرأى أن لا يتحرك

الخوف من المماليك

بجيشه الى محاربة الوهابيين قبل أن يقضى على البقية الباقية من المماليك ، وخاصة بعد أن ظهر له أنهم جميعاً مزمعون على قتله . وكان قد رأى أولاً أن يتفق معهم ، وأرسل لهذا الغرض حسن باشا الأرناءوطى يبلغهم أنه يعطيهم كل ضياعهم ، فأبوا ذلك ، ففكر فى قهرهم بحدّ السيف ، فحاربهم فى موقعة عند أسيوط انهزم فيها جيشهُ . إلاّ أن المماليك انتكث فتلهم وتفرقوا ثانية فى طول البلاد وعرضها ، فى أواخر رجب سنة ١٢٢٥ هـ ( أغسطس سنة ١٨١٠م ) ، ولم تمضِ مدة يسيرة حتى خُدع شاهين بك ( رئيس المماليك بعد موت الألفى ) واحتال لذلك محمد على بمنحه كل الأراضى التى على ضفة النيل اليسرى من الجيزة الى بنى سويف وفيها الفيوم . فخضع كل المماليك اقتداءً بهِ ، ووقّعوا على شروط الصلح فى سلخ عام ١٨١٠ م ، ورجعوا الى القاهرة واتخذوا مساكنهم فى قصورهم كما كانوا من قبل

استرضاء المماليك فى الظاهر

وكان شغل محمد على الشاغل فى هذه الأثناء تخليص الحرمين الشريفين من أيدى الوهابيين . إلاّ أنه لم يجرُؤ على تسيير جندى واحد الى بلاد العرب ما دامت المماليك تهدد ولايته وتناصبه العداء . وكان على يقين من وثوبهم به فى أول فرصة تتغيب فيها الأتراك عن البلاد ، وقد تمثل له جلياً مبلغ تحفزهم لقتله غِيلة عند ما وافته الأخبار وهو فى مدينـــة السويس مهتماً بشؤون الحملة الى بلاد العرب من « محمد بك لاظ الكخية » يحذّره من المماليك ، وكانوا يريدون اغتياله وهو راجع الى القاهرة . فأخذ الحيطة ، وبدلاً من مكثه فى السويس الى اليوم الذى ضربه لرجوعه تركها فى غَلَس الظلام على ظهر نجيب سريع العدو غير معلن أحداً وجهته ، ووصل القاهرة فى فجر اليوم الثانى يصحبه أربعة من الخدم . فهذه المؤامرة وغيرها جعلته يفكر فى القضاء عليهم بأية وسيلة قبل أن يسبقوه الى ذلك

سبب الفتك بهم

وفى شهر صفر سنة ١٢٢٦ هـ ( فبراير سنة ١٨١١م ) جمع محمد على جيشاً مؤلفاً من ٤٠٠٠ جندى فى القاهرة بقيادة « طوسون باشا » ثانى أولاده ، لغزو بلاد العرب وإخضاع الوهابيين . ورأى أنه لا بد قبل مسير الحملة من الديار من الاحتفال

مذبحة المماليك بالقاهرة



محمد على فى القلعة وقت مذبحة المماليك

(رسم على افندى يوسف) — عن صورة بدار الكتب السلطانية



بها وتسليم وسام الشرف السلطانى له . فدعا فى اليوم المضروب جميع ضباط الجيش والأعيان وعدداً عظيماً من الجند . ثم دعا جميع المماليك ورؤسائهم ، وأعدّ لهم وليمة فاخرة تذكاراً لهذا اليوم المشهود ، فاجتمع الجميع فى القلعـة فى يوم الجمعة خامس صفر ( أول مارس ) ، وكان عددُ من حضر من المماليك يقرب من الخمسمائة

وكان الغرض الحقيقى من دعوة المماليك التخلص من شرهم ودسائسهم ، فأسرّ محمد على بذلك الى « حسن باشا » و « صالح قوج » الأرنئوطيين فقط ، وفى صبيحة هذا اليوم أسرَّ به الى « ابراهيم أغا » ( حارس الباب ) . فنُظّم الموكب فى القلعة على الترتيب الآتى :

ابتدأ الموكب بعساكر الدلاة ، ثم تبعهم العساكر الانكشارية ، ثم الجنود الألبانية بقيادة صالح قوج ، وتلاهم المماليك ، ففرقة من الجنود النظامية . فلما صار الموكب وانفصل الدلاة ومَن خلفهم من الانكشارية عند باب العزب ، أمر صالح قوج باغلاق الباب وأشار الى طائفته بالمقصود ، فأعملوا السيف فى رقاب المماليك ، وقد انحصروا جميعهم فى المضيق المنحدر ، وهو الحجر المقطوع فى أعلى باب العزب ( بين الباب الأسفل والباب الأعلى ) الذى يتوصل منه الى رحبة سوق القلعة . وكان قد جهز محمد على عدداً من الجند على الحجر والأسوار ، فلما بدئ بالضرب من أسفل أراد المماليك التقهقر ، فلم يستطيعوا الى ذلك سبيلاً ، وذلك لوجود خيلهم فى مضيق صغير جداً لا يسع جوادين جنباً الى جنب ، وقد أعمل جنود محمد على فيهم السيف قتلاً وفتكاً حتى فنى كل من كان منهم فى القلعة

اضطراب القاهرة

ولما قُتل شاهين بك كبير المماليك ، وعلم الناس بهذا الخبر ، أغلقوا الحوانيت ، وصارت العساكر بعد ذلك تنهب وتسلب فى جميع أنحاء العاصمة ، بدعوة البحث عمن هرب من المماليك للفتك بهم . ولما علم محمد على بما ارتكبه الجنود من السلب والنهب

وجل محمد على

ركب جواده ونزل بشخصه يمنع العسكر من ارتكاب هذه الجرائم . وقد حذا حذوه ابنه طوسون باشا فى إيقاف الجنود عند حدها . ويقال ان محمد على كان

فى شدة الوجل خوفاً من خيبة تدبيره ، وكان قد أعد الخيل للهرب اذا لم يفلح

وفى اثناء حدوث هذه الحوادث فى القاهرة أصدر فى الوقت نفسه أوامره لكل حكام المديريات بقتل من يعثرون عليه من المماليك ، فكان مجموع من قُتل منهم بالقاهرة والمديريات يزيد على الألف . وهكذا انقرضت هذه الطائفة التى عاثت فى الأرض فساداً اكثر من ستة قرون أذاقت فى خلالها المصريين كل صنوف الذل والعذاب

## ٢ — ﴿ الحروب الوهابية فى بلاد العرب ﴾

منشا الوهابيين

من اعظم الثورات المشهورة ، واكبر الفتن الدينية التى شاهدتها بلاد العرب من عهد القرامطة، الثورة التى اضرم نارها الوهابيون . وذلك أنهم أثبتوا فى حماستهم العسكرية وشجاعتهم البدوية صفات العرب القديمة وتمسكهم بالدين . ومؤسس هذه النهضة رجل اسمه « عبد الوهاب » من بنى تميم بنجد ، وقد أُطلق على ما كان متمسكاً به من العقيدة « المذهب الوهابى »

عبد الوهاب

وُلد عبد الوهاب صاحب هذا المذهب عام ١١٠٨ هـ ( ١٦٩٦ م ) فى قرية تسمى « العُيَيْنَة » من اقليم « العارِض » . وقد جاور فى أثناء شبابه بمكة والمدينة ومعظم مدن الشرق المشهورة ، وخاصة البصرة . ولما رأى فى أثناء سياحاته العدة أن الدين الحقيقى داخلَهُ الفساد ، وتسلطت عليه البدع والمنكرات ، عزم على إصلاح ما أفسده المفسدون . وكانت قواعد مذهبه وسياسته على غاية من الايجاز فى الاصلاح الاسلامى

المذهب الوهابى

وكان الوهابيون فى عقيدتهم ومذهبهم على طريق أهل السنة والجماعة . والأساس الأصلى لمذهبهم هو توحيد الله ، واعتقاد أن النبى صلى الله عليه وسلم انسان أدَّى ما يجب عليه من إبلاغ الرسالة ، ورفض جميع تفاسير القرآن التى لم تأت من طريق السنة . ومن معتقداتهم أن الناس عند الله سواء ، وكلهم عباده ، اكرمُهم عنده أتقاهم

وأصلحهم فى أعماله ، وبنوا على هذا الاعتقاد أن الاستغاثة بالذين توفوا من الأولياء الصلحاء والأنبياء إثمٌ عند الله ، وبدعة حدثت فى الدين يجب استئصالها وازالة كل أثر يقويها، كالتناصيب التى على القبور والقباب وما أشبهها، فأزالوها وحرّموا زيارتها والتوجه اليها والاستغاثة عندها . ويرون ان الحلف بسيدنا محمد صلى الله عليهِ وسلم جريمة كبرى ، ويلعنون مَنْ يكثر من الخضوع للموتى لعناً مؤبداً ، ولا يلفظون بلفظ « سيد » للنبى صلى الله عليهِ وسلم فى صلاتهم

أما آدابهم فهى على نقاء وصفاء ، إذ يحرمون جميع الموائع المسكرة وكل المواد المخدرة، ويحرمون جميع أنواع الفجور والفسق والعدول عن الحق والانصاف، والعمل بالحيل والخداع ، والاغتصاب والمقامرة . أما فى شهامة التعصب الحقيقى للدين فإنهم يغارون على كل صغيرة مخلة بالدين الحق . ووجَّهوا أيضاً جل قوتهم الى تحريم الملابس الحريرية ، والترف فى العيش ، وحلق الرأس ، والبكاء والنحيب على الميت

محمد بن سعود

ولما أراد عبد الوهاب نشر مذهبه قام فى وجهه أناس كثيرون واضطهدوه . ففرّ هارباً الى « الدرعية » ، وهى احدى مدن نجد وعلى بُعد ٤٠٠ ميل من شرق المدينة . فحماه « محمد بن سعود » حاكمها ، ومال الى مذهبه فاعتنقه وعمل على نشره . وكان غرضه من ذلك أن يمدّ سلطانه على البلاد العربية ، فاتخذ ذلك وسيلة الى مطامعه الشخصية ، فامتد سلطانه وسلطان ابنه « عبد العزيز » على جميع بلاد نجد من سنة ١١٥٩ الى ١٢٠٦ هـ ( ١٧٤٦ - ١٧٩١ م ) . ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن عبد الوهاب عاش حتى رأى مذهبه منتشراً فى طول البلاد وعرضها ، وتوفى سنة ١٢٠١ هـ ( ١٧٨٧ م ) بعد أن بلغ من العمر الخامسة والتسعين تقريباً ، تاركاً ثمانية عشر ولداً من عشرين زوجة

وفاة عبد الوهاب

ولقد أقلق بال شريف مكة انتشارُ مذهب عبد الوهاب وازدياد نفوذ عبد العزيز ابن سعود فى البلاد العربية، فجرَّد فى عام ١٢١٣ هـ ( ١٧٩٨ م ) حملة على عبد العزيز كان نصيبها الفشل

عبد العزيز ابن سعود

ولما أمن عبد العزيز جانب شريف مكة (لأنه كان لا يقوى على مقاومته) وجّه جُل عنايته الى نشر مذهب الوهابية وتوسيع نطاق ملكه فى وادى الفرات ودجلة. فلم يوفّق الى ذلك لأن والى بغداد هزمه هزيمة منكرة، وان كان لم يقتف أثره فى أواسط بلاد العرب خوفاً من هلاك جيشه فى وسط الصحراء. ومن ذلك الحين لم يجرؤ عبد العزيز على محاربة والى بغداد. الاّ أنهُ قام فى عام ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م) وهاجم «كربلاء» وقتل رجالها واستحيا نساءها وانتهك حرمة ضريح الحسين وسلب أشياء كثيرة. وفى العام التالى دخل مكة بدون معارضة من شريفها «غالب»، وكان قد تركها وانحاز الى جُدة

فتحه مكة

وفى نفس العام قام أحد المتعصبين من الأعجام واغتال عبد العزيز وهو يصلى، انتقاماً لما ارتكبه من الفظائع فى كربلاء، فقام باعباء الملك بعده ابنه «سعود الثانى» وهو أعظم رجال هذه الأسرة، إذ وصلت فى عصره مملكة الوهابيين الى أوج عزها ومجدها. وقد دخل فى السنة التى تولى فيها الضريح النبوى، ونهب كل ما فيه من الكنوز، ومن هذا العهد أصبحت بلاد العرب كلها تحت سلطانه. ثم ابتدأ من عام ١٢٢١ هـ (١٨٠٦ م) يتشدد فى جمع الضرائب، حتى كره الناس حجّ بيت الله الحرام. ومن غلوه فى مذهبه أنه أغلق أبواب جميع القهوات وحرَّم شرب الدخان ولبس الحرير وغيره مما يُتزيّن به

سعود الثانى

ومما سبق يُعلم ان ما كُلفه محمد على من قبل الباب العالى كان فى الحقيقة فتح بلاد العرب للدولة من جديد، وكان بقاؤه على ولاية مصر متوقفاً على نجاحه فى اخضاع الوهابيين

مهمة محمد على

## حملة محمد على على الوهابيين

اعداد الاسطول

قبل أن يعدّ محمد على حملته على بلاد العرب كاتبَ شريف مكة، ولما وثق من موالاته له، وعلم أنه لم يَنْقَدْ للوهابيين الاّ كرهاً، جهز جيشاً عظيماً يبلغ ٨٠٠٠ من الألبانيين وأرسله بطريق البحر الأحمر فى أسطول أعده لهذا الغرض، كان يصنع

سفنه قطعاً مفككة بالقاهرة ، ثم يرسلها الى السويس على ظهور الإبل لتركّب هناك وقد أفاد هذا الأسطول فائدة عظيمة إذ به يمكنه أن يُسيطر على جميع ثغور العرب ويصبح فى قبضته كل التجارة وطرق الحج الى بيت الله الحرام

وصول طوسون الى ينبع

نزلت هذه الحملة فى ثغر « ينبُع » بقيادة ابنه طوسون ، فلم يلقَ بها أدنى مقاومة لأن شريف مكة « غالباً » سلّمها طوع ارادته ، ومن ثم سار نحو المدينة . وكان العدو قد كمن له ، فتغلب فى طريقه بعد مناوشات خفيفة على قريتى « بدر » و « الصفراء » . الاّ أن العدو بيّته عند « الجُدَيّدة » فى درب ضيق جداً وكاد يقضى على كل الجيش ، فلم يبقَ منه الاَّ ٣٠٠٠ جندى التجئوا الى ينبع بعد أن أنهكهم التعب ، وهرب بعد هذه النكبة كل الألبانيين . فلما علم محمد على بذلك استشاط غضباً وأنّب « صالح قوج » رئيسهم على تخاذلهم وما أظهروه من الجبن . وكان يريد الفتك بصالح قوج ، لولا ما له عليه من المآثر خصوصاً بلاءه فى حادثة القلعة ؛ فاكتفى بنفيه من مصر مع من هرب معه من الألبانيين بعد أن أجزل لهم العطاء ، وكان يعتقد أنه لا يهدأ له بال ما دامت هذه الفئة الثائرة المتمردة فى داخل البلاد

انهزامه عند الجديدة

فتح المدينة

وفى عام ١٢٢٧ هـ ( ١٨١٢ م ) أرسل محمد على مدداً الى طوسون بطريق القُصَير ، فسار به نحو المدينة ودخلها عنوة بعد أن دوّخ الوهابيين. وكانت هذه ضربة قاضية على سعود الثانى ، وابتدأ المذهب الوهابى يتدهور بعض الشىء . ثم ذهب طوسون توّاً الى مكة بطريق جدة ، فلم يلقَ الاَّ الاكرام من شريف مكة وسلمه مفاتيح الكعبة ، فأرسلها طوسون هى ومفاتيح الحجرة الشريفة الى والده ، فأرسلها الى الباب العالى يبشره برجوع الحرمين الى حوزته . وأراد بعد ذلك طوسون أن يقتفى أثر الأعداء فى داخل البلاد ، فهزمه الوهابيون شرّ هزيمة عند « طرَبة » ، وهى بلدة صغيرة شرقى مكة وعلى مقربة منها . وكانت خسائر هذه الهزيمة عظيمة جداً ، حتى ان سعوداً زحف بجيشه على المدينة ثانية وهددها بالأخذ عنوة

انهزام طوسون عند طربة

ولما وصل خبر هذه النكبة الى محمد على عزم على أن يتولى قيادة الجيش بنفسه .

خروج محمد على الى الحجاز

فأخذ العُدَّة لذلك ، وتوجَّه الى الأقطار الحجازية ، ولما وصل هناك أدى فريضة الحج ، ثم علم من بعض الأفراد أن الشريف غالباً مذبذب فى ولائه ، فاحتال فى القبض عليه بواسطة طوسون ابنه ، وأرسله الى القسطنطينية حيث قُتِل هناك بعد مدة وجيزة

ثم ابتدأ محمد على بعض مناوشات مع الوهابيين لم تكن فاصلة ، وكان كلا الفريقين يخاف منازلة خصمه

وفاة سعود وتضعضع الوهابيين

وفى أوائل سنة ١٢٢٩ هـ ( ١٨١٤م ) مات سعود الثانى ، وبموته فقد الوهابيون أعظم ساعد وأكبر بطل . بلغت فى مدته دولتهم شأواً بعيداً لم تبلغه من قبل ولا من بعد ، فان عبد الله ابنه الذى خلفه كان أقل منهُ ذكاء وفروسية وقدرة . وكان

عبد الله سعود

آخر ألفاظ فاه بها سعود يوصى بها ابنه الأكبر . « يا عبد الله لا تدخل فى حرب مع الترك فى ميدان مكشوف أبداً ، والزم أنت وعساكرك فى حربهم المواقع الصعبة حتى لا يتيسر لهم النصر ، وخذ لنفسك الحذر ، ولا رادّ لقضاء الله وقدَره » . ولو اتبع

انهزامه عند بيصل

عبد الله هذه النصيحة لما تغلب عليه المصريون قط ، الاّ أنه خالف والده والتحم مع محمد على فى أول واقعة عند « بَيْصَل » حيث دارت الدائرة فيها عليه ، وذلك فى سنة ١٢٣٠ هـ ( ١٨١٥ م )

عودة محمد على

ثم حصلت حوادث فى هذه الفترة اضطرت محمد على أن يرجع الى مصر ، منها أنه لما علم بهرب نابليون من منفاه فى « إلبا » ، وتوقع احتمال غزو الترك للبلاد المصرية ، رجع مسرعاً بطريق القصير فقنا ، ووصل القاهرة فى اليوم الذى جرت فيه موقعة « ووترلو » . ومنها أنه علم أيضاً بتدبير مؤامرات على عزله وقتله ، وظن أن ذلك بايعاز من رجال الباب العالى . أما رئيس المؤامرة فهو « لطيف باشا » أحد المماليك ، وكشف سرها « الكخيا لاظ أوغلى باشا » وكان نائباً عنه أثناء تغيبه عن البلاد ، فقتل لطيفاً ومن معه بعد أن حاول الهرب والاختفاء . وكان غرضه أن يكون والياً على مصر اذا نجح فى قتل محمد على

عودة طوسون ووفاته

وعند عودة محمد على همَّ بتنظيم جيشه على الطراز الغربى ، فأبى عليه ذلك الجند مُقَلّدِين الأتراك فى ذلك ، ولما علم طوسون بتلك الفتن والفلاقل من جهة وتألب الجيش عليه من جهة أخرى عاد مسرعاً الى مصر ، وتوفى بالاسكندرية عقب مرض لم يمهله اكثر من عشر ساعات

وكان قبل سفره قد عقد شروط صلح مع الوهابيين ، الاَّ أنهم نبذوها ظهريًا ، ولذلك جهز محمد على حملة أخرى على بلاد العرب بقيادة ابنه ابراهيم باشا فى شوال سنة ١٢٣١ هـ ( سبتمبر ١٨١٦ م ) . ولم يسلك ابراهيم طريق السويس ، بل نزل فى النيل بجنده ( فى سفن أعدت لذلك الغرض ) الى قنا ، ومن ثم على ظهور الأبل الى القصير ، ثم الى ينبع ، ومنها الى المدينة المنورة

خروج ابراهيم باشا

قد أعمل الفكرة ذلك البطل العظيم فى استنباط الخطط الحربية التى وفَّقته بين صميم عظماء الرجال ومشاهير القواد ، وأعانه على تنفيذ تلك الخطط مَهَرَة الضباط والمهندسين الفرنسيين . على أن والده قد أوصاه أن يحارب كل قبيلة معاضدة للعدو على انفراد، ليكون بذلك أقدر على الفتك بجنودها، وتفريق كلمتها وتمزيقها شر ممزق كما نصح له ألاَّ يتوغل داخل البلاد ، وحذره من الإغارة على الدرعية من طريق غير طريق المدينة المنورة ، ليحفظ لنفسه خط الرجعة ، وليكون وصول المدد اليه من السهولة بمكان . وأول موقعة التحم فيها جيشه مع الوهابيين كانت عند « الرَّس » سنة ١٢٣٢ هـ ( ١٨١٧ م ) وفى هذه الملحمة انهزم جيشه هزيمة لم تثن من عزمه ، ولم تفت فى ساعده ، بل استمر سنة كاملة فى كفاح وجلاد ، حتى ذلل كل صعوبة اعترضته فى هذا المضمار . ولذلك أخضع قرى كثيرة ، وصار قاب قوسين أو أدنى من الدرعية حاضرة الوهابيين ، وهى على بعد ٤٠٠ ميل من المدينة المنورة التى اتخذها قاعدة لأعماله الحربية

واقعة الرس

حصار الدرعية

وابتدأ ابراهيم باشا فى حصار الدرعية فى جمادى الثانية سنة ١٢٣٣ هـ ( أول ابريل سنة ١٨١٨ م ) ، فمكث مدة يعالج فتحها وهو مستعص عليه . وفى غضون ذلك

انفجر مخزن ذخيرته ، فلم تفتر همته ، ولم يساوره اليأس ، لأنهُ كان على يقين من استياء العالم الاسلامى أجمع من فظاعة الوهابيين . هذا الى أن تلك الحرب فى الحقيقة كانت حرباً بين العنصرين التركى والعربى ، وكلاهما يود لو يضعف الآخر أمامهُ . فيميل عليه ميلة واحدة يكون فيها القضاء المبرم عليه

تخريب ضواحى الدرعية

بعد ذلك أخذ ابراهيم باشا يمد يد التخريب والتدمير فى ضواحى مدينة الدرعية ،



عبد الله سعود فى سرادق ابراهيم باشا

تسليم عبد الله

ليحول بينه وبين المؤنة والمدد . وبذلك اضطر عبد الله الى الخضوع والاستسلام لسيطرته وسلطانه ، فسلم نفسه فى ذى القعدة سنة ١٢٣٣هـ ( سنة ١٨١٨ م ) . ولم يعامله ابراهيم باشا الاَّ بكل كرامة واحسان ، ثم أرسله الى والده بالقاهرة ، فبالغ فى اكرامه أيضاً ، ثم أرسله الى الباب العالى بعد أن استرد منهُ كل ما سلبهُ من الحرم الشريف . وبعد وصوله بزمن يسير أُمِرَ بهِ فقتل . فلما بلغ أهل الدرعية مقتله هاجوا وماجوا ، وانتثر عقد نظامهم ، فأرسل محمد على فى طلب قرابة عبد الله الى القاهرة وأجرى عليهم وظائف تقوم بمعاشهم

تخريب الدرعية

أما مدينة الدرعية فأصبحت أثراً بعد عين ، لأن ابراهيم باشا رأى بقاءها عامرة حجر عثر فى طريقه ، ولو تركها من غير تخريب لكانت ركناً مكيناً ومعقلاً حصيناً لأعدائهِ ، فلم يبقِ عليها لذلك . وساعده على تخريبها الأهالى أنفسهم تقرُّباً اليه واسترضاءً له

هكذا انتهت الحروب فى بلاد العرب بعد القضاء على سلطة الوهابيين ، الذين كانوا يدعون أنهم يسعون فى سبيل استرداد مجد الإسلام الضائع

## ٣ — ﴿ فتح السودان ﴾

أسباب فتح السودان

بعد أن تم النصر المبين لمحمد على وقضى على الوهابيين القضاء المبرم ، واستأصل شأفتهم من بلاد العرب ، عنّت له حاجة شديدة الى فتح السودان وضمه الى سلطانه ونفوذه . وذلك لأسباب سياسية ومادية

الاسباب السياسية

أما الأسباب السياسية فتلخص فيما يأتى :

لما قضى محمد على على دولة المماليك فى مذبحة القلعة هرب أُناس كثيرون منهم واعتصموا بالوجه القبلى ، فطاردهم ابراهيم باشا حتى اجتازوا الحدود المصرية وتحصنوا فى دنقلة وأقاموا بها القلاع والحصون ، وقد احتال محمد على فى القبض عليهم والإيقاع بهم فلم يفلح

هذا الى أنّ جنده الألبانيين كانوا خطراً عليه فى كل وقت ، لأنهم كانوا لا يُنزلونه من أنفسهم الاَّ منزلة فرد منهم ، وكان الضباط يشقّون عصا طاعته ويأتمرون فيما بينهم به ليسقطوه ، ولم يذعنوا للإصلاح الذى أدخله فى الجيش . ولذلك كان يصدّرهم فى مقدمة الجيش عند الالتحام ليبيدهم ويقضى عليهم ، فيربأ بنفسه عنهم ويستبدل بهم أبناء السودان ( الذين شبّوا على الشجاعة والصبر ومقاومة أعباء الحروب ) بعد تدريبهم على الفنون الحديثة الحربية ، لأنه اعتقد ان أبناء مصر لا يصلحون للتجنيد لما ينقصهم من الصفات التى تؤهلهم لذلك .

أما الأسباب المادية فتلخص أيضاً فيما يأتى :

الاسباب المادية

أراد محمد على فتح السودان ليتسنى له بذلك تجديد طرق القوافل التى كانت بين مصر والسودان فيتسع نطاق التجارة بين القطرين ، ويناله من هذه التجارة ما يفرضه عليها من ضرائب ومكوس جمة ، حتى يسترد ما أنفقه فى محاربة الوهابيين ، ويكون ذلك مورداً دائماً من موارد خزانته ، فضلاً عما كان يسمع عن السودان وما فيه من مناجم الذهب الغنية التى يمكن استخراجها والانتفاع بها

وان من البواعث التى حركته لفتح السودان ما رآه من أن سعادة مصر متوقفة على استحواذه عليه وضمه الى ملكه ، لأن ريف مصر متوقف ريّه على روافد النيل العليا ، ولذلك أصبح من المحتم أن يكون النهر وروافده تحت سلطة واحدة ، ليمكنها بذلك توزيع المياه على حسب الحاجة مع مراعاة المصلحة العامة .

تجهيز الحملة وفتح سيوة

ولما عزم محمد علىّ على انفاذ رأيه ، ورأى أن فتح السودان أمر من العِظَم بمكان ، سيّر جيشاً بادئ ذى بدء الى واحة سيوة لإخضاعها قبل الزحف على السودان ، حتى لا تكون مصدر شرّ بجواره . فسار هذا الجيش الصغير فى جمادى الأولى سنة ١٢٣٥ هـ ( فبراير سنة ١٨٢٠ م ) ، فأخضع سكان الواحة ، وصارت جزءاً متمماً لمصر من ذلك الوقت .

أما حملة السودان فإنها ابتدأت السير من القاهرة فى شوال سنة ١٢٣٥ هـ

( يوليه سنة ١٨٢٠ م ) ، وكانت مؤلفة من ثلاثة آلاف راجل ، والف وخمسمائة فارس ، واثنى عشر مدفعاً ، وخمسمائة من عرب العبابدة تحت إمرة شيخهم « عابدين كاشف » ( وكان قد وعده محمد على بولاية دنقلة بعد فتحها ) . فتجمع الجيش فى اسوان ، حيث رُتبت هناك الميرة والذخيرة

خروج الحملة بقيادة اسماعيل

ولما خرج اسماعيل باشا ( وهو أصغر أولاد محمد على ) لتولى قيادة الجيش اجتاز هو ومن معهُ الحدود المصرية ، ودخلوا أرض دنقلة ، حيث تقيم البقية الباقية من المماليك الذين طاردهم ابراهيم باشا كما تقدم والتجئوا الى هذا الاقليم

فلما علموا بذلك انقسموا قسمين : قسماً سلّم صاغراً بدون معارضة، وآخر ركب رأسه فارًّا الى كردفان ، بعد أن تشتت شمله وناله من العناد والذلة ما ناله

ومما هو خليق بالذكر هنا أن ابراهيم بك الكبير مات بدنقلة قبل الحملة بزمن يسير ، وبموته انقرضت رؤساء هذا العنصر الذى حكم مصر نحو ستة قرون

واقعة كرتى

سار اسماعيل وبيده زمام القيادة العامة ولم يعترضه فى طريقه عقبات تذكر حتى وصل مدينة « كُرتى »، حيث سحق عرب الشائقية وشتت شملهم فى موقعتين فاصلتين ومن ثم يمم جيشهُ « بربر » ، ودخلها بدون مقاومة فى جمادى الثانية سنة ١٢٣٦ هـ ( مارس سنة ١٨٢١ م ) ، وفى ٤ شعبان من تلك السنة دخل أيضاً مدينة « شِنْدِى » التى سلمها الملك « نِمر » ، وتم له اخضاع قبيلة الشائقية . وما زال اسماعيل متوغلاً فى البلاد حتى وصل رأس الخرطوم، ثم حوّل وجههُ شطر النيل الأزرق . ولحسن حظه دخل « سنَّار » ، وهى حاضرة اكبر اقليم فى السودان ، بدون معارضة تذكر . وذلك أن سلطانها « بادى » وأخاه كانا إذ ذاك يتنازعان المُلك، فنجح اسماعيل فى تثبيت عرش « بادى » ، الذى قابله بكل تجلة وحفاوة ، ثم قبلَ أن يكون نائباً عن محمد على فى هذه الأرجاء الشاسعة مع الاعتراف بسلطانه . ومن هناك أرسل اسماعيل آلافاً من العبيد الى اسوان ، حيث أُعدّ لهم معسكر لتدريبهم على الفنون الحربية الحديثة

فتح بربر

وشندى

وسنار

مرض الجيش

وتفشى المرض فى جيش اسماعيل أثناء اقامته بسنار ، حتى اضطر الى أن يطلب

قلق اسماعيل

مدداً ومؤونة من أبيهِ ، لانحطاط قوة الجيش ، لقلة عدده وفتور عزيمته . ذلك الى ان جنده كانوا بين قبائل شتى معادية لهم ، ولا يمكنهم أن يصدوا هجماتهم اذا ثار ثائرهم وخرجوا عليهم

مدد ابراهيم

لذلك كان اسماعيل قلقاً مضطرباً ، ولكن هدأ روعه وسكن اضطرابه إذ علم بوصول المدد اليه ، فرجع قافلاً منحدراً الى ملتقى النيل الأزرق بالنيل الأبيض حيث وصل المدد الذى أرسله أبوه تحت إمرة أخيه « ابراهيم باشا » . فلما وصل اسماعيل بجيشه والتقى بأخيهِ اتفقا على تقسيم العمل والجيش معاً : فكانت مهمة اسماعيل الزحف بجيشه الى أعالى النيل الأزرق بقدر استطاعته ؛ وأما مهمة ابراهيم فهى الاستكشاف عن النيل الأبيض من الجهة الغربية ؛ وكان الباعث له على ذلك رغبته فى الوصول بجيشه الى المحيط الاتلنتى اذا كان النيل الأبيض متصلاً بنهر النيجر ، واذا لم يتحقق له ذلك عاد الى كردفان وعبأ جيشاً يسير به نحو الشمال مخترقاً الصحراء ، حتى يصل الى طرابلس ، ومن هناك الى البحر الأبيض المتوسط . وان هذه الخطة لتدل صراحةً على مقدار ما كان يطمح اليهِ محمد على وأولاده ، كما تدل على مقدار هممهم العالية وثقتهم بأنفسهم

تقسيم القيادة بين اسماعيل وابراهيم

نومات

وصل اسماعيل فى زحفه على النيل الازرق الى «تومات» ، أما ابراهيم باشا فقد اعترضه مرض شديد ، حال بينه وبين تنفيذ خطته ، واضطره الى العودة لمصر بعد أن وصل جيشه الى جبل « دِنـكا » جنوباً

جبل دنكا

وفى منتصف عام ١٢٣٧ ( ١٨٢٢ م ) أرسل محمد على جيشاً ثالثاً بقيادة صهره « محمد بك الدفتردار » لغزو كردفان ، فهزم بعض القبائل عند مدينة « بارا » ، واستولى على الأبيّض ، وضم اقليم الأبيض الى مصر

محمد بك الدفتردار يفتح الابيض

ومما قام به هذا الجيش أيضاً الانتقام من « نمر » ملك شندى على نكايته باسماعيل ومن معهُ

وذلك ان اسماعيل وهو عائد الى مصر ظافراً منصوراً أهان نمراً إهانة شنيعة ،

فأسرّها نمر فى نفسه ، وأخذ يفكر فى طريقة الانتقام من اسماعيل ، حتى بيّت رأيه على أن يأدب مأدبة فاخرة يدعو فيها اسماعيل ومن معه . فلما تمّ له ذلك ، ولبّى دعوتهُ اسماعيل ومن معهُ ، أمر أتباعه وأشياعه بأن يجمعوا حول نُزُله حطبًا ومواد ملتهبة ثم يضرموا فيها النار . ففعلوا ، فشبّت النار فى النُّزُل ، فدمرته وحرقت جميع من فيه ، وكان بين المحروقين اسماعيل ، الذى لبى دعوته جاهلاً بنيته الخبيثة

احراق اسماعيل وبناء الخرطوم

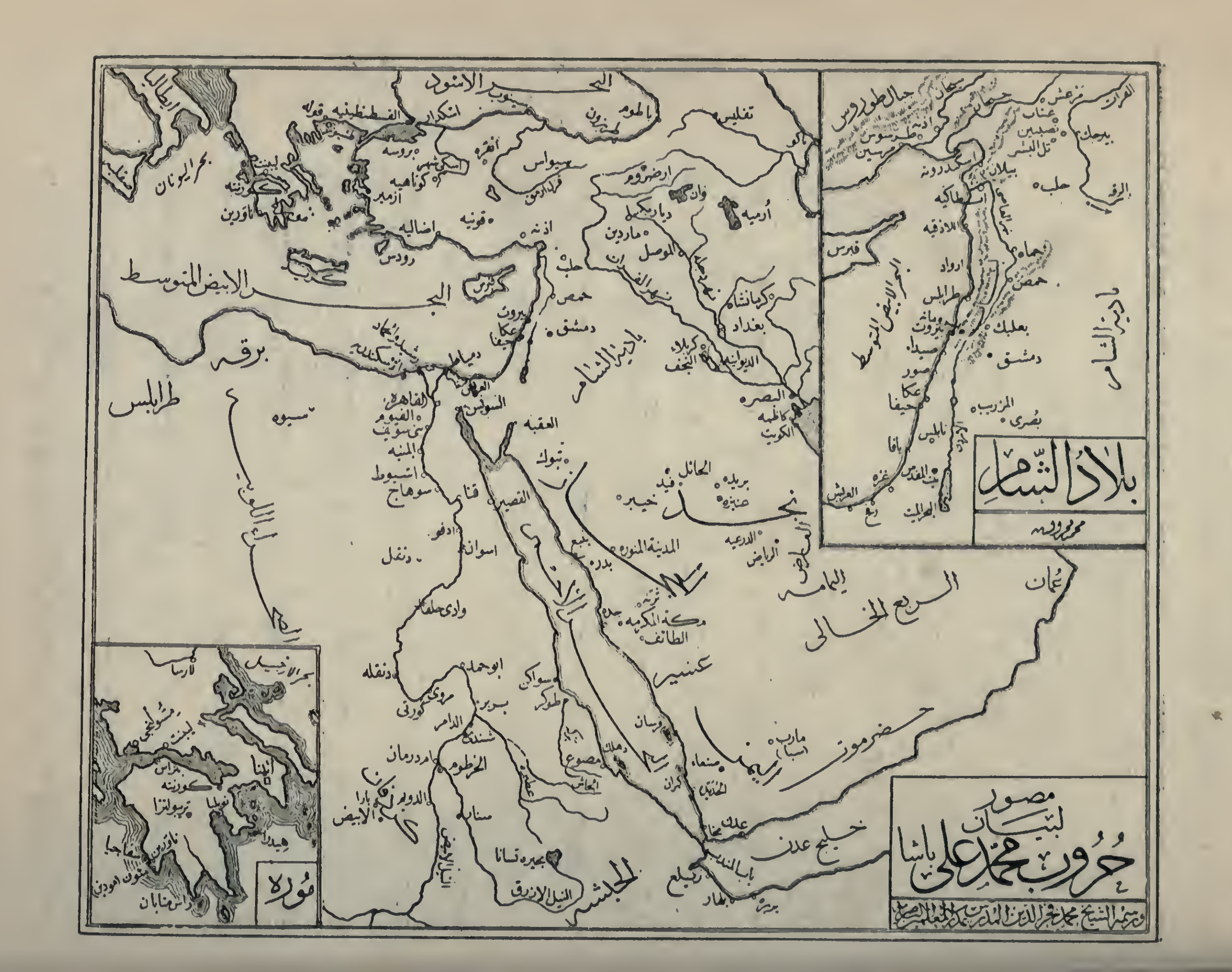
على أن الجيش لم يظفر بقتل نمر ، ولكنهُ أحرق شندى بعد أن أخضع كل الاقليم . وبعد ذلك بنى مدينة الخرطوم سنة ١٢٣٨ هـ ( ١٨٢٣ م ) ، وجعلها حاضرة البلاد

مقدار نجاح الحملة

ومما تقدم نعلم أن الحملة على السودان لم تقم بتحقيق جميع الأغراض التى كان يرمى اليها محمد على : لأنه لم يجد فى السودان ذهبًا يفى بنفقات استخراجه من مناجمه ، ولأن طرق القوافل لم تثمر لكثرة الضرائب الفادحة التى كانت تجبى على البضائع عند الحدود المصرية . أما التجنيد من أبناء السودان فلم يتحقق تمامًا ، لأنه جند منهم جيشًا عظيمًا ، ولكن جو مصر لم يكن ملائمًا لهم ، فمات عدد عظيم من هذا الجيش ، ولذلك أضرب محمد على عن التجنيد منهم وعاد الى التجنيد من المصريين

الرقيق

وقد ازداد الاتجار بالرقيق بعد فتح السودان زيادة عظيمة ، حتى اضطرت انجلترة وفرنسا للتدخل فى الأمر . فوعد محمد على أن يقضى على هذه الحرفة الشنيعة التى تنافى الانسانية ، ولذلك خرج لزيارة السودان عام ١٢٥٤ هـ ( ١٨٣٨ م ) ، وأمر بمنع بيع الرقيق جملة . ولكن رغم ذلك كله بقى الاتجار به منتشرًا الى زمن قريب ولم يضمحل تمامًا الا بعد الاحتلال البرطانى كما سيأتى


مصور
لبيان
حروب محمد علي باشا
بلاد الشام
مورة
البحر الابيض المتوسط
البحر الاسود
بحر اليونان
طرابلس
برقه
بادية الشام
نجد
الربع الخالي
اليمامة
عسير
حضرموت
خليج عدن
عمان
الحبشة
النيل الازرق
بحيرة تسانا
النيل الابيض
بحر الغزال
جبال طوروس
القسطنطينية
بروسه
قونيه
اضاليه
رودس
كريد
قبرص
سيواس
ارضروم
تفليس
دياربكر
ماردين
الموصل
بغداد
كرمانشاه
البصره
الكويت
حلب
حمص
دمشق
بيروت
عكا
حيفا
الاسكندرية
دمياط
القاهرة
الفيوم
بني سويف
المنيه
اسيوط
سوهاج
قنا
اسوان
ادفو
دنقل
وادي حلفا
دنقله
سيوه
السويس
العقبه
تبوك
خيبر
المدينة المنورة
ينبع
بدر
مكة المكرمة
الطائف
جده
الدرعيه
الرياض
القصير
سواكن
مصوع
بربر
شندي
الخرطوم
سنار
كردفان
باب المندب
بادية الشام

## ٤ — ﴿ أعمال محمد على باشا فى الديار المصرية ﴾

### مقدمة

علمنا ما كانت عليه البلاد من الفوضى فى عهد العثمانيين ، وكيف كانت تئن تحت ظلم المماليك وعسفهم ، وجور الجنود الأتراك الذين ساموا العباد نهباً وسلباً ، حتى عمّ الفقر ، وكثرت الاضطرابات ، وأصبحت البلاد كأنها بلا حكومة . فلم يكن اصلاح هذه الحالة بالأمر الهين على كل من أراد النهوض بالبلاد وجعلها فى صف الأمم الراقية

صعوبة مهمة محمد على

فلما قبض محمد علىّ على زمام الأمور بمصر ، وهمّ باصلاح شأنها ، ظهرت أمامه كل هذه الصعوبات ، وعرف مقدار الاعباء الملقاة على عاتقه ، فلم يدع وسيلة فى سبيل تحقيق هذه الأمنية الاّ اتخذها . وقد كان يشعر بصعوبة المهمة التى أقدم عليها ، حتى قال فى حديث له عن اصلاحاته : « ان ثمرة غرسى سيجنيها أحفادى من بعدى ، لأن بلاداً عمّ فيها الارتباك وساد ، ودُرست فيها معالم الحكومة وآثارها ، وأصبح أهلها فى الدور الأول من النشء ، وبلغوا من الجهل درجة لا يتسنى لهم معها أن يقوموا بعمل نافع : لا يدخلها التمدين الاّ ببطء »

ملخص أعماله

ولو نظرنا الى الأعمال الخطيرة التى قام بها فى سبيل إصلاح البلاد لدهشنا من أن فرداً واحداً وُفّق لكل هذه الأعمال التى لا زالت خالدة بيننا الى الآن : فهو الذى وضع أساساً متيناً لحكومة عادلة منتظمة : وأنقذ البلاد من ذلك النظام الممقوت الذى وضعهُ السلطان سليم ، وهو تقسيم البلاد بين الوالى المُوَلّى من قبل الباب العالى وبين المماليك ، وأغاثها من جور الجنود العثمانيين الذين كانوا يغيرون على البلاد اذا تأخر ما هو مفروض لهم ، وأنشأ الطرق وحفر الترع وأصلح الزراعة ، وشيّد المعامل ودور الصناعة ، وأسس المدارس الابتدائية والثانوية والعالية ، واستحضر اليها كبار الأساتذة الغربيين لنشر العلوم الحديثة بين أبناء رعيته ، وأوفد البعوث العلمية الى

أوربا لتعود مزوَّدة بعلومها ومعارفها وأسرار تقدمها ، وكان فى ذلك يحارب جهل الأمة حتى قضى على ما عندها من خرافة أو عادة ممقوتة ، وكان يسوق التلاميذ الى تلقى العلوم والمعارف رغم معارضة آبائهم وعويلهم كأنما يُساقون الى الموت وهم ينظرون

تقدير أعماله

قام محمد على بتلك الأعمال الجليلة التى لا ينكرها انسان ، مع أنهُ لم ينل فى صغره نصيباً من التعلم ، كما أنهُ لم يكن ملماً تمام الإلمام بالحضارة الأوربية ، ولذلك لا يدهش المؤرخ خطؤه أحياناً فى بعض الاصلاحات والمشروعات الصناعية ، ولا يأخذ عليه ذلك ، بل يغتفر له غلطاته بملء صدره بشفاعة أعماله النافعة

محبته لمصر

واذا قلنا بأن غرضه الأول فى مصر لم يكن إلاَّ أن ينشئ لهُ ملكاً : ينصره بجميع الوسائل الممكنة لجمع الأموال وحشد الجنود لحروبه العدّة التى لم تجن منها مصر ثمرة تذكر ، فلا يغرب عنا أنهُ ما لبث حتى أدرك أن لا قيام لملكهِ إلاَّ باصلاح مصر ، فأخاصَ فى محبتها ، وعمل على أن ينهض بها الى مستوى الرقىّ والفلاح قدر استطاعته ، مقتدياً فى ذلك بالدول الأوربية العظيمة . وكفاه فخراً أنه أول حاكم شرقى أدخل المدنيّة الحديثة فى بلاده . وكثيراً ما كان يصرّح فى خلال أحاديثه بمحبته لمصر وميله لرقيها . من ذلك أنه قال لأحد الغربيين أثناء حديث له :

«لا شك أنك تعلم أن مصر كانت فى قديم الزمان سيدة ممالك العالم، وعلَمها الذى يُهتدى بهِ . أما الآن فقد أخذت أوربا هذه المكانة ؛ وانى لآمل أن يأتى يوم تنهض فيه مصر الى مكانتها الأولى فى التمدين والعمران. وما هذه الدنيا الاَّ صعود وانخفاض»

## الحكومة فى عهد محمد على

صعوبة مهمته

ان من يفكر فى الصعوبة التى تعترض الحاكم عند انشائه نظام حكومة جديدة فى بلاد كمصر كانت مجالاً فسيحاً للسلب والاضطهاد والفوضى ، لا يسعه الاَّ أن يعترف بأن ما قام بهِ محمد على فى تلافى هذا الخلل يستحق عليه أعظم ثناء ، ويجعله فى عداد كبار المصلحين : على قلة عددهم وبخل الزمان بأمثالهم . لذلك يُقابَل بالقبول ما بالغ

بهِ فى مدحه «السير مَرِى» فى مذكراته (صفحة من تاريخ حياة محمد على) إذ يقول: « ان العالم الاسلامى منذ فناء دولة العرب الزاهرة من بلاد الأندلس لم يظهر فيه حاكم يضارعه فى أعماله وصفاته، فَمثْلُهُ مَثَلُ صلاح الدين فى عدله وتسامحه الدينى »

ويجب على من يريد أن يحكم على محمد على وما أدخله على حكومة مصر من التغيرات ، وأن يقارنهُ بنابغ من ساسة عصره الغربيين ، أن يلاحظ الزمان والمكان لكل منهما ، حتى تكون مقارنته قوية الأساس ، لا يتطرق اليها الخطأ

نظام الحكومة

تولى محمد على الحكم فلم يغير ما كان عليه نظام الحكومة فى عصر المماليك حتى عام ١٢٤١ هـ ( ١٨٢٦ م ) ، وهو العام الذى أدخل فيهِ التعديل العظيم فى نظام الحكومة ، متخذاً الأنظمة التى وضعها نابليون للبلاد رائداً له

الديوان الخديوى

فأنشأ ديوانًا خديويًا[1] جعل مقرهُ القلعة ، وكان يرأسه الوالى ، وينوب عنهُ فى غيابه « الكتخدا » . وكان عمله الفصل فى الأمور التى ليست خاصة بالقاضى الشرعى أو التى لا يحتاج الأمر فيها الى عرضها على القاضى أو على أى مجلس آخر وذلك لظهورها وجلائها . وكان هذا الديوان يفصل فى القضايا التى يعرضها ضابط القاهرة[2] بعد تحقيقها ابتداء فى المحارس ( القرهقولات )

مجلس المشاورة الملكى

ثم أنشأ مجلسين : أحدهما كان يسمى « مجلس المشاورة الملكى » ويختار هو أعضاءه بنفسه ، وكان عددهم يتراوح ما بين ٣٠ و ٤٠ عضواً . وكانوا ينظرون فى شؤون البلاد العامة ، وعليهم تُعرَض القوانين قبل سنّها . ومع أن رأى هذا المجلس كان استشاريًا محضًا ، تمكن به محمد على من تخفيف عبء المسؤولية الملقاة على عاتقه أمام شعبه وأمام الدول الأجنبية

نظير مجلس الوزراء الدواوين الاخر

وأما المجلس الآخر فكان يسمى «المجلس المخصوص» وهو بمثابة مجلس الوزراء الآن . وقد أنشأ محمد على فوق ذلك عدة دواوين أخرى تنم أسماؤها عن اختصاصاتها.

---

(١) هكذا كان يسمى، وان كان لم يمنح لقب «خديوى» رسميا للوالى الا فى عهد اسماعيل

(٢) هذا الضابط بمثابة الحكمدار فى وقتنا هذا

وأهمها « مجلس المشاورة العسكرية » و « ديوان دار الصناعة ( الترسخانة ) أو البحرية » ، و « ديوان التجارة » ، وكان هذا الديوان مكوناً من تجار مختلفى الجنس والديانة يرأسهم نقيب ( شاهبَنْدَر ) التجار أو رئيس تجار القاهرة

تقسيم مصر

وقد اقتضت ادارته الداخلية للبلاد تقسيم القطر الى سبع مديريات ، والغاء الأقسام التى كانت فى عهد المماليك . ثم قسم كل مديرية الى عدة مراكز بلغت ٦٤ مركزاً . ثم قسم المراكز الى أخطاط أى نواحٍ يدير شؤونها موظف يلقب بالناظر ، وإلى قُرًى يتولى أمورها العمد ومشايخ البلاد . وكان غرضهُ من هذا التقسيم تسهيل جمع الضرائب

بيد أنهُ رغم هذه الأنظمة والتقسيمات كان يتولى مهامّ شؤون البلاد بنفسه منفرداً بالسلطة وحده : فكان يفاوض سفراء الدول الأجنبية بنفسه ، ويسمع شكوى رعاياه ومطالبهم بلا واسطة ، ويتصرف فى مالية البلاد ، ويقوم بالمشروعات العامة

## التقدم المادى

مقدمة

أراد محمد على أن ينهض بالبلاد بادخال الاصلاحات الغربية فيها ابتداء ، وفاتَهُ ان البلاد كانت تسبح فى ظلمات الجهل ، وانها فى حاجة الى زمن كبير تنفقه فى التعليم حتى تصل الى درجة تمكّنها من استثمار الأرض بالطرق الفنية وادارة المعامل والسير فى التجارة حسب ما يقتضيه النظام الأوربى الذى عمل على ادخاله فى البلاد . ولا شك انهُ كان يشعر بشىء من ذلك ، إلاَّ أن الأحوال التى وُجِدَ فيها كانت تحتّم عليهِ السير فى هذه الطريق بسرعة ؛ إذ كان فى شدة الحاجة الى المال للانفاق على الجيش ، ودفع الجزية للباب العالى ، وارضاء أولى الشأن فى القسطنطينية . ورأى انه لا يتم له هذا الغرض إلاَّ اذا جعل جميع موارد البلاد تحت سيطرته مباشرة : من زراعة وصناعة وتجارة

## الزراعة

كانت الزراعة أول عمل وجّه اليه محمد على عنايته الخاصة ، اذ رأى انها ينبوع ثروة البلاد ، وعليها يتوقف أهم دخلها السنوى . فجعل زراعة جميع الأراضى تحت إشرافه ، كى لا يفرّ أحد من دفع الضرائب . وتشدّد لذلك فى المحافظة على الأمن العام ، فقبض بيد من حديد على عصابات اللصوص التى كانت منتشرة فى جميع أنحاء البلاد

نزع ملكية الاراضى

ولم يكتف بضرب الضرائب الفادحة ، بل عزم على نزع مِلْكية جميع الأراضى ليستغلها على نفقته الخاصة . فلما همّ بإبراز هذه الفكرة الى حيز الفعل قامت فى وجهه صعوبات عظيمة كان لابد من تذليلها . وذلك أن الأراضى الزراعية فى مصر كان بعضها أوقافاً خيرية يدير شئونها جماعة العلماء ، وكان جزء آخر كبير جداً ملكاً للمماليك أصحاب الشأن والنفوذ فى البلاد ، وما بقى كان فى قبضة عامة أفراد الأمة . فاستعمل محمد على مع كل طائفة من هؤلاء التهديد والوعيد ، حتى أصبح المالك الوحيد لأكثرها . فانه استولى على أملاك المماليك فى الوجه البحرى بعد حربه مع الانجليز عام ١٨٠٧ م وطرده المماليك من ريف مصر الى صعيدها

الاستيلاء على الاوقاف

واستولى بعد ذلك على معظم الأراضى الموقوفة التى كانت تحت رعاية العلماء ، فجعل الوقف تحت رقابته من غير أن يحله ، فاحتج عليهِ العلماء وتجمهروا وعارضوه معارضة شديدة ، فأقنعهم بالدليل القاطع أنه الوالى من قِبَل الخليفة الذى يتولى أمور المسلمين جميعاً ، فهو أحق فرد فى مصر برعاية الوقف . ومن هذا الوقت بقى الوقف تحت إشراف الأسرة المحمدية العلوية

ونزع بعد ذلك ملكية الأراضى التى كانت لبقية الأفراد ، مدعياً حقّ التسلط على كل الأراضى لانه الحاكم النائب عن الخليفة المالكِ للأرض بحكم الفتح الاسلامى القديم . فاستحضر كلّ الملاّك وطلب منهم ابراز حقوق ملكيتهم ، فقدموا اليه حججهم رغم أنوفهم ، فكان يضرب ببعضها عرض الحائط ، ويظهر بطلان بعضها ، ويُمنى

بعض الملاّك أحياناً بعوض يُعطاه من الخزانة . ولما أصبحت جميع الأملاك فى قبضة يده جمع كل ما لديه من الحجج وأعدمها . وبتعاقب الأيام أصبح من المستحيل معرفة ما كان للمماليك أو للوقف أو لأفراد الأمة من الأرض ، اذ لم تقو المحاكم على معارضة محمد على ، وكانت الأهالى تحت رحمته . وبذلك أصبح معظم أراضى القطر فى قبضة يده الاَّ جزءا يسيراً كان فى قبضة بعض العلماء والأمراء

استخدام الفلاحين

اهتم بعد ذلك بتدبير الوسائل التى تسّهل عليهِ زراعة هذه الأراضى ، فاستخدم الفلاحين طبعاً فى زراعتها ، فاصبحوا بمثابة الموالى ، وكانت القاعدة أنه مادام الفلاح قادراً على دفع ما فرض عليه اداوءه من ثمرتها يبقى فى الأرض يتعيش منها وتخلفه من بعده ذريته

وظل الفلاحون هكذا محرومين من التمتع بحق امتلاك الأراضى الى زمن غير بعيد ، وذلك عند ماسنّ سعيد باشا قانونه المختص بأرض مصر ، وتلاه من بعده قانون المقابلة الذى وضعه اسماعيل باشا ، ثم القانون الذى سنته المحاكم الحديثة خاصًا بحق امتلاك الفلاح للأرض

مسح الاراضى

ثم أمر محمد على مديرى البلاد بمسح الأطيان وتقدير عدد الفدادين التى تخص كل قرية ، ما عدا الضياع التى كانت توهب للمقربين وذوى الحظوة : فهذه كانوا لا يتدخلون فى أمرها ، وكانت بالطبع شيئاً قليلاً . أما العدد الأوفر من القرى المصرية فكانت تحت سيطرة محمد على ، اذ كان يدير شؤون كل قرية فئة من مشايخ البلد يرأسهم عمدة مُنصَّب من قِبَل المدير ، مسئول أمامه عن مقدار ما يُطلب من قريته من الضرائب . ولذلك كان العمدة يوزع الأراضى على الفلاحين حسب اختياره ، ثم يجمع منهم الضرائب على قدر ما يفلح كل من الأرض . وما أشبه الفلاح فى هذه الحالة بالحيوان تحت رحمة العمدة . أما العمدة فكان مثله كمثل السوط فى يد المدير الذى كان صاحب البأس والسطوة ولا يسيطر عليه أحد الاّ الوالى مالك مصر الوحيد

ونظام جمع الضرائب

هذه هى الطريقة التى إتبعها محمد على منذ عام ١٢٢٣ هـ ( ١٨٠٨ م ) وسار على مقتضاها ٢٠ عاماً ، وبها أمكنهُ أن يجنّد الجيوش و يعدّ الأساطيل ويحارب الأمم ويخضعها

التصرف فى المحصولات

وكان من عادته أن يعيّن أنواع المحصولات التى تزرع فى كل بقعة من بقاع المملكة . ثم تأخذ المحصولات جميعها وتوضع فى أهراء الحكومة ، ويقدّر أثمانها طائفة من رجال الحكومة . فكان جزء منها يؤخذ فى مقابل الضرائب التى على الأرض ، وما بقى تشتريه الحكومة فتصنع بعضه فى مصانعها والجزء الأعظم يباع الى التجار الأوربيين ، وبهذا احتكر محمد على كل التجارة فى مصر

المحصولات التى ادخلها فى مصر

ولا يسعنا فى هذا المقام الاّ أن نذكر شيئاً عن المحصولات التى جلبها هذا المصلح الكبير الى البلاد ولا نزال ننتفع بها ، وكانت نتيجة زرعها ازدياد ثروة البلاد : مما أعانه على شنّ الغارة على أعدائه . وأهم هذه النباتات ، وأعظمها ربحاً للبلاد القطن

القطن

الذى أشار بغرسه المسيو « جوميل » فى عام ١٢٣٥ هـ ( ١٨٢٠ م ) ، وهو أحد النساجين الفرنسيين المستخدمين بالحكومة المصرية وقتئذٍ . وقد أنتجت تجارب زرعه محصولاً حسناً ، لجودة التربة وملاءمة الجو ، وبذلك ابتدأ طور جديد فى تاريخ مصر المادى . وجلب بذوره من الهند أولاً ثم من أمريكا فيما بعد من صنف يُعرف بقطن « الجزائر » وهو أجود نوع فى العالم . وقد كان يزرع القطن فى مصر قبل عصر محمد على بقرون عدة ، غير أنه كان من صنف ردئ ، ولا يعرف تاريخ جلبه الى البلاد

القنب والنيلة

وقد عُنى فرنسى آخر بزراعة القِنّب فى مصر ، لصنع الحبال اللازمة للأسطول . واهتمّ محمد على أيضاً بزراعة النيل ( النيلة ) ، فجلب لذلك الفلاّحين الملمين بزراعتها من جزائر الهند الشرقية . وأحضر من آسيا الصغرى زرّاعاً مهرة فى زراعة الخشخاش ، وزرع الغابات والحراج ، ليستغنى بها عن الأخشاب التى تُجلَب من البلاد الأجنبية

زراعة الحدائق

ولم يفته تحسين زراعة الجنائن ، إذ أنشأ ابنه ابراهيم باشا فى جزيرة الروضة حديقة

غنّاء ، فيها من الفاكهة والرياحين ما لذّ وطاب ، وذلك بهمة رجل ايقوسى من مهرة العالمين بفن الجنائن

مقدار فائدة الفلاح

ومما سبق يظهر جلياً أن جلب هذه المحصولات وزراعتها ، وتحسين حالة الرى ، ( مما سيأتى ذكره عند الكلام على الأعمال العامة ) : كان من اكبر النعم على مصر لو كان الفلاّح يضمن بيع محصوله بأثمان مناسبة . ولكن لسوء حظه كانت معاملاته كلها وبيع محصوله يتوقف على عمال الحكومة الذين يلاحظون الزراعة ، وعلى أمانة الذين يقدّرون أثمان المحصولات التى كانت تشترى جميعها الحكومة . والظاهر أن الفلاحين كانوا يتحمّلون فى ذلك مغارم كبيرة ، إذ كانت تُشترى منهم بأثمان بخسة وموازين مغشوشة ، فضلاً عن أنهم كانوا لا يأخذون أثمان سلعهم نقداً ، بل فى معظم الأحيان يُجبَرون أن يبادلوا بها مصنوعات معامل الحكومة ترويجاً لها

## الصناعة

الاهتمام بالصناعة

رأى محمد على أن الممالك الصناعية بأوربا على جانب عظيم من الثروة وسعة الرزق ، فحاول إدخال صناعاتها فى مصر ، وأن يشجّع الصناعات الوطنية أيضاً ، حتى يتسنى له صنع كل ما يحتاج اليه من لوازم الجيش ومعدات الأسطول ، وينافس الغرب فى صناعة المنسوجات

الصعوبات

ولا يخفى ما فى ذلك من المصاعب ، لضرورة جلب الفحم والحديد والأخشاب والآلات من الخارج ، ولأنه أيضاً يلزم المصريين زمن طويل وخبرة كبيرة حتى يصلوا الى درجة بها يمكنهم أن ينافسوا أعمال أوربا . إلاَّ أنهُ قاوم كل هذه الصعوبات وأنشأ عدة معامل فى أنحاء القطر ، وفت بغرضه مدة من الزمان

معامل الغزل والنسيج

فمن أهم ما أنشأه معامل الغزل ونسيج القطن والحرير والكتّان والصوف . فكان للقطن خاصة ثمانيــة عشر معملاً فى أمهات مدن القطر ، كالمنصورة ودمياط ورشيد ( التى كان ينسج فيها كِرْباسُ أشرعة السفن ) ، وفى المحلة الكبرى وزفتى ومُنية غمر

وبنى سويف . وأهم هذه المعامل معمل بولاق ، وكان يسمى « معمل مالطة » لكثرة المالطيين فيه ، وكان رئيسه المسيو « جوميل » الفرنسى

المبيضة

وأنشأ مُبَيّضة للمنسوجات بين بولاق وشبرا

معمل الجوخ

وأنشأ فى بولاق معملاً للجوخ ، أحضر له فى مبدأ الأمر رجالاً من الفرنسيين لإدارته ، ثم أرسل الشبان الى معامل « سيدان » و « ليون » بفرنسا ليتعلموا صناعته . فلما رجعوا حسّنوا صناعة هذا الصنف ، وصار يستعمل فى ملبوس الجيش

المصابغ

وأسس مصابغ للمنسوجات استعمل فيها النيل ( النيلة ) الذى كان يستخرج من البلاد

معمل الطرابيش

وأنشأ كذلك معملاً عظيماً للطرابيش بمدينة فوّة بادارة رجل مغربى ، وجلب له مهرة العمال من تونس ، فنجح نجاحاً باهراً ، إذ كان ما يصنعهُ فى اليوم يربو على ٧٢٠ طربوشاً

السكر والزيت

وأنشأ أيضاً معامل للسكر فى الصعيد : أهمها معمل الروضة ومعمل ساقية موسى وأوجد معاصر للزيت ، فكان فى الوجه البحرى منها عشرون وفى القاهرة أربعون

وقد وجّه عنايته الخاصة الى ايجاد جميع المواد الأصلية اللازمة لهذه الصناعات فى البلاد المصرية ، فأكثر من زراعة القطن والقِنّب والكتان ، كما أسلفنا . وربى

تربية الاغنام

الأغنام وعُنى بأمرها عناية عظيمة ، وجلب كل صنف منها لتحسين نوع الصوف الذى فى البلاد ، غير أن ذلك لم يُجد نفعاً لعدم ملاءمة الجو لهذه الأغنام ، فاضطر أخيراً للعدول عن ذلك ، بعد أن بذل فيهِ كل مجهود

ودودة القز

واجتهد أيضاً فى إنماء دودة القز فى البلاد ، ليستغنى بنتاجها عما يأتى اليهِ من الخارج ، فزرع لأجلها أشجار التوت بوفرة فى رأس الوادى ، وحفر السواقى لريها ، وجلب أناساً كثيرين ممن لهم دراية بتربية دود القز ، فبلغ ما جمعهُ من الحرير سنة ١٢٤٩ هـ ( ١٨٣٣ م ) عشرة آلاف أقة تقريباً

هذه بعض المصانع التى شيّدها محمد على فى أنحاء البلاد ، وناهيك بمصانعه

مصانع الجيش
تلاشى الصناعات

الأُخرى : من المسابك وغيرها من لوازم الجيش والأسطول . ولكنها لم تدم طويلاً للصعوبات التى بيَّنَّاها آنفاً ، وتلاشى بعضها فى مدة حياته ، واضمحل الباقى عقب موته ، وأصبحت كأن لم تكن : يشهد بذلك ما قاله أحد مهندسى الانجليز من أنه « زار دار الصناعة ببولاق عقب وفاة محمد على ، فوجد فيها من الآلات المهملة ما لا تقل قيمته عن ١٫٢٠٠٫٠٠٠ جنيه »

والسبب فى عدم اضمحلال هذه المعامل جملة فى أيام محمد على يرجع الى أمرين : أولها أنهُ كان القابض على زمام مالية البلاد ، فكان ينفق على هذه المعامل كل ما تحتاج اليه ، ثانيهما أن المحصولات التى كان يشتريها من الأهالى كان لايدفع ثمنها نقداً ، بل كان يبادل بها منهم مصنوعات المعامل . على أن معظم المعامل كما سبق أُغلق فى أواخر أيامه ، وبادت البقية الباقية منها فى أيام عباس الأول

## الأشغال العامة

اهم الاشغال
العامة

قام محمد على بعدة أشغال عامة عظيمة عادت على البلاد بالمنفعة الجليلة والفوائد التى لا تزال مصر تجنى ثمارها الى الآن . ومن أعظم هذه المشروعات ثلاثة : حفر ترعة المحمودية ، واصلاح مرفأ الاسكندرية ، وانشاء القناطر الخيرية

ترعة المحمودية

أولاً — ترعة المحمودية . لا يخفى أن تجارة مصر فى ذلك الوقت كانت تتوقف على نهر النيل وفروعه المنتشرة فى أنحاء البلاد . وكان أهم الثغور التجارية حينئذٍ دِمياط ورشيد، غير أنهما لوقوعهما عند مصبى النيل تسُد فُرَضَهما رمالُ البحرين وغِرْيَن النهر : مما يجعلهما غير صالحين للسفن الكبيرة التى تنقل التجارة الخارجية . ولاحظ ذلك محمد على ، فعزم على تحويل مجرى تلك التجارة الى الاسكندرية ، رغم ما بها من العيوب ، اذ هى معرضة للرياح الشمالية الغربية ، وماء البحر عندها ضَحْضاح . فرأى ان من أعظم المشروعات المفيدة لذلك حفر ترعة تربط الاسكندرية بالنيل، فحفرها وسمَّاها « المحمودية » نسبةً الى السلطان محمود الثانى . فأفادت هذه الترعة البلاد

فائدة كبرى، اذ أصبحت تجرى فيها السفن ذاهبة الى الاسكندرية حاملة حاصلات البلاد فى زمن قصير بدون مشقة كبيرة . وقد جمع الألوف من العمال وسخرهم لحفرها من جميع مديريات القطر، حتى تمت فى أقرب وقت مع الأبنية اللازمة لها . وقد بلغت نفقاتها ٣٠٠ ألف جنيه ، كما أورده « كلوت بك » فى كتابه على مصر

ومن فوائد هذه الترعة أيضاً انها كانت سبباً فى عمران البلاد التى مرت بها واحياء أراضيها من العطف الى الاسكندرية ، بعد ان كان اكثرها غير صالح للزراعة

أما مدينة الاسكندرية فانها تغيرت بسببها تغيراً عظيماً وجرت شوطاً بعيداً فى الثروة والعمارة . وبقيت هذه الترعة أعظم طريق للتجارة بين مصر والاسكندرية حتى أنشئت السكة الحديدية

ميناء الاسكندرية

ثانياً – ميناء الاسكندرية . بعد أن حفر محمد على باشا ترعة المحمودية كلَّف « موجيل بك » ان يصلح مرفأ الاسكندرية حتى يتسنى له بناء عمارة بحرية يحقق بها ما تطمح اليه نفسه ، ويجذب بها التجار الأجانب الى الثغر : تسهيلاً لبيع حاصلات البلاد التى كانت جميعها فى قبضة يده . فأصلحه وبنى فيه دار صناعة بحرية وأحواضاً لبناء السفن ، فاتسع بذلك نطاق المدينة ، وانتابها التجارُ من كل حَدَب وصَوْب وأصبحوا يتنافسون فى شراء حاصلات مصر ، حتى ان احدى الشركات التجارية الانجليزية اشترت فى عام من الأعوام محصول القطن كله

القناطر الخيرية

ثالثاً – القناطر الخيرية . هذه من أجل مشروعات محمد على باشا وأعظمها فائدة للزراعة ، وقد كان لها الفضل الأكبر فى تنظيم الرى فى الوجه البحرى

رأى نابليون فى انشائها

وقد قيل ان نابليون لما قدم الى مصر فى غارته المشهورة أدرك الفائدة التى تنجم عن انشاء قناطر على النيل عند تفرعه لتنظيم المياه فى الفرعين وقت انخفاضه ، لأنه اذا حُجزت المياه عن أحد الفرعين اتجه ماء النيل كله الى الفرع الآخر ، فيرتفع سطحه عن سطح النيل الأصلى ، وتفيض المياه منه الى الترع فتروى الأراضى . وقال نابليون عندئذٍ : « ان هذه الفكرة لا بد أن تخرج يوماً ما الى حيز الوجود »

فلم يمضِ طويل عهد حتى تحقق ذلك القول وظهر المشروع الى حيّز الوجود على يد البطل العظيم محمد على باشا . ومن أهم الأمور التى حَدَتْ بهِ الى انفاذه انتشار زراعة القطن فى الوجه البحرى ، اذ كان ينمو فى فصل الصيف ويُروَى فيهِ

تعميق الترع

وأول فكرة خطرت لمحمد على لتدارك ذلك أن يزاد فى عمق الترع حتى تنصب فيها مياه النيل وقت انخفاضه ، فتُرفع منها بالسواقى والشواديف وغيرها من آلات الرفع الى الأرض التى يراد ريها . غير أنهُ اتضح ان انفاذ هـذا المشروع يتطلب أموالاً جمة وجهداً عظيماً من الحكومة والأهلين لا يكاد يكون فى الامكان

سد أصم

ثم لاحظ محمد على ان اكثر ترع الوجه البحرى واقع بطبيعة الحال شرقى دال النيل وفى وسطها ، لارتفاع سطح الفرع الشرقى عن الغربى ، فعمد الى زيادة المياه فى تلك الترع باقامة سد أصم على الأخير يكوّن من احجار يُرمَى بعضها فوق بعض، ليمتنع الماء عن فرع رشيد ويرتفع فى فرع دمياط فيملأ الترع الكثيرة المتفرعة من هذا الفرع . وفعلاً شرع فى العمل سنة ١٢٤٩ هـ ( ١٨٣٣ م )

مشروع لينان باشا

ولكن « لينان بك » ( لينان باشا فيما بعد ) أحد المهندسين الفرنسيين النبغاء الذين كانوا فى خدمة الحكومة المصرية أشار عليهِ بعدم اقامة هذا السد الأصم ، لما ينشأ عنه من حرمان أراضى فرع رشيد ، ولرفعه مياه النيل وقت الفيضان فى فرع دمياط الى درجة يخشى منها . وعرض عليـه مشروعاً آخر ، وهو اقامة قنطرتين عظيمتين فى عرض فرعى دمياط ورشيد بعد نقطة افتراقهما عند رأس الدال ، فى كل قنطرة عيون تُحكم عليها أبواب تُرتَج فى كلا الفرعين بالتناوب أثناء الصيف ؛ فاذا حُجزت المياه قَبْلها عن فرع ارتفع الماء فى الفرع الآخر وملأ الترع العظيمة التى تستمد منه والتى يتوقف عليها الرى الصيفى فى الوجه البحرى . وفى أيام الفيضان تُفتح الأبواب ، فتسير المياه فى مجراها الطبيعى بلا مقاومة

فأعجب محمد على باشا بالمشروع الجديد وأمر بتشكيل لجنة لدرسه والبدء بإنفاذه

فى الحال* . وبعد فحص طويل قرّ رأى اللجنة على مشروع لينان باشا كما هو ، واختير لموضع القنطرتين موضعان على بُعد ٩ كيلومترات فى فرع رشيد و ٥ كيلومترات فى فرع دمياط . وعُمل التصميم على أن تستقى من النيل ثلاثة ( ريّاحات ) عظيمة : أحدها من فرع رشيد ، والآخران من فرع دمياط

ابتداء العمل

ثم ابتدأ العمل فى أواخر ١٢٤٩ هـ ( ١٨٣٣ م ) ، واستعان محمد على عَلَى انجازه بسرعة بتسخير الأُلوف من العمال . ولكن لسوء الحظ انتشر بالبلاد وباء عام ١٢٥١ هـ ( ١٨٣٥ م ) ، ففتك بكثير من العمال ، وكاد العمل يقف جملةً بالرغم من مقاومة لينان باشا ومثابرته . وما زال كذلك فى الاحتضار حتى نُصّب لينان باشا على وزارة الأشغال ، فلم يعد له ذلك الإشراف المباشر على إنشاء القناطر . وسئم محمد على بطء العمل ، وانقلب شغفه مللاً ، الى أن أمر بتشكيل لجنة للنظر فى الاستغناء عن المشروع . فأقرت اللجنة فائدة المشروع ، وأوصت بمواصلة العمل فيه ، ولكن ملل الباشا كان قد بلغ أشده ، فأمر بوقوف العمل واستعمال ما بقى من المواد المعدة له فى غيره من الأعمال

وقوفه

مشروع موجيل بك

وبقى المشروع كأن لم يكن ، الى أن قدم الى مصر مهندس فرنسى آخر يدعى « المسيو موجيل » ( موجيل بك فيما بعد ) عام ١٢٥٨ هـ ( ١٨٤٢ م ) ، فعرض على محمد على مشروعاً آخر ضمّنه انشاء قلاع على القناطر لجعلها مركزاً حربيًا للدفاع عن مصر ، لعلمه باهتمام الباشا بالشؤون الحربيـة . فأُعجب الباشا بالمشروع أيما اعجاب ، وأمر لينان باشا أن يمد موجيل بك بما لديه من المعلومات فى هذا الشأن

الفرق بين المشروعين

ويختلف مشروع موجيل بك عن مشروع لينان باشا بأن موضع القنطرتين فى الأخير كان على بعد ٩ كيلومترات من رأس الدال فى فرع رشيد و ٥ كيلومترات فى فرع دمياط ، بيد ان موجيل بك رأى اقامة القنطرتين فى موضعين قريبين جداً من

* ومن شدة رغبته فى انجازه على وجه السرعة انه أراد هدم أهرام الجيزة لاستخدام أحجارها فيه ، لولا أن أقنعه لينان باشا ان قطع الاحجار من المحاجر أسهل من ذلك وأشد اقتصاداً

رأس الدال ، فصارتا قريبتين احداهما من الأخرى كأنهما عمل واحد ، وفى ذلك تسهيل لإدارة حركة القناطر وصيانتها بعد انشائها . على أن مشروع لينان باشا كان يمتاز باختيار موضعين صالحين جداً لانشاء القناطر ، لصلابة الأرض عندهما وموافقة الشواطئ لذلك

السرعة الزائدة فى العمل

فشرع موجيل بك فى العمل عام ١٢٥٩ هـ ( ١٨٤٣ م ) مبتدئاً بفرع دمياط ، فلم تعترضه صعوبة تذكر ، الى أن ابتدأ العمل فى فرع رشيد فى سنة ١٢٦٣ هـ (١٨٤٧م ) . فأخذ الملل يستولى على محمد على ، وأمر أن تضاعف السرعة فى انجاز العمل ، فأضر ذلك بالأساس حتى صار من الضرورى اصلاحه فى العام التالى . ورأى موجيل بك أن يرجئ العمل سنة حتى يصلح وتعظم متانته ، فلم يرض الباشا .

وفاة محمد على

وبينا الأمر كذلك اذ مات محمد على عام ١٢٦٥ هـ ( ١٨٤٩ م ) قبل أن يرى نتيجة المشروع الذى طالما تاقت نفسه الى اتمامه

مظهر بك يتولى العمل

ثم تولى عباس باشا الأول ولم تكن له ثقة فى نجاح هذا العمل ، فأراد توقيفه ، لكنه خشى الرأى العام وسمح بمواصلته . وفى سنة ١٢٦٩ هـ ( ١٨٥٣ م ) أغضبه بطء موجيل بك فعزله وسلّم القناطر الى مظهر بك . ثم استؤنف العمل فى انجاز القناطر دون الشروع فى اصلاح أساسها وتقويم ما تصدع منها ، فتمت بكل لواحقها من طرق وشرفات وقلاع عام ١٢٧٧ هـ ( ١٨٦١ م )

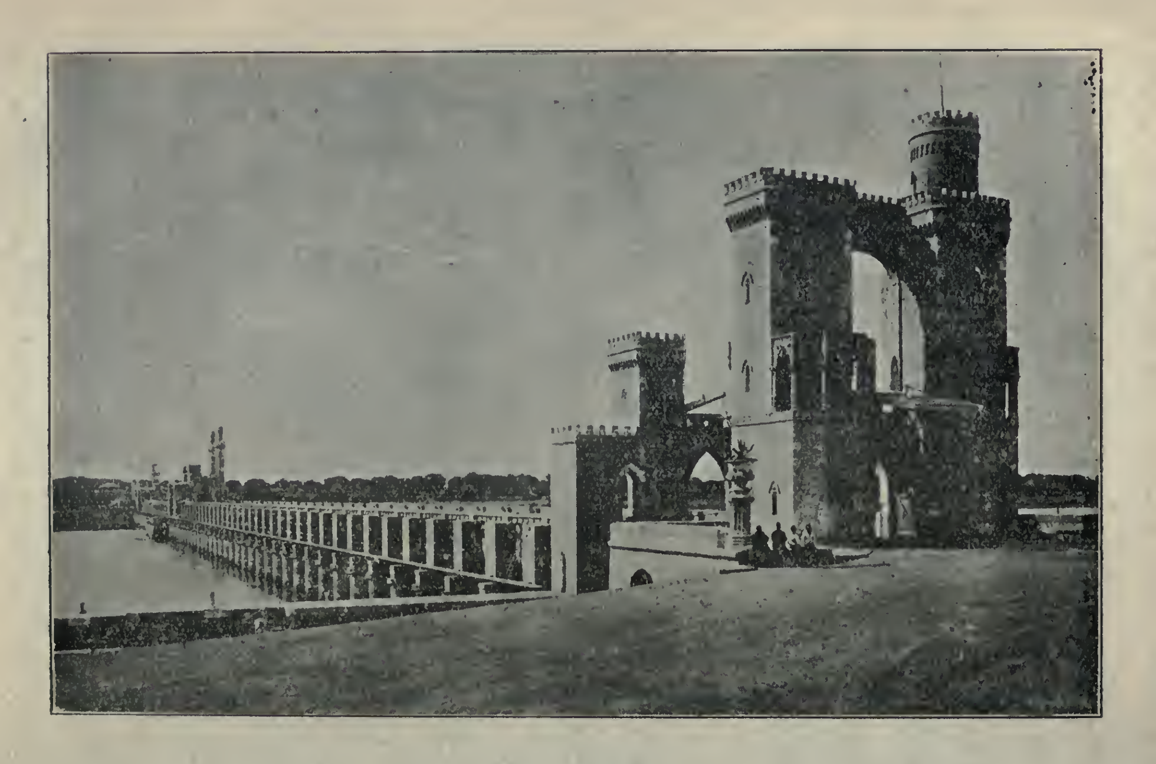
النفقات

وقد قُدّرت نفقاتها لذلك الوقت بنحو ١,٨٠٠,٠٠٠ جنيه عدا أعمال السخرة التى لا يستهان بها . وقد قدَّر « السير ولككس » ما تكلفته القناطر على البلاد بنحو ٤,٠٠٠,٠٠٠ جنيه

وعند ما جُربت القناطر لأول مرة اتضح أنها لا تفى بكل الغرض المراد منها الآ بعد الاصلاح . وسنأتى على ذكر ذلك عند الكلام على الأعمال العامة التى تمت بعد عام ١٣٠٠ هـ ( ١٨٨٢ م )

مشروعات اشغال اخرى

هذه هى أهم الأشغال العامة التى قام بها محمد على ، وقد كاد يهم بانفاذ مشروعات



القناطر الخيرية

رأى محمد على في قناة السويس

أخرى خطيرة ، مثل مد سكة حديدية بين السويس والقاهرة ، ومثل حفر قناة السويس : مما سنتكلم عليه فى موضعه . ونقول بمناسبة هذا المشروع الأخير أنه بعد أن خرجت الحملة الفرنسية من مصر ظلّ بعض العلماء الفرنسيين يفكرون فى ابراز هذا المشروع الخطير الى الوجود ، وقصد جماعة منهم مصر ليحببوا الى محمد على حفر هذه الترعة . فقابل مشروعهم فى أول الأمر بصدر رحب ، وكلف المسيو لينان ( لينان باشا ) أن يرسم له خطة لذلك . لكنهُ عاد فتراخى فى الأمر، ويقال إنهُ لم ينظر الى المشروع بعين الرضى ، إذ قال مرة فى حديث له : « إنى لا أريد أن أجعل وادى النيل طريقاً دولياً » . وقال فى حديث آخر : « إنى أخشى أن تكون هذه الترعة بسفوراً آخر* »

## نهضة التعليم

صعوبة نشر التعليم

تولى محمد على شئون مصر فى عصر ساد فيه الجهل بين أهلها ، وانحطت فيهِ مداركهم ، ودُرست دور العلم عندهم . وهذه نتيجة طبيعية لحكم المماليك البيكوات الذين قبضوا على البلاد بيد من حديد مدة وضعوا فيها بين المصرى وبين نور العلم الحديث حجاباً كثيفاً لم يزده طول حكمهم الا جدةً . والسبب فى ذلك يرجع الى ما فُطروا عليه من الجهالة وعدم ميلهم الى التعلم ، واعتزالهم العالم بأسره

فلما رأى محمد على ما عليه البلاد من التدهور أراد أن يصلح حال رعيته بالتعليم فوجّه اليه شطراً عظيماً من عنايته . فاعترضه فى طريقه عدة عقبات ، إذ كان الآباء يمتنعون عن ارسال أبنائهم الى دور العلم ، مع تكفله بنفقات تعليمهم وإطعامهم وإلباسهم ، وكان يحبب اليهم العلم والتعليم باعطائهم الرواتب الشهرية . ومن العجيب أنهُ كان مع هذا يضطر غالباً الى أن يقود التلاميذ الى دور العلم بالسلاسل والأغلال ومن هؤلاء أفراد نبغوا وساروا فيما بعد بالتعليم شوطاً بعيداً

أما المدارس التى أسسها محمد على فكانت على ثلاثة أنواع : ابتدائية وتجهيزية وخاصة

المدارس الابتدائية

فأنشأ خمسين مدرسة ابتدائية فى أُمهات البلاد ، وكان عدد من فيها من الطلبة

* يعنى انها تصبح موضع نزاع بين الدول العظام ربما أفضى الى استيلاء اقواهن على مصر

أحد عشر ألفاً تقريباً . وأسس مدرسة لتعليم نخبة أبناء الأمة سماها كلية الأمراء كان يتعلم فيها ابناؤه وأبناء الأمراء ، بلغ عدد تلاميذها نحو ٥٠٠ تلميذ

المدارس الخاصة

أما مدارسه الخاصة فكانت عدة . وأهمها وأعظمها فائدةً للبلاد مدرسةُ الطب التى قضت على عهد التمائم والسحر والرُّقَى وغيرها من أنواع الشَّعْوَذة التى كان يتطبّب بها المصريون . والفضل فى إنشاء هذه المدرسة راجع الى الدكتور « كاوت بك » أحد نجباء الفرنسيين الذين كانوا فى خدمة الحكومة المصرية

مدرسة الطب

أُسست هذه المدرسة بأبى زعبل كطلب الدكتور المذكور سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٧م) وكان غرضه من انشائها ترقية هذا الفن فى البلاد ، حتى يوجد بها أطباء تسد حاجة الجيوش البرية والبحرية . وقد قدم له فى هذا الشأن تقريراً جاء فى آخره: « يجب أن يكون بمصر مدرسة للطب تكون تلاميذها من المصريين المخلصين ، الذين يغارون على بلادهم ويحبون تقدم وطنهم . ويتوصل الى ذلك بانشاء مستشفى عمومى يتعلم فيه مائة



كاوت بك

وخمسون شاباً ممن لهم إلمام تام بمعرفة اللغة العربية قراءة وكتابة ومبادىء الحساب ، ويجب أن تدرس لهم اللغة الفرنسية وأنواع الطب بفروعه ولا سيما الجراحة ، وتكون مدة الدراسة بها أربع سنوات يُختبر التلميذ فى آخر كل سنة منها »

فسر محمد على من المشروع وأمر بتأسيس المدرسة وجعلها تحت رياسة كاوت بك

الطب البيطرى

وأسس محمد على بجوار هذه المدرسة مدرسة للطب البيطرى ، وولى رياستها

الهندسة والفنون للمسيو « هامون » الفرنسى ، ومدرسة للهندسة بالخانقاه جعل رئيسها « لامبير بك »
وأخرى للموسيقى بالقلعة . و بنى مدرسة لتعليم الفنون والصنائع ، وأخرى لتعليم الألسن

مدرسة الالسن وقد قال عنها « على باشا مبارك » فى كتاب « الخطط » فى ترجمة رفاعة بك ناظرها
ما يأتى : — « عرض رفاعة بك على محمد على تأسيس مدرسة لتعليم اللغات الأوربية
ينتفع بها الوطن ، ويستغنى بمن يتخرج فيها عن الدخيل . فأجابه الى ذلك، ووجّه
به الى مكاتب القطر لينتخب التلاميذ لهذا الغرض، فأسس المدرسة، وعند الامتحان
امتُحن التلاميذ فى اللغة الفرنسية وغيرها من العلوم المدرسية فظهرت نجابتهم . ثم أنشأ
بها قلماً للترجمة تُرجم فيه كثير من الكتب الأوربية فى كل فرع من العلوم . وكان
بهذه المدرسة أيضاً قسم تجهيزى خاص ، فنبغ فيها رجال بارعون فى انشاء اللغة
العربية والعلوم . غير أن هذه المدرسة قد ألغيت فى عهد عباس باشا الأول »

التعليم الزراعى ولم يفت محمد على أمر تحسين الزراعة العملية : فأنشأ لها مدرسة ببلدة « نبَرُوه »
من أعمال مديرية الغربية، وأحضر اليها المعلمين وآلات الفلاحة من اوربا لتدريس
هذا الفن علماً وعملاً . إلاّ أنّ جهل الأهالى وقف عقبة كؤوداً أمام سيرها ، فاضطر
محمد على الى نقلها الى شبرا الخيمة لتكون تحت رياسة « المسيو هامون » ، ولكن
ذلك لم يجد نفعاً أيضاً ، وأخذت فى الاضمحلال حتى أغلق بابها

البعوث العلمية ولم تقِف همة محمد على باشا عند انشاء المدارس فى جميع انحاء القطر ، بل أرسل
عدداً كبيراً من الشبان المصريين الى أعظم ممالك اوربا وخصوصاً فرنسا لتلقى العلوم
بها ، حتى اذا ما عادوا الى مصر استغنى بهم عن استزادة عدد الأوربيين . فأرسل
البعوث من المصريين ليتعلموا العلوم الغربية ، وليستعينوا بآراء الفرنسيين وأفكارهم
وطرق حياتهم على اصلاح شأن مصر . ومن الغريب أن آباء التلاميذ كانوا يندبون
حظ أبنائهم الذين ساعدهم الحظ الأوفر باختيارهم للرحيل الى اوربا ، واستعملوا كل
الوسائط لحرمان أولادهم من ثمرة العلم . فلم يثنِ كل ذلك عزم محمد على ، وأرسل فى
عام ١٢٤٢ هـ ( ١٨٢٦ م ) أربعين طالباً فتحت لهم مدرسة خاصة فى باريس عهد

أمر ادارتها الى الأستاذ الشهير « المسيو جومار » ، فقام بها خير قيام ، واختار لها مدرسين اكفاء ، وخصص كل واحد من التلاميذ بدراسة فرع من العلوم خاص ليتقنه . وكان ممن تعلم بهذه المدرسة اسماعيل باشا الخديوى والأمير احمد والأمير مصطفى فاضل والأمير حليم باشا وشريف باشا ومراد باشا وعلى مبارك باشا[1]

ديوان المعارف

ثم أرسل عام ١٢٤٨ هـ ( ١٨٣٢ م ) اثنى عشر طالباً آخرين الى باريس ليتمموا علوم الطب ، ثم أرسل غيرهم حتى صار ما أرسله الى أوربا الى عام ١٢٥٨هـ(١٨٤٢م) يربو على ١٢٠ طالباً ، اكثرهم الى فرنسا ، وقليل منهم الى انجلترة وألمانيا[2]

وكان ديوان المعارف فى ذلك العصر يديره رجل كبير الهمة خطا به خطوات واسعة ، وقد أشار الى ذلك «بيتون» المؤرخ الانجليزى فى كتابه على مصر إذ قال : « ان ديوان المعارف فى عصر محمد على كان فى يد « أدهم بك » الذى قام بادارة شؤونه خير قيام ، حتى كان أحسن دواوين الحكومة نظاماً »

نقص التعليم

ومع ما بذله محمد على فى نشر العلوم كان كثيرون ممن زاروا البلاد المصرية من

---

( ١ ) وقد جاء فى كتاب المسيو « هامون » فى تاريخ مصر فى عهد محمد على نقلا عن تقرير المسيو « جومار » الى محمد على سنة ١٢٤٤ هـ ( ١٨٢٨ م ) ما يأتى : —

« انه خصص تلميذين بدرس العلوم السياسية ، وكان يدرس لهما قانون حقوق الدول والاقتصاد السياسى واكثر لغات أوربا المستعملة فى السياسة ، وتنقلا فى بلاد أوربا للوقوف على عادات اهلها. واختار اربعة للادارة العسكرية، وثلاثة للبحرية، وثلاثة للعلوم الآلية ( الميخانيكية ) : يتعلمون الهندسة العلمية ، ويتدربون في المعامل ، ويتمرنون على الاشغال اليدوية . وخص فرقة بفن المدفعية والاستحكامات . وتفرغ منهم ايضا عدد لدرس الكيمياء الصناعي ، وخاصة ما يتعلق بالصباغة وعمل الزجاج وصناعة السكر لكي يكونوا مديرين للمعامل التى شيدت فى مصر. وخص بعضهم بالزراعة العملية والتاريخ الطبيعى والتعدين ، وذلك للبحث عما عساه ان يوجد فى مصر من المعادن »

( ٢ ) وقد اوردنا فى الصفحة التالية صور بعض طلبة البعوث العلمية التى ارسلها محمد على باشا الى اوربا وهم :

(١) رفاعة بك ( ناظر مدرسة الالسن ) (٢) مختار بك ( احد وزراء المعارف )
(٣) حسن بك ( وزير بحرية ) (٤) مظهر بك ( مهندس القناطر الخيرية )
(٥) مصطفى محرمجى ( مهندس ) (٦) محمد شافعى ( احد نظار مدرسة الطب )
(٧) محمد على باشا الحكيم (طبيب وجراح) (٨) محمد السكرى ( مدرس بمدرسة الطب )



بعض طلبة البعوث العلمية

الغربيين فى أيامه متفقين على أن اكبر غلطة له أنه أراد أن يطفر بمصر طفرة فى سبيل الرقى ، فكانت النتيجة ان ما تعلمه الأهالى لم يُبنَ على أساس متين . ونحن لا يسعنا الاّ أن نقول ان مساعى محمد على فى تحسين حال التعليم فى البلاد كانت من أنجح أعماله فى مصر ، إذ كان هو نفسه ممن يعتقد نفع التعليم الأوربى ، فأثر هذا الاعتقاد فى كثير من الأهالى أصحاب النفوذ فى البلاد ، وكان ادخاله العلوم الحديثة فى البلاد ونبوغ الذين تعلموها فى مدارس أوربا من المصريين من الدواعى التى أدت الى محو كثير من الاعتقادات القديمة فى التعليم . ولا شك أن بعض الذين تعلموا فى فرنسا نبغوا وبنوا ركناً عظيماً فى تاريخ مصر الحديث ، فضلاً عن أن ما ترجمه هم وتلاميذهم من الكتب الى اللغة العربية وطُبِعَ فى مطبعة بولاق التى أسسها محمد على أفاد العالَم المصرى فائدةً خالدة الأثر

اثره فى البلاد

ومن أياديه على العلم أنه شجّع العلماء الغربيين وخاصة الفرنسيين الذين أتوا الى مصر ليدرسوا تاريخ الآثار المصرية . ونخص بالذكر من هؤلاء الأفاضل العالم «شمبليون» الذى خص كل حياته بحل رموز اللغة المصرية القديمة حتى أُتيح له ذلك فى عام ١٢٣٦ هـ ( ١٨٢١ م ) بعد أن جاهد فى سبيل ذلك جهاد الأبطال . ثم العالم « لبسيسوس » ، وقد وضع قاموساً لهذه اللغة ، ثم العالم « امبير » . وقد حل هؤلاء العلماء مشكلات عويصة فى هذه اللغة ، ومهّدوا الطريق لمن جاءوا بعدهم واشتهروا فى هذا الفن الى وقتنا هذا

معاضدة العلماء الغربيين

## الجيش

نال محمد على ولاية مصر بفطنته وذكائه ، وباغتنام الفرص والتغلب على من نازعه . وقد حصّل ذلك على كره من الباب العالى ، وإن استطاع أن يرضيه ويحافظ على مركزه سنين قلائل بما ناله من الفخار بعد قهره الحملة الانجليزية عام ١٢٢٢ هـ ( ١٨٠٧ م ) وتغلبه على المماليك فى جميع أنحاء القطر وقهر الوهابيين . ولكن بتعاقب

الحاجة الى الجيش

الأيام ظهر له جلياً أن رضى الباب العالى غير ثابت ، وان لا مندوحة له من تنظيم جيش قوى يعتمد عليه فى دفع كل عدو. لذلك وجَّه جل عنايته لإعداد جيش يحميه من تدخل الباب العالى فى الشؤون المصرية ، ويقهر به كل مَنْ ناوأه . وقد عظم شأنه بهذا الجيش، حتى قيل انه كان فى نهاية عظمته يريد أن يرث الدولة العثمانية

محمد على والجنود الالبانية

ولا يخفى أن قوته كانت فى أول أمره مستمدة من أبناء جلدته من العساكر الألبانية، وهو لم يكن فى نظرهم ممتازاً عنهم الاَّ برتبته العسكرية . لذلك كان وجودهم حوله خطراً يتهدده فى كل لحظة ، كما كانت الجنود العثمانية أيام المماليك خطراً على مَن يرسله الباب العالى من الولاة . فعمل على ابادتهم والاستعاضة عنهم بغيرهم ممن هم أقل تمرداً وعصياناً

ولما رأى أنه لا يستطيع ابادتهم مرة واحدة اضطُر الى مجاملتهم فى مبدإ الأمر . ورأى ان أهم أسباب ثورانهم وسلبهم ونهبهم فى البلاد راجع الى تأخير رواتبهم ، فكبح جماحهم وجعلهم طوع ارادته مدة بدفعه رواتبهم بحالة منتظمة، وبذله العطايا لهم

معارضتهم فى تنظيم الجيش

وفى شهر شعبان سنة ١٢٣٠ هـ ( اغسطس سنة ١٨١٥ م ) أراد أن ينظم جيشه على الطريقة الأوربية ، وكان الجنود لا يألفون النظام ولا سيما الأوربى، فعارضوا فى ذلك أشد المعارضة ، وكانت النتيجة ان شبت نار الثورة فى القاهرة ، وتآمر الجند على الفتك به ، ونهبوا الأسواق واضطروه الى الاعتصام منهم بالقلعة، وقُتل فى تلك الفتنة كل منظمى الجيش . الاَّ أنه بحذقه ودهائه تمكن من اخضاع الضباط بالعطايا، وأظهر لهم عدوله عن هذا المشروع ، فمال الجند الى الخضوع

اقصاؤهم عن القاهرة

على ان كل هذا لم يثنِ عزم محمد على عن تنظيم الجيش كما أراد ، فاتّبع الحيطة والسياسة فى ابراز فكرته وتنفيذ غرضه ، فأقصى الألبانيين عن القاهرة تدريجاً : أرسل بعضهم الى بلاد العرب ، وبعضهم الى بلاد النوبة ، ومَنْ بقى فرَّقهُ فى معسكرات الأقاليم

انشاء مدرسة حربية باسوان

بعد ذلك أسس مدرسة لتعليم النظام الحربى فى بلدة اسوان ، لتكون قريبة من بلاد النوبة و بعيدة عن القاهرة ، وعهد بأمرها الى رجل من ضباط نابليون بونابرت اسمه المسيو « سيف »

وُلد هذا الجندى العظيم فى مدينة « ليون » من أعمال فرنسا عام ١٧٨٨ م ، وابتدأ أول طور فى حياته بالخدمة البحرية ، وحارب الانجليز فى موقعة « الطرف الأغر » ، ثم انضم الى جيش نابليون البرى وحارب فى عدة مواقع بقيادة نابليون . ولم يساعده الحظ فى الالتحام بموقعة « وُوتَرلو » ، فترك فرنسا قاصداً مصر حيث نال الحظوة التامة عند محمد على بما قام به من الخدم التى سنذكرها فى موضعها . وقد اعتنق الدين الاسلامى ، وترقى فى الجيش المصرى حتى وصل الى أعلى رتبة فيه ، وكان يُعرف بعد إسلامه باسم سليمان باشا الفرنسى ( الفرنساوى )

سليمان باشا الفرنساوى

تنظم الجيش باسوان

قام ذلك الرجل العالى الهمة بتنظيم هذا الجيش بأسوان مدة ثلاثة أعوام ، أعدّ فى أثنائها ضبّاطاً كثيرين ليقوموا بأمر الجيش الجديد . وكان معظمهم من شبان المماليك وصغار ضباط الألبانيين والأتراك ، أما العساكر الذين تألف منهم الجيش الجديد فكانوا فى أول الأمر من أسرى حروب السودان ، غير أن كثرة الوفيَات بينهم لعدم ملاءمة الجو اضطرت محمد على الى العدول عن التجنيد منهم ، وابتدأ يجنّد الجيش من فلاحى مصر . وقد كان هؤلاء يأبون الانتظام فى سلك الجندية كل الإباء ، و بذلوا فى ذلك كل طاقتهم ، فكان الآباء يشوّهون خَلْق أبنائهم : إما بقطع الأصابع ، أو بفقء العين ، أو بنزع الثنايا ، وكثير منهم هربوا الى بلاد سورية . فلم يثنِ كل ذلك عزم محمد على ، ونجح أخيراً فى تجنيد عدد عظيم منهم ، صار فيما بعد على جانب عظيم من النظام وكمال العُدَّة ، حتى أنهُ فى عام ١٢٣٨ هـ ( ١٨٢٣ م ) عند ما ثار الألبانيون لمّا علموا بحرق اسماعيل باشا ابن محمد على فى قرية شندى دخل « سيف » القاهرة يقود ٢٥,٠٠٠ من الجنود المدرّبين على النظام الجديد ، ليحموا الباشا من شرّ هذه الطائفة الطاغية ، ويثبتوا قدمه ويوطدوا سلطانهُ ، فأنعم على هذا البطل

تجنيد الفلاحين والسودان

الفرنسى برتبة «الكولونيل» (بك) مكافأة له على ما قام به، ثم رفع راتبه الى ١٦٠٠ جنيه فى السنة . ومن هذا الوقت أصبح لمحمد على جيش يركن اليه ، وكان معظمه من السودان والفلاحين

المشاة والفرسان والمدفعية

ثم أسس مدرسة للعساكر المشاة فى « الخانقاه » . أما الفرسان فاتخذ لهم قصر مراد بك على الضفة اليسرى من النيل ، وعهد بأمر تعليمهم الى أحد رجال نابليون ، وهو المسيو « فَران » . ولم يَفُتْهُ أمر تعليم فرقة خاصة للمدفعية لما يعلمه من الأعمال الجليلة التى تقوم بها هذه الفرقة فى حومة الوغى ، اذ كانت ذكرى حروب الفرنسيس فى موقعة أنبابة لا تزال جديدة فى ذهنه ، وقد أبلت فيها المدفعية ، الفرنسية بلاء حسناً. فناط بالكولونيل « سيجيرو » الاسبانى تأسيس مدرسة للمدفعية، فنظمها وقام بأمرها خير قيام ، فرفع مقامه محمد على ، ومنحه رتبة بك

دار الصناعة بالقلعة

ولم يترك محمد على باباً الاّ طرقه رغبة فى تقوية جيشه الذى تتوقف عليه قوته وعظمته ، فحوَّل جزءاً عظيماً من قلعة الجبل الى دار صناعة ، حيث كان يشتغل فيها مئات من المصريين فى صب المدافع وصنع معدات الجنود والذخيرة، وكل ما يلزمهم وكان يشرف على هؤلاء عمال مهرة أحضرهم محمد على من أوربا لهذا الغرض . وقد تمكن بكل هذه المعدّات من اعداد جيش من أعظم جيوش العالم فى ذلك العصر

زيادة الجيش تدريجا

ولم يتبع فى تأليف الجيش الطريقة التى كان يتبعها فى أعماله الأخرى : أى السرعة بل كانت زيادته تدريجية . ففى عام ١٢٣٨ هـ (١٨٢٣ م) كان عدد الجيش الجديد ٢٥,٠٠٠ جندى ، وفى عام ١٢٤١ هـ (١٨٢٦ م) عند ما أشعل اليونان نيران حرب استقلالهم بلغ ٩٠,٠٠٠ ، وفى عام ١٢٤٨هـ (١٨٣٢ م) بلغ ١٥٠,٠٠٠ من الجنود النظامية يستعملون ١٠٠ مدفع من مدافع الميدان . وقال كلوت بك فى كتابه على مصر عند كلامه على الجيش ان عدد الجنود المصرية عظم فى عصر محمد على حتى بلغ ٢٧٦,٠٠٠ : منهم ١٣٠,٠٠٠ من الجنود المنتظمة و ٤١,٠٠٠ من المرتزقة (الباشبزق) ، و ١٩,٠٠٠ بحرى ، والباقى من المهندسين وغيرهم



القلعة

( منظر عام )

## البحرية

أول أسطول

أول أسطول أنشأه محمد على كان أيام حربه مع الوهابيين ، وكان الغرض منه نقل العساكر من السواحل المصرية الى بلاد العرب . وقد أفاده فيما بعد، إذ كان يحافظ به على السفن التجارية الذاهبة الى الشرق من لصوص البحر ، وعلى مر الأيام رأى ضرورة بقاء أسطول فى البحر الأبيض لحماية السفن التجارية من لصوص اليونان

وقبل نشوب حرب اليونان اشترى بعض السفن من البندقية ومرسيليا ، وصنع بعضها الآخر هناك على حسابه . إلاَّ أن معظم أسطوله حُطم فى هذه الحرب فى واقعة « نوارين » كما سيأتى بعد فى موضعه

دار الصناعة البحرية

ولما علم محمد على ما للأسطول من الفائدة بعد هذه الواقعة أسس فى عام ١٢٤٥هـ (١٨٢٩ م) دار صناعة بحرية بالاسكندرية ، وبنى فيها مصانع خاصة لفتل الحبال وصناعة الحديد وعمل الصوارى والقلوع وكل ما يلزم للسفن ، وأنشأ فيها أيضاً مدرسة بحرية أعدّها لتمرين عدد من الشبان المصريين على العلوم والمعارف اللازمة لضباط البحرية . وكان المنوط به انشاء هذه السفن المهندس البحرى «دى سريزى»، أما ادارة المدرسة فكانت فى يد المسيو « بيسون » ، وقد ترقى بعدُ الى رتبة أمير البحر للأسطول المصرى . ورقى هذان الرجلان العمارة البحرية الى درجة جعلتهما فى صف سليمان باشا منظّم الجيش البرى

مقدار الاسطول

وقد بلغ عدد المراكب الحربية فى عام ١٢٤٨ هـ ( ١٨٣٢ م ). ثلاثين قطعة تحمل ١٫٣٠٠ مدفع ، وفيها من العساكر البحرية من لا يقل عن ١٢٫٠٠٠ جندى

البعث البحرى

وأرسل جملة من التلاميذ لتلقى الفنون البحرية العملية على سطح المراكب الانجليزية

تحصين السواحل

ولم يفته أمر تحصين الشواطئ ، فأنشأ الحصون (الاستحكامات) اللازمة لحفظ السواحل ، مخافة الإغارة على البلاد كما حصل فى عام ١٢٢٢ هـ ( ١٨٠٧ م ) ، فأحضر لذلك مهندسين حربيين من الأجانب ، وكلفهم اختيار المواقع المهمة من جميع

السواحل المصرية ، وأنشأ بها المعاقل، ونصب بها المدافع اللازمة والعساكر الكافية. فتضاعفت بذلك قوة مصر ، وعظم شأنها ، كما يدل على ذلك حروبه التى سنذكرها

## ميزانية الحكومة

كثرة المشروعات

قد رأينا المشروعات العظيمة التى قام بها محمد على : من اصلاح الزراعة ، وتنمية الصناعة ، ونشر التعليم وترقيتهِ ، وتنظيم الجيش وانشاء البحرية . ويجدر بنا الآن أن ننظر كيف كان يتسنى له جمع المال اللازم لكل هذه المشروعات وتوزيعه عليها . على أن الوقوف على ذلك باليقين ليس بالأمر الهيّن ، لأن دفاتر المالية فى ذلك العهد لم يكن يُعتمد عليها ، ولأن الحكومة المصرية لم تُنشر لها ميزانية سنوية إلاَّ بعد عهد محمد على. إلاّ أن بعض الأوربيين الذين كانوا بمصر فى ذلك العهد وعُنوا بهذه الشؤون قدّروا ذلك بوجه تقريبى يساعدنا على تفهُّم الوارد والمنصرف . وقد كانت الميزانية فى أول أمرها صغيرة بالطبع ، لصغر الجيش وعدم اتساع نطاق المشروعات ، وقد قُدّر الدخل لعام ١٢٣٦ هـ ( ١٨٢١ م ) بمبلغ ١٬٢٠٠٬٠٠٠ جنيه ، والمصروف بأقل من ذلك بيسير ، أما فى عام ١٢٤٩ هـ ( ١٨٣٣ م ) فكان تقدير الميزانية كما يأتى :

الميزانية فى ١٨٢١ و ١٨٣٣ م

| الايراد | | المنصرف | |
|---|---|---|---|
| جنيه ٢٬٥٠٠٬٠٠٠ | | جنيه ٢٬٠٠٠٬٠٠٠ | |
| منهُ : ١٬١٢٥٬٠٠٠ | ضريبة الأراضى | منهُ : ١٬٢٠٠٬٠٠٠ | للجيش |
| ٤٥٠٬٠٠٠ | « الميزانية الصغيرة » ( من تجارة الحاصلات ) | ٤٠٠٬٠٠٠ | للبحرية |
| ١٨٠٬٠٠٠ | المكوس على الحبوب | | |
| ١١٢٬٠٠٠ | الرسوم الجمركية | | |
| ٣٥٠٬٠٠٠ | ضريبة الرءوس ( الفِرضة ) | | |

و ١٨٣٨ م

ثم نمت بعد ذلك الميزانية ، حتى قُدّر الدخل فى سنة ١٢٥٣-٥٤ هـ ( ١٨٣٨م ) بنحو ٤٬٥٠٠٬٠٠٠ ، والمصروف بنحو ٣٬٥٠٠٬٠٠٠ جنيه

## ٥ — ﴿ حرب اليونان ﴾

تأثير الثورة الفرنسية فى اوربا

بعد سقوط نابليون بونابرت أُبرم تحالف متين بين الروسيا وبروسيا والنمسا ( الحلف المقدس ) كان الغرض منهُ المحافظة على عروش الملوك فى أوربا ومقاومة كل ثورة عليهم بحد السيف . غير أن هذه المحالفة لم تُسكن تيار مبادىء الثورة الفرنسية : ذلك التيار الذى لم يكد يعم فرنسا حتى فاض على جميع بقاع أوربا . ففى سنتى ١٢٣٥ و ١٢٣٦ ﻫ (١٨٢٠ و١٨٢١م ) شبت ثورات فى جنوبى ايطاليا واسبانيا وبلاد اليونان

خروج اليونان على الترك

على أن الثورة فى بلاد اليونان كان الغرض منها اعلان الحرب على الترك لنيل استقلال داخلى ، فكان قيصر الروس بمقتضى ذلك التحالف المتين مضطراً الى محاربة اليونان ، مع أن السياسة الروسية كانت من زمن بعيد ترمى الى مساعدة اليونان وكل المسيحيين فى شبه جزيرة البلقان على الدولة العثمانية .

موقف الدول الاوربية

أما فرنسا وانجلترة فلم ترَ حكومتاهما مؤازرة اليونان بالرغم من ميل الأهالى فيهما اليها ، وذلك لعدم اضعاف الترك أمام الروس . فكانت النتيجة أن اليونان لم تساعدها إحدى هذه الدول رسمياً ، إلّا بافراد تطوعوا من تلقاء أنفسهم

حالة الدولة العثمانية

وكانت الدولة العلية فى هذا الوقت فى منتهى الضعف والانحلال ، إذ كان على باشا والى يانينة قد انهك قواها كما سبق ذكره . هذا الى أن السلطان محموداً الثانى لما رأى ما عليه جيشهُ من سوء النظام والاختلال اجتهد فى اصلاحه وتنظيمه على الطرق الحديثة الغربيةِ ، فثار بهِ الجنود وتألبوا ، وأبوا ادخال النظام الجديد ( كما حصل فى عام ١٢٣٠ ﻫ ( ١٨١٥م ) لمحمد على حينما أراد اصلاح جيشه ) ؛ فاحتال على قتل العساكر الانكشارية ، رأس كل فتنة وسبب كل نكبة نُكبت بها الدولة ، فتم له ذلك عام ١٢٤١ ﻫ ( ١٨٢٦ م ) . فكان قضاؤه عليهم وقت ان كانت الدولة فى حاجة الى جندى واحد ، وبذلك أصبح بلا جيش تقريباً

ولما شبت نار الثورة اليونانية ، وتفاقم خطبها ، وكادت تنتهى باستقلال اليونان

بدون مساعدة الدول الأخرى لها ، رأى السلطان محمود الثانى أن يستنجد بمحمد علىّ على قمع الفتنة فى البلاد اليونانية

توليته على اقريطش

فنى عام ١٢٣٩ ﻫ ( ١٨٢٣ م ) عيّن الباب العالى محمد على واليًا على جزيرة اقريطش ، فوق ولايته لمصر ، وأصدر اليه الأوامر باخماد الثورة هناك ، فأرسل ابنه ابرهيم باشا ، فهزَم الثوار فى صيف ذلك العام

توليته على المورة

وفى ساخ هذا العام ( ١٨٢٤ م ) جعله السلطان واليًا علي بلاد المورة لإخضاعها فجهز لذلك جيشًا مؤلفًا من ١٧,٠٠٠ مقاتل بامرة ابرهيم باشا ، وأقلع الجيش من ميناء الاسكندرية فى ذى القعدة سنة ١٢٣٩ ﻫ ( يوليه ١٨٢٤ م ) . فالتقى الأسطول التركى الذى كان بقيادة خسرو باشا بالعمارة البحرية المصرية فى جزيرة رودس ، الاّ



ابرهيم باشا

خروج ابراهيم اليها

أن فوز القائد « بياوليس » اليونانى أجبر العمارتين على الانزواء فى جزيرة اقريطش عدة شهور . ثم تحيّن ابراهيم باشا الفرص وأفلت من المدمرات اليونانية ، ونزل فى « مُودِن » بالقرب من نوَارِين » ، *فى شعبان سنة ١٢٤٠ هـ ( فبراير ١٨٢٥ م ) .

اخضاع المورة

وبعد أشهر قلائل أخضع كل بلاد المورة ، واستولى على أُمهات المدن فيها الآ « نوبليا » . وكان أهم وقائع هذه الحرب الاستيلاء على « تريبولِتْزا » ، إذ فتحها ابراهيم باشا عنوة بعد جهاد عظيم

غزو شمالى اليونان

ولما أمدّه والده بمدد جديد انتقل الى شمالى بلاد اليونان ليساعد رشيد باشا فى حصار «مِسُّولُونجى» ، وكان هذا يحاصرها من عدة شهور بدون فائدة . فعبر ابراهيم خليج « كورِنْثة » ومعهُ ١٠,٠٠٠ جندى ، واستولى على الجزائر الواقعة عند مدخل ميناء المدينة ، وبنى فيها قلاعاً حصينة ، فأغلق بذلك الميناء . وأتمّ الحصار براً وبحراً

حصار مسولونجى

حتى لم يعد من الممكن وصولُ المددْ اليها بأيّة طريقة ، فسلّمت فى رمضان ١٢٤١هـ ( ابريل سنة ١٨٢٦ م ) ، بعد أن خسر الجيش المصرى عليها ٦٠٠٠ جندى ، وخسر الترك ٢٠,٠٠٠

اسرى اليونان

وفى أثناء ذلك قامت نار الثورة فى بلاد المورة ثانيةً ، فرجع ابراهيم باشا لاطفائها الآ أنهُ عامل الأسرى اليونان بالقسوة ، وأرسل ما يقرب من ٥٠٠٠ أسير الى مصر بيعوا بها ( على ما قيل ) بيع الرقيق

فتح أثينا

وكان رشيد باشا أثناء تلك الفترة يحاصر « أثينا » ، وفتحها عنوة بعد المقاومة الشديدة . ثم وجَّه السلطان محمود الثانى ومحمد على جل جهدهما الى تدمير الأسطول اليونانى الراسى عند « هيدرا » ، وكان لايزال قوياً

استياء انجلترة وفرنسا

ولما علمت الأمة الانجليزية والأمة الفرنسية بما فعله ابراهيم باشا فى بلاد المورة : من تخريب البلاد واستعباد نسائها وأطفالها ، حنقتا عليه وانتهزت الروسيا هذه الفرصة فبدأت تفاوضهما فى أمر التدخل ، فعقُد لذلك مؤتمر فى لندن فى ٢٩ ذى القعدة

---

* على الشاطئ الغربى من شبه جزيرة مورة

مؤتمر لندن يقرر التدخل

سنة ١٢٤١هـ ( يولية سنة ١٨٢٦م ) قرّر ارسال عمارة بحرية من قِبَل الدول الثلاث، تكون القيادة العامة فيها للقائد الانجليزى « كُدْرِنجتون ».

وكانت انجلترة وفرنسا لاتزالان تحذران ازدياد النفوذ الروسى فى شبه جزيرة البلقان ، فأمرت الحكومة الانجليزية القائد « كُدْرِنجتون » بأن يتجنب محاربة الترك ما أمكنه ذلك ، وأن يعمل طاقته لإبرام اتفاق أساسه أن يمنح الخليفة اليونان استقلالاً داخلياً مع بقائها جزءاً من أملاك الدولة العثمانية

مدد جديد للاسطول المصرى

وفى أثناء هذه المفاوضات أرسل محمد على عمارة بحرية لتساعد العمارة التى كانت فى المياه التركية على تحطيم الأسطول اليونانى الذى كان يتوقف عليه مصير الحرب . وعند ما وصلت هذه العمارة الى المياه التركية كان القائد « كدرنجتون » قد تمكن من إبرام هدنة مع ابراهيم باشا فى مصلحة اليونان ، وفى أثنائها كانت المفاوضات دائرة بين السلطان وبينه للنظر فى منح اليونان استقلالاً داخلياً كما قدمنا ، فلم يتعرض كدرنجتون لدخول العمارة التركية المصرية فى خليج « نوارين »

عمل اساطيل الحلفاء

وفى اليوم الثانى أخبر ابراهيم باشا القائد « كدرنجتون » ان أحد زعماء اليونان ( كوكرين ) ومن تبعه من مواطنيه يهاجمون « بَتْراس » ، وانه مضطر إلى الذهاب الى تخليصها من أيديهم ، فلم يقبل « كدرنجتون » مبارحته خليج نوارين . الاَّ أنهُ تمكن من الافلات ببعض سفنه ، وحاولت بقية العمارة اتباعه ، فلم يمكنها ، واضطرت الى الانزواء فى الخليج

ابتداء المناوشات البحرية

عند ذلك أصدر كدرنجتون أوامره الى أسطول المتحالفين بالدخول فى خليج نوارين ، وأن ترسو سفنه على مقربة من العمارة التركية المصرية ، فأراد الترك أن يمنعوه من الدخول فلم يفلحوا . فلما دخلت أساطيل المتحالفين وجدت الأسطول التركى المصرى مصفوفاً داخل الميناء على شكل نصف دائرة يرتكز أحد طرفيها على قلعة البلد والآخر على قلعة جزيرة صغيرة عند مدخل الميناء ، وكان يحمل ما لا يقل عن ١٩,٠٠٠ جندى و ٢٠٨٢ مدفعاً تقريباً

واقعة نوارين

ولما رست الأساطيل المحالفة فى الميناء اقتربت احدى الحرّاقات التركية من احدى البوارج الانجليزية ، فأرسلت هذه لها زورقاً يأمرها بالابتعاد ، فكان الجواب ان صوّبت على الزورق ناراً حامية أتت على كل من فيه . فانتشب حينئذ القتال ، وتكاثف الدخان حتى أصبح من الصعب الوقوف على ما حصل . الاّ أن «محرم بك» قائد الأسطول المصرى أخبر كدرنجتون أنهُ لا يريد القتال ، فأخلى له السبيل . لكنهُ عدل عن فكره الأول وصوّب مدافعه على السفينة الانجليزية « آسيا » ، فاستؤنف القتال ، ولم يمكث طويلاً حتى دمرت سفينته . وظلت الحرب مشتعلة مدة ثلاث ساعات ، فأسفرت النتيجة عن تدمير معظم العمارة المصرية التركية

تدمير الاسطول المصرى

موقف انجلترة

وتقول الحكومة الانجليزية انها لم تكن تقصد الحرب ، وانها عادت باللائمة على كدرنجتون ، اذ كان غرضها الوحيد من هذه المظاهرة البحرية اجبار الدولة العلية على منح اليونان استقلالاً داخلياً وايقاف القتال بأى حال

أما ابراهيم باشا فلم يكن حاضراً تلك النكبة بل كان فى بلاد المورة يهدئ الأحوال بها ، وقد أصبحت كلها فى قبضته . فلما سمع بهذا الخبر أبرق وأرعد . فلم يُجدِهِ ذلك نفعاً . ولما ثاب الى رشده اختار خطة الدفاع ، فكان حاله فى بلاد المورة كحال نابليون بونابرت فى مصر بعد موقعة بوقير البحرية ، اذا انقطعت بينه وبين أبيه طرق المواصلات

ولم تكن موقعة « نوارين » هذه كافية لاستقلال اليونان ، ولذلك أصبح من المحتم على الحلفاء التدخل فى أمرها . الاّ أنه ظهر لانجلترة وفرنسا ان كل تدخل من قبلهما يخفض من شأن الدولة العلية ويزيد النفوذ الروسى ، فاقترح « بَلْمَرستون » وزير خارجية انجلترة فى ذلك الوقت أن يحتل بلاد المورة ستة آلاف من الجنود الانجليزية ومثلها من الفرنسيين ، حتى يمنح الباب العالى تلك البلاد استقلالها الداخلى فأبى البرلمان الانجليزى ذلك ، فقامت فرنسا بالأمر وحدها وأرسلت ١٥٠٠٠ جندى لتحتل المورة ( صفر سنة ١٢٤٤ هـ : أغسطس سنة ١٨٢٨ م )

فرنسا تحتل المورة

وعند ذلك ظهر « كدرنجتون » فى المياه المصرية عند الاسكندرية ، وأرجع

الانجليز يهددون محمد على

بعض السفن التى كانت ذاهبة لمساعدة ابراهيم ، ثم أرسل الى محمد على باشا انذاراً نهائياً بتخريب الاسكندرية اذا لم يسرع باستدعاء ابراهيم واخلاء المورة . وبمساعى المستر « برْكر » السفير الانجليزى فى مصر تم الاتفاق مع محمد على على اخلاء بلاد المورة بشروط أهمها :

شروط جلاء الجيوش المصرية

« أن يطلق محمد على سراح الأسرى اليونانيين الذين بيعوا فى مصر ، وأن تتخلى الجيوش المصرية عن « المورة » فى أقرب وقت بحيث ينقلهم محمد على على سفنه ، وأن يخفر الأسطول الانجليزى السفن المصرية فى ذهابها وايابها ، وأن يتعهد « كدرنجتون » بارجاع أسرى المصريين وسفنهم التى أخذت منهم أثناء الحرب »

ارتياب محمد على من الدولة

ويقال أن محمد على وافق على هذه الشروط بدون معارضة كبيرة خصوصاً لما وصله من الأخبار أن الباب العالى أراد أن يقبض على جنوده ، إذ أصدر الأوامر الى قائد الأسطول التركى أن يدعو الجنود المصرية الى النزول فى سفنه بدعوى أنهُ يريد نقلهم الى الاسكندرية ( وهو مأمور سرًّا أن يرسلهم الى الدردنيل ) . والسبب فى نصب هذه الأحبولة التى فطن لها ابراهيم باشا وتجنبها أن الباب العالى هاله نجاح محمد على فى « المورة » برًّا ، فخشى بأسه وخاف على ملكه

اخلاء المورة

فأخلى ابراهيم باشا بلاد « المورة » فى ربيع الأول سنة ١٢٤٤ هـ ( اكتوبر سنة ١٨٢٨ م ) . ولما كان السلطان محمود الثانى لا يزال مصمماً على رفض تحرير بلاد اليونان أعلنت عليه الروسيا الحرب سنة ١٢٤٥ هـ ( ١٨٢٩ م ) وهزمت جيوشه فى عدة مواقع فاصلة . فلما رأى السلطان ذلك اضطر الى إبرام معاهدة « أدِرْنَة » فى السنة نفسها ، وكان من أهم شروطها تحرير بلاد اليونان واستقلالها استقلالاً تامًّا

معاهدة ادرنة

## ٦ — ✱ حرب الشام ✱

اسباب الحرب

بعد أن وضعت حرب اليونان أوزارها ، ورجعت الجنود المصرية الى بلادها ، طلب محمد على من الباب العالى أن يوليه على عكاء علاوة على ولاية مصر مكافأة

١ . عدم مكافأة محمد على

له على مساعدته فى هذه الحرب ، كما وعده بذلك من قبل ، فرفض طلبه . فلما أعلنت الروسيا الحرب على الدولة فى عام ١٢٤٥ هـ ( ١٨٢٩ م ) لم يهتم محمد على باجابة طلب السلطان أن يمد الدولة بجيش مؤلف من ٢٠٫٠٠٠ مقاتل وبعمارته البحرية ، إذ رأى أن لا فائدة تعود عليه وعلى بلاده من افناء ثروتها ورجالها فى مساعدة دولة تضن بمكافأته على جليل خدماته

٢ . ضعف الدولة

ولاحظ محمد على حينئذٍ أن الأحوال ملائمة لأن ينال بحدّ السيف ما منّاه به الباب العالى ، وأنَّ هذه أحسن فرصة لديه : إذ كانت الدولة فى هذه الفترة فى منتهى الضعف والانحلال ، لتشتيت السلطان محمود شمل العساكر الانكشارية وفتكه بهم جملةً فى عام ١٢٤١ هـ ( ١٨٢٦ م ) على يد حسين باشا كما قدَّمنا ، ولتضعضع الجيوش التركية لما حل بها من الانهزام الأخير على يد الروس فى حرب عام ١٨٢٩م

ولم يكن أمام محمد على إذ ذاك معارض من دول أوربا العظام ، إذ كان كل منها مشتغلاً بما فى بلاده من الاضطراب والفتن : فكانت فرنسا منهمكة فى إطفاء نار « ثورة يوليه سنة ١٨٣٠ » وانجلترة مغلولة اليدين من جرَّاء الاضطرابات التى قامت من أجل قانون الاصلاح ، وكانت الثورة مشتعلة فى بلجيكا واسبانيا والبرتقال . أما الروسيا فكانت مشغولة أيضاً باخضاع ثورة « بولندة »

٣ . خسرو باشا

ومما ساعد فى فساد العلائق بين محمد على والدولة أن خسرو باشا كان حينئذٍ اكبر رجال الدولة نفوذاً ، إذ كان هو المدبّر للخليفة وقطب السياسة فى القصر السلطانى ولا يخفى ما فى صدره من الحقد والبغضاء لمحمد على من يوم خلعه عن ولاية الديار المصرية عام ١٢١٨ هـ ( ١٨٠٣ م ) كما سبق آنفاً . فصار همّهُ الوحيد طول حياته ايغار صدر الخليفة على محمد على والعمل على ثل عرشه . وكان له فى ذلك غرضان : الأول أن ينتقم لنفسه منه ، والثانى أن يحظى هو بولاية مصر . ولذلك لما نُصّب خسرو أمير البحر للعمارة التركية فى حرب اليونان لم يساعد ابراهيم باشا تمام المساعدة بل عمل جهده على افناء الجيش المصرى بعد الحرب بالمكيدة التى لم تفلح ، كما ذكرنا

٤ . النزاع مع والى عكاء

وكانت حالة الفلاح المصرى فى هذه الفترة غاية فى الشقاء والبؤس ، إذ أثقل عاتقه محمد على بالضرائب وبتسخيره فى حفر الترع وتجنيده تجنيداً اجبارياً . وقد أثّرت هذه العوامل فيهِ تأثيراً سيئًا ، فكان يهلك من المصريين الآلاف فى حفر الترع وتحت تعذيب محصّلى الضرائب . ولما ضاقت الحال واشتد الكرب بالناس هاجر خلق كثير من سكان الوجه البحرى الى بلاد الشام هرباً من مظالم الحكام . ورجا محمد على من « عبد الله الجزار » والى عكاء ارجاع كل من هاجر الى مصر ثانية ، فحرضه خسرو باشا على ألاَّ يجيب طلبه . ولما لم تجدِ مساعى محمد على عند والى عكاء هدّده باعلان الحرب عليه . وزيادة على ما سبق كان عبد الله الجزار قد شجع المصريين على نقل حاصلات الوجه القبلى بطريق صحراء سورية بدلاً من تصديرها عن طريق الاسكندرية ، فكان ذلك مضراً بمصالح محمد على

عند ذلك لجأ عبد الله الجزار الى الباب العالى ليوقف محمد على عند حدوده ، وأن لا يتدخل فى شؤون ولاية عكاء . فأرسل الباب العالى الى محمد على بأن المصريين ليسوا عبيده ، بل هم أحرار يسكنون أنّى شاءوا ، وفى أى جزء من أجزاء الدولة أرادوا

٥ . تدخل محمد على فى الجزائر

وفى هذه الآونة جرت مفاوضات بين رئيس الوزارة الفرنسية ومحمد على بشأن غزو بلاد الجزائر بأسطول فرنسى مصرى ، فاقترح محمد على على فرنسا أن تسلمه أسطولها ليكون بقيادته ويتعهد هو باخضاع « داى » الجزائر فلم تقبل فرنسا ذلك . وخاف أيضاً محمد على من أن تفتح فرنسا الجزائر ، فتمتد الفتوح الفرنسية شرقاً وتكون خطراً على مصر . هذا الى أن ولنجتون الانجليزى أعلنه أن أى تدخل منهُ فى أمر بلاد الجزائر يكون مدعاة الى خلعه . ولما علم الباب العالى بذلك حضّ محمد على أيضاً على عدم التدخل فى هذا الأمر ، وهدده بالخلع ، ثم عَلِمَ محمد على بعد ذلك أن السلطان على وشك أن يخلعه لما سبق ، فأعلن الحرب عليهِ خوفاً على ضياع ملكه

اعداد الحملة

ابتدأ محمد على فى اعداد الحملة لذلك فى أواخر سنة ١٢٤٦ﻫ ، الاَّ أنها تأخرت الى جمادى الأولى سنة ١٢٤٧ ﻫ ( نوفمبر ١٨٣١ م ) لتفشى الهيضة ( الكلرا ) فى مصر وفتكها بالناس فتكاً ذريعاً

خروجها

فسار الجيش البرى من الطريق القديم مجتازاً الصحراء الى العريش ، وكان عدده يتراوح بين الثلاثين والأربعين ألف مقاتل . وكان مؤلفاً من ست فرق من المشاة وأربع من الخيالة وقوة كافية من المدفعية . أما الأسطول فانه كان يحمل المدافع الضخمة والذخيرة ويقل ابراهيم باشا وأركان حربه ، وبينهم البطل العظيم « سليمان باشا الفرنسى »

فتح غزة ويافا

زحف الجيش البرى فى أوائل شهر نوفمبر ، فاستولى على غزة ويافا بدون أدنى مقاومة . وفى هذا الميناء اجتمع الجيش البرى بالأسطول ، ثم تولى ابراهيم قيادة الجيش وزحف على عكاء ، حيث اجتمعت جموع عبد الله الجزار . وكان غرض هذا أن يقهر ابراهيم ويرده على عقبيه كما فعل ذلك من قبل « احمد باشا الجزار » مع نابليون ، ولكن فاته أن احمد باشا الجزار كان يساعده أسطول السير سدنى سمث من جهة البحر . ومع عظم جيش ابراهيم وحسن استعداده قد دافع عبد الله الجزار عن المدينة دفاعاً شديداً مدة ستة أشهر حاول فى خلالها عثمان باشا والى حلب أن يخلص حامية عكاء ، الا أن ابراهيم باشا داهمه فى الطريق وهزمه هزيمة منكرة . وبعد ذلك سقطت عكاء فى يده فى ذى الحجة سنة ١٢٤٧ هـ ( مايو ١٨٣٢م ) ، وأُسر عبد الله الجزار ومَنْ معه وأرسلوا الى الاسكندرية

فتح عكاء

عزل محمد على

وفى أثناء حصار عكاء أصدر الباب العالى أمراً فى أول ذى الحجة سنة ١٢٤٧هـ ( ٢ مايو سنة ١٨٣٢م ) يقضى بعزل محمد على عن الديار المصرية وجزيرة اقريطش ( كريد ) وتولية حسين باشا ( مبيد الانكشارية ) عليها ، وتسليمه قيادة الجيش الذى سيَّره على محمد على . الا أن ذلك كان على غير رغبة خسرو باشا ، اذ كان غرضه من عزل محمد على أن يكون هو خلفه . وقد نظَّم الجيش على الطريقة الغربية عدة سنوات ليكون هو القائد له فى ساحة القتال ، وبذل جل طاقته ليحصل على قصده ، فلم يصغ له الباب العالى . فلما خابت كل أمانيه عزم على أن يعرقل مساعى حسين باشا ويفسد عليه كل خططه ، وساعده على ذلك أنه كان وزيراً للحربية فى

خيانة خسرو

هذه الآونة . فلما اجتمعت الجيوش فى « أذَنَة » ( أطَنَة ) ، وكان عددهم ٤٥,٠٠٠ أبوا الاذعان لأوامر حسين باشا ( بتحريض من خسرو ) ونبذوا كل نظام أراده

فتح دمشق

وبعد سقوط عكاء سار ابرهيم باشا بجيشه الى « دمشق » ، فسلمت اليه بدون مقاومة ، وكان ذلك فى ١٦ المحرم سنة ١٢٤٨ هـ ( ١٥ يونيه سنة ١٨٣٢ م )

وحمص

ثم زحف على « حمص » حيث التقى بمحمد باشا والى طرابلس يقود نحواً من ٣٠,٠٠٠ مقاتل ، ( وكانوا مقدمة الجيش التركى ) ، وذلك فى ٩ صفر سنة ١٢٤٨هـ ( ٨ يوليه سنة ١٨٣٢ م ) فلم ينتظر محمد باشا لسوء تدبيره تلاحق الجيش التركى الذى يقوده حسين باشا شمالى هذه النقطة بنحو ٥٠ ميلاً ، بل هاجم جيش ابرهيم ، فهزمهُ ابرهيم شرّ هزيمة وأخذ منه كل ما لديه من الذخيرة والميرة وألفى أسير وستة وثلاثين مدفعاً . وبذلك أصبحت جلّ بلاد الشام فى يد ابرهيم . ولما علمت القبائل المجاورة بانتصارات ابرهيم باشا أرسلت اليه وفود المهنئين ، ووعدته بالمساعدة

مساعدة القبائل لابراهيم

أما حسين باشا فانه كان قاصداً حلب ، فلما علم أهل البلدة بهزيمة الجيش العثمانى أغلقوا أبوابها فى وجهه ، فاضطر الى التقهقر الى الإسكندرونة حيث يرسو الأسطول العثمانى . أما ابرهيم باشا فانه دخل حلب بدون عناء ولا مقاومة فى ١٨ صفر ( ١٧ يوليه ) ثم اقتفى أثر الجيش التركى ، فوجده محتمياً فى مضيق « بيلان » ( بين حلب والاسكندرونة ) ، فهاجمه وشتت شمله . وذلك فى أول ربيع الأول ( ٢٩ يوليه ) . وكانت نتيجة هذه الهزيمة ان غادر الأسطول العثمانى الاسكندرونة . وفى الحال أرسل ابرهيم باشا ابن أخيه عباساً ليحتل بلدة اذنة خلف « جبال طوروس » وبذلك استولى ابرهيم باشا فى مدة لا تتجاوز سبعة أشهر على كل بلاد سورية

فتح حلب

واقعة بيلان

فتح أذنة

قدر ابراهيم باشا وسليمان باشا

وقد عُدَّ ابراهيم باشا فى الطبقة الأولى من قوّاد ذلك العصر بما أظهره من الحذق والدراية بالفنون الحربية . ولا يفوتنا ان نُعطى سليمان باشا الفرنسى ( رئيس اركان حربه ) نصيبه من الفخر فى هذه الحروب اذ كان فى هذه الوقائع سيفه القاطع وعضده المتين

أما حسين باشا فانه نفى الى نهر الطونة بعد أن ألقى خسرو باشا كل اللوم على



سليمان باشا الفرنساوى فى حضرة محمد على باشا وابرهيم باشا

رشيد باشا

عاتقه . وطلب خسرو ثانية من الباب العالى أن يوليه قيادة الجيش ويمنحه ولاية مصر ،
فأبى السلطان عليه ذلك وعهد بقيادة الجيش الى «رشيد محمد باشا» ، وهو أحد رجال
الدولة العظام: اشترك مع ابرهيم باشا فى حرب «المورة» وخاصة فى حصار «مسولونجى»
واشتهر بعدها بمحاربة مصطفى باشا والى أشقودرة عند خروجه على الدولة . فعزم
خسرو على احباط مساعى مُناظره الجديد كما قضى على حسين باشا وجيشه من قَبل
ويظهر أن خسرو كان يعتقد ان من مصالح دول أوربا المحافظة على كيان الدولة

العلية ، فكان لا يهمه هزيمة جيش حسين باشا أو القضاء على جنود رشيد باشا أمام جيش محمد على ، إذ كان على يقين أن الدول العظام لا تسمح لمحمد على أن يجنى ثمار انتصاراته . ولا غرابة ، فقد أحس محمد على بخطر تدخل الدول ، ورحب بالصلح عند ما كان جيش ابراهيم فى اطنة ، غير أنه طلب من السلطان ولاية سورية فلم يقبل

مدد جديد لابراهيم

وفى هذه الأثناء طلب ابراهيم باشا من والده المدد ، فسيّر له جيشاً مؤلفاً من ٥٠,٠٠٠ مقاتل ، وأمره بمواصلة القتال والزحف ، فتقدم فى زحفه حتى وصل الى « قونية » . وفى خلال ذلك جمع رشيد باشا جموعه عند « اخشير » (شمالى قونية)

قلة استعداد رشيد باشا

وكانت الدولة وعدته أن تمده بعساكر البشناقيين هناك ، فخندق عند اخشير وعزم على انتظار هجوم المصريين فى هذا المكان ، غير أن خسرو باشا لم يرسل المدد واستبقاه فى القسطنطينية ، محتجاً بأن مالديه من الجند كاف للتنكيل بجيش محمد على . ثم سعى فى ارسال الأوامر الى رشيد بالاسراع فى مهاجمة المصريين خوفاً من تدخل الروسيا . فأمر السلطان رشيد باشا بالهجوم على المصريين ، فحاول رشيد باشا اقناع السلطان انه ليس لديه مئونة فى اخشير ، وأن الجيش فى حالة يرثى لها

وفى أثناء هذه الأزمة وصل « الكونت مورافييف » الروسى الى القسطنطينية فى خدمة خاصة ، فساعد خسرو فى آرائه ، فكانت النتيجة أن رشيد باشا لم يُجَب الى طلبه و تُرِكَ للقضاء والقدر

تعجيل رشيد بالقتال

على أن الجيش المصرى كان فى حالة صعبة جدًّا لما كان يقاسيه من البرد ، ولو انتظر رشيد باشا قليلاً لاضطر ابراهيم الى التقهقر ، ولكنه عجل بمناجزته حسب أوامر السلطان . وكان جيش ابراهيم حينئذٍ لا يتجاوز الثلاثين ألف مقاتل

واقعة قونية

وبعد أن تأهب الجيشان تقدم الجيش العثمانى الى الأمام ، أما الجيش المصرى فمكث فى مكانه لا يبدى حراكاً ، وكان الضباب الكثيف الكثير الانتشار فى بلاد الأناضول وفى مثل هذا الشهر خاصة ، سادلاً أستاره على الجيشين ومخفياً كلاًّ منهما عن عين الآخر ، ولذلك لم يبدأ ابراهيم باشا بالضرب كى لا يعرف العدو مكانه .

أما رشيد باشا فبمجرد وصوله على مسافة ٤٠٠ متر ابتدأ باطلاق النار ، فعلم ابراهيم باشا وسليمان باشا ترتيب الجيش العثمانى ، وتفريق مدفعيتهم . ثم شاهد أيضاً سليمان باشا أن المشاة العثمانية انفصلت بسبب الضباب عن الفرسان ، فأمر المشاة المصرية بالدخول بين الفريقين ليستحيل اجتماعهما ورجوعهما الى ما كانا عليه من الالتئام . ولقد أوقعت هذه الحركة الرعب والفزع فى قلوب الترك ، وأخذتهم الدهشة ، الى أن فاجأتهم الفرسان المصرية ، وأعملت فى فرسانهم السيف فبددت شملهم ، ووجهت المدفعية المصرية نارها على مشاة الترك فحصدتها حصداً . ولما رأى رشيد باشا أن لامناص من الهزيمة اجتهد أن يستجمع جناح جيشه الأيسر فلم يفلح ، ووقع أسيراً فى يد المصريين ، فجاءوا به الى ابراهيم باشا . ولما علم الجيش بأسر قائدهم ولوا الأدبار ، وبذلك انتهت واقعة «قونية» الفاصلة ( ٢٧ جمادى الثانية سنة ١٢٤٨هـ : ٢١ نوفمبر ١٨٣٢ م )

فتح اكثر الاناضول

وقد فرح سكان آسيا الصغرى فرحاً عظيماً بانتصارات ابراهيم . أما هو فتقدم بجيشه الى « كوتاهيَة » غربى « اخشير » وهدد « بروسة »، فى الوقت الذى كان فيه بعض جنوده وعماله قد أخضعوا اكثر بلاد الأناضول . وأصبح اسمه ذا تأثير عظيم فى قلوب القوم ، حتى أن أربعة من جنده وضابطاً واحداً استولوا على مدينة « أزمير » العظيمة*

فزع الباب العالى

ولما وصلت أخبار هذه الهزيمة الى الاستانة حنق الباب العالى وخاف من ضياع ملكه ، لأن بلاد آسيا الصغرى تُعتبر قلب الدولة وحصنها المكين

روسيا تمد يد المساعدة

عند ذلك مدت الروسيا يد المساعدة للدولة العثمانية ، فطلبت من الباب العالى أن يسمح لها أن ترسل له قوة بحرية وأخرى برية لمساعدته، إلاّ أن السلطان محموداً الثانى توانى فى قبول ذلك ، وفاوض محمد على فى شروط الصلح ، فلم يرض الأبكل

---

* ثم عادت الجنود العثمانية فاحتلتها لعدم ارسال ابراهيم باشا ما يكفى من الجند للاحتفاظ بها . وقد ذكرنا الحادثة ايضاحا لمقدار تأثير صيت ابراهيم باشا

بلاد سورية وولاية «أذنَة» (اطنة). وفى هذا الحين أرسلت الروسيا القائد «مورافييف» يلتمس من محمد على بكل وداد واحترام توقيف ابراهيم عن الزحف على الاستانة

خوف الدول من روسيا

وأما بقية الدول العظام فقد أزعجها تدخُّل الروسيا ، فاستفسر «الكونت بروكش أوستين» سفير النمسا فى مصر من محمد على عن أغراضه ، واجتهدت انجلترة وفرنسا فى توقيف زحف ابرهيم ، ونصحتا للباب العالى أن ينزل عن صيداء وعكاء ونابلس وبيت المقدس الى محمد على . الاَّ أن هذا أبى الاَّ كل بلاد سورية وأذنة ، وأمر ابراهيم بالزحف على الاستانة . وذلك بتحريض من فرنسا ، لأنها رغم اتفاق سفيرها مع السفير الانجليزى فى الاستانة كانت تعمل فى الخفاء مع محمد على ، وتشجّعهُ بتوسط سفيرها فى القاهرة ؛ رغبةً فى ازدياد نفوذها فى البلاد المصرية

المدد الروسى

فلما احتل ابرهيم باشا «كوتاهية» ( فبراير سنة ١٨٣٣ م ) اضطر الباب العالى الى طلب المساعدة من الروسيا رسميًا ، فأرسلت له جيشًا مؤلفًا من ١٢،٠٠٠ مقاتل تساعده عمارة بحرية ، وعسكر الجيش على الشاطئ الأسيوى عند «انكيار سكلسّى» ( هُنكار إسكِلَه سى ) على البسفور . فأقلق تدخل الروسيا بال فرنسا وانجلترة ،

تدخل الدول

فشدّدتا على الباب العالى فى الاتفاق مع محمد على، فأبرم معهُ اتفاق «كوتاهية» فى ذى الحجة سنة ١٢٤٨ ﻫ ( مايو سنة ١٨٣٣ م ) . وبه ولّى الباب العالى محمد على بلاد سورية ، وجعل ابراهيم باشا مُحصّلاً لولاية اذنة ، وعلى ذلك تمّ الصلح واطمأن خاطر انجلترة وفرنسا من جهة روسيا

معاهدة كوتاهية

أما قيصر روسيا فانهُ لم يقف عند ذلك الحد ، بل اجتهد فى اقناع السلطان أن كيان دولته يتوقف على مساعدة الروسيا لها ومحالفتها اياها . فاقتنع بذلك لما رآه من خذل الدول الغربية لهُ ، وأبرم معاهدة هجومية دفاعية مع الروسيا تُعرف بمعاهدة «انكيار سكلسى» ( هنكار اسكله سى ) فى صفر سنة ١٢٤٩ ﻫ ( يونية ١٨٣٣م ) وأهم شروطها أن تتعهد روسيا بحماية البلاد العثمانية من إغارة أى دولة ، وفى مقابل ذلك تتعهد الترك باغلاق الدردنيل فى وجه أساطيل جميع الدول . وكان ابرام هذه المعاهدة سرًّا بدون علم الدول الأخرى

معاهدة هنكار اسكله سى

## حكومة محمد على فى بلاد الشام وغزوته الثانية لها

اتفاق كوتاهية غير دائم

لم يكن اتفاق كوتاهية حلاً نهائياً للنزاع بين الدولة العثمانية ومحمد على ، إذ كان هذا من جهة يعتقد ان حكمه فى كل الولايات التى تحت سلطته لم يكن الاَّ لأجَل محدود، وكان على يقين أن الباب العالى لا بد أن ينزعها من يده متى سمحت لهُ قوته وساعدته الأحوال، وان ما امتلكه بحد السيف لا بد أن يعمل جهده ليحافظ على كيانه بحدالسيف أيضاً. فأفلح فى إثارة نار الفتنة فى بلاد ألبانيا، وكان يدس الدسائس فى الاستانة لخلع محمود الثانى وتولية ابنه عبد المجيد مكانه . ومن جهة أخرى كانت الاشاعات تتواتر أن السلطان يريد الاستفادة من معاهدة «انكيار سكلسى» باعلان الحرب على محمد على. وكانت الفرص مساعدة للسلطان ، إذ تألب معظم أهل الشام على ابراهيم باشا ، وثاروا فى وجهه ، وابتدأ تذمرهم منه فى ربيع عام ١٢٥٠هـ (١٧٣٤م)

تذمر السوريين من ابراهيم

والسبب فى ذلك يرجع الى عسف حكومته وظلمها . إذ اتضح جلياً لأهل الشام أن حكومة الباب العالى كانت أقل ظلماً وأحسن حالاً من حكومة محمد على . وقد ذكرنا آنفاً أنهُ لما دخل ابراهيم باشا بلاد الشام قابله الأهالى بالتهلل والاستبشار والتفوا حوله ، وانما كان ذلك يرجع الى أمرين :

الأول عدم ميل الأهالى الى السلطان محمود الثانى من جراء المصائب التى انصبّت على الدولة العثمانية فى مدته ولا سيما ابرامه لمعاهدة « أدرنة » التى اعتبرتها الأمة من أعظم النكبات التى انتابت الدولة

والثانى قسوة الأحكام التركية منذ فارقها الفرنسيون عام١٢١٤هـ ( ١٨٩٩ م ) ، لأنها قبل حملة نابليون عليها كانت تتمتع بشبه استقلال ، ولكن بعد الحملة قررت الدولة عليها الضرائب الفادحة ، وابقت الجنود التى أرسلتها لطرد الفرنسيين فى البلاد يعيثون فيها فساداً

فلا غرابة بعدئذٍ أن يستقبل أهلُ الشام ابراهيم باشا بكل فرح وابتهاج . وقد أدخل بعض اصلاحات فى بادئ الأمر كانت مفيدة له وللبلاد ، إذ صرف معظم

السنتين الأوليين فى درس أحوال الشام ، وفى توطيد عرى التحالف بينه و بين القبائل القوية التى ينتظر أن يركن اليها عند الحاجة فى تنظيم قوّة حربية يعتمد عليها فى اخماد نار الفتن الداخلية ، أو صد هجمات الدولة حال اعلانها الحرب عليه . وقد جعل الحاكم العام على البلاد الشامية « شريف باشا » أحد أقربائه ، وكان ذا أخلاق فاضلة وخبرة فى الأمور السياسية : وجعل « حنا بحرى » أحد السوريين مساعداً له فى ادارة الشؤون المالية ، وكان ذا حذق ومهارة فى ذلك . ثم ساوى بين كل الديانات أمام القانون : لا فرق بين المسلم والمسيحى ، وعقد فى كل بلدة من أمهات البلاد مجلساً كانت تُنتخب أعضاؤه من المسلمين والمسيحيين على السواء . وكل هذه المجالس كانت تحت سيطرة « مجلس المشاورة » فى عكاء ، اذ كان بمثابة محكمة عليا : تتسلم دخل البلاد ، وتولّى الحكام ، وتخابر الحكومة الرئيسية فى مصر

اسباب تذمر السوريين

وبعد أن وضع ابراهيم هذه الأنظمة رأى أن لا بد لضمان سير الأحوال على ما يروم من جيش عظيم يعوّل عليه ، وأن يكون له موارد للثروة يستقى منها . فأول عمل قام به للحصول على المال أن احتكر جميع أصناف الحرير وبعض المواد الأخرى ، وسخر الأهالى وأكرههم على زرع الحاصلات التى لا غنى للبلاد عنها كالحبوب ، وعلى غرس النباتات التى تلائم طبيعتها . فكان من نتائج ذلك مهاجرة الأهلين الى بلاد الجزيرة وآسيا الصغرى ، كما هاجر أهل مصر عام ١٢٤٥ هـ ( ١٨٢٩ م ) وكان سبباً من أسباب حربه الأولى مع الدولة

ثلاثة أوامر شديدة

وفى أثناء سير الأحوال فى البلاد الشامية أصدر محمد على باشا ثلاثة أوامر لابنه ابراهيم وهى : ( ١ ) أن يضرب الجزية ( الفرضة ) على كل فرد بدون تمييز بين الجنسية والديانة ( ٢ ) أن يجنّد جيشاً من البلاد بالإجبار ، وأن يأخذ كل ما يحتاج اليه هذا الجيش من الحيوان ( ٣ ) أن ينزع السلاح من كل السكان

ومن الغريب أن هذه الأوامر كلها صدرت دفعة واحدة . فكانت النتيجة أن تذمّرَ الأهالى وثاروا فى عام ١٢٥٢ هـ ( ١٨٣٥م ) وأحدثوا فتنة تفاقم خطبُها وامتد لهيبها

فى طول البلاد وعرضها ، وكان أهم مادعاهم الى العصيان نزع السلاح منهم . غير أن ابراهيم باشا استطاع أن يخضع العصاة فى دمشق وحلب وماجاورهما من البلاد بدون عناء

سفر محمد على الى الشام

أما فى طرابلس وعكاء وجبال لبنان ونابلس ( التابعة لولاية دمشق ) فقد قاومه الثائرون فيها مقاومة عنيفة ، حتى أن محمد على لما علم بحرج مركز ابراهيم باشا أعدّ كل ما يمكن جمعه من الجند والذخيرة وسار بنفسه الى مساعدته . فنزل فى يافا ، وبحذقه ومهارته تمكن من ضم سبعة من رؤوس الثوّار اليهِ فى مدة وجيزة ، ثم حارب أهالى نابلس ، ودخل بلدهم دخول المنتصر ، وفى هذه الاثناء ثارت طائفة النُصَيرية [1] فأخضعها المصريون سريعاً ، إلاَّ أن الدروز ، والمارونية [2] استمروا فى

اطفاء الفتنة

مقاومة الجنود المصرية حتى رجب سنه ١٢٥٢ هـ ( اكتوبر سنة ١٨٣٦ م ) ، اذ تمكن فيه ابراهيم باشا ومحالفهُ الأمير بشير الشهابى [3] والى لبنان من اخضاعهم ونزع السلاح منهم ، فى أقل من ستة عشر شهراً

ومن ذلك الحين ابتدأ الأهالى فى الشام ينفرون من محمد على ، وينظرون اليهِ بعين العداوة والبغضاء ، ولا سيما بعد أن بدَّل بالحكام الملكيين غيرهم من الجيش ، ونشر عساكره فى جميع انحاء البلاد

ولا يفوتنا أن نذكر أن إخضاع الثورات الداخلية فى الشام ( التى تبلغ مساحتها أربعة أمثال مساحة مصر الزراعية ) ، وجلب الجنود اليها ومايلزمهم من البلاد المصرية كل ذلك أثقل عاتق الحكومة المصرية وسبّب أزمة مالية سنة ١٢٦٠ هـ ( ١٨٤٤م )

الدول ضد المعتدى

وفى أثناء هذه الفتن الداخلية فى بلاد الشام كان السلطان محمود الثانى يريد منازلة محمد على ، آملاً استرجاع ما فقد ، ففى سنة ١٢٤٩ هـ ( ١٨٣٤ م ) احتج على دول أوربا العظام التى كانت تمنعه عن الدخول فى الحرب مع خصمه محمد على لتخليص

---

( ١ ) طائفة قريبة من الاسماعيلية فى المذهب تقطن الجبل بين لبنان ونهر العاصى

( ٢ ) طائفة مسيحية تقطن لبنان تابعة لكنيسة رومية ظاهراً لكنها محافظة على تقاليدها القومية

( ٣ ) هو راس بيت عربى بزعم انتماه الى قريش ، وقد تنصر بشير هذا وتبعه بعض اهل بيته ليتولى زعامة نصارى لبنان ( وهم اكثر قطانه )

رعاياه من ظلمه . فلما علم محمد على بنية الباب العالى أعلن للدول أنه اذا ظهر الأسطول العثمانى فى جنوب جزيرة رودس فانه لا يرى مندوحة من مهاجمته واعلان عدم الطاعة والاذعان للخليفة . فصرحت الدول العظام بأنها ستكون ضد المعتدى . ولذلك خاف كل من الفريقين ، وأُجّل اعلان الحرب مدة ست سنوات . ولكن بالرغم من كل ذلك بقى كلا الجانبين يستعد للحرب

خوف روسيا من الدول

أما الروسيا التى كان الباب العالى يعتمد على مساعدتها فإنها أحجمت عن الخوض فى هذا المشروع الذى لم تتحقق حسن عواقبه ، لأن قيصر الروس ابتدأ يدرك أنهُ اذا شرع فى انفاذ شروط معاهدة هنكار اسكله سى قامت فى وجهه دول أوربا وأخضعته بحد السيف . فان دول أوربا الكبرى وخاصة انجلترة وفرنسا والنمسا كانت تحذر تدخل الروسيا ، وأخذت على عاتقها أن تمنع استنجاد الدولة العلية بها ، سواء أكان الاعتداء من السلطان على محمد على أم من محمد على عليه

الدولة تريد الحرب

ومما شجع الباب العالى الأخبار التى كانت تأتيه عن تمرد أهل الشام وعدم رضاهم بحكم ابراهيم باشا . وعن انهزام المصريين شر هزيمة أمام عرب « حوران » فى سنة ١٢٥٤ هـ (١٨٣٨ م) . ولذلك ابتدأ فى استعداده البرى والبحرى بهمة جديدة

وكان محمد على فى هذه الأثناء فى رحلته الى بلاد السودان (١٢٥٤هـ : ١٨٣٨م) ليقف على حقيقة كنوز الذهب التى كان يُمنّى نفسه أن يستعين بها على شن الغارة على السلطان اذا اضطره الحال الى ذلك

خوف الدول

وفى ذى القعدة سنة ١٢٥٤ هـ ( يناير سنة ١٨٣٩ م ) عقد الباب العالى مجلساً حربياً قرر فيه تجهيز ٨٠,٠٠٠ جندى بقيادة حافظ باشا ، فلما علم سفراء الدول بذلك اضطربوا وخافوا من ضياع الدولة . لأن فرنسا وانجلترة والنمسا كانت لا تزال تخاف من تدخل الروسيا تنفيذاً لمعاهدة هنكار اسكله سى

الدولة تقرر الحرب

وفى ٢٢ يناير عقد الباب العالى مجلساً آخر لتقرير الحرب أو السلم انتهى بتقرير محمود الثانى أخيراً اعلان الحرب ، وذلك لأن حافظ باشا كان يمنّيه بالنصر ، ورشيد باشا

(الذى كان فى هذه الآونة قائماً بتأدية مأمورية خاصة فى باريس ولندن) صرح للباب العالى خطأً أن كلاً من انجلترة وفرنسا لا تتعرضان للسلطان اذا هو هاجم محمد على

منشور محمد على الى سفراء الدول

فقفل محمد على راجعاً من سنار عند ما علم من عباس بن طوسون (وكان نائباً عنه فى مصر) بالاستعدادات الحربية التى كانت قائمة على قدم وساق فى القسطنطينية ولما وصل الى القاهرة كتب منشوراً وأرسله الى جميع سفراء الدول معلناً فيه أنه برئ من كل هذه المشاكل، وأن لابد له من مقابلة القوة بالقوة. ولما وصل هذا المنشور الى يد السلطان احتدم غيظاً وشدد فى الاسراع بتجديد الحملة، ومن فرط حنقه قال: «انى أفضل الموت على التراخى فى اخضاع هذا العاصى»

انجلترة تنذر محمد على

أما محمد على فانه أراد أن يداهم الدولة قبل أن تتم إعداد جيشها الذى كان يقوم بأمر تنظيمه القائد «فون مُلْتِكَه» وضباط آخرون من الألمان. وحدث أن الحكومة الانجليزية أبرمت مع الدولة فى ذلك الحين معاهدة تجارية تتعلق بجميع أملاك الدولة، فكانت ضربة قاضية على آمال محمد على التجارية لأنه كان محتكراً كل التجارة المصرية كما سبق. فلما علم بذلك محمد على هدّد الدولة باعلان استقلاله ولو تمّ له ذلك لكان الضربة القاضية على الباب العالى، إذ كان فى ذلك نزع سيادته الاسمية والفعلية حتى من بلاد الحجاز مصدر زعامته الدينية. إلاّ أن الحكومة الانجليزية أنذرت محمد على بواسطة سفيرها فى مصر المستر «كَمبِل» أنه إذا شرع فى ذلك كانت انجلترة خصمه

وتحذر الدولة

وحذرت انجلترة الباب العالى أيضاً، وأظهرت له انها لا تساعده اذا كان هو المعتدى، ولا تتحمل شيئاً من نتائج هذه الحرب. أما اذا اعتدى محمد على فانها تأخذ بناصر الدولة. ولذلك خاف كل منهما أن يبتدئ بالعداء، إلاّ أن شدة بغض محمود الثانى لمحمد على جعلته يهاجمه أولاً، ولذلك عند ما طلب محمد على أن يكون لخلفه حق الوراثة لجميع الولايات التى تحت سلطته من بعده أعلن السلطان أن محمد على خائن للخليفة، وأرسل الجيش لاخضاعه

الدولة تعلن الحرب

واقعة نصيبين

تجمع الجيش التركى عند « سيواس » بقيادة حافظ باشا ، ثم زحف الى جهة الجنوب حتى وصل نهر الفرات عند بلدة صغيرة تسمى «بيرجك» على الضفة اليسرى منهُ ، ثم وصلت الأوامر الى حافظ باشا بأن يجتاز النهر وينتقل الى الشاطىء الأيمن

فلما وصل هذا الخبر الى ابراهيم باشا أرسل الى والده يخبره بذلك، فأمده بالذخيرة وجيش بقيادة احمد باشا «المنكلى» ناظر الحربية المصرية . وكان ابراهيم باشا فى هذا الحين بمدينة حَلَب لقُربها من الحدود الشمالية، ووفرة المؤونة فيها، ثم سار من هذه البلدة قاصداً «نَصِيبين» (بلدة على نهر الفرات) ، وكان قد علم أن الجيش التركى عسكر فيها وانهُ حصلت بعض مناوشات بين الباش بزق السلطانية وبين فرسان العرب عند « تل باشر » جعلت سليمان باشا الفرنسى يهتدى أثناءها الى التحصينات المهمة التى أقيمت أمام نصيبين ، وتبين له أنهُ يتعذر مهاجمتها من هذه الجهة ، ففكر ابراهيم باشا وسليمان باشا فى الدوران حول نصيبين ليهاجموها من الجهة التى لم يحصنها الترك

انهزام الترك

عند ذلك أشار القائد « ملتكة » ومن معه من الضباط الألمان على حافظ باشا أن يهاجم المصريين أثناء سيرهم غير متأهبين للحرب ، فلم يقبل حافظ باشا ذلك فدار ابراهيم باشا بجيشه وهاجم الجيش التركى . وبالرغم من محاولة بعض الفرق الشامية من جيش ابراهيم الانضمام الى جيش الترك شتت الجيش المصرى شمله فى ١١ ربيع الثانى سنة ١٢٥٥ هـ ( ٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩ م ) . وكانت خسائر الترك فادحة جداً حتى أصبح السلطان فى الحقيقة بلا جيش ، ومن حسن حظ الخليفة محمود أنه مات قبل أن يصل خبر هذه الهزيمة الى القسطنطينية بمدة أيام . وهكذا أصبحت الدولة العلية للمرة الثانية تحت رحمة محمد على

تولية السلطان عبد المجيد

ولما تولى الخلافة السلطان « عبد المجيد » كان سنه إذ ذاك لا يتجاوز السابعة عشرة، فتسلم خسرو باشا منصب الصدارة العظمى، وكان قبل ذلك مغضوباً عليه . ولما علم بذلك احمد باشا فوزى أمير البحر التركى (وكان خسرو باشا من أشد أعدائه) حزن حزناً شديداً وصمم على تسليم العمارة البحرية الى محمد على، بدعوى أنهُ خائف

خسرو يتولى الصدارة

على حياته من خسرو، وأنه ربما اغتاله كما اغتال السلطان محموداً الثانى (حسب اعتقاده) وأظهر أن لا بد من عزله لسلامة الدولة، وقد صرح برأيه هذا الى القبودان «ووكر» الانجليزى مساعده

خيانة الاسطول العثمانى

فأقلع بأسطوله من الدردنيل، وكانت مأموريته فى هذا الحين أن يساعد حافظ باشا من جهة البحر، فالتقى فى أثناء سيره بالأسطول الفرنسى، وأخبر قائده «لالند» بما أخبر بِهِ أمير البحر «ووكر»: من أن الحزب الروسى (أى حزب خسرو) سمّ السلطان، وأنه متوجه بالأسطول الى اقريطش، فأخبره «لالند» ان اقريطش فى يد محمد على، وان معنى الذهاب اليها تسليم العمارة البحرية له. وبعد ذلك بأيام قلائل وصل الأسطول التركى الى المياه المصرية. وانضم الى الأسطول المصرى. فلما علم الضباط بنية أميرهم همّوا بالتألب عليه، فاستمالهم محمد على

ذهابه الى جانب محمد على

رسا الأسطول التركى فى الميناء الغربى بالاسكندرية على بُعد ستة أميال من الشاطئ، وكان مؤلفاً من ٢٠ بارجة تحمل ٢١ ألف جندى بحرى، ثم نَزَلَ الضباط وقابلوا محمد على. الاَّ أن القائد «ووكر» لم يرجع ثانيةً الى الأسطول، محتجاً بأن الحكومة الانجليزية لم تخول له الخدمة تحت إمرة محمد على

بقاؤه بالمياه المصرية

ولما علم سفراء الدول بهذا الحادث استولى عليهم الهلع، وأظهروا لمحمد على استياءهم من خيانة أمير البحر، وأنهم لا يريدون أن يكون شريكاً له فى هذه الجريمة، ونصحوا له أن يُرجع الأسطول التركى الى الاستانة. فغضب لذلك محمد على وقال ان الحرب تبيح لأحد الفريقين أن يقبل الفارّين من الفريق الآخر. وكانت حالة الدولة فى هذا الحين فى منتهى التعس والاضمحلال، حتى أن خسرو باشا طلب من أمير البحر أن يرجع مع العفو التام من الخليفة، فأجابه هذا أنه ليس خارجاً على الباب العالى وانما يخشى غدره وخيانته: وانهُ لن يبرح المياه المصرية ما دام هو المحرّك لسُكان سياسة الدولة، والقابض على زمامها

## تدخل دول أوربا

خوف الدول من روسيا

كان أول همّ لدى الدول الكبرى منع الروسيا من انفاذ شروط معاهدة « هنكار اسكله سى » والانتفاع بها ، ولذلك كان من المحتم عليها ان تعمل جميعها للوصول الى ذلك . الآ أن الباب العالى ، لمنع زحف ابرهيم باشا على القسطنطينية ، قرر إعطاء مصر لمحمد على وذريته من بعده واعطاء الشام لابراهيم الى أن يخلف والده على مصر . وكان هذا الاتفاق على رغبة من الروسيا لأنه يخلصها من اتفاق هنكار اسكله سى ولا يحط من سلطتها فى القسطنطينية ، فرأت الدول الكبرى ان الأمر أشد خطورة من أن يفصل فيه الباب العالى وحده ، ولذلك كتبت اليه تعلمه ألاّ يفاوض محمد على فى شىء ، ولا يتفق معه الاّ بواسطة الدول . فلما فطنت الروسيا لغرضهم لم تعارض فى الأمر ، وبذلك ظهرت الدول الكبرى بمظهر المشجع للباب العالى على معارضته لمحمد على ورفضه لمطالبه

الدول تلغى قرارات تركيا

فرنسا وانجلترة

الى هذا الحد كانت فرنسا وانجلترة متفقتين ، لأنهما اجتهدتا معاً فى توقيف النفوذ الروسى فى البلاد العثمانية ، ورأتا أن أحسن حل للمشكل القائم بين محمد على والدولة وضع الدولة تحت حماية الدول الكبرى جميعاً . ثم ابتدأ الخلاف بينهما ، لأن « بلمرستون » وزير خارجية انجلترة كان يعتقد أن الدولة العلية لا تصير فى أمان الاّ اذا كانت صحراء سيناء الحد الفاصل بينها وبين محمد على . والرأى العام فى فرنسا من جهة أخرى كان ميالاً لمحمد على ، إذ كان يرى فيه حليفاً يعتمد عليه فى منازعة الدولة البرطانية فى البحر الأبيض المتوسط

وقوع الخلاف بينهما

مؤازرة فرنسا لمحمد على

لذلك عرضت فرنسا على انجلترة أن يُمنح محمد على وذريته من بعده كل الولايات التى تحت يده ، فلم يوافق على ذلك بلمرستون مع شدة ميله الى استجلاب مودة فرنسا . غير انه عرض عليها فى شعبان سنة ١٢٥٥ هـ ( اكتوبر سنة ١٨٣٩ م ) أن تكون مصر وراثية لأسرة محمد على ، وأن يتولى محمد على أيضاً ولاية عكاء الى

طرابلس ودمشق . وبعد مفاوضات طويلة أعلن « تِييرْس » رئيس الوزارة الفرنسية فى مايو سنة ١٨٤٠ أن فرنسا لا تقبل ذلك ، بدعوى أن هذه الشروط لا توافق محمد على وأنه اذا أُعلن بها اندفع فى زحفه على آسيا الصغرى ، وأن أساطيل الدول لا يمكنها أن تقوم بعمل ما ضده ( اللهم الآ امتلاك بعض البلاد على الساحل ) ، وليس فى قدرتها طرده من بلاد الشام . وكان تييرس فى هذه الأثناء يخابر محمد على والباب العالى سرًا فى ابرام اتفاق لمنح محمد على كل بلاد سورية ، فلما علم بلمرستون بذلك قطع كل رجاء فى مؤازرة فرنسا له

روسيا تتفق مع انجلترة

وفى أثناء ذلك أرادت الروسيا أن تتفق مع انجلترة فى حل المسألة التركية المصرية، فأرسلت سفيراً عرض على الحكومة الانجليزية أن الروسيا مستعدة أن لاتتدخل فى المسألة التركية وحدها وأنها تبادر الى النزول عن شروط معاهدة هنكار اسكله سى ، وفى مقابل ذلك يُقْفَلُ الدردنيل والبسفور فى وجه كل السفن ويُسمح للروسيا وحدها ان تمر منهما لحماية الدولة العلية وقت الخطر

الدول تعمل من غير فرنسا

فابتدأت الدول الأربع ( الروسيا و بروسيا والنمسا وانجلترة ) تفاوض محمد على بواسطة « الكولونيل هُدْجِس » السفير الانجليزى بمصر ( وكان قد عُين بدلاً من الكولونيل « كَمْبِل » للقيام بهذه المهمة خاصةً ) . فلم يصغ محمد على لكل تهديدات « هدجس » ووعيده ، مرتكناً على ما كانت تعده بهِ فرنسا من المساعدة ، ولذلك رفض كل مفاوضات الدول الأخرى . فلما يئست الدول الأربع منـهُ أبرمت مع

معاهدة لندن

الدولة العثمانية « معاهدة لندن » فى ١٥ جمادى الأولى سنة ١٢٥٦ هـ ( ١٥ يوليه سنة ١٨٤٠ م ) بدون علم فرنسا . وقررت فى هذا المجتمع أيضًا الطرق التى يجب اتخاذها لاخضاع محمد على . وأهم شروط هذه المعاهدة ما يأتى : —

( ١ ) الزام محمد على بارجاع ما فتحه من بلاد الدولة العلية وأن يحفظ لنفسه الجزء الجنوبي من الشام الشامل مدينة عكاء

( ٢ ) أن يكون لانجلترة الحق بالاتفاق مع النمسا فى محاصرة فرض الشام ، ومساعدة كل من أراد الهجرة من أملاك محمد علي والرجوع الى الدولة

( ٣ ) أن يكون لسفن الروسيا والنمسا وانجلترة معاً حق الدخول فى البسفور والدردنيل لوقاية القسطنطينية لو تقدمت الجيوش المصرية نحوها ، وأن لا تدخلها سفن مادامت الدولة غير مهددة بخطر

وفى مادة خاصة اشترطت الدول أنهُ اذا خضع محمد على لرأى الدول فى مدة عشرة أيام أعطتهُ ولاية مصر وراثية وجنوبى بلاد الشام الشامل لولاية عكاء مدة حياته ، واذا أصر على عصيانه الى ما بعد هذه المدة أعطته ولاية مصر فقط ، واذا لم يخضع فى مدة عشرة أيام أخرى عادت الدول الى النظر فى الأمر من جديد

حنق فرنسا

ولما وصل خبر هذه المعاهدة الى فرنسا هاج الرأى العام ، وقامت الاستعدادات الحربية على قدم وساق . فنصحت الحكومة الانجليزية لملك فرنسا « لويس فليب » بواسطة ملك البلجيك أن يتبصر فى عواقب هذه الاستعدادات الحربية . ففطن لذلك الملك وعزل « تيرس » رئيس الوزارة وعيَّن بدله « جيزو » ، الاَّ أنهُ لم يتمكن من توقيف الاستعدادات الحربية لهياج الرأى العام

عدم خضوع محمد على

أما محمد على فقد مضت عليه المدة المعينة ، ولم يقبل شيئاً من هذه الشروط ، فأعلن الباب العالى خلعه وحصر الشواطىء المصرية والشامية . وكان محمد على من جهة لا يزال مؤملاً مساعدة فرنسا له ومرتكناً على قوة جيش ابنه ابراهيم ، ومن جهة أخرى كانت فرنسا تعتقد فى عظم جيوش محمد على وانهُ يمكنهُ أن يقاوم الدول حتى تجهز هى جيشها . ولكن الحوادث أظهرت غير ذلك . فأحجمت فرنسا عن مساعدة محمد على بعد سقوط وزارة « تيرس » ، وتلاشى جيش ابراهيم أمام قوى الدول المتحدة كما سيأتى . وسهّل عليها الأمر نزول انجلترة عن الاصرار على حرمان محمد على من مصر ذاتها

خلعه

## الحملة الأخيرة

تدابيره فى الشام

لما جاء الى سليمان باشا الفرنسى والى بيروت نبأ ما قرره الباب العالى بدأ فى الاستعداد الحربى ، وأبلغ سفراء الدول أن بلاد الشام فى حالة حرب . وكان ابراهيم

فى ذاك الوقت فى دمشق بجيشه المؤلف من أربعين ألف كامل العدة : وهو الجيش الذى كسر الترك فى واقعة نصيبين وقونية من قبلها

وكان محمد على فى أعظم سطوته وبأسه ، اذ قد بلغ عدد جيشه فى هذا الوقت ربع مليون جندى منها ١٣٠،٠٠٠ من الجنود النظامية و ٤٠،٠٠٠ من رجال البحرية

فأول عمل قام به مناصباً الدولة أن أعلن : ١ — أن الفرنسيين آتون لمساعدته ٢ — أنه حامى الاسلام ضد الكفار ٣ — تحذير المارونية من الانجليز ، وقال انهم يقصدون بتدخّلهم فى الأمر نصرة الدروز على كاتوليك لبنان

خروج الشام على ابراهيم

الاّ أن ذلك لم يُجد نفعاً ، لأن أهالى الشام كانوا قد سئموا حكمه ، فثاروا على ابراهيم باشا بمساعى «رِتشَرْدوُود» أحد رجال السفارة الانجليزية ، فانه جمع رؤساء القبائل وأوضح لهم عاقبة الحالة حتى أفلح فى اثارة خاطرهم على ابراهيم . وربما كان هذا اكبر سبب فى هزيمة الجيش المصرى ، إذ بمجرد ظهور أسطول المتحالفين فى المياه الشامية قامت الثورة فى لبنان ، فكان تأثيرها فى القضاء على مُلك محمد على فى الشام أكثر من أساطيل الحلفاء وجيوشهم

تأثير ثوران لبنان

اساطيل الحلفاء امام بيروت

ابتدأت المناوشات عندما وصلت أساطيل الحلفاء أمام بيروت بقيادة «ستُبفُورْد» و «نِبْيِير» الانجليزيين ، ومعها جيش عثمانى مؤلف من ٤،٠٠٠ جندى . فشرعت الأساطيل فى اطلاق قنابلها على بيروت ( رجب سنة ١٢٥٦ هـ : سبتمبر ١٨٤٠م)

عجز ابراهيم عن انقاذ المدينة

ونزل الجيش العثمانى بالقرب من المدينة . إلاّ أنها لم تفلح في الاستيلاء عليها لحسن دفاع سليمان باشا عنها ، ولما وصل الخبر الى ابراهيم فى دمشق سيّر مدداً الى بيروت هزم فى الطريق عند قرية «برُومانة» فى رجب سنة ١٢٥٦هـ (سبتمبر سنة ١٨٤٠) ثم انزل الحلفاء قوة أخرى عند صيداء فاستولت عليها عنوة قبل أن يصل اليها

انهزاماته

ابراهيم باشا الزاحف لتخليصها ، فاشتبك مع الحلفاء فى ٨ اكتوبر فى موقعة فاصلة عند «قلعة ميدان» كانت الدائرة فيها عليه ، وقد قال شاهد عيان ان ابراهيم باشا نجا مع ثلة صغيرة من الفرسان بكل مشقة راجعاً الى دمشق . ولما سمع سليمان باشا بذلك

سقوط عكاء

أخلى بيروت ، وانضم الى ابراهيم . ثم استولت أساطيل الحلفاء على « عكا » ، وكانت فيها حامية مصرية عظيمة ، فلم تقوَ على المقاومة اكثر من ثلاثة أيام

اخلاء الشام

فلما علم محمد على بسقوط هذه المدينة حزن حزناً شديداً ، ثم أرسل بعدها بزمن يسير الى ابراهيم يأمره باخلاء كل بلاد الشام ، لأن مركزه أصبح حرجاً جداً . ولم يتمكن من ارسال النجدات اليه براً ، لأن ما لديه من الجند كان يحرس بحارة الأسطول التركى الذين تألبوا على احمد باشا فوزى قائدهم ، وانكروا عليه ما أتى به من العصيان ، فاضطر محمد على الى انزالهم الى الشاطئ وحراستهم . ولم يمكنه ارسال المدد أيضاً من جهة البحر خوفاً من أسطول الحلفاء الذى كان يتجوّل فى تلك المياه

صعوبة الاخلاء

ولما وصل الخبر الى ابراهيم باخلاء بلاد الشام أخذ فى اخلائها . وقد أظهر من المهارة والحذق هو وسليمان باشا فى تقهقر جيشه فى وسط صحراء سورية ما شهدت به الأعداء ، وقام كل ضابط من رجاله بواجبه وحافظ على النظام الى آخر لحظة من حياته

التقهقر

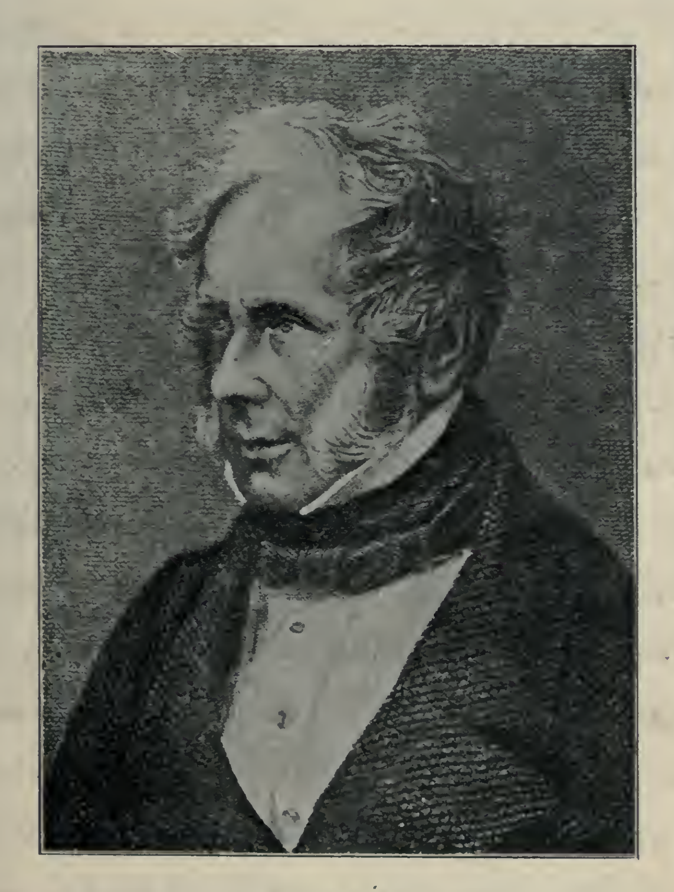
ابتدأ ذلك التقهقر من مدينة دمشق فى ٥ ذى القعدة سنة ١٢٥٦ﻫ (٢٩ديسمبر سنة ١٨٤٠م ) وكان عدد الجيش ٦٢,٠٠٠ جندى يتبعهم عشرون ألفاً من الأطفال والنساء . وقد لاقى الجيش فى سيره عناء شديداً ، إذ كانت الأعراب تتخطفه من أطرافه وأهل البلاد يناوشونه ، حتى كان يضطر الى محاربتهم من آن لآخر . وبعد أسبوع وصل الى بلدة «المزاريب» ، ومن ثم سيّر ابراهيم باشا سليمان باشا بالمدافع والخيل من طريق الصحراء الى العقبة وسار هو ومن معهُ الى أن وصل الى «غزة» وكان قد هلك أثناء هذا التقهقر ثلثا من معه من الجند وكثير من المستخدمين الملكيين فكتب الى والده يخبره بقدومه ، ويطلب منه ارسال ما يلزم من السفن لنقل الجند الى الاسكندرية وما يلزمهم من المئونة . فأرسل له أسطولاً مكوناً من ثمانى سفن

نبيير يحمل محمد على على الخضوع

وبعد سقوط « عكاء » أبحر « نبيير » بأسطول الحلفاء الى الاسكندرية وقابل محمد على ، واخبره انه اذا خضع للخليفة أخذت دول التحالف على عاتقها أن تتوسط لدى الباب العالى ليعطيه مصر وراثة . أما اذا استمر على عدم الاذعان فانه يضطر

الى ضرب الاسكندرية وتخريب قصر رأس التين نفسه . فقبل ذلك محمد على بعد أن يئس من مساعدة فرنسا له ، وردّ الأسطول العثمانى الى القسطنطينية

أما الباب العالى فلم يقبل هذا الاتفاق . إلاَّ أن « بَلْمرستون » أشار على دول التحالف أن تنصح له بالقبول ، فطلبت الدول أولاً من محمد على أن يخضع للباب العالى خضوعاً تاماً بلا قيد ولا شرط . فامتثل لذلك وأرسل فى ذى القعدة سنة ١٢٥٦هـ ( يناير ١٨٤١م ) رقعة يظهر فيها خضوعه ويعترف بسيادة الباب العالى



بلمرستون
( زعيم ساسة أوربا فى المسألة التركية المصرية )

تقليد الولاية
فبراير سنة ١٨٤١

ولما وصلت هذه الرسالة الى الباب العالى عاد « بلمرستون » فأوعز الى الدول

المتحالفة أن يطلبوا الى الباب العالى أن يمنح محمد على ولاية مصر وراثية، فتم ذلك بتقليد ( فرمان ) فى ٢١ ذى الحجة سنة ١٢٥٦هـ (١٣ فبراير سنة ١٨٤١م ) هذا مؤداه :

أولاً – أن الولاية تكون لمن يختاره الباب العالى من أولاد محمد على باشا الذكور ، ثم لأولاد أولاده الذكور ، وهلم جرًّا ، بحيث لا يكون لأولاد البنات الحق فى الحكم مطلقاً

ثانياً – يجب على كل من يختاره السلطان والياً على مصر أن يسافر بنفسه الى القسطنطينية لتسلُّم تقليد التولية بيده

ثالثاً – أن الذى ينتخب والياً لمصر يُعتبر كأحد وزراء الدولة فى مخاطباته مع الباب العالى وفى المقابلات السلطانية ، بحيث لا يكون له أدنى امتياز عنهم من هذه الوجهة مطلقاً

رابعاً – أن والى مصر يكون ملزماً باتباع أمر التنظيمات العالى الذى أصدره السلطان عبد المجيد عند توليته ، وكل ما أصدره أو يصدره الباب العالى من القوانين واللوائح . ويكون الوالى ملزماً أيضاً بالسير فى ولايته طبق المعاهدات المُبْرَمة أو التى تبرَم بين الباب العالى والدول الأجنبية أياً كانت بلا تغيير ولاتبديل ، إذ الحكومة المصرية لم تخرج عن كونها ولاية عثمانية كباقى الولايات

خامساً – أن سائر الضرائب على اختلاف أنواعها يكون تحصيلها باسم الجناب السلطانى، ويكون تحصيلها وتوزيعها بحسب القواعد المتبعة فى باقى ولايات الدولة العلية

سادساً – أن ربع المتحصل يدفع للخزانة الشاهانية ، والثلاثة الأرباع الباقية يصرف منها ما يلزم لنفقات الإدارة وجباية الأموال ، وما يلزم أيضاً للوالى وأسرته ، وثمن البُر الذى يرسل سنوياً الى مدينتى مكة والمدينة المنورة

سابعاً – أن هذه الضرائب تُدفع بقيمة واحدة مدة خمس سنين تبتدئ من سنة ١٢٥٧ هجرية ، وبعد انقضاء هذه المدة يمكن تعديلها إما بزيادة أو نقصان حسب ما تستدعيه ثروة الحكومة والأهلين

ثامناً – أنه لضبط المتحصل من الضرائب ومعرفة ما يخص الدولة بالتحقيق يلزم أن تعيّن لجنة من الدولة تقيم فى مصر لهذه الغاية ، ويُنظر فى تعيينها بعد كما تقتضيه الإدارة الشاهانية

تاسعاً – يكون لمصر الحق فى ضرب العملة : من فضية وذهبية ونحاسية ، بشرط أن يكون ذلك باسم السلطان المعظم ، وأن لا تختلف العملة المصرية عن العملة العثمانية لا فى الشكل ولا فى الهيئة ولا فى العيار

عاشراً – عدد الجيش المصرى يجب أن لا يتجاوز ثمانية عشر ألفاً فى مدة السلم ، وأما فى أيام الحرب فيزاد هذا المقدار الى الحد الذى تقرره الدولة ، إذ أن العساكر المصرية تكون ملزمة حينئذٍ بالاشتراك والمساعدة فى القتال مع باقى الجنود الشاهانية

حادى عشر – أن مدة الخدمة العسكرية يجب أن لا تتجاوز خمس سنين ويكون جمع العسكر بطريق القرعة كما هو المتبع فى الدولة ، ومن حيث أن الجيش المصرى يبلغ ( فى ذاك الوقت ) زهاء ثمانين ألفاً ، يؤخذ منهم عشرون ألفاً ويُرجَع الباقى الى بلادهم ، ويُرسل أيضاً من هذا المقدار ألفان الى دار السعادة كى لا يبقى فى مصر الاّ الثمانية عشر ألفاً المقررة

ثانى عشر – من حيث أن مدة الخدمة العسكرية خمس سنين يؤخذ سنوياً من أفراد القرعة أربعة آلاف شاب ، يرسل منهم الى دار الخلافة أربعمائة ويبقى الباقون فى مصر

ثالث عشر – أن من أدى مدة الخدمة المطلوبة من الجند يعود الى بلده ، ولا يجوز ادخاله فى الجيش مرة أُخرى

رابع عشر – أن ملابس العساكر المصرية وعلامات رتبهم تكون مشابهة لجنس ولون ملابس العساكر الشاهانية

خامس عشر – كذلك ملابس البحارة وضباط البحرية وبيارق المراكب تكون مماثلة لما هو متبع فى بحرية الدولة العلية

سادس عشر – لا يكون لوالى مصر الحق فى منح الرتب العسكرية للضباط البحرية والبرية الآ لغاية « صاغ قول أغاسى » ( بدخول الغاية )

سابع عشر – لايكون لوالى مصر الحق فى انشاء سفن حربية الآ بعد الحصول على اذن صريح من الدولة العلية

ثامن عشر – من حيث ان حق الوراثة على ولاية مصر لم يمنح لمحمد على باشا وأسرته الا بهذه الشروط ، فلو أخلّوا بأحدها سقط حقهم ، وصار لجلالة السلطان الحق فى تولية مَنْ يشاء

ومنح الباب العالى محمد على أيضاً ولايات النوبة ودارفور وكردفان وسنّار مدة حياته ، بدون أن تنتقل الى ورثته كمصر ، بمقتضى تقليد شاهانى أُصدر فى اليوم الذى أصدر فيه التقليد الأول ، أى فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ م . وكلفه أن يقدم حساباً عن هذه الولايات سنوياً الى دار الخلافة العظمى ، وأن يمنع ما كان متبعاً فى السودان من إغارة الجند على قرى الأهالى ، وخطف بناتهم وصبيانهم . وأن يمنع جملةً عادة خصى بعض هؤلاء التعاس الحظ لاستخدامهم فى القصور حرساً على الحريم (أغاوات) وأن يحفظ للضباط الموجودين رتبهم ، ويرسل الى الباب العالى قائمة بأسمائهم : من الرتبة التالية لصاغ قول أغاسى فما فوق ، ليصدر أمراً بتثبيتهم فى وظائفهم

تخفيف الشروط السالفة

فقبل محمد على باشا كل هذه الشروط وان لم يكن ذلك عن رضى ، ثم طلب من الدول أن تساعده فى تخفيف بعضها وتغيير بعضها الآخر . فقبلت الدول ملتمسه وأرسلت الى الباب العالى لائحة بتاريخ ١٨ المحرم سنة ١٢٥٧ هـ (١٣ مارس سنة ١٨٤١ م) تطلب منه ذلك . فتنزلت الحضرة السلطانية بمقتضى تقليد آخر تاريخه صفر سنة ١٢٥٧ هـ ابريل سنة ١٨٤١ بتعديل تقليدها الصادر فى ٢١ ذى الحجة سنة ١٢٥٦ هـ (١٣ فبراير سنة ١٨٤١ م ) ، وهاك أهم مافيه من الشروط المعدلة :

تقليد جديد ابريل سنة ١٨٤١

أولاً – ان حق الوراثة يكون للأكبر سناً بين أولاده الذكور ، مع بقاء الشرط الملزم لمن يستحق الولاية بهذه الكيفية بالسفر الى مقر دار الخلافة العظمى لتسلمه التقليد بيده

ثانياً – ان ماتدفعه الحكومة المصرية للدولة العلية (صاحبة السيادة) من الخراج لايكون ربع دخل الحكومة قبل أخذ نفقات الجباية والإدارة ، بل يصير تقديره فيما بعد مع مراعاة حالة الحكومة المصرية

ثالثاً – أن يكون للوالى حق فى منح الرتب لغاية «أمير ألاى» (بدخول الغاية) أما مافوق ذلك فلا يكون إلاّ باذن من الباب العالى

تأييده

ولما اقرت الدول هذا التعديل أصدرت الحضرة الشاهانية تقليداً آخر فى ١١ ربيع الآخر سنة ١٢٥٧ هـ ( أول يونيه سنة ١٨٤١ م ) مؤيداً لما فى التقليد السابق

آخر تقليد يونية سنة ١٨٤١

وفى غرة جماد الأولى سنة ١٢٥٧ هـ ( ٢٠ يونيه سنة ١٨٤١م ) صدر تقليد آخر يجعل مقدار ماتدفعه الحكومة المصرية الى الدولة العلية سنوياً ثمانية آلاف كيس

## ٧ – شيخوخة محمد على وحكم ابراهيم

تضعضع مصر

بعد أن انكمش محمد على فى ولاية مصر ، وحرمته الدول من فتوحاته التى اكتسبها بحد السيف وأريقت من أجلها دماء المصريين ، لم يكن فى قدرته النهوض بها الى الدرجة التى كانت تصبو اليها نفسه . والسبب فى ذلك يرجع الى أمرين : الأول تقدمه فى السن واضمحلال قواه العقلية والجثمانية ، والثانى أن حالة البلاد الداخلية كانت قد انحطت دفعة واحدة ، لما حلّ بأهلها من المصائب من جراء كل هذه الحروب التى قاموا بأعبائها وأنفقوا عليها من دمائهم وأموالهم ، حتى أصبحت البلاد فى حالة يرثى لها

ومع ذلك ابتدأ محمد على يحصن مدينة الاسكندرية على يد مهندسين فرنسيين ، وذلك حينما أجبرته الدولة على تنقيص جيشه الى ثمانية عشر الف جندى . وأرسل حفيده عباس باشا الى الباب العالى يلتمس منه أن يمنحه تقليداً أوسع نطاقاً من الأخير ، فأرضاه الباب العالى بأن منحه لقب الصدارة العظمى من غير أن يجيبه الى طلبه

كوارث أخرى

ولكن شاءت المقادير الآ معاكسة محمد على ، ففى سنة ١٢٥٩ هـ (١٨٤٣ م )

انتشر طاعون الماشية فى البلاد ، وتبعهُ هبوط النيل ، فأصبحت البلاد على حافة الخراب . وفى العام نفسه اجتاح الجراد زراعة البلاد فتركها قاعًا صفصفًا ، وبذلك وقف دولاب الحكومة ، واستولى الرعب والوجل على قلوب حكام البلاد ، فاجتمع مجلس فى القاهرة وكتب تقريراً عن سير الأحوال فى مصر ، وما آلت اليه من الانحطاط . إلاَّ أنهم لاقوا صعوبة عظيمة فى تبليغ هذا التقرير الى الباشا ، ولما وصل اليه استشاط غضباً . وكان يخاف أن يخلعه ابنه ابراهيم ، ففكر فى التخلى عن الملك والذهاب الى مكة ليقضى باقى أيامه فيها . فتوسط سفراء الدول وأزالوا ما فى نفسه نحو ابنه البار

اضمحلال صحة ابراهيم

وابتدأت بعد ذلك الأحوال تتحسن شيئًا فشيئًا فى السنتين التاليتين . إلاَّ أن صحة ابراهيم فى هذه الأثناء اضمحلت دفعة واحدة ، فأشار عليهِ الأطباء بالسفر الى أوربا . فعمل بذلك ، وبعد أن طاف فى كثير من البلدان ، خصوصاً ايطاليا وفرنسا وانجلترة ، رجع الى الديار المصرية وعلامات الصحة بادية عليهِ . فلم يجد والده هناك بل علم أنهُ سافر الى مقرّ الخلافة ( رجب سنة ١٢٦٢ هـ : يونيه سنة ١٨٤٦ م ) ليحظى بالمثول بين يدى الخليفة ويقدم له ولاءه وطاعته

محمد على فى الاستانة

وقد قوبل محمد على من الخليفة بكل حفاوة واكرام ، وهنا تقابل مع أشد أعدائه خسرو فتعانقا طويلاً واتفقا على تناسى الماضى . ولما طالت مدة إقامة محمد على فى دار الخلافة ابتدأ رجال القصر يعاملونهُ معاملة قاسية ، فأثّر ذلك فى صحته تأثيراً سيئًا ، فلما رجع الى مصر فى أواخر ذلك العام كان أشبه بالشبح منهُ بالانسان

وفى أثناء عودته زار مسقط رأسه «قَوَلَة» التى تركها منذ عام ١٢١٤هـ (١٧٩٩م). وبعد ذلك ترك مقاليد الأمور لحفيده عباس باشا الأول ، لأن حالة ابراهيم الصحية لم تمكنهُ من القيام باعباء الأمور فى البلاد . وكانت خاتمة أعمال محمد على وضع أول حجر أساسى للقناطر الخيرية فى ٢٢ ربيع الثانى سنة ١٢٦٣هـ ( ابريل سنة ١٨٤٧م ) بين جم غفير من المشاهدين

سفره الى اوربا

ثم أشار الأطباء ثانيةً على ابراهيم بالسفر الى أوربا . وفى مدة غيابه ذهب والده الى نابلي فى ايطاليا ، حيث سمع بخلع « لويس فليب » ملك فرنسا ، فتذكر خدماته له فى الأزمة الأخيرة ، وعزم على تجريد حملة لارجاعه الى عرشه . فلما علم بذلك ابراهيم قفل راجعاً الى مصر



جامع محمد على
( بالقلعة )

تولية ابراهيم باشا

وفى شعبان سنة ١٢٦٤هـ ( يوليه سنة ١٨٤٨م ) أصدر الباب العالى تقليداً بتولية ابراهيم باشا على الديار المصرية ، فذهب لتقديم ولائه الى الباب العالى فى القسطنطينية . وبعد عودته بزمن يسير جداً عاوده المرض الذى أضنى صحته منذ سنين عدة ،

فقضى على ذلك الرجل العظيم فى ١٣ ذى الحجة سنة ١٢٦٤ هـ (نوفمبر سنة ١٨٤٨ م) ودفن بالقرافة ، وبموته رجع عباس باشا من مكة ، فتقلد الأمور فى البلاد . ثم سافر توًا الى القسطنطينية ليتسلم تقليد التولية

وفاة محمد على

أما محمد على فلم يمكث بعد تولية عباس إلاَّ اشهراً قلائل ، كان فى أثنائها منحط القوى العقلية والجثمانية جملة لكبر سنّهِ ، الى أن فاض روحه بالاسكندريه فى ١٣ رمضان سنة ١٢٦٥ هـ (٢ أغسطس سنة ١٨٤٩ م ) ، وبذا انتهت حياة عظيم من اكبر رجال الشرق

جامع محمد على

ونقلت جثته الى القاهرة حيث دفنت بمسجده الذى شيّده بالقلعة سنة ١٢٤٦ هـ ( ١٨٣١ م ) ، وهو من أجمل المبانى التى شيدت بمصر على الطراز التركى الحديث

# الفصل الثالث

## الطريق البرية بين الهند وأوربا

الطريق القديمة وهجرها

كان من أهم موارد الثروة فى مصر فى عهد المماليك الضرائب التى كانت تجبى على البضائع والسلع المتبادلة بين أوربا والهند على طريق مصر . وقد ظلت هذه الطريق مسلوكة حتى كشف البرتغال طريق الرجاء الصالح كما سبق ، فتحولت التجارة اليها منذ ذلك العهد ، وهُجرت طريق مصر ، لسهولة الأولى وقلة نفقاتها وصون البضائع وقلة الخطر فيها ، خصوصاً ان البحر الأبيض المتوسط كان يهدّد تجارته فى ذلك العهد لصوص البحر من الترك وغيرهم . وكانت القوافل التى تحمل التجارة من السويس الى الاسكندرية تسطو عليها قبائل الأعراب وقطاع الطريق

الاسباب الجديدة لاحيائها

بقيت طريق الرجاء الصالح متبعة حتى أواخر القرن الثامن عشر عند ما فكر بعض رجال انجلترة فى احياء طريق مصر . ولا غرابة ، فان نفوذ الدولة البرطانية كان قد اتسع فى بلاد الهند ، وأصبح من الضرورى لها اتخاذ طريق أقصر للمواصلة بينها

وبين هذه المستعمرة العظيمة من طريق الرأس ، التى كانت تستغرق زمناً طويلاً

مشروع جورج بلدوين

وأول من عُنى باحياء هذا المشروع «جورج بُلْدِوِين» سفير انجلترة فى مصر فى عهد الثورة الفرنسية ، وأول عمل قام بهِ للوصول الى غرضهِ أنه حصل على اذن من الباب العالى يخول له الملاحة فى البحر الأحمر . ثم أحضر سفينة من لندن الى الاسكندرية ، وأخرى من «كلكتة» الى ميناء السويس ، ثم صعد الهرم الأكبر يرافقه ثلة من اصدقائه ، ومعهُ ثلاث زجاجات مُلِئت بالماء : احداها من النيل ، والثانية من نهر التاميس، والأخيرة من ماء الكنج . ثم شربوا من مزيج الثلاث على ذكر اتحاد الثلاثة الأنهار واتساع نطاق التجارة البرطانية على طريق الديار المصرية.

هجره

غير أن الباب العالى لم يلبث ان ألغى الإِذن

مشروع برجز وهجره

وبعدئذٍ أظهر أحد التجار الانجليز بمدينة الاسكندرية وهو «المستر بِرِجْز» لمحمد على الفوائد المادية التى تعود على البلاد من اتصال التجارة بين مصر والهند ، وذلك أثناء حربه مع الوهابيين . فصادف ذلك هوًى فى نفس الوالى ، وأرسل بعض السفن الى مياه بمباى ، ولكن المشروع لم يفلح طويلاً

الانجليز والتجارة المصرية

ولما ابتدأ احتكار محمد على للتجارة فى الديار المصرية تلهى الفرنسيون النازلون بمصر بالوظائف الأميرية عن سواها من الأعمال . وكان نظير ذلك لرجال الانجليز الحظ الأوفر فى التجارة المصرية ، فكانوا يتغنّون بمدح محمد على فى بلادهم ، ويذكرون له الأيادى البيضاء فى تشجيع التجارة . فلما سمع بذلك «توماس وَجْهورن»

مشروع وجهورن

أحد رجال الأسطول الانجليزى الموظفين فى «شركة الهند الشرقية» أخذ يعمل بكل قواه العقلية والجثمانية لإحياء هذه الطريق ، خصوصاً بعد أن توطدت دعائم الأمن العام فى مصر بفضل اصلاحات محمد على ، وصار استعمال البخار فى تسيير السفن من اكبر المشجعات أيضا على الدأب وراء انفاذ فكرته . فقدَّم اقتراحه فى أول مرة الى شركته فى سنة ١٢٣٨ – ٣٩ هـ (١٨٢٣ م) ، فلم توافق عليه بالرغم

صعوبة تنفيذه

من مساعدة «بَرْكَر» سفير انجلترة فى مصر ، ظنًّا منها أنه من الأمور الصعبة التنفيذ

معاضدة الحكومة الانجليزية له

ولكن المشروع لم يندثر جملةً ، ففى سنة ١٢٤٤ – ٤٥ هـ (١٨٢٩ م ) أرسل السير «جون ملكم» حاكم بمباى باخرة الى السويس لنقل التجارة ، فلم تواصل رحلاتها الآ زمناً يسيراً لكثرة نفقات الفحم . الآ أن « بركر » مازال بفكرة « وجهورن » يحمدها ويعضدها حتى طلبت منهُ الحكومة الانجليزيه تقريراً رسمياً فى هذا الصدد فاقتنعت انجلترة بالتقرير ، وماجاء شهر رمضان سنة ١٢٤٦ هـ (فبراير سنة ١٨٣٠م) حتى أصبح نجاح مشروع « وجهورن » من المحقق

معاضدة محمد على له

وفى أثناء هذا الجهاد الطويل كان محمد على من اكبر المشجعين لوجهورن ، حتى أنه من شدة ميله لمحمد على قدّم رسالة الى البرلمان الانجليزى يرجوه فيها أن ينظر الى مصر بعين الرعاية والشفقة ، وأن لايجعلها فى حوزة تركيا . ولا شك أن محمد على خدم الأمة الانجليزية من هذه الوجهة ، ولذلك يعترف بعض الانجليز بأن برطانيا العظمى مدينة له فى إحياء هذه الطريق .

نجاح جهاد وجهورن

أما وجهورن فقد جنى ثمرة جهاده بعد أن لاقى أهوالاً وقاسى شدائد جمة مدة عشرين عاماً . ففى ٢٧ رمضان سنة ١٢٦١هـ (أول اكتوبر سنة ١٨٤٥م) ابحرت باخرة من بمباى تحمل بريداً : فوصلت الى السويس بعد ١٩ يوماً . ثم نقل البريد برّاً الى الاسكندرية ، فبلغها فى اليوم التالى ، ومنها نقل على طريق تريست ونهر الرّين والبلجيك ، فوصل لندن فى صبيحة يوم الواحد والثلاثين من شهر اكتوبر ، أى أنه لم يستغرق فى طريقه اكثر من شهر* . ولقد بذلت الحكومة الفرنسية جهدها لإثبات أن الطريق من فرنسا آمن وأقصر ، فاتخذت أخيراً شركة البواخر الشرقية التى أسست سنة ١٢٥٥-٥٦هـ ( ١٨٤٠ م ) ميناء مرسيليا مركزاً عاماً للبريد الأوربى

بين الهند وانجلترة فى شهر

شركة البواخر الشرقية

تأثير ترعة المحمودية

وقد زاد فى سهولة هذه الطريق أنه قبل ممات محمد على أُسست شركة سفن

---

* كان البريد ينقل بين السويس والقاهرة على الجمال بطريق الصحراء . وكان بعض رجال الانجليز قد عرض على محمد على انشاء خط حديدى على هذه الطريق ، فوافق على هذا الرأى ، وأحضرت بعض المواد اللازمة لانشاء الخط بالفعل . الا أن محمد على ارتاب فيها بعد فى عاقبة الامر وأحجم عن المشروع

تجارية تجرى فى ترعة المحمودية والنيل بين مصر والاسكندرية ، فكان متوسط المسافرين على طريق مصر بين عامى ١٢٦٨ و ١٢٦٥ هـ ( ١٨٤٢ - ١٨٤٩ م ) يبلغ ١٥٫٠٠٠ فى العام الواحد

فضل وجهورن

وتوفى « وجهورن » عام ١٢٦٦ - ٦٧ هـ (١٨٥٠م ) ، وكان لايزال يعترف الى آخر لحظة من حياته ان السبب فى نجاحه يُعزى الى كرم وتشجيع محمد على ، صاحب الأيادى البيضاء عليه . ولا يزال اسم « وجهورن » مقروناً بالتبجيل ، وله تمثال منصوب فى ميناء السويس . ويمتاز وجهورن على « ديلسبس » بأنه لم يستنفد أموال الخزانة المصرية ولم يحوّل المشروع الذى قام به ضد مصلحة مَن أحسن اليه ، كما فعل الآخر . وقد اعترف بعض رجال الأمة الانجليزية بفضل محمد على ، فأهدوه فى عام ١٢٥٥–٥٦ هـ (١٨٤٠ م ) وساماً ، زُيّن أحد وجهيه برسم محمد على ، ونُقشت على الثانى العبارة الآتية :

اعتراف الانجليز بمساعدة محمد على

« الى مشجع العلم والتجارة والنظام ، الحامى لرعايا وأموال الممالك المتضادّة ، والفاتح للطريق البرية الى الهند »

## ملخص لأهم الحوادث التاريخية فى الباب الثانى

| | هـ | م |
|---|---|---|
| **أولاً — ﴿ الحملة الفرنسية ﴾** | ١٢١٢—١٢١٦ | ١٧٩٨ — ١٨٠١ |
| تجريد نابليون حملة على مصر | ١٢١٢ | ١٧٩٨ |
| اقلاعه بجيشه الى البلاد المصرية | ٢ ذى الحجة ١٢١٢ | ١٩ مايو ١٧٩٨ |
| وصول نلسن أمير البحر الانجليزى بأسطوله الى الاسكندرية مقتفياً أثر الاسطول الفرنسى فلم يعثر عليه | ٨ المحرم ١٢١٣ | ٢١ يونيه ١٧٩٨ |
| وصول العمارة الفرنسية أمام الاسكندرية | ١٨ المحرم » | ١ يوليه » |
| زحف نابليون على القاهرة من طريق الصحراء بعد اخضاع الاسكندرية | ٢٢ » » | ٧ » » |
| الاستيلاء على رشيد | » | » |
| انهزام مراد بك أمام نابليون عند شبراخيت وتقهقره الى القاهرة | ٢٩ » » | ١٤ » » |
| انهزام المماليك فى واقعة انبابة (الاهرام) | ٧ صفر » | ٢١ » » |
| اجتماع العلماء بعد الموقعة وتقريرهم التسليم لنابليون | ٨ » » | ٢٢ » » |
| دخول نابليون القاهرة | ١١ » » | ٢٥ » » |
| اصلاحات نابليون فى القاهرة | » | » |
| تدمير العمارة الفرنسية فى موقعة بوقير البحرية على يد نلسن | ١٧ ربيع ١ » | أغسطس » |
| خروج سكان القاهرة على الفرنسيس خروجاً عاماً واخماد الثورة على يد نابليون | ١٠ جمادى الاولى » | ٢٢ اكتوبر » |
| تجريد نابليون حملة على بلاد الشام لصد غارة الترك على مصر | » | ١٧٩٩ |
| وصول الحملة الى يافا | ٢٥ رمضان » | ٣ مارس » |
| حصار نابليون لعكاء ورجوعه عنها لمناعتها | » | » |
| انتصار نابليون على الترك فى واقعة بوقير البرية | ٩ المحرم ١٢١٤ | ١٣ يونيه » |

| | هـ | م |
|---|---|---|
| مغادرة نابليون مصر قاصداً فرنسا وعهده بالقيادة لكليبر | ١٩ ربيع ١ ١٢١٤ | ٢٢ أغسطس ١٧٩٩ |
| مهادنة الفرنسيين للمماليك بعد تغلب الآخرين على معظم الصعيد | » | » |
| ادراك كليبر صعوبة مركزه وابرامه معاهدة العريش مع سدنى سمث | شعبان » | يناير ١٨٠٠ |
| عدم موافقة الحكومة الانجليزية على هذه المعاهدة | » | » |
| دخول الترك مصر بعد المعاهدة ووقوع الثورة فيها واخمادها على يد الفرنسيس وعودة النفوذ لهم فيها | » | » |
| مقتل القائد كليبر | ٢٠ المحرم ١٢١٥ | ١٤ يونيه ١٨٠٠ |
| وصول الحملة الانجليزية بقيادة السير رلف ابركرومبى لطرد الفرنسيس | شوال » | فبراير ١٨٠١ |
| انهزام الفرنسيس عند كانوب وموت ابركرومبى وتولى هتشنسن مكانه | » | » |
| جلاء الفرنسيس عن مصر بعد تسليم بليار بالقاهرة ومينو بالاسكندرية | ١٠ جمادى ١ ١٢١٦ | ١٨ سبتمبر » |
| طبع الحكومة الفرنسية أعمال البعث العلمى فى مؤلف يدعى وصف مصر | ١٢١٧ | ١٨٠٢ |
| ثانياً — ﴿ محمد على باشا ﴾ | ١١٨٣ — ١٢٦٥ | ١٧٦٩ — ١٨٤٩ |
| ١ – نشأته ونهوضه | ١١٨٣ — ١٢٢٠ | ١٧٦٩ — ١٨٠٥ |
| مولد محمد على فى قولة | ١١٨٣ | ١٧٦٩ |
| قدومه الى مصر فى واقعة بوقير البرية | ١٢١٣ | ١٧٩٩ |
| قدومه الى مصر وقت حملة ابركرومبى | ١٢١٥ | ١٨٠١ |
| تولية خسرو على مصر من قبل الباب العالى | ١٢١٦ | ١٨٠١ |
| نزاع بين خسرو والمماليك وبينه وبين الجنود | | |

| | هـ | م |
|---|---|---|
| العثمانية يظهر فيه محمد على تدريجاً وينتهى بهروب خسرو الى دمياط | | |
| الاهالى يختارون طاهر باشا خلفا لخسرو | ١٢١٨ | ١٨٠٣ |
| مقتله بعد ٢٢ يوماً | | |
| محمد على يصبح رئيس الجنود الالبانية فى مصر | | |
| اتحاده مع البرديسى على خسرو — مداخلة والى ينبغ — أخذ خسرو سجيناً الى القاهرة | | |
| تولية على باشا الجزائرى | ربيع الاول » | يوليه » |
| البرديسى يحتال حتى يقتله | شوال » | يناير ١٨٠٤ |
| وصول الالفى بعد ان مكث بانجلترة سنتين | | |
| اتحاد محمد على والبرديسى على الالفى — فرار الالفى الى سورية | | |
| تظاهر محمد على بالخضوع للدولة وتأليبه الاهالى على البرديسى ومهاجمته اياه وطرده هو وابراهيم بك الى الشام | | |
| تولية خورشيد باشا - ضعفه وتمرد الجند عليه والتجاء الاهالى الى محمد على | | |
| بقاء محمد على بمصر رغم ارادة الدولة — اتفاقه مع الدلاة | | |
| محاصرة خورشيد باشا بالقلعة ( برغبة الاهالى ) | صفر ١٢٢٠ | مايو ١٨٠٥ |
| اختيار الاهالى محمد على والياً على مصر | | |
| موافقة الباب العالى على ذلك | ربيع الثانى ١٢٢٠ | يوليه ١٨٠٥ |
| **٢ — توطيد سلطته فى مصر** | ١٢٢٠ — ١٢٢٦ | ١٨٠٥ — ١٨١١ |
| أول فتك بالمماليك | جمادى الثانية ١٢٢٠ | اغسطس ١٨٠٥ |
| الباب العالى يحاول ابعاد محمد على عن مصر — تظلم الاهالى ووصول عهد بتأييده فى الولاية | شعبان ١٢٢١ | نوفمبر ١٨٠٦ |

| | هـ | م |
|---|---|---|
| اتحاد البرديسى والالفى عليه | | |
| موت البرديسى | ١٢٢١ | ١٨ ٦ |
| موت الألفى | ١٢٢١ | ١٨٠٧ |
| وصول الحملة الانجليزية الى مصر لتأييد سلطة المماليك | اول المحرم ١٢٢٢ | مارس ١٨٠٧ |
| استيلاء الحملة على الاسكندرية ـ رجوع محمد على من مطاردة المماليك بالصعيد وهزمه الانجليز عند الحماد — عقد شروط الصلح مع محمد على وترك الانجليز البلاد | رجب ١٢٢٢ | سبتمبر ١٨٠٧ |
| رضاء الباب العالى عن محمد على والانعام عليه وفك عقال ابراهيم ابنه | | |
| خوف محمد على من المماليك والعمل على الفتك بهم — هزمه لهم عند أسيوط — انتشارهم فى طول البلاد وعرضها | | |
| استرضاء محمد على للمماليك وعقد مهادنة معهم | ١٢٢٥ | ١٨١٠ |
| تدبير المماليك الكيد لمحمد على وهو راجع من السويس ووقوف محمد على على ذلك — فتك محمد على بالمماليك فى مذبحة القلعة | صفر ١٢٢٦ | فبراير ١٨١١ |
| **٣ — الحروب الوهابية** | ١٢٢٦ — ١٢٣٥ | ١٨١١ — ١٨١٩ |
| مولد ابن عبد الوهاب صاحب المذهب الوهابى بالعيينة من اقليم العارض (مذهب الوهابيين يوافق مذهب اهل السنة الصحيحة) | | |
| حماية محمد بن سعود لابن عبد الوهاب وتشجيعه على نشر مذهبه | | |
| وفاة ابن عبد الوهاب | ١٢٠١ | ١٧٨٧ |
| امتداد سلطان أولاد سعود على جميع بلاد نجد | ١١٥٩ — ١٢٠٦ | ١٧٤٦ — ١٧٩١ |

| | هـ | م |
|---|---|---|
| قلق شريف مكة من انتشار المذهب الوهابى وتجريده حملة على عبد العزيز | ١٢١٣ | ١٧٩٨ |
| فشل الحملة والعمل على نشر المذهب فى وادى الفرات ـ هزم والى بغداد لعبد العزيز بن سعود | | |
| مهاجمة ابن سعود كربلاء وتخريبها | ١٢١٦ | ١٨٠١ |
| دخول عبد العزيز مكة فى العام التالى بدون معارضة الشريف | | |
| قتل عبد العزيز وتولية سعود الثانى وهو أعظم رجال هذه الاسرة | | |
| تشدد سعود الثانى فى جمع الضرائب حتى أضربت الناس عن الحج | ١٢٢١ | ١٨٠٦ |
| تجريد محمد على حملة على الوهابيين بأمر الباب العالى | ١٢٢٦ | ١٨١١ |
| وصول طوسون الى ينبع وانهزامه عند الجديدة وهرب جنده | | |
| وصول المدد الى طوسون وفتحه المدينة وارسال مفاتيح الكعبة والحجرة النبوية الى والده | ١٢٢٧ | ١٨١٢ |
| مطاردة طوسون الوهابيين وانهزامه عندطربة | | |
| سفر محمد على الى الاقطار الحجازية عند سماعه بهذه النكبة لتولية القيادة بنفسه | | |
| وفاة سعود الثانى وتضعضع الوهابيين | ١٢٢٩ | ١٨١٤ |
| انهزام خلفه عبد الله سعود عند بيصل | | |
| عودة محمد على لوقوع قلاقل داخلية فى مصر | ١٢٣٠ | ١٨١٥ |
| عودة طوسون عند سماعه بتلك القلاقل ـ موته فجأة | | |
| نقض الوهابيين شروط الصلح التى عقدها معهم طوسون قبل عودته | | |

| | هـ | م |
|---|---|---|
| تجريد حملة الى بلاد العرب بقيادة ابراهيم باشا للقضاء على الوهابيين | شوال ١٢٣١ | ١٨١٦ |
| هزيمة ابراهيم عند الريس | ١٢٣٢ | ١٨١٧ |
| حصاره الدرعية وتسليم عبدالله له وأمره بتخريب البلد | ذى القعدة ١٢٣٣ | ١٨١٨ |
| مقتل عبد الله بالاستانة | | |
| ٤ - فتح السودان | ١٢٣٥ — ١٢٣٩ | ١٨٢٠ — ١٨٢٣ |
| عزم محمد على على فتح السودان لاسباب مادية وسياسية | | |
| تجريده حملة للاستيلاء على سيوة | جمادى ١ ١٢٣٥ | فبراير ١٨٢٠ |
| مسير حملة السودان من القاهرة بقيادة اسماعيل | شوال ١٢٣٥ | يوليه ١٨٢٠ |
| فرار المماليك من دنقلة وتشتتهم عند ما سمعوا بمجىء اسماعيل | | |
| سحق اسماعيل عرب الشائقية فى كرتى | | |
| فتحه بربر | جمادى ٢ ١٢٣٦ | مارس ١٨٢١ |
| فتح شندى وسنار ومرض الجيش أثناء اقامة اسماعيل بسنار | | |
| وصول المدد الى اسماعيل بقيادة أخيه ابراهيم — تقسيم القيادة بينهما | | |
| وصول اسماعيل فى زحفه الى تومات وعودة ابراهيم الى مصر لمرضه بعد أن وصل الى جبل دنكا | | |
| وصول مدد بقيادة محمد بك الدفتردار لغزو كردفان | ١٢٣٧ | ١٨٢٢ |
| هزمه بعض القبائل عند بارا واستيلاؤه على الابيض | | |
| انتقام الدفتردار من نمر لحرقه اسماعيل بحرق شندى | | |
| بناء الخرطوم وجعلها حاضرة للبلاد السودانية | ١٢٣٨ | ١٨٢٣ |
| ٥ - حرب اليونان | ١٢٣٩ — ١٢٤٥ | ١٨٢٣ — ١٨٢٩ |
| شبوب نار الثورة فى جنوبى ايطاليا واسبانيا و بلاد اليونان | ١٢٣٥ — ١٢٣٦ | ١٨٢٠ — ١٨٢١ |

| | هـ | | م | |
|---|---|---|---|---|
| اعلان اليونان الحرب على الترك لنيل استقلالها وعدم مساعدة الدول لها | | | | |
| انتصار اليونان فى بادىء الامر واستنجاد السلطان بمحمد على على قمع الفتنة | | | | |
| تولية محمد على على جزيرة اقريطش | | ١٢٣٩ | | ١٨٢٣ |
| تولية محمد على على بلاد المورة | | ١٢٣٩ | | ١٨٢٤ |
| اقلاع الجيش المصرى من الاسكندرية الى بلاد اليونان | ذى القعدة | ١٢٣٩ | يوليه | ١٨٢٤ |
| نزول الجيش المصرى فى مودن | شعبان | ١٢٤٠ | فبراير | ١٨٢٥ |
| اخضاع بلاد المورة واستيلاء ابراهيم على أمهات المدن فيها | | | | |
| حصار مسولونجى وتسليمها | رمضان | ١٢٤١ | ابريل | ١٨٢٦ |
| قيام الثورة فى بلاد المورة ثانياً واخضاعها | | | | |
| فتح رشيد باشا مدينة أثينا | | | | |
| استياء دول أوربا العظمى من فظائع ابراهيم وعقدهم مؤتمراً لذلك فى لندن | ذى القعدة | ١٢٤١ | يوليه | ١٨٢٦ |
| اقرار المؤتمر على ارسال عمارة بحرية تعهد القيادة العامة فيها الكدرنجتون | | | | |
| اشتباك العمارة المصرية التركية مع أساطيل الحلفاء فى خليج نوارين وتدمير العمارة المصرية التركية | المحرم | ١٢٤٣ | أغسطس | ١٨٢٧ |
| احتلال فرنسا لبلاد المورة بعد رفض البرلمان الانجليزى الاشتراك معها | صفر | ١٢٤٤ | أغسطس | ١٨٢٨ |
| ظهور الاسطول الانجليزى فى المياه المصرية وتهديده محمد على | | | | |
| اتفاق محمد على مع الانجليز على اخلاء بلاد المورة | | | | |
| اخلاء ابراهيم بلاد المورة | ربيع الاول | ١٢٤٤ | اكتوبر | ١٨٢٨ |

| | هـ | | م | |
|---|---|---|---|---|
| تصميم السلطان محمود على رفض تحرير اليونان واعلان الروسيا الحرب عليه لذلك | | ١٢٤٥ | | ١٨٢٩ |
| انهزام الترك أمام الروس واضطرارهم لعقد معاهدة أدرنة واقرارهم فيها على تحرير اليونان | | ١٢٤٥ | | ١٨٢٩ |
| **٦ - حرب الشام** | | ١٢٤٧ — ١٢٥٦ | | ١٨٣٢ — ١٨٤١ |
| استياء محمد على من الباب العالى لعدم مكافأته على مساعدته فى حرب المورة ولاسباب أخرى | | ١٢٤٥ | | ١٨٢٩ |
| ابتداء استعداد محمد على للحملة على الشام | | | | |
| خروج الحملة بعد تأخرها بسبب الهيضة | جمادى ١ | ١٢٤٧ | نوفمبر | ١٨٣١ |
| زحف الجيش البرى واستيلاؤه على غزة ويافا | | | | |
| حصار عكاء وسقوطها فى يد ابراهيم | ذى الحجة | ١٢٤٧ | مايو | ١٨٣٢ |
| اصدار الباب العالى أمراً بخلع محمد على أثناء حصار عكاء | « « | « | « | « |
| فتح دمشق | ١٦ المحرم | ١٢٤٨ | ١٥ يونيه | ١٨٣٢ |
| انهزام محمد باشا والى طرابلس عند حمص | ٩ صفر | ١٢٤٨ | ٨ يوليه | ١٨٣٢ |
| استيلاء ابراهيم على حلب | ١٨ صفر | « | ١٧ « | « |
| هزيمة حسين باشا فى مضيق بيلان | ١ ربيع ١ | « | ٢٩ « | « |
| هزيمة رشيد باشا فى واقعة قونية | ٢٧ جمادى ٢ | « | ٢١ نوفمبر | « |
| احتلال كوناهية | شوال | « | فبراير | ١٨٣٣ |
| معاهدة « | ذى الحجة | « | مايو | « |
| معاهدة هنكار اسكله سى | صفر | ١٢٤٩ | يونيه | « |
| ابتداء خروج أهل الشام على ابراهيم باشا | | ١٢٥٠ | | ١٨٣٤ |
| استفحال الثورة فى الشام — سفر محمد على باشا الى الشام لاطفائها | | ١٢٥٢ | | ١٨٣٥ |
| انهزام المصريين فى الشام أمام عرب حوران | | ١٢٥٤ | | ١٨٣٨ |
| تقرير الباب العالى اعلان الحرب على محمد على | | | | |

| الحادثة | | هـ | م | |
|---|---|---|---|---|
| انتهازاً لفرصة خروج الشام | ذى القعدة | ١٢٥٤ | يناير | ١٨٣٩ |
| رجوع محمد على من السودان لما علم بذلك | » | » | » | » |
| هزيمة الجيش التركى بقيادة حافظ باشا عند نصيبين | ١١ ربيع ٢ | ١٢٥٥ | ٢٤ يونيه | » |
| مجيء الاسطول العثمانى الى مصر وانضمامه الى محمد على | | » | | » |
| ابتداء تدخل دول أوربا فى المسألة المصرية التركية | | » | | » |
| انفراد فرنسا بمؤازرة محمد على | | » | | » |
| معاهدة لندن لاخضاع محمد على | ١٥ جمادى ١ | ١٢٥٦ | ١٥ يوليه | ١٨٤٠ |
| اعلان الباب العالى خلع محمد على عن الشام | ٥ رجب | » | ٢ سبتمبر | » |
| عدم خضوع محمد على وشروع الدول فى اخضاعه بالقوة | | » | | » |
| ضرب أساطيل الحلفاء ميناء بيروت | رجب | » | ٢ سبتمبر | » |
| هزيمة ابراهيم باشا فى برومانة ثم فى قلعة ميدان واخلاء بيروت واستيلاء الحلفاء على عكاء | | » | | » |
| ابتداء اخلاء الشام | ٥ ذى القعدة | » | ٢٩ ديسمبر | » |
| خضوع محمد على للسلطان | ذى القعدة | » | يناير | ١٨٤١ |
| صدور تقليد من السلطان بمنح محمد على ولاية مصر وراثية | ٢١ ذى الحجة | » | ١٣ فبراير | ١٨٤١ |
| تخفيف شروط هذا التقليد بتقليد آخر | صفر | ١٢٥٧ | ابريل | ١٨٤١ |
| تأييد هذا التقليد بآخر | ١١ ربيع ٢ | » | ١ يونيه | ١٨٤١ |

### ٧ — شيخوخة محمد على وحكم ابراهيم

| الحادثة | | هـ | م | |
|---|---|---|---|---|
| انتشار طاعون الماشية بمصر وهبوط النيل واجتياح الجراد الزراعة | | ١٢٥٩ | | ١٨٤٣ |
| سفر محمد على باشا الى الاستانة | رجب | ١٢٦٢ | يوليه | ١٨٤٦ |
| وضع محمد على باشا أول حجر من أساس القناطر الخيرية | ٢٢ ربيع ٢ | ١٢٦٣ | ابريل | ١٨٤٧ |
| تقليد ابراهيم باشا ولاية مصر | شعبان | ١٢٦٤ | يوليه | ١٨٤٨ |
| اشتداد المرض على ابراهيم ووفاته | ١٣ ذى الحجة | » | نوفمبر | » |
| وفاة محمد على باشا | ١٣ رمضان | ١٢٦٥ | ٢ أغسطس | ١٨٤٩ |

# الباب الثالث

تاريخ مصر

# بعد عهد محمد على باشا

## الفصل الأول

## عباس باشا الأول وسعيد باشا

### ١ — ﴿ عباس باشا الأول ﴾

( ١٢٦٥ - ١٢٧٠ هـ : ١٨٤٩ - ١٨٥٤ م )

تدهور مصر

بعد موت محمد على كادت مصر تكون نسياً منسياً ، لا أهمية لها فى نظر أوربا ، لولا مرور تجارة الهند عن طريق مصر . وذلك لأن من خلفه من ذريته لم ينالوا تلك الصفات التى ميزته وجعلته فى مصاف عظماء الرجال

تولى الملك عباس باشا الأول ( ابن طوسون بن محمد على ) فى ٢٧ ذى الحجة سنة ١٢٦٤ هـ : ( ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٤٨ م ) ، وكان إذ ذاك يناهز السادسة والثلاثين من عمره ، فكان أول عمل قام به أن هدم كل ما أفنى فيه جده العظيم زهرة حياته ، غير مفرّق بين النافع والضار . فكما قضى على احتكار التجارة المجحف بحق الفلاح ، أنقص الجيش الى تسعة آلاف ، وأغلق المعامل والمدارس ، واستغنى عن كثير من الموظفين الغربيين وأظهر ميله الى العادات والأنظمة التركية والبلدية

عباس يهدم أعمال سلفه



عباس باشا الأول

عزلة عباس

مضى عباس باشا معظم حكمه بمعزل عن الناس ، متهاوناً فى شؤون الملك ، غير مكترث بما فى ذلك من الضرر . ولعل له عذراً فى ذلك . إذ أنهُ لمَّا شاهد فشل حروب الشام بقيادة ابرهيم باشا ، ورأى سقوط جده الكبير والقضاء على كل آماله ، رأى أنه من العبث مقاومة أوربا ، وأدرك أن البلاد فى حاجة الى السكينة والراحة ، وأن لاداعى الى المظاهر الأوربية الكاذبة التى كان يعتقد أنها تسربت الى مصر قبل ميعادها تلك كانت خطته . ولما رأى أنه يحيط به قطيع من الذئاب الغربية وطائفة من

عيوبه ومحاسنه الموظفين المتملقين، الذين لاهمّ لهم إلاّ جمع الثروة من حوله، اعتزل جميعهم إلاّ نفراً قليلاً من سفراء الدول وخدمه الخاصة، فكانت حياته سرّاً غامضاً. وقد ذمه كثيرون من أجل ذلك، ولكن كفاه فخراً أنهُ خلص الأمة من نهب الأجانب فى مدة حكمه: ولم يثقل كاهلها بشىء من الديون كما فعل غيره من بعده

الخط الحديدى بين مصر والاسكندرية وفى أيامه أنشئ أول خط حديدى فى مصر بل فى ممالك الشرق بأجمعها، وذلك هو الخط الممتد بين الاسكندرية والقاهرة. وقد قام بهذا المشروع «رُبَرْت استيفِنْسُن» مخترع القُطُر البخارية، اذ أخذ على عاتقه جلب كل المهمات اللازمة لمده، وابتدأ العمل سنة ١٢٦٨ هـ (١٨٥٢ م) وتممه فى عام ١٢٧٢ هـ (١٨٥٦م). وكان الموعز بمدّ هذه السكة الحكومة الانجليزية، لتسهيل نقل البريد والمسافرين بين الهند وأوربا عن طريق مصر. وقد عارضت فى الأمر الحكومة الفرنسية، فسبب ذلك بعض التأخير فى انجاز المشروع

وِراثة الملك وكان عباس باشا يريد حرمان عمه «سعيد» من الملك بعده ليكون لابنه «إلهامى». فأتت المقادير على عكس ما أراد، اذ قتل فجأة فى قصره فى بِنْها، وكان ابنه الهامى غائباً عن الديار المصرية، فورث الملك سعيد باشا بدون أدنى معارضة، وذلك فى ذى الحجة سنة ١٢٧٠ هـ (١٢ يوليه سنة ١٨٥٤ م)

مقتله ولقد كثرت الاشاعات عن سبب مقتل عباس باشا الأول. فالمتداول على الألسن أن خصيين قتلاه خنقاً وهو نائم فى فراشه. وقال آخرون انهُ قتل بايعاز بعض أقربائه الذين كانوا يريدون نزعه من ولاية الملك. وهناك فريق آخر يعزى سبب قتله الى أسباب سياسية. وكتم خبر موته عدة أيام، ثم نقلت جثته من بنها الى قصره بالعباسية*، ومنها نقلت الى مقرها الأخير بقرافة الامام الشافعى بالقاهرة

---

* سميت صحراء الريدانية «العباسية» منذ عهد عباس باشا الاول لاتخاذه قصره بها

## ٢ — ﴿ سعيد باشا ﴾

( ١٢٧٠ - ١٢٧٩ هـ : ( ١٨٥٤ - ١٨٦٣ م )

تربية سعيد

كان سعيد باشا فى حداثته محبوباً من والده محمد على ، فرباه تربية عالية فى مدارس فرنسا أهلّته لتولى زمام الملك . وقليل من الامراء من نال نصيباً وافراً من



سعيد باشا

حالة مصر عند توليته

العناية كسعيد . قبض على زمام الأمور والبلاد فى حالة حسنة : اذ كانت خالية من الديون الأجنبية ، وكان دخلها السنوى البالغ ثلاثة آلاف الف من الجنيهات كافياً لسد كل حاجاتها ، وكانت التجارة متقدمة والأراضى الزراعية آخذة فى الازدياد . فلم يك ينقص البلاد الاَّ شىء من الحزم فى حاكمها يستطيع به السير فى سبيل المحافظة

عيوبه

على مصالح الأمة حسب ماتقتضيه الأحوال ، الآ أنه من سوء حظ البلاد لم تتوافر هذه الصفة فى سعيد . تولى الملك وهو نشيط بطبعه محب للعمل ، فكان مبدأ حكمه يبشر بحسن مستقبل مصر . ولكنهُ مالبث أن أخذ مقاليد الأُمور كلها فى يده ، ولم يثق بأحد من الوطنيين ليشركه معهُ فى ادارة شؤون الملك . فقضى على المجلس الخصوصى ( مجلس النظار ) ، ولم يدرّب أحداً من أبناء الامة على شؤون الادارة حتى يكون له عوناً . ولم يتبع طريقة عباس باشا فى عزلته ، بل كان يقابل الأجانب ويحادثهم ويكرم مثواهم ، وبالغ فى ذلك حتى ضاعت هيبته فلم يفلح فى حكم البلاد . ذلك الى أنه أصبح بديناً منغمساً فى اللذات ، لايقوى على مزاولة العمل بالجد والنشاط اللذين عهدا فيه من قبل ، فاعتل نظام الحكومة ودب فيه روح الفساد وسوء الادارة

غرامه بالجيش

وكان شغله الشاغل مدة حكمه تنظيم الجيش ، لاعتقاده انه ماهر فى الفنون الحربية . فكان يغيّر فى نظامه ويبدّل من حين لآخر ، فتراه طوراً يجنّد جيشاً يربو على ٥٠,٠٠٠ ، وطوراً ينقصه الى نصف ذلك العدد ، متبعاً فى ذلك ما تمليه عليه أهواؤه وميوله . وقد اختار نقطة القناطر الخيرية فجعلها معسكراً لجيشه ، لاعتقاده أنها مركز حربى هام لصدّ غارات المغيرين ، كما كان يقيم بجيشه كثيراً فى صحراء مريوط

محبته لمصر

ومع ضعفه الخُلقى كان مخلصاً فى اهتمامه بتحسين حالة البلاد التى كان يعتبرها كضيعته الخاصة ، فعمل جهده فى مد السكك الحديدية وحفر الترع وغرس الأشجار وتحسين حالة الفلاّح . فأصدر قانون الأراضى الشهير فى عام ١٢٧٤ هـ ( ١٨٥٨ م ) الذى به أصبح الفلاح لأول مرة المالك الحقيقى لما يفلحه من الأرض . ثم محا بعض الشىء من الاحتكارات المجحفة بحق الفلاح . وهو أول من وضع نظام الضرائب المتبع الآن بدلاً من الاحتكار والعشرية وغيرها من المكوس التى كانت فى عهد محمد على

قانون الاراضى

غير أنهُ لم يشجع العلم وأهله ، لأنه كان يعتقد أن فتح المدارس ينبه عقول عامة الناس ، فيجعل قيادتهم أمراً عسيراً

وأهم الحوادث التى حدثت فى أيامه ، بل أهم الأغلاط التى ارتكبها فى مدة حكمه

أول دين اجنبي

من الوجهة المصرية ، اثنتان : الأولى فتح باب استدانة الحكومة ، والثانية اذنه لفردننْد « ديلسبس » بحفر ترعة السويس لتوصيل البحر الأبيض بالبحر الأحمر . ففى عام ١٢٧٨ هـ ( ١٨٦٢ م ) أمضى عقد قرض فى لندن مع « فِرِهلِنْج غوشِن » بمبلغ ٣,٢٩٢,٨٠٠ جنيه ، فلما توفى فى عام ١٢٧٩ هـ ( ١٨٦٣ م ) كان على البلاد ديون أجنبية قدرها ثلاثة آلاف ألف ، وعليه هو ما يربو على ضعفى ذلك ، فكان ما تركه من الدَّين لخلفه يبلغ عشرة آلاف ألف من الجنيهات تقريباً

وأما اذنه بحفر ترعة السويس فانه عاد على البلاد وأهلها بالويلات ، ونَضَب من أجلها مَعِينُ ثروتها ورجالها . وقد حصل على هذا الاذن المسيو « ديلسبس » بما كان له من المكانة العالية عند سعيد قبل توليته وبما كان يعده به من الفوائد التى تنجم من ذلك المشروع الخطير مع قلة النفقات ، بدعوى ان كل ما يحتاج اليه من المال لحفر الترعة سيكون من فرنسا . وسيتضح لنا فى الفصل الثانى ان كل وعود ديلسبس كانت أضغاث أحلام وأوهاماً كاذبة ، وأن معظم نفقات القناة كان من دماء الفلاّح المصرى

قناة السويس

# الفصل الثانى

## قناة السويس

المشروعات القديمة

تدل الآثار القديمة على ان فكرة توصيل البحر الأبيض بالبحر الأحمر سنحت فى عالم الوجود منذ أزمان غابرة ، وانه كان يوجد فى عهد « سيتى الأول » ( ١٣٨٠ ق . م ) ترعة واصلة بين البحرين بطريق النيل : تخرج منه عند « بوبسطة » وتصب فى البحر الأحمر مخترقةً وادى الطميلات . وهى المسماة عند قدماء المؤرخين بترعة « سيزُستْريس »

ترعة سيزستريس

ثم أهملت هذه الترعة وبقيت كذلك الى أيام « نخاو » ( ٦٠٩ ق . م ) ، فهمّ

عمل نخاو باعادة حفرها، و بعد أن هلك فى ذلك ما يقرب من ١٢٠,٠٠٠ من فلاحى مصر وقّف العمل فجأة ، توهمًا منه ان الآلهة انذرته عاقبة العمل لمصلحة الأجانب .
فكأن الاعتقادَ بأن حفر الترعة ليس إلاَّ عملاً قاصراً على نفع الأجانب كان يجول فى خَلَد الأقدمين كما جال فى خَلَد محمد على باشا حين تردد فى انفاذ مشروع قناة السويس عند ما عرض عليه كما ذكرنا آنفًا

دارا ولما استولى الفرس على مصر شرع « دارا » (٥٢٠ ق . م ) فى كَرْى هذه الترعة القديمة، فلم يتسنَّ له اتمام العمل، و بقيت الترعة مهملة حتى جاء « بطليموس الثانى »

بطليموس الثانى فأتم حفرها وكَرْيها عام ٢٧٧ . ق م . غير أنها اهملت بعدُ ، ولم يقم الرومان فيها باصلاح يُذكر

عمرو بن العاص فلما فتح عمرو بن العاص مصر سنة ٢٠ هـ ( ٦٤١ م ) واستأمره الخليفة عمر بن الخطاب عام قحط الحجاز المسمى عام الرّمادة استأذنه فى توصيل البحرين ، فأذن له بكرى الترعة القديمة ، فأعادها وسمَّاها « خليج أمير المؤمنين » . وجرت بها سفن الميرة الى الحجاز ، ولبثت مسلوكة حتى عهد « أبى جعفر المنصور » العباسى ، فأمر بردمها عام ١٤٥هـ ( ٧٧٠ م ) حتى لا تُنقل فيها الميرة الى محمد بن عبد الله بن الحسن الخارج عليه بالحجاز

المشروعات الحديثة هذه هى المشروعات القديمة ، وكلها ترمى الى توصيل البحرين بطريق النيل . فلما قدم نابليون الى مصر فى غارته المشهورة فكّر فى اعادة توصيل البحرين بحفر ترعة

مشروع نابليون بينهما من مائهما كما أشرنا قبل ، ثم امتنع عن انفاذ مشروعه لتوهم « لابير » مهندس الحملة ان سطح البحر الأحمر يعلو على سطح البحر الأبيض بتسعة أمتار . وبقيت هذه

فى عهد محمد على الغلطة شائعة الى أن أُصلحت نهائيًا فى عهد محمد على باشا ، إذ حضر الى مصر فى سنة ١٢٦٣ هـ ( ١٨٤٧ م ) بعث من أوربا ليفحصوا المشروع ، فاشترك معهم لينان باشا مهندس الحكومة المصرية العظيم ، فأقرّ الجميع بفساد رأى لابير وأثبتوا أن البحرين فى مستوى واحد . على أن محمد على كان يشك فى نجاح المشروع ويخشى

عاقبته ، إلاّ أنه لم يألُ جهداً في مساعدة رجال البعث فى بحثهم لئلاّ يظهر بمظهر المعرقل لمسعاهم

مشروع دیلسبس

وظل بعد ذلك المشروع موقوفاً حتى تولى سعيد ، فنال منهُ المسيو « فردنند دیلسبس » سنة ١٢٧١هـ ( ١٨٥٤ م ) اذناً ابتدائياً بحفر القناة . وقدكان ديلسبس سفيراً لفرنسا فى مصر فى عهد محمد على ، وكانت تتوق نفسه الى تأليف شركة لحفر القناة ، فوعده سعيد باشا حينئذٍ بأن يساعده عند ما يتولى أريكة مصر . فلما تولاها طلب اليه ديلسبس الوفاء بوعده ، فنال منه الاذن المذكور ، وتلاه اذن آخر فى ربيع الثانى سنة ١٢٧٢هـ ( يناير ١٨٥٦م ) يُلخص أهم شروطه فيما يأتى :

شروط شركة القناة

« حق تمتع الشركة بفوائد القناة مدة تسعة وتسعين سنة من عام فتحها ، وان يحفر المسيو ديلسبس ترعة تستمد ماءها من النيل من مصر الى الاسماعيلية ، ويمنح فى مقابل ذلك كل الأراضى اللازمة للأبنية والأعمال بدون مقابل خالية من كل الضرائب ، وأن يكون له الحق فى أخذ أجر من الملاّك الذين ينتفعون بالماء العذب الذى يؤخذ من هذه الترعة ، وأن يكون للشركة الحق أيضاً فى تعدين كل مناجم الحكومة ومحاجرها بدون ثمن أو ضرائب ، وأن تُعفى من كل المكوس على الواردات التى تجلب لها ، وأن يتم القيام بهذا المشروع فى مدة لا تتجاوز ست سنوات إلاّ اذا حصلت عوائق لا يمكن تلافيها ، وأن يكون أربعة أخماس الفعلة العاملين فى حفر القناة من الفلاحين . وقد وُضعت شروط خاصة بعدد الفعلة الذين يتناوبون العمل فى كل ثلاثة أشهر . ثم حُدت رسوم المرور فى القناة باعتبار عشرة فرنكات على كل مسافر ومثلها على كل طن من حمولة السفن ، وأن تكون الشركة مصرية بحيث يسرى عليها قانون البلاد ، وأن تقسم الأرباح ( بعد أن يخصم منها فائدة لأموال المساهمين بنسبة ٥ ٪ ومثلها للمال الاحتياطى ) على الترتيب الآتى : ١٥ ٪ للحكومة المصرية ، ١٠ ٪ لمؤسسى الشركة ، ٧٥ ٪ للمساهمين والمديرين والعمال . وبعد انتهاء المدة المقررة تصير القناة وكل مشتملاتها ملكاً للحكومة المصرية .

انجلترة والقناة

وقبل أن يأذن سعيد باشا لديلسبس استشار سفير انجلترة هل يصادف رفضه لهذا المشروع ارتياحاً من انجلترة . فلم يكن فى قدرة السفير أن يعطيه تصريحاً رسمياً عن هذا السؤال، لأن انجلترة وفرنسا كانتا حليفتين فى حرب القرم . الاّ أن ديلسبس ألحّ فى طلبه واقتفى أثر سعيد اينما حل وحيثما ذهب ، حتى أمضى عقد الاتفاق فى ربيع الثانى سنة ١٢٧٢ ﻫ ( يناير سنة ١٨٥٦ م )

الباب العالى والقناة

ولما كان من الواجب قبل الشروع فى العمل الحصول على اذن من الباب العالى ذهب ديلسبس الى القسطنطينية للسعى فى ذلك ، فوجد من أولى الشأن بها

معارضة انجلترة

معارضة عظيمة يرجع السبب الأكبر فيها الى تأثير ساسة الانجليز . والسبب فى معارضة انجلترة فى المشروع هو أنها كانت ترى بلادها من الوجهة التجارية والحربية أقرب الى الهند من أى مملكة أخرى في أوربا، عدا اسبانيا والبرتقال وكلاهما ليس بشىء فى نظرها

فاذا فُتح طريق قناة السويس أصبحت كل شواطىء البحرين الأبيض والأسود أقرب من انجلترة الى الهند ، ولذلك كان غرض نابليون عندما فكر فى حفر هذه الترعة الاضرار بانجلترة فى الهند نفسها إذ أن مها جمتها فيها قبل حفر القناة صعبة جداً لعظم بعدها. أما اذا فتحت القناة أصبت المسافة بين مرسيليا وبمباى لا تزيد على ٤٦٠٠ ميل

ديلسبس فى لندن

فلما علم ديلسبس بتأثير الساسة الانجليز فى القسطنطينية ذهب الى لندن وقابل اللورد بلمرستون ، فوجد منهُ معارضة أيضاً، إذ قال له ان حفر القناة يضر بمصالح انجلترة ويذهب

فردنند ديلسبس

بسيادتها البحرية ، وأنهُ وسيلة تريد فرنسا التوصل بها الى التدخل فى الشرق

مساعى ديلسبس

فلم يثنِ كل ذلك من عزم ديلسبس ، وما زال يواصل سعيه فى أُوربا مستعيناً بقرابته من الامبراطورة « يوجينى » ( زوجة نابليون الثالث امبراطور فرنسا ) حتى وافق الباب العالى على المشروع عام ١٢٧٥ هـ ( ١٨٥٨ م ) . وفى هذا العام فتح ديلسبس باب الاشتراك فى شراء اسهم شركة القناة مقدّراً رأس مال الشركة بمبلغ ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك ، وهو مكوَّن من ٤٠٠,٠٠٠ سهم ثمن السهم ٥٠٠ فرنك . فأقبل الناس على شراء الأسهم حتى جُمع معظم رأس المال فى أقل من شهر واحد . وكان معظم المساهمين من فرنسا ، وجزء منهم من ممالك الدولة العثمانية ، واشترت مصر من الأسهم ٨٥,٥٠٦ * . أما انجلترة فأحجمت حينئذٍ عن شراء شئ منها

فتح الاشتراك

المساهمون

وابتدأ العمل فى حفر القناة قريباً من موقع مدينة بورسعيد الحاليـة فى رمضان سنة ١٢٧٥ هـ ( ابريل سنة ١٨٥٩ م ) فكان سيره فى أول الأمر غاية فى البطء لما يحيط بهِ من الصعوبات . وأهم ذلك قلة تدرب عمال السخرة على العمل ، وصعوبة الحصول على الماء الذى يستقون منـهُ قبل أن يتم حفر الترعة العذبة . ولما كانت الشركة (فقيرة بالنسبه لعظم المشروع ) استعان ديلسبس على هذه الصعوبات بالسعى فى حمل سعيد باشا على الاكثار من العمال المسخرين بدون مراعاة للاتفاق الأصلى فصارت تساق الآلاف من الفلاَّحين يحرسهم الجنود الى الترعة ، حيث يشتغلون طول اليوم تحت مراقبة حرَّاس مسلحين بالسياط . وكان عدد الذين يشتغلون فى حفر الترعة لا يقل عن ٢٥,٠٠٠ عامل بدون أجر ، وينوب عنهم مثلهم فى كل ثلاثة أشهر ، وكانوا يعيشون على الشظف . وقـد أودى بحياة الكثيرين منهم ما كانوا يقاسونه من الجوع والظمأ والعرى وحرّ الصيف وقرّ الشتاء واجهاد الجسم والبؤس

ابتداء العمل

صعوباته

سوء حالة عمال السخرة

* هذه جزء من الاسهم التى اشترتهـا انجلترة عام ١٨٧٥ م من اسماعيل باشا بمشورة « اللورد بيكنزفيلد » . وكان عددها ١٧٦,٦٠٢ بيعت بمبلغ ٥٨٢ ر ٩٧٦ ر ٣ جنيه

وكان كلما هلك منهم أحد أتى بغيره من الفلاحين ، ولو تم مشروع حفر الترعة على حسب الاتفاق الأصلى لسبَّب نقصاً عظيماً فى تعداد سكان البلاد

انجلترة تعلن استياءها

شاع هذا الأمر وأصبح من الفضائح حتى فى مصر ، وتناولته ألسنة المعارضين لحفر الترعة وخاصة انجلترة . وكان اللورد بلمرستون رئيس الوزارة الانجليزية فى ذلك الحين يعارض فى أمر تسخير الفلاحين : لأنهُ من جهة يعتبره ضرباً من الاسترقاق ولأنه من جهة أخرى كان لا يريد أن يرى النفوذ الفرنسى يسود فى مصر . لذلك أوعز الى السفير الانجليزى فى القسطنطينية أن يحتج على تسخير الأهالى فى الأراضى العثمانية لفائدة شركة أجنبية

اسماعيل يسعى فى انقاص الامتيازات

وبقى الحال كذلك الى أن تولى الخديوى اسماعيل باشا فى رجب سنة ١٢٧٩ هـ ( يناير ١٨٦٣ م ) ، ولم يكن للشركة لديه تلك الحظوة التى كانت لها عند سعيد ، فرأى أن ما ناله من الامتيازات مجحف بحقه وحق مصر ، وشرع يعمل على الغاشى منها ، ولكى لا يكون سبباً فى افلاس الشركة واغضاب الشعب الفرنسى وامبراطورهم نابليون الثالث أمد الشركة بمعونة مالية ، بأن دفع لها مبلغ ٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه كان مستحقاً على سعيد باشا ثمناً لأسهم اشتراها عددها ١٧٧,٦٤٢ . الاَّ أنهُ بقى مصمماً على حرمان الشركة من بعض مزاياها، حتى طلب من الباب العالى فى صفر سنة ١٢٨٠هـ

موافقة الباب العالى

( يونية ١٨٦٣ م ) الموافقة على انقاص عـدد العمال الذين يسخرون فى حفر القناة وعلى أن تردّ الشركة للحكومة المصرية ما منحه اياها سعيد باشا من الأراضى عام ١٨٥٦ ، فصادف الاقتراح ارتياحاً من الباب العالى ولا سيما أن انجلترة كانت تسعى لديه فى انفاذه . فوافق عليه وهدّد الشركة بتوقيف العمل ان لم ترض به

وقد كاد يكون فى ذلك القضاء المبرم على المشروع ، لأن الشركة كانت تعلّق كل آمالها على جلب العمال من مصر بدون أجر ، وكان العمل لا يزال فى مبدئه ، والشركة لم يكن فى مقدورها أن تقترض مالاً جديداً . ولولا ما بذله المسيو ديلسبس من الهمة والحزم لخاب المشروع : فانهُ تمكن بمساعدة الامبراطورة يوجينى وبميل الشعب الفرنسى

مساعى ديلسبس

تحكيم نابليون الثالث

الى مشروعه من استجلاب مساعدة الحكومة الفرنسية ، ناسباً سعى انجلترة فى ايقاف عمل السخرة فى مصر الى حسدها فرنسا ، فمالت اليه قادة السياسة الفرنسية ، وانتهى الأمر بتحكيم الطرفين « الامبراطورَ نابليونَ الثالثَ » فى حل هذا المشكل

فناط الامبراطور الفصل فى هذه المسألة بجماعة من رجال بلاده طبعاً ، فجاء الاتفاق فوق ما كانت تأمل الشركة ، اذ ألزمت اللجنة المحكّمة اسماعيل باشا أن يدفع للشركة غرامة قدرها ٣٬٣٦٠٬٠٠٠ جنيه نظير اخلاله بشروط الاتفاق الأصلى بشأن أعمال السخرة وغيرها . فمن هذا المبلغ ١٬٥٦٠٬٠٠٠ جنيه نظير منعه الفعلة المصريين المسخرين من حفر الترعة ، و ١٬٢٠٠٬٠٠٠ جنيه لاسترجاعه الأراضى التى على ضفتى القناة ما عدا ما عرْضُه ٢٠٠ متر على كلا الجانبين ، و ٦٤٠٬٠٠٠ جنيه فى مقابل حفر ترعة الاسماعيلية . وقد تم دفع كل ذلك فى عام ١٨٦٩ م

غرامة مصر

اقبال الخديوى على المشروع

بهذا الحل و باستبدال عمال مدربين بعمال السخرة أصبح مركز الشركة المالى ثابت الأركان لايخشى معه على المشروع من أى عطلة تعترضه كما حصل ذلك من قبل

ومن هذا الحين أقبل الخديوى على المشروع : يعضده بكل نفوذه الأدبى . و يفتخر بأنه القائم بأكبر مشروع ظهر فى القرن التاسع عشر

وعند ما قرب انتهاء العمل استعد اسماعيل باشا استعداداً عظيماً للاحتفال بفتح الترعة فى شعبان سنة ١٢٨٦ هـ ( نوفمبر ١٨٦٩ م ) ، فكان أكبر وأفخم احتفال حدث فى الأزمنة الحديثة . وسنتكلم عليه فى موضعه عند الكلام على اسماعيل باشا

بعض ما انفقته مصر

على أن معونة مصر المالية لم تقف عنـد هذا الحد . فان الشركة حصلت منها عام ١٨٦٦م على مبلغ يربو على ٣٠٠٬٠٠٠ جنيه لنزولها لها عن أراضى الطميلات ، وكانت قد اشترتها قبل ذلك بخمسة أعوام بنحو ٧٤٬٠٠٠ جنيه . وفى عام ١٨٦٨م أخذت الشركة من الحكومة المصرية مبلغاً آخر يقرب من ١٬٢٠٠٬٠٠٠ جنيـه لنزولها عن بعض المبانى التى أقامتها فى منطقة القناة

مجموع النفقات

أما نفقات حفر القناة فقد بلغت حسب المدون فى دفاتر الشركة ٤٣٢٬٨٠٧٬٨٨٢

فرنكاً ، أى نحو ١٧,٥٠٠,٠٠٠ جنيه وقد قُدّر مجموع ما انفقته الحكومة المصرية من ذلك بنحو ١٦,٠٠٠,٠٠٠ جنيه

قيمة الربح فى أول الامر

على أن المشروع لم يثمر ربحاً عقيب حفر الترعة . إذ كانت فائدته قاصرة على السفن الشراعية دون البخارية . لأنه كان يتعذر على السفن البخارية العادية فضلاً عن بواخر البريد الكبرى أن تسافر الى الهند، لعظم مقدار ما كانت تحتاج اليه من الفحم فى ذلك الوقت . ولكن هذه الصعوبة ما لبثت أن تلاشت ، اذ اختُرعت فى ذلك الحين الآلات المركبة التى جعلت البواخر لا تحرق من الفحم الآ نصف ما كانت تحرقه قبل اختراعها . فسهل على هذه السفن الانتفاع بالقناة ، فاتسع نطاق التجاره المارة بالترعة ، وزادت قيمتها زيادة عظيمة

تأثير الالات المركبة

زيادة الرسوم

ومع كل ذلك أيضاً لم يأت المشروع بالربح الكافى ، لقلة قيمة الرسوم التى كانت تجبيها الشركة ( وكانت فئتها حينئذٍ ١٠ فرنكات على كل طن ) ، وكثرة ما تنفقه على اصلاح القناة . فانحطت قيمة سهام الشركة سنة ١٢٨٨ هـ ( ١٨٧١ - ١٨٧٢ م ) من ٢٠ جنيهاً الى ٧ جنيهات لكل سهم ، وتوقفت عن دفع أرباح المساهمين . فعُقد لتلافى ذلك مؤتمر دولى بالقسطنطينية عام ١٢٩٠ هـ ( ١٨٧٣ م ) نظر فى الأمر وخوّل للشركة زيادة الرسوم التى تجبيها من السفن بقدر ٤٠ ٪ الى أن تصلح حالتها المالية فحسن بذلك حال الشركة وأخذت فى النجاح المطرد والتقدم المستمر

عدم استفادة مصر

ومما يؤسف له أن مصر لم تستفد من نجاح ترعة السويس مطلقاً ، فانهُ فوق خسارتها القناطير المقنطرة من الأموال وارهاقها الفلاحين المصريين ارهاقاً عظيماً . وفضلاً عن تحوُّل التجارة المارة بين أُوربا والهند من داخل مصر الى طريق القناة مما أحدث نقصاً كبيراً فى دخل سكك حديد الحكومة المصرية ، تنازلت لشركة فرنسية فى سنة ١٢٩٧ هـ ( ١٨٨٠ م ) عما كان يخصها من أرباح الشركة وقدره ١٥ ٪ ، فى مقابل مبلغ حقير قدر ٧٠٠,٠٠٠ جنيه كانت الحكومة قد اقترضته من تلك الشركة ولم تقدر على سداده ، فحرمت بذلك مصر من مصدر دخل عظيم

ولم يتم لوُلاة مصر من انشاء الترعة شيء مما كان يمنيهم به ديلسبس من توطيد دعامة حكمهم واتساع جاههم وسلطانهم . فترى مما تقدم كله أنهُ لم يخسر من وراء انشاء هذه الترعة الاّ الأسرة المحمدية العلوية ومصر والفلاحون . وإلى سعيد واسماعيل وكثرة بذلهما وسخائهما يرجع نجاح مشروع ديلسبس وايجاد تلك الفوائد الجليلة التى عادت على فرنسا و بريطانيا العظمى وغيرهما من البلاد

حياد القناة.

وكان تعدد مصالح الدول الأوربية فى الترعة مدعاة لجعلها على الحياد ، ولكن الدول أدخلت على الاتفاق الأصلى عدة تعديلات منذ ابرامه ، وربما عادت الى النظر فى أمر القناة بعد زماننا هذا

# الفصل الثالث

## اسماعيل باشا

١٢٧٩ – ١٢٩٦ هـ ( ١٨٦٣ – ١٨٧٩ م )

يعتبر اسماعيل باشا ( ابن ابراهيم باشا ) المتمم الحقيقى لأعمال محمد على والسائر باصلاحاته فى الطريق التى أبلغت مصر الغاية التى هى عليها الآن

مكانة اسماعيل فى تاريخ مصر

تولى اسماعيل عرش مصر ومدارسها مغلقة ومشروعات محمد على مهملة ، فكان عمله فى كل شيء عمل المنشئ من جديد . ولو نظرنا الى مجموع ما تم فى عهده من الاصلاحات والأعمال الهامة لعلمنا مقدار ما كان عليهِ من الذكاء والنبوغ وما كان يرمى اليهِ من النهوض بمصر حتى يجعلها فى مستوى أرقى الدول الأوربية

تربيتـه

ومع أنهُ لم ينل حظًا وافراً من التعلم فى نشأته كان ما حصّله من المعارف ، مضافاً الى ما فُطر عليه من الذكاء وقوة الملاحظة ، كافلاً أن يقوم بعبء المشروعات الخطيرة التى أقدم عليها . وكل ما يُعلم عن تعلمه أنه أُرسل الى باريس فى الخامسة عشرة من



اسماعيل باشا

( رسم على افندى يوسف — عن صورة بدار الكتب السلطانية )

عمره ، فتعلم بها اللغة الفرنسية حتى صار يتكلمها بطلاقة . وفى أثناء اقامته ساح كثيراً فى أوربا . وبقوة ملاحظته وقف على كثير من الأمور الاجتماعية وغيرها من أسباب الحضارة الأوروبية . ولم يُربَّ تربية خاصة تؤهله لتولى الملك ( كما تربى سعيد من قبله ) اذ لم يكن يخطر بالبال حينئذ أنه سيتولى عرش مصر يوماً ما ، لأن ولاية العهد كانت لأخيه أحمد أكبر أمراء الأسرة ، ولذلك بقى اسماعيل مشتغلاً بمزارعه بعيداً عن

اشتغاله بالزراعة

حاشية سعيد حتى مات أخوه فى حادثة كفر الزيات* ولم يغيّر كثيراً من خطته بعد مماته

كفاءته وآماله

جلس اسماعيل على أريكة مصر فى ٢٧ رجب سنة ١٢٧٩ هـ ( ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ م ) وكان عمره إذ ذاك ٣٢ سنة ، فلم يلبث ان ظهرت فيه كفاءة عظيمة ورغبة شديدة فى رفع شأن البلاد وترقيتها بادخال كل الاصلاح الذى يراه مؤدياً الى ذلك . ومع الاعتراف بأن السرعة التى سار بها فى سبيل هذا الاصلاح والانفاق عن سعة فى كل شىء أديا الى استدانته من أوربا القناطير المقنطرة من الذهب التى تضاعفت هى وفوائدها حتى وصلت فى أواخر أيامه الى عبء ثقيل لا حول ولا قوة للبلاد على احتماله مما أوجب تدخل الدول الأوربية فى شؤون مصر ، قد يُغتفر له ذلك اذا راعينا مقدار ما قام به من الاصلاح ، ولاحظنا أن سعيداً قد فتح له من قبل باب الاستدانة المشئوم ، إذ مات وهو مدين بمبلغ ١٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه

أهم أعماله

وتلخص أهم أعمال اسماعيل فى عصر فيما يأتى :

(١) الفصل فى أمر وراثة العرش وحصرها فى اكبر أولاد الوالى والحصول على لقب خديوى واصلاح الإدارة وتأييد الاستقلال الداخلى

(٢) الإصلاحات القضائية ومساواة جميع الناس أمام القانون المدنى المختلط

(٣) التعليم العام

(٤) منع الرقيق

(٥) القاء المؤاخذة ( المسئولية ) على النظار وتشكيل مجلس شورى النوّاب

(٦) توسيع منابع الثروة للبلاد بتنمية الزراعة وبالمشروعات العامة

(٧) توسيع نطاق الأملاك المصرية

(٨) اتمام مشروع ترعة السويس ( أفاد العالم فى مجموعه وان أضر بمصر فى ذاتها )

---

* غرق قطر السكة الحديدية عند قنطرة كفر الزيات وكان يقل الامير احمد وغيره من أمراء الاسرة من الاسكندرية الى القاهرة

## ١ — ﴿ وَراثة العرش ﴾

### وإصلاح الإدارة وتأييد الاستقلال الداخلى

السلطان عبد العزيز فى مصر

بعد أن تولى اسماعيل ببضعة أسابيع زار مصر السلطان «عبد العزيز» ، فكان أول من زارها من سلاطين آل عثمان من عهد سليم الأول . فاحتفل به اسماعيل باشا احتفالاً كبيراً ، واجتهد فى أن تكون هذه المقابلة فاتحةً لعلاقات ودية بينهُ وبين الباب العالى . وبعد أن عاد السلطان الى الاستانة أخذ اسماعيل باشا يسعى سرًّا للحصول على أغراض يرمى اليها لتعزيز ملكه ، واستعان على نيلها بالمال كلما وجد الى ذلك سبيلاً . فسعى لدى الباب العالى فى شأن تغيير القانون الصادر به تقليد سنة ١٨٤١ م بشأن وراثة عرش مصر . وهذا القانون يقضى بأن يؤول العرش لأكبر فرد فى الأسرة بشرط موافقة الباب العالى

سعى اسماعيل فى تغيير تقليد الوراثة

فلما رأى اسماعيل أن ذلك ربما يُحدث فتناً بين أفراد الأسرة من أجل العرش بالسعى لدى الباب العالى ، أو بقتل بعضهم بعضاً ، طلب الى الباب العالى أن يجعل الوراثة لأكبر أولاد الوالى بلا شرط ولا قيد ، ليحسم كل نزاع بين أفراد الأسرة فى هذا الشأن . فلم يقبل الباب العالى ذلك فى أول الأمر ، لعلمهِ أنه ينقص من نفوذه فى مصر ، فان هذه المزية لم تتمتع بها الأسرة المالكة فى تركيا نفسها . وزار اسماعيل القسطنطينية وسعى بنفسه فى الأمر فلم يفلح ، ولكن عزيمته لم تفتر ، وذهب اليها فى زيارة أخرى أجزل فيها العطاء فنال مرادَه ، وأصدر الباب العالى عهداً يجعل الوراثة فى اكبر أنجال الوالى فى ١٢ المحرم سنة ١٢٨٣ ﻫ (٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ م) وذلك فى مقابل زيادة الجزية التى تدفعها مصر من ٣٢٠,٠٠٠ الى ٦٠٠,٠٠٠ جنيه

فوزه

نيل لقب خديوى

وسعى أيضاً اسماعيل باشا لدى الباب العالى ليمنحه لقباً أرقى من «الباشا» المعتاد وكان غرضه من ذلك تثبيت امتياز مصر عن باقى ولايات الدولة ، وهو ذلك الامتياز الذى حصَّله محمد علي بتقليد سنة ١٨٤١م . فمنحه السلطان لقب « خديوى » فى

ربيع الأول سنة ١٢٨٤ هـ ( يوليه سنة ١٨٦٧ م ). وهو لفظ فارسى الأصل معناه الأمير العظيم ، وكان يمنحه الفرس لحاكم الهند فى عهد حكمهم لها

الاستقلال الداخلى

ولم يكن هم اسماعيل باشا قاصراً على الوصول الى ذلك ، بل كان يبذل همته فى أن يُمنح استقلالاً إدارياً يتصرف به فى شؤون البلاد الداخلية ، إذ كان أعظم غرض له فى الحياة أن توثق عرا الارتباط بين مصر وممالك الغرب المتمدينة ، والوصول الى ذلك محال ما دام الباب العالى صاحب النفوذ والسلطان فى البلاد ، إذ كان يخشى أن يعترضه فيما يقدم عليه من المشروعات . وأى فائدة تجنيها البلاد وأى عمل عظيم يمكن لأقدر حاكم أن يقوم به اذا كانت يده مغلولة فى شؤون البلاد الداخلية ؟

سعى اسماعيل

لذلك قضى اسماعيل سنوات عديدة من حياته يبذل فى أثنائها المال الوفير للوصول الى ضالته المنشودة ، حتى أصدر الباب العالى فى ربيع الثانى سنة ١٢٩٠ هـ ( ١٨٧٣م ) عهداً مثبتاً كل الحقوق التى منحها للخديوى بمقتضى العهود السابقة .

مزايا التقليد الجديد

واعترف فيه الباب العالى باستقلال الخديوى استقلالاً تاماً بشؤون مصر الداخلية ، وأذن له بأن يعمل بدون استشارته فى قرض الديون وعقد المحالفات التجارية وغيرها مع الدول الأجنبية ، ما دامت تلك المحالفات لا تناقض مصلحة الدولة ولا محالفاتها السياسية مع الدول ، وأن يزيد جيشه حسب ما يراه صالحاً ، على شرط أن لا يكون فى أسطوله مدرعات . وقد زادت الجزية المصرية فى مقابل ذلك الى ٦٦٥,٠٠٠ جنيه

ولا شك أن مثل هذا العهد كان من الممكن أن يعود على مصر بأعظم الفوائد ، إذ يكون من اكبر الدواعى التى تحمل كل خديوى لمصر على السهر على ما فيه صلاح البلاد ، كى يترك وراءه ملكاً منظماً ثابت الأركان .

ولما أصبح اسماعيل صاحب النفوذ والسلطان فى مصر أخذ ينظّم ادارتها الداخلية.

اصلاح الادارة

فأدخل فى البلاد جملة اصلاحات لم يأتِ بها والٍ تولى الشؤون المصرية قبله. فأعاد نظام الادارة الذى وضعه محمد على وأُهمل فى عصر عباس باشا الأول بعد أن أدخل فيه بعض الاصلاحات ، ثم رتب نظام المكوس ترتيباً متقناً ، واشترى ادارة البريد المصرى من شركة ووضعها تحت سيطرة أحد مهرة الغربيين ( كما سيأتى ذكره بعد) وقسم القطر الى أربع عشرة مديرية ، وحسّن طرق الاتصال والقضاء وغير ذلك مما سنتكلم عليه فيما بعد

## ٢ — ( الاصلاحات القضائية ومساواة جميع الناس أمام القانون )

عناية اسماعيل باصلاح القضاء

كان أهم مشروع داخلى وجه اليه اسماعيل باشا عنايته اصلاح القضاء وجعله مستقلاً عن الادارة ، ونشر العدل وكان من قبل معدوماً . لأن القانون الذى وُضع فى عهد محمد على لم يغير من النظام القديم شيئاً وكان حبراً على ورق . فأراد اسماعيل باشا أن يؤسس المحاكم المختلطة ليتساوى الجميع أمام القانون ويكون الأجنبى والوطنى فى مستوى واحد . وكان غرضه أن يقضى على المحاكم ( القنصلية ) والامتيازات الأجنبية ، بشرط أن يتكفل للأجانب بكل ما يضمن راحتهم

ولم تكن هذه الفكرة بنت يومها ، بل كانت مختمرة عند الخديوى قبل أن يتولى عرش مصر، فلما مات أخوه أحمد فى حادثة كفر الزيات، وأصبح هو الوارث للملك تفرغ لدرس الاصلاحات القضائية . ورأى أثناء ذلك ما كان للأجانب من الامتيازات فعزم على أن يغيّر ذلك تغييراً تاماً ، فيكون أول من خطا خطوة فى سبيل المساواه ونشر العدالة بين رعاياه

رغبته فى المساواة بين رعاياه

فلما تولى الملك لم تساعده الأحوال فى أول أيام حكمه على تخليص البلاد من هذا

النظام الردیء ، إذ كان منصرفاً بكل قواه الى تحصيل عهد الوراثة والاستقلال الداخلى من الباب العالى

استشارة فرنسا

ولما سنحت له الفرص فى عام ١٢٨٤ هـ ( ١٨٦٧ م ) فاتح الوزارة الفرنسية فى هذا الصدد ، ففاوض نوبار باشا « الموسيو موسير » وزير خارجية فرنسا فى هذا المشروع حسب ارادة الخديوى . فعقدت لجنة فى باريس كان الغرض منها فحص التغيير الذى يريد نوبار ادخاله فى القانون ، فكانت هذه أول خطوة فى سبيل انشاء المحاكم المختلطة

معارضة الدول

وقد ساعد الخديوى أيضاً فى تحقيق أمنيته هذه بعض وزرائه ، وأولاهم بالذكر شريف باشا ورياض باشا ونوبار باشا، غير أن معظم نجاح المشروع يرجع الى الأخير* إذ قضى سبعة أعوام من حياته فى كفاح مع دول أوربا حتى أفلح أخيراً فى تأسيس هذه المحاكم التى مع ظهور بعض الفائدة منها لم تأتِ بكل ما كان مؤملاً فيها

تأثير المحاكم المختلطة

وانا نشك فى أن اسماعيل باشا كان يعرف كل النتائج التى تنجم من هذا التغيير ، فانه كان يريد بالمحاكم المختلطة القضاء على نفوذ محاكم السفارات التى كان يظهر انها ستقضى على شیء من سلطته الفردية ، لا عليها كلها كما فعلت هذه المحاكم وبرهنت عليه الحوادث ، إذ اتضح له أخيراً أن سلطة هذه المحاكم تعلو سلطته ، لأنها أصبحت تفصل فى كل القضايا حتى التى على الحكومة وعلى شخصه نفسه ، بل كانت من اكبر العوامل على عزله . ومع ما كان فيها وقت انشائها من النقائص كانت اكثر فائدة من محاكم الأقسام التى كان يفصل حينئذٍ فى قضاياها المدير أو ناظر القسم : يدلك على ذلك أن كثيراً من الأهالى كانوا يفضّلون الفصل فى قضاياهم أمام المحاكم المختلطة

---

* كان نوبار باشا من أنجب رجال عصره : رباه قريبه بغوص باشا من مستشارى محمد على تربية سياسية فكان يحسن معظم لغات أوربا قراءة وكتابة ويلم بكل الاحوال الاوربية ومع كونه ارمنياً مسيحياً استطاع أن يخدم ثلاثة من ولاة مصر مدة عشرين عاما حائزاً لكل رضاهم الى أن غضب عليه اسماعيل باشا . وكانت خاتمة اصلاحاته تأسيس المحاكم المختلطة التى نحن بصددها

على محاكم الأقسام التى كان كل من المدير وناظر القسم يستعمل السوط فى تحقيق قضاياها ثم لا يفلح فى تحقيق قضية واحدة من بين خمسين



نوبار باشا

مساعى نوبار — وقد لاقى نوبار باشا الصعوبات الجمة فى ارضاء كل من الأهالى والأجانب ، وخصوصاً سفراء الدول الذين رأوا أن تأسيس هذه المحاكم يكون من ورائه محو سلطتهم فى البلاد . وكانت فرنسا أكبر معارض لانشاء هذه المحاكم على حسب التغييرات التى اقترحها نوبار باشا . فى حين أن انجلترة كانت أكبر عضد له فيها ،

رأى الدول — إذ رأت أن النظام المتبع حينئذٍ مضرّ بكل من الأهالى والأجانب ، ولذلك كانت تصرح دائماً بأنهـا مستعدة لمعاضدته . أما الباب العالى فانه رغم معاضدة انجلترة

رأى الباب العالى والعلماء

للمشروع ورغبة معظم الدول الأوربية فيه ، وضع العقبات فى سبيل انفاذه بعلة أنهُ مخالف للشرع . فأبى السلطان والعلماء فى القاهرة ادخال هذا الاصلاح الذى يعد افتياتاً على حقوقهم ، وأعلن العلماء فى القاهرة ان مثل هذا التغيير لا يتفق مع الدين الحنيف . فعزل اسماعيل باشا المفتى الذى أفتى بذلك ، واستبدل به آخر وافق على انشائها . ومن هذه اللحظة لم تجئ أى معارضة من هذه الناحية

تشكيل المحاكم المختلطة

و بعد أن انتهى من معظم المعارضات شكّل هذه المحاكم فى ذى الحجة سنة ١٢٩١ هـ ( أول يناير سنة ١٨٧٥ م ) الاَّ انها لم تفتح أبوابها الا فى شهر المحرم سنة ١٢٩٣ هـ ( فبراير سنة ١٨٧٦ م ) ، وذلك للعراقيل التى كانت تضعها فرنسا

وقد أُسس من هذا النوع ثلاث محاكم من الدرجة الأولى : فى القاهرة والاسكندرية والمنصورة ، ثم محكمة استئناف عليا بالاسكندرية

اختصاصها

وهذه المحاكم تفصل فى القضايا المدنية وبعض المخالفات التى يكون فيها أحد الخصمين أو كلاهما من الأوربيين أو الأمريكيين المختلفى الجنسية . أما اذا كان الخصوم من الأجانب المتحدى الجنسية فالمحكمة لا تفصل فى النزاع الاَّ اذا كان موضوعه عقاراً . وهى مستقلة تماماً عن الحكومة ، وتُعيِّن القضاة بها اثنتا عشرة دولة من دول أوربا والولايات المتحدة ، ويجدد هذا النظام فى كل خمسة أعوام مرة . وهى فى مصر أشبه فى الحقيقة بمملكة صغيرة . ولقضاتها الحق فى شرح القانون وتقرير ما لهم من السلطة . ولا توجد هيئة تشريعية معتبرة يُرجع اليها اذا تعدت هذه

سعة نفوذها

المحاكم حدود اختصاصها . وغاية ما تستطيع الحكومة المصرية عمله فى هذا الصدد ان تفاوض الدول ، حتى اذا اتفقنَ جميعاً على رأى عمِدْنَ الى تعديل القانون

## ٣ — ❋ التربية والتعليم ❋

مساعى محمد على

رأى اسماعيل باشا كما رأى جده العظيم محمد على من قبله أنه لا يتسنى له القيام باصلاحاته ومشروعاته الخطيرة فى البلاد الاَّ بتعليم أبناء الأمة ، وإن اختلفت أغراض

الفرق بينهما

كل من الرجلين . فكان الغرض الأول لمحمد على من التعليم أن يكوّن عدداً عظيماً من الضباط والموظفين ليساعدوه فى ادارة شؤون البلاد ، أما اسماعيل فقد غرست فيه تربيته الأوربية مبادئ حب العلم والتعليم ، فأراد أن ينشر العلم لذاته بين جميع طبقات الأمة . لذلك وجَّه شطراً عظيماً من عنايته الى هذه الوجهة . وكانت الأحوال مساعدة له ، لخصب مدارك المصرى وقوة حافظته التى لا تضارَع فى اكثر الشعوب ، ولِمَا لمصر من المجـد الأثيل والباع الطويل فى نشر العلوم والمعارف : يشهد بذلك جامعة الاسكندرية فى عصر البطالسة ، والجامع الأزهر الذى يؤمه آلاف الطلاب من جميع بقاع العالم الاسلامي

بعض اعوان اسماعيل

وقد ساعد الحظ اسماعيل ، اذ وجد فى خدمته نخبة من أكابر الغربيين ، نهضوا بالتعليم ورقوه ، ونؤثر بالذكر منهم « دور بك » و« كاوت بك » و« رُوجَرْز بك » . وكان لبعض نظار الحكومة فضل عظيم فى هذه النهضة ، وبخاصة « شريف باشا » و « رياض باشا » و « على مبارك باشا » الذى سار بالتعليم شوطاً بعيداً ، وكان له القدح المعلى فى نهضة البلاد الحديثة

قانون رجب سنة ١٢٨٤ هـ

ولا يفوتنا ان الفضل كل الفضل راجع طبعاً الى رئيسهم الأكبر الخديوى اسماعيل . فأول عمل قام به أنه أصدر قانوناً فى ١٠ رجب سنة ١٢٨٤ هـ ( ١٨٦٧م ) كان الغرض منه وضع أساس منهج قويم للتعليم فى جميع انحاء القطر ، وقد ظهرت فائدته ، اذ زاد عدد التلاميذ فى مدة وجيزة الى ٥٢,٠٠٠ تلميذ يتعلمون فى ١٣٠١ معهد ، ثم ازداد بعدها عدد التلاميذ الى ١٤٠,٩٧٧ وعدد المدارس الى ٤٨١٧ ، وكان فى القاهرة وحدها ما يزيد على ٢٩٥ مدرسة بلغ عدد تلاميذها ١٠,٠٠٠ تلميذ . عدا طلبة الأزهر الشريف والمعاهـد الأجنبية والمعاهد التابعة للأوقاف والمدارس الحربية لتعليم الجيش الذى كان يبلغ اذ ذاك ثلاثين ألفاً *

اتساع نطاق التعليم

---

* وقد قارن المستر ( ادون دى ليون ) فى كتابه عن الخديوى عدد المتعلمين فى مصر من الشبان الذين فى سن التعليم بنظرائهم فى أوربا فى ذلك الحين فقال : « ان نسبة المتعلمين فى مصر تبلغ ٢٣ ٪ ، على حين انها تبلغ فى الدولة العثمانية ١٠ ٪ وفى الروسيا ٣ ٪ وفى ايطاليا لم تتجاوز ٣١ ٪ »



على مبارك باشا

اهم المدارس الخصوصية والعالية

وأهم مدارسهِ العالية والخصوصية مدرسة الهندسة ، ومدرسة الطب والولادة ، ومدرسة الحقوق، ومدرسة الفنون والصنائع، ومدرسة اللغة المصرية القديمة ، ومدرسة الألسن والمعلمين ( قلم الترجمة ) ومدرسة دار العلوم ( المعلمين الناصرية ) . وكان التعليم فى كل هذه المدارس بالرغبة ، لا بالاكراه كما كان في عصر محمد على

ولا يتسرَّب الى ذهن القارئ أن كل هذه المدارس أسسها اسماعيل باشا ، بل وضع الحجر الأساسى للكثير منها محمد على باشا ، كمدرسة الطب التى شيدها فى عام ١٢٤٢ هـ ( ١٨٢٧ م ) كما أسلفنا من قبل . غير أن الفضل يرجع الى الخديوى

زيادة ميزانية المعارف

فى تنظيم هذه المدارس وزيادة ميزانية نظارة المعارف ورفعها أولاً من ستة آلاف جنيه فى عهد سعيد الى أربعين ألف جنيه ، ثم وقف عليها أراضى الوادى بعد أن اشتراها ثانية من شركة قناة السويس

انواع الدراسة فى المدارس المختلفة

وكان غرض اسماعيل باشا من قانون رجب سنة ١٢٨٤ ﻫ نشر التعليم وتوحيد نظامه فى جميع انحاء البلاد مع مراعاة ما يلائم كل طور من أطوار الدراسة . فكان لا يجهد عقول التلاميذ فى الطور الأول بالمواد التى لا فائدة لهم منها ، بأن جعل التعليم فى المدارس الابتدائية قاصراً على مبادئ الكتابة والقراءة ، وخص المدارس التجهيزية بمن كان يريد التقدم فى مضمار التعليم . أما المدارس العالية والخصوصية فكان يتعلم فيها الطلاب كل العلوم الدراسية وفيها اللغات . وكان يُترك لهم الحرية فى اختيار اللغة التى يتعلمونها بشرط أن يتعلموا اللغتين العربية والتركية. وكان طلاب المدارس الخاصة على قسمين : قسم يتعلم على نفقته الخاصة ، والآخر على نفقة الحكومة ، ولذلك كان يتحتم على هؤلاء أن يخدموا فى وظائف الحكومة مدة معينة . وكان ينتخب أحسن الطلاّب لمدرسة الهندسة ومدرسة الطب ، وحثالة التلاميذ تذهب الى المدارس الحربية . وفى ذلك اجحاف عظيم بالمجتهدين من الطلبة ، لأن معظم الترقية كانت فى الجيش

العقبات فى طريق الاصلاح

ولا شك أن هذا القانون الذى يشمل أربعين مادة وضع أساساً متيناً للتعليم فى البلاد ، الاَّ أن الحاجة الى المل والرجال كانتا حجر عثرة فى طريق تنفيذه ، إذ أخذت الحكومة على عاتقها عدة أعباء ثقيلة ، فكانت تعلم التلاميذ مجاناً ، وتتكفل بطعامهم وملبسهم ، وتعطيهم رواتب شهرية ، ولذلك كان الآباء أحياناً يمنعون أبناءهم من الذهاب الى المدرسة اذا قصَّر أولو الأمر فى شىء من النفقة ، وربما كان للفلاح عذر فى ذلك ، فان حالته الأدبية كانت منحطة ، وربما كان غير قادر على دفع نفقات التعليم لما كان يعانيه من دفع الضرائب الفادحة والسخرة

وقد شجع الخديوى أعيان الامة على تعليم أولادهم ، فوضع لهم مثالاً ليحذوا حذوه

الخديوى يضع مثالا للامة

بأن عُنى بتربية أنجاله وأمراء أسرته . فانهُ عند توليته نقل مدرسة « المنَيل » الى قصر عابدين بعد ان كانت بجزيرة الروضة ، وكان يتعلم بها مع الأمراء ستون تلميذاً من أبناء الأهالى ، فلم يفرق فى المعاملة بين الفريقين ، وكان من المحتم على الأمراء تمضية الامتحانات كغيرهم من التلاميذ*

مدرسة للبنات

ولم تقف همته عند تعليم الشبان من أبناء الأمة ، بل وجه عنايته الى تعليم البنات أيضاً . فأسس مدرسة لذلك الغرض تحت رعاية احدى زوجاته على نفقتها الخاصة. وكان الغرض منها تعليم البنات المصريات الواجبات المنزلية ، حتى يستغنين عن الإماء والعبيد ، فكانت هذه أول مدرسة من نوعها فى كل بقاع الدولة العثمانية

أوجه نقص التعليم

غير أنهُ كان فى هذه المدارس بعض العيوب : فمنها قلة الأساتذة الأوربيين الذين يحسنون العربية ، إذ لايخفى ما فى القاء المحاضرات بواسطة مترجم من النقص . ومنها أن المعلمين الوطنيين كان ينقصهم أشياء كثيرة أخصها معرفة طرق التعليم ، فكان لاهمّ لهم الاّ إنماء حافظة التلاميذ ، وهذه بلا شك طريقة عقيمة تذهب بكثير من ثمرات التعليم

## دار الكتب

عظم مشتملات دار الكتب

ولايفوتنا عند الكلام على التعليم أن نذكر أن الفضل فى انشاء دار الكتب الحالية يرجع الى همة الخديوى اسماعيل إذ جمع لها كل ما وصلت اليه يده من الكتب المنسوخة باليد والمصاحف المزخرفة التى كانت مبعثرة فى جميع انحاء البلاد ، ولاريب ان هذه المجموعة لا تقل فى بابها عن مجاميع لندن وباريس وتورين . على أن المجموعة الفارسية التى فيها لايوجد لها نظير فى العالم بأسره

---

* وبعد فترة ألحقت هذه المدرسة بمدارس العباسية التى تمت فى عهد شريف باشا ناظر المعارف في ذلك الحين حتى صار بها قسم ابتدائى يبلغ عدد تلاميذه ١٢٠٠ وقسم تجهيزى بلغ عدد تلاميذه ٧٠٠ بينهم أمراء الاسرة الخديوية . عدا ثلاث مدارس أخرى ومدرسة للهندسة ومدرسة للمعلمين . وكان يجمع الجميع بناء واحد ضخم

مجموعة الأمير مصطفى فاضل

واشترى اسماعيل باشا مجموعة الكتب التى كانت عند أخيه الأمير مصطفى باشا فاضل بعد مماته بمبلغ ٤٠,٠٠٠ جنيه وأهداها الى دار الكتب

فاسماعيل باشا يُعتبر بما قام به ، وبما تم فى عصره من التعليم والنهوض بالأمة ، من أعظم المشجعين للنهضة الحديثة بالديار المصرية

## دار الآثار المصرية

اهمال الآثار المصرية

لا يكاد يوجد فى العالم أرض تضارع مصر فى كثرة آثارها القديمة ونفاستها ، الآ أن هذه الآثاركانت الى أواخر أيام محمد على باشا مهملة لا يهتم بها ملوك مصر ، ولا يفتر قناصل الدول الأجنبية وتجارها عن تبديدها وتهريب ما وصلت اليه أيديهم منها الى بلادهم . فلما قدم شمبليون مصر لدرس النقوش الهيروغليفية عرض على محمدعلى باشا عام ١٨٣٠م انشاء مصلحة لحفظ العاديات المصرية ، ولكن الباشا لم يعمل بنصيحته وقتئذٍ ، بتحريض قناصل الدول وتصويرهم مشروع شمبليون بأشنع صورة لأغراضهم الشخصية

مشروع شمبليون

دار الآثار بالازبكية ١٨٣٥م

غير ان نصيحة شمبليون تركت أثراً فى نفس محمد على ، فأصدر أمراً بعد ذلك بخمس سنوات بمنع تصدير الآثار واقامة حراس عليها . وفى ربيع الثانى سنة ١٢٥١ﻫ ( اغسطس سنة ١٨٣٥م ) أنشأ مصلحة للآثار أمام بركة الأزبكية للمحافظة على العاديات والبحث عنها فى أنحاء البلاد . ولم تكن أعمال هذه المصلحة منتظمة فى أول أمرها ، وبقيت كذلك الى سنة ١٢٦٥ ﻫ ( ١٨٤٩ م ) إذ أصدرت نظارة المعارف ( التى كانت المصلحة تابعة لها حينئذٍ ) أمراً الى «لينان بك» بعمل فهرست للآثار وجمعها فى مكان واحد . إلاّ أن ذلك لم يضرب على أيدى السرَقة والمبددين ، حتى انهُ لما نقلت الآثار الى القلعة لم تشغل بها الاَّ حجرة واحدة

بالقلعة

وفى سنة ١٢٦٦ ﻫ ( ١٨٥٠ م ) قدم الى مصر رجل من أذكياء الفرنسيين المشتغلين بالآثار يدعى « المسيو مرِيت » ( مريت باشا فيما بعد ) أوفدته حكومته

أول قدوم مريت

الى وادى النيل لمشترى مخطوطات قبطية ، فعدل عن ذلك وعكف على درس آثار سقارة حتى كشف بها السرابيوم . ولم تكن له علاقة رسمية بمصلحة الآثار وقتئذٍ ، ولكنهُ لشغفه بالآثار والمحافظة عليها ساعد الحكومة كثيراً حتى زادت محتويات دار العاديات زيادة عظيمة بين سنتى ١٨٥٣ و ٥٤ ، ولكن ما لبثت أعماله ان ذهبت ادراج الرياح ، إذ زار مصر فى عام ١٢٧١ هـ ( ١٨٥٥ م ) « الأرشدوق مكسمليان » النمسوى ، فطلب من عباس باشا الأول أن يهديه شيئاً من العاديات المصرية ، فسمح له بأن يأخذ كل ما أراد من القلعة ! واذا شاء أحد أن يعرف ما كانت تحويه دار عاديات القلعة فما عليهِ الاَّ أن يذهب اليوم الى « فينا »

معونته لسعيد باشا

أما المسيو « مريت » فانهُ بقى مشتغلاً بالآثار المصرية ، باذلاً وسعه فى أن تكون له صفة رسمية فيها حتى يضمن ثمرة أتعابه ، فتمَّ له ذلك فى ذى القعدة سنة ١٢٧٤هـ ( يوليه سنة ١٨٥٨ م ) ، إذ جعله سعيد باشا بتوسط المسيو ديلسبس مأموراً لأعمال العاديات بمصر

أعماله وهو مامور الاثار

وقد لاقى فى أول الأمر مصاعب جمة فى تنظيم الآثار وادارة حركتها ، لقلة المال ولعدم ثبات سعيد باشا على مؤازرته ، إذ كان أحياناً يأمر بتوقيف أعماله . ولكنَّ مريت بقى مثابراً على بحثه ، متنقلاً طول النهار بين المصانع والطلال ، حتى أخذت دار العاديات تمتلئ بسرعة ، وسمح له سعيد باشا بنقلها الى مخازن أُعدت لها فى بولاق

معاضدة اسماعيل للمشروع

ثم مات سعيد باشا ومشروع مريت فى نشأته ، فحزن كثيراً وخشى أن لا يلقى من اسماعيل باشا ما لاقاه من سعيد من المؤازرة ، ولكنهُ ما لبث أن وجد من اسماعيل باشا اكبر عضد لمشروعه ، فأمر فى الحال باصلاح مخازن بولاق وتوسيعها

افتتاح محل بولاق رسميا

وافتتحها بحفلة رسمية فى ٥ جمادى الأولى سنة ١٢٨٠ هـ ( ١٨ اكتوبر ١٨٦٣ م )

ثم بقيت دار العاديات سائرة فى طريق التقدم بفضل معاضدة اسماعيل باشا ومثابرة مريت ؛ ولما أُقيم معرض باريز عام ١٢٨٤ هـ ( ١٨٦٧ م ) نُقل أجمل ما فيها الى فرنسا لعرضه بالمعرض فكان موضوع اعجاب الفرنسيين وغيرهم من الأوربيين .

فى معرض باريز

لذلك طلبت « الامبراطورة يوجينى » من اسماعيل باشا أن يبقى العاديات بباريز لاهدائها لفرنسا ، فكاد يجيب طلبها لولا مقاومة مريت باشا

العسر المالى وفيضان النيل

أفلتت العاديات من هـذه الأزمة فوقعت بعدها فى ضيق شديد للعسر المالى الذى أخذ بخناق الحكومة فى ذلك الوقت . وفى سنة ١٢٩٥ هـ ( ١٨٧٨ م ) فاض النيل على أماكن بولاق وكاد يغرق الآثار . فعُنى مريت بحفظها فى صناديق وبقى محافظاً عليها حتى أعيد افتتاح الدار بعد هبوط النيل

مثابرة مريت

وبقى مريت مثابراً على تنظيم دار العاديات المصرية واصلاحها حتى مات فى



مريت باشا

صفر سنة ١٢٩٨ هـ ( يناير ١٨٨١ م ) وهى تضارع أعظم دور العاديات الأوربية

بالجيزة ثم قصر النيل

وفى عام ١٣٠٨ هـ ( ١٨٩١ م ) نُقلت دار الآثار الى الجيزة ، فبقيت بها الى عام ١٣٢٠ هـ ( ١٩٠٢ م ) اذ نقلت الى مكانها الحالى قرب قصر النيل

ودُفن مريت باشا بناووس فى دار الآثار المصرية لايزال الى الآن بها يستقبل القادم عليها

## ٤ — ﴿ منع تجارة الرقيق ﴾

بعد أن بذل اسماعيل باشا جهده فى تأمين الأمة على نفسها ومالها ، وساوى بين أفرادها أمام القانون ، وبذل جل طاقته فى رفع شأن الأهالى بالتعليم ، رأى ان من الكرامة والرحمة أن لايتغاضى عن تجارة الرقيق فى داخل بلاده . فلم يكتف بمنعها على الورق كما فعل من قبله محمد على باشا وسعيد باشا . بل عزم عزماً اكيداً على اقتلاع أصول هذه المهنة والقضاء عليها ما استطاع الى ذلك سبيلاً . ولما كانت هذه

صعوبة منع بيع الرقيق

المهنة عادة متأصلة فى كل البلاد ، وكان الدين الاسلامى بل كل الشرائع السماوية لا تمنع بيع الرقيق بشروط خاصة ، صادف اسماعيل باشا صعوبات جمة فى سبيل تحقيق أمنيته وتنفيذ عزمه

المستكشفون الانجليز

وكان أول من لفت نظر الأمم المتمدينة الى الفظائع التى ترتكب فى أواسط افريقية من جراء هذه المهنة كبار المستكشفين من الانجليز ، نخص بالذكر منهم « لفنجستون » و « بيكر » و « استانلى » ، اذ كانوا يروون عن ذلك الحكايات التى تفتت الاكباد وتدمى القلوب ، لما كان يقاسيه أهل تلك البلاد من الذل والهوان

فظائع تجارة الرقيق

وأنواع العذاب . ومهما بالغ الانسان فى وصف هذه الفظائع فانه لايمكنهُ أن يفهم حالة العبيد والاتجار فيها الا اذا قرأ كتاب « الاسماعيلية » أو كتاب « ألبرت نيانزا » اللذين وضعهما « السير صمويل بيكر » فى هذا الصدد . ويكفى أن نقول هنا ان

تخريب السودان جلّابي العبيد خرّبوا بلاد السودان، بصيدهم ما لا يقل عن خمسين ألف زنجي فى كل عام تحت ستر الاتجار فى العاج

اسماعيل يعمل بمشورة ولى عهد انجلترة

وأول من فكر فى القضاء على هذه الحرفة المشؤومة بالفعل ولى عهد انجلترة فى ذلك الوقت، إذ عرض على الخديوى أن ينوط بالسير صمويل بيكر محو الاتجار بالرقيق على النيل الأبيض وتوطيد النظام فى السودان ، فرحب الخديوى بهذا الاصلاح ، وعزم على أن يضرب بسهم صائب فى أحشاء هذه السلعة بالرغم من معارضة رعيته وعدم ميلهم لذلك

كثرة النفقات وقلة الاعوان

ولا شك ان تحريم الاتجار فى الرقيق صادف قبولاً حسناً فى نظر دول أوربا العظام ، إلاّ أنهُ أثقل عاتق الحكومة المصرية بما كلفها من النفقات ، اذ أنفق بيكر وحده فى هذا السبيل نحو ٥٠٠,٠٠٠ جنيه . ولم يجد اسماعيل باشا معضداً له من بين رعيته إلاّ شريف باشا ونوبار باشا والأنجال والأمراء . أما باقى الرعيــة فكانوا ينظرون الى المشروع شزراً

استكشافات بيكر

وأول أعمال السير صمويل بيكر فى هذا السبيل أن الخديوى عهد اليه سنة ١٢٨٦هـ (١٨٦٩م) بالاستكشاف عن الجهات التى قرب منابع النيل الأبيض وضمها الى الحكومة المصرية ، فخرج بحملة مصرية الى اقليم خط الاستواء ، ثم زحف بها حتى بلغ بلدة « جُنْدُوكورو » والبلاد الواقعة على بعد درجتين شمالى خط الاستواء ، وأعلن رسمياً إلحاق المقاطعات الاستوائية بالحكومة المصرية سنة ١٢٨٨ هـ(١٨٧١م) . وكان أينما حل يؤسس باسم مصر نقطاً عسكرية لمنع تجارة الرقيق ، أهمها نقطة « التوفيقية » .

قوة تجار الرقيق وكان بالسودان فى ذلك الوقت عدة بيوت تجارية كبيرة لنقل البضائع من أطراف السودان الى مصر ، فجمع أصحابها رجالاً مسلحة من الزنوج وشيدوا لهم معاقل حصينة ليستعينوا بها على الاتجار فيما يريدون ، وخصوصاً تجارة الرقيق لما فيها لهم من الأرباح الطائلة . واستفحل أمرهم فى هذه التجارة حتى ان « بيكر » لما عاد من سياحته الأولى وصف للخديوى مبلغ نفوذهم العظيم فى القاصية

مقاومتهم بزعامة الزبير

فأرسل الخديوى الى « حكمدار » السودان أن يتفق مع أصحاب تلك المعاقل على تسليمها للحكومة بمقابل تعويض يدفع لهم ابتغاء منع تجارة الرقيق . فقبل بعضهم، وامتنع بعضهم الآخر بزعامة « الزبير »

تنصيب الزبير مديرا لبحر الغزال

ومن ذلك الحين صار للزبير شأن كبير فى هذه الحرفة ، وصار رئيس تجار الرقيق وبنى لنفسه فى « شكا » قصراً يضارع قصور الملوك ، ونظم له جيشاً مسلحاً لاقتناص الرقيق، وبعد مكافحة طويلة بينهُ وبين الحكومة طلب العفو من الخديوى، فجعله مديراً لبحر الغزال دفعاً لتفاقم الشر

تنصيب بيكر حاكما عاما

أما السير « صمويل بيكر » فانه ذهب فى رحلة ثانيـة الى مديرية بحر الغزال ، ووصل فى سفره الى بحيرة « فكتوريا نيانزا » فرتب المقاطعات الاستوائية ، وأنشأ فيها نقطاً عسكرية . ولما أخلص النصح فى خدمة مصر لقبهُ الخديوى حاكماً عاماً على هذه المقاطعات ، فبقى عليها حتى استقال فى سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣م) بعد أن ترك خلفه حكومة مبنية على أساس متين وطرد صيادى الرقيق من هذه الجهات

أعمال غردون

وقام باعباء العمل بعده الكولونيل « غُردون » . وكل من يعرف ما فُطر عليه هذا الرجل من شدة البأس والمثابرة على العمل يعلم أنه أتى كل ما يمكن لانسان أن يفعله فى سبيل القضاء على طائفة الجلاّبين . إلاّ أنه بمجرد تركه لهذه الأصقاع النائية عادت هذه المهنة الى ما كانت عليه ، بل زادت فى الانتشار حتى أنه فى أيام قيامه بهذه الخدمة فى السودان كان يُجلَب الرقيق الى الحدود المصرية ويتجر فيه . وسنتكلم على غردون عند الكلام على السودان

دَلا. سلا

وكان ثالث رجل قام بهذه الخدمة رئيس جمعية تحريم الاتجار فى الرقيق « كُمت دلاّ سلاّ » ، وكان لا يقل عن سابقه فى النشاط والقوة ، فطارده بجميع قواه فى الوجه القبلى الى الجنادل الثانية ( الشلال الثانى ) ، فنجح نجاحاً باهراً حتى لم تتمكن قافلة واحدة من قوافل الرقيق من الوصول الى أسيوط

ومع ما بذل كل هؤلاء الثلاثة فى سبيل منع الرقيق لم يتمكن أحد منهم إلاّ من

صعوبة العمل

تسكين هذه الرذيلة مدة وسدّ بعض الطرق فى وجهها ، وقد صرح الثلاثة أن من المستحيل محو هذه المهنة دفعة واحدة . ولا شك أن الصعوبات أمامهم كانت عظيمة ، ولا سيما أن شيخ الجامع الأزهر فى ذلك العصر أوعز الى الخديوى أن تحريم الرقيق جملةً مخالف للشرع . إلاّ أن الخديوى رغم ذلك ، ورَغْمَ عدم مساعدة الدول له مساعدة جدية ، أمضى معاهدة مع بريطانيا العظمى لمنع بيع الرقيق فى ٢٤ رجب سنة ١٢٩٤ هـ ( ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ م ) وأُخرى فى المحرم سنة ١٢٩٥ هـ ( يناير سنة ١٨٧٨ م ) وهذا منتهى ما يمكن لانسان أن يأتى به . وفى الحقيقة لم يَغْلُ « اللورد ابردين » الانجليزى حين قال : « انهُ لا يتسنَّى لأى حاكم شرقى أو أوربى أن يعمل على محو الرقيق وتحسين حالة رعيته فى زمن قصير كما فعل حاكم مصر الحالى » ( يعنى اسماعيل )

معاهدتان مع انجلترة

## ٥ — ﴿ منح السلطة للنظار وانشاء مجلس شورى النواب ﴾

مجلسان فى عهد محمد على

كان أول من سار بالبلاد فى سبيل الحكم الدستورى محمد على باشا ، إذ رأى ضرورة اشراك الرعية معهُ فى تدبير شؤون مصر . فألف من كبار رجال حكومته مجلساً يسمى « المجلس المخصوص » ليعاونه فى ادارة شؤون البلاد ، و يمكن اعتباره الأساس لمجلس الوزراء الحالى . وأنشأ أيضاً مجلساً للشورى ( مجلس المشاورة الملكى ) ألّفه من العلماء والأعيان

اسماعيل يعيدهما

وقد مُحِى هذان المجلسان بعد وفاة محمد على ، و بقيا كذلك الى أن جاء اسماعيل باشا فأعاد المجلس المخصوص وناط به فحص جميع المشروعات التى يريد ادخالها ، وكان يرأس جلساته بنفسه فى الغالب ، وزاد من اختصاصه حتى صار شبيهاً بمجلس الوزراء الآن . غير أنه بقى هو صاحب النفوذ المطلق لا يعمل نظّاره إلاّ برأيه . فلما تدخلت الدول الأوربية فى شؤون مصر طلبت اليه أن يمنح أعضاء المجلس سلطة فعّالة بحيث يكونون هم المسئولين عن قراراته . فشكل وزارةً مؤاخَذة بر ياسة نوبار باشا سنة ١٢٩٥ هـ (أغسطس سنة ١٨٧٨م) كان ضمن أعضائها اثنان من الأجانب ( كما سيأتى مفصلاً

مجلس النظار

عندالكلام على المسائل المالية) فكان ذلك أول مجلس نظار أنشىء بالديار المصرية

مجلس الشورى

وأعاد اسماعيل باشا أيضاًمجلس الشورى وسماه «مجلس شورى النواب» وافتتحه فى ١٠ رجب سنة ١٢٨٣ هـ ( ١٩ نوفمبر سنة ١٨٦٦ م )، وهذه من أهم الخطوات فى سبيل الحكم النيابى فى جميع ممالك الشرق بأسرها . وكان انتخاب هؤلاء الأعضاء بأغلبية الأصوات فى جميع البلاد ، الاّ أن عيبها الكبير هو أن المدير كانت له اليد الفعالة فى انتخاب الأعضاء ولذلك كان معظمهم ينتخب من أغنياء المديريات من غير نظر الى علمهم ومداركهم ، وكان أغلبهم يأبى أن يكون منتخباً مخافة أن يغضب المدير أو الحكومة فى أمر من الأمور ، حتى أن الحكومة كانت تضطر فى أغلب الأحيان الى انتخاب الأعضاء بالقوة الجبرية . ويقال ان اسماعيل باشا لم يكن غرضه من هذا المجلس أن يتدخل معه فى أمور البلاد بل ليشاركه أعضاؤه فى المؤاخذة . وكانت وظيفة هذا المجلس أن يناقش الحكومة ويبدى لها رأيه فى كل التغييرات المالية ، وفى المشروعات العامة الجديدة ، وكل ما يتعلق بصالح البلاد من الأمور التى تعرضها عليه الحكومة . وكان يجتمع فى كل عام مدة شهرين فتعرض عليه الحكومة التقرير السنوى عن ادارة البلاد أثناء العام

طريقة الانتخاب

جهل الاعضاء

وكان أعضاء هذا المجلس لا يدرون فى أول الأمر شيئاً من أعمال المجالس النيابية ونظامها ، فلما همّ شريف باشا بتعليمهم واجباتهم وطريقة السير فى العمل ظهر من جهلهم وغرارتهم ما يضحك

## ٦ — ﴿ التقدم المادى والأعمال العامة ﴾

يجدر بنا الآن بعد أن تناولنا الكلام على الاصلاحات الاجتماعية والأدبية فى عصر الخديوى اسماعيل باشا أن نذكر شيئاً من اصلاحاته المادية التى لا تزال آثارها تدل على عظمته وعلى ما كان يطمح اليه فى سبيل رقى البلاد وفلاحها

وان كثيراً من أعداء اسماعيل يدّعون انه لم يفد البلاد ، ولم يقم فيها بعمل يذكر ،

الأَ ماشيد من القصور العديدة والمبانى الضخمة والبذل عن سعة فى ملاذه وأغراضه حتى استنفد أموال البلاد وتركها تنوء تحت عبء ثقيل من الديون، ولكننا سنظهر هنا بالبراهين القاطعة ، مستشهدين بكلام مشاهير عصره ، ان اكثر أقوالهم غير مطابق للواقع ، وان اسماعيل باشا أفاد البلاد ورقاها ، وان ماقام به وتم فى عصره من الاصلاحات والمشروعات العامة لا يضارَع ولا يتسنى لأى حاكم آخر فى موضعه أن يأتى بمثله . الاّ أن خطأه العظيم يرجع الى السرعة وتعدد المشروعات وعدم الحيطة فى الانفاق على أعماله

## الزراعة

اصلاح الرى

كان اسماعيل يعلم أن ثروة البلاد فى زراعتها ، لذلك وجّه جانباً عظيماً من عنايته الى تحسين حالها . فكان أول عمل قام به ان حفر اكثر من مائتى ترعة ، ورصف مسافات طويلة من شواطئ النيل ، وأنشأ آلاف الأميال من الطرق الزراعية فى جميع انحاء القطر ، وأقام عليها ما لا يقل عن ٥٠٠ قنطرة من أهمها قنطرة الجزيرة ( كبرى قصر النيل ) التى تعتبر من أعظم الأعمال الهندسية فى القطر المصرى. ثم أصلح ما لا تقل مساحته عن ١٫٥٠٠٫٠٠٠ من الفدادين ، فزاد بذلك الأراضى المزروعة فى القطر بنسبة ٣٠ ٪ . وان لم يكن لاسماعيل باشا حسنة أو اصلاح فى البلاد غير هذه لكفى

زيادة الاراضي المزروعة

وفى أوائل حكمه اشتعلت نار الحرب الأهلية فى الولايات المتحدة ، فحصرت ولاياتُ الشمال تجارةَ الولايات الجنوبية ومنعت صدورها الى أسواق أوربا ، وفى ذلك القطن الذى لاغنى لانجلترة وفرنسا عنهُ ، فارتفعت بذلك اسعار القطن فى مصر ارتفاعاً لامثيل له . فانتهز الخديوى هذه الفرصة واكثر من زرع هذا المحصول ، وشاركه فى ذلك الاهلون من تلقاء أنفسهم ، حتى صار المال يتدفق الى مصر تدفقاً ، وارتفعت قيمة الصادرات المصرية من ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه فى عام ١٢٧٩ هـ ( ١٨٦٢ م ) الى

الحرب الاهلية الامريكية والقطن المصرى

١٤،٠٠٠،٠٠٠ جنيه فى عام ١٢٨١هـ (١٨٦٤م). ولكن ما لبثت الحرب الامريكية أن انتهت، وعادت أثمان القطن الى حالتها الأولى

قصب السكر

فوجه الخديوى عنايته الى زرع قصب السكر، فكان ذلك شغله الشاغل، وأنفق عليه الأموال الطائلة، وسخر الأهالى فى زرعه، وأنشأ من أجله خطاً حديدياً من القاهرة الى أسيوط. وقد احتكر زراعته فى أملاكه الخاصة على الضفة اليسرى من النيل بين القاهرة وأسيوط، واشترى لصنعه من الخارج الآلات الكافية لتشييد أربعة وعشرين معملاً أقيم بعضها وأهمل بعضها الآخر. وقد أنفق اسماعيل على هذه المعامل وما يلزمها سبعة آلاف ألف جنيه، عدا نفقات الترعة البراهيمية التى حفرها لرىّ هذه الأراضى، وسخر فى حفرها عدداً عظيماً من أهالى القطر، وبعد أن أتم حفرها نصب عليها الالات الرافعة. وهذه الترعة من اكبر الترع التى أُنشئت فى مصر وأعظمها فائدة واكثرها نفقة

وكان معظم العمال الذين يشتغلون فى معامل السكر يُجبرون على العمل ويتقاضون أجورهم إما من السكر أو العسل

## التجـارة

بناء ١٥ منارة

ووجّه اسماعيل همه أيضاً نحو تحسين حال التجارة، لعلمه أن مصر كانت من قديم الزمان مركزاً عظيماً للتجارة. فبنى خمس عشرة منارة فى البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، لترشد السفن التجارية القادمة الى مصر، فأنفق عليها ما لا يقل عن ٢٠٠،٠٠٠ جنيه، ثم شرع فى بناء مرافئ ميناء الاسكندرية وميناء السويس، فناط اصلاح ميناء السويس بشركة فرنسية، وبلغت نفقاته ٥٠٠،٠٠٠ جنيه. أما ميناء الاسكندرية فانهُ عهد أمر اصلاحه الى شركة انجليزية عقدت معهُ اتفاقاً على ألفى ألف وخمسمائة ألف جنيه. وقد اعترف «السير رِفَرْز وِلْسُن» أحد الموظفين فى الحكومة المصرية فى عهد اسماعيل ان هذا الاتفاق كان مجحفاً بمصر، وان الميناء لم

مرافئ الاسكندرية والسويس

ينفق عليه اكثر من خمسمائة ألف والف الف . فخدع اسماعيل فى هذا العقد كما خُدع قبله سعيد باشا فى عقد قناة السويس . وهذا فى الحقيقة مثل من كثير من أنواع الاتفاقات التى كان يُخدع فيها اسماعيل ويُضيع من جرائها الأموال الطائلة

الاسطول التجارى

وبنى أيضاً أسطولاً تجارياً ليحمل المتاجر والبريد بين مصر والدولة العلية وبلاد اليونان وغيرها ، وأنفق عليه خمسمائة ألف وألف ألف من الجنيهات

## الأعمال العامة

قام اسماعيل باشا بعدة مشروعات وأعمال عامة تمت فى عصره فأفادت البلاد وجعلتها تضارع البلاد الأوربية فى المدنية والحضارة

السكك الحديدية

ومن بين هذه المشروعات مد السكك الحديدية فى جميع أنحاء البلاد ، وقد أنفق عليها الأموال الطائلة . وكان طول ما أنشئ من السكك الحديدية قبل توليته لا يزيد على ٣٣٠ ميل ، فازدادت فى مدته حتى بلغت ١٣٣٠ ميل ، أنفق عليها ما يقرب من عشرة آلاف ألف من الجنيهات

وقد شرع فى مدته أيضاً فى مد خط حديدى يخترق أواسط افريقية مبتدئاً من دنقلة ، فكان تصميمه أن يبلغ ١١٠٠ ميل . الأَّ أن العمل وقف لقلة المال بعد أن دُفع من نفقاته ٤٠٠,٠٠٠ جنيه . على ان هذا الخط لو تم لأتى بنفقاته فى مدة سنين قلائل ، لمروره فى وسط سهول فيها الأنواع الكثيرة من الحيوان مما يكفى لسد حاجات مصر بل كل جنوبى أوربا ، كما أثبت ذلك القائد « استون » رئيس أركان حرب الجيش المصرى حينما كان يستكشف عن أواسط افريقية ، اذ قال : « ان محصول الحيوان فى هذه الجهة لا ينفد »

الاسلاك البرقية والبريد

وأنشأ اسماعيل باشا أيضاً ما لا يقل عن ٥,٢٠٠ ميل من خطوط الأسلاك البرقية ، واشترى مصلحة للبريد من أحد الغربيين المدعو المسيو « شينى » فى عام ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥م) ، وبذلك أصبحت تحت ادارة الحكومة ونفوذها . وأسس ما

يزيد على ٢١٠ من مكاتب البريد فى طول البلاد وعرضها ، فكان مقدار ماوُزع من الخطابات فى عام ١٢٩٥هـ ( ١٨٧٨ م ) يبلغ ٢,٥٠٠,٠٠٠

الغاز والمياه والشوارع

وأنار أيضاً أمهات المدن كالاسكندرية والقاهرة بالغاز ، ومد بها أنابيب المياه وأنشأ الشوارع الفسيحة بالقاهرة والاسكندرية والسويس وزينها على النمط الغربى الحديث ، وقد بلغ ما أنفقه عليها مايقرب من ثلاثة آلاف الف من الجنيهات

وان اكبر دليل قاطع على تقدم البلاد المادى ازدياد صادراتها ووارداتها فى ذلك العصر ازدياداً مطرداً

## ٧ — ﴿ حروب اسماعيل باشا والفتوح التى تمت فى عصره ﴾*

تنظيم الجيش

لم يكن اسماعيل باشا ميالاً للحروب لجده الأكبر محمد على ، الآ أنهُ رغم ذلك كان يُعنى بجيشه عناية كبيرة ، اذ أحضرله كبار الضباط من الممالك الأوربية وأمريكا لتدريبه ، نخص بالذكر منهم « استون باشا » الأمريكى رئيس أركان حربهِ

عدده

وقد بلغ أقصى عدد الجيش النظامى فى عصره ستين الف مقاتل مسلحة بنحو ١٤٤ مدفعاً ، عدا ثلاثين الف مستحفظ وستين الف جندى غير نظامى

آمال الخديوى فى افريقية

وكان من أهم أغراض اسماعيل باشا توسيع نطاق ملكه فى افريقية وضم كل ما يمكن كشفه أو فتحه من أراضيها الى مصر . فمن ذلك أنهُ عهد الى السير صمويل بيكر بالاستكشاف عن الجهات التى قرب منابع النيل الأبيض وضمها الى الحكومة المصرية ( ١٢٨٦ هـ : ١٨٧٠ م ) كما سبق ذكره عند الكلام على منع الرقيق

منزنجر فى مصوع

وفى عام ١٢٨٧هـ (١٨٧٠م ) ولى « مُنْزِنْجَر » السويسرى محافظاً على « مصوع » وكان الخديوى قد اشتراها هى وسواكن من الباب العالى فى عام ١٢٨٣ هـ (١٨٦٦م) فى مقابل ضريبة سنوية قدرها ٣٠,٠٠٠ جنيه . وقد اهتم « منزنجر » هذا بتوسيع أملاك مصر فى السودان الشرقى فألحق بها « بلاد البوغوس » و « بركة القضارف »

---

* انظر خريطة السودان المصري

غردون فى خط الاستواء

أما فى وادى النيل فقد طلب الخديوى من الحكومة الانجليزية بارشاد ولى عهد انجلترة أن تمنحه تنصيب القائد « غردون » مديراً لمقاطعة خط الاستواء . فوصل الى مصر ونصبهُ الخديوى « حكمداراً » لخط الاستواء فى ذى الحجة سنة ١٢٩٠ هـ ( يناير سنة ١٨٧٤م ) . ومن ذلك الحين اهتم الخديوى بأمر السودان اهتماماً عظيماً فقسم بلاده الجنوبية الى قسمين : أولهما السودان الحقيقى (وآخر حدوده «فاشودة» جنوباً ) ، وجعل ادارته لحاكم السودان العام ، والثانى اقليم خط الاستواء وهو ما كان جنوبى فاشودة ، وجعله تحت ادارة غردون . فبسط غردون نفوذ الحكومة المصرية على تلك الجهات ، وأسس النقط العسكرية لضبط السفن التى تتجر بالرقيق

بسط نفوذ مصر هناك

## فتح دارفور

اقتراح الزبير

وفى عام ١٢٩٠هـ (١٨٧٣م) حسّن « الزبير » للخديوى أمر فتح بلاد دارفور ، وكانت مملكة مستقلة ، فعضدته الحكومة المصرية ، وتلاقى الزبير بجيش سلطان دارفور المؤلف من ٢٠ ألف مقاتل ، فهزمه مراراً وانتهى الأمر بفتح هذه البلاد ، وصارت تابعة للحكومة المصرية . فعهدت الحكومة الى الزبير ادارة الجهات الجنوبية من دارفور ، ومنحهُ الخديوى رتبة باشا . ثم شكا الزبير كثيراً من ثقل الضرائب على الأهالى ، وطلب أن يتشرف بمقابلة الخديوى ، فأذن له بذلك ، فسافر الى القاهرة وأناب عنه

فتحه دارفور

تنصيبه مديراً عليها

قدومه مصر

الزبير باشا

قبل سفره اليها ابنه سليمان . ولما لم ينل الزبير مطالبه عند قدومه الى القاهرة لم تأذن له الحكومة المصرية بالرجوع الى السودان ، وأبقتهُ فى القاهرة مخافة أن يثور بالسودان عند عودتهِ

ابقاؤه بها

## فتح هَرَر

فى سنة ١٢٩٢ هـ ( ١٨٧٥ م ) نزلت الدولة العلية للحكومة الخديوية عن مدينة «زَيْلَع» وملحقاتها فى مقابل مبلغ تدفعه سنوياً قدره ١٣٫٣٦٥ جنيهاً مصرياً ، وبعد أن ضُمت زيلع الى الأملاك المصرية أخذت الجنود المصرية تستطلع أحوال «هَرَر» وتتعرف مسالكها . ولما تم لها ذلك سارت فرقة بقيادة « محمد رؤوف باشا » فى شعبان سنة ١٢٩٢ هـ ( سبتمبر ١٨٧٥ م ) فوصلت بعد قليل الى مدينـة هرر ، واحتلتها بدون مقاومة تذكر ، ورفعت العلَم المصرى فوق قصر أميرها

نزول تركيا عن زيلع

ضم هرر

## حملة نهر جوبا وجهات قِسْمايو

ولما أن تم للخديوى توسيع الأملاك السودانية من الجهة الجنوبية عزم على ارسال حملة الى بلاد الصومال الجنوبية لضم البلاد الواقعة على نهر جوبا الى مصر ، حتى يتسنَّى له إيصال أملاكها فى تلك الأصقاع بما لها فى جهات خط الاستواء . فجهز لذلك حملة بقيادة «ماكيلوب باشا» من طريق البحر فى شهر المحرم سنة ١٢٩٢هـ (فبراير ١٨٧٥م) فلما وصلت الى بلدة « براوة » الواقعة شرقى نهر « الجُب » خضعت بعض القبائل للحكومة المصرية . ثم ترك فيها ماكيلوب باشا محافظاً وحامية وتقدم الى «قِسْمايو» عند مصب نهر جوبا . ولما لم تتمكن الجنود من السير فيه بالقوارب رجعوا الى «قسمايو» ونزلوا الى البر ، وأخذت الحملة تستكشف عن النهر . ولكن الحكومة رأت أن تستدعى ماكيلوب باشا وحملته خوفاً من وقوع المشاكل بينها وبين حكومة زنجبار التى كانت تحت حماية انجلترة ، هذا الى نشوب الحرب وقتئذٍ بين مصر والحبشة

حملة ماكيلوب باشا فى الصومال الجنوبى

حنق زنجبار وانجلترة

رجوع الحملة

## حرب الحبشة

مشكلة الحدود بين مصر والحبشة

علمنا فيما سبق أن الحكومة المصرية ضمت الى أملاكها فى السودان الشرقى بلاد البوغوس وبركة القضارف على يد « منزنجر باشا » والى مصوع . ثم أرادت أن تعيّن الحدود بينها وبين الحبشة من تلك الناحية ، وان تستولى على بعض مقاطعات تتمكن بها من مدّ طريق حديدى بين مصوع والخرطوم على طريق كسلة و«التاكة» فجردت لذلك حملة بقيادة « أرندِروب بك »

حملة أرندروب بك

فلما وصلت هذه الحملة الى بلدة « سعد زجـه » ورأى النجاشى توغل الجنود المصرية فى بلاده أخذ يتقهقر أمام القوات المصرية خديعةً منهُ . حتى اذا وصلت الجنود المصرية الى بلدة «عدخالة» أرسل القائد «ارندروب بك» الى ملك الحبشة «يوحنا» يطلب منهُ جعل نهر « خور الجاش » الحد الفاصل بين الأملاك المصرية والحبشة . فلم يقبل ، وكان «أرندروب» قد بلغه ان ملك الحبشة يستعد للهجوم عليه من ثلاث جهات ، فعزم على أن يبدأه بالهجوم ، فتقدم نحو «جونديت» واشتبك مع العدو وكان جيشه اضعاف الجيش المصرى يقوده النجاشى نفسه ، فكانت الدائرة على الجيش المصرى ، وفنى معظمـه وقتل قائده العام . وتقهقرت فلوله الى الحدود الأصلية بين الحبشة ومصر

الحبشة ترفض طلبه

هزيمة الجيش المصرى

فشل حملة منزنجر

وكان الخديوى فى هذه المدة أمر منزنجر باشا حاكم السودان الشرقى والبحر الأحمر أن يجرد حملة على بلاد الحبشة ويذهب بها من طريق « غندار » (عام ١٨٧٥م) فخرج عليه بعض القبائل فى الطريق ، فاغتالته وفتكت بجيشه

ولما ذاعت أخبار هذه الهزيمة غضب الخديوى وعزم على الفتك بالحبشة محافظةً على شرف الجيش المصرى ، فأخذ يجهز لذلك جيشاً عظيماً نصّب عليه «راتب باشا» قائداً عامًا والجنرال « لورنج باشا » الأمريكى رئيس أركان الحرب له

جيش عظيم للفتك بالحبشة

وبعد ان تمت كل المعدات أخذت السفن تنقل الجيوش من السويس الى

وصول راتب باشا الى قرع

مصوع . وكان الخديوى قد أصدر أمراً لثالث أنجاله «الأمير حسن باشا» بمرافقة الحملة تشجيعاً للجنود وتدريباً له . وبعد أن نزلت كل الجنود فى مصوع أخذ الجيش يزحف على بلاد الحبشة، فاستمر فى التوغل حتى وصل الى «قرع» فى ٣ المحرم سنة ١٢٩٣ﻫ ( يناير سنة ١٨٧٦م ) بعد أن ترك وراءه بعض الجنود لحفظ خط الرجعة بين مصوع والحبشة . ولما عسكر الجيش فى قرع وأقام الاستحكامات رأت القبائل المجاورة قوته، فأخذت تنضم اليه وتذعن له بالطاعة

الفتك بالجيش المصرى

أما الأحباش فانهم لما رأوا ذلك جمعوا جيشاً عظيماً بقيادة النجاشى وقصدوا المصريين أولاً فى « قياخور » ، وكانت تحميها قوة مصرية بقيادة « عثمان رفقى باشا » ، فلم يفلحوا فى مهاجمتها لمناعة الاستحكامات المصرية، فقصدوا جيش القائد العام وأخذوا فى مهاجمته عند قرع ، وبعد معركة لم تدم طويلاً تشتت شمل الجيش المصرى بعد أن هزم شر هزيمة وقتل منهُ عدد عظيم، منهم « محمد على باشا الحكيم » الطبيب الشهير ، وقد نجا القائد العام والأمير حسن بعد أن رأيا الهلاك عياناً . أما الأحباش فكانت خسارتهم أيضاً فى هذه الحروب جسيمة

الصلح

ثم ابتدأت المفاوضات في أمر الصلح ، فقبلت الحكومة المصرية المهادنة بشرط أن ترد الحبشة ما أخذته من الأسلحة المصرية ، وأن تكون التجارة متبادلة بين المملكتين . فامتنع ملك الحبشة من رد السلاح معتذراً بأن جيشه ليس منظماً حتى يتسنى له جمع كل الأسلحة، وبعد مدة وجيزة تقرر الصلح وأذن ملك الحبشة بعودة الأسرى ( ٢٧ ربيع الأول سنة ١٢٩٣ ﻫ : ابريل سنة ١٨٧٦م ) . ثم عاد القائد العام والأمير حسن وفلول الجيش المصرى

## رجوع غردون الى الحكومة المصرية

غردون حاكما عاما للسودان

وفى عام ١٢٩٤ ﻫ (١٨٧٧م ) دعا الخديوى «غردون باشا» للخدمة فى الحكومة المصرية بعد أن اعتزلها، فاشترط عليه أن يجعله الحاكم العام على جميع الأقطار السودانية،

تنظيمه للسودان

فقبل منه ذلك . ولما تولى الأمر فى هذه الأصقاع الواسعة رأى عدم استطاعته الانفراد بالحكم فيها وادارة شؤونها وحده ، فقسم المديريات الاستوائية الى قسمين : سمى الأول منهما « مديرية خط الاستواء » وجعل مقرها « لادو » ، وجعل الحاكم عليها امين باشا ( الدكتور شنتزر ) أما القسم الثانى فانه سماه « مديرية بحر الغزال » وجعل المدير لشؤونها المسيو « جِسِى الطليانى »

جسى فى بحر الغزال

وكان للمسيو جسى اليد الطولى فى كشف جميع مجاهل هذه المديرية، وقد أحسن معاملة الأهالى فيها وعودهم الأعمال العسكرية وشجعهم على انشاء السفن للاتجار ، فكان ذلك مدعاة لحنق الجلابين ، لأن فيه كساداً لتجارتهم . فأرادوا أن يخرجوا عليه ، فتجمعوا بقيادة « سليمان بن الزبير » الشديد الحنق على الحكومة المصرية لمنعها والده من العودة الى بلاده

قهر ابن الزبير وقتله

فلما علم غردون بذلك وجّه اليه بعض الجنود تحت امرة «جسى» فتقاتلا قتالاً شديداً كان النصر فيه حليف الجيش المصرى . وقتل سليمان فى هذه الموقعة . وقد وجد «جسى» معهُ رسائل من والده « الزبير باشا » تدل على أنه كان هو المحرض على هذا العصيان

استقالة غردون

وبقى غردون يدير شؤون السودان ويكافح تجارة الرقيق فيه حتى استقال فى أوائل حكم توفيق باشا

## ٨ — ﴿ اتمام قناة السويس ﴾

اسماعيل بطل المشروع

سبق ان أفردنا فصلاً فى هذا الكتاب للكلام على ترعة السويس أوضحنا فيه مشروع حفرها وأتينا بشىء من تاريخ هذا المشروع منذ أزمان غابرة . ولا بدَّ لنا من كلمة هنا على افتتاح هذه الترعة ، لأن ذكرها مقرون دائماً باسم اسماعيل ، اذ له العمل الأكبر فى نجاح مشروعها واليد القوية فى انجازه بعد أن دخل فى طور احتضار وكاد يذهب ادراج الرياح



حفلة افتتاح قناة السويس بالاسماعيلية

في عهد الحملة الفرنسية لمصر بلغه المهندسون ثم
لأن العلماء أخطئوا في حساب المسافة بين البحر
الأحمر والبحر الأبيض وتبا لذا أنه إذا فتحنا
القناة من البحر الأحمر فإن المياه سوف تغرق الوجه
البحري وأن البلد ستغرق لأن البحر الأحمر يسير
بانحدار نحو البحر الأبيض

[illegible]

[illegible]

حفلة افتتاح القناة

عزّ على اسماعيل باشا أن يقف هذا المشروع الخطير بعد أن قارب الانتهاء ، فأقبل عليه يعضده بكل الوسائل ، حتى اذا قرب أجل افتتاح الترعة أخذ على عاتقه أن يتكفل باقامة حفلة الافتتاح على نفقاته الخاصة ، غير مدّخر وسعاً فى جعلها على حال من العظمة والفخام بحيث تلائم ذلك المشروع الخطير

بعض الزائرين

أقام اسماعيل باشا حفلة الافتتاح بالاسماعيلية ، فكانت غاية فى الإبداع : دعا اليها ملوك أوربا وأمراءها وعظماءها وعلماءها وأدباءها ، فأجاب الدعوة منهم عدد عظيم ، وفى مقدمتهم «الامبراطورة يوجينى» ( زوجة امبراطور فرنسا نابليون الثالث ) ، ثم امبراطور النمسا « فرنسيس يوسف » والأمير فردريك ولى عهد ألمانيا

عظم الاستعداد

ثم أخذ اسماعيل باشا يعد المعدات ويقيم الزينات ، غير ضانّ بما يحمّله ذلك من المال ، ظاناً أن فى ذلك ارضاء لزوّاره الأوربيين ووسيلة الى رفع قدره وقدر مصر فى أعينهم . ومن أهم ما أعده لتلك الحفلة أن شيّد بالاسماعيلية قصراً بديعاً على شواطئ بحيرة التمساح ، لتقام فيه حفلة راقصة احتفاء بالامبراطورة يوجينى ، لِما كان لها من المكانة فى هذا الاحتفال ، إذ كانت هى النائبة فيه عن فرنسا صاحبة المشروع . وأقام السرادقات الفخمة المزينة بجميع أنواع الزينة ، لتمدّ فيها الأسمطة للزائرين أيام الاحتفال

قصر الاسماعيلية

انشاء طريق الهرم

ولما علم أن الامبراطورة يوجينى ربما تود أثناء اقامتها فى مصر أن تزور الاهرام أمر أن يُنشأ على وجه السرعة طريق يصلح لسير العجلات ( العربات ) من القاهرة الى قاعدة الهرم الأكبر . فجدّ فى انشائه نحو ١٠,٠٠٠ عامل حتى تم فى أقل من ستة أسابيع . ومن المبانى التى شيّدها سريعاً بمناسبة هذا الاحتفال أيضاً ملهى « الأوبرا » بالقاهرة

أما ما لاقاه الزائرون فى مصر من أنواع الكرم والحفاوة فلا يكاد يدخل تحت وصف ، إذ كان قدومهم من أوربا وعودتهم اليها على نفقة مصر ، وسُمح لهم بالسفر مجاناً فى جميع خطوط السكك الحديدية ، وأمرت الحكومة موظفيها أن لا يدّخروا وسعاً فى مساعدتهم وارشادهم أثناء وجودهم بمصر ، وأعدت لهم العجلات والدواب والتراجمة بدون مقابل . وفى الجملة لا نكون مغالين اذا قلنا انهُ كان فى استطاعة كل

اكرام الزائرين

نفقات الحفلة

زائر أن يقضى بمصر نحو شهرين من غير أن يصرف درهماً واحداً من ماله . وقد بلغ مجموع ما أنفق على هذا الاحتفال نحو ١٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيه

طور جديد فى الملاحة

وكانت الحفلة فى شعبان سنة ١٢٨٦ هـ ( نوفمبر سنة ١٨٦٩ م ) . وبها ابتدأ طور جديد فى تاريخ الملاحة . فصارت السفن التى تجرى بين الشرق والغرب تسير بطريق ترعة السويس بعد ان كانت تعانى أعباء الرحلة الطويلة حول جنوبى افريقية وقد كان لابتداء هذا الطور وقع عظيم فى أنحاء العالم المتمدين، ولم يأت ذكره فى ناد من الأندية أو دائرة من الدوائر الآ كان مقروناً باسم بطله الاكبر « اسماعيل باشا خديوى مصر »

# الفصل الرابع

## المسألة المالية وانتهاء حكم اسماعيل باشا

كثرة النفقات

لو نظرنا الى مقدار ما قام بهِ « اسماعيل باشا » من المشروعات والأعمال العامة فى انحاء البلاد ، وراعينا ما كان فى قصوره وحفلاته من أنواع البذخ والأبهة مما ضارع بهِ اكبر ملوك الأرض ، علمنا أن ذلك كان يتطلب نفقات جمة تضيق خزائن مصر عن تحملها . فكان رحمهُ الله يستعين على ذلك بانجاز بعض أعماله من غير أن يدفع أجرها نقداً فيبقى عليه ديناً ( وهو ما يسمَّى بالدَّين السائر ) ، ويقترض ديوناً من الدول الأوربية لتسديد نفقات بعضها الآخر ( وهذه تسمَّى ديوناً ثابتة ) . وكانت الديون الثابتة لا تعطى الآ اذا قُدّمَ لأصحابها ما يضمن سدادها ، مثل دخل بعض مصالح الحكومة ، والأموال المجبية من بعض المديريات . فاذا تعذر عليه الحصول على ما يبغى من الدول الأوربية لجأ الى جمع ما يطلبه من المال من أهل البلاد : سواء أكان ذلك بزيادة الضرائب أم باقتراض ديون أهلية

انواع الدين

ومن أشهر ما جمعه بهذه الطريقة الأخيرة المبالغ التى جباها بمقتضى القانون

قانون المقابلة

المعروف بقانون « المقابلة » . أعدَّ هذا القانون بمشورة ناظر المالية الشهير « اسماعيل باشا صِدِّيق المفتش » ، الذى يعرف اسمه كل فلاح عاش فى هذا العهد ، والذى كانت له المقدرة العظيمة فى جباية الضرائب من الفلاحين . ومؤدَّاه ان كل مالك من ملاّك الأرض يمكنهُ أن يصبح مُعفًى على الدوام من دفع نصف ما عليه من الضريبة السنوية ، اذا دفع للحكومة ما يعادل تلك الضريبة ستة أعوام ، وله أن يدفع هذا المبلغ جملةً أو على ستة أقساط سنوية (وفى هذه الحالة تدفع أيضاً الضريبة الأصلية حتى يتم تسديد الأقساط )[1]

صعوبة القرض

ولما كثرت الديون الأوربية على مصر ، وأوشكت موارد الضمان التى يمكن تقديمها عنها أن تنفد ، أصبح من الصعب اقتراض ديون جديدة ، وما أمكن اقتراضه منها كان بأرباح باهظة جداً لم يسبق لها مثيل . من ذلك أن اسماعيل باشا استقرض فى جمادى الثانية سنة ١٢٩٠هـ ( يونيه سنة ١٨٧٣م ) ديناً قدره ٣٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه ليسدد به جميع الديون السائرة ، فلم يتمكن من عقد القرض الاّ فى شهر مايو سنة ١٨٧٤ فكان مجموع ما قبضته الحكومة بالفعل من هذا الدين بعد طرح جميع أنواع النفقات والخصم و ( السمسرة ) يبلغ ٢٠,٠٦٢,٠٠٠ جنيه فقط ، أى بنقص ٣٧٪ عن مقدار ما حسب ديناً على الحكومة ، فضلاً عن ان المبلغ الذى قبضته الحكومة لم يدفع كله نقداً بل كان منهُ ٩,٠٠٠,٠٠٠ جنيه من سندات الخزانة المصرية[2]

الرزنامة

وتعهد اسماعيل باشا فى عقد هذا القرض أن لا يقترض ديوناً أخرى مدة سنتين

ثم اشتدت حاجتهُ الى المال ، فلجأ الى جمع قرض من الأهلين يعرف بدين « الرُزْنامة » . وشروطه أن كل من يدفع للحكومة مبلغاً يأخذ نظيره دُفعاً سنوية على الدوام قدر كل منها ٩ ٪ من أصل ما دفعه . فجمعت الحكومة بهذه الطريقة

---

(١) كل من له المام بالرياضة يعلم ان هذه الطريقة فيها غبن فاحش للحكومة

(٢) معنى ذلك أن الحكومة نظير حصولها على ١١,٠٠٠,٠٠٠ جنيه نقداً فقط زادت دينها بقدر ٢٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه ( الفرق بين ٣٢,٠٠٠,٠٠٠ و ٩,٠٠٠,٠٠٠ )

٣٬٤٢٠٬٠٠٠ ، ولكنها لم تدفع من الدُّفع السنوية المذكورة الأجزاء من دفعة السنة الأولى فقط

اشتداد الازمة

وفى سنة ١٢٩٢ هـ ( ١٨٧٥ م ) ازدادت أزمة الخديوى المالية ، وصار يصدر سندات على خزائن الحكومة بقيمة تقل كثيراً عن قيمتهـا الاسمية . ولما اشتدت الأزمة على الحكومة عرضت ما لها من أسهم القناة للبيع ، (وكان عددها ١٧٦٬٦٠٢) فاشترتها الحكومة الانجليزية بثمن بخس يقل عن ٤٬٠٠٠٬٠٠٠ جنيه . فلم يفرج ذلك شيئاً يذكر من الأزمة ، وصار يُخشى كل يوم من تدخل الدول الأوربية فى شؤون مصر محافظةً على الأموال التى أقرضتها رعاياها الحكومة المصرية

وفد كيف

وفى رمضان سنة ١٢٩٢ هـ ( اكتوبر سنة ١٨٧٥ م ) حدث ما يمكن اعتباره مبدأ التدخل الأوربى فى الشؤون المصرية . وذلك ان « الخديوى اسماعيل باشا » طلب الى الحكومة الانجليزية أن تبعث الى مصر موظفاً انجليزياً ذا إلمام بالشؤون المالية ليساعده على اصلاح مالية مصر . فاختارت انجلترة لذلك « المستر كيف » . فحضر وفحص الأمور مستعيناً فى عمله بما أمكنهُ الوقوف عليه من المعلومات ، ثم قدم تقريراً بما يلزم عمله لتسوية الديون المصرية . ولكن الخديوى لم يعمل باقتراحـه ، فلم يكن لبعثه الى مصر أثر يذكر*

ابتداء التدخل الاوربى

وفى ١١ ربيع الأول سنة ١٢٩٣ هـ ( ١٨ ابريل سنة ١٨٧٦ م ) توقف الخديوى عن صرف قيمة سندات الخزانة المصرية ، فكان ذلك اليوم المبدأ الحقيقى للمشكلة المالية المصرية ولتدخل أوربا فى شؤون مصر

---

* يقدر مجموع الديون المصرية فى ذلك الحين من سائرة وغير سائرة بنحو ٩٠٬٠٠٠٬٠٠٠ جنيه . فلو راعينا ان مجموع دخل الحكومة المصرية زاد على نفقاتها فى مجموع المدة التى حكمها « اسماعيل باشا » بمبلغ ٤٠٬٠٠٠٬٠٠٠ جنيه وان نصيب مصر من أسهم القناة بيع بمبلغ ٤٬٠٠٠٬٠٠٠ جنيه كان مجموع ما صرفه اسماعيل باشا وسعيد باشا فى غير شؤون الادارة العادية يساوى ١٣٤٬٠٠٠٬٠٠٠ جنيه . من ذلك ١٦٬٠٠٠٬٠٠٠ جنيه انفقت على قناة السويس و ٤٠٬٠٠٠٬٠٠٠ جنيه على السكك الحديدية واصلاح الاراضى وغير ذلك من الاشغال العامة . ونحو ٥٢٬٠٠٠٬٠٠٠ جنيه فى تسوية الديون واستبدالها ودفع ارباحها وأقساطها . فيكون الباقى حينئذ نحو ٢٥٬٠٠٠٬٠٠٠ جنيه لا تعرف الأوجه التى صرفت فيها

صندوق الدين

عند ذلك تذعرت دول أوربا ، فاهتم الخديوى بتأمينها على أموال رعاياها ، وسعى الى ذلك بكل الوسائل، الى أن أصدر أمراً فى يوم ٨ ربيع الثانى سنة ١٢٩٣هـ ( ٢ مايو سنة ١٨٧٦ م ) بانشاء لجنة يقال لها «صندوق الدين» تُشكل من مندوبى الدول ويُعهد اليها ادارة شؤون الدين المصرى وتدبير ما يجب لانتظام تسديده . ثم أصدر أمراً آخر فى ٧ مايو بتوحيد جميع الديون المصرية من سائرة وغير سائرة وجعلها ديناً واحداً قدره ٩١,٠٠٠,٠٠٠ جنيه وربحه ٧ ٪ وينتهى تسديده فى ٦٥ سنة

توحيد الدين مايو ١٨٧٦

ولم تقبل الحكومة الانجليزية إرسال مندوب يمثلها فى صندوق الدين اسوة بباقى الدول ، ولكن أُضيف الى لجنة الصندوق فيما بعد عضو انجليزى بدون مؤاخذة انجلترة وهو « السير إفلين بيرنج » الذى منح فيما بعد لقب « لورد » وصار يعرف « باللورد كرومر » . وسنعود الى ذكره فى هذا الكتاب

عدم موافقة انجلترة

على أن توحيد الديون المصرية على هذا الوجه لم يرض انجلترة ، لأن معظم الدائنين الانجليز كانوا حملة سندات مضمونة بموارد ثابتة ، وغير الانجليز كان معظم أموالهم ديوناً سائرة . فلم يرَ الانجليز من الانصاف أن يعامل الفريقان بطريقة واحدة . لذلك أرسلت كل من انجلترة وفرنسا مندوباً للنظر فى تعديل هذا الاتفاق ، فاختارت انجلترة « المستر غوشِن » ( اللورد غوشن فيما بعد ) واختارت فرنسا « الموسيو جوبَر » ، ففحصا الحالة المالية وقدما اقتراحاً بما يلزم ، وأصدر الخديوى بِهِ أمراً عالياً فى غرة ذى القعدة سنة ١٢٩٤ هـ ( ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ م ) حَذَف به من الدين الموحد ما يأتى : —

بعث غوشن وجوبر

انقاص الدين الموحد نوفمبر ٧٦

( ا ) ٤,٢٩٣,٠٠٠ جنيه قيمة الديون التى اقترضت فى ١٨٦٤ و ١٨٦٥ و ١٨٦٧ م ، أى قبل اشتداد الأزمة المالية . واعتُبر ذلك الدين نوعاً قائماً بذاته ، ويسدد من أقساط المقابلة

( ب ) ١٧,٠٠٠,٠٠٠ جنيه قيمة سندات جديدة أُطلق عليها اسم « الدين الممتاز » وجُعل سعرها ٥ ٪ وجعل الضامن لسدادها دخل السكك الحديدية وميناء

الاسكندرية* ترغيباً فى شرائها ، ليصرف ثمنها فى تسديد الديون السائرة

( ح ) ٨٬٨١٥٬٠٠٠ جنيه قيمة دين الدائرة السنية . واعتبر هذا الدين قائماً بذاته ويسدد من دخل تلك الدائرة

وبذلك نقص الدين الموحد الى ٥٩٬٠٠٠٬٠٠٠ جنيه وجعل سعره ٦ ٪ واتفق على أن يسدد ١ ٪ من أصله سنوياً

السعى فى الاصلاح

واقترح اللورد غشن على الخديوى عدة اصلاحات لتوطيد مركز الحالة المالية وتسهيل السير بانتظام فى دفع أرباح الدين وأقساطه

فشرع الخديوى فى انفاذ هذه الاقتراحات، وأدخل بحكومته عدة موظفين أوربيين من أصحاب الكفاءة الكبيرة للقيام بذلك الاصلاح

ابتداء المراقبة الثنائية

من ذلك أنهُ وافق على تعيين مراقبين عموميين لحساب الحكومة : أحدهما نجليزى لمراقبة الدخل وهو « السير رِفَرْزولُسُنْ » ، والثانى فرنسى لمراقبة المصروفات، وهو « المسيو بلِنْيير »

على أن الخديوى لم يلبث أن رأى ذلك ينقص من نفوذه ؛ فلم يطلق للمراقبين كل الحرية فى العمل . فلم يكن لذلك الاصلاح الأثر المطلوب ، ولم توفق الحكومة الى أن تجمع قبل الميعاد المحدود لدفع أرباح الدين ما يكفى من المال لتسديدها ،

قلة نجاحها

فأُتبعت كل طريقة فى جمع الضرائب قبل ميعادها حتى تيسر جمع المال المطلوب ، فَسُلِّمَ لصندوق الدين فى آخر لحظة أى قبل الميعاد المحدود ببضع ساعات

دلت هذه الحالة السيئة على أن شؤون الحكومة لم تزل فى حاجة الى الاصلاح ، وأحست لجنة صندوق الدين ان اتفاق سنة ١٨٧٦ م بشأن تسديد الدين ربما

لجنة التحقيق

كانت شروطه شديدة . فطلبوا الى الخديوى أن يأمر بتشكيل لجنة تحقيق تفحص الشؤون المالية فحصاً شاملاً حتى تقف على أسباب ذلك العجز فى مورد الحكومة . فلم يرضَ الخديوى فى أول الأمر بمنح اللجنة كل هــذه الحقوق الكبيرة ، ورأى

* وجعلت هاتان المصلحتان تحت مراقبة لجنة من مندوبى الدول

أن تكتفى اللجنة المراد انشاؤها باعادة النظر فى المقدار الحقيقى للدخل. ولكن الدول تمسكت بطلب لجنة صندوق الدين، وفى غرة ربيع الثانى سنة ١٢٩٥هـ ( ٤ ابريل ١٨٧٨ م ) أصدر اسماعيل باشا أمراً عاليًا بتشكيل لجنة للتحقيق* لها الحق المطلق فى اجراء كل ما تريد من التحريات والتحقيقات ، وعهدت رياسة اللجنة الى « المسيو ديلسبس » ، وجعل رياض باشا والسير رفرز ولسن وكيلين لها ، وجعل مندوبو الدين أعضاء فيها

شروع اللجنة فى العمل

فشرعت اللجنة فى فحص كل شىء يختص بالمالية المصرية: من النظر فى الأنظمة الادارية والضرائب وأنواع الديون المطالب بها وأصلها وغير ذلك. ولم يكد الأعضاء يشرعون فى انجاز مهمتهم حتى اعترضهم حادث وقّف العمل فترة ، وذلك أنهُ لما كان قد خول لهم حق الاستفسار من أى موظف فى الحكومة عن أى شىء استدعوا « شريف باشا » ( ناظر الحقانية وأعظم الوزراء إذ ذاك) للحضور أمامهم للاجابة عن استعلاماتهم، فلم يرضَ « شريف باشا » بالحضور أمامهم محافظة على كرامته، وقال انه مستعد للاجابة عن أسئلة اللجنة كتابةً ، فأصرّت اللجنة على استحضاره، فاضطر الى الاستعفاء. وبعد مضى هـذه الحادثة التى اعترضت السير فى التحقيق عادت اللجنة الى مباحثها وانكب أعضاؤها على العمل يوميًا حتى وقفوا على مواضع الخلل فى المالية ؛ فكشفوا بذلك عيوبًا خطيرة مما لم يكن على بال، من أهمها عدم التفريق بين المطلوب من الحكومة والمطلوب من الأسرة الخديوية ، والاسراف فى شراء لوازم الجيش وغيره لمجرد الرغبة فى اقتناء كل شىء جديد أو اختراع ظريف يعرضه الأوربيون على الخديوى ويبالغون له فى محاسنه ، وزيادة أجور الأعمال التى يقوم بها المتعهدون الأوربيون ونحوهم زيادة فاحشة عما تستحق (من ذلك أن نفقات اصلاح ميناء الاسكندرية بلغت ٢,٥٠٠,٠٠٠ جنيه مع أنهـا لم تعادل اكثر من ١,٥٠٠,٠٠٠ جنيه ) ، واقتراض الأموال بأرباح باهظة لم يسمع بمثلها

استقالة شريف باشا

مباحث اللجنة

* كانت تسمى ديوان التحقيق



شريف باشا

بحوث لجنة التحقيق

ولاحظت اللجنة أن الحكومة فضلاً عن اثقالها كاهل الأهلين بجميع أنواع الضرائب قد جبت منهم مبلغين بشروط لا يمكن الاستمرار على العمل بها : أولهما ما أُخِذ منهم بمقتضى قانون « المقابلة »، وثانيهما دين « الرزنامة »، فعولت على مراعاة ذلك عند تسوية الحالة الماليـة . ورأت أيضاً أن الدائنين لم ينحصروا فى أصحاب المصارف والمقاولين ، بل منهم طائفة كبيرة من أصحاب المهنات الحقيرة كالحمارين والجمالين والحلاقين ، وان كثيراً منهم لم تكن بأيديهم من الحجج القوية ما يكفى لتبرير دفع مطالبهم .

وقفت اللجنه على كل ذلك ، وقررت الحيْطة العامة التى يجب اتخاذها لتلافى هذا

مقترحات اللجنة

المرض ، ولكنها رأت قبل التعرض للتفصيلات الواجب اتباعها فى حل المشكلة المالية أن تطلب الى الخديوى اصلاحات لا يتسنى بدونها السير بمقتضى اقتراحاتها . فطلبت من سموه أمرين : الأول ان ينزل عن جميع أملاكه للحكومة ، ويُجمل له نظير ذلك راتب سنوى بفى بحاجاته اذا راعى جانب الاعتدال ، والثانى أن لا يستقل بادارة شؤون البلاد ، بأن يُشرك معهُ وزراء مؤاخذين على أعمالهم ، حتى لا يتم عمل إلاّ بعد مراعاة مصلحة البلاد

تشكيل وزارة مؤاخذة

وأرسلت اللجنة الى سموه تقريراً بذلك فى أوائل شعبان سنة ١٢٩٥ هـ (أغسطس سنة ١٨٧٨ م) وبعد أن نظر فى مطالبهم عوّل على اجابتها ، وأمر بتشكيل وزارة مستقلة برياسة نوبار باشا بتاريخ ٢٩ شعبان سنة ١٢٩٥هـ (٢٣ اغسطس ١٨٧٨م) وأدخل فى عدادها السير رفرز ولسن والمسيو بلنيير ، فصار للأوربيين وزيران فى الحكومة بعد ان كان لهم مراقبان محدودا النفوذ ، وفى ١٩ شوال (١ اكتوبر) أصدر أمراً عالياً بالنزول عن معظم أملاك الأسرة الخديوية للحكومة ، وجُعلت هذه الأملاك

النزول عن الدومين

« الدومين » ضمانة لدين جديد قدره ٨،٥٠٠،٠٠٠ جنيه للاستعانة به فى عدة شؤون، منها تسديد الديون الثابتة (ذات السنوات) . وهذا الدين هو الذى عرف بدين «روتشيلد» نسبة الى أصحاب البيت الذين أقرضوه الحكومة*. وقد تمّ تسديده فى سنة ١٣٣١ هـ (١٩١٣ م) فألغيت إذ ذاك مصلحة الدومين التى كانت تدير الأملاك الضامنة لهذا الدين ، ودخلت هذه الأملاك من ذلك الحين ضمن الأملاك الأميرية العادية

دين روتشيلد

صعوبة مهمة اللجنة

واستمرت اللجنة فى فحص الشؤون المالية وادخال الاصلاحات الجديدة تمهيداً لتسوية الدين بطريقة نهائية . وكانت بالطبع تتبع فيما يختص بدفع أرباح الدين وأقساطه النظام الذى سُن بموافقة صندوق الدين فى سنة ١٨٧٦ م (نتيجة بعث غوشن) ، ريثما تفرغ من وضع نظامها الجديد . ولا يخفى أن ذلك النظام لم يكن بحيث

* بيت روتشيلد من اكبر البيوت المالية بانجلترة

تقوى موارد البلاد على القيام بشروطه ، فعانى الوزراء مصاعب جمة فى جمع الأموال اللازمة ، ولم يعاونهم الخديوى بنفوذه الأدبى . فظن الأوربيون انهُ يعرقل مساعى الاصلاح الذى يريدونه لما فيهِ من سلبهِ بعض نفوذه ، وساعدهم على هذا الاعتقاد أن ثار الجند لعدم قيام الوزارة الجديدة بدفع ما تأخر لهم من الرواتب ، فتجمهروا أمام وزارة الماليةِ وقبضوا على « نوبار باشا » و « السير رفرز ولسن » وأهانوهما ، ولم ينصرفوا الاّ بعد أن حضر الخديوى وأمرهم بالانصراف فانصرفوا سريعاً . فكان ذلك سبباً فى الظن بانهم ثاروا بايعاز منهُ

ثوران الجند

وعند ذلك أعلن الخديوى أعضاء اللجنة انهُ لا يعدّ نفسه مؤاخذاً عما يحدث من الخلل أو الاضطراب بالبلاد ، ما لم يكن له نصيب فعَّال فى حكمها . وبعد أن تداول معهم فى هذا الشأن أُقيل «نوبار باشا» من رياسة الوزراء ، فخافت الدول أن يعود الخديوى الى الاستبداد بالسلطة ، ففاوضوه فى الأمر . ثم أقرّ الخديوى على أن يعهد برياسة الوزارة الجديدة لولى العهد ابنه « الامير توفيق» بشرط أن لا يتدخل هو فى قرارات مجلس النظار ، وأن يكون للناظرَين الأوربيين جميع الحقوق المخولة لباقى النظار

اقالة نوبار وتنصيب الامير توفيق

فشرعت الوزارة الجديدة فى العمل بالاتفاق مع أعضاء صندوق الدين ولجنة التحقيق حسب العادة ، وكانت أرباح بعض الدين تستحق الدفع فى ٨ ربيع الثانى سنة ١٢٩٦ هـ ( أول ابريل سنة ١٨٧٩ م ) ، فلم يتوافر لدى صندوق الدين المبلغ اللازم لدفعها فى حينها ، فقرر أعضاؤه بالاتفاق مع لجنة التحقيق والوزارة تأجيل الدفع الى أول مايو . فأظهر الخديوى استياءه من ذلك ، وقال انهُ عار على مصر ، وعدّه دليلاً على أن كل هذا التدخل الأوربى لم يأت بالنتيجة المطلوبة وكان تقرير لجنة التحقيق قد قارب الانتهاء وعُرف جلّ ما فيهِ . وعلم الخديوى أن التقرير سيعلِن رسمياً إفلاس الحكومة المصرية ، فانتهز فرصة حدوث كل ذلك ، وعمل على استرجاع نفوذه وخلع الوزارة التى بها عضوان من الفرنج وكل أعمالها باشارتهما

تقرير تأجيل الدفع

وقام هو باعداد مشروع لتسوية الأمور المالية مخالف لمشروع اللجنة ولا يقتضى

عدم رضاء الخديوى

خلع الوزارة التي بها أوربيان

اعلان الافلاس . وكان قد استمال الأعيان والعلماء ، فقدموا اليه معروضاً أظهروا فيه بالنيابة عن الأمة استياءهم من الحالة الحاضرة ومن عزم الفرنج على اعلان افلاس الحكومة ، وطلبوا اليه تشكيل وزارة مصرية محضة تكون مؤاخذة أمام مجلس الأعيان فعزل الخديوى الوزارة وشكل غيرها برياسة « شريف باشا » اختار جميع أعضائها من المصريين ، وعوّل أيضاً على رفض المشروع الذى ستقدمه لجنة التحقيق لحل المسائل المالية ، وعزم على العمل بموجب المشروع الذى حضّره هو بمعونة أتباعه

التأهب لرفض اقتراح اللجنة

فأثارت كل هذه الأمور غضب الدول الأوربية ، وعلموا أنه لا يمكن انجاز أى عمل لتسوية المالية المصرية وتثبيت حقوق رعاياها ، ما دام اسماعيل باشا خديوياً على مصر ، إذ ظهر أنه يأبى الاّ أن يكون هو صاحب السلطة فى البلاد ، وأن يتصرف فى شؤونها ومالها كيف شاء ، وبعد أن تفاوضت فيما بينها قررت عزله من خديوية مصر ، فعرضت عليه أن يستقيل ، فلم يقبل وأحال الأمر على السلطان . فما زالت الدول تستعمل النفوذ والتهديد لدى الباب العالى حتى استصدرت منه أمراً بعزل اسماعيل باشا ، فجاء منه الى مصر نبأ برقى بذلك فى ٦ رجب سنة ١٢٩٦ هـ ( ٢٦ يونيه سنة ١٨٧٩ م ) ، فلم يبدِ اسماعيل باشا مقاومة أخرى ، وعهد بأمر البلاد الى ابنه « توفيق باشا » ( وكان قد ورد اليه نبأ برقى آخر بتوليته على مصر )

عزل اسماعيل باشا

وخرج اسماعيل باشا من مصر فى ١٠ رجب (٣٠ يونيه) وأبحر من الاسكندرية على سفينة « المحروسة » الى ايطاليا

# الفصل الخامس

## اوائل حكم توفيق باشا

١٢٩٦ - ١٢٩٨ هـ ( ١٨٧٩ - ١٨٨١ م )

المصاعب عند تولية توفيق

تولى توفيق باشا أريكة مصر (١٩ شعبان سنة ١٢٩٦هـ : ٨ أغسطس ١٨٧٩م) والمصاعب تحيط بالبلاد من كل جانب : فالخزانة خالية والجيش معتل النظام، والأهلون ساخطون - الفقراء منهم لما نالهم من الجور، والأغنياء مخافة أن يفقدوا ما نالوه من



توفيق باشا

المزايا فى عهد اسماعيل - والأوربيون ناقمون ، لأن أموالهم لم تدفع اليهم ولأن الاضطرابات السائدة جعلت التجارة فى كساد فقلت بذلك أرباحهم . ولم يكن لتوفيق باشا رحمه الله من الدهاء والعزم ما يجعله خير مكافح لكل هذه الخطوب ، الا أنهُ كان محباً للبلاد شديد الميل الى ما فيهِ راحتها، فلم يدخر وسعاً فى العمل على إسعادها وانقاذها مما حل بها من العناء بإدخال كل ما يمكنه من الاصلاح

٤ أمور للفصل فيها

وقبل أن يسير هذا الاصلاح فى مجراه اقتضت الأحوال الفصل فى أربعة أمور هامة : أولها تحديد مقدار نفوذ الخديوى فى حكم البلاد ، والثانى تقرير العلاقة بين الخديوى والدولة العلية ، والثالث تعيين نوع الإشراف الذى يكون للأوربيين على شؤون مصر، والرابع الفصل فى المسائل المالية بطريقة تكفل الاتفاق بين الحكومة المصرية ودائنيها الأوربيين

١ . الخديوى والوزارة

ففى المسألة الأولى عوّل الخديوى على اشراك وزرائه معه فى حكم البلاد وعدم الاستئثار بالسلطة ، فعهد الى «شريف باشا» بتشكيل وزارة . فقدّم اليهِ هذا مشروعاً يقتضى جعل الحكومة نيابية محضة ، فلم يوافق عليه الخديوى لاعتقاده أن البلاد لاتستطيع أن تخطو دفعة واحدة من حكومة استبدادية مطلقة الى حكومة نيابية محضة، فاضطر شريف باشا الى الاستقالة (٢٩ شعبان سنة ١٢٩٦ﻫ : ١٨ أغسطس سنة ١٨٧٩ م ) . فعزم الخديوى على تروّس مجلس الوزراء بنفسه ، الا أن هذه الطريقة لم تدم طويلاً ، وفى ٤ شوال (٢٢ سبتمبر) استدعى «رياض باشا» وكلفه

وزارة رياض باشا

تشكيل وزارة. وحفظ الخديوى لنفسه الحق فى تروّس مجلس الوزراء متى رأى حاجة الى ذلك ، الا أنه جعل للوزراء نفوذاً حقيقياً فى ادارة شؤون البلاد. فحُلّت بذلك المسألة حلاً مرضيًا وشرعت وزارة رياض باشا فى مباشرة أعمالها على أساس ثابت

٢ . مصر والدولة

أما مسألة علاقة مصر بالدولة فكان الباب العالى يريد بمناسبة عزل اسماعيل باشا أن يزيد من سيادة الدولة على مصر ويلغى الامتيازات التى منحها لاسماعيل . وكان عند اصدار الأمر بعزله أصدر معه أمراً سلطانيًا بالغاء تقليد سنة ١٢٩٠ﻫ (١٨٧٣م).



رياض باشا

ولما كانت تولية الخديوى الجديد تقتضى اصدار تقليد آخر عوَّل الباب العالى على أن يكون هذا سالبًا للامتيازات الأولى ، فعارضت دولتا فرنسا وانجلترة فى الأمر وطلبتا الاطلاع على صورة التقليد قبل اصداره

ميزات تقليد سنة ١٨٧٣

وقد علمنا فيما سبق أن تقليد سنة ١٨٧٣ م يتضمن الميزات الأربع الآتية : — ( ١ ) جعل الوراثة لأكبر أولاد الخديوى بدلاً من جعلها لأكبر فرد فى الأسرة (٢) منح مصر الحق فى عقد معاهدات تجارية مع الدول (٣) تخويل الخديوى حق اقتراض المال من الدول الأجنبية ( ٤ ) تخويله حق زيادة الجيش الى أى عدد أراد

فعارضت فرنسا فى الغاء هذه الامتيازات كل المعارضة ، لأنها كانت تعمل فى ذلك الحين على تقويض أملاك الدولة ونزعها من يدها ، فلا ترضى بأن يرجع اليها

فى مصر نفوذ كان قد ضاع منها . أما انجلترة فلم يكن من سياستها إذ ذاك العمل على اضعاف الدولة، فلم تعارض فيما يريده الباب العالى الآ فى مسألة الوراثة ، فانها رأت بقاءها فى اكبر أولاد الخديوى أضمن للسكينة فى مصر : ولكن فرنسا تمسكت كل التمسك بأمر آخر وهو عدم الغاء الامتياز الخاص بعقد المعاهدات التجارية . وبعد أخذ وردّ اذعن الباب العالى لهذين الطلبين واكتفى فى التقليد الجديد بتعديل ما جاء فى تقليد سنة ١٨٧٣ م بشأن الجيش واقتراض الديون من الدول الأجنبية، فاشترط ان لا يزيد الخديوى الجيش على ١٨,٠٠٠ فى وقت السلم ( وفى وقت الحرب يكون الأمر للدولة ) ، وأن لا يعقد قروضاً جديدة « الآّ بالاتفاق مع الدائنين الحاضرين أو وكلائهم ويكون ذلك منحصراً فى تسوية أحوال المالية الحاضرة »

ابقاء ميزتين

أما المسألة الثالثة وهى تعيين نوع اشراف الأوربيين على شؤون الحكومة فقد تم الاتفاق بين الخديوى وبين الدول الأوربية على أن تُجدد « المراقبة الثنائية » التى كانت فى عهد اسماعيل ، بشرط أن تقتصر أعمال المراقبين على الفحص والتحقيق ، وأن لا تتعداها الى التدخل فى شؤون الادارة . فعُين « السير إفلين بيرنج » مراقباً من قبل انجلترة ، و « المسيو دى بلنيير » مراقباً من قبل فرنسا ( ذى الحجة سنة ١٢٩٦ هـ : نوفمبر سنة ١٨٧٩ م ) ، واشترطت حكومتاهما أن لا يُعزل أحدهما من منصبهِ الآَّ بعد موافقة دولته . فتسلم المراقبان أعمالهما ، ولم يقسما اختصاصهما بل عملا سويًا بالتكافل ، وعوّلا فى مهمتهما على السير مع رجال الحكومة المصرية بالحزم والمجاملة كى يكسبا ثقتها ، فيتيسر لهما اجراء ما يلزم من الاصلاح فى مالية البلاد وشؤونها بدون مقاومة منها . وبالفعل حازا ثقة الحكومة فأُذن لهما بحضور جلسات مجلس النظار . وأعدًّا مشروعات كثيرة نافعة كان لها الأثر الأكبر فى تسوية الديون المصرية تسوية نهائية، وفى كثير من الاصلاح الذى تم بالبلاد عقب الاحتلال البرطانى

٣ . الاشراف الاوربى

المراقبة الثنائية

وأما المسألة الأخيرة وهى الفصل بين الحكومة المصرية ودائنيها فتقرر بشأنها تشكيل لجنة شبيهة بلجنة التحقيق التى سبق ذكرها يقال لها « لجنة التصفية » ، الغرض

٤ . الدين المصرى

منها عمل حل نهائى للمشاكل التى بين الحكومة ودائنيها، بحيث لايُغبن أحد الطرفين أكثر من الآخر. فشكلت اللجنة من أعضاء ممثلين للدول الأوربية العظمى، وفيهم أعضاء لجنة صندوق الدين، برياسة « السير رِفرْز ولسن »، واتفقت الدول على أن ترضى بما تقرره اللجنة فى هذا الشأن. ولم يكن المراقبان من بين أعضاء هذه اللجنة، بل بقيا فى جانب الحكومة ليدفعا عنها من الغبن ما عسى أن يطمع فيه أعضاء اللجنة

لجنة التصفية

وفى أثناء اشتغال اللجنة بالفحص والمناقشة فى أمر تصفية الدين انصرف المراقبان الى عمل كل اصلاح فيه التسهيل لسير أعمال الحكومة فى المستقبل على أساس متين وقاما من تلقاء نفسهما بتحضير مشروع لتصفية الديون رجاء أن تتبعهُ اللجنة ان لم توفّق هى الى عمل مشروع من عندها ( لوقوع الخلاف يومئذٍ بين بعض أعضائها ). وأهم ما جاء فى هذا المشروع أن ينقص ربح الدين الموحّد من ٧٪ الى ٤٪، وأن يصرف النظر عن جميع الأرباح المتأخرة التى لم تدفع فى الماضى. ومن الاصلاحات التى قام بها المراقبان أنهما سهرا على العمل بما اقترحتهُ لجنة التحقيق من الاصلاح: فألغى قانون المقابلة نهائياً، وأنقص الفرق بين الأراضى العشرية والخراجية بزيادة ضريبة اضافية على الأراضى العشرية قدرها ١٥٠,٠٠٠ جنيه، وألغى معظم الضرائب الدنيئة مثل العوائد الشخصية ورسوم القبانة والصرافة ورسوم الأرضية فى أسواق الريف. ومن أهم هذا الاصلاح تعيين مواعيد محدودة لجمع ضريبة الأراضى بحيث تدفع الأقساط فى أوقات تناسب المزارعين. ولا يخفى ما كان يلاقيه هؤلاء من قبل من جراء مطالبتهم بها فى غير موعد وبدون انذار

مشروع المراقبين للتصفية

اصلاحات المراقبين

وأما مسألة تصفية الدين فلم يقدّم أعضاء اللجنة عنها تقريراً، وانما تم الاتفاق على حل للمسألة (ربما استُمد أكثره من اقتراحات المراقبين)، وصدر بذلك أمر عال فى ٨ شعبان سنة ١٢٩٧هـ (١٧ يوليه سنة ١٨٨٠ م) يعرف « بقانون التصفية ». ويلخص فيما يأتى: —

الموافقة على المشروع

قانون التصفية

( ١ ) يخفض ربح الدين الموحد الى ٤ ٪ ويكون الضمان لذلك الدين دخل المكوس (الجمارك) بما فيها رسوم الدخان، ودخل مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة، وتُدفع هذه الأموال الى صندوق الدين مباشرة

( ٢ ) يدخل فى الدين الموحد الباقى من الديون القصيرة الأجل التى اقترضت فى سنة ١٨٦٤ و ١٨٦٥ و ١٨٦٧ م بنقص ٢٠ ٪ من قيمتها

( ٣ ) يُستصدر قرض ممتاز جديد بمبلغ ٨٫٧٤٣٫٨٠٠ جنيه لدفع الديون السائرة التى لم تسدد بعد

( ٤ ) تدير « الدائرة السنية » ادارة تشرف عليها هيئة من مندوبى الدول ، ويكون ربح القرض المستصدر عليها ٤ ٪ حتماً و ٥ ٪ اذا كفت غلة أراضى الدائرة لذلك ( لم تكف الغلة قط لدفع ٥ ٪ ).

( ٥ ) تدفع الديون السائرة جزئياً أو بالكامل ، و بالنقد أو بسندات مالية من السندات الممتازة ، حسب أهمية المستندات التى بأيدى أصحاب هذه الديون

( ٦ ) يصرف مبلغ ١٥٠٫٠٠٠ جنيه سنوياً لمدة ٥٠ سنة للذين دفعوا أموال « المقابلة » ، اذ أن الضرائب المفروضة على أرضهم لن تخفض كما كانوا ينتظرون

( ٧ ) يقسم دخل الحكومة الى قسمين : قسم خاص بنفقات ادارة البلاد لا يزيد بحال من الأحوال على ٤٫٥٢٠٫٠٠٠ جنيه ، وقسم لسد أرباح الدين وأقساطه وهو الباقى من الدخل البالغ فى تلك السنة ٨٫٤١٢٫٠٠٠ جنيه )

حل المسألة المالية نهائياً

هذه هى الأنظمة النهائية التى حُلّت بهـا مسألة المالية المصرية وأقرتها الدول . ويلاحظ أنهُ بمقتضاها نقص مقدار الدين المصرى وأرباحه عما كان عليه بمقتضى الأنظمة السالفة

أما بيان أجزاء الدين عند صدور قانون التصفية فيمكن تلخيصه فيما يأتى :

الدين وقت صدور قانون التصفية

| الدين الموحد | الدين الممتاز | دين الدائرة السنية | دين الدومين (روتشيلد) | الجملة | جملة الارباح سنويا |
|---|---|---|---|---|---|
| بسعر ٤ ٪ | بسعر ٥ ٪ | بسعر ٤ ٪ | بسعر ٥ ٪ | | |
| ٥٧,٧٧٦,٣٤٠ | ٢٢,٥٨٧,٨٠٠ | ٩,٥١٢,٩٠٠ | ٨,٤٩٩,٦٢٠ | ٩٨,٢٧٦,٦٦٠ | ٣,٩٧٢,٣٨٧ |

الاصلاحات الداخلية

وبعد الفصل فى مسألة الدين تفرغت المراقبة الثنائية والوزارة المصرية لإدخال كثير من الاصلاح . وكان من أهم ذلك أن شُكلت لجنة علمية للنظر فى أمر التعليم برياسة على ابراهيم باشا ناظر المعارف فى ٧ جمادى سنة ١٢٩٧هـ (٢٧ مايو ١٨٨٠م) فاجتمعت مراراً وعدّلت مناهج التعليم ووسعت نطاقه فى البلاد . ثم قدمت تقريراً بما تراه من الاصلاح ، فأقرّتهُ الحكومة وأبلغت ميزانية المعارف الى ضعفى ما كانت عليه . واهتمت الحكومة أيضاً بطرق الرى وانشاء الترع والقناطر والجسور وغير ذلك من أسباب زيادة الثروة . وبالاختصار دخلت البلاد فى طور اصلاح جديد كان يُرجى منه خير كبير لولا أن داهمتها تلك الحوادث المشئومة المعروفة بالثورة العرابية

## الفصل الثامن

## الحوادث العرابية

### ١٢٩٨ - ١٢٩٩ هـ : ( ١٨٨١ - ١٨٨٢ م )

تذمر الضباط

عند ما كانت الاصلاحات التى ذكرناها سائرة فى طريق تقدم البلاد كان روح الاستياء يتفشى فى الجيش يوماً بعد يوم . ذلك لأن معظم الترقى بين ضباطه كان قاصراً على الأتراك منهم والشراكسة ، وقلّما وُجد وطنى متقلداً احد الرتب والألقاب السامية . وكان الضباط المصريون يتوقعون أن ينال الجيش شيء من الاصلاح العام الذى دخل البلاد فلم يحظوا بأمنيتهم ، فحقدوا على الحكومة . وازداد

سبب سخطهم

سخطهم حينما أصدر « عثمان رفقى باشا » الشركسى الأصل ناظر الحربية قانون القرعة القاضى بمنع الترقى من « تحت السلاح » ، إذ جُعلت فيه مدة الخدمة العسكرية فى الجيش العامل أربع سنوات فقط ، يذهب الجندى بعدها الى بلده و يبقى « رديفاً » خمس سنوات و « احتياطياً » ست سنوات . والمدة الأولى غير كافية للحصول على معلومات عسكرية تؤهل الجند للترقى

اتفاقهم على ارسال معروض

عند ذلك تذمر بعض الضباط المصريين بزعامة « على فهمى » و « احمد عرابى » و « عبد العال حلمى » من أمراء ( الآلايات ) ، وقرروا الاحتجاج على ذلك بارسال معروض الى رياض باشا رئيس النظار يطلبون فيه : — أولاً عزل « رفقى باشا » من وزارة الحربية ، وثانياً اجراء تحقيق فى كفاءة من فازوا بالترقى حديثاً بدون استحقاق . وكان المعروض شديد اللهجة ، فأدى الى سلوك الحكومة مسلكاً جعل هذه الحادثة فاتحة لغيرها من الحوادث التى سُميت بالثورة العرابية .

منزلة عرابى وسبب ظهوره

ولم يكن احمد عرابى المحرك الأول لهذه الثورة ، وانما كان المحرك لها « على فهمى بك » لأنه أمير ( الآلاى ) المعهود اليه حراسة القصر الخديوى ، وكان قد أوقع به رفقى باشا عند الخديوى لأمر فى نفسه ، فحقد « على فهمى » عليه ذلك وعمل على النكاية به . أما اطلاق لفظ « عرابيــة » على هذه الحوادث فلأن احمد عرابى هو الذى بعد انضمامه الى أصحاب الحركة الأولين ظهر عليهم حتى صار هو المحرك لكل شىء فيما بعد . وسبب ظهوره على غيره أنه كان قبل الانضمام الى الجيش يطلب العلم بالأزهر الشريف ، فكانت له مقدرة متوسطة فى الخطابة لم تكن عند غيره من الضباط ، فضلاً عن أن انتماءه للبيت العلوى الشريف يرشحه لأكبر زعامة اسلامية ، فأصبح بكل هذا صاحب المقام الأكبر فى الثورة . واعتقد الناس فى اخلاصه ، لأنهم لم يروا له غرضاً خاصاً مما كان يُظن فى غيره من أصحاب هذه الحركة

تقديم المعروض

أما المعروض الآنف الذكر فقدمه الى رياض باشا أحمد عرابى وعلى فهمى بأنفسهما ( ١٣ صفر سنة ١٢٩٨ هـ : ١٥ يناير ١٨٨١ م ) . فألح عليهما أن يسترجعاه ، وهو

رياض باشا يرجوهم استرجاعه

فى نظير ذلك يبذل غاية وسعه فى تلبية مطالبهما . فلما لم يذعن الضابطان لنصحه ، وسمع الخديوى بالأمر ، استشاط غضباً ، وأمر بتأديب هؤلاء العصاة وقمع روح الفتنة فى الجيش . وفى يوم ٢٨ صفر ( ٣٠ يناير ) عقد مجلس النظار برياسة الخديوى ( ولم يصرَّح للمراقبين الأوربيين بحضور الجلسة ) ، وقرر القبض أولاً على الضابطين المشار اليهما ومحاكمتهما أمام مجلس حربى ، ثم النظر فى مظالمهما

عزم الخديوى على محاكمتهم

وفى غرة ربيع الأول ( فبراير ) استُدعى الضابطان الى وزارة الحربية دون أن يُخبَرا بأن ذلك لمحاكمتهما . ولكن قرار مجلس النظار قد بلغهما سراً ، فاتفقا مع ضباط فرقهما ورجالهما على أن هؤلاء ان وجدوا ان رئيسيهما لم يعودا بعد ساعتين ذهبوا لانقاذهما بالقوة . ولما بلغ الضابطان نظارة الحربية ( قصر النيل ) قُبض عليهما وأحيلا فى الحال على مجلس عسكرى للمحاكمة . فبينا هذا المجلس مجتمع اذ هجم ضباط ( الألايين ) ورجالها وأخرجوا رئيسيهما من حجرة اجتماع المجلس بعد أن عبثوا بأثاثها وأهانوا ناظر الحربية ، ثم سار احمد عرابى وعلى فهمى بجندهما الى قصر عابدين وطلبا الى الخديوى عزل ناظر الحربية . وبعد أن نظر الخديوى فى حرج الأمر لم يرَ بداً من اجابة طلبهما ، فصرف عثمان رفقى باشا بمحمود باشا سامى البارودى . ففرح الثوَّار ، وطلب فهمى وعرابى بك العفو من الخديوى بعد أن أعربا له عن رغبتهما فى الولاء لسموه

انقاذهم اثناء المحاكمة

تنصيب البارودى على الحربية

هذه هى ثانى مرة ثار فيها رجال الجيش : ثاروا فى عهد اسماعيل فلم يصبهم أذى ، وعُزل نوبار باشا من رياسة الوزراء عقب ثورانهم ، وثاروا هذه المرة فغلبوا الوزارة والخديوى على أمرهم ، وفازوا فى الحال بعزل رفقى باشا موضوع كراهتهم وأصل تمرّدهم . فعلموا من ذلك أن لا شىء يقف فى سبيل مطالبهم ، وان الفوز فى ثباتهم وتمسكهم برأيهم

روح الفتنة فى الجيش

وبعد أن عزل الخديوى ناظر الحربية أمر بتشكيل لجنة للنظر فى مظالم رجال الجيش ورفع رواتب الضباط والجند المصريين ، وأعلن أنهم سيكونون فى مستوى

النظر فى مظالم الجيش

واحد مع غيرهم من الأتراك والجراكسة . وبالاختصار هدأت الأحوال قليلاً ، وكان يُظن أن الخطب انتهى عند هذا الحد

خوف رجال الجيش

على أن رجال الجيش لم يهدأ روعهم وعاشوا فى خوف من الخديوى ، خشية ان يكيد لهم كيداً ، عقاباً لهم على ثورانهم ، وكانوا يرون كل يوم من الشبهات ما زاد اضطرابهم ، خصوصاً ان ناظر الحربية الجديد « محمود سامى باشا » عُزل ونُصب مكانه « داود باشا » ابن أخى الخديوى . وفى مساء ١٣ شوال (٨ سبتمبر) ذهب الى بيت عرابى بك رجل غير معروف ، فلم يسمح له بالدخول . فراب عرابى بك أمره وذهب فى الحال ليقص ذلك على زملائه من الضباط ، وإذا بهم قد حدث لهم ذلك الأمر بعينه ! فأيقنوا أن هناك مكيدة لاغتيالهم

مظاهرة عابدين

وازداد اعتقادهم يقيناً عند ما أصبحوا فرأوا أن الأوامر صدرت (للآلاى) الثالث (من الرجالة) بالسفر الى الاسكندرية . فهاجوا وماجوا ، وسار عرابى بك بقسم من الجيش يبلغ ٢٫٥٠٠ رجل معهم ١٨ مدفعاً الى ميدان عابدين ، واصطفوا أمام قصر الخديوى فى عصر ١٥ شوال (٩ سبتمبر) يريدون مطالب جديدة

الخديوى يستشير اوكلند كلفن

فهال الخديوى الأمر وطلب «السير أوكْلَنْد كُلفِن» المراقب الانجليزى* ليستشيره فيما يجب عمله . فحضر هذا وسار مع الخديوى الى قصر عابدين ، ونصح له بالظهور بالثبات ، وأن لا ينسى أنه مليك البلاد ، وأن له هيبة تَصغُر أمامها كل شجاعة لعرابى ورجاله

عرابى يخاطب الخديوى

فنزل الخديوى الى الميدان ، فتقدم اليه عرابى بك ليعرض مطالبه ، وكان ممتطياً جواده وبيده حسامه . فناداه الخديوى أن « تَرَجَّل واغمد سيفك » . ففعل ذلك بالامتثال الواجب للملوك . ثم سأله الخديوى عما يقصد من عمله هذا ، فقال « يامولاى للأمة ثلاثة مطالب قد أتى الجيش الى هنا للحصول عليها بالنيابة عن الأمة ، ولن ننصرف حتى يحظى بها »

عند ذلك أشار « السير أوكلند كلفن » على الخديوى أن لا يناقش الجند فى

---

* وكان هذا قد نصب مكان السير افلن بيرنج الذى نقل الى منصب آخر بالهند

نصيحة اوكلند كلفن للجيش

هذه الأمور، حفظاً لكرامته، وأن يدخل القصر ويترك له أمر المفاوضة معهم فيما يريدون . فخاطب السير أوكلند كالفن الجيش، وشرح لهم حرج الحالة، ونصح لهم بالانصراف قبل أن يتفاقم الخطب . فتمسك الثائرون بمطالبهم وهى :

مطالب العرابيين

(١) عزل جميع النظار وتشكيل وزارة جديدة

(٢) تشكيل مجلس نيابى للأمة

(٣) زيادة عدد الجيش الى ١٨,٠٠٠

منح المطلب الاول

وبعد المداولة رضى الخديوى بعزل النظار مع إرجاء الفصل فى الطلبين الآخرين الى أن يؤخذ رأى الباب العالى

انصراف الجيش

فقبل عرابى ذلك : وانصرف الجيش داعياً للخديوى بطول البقاء . وطلب عرابى الى الخديوى أن يصفح عنه، فكان له ذلك

اتساع نفوذ عرابى

وكانت شوكة عرابى قد عظمت، ونفذت كلمته فى الجيش، ثم تعدته الى الكثير من العمد والأعيان والعلماء، بما ينشره بينهم من الأقوال الجاذبة من «انقاذ الوطن» وغير ذلك من الزخارف الباطلة التى كان لها أسوأ عاقبة فى البلاد . وسهّل انقياد بعض الأهلين له ما رأوه من تدخل الأجانب فى شؤون مصر، واجحافهم بحقوق الوطنيين عند اعداد قانون التصفية . ثم داخل « عرابياً » الغرورُ، فبالغ فى ادعاء ما ليس من حقه . من ذلك أنهُ أصدر فى ٩ سبتمبر منشوراً لقناصل الدول يطمئنهم فيه على رعايا دولهم ويخبرهم أنهُ المؤاخَذ على حفظ النظام . وهو حق غريب استباحه لنفسه، وكان الأجدر تركه لأمير البلاد أو لأحد وزرائه

منشور عرابى للقناصل

وزارة شريف باشا

ولما انقضت مظاهرة عابدين طلب الخديوى من شريف باشا أن يشكل وزارة جديدة، فتردد أولاً لعلمه انه سيكون ألعوبة فى يد الحزب العسكرى، اذ كانوا هم العاملين على اسقاط مَنْ قبله . ثم ألحَّ عليه الأعيان ورجال الجيش، فقبلها على شرط أن يتعهد رؤساء الحزب العسكرى بالامتثال للاوامر، فقبلوا ذلك، وشُكلت الوزارة فى ٢٠ شوال سنة ١٢٩٨ ﻫ ( ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ م )



احمد عرابى

ابعاد عرابى وعبد العال

ورأى شريف باشا تهدئةً للأفكار أن يُبعد رؤساء الحزب العسكرى عن العاصمة فأشار على عرابى بالذهاب مع آلايهِ الى راس الوادى، وعلى عبد العال بالذهاب مع آلايهِ الى دمياط، فامتثلا. وصادف غيابهما عن القاهرة حضور وفد من قبَل الباب العالى للنظر فيما سمعته الدولة من المشاكل الجارية فى مصر، فوجد ظاهر الأمور هادئًا فأعلم الدولة بذلك

تشكيل مجلس الشورى

وبعد سفر الوفد أصدر الخديوى أمراً فى ٢٦ المحرم سنة ١٢٩٩ﻫ (١٨ ديسمبر ١٨٨١ م) بتنصيب «محمد سلطان باشا» رئيساً لمجلس شورى النواب، فاجتمعت أعضاؤه وشُكلت منهم لجنة لمراجعة قانون المجلس. فأقرَّت اللجنة اكثر مواده، الاَّ ما تعلق منها بميزانية الحكومة، فان اللجنة رأت أن للمجلس الحق فى مراجعتها،

رفض مطالب الاعضاء

مع أن شريف باشا قد شرَّع فى القانون عدم جواز ذلك للمجلس ، عملاً برغبة المراقبين والدول الأوربية ، لأنهم كانوا يخشون تسرّب الاضطراب ثانيةً الى الشؤون المالية مما يؤدى الى نقض أحكام قانون التصفية

تمسكهم بمطلبهم

وكانت عُرى الاتفاق بين الأعيان ورجال الجيش قد وثقت ، ثم قوى جانب الجميع بثبوت قدم الحزب العسكرى وتنصيب عرابى باشا فى ربيع الأول سنة ١٢٩٩ ﻫ ( يناير ١٨٨٢ م ) وكيلاً لنظارة الحربية ارضاء لذلك الحزب . فتمسكت اللجنة برأيها ولم يرَ شريف باشا وسيلة الى اجابة طلبها لعلمه أن الدول لا تسمح بذلك مطلقاً

اغراض فرنسا

وكانت الحكومة الفرنسية منذ مظاهرة ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ م ترى وجوب بسط انجلترة وفرنسا شيئاً من الإشراف على الديار المصرية . فلما رأس الوزارة الفرنسية المسيو « غَمْبِتَّا » فى شهر ديسمبر عمل بكل قواه على تنفيذ هذه السياسة ، وعرض الفكرة على اللورد «غِرَنْفِل» وزير الخارجية البرطانية ، موضحاً له أن الحوادث الجارية بمصر تستدعى التدخل فى شؤون تلك البلاد محافظة على الأموال والمصالح الأوربية

تهيئها لانتهاز الفرصة

سياسة انجلترة

ولم يكن من سياسة برطانيا العظمى فى ذلك الحين مشاركة فرنسا فى بسط شىء من النفوذ على مصر ، ولكن دفعتها الرغبة فى ارضاء تلك الدولة ( لما بينهما من التحالف ) الى اظهار شىء من الموافقة على رأى المسيو غمبتا . على أن هذا الوزير طالما عرض عليه اللورد غرنفل أن يطلب من الباب العالى أن يتدخل هو فى أمر مصر ويحتلها بجنوده ان اقتضى الأمر ذلك ، فكان دائما يقابل ذلك بالرفض

اقتراح فرنسا على انجلترة

ثم وجد المسيو غمبتا من عزم مجلس شورى النواب المصرى على طلب فحص الميزانية فرصة للشروع فى انفاذ ما يرمى اليه . فعرض على اللورد غرنفل أن ترسل حكومتا انجلترة وفرنسا بالاشتراك مذكرة الى معتمديهما بمصر ليخبرا الخديوى « برغبة دولتيهما فى مساعدته ومساعدة حكومته للتغلب على المصاعب المتنوعة التى تزيد الارتباك والقلق فى القطر المصرى ، وأن الدولتين على وفاق تام فيما يختص

بمصر خصوصاً بعـد ما حدث من الحوادث الأخيرة التى من أهمها اجتماع مجلس شورى النواب »

مذكرة انجلترة وفرنسا الى الخديوى

فوافق اللورد غرنفل على ارسال المذكرة بعد تردد ، واشترط فى جوابه ان موافقة الحكومة البرطانية على ذلك لا يقيدها بالقيام بأى عمل فى المستقبل للتدخل فى مصر ان اقتضى الأمر ذلك . فرضيت الحكومة الفرنسية بالشرط ، وأرسلت المذكرة وبُلّغت رسمياً للخديوى فى ١٩ صفر سنة ١٢٩٩ ﻫ ( ٨ يناير ١٨٨٢ م ) ، فقابلها الخديوى بالشكر والامتنان

أثر المذكرة السيء فى مصر

على أن المذكرة وقعت على غير الخديوى وقوع الصاعقة ، وارتاب جميع الطبقات فى نيات الدولتين ، واعتقد أعضاء مجلس الشورى أنهم المقصودون بذلك ، وان الدولتين تريدان تقويض سلطة مجلسهم ، فزاد اتحادهم مع رجال الجيش وتمسكوا بأذيال عرابى وحزبه . أما الباب العالى فثار خاطره أيضاً لهذا العمل الذى فيه افتيات على حقوقه ، إذ هو صاحب السيادة فى مصر ، وكان هو الأولى بالتدخل فى شؤونها

اقتراح ارسال مذكرة ايضاحية

فلما رأى شريف باشا ما كان للمذكرة من الأثر السيء طلب الى الدولتين أن ترسلا مذكرة ايضاحية تفسر الأولى وتبين أن الدولتين لا ترميان الى غرض سيء. فوافقت الحكومة الانجليزية على هذا الرأى ، ولكن المسيو غمبتا عارض أشد المعارضة وقال انه يذهب بهيبة الدولتين ، فعملت الحكومة الانجليزية هذه المرة أيضاً برأيه على غير رغبتها

اسقاط وزارة شريف باشا

وفى هذه الأثناء كان يزداد سخط أعضاء مجلس الشورى ، وازدادوا تمسكاً برأيهم فى أمر الميزانية . ولما رأوا أن شريف باشا يعارضهم طلبوا الى الخديوى اقالته فاستقال ثم شكل الخديوى وزارة جديدة فى ٢٦ ربيع الأول سنة ١٢٩٩ ﻫ ( ١٥ فبراير سنة ١٨٨٢ ) برياسة « محمود سامى باشا البارودى » طبقاً لرغبة أعضاء المجلس وجُعل أيضاً عرابى باشا وزير الحربية فيها

وزارة البارودى

على أن اذعان الخديوى لرغبة الأعيان بهذه الصفة لم يُقصد به الأجل عاجل



محمود باشا سامى البارودى

حل وفق

للمشكلة ريثما يتم الاتفاق على من يوكل اليه قمع هؤلاء الثوار بالقوة ، لأنه يستحيل حكم البلاد بوزارة رأسها من المنتمين للحزب الثائر ، ووزير الحربية فيها عرابى نفسه، وهو اكبر عامل فى الثورة

ازدياد نفوذ الحزب العسكرى

وبمجرد تشكيل الوزارة الجديدة أخذ نفوذ الحزب العسكرى فى الازدياد يوماً بعد يوم ، حتى امتد الى جميع أعمال الحكومة ، وفى يوم ٢٠ فبراير كتب « السير إدْوَرْدْ مَلِتْ » المعتمد البرطانى بمصر الى حكومته يخبرها بأن المراقبة الثنائية أصبحت اسمية فقط

الخلاف بين الخديوى ووزرائه

ثم زادت الوزارة الجديدة من عدد الجيش، ورفعت رواتب رجاله، بلا اكتراث بما يصيب الميزانية من جراء ذلك ، ورقَّت كثيراً من الضباط بدون اختيار ، فجرّ كل ذلك الى اشتداد الخلاف بين الخديوى ووزرائه ، وتفاقم الخطب حتى كان يُظن

ان العرابيين يرمون الى عزل الخديوى وتنصيب محمود باشا سامى مكانه

تحريك الدول

كل هذه الأعمال حرّكت همة الدول الأوربية من جديد . وكانت وزارة المسيو غمبتا فى فرنسا قد سقطت وخلفه المسيو « دى فريسنيه » . ولم يكن هذا شديد الإصرار على التدخل فى مصر كما كان سلفه ، إلاَّ أنهُ رأى أن فرصة عدم التدخل قد فاتت ، وان الحال فى مصر وصلت الى حد يستحيل معهُ السكوت ، اذ ظهرت كل معالم الثورة فى أنحاء البلاد

غمبتا وفريسنيه

احتجاج الباب العالى على المذكرة

وكان الباب العالى قد احتجّ على إرسال مذكرة انجلترة وفرنسا ، فرأت هاتان عرض المسألة على باقى الدول الأوربية للنظر فى الطريقة التى يجب بها الفصل فى الأمر ، فلم تبد الدول معارضة فى النظر فى الأمر ، ولكنها لم تفعل شيئًا فعَّالاً للوصول الى نتيجة . فبادرت الحكومة الفرنسية بمفاوضة الحكومة الانجليزية فى الأمر ، فأقرّ قرارهما على ارسال أسطول من قبل الدولتين الى مياه الاسكندرية وتكليف الوزارة المصرية الاستقالة . ورأت الحكومة الانجليزية فوق ذلك أن يُطالب الى الباب العالى أن يصدر أمراً الى مصر يعضد به الخديوى ، ويستدعى زعماء الثورة الى الاستانة للاجابة عن عملهم ، فوافقت على ذلك الحكومة الفرنسية بعد تردد

سكوت الدول

انجلترة وفرنسا تقرران استعمال القوة

اقالة وزارة البارودى

وفى ٨ رجب ( ٢٦ مايو ) قدّم معتمدا انجلترة وفرنسا مذكرة الى رئيس مجلس النظار طلبا فيها استقالته من الوزارة ، وإبعاد عرابى باشا عن القطر المصرى مؤقتًا مع حفظ راتبه وألقابه ، وأن يقيم عبد العال باشا وعلى فهمى باشا فى الأرياف ، ولهما أيضًا رواتبهما وأوسمتهما . فاستقالت الوزارة ، ولكن لم يسافر أحد ممن ذكروا فى المذكرة

الاسطول الانجليزى بالاسكندرية

أما الأسطول الانجليزى الفرنسى فقد وصل الى مياه الاسكندرية حسب الاتفاق . وكان قائد السفن الانجليزية السير « بوشمب سيمور » ، فلما وصل وجد ان النفوذ كله فى المدينة بيد الحزب العسكرى ، وان الأحوال فى هيج واضطراب ، فأخبر دولته بذلك . وكانت الوفود من الأعيان والعلماء وغيرهم تذهب الى الخديوى يرجونه ارجاع عرابى الى منصبه ، فلم يقبل منهم

الدول تنوى ارسال سفير الى مصر

أما الباب العالى فانه لما بلغه رجاء انجلترة وفرنسا أراد أن يظهر بمظهر صاحب السيادة فى البلاد ، وقال انه سيرسل سفيراً من قبله لفحص المسئلة ، وانه لا داعى لبقاء أساطيلهما بالاسكندرية . فلم توافق الدولتان على استرجاع أساطيلهما ، ورأت أن مجرد بقائها بالمياه المصرية يكفى لارهاب الثائرين و إلقاء الرعب فى قلوبهم

مؤتمر القسطنطينية

ولما لم يُجْدِ هذا التأثير الأدبى نفعاً ، وازدادت الحالة خطورة يوماً بعد يوم، دعت انجلترة وفرنسا الدول الأوربية الى مؤتمر بالاستانة للنظر فى المسألة المصرية ، ودُعى اليه الباب العالى، فلم يرض بارسال مندوب من قبله اعتقاداً ان حلّ المسألة المصرية من شأنه هو؛ لا من شأن مؤتمر يعقده غيره من الدول . ثم أسرع الى ارسال المشير

مندوب الباب العالى فى مصر

مصطفى درويش باشا مبعوثاً من قبله الى مصر لتفقد أحوال العسكرية . ومن الغريب أن الباشا المذكور قال فى تقريره الى الحضرة السلطانية ان العسكر محافظة على الطاعة والنظام ، وطلب لضباط الجيش نحو ٢٠٠ وسام منها الوسام المجيدى من الطبقة الأولى لعرابى نفسه !

استعداد الحزب العسكرى

ثم اشتد غلو الحزب العسكرى ، وأخذ يجمع الجيوش و يعد العدة ، فزاد خوف الأوربيين المقيمين بالبلاد ، حتى أن سكان الاسكندرية منهم تأهبوا للدفاع عن أرواحهم عند الحاجة ، وبقيت الأحوال تزداد صعوبة واضطراباً حتى جاءت تلك الحادثة المشئومة الشهيرة بحادثة ١١ يونيه أو « واقعة الأحد »

حادثة ١١ يونيه ( واقعة الاحد )

وأصل هذه الحادثة انه فى يوم ٢٤ رجب سنة ١٢٩٩ﻫ (١١ يونيه سنة ١٨٨٢م ) تشاجر رجل مالطي مع مكارٍ مصرى فى الاسكندرية لامتناع المالطى عن اعطاء الأجر الكافى نظير ركوب حمار المكارى . وكان المالطى ثملاً بالخمر ، فطعن المكارى بمدية، فانتصر لكل منهما قوم من أبناء ملّته ، فتذمر بعض الرعاع من الوطنيين وأرادوا أن يثأروا من الأوربيين ، ولا سيما أن حوادث الحركة العرابية كانت قد أوغرت صدور بعض الفريقين من بعض ، وابتدأ الأوربيون يطلقون النيران من نوافذ بيوتهم على كل مار من الوطنيين . فازداد غضب المتجمهرين ، وتضاعف الخطب ولم يوجد

مَنْ يزجر الرعاع أو يشرح لهم ضرر فعلتهم مع تمادى الأور بيين المتحصنين فى بيوتهم فى اطلاق النار حتى عظم القتال بين الفريقين ونُهب كثير من مخزن المدينة . ثم صدرت الأوامر للجنـد بتفريق المتجمهرين ، فلم يأت الغروب إلاَّ وقد هدأت الأحوال وسكن الاضطراب . وقبضت الحكومة على كثير ممن وقعت عليهم شبهة القيام بهذه الثورة

سكون الاضطراب

وقد كان لهذه الحادثة المحزنة أثر سيئ لدى الدول الأوربية ، وقللت من عطفهم على مصر والقائمين بالحركة العرابية فيها ، وقالوا ان هذه الحركة يصحبها شيء من التعصب الذميم . وقد كان ذلك من اكبر المؤثرات فيما قرروه فى المؤتمر الذى عقد فى الاستانة للنظر فى شؤون مصر

اثر الحادثة فى اوربا

أما ما كان من أمر هذا المؤتمر فانه عُقـد بالاستانة فى ٦ شعبان ( ٢٣ يونيه ) وشرع أعضاؤه فى التفاوض في الأمر ، ولكن مفاوضاتهم سارت بغاية البطء لاختلاف مشارب الدول الأوربية فى أمر مصر ، وخوف كل منها من تحمّل المؤاخذة ، بالرغم من اعتقادهم جميعًا بأن الحالة فى مصر أصبحت تدعو الى التدخل بالقوة . و بقى الباب العالى محجمًا عن ارسال مندوب من قِبله الى المؤتمر . ثم عرض عليه المؤتمر فى ٦ يوليه أن يرسل قوة الى مصر بشروط معينة لتثبيت عرش الخديوى بمقتضى التقاليد السابقة . فأخذ يرجئ ويماطل الى أن أعلن فى يوم ٢١ شعبان ( ١٠ يوليـه ) أنه سيرسل مندوبًا الى المؤتمر فى اليوم الثانى

أعمال المؤتمر

الباب العالى يرسل مندوبا

على أن الفصل فى أمر مصر كان فى الحقيقة قد أفلت من يد الباب العالى والمؤتمر باعلان قائد الأسطول الانجليزى بالاسكندرية فى فجر ١٠ يوليه المذكور أنهُ سيضرب قلاع المدينة ان لم تسلّم له فى مدة أربع وعشرين ساعة

ولكن بعد فوات الفرصة

وذلك أنهُ منذ قدومه الى المياه المصرية كان يلاحظ الهيج يزداد فى المدينة يومًا بعد يوم ، ثم بلغهُ أن عرابى باشا يأمر بزيادة تحصين قلاع الثغر ليضرب منها الأسطول الانجليزى . فطلب ابطال هذا التحصين ، فأخبره عرابى أنه ليس بالقلاع أدنى حركة

تحصين قلاع الاسكندرية

أعلان سيمور أنه سيضرب الاسكندرية

تحصين جديدة ، وان ليس بها الا المدافع القديمة العهد . ولكن « سيمور » أبصر بعد ذلك أن الاستعداد فى القلاع قائم على قدم وساق ، فأصدر بلاغًا الى قناصل الدول بالاسكندرية فى فجر ١٠ يوليه بأنهُ سيضرب المدينة ان لم تسلم اليه قلاعها

انفراد الاسطول الانجليزى

وكانت الحكومة الانجليزية قد عرضت على الحكومة الفرنسية أن تشرك أسطولها مع الأسطول الانجليزى فى ضرب المدينة ان اقتضى الأمر ذلك ، فامتنع المسيو « فريسنيه » بعلة أن حكومته تأبى أن تتحمل تبعة هذا العمل . فعزم الأسطول الانجليزى على الانفراد بالعمل ، وفى الساعة السابعة من صباح ٢٢ شعبان سنة ١٢٩٩ هـ ( ١١ يوليه سنة ١٨٨٢ م ) أطلقت العمارة الانجليزية ( وعددها ١٤ سفينة بين مدرعة ومدفعية ) مدافعها على قلاع الاسكندرية ، فجاوبتها قلاع الاسكندرية بعد ١٥ طلقة ، واستمر تبادل النار بين الفريقين ١٠ ساعات انتهت بدك تلك القلاع الضعيفة دكاً من غير أن يصيب السفن الانجليزية أذى يذكر

ضرب الاسكندرية

احراق الاسكندريه

وفى اليوم التالى تراجعت حامية المدينة الى الداخل ، وعند خروجها من الاسكندرية أمر أحد أمراء ( الألايات ) المدعو « سليمان داود » ( بغير علم عرابى ) أن تُحرق المدينة ، فاشتعلت فيها النيران ، ونهبها الرعاع . وفى يومى ٢٤ و ٢٥ شعبان أنزل الأسطول الانجليزى بعض الجنود ، فاحتلوا المدينة ، فعاد اليها الأمن وأخذ الأهلون يرجعون اليها بعد أيام قلائل

معسكر كفر الدوار

ثم أخذت الجيوش الانجليزية والهندية تفد الى الاسكندرية لمحاربة عرابى . بقيادة « جارنت وُلسِلى » . وكان عرابى قد عسكر بجهة « كفر الدوار » على بعد بضعة أميال من الاسكندرية ، فلما وجد الانجليز ان موقعه هناك حصين رأوا أن يدخلوا البلاد من الشرق من جهة قناة السويس . وعلم بذلك عرابى ، فعزم على ردم القناة كى لا تمرَّ منها السفن الانجليزية . ولكن المسيو ديلسبس حمله على الكف عن هدم هذا العمل الخطير ، وقال انهُ يمنع بحق حياد القناة مرور أى سفن حربية منها . فخدع عرابى بأقواله ، ولم يقدر ديلسبس طبعاً على انجاز وعده ، ونزلت الجنود

عزم عرابى على ردم قناة السويس

نزول الانجليز من طريق القناة

الانجليزية من طريق القناة . فاستعد العرابيون للقائهم بجهة « التل الكبير » . وكانت أهالى القطر تمد جيش عرابى بحاجاته طوعاً أو كرهاً ، حتى اجتمع له من الخيل والبغال شيء كثير

الباب العالى والدول

وكان الباب العالى طول هذه المدة يتباطأ فى الفصل فى أمر مصر ، وأخيراً اشترك فى مفاوضات مؤتمر الاستانة بإرساله مندوبين من قبله فى ٢٠ يوليه . ثم أعرب لرجال المؤتمر أنهُ مستعد لارسال جيش لاخماد الثورة المصرية ، فاشترطت عليه الدول شروطاً خاصة مؤداها أن لا يغير علاقة الدولة بمصر عما تقضى بهِ التقاليد السابقة . وكانت فى مقدمتهم فى ذلك انجلترة ، لأنها أصبحت منذ ضرب الاسكندرية اكبر الدول ارتباطاً بالشؤون المصرية . ولم تُبد لها احدى الدول شيئاً من المعارضة لعلمها بوجوب قيام احدى الدول باطفاء الثورة

انجلترة والباب العالى

فاشترطت انجلترة على الباب العالى أن لا يرسل جندياً واحداً الى مصر الآ بعد أن يصدر منشوراً بأن عرابى باشا عاص للسلطان ، وبعد ابرام اتفاق حربى مع انجلترة بشأن أعمال الجيش التركى والانجليزى بمصر

منشور السلطان

فأخذ الباب العالى يعرض عدة صور بما يصدره فى المنشور على انجلترة ( فتشير هذه بتعديلها حسب ما تراه موافقاً للأحوال ) ثم كتب صورة نهائية ونشرها قبل أن يطلع مندوب انجلترة عليها فى ٢٢ شوال ( ٩ سبتمبر ) . فغضبت لذلك انجلترة وامتنعت عن توقيع الاتفاق الحربى . عند ذلك شرع الباب العالى يفاوض انجلترة بشأن توقيع الاتفاق بالرغم مما حصل ، وكادت الحكومة الانجليزية تقبل ذلك فى ٢٩ شوال ( ١٣ سبتمبر ) لولا أن جاءت الأنباء فى ذلك اليوم بأن الجيوش الانجليزية بددت شمل جيش عرابى فى صبيحة ذلك اليوم عند التل الكبير ، وبذلك زالت الأسباب الداعية الى مفاوضة الباب العالى فى هذا الشأن

انجلترة تستغنى عن الباب العالى

موقعة التل الكبير

أما موقعة التل الكبير فكانت فى السحر فى الساعة الرابعة من صباح ٢٩ شوال سنة ١٢٩٩ هـ (١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م) . وكان عدد الجيش الانجليزى فيها يبلغ

هزيمة العرابيين

١٧٫٤٠٠ مقاتل ، وجيش عرابى نحو ٢٧ ألف جندى ما بين نظامى وغير نظامى . فلم يُجد هذا الفرق شيئاً أمام العلم وحسن النظام ، ولم تدم الواقعة أكثر من عشرين دقيقة انتهت بتبديد الانجليز لجيش عرابى . وفرَّ عرابى نفسه الى القاهرة بعد أن بذل جهده عبثاً فى رد المنهزمين من جيوشه الى أماكنهم . وأراد عرابى الوقوف للانجليز فى طريق القاهرة فخذله الناس وانكسرت نفوس مساعديه

دخول الانجليز القاهرة

فسار الانجليز الى القاهرة فدخلوها بلا مقاومة ، وتسلموا القلعة وباقى الثُّكنات العسكرية فى ٢٢ ذى القعدة سنة ١٢٩٩ هـ ( ١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م ) ، وبذلك ابتدأ احتلالهم للقطر المصرى

ثم سلَّم عرابى نفسه وقبض الانجليز على معظم زعماء الثورة

# الفصل السابع

## عهد الاحتلال البرطانى

### ١ — ﴿ قدوم اللورد دُفرين الى مصر ﴾

طور جديد

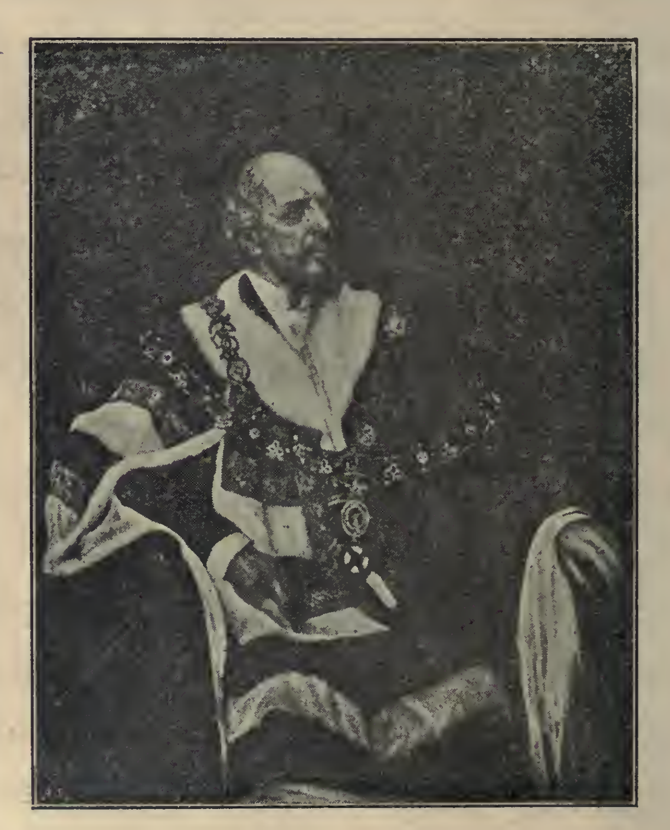
دخلت مصر منذ عام ١٢٩٩هـ ( ١٨٨٢م ) فى طور جديد ، وهو الاسترشاد بدولة أوربية عظيمة فى السير فى سبيل تهدئة أحوالها وتنظيم ادارتها . وقد سبق أن أوضحنا الأسباب التى دعت برطانيا العظمى الى ارسال جيش لاحتلال مصر ، والآن نبين كيف امتد هذا الاحتلال الى اليوم ، مع ذكر أهم الأعمال العامة التى تمت فى عهده

مهمة اللورد دفرين

بعد أن أودع عرابى السجن وأُخمدت نار الثورة كان أول واجب إعمال التدبير لتهدئة أحوال البلاد ومنع حدوث مثل هذه الفتنة فى المستقبل . لذلك أمرت الحكومة البرطانية اللورد « دُفرين » ( سفيرها فى الاستانة ) أن يسافر الى مصر ويبدى للحكومة الخديوية ما يراه من المشورة والنصح ، لاتخاذ الحيطة الكافلة بتثبيت عرش

العفو عن صغار الضباط

سمو الخديوى وإسعاد جميع طبقات الأمة . وكانت الحكومة قد سجنت ، غيرَ زعماء الثورة ، عدداً كبيراً من الأهلين والعلماء لشبهات يسيرة . فلما حضر اللورد «دفرين» الى مصر نصح للحكومة بالنظر فى أمرهم ، فعملت بمشورته ، ثم أصدر الخديوى أمراً بالعفو عن جميع الضباط الذين تقل رتبتهم عن ( البكباشى ) ، مع تجريدهم من رتبهم وحرمانهم من معاشهم



اللورد دفرين

محاكمة زعماء العرابيين

ثم عُيِّنت « لجنة تحقيق » للنظر فى أمر عرابى ومحمود سامى وعبد العال وطلبة وعلى فهمى ، فأقرَّت محاكمتهم أمام مجلس عسكرى ، بتهمة ثورانهم على الحكومة . فأثبت المجلس اداناتِهم وحُكم عليهم بالاعدام ، ثم أُبدل بالحكم أخف منهُ وهو النفى المؤبد الى جزيرة « سَرَنْدِيب » ( سيلان ) بالهند

الغاء المراقبة الثنائية

بعد أن دخلت الجنود الانجليزية مصر واحتلتها لم يكن هناك داع للمراقبة الثنائية ، إذ فى انجلترة وحدها الكفاية ، للمحافظة على الأموال الأوربية ، وفى بقاء المراقبة احتمالٌ لفساد العلائق بين فرنسا وانجلترة ، لتوقُّع الخلاف بينهما فى الرأى . على أن الحكومة المصرية نفسها طالما وجدت المراقبة الثنائية حجرَ عثرة فى سبيل أعمالها ، ولذلك اقترح شريف باشا الغاءها فأيدتهُ الحكومة الانجليزية فى رأيه وساعدتهُ على انفاذ رغبته بالرغم من احتجاج فرنسا وتشنيع الصحف الفرنسية عبثاً ، وفى ٩ ربيع الأول سنة ١٣٠٠ هـ ( ١٨ يناير سنة ١٨٨٣ م ) أصدر الخديوى أمراً عالياً بالغائها . فغادر المراقب الفرنسى مصر بحجة قيامه باجازة ، وجُعل المراقب الانجليزى مستشاراً مالياً للحكومة المصرية

اقتراحات اللورد دفرين

ونظر اللورد دفرين أثناء اقامته بمصر فى عدة أمور لإصلاح البلاد . فمن أهم ذلك انشاء جيش مصرى جديد ، لأن القديم قد حُلّ لقيامه بالثورة ، ولأن انجلترة كانت فى ذلك الوقت تنوى استرجاع جيوشها من مصر فى أقرب فرصة ، فيحل الجيش الجديد محل الجيوش البرطانية . ولما لم يجد اللورد دفرين العدد الكافى من المصريين اللائقين لأن يكونوا ضباطاً فى الجيش اقترح أن ينصَّبَ عليهِ قائد انجليزى ويضمّ اليه بعض كبار الضباط من الانجليز . فوقع الاختيار على « السير افلن وُود » ، فنُصّب ( سرداراً ) للجيش المصرى فى أوائل سنة ١٣٠٠هـ ( ١٨٨٣ م ) وأخذ فى القيام بتنظيم الجيش

جيش جديد

الشرطة

واقترح اللورد دفرين اصلاح الشرطة ، فعُهد بأمرها الى الجنرال « بيكر » وألحقت ادارتها بوزارة الداخلية

مجلس الشورى

ونظر أيضاً فى تشكيل هيئات نيابية تساعد الحكومة فى ادارة شؤون البلاد ، فاقترح انشاء مجلس شورى لسنّ القوانين يؤلف من ٢٦ عضواً ، يكون بمثابة مرشد لمجلس النظار ، وتشكيل جمعية عمومية مكوَّنة من ٤٦ من الأعيان تجتمع كل سنتين مرة يسترشد بهم كل من مجلسى النظار والشورى فى الوقوف على رغبات أهل البلاد .

فلم يمكن انفاذ هذا النظام دفعة واحدة لعدم تدرب البلاد على الحكومة النيابية ، ورأت انجلترة ارجاءه الى أن يتم هذا التدرب

أمد الاحتلال

على أن انجلترة لم تقصد بقاءها بمصر أمداً طويلاً ، بل كانت على العكس من ذلك عازمة على الجلاء عنها بعد أن ترسخ قدم الاصلاح فيها وتخرج من الأزمة التى كانت سبباً فى نزول الجيش البرطانى الديار المصرية : يدل على ذلك ما جاء فى خطاب الملكة فكتوريا يوم افتتحت البرلمان البرطانى فى ٧ ربيع الثانى سنة ١٣٠٠هـ ( ١٥ فبراير سنة ١٨٨٣ م ) وتصريحات اللورد دفرين فى التقرير الذى رفعه للحكومة البرطانية عن حالة مصر

الامور التى عاقت تقدم مصر

غير أنهُ حدثت أمور ومشاكل عاقت تقدم مصر على الوجه الذى تريده انجلترة ، فاضطرت للبقاء فيها الى هذا اليوم . ومن أعظم هذه المشاكل قيام الفتن والحروب فى السودان ، فانها ، فضلاً عن جعلها البلاد فى خطر اذا انجلت عنها الجيوش البرطانية ، عاقت سير الاصلاحات العدة التى اقترحها اللورد دفرين ، وهى تتناول أموراً كثيرة أهمها الجيش والشرطة والهيئات النيابية والتعليم والمحاكم والرى ومسح الأراضى وتخفيض الضرائب واصلاح حال الفلاح وغير ذلك

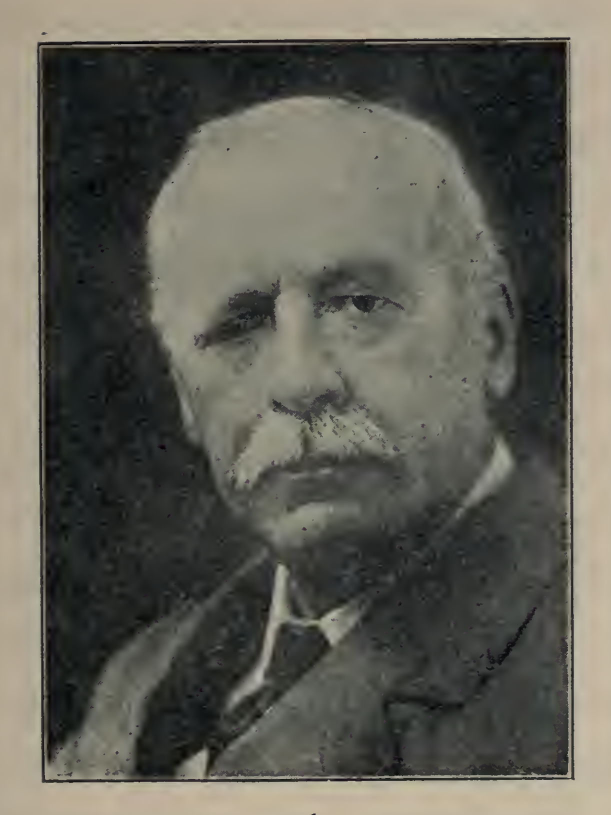
عودة دفرين الى الاستانة

وبعد ان وضع اللورد دفرين الخطة للاصلاح الذى يريده فى مصر عاد الى مقره بالاستانة ، وعُهد بانفاذ هذا الاصلاح الى معتمد برطانيا العظمى فى مصر بحيث يكون مركزه فى ذلك مركز الناصح والمرشد للحكومة المصرية ووزرائها

اللورد كرومر معتمد برطانيا

ثم اختير لهذا المنصب « السير افالين بيرنج » . ( اللورد كرومر فيما بعد ) فوصل الى مصر فى ٩ ذى القعدة سنة ١٣٠١ هـ ( ١١ سبتمبر سنة ١٨٨٣ م ) ، أى بعد مغادرة اللورد دفرين بأربعة أشهر ، فبقى فيها يواصل هذا العمل الى أن استقال من منصبه فى صيف عام ١٣٢٥ هـ ( ١٩٠٧ م )

ولما كان للحروب السودانية الأثر الأكبر فى تأخير سير هذه الاصلاحات حسُن بنا أن نأتى على ذكرها أولاً ثم نعود الى الكلام على الاصلاحات التى لم نشرحها بعد



اللورد كرومر

## ٢ — ﴿ حروب السودان ﴾

اضطراب السودان

استولى محمد على باشا على السودان سنة ١٢٣٥ ﻫ ( ١٨٢٠م ) ، ولكنه لم يوطد فيه نفوذ مصر ، فبقيت سلطة الحكومة عليه ضئيلة منذ هذه المدة ، وكاد يكون الحل والعقد فيه بأيدى الباشوات الترك وجباة الضرائب من البشبزق وغيرهم ، ممن لم يكن لهم همٌّ سوى جمع الثروة وابتزاز الأموال من أبناء السودان التعاس . وكان الشغل الشاغل لكل حاكم عام وُلى السودان فى هذه المدة اطفاء الثورات التى لم تخمد نارها قط فى انحاء البلاد ، وصد هجمات الحبشة على الحدود السودانية

وقد استتب النظام نوعاً فى المقاطعات الاستوائية فى سنة ١٢٩١ ﻫ ( ١٨٧٤ م )

على يد وال انجليزى هو « الجنرال غُردون » ، ولكنهُ ما لبث أن غادر البلاد في سنة ١٢٩٣ هـ ( ١٨٧٦ م ) فعاد باشوات الأتراك الى ظلمهم القديم . وبعد قليل قامت ثورة فى السودان استفحل أمرها وانتهت بزوال حكم المصريين من تلك البلاد

أسباب الثورة فى السودان

ومن أهم الأسباب التى أفضت الى قيام هذه الفتنة :

أولاً – ظلم جباة الضرائب وحبهم للرشوة

ثانياً – وقوف الحكومة المصرية فى وجه تجارة الرقيق

ثالثاً – مؤازرة بعض رجال الجيش المصرى للثائرين وإطماعهم فى النجاح اذ ثاروا على الحكومة . فقد قيل ان « عرابياً » كان يرسل اشارات برقية الى أهل السودان يحرضهم على مقاومة سلطة الخديوى

ومما سهل الأمر على الثائرين جلاء الجنود المصرية عن السودان لاطفاء الثورة العرابية

المهدى

ثم استفحلت الثورة بزعامة رجل يدعى محمد احمد ظهر فى السودان وادعى أنهُ « المهدى » المنتظر ولذلك لقب بالمهدى

نشأته

وُلد « المهدى » فى مدينة دنقلة عام ١٢٥٩ هـ ( ١٨٤٣ م ) ، واشتغل فى صباه مع عمه فى صنع السفن بجزيرة أمام « سنار » . ثم ضربه عمه ذات يوم ففر منه والتحق بأحد معاهد التعليم العربية التى كان يتعلم فيها الدراويش ، فدرس بها الدين مدة ، ثم ذهب الى « بربر » ومنها الى « كانا » على النيل الأبيض ، فتقلد بها منصب « فقير » ( شيخ ) فى سنة ١٢٨٧ هـ ( ١٨٧٠ م ) واستوطن بجزيرة « أبًا » بالقرب من كانا المذكورة

نهوضه ودعوته

ثم أخذ صيته فى الازدياد ، فجمع ثروة طائلة ، والتفّت حوله التلاميذ ، وتزوج ببنات أعاظم رؤساء قبائل البقّارة ، فعظمت بذلك عصبيته بين قبائل تلك الجهة . وفى سنة ١٢٩٨ هـ ( ١٨٨١ م ) أخذ يكتب الرسائل الى فقهاء السودان يخبرهم أنهُ هو المهدى المنتظر ، وان كل من لم يؤمن بهِ هالك لا محالة ، سواء أ كان وثنياً أم



المهـدى

اتحاد السودان معه على الحكومة

مسيحياً أم مسلماً . فشاع ذكره في السودان ، حتى بلغ أمرُه مسامع الحاكم العام رؤوف باشا فى أوائل رمضان سنة ١٢٩٨ هـ ( يوليه سنة ١٨٨١ م ) . ولم يكد يسمع العلماء بأمره حتى أفتوا بأنه دجّال ، وكاد السودانيون أنفسهم ينفضّون من حوله ، بالرغم من جهلهم وتخريفهم ، ولولا استياؤهم من الحكومة فى ذلك الوقت ما اندفعوا معهُ فى مقاومتها

المهدى ورؤوف باشا

فاستدعاه رؤوف باشا الى الخرطوم ليحضر فى مجمع من العلماء ويقيم الحجة على دعواه ، فأبى المهدى الحضور ، فسيّر عليهِ رؤوف باشا عدة حملات للقبض عليه ، فانقضَّ أتباع المهدى عليها وفتكوا بها . ثم عُزل رؤوف باشا من ولاية السودان

فلما خلفهُ « عبد القادر باشا حلمى » فى ولاية السودان انتصر على أتباع المهدى

( الدراويش ) فى بضع مواقع صغيرة . غير أن ذلك لم يذهب بقوتهم ، وأخذت ثورتهم تتضاعف يوماً فيوماً حتى اتضح للحكومة المصرية المتباطئة فى أمره ، أنها ليست بالأمر اليسير ، بعد أن أهملت المهدى حتى انقض على مدينة « الأُبيّض » فى أوائل سنة ١٣٠٠ هـ ( ١٨٨٣ م ) واستولى عليها

استيلاؤه على الابيض

على أن مركز الحكومة المصرية إزاء هذا الحادث كان فى شدة الحرج ، لعدم وجود جيش مدرب لديها تمدّ بهِ والى السودان الذى لم يعدل منذ نشوب الفتنة عن استصراخها واستنجادها . وقد كان لانجلترة جيش احتلال فى مصر ، لكنها لم ترغب إذ ذاك فى التدخل فى الأمر ، كى لا تضطر الى تجريد حملة على السودان كالتى جردتها على مصر . فأخبرت الحكومة أنها اذا أرادت إخماد الفتنة فى السودان فليكن ذلك بالجيوش المصرية

انجلترة تحجم عن محاربته

وفى ربيع سنة ١٣٠٠ هـ ( ١٨٨٣ م ) استخدمت الحكومة المصرية عدداً من الضباط الانجليز فى الجيش المصرى المؤلف لانقاذ السودان وعلى رأسهم «هِكس باشا» فتقلد قيادة الجيوش السودانية فى رمضان ( يوليه ) ، وجعل وكيله « علاء الدين باشا » التركى . غير أن جيوشه لم تكن على ما يرام من التدرب ومعظمهم (من جنود وضباط) كان من جيش عرابى المنحلّ وممن نبذهم « الجنرال وود » لعدم لياقتهم لجيشه الجديد . ذلك الى قلة وسائل النقل ، وعدم توافر الأموال الكافية للانفاق على الحملة

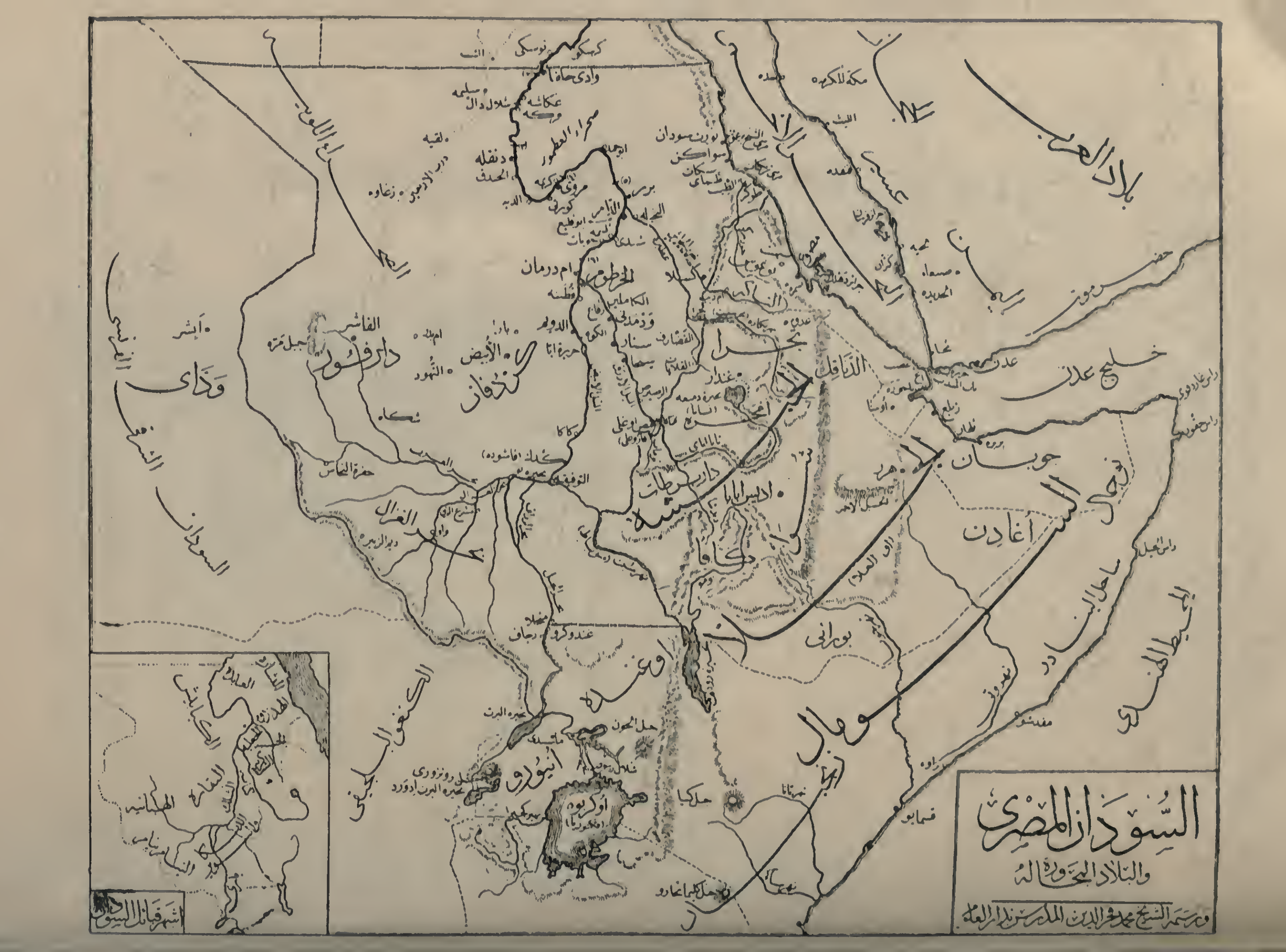
حملة هكس باشا

خرج « هكس باشا » بجيشه المختلط من الخرطوم فى ذى القعدة سنة ١٣٠٠ هـ ( سبتمبر سنة ١٨٨٣م ) يريد استرداد « الأُبيّض » . فوصل الى « الدويم » دون أن يلقى أحداً من الأعداء ، وقد أخذ التعب والظمأ يفعلان بجيشه اكثر مما تفعله النيران . وبيناهم بين الدويم والأبيّض إذ خرج عليهم الدراويش من كمين فى الطريق وأفنوهم عن آخرهم

انهزامها بين الدويم والابيض

وصل خبر هذه الفاجعة الى القاهرة فى المحرم سنة ١٣٠١هـ ( نوفمبر سنة ١٨٨٣م ) فكان وقعه كالصاعقة فى نفوس أولى الشأن ، إذ به انقطع كل أمل فى القضاء على المهدى عاجلاً ، وخشى الناس أنه عما قريب يأخذ « الخرطوم » نفسها

هول الفاجعة فى مصر



السودان المصري
والبلاد المجاورة له
رسمه الشيخ محمد فخر الدين المدرس بدار العلوم
بلاد العرب
اليمن
حضرموت
خليج عدن
عدن
البحر الأحمر
مصوع
سواكن
دنقله
أم درمان
الخرطوم
سنار
كسلا
دار فور
الفاشر
كردفان
الأبيض
وداى
بحر الغزال
الحبشة
أدبس ابابا
الدناقل
الصومال
بحر الساحل
أغادين
جوبان
بورانى
أوغنده
أنيورو
أوكريوه
الكنغو البلجيكى
المحيط الهندى
ساحل البنادر
السودان

## إخلاء السودان

مشورة انجلترة باخلاء السودان

وكانت الحكومة الانجليزية لا تزال مصرة على عدم ارسال جيش من قِبلها الى السودان ، ورأت أن الجيوش القليلة التى يتسنى للحكومة المصرية ارسالها لا تفيد بشئ ، بل ربما أدى ارسالها الى زيادة الويل . فنصحت للحكومة المصرية باخلاء السودان : من خط الاستواء الى جنوبى وادى حلفا ، ريثما تتحسن الأحوال ويقوى مركز مصر ذاتها فتعود الى فتحه من جديد . فلم يوافق « شريف باشا » رئيس الوزارة على اخلاء السودان بحجة انهُ المورد الحَيَوِىّ لمصر ، ولأن الاقرار بسلخه عنها مسقط لحقوقها عليه فيصبح نَهباً للدول ، فاعتزل منصبه ؛ وخلفه فى رياسة الوزارة «نوبار باشا» فوافق على سلخهِ من مصر

شريف باشا لا يوافق ويستقيل

موافقة نوبار

اختيار غردون لاخلاء السودان

وكان فى النية أولاً ارسال عبد القادر باشا لى الخرطوم لتولى استرجاع الجنود المصرية من السودان ، ولكن قرَّ الأمر أخيراً على ارسال غردون باشا (الجنرال غردون) الانجليزى فى هذه المهمة ، لما له من النفوذ والمحبة عند أهل السودان ، فيكون ذلك اكبر عون فى هذا العمل الشاق الذى ان لم تُراع فيه الحكمة ورباطة الجأش استخف السودان بالحكومة المصرية وفتكوا بجيشها قبل أن يجلوَ عنهم ، وكان يُظن أن «غردون» يستطيع بما له من المكانة المذكورة أن يطيّب خاطر القبائل فلا تنتشر الثورة أثناء جلاء الجيش المصرى . وفى ربيع الأول سنة ١٣٠١ هـ ( يناير ١٨٨٤ م ) أُرسل غردون فى هذه المهمة ، وجعل وكيله « الكولونيل استيوارت » وكان من أحذق الضباط الانجليز

وفى أثناء ذلك كان أمرُ المهدى قد استفحل ، وأخذت دعوته تنتشر فى أنحاء السودان حتى لحقت السودان الشرقى . ففى شوال سنة ١٣٠١هـ ( أغسطس سنة ١٨٨٣ م ) وصلت رسل المهدى الى تلك الجهة بالقرب من «سِنكات» وأخذوا يثيرون القبائل على الحكومة . وكان زعيم هذه الحركة رجل من سلالة تركية قديمة يدعى «عثمان دِقْنَة» أصله تاجر رقيق جهة سواكن ، ولما كسدت تجارته بتضييق الحكومة على الرقيق تألّب عليها وانضم الى المهدى ، فلقّبه أميراً من أمرائه . ولم يلبث أن انضمت اليه

عثمان دقنة فى السودان الشرقى

جميع قبائل السودان الشرقى ، فلم يبق تحت نفوذ الحكومة المصرية الآ حاميات « سنكات » و « طوكر » و « سواكن » و « ترنكتات » على البحر الأحمر

حملة بيكر لانقاذ حاميتى طوكر وسنكات

ورأت الحكومة المصرية أن ترسل لانقاذ حاميتى طوكر وسنكات « الجنرال بيكر » مع رجال الشرطة الذين عهد اليه تدريبهم . وربما كان هؤلاء الرجال فى الجملة خيراً ممن خرج بهم « هكس باشا » ، وان لم يكونوا على ما يُرام من النظام والتدرب ، إذ أن بعضهم لم يفق فى تعلمه رجال الشرطة العاديين ، وكثير منهم كان قريب العهد بمبادئ الحركات النظامية . خرجت هذه القوة لانفاذ غرضها ، فالتقت بالدراويش

هزيمتها عند الطيب

عند « الطيب » فى جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ ( فبراير سنة ١٨٨٤ م ) ، فانهزمت شرّ هزيمة ، إذ كانت الجنود ترمى سلاحها وتلوذ بالفرار لقلة تدربهم على الحرب . وقد كان عدد رجال هذه الحملة ٣,٧٠٠ فلم ينج منهم سوى ١,٣٠٠ رجل

حملة هيوت البحرية

عند ذلك اضطرت الحكومة الانجليزية بعد ابادة الجيوش المصرية القديمة والجديدة الى فعل ما لم ترض به من قبل وهو ارسال حملة الى السودان . فأمرت القائد البحرى « هِيوِت » بإنزال قوة فى « سواكن » ، وأرسلت الى « ترنكتات » قسماً من جيش الاحتلال بمصر بقيادة « السير جيمس جراهام » ، وكانت حاميتا طوكر وسنكات

جراهام يهزم الدراويش عند الطيب

قد اضطرتا الى التسليم قبل أن تصلهما النجدة ، فخرج « جراهام » الى الطيب حيث هُزم بيكر من قبل ، فكسر الأعداء كسرة شنيعة . ثم جدَّ فى اقتفاء « عثمان دقنة » فالتقى به بجهة « طماى » ، ففتك بجيشه وأحرق معسكره ، ولكنه لم يقدر على القبض عليه

وبعد أن ألحق هاتين الهزيمتين بالدراويش اكتفى بالرجوع الى سواكن ، وباتت هذه المدينة هى وترنكتات فى مأمن من العدو . ثم استُدعى جراهام الى مصر فى أواخر جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ ( مارس سنة ١٨٨٤ م )

غردون فى الخرطوم

أما غردون باشا فانه بلغ الخرطوم فى ١٩ ربيع الثانى ١٣٠١ هـ ( فبراير سنة ١٨٨٤ م ) فنُصّب حاكماً عاماً على السودان . وقد كان لقدومه فى أول الأمر وقع حسن فى نفوس القبائل ، واستتبت السكينة فى الخرطوم . غير أنهُ لم يشرع توّاً فى إخلاء السودان

توانيه فى اخلاء السودان

حسبما كان معهوداً اليه ، بل أخذ يضيع الوقت فى مخابرة أولى الشأن بالقاهرة فى الطريقة التى يجب أن يُحكم بها السودان بعد اخلائه ، وعرض عليهم من ذلك عدة خطط ومشروعات ، مندفعاً فى ذلك بخوفه على الأهلين من ثورة المهدى ومن الفوضى التى لابد أن تنتشر فى طول البلاد وعرضها عقب جلاء الجيش المصرى . ومما اقترحهُ فى هذا الشأن أن يُرسَل اليه « الزبير باشا » ليساعده فى الجلاء ، وبعد ذلك تعهد



غردون باشا

اليه ولاية السودان. وقد عرض هذا الاقتراح بالحاح اكثر من مرة ثم رأى أولو الشأن بعدُ رفضه بتة . على أن غردون كان فى ذلك الحين يستهين بقوة المهدى و يطلب من الحكومة مراراً أن تمده بجيش «ليقضى على المهدى»، وأن تعدل عن اخلاء السودان

ولا يخفى ان ذلك كان مخالفاً للاتفاق الذى أُرسل بمقتضاه الى السودان ، فلم ترسل اليه الحكومتان الانجليزية والمصرية شيئاً من الجند. وصار نطاق نفوذ المهدى

الدراويش يحصرونه فى الخرطوم

يتسع يوماً بعد يوم حتى عم القبائل التى بين « بربر » و « الخرطوم » فانضموا الى المهدى فى أواخر رجب سنة ١٣٠١هـ ( مايو ١٨٨٤م ) . فانقطع بذلك خط الرجعة على غردون ، وأصبحت حالته تؤذن بالخطر

## حملة انقاذ غردون

انجلترة تهتم بأمره

والظاهر أن الحكومة الانجليزية لم تعرف بادئ الأمر الخطر الذى كان يتهدد « غردون » مع وجوده بلا جيش فى السودان . فلما حدث ما تقدم ، ورأت الخطر يحدق به أسرعت الى ارسال نجدة من القاهرة لانقاذه بقيادة « اللورد وُلسِلى »* . وبينا هذه الحملة فى طريقها أرسل غردون « الكولونيل استيوارت » فى نفر من الرجال

حملة ولسلى

على باخرة من الخرطوم قاصدين مقابلة الحملة القادمة لنجدته وابلاغها ما يهمها معرفته عن الحالة فى السودان . فمرت الباخرة على « بربر » دون أن تلاقى شيئاً . الآ أنها اصطدمت بصخر قرب « أبى حمد » ، وفتكت بمن فيها احدى قبائل البدو غدراً بعد أن أنزلتهم فى ضيافتها

ولسلى فى كورتى

وفى يوم ٣٠ ديسمبر وصل « ولسلى » بجيشه الى « كورتى » ، فرأى أن يُسيّر قوتين للقاء الدراويش جهة « المتمة » : قوة تذهب بطريق النيل ، والأخرى

واقعة أبى قليع

بالصحراء ، فوصلت هذه القوة الأخيرة الى « المتمة » ، وهزمت جيوش المهدى عند «أبى قليع» . ثم بلغت «جوبات» فى ٣ ربيع الأول سنة ١٣٠٢ هـ ( ٢٠ يناير سنة ١٨٨٥ م ) ، وهنا اتصلت بالبواخر التى ذهبت بطريق النيل . وعلم « ولسلى »

تأخر الحملة فى طريق الخرطوم

أن غردون فى خطر ، وأنهُ يخشى العاقبة كثيراً اذا تأخر وصول النجدة عن ٢٤ يناير فأسرع « ولسلى » الى تسيير باخرتين بالجند لانقاذه . ولكن هذه الرحلة لم تكن بالأمر السهل وفى ٨ ربيع الثانى ( ٢٥ يناير ) اصطدمت احدى السفينتين بصخور الشلال السادس ، فعطل المسير أربعة وعشرين ساعة

سقوط الخرطوم ومقتل غردون

وبينا هذه النجدة تعانى الوصول الى « الخرطوم » إذ استولى الدراويش على

* هو الذى قاد الجيوش البرطانية فى واقعة التل الكبير

المدينة ، وقتلوا « غردون » ، وذلك فى ٩ ربيع الثانى سنة ١٣٠٢ ( ٢٦ يناير ١٨٨٥ ) ومما ساعد على سقوط المدينة خيانة « فرج باشا » قائد الحصون ، فانهُ انضم الى جيوش المهدى فى الليلة السابقة لسقوط المدينة

وعند ذلك صدرت الأوامر للورد « ولسلى » أن يهاجم الخرطوم ليستردها ، فشرع يهاجمها من ثلاث جهات ، ولكن بعد قليل عدلت الحكومة الانجليزية عن استمرار القتال لاشتغالها ببعض مناوشات على حدود الهند . وفى ٢٢ رمضان (٥ يوليه) أخليت مدينة « دنقلة » وصارت « وادى حلفا » أقصى الحدود المصرية

اخلاء السودان

وكان هذا النصر قد ضاعف ثقة أتباع المهدى به ، وظنوا أنهُ سيقودهم الى فتح جميع ممالك الأرض ، وأنه لن يموت الاَّ بعد فتح الحرمين ، ولكن ما لبث أن خاب فألهم ، إذ لم تمض عليهِ بضعة أشهر فى عاصمته « أم درمان » حتى لحقته المنية كغيره من البشر فى ٩ رمضان سنة ١٣٠٢ هـ ( ٢١ يونيه سنة ١٨٨٥ م ) ، وكان قبل وفاته قد أوصى بالخلافة من بعده « لعبد الله التعايشى » ، فبايعه أتباع المهدى وسموه « خليفة المهدى » . أما جثة المهدى فانها دفنت فى الحجرة التى فارقته الحياة فيها ، ثم أقيمت عليها قُبَّة صار الناس يزورونها للتبرك

وفاة المهدى

التعايشى يخلفه

ولم يكد « التعايشى » يتسلم مقاليد الأمور حتى عزم على فتح مصر . ولكن الجيش المصرى كان قد تمّ تدريبه ، فخرجت من مصر فرقة ، بعض جيوشها مصرية وبعضها انجليزية ، وهزمت جيوش « الخليفة » بلا عناء عند « جنس » فى ٢٣ ربيع الأول سنة ١٣٠٣ هـ ( ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٨٥ م ) فسلمت مصر من غارته

عزمه على فتح مصر

الدفاع عن مصر

ولكن نفوذه عمّ السودان ، ولم يخرج عن دائرة سلطته الاَّ عدة من المقاطعات النائية ، فانها كانت من نصيب الممالك المجاورة لها : فأعطيت « مصوَّع » وما يجاورها لايطاليا ، وأعطيت « بوغوس » لملك الحبشة ، مكافأة له على مساعدته فى تسهيل جلاء الجيوش المصرية من « اماديت » و « سنبيت » و « غلباط » ، خصوصاً أن هذه كلها بلغت مصر سالمة . وأعلنت انجلترة امتلاك مقاطعة « بربرة » وزَيلع وأوغندا

نفوذ التعايشى فى السودان الشرقى

وضمت بلجيكا الى مستعمراتها ( الكنغو الحرة ) وبعض الأقاليم المجاورة لها ، وشرعت فرنسا فى الاستيلاء على بحر الغزال والنيل الأبيض

الباب العالى والسودان

مضت كل هذه الحوادث ولم يفعل الباب العالى فيها شيئاً يذكر ، وانما أرسل فى آخر الأمر سفيراً الى مصر ليساعد الخديوى فى توطيد الأمن فى السودان بالطرق السلمية . فابتدأت المفاوضات مع الدراويش ، ولكن لم يكن لذلك أية نتيجة . على أن مصر كانت طول هذه المدة آخذة فى النهوض من افلاسها شيئاً فشيئاً ، وقوى جيشها وصار يصد جموع الدراويش كلما حاولوا الاعتداء على الأراضى المصرية ، وفى

نهوض مصر

ربيع الثانى سنة ١٣٠٦ ھ ( ديسمبر سنة ١٨٨٨ م ) أجلتهم حامية سواكن عن الجهات المجاورة لها ، فلم يعيدوا الكرة عليها بعد

ولد النجومى

وفى سنة ١٨٨٩ م حدث حادث من اكبر حوادث هذه الحروب . إذ أن « ولد النجومى » أحد الأمراء المستمسكين بدعوة المهدى خرج فى ١٣،٠٠٠ مقاتل يريد غزو مصر فى رمضان سنة ١٣٠٦ ھ ( مايو سنة ١٨٨٩ م )، فالتقى بجيش يقوده « السير فرنسيس غرنفل » عند « طوشكى » ، فكانت هذه أول تجربة عظيمة

هزيمته عند طوشكى

لاختبار قوة الجيش المصرى الجديد ؛ فانتصر على جيش « ولد النجومى » انتصاراً مبيناً فلم ينج منه الا ٣،٠٠٠ رجل ، وصُرع ولد النجومى نفسه وهو يقاتل فى هذه الموقعة قتالاً شديداً . وبعد هذه الموقعة أخذت قوة التعايشى فى أسباب الضعف

تهدئة السودان الشرقى

وفى سنة ١٣٠٨ ھ ( ١٨٩١ م ) رأت الحكومة أن الدراويش لايزالون قُرب سواكن ، وأن تجارة الرقيق سائرة بلا انقطاع بين بلاد العرب وفُرض البحر الأحمر ، فأرسلت عليهم حملة بحرية من سواكن الى « ترنكتات » . فانهزم الدراويش بجهة « طوكر » وفر « عثمان دقنة » وقُتل معظم من معه من الأمراء . ومن ذلك الحين هدأت الأحوال فى السودان الشرقى

## استرجاع السودان

لم يأتِ عام ١٣١٣ ھ ( ١٨٩٥ م ) حتى تقدمت مالية مصر وتحسنت حال جيشها فصار يُظَنُّ من السهل تجريد حملة على السودان لاسترجاعه . وكانت الحكومة إذ

ذاك تنظر فى مشروع آخر عظيم وهو إقامة خزان على النيل ( خزان اسوان ) ، ورأت أن ادخار المال لهذا المشروع النافع أولى من صرفه على الحروب السودانية ، فكان يُظن أن فتح السودان سيُرجأ الى ما بعد ذلك ، لولا أن حدثت أمور خارجية اضطرت الحكومة الى العمل بغير رغبتها . وذلك أن الأحباش اتحدوا مع الدراويش وشنّوا الغارة على الطليان وهزموهم بجهة « عدوة » في رمضان سنة ١٣١٤ هـ ( مارس ١٨٩٦م ) وذاع الخبر أنهم عما قريب يهجمون على كسلة*. ولذلك طلبت ايطاليا من انجلترة لما بينهما من الصداقة أن تساعدها بارسال حملة الى السودان تهدد الدراويش فتقل وطأتهم على المستعمرة الايطالية الجديدة ( مصوع والإريتريا )

اتحاد الاحباش والدراويش على الطليان

وقد كان لدى انجلترة حينئذٍ من الأسباب والاعتبارات ما يحملها على تلبية هذا الطلب ، الذى أقل ما فيه سبق فرنسا الى أعالى النيل وصدها عن التوغل فى جنوبى السودان ، والأخذ بثأر غردون الذى لم يزل قلب كل انجليزى يدمي لمصرعه .

ايطاليا تستنجد بانجلترة

فقررت انجلترة اجابة دعوة ايطاليا ، وفى الحال أُعدّ لذلك جيش مكون من الجنود المصرية والانجليزية بقيادة « السير هربرت كتشنر » سردار الجيش المصرى فى ذلك الوقت ( وهو اللورد كتشنر المتوفى غرقاً سنة ١٩١٦ م وقت ان كان يشغل منصب وزير الحربية البرطانية )

انجلترة تجيب الطلب

حملة كتشنر

خرج كتشنر من مصر ووجهته دنقلة ، فأمر بانشاء خط حديدى من وادى حلفا ، وكلما أنشئ منه جزء تقدم الجيش ، حتى وصل فى ذى الحجة سنة ١٣١٣ هـ ( يونيه ١٨٩٦ م ) الى جهة قريبة من «عُكاشة» . فبلغه هناك ان ٣٫٥٠٠ من الدراويش مجتمعون عند « فِركة » جنوبى عكاشه على بعد ١٦ ميلاً منها ، فسار اليهم ليلاً وفتك بهم فتكاً ذريعاً . ثم تفشى الهواء الأصفر فى الجيش ، ولكن تيسر التغلب على المرض وعلى غيره من المصاعب حتى سقطت «دنقلة» فى يد الجيش المصرى الانجليزى

انشاء خط حديدى

واقعة فركة

فتح دنقلة

* كان الطليان قد استولوا على كسلة من المهدى فى سنة ١٨٩٤ م ، ولكنهم تخلوا عنها عام ١٨٩٧ لكثرة النفقات التى يتطلبها حكمها ، فعادت الجيوش المصرية الى احتلالها ( ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٩٧ )



اللورد كتشنر

فى ١٥ ربيع الثانى سنة ١٣١٤ هـ ( ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٩٦ م ) وجلت جيوش التعايشى عن هذه المديرية بأكملها . ثم استمر الجيش فى الزحف نحو الخرطوم، متغلباً على ما لاقاه من المصاعب فى طريقه ، حتى استولى على « أبى حمد » فى ٧ أغسطس سنة ١٨٩٧ م وعلى « بربر » فى ٣١ منه . ووقف تقدم الجيش بعد ذلك عدة أشهر ريثما يتم انشاء الخط الحديدى المخترق صحراء العطمور

مدد لكتشنر

وفى ٧ شعبان سنة ١٣١٥ هـ ( أول يناير سنة ١٨٩٨ م ) سمع السير هربرت كتشنر ان الدراويش سيهجمون على جيشه فى جموع كبيرة ، فبعث اشارة برقية الى القاهرة يطلب المدد ، فأرسل اليه قسم من الجيوش البريطانية . ثم وقفت الجيوش

المصرية الانجليزية وقفة المدافع الى أن ترى فرصة ملائمة للزحف على الخرطوم

واقعة النخيلة

وكان « الأمير محمود » ( ابن عم التعايشى ) قد عسكر بنحو ١٢٫٠٠٠ مقاتل عند «النخيلة» على نهر عطبرة ، فخرج كتشنر لملاقاته فى ٢٦ ذى القعدة (٢٠ مارس) متوخياً التأنى فى مسيره ، وفى ١٦ ذى الحجة ( ٨ ابريل ) التحم الجيشان فلم تدم الموقعة اكثر من ٤٠ دقيقة ، وانتهت بأسر الأمير محمود وقتل نحو ٢٫٠٠٠ من رجاله

واقعة أم درمان

ولم ينته شهر أغسطس عام ١٨٩٨م حتى تمكن السردار من حشد نحو ٢٢٫٠٠٠ مقاتل على بعد ٤٠ ميلاً شمالى الخرطوم ، وعزم على لقاء الأعداء . وفى ١٥ ربيع الثانى سنة ١٣١٦هـ ( ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨م ) التقى بالدراويش فى موقعة « أم درمان » الفاصلة التى لم تقم لهم بعدها قائمة : كان عددهم يتراوح بين ٤٠ و ٥٠ ألف مقاتل ، فقُتل منهم اكثر من ١١٫٠٠٠ وجُرح نحو ١٦٫٠٠٠ ، ولم يخسر جيش السردار سوى ٥٠٠ ما بين قتيل وجريح . وفى اليوم الرابع من شهر سبتمبر استولى الجيش الانجليزى المصرى على الخرطوم ورُفع على مكان مركز حكومتها العلمان المصرى والانجليزى أحدهما بجانب الآخر



واقعة أم درمان

مقتل التعايشى

أما الخليفة التعايشى فانهُ فرّ من وجه الجيوش الفاتحة . وأراد فى العام المقبل أن يغير على أم درمان ، فسار اليه جيش السودان وقتله وبدد شمل جيشه ، فى رجب سنة ١٣١٧ هـ ( نوفمبر سنة ١٨٩٩ م ) . وبقتله انقضت دولة الدراويش*

اتفاقية السودان

وقد هدأت أحوال السودان منذ فتح أم درمان بفضل حسن ادارة الحكومتين الانجليزية والمصرية اللتين تحكمانه بالاشتراك . وفى ٦ رمضان سنة ١٣١٦ هـ (١٩ يناير سنة ١٨٩٩ ) عقد وفاق بين الحكومتين يُعرف « باتفاقية السودان » وُضحت فيهِ شروط حكم السودان وألغى به ما كان للباب العالى من السيادة على تلك البلاد

تقدم السودان

وما زال السودان فى تقدم تدريجى مستمر منذ دخوله تحت حكم انجلترة ومصر ، وهو وان كان للآن لم يكسب احدى الحكومتين شيئاً وصُرف من حزانة مصر الخاصة مبالغ سنوية لإصلاحه ، فانهُ بلا شك سيعوض ذلك ، لوفرة موارده الطبيعية خصوصاً عند ما يزداد عدد سكانه بعد أن نقص نقصاً فاحشاً أيام فتنة المهدى

## ٣ — تقدم مصر منذ عام ١٨٨٢

### خصوصاً الأشغال العامة التى تمت بها منذ ذلك العهد

يرجع التقدم العام الذى حدث بمصر منذ عام ١٢٩٩ هـ ( ١٨٨٢ م ) الى أمرين أساسيين : الأول الاصلاحات الادارية التى أجريت فى مصالح الحكومة على اختلافها والثانى الأشغال العامة التى أجريت لتحسين الرى وزيادة ثروة البلاد

المسائل المالية

وقد كانت الحالة المالية فى مقدمة ما نُظر فيه بعد اخماد الثورة العرابية ، وذلك من وجهتين : الأولى حالة السكان وما يمكن عمله لتحسينها ، والثانية حال ميزانية الحكومة وكيف يتسنى وضعها على أساس متين بحيث يكفى الدخلُ المنصرفَ مع عدم الإضرار بتقدم البلاد

---

* ولما فتح كتشنر باشا أم درمان رأى الا يبقى لذكرى المهدى تعلقا بقلوب قبائل السودان، فأمر بهدم قبته ونبش قبره ، فبعثرت عظامه فى النيل وبعث بجمجمته الى دار التحف البرطانية. وقد أعجبت انجلترة بفوزه فمنحته لقب « لورد الخرطوم » وصار من ذلك الحين يسمى « لورد كتشنر »

سوء حالة الفلاح

فبالنظر فى أحوال الأهلين اتضح أنهم فى بؤس شديد، وأن المفروض على أرضهم من الضرائب يزيد كثيراً على الحد المعتدل بالنسبة لقيمة ما تنبته الأرض من المحصول إذ أن أثمان المحصولات كانت قد نزلت كثيراً فى السنوات الأخيرة : فصار ثمن أردب القمح مثلاً ٧٥ قرشاً بعد أن كان ١٠٩ قروش فى ١٢٩٢ ﻫ ( ١٨٧٥ م ) ، وكذلك ثمن الطن من السكر نزل من ٢٣ جنيهاً الى ١٥ جنيهاً . ذلك الى ضعف الأرض بسبب اجهادها بزراعة القطن ، إذ دلت الاحصاءات أن محصول الفدان من القطن فى الأربع السنوات ١٢٩٦ - ١٢٩٩ ﻫ : ( ١٨٧٩ - ١٨٨٢ م ) نقص من ثلاثة قناطير ونصف الى قنطارين وعشر قنطار . فرأت الحكومة ان أول واجب عليها تحسينُ حال الفلاح ، حتى اذا ما انتعش وزادت ثروته أدى ذلك حتماً الى زيادة دخل الحكومة . فخففت ضريبة الأرض فى المديريات الفقيرة ، وأبطلت ضريبة الملح وغيرها ، وألغت السخرة التى هى فى الحقيقة نوع من الضريبة*

اصلاحها

الميزانية والدين

غير أن هذه الإصلاحات وحدها لم تكن تكفى لتحسين دخل الحكومة والقيام بعبء الدين والشروط الثقيلة التى تكفلت بها مصر بمقتضى قانون التصفية . فبذلت انجلترة وسعها لدى الدول فى تخفيف هذه الشروط مخافة الوقوع فى افلاس نهائى ، فزادت نسبة ما يخص الحكومة المصرية من الدخل بتخفيض نسبة ما يعطى لصندوق الدين ، وصار للحكومة الحق أيضاً فى الاستيلاء على نصف ما يزيد من الدخل بعد دفع الأرباح ، بدل ان كان جميعه يُعطى لصندوق الدين لتسديد الأقساط

الدين المضمون

ورأت الحكومة أيضاً أن كل ذلك ربما لا يكفى لإصلاح حال المالية المصرية وهى على وشك الإفلاس ، فتوسطت انجلترة لدى الدول فى عقد قرض جديد ، لتستعين به مصر على وضع ميزانيتها على أساس متين ، وللقيام بمشروعات عامة فى الرى تزداد بها ثروة البلاد حتى تتحسن ماليتها على مدى الأيام . وبعد الجهد الطويل امكن عقد قرض جديد بضمانة انجلترة قدره ٩٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه يسمى «الدين المضمون»

---

* وبقى مسموحا بها لحماية شواطئ النيل وقت الفيضان فقط

فى سنة ١٣٠٢ هـ ( ١٨٨٥ م ) . واشترط فى عقده أن تنتظم حالة المالية المصرية قريباً ، وإلاّ شُكّلت لجنة دولية أخرى للنظر فى شؤون مصر

وقد خصص هذا المبلغ للأوجه الآتية :

أوجه صرفه

( ١ ) تعويض ما خسره أصحاب الأملاك بالاسكندرية وقت نشوب الفتنة فى تلك المدينة أيام الثورة العرابية ، ( ٢ ) بسد العجز فى ميزانية الحكومة لعامى ١٨٨٢ و ١٨٨٣ م ، ( ٣ ) تحسين الرى ( وسيأتى الكلام على ذلك مفصلاً )

حرص الحكومة على الاقتصاد

وقد جعلت الحكومة نصب عينها أن لا يحدث أى فشل فى تنظيم المالية ، كى لا يفضى الأمر الى تدخل الدول الأوربية حسبما اشترطتهُ فى عقد الدين الأخير . فتوخت الاقتصاد التام فى جميع أوجه الصرف ، اللهمَّ إلاَّ فى تحسين الرى الذى كان من شأنه زيادة الثروة فيما بعد والمساعدة الكبيرة فى تثبيت الحالة المالية التى هى موضوع الخوف والقلق

وقبل الانتقال الى وصف الأشغال العمومية التى تمت بمصر فى ذلك العهد نقول كلمة عن المصاعب التى لاقتها انجلترة من الدول فى سبيل السير فى عملها فى مصر :

المسائل الدولية

كانت فرنسا أول من وضع العراقيل فى سبيل انجلترة فى مصر ، لحنقها من الغاء المراقبة الثنائية واستئثار انجلترة بأمر مصر . ثم عضدتها الروسيا فى ذلك ، وشاركهما الباب العالى طبعاً فى الاستياء ، احتجاجاً على استمرار الاحتلال البرطانى لمصر

ثم كرر الباب العالى احتجاجه ، وبعد المفاوضة مع انجلترة تمَّ الاتفاق فى المحرم سنة ١٣٠٣ هـ ( اكتوبر ١٨٨٥ م ) على ان ترسل كل من الدولتين العثمانية والانجليزية سفيراً الى مصر لفحص شؤونها والاتفاق على أجل ينتهى فيه الاحتلال البرطانى

درمندولف ومختار باشا فى مصر

فأرسلت انجلترة «السير دِرَمَنْدُولْف» وأرسل الباب العالى «مختار باشا الغازى» غير أنه لم يتم الاتفاق على تحديد أجل الجلاء لمعارضة فرنسا والروسيا فى شروط الاتفاق ؛ وكل ما نتج عن بحوث السفيرين أن جرت بعض مفاوضات مع الدراويش لم يكن لها أثر يذكر ، وقد أشرنا الى ذلك عند الكلام على السودان . وقد بقى

مختار باشا بمصر الى وقت قريب احتجاجاً حياً على الاحتلال البرطانى

مركز قناة السويس

على أنهُ قد حُلّت فى عام ١٨٨٥ م مسألة من المسائل الدولية الكبرى وهى بيان مركز قناة السويس من الوجهة الدولية . فحصل الاتفاق على أن تكون هذه الترعة مفتوحة لجميع السفن وقت السلم ، وفى أوقات الحرب يُسمح لسفن المتحاربين بالمرور من القناة بشرط ألاَّ تقع بينهما أعمال حربية الى مسافة ثلاثة أميال من طرفى القناة ، وأن لا يُسمح للسفن الحربية التابعة للدول المتحاربة بالبقاء فى الموانى المصرية اكثر من ٢٤ ساعة . وحُفظ للحكومة المصرية الحق فى عمل أى شىء تراه ضرورياً للمحافظة على القناة

الاتفاق الودى

و بقيت فرنسا تنظر شَزْراً الى بقاء انجلترة فى مصر ، وتضع العراقيل فى سبيلها مهما كان عملها فى صالح مصر ، حتى عام ١٣٢٢ هـ ( ١٩٠٤ م ) فعقدت الدولتان بينهما «الاتفاق الودى» المشهور ، و به قبلت فرنسا أن تطلق يد انجلترة فى مصر ، فى نظير أن تسمح انجلترة باطلاق يد فرنسا فى مراكش . و بذلك حُلت مشكلة من اكبر المشاكل الدولية الخاصة بمصر . و بمقتضى هذا الاتفاق أيضاً صار جميع دخل الحكومة يرد الى الخزانة المصرية ، بعد أن كان جزء منه يورد الى صندوق الدين توّاً ، وكان لدى صندوق الدين مبلغ ١٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه متوافر من السنين الماضية ، فسلّمه الى الحكومة لتستعين به على إنجاز بعض المشروعات العامة

## الاشغال العامة

قدكانت الأشغال العامة التى تمت بمصر منذ عام ١٨٨٢م لتحسين الرى وتوسيع نطاقه من أعظم الأمور التى سهلت تنظيم المالية المصرية ، وصارت بالبلاد فى طريق التقدم العظيم الذى نشاهده الآن :

١ . مصر السفلى

شرعت الحكومة منذ عام ١٣٠٠ هـ ( ١٨٨٣ م ) فى الاهتمام بشؤون الرى ، فبدأت فى ذلك العام باصلاح « القناطر الخيرية » . أنشئت هذه القناطر فى عهد

١ . القناطر الخيرية

محمد على باشا كما ذكرنا فى غير هذا المكان ، ولكنها أُهملت مدة طويلة وقرر الخبيرون

أن قد لحقها من الخلل ما يجعلها غير صالحة للاستعمال : إذ حدثت صدوع فى عقود المنافذ ، وجرى الماء تحت الأساس نفسه . وكان الغرض من انشاء هذه القناطر فى أول الأول أن تحجز المياه قبلها حتى يرتفع سطحها عن المستوى الأصلى (بعد القناطر) بقدر ٤½ من الأمتار ، وبذلك تستقى منها ثلاث ترع كبيرة سطحها أعلى من سطح

الرياحات

النيل وهى : الرياح البحيرى ، والرياح المنوفى ، والرياح التوفيقى . على أن الرياح الأول يجرى فى الصحراء بعد تفرعه من القناطر بمسافة صغيرة ، فلما أهمل تراكمت عليه رمال الصحراء وطمرته . أما الرياح الثانى فكان مستعملاً عام ١٣٠٠هـ (١٨٨٣م) ولكن الثالث كان لا يزال مشروعاً لم ينفذ بعد

فرأت مصلحة الرى أن من أول واجباتها إصلاح هذه القناطر العظيمة والترع التى تستقى منها ، فوجهت الى ذلك معظم عنايتها بين عامى ١٣٠١ و ١٣٠٦ هـ ( ١٨٨٤ و ١٨٨٩ م ) . وقد قامت بعبء هذا العمل الشاق عاماً بعد عام فى أيام انخفاض النيل ، بالرغم من عظم الصدوع التى بالبناء ، وما اعترض العملَ من المصاعب

وقاية الاساس

الى أن أصلح الأساس وضُمت الصدوع ( بالأسمنت ) ، وانتهى الأمر ببناء منطقة من الحجر حول الأساس لوقايتها . ومما زاد العمل صعوبة أن القناطر كانت تُستخدم فى أيام الفيضان فيما أعدت له ، وقد قال أحد المهندسين فى ذلك : «إن هذا العمل كان أشبه شئ باصلاح ساعة دون ايقاف أتراسها »

الرياحات

وتم فى أثناء ذلك كَرْىُ رياح البحيرة ، ومُنعت عنهُ الرمال بزرع ضفافه بالأعشاب . وزيد أيضاً فى عمق رياح المنوفية ، ووُضع باب (هاويس) عند تفرعه. أما الرياح التوفيقى وهو الذى يروى المديريات التى شرقى فرع دمياط فحُفر بين

ثمرة هذه الاعمال

عامى ١٨٨٧ و ١٨٨٩ م . ولم تكد تتم هذه الأعمال العظيمة حتى ظهرت فائدتها ، فقد زاد محصول القطن بالوجه البحرى فى ١٣٠٩- ١٣١٠هـ (١٨٩١ - ١٨٩٢م) على متوسط محصول الاحدى عشرة سنة السابقة بنحو ١,٦٠٠,٠٠٠ قنطار . هذا الى ما حدث من الزيادة فى المحصولات الأخرى . وقد بلغت قيمة ما زاده محصول

القطن وحده فى مجموع المدة التى أصلحت فيها القناطر (١٣٠١ - ١٣٠٦ هـ : ١٨٨٤ - ١٨٨٩ م) ما يربو على ٥،٠٠٠،٠٠٠ جنيه

أما نفقات هذا العمل فقد دُفع معظمها من قرض عام ١٨٨٥ م ، ولكنّ جزءًا منها سُدد مما حدث فى الميزانية من زيادة الدخل على المصروفات

ولا يخفى أن الغرض من القناطر ليس خزن المياه وقت الفيضان للانتفاع بها وقت انخفاض النيل، انما كان الغرض منها حجز المياه حتى يرتفع سطحها فتصب فى الرياحات الثلاثة العظيمة ، فتروى هذه الوجه البحرى بمياهها ولو كان النيل منخفضاً

سد أمام القناطر

وقد أجرى اصلاح آخر فى القناطر عام ١٣١٤ هـ ( ١٨٩٧ م ) ، وذلك بانشاء سد أصم أمام القناطر ( نحو المصب ) ، كى لا تندفق المياه دفعة واحدة بعد حجزها، فأصبحت تتسرَّب على دفعتين ، و بذلك نقص الفرق بين مستوى المياه بين القناطر و بعدها (فرق التوازن)، وذلك يخفف من الضغط الشديد على القناطر أثناء الفيضان

٢ . قناطر زفتى

ومما زاد فى انتظام توزيع المياه فى الوجه البحرى انشاء « قناطر زفتى » ، فإنها أيضاً تحجز المياه قبلها حتى يعلو سطحها فتملأ الترع التى تتفرَّع من النيل عند هذه النقطة . وقد بلغت نفقات هذه القناطر ٣٢٠،٠٠٠ جنيه، وتم انشاؤها فى سنة ١٣٢٠هـ ( ١٩٠٢ م )

٣ . المصارف

وأجرى منذ ذلك العام تعديل كثير فى ترع الوجه البحرى . وابتدأت الحكومة فى انشاء مصارف عظيمة فى مديريتى البحيرة والغربية . و بذلك سيتسع نطاق أراضى مصر الزراعية، وعلى مدى الأيام سيتم تجفيف بحيرة مريوط وتصبح أرضاً صالحة للزراعة

على أن ما تم من الأعمال فى الوجه البحري لم يصرف الحكومة عن الاهتمام بالوجه القبلى . الأ أن قلة المال والرجال حتمت عليها فى أوائل هذا العهد الاقتصار فى مصر العليا على المشروعات الصغيرة . وكان معظم الوجه القبلى فى ذلك الحين يُروَى بالحياض ، أى انه وقت الفيضان تغمر مياه النيل المساحات الفسيحة من الأرض ، فلا يتسنى مباشرة شىء من الأعمال الزراعية فيها الى انخفاض النيل . ففى عام ١٣٠٨هـ (١٨٩١ م) أنشأت الحكومة بجهة « قشيشة » ببنى سويف سداً لتصريف المياه ،

ب . مصر العليا

فكان ذلك اكبر عون على تنظيم المياه التى تركد على تلك الأراضى الواسعة

١. تحويل رى الحياض الى رى دورى

ولا يخفى ان هذه الطريقة وهى الرى بالحياض معيبة بالاضافة الى مزايا الرى الدورى ، إذ به تجرى المياه الى الأراضى فى الترع فيتسنى توزيعها من حيث الزمن والمقدار معاً . لذلك أقدمت الحكومة على مشروع عظيم وهو تحويل الرى بالحياض الى رى دورى فى مديريات أسيوط والمنية وبنى سويف والجيزة ، فحفرت لذلك الترع ، واهتمت اهتماماً خاصاً بترعة الابراهيمية العظيمة فوسّعتها وأصلحتها

٢. قناطر أسيوط

وفى سنة ١٣١٥ هـ ( ١٨٩٨ م ) شرعت فى انشاء « قناطر أسيوط » لحجز المياه حتى ترتفع وتملأ ترعة الابراهيمية فتروى المديريات التى تمر فيها . وقد تم انشاء هذه القناطر عام ١٣٢٠ هـ (١٩٠٢ م) قبيل الفيضان ، وكان النيل منحطاً جداً فى هذه السنة ، فبادرت وزارة الأشغال باغلاق أبواب القناطر، فارتفع سطح المياه فى ترعة الابراهيمية متراً ونصف متر . وقد قدّر ما اكتسبهُ المزارعون من هذا العمل تلك السنة بما يربو على ٦٠٠,٠٠٠ جنيه

٣. قناطر اسنا

ولما رأت الحكومة ثمرة عملها فى المديريات التى تقدم ذكرها عوّلت على اجراء مثله فى المديريات التى فى أقاصى الصعيد ، فأنشأت «قناطر إسنا» التى تم انشاؤها عام ١٣٢٧ هـ ( ١٩٠٩ م ) فأفادت مديريتى قنا وجرجا فائدة قناطر أسيوط فى المديريات الشمالية

ويلاحظ أن جميع هذه القناطر لاتخزن المياه لادخارها الى وقت الحاجة ، وانما هى ترفع سطح الماء فى النيل حتى يتسنى ملء الترع فتوزع المياه بها فى أنحاء البلاد

٤. خزان اسوان

وكانت الحكومة قد فكرت منذ عام ١٣٠٧ هـ (١٨٩٠م) فى مشروع لخزن مياه النيل وقت الفيضان للانتفاع بها وقت انخفاض النيل فى رى جميع أنحاء مصر ، فلا يُحرم جزء منها من الزراعة . فتأخر انفاذ المشروع الى سنة ١٣١٥ هـ (١٨٩٨ م)، إذ ابتدئ فى انشاء خزان عظيم عند «اسوان» فى نفس الوقت الذى ابتدأ فيهِ انشاء قناطر أسيوط . وهذا البناء من أعظم ما شيّده الانسان، انتهى تشييده سنة ١٣٢٠هـ (١٩٠٢م) فكان طوله يبلغ ٢١٥٦ متراً، وارتفاعه عن قاع النهر ٢٨ متراً، والفرق بين مسطح



خزان أسوان

الماء قبله وبعده ( فرق التوازن ) ٢٠ متراً ، وبه ١٨٠ باباً ، ويخزن المياه الى ارتفاع يزيد على سطح البحر بنحو ١٠٦ أمتار. وقد بلغت نفقات انشائه هو وقناطر أسيوط ٤،٧٠٠،٠٠٠ جنيه ، ولكنه أفاد من أول سنة من انشائه فائدة تكاد توازى كل هذه النفقات ، إذ لولاه فى تلك السنة هو وقناطر أسيوط لكانت الطامة كبرى على البلاد ، فقد كان النيل فيها منخفضاً جداً ، ولم يكد يشعر بنقصه أحد . وجاء منخفضاً مرة أخرى عام ١٣٢٣ هـ ( ١٩٠٥ م ) ، فكان الخزان أيضاً اكبر عون للبلاد

ويتضح من الجدول الآتى الفائدة التى عادت على مصر من هذه المشروعات العامة فى سنى انخفاض النيل

| سنة م | عدد الافدنة التى لم تزرع ( شراق ) | سنة م | عدد الافدنة التى لم تزرع ( شراق ) |
|---|---|---|---|
| ١٨٧٧ | ١،٠٠٠،٠٠٠ | ١٩٠٢ | ١٢٨،٦٦٣ |
| ١٨٨٨ | ٢٦٩،١١٠ | ١٩٠٤ | ٤٦،٨٧١ |
| ١٨٨٩ | ١٨٨،١٣٧ | ١٩٠٥ | ٤٥،٠٠٠ |

تعلية الخزان

وعند ما انشئ الخزان كان الغرض منه ايجاد المياه اللازمة لجميع أراضى مصر المزروعة فى أى وقت من السنة . ثم فكرت الحكومة فى زيادة سعته بتعليته بحيث يمكن به رى ١،٠٠٠،٠٠٠ فدان فى شمالى ( الدال ) لم تكن تصل اليها المياه من قبل . فتم هذا العمل عام ١٣٣٠ هـ ( ١٩١٢ م ) وزاد مقدار ما يخزن قبل الخزان من المياه من ٩٤٠،٠٠٠،٠٠٠ متر مكعب الى ٢،٤٢٠،٠٠٠،٠٠٠ متر مكعب ، وهى زيادة هائلة جداً ، وسببها ان الزيادة فى ارتفاع الخزان زادت فى امتداد المياه المحجورة قبله جنوباً الى بُعد ٣٢٥ كيلومتراً

وقد تم بفضل انشاء الخزان تحويل رى الحياض بمصر الوسطى الى رى دورى وعند ما تجفف بحيرة مريوط وغيرها سيرويها الخزان بمياهه طول أوقات السنة

مشروعات جديدة

على أن الحكومة لا تزال لديها مشروعات أخرى لتحسين الرى ، فنى نيتها أن تصلح رى المديريات الجنوبية، بانشاء القناطر عند تفرع ترعة السوهاجية لتسهيل امتلاء تلك الترعة وشرعت كذلك في انشاء خزان آخر عظيم على النيل الأبيض ، ليحفظ

البلاد اذا اشتد الفيضان ويكون بمثابة حوض عظيم لخزن مقادير وافرة من المياه .

ثمرة خزان اسوان وقناطر اسيوط والرى الدورى

وقد ذكرنا أن نفقة انشاء خزان أسوان وقناطر أسيوط بلغت ٤٫٧٠٠٫٠٠٠ جنيه ، ولكننا لا نكون مغالين اذا قلنا ان مجموع ما اكتسبته مصر الى الآن من وراء انشائهما لا يقل عن خمسة أمثال هذا المبلغ . وكذلك بلغت نفقات تحويل رى الحياض الى رى دورى بمصر الوسطى نحو ٦٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه ، ولكنه عاد على البلاد بفائدة تقدر بنحو ٢٫٦٧٥٫٠٠٠ جنيه

ازدياد الميزانية

وبالجدول الآتى بيان دخل الحكومة ومصروفها فى عدة سنوات ، ولكن يجب عند الرجوع اليهِ أن نلاحظ أن ضريبة الأرض فى تلك المدة نقصت عما كانت عليه

| السنة | الوارد | المصروف | السنة | الوارد | المصروف |
|---|---|---|---|---|---|
| ١٨٨٦ | ٩٫٢٤١٫٥٨٦ | ٩٫٢٣٢٫٧٤٦ | ١٩٠٥ | ١٤٫٨١٣٫٠٠٠ | ١٢٫١٢٥٫٠٠٠ |
| ١٨٩٠ | ١٠٫٢٣٧٫٠٠٠ | ٩٫٥٩٠٫٠٠٠ | ١٩٠٧ | ١٦٫٣٦٨٫٠٠٠ | ١٤٫٢٨٠٫٠٠٠ |
| ١٨٩٤ | ١٠٫١٦١٫٠٠٠ | ٩٫٤٧٠٫٠٠٠ | ١٩٠٨ | ١٥٫٥٢٢٫٠٠٠ | ١٤٫٤٠٨٫٠٠٠ |
| ١٨٩٥ | ١٠٫٤٣١٫٠٠٠ | ٩٫٤٢١٫٠٠٠ | ١٩٠٩ | ١٥٫٨٨٧٫٣١٣ | ١٤٫٩٠٠٫٠١٥ |
| ١٨٩٧ | ١١٫٠٩٣٫٠٠٠ | ٩٫٧٠٩٫٠٠٠ | ١٩١٠ | ١٥٫٩٦٥٫٦٩٣ | ١٤٫٤١٤٫٤٩٩ |
| ١٩٠١ | ١١٫٩٤٤٫٠٠٠ | ٩٫٩٢٤٫٠٠٠ | ١٩١٢ | ١٧٫٥١٥٫٧٤٣ | ١٥٫٤٧٠٫٥٨٤ |
| ١٩٠٣ | ١٢٫٤٦٤٫٠٠٠ | ١١٫٧٢٠٫٠٠٠ | ١٩١٣ | ١٧٫٣٦٨٫٦١٦ | ١٥٫٧٢٨٫٧٨٥ |

الاصلاحات الاخرى

وقد تم فى هذا العصر أيضاً اصلاحات أخرى كثيرة تناولت كل مصالح الحكومة . من أهم ذلك اصلاح المحاكم الأهلية ، فانها كانت قبل الثورة العرابية غير منتظمة ، لاتحكم بمقتضى قانون خاص ، وكانت الحكومة المصرية قد أحسَّت بهذا النقص ، وأعدت قانوناً أهلياً شبيهاً بالقانون الفرنسى ، لتجعله سارياً فى جميع المحاكم الأهلية .

اصلاح المحاكم

فلما احتل الانجليز مصر وابتدأت نهضة الاصلاح عقب قدوم اللورد دفرين عرضت الوزارة المصرية هذا القانون فتمت الموافقة عليه ، وعمل به

وكانت المحاكم الأهلية قبلُ لاتنظر فى قضايا الجرائم الكبيرة ، بل كانت تُنظر أمام لجان خاصة يرأسها المدير تسمى « لجان الأشقياء » لم تكن أحكامها دائماً مطابقة للعدالة ، فتقرر الغاؤها . على أن حالة المحاكم الأهلية كانت سيئة جداً ، ولم يكن من

السهل اصلاحها فى وقت قريب . فبقى الاصلاح سائراً فيهـا ببطء الى أن اقترح

المستشار القضائى

اللورد كرومر عام ١٣٠٨ هـ ( ١٨٩١ م ) تعيين مستشار قضائى بوزارة الحقانية ، ليشرف على هذه المحاكم ويُصلح ما اعتل فيها . فعارض فى ذلك رياض باشا رئيس الوزارة واعتزل منصبه ، فخلفه مصطفى فهمى باشا ووافق على تعيينه*

طور جديد للمحاكم

بذلك دخلت المحاكم فى طور اصلاح جدى ، فنُظِّمت أعمالها وسُهلت حركتها وفُصل منها القضاة الذين لم تتوافر فيهم شروط الكفاءة ، وأُضاحت مدرسة الحقوق لتخريج قضاة أكفاء . ثم زيد فى عدد المحاكم تسهيلاً للتقاضى بين أهل القطر . وفى الجملة يُعتبر جوهر نظام المحاكم الحالى مستحدثاً فى هذا العصر

كذلك عمَّ الاصلاح باقى مصالح الحكومة . فنظمت أعمال الماليـة ، وضُبط حسابها ، ومُسحت الأراضى وحُدِّدت الضرائب ، وعُيِّنت لجبايتها مواعيد تناسب حال الفلاح . وأُلغيت السخرة ، وبطل استعمال السوط ( الكرباج ) ، الاّ فى بعض أنواع العقاب . وزيد من الطرق الزراعية فى انحاء البلاد حتى صار مجموعها لا يقل عن ٢٥٠٠ كيلومتر . وسمح للشركات الأوربية بمباشرة أعمال مالية شتى ، فانتشرت بذلك سكك الحديد الضيقة فى الوجهين القبلى والبحرى ، وفيها تسهيل كبير لنقل حاصلات البلاد . وانشأت الشركات أيضاً خطوط (الترام) فى القاهرة والاسكندرية

الاصلاحات العامة

فسهل الانتقال فيهما ، كما أُنشئ فيهما كثيرٌ من المبانى العظيمة التى اكسبت هاتين المدينتين فخامة وجمالاً تضارعان فيهما كثيراً من المدن الأوربيه العظيمة . ومن أعظم ما أنشأته الحكومة من هذه المبانى قصر المحكمة المختلطة الكبرى بالاسكندرية ، ودار العاديات المصرية بالقاهرة ، ولا سيما البناء الأخير الذى أصبح بجماله وفخامته لائقاً لأن يضم بين جدرانه الكنوز النفيسة من المخلفات المصرية القديمة

وكثرت العناية بالأمور الصعبة ، وانتشرت المستشفيات فى انحاء البلاد . ذلك الى ما أُنشئ من المكاتب والمدارس فى جميع أطراف القطر ، واعادة عهد البعوث العلمية الى أوربا حيث يغترِف الشبان المصريون من أبحر المعارف والعلوم الأوربية

وجملة القول ان فى البلاد المصرية نهضة مباركة عظيمة ، يجب على كل مصري معاضدتها والسير بها الى ما فيه خير مصر وفلاحها

---

* هو السير جون سكوت

## ملخص لأهم الحوادث فى الباب الثالث

| | هـ | | م |
|---|---|---|---|
| ﴿ عباس باشا الأول وسعيد باشا ﴾ | ١٢٦٥ — ١٢٧٩ | | ١٨٤٩ — ١٨٦٣ |
| عباس باشا الاول | ١٢٦٥ — ١٢٧٠ | | ١٨٤٩ — ١٨٥٤ |
| انشاء الخط الحديدى بين القاهرة والاسكندرية | ١٢٦٨ — ١٢٧٢ | | ١٨٥٢ — ١٨٥٦ |
| مقتل عباس باشا الاول فى قصره ببنها | ذى الحجة ١٢٧٠ | يوليه | ١٨٥٤ |
| سعيد باشا | ١٢٧٠ — ١٢٧٩ | | ١٨٥٤ — ١٨٦٣ |
| اذنه لديلسبس بابتداء حفر قناة السويس | ١٢٧١ | | ١٨٥٤ |
| عقد الاتفاق النهائى لحفر القناة | ربيع الثانى ١٢٧٢ | يناير | ١٨٥٦ |
| سن قانون الاراضى | ١٢٧٤ | | ١٨٥٨ |
| موافقة الباب العالى على حفر القناة | ١٢٧٥ | | » |
| ابتداء العمل فى حفر القناة | رمضان » | يناير | ١٨٥٩ |
| امضاء عقد أول قرض مصرى فى لندن | ١٢٧٨ | | ١٨٦٢ |
| وفاة سعيد باشا | ١٢٧٩ | | ١٨٦٣ |
| اسماعيل باشا | ١٢٧٩ — ١٢٩٦ | | ١٨٦٣ — ١٨٧٩ |
| افتتاح دار الاثار المصرية رسمياً ببولاق | ١٢٨٠ | | ١٨٦٣ |
| غلاء القطن بسبب الحرب الاهلية فى أمريكا | ١٢٨١ | | ١٨٦٤ |
| شراء اسماعيل باشا مصلحة البريد للحكومة | ١٢٨٢ | | ١٨٦٥ |
| جعل الوراثة فى اكبر أنجال الخديوى | ٢ المحرم ١٢٨٣ | ٢٧ مايو | ١٨٦٦ |
| شراء اسماعيل باشا مصوع وسواكن من الباب العالى | » | | » |
| تشكيل مجلس شورى النواب | رجب » | | » |
| منح اسماعيل باشا لقب خديوى | ربيع الاول ١٢٨٤ | يوليه | » |
| سن قانون ١٠ رجب بشأن التعليم وترقيته | ١٢٨٤ | | ١٨٦٧ |
| اتمام حفر القناة وحفلة افتتاحها | شعبان ١٢٨٦ | نوفمبر | ١٨٦٩ |
| تولية منزنجر السوسرى على مصوع | ١٢٨٧ | | ١٨٧٠ |
| إعلان ضم المقاطعات الاستوائية الى مصر رسمياً | ١٢٨٨ | | ١٨٧١ |

| | هـ | | م | |
|---|---|---|---|---|
| انحطاط قيمة سهام قناة السويس لقلة الربح | | ١٢٨٨ | | ١٨٧١ — ١٨٧٢ |
| انعقاد مؤتمر دولى بلندن للنظر فى أمر القناة | | ١٢٩٠ | | ١٨٧٣ |
| تقليد من الباب العالى مؤيد للتقاليد السابقة ومنح اسماعيل باشا استقلالاً داخلياً | | » | | » |
| فتح دارفور | | » | | » |
| تشكيل المحاكم المختلطة | ذى الحجة | ١٢٩١ | يناير | ١٨٧٥ |
| الحملة على حوض نهر جوبا وجهات قسمايو | المحرم | ١٢٩٢ | فبراير | » |
| فتح هرر على يد محمد رؤوف باشا | شعبان | ١٢٩٢ | سبتمبر | » |
| فشل حملة منزنجر على بلاد الحبشة | | » | | » |
| نزول الدولة عن زيلع للخديوى مقابل جزية | | ١٢٩٢ | | ١٨٧٥ |
| بيع نصيب الحكومة من سهام القناة لانجلترة | | » | | » |
| وفد «كيف» لاصلاح المالية المصرية | رمضان | ١٢٩٢ | اكتوبر | » |
| هزيمة الجيوش المصرية عند قرع | المحرم | ١٢٩٣ | يناير | ١٨٧٦ |
| افتتاح المحاكم المختلطة | | » | | » |
| ابرام الصلح بين مصر والحبشة بعد موقعة قرع | ربيع الاول | » | ابريل | » |
| توقف اسماعيل عن دفع قيمة اسناد الخزانة | » » | » | » | » |
| انقاص الدين الموحد باتفاق انجلترة وفرنسا | ذى القعدة | » | نوفمبر | » |
| عودة غردون وتنصيبه حاكماً عاماً على السودان | | ١٢٩٤ | | ١٨٧٧ |
| تشكيل لجنة التحقيق | ربيع الثانى | ١٢٩٥ | ابريل | ١٨٧٨ |
| وزارة مؤاخذة برياسة نوبار باشا | شعبان | » | أغسطس | » |
| النزول عن معظم أملاك الاسرة الخديوية | شوال | » | اكتوبر | » |
| ثوران الجند وقبضهم على نوبار ورفرز ولسن | | » | | » |
| اقالة نوبار باشا وتنصيب الامير توفيق | | » | | » |
| عدم رضاء الخديوى بقرارات لجنة التحقيق والوزارة وحله الوزارة | | ١٢٩٦ | | ١٨٧٩ |
| نزول اسماعيل باشا عن اريكة مصر | رجب | » | يونيه | » |
| توفيق باشا (توليته) | شعبان | » | أغسطس | » |

| الحادثة | هـ | | م | |
|---|---|---|---|---|
| استقالة وزارة شريف باشا | ٢٩ شعبان | ١٢٩٦ | ١٨ أغسطس | ١٨٧٩ |
| تشكيل وزارة برياسة رياض باشا | شوال | » | سبتمبر | » |
| اصدار قانون التصفية | ٨ شعبان | ١٢٩٧ | ١٧ يوليه | ١٨٨٠ |
| تشكيل لجنة علمية للنظر فى أمر التعليم | ١٧ جمادى ٢ | » | ٢٧ مايو | » |
| تقديم العرابيين معروضاً الى رياض باشا | ١٣ صفر | ١٢٩٨ | ١٥ يناير | ١٨٨١ |
| مظاهرة عابدين | ١٥ شوال | » | ٩ سبتمبر | » |
| منشور عرابى لسفراء الدول يطمئنهم فيه | ١٥ شوال | » | ٩ سبتمبر | » |
| تشكيل وزارة برياسة شريف باشا | ٢٠ شوال | » | ١٤ سبتمبر | » |
| تنصيب محمد سلطان باشا رئيساً لمجلس الشورى | ٢٦ المحرم | ١٢٩٩ | ١٨ ديسمبر | » |
| تنصيب عرابى باشا وكيلاً للحربية | ربيع الاول | » | يناير | ١٨٨٢ |
| ارسال فرنسا وانجلترة مذكرة الى الخديوى تعدانه بالمساعدة ان اقتضى الحال | ١٩ صفر | » | ٨ يناير | » |
| استقالة وزارة شريف باشا وتشكيل وزارة البارودى | ربيع الاول | ١٢٩٩ | فبراير | » |
| طلب فرنسا وانجلترة استقالة الوزارة وابعاد عرابى | رجب | » | مايو | » |
| حادثة ١١ يونيه ( واقعة الاحد ) | ٢٤ رجب | » | ١١ يونيه | » |
| انعقاد مؤتمر فى الاستانة للنظر فى شؤون مصر | ٦ شعبان | » | ٢٣ يونيه | » |
| ضرب الاسطول الانجليزى قلاع الاسكندرية | ٢٢ شعبان | » | ١١ يوليه | » |
| موقعة التل الكبير | ٢٩ شوال | » | ١٣ سبتمبر | » |
| أول ظهور المهدى | | ١٢٩٨ | | ١٨٨١ |
| قدوم اللورد دفرين الى مصر | | ١٣٠٠ | | ١٨٨٢ |
| صدور أمر عال بالغاء المراقبة الثنائية | ربيع الاول | » | يناير | ١٨٨٣ |
| تنصيب السير افلن وود سردارا للجيش المصرى | | » | | » |
| تنصيب السير افلن بيرنج معتمدا لانجلترة فى مصر | ذى القعدة | » | سبتمبر | » |
| استيلاء المهدى على مدينة الابيض | | » | | » |
| خروج جيش هكس من الخرطوم لاسترداد الابيض | ذى القعدة | » | سبتمبر | » |
| خبر ابادة جيش هكس باشا | المحرم | ١٣٠١ | نوفمبر | » |

| | هـ | | م | |
|---|---|---|---|---|
| خروج غردون الى السودان لاخلائه | ربيع ١ | ١٣٠١ | يناير | ١٨٨٤ |
| هزيمة الجنرال بيكر عند الطيب | جمادى ١ | » | فبراير | » |
| جراهام يقهر عثمان دقنة عند طماى | » | » | مارس | » |
| وصول غردون الى الخرطوم | ربيع ٢ | » | فبراير | » |
| قطع المهدى خط الرجعة عليه | رجب | » | مايو | » |
| وصول حملة انقاذ غردون الى الشلال السادس | ٨ ربيع ٢ | ١٣٠٢ | ٢٥ يناير | ١٨٨٥ |
| استيلاء الدراويش على الخرطوم ومقتل غردون | ٩ » | » | ٢٦ يناير | » |
| وفاة المهدى وتولى التعايشى الخلافة | رمضان | » | يوليه | » |
| قهر التعايشى عند جنس بعد عزمه على فتح مصر | ربيع ١ | ١٣٠٣ | ديسمبر | » |
| قهر ولد النجومى الزاحف على مصر فى طوشكى | رمضان | ١٣٠٦ | مايو | ١٨٨٩ |
| اصلاح القناطر الخيرية | ١٣٠١ — ١٣٠٦ | | ١٨٨٤ — ١٨٨٩ | |
| تهدئة السودان الشرقى | | ١٣٠٨ | | ١٨٩١ |
| خروج كتشنر لاسترجاع السودان | | ١٣١٣ | | ١٨٩٦ |
| واقعة أم درمان | ربيع ٢ | ١٣١٦ | سبتمبر | ١٨٩٨ |
| اتفاقية السودان بين مصر وانجلترة | رمضان | ١٣١٦ | يناير | ١٨٩٩ |
| انشاء سد قشيشة | | ١٣٠٨ | | ١٨٩١ |
| انشاء قناطر زفتى ( انتهاؤها ) | | ١٣٢٠ | | ١٩٠٢ |
| انشاء قناطر أسيوط وخزان أسوان | ١٣١٥ — ١٣٢٠ | | ١٨٩٨ — ١٩٠٢ | |
| » » اسنا ( انتهاؤها ) | | ١٣٢٧ | | ١٩٠٩ |
| تعلية خزان أسوان ( انتهاؤها ) | | ١٣٣٠ | | ١٩١٢ |

# فهرست

## كتاب تاريخ مصر من الفتح العثمانى

### الباب الاول — عهد الدولة العثمانية



### الباب الثانى

### تاريخ مصر من الحملة الفرنسية الى انتهاء حكم محمد على

٥/٨٠٠/٢/٢٢





